

بَحْثًا عَنِ الشَّمْسِ

مِن قُوْنِيَّةٍ إِلَى دِمَشْقَ

(جَلالُ الدِّينِ الرُّومِيّ وَشَيْخُهُ شَمْسُ قَافِرِيْنَ)

بَحْثًا عَنِ الشَّمْسِ

مِنْ قُونِيَّةٍ إِلَى دِمَشْقَ

(جَلَالُ الدِّينِ الرَّومِيِّ وَشَيْخُهُ شَمْسُ تَبْرِيزِ)

أَلْفَهُ بِالْفَارْسِيَّةِ

عَطَاءُ اللَّهِ تَدْنِي

تَرَجَمَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَقَدَّمَ لَهُ

أ. د. عَيْسَى عَلِيّ الْعَاكُوبِ

عنوان الكتاب: بَحْثًا عَنِ الشَّمْسِ مِنْ قَوْنِيَّةٍ إِلَى دَمَشَقٍ
(جلال الدين الرومي وشيخه شمس تبريز)

اسم المؤلف: عطاء الله تدين

اسم المترجم: أ. د. عيسى علي العاكوب

الموضوع: تصوف

عدد الصفحات: 608 ص

القياس: 17 × 24 سم

الطبعة الأولى: 1000 / 2015 م - 1436 هـ

ISBN: 978-9933-509-98-9

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa

دَارُ نَيْنَوَى

لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: +963 11 2314511

هاتف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org - ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org



دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع



Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

فَهْرِسْتُ مُحتَوِيَّاتِ الكِتَابِ

٧	- تقديمُ المترجم
	- مقدِّمةٌ في شأن: الرُّومِيَّ وشَمْسِ الدِّينِ التَّبْرِيزِيَّ وقُونيةَ، بقلمَ أ.د. محمد رضا شفيعي
١٥	كذلكني.
٤٩	١- تقديم المؤلف
٩٩	٢- قلندرُ مُشاكِسُ
١٠٩	٣- طوفانٌ في قُونيةَ
١١٥	٤- مولانا المُخيي اللَّيلَ
١٢٥	٥- رسائلُ شُغريَّةُ
١٣٥	٦- سماعُ مولانا
١٤٣	٧- في مدرسةِ شَمْسِ الفِكْرِيةِ
١٥١	٨- ضَجيجٌ في الخانِقاهِ
١٥٩	٩- نَحْنُ عَدَمُ
١٦٧	١٠- عالمُ الغيبِ
١٧٥	١١- العِشقُ أساسُ الوجودِ
١٨٣	١٢- عِلْمُ الحالِ
١٩١	١٣- أسطرلابُ الأسرارِ
١٩٩	١٤- تجلياتُ العِشقِ

- ٢٠٧ ١٥- الموسيقا لغةُ الرّوح
- ٢١٧ ١٦- لَحَظَاتٌ مَعَ الهائمين
- ٢٢٧ ١٧- مَنِ العارِفُ؟
- ٢٣٥ ١٨- عَيْنُ الباطِنِ
- ٢٤٥ ١٩- عَالَمُ باطِنِ الإنسان
- ٢٥٥ ٢٠- مَنِ شَمْسُ؟
- ٢٦٣ ٢١- فِرَاسَةُ مَوْلَانَا
- ٢٧١ ٢٢- بَحْثٌ قَصِيرٌ فِي شَأْنِ الإنسانِ الكاملِ
- ٢٧٩ ٢٣- بَحْرُ العِشْقِ الَّذِي لَا تَبْدُو لَهُ ضِيفَاةٌ
- ٢٨٩ ٢٤- حِكَايَةُ عَنْ نَجْمِ الدِّينِ كُبْرَى
- ٢٩٧ ٢٥- المَنْزِلَةُ العِلْمِيَّةُ لِشَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ
- ٣٠٧ ٢٦- شَيْخُ مِيهَنَةَ والسَّمَاعِ
- ٣١٥ ٢٧- فِي دَارِ العِلْمِ فِي دِمَشَقِ
- ٣٢٣ ٢٨- شَمْسٌ يَجِيبُ والدَّهَ
- ٣٣١ ٢٩- مَا مَعْنَى الرِّندِيَّةِ والقَلَنْدَرِيَّةِ؟
- ٣٣٧ ٣٠- تَجَارِبُ شَمْسِ العِرْفَانِيَّةِ
- ٣٤٧ ٣١- لِمَاذَا جَاءَ شَمْسٌ إِلَى قُوْنِيَّةِ؟
- ٣٥٥ ٣٢- شَمْسٌ فِي حَوْمةِ قُوْنِيَّةِ
- ٣٦٣ ٣٣- ابْنُ عَرَبِيٍّ وَشَمْسٌ

٥	بِحُثَا عَنْ الشَّمْسِ
٣٧١	٣٤- أَنَا وَشَمْسٌ
٣٧٩	٣٥- شَمْسٌ ذُو قُدْرَةٍ رُوحِيَّةٍ خَارِقَةٍ
٣٨٧	٣٦- أَفْلَاطُونُ وَالْإِشْرَاقُ
٣٩٣	٣٧- لِمَاذَا جِئْتُ مِنَ خُرَاسَانَ إِلَى الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ؟
٣٩٩	٣٨- مَوْلَانَا الْمُنْجَذِبُ
٤٠٥	٣٩- زَلْزَالٌ فِي قُوْنِيَّةٍ
٤١٣	٤٠- رُجُوعُ شَمْسٍ
٤٢٣	٤١- سُلُوكُ طَرِيقِ الْعِرْفَانِ الْعِشْقِيِّ
٤٣١	٤٢- مُغْنِي الْكَمَالِ الْمَطْلُوقِ
٤٤١	٤٣- السَّمَاعُ رَاحَةٌ لِلرُّوحِ
٤٤٩	٤٤- أَنْغَامُ دَوْرَاتِ الْفَلَكَ
٤٥٥	٤٥- الْهَيْجَانُ الصُّوفِيُّ
٤٦٥	٤٦- الْعَارِفُ إِلَى الدَّوْرَانِ، وَالصُّوفِيّ
٤٧٣	٤٧- مَرَحَبًا، أَيُّ شَمْسٍ الْمُضِيءُ لِقَلْبِي
٤٨٥	٤٨- عَامٌ مَمْلُوءٌ بِالضَّجِيجِ وَالصَّخَبِ
٤٩١	٤٩- شَمْسٌ وَالشَّهَادَةُ
٤٩٩	٥٠- عِلَاءُ الدِّينِ عَدُوُّ شَمْسٍ
٥٠٧	٥١- آخِرُ لِقَاءٍ
٥١٥	٥٢- هِجْرَانٌ فِي الشَّبِيخُوخَةِ

٥٣. لَيْلَةُ الْمَصِيرِ الْحَالِكَةِ ٥٢٧
٥٤. بِاتِّجَاهِ الْمَصِيرِ ٥٣٩
٥٥. بَحْثُ قَصِيرٍ فِي شَأْنِ دِيَوَانِ شَمْسٍ وَالْمِثْنَوِيِّ ٥٤٩
٥٦. الْمِثْنَوِيُّ دَائِرَةُ مَعَارِفِ التَّصَوُّفِ وَالْعِرْفَانِ ٥٦١
٥٧. رُؤْيَا مَوْلَانَا لِلْعَالَمِ ٥٧١
٥٨. فِي ظِلِّ الْقُبَّةِ الْخَضِرَاءِ - أَيْنَ مَزَارُ شَمْسٍ؟ ٥٧٩
٥٩. أَيْوَجْدُ مَزَارِ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ فِي قُونِيَّةٍ؟ ٥٨٩
- مَصَادِرُ الْكِتَابِ وَمَرَاجِعُهُ ٦٠٣



تقديم المترجم

الحمد لله رب العالمين، الذي لا يُعبدُ سِواه ولا يُستعانُ إلا به، الذي يبعثُ في نفوسِ المخلوقين المؤيدين الفكرَ الجميلة، ويولّدُ في قلوبهم الأشواقَ إلى تظهيرها وتخليقها في وجودٍ تتناهبه أعينُ المتأملين، وتندھشُ له بصائرُ المعجبين بالخلق والتكوين، الذين يرونَ في إبداعِ الخلقِ آياتٍ دالاتٍ على عظمة الخالقِ المُبين. وأعظمُ قدرٍ من الصلاة والسلامِ على نبيه محمدٍ المبعوثِ رحمةً للعالمين. فالله سبحانه ربُّ العالمين، أي خالقهم ومُربّيهم ومدبّرُ أمرهم، ونبيُّه رَحمةٌ لهم في تعيّناتهم المختلفة في الزمانِ والمكان. وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الكرام وصحابه الأعلام. وعلى كلِّ من دعا إلى سبيل ربّه بالحكمة الحكيمة والموعظة الحسنة البليغة.

فقد هيّا لنا، سبحانه، أن ننقلَ هذا الكتابَ من لغته الأصلية إلى اللغة العربية المكرّمة بِكونها لغةُ هدى الله سبحانه للبشر، ولغةُ خاتمِ النبيّين الهادين، ولغةُ البشريّة الرحيمة العاقلة المحبّة التي ترى الناسَ جميعًا أبناءً لأدَمَ، عليه السلام، ولا فضلَ لأحدٍ منهم إلا بالتقوى؛ أي إدراكِ عظمة الخالقِ وتلمسِ أسبابِ رضاه ومحبّته.

أما بعدُ، فموضوعُ هذا الكتابِ هو تفاصيلُ العلاقة الروحية والفكرية الخاصة التي نشأت بين الشاعرِ الصوفي الكبير جلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ)، ومُرشده شمس الدين التبريزي (٥٨٢ - ٦٤٥ هـ تقريبًا). فقد كان جلال الدين الرومي فقيهاً حنفياً

ذا شأنٍ في مدينة قونية التركية، التي كانت في عصر الرجلين عاصمة سلاجقة الروم، وكان يدرس العلوم الإسلامية الأساسية في عصره، علوم القرآن والحديث والمباحث المتصلة بهما، وكان يتلمذ عليه عدد كبير من طلاب العلم. لكنه بعد لقائه شمسًا التبريزي عاش حالًا من تغير طريقة التفكير والنظر إلى الوجود، فنهج نهجًا مختلفًا تمامًا عن النهج الذي ترسمه قبل هذا اللقاء. وأظهر ما جدّ في تفكيره وسلوكه وحياته أنه تعلق بشمس التبريزي تعلقًا ملك عليه أقطار نفسه، وتحوّل إلى شاعر عارف فاق ما أنتجه من الشعر ما أنتجه أي شاعر آخر في العالم. ومثلما كان لقاء شمس إياه متلفعًا بغلالة من الإيهام، كان فراقه إياه أكثر غموضًا وإيهامًا.

وقد تحدّث كثيرون فيما مضى عن لقاء الرجلين، وما زالت أقلام الكاتبين في الشرق والغرب تتحدّث عن هذا الأمر، وعن الفضاء الفكري العميق والواسع الذي قدّمه الرجلان، وقد شمل ذلك العالم كلّ في العقود الأخيرة، على نحو يكون فيه جلال الدين الرومي محلّ اهتمام مشترك في الثقافة الإنسانية كلّها. ومثل هذا يجعلنا نصوّغ معيارًا جديدًا في تقويم الجمالية الفكرية الأدبية بالتحدّث عن المفكر الأديب الذي يقدم للبشرية حذاءً للروح إلى فردوسه المفقود، ودعوة للإنسان إلى معرفة المكان الذي جاء منه إلى هذه الدنيا، والهدف الذي جاء من أجله، والسلوك الذي يلزمه أن يأخذ نفسه به، والمصير الذي سينتهي إليه. وكلّ ذلك بيان تألفه النفوس كلّها وتستجيب لأدواته وتقنيات توصيله. حتّى إنّه غدا ممكنًا أن تتحدّث في جلال الدين الرومي عن أديب للروح الإنسانيّ الشامل، وفي أدبه عن أدب يجد فيه الأفراد المختلفون تلبيةً لحاجات نفوسهم، ونكهات مناسبة لأذواقهم وطباعهم. وهذا ما عبّر عنه المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد السلام كفاقي، حين قال قبل ما يقرب من

خمسین عامًا: «قَوْلُ أَدَبِ جَلالِ الدِّينِ عِنْدَ كُلِّ مَنْ عَرَفُوهُ بِمَا هُوَ جَدِيرٌ بِهِ مِنَ التَّقْدِيرِ وَالْإِعْجَابِ. فَأَمَّا أَهْلُ الْمَشْرِقِ فَقَدْ مَجَّدُوهُ عَلَى صُورَةٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا مِثَالٌ. وَقَدْ يُدْهَشُ بَعْضُنَا إِذَا عَلِمَ أَنَّ شَاعِرًا إِسْلَامِيًّا كَبِيرًا كَعَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَامِي قَدْ وَصَفَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَلَكِنَّهُ أَوْتِيَ الْكِتَابَ».. وَأَمَّا أَهْلُ الْغَرْبِ فَقَدْ أُعْجِبُوا بِهِ إِعْجَابًا شَدِيدًا، وَنَشَرُوا عَنْهُ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْعِلْمِيَّةِ بِاللُّغَاتِ الْأُورِيبَّةِ الْمُخْتَلَفَةِ، سِوَاءٍ مِنْهُ مَا هُوَ تَرْجُمَةٌ لِبَعْضِ أَعْمَالِهِ أَوْ دَرَسَةً لَهَا»^(١).

ويجدُ المرءُ في نفسه حاجةً إلى القولِ إِنَّهُ إِذَا كَانَ جَلالُ الدِّينِ الرُّومِيّ كَتَبَ آثارَهُ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْنَا بِالْفَارْسِيَّةِ، الَّتِي كَانَتْ لُغَةً بَيْتَهُ وَخِيَّةً وَإِقْلِيمَهُ، فَإِنَّهُ كَانَ يَنْظِمُ وَيُؤَلِّفُ بِرُوحِ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَامَّةِ الشَّامِلِ لِلْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا. وَإِذَا كَانَتْ أَقْوَامٌ مُخْتَلَفَةٌ تَتَنَازَعُ نَسَبَهُ فِي بِلَادٍ تَمْتَدُّ مِنْ أَفْغَانِسْتَانِ الْحَالِيَّةِ إِلَى غَرْبِيَّ آسِيَةِ الْوُسْطَى وَالْأَنَاضُولِ، فَإِنَّ انْتِمَاءَهُ الْحَقِيقِيَّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لِلْإِسْلَامِ وَعَظَمَتِهِ وَإِشْرَاقِهِ.

وَالْكِتَابُ الَّذِي نَضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ تَرْجُمَتُهُ الْعَرَبِيَّةُ هَذِهِ اتَّخَذَ فِي أَصْلِهِ الْفَارْسِيَّ هَذَا الْعِنَاقَ:

بُذْنِبَالِ آفْتَاب - اَز قُونِيه تا دَمَشَقْ

وَهُوَ مِنْ تَأْلِيفِ السَّيِّدِ الْأَسْتَاذِ عَطَاءِ اللَّهِ تَدَيِّنَ، الَّذِي أَعَدَّ مَجْمُوعَةً مِنَ الْكُتُبِ فِي شَأْنِ جَلالِ الدِّينِ الرُّومِيّ وَفِكْرِهِ وَأَدَبِهِ وَسُلُوكِهِ.

وَصَدَرَتْ الطَّبْعَةُ الْأُولَى مِنْهُ عَنْ دَارِ نَشْرِ «إِنْتِشَارَاتِ تَهْرَانِ» فِي طَهْرَانِ، سَنَةِ ١٣٧٦ هـ.ش/١٩٩٧ م.

وقد جعلنا العنوان العربي للترجمة: «بَحْثًا عَنِ الشَّمْسِ - مِنْ قُوْنِيَّةٍ إِلَى دِمَشْقَ». ويُشير هذا العنوان إلى حالة الاشتياق والاهتياج والولَه التي انتابت جلال الدين عند تركِ شمس قُوْنِيَّةَ وفراقه إِيَّاه، وذهابِ جلال الدين للبحث عنه في الطريق من قُوْنِيَّةٍ إِلَى دِمَشْقَ.

وابتغاء إيضاح موضوع الكتاب للقارئ الكريم ألحقنا بالمقابل العربي للعنوان الأصلي عبارة: (جَلالُ الدين الرومي وشيخُه شمسُ تبريز).

والحقيقة أنَّ المؤلفَ بذلَ جُهدًا كبيرًا في إعداد تصوّرٍ مقبولٍ لما يمكن أن يكون طبيعة الصّلة بين جلال الدين وشمس، والطبيعة الشخصية لكلٍّ من هاتين الشخصيتين، والتّناج الفكري والعقديّ لكلّ منهما، وأبعاد الصّراع الذي أحدثه تحوّل جلال الدين من فقيهٍ رصينٍ وقورٍ، أكثرُ اعتمادِه على الرّواية والمنقول، إلى عارفٍ غارقٍ في بحار المحبة الإلهية، هائمٍ بمعشوقه الجديد، شمس تبريز، متلاشيٍّ فيه، ملتئمٍ كلّ وسيلةٍ لمدّحه والثناء على آلائه، مُنهمِكٍ في رسمِ تصاويرِ نِعَمائه. وقد عُنِيَ الكتابُ عنايةً خاصّةً بتقديم تصوّرٍ لأمرينِ اثنين:

١ - ما كان يدورُ بينَ الرّجلينِ مِنْ أحاديثٍ أَفَضَّتْ في النّهاية إلى صيرورةِ جلال الدين عارفًا عاشقًا مِنَ القَبيل الذي تقدّمه لنا سيرةُ حياته التي وصلت إلينا، وتعبّر عنه مؤلّفاته الشّعريّة: المثنويّ وديوانُ شمس تبريز، والرّباعيات؛ والثّريّة: فيه ما فيه، والمجالسُ السّبعة، والرّسائل (*).

٢ - الرّفُضُ والإنكار الذي أحدثه تحوّل جلال الدين في نفوس مُريديه ومُحبّيه في قُوْنِيَّةَ، وتَبَلُّورَ في صُورةِ حَزْبٍ شَعَوَاءٍ شُنّت على شمسٍ، وتُهمُّ له تجاوزت الحدودَ

* - ترجمنا هذه القلائد الأخيرة إلى العربية، وصدرت طبعاتها الأولى عن دار الفكر في دمشق، كما ترجمنا مثنوي غزلية من ديوان شمس تبريز، والرّباعيات كاملةً [المترجم].

المعقولة، وفي صورة جدالٍ وتشنيعٍ وخصومةٍ لقي منها جلال الدين ما لقي. ومعظم مادة الكتاب في هذا الموضوع، وفي دفاع جلال الدين عن شمس وعن الفهم الجديد الذي تبناه، وسعى إلى بيانه وإشاعته بين الناس. وترك للقارئ الكريم أن يقف بنفسه على ذلك في تضاعيف الكتاب.

ويحسنُ هنا أن نُعلمَ القارئ أن فكرَ الكتاب مستنبطٌ من مواقف وأوضاع وأُمُور انطوت عليها المصادرُ التي تحدّثت عن جلال الدين، ومن معلوماتٍ مستنبطةٍ من أشعار جلال الدين في ديوان شمس تبريز، والمثنوي، والرباعيات؛ ومن آثاره الثرية التي وصلت إلينا. وقد نهج المؤلف نهجاً خاصاً في تقديم المعلومات والأخبار و«الماجريات»؛ وذلك بأن يتكلّم بالسنة الشخصيات بطريقة التكلّم والخطاب والأخذ والرّد؛ الأمر الذي أضفى طابعاً من الحيوة والواقعية على مادة الكتاب. ونرى ضرورة الإشارة إلى أمرين في شأن المؤلف:

١ - أنه كان قويّ الإصرار على إظهار ما اعتقد أنه طبيعةً فارسيّةً خاصّةً في شخصيّة جلال الدين وشمس، وروحٍ إيرانيٍّ خالصٍ في المحبة الإلهية والمعرفة المتصلة بحقيقة الوجود. ويبدو لنا، نحن، أن الشخصيات التي من هذا القبيل يكون تميّزها وتفوّقها في تفردّها وانعتاقها من إसार الوجود المتعارف. ونحسب أن العبقريات في الأمم كلّها، والأزمان كلّها، وثيقة الصلة بالأبعاد الإنسانية الشاملة، والفِضاءات التي تسمحُ بتبادل الأنسام والأنغام والأحلام.

٢ - أنه لم يَزِن كثيراً من الروايات والأخبار بميزان العقل والعُدل؛ الأمر الذي زاد في حجم مادة الكتاب، وفي الاحتفاء بأخبار تبدو متضادةً أحياناً.

ومَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ يَظَلُّ الْكِتَابُ فِي جُمْلَتِهِ يَلْبِي حَاجَاتِ قُرَّاءٍ كَثِيرِينَ، وَطَلَبَةِ عِلْمٍ

مُهْتَمِينَ بِهَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ.

وَابْتِغَاءَ رَفْدِ الْقَارِئِ بِقَدْرِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ لَا يَدَّ مِنْهُ فِي شَأْنِ جَلالِ الدِّينِ الرَّومِيِّ وَشَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ قَبْلَ مَبَاشَرَةِ فُصُولِ الْكِتَابِ، تَرْجَمْنَا لَهُ شَطْرًا مُهِمًّا مِنْ مَقْدَمَةِ أَعْدَافِهَا الْبَحَاثَةُ الْإِيرَانِيَّةُ الْأَسْتَاذُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ رِضَا شَفِيعِي كَذَكَنِي لِكِتَابِهِ الْمَعْنَى بِـ «مَوْلَانَا جَلالِ الدِّينِ مُحَمَّدٌ بَلْخِي: غَزَلِيَّاتِ شَمْسِ تَبْرِيزٍ». وَهَذَا الْكِتَابُ اخْتِيَارٌ جَيِّدٌ لِقَدْرِ مِنَ غَزَلِيَّاتِ دِيوَانِ شَمْسِ تَبْرِيزٍ، الَّذِي نَظَمَهُ جَلالُ الدِّينِ تَحْتَ وَقَعِ فِرَاقِ شَيْخِهِ التَّبْرِيزِيِّ، وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ فِي الْعِنَانِ الَّذِي اخْتَارَهُ لَهُ: «دِيوَانِ شَمْسِ تَبْرِيزٍ»؛ أَيِ دِيوَانِ غَزَلِيَّاتِ جَلالِ الدِّينِ الرَّومِيِّ الَّتِي نَظَمَهَا فِي مَحَبَّةِ شَيْخِهِ، شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ. وَيَقْدُمُ هَذَا الشَّطْرُ تَمْهِيدًا جَيِّدًا يُدْخِلُ الْقَارِئَ فِي عَالَمِ الْكِتَابِ، الَّذِي هُوَ جَوْهَرِيًّا اِنْدِهَاشُ جَلالِ الدِّينِ بِشَيْخِهِ شَمْسِ تَبْرِيزٍ، الَّذِي يَعْبُرُ عَنْهُ هَذَا الْبَيْتُ:

يَا شَمْسَ تَبْرِيزٍ، أَنْتَ الشَّمْسُ، فَكَيْفَ أَمْدُحُكَ؟!

إِنْ لِي أَلْفَ لِسَانٍ صَارِمٍ كَالسَّيْفِ، لَكُنْتُ فِي وَضْفِكَ أَلَكُنُ

وَلَمْ تَكُنْ تَرْجَمُنَا هَذَا الْأَثَرُ مُمَهَّدَةً السَّبِيلِ دَائِمًا، لَكِنْ ثَمَّةَ رَغَائِبُ تُسَهِّلُ عَلَى النَّفْسِ النَّصَبَ، وَتَهْوُنُ عَلَيْهَا الْمَشَقَّةَ وَالتَّعَبَ؛ فَإِنَّ نَشْوَةَ إِشْرَاكِ الْآخِرِينَ بِالْبَهْجَةِ كَانَتْهَا غَرِيزَةٌ رَاسِخَةٌ الْجَذُورُ فِي الطَّبَاعِ، وَحَقَّ أَهْلُ الْفِكْرِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَأَنَّهُ دِينٌ مُسْتَحَقُّ الْأَدَاءِ، كَمَا أَنَّ مِنْ مِيرَاثِ الْحِكْمَةِ النَّبَوِيَّةِ النَّفِيسِ: «الرَّائِدُ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ»، وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ رُؤَادٌ لِأَهْلِهِمْ.

وَلَا يَدَّ فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنْ تَقْدِيمِ الشُّكْرِ لِلْأَخِ الْكَرِيمِ الْأَسْتَاذِ مُحَمَّدِ رَشِيدِ الَّذِي

بِحَثَا عَنْ الشَّمْس ١٣

تَحْمَلُ عَنَاءَ طِبَاعَةِ هَذَا الْأَثَرِ، وَتَصَحِّحُ تَجَارِيهِهِ، وَإِعْدَادَهُ لِلنَّشْرِ، إِلَى أَنْ أَخَذَ هَذِهِ
الصُّورَةَ الَّتِي تَشَخَّصُ أَمَامَ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ.
وَاللَّهُ، سُبْحَانَهُ، هُوَ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْمُؤَمَّلُ فِي الْمَكَافَاةِ
وَالثَّوَابِ الْجَزِيلِ.

حَلَبُ الْمَحْفُوظَةِ بِالْعَنَاءِ،

يَوْمَ الْخَمِيسِ، الثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ ١٤٣٤هـ،

السَّابِعَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ حَزِيرَانَ ٢٠١٣م

و«إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ»

عِيسَى بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عِيسَى الْعَاكُوبِ

مقدمة في شأن:

الرومي وشمس التبريزي وقونية(*)

إعداد أ.د. محمد رضا شفيعي كذكني

إنَّ جلالَ الدِّينِ محمَّداً، الذي اشتهَرَ بِالقابِ خُداوندگار، ومَوْلانا، ومولوي، بين المتحدِّثين بالفارسيَّة، وباشمِ الرومي Rumi في بلاد الغرب، واحدٌ من أعظمِ مفكِّري العالم، واحدٌ من أعاجيبِ الجنس البشريِّ. هذه النارُ المضطَّرمَّةُ في هَشيِّمِ الفِكرِ^(١)، بلغتْ في مجالِّي التفكير والإحساس - اللَّذينِ لا انسجامَ بينهما تقريباً - مرحلةً من تعالي الشخصية وانبساطها إلى حيثُ يمكنُ بصعوبةٍ وَضْعُ العظماءِ الآخرين في تاريخ الأدب والثقافة البشريَّة إلى جانبهِ، وموازنَتُهُم معه. وههنا أيضاً نقطةٌ غامضةٌ وذاتُ تناقضٍ ظاهريِّ Paradoxical في حياته ووجوده، وهي من التناقضِ في الأوج. فهو من ناحيةٍ مفكِّرٌ كبيرٌ، ومن ناحيةٍ أخرى مجنونٌ عظيمٌ من مجانين العشق ومُخبِّلٌ. من ناحيةٍ يَصوِّرُ أعقدَ قوانين الوجود بأبسطِ بيانٍ، ومن ناحيةٍ أخرى لا يَعُدُّ أيَّ قانونٍ ونظامٍ في الدُّنيا ثابتاً لا يتغيَّر، ولا يقولُ بأبديةِ أُنَّةِ سُنَّةٍ (في رؤيته الجدالية). وما نكتبُه ونقولُه في مدحِ البحرِ، لِشخصٍ لا يكونُ رأى البحرِ، لا نعبرُ فيه إلَّا عن محدوديةِ ذلك الذي لا حدودَ له، وعن الاعترافِ بقصور عباراتنا. ويظلُّ أفضلُ لنا بدلاً من الحديث عنه، أن نستعينَ به ونُمسِكَ بيدَ القارئ أو

* - إدراكاً منا لضرورة وضعِ القارئ الكريم أمامَ العناصرِ الأساسيةِ لمادَّةِ الكتاب، رأينا أن نترجمَ له هذا الاختيارَ من المقدمة الرّصينة التي أعدها المفكِّرُ الإيرانيُّ الشهير في عصرنا الأستاذ الدكتور محمد رضا شفيعي كذكني لكتابه «غزليات شمس تبريز - مقدمه واختيار وتفسير»، نُشر دار نشر سخن في طهران، الطبعة الرابعة ١٣٨٧هـ / ٢٠٠٨م [المترجم].

١ - من تعبيرات مولانا نفسه

السَّامِعِ، وَنَصِلَ بِهِ إِلَى سَاحِلِ ذَلِكَ الْبَحْرِ الْمَائِجِ الَّذِي لَا ضَفَافَ لَهُ، لَكِي يَنْظُرَ مِنْ طَرِيقِ اللَّقَاءِ وَالشَّهُودِ، وَيُشَاهِدَ الْبَحْرَ بِكُلِّ أَمَاجِهِ وَتَمَاسِيحِهِ وَزَيَّادِهِ وَصَخْبِهِ. مَعَ أَنَّ بَحْرَ وَجُودِهِ لَيْسَ مِنْ نَوْعِ الْأَبْحَرِ الَّتِي يُمْكِنُ مِنْ سَاحِلِهَا قِيَاسُ عُمُقِهَا وَسَعَتِهَا. وَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَغْدُو الْعَيْنُ أَذْنًا وَالْأَذُنُّ عَيْنًا لَكِي تَحْصُلَ مَشَاهِدَةُ وَجُودِهِ الَّذِي لَا حُدُودَ لَهُ، فِي حَالَاتِهِ وَلَحْظَاتِهِ:

أَنَا مِرَاةٌ أَنَا مِرَاةٌ، لَسْتُ رَجُلٌ مَقَالَاتٍ

تُرى حالي حين تغدو آذانكم أغنيًا^(١)

وما يقال في شأن عَظَمَةِ رُوحِهِ وَتَعَالِي مَقَامِهِ الْإِنْسَانِي فِي هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ، لَنْ يَكُونَ عِنْدَ شَخْصٍ لَهُ تَعَامُلٌ مَعَ مَتْنِ الْكِتَابِ إِلَّا مَجْمُوعَةً مِنَ الْعِبَارَاتِ الْأَدَبِيَّةِ أَوِ الشَّعْرِيَّةِ. وَقَبْلَ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ نُشِرَتْ كِتَابَاتٌ مُتَفَرِّقَةٌ فِي هَذَا الشَّأْنِ، يَسْتَطِيعُ الْبَاحِثُونَ أَنْ يَعُودُوا إِلَيْهَا بِسُهُولَةٍ، وَلَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَوْجِزُ لِنَقْلِ كُلِّ هَذِهِ الْكِتَابَاتِ وَالْخُطَبِ^(٢)، وَلَيْسَ لَدَى الْمُؤَلِّفِ مِثْلُ وَرَغْبَةٍ فِي هَذَا الصَّنْفِ مِنَ التَّأْلِيفِ. وَلِهَذَا السَّبَبُ، بَدَلًا مِنْ كِتَابَةِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْإِنْشَاءَاتِ وَالْقِطَعِ الْأَدَبِيَّةِ، يَسْعَى الْمُؤَلِّفُ إِلَى أَنْ يَضَعَ الْقَارِئَ فِي جَوْ مِنْ الْمَعْرِفَةِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْإِطْلَاعِ اللَّازِمِ فِي شَأْنِ حَيَاةِ مَوْلَانَا وَخِصَائِصِ أَسْلُوبِهِ فِي نَظْمِ الْغَزَلِيَّاتِ^(٣).

١- ديوان شمس تبريز الغزلية ٢٣ من اختيار كذكي

٢- في شأن مِثَالٍ لِهَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْكِتَابَاتِ وَالْخُطَبِ، يُرْجَعُ إِلَى: أَغْلَبِ الْخُطَبِ وَالْمَقَالَاتِ فِي كِتَابِ «يَادَنْلَمَةُ مَوْلَى» [بِالْفَارْسِيَّةِ بِمَعْنَى: كِتَابُ ذِكْرِى مَوْلَانَا] نُشِرَ الْمَكْتَبُ الْإِقْلِيمِي لِلْيُونِسْكُو فِي إِيرَانَ، طَهْرَانَ ١٣٣٧ هـ [الأصل].

٣- مَا سَيَأْتِي فِي شَأْنِ حَيَاةِ مَوْلَانَا - إِلَّا فِي النِّقَاطِ الَّتِي يَصْرَحُ فِيهَا الْمُؤَلِّفُ بِغَيْرِ ذَلِكَ - مَبْنِيٌّ كُلُّهُ عَلَى تَحْقِيقَاتِ الْمَرْحُومِ الْأُسْتَاذِ الْعَلَامَةِ بَدِيعِ الزَّمَانِ قُرُونِ أَنْفَر (ت ١٣٤٩ هـ / ١٩٧٠ م). وَلَا بَدَّ مِنَ الْاعْتِرَافِ بِأَنَّهَا فِي مَجَالِ سِيرَةِ مَوْلَانَا لَا نَمْتَلِكُ أَثَرًا عَظِيمًا غَيْرَ تَحْقِيقَاتِهِ [الأصل].

اسْمُ مَوْلَانَا وَنَسَبُهُ وَأُسْرَتُهُ:

ذَكَرَ أَكْثَرُ الَّذِينَ كَتَبُوا فِي سِيرَةِ حَيَاتِهِ أَنَّ اسْمَهُ مُحَمَّدٌ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ شَكٍّ فِي هَذَا الشَّانِ. وَكَوْنُ لَقَبِهِ «جَلَالُ الدِّينِ» أَيْضًا أَمْرٌ مُسَلَّمٌ. وَالْقَابُ «خُداوَنَدْگار» و«مَوْلانا»^(١) مِنَ التَّعَابِيرِ الَّتِي دَرَجَ إِطْلَاقُهَا عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ. أَمَّا لَقَبُ «مَوْلَوِي» فَهُوَ مِنَ الْأَلْقَابِ الَّتِي أُطْلِقَتْ عَلَيْهِ فِي الْقُرُونِ اللَّاحِقَةِ، وَرَبَّمَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ أَوْ التَّاسِعِ الْهِجْرِيِّينَ. وَوُلِدَ مَوْلَانَا فِي مَدِينَةِ بَلُخَ، فِي السَّادِسِ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ عَامَ ٦٠٤ هـ، وَكَانَ أَجْدَادُهُ جَمِيعًا مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ. وَهُوَ نَفْسُهُ أَيْضًا لَمْ يَنْسَ كَوْنَهُ خُرَاسَانِيًّا. وَمَعَ أَنَّهُ أَمَضَى حَيَاتَهُ فِي قُوْنِيَّةَ، ظَلَّ دَائِمًا يَتَذَكَّرُ خُرَاسَانَ، وَكَانَ يَخَاطِبُ الْخُرَاسَانِيِّينَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ بِ: مُوَاطِنِيٍّ أَوْ بَلَدِيٍّ. وَقَدْ أَوْصَلَ بَعْضُهُمْ نَسَبَهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، صَاحِبِ النَّبِيِّ الْمَعْرُوفِ وَأَوَّلِ خَلِيفَةِ لِحَضْرَةِ النَّبِيِّ، لَكِنَّ ذَلِكَ يَفْتَقِرُ إِلَى الْأَسَاسِ الصَّحِيحِ^(٢).

وَالِدُهُ بَهَاءُ الدِّينِ وَلَدَ (٥٤٣ - ٦٢٨ هـ)، اسْمُهُ مُحَمَّدٌ أَيْضًا، كَمَا لَقَّبَ بِـ «سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ». وَقَدْ عَاشَ فِي بَلُخَ مُرْتَاحًا، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِ ثُرُوَّةٍ^(٣). وَاشْتَهَرَ بَيْنَ أَهْلِ بَلُخَ بِلَقَبِ «وَلَدِ». كَانَ بَهَاءُ وَلَدَ رَجُلًا عَذْبَ الْحَدِيثِ، وَفِي مَدِينَةِ بَلُخَ كَانَ دَائِمًا يَتَحَدَّثُ فِي الْمَجَالِسِ، وَكَانَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مَحَبَّةٌ كَبِيرَةٌ لَهُ، حَتَّى إِنَّ هَذَا التَّعَلُّقَ وَهَذِهِ الْمَحَبَّةَ بَنَاءً عَلَى بَعْضِ الرِّوَايَاتِ الضَّعِيفَةِ كَانَا سَبَبًا لِهَجْرَتِهِ مِنْ بَلُخَ إِلَى قُوْنِيَّةَ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ مُحَمَّدًا

١ - فُرُوزَانْفَر - رسالته در أحوال مولانا، ٣، [الأصل]. وقد ترجمت هذا الكتاب التفتيس إلى العربية، وصدرَ عِدَارُ الْفِكْرِ فِي دِمَشْقَ عَامَ ١٣٠٦ هـ، بِعَنْوَانِ: «مَنْ بَلُخَ إِلَى قُوْنِيَّةَ - سِيرَةُ حَيَاةِ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ الرَّوِّي» [المترجم].

٢ - السَّابِقُ نَفْسُهُ، وَيُقَارَنُ بِ: مَحْتَجِي مِينَوِي (بِاسْمِ مُسْتَعَارٍ هُوَ عَلِي نَقِي شَرِيعَتِدَارِي) فِي مَجْلَمَةِ يَغَمَا السَّنَةِ ١٣٣٨ هـ. (السَّنَةُ ١٢)، الْأَعْدَادُ ٤ - ٧، حَيْثُ حَقَّقَ هَذَا النَّسَبَ؛ وَكَذَلِكَ: گَلِينَارِي، مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ، ٨١ - ٨٤.

٣ - مَعَارِفُ بَهَاءُ وَلَدَ، مَقْدَمَةُ الْجُزْءِ الثَّانِي، الصَّفْحَةُ ح.

١٨ مقدمة في شأن: الرومي وشمس الدين التبريزي وقونية
 خوارزمشاه (٥٩٦ - ٦١٧ هـ) كانت لديه خشية من هذه المحبة التي كانت له بين الناس.
 ومن وجهة أخرى، كان حكيم بارغ، مثل فخر الدين الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ)، في بلخ
 يخالف جمهور الصوفية وأصحاب المعارف غير الاستدلالية، الذين كان بهاء ولد
 رئيسهم، مخالفة صريحة، وكان بما لديه من نفوذ عند الخوارزمشاه يسعى لإثارته عليه.
 بهاء ولد أيضًا كان يخالف أهل الحكمة وأصحاب الاستدلال، وكان يعدّ
 الخوارزمشاه وفخر الدين الرازي مُبتدعين^(١) وخارجين عن سلطان الشريعة^(٢).

والحقيقة أنه لا بد من البحث عن السبب الأصلي لهجرته في الأوضاع السياسية
 لشرقي إيران في ذلك العصر، وفي الخوف من حملة التتار، التي دفعت كثيرين من أهل
 الفضل والناس الآخرين إلى الهجرة إلى أصقاع بعيدة عن متناول التتار، خاصة إلى
 الشام وآسية الصغرى.

محمد بن الحسين الخطيب، الملقب بسُلطان العلماء، والد مولانا، كان هو نفسه
 عالمًا كبيرًا وخطيبًا مضطربًا وعارفًا حديث التفكير. وإنه فقط من خلال الأثر الباقي له
 بين أيدينا الآن، وهو الكتاب المسمى «معارف بهاء ولد»^(٣)، يمكن وصفه على هذا
 النحو: في مجال العقائد الكلامية قريب من الماتريدية والأشاعرة، لكنه يصعب وضعه
 في القوالب التي عرفها عصره. وكتابه «المعارف» هذا مجموعة من مباحث علم الكلام
 والفقه والتصوف، التي يغلب عليها شطرها العرفاني، وعين الملمح من شخصيته الذي

١ - فرزانفر، السابق، ص ١١١؛ وبهاء ولد، تأليف فريتس ماير، ترجمة د. مريم مشرف، ٢٧ - ٢٨.

٢ - السابق.

٣ - في شأن بهاء ولد، أنجز تحقيق ممتاز بعناية المستشرق فريتس ماير (١٩١٢ - ١٩٩٨ م)، المحقق السويسري، كان
 لحسن الحظ قد تُرجم إلى الفارسية ترجمتين: إحداهما بعناية السيدة الدكتور مريم مشرف (نشر دانشگاهي)،
 والأخرى بعناية السيدة الدكتور مهر آفاق بایوردی (انتشارات سروش).

يبدو نَصْرًا ومُشْرِقًا جَدًّا هو تصوُّر صفاته الشخصية، والتأملات التي يُبدئها في آفاق الوجود بِلُغَةٍ شِعْرِيَّةٍ وَلَطِيفَةٍ. وهذا الكتابُ واحدٌ من المصادر الأساسية لِفِكْرِ مَوْلَانَا، والظاهرُ أنَّ مَوْلَانَا ظَلَّ يطالعُ هذا الكتابَ على نحوٍ متواصلٍ.

طُفُولَةُ مَوْلَانَا، فِي ظِلِّ الْوَالِدِ:

وفقًا لبعض المصادر، خرج بهاءٌ وَلَدٌ من بَلُخ بِقَصْدِ الْحَجِّ، ثم في مدينة نَيْسَابُور انطلقَ مع ابنه الصَّغِيرِ السَّن، جَلَالِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ، إِلَى لِقَاءِ الشَّيْخِ فَرِيدِ الدِّينِ الْعِطَّارِ (٥٥٣ - ٦٢٧هـ). وَإِنَّ التَّقَاءَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ، الَّذِي ذَكَرَ حِكَايَتَهُ بَعْضُ كُتَّابِ التَّرَاجِمِ، هُوَ مِنْ الْوَجْهَةِ التَّارِيخِيَّةِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ. وَبِنَاءً عَلَى أَقْوَالِ كُتَّابِ التَّرَاجِمِ هَؤُلَاءِ، أَهْدَى الشَّيْخُ الْعِطَّارُ كِتَابَهُ الْمُشْتَوِيَّ الْمَعْرُوفَ، الْمُسَمَّى «أَسْرَارُ نَامِهِ» [بِالْفَارْسِيَّةِ بِمَعْنَى: كِتَابُ الْأَسْرَارِ]، لِجَلَالِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ، الَّذِي كَانَ آنَئِذٍ صَغِيرَ السِّنِّ. وَفِي شَأْنِ سَبَبِ هَذَا اللَّقَاءِ، وَبِصَرَفِ النَّظَرِ عَنْ شُهْرَةِ الْعِطَّارِ وَذُبُوعِ صَيْتِهِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، وَإِضَافَةً إِلَى الْعَادَةِ الْمَتَّبَعَةِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ فِي مُسَارَعَتِهِمْ إِلَى لِقَاءِ الْمَشَايِخِ فِي كُلِّ حَاضِرَةٍ يَفْدُونَ إِلَيْهَا، يَذْكُرُ الْمَرْحُومُ الْأُسْتَاذُ بَدِيعُ الزَّمَانِ قُرُوزَانْفَرٌ، فِي التَّحْقِيقِ الْجَامِعِ الَّذِي أَعَدَّهُ فِي شَأْنِ مَوْلَانَا وَحَيَاتِهِ، عَامِلًا آخَرَ، وَذَلِكَ هُوَ الْإِشْتِرَاكُ فِي الطَّرِيقَةِ الصُّوفِيَّةِ بَيْنَ بَهَاءٍ وَلَدٍ وَالشَّيْخِ الْعِطَّارِ، إِذْ يَتَسَبَّبُ الْإِثْنَانُ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْكُبْرَوِيَّةِ (الْمَنْسُوبَةِ إِلَى الشَّيْخِ نَجْمِ الدِّينِ كُبْرَى، الْمُتَوَفَّى عَامَ ٦١٨هـ)، هَذَا مَعَ أَنَّ ذَلِكَ الْأُسْتَاذَ الْفَقِيدَ شَكَّكَ فِيمَا بَعْدُ، فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فِي مَسْأَلَةِ انْتِسَابِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْكُبْرَوِيَّةِ^(١). وَمَعَ الشَّكِّ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، لَا يَتَعَدَّدُ التَّقَاءُ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ الثَّلَاثَةِ

١ - شرح احوال ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدين عطار نيشابوري، بديع الزمان قُرُوزَانْفَر، تهران، انجمن آثار ملی، ١٣٣٩ - ١٣٤٠، ص ٧٠؛ ويُقَارَنُ بِمَبْحَثِ «نَسَبِ نَامَةُ مَعْنَوِي عِطَّار»، لِكَاتِبِ هَذَا التَّعْلِيقِ، فِي مَقْدَمَةِ مَنْطِقِ الطَّيْرِ، انْتِشَارَاتِ سَخَن، الصَّفَحَاتِ ٦٣ - ٧١. [الأصل].

٢٠ ————— مقدمة في شأن: الرومي وشمس الدين التبريزي وقونية
عن أن يكون أمرًا عاديًا ومعقولًا.

هذا السَّفر الذي بدأ مِنْ بُلُخ، يجبُ أن يكون قد حصلَ في حدود ٦١٨ هـ، أو ٦١٧ هـ، أو ٦١٦ هـ^(١). وبناءً على ذلك، كان جلالُ الدِّين محمد في هذه السَّنات صغير السن، في الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة. وفي الطريق إلى مكَّة ذهب بهاءٌ ولَّد إلى بغداد، وأقامَ في تلك المدينة عدَّة أيام. ثمَّ بعدَ ذلك، مضى إلى الحجِّ، وبعدَ أداء فريضة الحجِّ يَمَّ شَطْرَ الشَّام، ثمَّ مِنْ هناك قصَّدَ آسية الصُّغرى. ولأنَّ نَارَ فتنة التَّار كانت تتأجَّجُ يومًا إثرَ يومٍ، ولأنَّ مَسْقَطَ رأسه ووطنه المحبَّب صار مِنْ أكثرِ نواحي ديار الإسلام اضطرابًا في ذلك العصر، لم يَعدْ إلى الوطن الأمِّ، وآثَرَ السُّكنى في المِنطقة التي انتهى إليها، وغدا محلًّا لاهتمامِ سلاطين تلك البلاد، مِنْ قبيلِ فخر الدِّين بهرام شاه، سُلطان أَرزنجان^(*) (مدينة في أَرَمِينِيَّة التُّركيَّة)، وعلاء الدِّين داود شاه (٦٢٢ - ٦٢٥ هـ) ابنه، ثمَّ بعدَ مدَّةٍ طلبَ إليه علاء الدِّين كَيْقُباز (٦١٧ - ٦٣٤ هـ)، السُّلطانُ السَّلجوقي في الرُّوم الشَّرقيَّة، المجيء إلى قونية، فقبِلَ ذلك، وصار محلًّا لاهتمامِ ذلك السُّلطان.

ووفقًا لبعض الروايات، تزوَّجَ جلالُ الدِّين محمد في مدينة لارندة، بأمرٍ والديه، مِنْ السَّيدة جَوْهر خاتون، ابنة السيِّد لالا السَّمَرَقندي، الذي كان مِنْ أهل الفضلِ المعتبرين، وقد حدَّثَ هذا الزَّواجُ عندما كان في سنِّ الثَّامنة عشرة، في حدود ٦٢٢ هـ.

١ - زندگا في مولانا جلال الدِّين محمد، بديع الزَّمان فُروزانفر، الطبعة الثانية، دار نشر زوَّار، طهران ١٣٣٣، ص ١٧، وشرح احوال عطار، ص ٦٩ [الأصل].

* - يقول ياقوت عنها: «بَلَدٌ طَيِّبَةٌ مشهورةٌ نَزْهَةٌ، كثيرةُ الخيرات والأهل، مِنْ بلادِ أَرَمِينِيَّة، بَيْنَ بلادِ الرُّومِ وخَلاطه». معجم البلدان ١٥٠/١ [الترجم].

حركة الأسرة من خراسان:

كان والدُ مولانا، أي بهاء الدين ولد الذي اشتهر بلقب سلطان العلماء، يعيش في ناحية وُخْ أو وُخْش، قُربَ مدينة بلُخ، في أفغانستان الحالية التي كانت تُعدُّ جزءاً من خراسان في ذلك الوقت. وقد كان سلطان العلماء في مدينته عالماً بارزاً، وواعظاً عذّب الحديث وممتازاً. وخيرُ شاهدٍ على ذلك كتابه «معارف بهاء ولد»، الذي طُبِعَ اليوم، وصار في متناول القُراء.. كذلك كان جدُّ مولانا، الذي كان اسمه حُسين بن أحمد الخطيبي، عالماً كبيراً، وكان يحضرُ حلقةَ دَرْسِهِ كُبراء مثل رَضِيّ الدين النيسابوري (٥٩٨هـ). وتوجدُ بعضُ الأدلة على أن والدَةَ بهاء ولد كانت من أسرة الخوارزمشاهيين [سلاطين خوارزم]. ولا توجدُ أدلةٌ كثيرة لِرَدِّ هذا الكلام، كما أن نَفْيَهُ وإثباته لا يؤثران كثيراً في أُسس التعريف بمولانا وأسرته^(١).

أما كَوْنُ سلطان العلماء قد اضطرَّ إلى ترك بلُخ، بسبب مسائل عقديّة وجدالات دينيّة ومذهبيّة، فأمرٌ مشكوكٌ فيه. والوثائق التي تذهبُ إلى أن اختلافه مع الخوارزمشاه، ومع فخر الدين الرازي، هو سببُ تركه بلُخ غيرُ مقبولة. وكَوْنُ سببِ اختلافه مع فخر الدين الرازي مخالفة الفخر الرازي للصوفيّة، محلُّ شك وتردد. فصحيحٌ أن مولانا في آثاره يتقدّم دائماً الفخر الرازي، ويستهزئ به بوصفه ممثلاً للعقلانيّة الفلسفيّة، لكنّ الفخر الرازي نفسه في آثاره وتصانيفه لا ينكرُ كُليّاتِ مسائلِ التصوّف، وهو واحدٌ من أبرز شخصيّات عِلْمِ الكلام الأشعري، وجازيَّت بيتٍ لِنَظَرَةِ مولانا إلى العالم، إلّا إذا استطعنا أن نفصّل

١ - انظر: بهاء ولد، تحقيق فريتنس ماير، ترجمة مريم مشرف، مركز نشر دانشگاهي، تهران، ١٣٨٢،

الساحة الفلسفية لوجود الفخر الرازي، من حيث هو شارح «الإشارات»^(١)، عن الجانب الكلامي لشخصيته، إذ هو مفكرٌ أشعريٌّ تقريباً، وهذا أمرٌ غير ممكن.

ولا بد من البحث عن أسباب أقوى، والعثور على جذور هذه المسائل في أمور اجتماعية وسياسية أخرى. والقدر المسلم في هذا الشأن، هو أن بهاء ولد لأسباب أهمها خوف التار غادر مدينته، وانطلق نحو نيسابور والري ثم بغداد والحجاز. وفي هذا الترحال، كان مولانا صيباً في حدود الرابعة عشرة.

مسير أسرة مولانا من بلخ إلى قونية:

كان خطأ سير سفر أسرة مولانا إلى قونية إجمالاً على هذا النحو: عندما ترك بهاء ولد وأسرته بلخ، تحركوا في طريق نيسابور والري وبغداد، وقد توقفوا في بغداد لإمداد غير محدد على نحو دقيق، لكنه كان بالقدر الذي استطاع فيه بهاء ولد أن يلتقي ويتحدث مع بعض أعلام العصر في تلك الحاضرة. وقد ذكر بعضهم أن ذلك امتد لثلاثة أيام أو أربعة.

ومن بغداد، يتم بهاء ولد وأسرته شطر الحجاز، بنية أداء فريضة الحج، ثم بعد أداء مناسك الحج قصدوا إلى دمشق، ثم من هناك ذهبوا إلى أرزنجان التي كانت في تلك السنين تنعم بالأمن والهدوء. وكان سلاطين آل منكوجك، الذين كانوا يحكمون تلك البلاد، من المحبين لأهل الفضل^(٢). امتد توقف بهاء ولد وأسرته في ناحية أرزنجان وفي

١ - يشير هنا إلى شرح الإمام الفخر الرازي كتاب ابن سينا المسمى: «الإشارات والتنبيهات في المنطق والحكمة». يُنظر: كشف الظنون لحاجي خليفة ٩٤/١ [المترجم].

٢ - آل منكوجك قرع من حكام السلاجقة في آسيا الصغرى، من أواسط القرن السادس إلى أواسط القرن السابع. يُنظر: مرموزات اسدي، ص ١٩٢؛ وكذا: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ٢٢٠ [الأصل].

مدينة لارنده^(١) طويلاً، وربما أقاموا لما يقرب من سبع سنين في قرمان. وفي هذا المكان تزوج مولانا، ابن الثامنة عشرة، من كريمة السيد شرف الدين لالا السمرقندي. الذي كان من ذوي الشأن. وولد ولداه بهاء ولد وعلاء الدين كلاهما في المدينة نفسها، في فاصلٍ مقدارهُ سستان تقريباً^(٢). كان اسمُ زوجِ مولانا گوهر خاتون. وفيما بعد، وبعد وفاة گوهر خاتون، تزوج مولانا من امرأة اسمها كرا خاتون يبدو أنها كانت قبلَ زوجاً لشخصٍ آخر اسمه محمد شاه، وكان لها من ذلك الزوج ولدٌ اسمه أمير شمس الدين يحيى، صار يُعدُّ أخاً بالتبني لأولاد مولانا. والظاهر أنه عينَ أميرَ شمس المدفون في «مقام شمس»، وعُرفَ مزارُهُ باسمِ شمس التبريزي في قونية وصار مبعثاً للخطأ^(٣).

مولانا وفريد الدين العطار:

عادي جداً أنه في حدود عام ٦١٨ هـ حين كانت أسرُهُ مولانا تتقدم من بلخ نحو وسط إيران، ثم من هناك نحو بغداد والحجاز، يكون لهذه الأسرة توقفٌ في مدينة نيسابور، أي إنهم كانوا مضطرين إلى ذلك. ولهذا السبب ليس لدينا أي سبب لرد الحكاية التي ذكرها بعضُ كتب التراجم في شأن لقاء سلطان العلماء والعطار في نيسابور. ووفقاً لهذه الروايات، عندما مضى بهاء ولد في نيسابور لزيارة العطار كان ابنه ذو الأربعة عشر ربيعاً، مولانا جلال الدين محمد، في صحبته أيضاً، وأهدى العطار كتابه «أسرار نامه» إلى هذا الصبي. ومنذ ذلك الوقت، بدأ إعجاب مولانا بشعر العطار وكلامه. وقد أشار إلى ذلك مراراً في

١- تُسمى اليوم قرمان Karaman، وهي مدينة في جنوب شرقي ولاية قونية، في تركيا.

٢- قُرُوزانقر، رساله در احوال مولانا، ص ١٧١.

٣- گلبينارلي، مولانا جلال الدين، ١٤٦-١٤٧.

٢٤ ————— مقدمة في شأن: الرومي وشمس الدين التبريزي وقونية
تضاعيف المشوي وديوان شمس وآثاره الأخر. ويُقال إن العطار خاطب والد مولانا
بالقول: «لَنْ يَمُضِيَ وَقْتُ طَوِيلٍ حَتَّى يُضَرِمَ وَلَدُكَ هَذَا النَّارَ فِي مُحَرِّقِي الْعَالَمِ»^(١).

مرحلة الشباب والتعلم:

كان مولانا في الرابعة والعشرين من عمره حين وافيت المنية أباه (٦٢٨هـ)،
واستجابة لطلب المريد، أو بناء على وصية والده، تابع عمل والده وانشغل
بالوعظ والإرشاد، وفي المدة نفسها خضع لتعاليم سيد برهان محقق الترمذي
(ت ٦٣٨هـ)، الذي كان أحد مُريدي والده. ولعل برهان الدين مُحقق الترمذي جاء إلى
الروم في سنة ٦٢٩هـ.

وتشويق من برهان الدين، أو بتأثير انجذاب داخلي كان يُحس به، سافر مولانا من
قونية إلى حلب لكي يُكْمَل تحصيله في فروع علوم ذلك العصر. مدة إقامته في حلب غير
واضحة على نحو دقيق. وكأنه في هذه المدينة اكتسب نصيباً في مجال الفقه الحنفي
بحضور دُروس كمال الدين ابن العديم (ت ٦٦٠هـ). بعد ذلك يمم سطر دمشق، وأقام فيها
لما يقرب من أربع سنوات. وبناء على بعض الروايات، ظفر في هذه المدينة بقاءً مُحيي
الدين ابن عربي (٥٦٠ - ٦٣٨هـ)، العارف والمفكر البارز في ذلك العصر. ولا يتجاوز
مجموع مدة إقامته في حلب ودمشق سبع سنين. وبعد هذه المدة عاد مولانا إلى قونية،
وأيضاً بإشارة من سيد برهان الدين محقق انشغل بالرياضة والمجاهدة لكي يكون له،
إلى جانب علوم الظاهر، نصيب من معرفة الحقيقة والشهود. وبعد وفاة محقق الترمذي،
انشغل مولانا لما يقرب من خمس سنين، من ٦٣٨هـ إلى ٦٤٣، بتدريس علوم الدين

والفقه. وقد ذُكرَ أنَّ عددَ التلاميذ في حلقة دَرَسَه بَلَغَ الأربعِ مئةً، وذُكرَ أيضًا أنَّه على طريقة علماء الدين «كان يُلَفُّ عِمَامَتَه، ويرسُلُ عَذَابَاتِهَا مِنْ خَلْفٍ، ويرتدي رِداءً واسعَ الكُمَيْنِ، كما كانت عادةُ العلماءِ الصادقين»، وقد طار صيته في آفاق ذلك العصر، وعُرف بين الناس بأنه إمامُ الدين وعمودُ الشريعة الأحمديَّة.

بُرْهَانُ الدِّينِ مُحَقِّقُ التَّرمِذِي:

كان سيِّدُ برهان الدين مُحَقِّقُ التَّرمِذِي (ت ٦٣٨هـ) مِنَ السَّاداتِ الحُسَيْنِيَّينَ فِي تَرْمِذٍ، ويمكنُ اليومَ مِنْ طَرِيقِ كتابِهِ المختصرِ، النَّفِيسِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، الْمَسْمُومِ «معارف»، تعرُّفُ منزله الرُّوحِيَّةِ، إِلَى حَدِّ مَا. ويبدو أنَّه فِي زَمَانِ إقامَةِ الْوَلَدِ مَوْلَانَا فِي بَلْخَ، كانَ فِي عِدَادِ مُريدي بهاء وَلَدٍ، ثُمَّ بَعْدَ تَرْكِ بهاء وَلَدٍ بَلْخَ انْقَطَعَ الْاتِّصَالُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، إِلَى أَنْ نَهَضَ برهانُ مُحَقِّقٍ فِي سَنَةِ ٦٢٩هـ لِلْبَحْثِ عَنْ شَيْخِهِ وَمُرَادِهِ، فَوَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ قُونِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ مَحَلَّ سُكْنَى بهاء وَلَدٍ وَأُسْرَتِهِ. وَقَدْ حَدَّثَ ذَلِكَ بَعْدَ مُضِيِّ مَا يَقْرُبُ مِنْ سَنَةٍ عَلَى وَفَاةِ بهاء وَلَدٍ. وَلأنَّه كانَ مُريدًا سَابِقًا لِبِهاءَ وَلَدٍ، وَنَظَرًا إِلَى مَنْزِلَتِهِ الرُّوحِيَّةِ الْخَاصَّةِ، نَشَأَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَوْلَانَا - الَّذِي كانَ إِذْ ذَاكَ شَابًّا فِي الْخَامِسَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ عَمْرِهِ - صَرْبٌ مِنْ عِلَاقَةِ الْأَسْتَاذِ وَالتَّلْمِيزِ، أَوْ الْمُرَادِ وَالْمُرِيدِ، عِلَاقَةٌ كَانَتْ سَبَبًا لِنُضْجِ مَوْلَانَا رُوحِيًّا، وَحَدَّثَتْ بِقَدْرِ مَا مَسِيرَ مُسْتَقْبَلِهِ. وَعِنْدَمَا وَصَلَ سَيِّدُ برهان الدين مُحَقِّقُ التَّرمِذِي إِلَى قُونِيَّةَ، أَيَّ قَرِيبًا مِنْ سَنَةِ ٦٢٩هـ صَارَ مَوْلَانَا عَاشِقًا لِرُوحَانِيَّتِهِ وَمَعْنَوِيَّتِهِ؛ وَإِلَى زَمَانِ وَفَاةِ برهان مُحَقِّقٍ (سَنَةِ ٦٣٨هـ) اسْتِضَاءَ بِشُعَاعِ رُوحَانِيَّتِهِ وَإِرْشَادِهِ، وَمَا يَذْكُرُهُ فِي الْمَثْوَى، فِي تَضَاعِيفِ الْحَدِيثِ عَنْ تَأْثِيرِ الشَّيْخِ وَالِاسْتِسْلَامِ أَمَامَ الشَّيْخِ، مِنْ مَظْهَرِي الْكَمَالِ الرُّوحَانِيِّ الْمَثْمُثِلِينَ فِي برهان مُحَقِّقٍ وَصَلَحِ الدِّينِ زَرْكُوبٍ، هُوَ نَفْسُهُ مُشِيرٌ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى:

فَابْلُغِ التَّضَجَّ، وَابْتَغِذْ بِنَفْسِكَ عَنِ التَّغْيِيرِ

اِذْهَبْ، وَاغْدُ نُورًا مِثْلَ بُرْهَانِ الْمُحَقِّقِ

فَإِنَّكَ إِنْ خَلَصْتَ مِنْ ذَاتِيكَ غَدَوْتَ كُلُّكَ بُرْهَانًا

وَلِأَنَّكَ لَمْ تَعُدْ عَبْدًا، غَدَوْتَ سُلْطَانًا

وَإِنْ أَرَدْتَ الْعِيَانَ، فَقَدْ أَظْهَرَهُ صَلاَحُ الدِّينِ

فَقَدْ جَعَلَ الْأَعْيُنَ مُبْصِرَةً، وَجَلَّاهَا^(١)

الذي هو نفسه دليل قوي على هذا التعلُّق والاستسلام. وفي الغزليات أيضًا يشير

إلى حالته هذه بالقول:

فَهَاتِ نَاطِقًا كُلِّيًّا، وَقُلْ أَنْتَ الْبَاقِي

حَرَّرَنِي مِنَ الْكَلَامِ، فَأَنَا صَامِتٌ بُرْهَانٌ^(٢)

أو بالقول:

جَفَّقْتَ أَنْتَ الدَّمَاعَ مِنْ طَلَبِ الْبَحْثِ وَالِدَّلِيلِ

فَحَرَّرَ نَفْسَكَ مِنَ الْفِكْرِ، وَانْظُرْ إِلَى لَمَعِ بُرْهَانٍ^(٣)

في دُورِ الْعِلْمِ فِي دِمَشْقَ:

لم يقنع مولانا بما تعلَّمه من مجالسِ عِلْمٍ وإِلَهٍ والآخرين، وظلَّ دائمًا يبحثُ عن
الأساتذة الذين يتعلَّم منهم معارفَ عَضْرِهِ كَامِلَةً. وقد تهيأ له هذا عندما وافَتِ المنيَّةُ
والِدَهُ، وأشار عليه بُرْهَانُ الدِّينِ مُحَقِّقُ التَّزْمِيدِي، الذي كان شيخه ومُرَادَهُ، بالسَّفَرِ فِي

١- المثنوي: ١٣٢٣/٢ - ٢٥.

٢- ديوان شمس تبريز: الغزلية ١٧٤١.

٣- ديوان شمس تبريز: الغزلية ٢٠٠٣.

طريق العلم، فقصّد مولانا إلى الشام التي كانت في ذلك الوقت أكثر مراكز العلم إشراقًا في الإسلام؛ ذلك لأنّ دُور العلم الإسلامية الأخرى، من مثل بخارى ومزور وتيسابور والرّي وبغداد، إمّا أنها خربت تمامًا في هجوم التتار، وإمّا أنّه لحقها أذى كبير.

وما نعلّمه في شأن التحصيل العلمي لمولانا في حلب ودمشق قليل جدًا. والقدر المتفق عليه في هذا الشأن أنّه قضى في الشام سنين في تحصيل العلوم، سواءً أكان ذلك في حلب أم في دمشق. وكان أكثر إقامته في دمشق. وفي هذه الحاضرة، وفقًا لرواية الخوارزمي^(١)، لقي ابن عربي، وسعد الدين الحموي، وصدر الدين القونوي، وأوحد الدين الكرمانلي، والشيخ عثمان الرومي. وكذلك في حلب كان يحضر مجالس دُرس كمال الدين ابن العديم، في المدرسة الحلاوية. ثمّ بعد عودته إلى قونية دُرس مجموع تحصيلاته لطلّاب العلم في تلك المدينة. ويُستفاد من تصريح ابن مولانا، سلطان ولد، أنّ أباه دُرس في مدرسة اسمها «مدرسة آقنجي»، وأنّ سلطان ولد هذا قد دُرس كتاب «الهداية» للمرغيناني. الذي هو واحد من أهمّ مُؤنّ الفقه الحنفي. على أيّيه في المدرسة نفسها.

في الغزلية التي تحمل الرّقْم ١٤٩٣ في الديوان الكبير، ومطلّعها: «ما عاشق وسرگشته وشيداي دمشق»^(٢)، وقد أنشدّها مولانا تعبيرًا عن اشتياقه إلى شمس تبريز في أثناء ذهاب شمس إلى دمشق، يتحدث مولانا عن محالّ ومواضع في هذه المدينة على نحوٍ يشير إلى أنّه عاش سنين غير قليلة في تلك المدينة، وكان له أنس وألفة مع تلك المحالّ والمواضع.

١ - جواهر الاسرار، جاب نول كشور، ٥٢؛ مأخوذًا من «رساله» لِسپهسالار، ٢١، ويُقارَن بـ: الأستاذ فُروزانفر،

شرح حال مولانا، ٤٣، الحاشية

٢ - معناه: أنا عاشقٌ ومُندهشٌ ومجنونٌ بدمشق.

بَدْءُ الْوَجْدِ وَالْوَلَه:

كُنْتُ زَاهِدًا فَجَعَلْتَنِي مَنِيْدًا لِلْغَزَلِيَّاتِ
 جَعَلْتَنِي رَئِيسَ مَجْلِسِ الْأُنْسِ، طَالِبًا لِلشَّرَابِ
 كُنْتُ مُلَازِمًا لِسَجَادَةِ الصَّلَاةِ، ذَا وَقَارٍ
 فَجَعَلْتَنِي لُغْبَةً لِأَطْفَالِ الْحَيِّ
 وَقَدْ بَيَّنَ مَوْلَانَا هَذَا التَّغْيِيرَ فِي حَالِهِ - مِنْ مَقَامِ فَقِيهِ وَوَاعِظٍ إِلَى شَخْصٍ لَا شُغْلَ لَهُ
 إِلَّا الْمَوْسِيقَا وَالشَّعْرَ وَالسَّمَاعَ - فِي تَضَاعُيفِ غَزَلِيَّاتِهِ، مَرَاتٍ كَثِيرَةً:
 كُنْتُ رَجُلًا مُجَاهِدًا، كُنْتُ عَاقِلًا وَزَاهِدًا
 عَافَانَا اللَّهُ! فَقُلْ لِي: لِمَاذَا طَرُتَ كَالطَّائِرِ؟!

وَكَذَا فِي غَزَلٍ آخَرَ:

أَيُّهَا السَّاقِي، أَدْرِ الْكَأْسَ فَإِنَّا
 نَمْلُؤُنَ مِنْ شَرَابِ اللَّيْلِ
 وَأَضِيفْ إِلَيْهَا مَاءً؛ لِأَنَّ نَارَ الْقَلْبِ
 تَظْلُ تَضْطَرِّمُ فَوْقَ الْفَلَكَ
 كَانَ الْمَضْحَفُ فِي يَدِي دَائِمًا
 وَبِسَبَبِ الْعِشْقِ أَمْسَكْتُ بِالصَّغَانَةِ (*)
 وَفِي الْفَمِ الَّذِي كَانَ فِيهِ التَّسْيِخُ
 شِعْرٌ وَدُوبِيَّتٌ وَغَزَلٌ

*- آلة موسيقية، والاسم هنا تعريب لـ «جفانه» الفارسية.

وبعدَ هذا التَّغْيِيرَ يَعْتَرِفُ مَوْلَانَا بِأَنَّهُ حَصَلَتْ لَهُ وَلَادَةٌ جَدِيدَةٌ:

انتهى مولودي الأول، وأنا مولودٌ لِلْعِشْقِ في هذه اللَّحْظَةِ

أنا زائدٌ على نَفْسِي؛ لِأَنَّنِي وُلِدْتُ مَرَّتَيْنِ

وَلَادَةٌ جَدِيدَةٌ:

قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ حَيَاةَ مَوْلَانَا الْجَدِيدَةِ، وَمَرَحَلَةَ خَلْقِهِ وَإِبْدَاعِهِ، أَيْ قَبْلَ مَرَحَلَةِ الْوَجْدِ وَالْوَلَهْ، كَانَ رَجُلًا مِنْ طِرَازٍ خَاصٍّ مِنْ رَجَالِ عَصْرِهِ، وَرَبِّمَا لَوْ قُدِّرَ أَنَّ هَذِهِ الصَّاعِقَةَ لَمْ تَقَعْ فِي بَيْتِ رُوحِهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ لَطَلَّ لَهُ اسْمٌ فِي الذَّاكِرَةِ إِلَى جَانِبِ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى أَوِ الثَّانِيَةِ فِي تَارِيخِ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِذَلِكَ الْعَصْرِ، وَرَبِّمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ أَيْضًا. فَلِمَاذَا أَسْدَلَ الدَّهْرُ سِتَارَ النِّسْيَانِ عَلَى كَثِيرِينَ مِنْ مُشَابِهِيهِ وَمُعَاصِرِيهِ فِي مَجَالِ التَّفَقُّهِ وَالْوَعْظِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ حَتَّى اسْمٌ؟ لَكِنَّهُ مِنْذُ اللَّحْظَةِ الَّتِي بَدَأَتْ فِيهَا وَلَادَتُهُ الْجَدِيدَةُ، أَيْ لَحْظَةِ تَعَرُّفِهِ شَمْسًا، غَدَا رَجُلًا مِنْ أَرْفَعِ طِرَازِ عِرْفَتِهِ الْقِمَمِ الرُّوحَانِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْأَسَاطِينِ الْمَعْرِفِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، إِذْ لَمْ يَأْتِ إِلَى سَاحَةِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْوَاسِعَةِ، وَإِلَى عَالَمِ الْمَعَارِفِ فِي الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، تَقْرِيبًا شَخْصٌ فِي عَظَمَتِهِ. وَبَنَظَرَةٍ أَشْمَلٍ، يُمْكِنُ عَدُّهُ ضِمْنَ عَدَدٍ غَيْرِ كَبِيرٍ مِنَ الْمَفْكُرِّينَ الْكِبَارِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ.

شَمْسُ التَّبْرِيزِي:

كَانَ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُلْكٍ دَاذَ (٥٨٢ - ٦٤٥ هـ تقريبًا)، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ تَبْرِيزَ، مُجَذُوبًا مُذْهَبًا مِنْ مُجَازِيبِ الْعَالَمِ، وَمِنْ أَوْلَثِكَ الْمَتَمَرِّدِينَ الْمُخْرِقِينَ لِلْعَالَمِ، الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَسَّدُونَ آجِرَةً وَلَهُمْ قَدَمٌ فَوْقَ قِمَّةِ الْأَفْلَاقِ التَّسْعَةِ، وَيُمْكِنُ فِي كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ أَوْ مِثْلِهِ أَنْ يَظْهَرَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الْأَرْضِ. أَلْغَاؤُهُ وَجُودِهِ لَا يُمْكِنُ حَلُّهَا

مقدمة في شأن: الرومي وشمس الدين التبريزي وقونية
من خلال توضيحات كتاب التراجم، أما انعكاس هذه الشمس في مرآة شعر مولانا
فلألاء ومشرق على نحو يغني عن الأساطير والروايات المصنوعة لأصحاب التراجم
ومحبّي القصّ والأساطير. وخير ممثّل واقعي لوجوده العملي هو غزليات مولانا
نفسها، التي سجّلت اسمه في تاريخ رؤساء مجاذيب العشق في العالم بلقب «إمام
متمرد العشق» في ذلك العصر، وفي مواضع كثيرة جدًا في مقدورنا أن نرى انعكاس
وجوده في صفحات هذا الديوان (*).

ومثلما كانت حياة مولانا، قبل لقائه شمسًا، حياةً عاديةً مألوفةً، ومن هذه الوجهة
يجبُ اعتبارُ تغيّره وولادته الثانية نتيجةً للاقائه شمسًا، كان خلودُ اسمِ شمسٍ وعمره
الثاني على امتداد التاريخ نتيجةً للاقائه مولانا، ويُعدُّ وجودُ كلٍّ من هذين الشخصين
متممًا لوجود الآخر. وكثيرًا ما يعنّ في الذهن هذا السؤال: لو أنّ شمسًا ومولانا لم يلقَ
واحدٌ منهما الآخر، كيف كان مصيرُهما؟^(١) هل كان سيوجدُ مولانا في التاريخ بهذه
الخاصّيات نفسها، ويكونُ لدينا اليومَ شاعرٌ مفكّرٌ متمردٌ بهذا البحر من الحسّ والفكر،
أو لا؟ ثم، من وجهة أخرى، لو أنّ هذا اللقاء لم يحصلْ هل كان سيبقى اسمُ لشمسٍ
تبريزي في العالم اليوم؟ ولأفترض أنه من وجهة نظر شمسٍ بقاء اسمه وعدمُ بقائه أمرٌ

* - يشير إلى ديوان شمس تبريز لمولانا جلال الدين، الذي تتجاوزُ عدّة أبياته الأربعين ألف بيت، والذي نظمه
مولانا تعبيرًا عن محبته لشيوخه شمس تبريز، وسماه باسمه [الترجم].

١ - منذ القديم غرض هذا السؤال على أهل الأدب والعرفان، وقد أجاب عنه كمال الحنجندي (٨٠٣هـ) على هذا
التحوّل:

لا تقل إن أرياب القلب ذهبوا، وحلّت مدينة العشق

صحيفة قلبي مملوءة بشمس التبريزي، أين رجلٌ ومثل مولانا؟

ديوان كمال الحنجندي، نشر عزيز دولت آبادي، ١٠.

غير مُهمٍّ، وآتِه من صنف الذين يعتقدون بمدلول القول: قُلْ: لَنْ يَبْقَى لِي هَذَا الْاسْمُ، فماذا سيكون؟ - الجوابُ صَعْبٌ. أمّا ما يأتي إلى الذّهن فهو أنّ تصوّر هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ منفصلاً أَحَدُهُمَا عن الآخر أمرٌ في الغاية من الصّعوبة.

وقد صُنِعَتْ حِكَايَاتٌ في شأن طريقة لقاء هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ. والمقبول هو أنّ شَمْسًا في السّابع والعشرين من شهرِ جُمادى الآخرة سنة ٦٤٢هـ وَصَلَ إلى قُونِيَّةَ، أمّا تاريخُ لقاءِ الشّخصَيْنِ وكَيْفِيَّةُ هذه الواقعة فأمْرٌ غيرُ واضح. ومن وَجْهَةٍ أُخرى، نَعْلَمُ أنّ شَمْسًا شَدَّ رِحَالَ السَّفَرِ مِنْ قُونِيَّةَ في الحادي والعشرين من شَوّال سنة ٦٤٢هـ. وتَبَعًا لذلك، لا تتجاوزُ مُدَّةُ لقائهما في المرحلة الأولى السّتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا. عِلَّةُ تَرْكِ شَمْسٍ قُونِيَّةَ غيرُ معلومةٍ بدقّة. لكنّه من الواضح أنّ تَغْيِيرَ حالِ مَوْلانا وَسُلُوكِهِ - الذي كان في أنظار أهلِ قُونِيَّةَ والمتعصّبين في ذلك الزّمان أمرًا مُنْكَرًا ومرفوضًا - هو نفسُه كان من العوامل القويّة لذلك؛ لأنّ شَمْسًا لم يستطع أن يتحمّل تشنّيع مُريدي مَوْلانا وملامة أهل زمانه، وفي غَوْغَاءِ العَوامِّ هؤلاء الذين عدّوه ساحرًا كان رُوحُه في خَطَرٍ؛ ولهذا السّبب هاجَرَ من قُونِيَّةَ إلى دِمَشْق. وفي شِعْرِ مَوْلانا انعكاسٌ واضحٌ جدًّا لهذه اللّحظاتِ مِنْ ابتعاده عن شَمْسٍ والنّواحِ في طَلَبه، ولوضوحه وقوّته لا يحتاجُ إلى تقديم شاهد. وصحيفةُ قلبه، الممتدّة إلى الأبد، هي الطُّومارُ الذي كُتِبَ عليه مِنْ أوّلِه إلى آخِرِه: «لا تَذْهَبْ»^(١)، وهو لا يستطيعُ تحمّلَ عِبءِ الفراقِ هذا. ولعلّ مَوْلانا ظَلَّ مُدَّةً بَعْدَ هذه الحادثة غيرِ عالمٍ بِمَحَلِّ إقامةِ شَمْسٍ، ثمّ بَعْدَ شَهْرٍ أُنْهَى بِأَنَّ شَمْسًا في دِمَشْق. وقد أَرْسَلَ رسائلَ كثيرة. وفي هذه المدة تضاعَفَ مَلالُ خاطِرِ مَوْلانا حتّى إنّه أخذَ يوزَعُ

العذاب والألم على أرواح المریدین والأصحاب أيضًا، واضطرهم بذلك إلى أن يندموا على فعلتهم ويعتذروا لجَناب مولانا عن إساءتهم لمقام شمس. ونتيجة لهذه الأوضاع بعث مولانا ابنه، سلطان ولد، إلى دِمَشق لِلْبَحْث عن شمس. بقي شمس هناك خمسة عشر شهرًا تقريبًا، ثم في سنة ٦٤٤هـ، وعلى أثر تَوَقُّق مولانا واشتياقه الذي لا حدود له وبعد رسائله العشقية الكثيرة، قَبِلَ دَعْوَةَ سلطان ولد، الذي كان قد جاء إلى دِمَشق بِصُحْبَةِ جَمْعٍ من أصحاب مولانا يُقدَّرُ بِعِشْرِينَ شَخْصًا، وعاد إلى قونية. وفي هذه المرة أيضًا، كَرَّرَتِ العوالمُ السابقةُ الحادثةُ التي حَدَثَتْ قَبْلُ، على نَحْوِ آخِرٍ، وأثارت ثَوْرَةَ العوالمِ وأهلِ العَصِيَّةِ؛ فاضطرَّ شمس إلى تَرْك قونية، وَلَمْ يُعْلَمْ إلى أينَ ذهبَ، وما مَصِيرُهُ. وقد ذهبَ بعضُ كُتَّاب التراجُم إلى أن أهلَ التَّعَصُّبِ وعُلماءَ الظَّاهرِ دفعوا وَلَدًا من أولادِ مولانا إلى أن يَهْدِمَ جدارًا فوقه، وَلَفَّقَتْ حِكَايَاتُ آخِرٍ أيضًا في شأن غَيْبَتِهِ لا سَنَدَ لها البتَّةُ، لكنَّ الثَّابِتَ أن غَيْبَتَهُ حَدَثَتْ سَنَةَ ٦٤٥هـ. ثم بعدَ بَحْثٍ كثيرٍ، أعلنَ مولانا الهَيَامَ والوَلَةَ والانجذابَ، وَذَهَبَ من يده زِمَامُ الاختيارِ، وَقَدَّرَ وافرٌ من أشعار منظومته «ديوان شمس تبريز» تصويرًا لهذه اللَّحْظَاتِ والأَيَّامِ. وَكُلُّ مَنْ كان يَأْتِيهِ بِخَبَرٍ عن شمس، حتَّى إن كان كاذبًا، كان في الحال يقدِّمُ له لِيَاسَهُ بِشارةٍ وَنِثَارًا. وعلى أثر سَمَاعِ هذه الأخبارِ، شدَّ مولانا الرِّحالَ إلى دِمَشقَ، وهناك بَحَثَ عنه لبعض الوقت، وفي النِّهَايَةِ عادَ إلى قونية يائسًا. لكنَّ نارَ ذلك الوجد والوَلَةِ كانت تضطربُ في داخله، ومن جديدٍ أخذَ يَبْحَثُ عنه، إلى أن يَمَمَ مَرَّةً أُخْرَى شَطْرَ دِمَشقَ، لكنَّه في هذه المَرَّةِ تحوَّلَ ذلك الأملُ إلى يأسٍ كُلِّيَّةٍ، واستيقنَ أن لِقَاءَ آخِرِ ظاهريًّا يجمعه بشمسٍ أمرٌ غيرُ مُيسَّرٍ. وَوَفَّقًا لتحقيقاتِ المرحوم الأستاذ فُروزانفر، حَدَثَتْ الأسفارُ التي قام بها

مَوْلَانَا بَحْثًا عَنِ شَمْسٍ فِي الْمَدَّةِ مِنْ ٦٤٥ إِلَى ٦٤٧ هـ. ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْمَدَّةِ، كَانَ مُحَرِّكُ عَشْقِ مَوْلَانَا، وَبَاعِثُ وَجْدِهِ وَوَلَّهِه، وَذَرِيعَةُ تَرْثُمِهِ وَإِنْشَادِهِ، صَلَاحُ الدِّينِ زَرْكُوبِ.

وَبِاسْتِثْنَاءِ مَا يُعْلَمُ مِنْ غَزَلِيَّاتِ مَوْلَانَا وَبَعْضِ أَشْعَارِهِ، يُمْكِنُ قَوْلُ الْقَلِيلِ مِنَ الْكَلَامِ الْقَاطِعِ الْمُسَلَّمِ فِي شَأْنِ شَمْسٍ. حَتَّى تَعْيِينُ حَدِّ لِشَخْصِيَّتِهِ أَمْرٌ غَيْرُ مُمْكِنٍ، فَإِذَا وَجَدَ طُوفَانٌ عَظِيمٌ هَلْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ قُوَّةِ هُبُوبِ الرِّيحِ وَقُدْرَتِهَا عَلَى التَّدْمِيرِ، أَوْ لِأَنَّ هَذَا الْبَحْرَ وَاسِعٌ وَعَظِيمٌ جَدًّا فَجَعَلَتْهُ أَصْغَرُ مَوْجَةٍ طُوفَانًا؟ وَإِذَا اضْطَرَمَّتْ نَارٌ اضْطَرَامًا عَظِيمًا هَلْ كَانَ ذَلِكَ لِأَنَّ عَامِلَ الْحَرِيقِ كَانَ قَوِيًّا، أَوْ لِأَنَّ الْغَابَةَ الْمُمْتَدَّةَ لَدَيْهَا اسْتِعْدَادٌ زَائِدٌ عَلَى الْحَدِّ؟ الَّذِي يَبْدُو لِلنَّظَرِ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْقِرَائِنُ، أَنَّ الْبَحْرَ كَانَ بَحْرًا لَا ضِفَافَ لَهُ، وَأَنَّ الْغَابَةَ كَانَتْ مَتْرَامِيَّةَ الْأَطْرَافِ، فَصَارَا قَابِلَيْنِ لِلطُّوفَانِ وَالْحَرِيقِ. وَهَذِهِ هِيَ حَالُ شَمْسٍ مَعَ مَوْلَانَا. وَفِي هَذِهِ الْوَجْهَةِ، رُوي أَنَّهُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ كَانَ حَضْرَةُ مَوْلَانَا فِي بُسْتَانِ حُسَامِ الدِّينِ يَتَحَدَّثُ عَنْ شَمْسٍ التَّبْرِيزِيِّ، وَفِي هَذَا الشَّأْنِ تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الثَّنَاءِ وَأَفْرَطَ فِي الْمَدْحِ، فَمَا كَانَ مِنْ أَحَدِ الْأَصْحَابِ إِلَّا أَنْ تَأَوَّاهُ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ مَتَمْنِيًّا لَوْ أَنَّهُ كَانَ زَارَ شَمْسًا، وَقَالَ: «يَا لِلْخُسَارَةِ!». فَقَالَ مَوْلَانَا فِي إِجَابَتِهِ: «لِمَاذَا الْخُسَارَةُ، وَمَا الْخُسَارَةُ، وَهَذِهِ الْخُسَارَةُ مَا مَحَلُّهَا، وَمَا مُوجِبُ الْخُسَارَةِ، وَأَيُّ شَأْنٍ لِلْخُسَارَةِ بَيْنَنَا»، فَخَجَلَ ذَلِكَ الصَّاحِبُ وَقَالَ: «خُسَارَتِي مِنْ أَجْلِ أَنَّنِي لَمْ أُدْرِكْ مَوْلَانَا شَمْسَ الدِّينِ التَّبْرِيزِيِّ». فَصَمَتَ مَوْلَانَا لِلْمَحْظَةِ ثُمَّ قَالَ: «إِذَا كُنْتَ لَمْ تُدْرِكْ حَضْرَةَ مَوْلَانَا شَمْسَ الدِّينِ التَّبْرِيزِيِّ، أَقْسِمُ بِرُوحِ الْطَّاهِرِ، إِنَّكَ أُدْرِكْتَ شَخْصًا فِي كُلِّ طَيِّبَةٍ شَعْرَةٍ مِنْهُ مَعْلَقٌ أَلْفُ شَمْسٍ الدِّينِ، وَهُمْ حَيَارَى فِي إِدْرَاكِ سِرِّ سِرِّهِ!». وَبَعْدَ ذَلِكَ بَدَأَ بِإِنْشَادِ هَذَا الْغَزَلِ:

ذَكَرْتُ شَفَتِي بَغْتَةً اسْمَ الْوَرْدِ رَوْضِ الْوَرْدِ

فَجَاءَ ذَلِكَ الْوَرْدِيُّ الْعِذَارَ فَضَرَبَنِي عَلَى فَمِي

وَقَالَ: أَنَا السُّلْطَانُ، أَنَا رَوْحُ رَوْضِ الْوَرْدِ

تَكُونُ فِي حَضْرَةِ مَلِكٍ مِثْلِي ثُمَّ تَذْكُرُ فُلَانًا؟^(١)

ومع هذا كله، لا ينبغي نسيان أن الديوان الكبير، أي أعظم ديوان في موضوع الوجد والهيام في العالم كله، قد حصل من شرر تلك اللقاءات عينيها، وإذا أرادت كل الذهنيات الموجودة أيضا تصور شمس شخصية عادية ومتوسطة فإن التصور الذي يقدمه مولانا له تصور غير عادي ومدهش.

لم تتبلور شخصية شمس تبريز وترقى إلى آفاق عالية جدًا في الديوان الكبير فقط، بل في الأساطير أيضًا، وحتى الأساطير المتأخرة جدًا والجديدة رسمت له شخصية عجيبة فوق إمكانيات البشر. وهذه الأسطورة المأخوذة من «عقائد أهل الحق» واجد من تلك التصورات عينيها:

«عندما غلق منصور الحلاج على المشقة، وحرق جسده، وأسلم رماده إلى ماء البحر، ظل ذلك الرماد طافياً ومتحرّكاً فوق ماء البحر، إلى أن أخذ مولانا رجاجة مملوءة من ذلك الماء وحملها إلى بيته. وهناك سأله ابنته: ما هذا؟ - فقال: ابنتي، هذا سم حية. حذار أن تذكرني ذلك لأحد. ثم انقضى وقت على هذه الواقعة، وأصيبت ابنة مولانا بمرض شديد مؤلم، حتى نال منها الضعف والوهن وعسلت بدنها من الحياة. وابتغاء أن تريح نفسها من حياتها المؤلمة، عمدت في يوم من الأيام وفي غياب والدها إلى شرب سم الحية الموجود في الرجاجة، لكي تقتل نفسها. ولكن حدث عكس التصور

الذي كان لَدَيْهَا، ولم يقتصرِ الأمرُ على أن ذلك السَّمَّ لم يكن قاتلاً، بَلْ في لحظةٍ واحدة شُفِيَتْ مِنْ مَرَضِهَا، ولكنها أصبحت حاملاً، وكانَ ما كان حتى انتشرَ نبأُ حَمْلِهَا بَيْنَ النَّاسِ، وانتشَلَ النَّاسُ بِمَلامَةِ مَوْلَانَا وتقريعِهِ. وبدأ مَوْلَانَا بِسؤالِ الفتاة، وأخذَ يَشُدُّ الحَقِيقَةَ. وقد بَيَّنَّتِ الفتاةُ أَصْلَ الموضوع، فَسَّرَ مَوْلَانَا. وعندما وضعتِ الفتاةُ حَمْلَهَا، وَضَعَ مَوْلَانَا ذلك المولودَ في صُندوقٍ، وَوَضَعَ إلى جانبِهِ مقداراً مِنَ الذَّهَبِ والجوهرِ، وَأَسْلَمَ الصُّندوقَ لِلْمَاءِ. حَمَلَ الْمَاءُ الصُّندوقَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى حَيْثُ يَوْجَدُ بُسْتَانِيٌّ كَانَ يَسْقِي بُسْتَانَهُ، فَوَقَعَتْ عَيْنُ الْبُسْتَانِيِّ عَلَى ذَلِكَ الصُّندوقِ. فانتشَلَ الصُّندوقَ مِنَ الْمَاءِ وَحَمَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ، وَتَبَنَّى ذَلِكَ الْوَلَدَ واعتنى بِهِ حَتَّى كَبُرَ. وعندما بَلَغَ الطِّفْلُ سِنَّ الرُّشْدِ أَحَسَّ بِأَنَّهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْجِسْمِيَّةِ لَيْسَ لَدَيْهِ أَيُّ انسِجَامٍ وَتَوَافُقٍ مَعَ جَوْ حَيَاةِ الْبُسْتَانِيِّ. فكانَ في يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ أَنْ سَأَلَ الْبُسْتَانِيُّ: مَا الْحَقِيقَةُ، وَمِنْ أَيِّ مَكَانٍ أَنَا، وَمَنْ أَنَا؟ فاضطَّرَّ الْبُسْتَانِيُّ إِلَى إِعْلَامِهِ بِوَاقِعِ الْأَمْرِ، وَفِي النِّهَايَةِ خَرَجَ مِنَ عِنْدِ الْبُسْتَانِيِّ، وَأَخَذَ يَبْحَثُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَوْلَانَا (وَالِدِ أُمِّهِ)، فَعَقَّدَ مَوْلَانَا نِطَاقَ الْخِدْمَةِ أَمَامَهُ كَالْعَبْدِ، وَصَارَ مُحِبِّبًا جَدًّا لَدَيْهِ^(١).

وهذه القضيةُ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ نَمُودَجًا لكَثِيرٍ مِنَ النِّكَاتِ فِي شَأْنِ شَمْسٍ وَمَوْلَانَا، وَارْتِبَاطُ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ رُوحِيًّا. أَلَيْسَ الْمَقْصُودُ الْإِشَارَةَ إِلَى حَقِيقَةِ أَنَّ شَمْسًا لَمْ يَكُنْ إِلَّا انْعِكَاسًا لِرُوحِ مَوْلَانَا، أَوْ مِرْآةً كَانَ مَوْلَانَا يُشَاهِدُ فِيهَا تَجَلِّيَّاتِهِ الْعَاطِفِيَّةَ وَالرُّوحِيَّةَ. مَعَ أَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ فِي الظَّاهِرِ صُورَةٌ فِي مِرْآةٍ، وَإِذَا مَا رَفَعْنَا جَمَالَهَ مِنْ أَمَامِ الْمِرْآةِ بَقِيَتْ الْمِرْآةُ وَخَدَّهَا وَذَهَبَتْ تِلْكَ الصُّورَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ:

١- شاهنلمه حقيقت (التاريخ المنظوم لعظماء أهل الحق)، تأليف الحاج نعمت الله جيحون آبادي مكري، نشره الدكتور محمد مكري القسم الأول، طهران ١٣٤٥ هـ، المعهد الإيراني الفرنسي، ص ٢٦١-٢٦٥.

ما شمس تبريز إلا ذريعة

أما في جمال اللطف فنحن أصحاب الشأن، نحن^(١)

وغير معلوم أبداً أنه لو أن شمساً التبريزي لم يكن موجوداً، أو أن اللقاء بينه وبين مولانا لم يحصل، أكان يمكن كل هذه الأشعار اللآلاء والغزليات الممتازة أن تفيض من طبع مولانا، ويكتب لها الظهور؟ إجابة سؤال كهذا أمر صعب. والقدر المسلّم هو أن الشطر الأعظم من ديوان شمس في صورته الموجودة هو أثر من آثار هذا اللقاء والافتتان: يا مفخر التبريزيين، يا شمس الحق والدين، تحدث

لعمل كلامي هذا كله يكون صدّي لكلامك^(٢)

ولكن من كان شمس؟ معارفنا عن الهوية التاريخية لشمس ضئيلة جداً. انعكاس شخصيته في سير حياة مولانا، وفي غزليات شمس، يشتمل على ذلك الجزء من حياته الذي أثبت في سنوات ظهوره المحدودة في قونية وامتزاج أحواله بأحوال مولانا. والقدر الثابت هو أن شمساً جاء إلى قونية في ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ٦٤٢هـ، ثم بعد ستة عشر شهراً تقريباً ترك قونية في ٢١ شوال سنة ٦٤٣هـ، ثم بعد ذلك عاد مرة أخرى إليها في سنة ٦٤٤هـ، ثم في سنة ٦٤٥هـ توارى عن الأنظار نهائياً. هذه جُملة معارفنا في شأنه. وقبل هذه التواريخ وبعدها، أين كان؟ وماذا كان يفعل؟ أمور غير معلومة البتة.

يقال إن شمساً كان في مدينة تبريز مُريداً لواحد من العارفين المجهولين في ذلك العصر، واسمه الشيخ أبو بكر سلّه باف أو زنبيل باف [فارسيّة، بمعنى ناسج السلال أو ناسج الزنابيل]، وهو رجل ليس لدينا أي اطلاع آخر على هويته التاريخية. في تضاعيف

١- ديوان شمس تبريز: الغزلية ١٥٧٦.

٢- ديوان شمس تبريز: الغزلية ٤٠٥٦.

«مقالات شمس»^(*) تقع العينُ أحيانًا على إشاراتٍ إلى مَنْ يُسمَّى الشيخُ أبا بكرٍ، كما في قوله مثلاً: «لَيْسَ لذلك الشيخُ أبي بكرٌ عادةُ تسليم الخِرقة الصوفية». فإذا كان مقصوده هنا الشيخُ أبا بكرَ زَنْبِيلَ بَافِ نفسه فإنَّ قرينةَ العبارة تُشير إلى أنَّه في هذا التاريخ (٦٤٢ - ٦٤٥ هـ تقريبًا) كان ما يزال حيًّا، ولولا ذلك لكان قال: لم تُكنْ له عادةُ تسليم الخِرقة الصوفية. أو قوله في موضعٍ آخر: «لذلك الشيخُ، أبي بكرٌ، سُكَّرَ من الله، ولكن لَيْسَ له ذلك الصَّخُو الذي بعده. وهذا من جهة العلم معلومٌ عند هذا العبد»^(١).

مَقَالَاتُ شَمْسٍ:

في الحِقْبَةِ القصيرة التي كان لَشَمْسٍ وَمَوْلَانَا فيها لقاءاتٌ لمدَّة ثلاث سنوات تقريبًا، في السَّنوات ٦٤٢ - ٦٤٥ هـ، وحيثُ كان شَمْسٌ يتحدَّثُ في جَمْعِ أصحابِ مَوْلَانَا وفي حضرته، حَفِظَ بعضُ أصحابِ مَوْلَانَا أجزاءً من كلامه، حينًا بعَيْنِ عبارته وحينًا بتغيير يُحدثونه في عبارته تبعًا لفهمهم إيَّاهَا، ودَوَّنوها، وهو ما بقي لنا اليوم باسمِ «مقالات شَمْسٍ تَبْرِيْزِي». الإنسانُ الذي ينظُرُ في هذا الكتاب بتأملٍ يتذكَّرُ البروقَ المتفرقة في ليالي الرِّبيع، في لحظةٍ واحدةٍ يُضاءُ الفضاءُ بكلامِهِ ومن جديدٍ يَضُمْتُ. مرَّةً ضياءً ومرَّةً صَمْتُ. كان خَصْلَةٌ ذاتِيَّةٌ له أنَّه لم يكن يمتلكُ في الأحوال كُلِّهَا الاستعدادَ للخطابة والكلام المنظَّم. ومعَ هذا كلِّه، ما بقي من كلامه يُعدُّ من أنفُسِ أجزاء الميراثِ الفِكْريِّ والإبداعِ البَشَريِّ في الثقافة الإيرانيَّة. وعندمَا كان شَمْسٌ يرى هذه المدوَّناتِ التي يُنبِئُها المریدون من كلامه هو، كان يسمِّيها «الجُذَاذَاتِ» أو القُرَاضَاتِ، على سبيلِ السُّخرية والاستهزاء.

* - كتابٌ كبيرٌ يتضمَّنُ كلامًا لِشَمْسٍ تَبْرِيْزِي، يبدو أساسًا لكثيرٍ من فِكرِ مَوْلَانَا.

نهاية شمس:

في المرة الثانية، إذ غاب شمس عن قونية سنة ٦٤٥هـ، لا نعود نمتلك أصغر إشارة منه. تحدث بعضهم عن قتله، وتحدث آخرون عن غيابه. وتظل نهايته سرًا من أسرار تاريخ الثقافة الإيرانية. ومع هذا كله، احتمال أن يكون شمس ترك قونية قاصدًا إلى وطنه تبريز، وتوفي في مدينة خوي في خمولٍ للذكر ومن دون صجيج، ودُفن في عين المكان المشهور باسم مزاره، لا يمكن أن يكون بعيدًا كثيرًا عن الحقيقة، خاصة أن وثائقٍ جديرةً بالملاحظة في هذا الشأن في مُتناول اليد^(١).

ويُعلم من تصريحاته في تضاعيف «المقالات» أنه حظي من العلوم الرائجة في عصره كالْفقه^(٢) وآداب العرب بنصيبٍ وافٍ^(٣).

مذهب شمس الفقهِي:

كان المذهبُ الفقهِي لِشمسِ التبريزي مذهب الإمام الشافعي، وهو نفسه يصرّح بأنه في أثناء دراسته الفقه كان يُدعى لدراسة كتاب «التنبيه في فروع الشافعية» لأبي إسحاق الشيرازي (٣٩٣ - ٤٧٦هـ)، وهذا هو المجال الذي يفرق فيه «منهجه» عن «منهج» مولانا. وكان مولانا في مجال الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة. لكن شمسًا يعلن أنه لم يكن لديه البتة تعصبٌ لمذهب الإمام الشافعي، وكان إذا ما استحسّن شيئًا على مذهب أبي

١- لدى الدكتور محمد أمين رياحي في هذا الشأن تحقيقٌ دقيقٌ، مُحصّله أصالةً فكرة أن شمسًا التبريزي توفي في مدينة «خوي»، وأن مزاره في المدينة نفسها بإيداري حماسي، ٢١٣ - ٢٢٥. وانظر أيضًا هذه المقدمة، فقرة «مسير أسرة مولانا من بلخ إلى قونية» [الأصل].

٢- مقالات شمس، ٨٧/٢.

٣- مقالات شمس، ١٨٥/١.

حَنيْفَةً في شَأْنِ مِنَ الشُّوْنِ قَبْلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْحَابِ اللَّجَاجِ وَالْجِدَالِ.
وَلَا نَعْلَمُ مَا إِذَا كَانَ شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ، بِمَا تَمَتَّعَ بِهِ مِنْ ذَوْقِ مُتَعَالٍ وَلَا لَاءٍ، قَدْ نَظَّمَ
شِعْرًا، أَوْ لَمْ يَنْظَمْ. وَلَا شَكَّ الْبَتَّةَ فِي عِلْمِهِ بِالشُّعْرِ. الشُّعْرَاءُ الَّذِينَ كَانَ يَسْتَجِيدُ شِعْرَهُمْ،
وَيَذْكُرُ أَسْمَاءَهُمْ، سَنَائِي وَخَاقَانِي وَنِظَامِي وَالْعِطَّارُ. اسْتَشْهَادُهُ بِشِعْرِ سَنَائِي يَشِيرُ إِلَى أَنَّ
حَافِظَتَهُ طَافِحَةٌ بِأَشْعَارِهِ. وَلَهُ أَيْضًا تَأَمَّلَاتٌ فِي أَحْوَالِ سَنَائِي، وَبَعْضٌ مِنْ أَهَمِّ نِكَاتِ
حَيَاةِ سَنَائِي هِيَ تِلْكَ الَّتِي فِي مُتَنَاوَلِنَا الْيَوْمَ بِرِكَاتِ رِوَايَاتِ شَمْسِ.
وَقَدْ نَسَبَ الْمُتَأَخِّرُونَ إِلَيْهِ نَمُودَجًا مِنَ النَّظْمِ يَبْدُو بَعِيدًا جَدًّا عَنْ فَضَاءِ خَبْرَتِهِ فِي
الْفَنِّ وَذَوْقِهِ الْمُتَعَالِي.

طِبَاعُ شَمْسٍ وَخَصَالُهُ:

كَانَ شَمْسٌ أَمْرًا بِطِيءِ الْغَضَبِ، قَلِيلَ التَّحَمُّلِ، لَا يَقِيمُ وَزْنَ لِكُلِّ الْمَوَازِينِ الَّتِي
تَضْبِطُ عُرْفَ أَهْلِ زَمَانِهِ وَعَادَاتِهِمْ: أَيْنَ نَجْدٌ غَرِيبًا مِثْلَ شَمْسٍ فِي الْعَالَمِ؟ مِنْ صِنْفِ
الرِّجَالِ الَّذِينَ يَتَوَسَّدُونَ أَجْرَةً وَلَهُمْ قَدَمٌ فَوْقَ قِمَّةِ الْأَفْلَاكِ السَّبْعَةِ، وَلَا يَشْتَرُونَ سُلْطَانَ
خَلْقِ الْعَالَمِ بِشَرْوَى نَقِيرٍ. وَنَظَرُهُ شَمْسٍ إِلَى مَسَائِلِ عَصْرِهِ، فِي مَجَالِ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ
وَالْتَّصُوفِ، نَظَرُهُ قَاسِيَةٌ وَحَادَةٌ وَغَيْرُ مَبَالِيَةٍ. كَثِيرُونَ مِنْ عُظَمَاءِ عَصْرِهِ لَمْ يَكُنْ يَقِيمُ لَهُمْ
أَيَّ وَزْنٍ، وَأَحْيَانًا كَانَ يُثْنِي عَلَى أَشْخَاصٍ مَغْمُورِينَ، مَعَ كُلِّ مَا كَانَ لَدَيْهِمْ مِنْ خُرُوجٍ
عَلَى الْمَعَايِيرِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ لِعَصْرِهِمْ، وَكَانَ يَأْنَسُ بِهِمْ: «أَحِبُّ الْكَافِرِينَ، مِنْ جِهَةِ
أَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ الْمَحَبَّةَ..» أَوْ: «الشَّخْصُ الَّذِي رَأَى إِمَامًا أَنْ يَغْدُو مُسْلِمًا مُسْلِمًا، وَإِمَامًا أَنْ
يَغْدُو مُلْجِدًا مُلْجِدًا..». طَرِيقَةُ كَلَامِهِ كَانَتْ عَلَى نَحْوِ حَمَلٍ مَنْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ مَعْرِفَةٌ بِهِ
عَلَى اتِّهَامِهِ بِالْإِدْعَاءِ، كَالَّذِي نَجَدَهُ فِي قَوْلِهِ: «كَلَامِي كُلُّهُ يَأْتِي عَلَى وَجْهِ الْكِبْرِيَاءِ، كُلُّهُ

٤٠ ————— مقدمة في شأن: الرومي وشمس الدين التبريزي وقونية
يُظهر الادعاء». وحتى في عمله كان معقداً: «مثل ذلك الخطاط الذي كتب خطأ بثلاثة
أشكال: واحد يقرؤه هو ولا يقرؤه غيره، وواحد يقرؤه هو ويقرؤه غيره، وواحد لا
يقرؤه هو ولا يقرؤه غيره. وذلكم أنا الذي أتحدث. لا أنا أعلم، ولا غيري».
شمس التبريزي في نظر مولانا مظهر لكمال «الإنسانية»، ومظهر لكمال
«العشق»، وعند مولانا أن هذين المفهومين مرتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً قوياً، إذ
كلما اكتملت «الإنسانية» تمتع العشق بقدر أكبر من الكمال؛ ذلك لأن العشق أمانة
إلهية أُسِلِمَتْ للإنسان فقط:

إذا كانت السماوات لا قدرة لها على حمل أمانات الحق

فكيف نثرها شمس التبريزي في الأرض؟^(١)

ويقول في موضع آخر:

يا شمس تبريز، العشق هو الذي يعرفك، لا العقل^(٢).

الوحدة الروحية التي توجد بين رجال الله، لا تفهم إلا بصعوبة عند الأشخاص
الذين هم بعيدون عن هذه التجربة المعنوية. وعندما يقول شمس: «كنت أنشدُ إنساناً
من جنسي؛ لأجعله قبلة لي» (مقالات شمس ٢١٩/١)، يكون مبعث ذلك كمال
الصدق، ثم إنه يتقدم في صدق اللهجة هذا إلى قدر يفنى فيه مولانا ولا يبقى إلا الحق
سبحانه، فإذا سأل أحد عن مولانا أجيب بذكر صفات الحق تعالى الباقية: «إذا سُئِلْتُ:
كيف عرفت مولانا؟ - فقل: إن تسأل عن قوله فاقراً: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ

١- ديوان شمس تبريز: الغزلية ١٩٧٢.

٢- ديوان شمس تبريز: الغزلية ٢٣٨٧.

فَيْكُوْتُ» (٨٢/ ٣٦)، وَإِنْ تَسْأَلْ عَنْ فَعْلِهِ فَاقْرَأْ: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» (٢٩/ ٥٥)، وَإِنْ تَسْأَلْ عَنْ صِفَتِهِ فَاقْرَأْ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» (١/ ١١٢)، وَإِنْ تَسْأَلْ عَنْ اسْمِهِ فَاقْرَأْ: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ» (٢٩/ ٥٩)، وَإِنْ تَسْأَلْ عَنْ ذَاتِهِ فَاقْرَأْ: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (١٧/ ٤٢).

أَنْتَ شَمْسُ تَبْرِيزَ الَّذِي اسْتَوطنَ الرُّوحَ

الوطنُ هو رُوحُ الأرواح، فكيف تكون وطنًا للروح؟^(١)

والأجملُ والأعمقُ مِنْ هذا كُلُّهُ هذه الأبياتُ التي لا يبقَى فيها مكانٌ لِـ «أنا» و«هو»

في المَخْو:

شَمْسُ تَبْرِيزَ نَفْسُهُ ذَرِيعَةٌ
وَنَحْنُ الْمَوْجُودُونَ بِحُسْنِ اللَّطْفِ، نَحْنُ الْمَوْجُودُونَ
فَقُلْ لِلنَّاسِ مِنْ أَجْلِ التَّمْوِيهِ:
إِنَّهُ مَلِكٌ كَرِيمٌ، وَنَحْنُ مَتَسَوِّلُونَ طَالِبُونَ
وَأَيُّ شَأْنٍ لَنَا بِالْمُلْكِ وَالتَّسَوُّلِ
نَحْنُ مُسْرُورُونَ، لَأَنَّا مُسْتَحَقُّونَ لِلْمَلِكِ
نَحْنُ نَمَحِي بِحُسْنِ شَمْسِ تَبْرِيزَ

وفي المَخْوِ لَا يَكُونُ «هُوَ»، وَلَا «نَحْنُ»^(٢)

وَيُعْلَمُ مِنْ أَقْوَالِ شَمْسِ، عَلَى نَحْوِ وَاضِحٍ، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَوْمَ كَثِيرًا بِمَسْأَلَةِ أَخْذِ
الْخَزَقَةِ الصَّوْفِيَّةِ وَإِعْطَائِهَا، وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي عَصْرِهِ تُعَدُّ أَرْسَخَ أُسُسِ نِظَامِ

١- ديوان شمس تبريز: الغزالية ٢٨٨٤.

٢- ديوان شمس تبريز: الغزالية ١٥٧٦.

٤٢ ————— مقدمة في شأن: الرومي وشمس الدين التبريزي وقونية
 الخانقاه أو الزاوية الصوفية، وما كان مُهمًّا عنده هو مسألة «الصُّحبة» واشتراك العوالم
 الروحية. ويقال إنه قد أخذ خرقته من يد الرسول [عليه الصلاة والسلام] في المنام:
 «أعطاني الرسول عليه السلام في المنام الخِرقة. ولا أعني تلك الخِرقة التي تتمزق بعد
 يومين وتبلى وتُلقي في التُّور، أو يُستنجى بها، بل خِرقة الصُّحبة، الصُّحبة التي لا يتسح
 الفهم لإدراكها، الصُّحبة التي ليس لها ماضي وحاضر ومستقبل. أيُّ شأنٍ للعشق
 بالماضي والحاضر والمستقبل؟»^(١).

لم يكن معيار شمس في تقييم أهل «العشق» العلم والفضل والزهد والعبادة، حتى
 والده كان يتقده لأنه لم يكن عالمًا بـ «العشق»: «رَجُلٌ طَيِّبٌ وذو كَرَمٍ، وفي الفصاحة كان
 كلامه يقطر ماءً وروثًا، لكنّه لم يكن عاشقًا. الرَّجُلُ الطَّيِّبُ شيءٌ، والعاشقُ شيءٌ
 آخر»^(٢). ونحن لا نعلم ماذا كان يُداول في الحديث بينه وبين مولانا في الأيام الأولى،
 ولكن أساس الجاذبية عند الاثنين تمثل يقينًا في مقولة «العشق»، وامتلاك الروح العاشق.
 ومن تأمل معايير الاختيار عند شمس، يُستفاد أن أبرز شخصية عنده في تاريخ عالم
 العرفان شخصية أبي يزيد البسطامي: «الفخر الرازي لا يصل إلى غبار طريق أبي يزيد،
 وهو كالحلقة على بابه...». وعين السؤال الذي سألّه مولانا في اليوم الأول للقاءهما في
 السوق، وأثار في نفسه ذلك الاضطراب، بدأ بـ «أبي يزيد» وقوله: «سُبْحاني».

ويُعلم من أقواله أنه، ربّما بسبب إمضائه وقتًا طويلًا في مُدُنٍ مثل أَرزن الروم
 (أَرزن روم، بلدٌ في إزمينية التركية)، يعمل صاحب مدرسة ومُعلّم أطفال، ومثلما يقول

١- مقالات شمس: ١٣٤/١.

٢- مقالات شمس: ١١٧/١.

هو نفسه، كان معلماً قاسياً جداً حتّى إنّه كان يستطيع أن يهدئ ويهدّب أشرس الأطفال وأصعّبهم.

ومن بين الشعراء الكبار، كان شمسٌ مُعجَباً جداً بسنائي والخطّاقاني ونظامي، والآفْتُ للنظر أنّ هؤلاء الأربعة أنفسهم كانوا محلّ إعجاب مولانا أيضاً. وكان شمسٌ في تضاعيف أقواله يستشهدُ بشعر سنائي. مولانا أيضاً في مجالسه كان دائماً يُنشدُ أشعار سنائي.

والظاهر أنّ مولانا منذ مرحلة شبابه كان ينظم الشعر بين الحين والآخر، ومثلما ذكر بعض من كتب سيرة له، لم يبدأ نظم الشعر مع لقاء شمس. وإنّ عدداً كبيراً من المذكّرين والفُقهَاء والمتكلّمين البارزين في عصره، كانوا أيضاً شعراء، في العربية وفي الفارسيّة، مع كونهم مُذكّرين وفُقهَاء ومتكلّمين. وإنّ نظرة واحدة إلى كتاب «لُباب الألباب» لعُوفي تضعُ أمامنا شواهد لا حصرَ لها في هذا الشأن. وما أهداه شمسُ التبريزي، ولقاؤه، إلى مولانا تمثّل في تغيّر أحوال الفقيه الذي كان أحياناً ينظم شعراً أيضاً على سبيل التفتّن، وتحوّله إلى شاعرٍ عاشقٍ مضطّرّ، له على الفقه أيضاً اطلاعٌ كبير. كأنّ مولانا قبلَ لقاء شمسٍ لم يكن من أرباب السّماع والرّقص، ويُعلّم هذا على نحوٍ واضحٍ من تصريح ابنه سلطان ولد، وكذلك من قول فريدون سِبهسالار^(١).

ما حصلَ لمولانا من لقاء شمسٍ كانت له نتيجةٌ أساسيّة، هي أنّه غيّر معايير التّقييم عند مولانا، أي القِيَم التي وُجدت في ذلك الوقت من أجل الفقيه أو المذكّر أو الواعظ، وكانت أحياناً تُسبّب لأصحابه قَدراً من القيود. حرّره هذا اللقاء من سطوة تلك

المعايير. حرّر مولانا من سجن العادات والأعراف ومن قيد معايير زمانه. ولعلّ مولانا حتّى ذلك الوقت كان قد أدرك بنفسه هذه الحقائق إدراكًا كاملاً، لكنّه عملياً لم يشأ أن يستسلم لها. مزّق شمس سلسلة هذه المعايير وكسّر قيودها، وعلمه أنّه بمخالفة هذه الأعراف والعادات يمكن أن يعيش في عالمٍ آخرٍ ومع أناسٍ آخرين. ومن الممكن أن مولانا حتّى ذلك الوقت، كان يُسرُّ بِلِقَاءِ رجالٍ مثل صدر الدين القونوي ونجم الدين داية وأمثالهما، من الذين كانوا في ذلك الوقت من أهل النباهة والشأن، أمّا بعد لقائه شمساً فإنّ أشخاصاً بسطاءً مثل صلاح الدين زركوب (*) صاروا عنده على قدرٍ كبير من الأهمية، حتّى إن كانوا أميين تماماً، ولا نصيب لهم من القراءة والكتابة. فعند مولانا أنّ الشيخ هو ذلك الإنسان المتّصفُ بصفات :

اعلم أنّ الشيخ يكون متّصفاً بكلّ صفات الحق

مع أنّ الشيخ يظهر بمظهر البشر^(١)

قونية في عصر مولانا:

كانت قونية في ذلك العصر محلاً لالتقاء ثلاث الثقافات الأساسية في العالم القديم: من ناحية، كان لّلغة الفارسية والشعر والأدب الفارسي في هذه المدينة، بسبب هجرة الإيرانيين والعلماء الإيرانيين، وجودٌ ظاهرٌ وتميّز واضح. وعينُ هذا الذي نرى من أن

* - شخصٌ بسيطٌ ضئيلُ الحظ من الثقافة، لكنّ يبدو أنّه كان من أهل الصلاح والتقوى، وكان يعمل في طلاء الكتب بالذهب في دكان له في مدينة قونية. وأثر غياب شمس تعلق قلب مولانا به تعلقاً شديداً، واستمر ذلك لعشر سنوات تقريباً، حتّى وفاة صلاح الدين سنة ٦٥٧ هـ وقد جاء ذكرُ صلاح الدين هذا في أكثر من سبعين غزلية لمولانا.

رجالاً من الأتراك واليونانيين، الذين لم تكن لغتهم اللغة الفارسية، يُشاركون في مجالس التذكير والوعظ التي يحاضر فيها برهان محقق ومولانا ووالده، وأن عالماً كبيراً وعارفاً بارزاً مثل صدر الدين القنوي - الذي لم يمرّ حتى للحظة بالبلاد الناطقة بالفارسية - كان مُقنناً لهذه اللغة، ويُعلّم ذلك تماماً من رسائله الفارسية إلى السيد نصير الدين الطوسي، [أقول: عَيْنُ هذا] دليل واضح على أن لغة الثقافة في قونية كانت اللغة الفارسية. كما أن كل الوثائق والرسائل المتبادلة والدفاتر الديوانية كانت باللغة الفارسية أيضاً^(١).

وإلى جانب اللغة الفارسية، كانت اللغة العربية - التي كانت لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ولغة المعارف الدينية - في غاية الانتشار والزواج، وهذا الأمر لا يحتاج إلى شيء من الإيضاح البتة.

ونظراً إلى أن آسية الصغرى كانت مهد ثقافة التمدن اليوناني والرومي، وأن الأقوام الذين كانوا يعيشون هناك كانوا يعرفون اللغة اليونانية والثقافة اليونانية جيداً، كان لهذه الثقافة البارزة في العالم القديم حضور واضح أيضاً في هذه المدينة. وما يرى من ألفاظ يونانية، وحتى عبارات يونانية، في ديوان شمس، أفترض أنه لم ينشأ من لغة مولانا وأنه نظم لآخرين. ومهما يكن الأمر، فإنه دليل واضح على حياة هذه اللغة في تلك الناحية، وبين كثيرين من أناس هذه المدينة. ولبعض أرباب التحقيق اعتقاد بأن مولانا كان يعرف اللغة اليونانية بقدر ما أيضاً^(٢).

وفي هذه الحاضرة، وجدت الكنيسة إلى جانب المسجد، ولم تر هناك عصيات دينية من ذلك الصنف الذي راج كثيراً أحياناً في ولايات أخرى. أما مولانا، الذي كان

١ - مُسامرة الأخبار، ص ٦٤.

٢ - گلپینارلی، مولانا جلال الدین، ٣٩١ - ٣٩٥.

هو نفسه مظهرًا أنتم وأكمل لـ «صُلح كُلِّ» الفِرَق والمذاهب، فكان له في هذا المحيط مع الجميع أنس وألفة ومخالطة. وفي كتاب «مناقب العارفين»^(١) للأفلاكي حكاية تقول إنه «كان في دَيْرِ أفلاطون الحكيم»^(٢) راهبٌ ذو بَرَاعاتٍ عظيمة وطاعِنًا في السَّن، وكان هذا الراهبُ قد ادَّعى أنَّ مولانا كان يتردَّدُ إلى دَيْرِهِ، وأنَّه مرَّةً اختلَّى فيه لمدة أربعين يومًا. ويمكنُ هذه الحكاية أيضًا أن تكونَ مِنْ جِنْسِ آخَرَ لاصطناعِ كراماتِ المقامات عندَ الكُتَّاب، لكنَّها تصوِّرُ بقدرٍ مُعيَّنِ الفضاءَ الاجتماعي والديني للمدينة. ومع أنَّ قونيةَ، بسببِ وجودِ ضريحِ مولانا فيها، كانت تُعدُّ ضَرْبًا من الحَرَمِ الآمنِ، كانت أحيانًا مقصِّدًا لهجَمَاتِ الجيوش، ويمكنُ إدراكُ ذلك من شِعْر سُلطان وَلَد في شأن هذه المدينة:

أَيُّ قُونِيَّةُ المملوءةُ بالجيوش
أَنْتِ فِي خِطَّةِ الرُّومِ العاصِمةُ
كُلُّ مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ مِثْلُ أَمِيرٍ
وَأَنْتِ فَوْقَ المَدَائِنِ كَالْمَلِكِ
وَعِنْدَمَا اخْتَارَكَ حَاضِرُهُ شَيْخِنَا

١ - مناقب العارفين، ٢٩٤، و٩٠٤.

٢ - دَيْرُ أفلاطون الحكيم، كان مَحَلًّا في قونيةَ في عصر مولانا يُرى تصويرٌ دقيقٌ له في كتاب «شهنامه سلجوق»، تأليف أنسي، ص ٢. وناظم ذلك المثنى يذكر عن هذا المَحَلِّ الذي يحملُ اسْمَ «جاي أفلاطون» [بالفارسية بمعنى: مَحَلُّ أفلاطون] أنَّ فيه عَيْنَ ماءٍ تتدفَّقُ مياهُها مِنْ ثلاثِ مِئةِ أَنبوبٍ، وكان فيه بناءٌ منسوبٌ إلى الإسكندر، له اثنا عَشَرَ بُرجًا القائلُ نفسه يتحدَّثُ في شأنِ قونيةَ عن ثلاثِ مِئةِ وسِتِّينَ زاوِيَةً للصوفيَّة، وعن سبعينَ خانقاه، وعن ثلاثِ مِئةِ مسجدٍ، وسبعةِ جوامعٍ كَبِيرَةٍ، ويُنْبئُ ثناءً خاصًّا على تَكْبِيَةِ إِسحاق خان أيضًا، على أنَّها مَحَلٌّ ممتاز، ويتحدَّثُ عن قونيةَ بوصفها «مَقَرَّ العارفين» [الأصل].

كُنْتِ مِنْ مَكَّةَ وَالْكُتُبَةِ الْإِلَهِيَّةِ
 كَانَ لَكَ مِنْ وَجُودِ الشَّيْخِ رَوْنَقٌ وَجَمَالٌ
 وَالْآنَ أَنْتِ بِوَجُودِ تُرْبَتِهِ فِي حِرْزٍ وَأَمَانٍ
 أَيُّ قُوْنِيَّةٌ، أَنْتِ جَنَّةُ الْوَجُودِ
 أَيُّ قُوْنِيَّةٌ، أَنْتِ الدَّوْلَةُ وَالْجَاهُ
 أَيُّ مِصْرُ، أَنْتِ أَمَامَ حَاضِرَةِ كَهْذِهِ
 صَغِيرَةٌ جَدًّا، وَضَائِلَةٌ كَالْقَشَّةِ
 فَأَقِمِي، أَيُّ وَلَدٍ، فِي قُوْنِيَّةٍ قَرِيبِ الْمَيْنِ
 إِلَى أَنْ يَزُولَ عَنْهَا الْهَلَاكُ وَالذَّمَارُ
 هَذَا الشَّعْرُ الَّذِي يَشِيرُ إِلَى أَنَّ سُلْطَانَ وَلَدٍ قَدْ نَظَّمَ هَذِهِ الْآيَاتِ عِنْدَمَا كَانَتْ قُوْنِيَّةٌ
 تَحْتَ حِصَارِ جُيُوشٍ مِنَ الْخَارِجِ.

العشْقُ هو تِلْكَ الشَّعْلَةُ الَّتِي عِنْدَمَا اشْتَعَلَتْ
أَخْرَقَتْ كُلَّ شَيْءٍ مَا عدا المعشوقَ،
وَأَنْتَ بِسَبَبِ شَوْكَةِ وَاحِدَةٍ تَفَرِّ مِنَ الْعِشْقِ،
فَمَاذَا تَعْرِفُ أَنْتَ عَنِ الْعِشْقِ مَا خَلاَ الْاسْمَ؟
(المثنوي: ٥٨٩/٥ - ٩٠)

بِاسْمِ اللَّهِ

- تقديم المؤلف -

بَعْدَ انقضاءِ قُرُونٍ عَلَى لِقَاءِ شَمْسِ مُلْكُودِ التَّبْرِيزِيِّ جَلَّالَ الدِّينِ مُحَمَّدًا الْبَلْخِيَّ
فِي قُوْنِيَّةَ، وَحَتَّى الْآنَ، كَثِيرًا مَا يَسْأَلُ عِدَّةٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمَفْكُرِينَ أَوْ الشُّبَّانِ الَّذِينَ يَشَارِكُونَ
فِي الْمَجَالِسِ وَالْمَحَافِلِ الْأَدَبِيَّةِ، خَاصَّةً ذَوِي الْخَبَرَةِ بِمَوْلَانَا الَّذِينَ لَدَيْهِمْ شَوْقٌ إِلَيْهِ:
مَاذَا حَدَّثَ، وَمَاذَا قَالَ شَمْسٌ فِي مَخْضَرِ مَوْلَانَا حَتَّى قَدَّرَ عَلَى أَنْ يَغَيِّرَ الْأُسْتَاذَ وَالْفَقِيهَ
الْغَيْرَ الْمَنَازِعِ فِي الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ عَلَى نَحْوِ مَفَاجِئٍ، وَيَنْقُلَهُ مِنْ كُرْسِيِّ التَّدْرِيسِ وَالْبَحْثِ
وَالاحتِجَاجِ إِلَى مَحَافِلِ السَّمَاعِ، وَيُدْفَعَهُ إِلَى الرَّقْصِ وَالدَّوْرَانِ فِي الْأَحْيَاءِ وَالْأَزْقَةِ، بَلْ
حَتَّى فِي شَوْقِ الصَّاعَةِ؟ - أَيْهَ شَخْصِيَّةٍ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ حَتَّى جَعَلَ وجودَ الْعَقْلِ مَحَلَّ
تَسْأُولٍ، وَحَوَلَ الشَّيْخَ إِلَى مَدَاحٍ وَمتحدِّثٍ بليغٍ عَنِ عِلْمِ الْعِشْقِ؟ - حَوْلَ أَيِّ شَيْءٍ
دَارَتْ أَحَادِيثُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، الشَّابِّ وَالشَّيْخِ، فِي خَلْوَةٍ لِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ أَمْضِيَتْ فِي حُجْرَةٍ
شِبْهِ مُظْلِمَةٍ وَرَطْبَةٍ؟ - أَيْكُونُ مِنَ الْمُمْكِنِ، مِنْ خِلَالِ الْأَثَارِ الْبَاقِيَةِ، كَشْفُ النِّقَاطِ
الْأَسَاسِيَّةِ لِلفِكْرِ الدَّرَوِيشِ التَّبْرِيزِيِّ وَأَسَالِيهِهِ الْخَاصَّةِ فِي الْعَمَلِ وَالسَّلُوكِ وَالْحَدِيثِ فِي
قُوْنِيَّةَ، تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ مَوْضِعَ اهْتِمَامِ مَوْلَانَا؟ - لِمَاذَا لَمْ تَتَنَاقَشْ نَظَرَاتُ جَمَاعَةٍ مِنَ
عُلَمَاءِ قُوْنِيَّةَ مَعَ مَوْلَانَا الْمُتَغَيِّرِ وَتَنْسَجِمَ مَعَهُ؟ - لِمَاذَا كَانَ مَوْلَانَا فِي أَثْنَاءِ إِنْشَاءِ غَزَلِيَّاتِهِ
يَتَأَثَّرُ وَيَجْرِي الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ؟ - أَلَا تَكُونُ شَرَّاسَةً ابْنِ مَوْلَانَا الْأَصْغَرَ، وَضِيقُ نَظَرِهِ،

وَطَبَعُهُ الْحَاقِدُ سَبِيًّا لَهُنَّ شَمْسٍ عَلَى وَجْهِهِ أَوْ قَتَلَهُ ؟ - أَلَا يَكُونُ حُكْمُ بَعْضِ الْمَفْكَرِينَ وَآرَاؤِهِمْ، الْمَصْحُوبَةُ أحيانًا بِالْأَهْوَاءِ وَعَدَمُ الْإِنْصَافِ، مَعَ مُضَيِّ [٦] قُرُونٍ، مُتَطَابِقَةً مَعَ الْوَاقِعِ فِي شَأْنِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ؟ - هَلْ صَارَ النِّقْصُ فِي الْإِحْسَاسِ وَالْعَوَاطِفِ، وَالتَّشَدُّدُ الْفِكْرِي فِي مُحِيطٍ قُوْنِيَّةٍ، سَبَبًا لَانْفِجَارِ رُوحِي فِي حَيَاةِ مَوْلَانَا ؟

وَمِنْ دُونِ أَنْ أَعِدَّ نَفْسِي، لَا قَدَرَ اللَّهُ، أَفْضَلَ وَأَسْمَى مِنَ الْبَاحِثِينَ الْآخَرِينَ، أَوْ لَدَيَّ جُرْأَةً أَكْثَرَ عَلَى رَدِّ انْتِقَادَاتِهِمْ فِي هَذَا الْمَجَالِ، أَعْتَقِدُ أَنَّي طَبَقًا لِدَوْقِي الشَّخْصِيَّةِ، الَّذِي رُبَّمَا يَكُونُ تَقْلِيدِيًّا فِي مِصْطَلَحِ أَهْلِ عَصْرِنَا، وَهُوَ يَقِينًا تَقْلِيدِيٌّ رَحْبٌ وَخَالٍ مِنْ أَيْ نَوْعٍ مِنَ التَّفَكِيرِ الْعِزْمِيِّ، أُبَيِّنُ بِالْكِنَايَةِ، وَرُبَّمَا بِلَا لَوْنٍ وَبِلَا عِلَامَةٍ، أخطاءَ الْأَحْكَامِ الَّتِي أَصْدَرْتُ فِي شَأْنِ لِقَاءِ رَجُلِي وَادِي الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ الْكَبِيرَيْنِ، وَأُوجِّهُهَا عَلَى نَحْوِ تَكُونُ فِيهِ مَعْتَمَدَةٌ وَقَابِلَةٌ لِلتَّأَمُّلِ.

وَأَعْتَقِدُ أَنَّ كَثِيرِينَ مِنَ الْبَاحِثِينَ أَيْضًا، مِثْلُهُمْ كَمَثَلِ جَمَاعَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ، مُنْجَذِبُونَ وَغَيْرُ مَصُونِينَ مِنَ الْخَطَأِ، وَفِي رَأْيِي أَنَّهُمْ لَمْ يَذَرِسُوا تَمَامَ نُبُوغِ شَمْسٍ وَكَلَامِهِ بِعَقْلَانِيَّةٍ وَحِيَادٍ، أَوْ نُسُوا ثِقَافَةَ شَمْسٍ وَفِكْرَهُ فِي مُحِيطِ اجْتِمَاعِي مُظْلِمٍ، فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهَجْرِيِّ، أَوْ لَمْ يَهْتَمُّوا بِهِمَا، وَلَمْ يَعُدُّوا شَمْسًا فِي مَنْزِلَةِ عَارِفٍ بِصِيرٍ مُطَّلِعٍ وَهَائِمٍ بِالْعَشْقِ وَالْحَقِيقَةِ، أَوْ انْطِبَاعِيًّا impressionist بتعبير أَهْلِ عَصْرِنَا، وَفِي مَقَامٍ مُتَقَدِّ جَادٍ لِلْعُلَمَاءِ وَالْعَارِفِينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ الَّذِينَ سَبَقُوهُ. وَكَانَ يَرَى نَفْسَهُ شَبِيهَا بِ«بِرُوتِيوس Proteus»^(*) الَّذِي يَظْهَرُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ مِنْ دُونِ أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ سِيمَاءَ مُشَخَّصَةً، وَكَانَ يَمْضِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ غَيْرَ مَهْتَمٍّ بِالْمَنْزِلَةِ وَالْجَاهِ وَالتَّمَيُّزِ، مُنْشَغِلًا بِاصْطِيَادِ أَصْحَابِ الْفِكْرِ النَّفَازِ

* مِنْ آلِهَةِ الْبَحْرِ فِي الْأَسَاطِيرِ الْيُونَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، أَعْطَاهَا أَبُوهَا - خَالِيُّ الْبَحَارِ - مَوْهَبَةَ التَّنَبُّؤِ وَتَغْيِيرِ مَلَامِحِ الْوَجْهِ [الأصل].

والشكاكين الذين يفتشون وحيدين ضائعين عن حياتهم، ليس في العلم المدرسي وليس في قوانين العقل الجزئي، بل في مكان آخر، ويتابعون ذلك باشتياق.

ومع أن شمسًا كان يعلم أن لديه مهمة وربما رسالة خطيرة في قونية، ويمكن أن يقع في شرك الخطر، خاطر من دون مبالاة واهتمام ولم يُعطِ أهمية لذلك. ومن خلال لقاء واحد قصير الأمد وفق إلى معرفة دقيقة للشخصية الداخلية لجلال الدين، الذي كان يبحث عنه كمن يبحث عن العناء والكيمياء. وحين اطمأن إلى رؤيته الذاتية وعرفانه، مثلما يزعم في كتابه «المقالات» أنه شاهد آثارًا من التجلي وميلًا متعاليًا إلى إدراك الحقيقة [٧] والمعرفة في كلام جلال الدين وباطنه، ظهر له تمامًا أنه أسير، أو يعاني في قيد توقي إلى مثال صوفي كان يفصله عن الإثبات الواقعي... ولكنه استيقن أنه يستطيع في أمد قصير أن يصطاده^(١) ويوقعه في شركه. كان شمس عارفًا، لديه، باعترافه هو، هدف واحد. كان هدفه التغني بالعشق وتبيينه لأصحاب النظر المشتاقين، وكان عشقًا للناس، وعشقًا للموسيقا، وعشقًا للعزفان. ولعل مولانا كان كذلك أيضًا، وقد بقي أيضًا مدة طويلة مثل أحمد الغزالي يشكك بكل شيء، ولم يكن يطلب العينية العلمية والتجريب، بل كان ينشد بطريق معرفة عالم الباطن أن يصل شيئًا فشيئًا إلى حيث لا يرى سوى الله. سأل شمس مولانا في الخلوة بهدوء:

عم تبحث؟ - عن منزلة ومنصب عالٍ أم عن إدراك الحقيقة؟

فيجيب مولانا، أستاذ دار العلم في قونية:

١- في الديوان الكبير لمولانا جاء في هذا الشأن ما يأتي:
أنت صيدي، يا حبيبي، ومع أنك تحررت من الشرك، غد من جديد إلى الشرك، وإن لم تعد فسأطردك

عن عِلَّةِ خَلْقِ الكائناتِ والنَّاسِ! لَيْسَ مِنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ، بَلْ..

فَطَعَّ شَمْسُ فَوْراً كَلَامَ مَوْلَانَا، وَسَأَلَ:

هَلْ قَرَأْتَ الْحَدِيثَ: «كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِياً فَأَخْبَيْتُ أَنْ أُعْرَفَ..» عَلَى سَبِيلِ الْإِخْلَاصِ؟

نَعَمْ، قَرَأْتُ، وَلَكِنِّي إِلَى الْآنَ لَمْ أَظْفَرْ مِنْ شَجَرَةِ الْمَعْرِفَةِ بِشَمْرَةٍ، لَعَلَّنِي أَكُونَ فِي

مُنْعَطَفِ أَوَّلِ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ.

أَتَعْرِفُ ثَمَرَةَ الْمَعْرِفَةِ مَا هِيَ؟ - يَسْكُتُ مَوْلَانَا. دَعْنِي أَبَيِّنْ لَكَ؛ لِأَنَّ لَدَيْكَ

تَعَلُّقًا وَإِصْرَارًا وَأَمَلًا بِلِقَاءِ الْحَقِيقَةِ... إِنَّ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ وَتَجَلِّيَ الْحَقِّ يَتَيَسَّرَانِ بِمَدَدِ

الْعِشْقِ. وَالْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ وَآدَمِ أَساسُهَا الْعِشْقُ. الْعِشْقُ فِي عَقِيدَةِ الْعَارِفِينَ

مِثْلَ الرُّوحِ، مِنْ عَالَمِ الْأَمْرِ؛ وَبَيْنَ الرُّوحِ وَالْعِشْقِ فِيمَا أَرَى ارْتِبَاطٌ مَعْنَوِيٌّ

وَمَلَكُوتِي... الْعِشْقُ هُوَ الَّذِي يَرِبُ بَيْنَ التُّرَابِ وَالْأَفْلاكِ، بَيْنَ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ؛

وَالْبَشَرُ مَزِيَجٌ مِنَ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ.

يَسْكُتُ شَمْسٌ لِكَيْ يَرَى مَاذَا تَرَكَ كَلَامُهُ مِنْ آثَارٍ فِي أَسَازِ جَامِعِ قُوْنِيَّةٍ. كَانَ يَرَى

فِي عَيْنِي مَوْلَانَا وَجَدًا مَصْحُوبًا بِاشْتِيَاقٍ إِلَى مُوَاصِلَةِ هَذَا الْبَحْثِ الْمُنْعَشِ لِلرُّوحِ. كَانَ

يُرِيدُ أَنْ يَدْرِكَ مَفْهُومَ الْعِشْقِ أَكْثَرَ؛ كَانَ فِي انْتِظَارِ اسْتِمْرَارِ [٨] كَلَامِ الْأَسَازِ. وَكَأَنَّ

شَمْسًا، اعْتِمَادًا عَلَى الْبُعْدِ الْإِيهَامِيِّ لِلْعِشْقِ، لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ، أَوْ لَمْ يَرِ مُصْلَحَةً فِي، أَنْ يَزِيدَ

فِي إِيضَاحِ هَذِهِ الْأَسْطُورَةِ الْقُدْسِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ.

سَأَلَ شَمْسٌ مَوْلَانَا:

أَتَعْرِفُ شِهَابَ الدِّينِ الشُّهْرَوَزْدِيَّ؟ - مَعَ أَنَّ عَقْلَهُ كَانَ أَقْلَ مِنْ عِلْمِهِ، كَانَ يَعْتَقِدُ فِي

مَجَالِ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ الْعِشْقِ وَالْمَعْرِفَةِ، مُتَأَثِّرًا بِأَقْوَالِ سُقْرَاطَ فِي رِسَالَةِ «الْمَأْدُبَةِ» وَشَيْءٍ

من آثار أفلاطون، أنه:

«عندما تبلغ المحبة الغاية تُسمى العشق، والعشق أخص من المحبة؛ لأن كل عشق محبة، وليس كل محبة عشقاً. فالدرجة الأولى هي المعرفة، والدرجة الثانية هي المحبة، والدرجة الثالثة هي العشق؛ ولا يمكن الوصول إلى عالم العشق الذي هو فوق الجميع إلا بعد اجتياز درجتَي المعرفة والمحبة»^(١).

وإذا كان السبلي صاح وقال: «ليس في جُبتِي إلا الله»، وكان حسين بن منصور الحلاج البيضاوي يصرخ ويقرع طبل «أنا الحق»، فقد كان ذلك بسبب تصوّرهما أن البشر مرآة للحق، وكانا - على الحقيقة - يعتقدان أن الحق يريد أن يرى الإلهي في البشري، ومن هذه الوجهة خلق الإنسان ليكون مرآة جماله. وما أجمل ما قال الشيخ فريد الدين العطار في هذا المعنى:

خَلَقْنَا الْحَقَّ عَلَى صُورَتِهِ فَأَخَذَ وَصَفْنَا مِنْ وَصْفِهِ السَّبْقُ
فَكُلُّ مَا يَظْهَرُ فِيهِ هُوَ صُورَتُهُ مِثْلَمَا تَظْهَرُ صُورَةُ الْقَمَرِ فِي مَاءِ النَّهْرِ

وإن للعشق تأثيراً فعالاً وخلاقاً في مجالات حياة البشر كلها؛ في عالم المعرفة وفي الطب وفي عالم الموسيقى. وعند عَيْنِ القضاة، شهيد طريق العشق، أن العشق صفة للروح، وأن العشق والروح خُلِقَا في لحظة واحدة. وإذا كان العشق خاصية للروح فمرجع ذلك أنه في الأصل صفة للذات أو صفة للحق؛ ومن هذه الوجهة تقول جمهرة مشايخ التصوف والعرفان: «ظننتُ أنني أنا الذي كنتُ أحبه، وعندما تأملتُ أدركتُ أن محبته

١ - مجموعة الآثار الفارسية للشيخ شهاب الدين الشهروردي (طهران، بعناية د. سيد حسين نصر وهنري كورين، ص ٢٨٦ - ٢٨٧).

إِذَا كَانَتْ سَابِقَةً». وقد قَالَ عَيْنُ الْقُضَاةِ فِي كِتَابِ اللَّوَائِحِ: «إِنْ كَانَ لِأَحَدٍ طَرِيقٌ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ بِتَجَسُّسِ الْعِشْقِ؛ الْمَعشُوقُ مَلِكٌ، وَالرَّوْحُ مَرْكَبٌ، وَالْعِشْقُ صَاحِبُ الرِّكَابِ».^(١) وكلُّمَا ازدَادَ الْإِنْسَانُ عِشْقًا لِلْحَقِيقَةِ وَعَرَفَ خَالِقَ الْكَائِنَاتِ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ وَأَكْثَرِ عِشْقًا، [٩] ازدَادَتْ مَحَبَّةُ اللَّهِ [تعالى] إِيَّاهُ؛ لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ ثَمَرَةُ الْمَعْرِفَةِ، وَكُلُّ مَنْ لَا يَحِبُّهُ اللَّهُ لَا يَحِبُّهُ لِأَنَّهُ مَا عَرَفَهُ تَعَالَى.

وَبِالْقُدْرَةِ السَّحَرِيَّةِ لِلْعِشْقِ غَيْرِ شَمْسٍ مَوْلَانَا، جَعَلَهُ مُضْطَرِبًا مَشْتَتَ الذَّهْنِ، تَوَاقًا لِلِقَاءِ الْمَعشُوقِ، لَا يَعْرِفُ اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ وَلَا النَّهَارَ مِنَ اللَّيْلِ؛ وَلِهَذَا السَّبَبُ كِتَابَ [مَوْلَانَا] بَعْدَ لِقَائِهِ شَمْسًا فِي كِتَابِهِ «فِيهِ مَا فِيهِ»:

«مَا يَتَّجُهُ إِلَى الْحَقِّ تَعَالَى يَكُونُ لَهُ وَجُودٌ مُجَازِيٌّ ظَلَمِيٌّ، وَيُمْكِنُ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمَحْدُودِ، بِشُعَاعِ الْعِشْقِ، أَنْ يُوصَلَ إِلَى فِضَاءِ الْحَقِيقَةِ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ. لِنَعُدَّ إِلَى أَسَاسِ الْقَضِيَّةِ:

يَقْطَعُ مَوْلَانَا كَلَامَ شَمْسٍ وَيَسْأَلُ: قُلْ لِي: مَاذَا نَالَ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعِشْقِ أَشْخَاصٌ مِثْلُ الْحَلَّاجِ وَالْإِمَامِ أَحْمَدَ الْغَزَالِيِّ وَسَنَائِي وَالشُّهْرَوَرْدِيِّ وَالشَّيْخِ الْعَطَّارِ وَعَيْنِ الْقُضَاةِ الْهَمْدَانِيِّ؟ وَإِنْ كِتَابَ «اللَّوَائِحِ» لِعَيْنِ الْقُضَاةِ هُوَ كِتَابٌ فِي الْعِشْقِ. وَيَقُولُ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ الْغَزَالِيُّ، الَّذِي كَانَ مُرَادَ عَيْنِ الْقُضَاةِ وَمَعشُوقَهُ، فِي كِتَابِ «سَوَائِحِ الْعُشَاقِ»:

حِينَ يَكُونُ الْعِشْقُ جَوْهَرًا مُنْجَمًا، وَرُوحَ الْمَنْجَمِ، لِكَيْ يَغْدُوَ هُوَ جَوْهَرًا رَائِعًا وَمَنْجَمًا عَظِيمًا؛ وَحِينَ يَكُونُ شَمْسًا فِي سَمَاءِ الرُّوحِ لِكَيْ يَتَلَأَّلَ أَكْثَرُ، وَحِينَ يَكُونُ شِهَابًا فِي هَوَاءِ الرُّوحِ لِكَيْ يَحْتَرِّقَ أَكْثَرُ، وَحِينَ يَكُونُ سَرْجًا فَوْقَ جَوَادِ الرُّوحِ لِكَيْ يَعْتَلِيَهُ الرُّوحُ.

وَيَسْأَلُ مَوْلَانَا شَمْسًا: فِي مُعْجَمِ الْأَسَاطِيرِ وَالْعِرْفَانِ الْإِيرَانِيِّ، كَيْفَ عُرِّفَ الْعِشْقُ؟
فِيُجِيبُ شَمْسٌ عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

- فِي مُعْجَمِ الْخَلْقِ، بِقَدْرِ مَا تَرَامَى إِلَى سَمْعِي، اسْمُ الْمَلِكِ الْمُوَكَّلِ بِالْعِشْقِ مَيْتَرَا أَوْ
مِهْر، وَهُوَ أَمْرٌ يَصْدَقُهُ الشَّهْرُ وَزَدِي شَيْخُ الْإِشْرَاقِ، وَهَذَا الْعِشْقُ مُوجِدٌ لِلارْتِبَاطِ بَيْنَ
الْخَلْقِ وَقُوَى الْخَيْرِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْعِشْقَ فِي أُسَاطِيرِ إِيرَانَ الْقَدِيمَةِ يَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنْ
مَفْهُومِ إِيروس Eros، إِلَهَ الْحُبِّ عِنْدَ الْإِغْرِيْقِ. وَفِي الْمَعْجَمِ الْعِرْفَانِيِّ فِي إِيرَانَ الْقَدِيمَةِ
جَاءَ أَنَّ خَلَقَ الْعَالَمَ وَأَدَمَ سَبَبُهُ الْعِشْقُ وَالْوَحْدَةُ؛ وَلِلْعِشْقِ مَنْزِلَةٌ خَاصَّةٌ لَدَى الْكَائِنَاتِ
جَمِيعًا، وَهُوَ أَسَاسُ الْوُجُودِ. وَعِنْدَ شَيْخِ هَرَاةَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ «الطَّرِيقَ إِلَى
الْحَبِيبِ خَلْقَةٌ يَخْرُجُ مِنْهَا وَيَعُودُ إِلَيْهَا»^(١). وَقَدْ جِئْتُ لِأَوْضَحَ لَكَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ إِذَا
شِئْتَ أَنْ تَدْرِكَ الْحَقِيقَةَ أَوْ تَلْمَسَهَا فَابْدَأْ بِالسَّمَاعِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ بُذُورَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَقَائِقِ
تُشَاهَدُ فِي السَّمَاعِ، وَأَنَا وَأَنْتَ [١٠] وَالنَّاسُ خُلِقْنَا مِنْ أَجْلِ الْعِشْقِ.

كَانَ مَوْلَانَا يَرِيدُ مِنْ شَمْسٍ مَزِيدَ بَيَانٍ لِحَقِيقَةِ السَّمَاعِ، وَكَانَ شَمْسٌ يَقُولُ: إِنَّ
مُحَمَّدًا الْغَزَالِيَّ، أَخَا الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ، كَتَبَ فِي كِتَابِ «بَحْرِ الْحَقِيقَةِ» قَائِلًا:

«إِنَّ حَقِيقَةَ السَّمَاعِ هِيَ الْإِسْتِمَاعُ لِخُطَابِ «الْأَنْتُ بِرَبِّكُمْ» فِي يَوْمِ الْمِيثَاقِ؛ بِمَعْنَى أَنَّ
الْعَارِفَ فِي حَالَةِ الْوَجْدِ وَالسَّمَاعِ يَسْمَعُ صَدَى «الْأَنْتُ»، وَيَقْتَرِبُ مِنْ عَهْدِ مُحَبَّةِ
الْحَقِّ. وَفِي هَذَا السَّفَرِ الْمَكْتَتَبِ بِالْأَسْرَارِ، كُلَّمَا رَأَى الْعَاشِقُ فِي عَالَمِ التَّرَابِ إِشَارَةً،
كَالطَّرَةِ وَالضَّفِيرَةِ وَالْخَذِّ وَالْخَالِ وَالْحَاجِبِ، تَذَكَّرَ الْمَعْشُوقَ، وَتَذَكَّرَ وَجُودَهُ؛ فَغَايَةُ
السَّمَاعِ إِذَا تَذَكَّرَ الْمَعْشُوقَ؛ بِمَعْنَى أَنَّ السَّمَاعَ يَحْيِي فِي وَجُودِ الْعَاشِقِ حَالًا كَانَ

الرُّوحُ قد جَزَّيَها في عالمِ الباطنِ، أي يَسْمَعُ صَدَى عالمِ اللاهوتِ في النَّاسُوتِ.^(١)
وبعدئذٍ أَضَافَ شَمْسُ، وقد حَمَلَقَ في عَيْنِي جَلالِ الدينِ المندَهَشَتَيْنِ، قائلاً:
«أَتَعْلَمُ أَنَّ تَجَلِّيَ الحقِّ ورُؤْيَتَهُ يزدادانِ عِنْدَ الرِّجالِ في أَثناءِ السَّماعِ، ففي تلكَ
اللَّحظَاتِ يَخْرُجونَ مِنَ عالمِ وجودِهِم^(٢)».

يَخْرُجُهُم السَّماعُ مِنَ العوالمِ الأخرى وَيَصِلُهُم بالحقِّ... وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِ سَماعٍ في
المَشْرِقِ سَماعٌ، كَانَ لِصَاحِبِ سَماعٍ آخَرَ في المَغْرِبِ سَماعٌ أَيْضاً، وَيَكُونُ لَدَى كُلِّ
مِنْهُمَا عِلْمٌ بِحَالِ الآخَرِ.

وفي رسالةِ سِبْهَسالار ذُكِرَ في هَذَا الشَّانِ ما يَأْتِي
لَمْ يَكُنْ مَوْلانا يُجْري السَّماعَ أبداً، وَعِنْدَما رَأى حَضْرَةَ مَوْلانا سُلطانَ المَحبوبينِ،
مَوْلانا شَمْسَ الحقِّ والدينِ التَّبريزيَّ بَعَيْنِ البَصِيرَةِ، امْتَثَلَ بِناءَ عَلى إِشارةٍ مِنْهُ، وَبَدَأَ
بِإِجْراءِ السَّماعِ، واستمرَّ عَلى هَذَا إلى آخِرِ عُمُرِهِ، وجعلَ ذَلِكَ طَريقَةً وَرَسمًا.
وَكَتَبَ سُلطانُ وَلَدَ أَيْضاً، وَأَيْدَ وَجْهَةً نَظَرَ سِبْهَسالار هَكَذا

كَانَ بِتَأثيرِ اتِّصالِهِ بِشَمْسِ الدِّينِ مِنْ أَعْماقِ القَلْبِ
أَنسَبَقَ في الطَّاعَةِ مِنَ الأَيَّامِ وَاللَّياليِ
[١١] وَعَلى امْتدادِ السَّنِينَ وَالْأَشْهُرِ، ظَلَّ ذَلِكَ المَلِكُ
مُتَشَغِّلاً بِالْعُلُومِ وَالزُّهُدِ وَالذِّينِ

١ - يَقولُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ جاجي في كِتابِ «الذِّوامِعِ» «إِذا ظَهَرَ شُعاعٌ مِنْ نُورِ جِمالِ الحقِّ في صُورَةِ مَعْشوقٍ موزونِ
النِّسائِلِ فَإِنَّهُ شَبِيهُ بِالرَّائِحَةِ مِنْ حانَةِ العِشْقِ الحَقِيقِيِّ. وَإِنَّ مَحَبَّةَ الأَنارِ في مَنزِلَةِ شُعاعٍ مِنْ شَمْسِ مَحَبَّةِ الذَّاتِ؛ فَإِذا لَمْ
تَشْتَمِ هَذِهِ الرَّائِحَةُ فَلَنْ تَصِلَ إلى هَذِهِ الحانَةِ، وَإِذا لَمْ تَظْفَرِ بِهَذَا الشُّعاعِ فَلَنْ تَظْفَرَ مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ بِنَصيبٍ» [الأصل].

٢ - مَقالاتُ شَمْسِ بَعنايةِ الدُّكتورِ مُحَمَّدٍ، ص ٧٢ - ٧٣.

وَعِنْدَمَا دَعَاهُ شَمْسُ السُّدَيْنِ

إِلَى السَّمَاعِ الَّذِي كَانَ اخْتَارَهُ قَبْلَ مَعْرِفَتِهِ

صَارَ السَّمَاعُ لَهُ مَذْهَبًا، وَاعْتَقَادًا صَاحِبِيًّا

وَمِنَ السَّمَاعِ فَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْلُ بُسْتَانِ

نَعَمْ، كَانَ شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ رَجُلٌ عَشِقٌ وَحَقِيقَةٌ، وَفِي الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ اسْتَطَاعَ فِي مَدَّةٍ أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ أَنْ يَضَعَّ مِنَ الْفَقِيهِ وَالْمُدَّرِّسِ غَيْرِ الْمُنَازَعِ فِي الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ عَاشِقًا نَاقِرًا وَرَاقِصًا، وَيُنْقَلَهُ مِنْ مَنْصِبِ التَّدْرِيسِ وَالْوَعْظِ إِلَى حَلَقَاتِ الْمَغْنِيِّينَ وَالْمُنْشِدِينَ؛ وَفِي هَذَا الشَّأْنِ يَعْتَرِفُ مَوْلَانَا:

كَانَ الْمَضْحَكُ فِي يَدِي دَائِمًا وَفِي الْعِشْقِ أَمْسَكْتُ بِالصَّغَانَةِ (*)

وَفِي الْقَمِّ الَّذِي كَانَ فِيهِ التَّنْسِيحُ شِعْرٌ وَرُبَاعِيٌّ وَنَشِيدٌ

وَكَانَتْ التَّجَلِّيَّاتُ السَّحَرِيَّةُ الْمَشِيرَةُ لِلْإِعْتِبَارِ فِي مَلَامِحِ شَمْسٍ تَبْدُو بَاعِثَةً عَلَى الدَّهْشَةِ وَمُؤَثِّرَةً، وَوَفَقًا لِرِوَايَةِ الْأَفْلَاكِيِّ قَالَ مَوْلَانَا لِشَمْسٍ يَوْمًا: «مَنْذُ أَنْ عَرَفْتُكَ صَارَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ فِي نَظَرِي غُثَّةً بَارِدَةً». وَقَدْ بَيَّنَّ الْأُسْتَاذُ الدَّكْتُورُ مُوَحَّدٌ فِي الْمَقْدَمَةِ الَّتِي كَتَبَهَا لِكِتَابِ «مَقَالَاتِ شَمْسٍ» أَنَّ الْقِرَاءَةَ الدَّقِيقَةَ لِأَثَارِ مَوْلَانَا تُطْلِعُنَا عَلَى دَوْرَتَيْنِ فِي حَيَاتِهِ، جَاءَتَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

«مَنْذُ أَنْ دَخَلَ شَمْسٌ قُوْنِيَّةً^(١) إِلَى الزَّمَانِ الَّذِي قُطِعَ فِيهِ بِوَفَاتِهِ، أَفْنَى مَوْلَانَا نَفْسَهُ فِي

* - آلة موسيقية، وهذه الكلمة تعريبٌ للفارسية «جفانه» [المترجم].

١ - جاء شَمْسُ التَّبْرِيزِيُّ إِلَى قُوْنِيَّةٍ فِي سَنَةِ ٦٤٢ هـ فِي السَّادِسِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الثَّانِيَةِ، وَأَقَامَ فِيهَا مَلَا زَمَانًا جَلَالًا لَدَيْنِ لِمَدَّةِ سِتَّةِ عَشَرَ شَهْرًا؛ وَفِي الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالِ سَنَةِ ٦٤٣ هـ تَرَكَ قُوْنِيَّةَ، ثُمَّ مَرَّةً أُخْرَى رَجَعَ إِلَى قُوْنِيَّةٍ بِطَلَبٍ مِنْ مَوْلَانَا فِي سَنَةِ ٦٤٤ هـ وَتَذَهَبُ رِوَايَةٌ إِلَى أَنَّهُ قُتِلَ فِي سَنَةِ ٦٤٥ هـ وَتَقُولُ رِوَايَةٌ أُخْرَى إِنَّهُ تَرَكَ الْمَدِينَةَ لِيَلَّا [الْمَوْلَف].

شَمْسٍ، ومنذُ ذلك الأوانِ دَمَجَ شَمْسًا بِنَفْسِهِ^(١). وإنَّ غَزَلِيَّاتِ شَمْسٍ هِيَ انْعِكَاسٌ
لِلدَّوْرَةِ الْأُولَى، إِذْ شَمْسٌ كُلُّ شَيْءٍ وَمَوْلَانَا لَا شَيْءٌ، وَإِنْ كَانَ مَوْلَانَا موجودًا فَقَدْ كَانَ
كَالظَّلِّ وَرَاءَ الشَّمْسِ، بَلْ كَخَرُوفِ الْعِيدِ^(٢) فِي عِيدِ الْأَضْحَى، الَّذِي يُتَبَرَّكُ بِفِدَائِهِ وَفَنَائِهِ.
وقد وَصَلَ فَنَاءُ مَوْلَانَا فِي شَمْسٍ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ إِلَى مَدَى يَرَى فِيهِ نَفْسَهُ فِي شُعَاعِ خَيَالِ
شَمْسٍ وَفِكْرِهِ، وَكُلُّ مَا يَقُولُهُ مَوْلَانَا كَانَ يَنْسُبُهُ إِلَى شَمْسٍ

[١٢] لِأَنَّنِي مُنْذَهُشُّ مِنْ لِقَائِكَ وَمِنْ خِيَالٍ مِنْ خَيَالَاتِكَ

فَإِنْ فِكْرِي وَتَصَوُّرِي مِنْ أَنْفَاسِكَ كَأَنَّنِي أَلْفَاظُكَ وَعِبَارَاتُكَ

أَمَّا الْمُثْنَوِيُّ فَعَاكِسٌ لِلدَّوْرَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ حَيَاةِ مَوْلَانَا.

وَفِي الْأَسْطُرِ السَّابِقَةِ قُلْتُ إِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ جَلَالُ الدِّينِ قَدْ سَمِعَ فِلَسَفَةَ الْعِشْقِ مِنْ
لِسَانِ شَمْسٍ لَمَّا صَارَ رَاقِصًا وَمُنْشِدًا لِلْغَزَلِيَّاتِ، وَحَمَلَهُ الْعِشْقُ عَلَى الصِّيَاحِ وَالْقَى فِي
رُوعِهِ تَلْقِينَ الشَّعْرِ^(٣). وَإِذَا أَرَادَ مَوْلَانَا أَنْ يَصِفَ الْعِشْقَ أَوْ يَعْرِفَهُ فَلَا يَدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَنْظِمَ
أَوْ يَكْتَبَ مَا كَانَ قَدْ سَمِعَهُ فِي شَأْنِ هَذِهِ الْمَقُولَةِ مِنْ شَمْسٍ فِي الْحُلُوةِ.

وَالْعِشْقُ الَّذِي تَحَدَّثَ عَنْهُ شَمْسٌ وَمَوْلَانَا مِرَارًا لَيْسَ مُسْتَمَدًّا مِنْ فِكْرِ
الْآخَرِينَ، خَاصَّةً أَفَلَاطُونُ فِي أَثَرِهِ الْمُسَمَّى «الْمَادُّبَةُ»، بَلْ مِنْ مَقُولَاتٍ جَدِيدَةٍ
وَبَدِيعَةٍ. وَمِنْ خَاصِّيَّاتِ فِكْرِ مَوْلَانَا الصَّافِيَةِ فِي شَأْنِ الْعِشْقِ أَنَّ الْعِشْقَ فِي ذَاتِهِ خَلَاقٌ،
مُحِيطٌ لَا يَهْدَأُ خَرَجَ مِنْ كَانُونِ نُورِ أَنْوَارِ الْحَقِيقَةِ وَيَسِيرُ إِلَيْهِ أَيْضًا. وَقَدْ جَاءَ فِي
الْكِتَابِ الْخَامِسِ مِنَ «الْمُثْنَوِيِّ» قَوْلُهُ

-
- ١- شَمْسٌ تَبْرِيْرُ الَّذِي امْتَلَأَتْ مِنْهُ نُورًا
٢- شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ هُوَ الْعِيدُ الْأَكْبَرُ
٣- يَا مَنْ ثَلَّثَنِي الشَّعْرَ فِي قَلْبٍ رُوحِي
دُرْتُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ كَالظَّلِّ وَرَاءَهُ
وَصِرْتُ أَنَا الْقُرْبَانُ الْأَعْظَمُ لِلْعِيدِ
إِنْ صَمْتُ، وَسَكَتُ، خَشِيتُ أَنْ أَغْصِي الْأَمْرَ

العِشْقُ بَخَرٌ وَالسَّمَاءُ فَوْقَهُ زَبَدٌ
 مِنْ لُزْلِخٍ خَافٍ فِي هَوَى يُوشِفُ
 فاعْلَمْ أَنَّ دَوْرَانَ الْأَفْلَاقِ مِنْ مَوْجِ الْعِشْقِ
 وَلَوْ لَمْ يُوجَدْ الْعِشْقُ لَتَجَمَّدَ الْعَالَمُ
 وعِنْدَمَا يَجْرُبُ كَرَامَاتِ الْعِشْقِ يَتَمَسَّكُ بِأَذْيَالِ الْعِشْقِ، ثُمَّ عَلَى نَحْوِ مَفَاجِئِ يَدَوِي
 فِي بَاطِنٍ وَجُودِهِ هَاتِفٌ أَوْ نِدَاءٌ يَضْطَرُّهُ إِلَى أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ وَيَقُولَ:
 يَقْتَلِعُ مِخْلَبُ الْعِشْقِ مِنَ الْجُدُورِ
 كُلَّ مَنْزِلٍ دَخَلَهُ ضِيَاءُ شَمْسِ الْعِشْقِ
 وَعِنْدَمَا رَأَى قَلْبِي بَخَرَ الْعِشْقِ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ
 وَتَبَّ مِنِّْي إِلَيْهِ وَقَالَ: حَصِّلْنِي^(١)
 وَعِنْدَمَا صَارَ أَمِيرُ الْحَانَةِ نَدِيمًا لِقَلْبِي
 صَارَ دَمِي شَرَابًا مِنَ الْعِشْقِ، وَصَارَ قَلْبِي كِبَابًا
 ويعترفُ مَوْلَانَا أَيْضًا، مِثْلُهُ فِي ذَلِكَ مِثْلُ عَدَدٍ مِنَ الْعَارِفِينَ الَّذِينَ سَبَقُوهُ، بِتَضَادِّ الْعَقْلِ
 وَالْعِشْقِ، وَوَفَقًا لِمَا يَقُولُ الدَّكْتُرُ خَلِيفَةُ عَبْدِ الْحَكِيمِ: «يَرَى مَوْلَانَا أَنَّ الْعَقْلَ الْجُزْئِيَّ، الَّذِي
 يَعُدُّ نَفْسَهُ بِفَخْرٍ عَقْلًا عِلْمِيًّا وَقَادِرًا عَلَى إِيضَاحِ الْحَوَادِثِ كُلِّهَا وَعَلَى حَلِّ مُعْضِيَّاتِ الْعَالَمِ،
 عِنْدَمَا يُوَاجَهُ بِشُهُودِ [١٣] الْحَيَاةِ وَالْعِشْقِ يَعْجِزُ وَيَكِلُ..^(٢)» وَقَدْ قَرَأْنَا فِي الْمَشْنُوءِ:

١ - يعني تعبير «حَصِّلْنِي»: لَنْ تَسْتَطِيعَ اللَّحَاقُ بِي، كَقَطْرَةٍ تَوَارَتْ فِي الْمَحِيطِ، مَقْدَمَةٌ كِتَابِ «الرُّومِي وَتَفْسِيرِ
 الْمَشْنُوءِ» لِنِيكَلْسُون، تَرْجُمَةُ أَوَانِسِيَان
 ٢- مِنَ الْمَجْلَدِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ «تَارِيخِ الْإِسْلَامِ»، مَقَالٌ لِلدَّكْتُرِ خَلِيفَةِ عَبْدِ الْحَكِيمِ، تَحْتَ عُنْوَانِ «مَوْلَانَا جَلَالُ
 الدِّينِ الرُّومِي»، ص ٣٤٤.

الْعَقْلُ الْجُزْئِيُّ لَيْسَ عَقْلٌ اسْتَبَاطٌ
 وَمَا هُوَ إِلَّا قَابِلٌ لِلْفَنِّ وَمَحْتَاجٌ إِلَى التَّعْلِيمِ
 وَيَكُونُ الْعَقْلُ الْجُزْئِيُّ مُنْكَرًا لِلْعِشْقِ
 مَعَ أَنَّهُ يَظْهَرُ صَاحِبَ سِرٍّ
 وَيَضُمُّتُ مَوْلَانَا عَنْ تَعْرِيفٍ أَكْثَرَ لِلْعَقْلِ الْجُزْئِيِّ، وَيَأْسَفُ لِعَجْزِ الْكَلَامِ عَنْ وَصْفِ
 أَكْثَرِ لَهُ فِي مُقَابِلِ الْعِشْقِ، وَيَمْضِي إِلَى الْقَوْلِ:
 فَمَاذَا يَكُونُ الْعِشْقُ إِذَا، إِنَّهُ بَخْرُ الْعَدَمِ
 وَقَدْ كَسَرَتِ الْعَقْلَ هُنَا الْقَدَمُ
 وَلَيْسَتْ الْوُجُودَ كَانَ لَدَيْهِ لِسَانٌ
 لَكِي يَزِيحُ الْحُجُبَ عَنِ الْمَوْجُودَاتِ وَالْأَغْيَانِ
 وَإِنَّ سِحْرَ الْعِشْقِ أَقْدَرُ مِنَ الْعَقْلِ الْجُزْئِيِّ عَلَى تَقْرِيبِ الْإِنْسَانِ الْمَعْتَقِدِ وَالْمُخْلِصِ
 وَالْعَاشِقِ إِلَى الشُّهُودِ الْكَوْنِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْعِشْقَ يُزِيلُ الْحُجُبَ:
 إِذَا كَانَ سَقْفُ الْبَيْتِ حِجَابًا لِحِمَالِ الشَّمْسِ
 فَأَزِلْ هَذَا السَّقْفَ سَرِيعًا بِمَعْوَلِ عِشْقِ الْحَقِّ
 وَيَعْتَقِدُ مَوْلَانَا أَنَّهُ لَا تَفَاوْتَ أَبَدًا بَيْنَ الْعِشْقِ الْكُلِّيِّ وَالْعَقْلِ الْكُلِّيِّ؛ مِنْ وَجْهَةٍ
 أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ اعْتِبَارُ هَذَا الشُّهُودِ أَوْ الْإِحْسَاسِ الْكَوْنِيِّ قَرِينًا أَوْ مُطَابِقًا لِلْإِحْسَاسِ
 الْجِسْمَانِيِّ النَّفْسَانِيِّ وَاللَّدَّةِ وَالْأَلَمِ؛ فَالْعِشْقُ يَتَمَيَّزُ إِلَى مَقُولَةٍ أُخْرَى، وَلَا يَعْتَرِفُ
 بِسِيَمَاءٍ خَاصَّةٍ لِلْمُحِبُّوبِ^(١):

الصُّورَةُ لَيْسَتْ هِيَ المَعشُوقُ
 سَوَاءٌ أَكَانَ العِشْقُ دُنْيَوِيًّا أَمْ أُخْرَوِيًّا
 العِشْقُ أَسْمَى مِنْ هَاتَيْنِ الحَالَتَيْنِ
 وَهُوَ أَخْضَرُ وَطَرِيٌّ مِنْ دُونِ ربيعٍ وَخريفٍ
 وَإِنْ جَيْشَانَا لَيْسَ مِنَ الغَمِّ والسُّرُورِ
 وَلَا يَكُونُ عَقْلُنَا رَفِيقًا لِلخَيَالِ وَالوَهْمِ
 إِنَّهُ حَالَةٌ أُخْرَى نَادِرَةٌ

فَلَا تُنْكِرْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ جَدًّا^(١)

وَيَذْكُرُ مَوْلَانَا أَنَّ هَذَا الإحْسَاسَ الكَوْنِيَّ، لَدَيْهِ، هُوَ حَقِيقَةُ الدِّينِ وَعُصَارَتُهُ. وَإِنْ شَمَسًا
 التَّبْرِيزِيَّ فِي رِحْلَتِهِ الْأُولَى الَّتِي أَقَامَ فِيهَا مَدَّةَ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا فِي قُوْنِيَّةَ، وَأَضْحَى مَبْلَغًا قَوِيًّا
 وَمُنْدَفَعًا لِلْعِشْقِ، سَلَّمَ جَلَالَ الدِّينِ مِفْتَاحًا لِكَشْفِ لُغْزِ الرُّوحِ الَّذِي هُوَ الْعِشْقُ، مِفْتَاحٌ يَرْفَعُ
 بِهِ الْحُجُبَ عَنْ أَسْرَارِ مَا هِيَ الوجود ودقائق الكائنات قَدَرِ المستطاع والمُيسَّر. وَهَذَا مَبْعُثُ
 أَنَّ جَلَالَ الدِّينِ يَعُدُّ الضَّيْفَ التَّبْرِيزِيَّ، المَدْعُوَّ أَوْ الطُّفْلِيَّ، «مَفْخَرِ الْآفَاقِ» وَ«الرُّوحِ
 الْمُصَوَّرِ» وَ«بَحْرِ الرَّحْمَةِ»، وَ«شَمْعِ الْأَفْلَاقِ التَّسْعَةِ» [١٤] وَ«مَوْلَى مَوَالِي الْأَسْرَارِ»، وَيُنْشِدُ:

فِي لَحْظَةٍ تَخْتَلِطُ بِالتَّرَابِ وَفَاءً، وَفِي لَحْظَةٍ
 تَجْنِازُ الْعَرْشَ وَالْفَرْشَ وَحُدُودَ الْكَوْنَيْنِ
 الْعُقُولُ وَالْعُلُومُ كُلُّهَا نُجُومٌ
 وَأَنْتَ شَمْسُ الدُّنْيَا الَّتِي تَمْرُقُ الْحُجُبِ

مَنْ أَنَا، قُلْ، أَنَا الْمَسْكِينُ الَّذِي أَبْقَى مَعَكَ
أَفْنَى أَنَا، وَمِثْلُ أَنَا، فَلِمَاذَا تَنْظُرُ إِلَيَّ؟
وإِنَّ النَّعْتَ الْكَامِلَ لِلْمَوْلَى شَمْسِ التَّبْرِيزِي
تَجَاوَزَ أَوْهَامَ الْجَبَرِيِّينَ وَالْقَدَرِيِّينَ
ويقول الأستاذ جلال الدين همائي:

«كُلُّ هَذَا التَّحَرُّقِ وَالذُّوبَانِ الَّذِي أَحَاطَ بِأَقْوَالِ مَوْلَانَا وَغَمَرَهَا، وَيُعْطِي لِكُلِّ
إِنْسَانٍ بِقَدْرِ ذَوْقِهِ وَاسْتَعْدَادِهِ تَحَرُّقًا وَوَجْدًا، هُوَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ عَيْنِ تَحَرُّقِ الْعِشْقِ
وَالْمَحَبَّةِ وَحَرَارَتِهِمَا الدَّاخِلِيَّةِ وَثَوَرَتِهِمَا وَنَشَاطِهِمَا، الَّتِي رَسَخَتْ فِي أَعْمَاقِ رُوحِهِ
وَلَمْ تَنْفَصِلْ عَنْهُ لَحْظَةً وَاحِدَةً حَتَّى آخِرِ عُمرِهِ، الَّذِي امْتَدَّ إِلَى نِهَايَةِ نَظْمِ الْمُشْتَوِيِّ»^(١).
وَلَيْتَ الْأَسَازُ أَضَافَ: أَنَّ هَذَا الْحَالِ وَهَذَا الْإِهْتِيَاجَ وَهَذَا التَّحَرُّقَ، الَّتِي غَدَتْ
أَسَاسًا لِحَيَاثَانِ الطَّنِيعِ وَلِإِيجَادِ مَطَالِبِ عِرْفَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، كَانَتْ نِتَاجًا لِبِلَاغَةِ شَمْسِ
التَّبْرِيزِي وَعِرْفَانِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَمْسَكَ بِيَدِ مَوْلَانَا، وَبِتَغْرِيفِهِ الْعِشْقَ قَادَهُ إِلَى مِعْرَاجِ
الْحَقَائِقِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ مَجْلَى اللَّاهُوتِ فِي النَّاسُوتِ، وَمُظْهَرُ الرُّبُوبِيَّةِ فِي رِدَاءِ
الْبَشَرِيَّةِ، وَمَكَانُ سُجُودِ اللَّامَكَانِ فِي الْمَكَانِ^(٢).

وَفِي شَأْنِ جَاذِبِيَّةِ الْعِشْقِ وَالْمَحَبَّةِ وَالسَّيْرِ إِلَى الْمَقْصِدِ الْأَعْلَى، ذَكَرَ شَمْسُ

١- مولوي نامه، تأليف الأستاذ جلال الدين همائي، ص ٩٧٥.

٢- قَالَ مَوْلَانَا فِي خُطَابٍ مِثْلِ هَذَا الْإِنْسَانِ فِي الْمُشْتَوِيِّ (ج ٦، ٤٥٩٧-٤٥٩٩):

يَا أَمْثَالَ جَبْرِيلَ مَوْجُودُونَ فِي الْبَشَرِ	يَا أَمْثَالَ لِلنَّسِجِ مَحْفُورُونَ فِي قَطِيعٍ مِنَ الْخُرِّ
يَا أَلْفَ الْكُتُبَاتِ الْمُتَوَارِيَةِ فِي بَيْعَةٍ أَوْ كُنْيَسٍ	يَا مَوْقِعَ لِلْغُفْرِيتِ وَابْلِيسَ فِي الْخَطَا
أَنْتَ مَوْضِعُ سُجُودِ اللَّامَكَانِ فِي الْمَكَانِ	وَلِلْأَبَالِسَةِ مِنْكَ دَكَاغٌ خَرِبٌ

بحثًا عن الشمس ٦٣
التبريزي لمولانا مطالب دقيقة تذهب إلى أنه لو لم يكن العشق كونيًا لما كان الوجود،
وأن القدرة الجاذبة للعشق هي وحدها مشوقه ومحرّكه إلى إنشاد الغزليات العشقية
الصافية، والمشاركة في جلسات السماع.

وفي مجال «المكان» و«اللامكان» و«التلوين»^(١) و«توجيه الساعة»، كشف شمس
الحجاب عن كثير [١٥] من الأسرار، وقد نظم مولانا أقوال مراده [شمس تبريز]
وتوجيهاته شعراً:

عندما يكونُ فِكْرُكَ كُلُّهُ مشغولاً بالحال
مُحالٌ أَنْ يَطْرَأَ عَلَى ذِهْنِكَ فِكْرَةٌ
والفِكْرَةُ تكونُ مبنقةً مِنَ الماضي والمستقبل،
فإذا ما تحرّرتَ مِنْ هَذَيْنِ حُلَّتِ المشكلةُ
والتلويّاتُ كُلُّها ظهرتْ مِنَ الساعةِ [الزّمان]
وقد نَجَا مِنَ التلوينِ مَنْ نَجَا مِنَ الزّمانِ
وعندما تتحرّرَ ساعةٌ مِنْ حُكْمِ الزّمانِ
لا يبقى كَيْفٌ، وتغدو نَدِيمًا لِمَنْ لا كَيْفَ لَهُ

١ - يعني «التلوين» تحوّل السالك من حالٍ إلى حال؛ وفي هذا يقول مؤلّف كتاب «اللّمع»: «التلوين علامة الحقيقة؛ لأنّ التلوين عبارة عن ظهور القادر»؛ وذكر أبو القاسم الفشيري في «الرسالة الفشيرية»: أنّ «التلوين صفة أرباب الأحوال، والتشكّين صفة أهل الحقائق»؛ فما دام السالك والعبد في الطريق فهو صاحب تلوين؛ لأنّه يترقّى من حالٍ إلى حال، ومن وُضِفَ إلى وُضِفَ وفي قصة يوسف (عليه السلام) أنّ النسوة اللائي كان حُبُّ يوسف في قلوبهنّ، بسبب كثرة اهتمامهنّ بيوسف وغلبة انشغالهنّ به، تغيّرت أحوالهنّ حتّى صيرن صواحب تلوين وقظنّ أيديهنّ من دون مبالاة؛ لأنّ غلبة انشغالهنّ بيوسف صارت سبباً لفقدانهنّ الإحساس بأنفسهنّ» (فرهنگ لغات واصطلاحات عرفاني، الدكتور سيّد جعفر سجّادي، ص ٣٤).

فاخرج ساعة من حُكم الزمان، أيها القلبُ
لِكَيْ تَتَحَرَّرَ مِنْ «كَيْفَ؟» وَمِنْ «لِمَاذَا؟»
ولا عِلْمَ لِلزَّمانِ عَنِ «الزَّمانِ»،
لأنَّه لا طَرِيقَ إِلَى تِلْكَ الناحيةِ سِوَى التَّحَبُّرِ
والإحساسِ بِالذَّاتِ مَبْعُثُهُ تَذَكُّرُ ما مَضَى،
وماضِيكَ وَمُسْتَقْبَلُكَ هُمَا حِجَابُكَ عَنِ اللَّهِ
و«الْإِمْكَانِ» الَّذِي فِيهِ نُورُ اللَّهِ
مِنْ أَيْنَ لَهُ الْماضِي والمستقبلُ والحالُ؟
وماضِيهِ ومستقبلُهُ موجودانِ نِسْبَةً إِلَيْكَ،
والاثنانِ شَيْءٌ واحدٌ، وَأَنْتَ تَخَالُهُمَا اثنَيْنِ
وعِنْدَما يَمْضِي هذانِ كِلَاهُمَا إِلَى الْأَعْقَلِ
يَعْدُو الْوَالِدُ وَالْمَوْلُودُ هُنَاكَ شَيْئًا وَاحِدًا

ويعتقد كثير من العلماء بمولانا، خاصة العارفين والمشايخ الكبار، أن كلام شمسٍ
وسيماء يتجلبان في المثنوي كله، وفي كثير من الغزليات العشقية الموزونة الموقعة،
ولكن جلال الدين لا يريد، لأسباب معينة، أن يذكر اسم محبوبه صريحاً. ويقولُ
الدكتور موحد: «إن مثنوي مولانا هو، على الحقيقة، رواية منظومة ومشروحة لكلام
الشيخ التبريزي، وشرح رمزي لإنعامه وفضله»^(١).

كان شمس أيضاً عارفاً أنار كلامه الشبيه بالسُّخر، إذ يعترف في كتابه

١- مقدمة مقالات شمس تبريزي، بتحقيق الدكتور محمد علي موحد.

«مقالات شمس» قائلًا:

«مَنْ وَجَدَ طَرِيقًا إِلَى صُحْبَتِي عَلَامَتُهُ أَنَّ صُحْبَةَ الْآخَرِينَ تَغْدُو عِنْدَهُ بَارِدَةً وَمُرَّةً؛ وَلَا تَغْدُو بَارِدَةً عَلَى نَحْوِ يَظَلُّ فِيهِ يَضْحَبُهُمْ، بَلْ [١٦] عَلَى نَحْوِ لَا تَبْقَى لَهُ مَعَهُمْ صُحْبَةٌ». وقد جاءَ في «مناقب العارفين» [للأفلاكي] أَنَّ مَوْلَانَا - في شأن تأثيرِ كلامِ شمسٍ الذي يقولُ عنه:

مِنْ جَوَاهِرِ بَخْرِ كَلَامِكَ الَّذِي لَا نِهَابَ لَهُ

صَارَ الْحَجَرُ عَقِيقًا، وَصَارَتِ الْأُخُوَالُ مَلَكَتَةً

وَأُخُوَالُ الْكَامِلِينَ الَّتِي هِيَ وَرَاءَ الْأَقْوَالِ

خَجَلَةٌ مِنْ أَلْقَى ذَلِكَ اللَّحْنَ الْأَخَاذِ فِي الْأَقْوَالِ

- ذَكَرَ أَنَّ نَفْسَهُ الْمُبَارَكَةَ كَانَتْ نَجِيًّا لِلْمَسِيحِ، وَفِي عِلْمِ الْكِيمَاءِ لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ، وَفِي الْكَوَاكِبِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ وَالْحُكْمِيَّاتِ وَالتَّجُومِ وَالْمَنْطِقِ وَالْجِدَالِ لَيْسَ لَهُ مَثِيلٌ، لَكِنَّهُ عِنْدَمَا صَاحَبَ رِجَالَ اللَّهِ أَهْمَلَ كُلَّ هَذِهِ الْمَعَارِفِ وَمَحَاها مِنْ نَفْسِهِ.

وَكَانَ مَوْلَانَا يَعُدُّ أَكْثَرَ أَقْوَالِ شَمْسٍ مِنَ الْأَسْرَارِ، وَرُبَّمَا لَمْ يَسْمَحْ بِأَنْ يَنْقُلَ فِي آثَارِهِ إِلَّا الْمَطَالِبَ الَّتِي كَانَتْ مُجَازَةً؛ وَشَمْسٌ نَفْسُهُ أَيْضًا كَانَ قَدْ قَالَ مِرَارًا فِي مَجَالِسِهِ: «أَقُولُ أَسْرَارًا، لَا أَقُولُ كَلَامًا».

وَقَدْ قَرَأْنَا فِي دِيْوَانِ الْعَشَقِ، أَوْ الدِّيْوَانِ الْكَبِيرِ، دِيْوَانِ شَمْسٍ:

قُلْ أَسْرَارَ هَذَا بِدَقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ وَحَرْفِيًّا

يَا مَنْ مَزَجَتْ فِي الْبَيَانِ الْحَرْفَ وَاللَّحْنَ

أو:

أنت دفتري لكل سرٍّ، يا شمس الحقِّ التبريزي
يا مَنْ جعلتنا جميعاً طرفةً بغدادَ

أو:

أنت مفخر تبريز، يا شمس الدين
وكشف أسراركَ غيرُ جائز^(١)

والشيخ التبريزي، الذي امتلك في رأي مؤلف هذا الكتاب تحقيقات ومعارف كاملة في الأديان والعقائد والمذاهب المختلفة في عصره، كان قد قال لمولانا في رحلته الثانية إلى قونية: إن السالك العاشق والعارف المشتاق إذا لم يُصبح دُخاناً مُبدداً فلن يغدو شمعة حرم الوجود، ولن يستحق العروج به إلى مدارج الكمال. وشمس، على الحقيقة، رجل وقب ومُعرِّم بالعشق والموسيقا؛ ووفقاً لاعترافه في «المقالات» كان «مزداناً ببراعات ومهارات وفنون كثيرة...». وكان يرى الإنسان بعينه الرائيين للحقيقة الكاشفتين للعِلل في أوج العظمة والجلال، وكان يريد أن يسير مدرّس دار العلم المشهور في الروم الشرقية^(*) في مسير بديع وجديد، وهو طريق بدايته [١٧] بالعشق، إذ «الكائنات كلها إقليمُ العشق»، والرقص والمشاركة في السماع، ونهايته بالغزليات الصافية الغنائية. والأناسيدُ الخالدة أسمى من كل الفلسفات والمشارب والمنطقيات.. فهل جلا الكلام النافذ الساحر عند شمس، أو الاشتراك في مجالس السماع، القريحة

١- «نحن شخصان عجيبان لقائنا، وقل أن يجتمع شخصان مثلنا؛ ظاهران جداً، وخفيان جداً؛ ولم يكن الأولياء ظاهرين» [الأصل].

* - يريد: مولانا جلال الدين

الشعرية والعرفانية عند مولانا، وأوصل عالم كلامه إلى مستوى يظل فيه محل عناية العشاق والهائمين في هذه الدنيا، حتى الآن بعد انقضاء قرون وأعصار؟

يذهب أحد الدارسين إلى القول إنه يُشاهد في أشعاره كلها هالة من العشق، كأنه كان سباحًا في أضواء التجوم، أو يتخذ من روح الوجود ساحة، إذ كان يرى في كل مكان، حتى الدقائق الأخيرة من حياته، وجود شمس التبريزي في أفق مشاهداته الخلافة، فيصعد سلم الفلك راقصًا. ومن هذه الوجهة، كأن مولانا كان دائمًا ينظر إلى أفق الحياة الأخاذ الذي لا نهاية له بأمل ورجاء لألاء مشرق، فنال بقلب حي، وبمدد الكشف والجهود، ميلًا مثيرًا للحريرة إلى عتبة العقل والمعرفة والإيمان الراسخ.

وإذا ما سلمنا بأن جلال الدين البلخي، بعد لقاء شمس أو هجرانه، فقد شخصيته واتحد بمراذه، لا بد لنا من التسليم بأن العاشق النقي الطينة في النهاية كان يرى المحبوب في نفسه، وأن الأمر كما يقول الأستاذ مؤخذ: «إذا كان يُنشد الشعر فقد كان يرى نفسه نقاشًا يبدع نقوشًا وصورًا على صحائف الورق، فيبعث شمس الروح في قوالب تلك الصور؛ إذ كان شمس معنى شعره ومفهومه:

أفرك هاتين العينين متسائلًا: أهو منام أم خيال؟

ولا أصدق، عجبًا أيها الحبيب، أن هذا هو أنا!

نعم، هذا أنا، لكنك أخرجتني من ذاتي

أنخلق من بذرك نحيلاً كاللهال

أنت نفخ الصور يوم القيامة، وأنا جثة هامدة،

أنت روح الربيع الجديد، وأنا السرو والسوسن

قلت نصف المطلوب، فقل أنت الباقي منه

أَنْتَ عَقْلُ الْعَقْلِ وَأَنَا غَايَةُ فِي الْغَبَاءِ
رَسَمْتُ صُورَةَ، وَنَفَخُ الرُّوحَ مِنْ شَانِكَ أَنْتَ
أَنْتَ رُوحُ رُوحِ الرُّوحِ، وَأَنَا قَالِبُ الْجِسْمِ
وَابْتِغَاءً أَنْ يَبَيِّنَ شَمْسُ قُدْرَتِهِ الرُّوحِيَّةَ وَتَأْثِيرَ كَلَامِهِ فِي قُوْنِيَّةٍ قَالَ:

الشَّمْسُ الَّتِي تُنِيرُ الْعَالَمَ كُلَّهُ تَرَى الضِّيَاءَ الَّذِي يَنْتَزِلُ مِنْ قَمِي؛ فَالْتُّورُ يَخْرُجُ مِنْ
كَلَامِي وَيَتَلَّأَلُ تَحْتَ الْحَرْفِ الْأَسْوَدِ! وَلِهَذِهِ الشَّمْسُ نَفْسَهَا ظَهَرُ مُوجَّةٍ إِلَيْهَا هِيَ،
وَوَجَّةٌ مُوجَّةٌ إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَضِيَاءُ الْأَرْضِينَ مِنْهَا.
وَبَعْدَ ذَلِكَ يُضَاعِفُ الْحَدِيثَ فِي شَأْنِ الْعِلَاقَاتِ الْقَوِيَّةِ جَدًّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَوْلَانَا،
وَيُخَلِّصُ إِلَى هَذِهِ النَتِيجَةِ: «إِنَّ وَجَّةَ [١٨] الشَّمْسِ مُوجَّةٌ إِلَى مَوْلَانَا؛ لِأَنَّ وَجَّةَ مَوْلَانَا
مُوجَّةٌ لِلشَّمْسِ».

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْقَرَاءَ قَدْ انْتَبَهُوا إِلَى أَنَّ الشَّمْسَ هُنَا، أَوْ فِي هَذَا الْكَلَامِ، هِيَ شَمْسُ
الدِّينِ، وَالْقَمَرُ هُوَ مَوْلَانَا. لِأَنَّ شَمْسًا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ «المَقَالَاتِ»:
«إِنَّ مَوْلَانَا هُوَ ضَوْءُ الْقَمَرِ، لَا يَصِلُ النَّظَرُ إِلَى شَمْسٍ وَجُودِي، لَا يَصِلُ إِلَّا إِلَى الْقَمَرِ».
وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ الْمَقَالَاتِ، وَابْتِغَاءً أَنْ يَحْدَدَ مَنَزَلَتَهُ وَمَنَزَلَةَ جَلَالِ الدِّينِ الْبَلُخِيِّ
وَمَقَامَهُمَا الْحَقِيقِيِّ لَدَى مُرِيدِهِ وَمُحِبِّهِ فِي قُوْنِيَّةٍ، كَتَبَ يَقُولُ:
«إِذَا سُئِلْتُ: كَيْفَ عَرَفْتَ مَوْلَانَا فَقُلْ:

إِذَا سَأَلْتَ عَنْ قَوْلِهِ فَاقْرَأْ: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ) ^(١)؛
وَإِذَا سَأَلْتَ عَنْ فِعْلِهِ فَاقْرَأْ: (كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) ^(٢)؛ وَإِذَا سَأَلْتَ عَنْ صِفَتِهِ فَصِفْتُهُ

١- يَسْ، الْآيَةُ ٨٢

٢- الرَّحْمَنُ، الْآيَةُ ٢٩

هي: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ^(١)؛ وإذا سألت عن اسمه فاقرأ: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) ^(٢)، وإذا سألت عن ذاته فاقرأ: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ^(٣).

القضايا التي كان شمسٌ يتحدث عنها في الروم الشرقية، وكيفيته عمله وسلوكه، حتمت أن يصمم المعاندون ويتحدوا لإخفاء صوته، وكان المخالفون المتعصبون المتشددون يقولون لابن جلال الدين الأصغر: هذا المغمور التبريزي شيطان مجسم، ومبتدع. بينما ذكر مولانا في آثاره أن فكر شمس التبريزي وآراءه مستمدة من ينبوع الدين، وأن لديه إيماناً قلبياً بالقرآن، وهو مفسر للقرآن. وإن هيام مولانا بشمس، والمعارف العجيبة التي ظفر بها في تحليل الفكر الديني والعرفانية والتاريخية، إضافة إلى الحكايات الأخاذة التي قصها في الخلوة، يمكن العثور عليها في المثنوي والديوان الكبير ^(٤). وإنه صحيح أن فريقاً من الباحثين بعد مطالعة دقيقة لكتاب «مقالات شمس» زعم أن كثيراً من أقوال شمس ومواعظه وحكاياته قد ظهر ناقصاً أو كاملاً في المثنوي، لكنه لا ينبغي نسيان مهارة جلال الدين وأستاذيته وتمكنه، مضحوبة بتصرفات سحرية أو إلهام نشأ من ذهنه الوقاد في توضيح أكثر القصص والحكايات. وهنا، وعلى سبيل المثال، لابد من أن أنقل شيئاً مما هو مشترك بين «مقالات» شمس ومنظومات جلال الدين، بقدر ما تأذن صفحات الكتاب؛ لكي يطلع عليه القراء المحترمون:

١- الإخلاص، الآية ١.

٢- الحشر، الآية ٢٢.

٣- الشورى، الآية ١١.

٤- كان شمس قد قال: «ينتابني العجب: كيف ينقل كلامي. والله ذي الجلال، إن مولانا إذا نقل كلامي فإنه ينقله أفضل من هذا النقل، ويثير معاني أفضل من هذه، أما كلامي فلا ينقل». (مقالات شمس، ص ٣٨٤).

١- جاء في «مقالات» شمس: كُتِبَ على شاهدة قَبْرِ: «كان عُمُرُ هذا ساعةً واحدةً. الصُّوفيُّ ابنُ الوقت»، ولنا تِلْكَ السَّاعَةُ مِنَ العُمُرِ التي لَقِينَا فيها حضرةَ مَوْلانا [جلال الدِّين]. مقالات، الجزء الثاني، ص ٤٠.

وقد أَنشَدَ مَوْلانا في الجزء الثالث من المثنوي:

الصُّوفيُّ ابنُ الوقتِ، أَيُّها الرِّفيقُ

وَلَيْسَ قولُكَ «غَدًا» مِنْ شُرُوطِ الطَّرِيقِ

٢- في «المقالات»، الجزء الثاني، ص ٤٤ نجدُ قولَه: «قالُوا لِصُوفيٍّ: ارفَعْ رَأْسَكَ، وانظُرْ إلى رحمة الله، فقالَ: تِلْكَ الأَثَارُ آثَارُ، أَمَّا الأَزْهَارُ والشَّقَاتُ ففِي الدَّاخلِ».

وقد قالَ مَوْلانا في الجزء الرَّابِعِ [مِن المثنوي]:

كانَ صُوفيٌّ في حَديقَةٍ، وانتظارًا لِلْكَشْفِ والمِشاهِدَةِ

وَضَعَ وَجْهَهُ على رُكْبَتِهِ، كما هي عَادَةُ الصُّوفيَّةِ

ثُمَّ غابَ في نَفْسِهِ، عَلى نَحْوِ عَمِيقِ

فتَضايقُ أَحَدِ الفُضُولِيِّينَ مِنْ هَيْئَةِ نَوْمِهِ

البَّسَاتِينُ والخُضْرَةُ في ذَاتِ الرُّوحِ

وما هو خَارِجَ [الرُّوحِ] هي صُورَتُها، كَأَنَّها في ماءٍ جَارٍ

فذلكَ هُوَ خَيَالُ البُّسْتانِ في المِماءِ

وهو يَضْطَرِبُّ ويرْتَجِفُ بسببِ رِقَّةِ المِماءِ ولُطْفِهِ

وهناكَ بَسَاتِينُ وثِمَارٌ في القَلْبِ،

وَصُورَةُ لُطْفِها مُرْتَسِمَةٌ على هذا المِماءِ والطِّينِ

٣ - مثلما قلنا قبل، رَوَى شَمْسُ الْحَقِّ التَّبْرِيزِيُّ لَمَوْلَانَا وَلِلْأَصْحَابِ قِصَصًا وحكاياتٍ أَخَذَافَةً فِي مَدَّةِ إِقَامَتِهِ، عِنْدَ الْوَعْظِ، وَقَدْ جَاءَ بَعْضُهَا فِي أَجْزَاءِ الْمُثْنَوِيِّ السَّتَّةِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ مَثَلًا حِكَايَاتُ «الْأَمْرَاءِ» الَّتِي بَقِيَتْ نَاقِصَةً فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْمُثْنَوِيِّ لِأَسْبَابٍ مَجْهُولَةٍ؛ وَلَكِنَّ الْقُرَّاءَ فِي مُتَنَاولِهِمْ أَنْ يَقْرَءُوا هَذِهِ الْحِكَايَةَ الْجَمِيلَةَ كَامِلَةً فِي «المَقَالَاتِ». وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّهُ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ «المَقَالَاتِ» رُويَتْ حِكَايَةٌ تَقُولُ إِنَّ «يَهُودِيًّا وَمَسِيحِيًّا وَمُسْلِمًا جَمَعْتَهُمْ ضُحْبَةَ الطَّرِيقِ، وَقَدْ وَجَدُوا ذَهَبًا فِي الطَّرِيقِ، وَأَعْدَوْا حَلْوَى، وَقَالُوا: تَأَخَّرَ الْوَقْتُ الْيَوْمَ، غَدًا نَأْكُلُ الْحَلْوَى، وَهَذَا قَلِيلٌ، وَيَأْكُلُ مَنْ يَرَى مَنَامًا جَمِيلًا...

وقد ذَكَرَ مَوْلَانَا فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْمُثْنَوِيِّ قَوْلَهُ:

إِنَّ يَهُودِيًّا وَمُؤْمِنًا وَمَسِيحِيًّا
تَرَافَقُوا فِي سَفَرٍ

٤ - فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ «المَقَالَاتِ» جَاءَ قَوْلُهُ هَكَذَا: «مَلَأْتُ قَدَحًا، لَا أَسْتَطِيعُ الشُّرْبَ، لَا أَسْتَطِيعُ الْإِرَاقَةَ، قَلْبِي لَا يَشَاءُ أَنْ أَتَحَرَّرَ، أَذْهَبُ»، الْمَقَالَاتِ: الْجُزْءِ الثَّانِي، ص ٥٢.
وقد أَنشَدَ مَوْلَانَا فِي دِيْوَانِ شَمْسٍ:

[٢٠] لَدَيَّ قَدَحٌ فِي يَدِي، وَاللَّهُ، إِنْ لَمْ تَأْتِ

فَلَنْ أَشْرِبَهُ حَتَّى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَنْ أُرِيقَهُ

٥ - فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ «المَقَالَاتِ» جَاءَ قَوْلُهُ: «الْعَلَّ الشَّخْصَ الَّذِي قَالَ هَذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ أَيُّ خَبَرٍ عَنْهُ، وَلَا عَنْ حَالِ الْفَلَاحِ الرَّيْفِيِّ، وَلَا يَعْرِفُ النَّظْمَ وَلَا النَثْرَ؛ كَانَ سَنَانِي وَنِظَامِي وَخَاقَانِي وَالْعِطَّارُ هُمُ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، الْجُبْنُ غِذَاءُ كُلِّ الصَّيْدِ. وَهَلْ يَأْكُلُ الْأَسَدُ الْجُبْنَ؟ - يَأْكُلُ الْأَسَدُ قَلْبَ الصَّيْدِ وَكَبِدَهُ، لِكُلِّ شَخْصٍ غِذَاءٌ»
المَقَالَاتِ، ص ٥٧.

وقال مولانا في الديوان الكبير:

لا أَكُلُ إِلَّا الْكَبِدَ وَالْقَلْبَ؛ لِأَنِّي أَسَدٌ مَمْرُقٌ لِلْكَبِدِ

وَلَسْتُ خَسْبَسًا مِثْلَ كِلَابِ الصَّيْدِ، طَعَامِي الْجُبْنُ

٦- وقد قرأنا في المقالات:

«بَدَا وَضْلُكَ عَزِيزًا، وَاحْسَرَتَاهُ، إِنَّ الْعُمَرَ لَا يَفِي؛ لَا بَدَّ مِنْ دُنْيَا مَلِيئَةٍ بِالذَّهَبِ لِكَيْ

أَنْتُرَ عَلَى وَضْلِكَ، عِنْدَنَا اللَّهُ الْحَيُّ، إِلَى مَتَى نَجْعَلُ اللَّهَ مَيِّتًا؟

«الْمَعْنَى هُوَ اللَّهُ» هُوَ عَيْنُ الْمَعْنَى الَّذِي قُلْنَا. وَعَهْدُ اللَّهِ لَا يَفْسُدُ، أَمَّا هُوَ فَيَفْسُدُ، يَكُونُ

فَاسِدًا. المقالات، الجزء الثاني، ص ٦٠.

وقد استفاد مولانا من هذا المعنى، فأنشد في الجزء الأول من المثنوي:

قَالَ شَيْخُ الدِّينِ^(١): «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَعْنَى

بَلْ إِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ بَخْرُ الْمَعَانِي!»

وإِنْ جُمْلَةً أَطْبَاقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ

مِثْلُ قَشٍّ فَوْقَ ذَلِكَ الْبَحْرِ الرَّخَّارِ

٧- وقد جاء في المقالات:

أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ عِنْدَ بَائِعِ التِّينِ يَبِيعُ التِّينَ، أَيُّهَا الْأَخُ

«الجزء الثاني من المقالات، ص ٧١»

١- في شأن «شيخ الدين»، حدّد كلٌّ من الباحثين والمحقّقين ومفسّري المثنوي شخصاً بعينه، فقال بعضهم: المراد به صَدْرُ الدِّينِ الْفُؤَادِيُّ، وقال آخرون: هو نُحْيِي الدِّينَ بن عَرَفِيٍّ ويعتقد نيكلسون، مترجم المثنوي وشارحه بالإنكليزية، أن مراد مولانا من «شيخ الدين» هو أبو الحسن الحرقاني. ولكنّ الباحث التركي المشهور عبد الباقي غلبينارلي قرّر بعد تمحيص وتدقيق أن مولانا كان يَعُدُّ شمس الدين التبريزي «شيخ الدين» [الأصل].

وقد ضَمَنَ مَوْلَانَا هَذَا الْبَيْتَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ عِنْدَ بَائِعِ الثِّينِ، أَيُّهَا الْحَبِيبُ

يَبِيعُ الثِّينِ، أَيُّهَا الْأَخُ الْعَزِيزُ

نَحْبَا ثَمَلِينَ، وَنَمُوتُ ثَمَلِينَ، أَيُّهَا الْحَبِيبُ

وَكَذَلِكَ نَجْرِي ثَمَلِينَ إِلَى الْمَحْشَرِ، أَيُّهَا الْحَبِيبُ^(١)

من الديوان الكبير، الرباعية ٥٥

مَوْلَانَا جَلَالُ الدِّينِ وَنَظْمُ الشَّعْرِ:

[٢١] يَعْتَقِدُ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ وَالْعُلَمَاءِ بِمَوْلَانَا أَنَّ إِنْشَادَ جَلَالِ الدِّينِ الْبَلُخِي الشَّعْرَ

بَدَأَ فِي سِنِّ الْأَرْبَعِينَ، إِثْرَ لِقَائِهِ شَمْسًا. وَوَقْفًا لِمَا يَذْكُرُ مَوْلَانَا، مَا كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي خُرَاسَانَ الْكُبْرَى شَيْءٌ أَسْوَأَ مِنْ إِنْشَادِ الشَّعْرِ وَنَظْمِهِ؛ لَكِنَّهُ جَلَسَ وَقْتًا مَعَ شَمْسٍ فِي الْخُلُوةِ، وَاخْتَبَرَهُ سُلْطَانُ الْمَعْشُوقِينَ، الشَّيْخُ التَّبْرِيزِيُّ، فِي الْبَلَاغَةِ وَالْخَطَابَةِ وَالْدَّرَايَةِ وَالْكِيَاسَةِ، وَمِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ أَوْصَاهُ بِأَنْ يَخْتَبَرَ طَبْعَهُ وَيَقْرَضَ الشَّعْرَ، مِثْلَ سَنَائِي وَالْعَطَّارِ، نَجْمِي سَمَاءِ الْعِرْفَانِ الْإِيرَانِيَّ الْأَلَاءِيَّ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ الَّذِي «صَارَ فِيهِ الشَّيْخُ الْمُفْتِي شَاعِرًا بِفَضْلِ الْعِشْقِ»، مِثْلَمَا يَقُولُ ابْنُهُ سُلْطَانُ وَلَدَ.

وَيَعْتَقِدُ الْأُسْتَاذُ بَدِيعُ الزَّمَانِ قُرُورًا نَفَرَ أَنَّ «.. مَوْلَانَا بَدَأَ نَظَّمَ الشَّعْرَ فِي سِنِّ الثَّامِنَةِ

وَالثَّلَاثِينَ تَمَامًا؛ وَبِهَذَا الْمَعْنَى يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ مَوْلَانَا نَابِغَةٌ؛ أَيَّ شَخْصٍ نَظَّمَ الشَّعْرَ عَلَى حِينٍ غَيْرَةٍ وَمِنْ دُونِ أَنْ يَمْتَلِكَ مَقْدَمَاتِ الشَّعْرِ. وَالْعَجِيبُ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ الَّذِي لَمْ يَمْتَلِكْ سَابِقَةً شِعْرِيَّةً، وَلَمْ يَتَدَرَّبْ وَيَتَلَمَّذْ فِي مَدْرَسَةِ الشَّعْرِ وَالنَّظْمِ، نَظَّمَ شِعْرًا كَثِيرًا

١- معظم الحكايات التي ذكرها مولانا في أجزاء المثنوي الستة جاء ذكرها في «المقالات».

وأجاد في هذه الأشعار الكثيرة كلها.

انطوت «شاهنامه» الفردوسي، في أكبر تقدير، على اثنين وخمسين ألف بيت، أما مولانا فقد أزيى مجموع أشعاره على سبعين ألف بيت. غزليات مولانا في حرف «الياء» وحده ثمان مئة غزلية، ويعادل ذلك تقريباً غزليات سعدى، ومثلي غزليات حافظ. وقد نظم مولانا الشعر على خمسة وخمسين بحراً شعرياً. وفي اللغة الفارسية، لم يستطع أي من شعرائنا أن يقدم هذا القدر من التوسع في الأوزان. وحتى الأوزان المهملة التي وجدت في الشعر القديم ثم تركت استعمالها مولانا جميعاً، ونظم عليها نظماً فاق النظم على الأوزان المستعملة^(١).

ولكن الأستاذ جلال الدين همامي ذكر في الجزء الثاني من كتابه «مولوى نامه» قوله: «ولكن لا يمكن إنكار أنه بحكم قانون الفطرة لابد أن الاستعداد لهذا الفن كان موجوداً في جبلّة مولانا وخليقته الذاتية ودبّة إلهية؛ وهو شيء اصطدم بشمس وتغير أحواله فأفضى إلى السكر وضجيج جذبات العشق... والخلاصة أنني أعتقد أن القدرة الخلاقة والتمكّن المدهش والطبع الخصب لدى مولانا في [٢٢] فن الشعر، والبراعة الساحرة في الفصاحة واللسن.. كانت جزءاً من الغريزة الذاتية والخصائص الموروثة ونتاجاً للغة الفارسية الأصلية، لغته الأم^(٢).

ولا ينبغي إغفال لقائه العارف التبريزي وصحبته إياه؛ فقد كان شمس لجلال الدين مثل شمس سطعت على غضبه المثير، وصارت مفتحة لنمائه. وقد أشار أيضاً إلى الأستاذية حيث أنشد:

١- يادنامه مولوى، نشر المكتب الإقليمي لليونسكو في إيران، ص ١٤٨-١٥٦.

٢- من كتاب «مولوى چه می گوید»- الجزء الثاني، ص ١٠٠-١٠١، مختصراً.

تَفْتَحُ فَقَدْ تَفْتَحْتُ؛ وَقُلْ فَقَدْ قُلْتُ

فَإِنَّ صِفَةَ الصَّفَاءِ وَالْمَوَدَّةِ مِنْ جَمَالِ السُّلْطَنَةِ

أَمَّا الْأَفْلَاكِيُّ، رَاوِيَةُ الْحَالَاتِ الدَّقِيقَةِ وَالْيَوْمِيَّةِ لِمَوْلَانَا وَشَمْسِ تَبْرِيزِ فِي كِتَابِ «الْمَنَاقِبِ»، فَيَذْكُرُ فِي شَأْنِ عِلَاقَةِ جَلَالِ الدِّينِ الْبَلُخِيِّ بِنَظْمِ الشَّعْرِ وَالْمَشَارَكَةِ فِي مَجَالِسِ السَّمَاعِ قَوْلَهُ:

«هَكَذَا وَاصَلَ حَضْرَةُ «مَوْلَانَا»، مَتَأَثِّرًا بِجَاذِبِيَةِ سُلْطَانِ الْأَخْرَارِ، الْهَيْجَانِ وَالتَّوَفُّزِ، وَدَاوَمَ عَلَى إِنْشَادِ الْمُثَنَوِيَّاتِ وَالْغَزَلِيَّاتِ فِي حَالَاتِ السَّمَاعِ وَالْقُعُودِ وَالْقِيَامِ وَالتَّهَوُّضِ وَالتَّرَاحَةِ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُنْمِلِي ذَلِكَ بِاسْتِمْرَارٍ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ».

وَقَدْ اسْتَنْتَجَ الْمَرْحُومُ الْأَسْتَاذُ مَسْعُودُ قَرَزَادِ، الَّذِي قَدَّمَ فِي مَوْضُوعِ أَوْزَانِ غَزَلِيَّاتِ مَوْلَانَا تَحْقِيقَاتٍ وَبُحُوثًا وَتَمْحِصَاتٍ كَثِيرَةً، أَنَّ مَوْلَانَا اسْتَعْمَلَ فِي أَشْعَارِهِ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ ثَمَانِيَةِ وَأَرْبَعِينَ وَزْنًا مُخْتَلَفًا؛ وَهَذَا الْعَدَدُ، فِي مُقَابِلِ وَاحِدٍ وَعَشْرِينَ وَزْنًا عَرُوضِيًّا تَوَلَّفَ مَجْمُوعَ الْأَبْحُرِ الشَّعْرِيَّةِ فِي دِيْوَانِ حَافِظٍ، يُثَبِّتُ أَنَّ تَنَوُّعَ الْأَوْزَانِ فِي دِيْوَانِ مَوْلَانَا هُوَ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَمْرٌ بَاعِثٌ عَلَى الْحَيْرَةِ. وَلَا شَاعِرَ مِنْ شُعَرَاءِ إِيْرَانِ، وَتَبَعًا لِذَلِكَ مِنْ شُعَرَاءِ الْعَالَمِ، يُضَاهِي مَوْلَانَا فِي تَعَدُّدِ الْأَوْزَانِ الْعَرُوضِيَّةِ، وَلَا حَتَّى يُدَانِيهِ فِي ذَلِكَ أَيْضًا. وَمِنْ الْمَصَادِفَةِ أَنَّ مَوْلَانَا نَظَّمَ عَلَى بَحْرِ الرَّجَزِ الْمُثَمَّنِ الْمَطْوِيِّ^(*)، أَيْ تَكَرَّرَ «مُفْتَعِلُنْ» أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ مِنَ الصَّدْرِ وَالْعَجْزِ، ثَمَانِيًا وَخَمْسِينَ غَزَلِيَّةً؛ وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ هَذَا الْوَزْنَ كَانَ مَحَلَّ اِهْتِمَامِهِ وَتَعَلُّقِهِ.

وَكَانَ شَمْسٌ يَعْتَقِدُ أَنَّ الشَّعْرَ الْمَمْتَعَ وَالْمَوْثَرِ، الَّذِي يَكُونُ مَوْزُونًا وَمُثِيرًا، يُوَثِّرُ فِي

* - هُوَ مَا حُذِفَ رَابِعُهُ السَّاكِنُ [الْمُتَرَجِمُ].

رُوح السَّامِعِ وَقَلْبُهُ وَيَغْمُرُهُ بِالتَّفَكِيرِ فَوْقَ شَرِيطِ الزَّمَانِ الْمُهْتَرِّ. وَيَذْهَبُ فِي أَحَدِ أَقْوَالِهِ إِلَى أَنَّهُ يَدْفَعُ الرُّوحَ إِلَى الطَّيْرَانِ فِي عَالَمِ الرُّؤْيَى.

[٢٣] وَفِي عَقِيدَةِ مَشَايِخِ الطَّرِيقَةِ أَنَّ «السَّمَاعَ» لَهُ فِي كُلِّ سَالِكٍ عَاشِقٍ تَأْثِيرٌ مُنَاسِبٌ لِذَرَجَتِهِ. وَيَعْتَقِدُ سِرِّي السَّقَطِي^(١) أَنَّ قُلُوبَ أَهْلِ الْمَحَبَّةِ يَتَنَاهَا الطَّرَبُ فِي أَثْنَاءِ السَّمَاعِ، وَقُلُوبَ النَّائِبِينَ يَتَنَاهَا الْخَوْفُ، وَنَارَ قُلُوبِ الْمُشْتَاقِينَ تَأْخُذُ فِي التَّأَجُّجِ.

وَإِنَّ عِشْقَ مَوْلَانَا لِلْكَائِنَاتِ، وَلِجَرَيَانِ الْوُجُودِ، وَلِاتِّسَاعِ الْوُجُودِ، وَلِلْإِنْسَانِ الْكَامِلِ، وَاحِدٌ مِنْ أَكْثَرِ الْعَوَامِلِ الدَّاخِلِيَّةِ قُوَّةٌ لِإِنْشَادِ مَنْظُومَاتِهِ. وَعِنْدَمَا كَانَ الْهَيْجَانُ وَالْحَالُ فِي أَثْنَاءِ الرَّقْصِ يَغْيِيهِ عَنْ نَفْسِهِ، كَانَ يَضْرُخُ وَيَقُولُ:

مَا أَجْمَلَ الْعِشْقَ، مَا أَجْمَلَ الْعِشْقَ الَّذِي لَنَا، يَا اللَّهُ

كَمْ هُوَ جَمِيلٌ، كَمْ هُوَ لَطِيفٌ، كَمْ هُوَ رَائِعٌ، يَا اللَّهُ

وَإِنَّا بِسَبَبِ مَاءِ الْحَيَاةِ هَذَا نَرْقُصُ وَنُدُورُ

لَا مِنْ الْكَفِّ وَلَا مِنْ النَّايِ وَلَا مِنْ الدَّفِّ، يَا اللَّهُ

وَقَدْ جَعَلْتَ كَفَّكَ نَايَ الْجَسَدِ كُلَّهُ نُقُوبًا

لِكَيْ يَظُلَّ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي هَذَا التَّوَجُّعِ وَالْإِهْنِاجِ، يَا اللَّهُ

وَمِنْ أَيْنَ لِلنَّايِ الْمُسْكِينِ أَنْ يَعْلَمَ طَرِيقَ اللَّخْنِ وَالنَّغَمِ

إِنَّ نَفْسَ النَّايِ هُوَ الْبَصِيرُ وَالْعَلِيمُ، يَا اللَّهُ

كَمْ نَحْنُ حَارُونَ، كَمْ نَحْنُ حَارُونَ، مِنْ هَذَا الْعِشْقِ، كَالشَّمْسِ

١ - هُوَ سِرِّي بْنُ الْمُغَلَّسِ السَّقَطِي، الصُّوفِيُّ الْكَبِيرُ الْبَغْدَادِيُّ وَلَادَهُ وَوَفَاةُ. كَانَ شَيْخَ الْبَغْدَادِيِّينَ فِي زَمَانِهِ، وَهُوَ خَالُ الْجَنِّيدِ، وَأُسْتَاذُهُ (٢٥٣ هـ) [المترجم].

مَا أَخْفَاهُ، مَا أَخْفَاهُ، مَا أَظْهَرَهُ، يَا اللَّهُ

وَمِنْ شَمْسِ الْحَقِّ تَبْرِيزَ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالْعَيْنَانِ

حَائِثَةً وَمُضْطَرِبَةً فِي عِشْقِهَا، يَا اللَّهُ

ولاشك في أن مولانا في ذكره المتكرر لشمس، سواء أكان ذلك في دائرة معارف العرفان، «أجزاء المثنوي الستة»، أم في ديوان العشق، «ديوان شمس»، أبرر^(١) دائماً وباشتياق مراده التبريزي أمام عينيه المحترفتين للعشق؛ هذا المراد الذي ترك في ذهنه وروحه تأثيراً عميقاً باقياً، على نحو اضطر فيه إنساناً كان من أعظم نوابغ الدين، ومُتَحَلِّياً بِكُلِّ صُورِ الإدراك المعنوي، إلى أن يدعوه «نور ذات الله»، ويقول:

مَا أَجْمَلَكَ مِنْ شَمْسٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا، حَتَّى إِنَّ ذَرَاتِكَ نَاطِقَةٌ

أَأَنْتَ نُورُ ذَاتِ اللَّهِ؟، أَأَنْتَ اللَّهُ؟، لَا أَعْلَمُ

إِنَّ آلَافَ الْأَرْوَاحِ الْيَعْقُوبِيَّةِ تَحْتَرِقُ، كُلُّهَا، مِنْ هَذَا الْحُسْنِ

فَلِمَاذَا يَا يُوسُفَ الْحَسَانَ تَظَلُّ فِي هَذَا الْجُبِّ؟، لَا أَعْلَمُ

وقد كتبت العالمة المتخصصة بمولانا النافذة النظرة، السيدة الألمانية أنيماري شيمل، التي خصصت فصلاً من كتابها [الشمس المتصورة^(٢)] للصور الخيالية المرتبطة بـ «الشمس» في أشعار مولانا، تقول: «سيكون العشق المظهر للشمس مبنياً على عشق القيم التي لا تقنى!..»

١- جاء في الديوان الكبير:

أَنَا فِي طَوَافِهِ كَالْقَلِّ، حَوْلَ نُورِ الشَّمْسِ حِينًا أَسْجُدُ لَهَا، وَحِينًا أَقِفُ عَلَى رَأْسِي

إِنَّ ظِلَّ النَّفْسِ يَفْقَى فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ فَلِي مَنِي تَظَلُّ تَنْظُرُ إِلَى الْقَلِّ؟ - انظر إلى نورها

٢- أعدت المرحومة السيدة شيل كتابها هذا بالألمانية والإنكليزية، وقد هيأ المولى سبحانه أن ترجمه من الإنكليزية إلى العربية، وأن تُنشر الترجمة في طهران، عام ٢٠٠٠م [المترجم].

ويعتقد نيكلسون، شارح المثنوي الشهير بالإنكليزية، [٢٤] أن عرفان شمس وإشراقه هو المصدر لإلهام جلال الدين محمد مولانا؛ وإنه من هذا المنبع يتدفق «المثنوي» و«ديوان شمس» من مجريين منفصلين؛ أحدهما نهر عظيم وهادئ وعميق، والآخر تدفق شبيه بالسيل مفعم بالحماسة... ففي المثنوي مزج جلال الدين العلم والطريقة والعرفان على نحو غاية في البراعة، مُحصلته ماء زلال سائغ شرابه، ملائم لِمذاق عطشى العشق وطريق السير والسلوك والمعتقدين، ومزاجهم.

وقد كتب الأستاذ جلال الدين هُمائي في المقدمة التي أعدها لـديوان شمس، يقول: «إذا قَسَمْنَا الشَّعْرَ الفَارِسِيَّ عَلَى مَدْرَسَتِي الْعَقْلِ وَالْعِشْقِ، أَوِ الْحَالِ وَالْقَالَ، فَإِنَّ آخِرَ كِتَابٍ فِي مَدْرَسَةِ الْعِشْقِ هُوَ دِيْوَانُ غَزَلِيَّاتِ شَمْسٍ نَفْسُهُ، وَلَا يُرِيدُ هُنَا إِلَّا اضْطِرَابَ الْجُنُونِ، وَذُهُولَ الْوَجْدِ وَالْحَالِ وَالْهَيْجَانِ وَالْحَمَاسَةِ، أَمَّا سَدَاةُ الْغَزَلِيَّاتِ وَلُحْمَتُهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَهُوَ الْعِشْقُ؛ وَالْحَالُ وَالْجَذْبُ وَالْهَيْجَانُ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي فِي شِدَّةِ الْاضْطِرَابِ وَانْقِلَابِ الْحَالِ تَخْرُجُ مِنْ دِمَاحٍ مُتَلَاطِمٍ، وَرُوحٍ مَفْعَمٍ بِالْعِشْقِ، وَقَدْ أَشَارَتْ إِلَى حَالَاتِهِ الْمُخْتَلِفَةِ وَوَجْدِهِ وَفِرَاقِهِ وَنَشَاطِهِ وَحُزْنِهِ وَأَسَاهُ وَسَمَاعِهِ وَرَفْقَصِهِ؛ وَلِهَذَا السَّبَبُ لَا تَرَوْقُ إِلَّا الذَّاهِلِينَ الَّذِينَ عَاشُوا نِمَازَجَ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ.

بعضُ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ بِمَوْلَانَا يَعُدُّونَ الْمَثْنَوِيَّ مَنَجَمًا لِلْحَقَائِقِ، وَمَنْبَعًا غَزِيرًا لِلْهَيْجَانِ وَالْحَالِ وَالْعِرْفَانِ؛ وَيَقُولُ الْمَرْحُومُ الْأَسْتَاذُ فُرُوزَانْفَرُ:

«إِنَّ مَوْلَانَا عَارِفٌ ثَمَلٌ بِعِشْقِ الْحَقِّ، غَارِقٌ فِي أَمْوَاجِ نُورِ شَمْسِ الرُّوحِ، وَرُوحُهُ مُفْعَمٌ

بِالتَفَتُّحِ وَالشُّرُورِ، حَتَّى إِنَّهُ يَرَى مَظَاهِرَ الْعَالَمِ جَمِيعًا لِأَلَاءِهِ مِنْ هَذَا الضِّيَاءِ»^(١).

فَمَنْ ذَا الَّذِي يقرأُ هذه الأبياتَ ولا تُدرِكُهُ حَيْرَةُ عَظِيمَةٍ، وَمَنْ الَّذِي يَسْمَعُهَا
مُلْحَنَةً، أَي مَصْحُوبَةً بِصَوْتِ النَّايِ وَالرَّيَابِ وَالذَّفِّ، ولا يَحْتَارُ عَقْلُهُ وَرُوحُهُ:
- فَأَيُّ جَمِيلٍ لَمْ يَغْدُ قَبِيحًا؟ أَوْ أَيُّ سَقْفٍ لَمْ يَغْدُ مَفْرَشًا [مُساوياً للأرض]؟
- إلا أصوات [الأولياء] الأعزاء في صُدُورِهِمْ؛ أولئك الذين يَكُونُ تَفْخُ الصُّورِ مِنْ
صَدَى أَنْفاسِهِمْ.
- فباطنُهُمْ هو الذي سَكِرَتْ مِنْهُ الْبَواطِنُ؛ وفناؤُهُمْ هو الذي اسْتَمَدَّ وجودُنا مِنْهُ
الوجود.

- والوَلِيُّ هو كَهْرِبَاءُ الْفِكْرِ وَكُلِّ صَوْتٍ؛ وهو لَذَّةُ الْإِلْهَامِ وَالْوَحْيِ وَالْأَسْرارِ (١).
[٢٥] إِنَّ عَدَدًا مِنْ مَشَاهِيرِ الْمُحَقِّقِينَ، وَمِنْهُمْ الْأَسْتاذُ وَالشَّاعِرُ الْعَالِمُ السَّيِّدُ
الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ رِضا شَفِيعِي كَذَكَنِّي، يَعْتَقِدُ أَنَّ جَلالَ الدِّينِ مُحَمَّدًا الْبَلْخِي عَرِفَ فِي
تَارِيخِ الْأَدبِ الْإِيرَانِيِّ مِنْ طَرِيقِ الْمُثَنَوِيِّ أَكْثَرَ مِنْهُ مِنْ غَيْرِهِ؛ وَالذِّيوانُ الْكَبِيرُ، «دِيوانُ
شَمْسِ تَبْرِيزِ»، لَمْ يَحْظَ بِرَواجٍ كَبِيرٍ فِي فضاءِ الشَّعْرِ وَالْأَدبِ. أَمَّا الْمُثَنَوِيُّ فَإِنَّهُ، سِوَاهُ
أَكَّانَ ذَلِكَ فِي الْقُرُونِ الْمُنْصَرِمَةِ أَمْ فِي الزَّمانِ الرَّاهِنِ، كَانَ يَقْرُوهُ قُرَاءَ الْمُثَنَوِيِّ الْمُلْحَنُونَ
فِي الرِّوايا الصُّوفِيَّةِ. وَكَانَ نَقَرٌ مِنَ الشُّيوخِ الْمُطَّلِعِينَ عَلَى الْأَدبِ يُفَسِّرُونَهُ وَيُوضِّحُونَهُ
مَعَانِيَهُ. وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنَّهُ فِي حَلَقَاتِ التَّصَوُّفِ، وَفِي أَثْناءِ إِنْشادِ (٢) الْمُثَنَوِيِّ، كَانَتْ

١- الْمُثَنَوِيُّ، ج ١، ٢٠٧٨-٢٠٨١.

٢- جَاءَ الْمُثَنَوِيُّ فِي سِتَّةِ أَجْزاءٍ، وَعَدَدُ آيَاتِهِ، بِحَسَبِ الرِّواياتِ وَكَذَلِكَ بِحَسَبِ الْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي طُبِعَتْ، مُخْتَلِفٌ.
فَقَدْ جَعَلَهَا صَاحِبُ «كُشْفِ الظُّنون» ٢٦٦٠ بَيْتاً، وَجَعَلَهَا دَوْلَتُشاهُ السَّمَرْقَنْدِيِّ ٤٨٠٠٠ بَيْتاً، وَبِجَمَلِ نِيكلسون
عِدَّةُ آيَاتِ الْمُثَنَوِيِّ ٢٥٦٣٢ بَيْتاً، وَعَدَدُ الْآيَاتِ فِي كُلِّ جُزْءٍ عَلَى التَّخَوُّلِ الْآتِي: الْجُزْءُ الْأَوَّلُ ٤٠٠٣ بَيْتاً، وَالثَّانِي ٣٨١٠
بَيْتاً، وَالثَّالِثُ ٤٨١٠ بَيْتاً، وَالرَّابِعُ ٣٨٥٥، وَالْخَامِسُ ٤٢٣٨ بَيْتاً، وَالسَّادِسُ ٤٩١٦ بَيْتاً.

وَيُطْلَقُ مُصْطَلَحُ «الْمُثَنَوِيِّ» فِي الْأَدبِ الْفَارِسِيِّ عَلَى الْأَشْعَارِ الَّتِي يَكُونُ لِمِصْرَاعِي الْبَيْتِ فِيهَا قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ،
وَتَكُونُ آيَاتُهَا جَمِيعاً مُتَّحِدَةً فِي الْوِزْنِ. وَيَقَالُ إِنَّ «الْمُثَنَوِيَّ» لَهُ سَابِقَةٌ قَدِيمَةٌ فِي الْأَدبِ الْفَارِسِيِّ، مِنْذُ زَمَانِ رُودَكِي=

غَزَلِيَّاتٌ مِنْ دِيوَانِ شَمْسٍ تُقْرَأُ أَيْضًا، أَوْ أَتَاهَا فِي أَثْنَاءِ السَّمَاعِ وَفِي ذُرُوءِ الْهَيْجَانِ وَالْوَجْدِ كَانَتْ تَصِلُ إِلَى أَسْمَاعِ الْعُشَّاقِ مُنْبِعَةً مِنْ حَنَاجِرِ الْمَغْنِيِّينَ الْمُجِيدِينَ. وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ الْمُثْنَوِيَّ وَدِيوَانَ شَمْسٍ قَدْ صَدَرَ عَنْ فِكْرِ مَوْلَانَا الدَّائِمَةِ وَأَنْظَارِهِ الْعِزْفَانِيَّةِ الْعَمِيقَةِ الْخَالِدَةِ. وَفِي أَجْزَاءِ الْمُثْنَوِيَّ السَّتَّةِ يَطْلُعُ الْعَارِفُونَ، وَالْعُشَّاقُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُعْتَقِدُونَ بِالطَّرِيقِ الصَّوْفِيِّ، عَلَى عِلْمِ النَّفْسِ. وَهَذَا سَيَتَعَرَّفُونَ جَيِّدًا لِمَاذَا يَحْتَاجُ السَّالِكُ فِي طَرِيقِ السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ إِلَى وَلِيِّ، أَوْ مُرْشِدٍ وَشَيْخٍ مُوجِّهٍ.

وَقَدْ كَتَبَ الْأَسْتَاذُ سُروشُ فِي مَقَالَتِهِ الْجَذَابَةِ الْخَلِيقَةِ بِالْقِرَاءَةِ، فِي أَحَدِ أَعْدَادِ صَحِيفَةِ «كَيْهَان»، تَحْتَ عُنْوَانٍ: «الْمُثْنَوِيُّ وَالْدِيوَانُ الْكَبِيرُ فَكْهَتَانِ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ»، يَقُولُ:

«نَجِدُ لَدَى مَوْلَانَا فِي الْمُثْنَوِيَّ سُلْطَانًا عَجِيبًا، إِذْ إِنَّهُ فِي عَيْنِ الشُّكْرِ يِرَاعِي الْأَدَبَ وَيَرْبِطُ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالصُّورَةِ^(١). وَمَعَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ يَدْعُوهُ إِلَى تَقْطِيعِ [٢٦] سِلْسِلَةِ التَّنْدِيرِ^(٢) وَإِتْلَافِ اللَّفْظِ وَالصُّورَةِ وَتَشْتِيبِ الْكَلَامِ^(٣)، وَمَعَ أَنَّ أَصُولَ الْعَاقِبَةِ وَالْقَافِيَةَ قَدْ ضَاعَتْ مِنْهُ^(٤)، وَأَسْلَمَهُ جُنُونٌ إِلَى جُنُونٍ لِيَجْعَلَهُ مُضْطَرِّبًا وَمَتَوَفِّرًا، وَمَعَ

= وَأَبَى شُكُورَ الْبَلَخِي، إِذْ اسْتَعْمَلَهُ الشُّعْرَاءُ فِي نَظْمِ حِكَايَاتِ الْحَرْبِ، وَفِي وَصْفِ حَقَلَاتِ الطَّرَبِ، وَفِي الْمَوْضُوعَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْعِزْفَانِيَّةِ؛ وَفِيهَا بَعْدُ كَانَ الشُّعْرَاءُ التُّرْكُ يُسْتَفِيدُونَ مِنْ هَذَا الْقَالِبِ [الأصل].

- ١- إِنَّ تَجْمَعِ الصُّورَةِ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى الْعَمِيقِ لَيْسَ
وَفِي مِثْلِ هَذَا الشُّكْرِ لَا تَوْجِدُ مَرَاعَاءَ لِلأَدَبِ

مَمَكَّنًا إِلَّا لِسُلْطَانٍ مَهِيْبٍ وَعَظِيمٍ
فَإِنْ هِيَ حَصَلَتْ فَذَلِكَ أَمْرٌ عَجِيبٌ

(الْمُثْنَوِيَّ، ج ٣/١٣٩٤ - ٩٥)

- ٢- هَيْهَاتَ، ضَعُ عَلَى قَدَمِي هَذَا الْقَيْدَ
فَقَدْ حَظَّيْتُ سِلْسِلَةَ التَّنْدِيرِ

(الْمُثْنَوِيَّ، ج ٦/٦١٥)

- ٣- فَلَا ضَرِيَّةَ الْحَرْفِ وَالصَّوْتِ وَالْكَلَامِ بَعْضُهَا يَبْعُضُ لِكَيْ أَسْتَطِيعَ الْحَدِيثَ مَعَكَ مِنْ دُونِ تِلْكَ [الوسائل] الثَّلَاثِ

(الْمُثْنَوِيَّ، ج ١/١٧٤٠)

- ٤- كَيْفَ يَأْتِي التَّنْظُمُ لِي وَالْقَافِيَةُ؟
بَعْدَمَا ضَاعَتْ أَصُولُ الْعَاقِبَةِ

مَا جُنُونٌ وَاجِدٌ لِي فِي الشُّجُونِ
بَلْ جُنُونٌ فِي جُنُونٍ فِي جُنُونٍ

(الْمُثْنَوِيَّ، ج ٥/١٨٩٥ - ١٨٩٦)

أَنَّهُ شَيْعَ مِنَ الْفَضْلِ وَالذِّكَاءِ^(١)، وَمَزَقَ بُرْدَ الْحَيَاءِ^(٢)، وَقَلَّتْ قَدْرَتُهُ عَلَى الصَّبْرِ^(٣)،
وافتقد القدرة على سماعِ إغواءِ الهجرانِ وأسلمَ بيتَ القلبِ للاحتراقِ^(٤)، [مع ذلك
كله] يظلُّ طاهرو الأنفاسِ الذين استوطنوا ضميره^(٥) ونُدْماءُ خلوةِ الأنسِ وعالمِ
أَسْرَارِ قِيَابِ الْغَيْبَةِ يَدْعُوْنَهُ إِلَى [٢٧] كَنَمِ السِّرِّ والتسترِ، وقائلُ «يا جميل السِّرِّ» يأمره
بالصَّمْتِ^(٦)، وهو أيضًا بتدبيرٍ وحكمةٍ يَضَعُ قُفْلًا عَلَى فَمِهِ^(٧) ويحترفُ الصَّمْتَ، أو
بِسَبَبِ الْغَيْبَةِ يُصْدِرُ صَوْتًا جاذِبًا لِلْقُلُوبِ^(٨)؛ لِكَيْ يَفْتِنَ بِهِ الْمُخَاطَبِينَ وَيَشْغَلَهُمْ عَنْ

١- إِنِّي عَائِقُ لِقَى الْجَنُونِ مَالٌ مِنَ الْفَضْلِ وَالذِّكَاءِ

(المنوي، ج ٥٧٨/٦)

٢- فَنَعَالَ، يَا عَدُوَّ الْحَيَاءِ وَالْفِكْرِ فَقَدْ مَزَقْتَ حُجُبَ الْحَقِّيلِ وَالْحَيَاءِ

(المنوي، ج ٦١٧/٦)

٣- قَلَّتْ طَاقَتِي مِنْ هَذَا الصَّبْرِ وَصَارَتْ وَاقِعَتِي هَذِهِ عِبْرَةٌ لِلْعَشَاقِ

(المنوي، ج ٤٠٧/٦)

٤- لَنْ أَسْتَعْبِدَ بَعْدَ ذَلِكَ إِغْوَاءَ الْهَجْرَانِ وَقَدْ جَرَّبْتُهُ فَحَتَامَ أُجْرِبُهُ؟

(المنوي، ج ٦١٣/٦)

٥- وَمَتَى يَسْعَدُ قَلْبُهُ وَلَمْ أَحْتَرِقْ، يَا مَنْ قَلْبُنَا أَهْلُهُ وَمَنْزَلُهُ

وَإِنَّكَ تَظَلُّ تُحْرِقُ مَنْزِلَنَا، فَأَحْرِقْ، فَمَنْ ذَلِكَ الشَّخْصُ الَّذِي يَقُولُ: لَا يَجُوزُ؟

(المنوي، ج ٦٢٢/٦ - ٢٣)

٦- إِذَا أَقْلَنْتُ لَكَ مِنْ قَوْلِ هَذَا الْكَلَامِ الشَّبِيهَ بِالْتَرِ الْمَلِكِيِّ فَاعِذْزَنِي

يَضَعُ يَدَهُ عَلَى فَمِي قَائِلًا: كَفَى

أَنْهَضُ أَوَّلًا وَأَطْلُبُ مِنْ سُحِّهِ لَه [بِمَنَاجَاتِهِ]

(المنوي، ج ٤٧٣/٣)

٨- وَلَا أَتَنِي صَفِيٌّ لِلْهَامِينَ فِيهِ

تَجِدُنِي نَهَارًا وَلَيْلًا أَنْفَعُ فِي قَفْصِ

فَعَلِ أَيْ جَنَّبِ كُنْتَ نَائِمًا اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ؟

تَدْعُو السَّمَاءَ: يَا جَمِيلَ السِّرِّ

(المنوي، ج ٤٧٣/٣ وما بعد)

وَأَنَّكَ أَتِيهَا الرُّوحُ، قِيلَ جَدًّا وَفَاقِدُ الْوَعْدِ وَمُضْطَرَبٌ،

وَعِنْدَمَا يَتَحَدَّثُ اللِّسَانُ عَنْ سِرِّهِ وَلُظْفِهِ

رؤية مستوري حَرَم الغَيْب. ومولانا نفسه في الديوان الكبير مجنونٌ كبير، ليس إلا
شِعَارًا^(١) وشُعْلَةً نار^(٢)، وهو نَدِيمٌ لشراب جهنم السكرى، ومحتَرِقُ الرُّوح الطالبُ
للنار، الذي لا يأخذ ماء الحياة بشيء^(٣).

ومختصرُ القول أن المثنوي، الذي له ارتباطٌ بمقالات شمس، ينطوي على بيانٍ
لحقائق العرفان والتصوف، وشرح وتفسير لرموز الآيات القرآنية والأخبار النبوية. لكن
مولانا كأنه كان يسعى إلى إفشاء قَدَرٍ قليلٍ من أسرار ما حدث بينه وبين شمس. أمّا في
الديوان الكبير، أو ديوان العشق، فإن صياحه [٢٨] وضجيجَه يُصمُّ أذنَ الفلك، وينغمه
السّاحِرُ يثيرُ حسدَ كوكبِ الزُّهرة، التي هي ربُّ الطَّرب. وفي فراق شمس يكشفُ أسرارَ
عالمِ الباطنِ بمهارةٍ وحذقٍ ومن دون تحفظ، ومن دون مبالاة، حتّى إنه لو كان الحُسينُ
ابنُ منصورِ الحلاج، شهيدُ طريقِ العشق والحقيقة، حيًّا لأفتى بشنقه:

إذا كُنْتَ أَنْتَ نَفْسِي، أَيُّهَا الْحَبِيبُ، فَانظُرْ فَإِنِّي بِلا

ولماذا تَسْأَلُ عَنِ الْأَسْرَارِ، عِنْدَمَا أَكُونُ عَلَى هَذَا الْوُضُوحِ

وَأَشِيرُ إِلَى الْحَلَاजِ، الَّذِي جَاءَ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى الْمَشْنَقَةِ

وَمِنْ قُوَّةِ أَسْرَارِي، أَبْعَثُ الْحَلَاجَ حَيًّا

وبعضُ أشعاره العِشْقِيَّة، لانتها تَفِيضُ مِنْ قَلْبِهِ المَلِيءِ بِالْأَلَمِ، تَأْخُذُ لَوْنَ الدَّمِ؛ وَمِنْ

١- أَخْشَى إِنْ صَبْتُ أَنْ تَلِكَ الشَّمْسُ ثَمَرُ الْقُحْبَابِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى

٢- ثُورُوا، ثُورُوا؛ فَإِنَّا بَحْرُ الْهَتَافِ وَغَيْرُ الْعِشْقِ، غَيْرُ الْعِشْقِ، لَا عَمَلٌ لَنَا
وَفِي هَذَا التُّرَابِ، فِي هَذَا التُّرَابِ، فِي هَذِهِ الْمَزْرَعَةِ الظَّاهِرَةِ، لَا نَبْذُرُ إِلَّا الْعِشْقَ، إِلَّا الْحُبَّ
(ديوان شمس، القَزَلِيَّة ١٤٧٦)

٣- أَجْرِي بِسُرْعَةٍ أَجْرِي بِسُرْعَةٍ لِكِي أَصِلَ إِلَى الْفُرْسَانِ أَغْدُو عَدَمًا، أَغْدُو عَدَمًا، لِكِي أَلْتَحِقَ بِالْأَحْيَةِ
طَبْتُ نَفْسًا، طَبْتُ نَفْسًا، صِرْتُ شُعْلَةً نَارٍ أَخْرِقُ الْمَنْزِلَ، أَمْضِي حَتَّى أَصِلَ إِلَى الصَّحْرَاءِ

هذه الوجهة يقول:

عندما يفور الدّم أعطيه من الشّعِرِ لَوْنًا

ولكنّي لا يغدو لباسي ملطّخًا بالدّم، تكون أنت ملطّخي بالدّم

انظر إلى الدّم في نظمٍ شعري، ولا تنظر إلى الشّعِرِ

لأنّ لَمَينِي وقلبي من عِشقه تَلَوْنًا بالدّم

ومولانا في «الديوان الكبير» غارق في بحرٍ من النور، كأنه غريبٌ ليس من أهل هذه

الدنيا؛ والأفلاك السبعة كلّها ضاقت عليه؛ وهو يعترف بأن صدره السخي حانة قديمة؛

ومن هذه الناحية يخاطب شمسًا:

من كأسٍ شرابك يكون رأسي مضطربًا ومن رؤيتك يكون جسми روحًا

تضيق عليّ الأقاليم السبعة جميعًا عندما بدخل هو في قميصي

ما أجمل شمسًا، ما أجمل العشق

وأَيُّ إنسانٍ، ما خلا تلميذًا ومريدًا ممتازًا لشمسٍ، يمكن أن يدعي أنه يصنع رَسَنًا

من أشعة النور اللائاة. ويتعبّر أحد المتخصّصين بمولانا، كيف يمكن التعبير عن كلّ

هذه الجراحة والسخاء والتغافل والاضطراب والهيام، مع كلّ هذا الضبط للنفس والسعة

والصمت؛ أي شخصٍ قادرٌ على أن يقول:

كُنْتُ زُهْرَةً، صِرْتُ قَمَرًا، صِرْتُ فَلَكًا مِنْ مَتَنِي طَبَّة

كُنْتُ يُوُسُفَ، وَمِنَ الْآنَ صِرْتُ أَلِدُ أَمْثَالَ يُوُسُفَ

ظَفَرَ قَلْبِي بِضِيَاءِ الرُّوحِ، فَاَنْفَتَحَ قَلْبِي وَانْشَرَحَ،

نَسَجَ قَلْبِي أَطْلَسَ [رِداءً حَرِيرِيًّا] جَدِيدًا، صِرْتُ عَدُوًّا لِهَذِهِ الْخِرْقَةِ

مَا أَخْلَى شَمْسًا، مَا أَنْهَى شَمْسًا!

هذا الرّوحانيّ الكبير، هذا الأستاذ والفقيه غير المنازع في الرّوم الشّرقية، ماذا سمع، أو أيّ سرّ كُشِفَ له، حتّى سَمِعَ قلبه - فجاءة - المدرسة وأهلها وكُتِبَ الدّراسة، وتغيّر واضطرب، واعترف:

كَانَ الْمَضْحَفُ فِي يَدَي دَائِمًا وفي العِشْقِ أَمْسَكْتُ بِالصَّغَانَةِ [آلة موسيقية]

وفي القَسَمِ الَّذِي كَانَ فِيهِ تَنْسِيحٌ شِعْرٌ وَدُوَيْيَتٌ وَرُبَاعِي

[٢٩] أَيُّ شَخْصٍ كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَشَوْقَ جَلَالَ الدِّينِ الْبَلْخِي إِلَى السَّمَاعِ؟

سُلْطَانٌ وَلَدَ، الابْنُ الْأَكْبَرُ لِمَوْلَانَا، يُنْشِدُ فِي «مَتْنَوِيّه» إجابةً هَذَا السُّؤَالِ مِنْ دُونِ لَبْسٍ، عَلَى هَذَا النُّحْوِ:

كَانَ، بِتَأْثِيرِ اتِّصَالِهِ بِشَمْسِ الدِّينِ مِنْ أَعْمَاقِ الْقَلْبِ،

أَكْثَرَ طَاعَةً مِنَ الْأَبَامِ وَالْيَالِي

وَعَلَى امْتِدَادِ السَّنِينَ وَالْأَشْهُرِ، ظَلَّ ذَلِكَ الْمَلِكُ

مُنْشَغِلًا بِعُلُومِ الزُّهْدِ وَالدِّينِ

وَعِنْدَمَا دَعَاهُ شَمْسُ الدِّينِ إِلَى

السَّمَاعِ، الَّذِي كَانَ مُخْتَارًا عِنْدَهُ قَبْلَ مَعْرِفَتِهِ،

صَارَ السَّمَاعُ لَهُ مَذْهَبًا وَاعْتِقَادًا صَحِيحًا،

وَمِنَ السَّمَاعِ نَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْلُ بُسْتَانِ

وَجَلَّالُ الدِّينِ مَسْرُورٌ، لِأَنَّهُ بِلِقَاءِ الشَّيْخِ التَّبْرِيزِيِّ وَمُجَالَسَتِهِ وُلِدَ مِنْ جَدِيدٍ،
وَتَخَطَّى هَذَا الْحَدَّ، وَيَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ اقْتَرَبَ مِنْ مَحْبُوبِهِ الْجَدِيدِ الْوَافِدِ، حَتَّى كَأَنَّهُ
الْاِثْنَيْنِ لِهَمَّا ذَهَبَ وَاحِدٌ وَإِدْرَاكُ وَاحِدٌ، وَقَدْ رَأَى الْحَيَّ وَوَصَلَ إِلَى الْقَيُّومِ. وَلَنَقْرَأُ
مَعَ اعْتِرَافَاتِ مَوْلَانَا بِإِخْلَاصٍ:

مَا أَقْرَبَ رُوحَكَ مِنْ رُوحِي! حَتَّى إِنَّ كُلَّ مَا تَفَكَّرُ فِيهِ أَعْلَمُهُ
أَوْ:

نَحْنُ نَارُ الْعِشْقِ، وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى الشَّمْعِ
وَمِثْلَ الشَّمْعِ وَصَلْنَا إِلَى الْفَرَّاشَةِ الْمَظْلُومَةِ
وَقَدْ طَرَنَّا، مَضْحُوبِينَ بِأَيَةِ الْكُرْسِيِّ، نَخُو الْعَرْشِ
حَتَّى رَأَيْنَا الْحَيَّ، وَوَصَلْنَا إِلَى الْقَيُّومِ
أَوْ:

وَمَاذَا أَقُولُ؟ - كُنْتُ مَيِّتًا مِنْ دُونِكَ تَمَامًا
وَقَدْ خَلَقَنِي الْحَقُّ مِنْ جَدِيدٍ مَرَّةً أُخْرَى
فَأُذِّنُ لِي بِأَنْ أَقْبَلَ بِدَكَ وَقَسَدَمَكَ
وَأَعْطِنِي الْعِيدِيَّةَ؛ فَإِنَّ هَذَا الْيَوْمَ عِيدِي
وَفِي هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ الْمَثِيرَةِ لِلْبَحْثِ، يُحْتَاجُ إِلَى مَزِيدٍ تَدْقِيقٍ، خَاصَّةً أَنَّ شَمْسَنَا
التَّبْرِيزِيَّ قَالَ فِي «الْمَقَالَاتِ»:

«كَانَ هَذَا الدَّنُّ مِنْ شَرَابِ رَبَّانِي، وَضِعَ السَّرُّ فِي الطِّينِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ أَطْلَاعٌ عَلَى هَذَا.
وَقَدْ أَضْعَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ، فَكُنْتُ أَسْمَعُ، هَذَا الدَّنُّ كُشِفَ بِسَبَبِ مَوْلَانَا؛ وَكُلُّ مَنْ نَصَلَ
إِلَيْهِ فَائِدَةٌ مِنْ هَذَا، يَكُونُ السَّبَبُ فِي هَذَا مَوْلَانَا».

وَجَدِيرٌ بِالذِّكْرِ أَنَّ مَوْلَانَا، فِي نَظَرِ الْأَسْتَاذِ الذَّكَتَرِ مُوَحَّدٌ، كَانَ يَرَى أَنَّ شَمْسًا
التَّبْرِيزِيَّ هُوَ «مَوْلَى مَوَالِي الْأَسْرَارِ» وَ«سُلْطَانِ الْمَعَانِي»، وَكَانَ يَرَى نَفْسَهُ فِي مَقَامِ
التَّسْلِيمِ لَهُ وَالضَّرَاعَةِ مِثْلَ الْحَمَلِ الْوَدِيعِ فِي يَدِ الرَّاعِي، وَكَانَ يُنْشِدُ:

مَوْلَى مَوَالِي الْأَسْرَارِ

طَائِرُ الْبُلَحْ (*) الَّذِي يَعْطِي الْحَظْوَةَ لِأَصْحَابِ الْحَظِّ

مُسْتَقَرُّ الرُّوحِ، شَمْسُ الدِّينِ التَّبْرِيزِيَّ

لَا قَدَرَ اللَّهُ لِرُوحِي انْفِصَالًا عَنْ رُوحِهِ

[٣٠] أَوْ:

يَا مَنْ أَنْتَ صَوْتُ وَصْدَى لِتِلْكَ الدُّنْيَا يَا مَنْ جِئْتَ لِيَّ تَدْعُونِي

كُنَّا نَنْتَظِرُ نَفْسَكَ فَارْجِعْ فَأَنْتَ رَسُولُ اللَّامِكَانِ

نَحْنُ عِنْدَكَ أَمَانَةٌ شُعِيبَ فَسَاعَتِي بِنَا فِي الضِّيَافَةِ

وَلِأَنَّ مَوْلَانَا جَلَالَ الدِّينِ عَاشِقٌ، وَلِأَنَّهُ بِفَضْلِ إِرْشَادَاتِ شَمْسٍ مُتَحَرِّرٍ مِنْ شَرِكِ
الْحَوَادِثِ، وَيَسِيرُ فِي دَاخِلِ عُرُوقِ ظَوَاهِرِ الْوُجُودِ، وَكَانَ يَنْسَبُ فِي أَنْوَارِ السِّيَّارَاتِ
وَالْمَجَرَّاتِ، كَانَتْ الْغَزَلِيَّاتُ وَالْأَنَاشِيدُ الَّتِي أَثْبَتَهَا فِي «الدِّيَوَانِ الْكَبِيرِ» عَلَامَةً عَلَى
الضَّجَرِ وَالْقَلَقِ وَالْإِنْفَعَالِ وَالْوَلَهْ، وَمُفْعَمَةٌ بِالْجَذْبِ وَالْإِلْهَامِ، وَلِهَا قُدْرَةٌ خَلَاقَةٌ شَبِيهَةٌ
بِالْمُعْجَزَةِ عَلَى إِثَارَةِ الْعَوَاطِفِ الْعِشْقِيَّةِ. وَبَعْضُ أَشْعَارِهِ أَيْضًا مَجْلَى لِلْأَلَمِ وَالْعَذَابِ
النَّاشِئِ عَنْ فِرَاقِ سُلْطَانِ الْمَعْشُوقِينَ وَالْبُعْدِ عَنْهُ.

وَإِذَا كَانَتْ أَجْزَاءُ الْمَثْنَوِيِّ السِّتَّةِ وَالدِّيَوَانُ الْكَبِيرِ، بَعْدَ انْقِضَاءِ الْقُرُونِ

* - طَائِرُ الْبُلَحْ هُوَ الْمَقَابِلُ الْعَرَبِيُّ لـ «هُمَا» أَوْ «هُمَايَ» بِالْفَارْسِيَّةِ، وَهُوَ عِنْدَ الْإِيرَانِيِّينَ طَائِرُ أُسْطُورِيٍّ، تَذْهَبُ
الْأُسْطُورَةُ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ يَقَعُ عَلَيْهِ ظُلْمُهُ يَصِيرُ مَلِكًا [الْمُتَرْجِمُ].

والأغصار، وحتى هذا الوقت، محلّ اهتمام أصحاب القلوب والعشاق المؤثرين لهذه الدنيا، وتمنح قلب القارئ والسامع لذة رؤيويّة وملكوئيّة، وتُهدي سُكراً ونشاطاً، فإنّ مرّد ذلك إلى أنّ جلال الدين البلخي مُرَوِّج لفكرِ شمس تبريز المتعالية، المُجِبة للنّاس؛ ولعلّه من شعراء الصّوفيّة المعدودين الذين عبّروا عن ثورات العشق بأخلى صور الكلام؛ ومن وجهة أخرى صوّر شعره سيماء «مقالات شمس» على نحو غاية في البراعة والرّوعة.

ويقدم مولانا جلال الدين، في أجزاء المثنويّ السّنة وفي الديوان الكبير، شمساً التبريزي في صورة منبع حياته الجديدة، شمس الذي كان يُمِولُ محيرة وثورة كلام وأدلة قاطعة ينخر من معظم آثار العلماء والفلاسفة والعارفين في الزّمان الماضي وفي زمانه هو؛ وبكلامه الذي يأخذ بمجاميع النّفس ألقي شرارة في يندّر إحساس مولانا وعاطفته، انتهت بأن يرقص ويغيب عن نفسه.

فتح شمس أمام باصرتي جلال الدين النافذتين أفقاً جميلاً، وباعثاً على الهيجان، من العرفان العسقي، وقطع خيط العلوم القديمة الذي كان يُثقل فكره دفعة واحدة، وعلمه أن يصل إلى عالمه الباطني. وتمثّل هذا في أنّ كان جلال الدين البلخي بوصي الوالهيّن في طريق العشق بقوّة: إنّ شئتُمْ أن يكونَ لكم نصيبٌ من مواهب الحياة وجمال الكائنات، وتستحقّ أسماؤكم أن تُثبت في دفتر الأيام مُخلّدة باقية على الدّوام على نحو رائع، فتعلّموا أسرار العشق والسّكر:

[٣١] اذهب واغسل صدرك من الأحقاد سبع مرّات بالماء، مثلما تُغسل الصدور

وصر عندئذ كاساً لشراب العشق، صر كاساً

وَأَنْشَدَ فِي الْمَثْوَى:

- اجْعَلْ نَفْسَكَ نَقِيَّةً مِنْ صِفَاتِ الْإِحْسَاسِ بِالذَّاتِ؛ حَتَّى تَرَى ذَاتَكَ الطَّاهِرَةَ الصَّافِيَةَ.
- وَاخْرُجْ عَنِ اللَّوْنِ كَمَا يَخْرُجُ الْحَدِيدُ الْمَصْقُولُ عَنْ لَوْنِهِ، وَلَتَكُنْ بِالرِّيَاضَةِ مِرَاةً لَا صَدَأَ فِيهَا.
(ج ١ / ٣٤٥٩ - ٦٠)

ويروي مولانا أَنَّ مُرَادَهُ التَّبَرُّيزِيَّ قَالَ لَهُ: ادْخُلْ فِي ذَاتِكَ؛ ابْتَغَاءً أَنْ تُشَاهِدَ حَيَاةَ حَقِيقَةٍ لَهَا سَمَاءٌ أُخْرَى وَقَمَرٌ آخَرُ:
- أَنْتَ حَتَّى الْآنَ خَفِيٌّ، فَمَاذَا رَأَيْتَ مِنْ جَمَالِكَ؟ - فِي وَقْتِ السَّحَرِ، مِثْلَ الشَّمْسِ،
ادْخُلْ بَاطِنَ ذَاتِكَ.

فَالظَّفَرُ بِعَالَمِ الْعِشْقِ الْمَشِيرِ غَيْرُ مُمْكِنٍ مِنْ طَرِيقِ الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ وَالْقِيلِ وَالْقَالَ فِي الْمَدْرَسَةِ؛ وَيَقُولُ الْعَارِفُونَ وَالصَّوْفِيَّةُ الْعِشْقُ قَابِلٌ لِلْمَجِيءِ بِنَفْسِهِ، غَيْرُ قَابِلٍ لِلتَّعَلُّمِ.
وَكَانَ مَوْلَانَا الَّذِي أَفْنَى نَفْسَهُ فِي شَمْسٍ، ثُمَّ بَعْدَ هِجْرَانِهِ إِيَّاهُ كَانَ يَرَاهُ فِي نَفْسِهِ،
يُوصِي أَصْحَابَهُ بِالْقَوْلِ: إِذَا شِئْتُمْ أَنْ تُطْلُقَ أَجْنِحَتُهُ أَرْوَاحِكُمُ الْمَقِيدَةُ وَتَصِلُوا إِلَى تِلْكَ
النَّاحِيَةِ مِنَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَتَحَرَّرُوا مِنَ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ وَتَتَّصِلُوا بِالْعَالَمِ
الَّذِي لَا لَوْنَ لَهُ، وَفِي هَذَا الْقَصْدِ يَجِبُ أَنْ تَنْسُوا حَتَّى دَقَائِقَ الْحَيَاةِ الْمَاضِيَةِ وَالْحَاضِرَةِ:
- اخْرُجْ سَاعَةً مِنَ [حُكْمِ] الزَّمَانِ، أَيُّهَا الْقَلْبُ؛ لِكَيْ تَتَحَرَّرَ مِنَ الْكَيْفِيَّةِ وَالْعِلِّيَّةِ.
- وَلَيْسَ لِلزَّمَانِ خَبَرٌ عَنِ اللَّزْمَانِ؛ لِأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ إِلَّا الْحَيَرَةُ.
- وَعِنْدَمَا تَخْرُجُ لِزِيَارَةِ [حُكْمِ] الزَّمَانِ لَا تَبْقَى هُنَاكَ «كَيْفٌ»، وَتَغْدُو مَخْرَمًا
لِ«الْلاَكَيْفِيَّةِ».

وَفِي تِلْكَ الْحَالِ، وَذَلِكَ الْمَقَامِ، تَطُوفُ بِإِخْلَاصٍ، مِثْلَ أَبِي يَزِيدَ وَالسَّبَلِيِّ
وَالْحَلَّاجِ، حَوْلَ كَعْبَةِ الْوُجُودِ؛ وَيَمْلَأُ الطَّنِينُ الْخَالِدُ لِهَتَافِكَ: «مَا أَعْظَمَ شَأْنِي»، وَ: «وَأَنَا

الحق»، فضاء قلبك، وتصيحُ:

- أنا ذلك الروح المختفي مثل الروح؛ أنا ذلك القمر في عالم «اللامكان».

- أنا شمسُ سَمَواتِ اليقين، الذي نُورُ القمرِ وضياءُ الشمسِ سَمائي.

- أنا ذلك المجوسي الذي يلد منه الإيمان، أنا الكفر ولكنني الأمن والأمان.

- أنا تلك النفخة التي نُفِخَتْ في مريم، أنا ذلك الروح الذي هو روح لميسى.

- أعلمُ أنه لا أحدٌ غيري هو داخل الروح وخارج العالم.

- يسجدُ لي منصورٌ [الحلاج] والسُّلبي في المعنى، وأنا بينَ هذا وذاك،

- وقد مضتْ آلافُ القرونِ وأنا داخلُ سُتورِ الأنسِ والروح.

- وإذا كُنْتُ أضَعُ غِطاءً على عَيْنِي، فَإِنِّي ظاهِرٌ لِأَغْنِي أَهْلِ القلوب.

- [٣٢] لُذْتُ بِالصَّمْتِ بِأَمْرِ شَمْسٍ قَبْرِي؛ ذَلِكَ لِأَنِّي لِسَانٌ فِي أَفْوَاهِ الصَّامَتِينَ.

ويقول شمسٌ إنَّ العِشْقَ هو الأساسُ لِلْمَعْرِفَةِ والعِلْمِ؛ وإنَّه مِن قَلْبِ العاشِقِ تَطْلُعُ الشمسُ، ويتنبأُ بِأَنَّ العِشْقَ سَيَشْمَلُ العالَمَ كُلَّهُ، وسيُلْغِ سِيرُ العارِفِ فِي طَلَبِ الحَقِيقَةِ وَنَيْلِ المَعْرِفَةِ مَرَحَلَةً يُشَاهِدُ فِيهَا الحَقَّ تَعَالَى فِي مُخْتَلَى القَلْبِ بِعَيْنِ القَلْبِ؛ وَفِي النِّهَايَةِ يَعُودُ فِي سَيْرِهِ نَحْوَ الكَمالِ إِلَى المَرَكِزِ الفَيَاضِ الأوَّلِ، الذي هو الوجودُ المطلقُ:

إِذْ أَصِيرُ عَدَمًا، وَالْعَدَمُ كَالأُرْغُنِ (*)، بَتَغْتِي لِي قَائِلًا: «وَأَنَا إِلَهُ رَجُوعٍ».

ذاتٌ مَسَاءٍ، وَفِي إِخْدَى الجَمْعِيَّاتِ الأدبِيَّةِ فِي طَهْرانَ، اقْتَرَبَ مِنِّي شَابٌّ كَانَ يَعْلَمُ

أَنِّي قَدْ أَلَفْتُ عَدَدًا مِنَ الكُتُبِ فِي مَوْضُوعِ حَيَاةِ مَوْلانا وَأَثارِهِ فَسَأَلَنِي:

- هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّ مَوْلانا جَلالُ الدِّينِ، الذي اعتَقَدَ بِشَمْسٍ اعتقادًا قوِيًّا وَكَانَ يَقُولُ عَنْهُ

* - الأُرْغُنُ، والأُرْغُونُ، من آلاتِ الطَّرَبِ البيرونيَّةِ [المترجم].

صراحةً إنه «رُوحُ رُوحِ الروح»، انبثقت أشعاره في أجزاءِ المثنوي الستة وغزلياته في الديوان الكبير من معين الإلهام والإشراق، أو من تجليات عواطف شمس وفكره؟ هل كان ينظم الشعر، حقيقةً، في لحظات وعي أو في لحظات غيابٍ للوعي؟ - لماذا كان مولانا يرى نفسه أمام «ترجمان الأسرار» و«عالم المعاني» على نحو صريح وواضح كالميت ويُشيد:

أنت ذلك النور الذي كان يقول لموسى: «أنا الله»، «أنا الله»، «أنا الله»؟

وكانت تلك أسئلةً عجيبةً. وطلبَ مني أنْ أنهض من مكاني وأحضر في هذا الشأن، أو أكتب له بالتفصيل. سألتُه: هل لديك اطلاعٌ على التصوف والعرفان؟ - فأجاب: في مجالِ العرفان والتصوف النظري قرأتُ كتبًا ومقالات. سألتُه: أتعلمُ بأنَّ كلَّ شاعرٍ محتاجٌ إلى مثيراتٍ تدفعه إلى النظم، وهذه المثيراتُ هي التي تسوق الناظم إلى عالم الإبداع الذي لا حدودَ له. اعلمُ أنَّ دوافعَ مولانا لم تكن هي نظم الشعر، بل كانت انعكاسَ الهيجانِ الداخلي، كانت النارُ الكامنة في الذهول والسُّكر؛ لم تكن دوافعه التخيلُ الباطلُ والرؤيا، بل الإشراقُ والإلهام. كانت حكايةَ الوله والعشق، وأسرار الضجة المتلففة بالصيحة^(١).

هي أسرارٌ من كرامات السَّماع والموسيقا والعشق ومُعجزاتها. ولولا هيجانُ هذا الاضطرابِ العرفانيِّ لما استطاعت قوةُ الإبداع والإلهام أن تترك تأثيرًا. [٣٣] وأنت تعرفُ أنَّ لسانَ الغيب، حافظًا شاعرَ شيرازَ المحترفِ للعشق، لم يستعمل في نظم

١- عندما أذكر اسمَ الخمر، تكونُ تلك أنتَ وناركَ
عندما أصبحَ تكونُ أنتَ في وسطِ الصيحة
فتعال، أنتَ مفحَّرُ تبريز، شمسُ القبريزي
أنتَ مثالُ الأضلي؛ لأنك أضلُّ الوجود والإيجاد

غَزَلِيَّاتِهِ الرَّائِعَةِ الْأَرْبَعِ مِثَّةٍ وَالْخَمْسِينَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَبْحُرٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ؛ أَمَّا جَلَالُ الدِّينِ فَقَدْ اسْتَعْمَلَ مِنَ الْأَبْحُرِ الْمَوْجُودَةِ كُلِّهَا خَمْسَةً وَخَمْسِينَ بَحْرًا، وَهُوَ عَدَدٌ مُثِيرٌ جَدًّا لِلدَّهْشَةِ وَشَبِيهٌ بِالْمُعْجِزَةِ، وَاسْتَغْلَهَا جَمِيعًا.

- أَعْلَمُ أَوْ قَرَأْتُ.. وَهنا ضَحِكَ الشَّابُّ الْمُنْفَحَّصُ، وَكَانَ مَعْلُومًا مِنْ سِيَمَائِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَاضِيًا عَمَّا أَقُولُ وَلَمْ يَكُنْ مُقْتَنَعًا؛ وَلِهَذَا السَّبَبُ نَظَرَ إِلَى عَيْنَيَّ بِعَدَمِ رِضَا مَكْتُومٍ وَقَالَ: - إِنْ شَمْسَ قَيْسَ الرَّازِي، الْمُنَظَّرَ الْأَدَبِيَّ الْمَشْهُورَ الَّذِي أَوْضَحَ الْأُسُسَ الصَّحِيحَةَ لِنَظْمِ الشُّعْرِ فِي كِتَابِهِ [الْمُعْجَمِ فِي مَعَايِيرِ أَشْعَارِ الْعَجَمِ]، كَتَبَ يَقُولُ:

عَلَى الشَّاعِرِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنْ يَخْتَارَ مَضْمُونًا شَائِعًا، ثُمَّ وَرَثًا مُنَاسِبًا، وَيَعْتَدِ بِطَلْبِ الْقَافِيَةِ. أَمَّا مَوْلَانَا جَلَالُ الدِّينِ فَقَدْ كَانَ فِي لِيَالِي السَّمَاعِ يَدُورُ حَوْلَ عَمُودٍ فِي مَنْزِلِهِ، أَوْ فِي صَالَةِ بِرَوَانِهِ، الْوَزِيرِ الْأَعْظَمِ لِلسُّلْطَانِ كَيْقُبَادِ السَّلْجُوقِيِّ، وَكَانَ فِي حَالِ سُرُورِ الْجَذْبِ وَبِضْخَةِ الْأَلْحَانِ الْمَوْسِيقِيَّةِ وَالرَّقْصِ يُنْشِدُ الْغَزَلِيَّاتِ. وَفِي نَظْمِ أَشْعَارِ الْمُشْنَوِيِّ أَيْضًا كَانَتْ تَسْتَبْدُّ بِهِ حَالٌ خَاصَّةٌ أَيْضًا؛ فَكَيْفَ يَتَكَوَّنُ فِي ذِهْنِهِ شَكْلُ الْقَافِيَةِ وَمَوْضُوعُهَا؛ هَلِ الْإِلَهَامُ وَالْإِشْرَاقُ وَالشَّهَادَةُ وَالْخُلُودُ تَوَلَّفَ كُلِّيَّةَ مَنَظُومَاتِ مَوْلَانَا وَسَدَّاهَا وَلُحْمَتَهَا؟

- قُلْتُ: الْإِلَهَامُ رَسُولٌ بَيْنَ مَوْلَانَا مِنْ طَرِيقِهِ خَاصِّيَّاتِهِ الرُّوحِيَّةِ وَدَقَائِقِهِ الْعَاطِفِيَّةِ. وَلَوْلَا شَمْسٌ لَكَانَ يُمْكِنُ مَوْلَانَا أَنْ يَنْظِمَ الشُّعْرَ، لَكِنَّهُ لَنْ يَكُونَ لِمَنَظُومَاتِهِ جَاذِبِيَّةٌ وَوَجْدٌ وَهَيْجَانٌ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مُحِبِّي مَوْلَانَا وَمُرِيدِيهِ كَانُوا بَعْدَ انْتِهَاءِ السَّمَاعِ يَقْرَءُونَ عَلَيْهِ مَنَظُومَاتِهِ. وَيَقَالُ إِنَّ شَيْخَ بَلُخَ كَانَ إِذَا انْهَلَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ سَكَتَ، وَسَعَى إِلَى تَضَحِيحِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى تَضَحِيحٍ مِنْهَا. وَلِأَنَّهُ كَانَ يَسْتَمِدُّ الْإِلَهَامَ مِنْ عَالَمِهِ الدَّاخِلِيِّ، وَمِنْ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ، وَمِنْ الْعِشْقِ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَرْتَبَةً لَدَى الْآخَرِينَ، لَمْ يَكُنِ الْاضْطِرَابُ

والهَيْامُ يَسْمَحَانِ لَهُ أَنْ يَسْتَمِدَّ فِكْرَهُ، وَهُوَ فِي هَيْجَانِ السَّمَاعِ أَوْ ثَوْرَةِ الْحَالِ، مِنْ أَشْيَاءِ مُشَاهِدَةٍ مُحْسوسة. وَقَدْ كَانَ الْعَطَّارُ وَالْعِرَاقِيُّ وَحَافِظٌ عَلَى هَذَا النَّحْوِ؛ فَصَعُّوا جَانِبَ الْعِشْقِ فِي الْحِسْبَانِ، وَلَا تَنْسَوُا الْإِلَهَامَ، وَهَذَا هُوَ تَمَامُ الشُّعْرِ الْعِرْفَانِيِّ وَكُلِّيَّةُ الْمَنْظُومَاتِ الْعِرْفَانِيَّةِ. وَالرَّوْيَةُ الذَّهْنِيَّةُ وَالشَّكْلُ الدَّاخِلِيُّ لِأَشْعَارِ جَلالِ الدِّينِ فِي أَوْزَانِهَا الْمُخْتَلِفَةِ هِيَ أَيْضًا فِي السَّمَاعِ كَرَامَةٌ، إِشْرَاقٌ. وَقُدْرَةُ التَّخْيِيلِ لَدَى الشُّعْرَاءِ الْمُخْتَرِفِينَ لِلْعِشْقِ، أَيْ الْهَيْجَانِ الَّذِي يَشَارِكُ فِي [٣٤] الْخَلْقِ وَالْإِبْدَاعِ، لَا تَسْتَفِيدُ مِنَ الْحَافِظَةِ فَقَطْ، بَلْ مِنَ الْقَرِيحَةِ الذَّاتِيَّةِ وَالْعِرْفَانِيَّةِ الَّتِي تَنْبَعُ مِنْ رُوحِ وَجُودِ جَلالِ الدِّينِ الْمَجْبُولِ بِالْعِشْقِ.

عَرَضَ الشَّابُّ سُؤَالَهُ الْأَخِيرَ، إِذْ سَأَلَ:

- كَيْفَ يَتَدَقَّقُ الْكَلَامُ عَلَى لِسَانِ مَوْلَانَا كَالسَّيْلِ وَهُوَ فِي أَوْجِ الْهَيْجَانِ وَالذُّهُولِ، انْتَبَهَ إِلَى صُورَةِ الْكَلِمَاتِ، فَهِيَ مِثْلُ فُصُوصِ الْخَاتَمِ، ذَاتُ نَظْمٍ وَتَرْتِيبٍ عَجِيبٍ.

اضْطَرَرْتُ أَنْ أَتَحَدَّثَ أَكْثَرَ عَنْ حَالَاتِ الْعَارِفِينَ، عَنْ التَّغْيِيرِ وَالِاضْطِرَابِ وَالْهَيْامِ الَّتِي كَانَتْ تَحْدُثُ لِمَوْلَانَا فِي السَّمَاعِ، وَهِيَ غَالِبًا مُقْتَرَنَةٌ بِمُكَاشَفَاتٍ تَحْصُلُ لِقُلُوبِ أَمْثَالِ مَوْلَانَا، وَفِي الْبَاطِنِ يَقَعُ تَجَلِّي الشُّوقِ، وَأَنْ آتِيَ بِأَدَلَّةٍ وَأَقْتَبَسَ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ^(١) فِي كِتَابِهِ «الرِّسَالَتِ»:

«عِنْدَمَا تَزْدَادُ نَارُ الْمَحَبَّةِ تَأْجُجًا، تَغْدُو الْمَحَبَّةُ عَاجِزَةً، وَيُصْبِحُ الدَّاءُ دَوَاءً وَيَنْكَشِفُ السِّرُّ. السِّرُّ ظَاهِرٌ وَالتَّرَجُّلُ خَفِيٌّ، مَا شَأْنُ الْعَاشِقِ فِي هَذَا. فِي مَحَلَّةِ الْأَرْوَاحِ، أَيُّ شَيْءٍ أَجْمَلُ؟ تَقْدِيمُ الرُّوحِ؛ فَدَغْ عِنْدَكَ الْيَقِينُ وَالظَّنُّ»^(٢).

١ - هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ الْقُرَظِي، شَيْخُ خُرَاسَانَ فِي عَصْرِهِ. مِنْ نَسْلِ أَبِي أَيُّوبِ الْأَنْصَارِيِّ. كَانَ عَالِمًا فِي اللُّغَةِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّارِيخِ وَالْأَنْسَابِ. لَهُ عَدَدٌ مِنَ الْمَصْنُفَاتِ (ت ٨١٥هـ).

٢ - رِسَالَتِ خَوَاجَةِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ، ص ١٣٢، بِاخْتِصَارٍ.

نعم، الحصول على الوجد رُوح، رسالة وكلام مجهول من دُنيا الإلهام، لأنه عندما تحدث هذه الحال تتأل على اللسان من القلب والروح، في الصُّبح الصادق، كلمات المكاشفة والشوق في موقعها لاثقة مُناسبة. وفيما بعد أنشد حافظ [الشيرازي] في هذا المقام:

أَيَّ لَحْنٍ عَرَفَ مُطْرِبُ الْعِشْقِ، حَتَّى فِي غِلَالَةِ السَّمَاعِ أَغْلَقَ بَابَ الصَّبَاحِ عَلَى أَهْلِ
الْوَجْدِ وَالْحَالِ؟

كَانَ شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ مُصَاحِبَ مَوْلَانَا، وَمُوجِدَ الْوَلَهِ وَالتَّغْيِيرِ فِيهِ. أَمَّا الزَّيْنَاتُ الْكَلَامِيَّةُ وَالتَّرَاكِبُ الْعَجِيَّةُ وَالْغَزَلِيَّاتُ الْموزُونَةُ فِي الدِّيَوَانِ الْكَبِيرِ، وَالْقِصَصُ الْبَاعِثُ عَلَى الْإِعْتِبَارِ فِي أَجْزَاءِ الْمُثْنَوِيِّ السَّتَّةِ الَّتِي يَعْجِزُ الْقَارِئُ صَاحِبُ النَّظَرِ أحيانًا عَنْ إِدْرَاكِ مَعَانِيهَا، فَهِيَ لِمَوْلَانَا. وَسِحْرُ بَيَانِهِ مُظْهِرٌ لِحَالِ شَاعِرٍ بَلَغَ وَجْذِبَهُ وَهَيْجَانُ رُوحِهِ، لَأنَّهُ يَسْتَمِدُّ مِنْ إلهَامِ الْغَيْبِ. وَفِي هَذَا الشَّأْنِ يَعْتَرِفُ مَوْلَانَا فِي الدِّيَوَانِ الْكَبِيرِ:

بَا مَنْ أَنْتَ دَاخِلَ رُوحِي، تَلَقَّنْتَنِي الشَّعْرَ

لَوْ تَحَمَّلْتُ لَصِمْتُ، أَخَافُ أَنْ أَعْصِي لَكَ

أَيُّ شَخْصٍ يَأْخُذُهُ فِي صَحْوِ ضَمِيرٍ نَحْوَ عَالَمِ الْإلهَامِ وَالهَيْجَانِ وَالْإِنْفِعَالِ، وَفِي حَالٍ مِنْ [٣٥] الدَّهْوَلِ يَضْطَرُّهُ إِلَى الْبَقَاءِ فِي عَالَمِ الْعَوَاطِفِ وَالْإِحْسَاسِ؟ أَيُّ شَخْصٍ، أَوْ آيَةُ قُوَّةٍ تُرْغِبُ مَوْلَانَا بِالْإِتِّجَاهِ نَحْوَ سَفَرِ خَفِيِّ، حَتَّى يَتَجَاوَزَ نِطَاقَ التَّرَابِ، وَيَطْوِيَ الْمَنَازِلَ مِزْلًا مِزْلًا، وَالْمُدُنَ مَدِينَةً مَدِينَةً، فَيَصِلَ إِلَى مَكَانٍ يَظْفَرُ فِيهِ بِوَادِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ؟

كُنْتُ فِي مَقَامِ التَّرَابِ، فَسَافَرْتُ فِي خَفَاءٍ، وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى مَرْتَبَةِ الْآدَمِيَّةِ لَاتَبَقَ هُنَا.

والهيجانات الروحية عند مولانا تسمو على الحدّ النَّاسوتي المتعارف؛ وتُظهرُ أشعاره، كما يقول الأستاذ شفيعي كدكني، جانبًا نفسيًّا؛ ومولانا هو وحده العارفُ الذي يدّعي في منظوماته أنّه مزج العشق والجُنون، واحترق بالشعل المحرقة لِنار الإحساس دفعةً واحدة:

نُضِرُّمُ العِشْقَ والجُنونَ، ونَشْرَبُ في كُلِّ لحظةٍ موجَ الدَّم.

إنّا نُدَمَاءُ شَرَابِ جهنّمِ الثَّملينَ، الذين يَشْقَوْنَ السَّقْفَ الأَخْضَرَ [السَّمَاء]

وهنا نستطيع، مثَلنا مثَل بعضِ الباحثينَ خاصّةً الأستاذ خليفة عبد الحكيم الباكستاني، أن نقول: إنّ مُرادَ مولانا جلالِ الدّين الروميّ، ترْجُمانَ الأسرارِ شمسِ تبريز، يجبُ أن يكونَ رَجُلًا ذا قُدراتٍ رُوحيةٍ خارقةٍ للعادة، لِكَي يستطيعَ أن يؤثّرَ في ذَهْنِ أعظَمِ رَجُلٍ في زمانه؛ فهو مُرادُ خَلَعٍ على تجربته الدّينيةِ صُورةٌ معقولةٌ، فنظَمَها في رائعته العظيمة، وأبدعَ منظومةَ عِرْفانيةَ خالدةً، وَصَلَ فيها العِشْقُ الخالِدُ والعَقْلُ الكَوْنِي إلى توافُقٍ كاملٍ^(١).

فقد كان أساسَ تفكيرِ مولانا، تَبَعًا لِتعاليمِ شمسِ الثابتة المحكّمة، أنّ العِشْقَ في ذاته خَلَقٌ؛ ولهذا السَّبَبِ يتحدّثُ في كثيرٍ من أشعاره عَنِ التَّفَتُّحِ والنُّمُوِّ في دولة العِشْقِ، ويفخر:

كُنْتُ مَبْنِيًا صِرْتُ حَيًّا، كُنْتُ بَاكِيًا صِرْتُ ضاحِكًا،

جاءتْ دولةُ العِشْقِ، فصِرْتُ دولةً راسِخةً

ويعتقدُ المرحومُ الدّكتورُ غلامُحسينِ يوسُفي أنّ:

«... العِشْقُ»^(١)، عَلَى الحقيقة، هو الجوهرُ الْأَصْلِيُّ وَالرُّوحُ لِلْعِرْفَانِ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّهُ تَوَجَّدَ كَلِمَةً أَكْثَرَ امْتِلَاءً بِالْمَعْنَى مِنْ كَلِمَةِ الْعِشْقِ هَذِهِ فِي مُعْجَمِ الْعِرْفَانِ، حَتَّى إِنَّا إِذَا أَرَدْنَا [٣٦] أَنْ نَلْخَصَّ وَنَخْتَزِنَ كُلَّ الْمَعَانِي الْعَالِيَةِ وَالْمَفْهُومَاتِ الْمَشْرِقَةِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَمْ نَجِدْ كَلِمَةً قَادِرَةً عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ كَلِمَةِ «عِشْقٍ». هَذَا «الْعِشْقُ» الَّذِي يَنْتَزِلُّ عَلَى مَوْلَانَا مِنْ الْعَالَمِ كُلِّهِ، وَمِثْلُ الشَّمْسِ يَجْعَلُ وَجُودَهُ حَارًّا، وَهُوَ فِي رَأْيِهِ أَسَاسُ الْكَائِنَاتِ وَعَالَمِ الْوُجُودِ؛ وَمِنْ هَذِهِ الْوِجْهَةِ يَرَى السَّمَاءَ وَالشَّمْسَ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ وَالْبَحَارَ عَاشِقَةً، وَالْعِشْقُ «مُعْجَمُ الْعَشْرَةِ آلَافِ مُعْجَمٍ»، وَمَعْرَاجُ نَحْوِ سُلْطَانِ الْجَمَالِ^(٢).

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا، يُمْكِنُ الْقَوْلُ، مِثْلَمَا يَبَيِّنُ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِهِ «رِسَالَةُ فِي الْعِشْقِ» الَّذِي هُوَ تَكَرَّارٌ لِكِتَابَاتِ أَفْلَاطُونٍ فِي «الْمَأْدُبَةِ»، إِنَّ الْعِشْقَ شَيْءٌ بِقُوَّةِ كَوْنِيَّةِ ذَاتِ تَأْثِيرٍ شَامِلٍ فِي الطَّبِيعَةِ؛ الْعِشْقُ شَيْءٌ بِنَهْضَةٍ وَحَرَكَةٍ نَحْوِ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ الَّذِي عُدَّ مُطَابِقًا لِلْخَيْرِ وَالْحَقِّ، وَمَظْهَرٌ لِلْكَمَالِ وَالْمِثَلِ الْأَعْلَى، أَوْ قُلْ: الْعِشْقُ شَيْءٌ بِمِثْلِ ذَاتِي لِلْعَقْلِ نَحْوِ الْخُلُودِ^(٣).

وَلَيْسَ غَرَضُ الْمُؤَلِّفِ هُنَا دَرَسَةُ نَظَرَةِ مَوْلَانَا إِلَى الْعَالَمِ، بَلْ أُرِيدُ فَقَطْ أَنْ أَقْدِمَ، فِي

١- من كتاب «چشمه روشن»، ص ٢١٦.

٢- إِنَّ أَجْزَاءَ الْعَالَمِ جَمِيعًا عَاشِقَةٌ وَكُلُّ جُزْءٍ فِي الْعَالَمِ قَبِيلُ الْوِصَالِ
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ السَّمَاءُ عَاشِقَةً، لَمَّا كَانَ لِصَدْرِهَا صَفَاءٌ
وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ عَاشِقَةً أَيْضًا لَمَّا كَانَ فِي جِهَايَا ضِيَاءٌ
وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ عَاشِقَةً، لَمَّا نَبَتْ فَوْقَ قَلْبِهَا عُشْبٌ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَدَى الْبَحْرِ خَبَرٌ عَنِ الْعِشْقِ لَمَّا كَانَ لَهُ قَرَارٌ فِي مَكَانٍ

٣- من كتاب «تاريخ الفلسفة في الإسلام»، الجزء الثاني، مقال في شأن مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ الرُّومِيِّ، أَعَدَّهُ الْأُسْتَاذُ خَلِيفَةُ عَبْدِ الْحَكِيمِ مِنْ بَاكِسْتَانِ، تَرْجَمَهُ إِلَى الْفَارْسِيَّةِ السَّيِّدُ عَبْدِ الْحَسَنِ آذَرْنَگ.

صورة إجمالية حول حياة شمس المكتنفة بالأسرار ومولانا البلخي، نكأتا يطلع عليها القراء. ذلك لأن مشرب مولانا مشرب يحيط بالحياة كلها؛ وفي عقيدته أن الحياة كيمياء في حال تحول دائم، ولدى الإنسان أمل في أن يذهب إلى المكان الذي جاء منه، نحو رياض الاتحاد بالحقيقة!

أما في شأن مدى انتشار هذا الكتاب، فإن السيد الصديق مدير دار نشر «انتشارات تهران»، الهائم بأثار مولانا جلال الدين، طلب مني إثر طبع كتابي «مولانا أرغنون شمس» وتوزيعه أن أعد كتاباً آخر في شأن حياة مولانا، لكي يستفيد منه محبو مولانا البلخي، وقد اخترت اسماً جميلاً للكتاب: «بخنا عن الشمس»، عين تلك الشمس التي ذهب مولانا إثر غيابها مرتين إلى دمشق. وقد جعل عشق شمس، وهجران شمس، مولانا مضطرباً وقلقاً وجزعاً؛ ثم في النهاية، [٣٧] في السفر الثاني رأى مولانا شمساً في وجوده، وازدهى بذلك؛ فإذا اختفى شمس فإن عشقه باق، وإذا ذهب المغني فإن طنين غنائه ظل يذوي عقل مولانا وجُملة وجوده وكيانه. وإذا غابت الكأس، فقد ظل سكر جام شمس. وقد سكب مولانا عظمة عشقه وألقه في أجزاء المثنوي الستة وفي الديوان الكبير. ولا ينبغي أن ننسى أن مولانا في سيره وسلوكه في العرفان العشقي كان يرى نفسه متوحدًا مع ترجمان الأسرار «شمس»، حتى إنه سمى الكثير من غزلياته العشقية باسم شمس، محبوبه ومغشوقه؛ لأن كثيراً من أمور الإلهام التي كان يسمعها من قطبه الروحاني أثبتتها في أشعاره باسم رسالته؛ ابتغاء أن يستمر عشقه في الكائنات في صورة عشق عاصف ومُخْرِق في التاريخ العرفاني للعالم؛ وإنه من حسن الحظ أن يبقى بعد انقضاء قرون وأعصار. كان مولانا يرى أن العشق هو أول مخلوق، وقد صرخ: إن العشق نار مقدسة تحرق كل ما

خَلَا اللَّهُ [جَلَّ وَعَلَا] وَتَجَعَّلَهُ رَمَادًا؛ وَالْأَمْرُ مِثْلَمَا يَقُولُ حَافِظُ^(١):

طَرِيقُ الْعِشْقِ مَمْلُوءٌ بِالْاضْطِرَابِ وَالْفِتْنَةِ، أَيُّهَا الْقَلْبُ

وَيَسْقُطُ مَنْ يَمْضِي فِي هَذَا الطَّرِيقِ مُسْرِعًا

ونك، الثاني عشر من شهر ذي ١٣٧٦ هـ، ش، ١٩٩٧ م

١ - بعض أقسام من هذا الكتاب نُشرت في سنواتٍ ماضية في صورة إجمالية في إحدى مجلات طهران، ولأنّها لقيت إقبالاً لدى فئاتٍ مختلفة رأينا أن نوضّع مجموعةً في متناول مُشتاقي مولانا ومُحبّيه بعد التّظّرف فيها وإكمالها، لعلّها تجدُ القبول [المؤلف].

لَيْسَ اضْطِرَابُنَا مِنَ الْحُزْنِ وَلَا مِنَ السَّرُورِ
وَلَيْسَتْ جِحْمَتُنَا مِنَ الْحَيَالِ وَلَا مِنَ الْوَهْمِ
بَلْ إِنَّ لَنَا حَالَةَ أُخْرَى، وَتِلْكَ نَادِرَةٌ
فَلَا تُتَكَرَّرُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاسِعُ الْمَقْدِرَةِ
صِرْتُ نَمَلًا، فَلَأَلْقِ بِنَفْسِي بَيْنَ الْغَوَاغِ،
فَمَا الْبُتْرُ، لِأَضْرِبَ خَيْمَتِي فِي الْحَلَاءِ
(مَوْلَانَا - المثنوي، ١/ ١٨١٣ - ١٤)

قَلَنْدَرُ مُشَاكِسُ

[٣٨] فِي السَّاعَاتِ الْأُولَى لِيَوْمِ سَبْتِ مَشْمَسٍ، فِي السَّادِسِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ جُمَادَى
الثَّانِيَةِ عَامَ ٦٤٢ هـ، كَانَ شَخْصَانِ قَلِقَانٍ وَيَمَشِيَانِ بِبَخْتَرِ يَمْرَانِ بِسُوقِ قُونِيَّةَ. مَوْجَتَانِ
عَظِيمَتَانِ، بَخْرَانِ زَخَارَانِ، عَالَمَانِ عَجَبِيَانِ وَخَفِيَّانِ، يَمْضِي أَحَدُهُمَا نَحْوَ الْآخَرِ. فِي
سَمَاءِ قَلْبِي هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ كَانَتْ تَطْلُعُ شَمْسُ أُخْرَى أَضْوَأُ وَأَشْفَى مِنْ وَرَاءِ الشُّحْبِ،
وَفِي الْأَفَاقِ الْبَعِيدَةِ كَانَتْ أَمْوَاجُ مَفْعَمَةٍ بِالْعِطْرِ بِالتَّعَاوُنِ مَعَ النَّسِيمِ قَدْ عَطَّرَتِ الْفَضَاءَ.
مَظْهَرَانِ لِلْفِكْرِ، كُرْتَانِ نَارِيَتَانِ لِلْعِرْفَانِ الْإِيرَانِيَّ تَقَفُ إِحْدَاهُمَا أَمَامَ الْأُخْرَى عَلَى حِينِ
غِرَّةٍ فِي وَسْطِ سُوقِ قُونِيَّةَ، كَأَنَّ لَدَيْهِمَا قَصْدًا إِلَى الْمُشَاكَسَةِ. شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ الزَّاهِدِ
الْمُتَشَرِّدِ، الْقَلَنْدَرُ الْمَجْهُولُ ذُو التَّرْكِيبِ الْمَلَكُوتِيِّ مِنَ الْعِشْقِ وَالصَّفَاءِ، يَضْرِبُ بِيَدِهِ
عَلَى بَغْلِ مَوْلَانَا. كَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ وَكُلَّ شَيْءٍ تَوَقَّفَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ.
الطُّوفَانَاتُ وَالْأَعَاصِيرُ وَالْبِحَارُ التَّرَمَّتِ الصَّمْتَ أَيْضًا. كَأَنَّ الْأَرْضَ أَيْضًا فِي تِلْكَ
الدَّقَائِقِ الْعَظِيمَةِ تَوَقَّفَتْ عَنِ الدَّوْرَانِ. سَحَرَ مُطَرِبُ الْعِشْقِ بَبَصَرِهِ النَّافِذِ مَوْلَانَا،
نَظَرَاتُهُمَا النَّارِيَّةُ انْعَقَدَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، صَارَتِ الْأَعْيُنُ تَرْجُمَانًا لِلْقُلُوبِ، وَوَصَلَ إِلَى
الْأُذُنِ صَوْتُ شَمْسِ الْأَخَاذِ وَالْمَهْتَرِ:

- يا عاشق التراب، يا مدرّس قونية ومفتيها الكبير، قل لي: أبو يزيد (*) أعظم أم

محمد [عليه الصلاة والسلام]؟

كأن صاعقة نزلت على روح مولانا على نحو مفاجئ. وفي صمت عميق للروح وقضاء النبوغ أضرم شمس، الرث الثياب المغمور، يسأله شغلة في روح مدرّس الروم الشرقية الكبير. [٣٩] وقد حان أن يضمن هذا القلندر الجسور المتجبر، فيما يبدو، أمام أصحابه ومحبّيه وتلاميذه؛ ولهذا أجاب:

- محمد (عليه الصلاة والسلام) رسول الله، عظيم أهل الدنيا وإمام البشر، آية صلالة

له ومقايسة بأبي يزيد؟

في وسط الصمت المنغص للروح الذي استبدّ بالحاضرين، شاء شمس بجراً أن يظهر الهيجان والإيمان المنزوي المفعم بالعشق. صاح، وبنبرة الأمر قال:

- فلماذا إذن قال النبي الأكرم: «ما عرفناك حق معرفتك»؛ ويقول أبو يزيد:

«سبحاني، ما أعظم شاني؟».

كأن هذا الرث الهيثة لديه رسالة، تجعله ينشغل بمحق المقامات التي يمتلكها مفتي المدينة العظيم المقتدر، ويجعل بكلامه كل ذرات أركان وجوده ترتجف.

انتاب مولانا اضطراب من هذا الجواب العجيب، فلم يستطع الاحتفاظ بتوازنه الجسمي والنفسي، فسقط على الأرض ثملاً ذاهلاً صامتاً. سارع إليه شمس الدين، ومع الابتسامات الصفراء الغاضبة للمريدين والأصحاب أمسك بيد مولانا برقي وساعده على أن ينهض من مكانه. سلّم أستاذ الجامعة في الروم الشرقية كالطفل

* - يريد: أبا يزيد البسطامي، الصوفي المشهور

المطيع دونما عناد. فَتَحَ عَيْنَيْهِ، وَقَامَ بِهِدوءٍ. خَاطَبَ شَمْسُ مَوْلَانَا هَمْسًا: جِثْتُ إِلَى هُنَا مِنْ جِهَةِ مُرْشِدِي وَشَيْخِي رُكْنَ الدِّينِ السَّجَاسِي، وَقَدْ قَالَ لِي: فِي قُوْنِيَّةٍ مُحْتَرِّقٍ لَا بَدَّ مِنْ إِضْرَامِ النَّارِ فِي طَبِيتِهِ. نَظَرَ مَوْلَانَا إِلَى شَمْسٍ، فَسَمِعَ أَنْغَامَ اشْتِيَاقِ قَلْبِهِ مِنْ لِسَانِهِ، فَهَذَا رُوحُهُ وَجِسْمُهُ وَارْتَاخًا، كَانَ ثَمَلًا مِنْ جَزْسِ الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ مَجْلَى لِأَمَالِهِ وَأَشْوَاقِهِ، وَرَأَى أَنَّهُ ذَرَّةٌ أَوْ ظِلٌّ إِلَى جَانِبِ رَجُلٍ رَثَّ الثِّيَابِ وَغَيْرِ مَعْرُوفٍ؛ وَأَحْسَّ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَهُوَ فِي مَقَامِ الْأَسَاطِذِ الْعَظِيمِ، بِأَنَّهُ تَحْتَ شُعَاعِ إِنْسَانٍ جَامِعٍ حَدَدَ أَمَامَهُ الْمَصِيرَ. وَكَانَ شَمْسٌ وَجَلَالُ الدِّينِ يَمْشِيَانِ فِي الطَّرِيقِ مَتَبَخَّرَيْنِ وَيَخْطُوَانِ، وَكَانَ الْمَارَّةُ وَتَلَامِيذُ مَوْلَانَا يَنْظُرُونَ بِتَعْجَبٍ إِلَى رَجُلٍ مَجْهُولٍ رَثَّ الثِّيَابِ. وَكَانَ جَلَالُ الدِّينِ يَسْعَى إِلَى أَنْ يُظْهِرَ نَفْسَهُ، كَالسَّابِقِ، ذَا وَقَارٍ وَحِشْمَةٍ، وَلَكِنْ طَنِينَ السَّوَالِ وَصَلَابَتَهُ حَتَّى الْآنَ يَضِجُ فِي رُوحِهِ كَقَصْفِ الرَّعْدِ.

وَكَانَ الرَّجُلُ الرَّاهِدُ التَّبْرِيزِيُّ يَخْمُلُ جَلَالَ الدِّينِ بِأَمْوَاجِ جَذَبَاتِهِ الرُّوحِيَّةِ إِلَى حَيْثُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَالَمَ الْعِشْقِ وَالْهِيجَانِ الْمَتْرَامِيِّ الْأَطْرَافِ. وَأَثْنَاءَ غُيُورِ جَلَالِ الدِّينِ أَمَامَ حُجْرَتِهِ تَوَقَّفَ عَلَى نَحْوِ مَفَاجِئِ [٤٠] وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى تَلَامِيذِهِ وَمُرِيدِيهِ بِأَنْ يَنْصَرِفُوا، وَعَانَقَ الْمَجْهُولَ التَّبْرِيزِيَّ، وَأَخَذَهُ إِلَى حُجْرَتِهِ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَقَبَّلَ يَدَهُ. وَفِي رِوَايَةٍ أَتَاهُمَا أَقَامَا لِمَدَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي تِلْكَ الزَّوَايَةِ، وَلَمْ يَأْذَنَّا لِأَحَدٍ بِدُخُولِ خَلُوتِهِمَا. وَكَأَنَّ الْقَلْبَ الْحَزِينَ لَجَلَالَ الدِّينِ الْبَلُخِيَّ وَجَدَ الشِّفَاءَ فِي الصِّيدَلِيَّةِ الْبَاعِثَةِ لِلْحَيَاةِ، الْمَتَمَثِّلَةِ فِي ذَلِكَ الرَّثِّ الثِّيَابِ الْمَجْهُولِ، تَدْرِيجِيًّا، بِمَا يُثْبِتُهُ الْمُعْجِزَةُ. وَيَعْتَرِفُ مَوْلَانَا فِي خَلُوتِهِ الضَّيِّفِ الْمَجْهُولِ بِالْقَوْلِ: أَحْسَسْتُ بَعْدَ هَذَا بِأَنِّي لَسْتُ شَيْئًا، لَسْتُ شَيْئًا، لَسْتُ حَتَّى ظَلَّةً. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الطَّيِّبَ سَيَعَالِجُ أَحْزَانِي وَآلَامِي. وَلَكِنَّا

رَجُلَانِ يَجْلِسَانِ فِي خَلْوَةٍ مَمْتَلِئَتَيْنِ بِالْعِشْقِ، وَلَعَلَّنَا بِسُلْطَانِ الْعِشْقِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ نَنْتَصِرُ عَلَى أَقْوَى الْمَصَاعِبِ.

على أَنَّ مَوْلَانَا الَّذِي اعْتَادَ عَلَى أَنْغَامِ شَمْسِ الْمَهِيَّجَةِ فِي عَالَمِ الْحَالِ تَدْرِيجِيًّا، تَرَكَ مَنْصِبَ التَّدْرِيسِ وَكُرْسِيَّ الْوَعْظِ وَتَخَلَّى عَنْ ضَجِيجِ عَالَمِ الْمَعْقُولِ، وَوَدَعَ حَيَاةَ الظَّاهِرِ نَمَلًا بِخَمْرَةِ الشَّوْقِ وَالْعِشْقِ. وَاسْتَبَدَّ شَمْسُ، فِي هَذَا اللَّقَاءِ، بِالْقَلْبِ وَالرُّوحِ الْمَفْعَمِ بِالْفِكْرِ وَالرَّوْيِ الْمُخْتَلَفَةِ لَدَى فَقِيهِ الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ وَمُدْرَسِهَا الْحَنْفِيِّ. وَفِي هَذَا الْمِعْرَاجِ ذِي الْعِظَمَةِ الْمُغْنَوِيَّةِ أَثْبَتَ أَنَّهُ أُعْجِبُوهُ الْعِشْقُ، وَمَلَأَحْ بَحْرَهُ الَّذِي لَا حُدُودَ لَهُ. وَالْمَحْوَرُ الْأَصْلِيُّ لِفِكْرِهِ الْمُتَعَالِيَةِ الْعِشْقُ وَالْجَمَالُ وَالْكَمَالُ وَالشَّوْقُ وَالْهَيْجَانُ، وَنَظْمُ الشَّعْرِ، وَالسَّمَاعُ؛ هَذَا الَّذِي يُبْعِدُ عَنْ سَاحَةِ الْوُجُودِ الْيَأْسَ وَالْقُنُوطَ... وَإِنَّ لِلْعِشْقِ تَأْثِيرًا كَبِيرًا فِي إِثَارَةِ جَذَبَاتِهِ الرُّوحِيَّةِ. وَقَدْ ذَكَرَ لَجَلالُ الدِّينِ أَنَّ الْأَسْفَارَ الْبَعِيدَةَ إِلَى الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ قَدْ سَاعَدَتْهُ، وَأَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَعَ أَعْلَامِ الْعِلْمِ وَأَقْطَابِ السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ مُبَاحَثَاتٌ وَمُجَادَلَاتٌ، وَقَدْ طَوَّعَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مِنْ طَرِيقِ اللَّطَائِفِ الْعِرْفَانِيَّةِ الْجَدِيدَةِ وَالْأَصِيلَةِ. كَانَ يَحِيطُ بِالْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَتَوَارَى فِي بَيَانِهِ قُدْرَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى الْإِقْنَاعِ، وَيَمْتَلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى تَصْوِيرِ الْبَحْثِ الْعِرْفَانِيِّ الْإِنْسَانِيِّ فِي سِيَمَاءِ الْعِشْقِ، وَلَا يَتَعَامَلُ فَقَطْ مَعَ الْمَقُولَاتِ الْعِرْفَانِيَّةِ، وَيَرَى لِلْكَائِنَاتِ انْعِكَاسًا فِي مِرَاةِ الْمَحَبَّةِ وَالْعِشْقِ، وَقَدْ تَحَرَّرَ مِنْ نَفْسِهِ وَارْتَبَطَ بِالرُّوحِ الْأَزَلِيِّ. وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ فِي أَثْنَاءِ سِيَاحَتِهِ فِي بَغْدَادَ التَّقَى الشَّاعِرَ وَالْعَارِفَ الْكَبِيرَ فِي إِيرَانَ أَوْحَدَ الدِّينَ الْكِرْمَانِيَّ فِي أَحَدِ الْخَوَانِقِ [الزَّوَايا الصُّوفِيَّةِ]. وَفِي هَذَا اللَّقَاءِ سَأَلَهُ:

- فِي بَغْدَادَ، بِأَيِّ عَمَلٍ أَنْتَ مُشْغُولٌ؟ - فَأَجَابَهُ أَوْحَدُ الدِّينِ، الَّذِي لَدَيْهِ فِكْرٌ صُوفِيٌّ، عَلَى الْفُورِ:

[٤١] أَنْظُرْ إِلَى الْقَمَرِ فِي وَسْطِ طَسْتِ الْمَاءِ!

يُضْفِي شَمْسٌ عَلَى كَلَامِهِ مَلَا حَةً وَعُدُوبَةً سَاحِرَةً وَيَقُولُ:

- إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي قَفَاكَ دُمْلٌ، فَلِمَاذَا لَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي السَّمَاءِ؟

فِيهِتَاجُ أَوْحَدُ الدِّينِ الَّذِي لَدَيْهِ اِطْلَاعٌ كَامِلٌ عَلَى الرَّمُوزِ وَالِاسْتِعَارَاتِ الْعِرْفَانِيَّةِ، وَيَرْجُو وَيَلْتَمِسُ وَيَقُولُ: مِنْذُ الْيَوْمِ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مُرِيدًا لَكَ. فَيَجِيبُ شَمْسٌ بِابْتِسَامَةٍ: لَا تَقْدِرُ عَلَى صُحْبَتِنَا.

إِنَّ شَمْسًا، بِاعْتِرَافِ مَوْلَانَا، أَسْتَاذٌ، وَكَانَ يَجِيبُ حَتَّى عَنْ الْأَسْئَلَةِ الْمُتَّصِلَةِ بِزَوَايَا الرُّوحِ وَالْقَلْبِ بِصَرَاحَةٍ وَإِيجَازٍ، وَلَمْ يَتَأَخَّرِ الْوَقْتُ حَتَّى أَمْسَكَ بِيَدِهِ بِجَلَالِ الدِّينِ كَالرَّبَابِ أَوْ الْأَرْغَنِ، أَوْ كَالنَّايِ يَضَعُهُ بَيْنَ شَفَتَيْهِ وَيَعْرِفُ عَلَيْهِ، وَيَحْرِقُ بِشَعْلِ أَنْفَاسِهِ الْمُخْرِقَةِ جَنَاحَهُ وَرِيشَهُ، أَوْ يُسْقِطُهُ.

كَانَ السَّاحِرُ التَّبْرِيزِيُّ - بِشَهَادَةِ مَوْلَانَا - مُتَبَحِّرًا فِي عُلُومِ زَمَانِهِ، وَكَانَ يَدْرُسُ لِسَنَوَاتٍ فِي دُورِ الْعُلُومِ فِي حَلَبَ وَدِمَشْقَ عَلَى مَشَاهِيرَ مِثْلِ ابْنِ عَرَبِيٍّ، وَانْهَمَكَ بِالرِّيَاضَاتِ فِي حُجْرَتِهِ. وَفِي بَيَانِ حَالِهِ ذَكَرَ فِي كِتَابِ «الْمَقَالَاتِ» (*) قَوْلَهُ: «كُنْتُ طِفْلًا، كُنْتُ أَرَى اللَّهَ [كَشْفًا]، وَكُنْتُ أَشَاهِدُ الْمَلَائِكَةَ، وَكَانَ لَدَيَّ اِطْلَاعٌ عَلَى الْمَغِيَّاتِ؛ وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا يَرَوْنَ مِثْلِي، ثُمَّ عَلِمْتُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَ مِثْلَ مَا أَرَى. كَانَ الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ، مُرْشِدِي، يَمْنَعُنِي مِنَ الْإِعْلَامِ بِذَلِكَ».

كَانَ شَمْسٌ يَحْتَرِقُ بِشَعْلِ مُشَاهَدَاتِهِ وَكَانَ يُعَانِي، إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَلَوَّ الْأَنْغَامَ

* - هُوَ كِتَابُ لَشَمْسِ تَبْرِيزِ، وَقَدْ حَقَّقَهُ الدَّكْتُرُ مُحَمَّدُ عَلِي مَوْحَّدٌ، وَنَشَرَهُ بِعَنْوَانِ «مَقَالَاتِ شَمْسِ تَبْرِيزِي» وَصَدَرَتْ طَبْعَتَاهُ الْأُولَى وَالثَّانِيَّةُ عَنْ دَارِ خَوَارِزْمِيِّ [الْمُتَرَجِمِ].

الجذابة لَوادي الحقِّ والحقيقة والإلهام في عالمِ الغيبِ على مَسامِعِ مَنْ لَيْسُوا أَهْلًا لذلك. وما أَكثَرَ الأَيَّامَ واللَّيالي التي كان فيها في انتظارِ الظَّفَرِ بِنَجْوي يُفْشي له أَنَّ هناك عالَمًا آخَرَ يَبْثُرُ النُّورَ ويَخْلُقُ العِشْقَ. وفي النِّهاية أَمَرَ بِأَنْ يُفْشي لَمَوْلانا أَسْرارَ صَفَحَاتِ المَلَكُوتِ، ويَكْشِفَ سِرَّ جَلالِ الأَبَدِيَّةِ بِفَهْمِهِ وفِرَاسَتِهِ، على نَحْوِ خَفِيٍّ، في حُجْرةِ مَوْلانا في قُوْنِيَّة. ولم يَكُنْ لَدَى شَمْسٍ في تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الحَسَّاسَةِ القُدْرَةُ على أَنْ يَخْزِنَ الأَسْرارَ في صَدْرِهِ. وقد حَدَّثَ تَبَادُلٌ لِلْحَدِيثِ في أَكْثَرِ المضامين العِرْفاَنِيَّةِ والتَّحوُّلاتِ الرُّوحِيَّةِ إثارةً وبِلاغَةً، بَلْ حَتَّى في سِرِّ دَرْبِ الأَسَدِ في لَوْنِ المَجَرَّةِ، في إِحْدَى الرِّوايَاتِ، في خَلْوَةِ الأَرْبَعِينَ يَوْمًا، بَيْنَ الحَبِيبِينَ والعاشِقِينَ المَخْلُصِينَ:

- إِنَّ الشَّمْسَ هِيَ دَلِيلُ الشَّمْسِ، فَإِذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْاهْتِدَاءِ فَلَا تُدِرْ وَجْهَكَ عَنْهَا.
- وَإِنْ كَانَ الظِّلُّ يَقْدُمُ لَكَ عَلَامَةً لِهَذِهِ الشَّمْسِ، فَإِنَّ الشَّمْسَ الْخَالِدَةَ تُلْقِي عَلَيْكَ نُورًا رُوحِيًّا^(١).

[٤٢] في أَحَدِ أَيَّامِ العُزْلَةِ والانزِواءِ سَأَلَ مَوْلانا شَمْسًا: أَلَا تُبَيِّنُ لِمَاذَا وَكَيْفَ جِئْتَ إِلَى قُوْنِيَّة؟ - فَقَالَ: كَانَ سَبَبُ سَفَرِي إِلَى قُوْنِيَّة أَنَّهُ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي فِي المَنَاجاةِ كُنْتُ أَتَضَرَّعُ وَأَقُولُ لِلْمَوْلَى تَعَالَى: أَمَّا مِنْ أَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ يَقْدِرُ عَلَى صُحْبَتِي؟ - فَبَشَّرَنِي مَلَكٌ عَالَمِ الغَيْبِ أَنَّهُ: إِنَّ شَيْئًا نَدِيمَ صُحْبَةٍ فَاْمُضِ إِلَى قُوْنِيَّة. فَكَانَ أَنْ وَصَلْتُ إِلَى حَضْرَتِكُمْ.

وَكُتِبَ أَحَدُ كُتَابِ التَّذَاكِيرِ^(٢) المَعاصِرِينَ لَمَوْلانا قَائِلًا فِي شَأْنِ شَمْسٍ: شَمْسٌ فِي

١- المثنوي، ج ١١٦/١-١١٧.

٢- هو الأَفْلاكي في كُتَابِ «مَنَاقِبِ العارِفِينَ».

البَيَانِ والتَقَرُّبِ لَهُ مَشْرَبُ مُوسَى (عليه السَّلام)؛ وفي التَّجَرُّدِ والعُزْلَةِ لَهُ سِيرَةُ عِيسَى (عليه السَّلام)؛ وَحَتَّى زَمَانِ مَوْلَانَا لَمْ يَكُنْ لِمَخْلُوقٍ اِطْلَاعٌ عَلَى حَالِهِ؛ كَانَ دَائِمًا فِي غِطَاءٍ مِنَ الْكَرَامَاتِ، وَكَانَ يُخْفِي شُهْرَتَهُ عَلَى الْخَلْقِ. وَمِنْ هَذِهِ الْوَجْهَةِ كَانَ جَلَالُ الدِّينِ يَعُدُّ شَمْسًا عِلَاجًا لِلْكَبِيرِ والتَّعَاطُفِ، وَأَسَمَى مِنْ جَالِينُوسٍ ^(١).

وفي أَشْعَارِ مَوْلَانَا وَأَنَاشِيدِهِ، يُظْهَرُ شَمْسٌ مَنْزِلَةً عَالِيَةً، يَغْدُو شَمْسٌ كَعِبَةٍ لِمَوْلَانَا وَشُغْلًا وَنَارًا وَجَنَّةً. وَمَهْمَا يَكُنْ فَإِنَّهُ يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ صَيِّحَاتِهِ كَانَتْ تَجَذِبُ النَّاسَ إِلَيْهِ مِنْ بَوَابَةِ الرُّومِ إِلَى آفَاقِ بَلْخِ، إِذْ كَانُوا يُصْغَوْنَ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ إِلَى كَلَامِ مَوْلَانَا، الَّذِي أَتَى فِي دُنْيَا الْأَدَبِ والعِرْفَانِ بِعَالَمٍ جَدِيدٍ. فَلأَوَّلِ مَرَّةٍ، كَانَ فَقِيهٌ كَبِيرٌ، عَابِدٌ زَاهِدٌ وَرِعٌ، بَيَدَرَ وَجُودَ الْعُشَاقِ، وَيَمِزُجُ كُلَّ قِيَمِ الْحَيَاةِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَفِي حَالٍ مِنَ الْبُكَاءِ وَالْأَنِينِ يَصِفُ مَعشُوقَهُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ:

أَعْلَنْتُ هَذَا الْكَلَامَ: إِنَّهُ شَمْسِي وَمَعْبُودِي

شَبِيخِي وَمُرِيدِي، دَائِي وَدَوَائِي

وَقَدْ قَالَ مَوْلَانَا: إِنَّهُ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ كَانَ مَالِكُ الْجَبْرُوتِ قَدْ أَظْفَرَنِي بِعَوَالِمِ الْمُلُكُوتِ والسُّلُوكِ، وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ رَأَيْتُ كُرَّةَ ذَلِكَ الْفَلَكَ مَظْلَمَةً، فَسَأَلْتُ قُطَّانَ ذَلِكَ الْحِمَى عَنْ غِيَابِ الشَّمْسِ، فَسَمِعْتُ مِنَ الْقُدْسِيِّينَ قَوْلَهُمْ: ذَهَبَتْ شَمْسُنَا لِزِيَارَةِ سُلْطَانِ الْفُقَرَاءِ شَمْسِ الدِّينِ التَّبْرِيزِيِّ، وَعِنْدَمَا عُدْتُ إِلَى الْفَلَكَ الرَّابِعِ رَأَيْتُ النَّيِّرَ الْأَعْظَمَ فِي مَرْكَزِهِ مَنشُغَلًا بِإِفَاضَةِ الْأَنْوَارِ وإِشْعَاعِ الضِّيَاءِ.

يَا مَنْ هُوَ لَنَا مِثْلُ أَفْلَاطُونٍ وَجَالِينُوسٍ
(المثنوي، ٢٤/١)

١- يَا مَنْ هُوَ الدَّوَاءُ لِعُورِنَا وَكُفْرِنَا،

[٤٣] صَارَ مَوْلَانَا الْمَفْتَنُ الْوَالِيَهُ يَرْقُصُ فِي الْأَنْوَارِ الْمُبْهِرَةِ لِعَيْنِي شَمْسِ النَّفَازَتَيْنِ.

وَبِسَبَبِ الْاِفْتِتَانِ بِشَمْسٍ اِنْشَغَلَ كَثِيرًا بِالصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ، إِذْ كَانَ يَصُومُ يَوْمَيْنِ وَيُفْطِرُ يَوْمًا. وَذَلِكَ عِنْدَمَا كَانَتْ شَمْسُ حَقِيقَةِ شَمْسٍ، كَمَا يَقُولُ الْأَسْتَاذُ فُرُوزَانْفَرُ، تَسْطَعُ عَلَى مَشْرِقِ رُوحِهِ، وَصَارَ الْعِشْقُ فَعَالًا فِي قَلْبِ مَوْلَانَا، وَاخْتَارَ شَمْسًا مُرْشِدًا فِي الطَّرِيقِ، ثُمَّ بِإِشَارَةٍ مِنْهُ دَخَلَ فِي السَّمَاعِ^(١).

وَقَدْ اِنْتَابَتِ الْحَيَرَةُ أَحْبَاءَ مَوْلَانَا وَتَلَامِيذَهُ وَالْمَتَعَلِّقِينَ بِهِ بِسَبَبِ الْاِنْقِلَابِ الَّذِي حَدَثَ فِي الرُّوحِ الْهَائِجِ لِحَبِيبِهِمْ وَأَسْتَاذِهِمْ، وَتَأَثَّرُوا، وَكَانُوا يَعْتَرِضُونَ عَلَى شَمْسٍ، وَيَقُولُونَ عَنْهُ إِنَّهُ غَيْرُ مُبَالٍ وَمُسْتَهْتَرٍ؛ وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ مَوْلَانَا صَارَ عَابِدًا لِلشَّمْسِ. وَكَانَ لَوُومُ النَّاسِ، خَاصَّةً ذَوِي الْفِكْرِ الْجَافِّ الْغِلَاطِ الْقُلُوبِ، يَزِيدُ قُوَّةَ الْعِشْقِ وَالْوَلَعِ عِنْدَ مَوْلَانَا. أَحْيَانًا كَانَتْ جَمَاعَةٌ تَسَدُّ الطَّرِيقَ أَمَامَ شَمْسٍ، وَيَقُولُونَ عَنْهُ إِنَّهُ سَاحِرٌ وَشَيْطَانٌ كَبِيرٌ، وَلَمْ يَعُودُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ شَمْسًا لَهُ قَلْبٌ مُنْعَقِدٌ بِمَحَبَّةِ مَوْلَانَا. وَكَانَ مَوْلَانَا يَطْلُبُ إِلَى مُحِبِّهِ بِعَجْزٍ أَنْ لَا يُوجِّهُوا الْإِهَانَةَ لِشَمْسٍ، كَانَ يَقُولُ إِنَّ شَمْسًا مَظْهَرٌ عَظِيمٌ لِعَالَمِ الْخَلْقِ، شُعَاعٌ جَاءَ إِلَى قُوْنِيَّةٍ مِنْ نَاحِيَةِ أَفْلَاكِ الْعِشْقِ.

فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ سَأَلَ أَحَدُهُمْ مَوْلَانَا: أَيُّ وَاحِدٍ مِنْ أَحْبَائِكَ مَقَامُهُ أَرْفَعُ وَأَسْمَى مِنْ نَاحِيَةِ الْأَهَمِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ؟ - فَأَجَابَ مَوْلَانَا: «شَمْسٌ هُوَ الشَّمْسُ، وَصَلَاحُ الدِّينِ زَرْكُوبُ قَمَرٌ، وَحُسَامُ الدِّينِ نَجْمٌ». وَمِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ نَهَضَ الْمَتَعَصِّبُونَ وَالْقَشْرِيُّونَ وَالْحُسَادُ جِهَارًا نَهَارًا، وَفِي الْمَجَامِعِ الْمَخْتَلِفَةِ، لِتَقْرِيعِ مَوْلَانَا وَإِيذَائِهِ، وَبَدَّوْا الْعَدَاوَةَ وَالْمَخَاصِمَةَ لِشَمْسٍ. قَالَتْ عَنْهُ جَمَاعَةٌ إِنَّهُ سَاحِرٌ، وَقَالَ عِدَّةٌ إِنَّهُ فَاجِرٌ، وَحِينًا كَانُوا

١- فاعْرِفِ اللَّحْنَ الَّذِي يُسَكِّرُ الْحَبِيبَ
جَاءَتْ رَاقِصَةٌ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ

١- يَا مُطَرِّبَ الرُّوحِ، إِذَا صَارَ الدُّفُّ فِي الْيَدِ
فَإِنَّ ذَرَاتِ الْعَالَمِ بِسَبَبِ عِشْقِ تِلْكَ الشَّمْسِ

يَرْمُونَ شَمْسًا بِالْحَجَرِ فِي الشَّوَارِعِ وَالْأَسْوَاقِ، حَتَّى إِنَّهُ فِي النِّهَايَةِ لَمْ يَعُدْ شَمْسٌ يَتَحَمَّلُ
الْإِهَانَةَ، وَاضْطُرَّ بَعْدَ مَضِيِّ سِتَّةِ عَشَرَ شَهْرًا، عَلَى نَحْوِ مَفَاجِئٍ، إِلَى أَنْ يَتْرَكَ مَوْلَانَا
وَيَخْرُجَ سَرِيعًا مِنْ قُوْنِيَّةٍ، أَوْ، فِي أَحَدِ الْأَقْوَالِ، بِفَرٍّ.

وَفِي فِرَاقِ شَمْسِ الْعِشْقِ وَالْعِرْفَانِ، انشَغَلَ مَوْلَانَا بِالْبُكَاءِ وَالتَّوْنِاحِ عَلَى امْتِدَادِ
السَّاعَاتِ وَالْأَيَّامِ، إِلَّا فِي اللَّحْظَاتِ الَّتِي يَحُلُّ فِيهَا الظَّلَامُ، لَا صَاحِبَ عِنْدَهُ، وَأَحْيَانًا
يَلْجَأُ إِلَى السَّمْعِ. وَفِي اللَّيْلِ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْقَمَرِ وَالنَّجُومِ، لَعَلَّ شَمْسًا أَيْضًا يَنْظُرُ إِلَيْهَا
فِي أَضْغَاقِ [٤٤] بَعِيدَةٍ، فَيَلْتَقِي نَظْرُهُ بَنَظَرَاتِ مَوْلَانَا فِي مُلْتَقَى الْقَمَرِ وَالنَّجُومِ. كَانَ رُوحُ
مَوْلَانَا، فِي عَمْرَةِ أَلَمِ الْيَأْسِ، يُحِسُّ أَيْضًا بِصَفَاءِ مَلَكُوتِيٍّ. وَلَا شَيْءَ مِنَ الْكُتُبِ
وَالْأَشْعَارِ وَالْمَدَارِسِ، وَلَا أَحَدٍ مِنَ الْأَصْحَابِ، كَانَتْ لَدَيْهِ جَاذِبِيَّةٌ لَدَى مَوْلَانَا. غَدَا
كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ مَوْلَانَا صَامِتًا وَخَالِيًا، وَكَانَ الْوُجُودُ وَالْعَدَمُ عِنْدَهُ سَيِّئِينَ. ظَلَّ مَوْلَانَا
بَاحِثًا عَنْ مَطْلُوبِهِ الرُّؤْيُوتِيِّ، عَنْ أَمَلِهِ وَعِشْقِهِ. وَجَاءَ الْخَبَرُ بِأَنَّ شَمْسًا فِي دِمَشْقَ، فَأَنْشَأَ
مَوْلَانَا أَشْعَارًا عِشْقِيَّةً وَمَفْعَمَةً بِالْحُرْقِ وَالْأَشْوَاقِ، وَبَعَثَ بِهَا إِلَى دِمَشْقَ، لَعَلَّ شَمْسًا يَتَأَثَّرُ
مُطَالَعَةَ تِلْكَ الْأَشْعَارِ الْمُخْرِقَةِ يَتَلَطَّفُ وَيَرِقُّ فَيَأْتِي، وَيَجْعَلَ يَبْتَ أَحْزَانِ مَوْلَانَا مُضِيئًا وَمُنُورًا
وَمَلِيئًا بِالنَّشَاطِ (١). وَقَدْ اضْطَرَّتِ الْخَوَاطِرُ الْبَاقِيَةُ مِنَ الْأَمَدِ الْقَصِيرِ وَالسَّرِيعِ لِلْمَحَبَّةِ

١- أَيْتُهَا التَّارُ الْمُطْفِئَةُ لِلنَّارِ، خَرَّبِي هَذَا الْبَيْتَ

وَحُذِي مِنِّي هَذَا الْعَقْلُ، وَمِنْ جَدِيدٍ، وَمِنْذُ الْبَدَايَةِ، اجْعَلْنِي مَجْنُونًا

وَأَكْثِيرِي بَابَ الْحَانَةِ، وَحُذِي الْكَأْسَ سَرِيعًا،

وَحَطَمِي هَذِهِ الْخُرَافَةَ، وَاجْعَلِي زُهْدِي خُرَافَةً

وَهَاتِي، أَيُّهَا السَّاقِي، تِلْكَ الْكَأْسَ، وَحُذِي مِنِّي الْهُدُوءَ،

دَعْ تِلْكَ الْأَخْلَامَ... ..

أَيُّ شَمْسٍ تَثْرِيزُ، نَعَالٍ، فَقَدْ حِزْتُ فِي عَنَاءٍ مِنْ نَفْسِي

فَأُضْرِمِ التَّارَ فِي عَقْلِي، وَمِنْ جَدِيدٍ، وَمِنْذُ الْبَدَايَةِ، اجْعَلْنِي مَجْنُونًا

والصُّحبة بينَ مَوْلانا وشمسٍ، سلطانَ العاشقينَ مَوْلانا جلالَ الدينَ محمدًا أنَ يشغلَ
بالإنشادِ والتغريدِ في عالمِ العِرْفانِ الفسيحِ. وكانَ يعرفُ جيدًا أكثرَ الأنعامِ تأثيرًا، النعمةُ التي
تُشَدُّ عندَ استِحْكامِ اليأسِ:

وَمَتَى يَسْعُدُ قَلْبُهُ وَأَنَا لَمْ أَحْتَرَقْ، يَأْمَنُ قَلْبِي أَهْلٌ لَهُ وَمَنْزِلٌ؟
وَتَظَلُّ تُحْرِقُ مَنْزِلِي، أَلَا فَلْتُحْرِقْ، فَمَنْ ذَلِكَ الَّذِي يَقُولُ: لَا يَجُوزُ؟^(١)

سُرِّي الأَجَبَاءُ، وَأَغْمَى الْأَعْدَاءُ
وَمَرَّةً أُخْرَى أَنْضِجِي الحِصْرَ وَاجْعَلِيهِ عَيْنًا.
(ديوان شمس تبریزی، القَزَلِيَّة ١٩٦١)

= أَيْتُهَا الشَّمْسُ، مَرَّةً أُخْرَى، امْلَأِي البَيْتَ بِالنُّورِ
وَاطْلَعِي مِنْ وَرَاءِ الجَبَلِ، وَاجْعَلِي الحِجَارَةَ عَقِيْقًا،

- لا بد لي من عاشقٍ كلِّها قامَ
 قامتَ قياماتٌ مليئةٌ بالنارِ من كلِّ ناحية
 - تُريدُ قلْبًا مثلَ جهنم، لكنِّي يُحْرِقُ جهنمَ
 ويشيرُ مثني بخر، ولا يفتر من موج البحر
 - عندما يمزقُ بنوره حُجُبَ القلبِ السَّبعِ مئة،
 يأتيه من العرشِ هذا النداء: بِاسْمِ الله، ما شاء الله
 (ديوان شمس، الغزلية ٥٧٥)

طوفانٌ في قونية

[٤٥] نظمتُ مولانا في أثناءِ الفراقِ المُوجعِ لشمسٍ أنعامًا على وزنِ أغاني السماء
 الخالدة. أغلقَ البابَ أمامَ المحييين والأصحاب. أمسكَ بالقلمِ وأثبتَ على الورقِ شررًا
 مُحرِقًا كانَ ينبعثُ من أعماقِ رُوحه في صورةِ كلامٍ موزون. ومن كلِّ كلمةٍ لمولانا
 كانتُ تنبعثُ رائحةُ الانتظارِ والأملِ والخوفِ والانجذابِ والعشق. وكانَ مولانا في
 غايةِ اليأسِ يقولُ: ليتني امتلكتُ القدرةَ على أن أجلسَ فوقَ عَجَلَةِ الزمانِ، وأطيرَ نحوَ
 الشمسِ (شمس تبريز) راقصًا.

كانتِ اللحظاتُ تمضي ببطء، ولم يُعُدْ لِلأيامِ والليالي وحتى ليلته وحُجْرته
 وأصدقائه وأحبائه وأسرته أيةَ جاذبيةٍ لديه. ولم يُعُدْ لطلوعِ الشمسِ وغروبها عندَ مولانا
 أيُّ رونقٍ وألق. ولم يكنْ يُحسُّ بالبهجةِ والسرورِ عندما لم يكنْ مطلوبُهُ الروحيُّ
 موجودًا في قونية، هذا المطلوبُ الذي كان يسيرُ معه في فضاءِ الخلودِ اللألاء، في نورِ
 القمرِ وضيءِ الشمسِ. كأنه قد أُسرَ في دوامةِ اليأسِ والضياغِ المرعبة.

الملاذ الأخيرُ لمولانا كان شمسًا. وابتغاءً وصَفِ عُمى افتتانه وقوةِ إثاره وإهماله
 لنفسه، يكفي أن ننظرَ إلى أشعاره التي نظمها في فراقِ مُرادِه وقُطْبِه، ونرى جَذْبَ العشقِ

السَّرمديّ كاملاً، في آثاره وفي الحشرة المكتومة في صدره.

[٤٦] وقد ذكّر مولانا في أيام الفراق، في واحدة من غزلياته، أنّه كان مع شمسٍ في السماء - نعم، كان زهرةً في سمائه - قبلة وجهه، بُستانه وربيعه، روحه ودُنياه. وفي نهاية الكلام، كانت تصلُ إلى الأذن من كلّ كلمةٍ من كلماته صرخةٌ مجلجلةٌ كالرَّعد، حيث يقول:

شَيْخي ومُرادي، دائي ودوائي، أَفَشَيْتُ هذه الكلمة: هو شَمْسِي
وهنا يَضُمُّ كُلَّ شَيْءٍ، إِذْ أَنْزَلَ مَوْلانا أَفْصَحَ الكَلِماتِ وأَبْلَغَها في أناشيده
الغنائية، واستطاعَ بِمَدَدِ ذِهنه المزدهر أن يوجِدَ مُستَقَرًّا مَلِيئًا بِسُخْرِ الكلام، وأن
يقولَ بِالْأوزانِ شِعْرًا يُطْرِبُ وَيُظْهِرُ عَالَمَه الدَّاخِلِي المَضْطَرِبَّ، شِعْرًا سَلَسًا
وَمُنْسَابًا وَمُنْسَجَمًا ومؤثِّرًا؛ لِكَيْ يعلِّمَ الآخرون، بِقراءته، مَنْ كانَ شَمْسٌ وأَيَّةَ منزلةٍ
احتلَّ. بدأ طوفانُ نائِرٌ لا يهدأ، وكانَ شَرَرُ الفِراقِ الجسورِ يُرْسِلُ بالسَّهامِ إلى رُوحِ
مَوْلانا الحساس؛ ذلكَ لِأَنَّ الأَلامَ التي كانتَ تنبعثُ مِنْ دَاخِلِ أَغْلالِ العِشقِ والهَيْامِ
كانتَ تُخْرِجُ في صَدْرِهِ المملوءِ بالأَلمِ كلامًا ضاجًّا؛ وفي النِّهايةِ أوصلَ مَوْلانا شَمْسًا
إلى المنزلةِ التي كانَ يتطلَّعُ إليها، وعَرَفَه لِجميع.

والآنَ يَخطُرُ في الذَّهنِ هذا السَّؤالُ: في الأَربعينَ يومًا التي حَلَا فيها شَمْسٌ معَ
مَوْلانا، ماذا علِّمَ محبوبه حتّى سحره وجذبه؛ فكان يصنَعُ الأنعامَ في مَدَحِ مُرادِه، ويقولُ
عنه إِنَّه «رَبِّه»، غيرَ وَجَلٍ مِنَ المتعصِّينَ ومتحجِّري الفِكرِ في قونية؟

وقد أجابَ سُلطانُ وَلَدِ، ابنُ مَوْلانا، عن هذا السَّؤالِ على هذا النِّحو:

إِنَّ عِشقَ مَوْلانا شَمْسًا شَبِيهَ بِعِشْقِ موسى عن الخضر؛ فمُوسَى، على تَحْلِيهِ بِمَقامِ

النُّبُوَّةَ وَالرَّسَالَةَ وَرُتْبَةَ «كَلِيمِ اللَّهِ»، كَانَ يَبْحَثُ عَنْ رِجَالِ اللَّهِ. مَوْلَانَا أَيْضًا، عَلَى كُلِّ مَا لَهُ مِنْ كِمَالٍ وَفَضْلِ وَجَلالٍ، كَانَ يُمَضِّي الْأَيَّامَ فِي طَلَبِ الْأَكْمَلِ، إِلَى أَنْ ظَفِرَ بِشَمْسٍ الَّذِي كَانَ أَحَدَ مَسْتُورِي قِيَابِ الْغَيْرةِ، فَصَارَ مُرِيدًا وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى قَدَمِهِ، وَفَنِي دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي أَنْوَارِهِ. وَكَانَتْ الْحَالُ فِي شَأْنِ شَمْسٍ أَنْ يَصَوِّرَ لِلنَّاسِ صُورَةَ مَوْلَانَا اللَّالَاءَةِ وَالْأَدْبِيَّةِ وَمَنْزِلَتَهُ الْعِلْمِيَّةَ وَبَصِيرَتَهُ، وَأَنْ يَبَيِّنَ: أَيُّ مَرْكَزٍ فِي الضَّوِّ احْتَلَّ فِي دَائِرَةِ الْعِرْفَانِ؟

[٤٧] اقْرَؤُوا كِتَابَ الْعَارِفِ الْكَبِيرِ مَوْلَانَا شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ مُلْكْدَادِ التَّبْرِيزِيِّ الْمُسَمَّى «مَقَالَاتِ شَمْسٍ»، فَقَدْ تَحَدَّثَ فِيهِ عَنْ مَوْلَانَا بِقَدْرِ مَا هُوَ مُتَاحٌ. فِي هَذَا الْكِتَابِ يَوْصِلُ شَمْسٌ صَوْتَهُ السَّمَاوِيِّ إِلَى أُذُنِ الْقَارِئِ الْبَحَاثِ قَائِلًا: إِنَّ مَوْلَانَا بَحْرٌ فِي الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، لَكِنْ مِنَ الْكَرَمِ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ الْمَسْكِينِ [شَمْسٍ]. وَأَنَا أَعْلَمُ، وَالْجَمِيعُ يَعْلَمُونَ، بَأَنَّهُ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْفَضْلِ مشهورٌ. وَلَا أَحَدٌ فِي الْعَالَمِ يَشْبُهُ مَوْلَانَا إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ (بَعْدَ خَلْوَةِ مَوْلَانَا وَشَمْسٍ)؛ وَفِي الْفُنُونِ كُلِّهَا، سِوَاءِ الْأَصُولِ وَالْفِقْهِ وَالْمَنْطِقِ وَالتَّحْوِ، يَتَحَدَّثُ مَعَ أَرْبَابِهَا بِقُوَّةِ الْمَعْنَى، وَيَكُونُ حَدِيثُهُ أَفْضَلَ مِنْ حَدِيثِهِمْ وَأَجْمَلَ وَأَحْسَنَ، إِنْ اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ، وَشَاءَ قَلْبُهُ، وَلَمْ تَمْنَعِهِ الْمَلَالَةُ.

كَانَ شَمْسٌ يَرَى مَوْلَانَا فِي كُلِّيَّتِهِ مَحَبَّةً وَإِخْلَاصًا، وَكَانَ يَرِيدُ وَيُؤْمَلُ أَنْ يَجِدَ عَلَى امْتِدَادِ الْبَسِيطَةِ إِنْسَانًا يَدْمِجُ صَوْتَهُ بِصَوْتِهِ، وَيَسْمَعَا مَعًا بِأُذُنٍ وَاحِدَةٍ الصَّدَى الرَّمَزِيَّ الَّذِي يَثْبُتُ السَّمَاوَاتِ، وَلَدَى الْأَرْضِ أَيْضًا اسْتِعْدَادٌ لَتَنْفِيزِ أَوَامِرِهِ. وَيُقَرَّرُ شَمْسٌ قَائِلًا: كُنْتُ أَنْشُدُ شَخْصًا مِنْ جِنْسِي لِأَجْعَلَهُ قِبْلَةً، وَأَسْتَقْبِلَهُ، إِذْ مَلَكْتُ مِنْ نَفْسِي. وَالْآنَ، إِذْ جَعَلْتُهُ قِبْلَتِي، صَارَ يَفْهَمُ مَا أَقُولُهُ وَيَدْرِكُهُ.

وَفِي اللَّحْظَاتِ الَّتِي كَانَ فِيهَا شَمْسٌ فِي مَحْضَرِ مَوْلَانَا، كَانَ يَتَلَقَّى لَحْظَاتِ الْعُمْرِ

الحلوة. وفي كتابه «المقالات» قال جهاراً: «إن لي من العمر تلك الساعة التي آتي فيها إلى جناب مولانا».

وعندما عرّف مولانا شمساً في خلوة الأربعين يوماً معرفةً دقيقةً، صار وجوده مُعرّضاً لاضطرابٍ لا حدود له. ففي تلك الأيام نفسها هزّ الخوفُ من الفراق، والخشيةُ من سعاية المنافقين، هدوءَ منظومته الروحية.

وفي أيام إقامة شمسٍ في قونية، أعد جلال الدين قرطاي، المدرّس الكبير، في يومٍ عظيم وبهيج، مجلساً كبيراً في مدرسته في قونية. وفي ذلك اليوم، دُعي شمس الدين لأن يحضر ذلك المجلس. ذهب شمس، وجلس في نهاية المجلس قرب الباب. فسأل الناس مولانا: في هذا النوع من المجالس، أين يكون صدرُ المجلس [متصدّر المجلس]؟ فأجاب مولانا من دون تردد: يكون صدرُ العلماء في وسط الصفّة، وصدرُ العارفين في زاوية البيت، وصدرُ الصوفيّة في جانب الصفّة؛ وفي مذهب العشاق، يكون الصدرُ إلى جانب الحبيب. وفي اللحظة نفسها وثب مولانا من مكانه، وجلس في آخر المجلس، إلى جانب شمس.

وفي ذلك الوقت، صارت النظراتُ أكثرَ بحثاً وحنقةً واحمراراً، وتحولتِ الهمهماتُ إلى اعتراضاتٍ والاتهاماتُ إلى شتائم، حدث طوفان، وتبيّات القبضات للضرب. قامت جماعة متعصبةٌ وساذجةٌ وبلهاءٌ من أماكنها، واتجهت نحو شمسٍ قُصداً إلى إيذائه. جماعةٌ أخرى ساخطةٌ غادرت المجلس، على سبيل الاعتراض. فصاح مولانا كالطوفان الذي يهدرُ في وسط سحابٍ مظلمٍ أسود، وقال:

اسكتوا، امتنعوا عن الكلام، الزموا أماكنكم. إن شمس الدين هو شمس المعنوية

الرَّوْحِيَّةَ. حَيْثُ يَوْجَدُ شَمْسٌ تَوْجَدُ الْمَلَائِكَةُ أَيْضًا. حَيْثُ يَوْجَدُ شَمْسٌ تَوْجَدُ أَمَالُ
الْعَارِفِينَ طَائِرَةً، وَيَكُونُ مُشْعَلُهُمْ مَتَقَدًّا. إِنَّ آلَافَ النُّجُومِ اللَّالِئَةِ سَارَتْ وَرَاءَ
الشَّمْسِ التَّبْرِيزِيِّ. وَكُلُّ مَنْ يَرِيدُ أَنْ يَتَقَدَّمَ نَحْوَ مَحْبُوبِي قَصْدًا إِلَى إِيْدَانِهِ فَسُخِّرْ
شُعْلَةَ شَمْسِ الْغَاظِبَةِ كُلِّيَّةً وَجُودَهُ.

كُلُّ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ نَهَضُوا مِنْ أَمَاكِنِهِمْ لِكَيْ يَقْضُوا عَلَى شَمْسِ
بُضْرَاتِهِمْ وَصَفَعَاتِهِمْ جَلَسُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ. لَمْ يَكُنْ لَدَى أَحَدٍ قُدْرَةٌ عَلَى أَنْ يَعْتَرِضَ، كَأَنَّ
الْمَجْلِسَ أَمَامَ أَوَامِرِ مَوْلَانَا الْمُحْكَمَةِ وَالنَّافِذَةِ التَّزَمَ الصَّنَتِ الْمُطْبِقِ. أَمَّا خَارِجُ
الْمَدْرَسَةِ فَقَدْ بَدَأَ الضَّجِيجُ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ بِأَصْوَاتٍ مَرْتَفِعَةٍ: سُحْقًا لِسَاحِرِ قُوْنِيَّةٍ.
وَكَانَ ذَلِكَ السَّاحِرُ، فِي عَقِيدَةِ مُبْصِرِي الظَّاهِرِ، شَمْسًا التَّبْرِيزِيِّ.

فَاضْطُرَّ شَمْسٌ يَوْمَ الْخَمِيسِ، الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَوَّالِ عَامِ ٦٤٣ هـ، أَنْ يَتْرَكَ
قُوْنِيَّةَ بَعْدَ سِتَّةِ عَشَرَ شَهْرًا مِنَ الْإِقَامَةِ فِيهَا. وَعَلَى قَدْرِ مَا كَانَ الْحَاسِدُونَ اللَّؤْمَاءُ مُخَالَفِينَ
لِشَمْسِ وَفِكَرِهِ، أَزْدَادَتْ عِلَاقَةُ مَوْلَانَا بِمُرَادِهِ. لَمْ تَعُدِ التُّهْمُ وَالْخُصُومَاتُ وَالْعَدَاوَاتُ
قَادِرَةً عَلَى أَنْ تُسَكِّتَ صَوْتَ مَوْلَانَا الْمَجْلَجِلِ، وَكَانَ مِنْ دُونِ خَوْفٍ وَخَشْيَةٍ يَرُدُّ:

أَنَا عَاشِقٌ بِأَذِلٍّ لِلرُّوحِ، لَا أَتَحَامَى الْعِشْقَ،

أَنَا نَيْلٌ مَرْتَحٍ، لَا أَفَرِّ مِنْ السُّكْرِ وَالْعَرَبَدَةِ

[٤٩] يَقُولُ أَصْحَابِي: أَلَا تَتَحَامَى الْعِشْقَ؟

أَتَحَامَى الْعِشْقَ، وَلَكِنْ بِأَيِّ شَيْءٍ اخْتَلِطُ بَعْدَ ذَلِكَ

إِذَا دَخَلَ شَمْسُ الْحَقِّ التَّبْرِيزِيُّ الْعَرَصَاتِ،

فَسَاخِلَطُ تُرَابَ بِدَايَةِ حَيَّهِ بِالْمِسْكَ

كَانَ مَوْلَانَا يَقُولُ لِلنَّاسِ عَلَى عِلْمٍ: هَذَا الرَّجُلُ الْعَظِيمُ فِي وَادِي الْعِرْفَانِ، الَّذِي
تَعُدُّونَهُ أَنْتُمْ سَاحِرًا وَمُحْتَالًا، هُوَ قُطْبِي، وَمُرَادِي، وَدَوَاءُ أَذْوَاتِي. وَالطَّرِيفُ أَنَّهُ فِي كَلَامِ

شمس المثير، يمجُّ الحال والجذب على نحو لم أزه في آثار العارفين الآخرين.
وقد سئل مولانا: متى تعود إلى المدرسة والمسجد؟ - فأجاب: عندما يعود مجلى
أشواقي وأوج قدرتي الخلاقة إلى قونية. وقيل له: إن طلاب العلم في انتظار مجلس
الدّرس والعلم باشتياق. فأجاب: قولوا لهم: إذا لم يعد شمس إلى قونية، ولم تَضأْ
زاوية قلبي الحزين بنور سيمائه، فلن يكون لكلامي جاذبية وحلاوة^(١)، وقد شدت
مُتعة التدريس الرّحال عن وجودي. وقد ندّم أهل قونية على ما حصل، خاصة أنهم
كانوا يرون مولانا في فراق حبيبه لا قرار له ولا طمأنينة لديه؛ وقد ذهبت جماعة منهم
إلى مولانا باكين، وبراوية كتاب «ولّدنامة»^(*) أنهم:

جاؤوا الشيخ باكين متضرّعين: اعفُ عَنَّا، ولا تهجرنا مرةً أخرى
نظّلُ تنوب، فارحمنّا ورقّ لنا وإن فعلنا ذلك مرةً أخرى فالعنا
وفي النهاية، وإثر التماس هؤلاء وضراعتهم مال إلى اللطف، فغفر لهم ذنبهم،
وأمر سلطان ولد، ابنه الكيس، بأن ينطلق إلى دمشق بصُحبة عشرين شخصاً من
أصحاب شمس ومُحييه حاملاً رسالةً شعرية.

١ - ذلك الذي يُسكّر قلبي من دون شراب، أين هو؟

ذلك الذي يظهر من رُوحِي وقلبي ويحتلّ كياني، أين هو؟

ذلك الذي أُقسِمُ أن لا أُقسِمَ ألا بحياته،

ذلك الذي أختنني في يميني وكسّر توبي، أين هو؟

ومادام العقل صاجياً لم يستبدّ به سُكْرُ العشق لن تتلاشى «كيف» و«لماذا»

وذلك الذي سَكِرَ، وتحرّر من «كيف» و«لماذا»، أين هو؟

(ديوان شمس تبريز، الغزلية ٤١٢)

* - هو منظومة شعرية على نمط «المثنوي» لسلطان ولد، ابن مولانا جلال الدين [المترجم].

- لَقَدْ أَبْعَدْتُ مَتَاعَ النَّفْسِ عَنْ طَرِيقِي
وَأَلْفَيْتُ مَا يَسُوءُ الْحَقُّ عَدَمًا
- إِنِّي ظِلٌّ، وَلَا سَيِّدٌ لِي إِلَّا الشَّمْسُ،
إِنِّي مِنْ حُجَابِ بَابِهِ، وَلَسْتُ حِجَابًا دُونَهُ
(المثنوي، ٨ / ١٣٧٩٠ - ٩١)

مولانا المٌحبي الليلَ

[٥٠] سافر سلطانٌ وَلَدَ بِصُحْبَةِ عِشْرِينَ شَخْصًا مِنْ مُحِبِّي مَوْلَانَا، مُسْرِعِينَ مُمْتَطِينَ الْجِيَادَ إِلَى دِمَشْقَ. وَمَرَّةً أُخْرَى فِي اللَّيَالِي، كَانَ السَّمْعُ فِي حُجْرَةِ مَوْلَانَا مُشْتَعِلًا حَتَّى الْفَجْرِ. وَكَانَ النَّاسُ يَرَوْنَ أَنَّ مَوْلَانَا هُوَ مُحِبِّي اللَّيْلِ غَيْرُ الْمَنَازِعِ فِي قُوْنِيَّةٍ. كَانَ نَجْمُ الْأَدَبِ الْإِيرَانِيِّ وَالثَّقَافَةِ الْإِيرَانِيَّةِ اللَّالَاءُ فِي اللَّيَالِي يَغُوصُ فِي حَالٍ مِنْ نَوْمِ الْيَقَظَةِ تَحْتَ أَنْوَارِ الشُّمُوعِ، وَيَغْرُقُ فِي فِكْرِهِ. وَفِي هَذِهِ اللَّيْلِ، كَانَ كَأَنَّهُ فِي تَوَاصُلٍ وَمُنَاجَاةٍ رُوحِيَّةٍ مَعَ شَمْسٍ. وَلَمْ يَكُنْ لَدَى أَحَدٍ الْجَرَأَةُ عَلَى أَنْ يَقُولَ لَهُ: بِمَاذَا تَفَكَّرُ؟ - لِمَاذَا رَحَلَ الْهُدُوءُ وَالرَّاحَةُ عَنْ وَجُودِكَ؟ - لِأَنَّ رَابِطَهُ بِعَالَمِ الْعِرْفَانِ قَدْ تَرَكَهُ.

كُلُّ فَنَاتِ النَّاسِ فِي قُوْنِيَّةٍ دَخَلُوا فِي ضَجَّةٍ وَصَخَبٍ مُتَسَائِلِينَ: مَاذَا حَدَّثَ لِمَوْلَانَا؟ وَهَذَا الشَّخْصُ الْغَائِبُ (شَمْسُ الدِّينِ التَّبْرِيزِيِّ) أَيُّ شَخْصٍ هُوَ؟ - مَنْ هُوَ؟ - وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ حَتَّى سَحَرَ مَوْلَانَا، الَّذِي كَانَ أَكْبَرَ فَكَّاهٍ فِي الْمَدِينَةِ، وَجَذَبَهُ، حَتَّى إِنَّهُ فِي غِيَابِهِ أَيْضًا انْقَطَعَ عَنْ مُحِبِّيهِ الْقَدَمَاءِ، وَانْشَغَلَ بِنَفْسِهِ. وَلَعَلَّ مَوْلَانَا كَانَ يَرِيدُ، بِانْزَوَاتِهِ وَتَفَادِ صَبْرِهِ، أَنْ يُفْهِمَ طَبَقَاتِ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ تَكْرِيمَهُ شَمْسًا وَثَنَاءً عَلَيْهِ، وَأَنْ يَدِينَ مِرَاجِهِمُ الْعُدُوَانِيَّ وَسُوءَ ضِيَاغَتِهِمْ.

كَانَ شَمْسُ الدِّينِ شَوْكَةً فِي طَرِيقِ الْمُتَعَصِّبِينَ وَالسُّطْحِيِّينَ؛ وَكَانَ يَنْشُرُ فِكْرَهُ بَيْنَ

الناس بِخُرَيْة. وفي يومٍ من الأيام، عُقِدَ اجتماعٌ كبير في خَانِقَاهِ الوزير نَصْر الدّين، وحَضَرَ هذا الاجتماعَ جميعُ العُلَمَاءِ والمشايخِ والعارفين والحكّماء والأُمراء والأعيان، كما يذكرُ الأفلاكي، وكان كُلُّ مِنْهُم [٥١] يتحدّثُ في أَصْنَافِ العُلُومِ والفنون والحكَم، ويُقدِّمُ بَحْثًا عَجَبِيًّا، إلّا مَوْلانا شَمْسُ الدّين الذي كان يُراقِبُ في زاويةِ كَأَنَّهُ الكَتَر. نهَضَ سَريعًا وصرخَ فيهِم: إلى متى تَركبون سَرَجًا مِن دُونِ جَوادٍ وتركضونَ في مَيدانِ الرّجال؟ - إلى متى تتوكّضونَ على عِصِيّ الآخرين؟ - هذا الكلامُ الذي تقولونه من الحِكْمَةِ والتفسير وغير ذلك هو كلامُ أَناسٍ ذلكَ الزّمان؛ فإنَّ كُلَّ إنسانٍ في زَمَانِهِ كان جالسًا في مَقامِ رَجُلٍ، وكان يقولُ مَعانِي مِن واقعِهِ؛ وإذْ أَنتُمْ رِجالُ هذا العَهد، أينَ أسرارُكم وكلامُكم؟ - فما كان مِنْهُم إلّا أن يُطَرِّقوا خَجَلًا. وبعدئذٍ قال:

كَانَ بَعْضُهُم كاتِبًا لِلوَخِي، وَبَعْضُهُم مَحَلًّا لِلوَخِي، فَاسْعَوْا إِلَى أَنْ تَكُونُوا الاثْنَيْنِ مَعًا، مَحَلًّا لِلوَخِي وَكَاتِبًا لِلوَخِي.

وقد تعلَّم مَوْلانا هذه الجُمْلَ مِن شَمْس. وكان مشغولًا بِفِكرِهِ الجَذابَةِ، وكان يَسْمَعُ صَوْتَ شَمْسٍ، شَمْسُ الذي كان التَّورُ الإلهيُّ يُشِعُّ على جَبِينِهِ. كان شَمْسُ ذو الصَّوْتِ الواضِحِ يقولُ: كُنْ مَحَلًّا لِلوَخِي وَكَاتِبًا لِلوَخِي في الوَقْتِ نَفْسِهِ. وقد غيَّرَ هذا الكلامُ الحَيَاةَ الفِكرِيَّةَ لِجَلالِ الدّين.

وكَلِّمًا فَكَّرَ مَوْلانا في شَمْسٍ وفِكرِهِ ازدادَ حَيَرَةً وَصُدَاعًا. كان مَوْلانا يَنشُدُ بِإِرشادِ شَمْسٍ وتوجيهِهِ أن يَظفَرَ بِلُبِّ الوَخِي وبِجَوْهَرِ الحَقِيقَةِ. في إِحْدَى لَيالِي الفِراقِ سَمِعَ الصَّدى الواضِحَ لِشَمْسٍ في حُجْرَةِ مَوْلانا يردّدُ: حَبِيبِي مَوْلانا.. أَنتَ مُحَرِّقُ القَلْبِ، ولا بَدَّ في بَقِيَّةِ عُمُرِكَ أن تَكُونَ مادِحًا لِلعِشْقِ والمَحَبَّةِ. عَلَيْكَ، بالكلامِ المؤثِّرِ

وَالْغَزَلِيَّاتِ الْفَارَسِيَّةِ الْمُثِيرَةِ الْحُلُوةِ، أَنْ تُحَرِّكَ نَهْرًا مِنَ الْعِشْقِ وَالْمَحَبَّةِ، يَجْرِي عَدَا
مِنْ آسِيَّةٍ إِلَى الْعَالَمِ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ سَيَكْتَشِفُ الْعَالَمُ عَظْمَةَ رُوحِكَ، وَسَتَرَسُّمُ
أَصْدَقِ التَّصَاوِيرِ لِمَلَامِحِ الْعِشْقِ الْحَقِيقِيِّ وَالبَحْثِ الْعِرْفَانِيِّ الْإِيرَانِيِّ فِي أَجْزَاءِ الْمَشْنُوءِ
وَدِيَوَانِ شَمْسٍ، الَّتِي سَتَكُونُ كَالْأَزْهَارِ النَّاشِرَةِ الشَّدَا الْخَالِدَةِ فِي بُسْتَانِ الْمَشْرِقِ.
سَتَكُونُ مَجْلَى آمَالِ الْعَارِفِينَ وَأَشْوَاقِهِمْ. وَتَتَحَوَّلُ دِيَوَانُكَ الْكَبِيرُ إِلَى مَهْبِطٍ لِلْوَحْيِ
وَالْإِلْهَامِ. وَسَيَسْمَعُ أَصْحَابُ الْقُلُوبِ فِي الْقُرُونِ وَالْأَعْصَارِ صَوْتَكَ مِنْ طَيَّاتِ
صَفَحَاتِ دِيَوَانِكَ بِأُذُنِ الْقَلْبِ. وَسَيَنْدَفِعُ جَوَادُ فِكْرِكَ الْجَمُوحُ إِلَى حَيْثُ سَيَعْجُزُ
الْقَلَمُ عَنِ الْكِتَابَةِ، وَاللِّسَانُ عَنِ الْقَوْلِ.

وَفِي مَرَّاتٍ كَثِيرَةٍ رَأَى أَصْحَابُ مَوْلَانَا الْمُقَرَّبُونَ أَنَّهُ كَانَ يُخْرِجُ رِسَالَةَ شَمْسٍ، الَّتِي
كَانَ قَدْ كَتَبَهَا لَهُ يَوْصِيهِ فِيهَا بِأَحَدِ أَحَبَّتِهِ، وَيَسْتَمِيلُهُ إِلَيْهِ، مِنْ طَيَّاتِ دِيَوَانِ شِعْرِ الْمَتْنَبِيِّ،
وَيَقْرَأُ السَّطْرَ الْأَوَّلَ مِنْهَا الَّذِي يَقُولُ:

[٥٢] مَغْلُومٌ لَدَى مَوْلَانَا أَنَّ هَذَا الضَّعِيفَ مَشْغُولٌ بِدُعَاءِ الْخَيْرِ، وَلَا يَخْتَلِطُ بِأَحَدِ الْبَتَّةِ.

كَانَ مَوْلَانَا يَقْرَأُ كَلِمَاتِ مُرَادِهِ التَّبْرِيزِيِّ وَجُمْلَةَ بِيَّاسٍ وَاضْطِرَابٍ غَالِبًا،
وَيَهْمُهُمْ بَهْمَسٍ: لَعَلَّهُ يَأْتِي الْيَوْمُ الَّذِي يَعُودُ فِيهِ شَمْسٌ إِلَيَّ مَرَّةً أُخْرَى؛ وَذَلِكَ يَوْمٌ
يَبْدُو فِيهِ التَّسِيمُ الْإِلَهِيُّ سُحْبِ الظَّلَامِ وَالْيَأْسِ مِنْ أَفَقِ حَيَاتِي. أَنَا، نَعَمْ، أَنَا مِثْلُ نَحْلَةٍ
عَاشِقَةٍ تَجْلِسُ عَلَى أَزْهَارِ الْبُسْتَانِ الْعَطِرَةِ فِي أَيَّامِ الرَّبِيعِ، فَتَمْتَصُّ رَحِيقَهَا. سَأُقِيمُ
عِنْدَ عَيْنَيْهِ، عِنْدَ رُوحِهِ، عِنْدَ ذَهْنِهِ. وَلَكِنْ أَسْمَحُ لِلْحَوَادِثِ الْمَزْعِجَةِ أَنْ تَفْصِلَهُ عَنِّي،
وَسَأَغْرُقُ حَتَّى نِهَایَةِ الْعُمُرِ فِي قَلْبِ أَمْوَاجِ بَحْرِ عِرْفَانِ شَمْسِ الْمَائِجِ. أَلَا يُمْكِنُ أَنْ
يَكُونَ لَدَى شَمْسٍ رِسَالَةٌ تُحَرِّرُنِي مِنَ الْقُبُودِ وَالْعِلَاقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ؟ وَبِعَوْنِ مِنَ شَمْسٍ

أدركتُ معالمَ حقيقةِ الحياةِ الإنسانيةِ في العِشقِ والهيامِ.

وقد ادّعى شمسٌ في أحاديثه أنه أُرسلَ لِكُنْيَ يحزَرَ ذاكَ العَبْدَ الرقيقَ الجميلَ (مولانا جلال الدين) الذي هو أسيرٌ بينَ قومٍ أجلافٍ. ومن المؤسف أنَّهُم يؤذونه. وقال مرّةً أخرى: في داخلي، أُحِبُّ العُظماءَ كثيرًا، لكنني لا أظهرُ ذلكَ، أظهرتُهُ مرّةً أو مرتين. لا يعلّمون حقّهم. أظهرتُ المحبّةَ لمولانا، فزادت ولم تنقص.

ومن اللاتق هنا تقديمُ صورةٍ واضحةٍ وحيّةٍ لِقُطْبَي العِرفانِ الكبارِ، مظهرَي الإرادةِ والنُّبلِ، اللّذين كان أحدهما لِسَنَوَاتٍ مدرّسًا عظيمًا ومبلغًا متمكّنًا ومَحَلَّ احترامٍ جُمْلَةً المؤمنينَ في الرّومِ الشّرقية. وأُعرِفُ هنا - قَدَرُ المستطاع - شمسًا التّبريزي الذي هو عندَ بعضهم أسطورةٌ وخُرافة، وبِرْغَمِ جماعةٍ ساجِرٍ لَدَيْهِ عقائدُ الطالبيينَ لِلجِاهِ ونظريّاتهم.

بعدَ أن تُوفّي بهاءُ الدّين وَلَدَ (سُلطانُ العُلَماءِ)، والدُ جلال الدين البلُخي، في عام ٦٢٨هـ جاء إلى قونيةَ سيّدُ بُرْهان الدّين مُحَقِّقُ الترمذيّ، الذي كان أَحَدَ تلاميذِ سُلطانِ العُلَماءِ وعارِفًا كبيرًا، بإشارةٍ سابقةٍ مِنْهُ أو بطريقِ رسالةٍ أُرسلَها إليه وهو على فراشِ المرضِ؛ فصارَ جلالُ الدّين الرومي مُريدًا لِطريقته لمدّةٍ خَمْسَةِ عَشْرينَ عامًا، بناءً على تَوْصِيَةِ وَالِدِهِ، وطَوَى مَراحِلَ السَّيْرِ والسَّلوكِ والرياضاتِ الخاصّةِ في تسعةِ أعوامٍ، وَوَصَلَ إلى مرتبةِ الشَّيْخِ؛ وَوِفاقًا لِقَوْلِ ابنِ مولانا في كتابه «ولَدَ نامِه»:

كَانَ فِي خِدْمَتِهِ لِمَدّةٍ تِسْعَةِ أَعوامٍ،

حَتَّى صَارَ مِثْلَهُ فِي الْقَالِ وَالْحَالِ،

[٥٣] صَارَا شَخْصًا وَاحِدًا فِي الْمَعْنَى

لأنَّهما صَارَا قَلْبًا وَاحِدًا فِي الْمَعْنَى

وعلى حين غرة رَحَلَ سَيِّدٌ مِنْ عَالَمِ الْفَنَاءِ

وانطلقَ نَحْوَ قَصْرِ الْبَقَاءِ

فبقيَ جَلالُ الدِّينِ مِنْ دُونِهِ وَحِيدًا

فتوجَّهَ في النَّهَارِ وَاللَّيْلِ إِلَى اللَّهِ

وواصلَ هذه الرِّياضةَ لِمُدَّةِ خَمْسَةِ أَغْوَامٍ

بِصَدَقٍ وَخُرْقَةٍ وَأَتْنِينَ وَأَلَمٍ

ظَلَّ جَلالُ الدِّينِ الْبَلْخِيَّ بَعْدَ وَفَاةٍ مُرَادِهِ فِي بَحْثٍ وَسَعْيٍ دَائِمٍ، وَكَانَ يَنْفِقُ كُلَّ شَوْقِهِ وَهَيْجَانِهِ وَأَمَالِهِ الْخَفِيَّةِ مِنْ أَجْلِ الْعُثُورِ عَلَى مَعْشُوقِ رَبَّانِيٍّ، أَوْ إِنْسَانٍ كَامِلٍ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَى نَتِيجَةٍ اضْطُرَّ إِلَى أَنْ يُوَجِّهَ قُدْرَتَهُ الْخَلَاقَةَ فِي طَرِيقِ تَرْبِيَةِ التَّلَامِيذِ وَالْمُرِيدِينَ.

أَمَّا جاذِبِيَّةُ فِكْرِ بُرْهَانَ الدِّينِ مُحَقِّقِ التَّرْمِذِيِّ، مُرَادِهِ، فَكَانَتْ تَسْتَلِزُّمُ أَنْ يَظَلَّ يَنْشُدُ بِاشْتِيَاقٍ ظُهُورَ مُرْشِدٍ أَوْ شَيْخٍ رُوحِيٍّ، لَكِنِّي يُسَلِّمُ إِلَيْهِ رُوحَهُ. وَفِي النِّهَايَةِ، وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ عَامِ ٦٤٢ هـ لَقِيَ فِي خَانَ تِجَارِ الشُّكْرِ فِي قُوْنِيَّةِ دَرْوِيْشَا رَثَ الثِّيَابِ، يَقُولُ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ إِنَّهُ مِنْ نَسْلِ إِسْمَاعِيلِيَّةِ قَلْعَةِ أَلْمُوتِ، وَكَانَ يَبْدُو أَنَّهُ حَادُّ الطَّبْعِ. وَأَحْسَنَ بَنُو عِشْقِ الْإِلَهِيِّ أَوْ الْمَحَبَّةِ الْعَمِيقَةِ اللَّامْتَنَاهِيَةِ إِزَاءَ هَذَا الْمَعْشُوقِ الْمَعْنَوِيِّ أَوْ الرَّبَّانِيِّ. كَانَ هَذَا الشَّيْخُ الرَّثُ الثِّيَابِ شَمْسًا التَّبْرِيزِيِّ، الَّذِي كَانَ ذَا مَشْرَبٍ صُوفِيٍّ حَادِّ. وَفِي نَظَرِ جَلالِ الدِّينِ الْبَلْخِيَّ، كَانَ ذَلِكَ وَجْهًا مَلَكُوتِيًّا ظَلَّ يَعُدُّ الثَّوَانِيَّ لِأَمَدٍ طَوِيلٍ مُتَتَطَرًّا لِإِقَاءِهِ، وَمِنْذُ الْقَدِيمِ انْتَقَشَتْ سِيَمَاؤُهُ فِي سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ.

وَقَدْ شَبَّهَ سُلْطَانٌ وَلَدَ عِشْقٍ وَالِدَهُ هَذَا الرَّجُلَ، الْمُحَاطَ بِالْأَسْرَارِ، وَإِخْلَاصَهُ لَهُ بِالسَّفَرِ الْمَشْهُورِ لِحَضْرَةِ النَّبِيِّ مُوسَى (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) بِصُحْبَةِ الْخَضِرِ [عَلَيْهِ السَّلَامُ]. وَنَعْلَمُ أَنَّ الْخَضِرَ عِنْدَ أَشْيَاخِ الطَّرِيقَةِ مَشْهُورٌ بِأَنَّهُ أَعْظَمُ دَلِيلٍ وَمُرْشِدٍ فِي رِحْلَةِ السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ.

وفي الأيام الأولى للقاء قال شمس لمولانا: إِنَّ مُهِمَّتَكَ أَهَمُّ مِنْ مَجَرَّدِ إِنْفَاقِ أَوْقَاتِكَ فِي التَّعْلِيمِ بِمَرَا حِلِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَتَرْبِيَةِ الشَّبَّانِ، وَمَجَالِسِ الْوَعْظِ؛ إِذْ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَتَمَسَّكَ بِأَذْيَالِ الْعِشْقِ مُخْلِصًا فِيهِ، لِكَيْ تَكْشِفَ سِرَّ الْكَائِنَاتِ. صَبَّ شَمْسٌ جَامَ حِمَاسَةِ الْعِشْقِ الْمَفْعَمَةِ بِالْهَيْجَانِ عَلَى مَتَعَصَّبِي قُوْنِيَةِ اللَّؤْمَاءِ، [٥٤] وَأَعْلَنَ مَبَارَزَةَ الْمُثَرَّائِنِ، الَّذِينَ كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنْ نَزَوَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، غَيْرَ مُبَالِغِينَ بِتَضْفِيَةِ الْقُلُوبِ وَالِدِّفَاعِ عَنِ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْمَظْلُومِينَ، وَقَالَ لِلصُّوفِيَّةِ وَأَصْحَابِ الزَّوَايَا إِنَّ زَمَانَ الْانْزَوَاءِ وَالْاخْتِلَاءِ وَاللَّجُوءِ إِلَى الْجِبَالِ، كَمَا فَعَلَ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ، قَدْ انْتَهَى، وَهَذَا الزَّمَانُ زَمَانُ الْبَحْثِ عَنِ الْفِكْرِ وَإِدْرَاكِ الْحَقِيقَةِ مِنْ طَرِيقِ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ.

عَنْدَمَا انْهَمَكَ شَمْسٌ فِي الْحَدِيثِ مَعَ جَلَالِ الدِّينِ فِي الْحُجْرَةِ، وَجَدَهُ مُقَيَّدًا بِأَغْلَالِ فِكْرِهِ وَظُنُونِهِ الْحَالِمَةِ، وَأَدْرَكَ أَنَّ مَتْنَهِيَ آمَالِ جَلَالِ الدِّينِ يُلَخِّصُ فِي أَنْ يَزْدَادَ عَدَدُ طَلِبَةِ دَارِ الْعِلْمِ فِي قُوْنِيَةِ وَعَدَدُ مُرِيدِهِ، وَيَعْتَرَفَ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ بِأَنَّهُ الْمَتَكَلِّمُ الْقَلِيلُ النَّظِيرِ وَغَيْرِ الْمَنَازِعِ. وَقَدْ عَرَفَ الْمَرْحُومُ الذَّكْتُرَ قَاسِمَ غَنِي، خَبِيرُ الْعِرْفَانِ الْمَشْهُورُ، شَمْسًا التَّبَرِيزِيَّ عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

«كَانَ فِي السُّلُوكِ وَالْقَوْلِ خَشِيسًا جِدًّا وَلَاذَعًا، وَفِي الْفَقْرِ وَالْهَيْجَانِ وَالْحَرَارَةِ وَصَرَاحَةِ اللَّهْجَةِ وَالْعِلْمِ وَالْكَلَامِ اللَّاذِعِ... وَفِي تَحْقِيرِ الْعُلُومِ الصُّورِيَّةِ وَالْأُمُورِ الظَّاهِرِيَّةِ، وَمُخَالَفَةِ عَادَاتِ أَهْلِ الظَّاهِرِ وَرُسُومِهِمْ، وَالْإِطْمِنَانِ إِلَى قُوَّةِ نَفْسِهِ وَجَاذِبَتِهِ وَالْمَوْتِ غَيْرِ الطَّبِيعِيِّ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، يَذْكُرُ بِسُقْرَاطِ. وَإِنَّهُ بِفَضْلِ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ جَعَلَ أَلْعِيَا عَظِيمًا مِثْلَ جَلَالِ الدِّينِ الرَّومِيِّ تَابِعًا مُسْتَهَامًا، بَلْ أَسِيرًا وَالْهَا لَهُ، حَتَّى إِنَّ جَلَالَ الدِّينِ كَانَ يَعُدُّهُ مَظْهَرًا تَامًا لِصِفَاتِ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ».

أَنَمَحِي أَمَامَكَ، حَتَّى لَا يَبْقَى لِي أَثَرُ
وَمِنْ شَرَطِ الْأَدَبِ أَنْ أَعْتَرِفَ بِأَنَّكَ شَمْسِي وَرَبِّي
أَمُوتُ مِنْ عِشْقِكَ؛ لِأَنَّكَ مَلِكُ الْعَالَمِينَ،
وَمَا دُمْتَ تَنْظُرُ إِلَيَّ فَأَنْتَ شَمْسِي وَرَبِّي

وفي السنين التي سيطرت فيها على العالم الحروب الدينية والبؤس والشقاء وسوء الظن والعصية العمياء، نهض شمس كالبطل المغوار، وأوضح شخصيته التاريخية ورسالة طريقته؛ لكي يغير، بمساعدة الإيمان والتفكير الروحي والكلام المثير، الرسم القديمة للمشارب الصوفية. وقد اعترف في كتابه «المقالات» قائلاً: «لا شأن لي بالعوام، بل يهمني الأقطاب والمُرشدون، كنتُ أعرف طبائعهم حقاً». ومع القدرة البيانية والفضل والكياسة والدراية التي عرف بها مولانا، خضع لرجل علمه ما الحياة وما العشق، [٥٥] ولماذا يكون الإنسان الحي عاشقاً؟ والعشق منذ البدء دمٌ وتمردٌ.

يقول شمس: «لو أن أهل الرُبع المسكون (أي الكرة الأرضية كلها) كانوا جميعاً في ناحية، وأنا في ناحية أخرى، أيّا كان مُشاكلهم، لأجبتهم جميعاً، ولن أفر من الكلام، ولن أغير الكلام من أمرٍ إلى أمرٍ آخر. يقدمُ كلامي لكلِّ سؤالٍ عشرة إجاباتٍ لا تكون في كتابٍ بذلك اللطف وبذلك العون».

والآن، أيها القارئ العزيز، يجب أن تُعطي مولانا الحق في أن يقول بشجاعة للمُشتاقين إليه بعد أيام الخلو: عندما عرفتُ شمساً صارت الكتب ودواوين الشعر في نظري غثة باردة. نعم، إن مولانا الذي كان يبحث عن شمس الروح تحرر في النهاية بفضل أنوار شمس من أغلال الأعصار والقرون، واستطاع في تلك الأيام القصار أن يعايش خواطر هادئة ومهيبة، لكن فراق شمس أحدث طوفاناً. إذ لم يكن يريد لمُراذه

ومعشوقه، الذي يعرف تقلبات القلب الإنساني بطرفة عين، أن يترك قونية بقلب متأد متألّم. كان مولانا في تلك اللحظات الحساسة يريد، بأي ثمن، أن يرى شمساً مرة أخرى، وكان يقصّر همته على هذا الأمر، مخاطباً بحياته وحياة أسرته. كان مولانا حتى ذلك الوقت يحس بأنه لم يعرف شمساً حق المعرفة. أراد مولانا، مثل شمس، أن يكون مستعداً دائماً للرحيل. وقد قال لابنه سلطان ولّد قبل أن يغادر قونية: قل لشمس الدين: قرأت آخر رسالة أرسلتها باشتياق وبتزوع عرفاني؛ كل الأشياء عندي بعد الآن متماثلة، وسأسعى في المستقبل لأن لا أقول شيئاً لا يناسب مقامك. قلبي مشتاق لأن أشرب، في المستقبل، من عين عرفان شمس، فقط، وأسكر؛ كل أمني وعشقي لديك؛ فاسع أن تظفر بي. أودع سلطان ولّد كل الكلمات التي قالها مولانا حافظته، ليُسَلِّمها إلى شمس كما سمعها تماماً.

وفي آخر رسالة أرسلها شمس من دمشق إلى قونية كتب يقول: ينبغي أن يتجلى لي أي طريق لحياتنا معاً؟ - أهو طريق الأخوة أم الصُحبة؟ أم طريق الشيخ والمريد؟ لا أستحسن ذلك. الأستاذ والتلميذ؟. أنت الآن تفضلني على نفسك، فإن كان هناك سبب للفراق والبعد فهو هذا. ولأنني هنا أحصل على التعليم يكون الذهاب إلى الشام رُعونةً ودلالةً. وفي النهاية، لك عالم منفصل عن عالمنا وفارغ منه. وكذلك عندما تمرّج أنت كتاباتي بكتابات الآخرين، [٥٦] لا أمرّج أنا كتاباتك بالكتاب المقدس. ومع أنك ادّعتي الرُّجحان، لم أدع أنا ذلك، وعندما أقول شيئاً اكتبه؛ لأنك تتكاسل.

ويعلم من محتوى هذه الرسالة أن شمساً، إبان تركه قونية، لم يكن خاطره راضياً عن مولانا. وكان يمضي في تلك الوجهة من عالم الآفاق بهداية من جبلته السماوية، باحثاً عن مشتاقين آخرين؛ ولعله بحثاً عن الشمس يسافر إلى أضواء العالم جميعاً.

يَذْهَبُ إِلَى مَكَانٍ لَا يَوْجَدُ فِيهِ تَعْصَبٌ وَتَكَبُّرٌ وَاتِّهَامٌ وَافْتِرَاءٌ. كَانَ يَرِيدُ، بِعَرَفَانِهِ الْإِيرَانِيَّ،
أَنْ يُنْقِذَ النَّاسَ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي وَهْدَةٍ سُقُوطٍ مَمْلُوءَةٍ بِالْأَسَى. وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ، يَحْصُلُ
بِالصَّبْرِ وَالتَّأَمُّلِ عَلَى مُسْتَقَرٍّ فِي قَلْبِ الْحَبِيبِ، عَلَى غِرَارِ مَا كَانَ يُؤَمِّلُ. وَيَذْهَبُ
الْمَرْحُومُ دَشْتِي^(*) إِلَى أَنَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نَزِنَ التَّوَثُّبَ الرُّوحِيَّ لِمَوْلَانَا بِالْمَعَايِيرِ الَّتِي تَرْكَهَا
شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ فِي اخْتِيَارِ الْمَحْبِبِّينَ، هَذِهِ الْمَعَايِيرُ الْقَابِلَةُ لِأَنْ تَفْهَمَهَا؛ لَكِنِّي تُدْرِكُ
الْهَيْجَانَ وَالْاضْطِرَابَ الَّذِي وَقَعَ فِي رُوحِ مَوْلَانَا بِغَيْضٍ وَتَلَاطُمٍ. وَيَرِيدُ جَلَالُ الدِّينِ فِي
دِيْوَانِ شَمْسٍ أَنْ يُظْهِرَ عَلَى عَذْبَةِ اللِّسَانِ ذَلِكَ الَّذِي يَخْتَرُّهُ فِي سُودَاءِ قَلْبِهِ مِنْ عِشْقِ
شَمْسٍ؛ وَلِهَذَا السَّبَبُ يُنْشَدُ:

أَنْتَ نُورٌ، أَنْتَ سُورٌ [مَأْدُبَةٌ]، أَنْتَ دَوْلَةٌ مَنْصُورَةٌ،
أَنْتَ طَائِرُ جَبَلِ الطُّورِ، أَرْهَقْتَنِي بِمِنْقَارِكَ
أَنْتَ قَطْرَةٌ، أَنْتَ بَحْرٌ، أَنْتَ لُطْفٌ، أَنْتَ قَهْرٌ
أَنْتَ سُكَّرٌ، أَنْتَ سُمٌّ، لَا تُؤْذِنِي أَكْثَرُ مِنْ هَذَا
أَنْتَ الْحَبَّةُ، وَأَنْتَ الْفَخُّ، أَنْتَ الْخَمْرَةُ، وَأَنْتَ الْكَائِنُ
أَنْتَ نَاضِجٌ، أَنْتَ نَيْءٌ، لَا تَدْعُنِي نَيْئًا
أَنْتَ نُوحٌ، أَنْتَ رُوحٌ، أَنْتَ الْفَاتِحُ وَالْمَفْتُوحُ
أَنْتَ صَدْرٌ مَشْرُوحٌ، وَالْوَقُوفُ أَمَامَ بَابِ الْأَسْرَارِ لِي
(دِيْوَانِ شَمْسِ تَبْرِيزِ، الْغَزَلِيَّةُ ٣٧)

* - عَلِي دَشْتِي، وَهُوَ بَاحِثٌ إِيرَانِيٌّ مَعْرُوفٌ

- إِنَّ لِلْعُشُقِ غُرْبَةً عَنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
 وَالْاِثْنَانِ وَالسَّبْعُونَ مِلَّةً، فِيهِ، مِنْ قَبِيلِ الْجَنُّونِ
 - وَإِنَّ لِلْعُشَاقِ مَوْتًا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ
 وَمَوْتُ الْعُشَاقِ نَفْسُهُ لَيْسَ نَوْعًا وَاحِدًا
 (المثنوي، ٤٧٢٣/٣، ٣٨٣٦)

رسائلُ شعريّةٌ

[٥٧] وَصَلَ سُلْطَانُ وَلَد، ابْنُ مَوْلَانَا، إِلَى دِمَشْقَ؛ وَمِنْ دُونِ أَنْ يَهْدَأَ لَحْظَةً، أَوْ
 يَنْفُضَ غُبَارَ الطَّرِيقِ عَنْ رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَثِيَابِهِ، أَوْ تَرْتَاحَ نَفْسُهُ، كَانَ يَبْحَثُ مِنْ مَدْرَسَةٍ إِلَى
 مَدْرَسَةٍ وَمِنْ خَانِقَاهُ إِلَى خَانِقَاهُ آخَرِ أَكْبَرَ، لِكَيْ يَظْفَرَ بِالْمَلَاذِ الْآخِرِ لِوَالِدِهِ. وَمِنْ أَجْلِ
 سَلَامَةِ رُوحِ مَوْلَانَا وَجِسْمِهِ، كَانَ يَبْحَثُ عَنْ ضَالَّتِهِ، كَأَنَّهُ مُرَافِقُ لِرَسُولِ الرِّيحِ. كَانَ
 مَوْلَانَا يَأْمُرُ ابْنَهُ قَائِلًا: ابْحَثْ عَنْ أَثَرِ شَمْسِ الْحَقِيقَةِ فِي خَانِقَاهُ دِمَشْقَ الْكَبِيرِ، وَانْتَفِعْ
 بِشُعَاعِهِ الْمُنْعَشِ لِلْقَلْبِ، وَمُرَّ بِأَعْتَابِهِ بِهَدْوٍ، وَاقْتَرَبْ مِنْ رُوحِهِ الْعَظِيمِ، لِكَيْ تَظْفَرَ بِمَنْ أَحْيَا
 أَبَاكَ مِنْ جَدِيدٍ. اجْتَازَ سُلْطَانُ وَلَدُ مِنْطَقَةَ الطَّرِيقِ الضَّيِّقِ الَّذِي يَصِلُ دِمَشْقَ بِحَلَبِ. كَانَ
 صَوْتُ يَصِلُ إِلَى الْأُذُنِ مِنْ بَعِيدٍ، وَقَدْ قَلَّ بُعْدُ الْمَسَافَةِ تَدْرِيجِيًّا، عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ،
 صَدَى كَأَنَّهُ كَانَ يَتَحَدَّثُ مَعَ رُوحِ الْإِنْسَانِ، نَبَّهَ كُلَّ مُحِبِّي مَوْلَانَا. كَانَ شَمْسٌ يَدْعُو
 هَؤُلَاءِ إِلَيْهِ، وَكَانَ فِي خَانِقَاهُ يَتَحَدَّثُ إِلَى مُحِبِّيهِ. كَانَ الْبَحْثُ يَتَنَاوَلُ مَسْأَلَةَ «كَغْبَةِ الْقَلْبِ»
 وَ«كَغْبَةِ الطَّيْنِ» [كغبة دُلَّ وكغبة كِلَّ، بِالْفَارْسِيَّةِ]. رَوَى قِصَّةً عَنْ أَبِي يَزِيدَ، وَكَانَ
 الْخَانِقِيَّاهُ مَمْلُوءًا بِالْمُحِبِّينَ وَالْدَّرَاوِشِ. قَالَ شَمْسٌ:

كَانَ أَبُو يَزِيدَ يَذْهَبُ إِلَى الْحَجِّ، وَجَرَتْ عَادَتُهُ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ يَدْخُلُهَا يَزُورُ أَوَّلًا
 مُشَابِحَهَا، ثُمَّ يَكُونُ لَهُ عَمَلٌ آخَرُ.

[٥٨] ذَهَبَ أَبُو يَزِيدَ إِلَى الْبَصْرَةِ فِي زِيَارَةِ أَحَدِ الدَّرَاوِشِ؛ فَسَأَلَ الدَّرَوِشَ أَبَا يَزِيدَ:

- يَا أَبَا يَزِيدَ، إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ مُسْرِعًا؟

- قَالَ: أَذْهَبُ إِلَى مَكَّةَ لِمُزَارَاةِ بَيْتِ اللَّهِ.

- فَقَالَ الدَّرَوِشُ: مَاذَا عِنْدَكَ مِنَ الزَّادِ وَالْمَالِ وَالْغِذَاءِ لِقَضَاءِ حَاجَاتِكَ؟

- قَالَ أَبُو يَزِيدَ: عِنْدِي مِتْنَانُ دِرْهَمٍ فَقَطْ.

- فَقَالَ الدَّرَوِشُ: قُمْ، وَطُفْ حَوْلِي، وَأَعْطِنِي هَذِهِ الْفِضَّةَ.

نَهَضَ أَبُو يَزِيدَ مِنْ مَكَانِهِ قَوْرًا، وَفَتَحَ كَيْسَ الْفِضَّةِ وَقَبَّلَهُ وَوَضَعَهُ أَمَامَهُ.

- قَالَ الدَّرَوِشُ: ذَلِكَ الْبَيْتُ هُوَ بَيْتُ اللَّهِ، وَقَلْبِي هَذَا أَيْضًا بَيْتُ اللَّهِ؛ وَلَكِنْ أَعْلَمُ أَنَّ

الرَّبَّ، الَّذِي هُوَ رَبُّ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَرَبُّ هَذَا الْبَيْتِ، مَنْذُ أَنْ بُنِيَ ذَلِكَ الْبَيْتُ لَمْ يَدْخُلْهُ،

وَمَنْذُ أَنْ بُنِيَ هَذَا الْبَيْتَ لَمْ يُخْلَعْ وَلَمْ يَغَادِرْهُ. وَالْبَيْتُ الصَّحِيحُ هُوَ بَيْتُ كَعْبَةِ الْقَلْبِ؛

فَاسْعَ لِأَنْ لَا تُؤْذِيَ قَلْبًا.

اسْتَبَدَّ صَمْتُ مُوَحِّشٍ وَمَخِيفٍ بِقَضَاءِ الْخَانِقَاهِ، فَتَعَلَّقَتْ أَعْيُنُ سُلْطَانٍ وَلَدٍ

وَأَصْحَابِهِ بِهَذَا الْمَشْهَدِ الرُّوحَانِيِّ الْعَظِيمِ، وَفِي صَمْتِ الْخَانِقَاهِ بَقِيَ هَوْلًا أَيْضًا سَاكِتِينَ

وَمُنْدَهَشِينَ. أَلْقَى شَمْسٌ نِصْفَ نَظَرِهِ إِلَى سُلْطَانٍ وَلَدٍ، فَتَبَسَّمَ وَتَابَعَ كَلَامَهُ:

مَنْ فِي هَذَا الْخَانِقَاهِ الَّذِي يُسْمَعُ صَوْتُهُ بِأُذُنِ الْقَلْبِ فِي كَعْبَةِ الْقَلْبِ؟ - مَنْذُ أَنْ وَجِدْتُ

كُنْتُ أَدْرِكُ حَيَاةَ الْعِزْفَانِ جَيِّدًا، بَلْ أَتَحَسَّسُهَا، الْعِشْقُ وَخَدَهُ عِنْدِي خَاطِرَةٌ دَائِمَةٌ بَاقِيَةٌ.

لَا يَمْتَلِكُ أَحَدٌ طَاقَةَ الْعَمَلِ الَّتِي عِنْدِي؛ وَمَا أَفْعَلُهُ لَا يَنْبَغِي لِمُقَلِّدٍ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ. وَقَدْ

صَدَقُوا حِينَ قَالُوا: لَا بَجُورَ أَنْ نَقْتَدِيَ بِالْعَارِفِينَ.

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ، أَيُّهَا الَّذِينَ جِئْتُمْ مِنْ قُونِيَّةَ إِلَى هُنَا، وَوَقَفْتُمْ عِنْدَ بَابِ الْخَانِقَاهِ. كُلُّ

النَّاسِ انْشَدَتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى بَابِ الْخَانِقَاهِ. لَدَيَّ رَفِيقٌ رَائِعٌ، لَدَيَّ مُؤَنِّسٌ رَائِعٌ، كَانَ

رَجُلًا عَجِيبًا؛ إِنَّهُ مُخْبِي الدِّينِ بَنُ عَرَبِيٍّ، أَمَّا فِي الْمَتَابَعَةِ فَلَمْ يَكُنْ وَفَّقَ الْأَصُولَ، لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ عَيْنُ الْمَتَابَعَةِ، هَكَذَا كَانَ. اسْتَفَدْتُ مِنْهُ اسْتِفَادَةً عِلْمِيَّةً وَرُوحِيَّةً كَبِيرَةً؛ كَانَ دَائِمًا يَقُولُ: أَخْطَأَ فُلَانٌ. وَبَعْدَئِذٍ كُنْتُ أَشَاهِدُ أَنَّهُ هُوَ نَفْسَهُ كَانَ يَخْطِئُ، وَمَرَاتٍ كَثِيرَةً كُنْتُ أَذْكَرُ لَهُ أَخْطَاءَهُ. مُخْبِي الدِّينِ بَنُ عَرَبِيٍّ، الْعَارِفُ الْكَبِيرُ الْقَلِيلُ النَّظِيرُ، يُضْطَرُّ إِلَى أَنْ يُطَرِّقَ وَيَقُولَ: أَيُّ بَنِيٍّ أَتَجَلَّدُ بِالسُّوْطِ؟

لَوْ كَانَ لَدَيَّ أَبِي يَزِيدَ عَلِمٌ لَمَا قَالَ الْبَيْتَةَ: أَنَا، أَنَا.

[٥٩] الْفَخْرُ الرَّازِيُّ، أَيُّ جُرْأَةٍ لَدَيْهِ حَتَّى قَالَ: مُحَمَّدٌ الرَّسُولُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ، وَمُحَمَّدُ الرَّازِيُّ هَكَذَا يَقُولُ؟^(١)

وَالْحَاصِلُ أَنَّنَا لَا نَعِيشُ مَعَ الرَّسُولِ إِلَّا بِالْأَخْوَةِ؛ أَكُونُ مَعَهُ بِطَرِيقِ الْأَخْوَةِ. أَنْتُمْ، أَحِبَّائِي، ابْحَثُوا عَنِ النَّهَارِ فِي السَّمَاءِ، وَعَنِ الظُّلْمَةِ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى تَبْلُغُوا إِلَى حَيْثُ تَنْظُرُونَ إِلَى الْأَرْضِ وَكَانَهَا ظِلٌّ مُضْطَرِبٌ؛ وَسُتَحْسُونُ بِاللَّذَّةِ وَالْهِيجَانِ فِي الْعِشْقِ فَقَط. شَرِبْتُ فِي قُوْنِيَّةٍ، مِنَ الْبَنبُوعِ الَّذِي كُنْتُ مُشْتَاقًا إِلَيْهِ، خَمَرَ الْمَحَبَّةِ وَالْعِشْقِ اللَّذِيزِ، وَكُنْتُ تَمَلًا لِمَدَّةٍ طَوِيلَةٍ. وَإِذَا كُنْتُ قَدْ عِشْتُ فِي هَذَا الْمَنْفَى الْبَائِسِ فَمَبِعْتُ ذَلِكَ أَنَّنِي أَعِيشُ مَعَ عِشْقِ رِجَالِ اللَّهِ وَالْعَارِفِينَ، وَلَا يَوْجَدُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فِي عَالَمِ التَّرَابِ فِرَاقٌ وَهَجْرَانٌ. مِنْ أَجْلِ اللَّهِ، أَطْلِقُوا سَرَاحِي، اتْرَكُوا طَوْفَانَ الطَّبِيعَةِ يَحْمِلُنِي مَعَهُ إِلَى آفَاقٍ بَعِيدَةٍ كَأَوْرَاقِ الْخَرِيفِ الصَّفْرَاءِ، فَلَا يَبْقَى مِنِّي أَثَرٌ.

وَحَلَفَ عَتَبَةُ الْخَانِقَاهِ الْقَدِيمِ، انْتَشَرَ صَوْتُ بُكَاءٍ فِي الْفُضَاءِ. اسْتَسَلَّمَ سُلْطَانٌ وَلَدَ وَأَصْحَابُهُ لِلْبُكَاءِ اضْطِرَازًا. صَارَ سَمْسٌ طُوفَانًا، وَبَصُوتٌ هَزَّ أَجْسَادَ مُرْتَادِي الْخَانِقَاهِ، قَالَ: كُلُّ مَنْ أُحِبَّهُ أَقَدَّمُ لَهُ الْجَفَاءَ، فَإِنْ قَبِلَ ذَلِكَ كُنْتُ لَهُ! نَعَمْ، إِنَّ لَدَيَّ قَاعِدَةٌ هِيَ أَنَّ كُلَّ مَنْ

أُحِبُّهُ اسْتَعْمِلْ مَعَهُ الْقَهْرَ أَوَّلًا. وَهَكَذَا اسْتَعْمِلْ الْجَفَاءَ مَعَ الشَّخْصِ الَّذِي أُحِبُّهُ. أَنَا أَيْضًا
مِثْلُ كَفِّ الْيَدِ؛ إِنَّ عَرَفَ شَخْصٍ طَبَعِي ارْتَاخَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. كُلُّ مَنْ أَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ يُدِيرُ وَجْهَهُ
عَنِ الْعَالَمِ كُلِّهِ. وَرَبَّمَا أَبْذُو مَتَوَجَّهًا إِلَى أَحَدٍ، لَكُنْتُ لَا أَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ حَقِيقَةً. لَدَيَّ جَوْهَرٌ
يُمَثِّلُ فِي أَنْ كُلِّ مَنْ أَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ يَغْدُو غَرِيبًا عِنْدَ أَصْحَابِهِ وَأَحِبَّائِهِ.

خَمَدَ صَوْتُ شَمْسِ السَّمَاءِ فِي صَمْتِ الْخَانِقَاءِ. وَمَنْ غَرِقُوا فِي الْإِنْصَاتِ إِلَى
كَلِمَاتِهِ الشَّيْبَةِ بِالْمُعْجِزَةِ وَقَفُّوا مُنْجَذِبِينَ وَثَمَلِينَ، لَيْسَ لَدَيْهِمْ جُرْأَةٌ عَلَى أَنْ يَنْسُوا
بَيِّنَتِ شَفَةِ، وَغَادَرُوا الْخَانِقَاءَ وَاحِدًا إِثْرَ آخَرٍ. وَعِنْدَمَا وَصَلَ أَحَدُهُمْ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ
بَابِ الْخُرُوجِ قَالَ لِسُلْطَانٍ وَلَدَ: طَلَبْتُكُمْ شَمْسٌ.

دَخَلَ سُلْطَانٌ وَلَدَ إِلَى الْخَانِقَاءِ، فَقَبَّلَ يَدَ شَمْسٍ، وَانْحَنَى أَمَامَهُ وَوَضَعَ رَأْسَهُ
عَلَى قَدَمِهِ وَقَالَ:

مَوْلَانَا، إِنَّ كَلَامَكَ مِنَ الْعُلُوقِ بِالْقَلْبِ وَالتَّفَازِ إِلَى الْأَعْمَاقِ عَلَى نَحْوِ لَا أَقْدِرُ مَعَهُ
عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْهُ [٦٠]، وَلَعَلَّ كَلَامَكَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَضَعَدَ إِلَى الْجَنَابِ الْإِلَهِيِّ.

إِنَّ كَلَامَكَ الْمَتَنَاغَمَ الْمُنْسَجَمَ بِاللَّفْظِ وَالْجَلَالِ يَخْكِي صَوْتَ السَّمَاءِ
الزَّرْقَاءِ، صَوْتَ الْعِشْقِ وَالْحَقِيقَةِ. وَهُوَ عَيْنُ الصَّوْتِ الَّذِي جَذَبَ إِلَيْهِ وَالِدِي، مَوْلَانَا^(١).

وَقَدْ بَقِيَ لِمَدَّةٍ هَائِلَةٍ بِكَ وَمُضْطَرِبًا، أَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَابَ وَلَمْ يَأْذَنْ لِأَحَدٍ

١- أُنْشِدَ جَلَالَ الدِّينِ فِي فِرَاقِ شَمْسٍ:

وَاجْعَلْ «مِرَاةَ الصُّبُوحِ» تَرْجَمَةً لـ «الْقَبُوقِ»، لَا شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ
وَصِرَ الْكَأْسُ الَّتِي تُظْهَرُ الْعَالَمَ، وَابْعُدْ عَنِ الْعَالَمِينَ
أَمْسِيكَ مَيْسَمَ الْقَلْبِ، وَضَعْ عَلَامَةً عَلَى رُوحِي
اخْتَرِ الْحِصَانَ، وَانْظِلِقْ مِنَ الرُّخِّ إِلَى نَاحِيَةِ الْمَلِكِ
وَقَبِّلْ جَبِينَ الرُّوحِ، وَمَسْطِطْ طَرَةَ النَّشَاطِ
(ديوان شمس قنبري، الغزلية ١٨٢٢)

أَجْرَ مَاءِ حَيَاةِ الْعِشْقِ فِي غُرُوقِنَا
يَا أَبَا النَّشَاطِ الْجَدِيدِ، امْضِ فَوْقَ رُوحِنَا
يَا مَنْ عَقَلِي صَبَدْتُ لَكَ، وَالرُّوحِي بِالْتِبَالِ شِعَارُ لَكَ
يَا مَنْ صِرْتُ فِي لَوْحِ النُّجُومِ الْمَلِكِ مَبْنًى، وَبِيدَقًا
أَنْهَضُ، وَتَبَخَّرْتُ، وَتَجَاوَزْتُ كُلَّ الْأَفْخَاحِ

بالدخول عليه، وورده الذي يرده على لسانه: شمس تبريز! اسمكم يدنر بكلامكم
 الكثير. يريد مرة أخرى أن يسمع عن قرب الكلام المشكر والجمل الموزونة
 الساحرة، ويرى وجهك المكنوني. يعتقد والذي أنه في الدنيا كلها، تركيب كلام
 شمس التبريزي هو وحده تركيب ملكوتي، ومنه يستخلص المحبة والإخلاص. كان
 يحس دائماً بأنه افتقد القدرة على الحياة، وذخيرة الحياة. وفي أثناء التوديع قال لي:
 إما أن تعود بشمس التبريزي إلى قونية، وإما أن تسلم الروح إلى خالق العالم.

مكث سلطاناً ولداً قليلاً، وحدق في وجه شمس فشاها قطرات الدمع تنهمر من
 زوايا عينيه. واحد من رفاق سلطان ولد أخرج، بأمر منه، مقداراً من الفضة والذهب من
 الكيس، ونثره على قدمي شمس. وفي هذه الأثناء أخرج سلطان ولد من جيبه رسالة
 مختومة، وقال لشمس تبريز: نظم والذي أربع غزليات وأرسلها إلى حضرتك. اسمح
 لي بأن أقرأ بضعة أسطر منها فقط. صار شمس، الذي أطرق إطرارق التفكير، كله آذاناً
 تسمع، فقرأ بهاء الدين (*) الأشعار:

والله الذي كـان في الأزل

حيّاً وعليماً وقادراً وقبوماً

الذي أوقد نوره شموع العشق

حتى انكشف مئة ألف سر

ومن حكم واحد من أحكامه امتلاء العالم

بالعاشق والعشيق، والحاكم والمحكوم

* - لقب سلطان ولد، ابن مولانا جلال الدين [الترجم].

وفي طَلاسمِ شَمْسِ التَّبريزي
 صارَ كَنَزُ عَجَائِبِهِ مَكْنُومًا
 إِنِّي مُنْذُ اللَّحْظَةِ الَّتِي سَافَرْتُ فِيهَا
 فُصِّلْتُ عَنِ الْحَلَاوَةِ كَمَا يُفْصَلُ الشَّمْعُ [عَنِ الْعَسَلِ]
 أَخَرِقُ كُلَّ لَبْلَبَةٍ كَالشَّمْعِ
 مَكْنُومًا بِنَارِهِ، مَخْرُومًا مِنْ عَسَلِهِ
 [٦١] أَلَا فَاجْذِبِ الْعَيْنَانِ إِلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ
 وَغَلِّظْ مَنْ فِيهِ الْعِشْقُ الْخُرْطُومُ
 مِنْ دُونِ حُضُورِكَ لَا يَكُونُ السَّمَاعُ حَلَالًا
 كَالشَّيْطَانِ طَرِبَ قَرِيبَ قَرْجِمٍ
 جَعَلَ اللَّهُ لَيْلِي مِنْكَ صَبَاحًا وَضَاءً

بِمَنْ فِيكَ فَخَرُ الشَّامِ وَالْأَزْمَنِ وَالزُّومِ^(١)

أَوْصَلَ سُلْطَانُ وَلَدٍ، وَعَيْنَاهُ مُثْقَلَتَانِ بِالْعِبَرَاتِ، الرِّسَائِلَ الْمُنَظَّمَةَ الْمُخْرِقَةَ الْمُذْيِدَةَ،
 الَّتِي أَرْسَلَهَا الْعَاشِقُ الَّذِي رَأَى الْهَجْرَانَ، إِلَى مِسْمَعِ الْمَعشُوقِ الصَّرِيحِ الشَّجَاعِ
 الْمَتَمَرِّدِ الْعَظِيمِ. كَانَ الْابْنُ الْعَزِيزُ لِمَوْلَانَا يَنْتَظِرُ أَنْ يَجِيشَ بَحْرُ مَحَبَّةِ شَمْسٍ، ثُمَّ فِي
 لَحْظَاتِ الشُّوقِ وَالْهَيْجَانِ وَالذَّهْوَلِ، أَنْ يَتْرَكَ دِمَشْقَ مَتَجِّهَا إِلَى قُونِيَّةَ.
 كَانَ سُلْطَانُ وَلَدٍ أَمَامَ أَتُونٍ ضِيَاءٍ حَلَّ خَلْفَ رَأْسِهِ أَلُوفُ أَنْجُمِ الْعِشْقِ وَالْعِرْفَانِ،
 أَلُوفُ الْمَجَرَّاتِ الَّتِي كَانَ كُلُّ مِنْهَا عَوَالِمَ عَظِيمَةٍ. كَانَ سُلْطَانُ وَلَدٍ وَاقِفًا أَمَامَ الشَّمْسِ.

وَيَزُوي الأَفلاكِي أنْ مَوْلانا أَرْسَلَ أَرْبَعَ غَزَلِيَّاتٍ إِلَى حَضْرَةِ شَمْسٍ؛ إِذِ
الْغَزَلِيَّاتُ الثَّلَاثُ الأُخْرَى هِيَ:

الغَزَلِيَّةُ الثَّانِيَّةُ

أَيُّهَا النُّورُ فِي الْفُؤَادِ، تَعَالَ	غَايَةَ الْوَجْدِ وَالْمُرَادِ، تَعَالَ
أَنْتَ تَنْذِرِي، حَيَاتُنَا بِيَدِكَ	لَا تُضَيِّقِي عَلَيَّ الْعِبَادِ، تَعَالَ
يَا سُلَيْمَانُ، دَارْ هَذَا هَدَايَكَ	فَتَفْضُلُ بِالْإِفْتِقَادِ، تَعَالَ
أَيُّهَا الْمَعشُوقُ، أَيُّهَا الْمَعشُوقُ	حُلْ عَنِ الصَّدِّ وَالْعِنَادِ، تَعَالَ
أَيُّهَا السَّابِقُ، السَّيِّدِي سَبَقَتْ	مِنْكَ مَضْدُوقَةُ الْوِدَادِ، تَعَالَ
فَمِنْ الْهَجْرِ ضَجَّتِ الْأَرْوَاحُ	أَنْجِزِ الْعَوْدَ، يَا مَعَادُ، تَعَالَ
اسْتُرِ الْعَيْنُ، وَابْذُلِ الْمَعْرُوفَ	هَكَذَا عَادَةُ الْجَوَادِ، تَعَالَ
وَمَا اللَّسَانُ الْفَارِسِيُّ، تَعَالَ، تَعَالَ	فَإِنَّمَا جِئْتُ، وَإِنَّمَا أَنْصِفُ، تَعَالَ
فَإِذَا جِئْتَ، فَمَا أَجْمَلَ الْفَتْحِ وَالْمِرَادِ	وَإِذَا لَمْ تَأْتِ، فَمَا أَعْجَبَ الْكَسَادِ، تَعَالَ
يَا نَضْرَ الْعَرَبِ، يَا قُبَاذَ الْعَجَمِ	أَنْتَ سُرُورُ قَلْبِي، فِي الْخَاطِرِ، تَعَالَ
يَا مَنْ بَاطِنِي يَقُولُ لَكَ: تَعَالَ	وَيَا مَنْ مِنْ وَجُودِكَ جَاءَ الْوُجُودُ، تَعَالَ
طَفُتُ فِيكَ الْبِلَادَ يَا قَمَرًا	بِئْسَ مُحِيطًا وَبِالْبِلَادِ، تَعَالَ
أَنْتَ كَالشَّمْسِ إِذْ دَنَتْ وَنَأَتْ	يَا قَرِيبًا، عَلَى الْبِعَادِ، تَعَالَ ^(١)

^١ - ديوان شمس تبريز، الغزلية ١٣٦٥. وهذه الغزلية جاءت بالعربية في الأصل، إلا قليلاً منها [المترجم].

الغزليّة الثالثة

يا ظريفَ العالمِ، سَلامٌ عَلَيْكَ
 إنَّ دائِي وصِحتِي بِـيَدَيْكَ
 وإذا لم أَصِلْ إِلَيْكَ بِـيَدَيَّ
 فَأَتِمَّا الرُّوحَ والفُؤَادَ لَدَيْكَ
 وإذا كانَ الخِطَابُ لَا يَصِلُ مِن دُونِ كَلَامِ
 فلماذا أَضَبَحْتَ الدُّنْيَا مملوءةً بِلَيْيِكَ؟
 السَّخْسُ يَقُولُ لَكَ: بَدِّلْنِي
 والسَّعْدُ يَقُولُ لَكَ: يَا سَعْدِيكَ
 أَتِي إِلَيْكَ، وَعِنْدَكَ أَيْضًا أَصْرُخُ:
 آه، الْمُسْتَعَاثُ مِنْكَ وَإِلَيْكَ
 مَا دَوَاءُ أَلَمِي؟ - قُلْ
 «قُبْلَةَ لَوْرُزْقَتُ مِنْ شَفَتَيْكَ»
 يَا شَمْسَ الدِّينِ، هَنِيئًا لَكَ السُّرُورُ بِالْحَبِيبِ
 فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ ظَهَرَ فِي عَيْنَيْكَ^(١)

الغزلية الرابعة

أَعْلَى اللَّهِ حَيَاةَ الصَّذْرِ
 كَانَ اللَّهُ حَامِيًا لَهُ وَكَالْتَا
 كُلُّ نَسِيئَةٍ هِيَ سُرُورٌ لِأَهْلِ الْإِقْبَالِ
 فَجَبَّاهُ اللَّهُ النَّقْدَ فِي الْوَقْتِ وَالْحَالِ
 وَمَجْلِسُهُ الْحَارُّ الْمَمْلُوءُ بِالْحَلَاوَةِ
 جَعَلَهُ اللَّهُ خُلُوعًا مِنَ النَّدِيمِ الْبَارِدِ
 الْأَزْوَاحُ الْمَبْسُوطَةُ الْأَجْنَحَةُ فِي الْغَيْبِ
 جَعَلَهَا اللَّهُ مُقَيَّدَةً بَيْنَ يَدَيْهِ كَرُشُومِ السَّجَادِ
 عَلَى يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ الْإِقْبَالُ
 جَعَلَهُ اللَّهُ فِي الْجَنُوبِ وَفِي الشَّمَالِ
 وَالْوَلَايَتَانِ الْمَسْمَتَانِ الْجِسْمَ وَالرُّوحَ
 جَعَلَهُ اللَّهُ مَلَكًا وَوَالِيًا عَلَيْهِمَا
 إِنَّ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ إِقْبَالَ عَاجِلٍ
 جَعَلَهُ اللَّهُ بِالْأَسْمِ، وَجَعَلَ غَيْرَهُ بِالْمِثَالِ^(١)

إنَّ أشعارَ جلالِ الدينِ البَلْخِيّ التي مُزِجَتْ بالاستعاراتِ والرُّموزِ الصُّوفِيَّةِ وعناصرِ المحبَّةِ، وَوصِفَتْ تَغْيِيرَ حاله على نَحْوِ رائعِ جَدَّا، كان لها انعكاساتٌ وتأثيراتٌ، وقد حوَّلَتْ احترامَ شَمْسٍ لِحَبِيبِهِ إلى إخلاصٍ عَمِيقٍ، وَأَصْبَحَتْ دافعاً له

إلى الرجوع إلى قونية. وهذا السير، وهذه السباحة، مع أنهما يدوان متعيين، يجب أن يُعْنَى بالتأثير العظيم الذي تعهده شمس في شأن البحث الصوفي العسقي، والعشق الفعال، والبشر المحبين، وانتقال ذلك إلى جلال الدين. ولا بد من أن يذهب شمس إلى قونية لكي يقابل تلميذه ومريده الوفي، ويقضي الشطر الأخير من حياته المترع بالمخاطر في تلك الديار.

١- عِنْدَمَا صَبَّ سَاقِي «الْسُّت» جُرْعَةً

عَلَى هَذَا الْحَمَّاءِ الْمَسْنُونِ الدَّنِيءِ

٢- جَاشَ ذَلِكَ التُّرَابُ، وَجِشْنَا مِنْ ذَلِكَ الْعَلْيَانِ

فَجُرْعَةً أُخْرَى، يَا رَبِّ، فَقَدْ قَلَّ مِنَّا الْجَهْدُ

٣- وَمَهْمَا نَكُنْ عُقْلَاءَ أَوْ مَجَانِينَ

نَظْلُ شَكَارَى ذَلِكَ السَّاقِي وَتِلْكَ الْكَأْسِ

(الْمَثْنَوِي، ٣٩١/٥ - ٤٩٢/٢؛ ٢٥٨٠)

سَمَاعُ مَوْلَانَا

[٦٣] عَرَفَ مَوْلَانَا فِي قُوْنِيَّةٍ أَنَّ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ، فِي نِهَآيَةِ الْأَمْرِ، انْجَذَبَ إِلَى أَشْعَارِهِ

وَسُحِرَ بِهَا، وَأَنَّهُ تَلَقَّى رِسَالَتَهُ الْخَلَابَةَ الْمُؤَثَّرَةَ بِسَمْعِ الْقَبُولِ، فَطَارَ إِلَى مَحْبُوبِهِ رَاقِصًا.

فَانْطَلَقَ مَوْلَانَا إِلَى الْخَانِقَاهِ عَلَى الْفَوْرِ، وَتَحَلَّقَ حَوْلَهُ الْمُحِبُّونَ وَالْمَتَعَلِّقُونَ بِهِ. وَصَارَ

حُضُورُ مَوْلَانَا غَيْرَ الْمُنْتَظَرِ إِلَى الْخَانِقَاهِ بَاعِثًا لِيُرَوْزَ شَائِعَاتٍ؛ لَكِنْ هَذِهِ الشَّائِعَاتِ

وَالْأَخْبَارَ الْكَاذِبَةَ لَمْ تَدُمْ طَوِيلًا عِنْدَمَا نَهَضَ مَوْلَانَا مِنْ مَحَلِّهِ، وَصَاحَ وَخَاطَبَ

الْمَوْجُودِينَ فِي الْخَانِقَاهِ:

أَيُّهَا الْأَجِبَةُ، اْعْلَمُوا أَنَّ الرَّجُلَ الْمَكْتَنَفَ بِالْأَسْرَارِ، فِي رَعْمِكُمْ، شَمْسَ الْحَقِّ

وَنُورَ الْعَارِفِينَ الْمُطْلَقِ، أَعْنِي شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ، تِلْكَ الشَّمْسُ الَّتِي تَسْطَعُ وَسَطَ

الظَّلِّ، انْطَلَقَ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى قُوْنِيَّةٍ. وَابْتِغَاءً أَنْ تُغَطِّوا الْمَسَافَاتِ عَنْ نَظْرِي،

وَتَقْصُرُوا طَرِيقَ الْأَلَمِ وَالْغَمِّ الطَوِيلِ، لَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَعْرِفُونِي وَتَعْرِفُوا تَحْمِلِي الْهَجْرَانَ

جَيِّدًا، لَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَشْغَلُونِي بِالسَّمَاعِ...

نَهَضَ جَاهِلٌ أَوْ فُضُولِيٍّ مِنْ مَكَانِهِ، فَقَطَعَ كَلَامَ مَوْلَانَا وَقَالَ:

يَقُولُونَ إِنَّ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ مِنْذُ شَهْرِ لَبَّى دَعَاةَ الْحَقِّ، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ إِلَى خَالِقِ

العالم. أحاط بالخانقاه سُكُوتٌ مُطْبِق... صرَخَ مَوْلَانَا وَأَنشَدَ عَلَى الْقُور:

مَنْ قَالَ: إِنَّ الرُّوحَ الْمُبِيرَ لِلْعَشْقِ مَاتَ؟

أَمَاتَ جِبْرِيلُ الْأَمِينُ بِخِنْجَرٍ حَادٍ؟

ذَلِكَ الشَّخْصُ الَّذِي مَاتَ عِنَادًا، كَإِبْلِيسَ،

يَظُنُّ أَنَّ شَمْسَ تَبْرِيزَ مَاتَ^(١)

[٦٤] اِسْمَعُوا، احْبِسُوا الْأَنْفَاسَ فِي الصُّدُورِ، فِي فِضَاءٍ مَتْرَامِي الْأَطْرَافِ تَصِلُ إِلَى الْأَسْمَاعِ حَتَّى الْآنَ أَصْوَاتُ شَمْسٍ، أَدْعِيَةُ شَمْسٍ تُسْمَعُ حَتَّى الْآنَ فِي هَذَا الْخَانِقَاهِ كَأَنْغَامِ الْجَنَّةِ، وَيَجِبُ أَنْ تُسْمَعَ هَذِهِ الْأَنْغَامُ بِأُذُنِ الرُّوحِ، لَا بِأُذُنِ الْحِسِّ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ كَلَامَ شَمْسٍ كَلَامُ أَوْلِيَاءَ، وَإِنَّ أُذُنَ الْحِسِّ تَلَوْتُ بِسَمَاعِ التُّرَاهَاتِ وَالتَّوَاهِ، وَلَيْسَ لَهَا مُجَانَسَةٌ وَمُشَابَهَةٌ وَقُرْبٌ مِنْ كَلَامِ الْكُبَرَاءِ. أَنَا أَسْمَعُ جَيِّدًا وَبِمَمَامٍ وَجُودِي تِلْكَ الْأَصْوَاتِ؛ وَكُلُّ مَنْ كَانَ عَاشِقًا مِثْلِي سَتَكُونُ الدُّنْيَا عِنْدَهُ مَحَلًّا لِتَجَلِّي وَجْهِ شَمْسٍ وَصَوْتِهِ، سَيَرَى شَمْسًا عَنْ قُرْبٍ (عَدَدٌ مِنَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ لَمْ يَصْدَقُوا أَخَذُوا يَتَسَمُّونَ وَيَتَهَامِسُونَ بِالسَّخَرِيَّةِ، وَيَقُولُونَ كَلَامًا مَزْعُجًا). وَاصِلَ مَوْلَانَا الْقَوْلُ:

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ، اعْلَمُوا أَنَّهُ حَتَّى حَيَاةَ الْكَائِنَاتِ لَيْسَ لَهَا مَفْهُومٌ عِنْدِي مِنْ دُونِ وَجُودِ شَمْسٍ. وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا يَنْشُدُ مَلَاذًا وَمَلْجَأًا، وَأَنَا أَيْضًا كَالطِّفْلِ الْمَطْبُوعِ أُنْشُدُ شَمْسًا وَأَبْحَثُ عَنْهُ، فَمَنْ قَالَ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ الْخَالِدَ مَاتَ؟ مَنْ ذَا الَّذِي أَعْطَى لِنَفْسِهِ الْجِرَاءَةَ عَلَى أَنْ يَقُولَ: إِنَّ مُرَادِي أَسْلَمَ الرُّوحَ إِلَى خَالِقِ الْأَرْوَاحِ؟

مَنْ قَالَ: «إِنَّ ذَلِكَ الْحَيَّ الْخَالِدَ مَاتَ؟»

مَنْ قَالَ: «إِنَّ شَمْسَ الْأَمَلِ أَفَلَتْ؟»

ذَلِكَ هُوَ عَدُوٌّ لِلشَّمْسِ صَعِدَ عَلَى السَّطْحِ

وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: «مَاتَتِ الشَّمْسُ»^(١)

شَخْصٌ آخَرُ مِنْ مُحِبِّي مَوْلَانَا نَهَضَ مِنْ مَكَانِهِ وَقَالَ:

يَا مَوْلَانَا، إِنَّ ابْنِي جَاءَ الْبَارِحَةَ مِنْ دِمَشْقَ، وَكَانَ قَدْ رَأَى شَمْسًا فِي سُوقِ بَائِعِي
الْحَلْوَى فِي دِمَشْقَ... بَلْ لَقَدْ تَحَدَّثَ مَعَهُ. كَانَ شَمْسٌ يَقِظًا وَنَشِيطًا. قَالَ ابْنِي
لِشَمْسٍ: إِنَّ مَوْلَانَا لَمْ يَعُدْ يُطِيقُ الصَّبْرَ عَلَى فِرَاقِكُمْ. كَانَ شَمْسٌ عَلَى عِلْمِ
بُعَافَاتِكُمْ، مِنْ طَرِيقِ إِشْرَاقِ الْبَاطِنِ، أَوْ مِنْ طَرِيقِ آخَرَ غَيْرِ ذَلِكَ، لَسْتُ أَدْرِي؛
وَلِهَذَا السَّبَبِ لَدَيْهِ شَوْقٌ شَدِيدٌ جَدًّا إِلَى لِقَائِكُمْ.

فَقَالَ مَوْلَانَا بِانْشِرَاحٍ صَدْرٍ: فِي هَذَا الْيَوْمِ، ابْعَثْ وَلَدَكَ إِلَيَّ لِكَيْ أُعْطِيَهُ عِمَامَتِي
وَلِبَاسِي تَعْبِيرًا مِنِّي عَنِ الْابْتِهَاجِ بِهَذَا الْخَبَرِ السَّارِّ^(٢).

١- ديوان شمس تبريز، الرباعية ٥٣٣.

٢- أنشد مَوْلَانَا فِي فِرَاقِ شَمْسٍ:

أَنَا صَاحِبٌ لَهُ، لَكِنَّكَ أَنْتَ تَعْرِفُ أَخْبَارَهُ
وَاقْطَعِ مِثْقِي مَنَزَلِي فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ وَانْظُرْ إِلَى سُوقِ شَمْسِ التِّينِ
مِنْ أَلْفَاظِ شَمْسِ التِّينِ، الشَّبِيهِةِ بِالزُّجْجِي، الْمُحْمَلَةِ بِالسُّكَّرِ
إِلَّا مِنْ نُورِ خَدِّ شَمْسِ التِّينِ وَإِشْرَاقِهِ
فَأَسْكُرُ وَأَقُولُ: «إِنِّي تَحَارَرْتُ مِنْ شَمْسِ التِّينِ»
فَلَعَلَّ ذَلِكَ يَكُونُ مِنْ حِظِّ شَمْسِ التِّينِ الصَّاحِي وَإِقْبَالِهِ
فَشَمْسُ التِّينِ مُطْلَعٌ عَلَى نَوْجِ الْأَسْرَارِ، وَلِذَلِكَ هُوَ يَقِظٌ
فَشَمْسُ التِّينِ هُوَ نَفْسُهُ مَانِعٌ لِأَوْصَافِهِ الْبَدِيعَةِ =

أَلَا يَا فَسِيمَ السَّحَرِ، ائْتِنِي بِأَخْبَارِ شَمْسِ التِّينِ
تَحَارَرِ الْأَجْسَامِ وَالْأَرْوَاحِ، وَاطْلُوعِ حِجَابِ الْعِشْقِ أَيْضًا
تَزْدَانُ حَلْمَةً أَذِنَ ضَمِيرِي بِقَلْبَانَدٍ مِنْ دُرٍّ
أَتَيْهَا الْقَلْبُ، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ يَوْجَدُ وَاجِدٌ مِثْلُكَ يَتَنَافَسُ الْآثَانِيَّةِ
إِنَّ لَيْلَكَ الْمُظْلِمَ، أَتَيْهَا الْقَلْبُ، لَا يَرَى التَّهَارُ أَبَدًا
عَجَبًا، أَجْعَلْ ذَلِكَ يَوْمَ أَنْ أُمِيسَكَ بِحِمَامٍ وَصَالِهِ؟
فَلِإِنْ حَظِّي نَائِمٌ نَوْمًا لَا صَبْحَ لَهُ مِنْهُ
لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ قَبْلَ هَذَا مِثْلُهُ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ بَعْدَ هَذَا،
وَقَدْ أَغْلَقْتُ هُوَ بَابَ الْإِمْكَانِ، لِكَيْ لَا يَخْرُجَ مِنْهُ شَخْصٌ مِثْلُهُ

فِي نَظَرَاتِ مَوْلَانَا الْمَضْطَّرِبَةِ كَانَتْ جَاذِبِيَّةَ الْمَحَبَّةِ الصِّمِيمَةِ تَمُوجُ بِلُطْفٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ النِّظَرَاتُ الْمَشْتَاقَةُ الْمَصْحُوبَةُ بِالْإِبْتِسَامَةِ تُؤْذِنُ بِأَنَّهُ سَيُشَاهِدُ سَرِيعًا مَفَاتِنَ الْعَالَمِ، أَيَّ شَمْسًا. وَمِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، جَلَسَ مَوْلَانَا لِلسَّمَاعِ وَالرَّقْصِ، وَاسْتَعَاَصَ عَنْ لِبَاسِ الْفُقَهَاءِ بِلِبَاسِ الْعَارِفِينَ، وَأَمَرَ بِأَنْ يُصْنَعَ لِلرَّبَابِ سِتُّ مَنَازِلَ، مَعَ أَنَّهُ مِنْذُ عَهْدٍ بَعِيدٍ كَانَ لِلرَّبَابِ، هَذِهِ الْآلَةُ الْمَوْسِيقِيَّةُ الْمُخْرِقَةُ، أَرْبَعُ مَنَازِلَ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْشَأَ السَّمَاعَ، وَمِنْ الشَّوْقِ انشَغَلَ بِالتَّوَجُّدِ وَالسَّمَاعِ وَالرَّقْصِ.

كَانَ مَوْلَانَا يَتَنَظَّرُ بِاشْتِيَاقٍ لِقَاءَ شَمْسٍ، وَكُلُّ مَا كَانَ يُقَالُ، غَيْرَ حَدِيثِ الْعِشْقِ، لَمْ يَكُنْ يَسْمَعُهُ، لَمْ يَكُنْ يُضْغِي إِلَى كَلَامٍ وَحَدِيثٍ غَيْرِ حِكَايَةِ ذَلِكَ الْكَتَرِ.

كَانَتْ الْأَنْغَامُ الَّتِي تَصْدُرُ فِي الْخَانِقَاهُ، فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْحَبِيبِ. وَكَانَ قَبْلَ بَزُوغِ الْفَجْرِ يَأْتِي مِنَ الْخَانِقَاهُ إِلَى الْبَيْتِ، فَيَسْتَرِيحُ سَاعَةً، ثُمَّ يَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْخَانِقَاهُ؛ وَكَانَ يَوْصِي أَصْحَابَهُ بِأَنْ يُشِيدُوا وَيَغْنُوا وَيَرْقُصُوا؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْفَنَاءَ وَالْمَوْتَ فِي عَتَبَةِ الْخَانِقَاهُ، فَلَا بُدَّ مِنْ اغْتِنَامِ اللَّحْظَاتِ:

غَيْرِ النَّعْمَةِ، وَاعْرِزْ لِحُنَّا جَدِيدًا

فَقَدْ وَصَلَ مِنَ الْفَلَكَ صَوْتُ جَدِيدٍ^(١)

فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ سَأَلَ أَحَدُ الْمُرِيدِينَ مَوْلَانَا فِي الْخَانِقَاهُ: مَا الظَّرْفُ وَاللُّطْفُ الْكَامِنَانِ فِي نِعْمَةِ الرَّبَابِ، اللَّذَانِ يَعِجِزُ بَعْضُهُمَا، وَمِنْهُمْ أَنَا، عَنْ إِدْرَاكِهِمَا؟ فَأَجَابَ مَوْلَانَا:

وقد صار شمسُ الذين حاكمًا كَلِيَّةً لَذَلِكَ التَّهَرُّ

= وَهَذَا تَهَرُّ رُوحَانِي، تَسْتَعِدُّ الْأَرْوَاحُ مِنْهُ الرُّوحَ

(ديوان شمس قنبريز، الغزلية ١٨٦١)

١- ديوان شمس قنبريز، الغزلية ٢٢٦٣.

«أَمَّا أَنَا فَيَسْمَعُ نَعَمَاتِ الرَّبَابِ أَسْمَعُ صَوْتَ بَابِ الْجَنَّةِ»^(١).

فِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ، كَانَ سَيِّدُ شَرَفِ الدِّينِ، وَهُوَ مِنْ أَتَقِيَاءِ قُوْنِيَّةٍ، حَاضِرًا، فَقَالَ

لَمَوْلَانَا:

[٦٦] نَحْنُ أَيْضًا نَسْمَعُ صَوْتَ الرَّبَابِ، فَلَمَّاذَا لَا نَتَأَثَّرُ كَالْتَأَثِّرِ الَّذِي تَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ،

وَلَا يَتَبَأُّ الشَّوْقُ وَالتَّحَرُّقُ مِثْلَمَا يَتَبَأُّكُمْ؟ - فَقَالَ مَوْلَانَا:

«مَا نَسْمَعُهُ نَحْنُ هُوَ صَوْتُ انْفِتَاحِ بَابِ الْجَنَّةِ، وَمَا تَسْمَعُهُ أَنْتَ صَوْتُ انْغِلَاقِهِ.

«هُوَ الْغَفُورُ»، أَسْمَعُ مِنْ صَوْتِ الرَّبَابِ

صَوْتُ بَابِ الْجَنَّةِ، أَسْمَعُ مِنْ صَوْتِ الرَّبَابِ

فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ سَمَاعِي وَسَمَاعِكَ:

أَنْتَ تَسْمَعُ صَوْتَ انْغِلَاقِ الْبَابِ، وَأَنَا أَسْمَعُ صَوْتَ انْفِتَاحِهِ

مُؤَلَّفُ كِتَابِ «مَنَاقِبِ الْعَارِفِينَ»، كَتَبَ فِي شَأْنِ صِلَةِ مَوْلَانَا بِالسَّمَاعِ^(٢) وَالْمَوْسِيقَا

وَالرَّقْصِ يَقُولُ:

كَانَ مَوْلَانَا (خُداوَنْدَغَارِ مَا - بِالْفَارَسِيَّةِ) مِنْذُ ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ مَنْشَغِلًا بِتَطْبِيقِ مَنَهِجِ وَالِدِهِ،

مَوْلَانَا بِهِاءِ الدِّينِ وَلَدٌ، وَسِيرَتُهُ وَشُلُوكُهُ، لَكِنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَهُ صِلَةٌ بِالسَّمَاعِ.. وَعِنْدَمَا رَأَى

مَوْلَانَا شَمْسَ الدِّينِ بَعَيْنِ الْبَصِيرَةِ، عَشِقَهُ، وَرَأَى فِي كُلِّ مَا كَانَ يَقُولُهُ غَنِيمَةً. قَالَ لَهُ

شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ: إِنَّ السَّمَاعَ يُحْيِي فِي النَفُوسِ الرُّؤْيَى الْمَلَكُوتِيَّةَ، فَالْأَلْحَانُ الرِّبَانِيَّةُ

١ - جَاءَ فِي اللَّتْيَوَانِ الْكَبِيرِ:

أَسْمَعُ مِنْ صَوْتِ الرَّبَابِ: «هُوَ الْغَفُورُ»

٢ - لِلْسَّمَاعِ عِنْدَ بَعْضِ شَيْوْخِ السُّنَنِ وَالسُّلُوكِ، وَمِنْهُمْ الْمَوْلَوِيَّةُ وَالْقَادِرِيَّةُ، أَنْصَارُ وَمُؤَيَّدُونَ وَيَعْنِي السَّمَاعُ

مُشَارَكَةَ جَمَاعَةٍ فِي مَجَالِيسِ الْغِنَاءِ، «تَلَاوَةُ الْأَغَانِي وَالْأَنَاشِيدِ»، فِي صُورَةٍ جَمَاعِيَّةٍ. وَأَكْثَرُ الصُّوفِيَّةِ يَعْزُونَ ذَلِكَ مُبَاحًا، وَلَهُمْ فِي إِجْرَائِهِ آدَابٌ وَتَرْتِيبَاتٌ خَاصَّةٌ. وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنَ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ تَعْتَرِضُ عَلَى السَّمَاعِ [الْأَصْلَ].

عندمَا تَصِلُ إِلَى الْأُذُنِ مَصْحُوبَةً بِأَنْعَامِ النَّايِ وَالرَّبَابِ تَكُونُ مِثْلَ شُعْلَةٍ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ،
لِلنَّارِ الْقُلُوبِ. وَكَانَ شَمْسٌ قَدْ أَمَرَ مَوْلَانَا بِأَنْ يَشْغَلَ نَفْسَهُ، فِي غِيَابِهِ، بِالتَّفَرُّجِ فِي
الْبَسَاتِينِ، وَأَدَاءِ السَّمَاعِ، وَالذُّعَاءِ وَالْإِنْشَادِ.. أَوْصَى شَمْسٌ جَلَالَ الدِّينِ فِي الْخُلُوةِ
مَرَاتٍ كَثِيرَةً: «ادْخُلْ فِي السَّمَاعِ؛ فَإِنَّ الَّذِي تَنْشُدُهُ سَيَزِدُّكَ فِي السَّمَاعِ».

وَبِنَاءٍ عَلَى إِشَارَةٍ وَتَوْصِيَةٍ مِنْ شَمْسٍ، دَخَلَ مَوْلَانَا فِي النَّهَايَةِ فِي السَّمَاعِ، وَمَا كَانَ
لَا زِمًا عَلَى نَحْوٍ وَاضِحٍ مِنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ رَأَى عِيَانًا. وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ دُمُوعُ مَوْلَانَا
الْمُخْرِقَةُ تَنْهَلُ عَلَى أَوْتَارِ رَبَابٍ أَحَدِ الْفَنَّانِينَ الْعَازِفِينَ. وَكَانَ النَّاسُ يَعُدُّونَ هَذِهِ
الْقَطَرَاتِ دُمُوعَ وَجْدٍ وَشَوْقٍ وَوِصَالٍ، وَكَانَ يُقَالُ إِنَّ مُضْدَرَ هَذِهِ الدَّمُوعِ وَيَنْبُوعَهَا هُوَ
انْجِدَابُ مَوْلَانَا، وَسُتُورُ عَيْنِهِ سَرِيعًا يَلْقَاءُ مَعْشُوقَهُ الْجَاذِبَ لِلْقَلْبِ، الْمُؤَثِّرِ.

كَانَ أَهْلُ قُوْنِيَّةٍ يَسْمَعُونَ بِأَخْبَارِ تَحَرُّقِ مَوْلَانَا الْبَالِغِ، وَالْغَيْرِ الْمَشْبُوقِ، فِي الْخَانِقَاهِ،
وَصِيَاغِهِ الْبَاعِثِ لِطُوفَانٍ حَيْرَتِهِ وَاضْطِرَابِهِ. وَكَانَ الْمُقَرَّبُونَ مِنْهُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مِثْلَمَا أَنَّ
قَصْفَ الرَّعْدِ مُؤَثِّرٌ إِلَى [٦٧] نُزُولِ الْمَطَرِ، تَكُونُ صَيِّحَاتُ مَوْلَانَا وَصَرَخَاتُهُ مَبْشُرَةً
بِقُرْبِ زَمَانِ الْوَصْلِ. قَالَ مَوْلَانَا:

هَذِهِ الْأَنَاءُ الَّتِي تَتَّبِعُ مِنَ النَّايِ وَالرَّبَابِ تُصَفِّي رُوحِي فِي أَتُونِ الْفِرَاقِ الْحَارِقِ وَالْمَذِيبِ،
وَتُبَشِّرُنِي بِأَنْ ضَالَّتَنِي فِي الْعِزْفَانِ وَمَحْبُوبِي الرُّوحَانِي، أَسْتَادَ الْعِزْفَانِ غَيْرِ الْمَنَازِعِ، سَيَصِلُ
سَرِيعًا وَيُضِيءُ عَيْنِي الْغَارِقَتَيْنِ فِي الدَّمُوعِ، اللَّتَيْنِ أَشْبَهْتَا عَيْنِي مَاءٍ مِنْهُمِرٍ.

وَفِي دِمَشْقَ، دَخَلَ سُلْطَانُ وَلَدٍ، وَكُلُّ أَضْحَايِهِ، فِي طَاعَةِ شَمْسٍ تَبْرِيزَ وَمَحَبَّتِهِ.
وَالْفَضَّةُ وَالذَّهَبُ اللَّذَانِ أُخْضِرَا تُرْكَ قِسْمٍ مِنْهُمَا عِنْدَ شَمْسٍ. وَقَدْ صَحِكَ شَمْسٌ عِنْدَ
مُشَاهَدَةِ أَكْيَاسِ الذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ، وَقَالَ:

لماذا يَخْدَعُنَا بِالْفَضَّةِ وَالذَّهَبِ؟ . إِنَّ طَلَبَ مَوْلَانَا كِفَايَةً لَنَا، وَكَيْفَ يُمْكِنُ إِغْفَالُ كَلَامِهِ وَإِشارته؟ إِنَّ قَوْلَا وَاحِدًا لَمَوْلَانَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسَاوِيَهُ عِنْدَنَا أَلْفُ دِينَارٍ. البابُ الَّذِي سُدَّ فِي وَجْهِهِ فُتِحَ بِإِرشاده؛ وَاللهِ، إِنِّي مُقَصِّرٌ فِي تَعْرِفِ مَوْلَانَا؛ وَالآنَ وَأَنَا هُنَا أَعْلَمُ أَيَّ جَوْهَرٍ قِيمٌ كَانَ مَوْلَانَا. إِنَّ عَظْمَةَ الْجَبَلِ يُمْكِنُ تَعْرِفُهَا مِنْ بُعْدٍ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلٍ؛ وَلَا بَدَّ مِنْ تَعْرِفِ مَوْلَانَا عَلَى نَحْوِ أَفْضَلٍ. إِنَّ وراءَ كَلَامِهِ أَشْيَاءَ، وَيَجِبُ طَلَبُ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ مِنْهُ.

وَقَدْ رَسَمَ شَمْسٌ بِكَلَامِهِ الْمَشْهُوقِ صُورَةً جَدِيدَةً لَمَوْلَانَا أَمَامَ ابْنِهِ؛ وَذَلِكَ ابْتِغَاءً أَنْ يَعْلَمَ أَحِبَّاءُوهَ أَنَّ شَمْسًا أَيْضًا عَاشِقٌ لَمَوْلَانَا، وَأَنَّهُ مُضْطَرٌّ إِلَى أَنْ يَسْبَحَ فِي بَحْرِ عِشْقِ مَوْلَانَا. هَذَا، مَعَ أَنَّ جَلَالَ الدِّينِ كَانَ يَسْمِي مَوْلَانَا شَمْسًا: «سُلْطَانُ الْمَعْشُوقِينَ».

يَنْهَمِكُ شَمْسٌ فِي الْحَدِيثِ عَنِ اللَّحْظَاتِ الْعَابِرَةِ الثَّابِتَةِ الَّتِي أَمْضَاهَا مَعَ مَوْلَانَا. يَتَحَدَّثُ عَنْ إِبدَاعِيَّتِهِ، فَيَعُدُّ شَمْسٌ مَوْلَانَا نَجْمَ أَمَلِهِ، وَيَقُولُ إِنَّهُ كَثِيرًا مَا كَانَ لِي فِي ظَلَامٍ دِمَشَقٍ وَصَمْتِهَا مَعَ مَوْلَانَا مُنَاجِيَاتٍ وَأَسْرَارًا، فَمَاذَا يَرِيدُ مِنِّي، وَقَدْ كُنْتُ دَائِمًا عِنْدَهُ، أَتَحَدَّثُ مَعَهُ، وَأَعْلَمُ أَنَّ مَوْلَانَا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ مَنْشَغِلٌ فِي الْخَانِقَاهُ بِالسَّمَاعِ وَالرَّقْصِ.

قُلْتُ لَهُ إِنَّ السَّمَاعَ ^(١) فَرِيضَةُ أَهْلِ الْحَالِ. السَّمَاعُ رَاحَةُ لِأَرْوَاحِ الْأَحْيَاءِ، [٦٨]

١- السَّمَاعُ رَاحَةُ لِأَرْوَاحِ الْأَحْيَاءِ
وَإِنَّمَا يَنْشُدُ أَنْ يَضْحَوْ

فَاجْعَلِ السَّمَاعَ حَيْثُ يَكُونُ هُنَاكَ عُرْسُ
الْإِنْسَانِ الَّذِي لَمْ يَرَ جَوْهَرَهُ
لِمَاذَا يَحْتَاجُ هَذَا الْإِنْسَانُ إِلَى السَّمَاعِ وَالذَّفِّ؟
عِنْدَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ تَتَجَهَّ وَجُوهُهُمْ نَحْوَ الْقِبْلَةِ
خَاصَّةً حَلَقَةً رِجَالٍ مُسْتَفْرَقِينَ فِي السَّمَاعِ
فَإِنْ أُرِدَتْ مَنْجَمُ السُّكْرِ فَهُوَ الْمَكَانُ نَفْسُهُ

إِذْ يَعْلَمُ الْإِنْسَانُ أَنَّ لَدَيْهِ رُوحًا لِرُوحِهِ
ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الَّذِي هُوَ نَائِمٌ وَسَطُ الْبُسْتَانِ
وَلَا تَجْعَلُهُ فِي الْمَأْتَمِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مَكَانُ التَّأَوُّهِ وَالْأُنَيْنِ
الْإِنْسَانُ الَّذِي يَكُونُ الْقَمَرُ خَافِيًا عَلَى عَيْنِيهِ،
السَّمَاعُ يَكُونُ مِنْ أَجْلِ وَصْلِي الْأُجْبَةِ
يَكُونُ السَّمَاعُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي تِلْكَ الدُّنْيَا
يَطُوفُونَ وَالْكَعْبَةُ فِي وَسْطِهِمْ
وَإِنْ شِئْتَ إِضْبَعْ سُكْرًا فَهُوَ بِالْمَجَانِ
(دِيوان شَمْسِ تَبْرِيز، الْغَزَلِيَّةُ ٣٣٩)

السَّمَاعُ لَزِمَ لِأَصْحَابِ الْقُلُوبِ وَأَهْلِ الصَّفَاءِ. السَّمَاوَاتُ السَّيْعُ وَالْأَرْضُ وَالْخَلْقُ
جَمِيعًا يَبْدُونَ بِالرَّقْصِ عِنْدَمَا يَبْدَأُ الْعَارِفُ بِالْوَجْدِ وَالرَّقْصُ. وَرَقْصُ رِجَالِ اللَّهِ
لَطِيفٌ وَخَفِيفٌ وَنَاعِمٌ، كَأَنَّهُ الْوَرَقُ يَنْسَابُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ. فِي الْبَاطِنِ كَالْجِبَالِ، وَفِي
الظَّاهِرِ كَالْقَشِّ.

تَقُولُونَ إِنَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَعُودَ إِلَى قُوْنِيَّةٍ، أَنَا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ فِي قُوْنِيَّةٍ، أَنَا وَجَلَالُ الدِّينِ
نَتَحَادَثُ فِي شَأْنِ أَسْرَارِنَا، أَحَدُنَا إِلَى جَانِبِ الْآخَرِ. عَلَيَّ أَنْ أُمْسِكَ بِيَدِ مَوْلَانَا وَأَخْذَهُ
مَعِيَ إِلَى خُرَاسَانَ الْكُبْرَى؛ ذَلِكَ لِأَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ قُوْنِيَّةٍ لَا يَدْرِكُونَ مَعْنَى كَلَامِي، وَلَوْ
أَذْنَوَالِي بِأَنْ أُخْرِجَ وَجُودِي الْجِسْمَانِي مِنْ هُنَا لَكُنْتُ شَاكِرًا^(١).

أَلْقَى شَمْسٌ نِصْفَ نَظْرَةٍ عَلَى وَجْهِ سُلْطَانٍ وَلَدٍ، وَقَالَ: لَا أَذْرِي لِمَاذَا رُوحِي
مُضْطَرَبٌ، وَقَلْبِي غَيْرُ مُطْمَئِنٍّ، مِنْذُ اللَّحْظَةِ الَّتِي نَوَيْتُ فِيهَا السَّفَرَ. غَمٌّ مُوجِعٌ يَأْكُلُ
دَاخِلِي، لَا أَعْلَمُ مَاذَا يَرِيدُ مِنِّي مَوْلَانَا؟ - لِمَاذَا يَدْعُونِي إِلَى مَكَانٍ يَرِيدُ فِيهِ الْمَتَعَصِبُونَ
وَعُمِيَانُ الْقَلْبِ الْحَسَادُ أَنْ يَسْفِكُوا دَمِي؟

أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَى حَيْثُ أَقْتُلُ، مَعَ أَنَّ أَسَاسَ الْعِرْفَانِ الْعِشْقِي هُوَ الْإِيثَارُ
وَالْإِحْلَاصُ وَالْفَنَاءُ وَالشَّهَادَةُ. إِنَّ لِقَاءَ مَوْلَانَا، الْعَارِفِ الرَّاهِدِ، جَاذِبٌ لِلرُّوحِ
نَحْوُ أَتُونِ الْعِشْقِ وَالصَّفَاءِ.

١ - نَظَّمَ مَوْلَانَا فِكْرَ شَمْسٍ فِي الدِّيَوَانِ الْكَبِيرِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ:

الصِّيَاغُ فِي الصِّيَاغِ هُوَ دِينِي	وَالْفَنَاءُ فِي الْوُجُودِ هُوَ عَقِيدَتِي
وَمَادُمْتُ أَنْقَلَ الْحُظَا فِي دِيَارِ الْحَبِيبِ	فَإِنَّ جَوَادَ الْمَلِكِ الْأَخْضَرَ الْقَائِمِ فِي سَرَجِي
وَعِنْدَمَا أَقْطَعُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ عَالِمٍ	أَنْظُرُ فَإِذَا هِيَ خُطَوَاتِي الْأُولَى
فَلِمَاذَا أَطُوفُ حَوْلَ الْعَالَمِ عِنْدَمَا يَكُونُ الْحَبِيبُ	فِي صَمِيمِ صَمِيمِ رُوحِي الْخَلُوفِ؟
إِنَّ شَمْسَ تَبْرِيزٍ، الَّذِي هُوَ فَخْرُ الْأَوْلِيَاءِ،	سَيُنْ أَسْنَانَهُ «سُورَةُ يَس» عِنْدِي
	(دِيَوَانُ شَمْسِ تَبْرِيزٍ، الْغَزَلِيَّةُ ١٣٠)

إِنِّي لَخَائِرٌ مِنْ إِعْدَائِهِ لِلْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِلِ،
فَأَنَا كَالشُّوْفَسْطَائِيَّةِ فِي خَيَالَاتِي عَنْهُ
وَقَدْ جِزْتُ فِي صُنْعِهِ الْأَسْبَابَ
وَجِزْتُ أَيْضًا مِنْ خَزَنَةِ الْأَسْبَابِ
(المثنوي، ١/٥٥٢ - ٩)

فِي مَدْرَسَةِ شَمْسِ الْفِكْرِ

[٦٩] أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ أَمْتَلِكَ الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ أَخْتَرَنَ عُصَاةَ رُسَالَةِ رُوحِي فِي كَلِمَاتٍ
مَحْدُودَةٍ، وَأَوْصِلَهَا إِلَى أَسْمَاعِ الْمَشْتَاقِينَ. وَوَأَسْفَاهُ، أَتَهْمَنِي الْحُسَادَ وَالْمُرَاوُونَ فِي
بَلَاطِ قُوْنِيَّةٍ قَاتِلِينَ: إِنَّ شَمْسًا سَمَّمَ أَرْوَاحَ شَبَابِ مَدِينَتِهِمْ وَأَجْسَادَهُمْ، وَأَفْقَدَهُم الثَّقَّةَ
بِعَقَائِدِهِمْ. وَفِي سَيْرِي وَسِيَاحَاتِي الطَّوِيلَةِ لَقِيتُ شَيْوَحًا وَعَارِفِينَ كِبَارًا، لَكِنَّهُ لَيْسَ لِأَيٍّ
مِنْهُمْ خَاصِّيَّاتُ جَلَالِ الدِّينِ؛ وَبِمَا لَدَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ عِلْمِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ أَضْرَمَ نَارًا خَالِدَةً فِي
قَلْبِي. لَكِنِّي مِنْذُ الْيَوْمِ الَّذِي ذَهَبْتُ فِيهِ إِلَى قُوْنِيَّةٍ وَاجْهَتَنِي التُّهْمُ وَالْبَلِيَّاتُ. وَالْآنَ أَيْضًا
أُحِسُّ بِأَنَّهُ فِي سَمَاءِ قَلْبِي سُحُبٌ سَوْدٌ وَطُوفَانٌ وَخَشْيٌ، وَأَنْظَرُ بِحَسْرَةٍ إِلَى مُسْتَقْبَلِي. وَفِي
هَذِهِ الْأَثْنَاءِ قَطَعَ أَحَدُ مُرَافِقِي سُلْطَانٍ وَلَدَ كَلَامِ شَمْسٍ تَبْرِيزَ وَقَالَ:

- مَوْلَايَ، مَا قُلْتَ إِنَّكَ أَخْفَيْتَهُ فِي قَلْبِكَ بِجَعْلُنِي أَتَصَوِّرُ أَنَّ لَدَيْكَ خَوْفًا مِنَ الْقَتْلِ؟ أَمِنْ
الصَّوَابِ أَنْ يَرْضَى عَارِفٌ مِثْلَكَ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَبْقَى عِدَّةَ أَيَّامٍ فِي دَارِ الْخَرَابِ هَذِهِ، بِأَنْ
يَظَلَّ جَلَالُ الدِّينِ الْبَلْخِي فِي مُصِيبَةِ الْفِرَاقِ مَتَأَثِّرًا مَشْتَتَ الذَّهْنِ بَاكِيًا؟

غَيَّرَتْ هَذِهِ الْعِبَارَاتُ الصَّادِقَةُ شَمْسًا، وَحَدَّثَتْ ضِجَّةً، فَأَرَادَ سُلْطَانٌ وَلَدَ أَنْ يَتَكَلَّمَ
وَيَقْلَلُ مِنْ ثَوْرَةِ شَمْسٍ، لَكِنْ كَانَ كَأَنَّهُ يَرَى فِي وَجْهِ شَمْسٍ صُورَةَ مَوْلَانَا، وَفِي جَسَدِهِ
أَيْضًا [٧٠] مِثْلَ ذَلِكَ. كَانَ عَمَلُ مَوْلَانَا أَنْ يَرْسُمَ مَثَابِ الصُّوَرِ، وَيُنْحِتَ مَثَابِ التَّمَاثِيلِ،
ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَمْحُو الصُّوَرَ وَيَكْسِرُ التَّمَاثِيلَ.

شَقَّتْ سَبَابَهُ يَدِ شَمْسِ الْيُمْنَى الْفَضَاءَ، وَاسْتَقَرَّتْ فَوْقَ قَلْبِهِ.. وَكَانَتْ هَذِهِ إِشَارَةً مِنْهُ إِلَى أَنَّهُ يَوْجَدُ فِي صَدْرِي، فِي فَضَاءِ قَلْبِي، فَرَاغٌ مَلَأْتُهُ وَمَحْبُوبٌ لِصَفَاءِ عِشْقِ مَوْلَانَا.. وَمِنْ أَجْلِ بَيَانِ الْمَطْلَبِ تَحَدَّثَ شَمْسٌ فَقَالَ:

«كُلُّ مَنْ أَحْبَبَهُ أَقْدَمَ لَهُ الْجَفَاءَ، فَإِنْ قَبِلَ ذَلِكَ كُنْتُ لَهُ. نَعَمْ، أَيُّهَا الْأَحِبُّ، إِنَّ لِي قَاعِدَةً هِيَ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَحْبَبَهُ اسْتَعْمِلَ مَعَهُ الْقَهْرَ مِنْذُ الْبِدَايَةِ، وَهَكَذَا كَلَّمَا أَحْبَبْتُ إِنْسَانًا جَفَوْتُهُ.

اعْلَمُوا أَنِّي عَاشِقٌ مُتَّحِنٌ، وَلَا أَتَوَرَّعُ عَنِ الْعِشْقِ. رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْعَارِفِينَ، وَظَفِرْتُ بِخِدْمَتِهِمْ، وَعَرَفْتُ الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالكَاذِبِ، مِنْ نَاحِيَةِ الْقَوْلِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْحَرَكَاتِ. وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْعَارِفُ مَحْمُودًا جِدًّا وَمَخْتَارًا فَإِنَّ قَلْبِي لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَطَائِرُ الْقَلْبِ هَذَا لَا يَلْتَقِطُ كُلَّ حَبَّةٍ.

وَإِنْ نُجُومًا كَثِيرَةً كَانَتْ تَتَلَاأُ فِي سَمَاءِ حَيَاتِي، وَهِيَ جَمِيعًا إِمَّا أَفَلَتْ وَإِمَّا تَوَارَتْ وَرَاءَ سُحُبِ الْحَيَاةِ السُّودِ. أَمَّا مَوْلَانَا فَهُوَ مَهْيَطٌ وَخَبِي وَإِلَهَامِي. وَلَعَلَّ عَدَدًا قَلِيلًا مِنَ الْأَفْرَادِ، سِوَاءِ أَكَانَ ذَلِكَ فِي الزَّمَانِ الَّذِي يَمُرُّ فِي سَاحَةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ أَمْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الصَّعْبَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُودَّعَ اسْتِجَابَةً لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ، ضَحِكُوا وَبَضَحَكُونَ. دُنْيَا عَظِيمَةٌ وَمُضَيِّئَةٌ مَحْصُورَةٌ فِي دَاخِلِهِ. لَسْتُ أَدْرِي، أَيُّ يَنْبُوعٍ مَحَبَّةٍ هَذَا الرَّجُلُ الْعَظِيمُ، يَنْبُوعٌ كُلُّ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ جُرْعَةً يَرَى فِي دَاخِلِهِ شَمْسًا سَاطِعَةً مُخْرِقَةً، تَظْهَرُ فِي كَائِنُهَا الْحَقِيقَةُ الْمَطْلُوقَةُ.

أَتَحَدَّثُ عَنْ عِشْقِ مَوْلَانَا، وَقَدْ أَحَاطَ هَذَا الْعِشْقُ بِوُجُودِي كُلِّهِ، وَأَسْلَمَنِي إِلَى تَشْتِيتِ الدَّهْنِ وَالتَّخَيَّرِ.

أَيُّهَا الْعِشْقُ، زِدِ الْإِذْلَالَ لِأَتَنَسَّى فِي حَبِّهِ

لِكَيْ لَا يَشْتَاقَ إِلَيْهِ كُلُّ مَنْ يَرَانِي

إِنْ لَمْ أَكُنْ مَزِيْجًا مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْعِشْقِ فَلِمَاذَا أَكُونُ مُسْتَحَقًّا وَتَمِيْلًا مِنْ كَلَامِ مَوْلَانَا وَإِنْشَادِهِ وَأَنْعَامِهِ؟ وَلَكِنِّي أَتَلَذَّذُ أَكْثَرَ بِالْفِرَاقِ، إِذْ أُنَبِّحُ أَكْثَرَ فِي مَشَقَّاتِهِ وَأَلَامِهِ، فِي حُرْقِهِ وَأَشْوَاقِهِ، عَنْ آمَالِي وَأُمْنِيَّاتِي الْحُلُوَّةِ، وَأَغْدُو أَكْثَرَ أَمَلًا بِالْحَيَاةِ.

وحتى الآن، لم يستطع أحدٌ في البسيطة، في قونيةَ وفي دِمَشقَ وفي خُرَاسَانَ الكُبرى، أَنْ يُدْرِكَ مَبْلَغَ فَضْلِي وَعِلْمِي؛ وَلَا أَعْنِي أَنْ يَقْلَدَنِي شَخْصٌ، بَلْ [٧١] أَنْ يَسْتَمِعَ إِلَى كَلِمَاتِي السَّمَاوِيَّةِ. وَهُنَا أَحَسَّ سُلْطَانُ وَلَدِ بَأْتِهَ يَسْتَطِيعُ التَّحَدُّثَ، وَلِهَذَا السَّبَبَ أَظْهَرَ جُرْأَةً وَقَالَ:

- تَتَذَكَّرُونَ أَنَّهُ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، فِي مَدِينَةِ قُونِيَّةَ، بِالْغِ وَالْيَدِي الْمَعْظَمُ فِي مَذْحِكَمٍ مَبَالِغَةً عَظِيمَةً، وَأَظْهَرَ أَكْثَرَ مِنَ الْقَدْرِ الْمُتَعَارَفِ لِمَقَامَاتِكُمْ وَكَرَامَاتِكُمْ وَقُدْرَاتِكُمْ، حَتَّى اضْطُرَرْتُ إِلَى تَرْكِ مَجْلِسِ الْوَالِدِ، وَمِنْ غَايَةِ التَّعَجُّبِ جِئْتُ إِلَيْكُمْ، وَبَعْدَ أَنْ جَلَسْتُ إِلَى جَانِبِكُمْ سَأَلْتُمْ:

- يَا بَهَاءَ الدِّينِ [الْمُرَادُ هُنَا سُلْطَانُ وَلَدِ]، مَاذَا سَمِعْتَ حَتَّى جِئْتُ إِلَى هُنَا مُسْرِعًا كَمَنْ أَصَابَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ؟

- قُلْتُ: فِي هَذِهِ السَّاعَةِ بَيْنَ وَالْيَدِي أَوْصَافَ عَظَمَتِكُمُ الرُّوحِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، ثُمَّ شَرَحْتُهَا كَمَا سَمِعْتُهَا. فَقُلْتُمْ:

- وَاللَّهِ، إِنِّي لَسْتُ أَكْثَرَ مِنْ قَطْرَةٍ مِنْ بَحْرِ عَظَمَةِ وَالِدِكَ، لَكِنْ أَنَا فَوْقَ مَا قَالَ بِأَلْفِ مَرَّةٍ. فَتَعَجَّبْتُ مِنْ جَدِيدٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنْ حُجْرَتِكَ، وَأَسْرَعْتُ إِلَى الْوَالِدِ وَقُلْتُ: إِنَّ مَوْلَانَا شَمْسَ الدِّينِ التَّبْرِيزِيَّ ذَكَرَ فِي شَأْنِ عَظَمَتِهِ الرُّوحِيَّةِ أُمُورًا أَبْعَدَ مِنْ أَنْ أَقْدِرَ عَلَى تَصْدِيقِهَا.

وَفِي الْحَالِ الَّتِي اهْتَمَّ فِيهَا وَالْيَدِي بِكَلِمَاتِي بِاشْتِيَاقٍ قَالَ:

مدح نفسه، وأظهر عظمته، وهو فوق ما قال عن نفسه بمئة مرة.
وقبل أن يتوقف سلطانُ وَلَدٍ عن الكلام، تذكر شيئاً من أشعارِ مولانا، فاستشعر
شيئاً من القوة، وابتغاء أن يشوق شمساً التبريزي نلاً:

أَلَا يَا نَسِيمَ السَّحَرِ، ائْتِنِي بِأَخْبَارِ شَمْسِ الدِّينِ
أَنَا صَاحِبٌ لَهُ، وَلَكِنْ أَنْتَ تَعْرِفُ أَخْبَارَهُ
تَتَحَلَّى حَلَمَةً أُذُنِ ضَمِيرِي بِقَلَائِدِ مِنْ دُرٍّ
مِنْ أَلْفَاظِ شَمْسِ الدِّينِ، الشَّبِيهِةِ بِالْوَحْيِ، الْمُحْمَلَةِ بِالسُّكْرِ
وَأِنَّهُ لَا إِضْلَاحَ لِخَرَابِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا
إِلَّا بِالطُّغْفِ شَمْسِ الدِّينِ، الَّذِي لَا نِهَآيَةَ لَهُ، وَقَانُونُهُ^(١)

وبعد أن سمع شمسُ تبريزِ أشعارَ مولانا، همس: قلبي يحدثني عن مولاي.
اضطرَّ سلطانُ وَلَدٍ إلى أن يواصل الكلام، ويقول:

نُرِيدُ أَنْ نَأْخُذَ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ الَّذِي جَعَلَ مَوْلَانَا أَسِيرًا لِمِزْمَارِ الْعِشْقِ مِنْ هُنَا إِلَى
قُونِيَّة. نُرِيدُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَى وَالِدِي وَإِسْطَةَ الْفَيْضِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي اصْطَادَهُ بِفَضْلِ الْمَقَامِ
الْعَالِي الَّذِي يَمْتَلِكُهُ، وَبِرَكَّةِ تَرْكِتِهِ الرُّوحَ وَإِبْدَاعِهِ الْعِرْفَانِيَّ، بِفَضْلِ كَمَالِ قُدْرَتِهِ
الرُّوحِيَّةِ، لَا بِفَضْلِ الصِّفَاتِ السُّودِ.

هكذا يقولُ وَالِدِي، وَإِنَّ لَدَيْهِ اعْتِقَادًا بِأَنَّ أَسْمَى الدَّقَائِقِ وَاللَّحَظَاتِ، وَأَكْثَرَهَا
رُوحَانِيَّةً، [٧٢] هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي قَضَاهُ إِلَى جَانِبِكُمْ؛ وَهُوَ كَالسَّمَكَةِ الَّتِي بِهَا حَاجَةٌ مَاسَّةٌ
إِلَى الْمَاءِ مُحْتَاجٌ إِلَيْكُمْ، لَكِنِّي يَحْيَا وَيُضْيِي لَحَظَاتِ الْعُمُرِ.

أَنْتُمْ الَّذِينَ سَلَبْتُمْ عِشْقَ الْحَيَاةِ مِنَ الْيَدِي بِفِرَاقِكُمْ، بِمَاذَا سَتُجِيبُونَ رَبَّ الْكَائِنَاتِ؟
مَسَحَ شَمْسٌ بِيَدِهِ عَلَى وَجْهِ سُلْطَانٍ وَلَدَ بِرَفِيقٍ، وَقَالَ:

يا وَلَدِي، الْعِشْقُ خَلْقٌ، خَلَاصٌ، تَغْيِيرٌ وَتَحَوُّلٌ. بَعْضُ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنَّ الْإِنْسَانَ
نَتَاجُ شَهَوَاتِ إِنْسَانٍ آخَرَ. لَا، لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، الْإِنْسَانُ هُوَ الْعِلَّةُ الْغَايَةُ لِلْخَلْقِ وَنَاجِ
عَالَمِ الْخَلْقِ. وَمَعَ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ الظُّهُورِ هُوَ آخِرٌ، هُوَ عِنْدَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ،
وَبِحَسَبِ الْمَقَامِ، أَوَّلٌ. الْعِشْقُ هُوَ سَبَبُ إِيجَادِ النَّاسِ، الْعِشْقُ هُوَ قُدْرَةُ مِهَارٍ (*) عَالَمِ
الْأَبَدِيَّةِ. وَإِنْسَانٌ مِثْلُ مَوْلَانَا، قَلْبُهُ مَنَزَلٌ لِلْعِشْقِ وَالْأَمَلِ، لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي
قَلْبِهِ، وَهُوَ يَتَغَيَّرُ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

أَيُّ بُنْيَ، أَنْتَ لَا تَعْلَمُ أَنَّ امْتِحَانَ الْعِشْقِ هُوَ الْفِرَاقُ، وَلَيْسَ الْوِصَالُ. وَلَسْتَ
تَعْلَمُ أَنَّ وَالِدَكَ، مِنْذُ السَّاعَةِ الَّتِي أَدْرَكَ فِيهَا مَعْنَى الْعِشْقِ تَحْتَ سَمَاءِ قُونِيَّةٍ، غَيْرِ
سَرِيعًا أُسْلُوبَ حَدِيثِهِ، وَعِشْقُ الْمَوْجُودَاتِ وَالْكَائِنَاتِ، وَغَدَتِ الْكَائِنَاتُ وَالْمَجَرَّاتُ
كُلُّهَا عِنْدَهُ مَحَلًّا لِلْعِشْقِ وَالْمَحَبَّةِ. وَمَا أَحْدَسُ بِهِ هُوَ أَنَّ أَنْوَارَ فِكْرِهِ سَتَضِيءُ عَالَمَ
الْعِرْفَانِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ.

وَقَدْ صَدَقَ شَمْسٌ، فَإِنَّ مَوْلَانَا مِنْذُ اللَّحْظَةِ الَّتِي شَاهَدَهُ فِيهَا أَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي بَحْرِ
الْعِشْقِ كَالْغَوَاصِّ. وَالْآخَرُونَ الَّذِينَ عَشِقُوا صَمَتُوا وَلَمْ يَنْبَسُوا بِبِنْتِ شَفَةِ؛ أَمَّا مَوْلَانَا
فَإِنَّهُ بِسَبَبِ شُغْلِهِ الْاِشْتِيَاقِ الَّتِي تَحْرِقُ وَجُودَهُ اضْطُرَّ فِي لَحْظَاتِ الشُّوقِ وَالْغَفْلَةِ إِلَى أَنْ
يَذْكُرَ أُمُورًا تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ كَانَ فِي دَاخِلِهِ طُوفَانٌ هَائِجٌ.

وَابْتِغَاءَ إِذْرَاكِ الْوَضْعِ الرُّوحِيِّ لِشَمْسٍ، تَبَدُّو مُطَالَعَةَ الْآيَاتِ الْآتِيَةِ مُنَاسِبَةً:

* - الْيَهَارُ: الْعُودُ يُجْعَلُ فِي أَنْفِ الْحِمْلِ، يُجَدَّبُ بِهِ فَيُذْعِنُ [الْمُتَرَجِمُ].

مِنْ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ أَنَا مُنْدَهَشٌ، بِعَقْلِ وَمِنْ دُونِ عَقْلِ
 نَاطِقٌ صَامِتٌ، نَائِحٌ سَاكِتٌ
 وَمِنْ ذَلِكَ اللَّوْنِ أَيُّ شَخْصٍ بِلَا لَوْنٍ أَنَا! وَبِتِلْكَ الطَّرَةِ أَيُّ مُعَلِّقٍ أَنَا!
 وَمِنْ ذَلِكَ الشَّمْعِ، أَيُّ مُضْطَرِبٍ أَنَا كَالْفَرَّاشِ، يَا رَبِّ!
 أَنَا دَمٌ وَحَلِيبٌ، أَنَا طِفْلٌ وَشَيْخٌ
 أَنَا خَادِمٌ وَأَمِيرٌ، أَنَا هَذَا وَذَاكَ
 أَنَا، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، شَمْسُ النَّائِرِ لِلسُّكْرِ وَخِطَّةُ تَبْرِيزِ،

أَنَا السَّاقِي وَالثَّمَلِ، أَنَا الْمَشْهُورُ وَالْمَغْمُورُ^(١)

وَيَعْتَرِفُ مَوْلَانَا قَائِلًا: فِي مَدْرَسَةِ عَشَقِ شَمْسٍ حَيْثُ وَضَحِكْتُ مِنْ جَدِيدٍ، وَفِي
 النِّهَايَةِ جَاءَتْ دَوْلَةُ الْعِشْقِ، فَصِرْتُ دَوْلَةً ثَابِتَةً. وَقَدْ كَتَبَ مَوْلَانَا يَقُولُ: عِنْدَمَا وَصَلْتُ
 إِلَى حَضْرَةِ شَمْسِ الدِّينِ، الَّذِي كَانَ رَسُولًا مَلَكُوتِيًّا، ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً صَفْرَاءَ كَأَنَّهُ كَانَ
 يَتَسَمُّ لِنُبُوغِي [٧٣] وَعِلْمِي وَقُدْرَتِي الْفِكْرِيَّةِ، وَقَالَ بِاسْتِدَادٍ: لَا تَقْرَأْ كُتُبَ الْوَلَدِ بَعْدَ
 الْآنَ، وَبَقِيَتْ مُدَّةٌ لَا أَقْرُؤُهَا مُسْتَجِيبًا لِإِشَارَتِهِ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: لَا تَتَحَدَّثْ مَعَ أَحَدٍ؛
 فَبَقِيَتْ مُدَّةٌ صَامِتًا لَا أَتَكَلَّمُ.

فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، قَالَ أَحَدُهُمْ لِمَوْلَانَا أَمَامَ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ: أَجَبُكَ، وَأُجِبُ الْآخَرِينَ
 مِنْ أَجْلِكَ. فَقَالَ مَوْلَانَا: إِذَا كَانَ مُرَادُكَ حَضْرَةَ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ فَقَدْ أَخْطَأْتَ؛ فَإِنْ كُنْتَ
 تَحِبُّنِي مِنْ أَجْلِهِ فَهَذَا أَحْسَنُ، وَزَيْدُنِي سُرُورًا.

وَشَمْسٌ، هَذَا الَّذِي عُبِّرَ عَنْهُ فِي الْغَزَلِيَّاتِ الْمُشَوِّقَةِ فِي الدِّيَّوَانِ الْكَبِيرِ بِاسْمِ: الدَّوْلَةِ

الخالدة، وروحي، وسزوي، ونطقي، وطاعتي، وسجودي وزهرة سمائي، كان في الرياضات والمجاهدات ماهرًا وأستاذًا ومجربًا؛ فدفع هذا الأفلاكي في كتابه «مناقب العارفين» إلى أن يكتب في سيرته وشرح حاله:

... أقام مولانا شمس الدين في مدينة حلب أربعة عشر شهرًا في حُجرة في إحدى المدارس، وانشغل إلى الغاية بالرياضات والمجاهدات حتى إنه لم يخرج من الحُجرة ليوم واحد، حتى جاء هاتِفٌ من جدار الحُجرة يقول: وفي النهاية، إن لنفْسِكَ عَلَيْكَ حقًا. ونفسه، كما صوّر، لا تتحمّل المجاهدة أكثر من هذا. فاضطرّ إلى أن يترك الانزواء والاعتكاف متبسمًا، ويمضي إلى دمشق.

هذه هي الحياة العالية السماوية لعارف إيران الكبير شمس تبريز، الذي يُزَعَدُ اسمه قلب مولانا. ولأنّ صوته يصل من دمشق إلى أذن محبوبه ومعشوقه مولانا، كانت الأصوات والطوفانات كلها، وقل الرعود أيضًا مصحوبةً بأمواج البحار، تصمّت وتخمّد. ووفقًا لما يقول مؤلف كتاب «خطّ سَوم» [بالفارسية بمعنى «الخطّ الثالث»] الدكتور صاحب الزماني: «كلام شمس في عَمِنِ الوُضوح مُبهِمٌ، وفي عَمِنِ الجذب والخلابة شبيهٌ بالسوط، مكثّف ومقتضب. وشمس محطّمٌ للأصنام، ويبدو راضيًا عن نفسه ومعجبًا بنفسه. وقد بلغ من معرفته لنفسه^(١)، أنه حتى مدح مولانا المُبالغُ له لا يعدّها كافية. ومرة واحدة فقط، في حياة شمس كلها، عرفه معرفة كاملة إنسان واحد،

١- منهُ اليوم الأول الذي يوجد فيه سُكْرُ الشكاري
نرقص أمامه كالذرّات كلّ سحر
يا صلاح القلب والدين، أنت خارج الجهات
يا شمس تبريز، أنت سلطان أهل الحسن جميعًا
يكون للشيخ كأس الزوج في الأكف
وهذه هي عادة عبّاد الشمس
ليكني تتلأأ من نورك الجهات الست
ولعلّ جمالك أيضًا جمال يُوسّف كنعان
(ديوان شمس تبريز، القرطبيّة ٧٩٨)

وَاحِدٌ صَادِقٌ وَسَنِيٌّ [٧٤] هُوَ مَوْلَانَا الرَّومِيُّ. وَحَتَّى هَذِهِ الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ أَيْضًا، لَمْ يَكُنِ النَّاسُ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ يُيقَوْهَا مِنْ أَجَلِهِ. وَإِنَّ صُحْبَةَ سَبْعَةِ وَعِشْرِينَ شَهْرًا فَقَطْ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ، خَلَقَتْ لِشَمْسٍ دَائِمًا التَّشَرُّدَ وَخَطَرَ الْمَوْتِ وَالْقَلَقَ وَالْغَضَبَ».

وَيُمْكِنُ أَنْ يَتَبَادَرَ إِلَى ذَهْنِ الْقَارِئِ هَذَا السَّوَالُ: مَا الْأَشْيَاءُ الْبَارِزَةُ فِي شَمْسٍ وَكَلَامِهِ؟ فَنَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ فِي كَلَامِهِ الصَّدَاقَةُ وَالتَّأَثُّرَاتُ وَالْإِنْفِعَالَاتُ الْعِرْفَانِيَّةُ الَّتِي كَانَ أَكْثَرَ مَفْهُومَاتِهَا قَابِلًا لِلِإِدْرَاكِ، وَكَانَ أحيانًا يُسْرِفُ فِي حَمِيَّةِ الدَّرْوِيشِ فَيَقُولُ: إِنَّ وُجُودِي هُوَ كِيمِيَاءٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تُصَبَّ عَلَى النَّحَاسِ، فَإِنَّهُ أَمَامِي وَعِنْدِي كُلُّ شَيْءٍ يَتَحَوَّلُ إِلَى ذَهَبٍ، وَهَكَذَا يَكُونُ كِمَالُ الْكِيمِيَاءِ.

كَانَ الْحُسَادُ يَرَوْنَ فِي كَلَامِ شَمْسٍ ضَرْبًا مِنَ السَّحَرِ وَالشَّعُودَةِ وَالْمُحَالِ؛ أَمَّا مَوْلَانَا فَلَدَيْهِ تَعْبِيرٌ آخَرٌ فِي شَأْنِ أَوَّلِ لِقَاءٍ لَهُ بِهِ.

- يارب، لا تجعل هذا الوصل هجرانا،
 لا تجعل المبتهجين بالعشق حزانى
 - اجعل بُستانَ الروح بهيجاً ونضراً
 لا تقصد هذا البُستان، وهؤلاء المبتهجين، بشوء
 (ديوان شمس تبريز، الغزلية ٢٠٢١)

صحيح في الخانقاه

[٧٥] قَالَ مَوْلَانَا لِأَصْحَابِهِ فِي الْخَانِقَاه: إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحِبَّةِ وَالْأَصْدِقَاءِ يَجِدُونَ فِي
 الْبَحْثِ عَنْ أَسْبَابِ عَقْلِيَّةٍ لِنَحْوَلِي الرُّوحِيِّ بَعْدَ لِقَاءِ شَمْسِ تَبْرِيز. وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ
 الْفِكْرَ الْمُنْطَقِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ لَا تُجِيبُ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَغْيِيرِ حَالِي، بَلْ إِنَّ أَصْحَابَ الْقُلُوبِ
 يَدْرِكُونَ جَيِّدًا هَذَا التَّجْدِيدَ الَّذِي أَصَابَ حَيَاتِي مِنْ جَدِيدٍ. فَقَدْ تَرَكَ كَلَامَ شَمْسٍ مُبَاشِرَةً
 تَأْثِيرًا يَعْزُ وَضْفُهُ فِي رُوحِي وَقَلْبِي. فِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الْأُولَى وَالْعَظِيمَةِ لِلْقَاءِ، ظَهَرَتْ
 حَالَةٌ مَكْتَنَفَةٌ بِالْأَسْرَارِ، حَالَةٌ ذَهَبَتْ إِلَى أَنَّ صَاحَ الْمِخْرَابِ^(١)، كَأَنَّ عَالَمَ الْخَلْقِ
 وَالْكَائِنَاتِ وَسَطَ حَدَثِهَا الْعَجِيبِ قَدْ لَخَصَ كَلَامَ شَمْسٍ الْنَافِذَ السَّاحِرِ؛ كَانَتْ دَقَاقَتُ
 وَأَنَاتٍ مُقَدَّسَةً. الرَّجُلُ الْعَظِيمُ الْمَتَشَرِّدُ التَّبْرِيزِي، بِحَرَارَةِ حُضُورِهِ وَجَازِيَّةِ نَفْسِهِ، حَطَمَ
 قُدْرَتِي الْفِكْرِيَّةَ، وَجَزَتْ فِي عَظَمَتِهِ. وَكَانَ تَشْرِيحُ مَا قَالَهُ شَمْسٌ فِي الْقَاءِ الْأَوَّلِ حَاسِمًا،
 حَتَّى إِنَّ ضِيَاءَ عِرْفَانِهِ أَضَاءَ قَلْبِي. فِي عَالَمِ الْوُجُودِ اسْتَقَرَزْتُ فِي بَحْرِ مِنَ الْإِحْسَاسِ.
 كَانَتْ حَمِيَّتُهُ الدَّرُوشِيَّةُ، وَاسْتِغْنَاءُ طَبْعِهِ، وَنَفُودُ كَلَامِهِ، قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تُحَوِّلَنِي فِي أَمَدٍ
 قَصِيرٍ، مِنْ فَقِيهِ مَعْرُوفٍ قَدِيرٍ إِلَى شَخْصٍ مُضْطَرِبٍ نَازِلٍ.

١- تُسَمَّى هَذِهِ الْحَالُ فِي السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ «التَّلْوِين»؛ أَيِ التَّحَوُّلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، مِثْلَمَا لَوَّنَ حَضْرَةُ مُوسَى (عَلَيْهِ
 السَّلَامُ) بِنَظَرِهِ إِلَهِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، إِذْ أَخَذَ مِنْهُ الْعَقْلُ بِفِعْلِ التَّجَلِّيِ الْإِلَهِيِّ فِي طُورِ سَيْنَاءَ يَقُولُ مُؤَلِّفُ كِتَابِ اللَّعْنِ:
 «التَّلْوِينُ عِلَامَةُ الْحَقِيقَةِ» وَيَقُولُ الْقُشَيْرِيُّ: «التَّلْوِينُ صِفَةُ أَرْيَابِ الْأَحْوَالِ» فَرَهْنُكَ لُغَاتٍ وَاصْطِلَاحَاتٍ
 عِرْفَانِيَّةٍ ص ١٣٦.

[٧٦] سَمِعْتُ هَمَّهُمَّةً فِي الْخَائِفَاءِ، نَهَضَ أَحَدُ الْأَدْعِيَاءِ فَقَالَ: عَلَى جَلَالِ الدِّينِ أَنْ يَشْرَحَ لَنَا هَذِهِ الْحَالَةَ عَلَى نَحْوِ صَحِيحٍ، وَمِنْ دُونِ إِبْهَامٍ؛ فَأَجِيبَ بِأَنَّهَا كَانَتْ حَالَةً مَعِينَةً وَزَمَانًا خَاصًّا؛ وَأَقُولُ بِمَزِيدٍ مِنَ الدَّقَّةِ: إِنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ شَرْحُ تِلْكَ الْحَالِ وَذَلِكَ الزَّمَانِ لَكُمْ شَرْحًا دَقِيقًا. وَأَقُولُ مُخْتَصِرًا: إِنَّ هَذَا الشَّيْخَ الْخَفِيَّ بَعَثَ فِي قَلْبِي قُتُورًا إِزَاءَ التَّدْرِيسِ وَالْوَعْظِ وَالْعِلْمِ.

نَهَضَ شَخْصٌ آخَرُ وَصَاحَ:

- يَا مَوْلَانَا، هَلْ مِثْلُ هَذَا التَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ لِشَمْسٍ لَهُ نِهَايَةٌ. اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُنْتَهَى عَظَمَةِ الْوُجُودِ وَالْكَائِنَاتِ وَالْخَلْقِ، وَشَمْسٌ ذَرَّةٌ مِنْ ذَرَاتِ الْعَالَمِ مِنْ دُونِ نِهَايَةٍ؟ أَمِنْ ذَرَّةٍ حَقِيرَةٍ يَكُونُ إِغْرَاضٌ عَنْ مَنَبَعِ النُّورِ الْوَاقِعِيِّ وَعَنْ مَجَالِسِ الدَّرْسِ وَالْوَعْظِ؛ هَذِهِ بِلَاهِمَةٌ وَعَمَى قَلْبٌ.

نَهَضَ ثَالِثٌ، وَقَالَ وَأَعْلَنَ:

- هَلْ ائْتَمَجَ عَالَمُ النُّورِ وَالتَّقْوَى بِشَمْسٍ فَقَطْ؟ - أَوْ أَنْ مُرْتَاضًا، أَوْ سَاحِرًا، أَوْ مُشْعَوذًا، اسْتَطَاعَ بِسِحْرِ كَلَامِهِ وَأَعْمَالِهِ أَنْ يَجْعَلَ مَوْلَانَا تَحْتَ تَأْثِيرِهِ الشَّيْطَانِيِّ؟ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ - قُولُوا بوضوح تامٍّ وَمِنْ دُونِ تَكَلُّفٍ، أَجْذِبْتُمْ أَمْ سَحَرْتُمْ؟
عَلَا صَبِيحٌ فِي الْخَائِفَاءِ، كَانَ يَصِلُ إِلَى الْأَسْمَاعِ أَصْوَاتٌ وَاعْتِرَاضَاتٌ وَسَبَابٌ، وَكَانَ يَقَالُ: إِنَّ شَمْسًا مُتَشَرِّدًا وَسَاحِرًا، وَيَقُولُ كَلَامًا مُتَنَاقِضًا، شَمْسٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقَاوِمَ أَصُولَ الدِّينِ. هَهُنَا قُوْنِيَّةٌ، هَهُنَا مَرْكَزُ الرِّجَالِ الْأَتَقِيَاءِ...

بُهِتَ مَوْلَانَا، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمَشْهَدِ بِقَلِيلٍ مِنَ التَّفَكِيرِ، وَكَانَ يَرْتَعِدُ.

صَاحَ أَحَدُهُمْ، وَقَالَ:

يا مولانا، قل لماذا جاء شمس إلى هنا أساساً؟ ممن أتى برسالة؟ لماذا قابلتك

بسريرة وخفاء؟ ماذا كان مضمون رسالته؟

لم يعد مولانا يرى السكوت جائزاً، تقبّض وجهه قليلاً، كان صوته يرتجف من

الانزعاج، وقال:

- لم يكن قصد شمس من المجيء إلى قونية سوى لقائي، وقد ذاكرني في شأن

نفي الكثرة، والاستغراق في الوحدة، واتحاد العاقل والمعقول، والاتصال بالحق

سبحانه من دون وسيط، وهو يدعي أنه يجب أن ننحنوا تعظيماً للحقيقة، وأن

تبعدوا اللامعقول، [٧٧] وأن تحرروا سلطان الكائنات من القيود. أفي مقدوركم أن

تفهموا شيئاً من هذه الأمور؟

- لا لا، يجب أن نتحدث على نحو واضح ومتدفق وسلس، لا نتحدث بإبهام.

واصل مولانا الكلام... تقولون: لماذا وكيف وقعت تحت تأثير شمس، تسألون

عن انقلابي الروحي أثناء لقاء شمس؟ أشرح لكم الأمر. تريدون أن أشرح لكم مسألة

اللحظات الحساسة للقاء، ولماذا نسيبت ذاتيتي ونخلت عن كلية وجودي العلمي؟

وكيف جلست كالطفل التلميذ في محضره، ولماذا صرت متعلقاً بحلقات الرقص

والسماع؟ - لماذا رأيته مغيّراً لكل شيء؟

أعترف بأنني عندما رأيت شمساً صار بخروحي الهادي كالطوفان، نعم، صرت

منجذباً إليه. كنا في تلك اللحظات الأولى من اللقاء، من دون قصد منا، نسير نحو اتحاد

ملكوتي ومقدس. من الناحية الروحية، امتزجنا، دخلنا في وادي مصير واحد. كان هو

يرى انعكاس فكره، ويسمع أصداء قلبه في قلبي؛ خرجنا من نطاق إنسان واحد. خرجنا

مِنَ الظُّلُمَاتِ، واقْتَرَبْنَا مِن وجودٍ مَجْرَدٍ مِنَ الظُّلُمَاتِ. طَرْنَا إِلَى أَوْجِ الحَقَائِقِ. هَلْ بَيْنَكُمْ إِنْسَانٌ يَبِينُ كَيْفَ يَكُونُ الذَّهَابُ مِنَ المَحْدُودِ إِلَى اللّامَحْدُودِ؟ الحَقُّ أَنَّنِي أَحْسَنْتُ فِي نَفْسِي مَعْنَى شَمْسٍ، وَرُوحِهِ، وَحَقِيقَتِهِ، عَلَى نَحْوِ مَفَاجِئٍ، نَعَمْ، أَحْسَنْتُ كَأَنَّ قَلْبِي كَانَ حَامِلًا بِشَمْسٍ^(١).

سَكَتَ المَوْجُودُونَ فِي الخَانِقَاهِ، وَلَمْ يَتَكَلَّمُوا بِشَيْءٍ؛ وَوَصَلَ مَوْلَانَا القَوْلَ:
كُنَّا نَسْجُحُ فِي بَحْرِ الجَذْبِ والشَّوْقِ والوَجْدِ. عِنْدَئِذٍ رَفَعَنِي شَمْسٌ إِلَى الأَوْجِ، سَارِي
إِلَى نَاحِيَةِ الكَمَالِ المَطْلُوقِ، نَحْوَ مِعْرَاجِ العِشْقِ. لَيْسَ فِي وَسْطِي أَنْ أُوضِحَ هَذَا التَّحَوُّلَ
الْفُجَائِيَّ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، سَأُبَيِّنُ فَقَطْ أَحْدَاثًا فِي حَيَاةِ أَشْخَاصٍ [٧٨] وَاجْهُوا فِي لَحَظَاتِ
حَسَّاسَةٍ مِنْ حَيَاتِهِمْ تَحَوُّلًا رُوحِيًّا. لَا بَدَّ أَنْكُمْ جَمِيعًا تَعْرِفُونَ أَبَا المَجْدِ، مَخْدُودَ بْنِ آدَمَ
سَنَائِي، شَاعِرَ إِيْرَانِ الكَبِيرِ. سَمِعْتُ أَنَّهُ عِنْدَمَا أَرَادَ السُّلْطَانُ إِبْرَاهِيمُ الغَزْنَويُّ أَنْ يَغْزُو الهِنْدَ
مَدَحَهُ سَنَائِي، وَصَمَّمَ عَلَى أَنْ يَذْهَبَ صَبَاحًا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى حَضْرَةِ السُّلْطَانِ،
وَيَنْشِدَهُ مِدْحَتَهُ. وَإِذْ ذَاكَ قَالَ فِي نَفْسِهِ إِنَّهُ مِنَ الأَفْضَلِ لَهُ أَنْ يَذْهَبَ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى الحَمَامِ،
وَيَرْتَدِّي أَكْثَرَ ثِيَابِهِ جِدَّةً... وَهَكَذَا فَعَلَ. وَعِنْدَمَا مَرَّ بِمَوْقِدِ الحَمَامِ سَمِعَ صَوْتًا، انْطَلَقَ إِلَى
الصَّوْتِ، وَنَظَرَ مِنَ البَابِ الصَّغِيرِ إِلَى المَوْقِدِ، فَرَأَى رَجُلًا حَمَامِيًّا اسْمُهُ «مَجْدُوبٌ»،
مَعْرُوفًا عِنْدَ النَّاسِ بِلقَبِ «دِيَوَانِه لَا يَخُور» [بِالفَارْسِيَّةِ بِمَعْنَى «الْمَجْنُونُ شَارِبُ الكَأْسِ حَتَّى
الْنِّهَايَةِ»]، جَالِسًا وَقَدْ وَضَعَ أَمَامَهُ الإِبْرِيْقَ الَّذِي كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الدُّرْدِ وَثِقَالَةِ الشَّرَابِ،

١- أُنِي شَمْسُ الحَقِّ التَّيْرِي، إِنَّ قَلْبِي حَامِلٌ بِكَ، فَمَتَى أَرَى وَلَدًا وَلِيَّ عَلَى إِفْبَالِكَ؟
أَوْ:

خَاتُونُ خَاطِرِي الَّتِي تَلِيَّ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ حَامِلٌ، لَيْكُنْ مِنْ نُورِ جَلَالِكَ
أَمَامَ شَمْسٍ عَظْمَةٍ تَثِيرُ، أَيُّهَا الفَلَكُ كُنْ فِي سُجُودٍ، فَقَدْ صَارَ هَذَا كَمَالَكَ
(دِيَوَانُ شَمْسِ تَثِيرِ، الغَزَلِيَّةُ ٢٢٣٥)

وكيسَ فَحْم. وفي هذه الأثناء، كان لا يخور يقول لِمَوْقِدِ نارِ فُرْنِ الحَمَامِ الذي كان ساقِيه: هاتِ كَأْسًا بِسَلامَةِ السُّلْطَانِ الغَزْنَويِّ الذي حتَّى الآنَ لم يُدبِّرْ أَمْرَ الإسلامِ والمُسْلِمِينَ، ولم ينظِّمْ أُمُورَهُمْ، ويريدُ أن يذهبَ إلى الهند ليُصلِّحَ حالَ كُفَّارِ تلكَ البلاد. وبَعْدَ ذلكَ طَلَبَ كَأْسًا أُخْرَى، وقالَ: ناولني بِعَمَى عَيْنِي سَنائِكَ (الكاف لِتَضْغِيرِ سَنائي تَحْقِيرًا) شاعِرِ المديحِ الذي لا يَعْلَمُ، وحتَّى الآنَ لم يَتَبَيَّنْ، لماذا خَلَقَهُ اللهُ، وهو دائِمًا يُذهِبُ وقته في نَظْمِ أشعارٍ لا ينطوي مُحتواها على حَقِيقَةٍ. إن سألْتُموه الآنَ في هذه الدُّنيا: ماذا اذْخَرَتْ لِيومِ القِيامةِ مِمَّا يَلِيقُ بِجَنابِ الحَقِّ تعالى؟ - فماذا سَيَقُولُ، حَتْمًا سَيَعْرِضُ قصائده.

هذا المَشْهُدُ، وهذا الكلامُ، أترا في سَنائي، فما كانَ مِنْهُ إلَّا أن عادَ إلى بيتِه، وصَحَّاحًا مِنْ خُمَارِ الغَفْلَةِ، واتَّجَهَ نَحْوَ العِرْفانِ والعِشقِ، حتَّى بَلَغَ مَرْتَبَةً صارتَ فيها أشعارُهُ العِرْفانيَّةُ كَشْرابِ الحَقِيقَةِ، مُخَيِّبَةً مُفْرِحةً ومُلطِّفَةً وساحِرَةً. أيُّها الأَجِبَةُ، كانتِ قُدْرَةُ العِشقِ السُّحْريَّةُ قادِرَةً على إِبْعادِ سَنائي وإِتيائِي عن الجاهِ والسُّلْطَانِ والتعلُّقاتِ الظَّاهِريَّة. ولَعَلَّ بَعْضَهُمْ يقولُ: إنَّ هذه هي قُدْرَةُ الجُنُونِ التي تجعلُ النَّاسَ مَجانينَ، وأوافقُهُم على ذلكَ:

عِنْدَما رَأى أبو يَزِيدُ^(*) الطَّرِيقَ، بَطَّلَبَهُ «المَزِيدُ» مِنْ شَرابِ العِرْفانِ

سَمَاءُ الحَقِّ تَعَالَى: قُطِبَ العارِفِينَ

وَتَحَوَّلَ الفُضَيْلُ^(**) مِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ إلى شَنِخِ طَرِيقِ

عِنْدَما صارَ مَلْخُوظَ المَلِكِ في لَحْظَةٍ لُطْفٍ^(١)

* - يريدُ أبا يَزِيدَ البِسطاميَّ، الصُّوفيَّ المعروف [المترجم].

** - يريدُ الفُضَيْلَ بنَ عِيَّاض.

١ - المثنوي، ٢/٩٣٠ (٢).

أما آية قُوَّة وجاذبيَّة تُحوِّل الأشخاص في لحظة واحدة وتغيِّرهم وتضعهم أمام بؤرة النور، فسؤال جوابه [٧٩] غير قابل لأن يُقال، غير قابل للوصف، يتلفع بغطاء سرِّي كتيمة؛ لكنه يمكن بيان أنه من بارقة ذلك النور يُرشد الإنسان إلى عالم المعرفة. وإنه من ضياء هذا النور وقدرته كان إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام) يضع قدمه في قلب نار النمرود، ويذيب حضرة داود الحديد الملتهب بيده كالشمع.

أيها الناس، اعلموا أنني أنا وشمسنا كنا قبل اللقاء مثل دائرة لها مركزان، أما بعد اللقاء فصيرنا دائرة ليس لها أكثر من مركز. جعلني وقاره ومهابته والانجذاب إليه، لأنني كنت عاجزاً من ناحية السير والسلوك، محلاً للتأثر والتغير. القضاء والقدر لديه الكثير من هذه الأمور؛ أما أنا فقد بقيت مدة أنتظر في عالم الناسوت أن أرى من ظواهر الملكوت إنساناً يكون مثلاً للخضر (*) أيضاً في السير والسلوك، السير والسلوك الروحي، مثلاً ليكاشفات تظهر للإنسان العارف جاذبة للقلب مكتنفة بالأسرار، وفي النهاية تسلّم عنان الاختيار إلى يد القلب.

عظمة العشق الذي يوجد العرفان أنه يتترع التعينات والتعلقات الظاهرية من قلب الإنسان، فيتخلّى عن منصب التدريس والمحراب، مُتحوّلاً إلى إنسان آخر. ولكن يسأل: ما العشق^(١)؟ العشق أساس الوجود، وظاهرة ليست جديدة. وإن رونق العشق،

* - فيه لغتان: الخضر، والخضر.

- ١ - ما أجمل العشق، ما أجمل العشق الذي عندنا يا الله
ما أشد حرارتنا، ما أشد حرارتنا من هذا العشق الحار كالشمس
ما أجمل الولة، ما أجمل الولة الذي أثار العالم
اندفع، اندفع مليك الفرسان،
قد وقفنا، قد وقفنا وقعة لا نستطيع النهوض منها
لا شرّك، لا سلسلة، فلم نحز جميعاً مقيدون؟
- ما أطفء، وما أحسنه، وما أجمله، يا الله
ما أخفاه، وما أخفاه، وما أظهره، يا الله
ما أجمل العمل، ما أجمل الفعل الموجود، يا الله
فما أجمل الغبار، ما أجمل الغبار الذي ناز، يا الله
لا نعلم، لا نعلم ما هذا الضجيج، يا الله
أي قنيد، أية سلسلة على الرجل، يا الله!! =

وأعاجيب العشق، عظيمة وخطيرة؛ وأمام هذه الظاهرة لا أمتلك بياناً لائقاً.
كان شمس التبريزي، مَادِحُ العشق غير المنازع، يقول إنَّ العشق نتيجة لجذبية يُثارُ
بها القلبُ ويَهَزُّ.

العشق هو العنقاء التي لا اسم لها. ويقول العارفون: العشق وجودٌ، كشفٌ
وشهودٌ، رَمَزَةٌ وغِنَاءٌ للروح.

[٨٠] وقد كتب صاحبُ كتاب «التعريف» (*) يقول: «العشق في ذاته بلاءٌ، وفي كلِّ ساعةٍ
يزدادُ بلاءً». وفي الآخر يقتلُ صاحبه، وقتلُ المحبةِ أجلُّ الشُّهداء. أمّا أنا فأقول: «القلبُ
يغلبو بقوة العشق شاباً وشجاعاً، ولا يوجدُ في قلبِ العاشقِ إلا الطهارة والتقوى والنقاء:
لأنَّ المعشوقَ هو الكلُّ، وأمّا العاشقُ فحِجابٌ

والمعشوق هو الحيُّ، وأمّا العاشقُ فميتٌ
وإنَّ أَلَمَ عَشِيقِكَ هو الحِبالَةُ لِصَيِّدٍ لُطْفِنَا
ونَحَتْ كُلُّ «يا ربُّ» مِنْكَ، الكثيرُ من قَوْلنا لَكَ: لَبَّيْكَ
وقَدْ رَتْنَا هِيَ حِبالَةُ عَشِيقِهِ

وهي تَسْحَبُهُ مِنْ ناصيته إلى ديارِ الحبيب (١)
العشق يُضفي على الرُّشدِ والكمالِ الرُّوحِي لُطَافَةً وطَراوَةً. ويجعلُ الفِكرَ أَكْثَرَ ظَرْفاً وإشراقاً.

= أَيْةُ صُورَةٍ، أَيْةُ صُورَةٍ فِي مِرَاةِ الْقُلُوبِ هَذِهِ؟
غَرِيبَةٌ، غَرِيبَةٌ، جِيءَ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ، يَا اللَّهُ
فَقَدْ احْتَلَّ «الْأَغْيَارُ» الْيَسَّارَ وَالْيَمِينَ، يَا اللَّهُ
(ديوان شمس تبريز، الفَرَزِيَّة ٩٥)

* - هو مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَعْقُوبَ الْكَلَابَادِيِّ الْبَخَارِيِّ. كَانَ مِنْ حُقَاقِ الْحَدِيثِ، وَلَهُ كِتَابٌ مَشْهُورٌ فِي التَّصَوُّفِ
هو: «التَّعْرِيفُ لِتَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ» (ت: ٣٨٠ هـ)

كان إمامي ومُرشدي يعتقدُ أنه يوجدُ في مدينة القلبِ مجنونٌ اسمه العِشْقُ يبدو دائماً الاستبداد، ويحدثُ بسببه خللٌ كبيرٌ في مدينة القلب. نعم، العِشْقُ يجعلُ الكائنَ الصغيرَ في غاية العَظَمَةِ والضَّخامة، وقد أوصلَ العِشْقُ شمسًا إلى هذا المَقام. ردَّ شمسٌ تحيةَ الملائكة برسالة أبدية من المُطلَق. وقد امتلأتُ هيجانًا وتأثرتُ عندما سَمِعْتُ كلامه، كأنني وُضِعْتُ داخلَ هالةٍ نُورانية. صرْتُ مُطلَعًا على رُوحٍ عظيمٍ منزَّهٍ طاهر. كان كلامه يَهزُّ قلبي، وكأنه أبصرَ تَغْييري فهِمَسَ: مَنْشُورُ العِشْقِ ومِثاقه ليسَ أحكامًا جَزْمِيَّة، بَلْ يُضفي على الرُّؤى والعواطفِ هَيْجَانًا وتأثُّرًا، ويُجَلِّي عَظَمَةَ الإنسان. والنَّاسُ جميعًا سالكونَ لِطَرِيقِ العِشْقِ، والسَّالِكُ الْمُؤْمِنُ المَعْتَقِدُ، وديعةُ هذه الحياةِ القصيرة الأمد، لا يملكُ إِلَّا العِشْقَ، ولا يعرفُ إِلَّا العِشْقَ. العِشْقُ يعطي للعاشقِ الحقيقيِّ إجازةً صُعودٍ لكي يَصِلَ إلى الكمالِ الحقيقي. العِشْقُ يَقْوِي في السَّالِكِينَ المِيلَ إلى عِبادة الواحد^(١).

١- جَعَلَ اللهُ الأَفلاكَ التَّسعةَ عبيدًا للعاشقين

جَعَلَ بُسْتَانَ العاشقينَ أَحْضَرَ نَضِيرًا

وإلى يومِ القِيامَةِ، جَعَلَ ساقِي العِشْقِ الباقي

جَعَلَ اللهُ لُبْلُبَ القلبِ ثِيلاً إلى الأبدِ

وجَعَلَ ثَنِيَّ الرُّوحِ مملوءًا بالذَّرِّ

إِغراءاتُ العاشِقِ من أَجْلِ الحبيبِ

وَإِذَا لَمْ يَطِرْ طائرُ رُوحِي نَحْوَ العِشْقِ

يَرَانِي العِشْقُ بِأَكْيَا فَيَضْحَكُ

وَقَدْ صارَ الحَجَرُ ماءً خَجَلًا من شَفَتِهِ الشَّيْهَةِ بالياقوتِ

وجَعَلَ دَوْلَةَ هؤلاءِ العاشقينَ ثابتَةً خالدةً

وجَعَلَ شَمْسَ العاشقينَ مُضِيئَةً للألاءِ

آتِيًا إِلَيْنَا، حَامِلًا كُؤُوسَ الشَّرَابِ على كَفِّهِ

وجَعَلَ بَيْعَاءَ الرُّوحِ ماضِغًا للسُّكْرِ أيضًا

وجَعَلَ أُمَّ السَّعَادَةِ وَلَادَةً لِلطَّرِبِ

فلا تَفُضْ عَلَيْهَا، واجْعَلْهَا متزايدةً في كُلِّ لَحْظَةٍ

فاجْعَلَ خَوَافِيهِ وَقَوَائِمَهُ متنوفةً الرِّيشِ

فاجْعَلَ، يَا رَبِّ، العَالَمَ مملوءًا بالضَّحْكِ من ضِخْكَه

فاجْعَلَ، يَا رَبِّ، أَنْواعَ الحُجَلِ خَجَلَةً مِنْهُ

(ديوان شمس تبريز، الغزلية ٨٢٨)

- سَكَبَ عَشْقُكَ الْحُمْرَةَ مِنْ أَيْدِي الشُّفَاةِ
وسَكَبَ من العَيْنِ كَثِيرًا من دَمِ الْقَلْبِ الصَّافِي
- وما أَكْثَرَ الزُّهَادَ مُرْتَدِّي الْحَرِيقَةِ الْمَلَاذِمِينَ لِسَجَادَةِ الصَّلَاةِ
الَّذِينَ بِسَبَبِ عَشْقِكَ سَكَبُوا الْحُمْرَةَ فَوْقَ السَّجَادَةِ
فَخَرَّ الدِّينَ الْعِرَاقِيَّ

نَحْنُ عَدَمٌ

[٨٢] مَوْلَانَا الَّذِي كَانَتْ قُوَّتُهُ الذَّهْنِيَّةُ الْمَتَأَثِّرَةُ بِذِكْرِ أَيَّامِ خَلَوَاتِهِ مَعَ شَمْسٍ قَدْ

أَخَذَتْ فِي الْعِنَادِ وَالطَّغْيَانِ، قَالَ مَخَاطِبًا السَّامِعِينَ:

تَسْأَلُونَ أَيْضًا عَنْ تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الْمُسْكِرَةِ الْمَشْوِقَةِ؟ بَعْضُ الْأَسْرَارِ لَا يُمْكِنُ
كَشْفُهُ لِلْجَمِيعِ، أَيْ لِمَنْ لَيْسُوا أَهْلًا لِذَلِكَ. تُرِيدُونَ أَنْ تَعْرِفُوا مَا هُوَ فِي سُودَاءِ قَلْبِي.
لَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ إِفْشَاءَ الْأَسْرَارِ، لِلْأَشْخَاصِ الَّذِينَ لَيْسَ لِفَهْمِهِمْ وَإِدْرَاكِهِمْ الْإِسْتِعْدَادُ
لِقَبُولِ أَسْرَارِ عَالَمِ الْخَلْقِ، عَبَثٌ لَا طَائِلَ مِنْ وَرَائِهِ. قَالَ عَلِيٌّ (كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ): «وَاللَّهِ،
لَأَبْنُ أَبِي طَالِبٍ آتِسٌ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِئَذِي أُمِّهِ، بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ
بُحِثَ بِهِ لَا ضُطْرْبَتُهُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ»^(١)، فَلَا تُتَكَبَّرُوا الْأَسْرَارَ.

إِنَّ شَمْسَ التَّبَرُّيزِيِّ، بِفِكْرِهِ الْمَضِيئَةِ الْعَمِيقَةِ الْخَارِقَةِ لِلْأَسْبَابِ، يُفْشِي لِي الْأَسْرَارَ
الَّتِي أَحَاطْتُ بِهَا بِكُمْ كَالِهَالَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِالْقَمَرِ، وَقَدْ بَيَّنَّهَا عَلَى خَيْرِ وَجْهِ. وَلَيْسَ فِي
مَقْدُورِي أَنْ أَبَيِّنَ، بِالْكَلِمَاتِ، الْعِظَمَةَ وَاللُّطْفَ اللَّذَيْنِ يَتَحَلَّى بِهِمَا فِكْرُ شَمْسٍ، الَّذِي
هُوَ ثِقَافَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ وَعِزْفَانِيَّةٌ عَالِيَةٌ. وَلِيَبَيِّنَ ذَلِكَ، لَا بَدَّ مِنْ إِيجَادِ أَبْجَدِيَّةٍ وَكَلِمَاتٍ، أَوْ ثِقَافَةٍ،
جَدِيدَةٍ. وَمَا يَعْتَلِجُ فِي صَدْرِي لَا أَسْتَطِيعُ، وَلَا يَجُوزُ، أَنْ أَصْرَحَ بِهِ.

١- الْأَرْشِيَّةُ: جَمْعُ رِشَاءٍ، وَهُوَ الْخَبْلُ الَّذِي تُعَلَّقُ بِهِ الدَّلَامُ. وَالطَّوِيُّ: الْبُتْرُ. وَالنَّصُّ فِي: نَهْجُ الْبَلَاغَةِ ص ٢٠-٢١.

أَحِبَّائِي الْأَعْزَاءَ، لَا تَتَّهَمُونِي بِأَنِّي عَابِدٌ لِلشَّمْسِ، وَلَا تُكْفَرُونِي. لَيْتَنِي كُنْتُ أَسْتَطِيعُ [٨٣] أَنْ أُلْقِيَ فِي قُلُوبِكُمُ الْبَارِقَةَ وَالْإِشْرَاقَ اللَّذِينَ أَنَا زَا ذِهْنِي، وَاسْتَلْزَمَ ذَلِكَ إِنْارَةً ظُلُمَاتِ جَسَدِي وَرُوحِي. فَعِنْدَئِذٍ تُشَاهِدُونَ وَتُدْرِكُونَ قُدْرَةَ الْعِشْقِ السَّحَرِيَّةَ جَيِّدًا. يَسَاعِدُ الْعِشْقُ أَصْحَابَ الْقُلُوبِ عَلَى فَهْمِ أَسْرَارِ الْكَائِنَاتِ.

قَالَ لِي شَمْسٌ فِي الْخَلُوةِ: اسْمَعْ، انْظُرْ إِلَى عَظَمَةِ الرُّوحِ، شَاهِدْ حَرَكََةَ الْإِنْسَانِ، وَاسْتَمِعْ إِلَى الرِّسَالَةِ الْعِرْفَانِيَّةِ لِلْعِشْقِ.

وَقَالَ شَمْسٌ: لَوْ أَنَّ شَوْكَةً أَصَابَتْ إصْبَعَ إِنْسَانٍ مِنْ تُرْكِسْتَانِ إِلَى الشَّامِ لَكَانَ أَلَمُهُ وَوَجَعُهُ أَلَمِي وَوَجَعِي. وَلَوْ أَنَّ قَدَمَ إِنْسَانٍ، مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ إِلَى الشَّامِ، اصْطَدَمَتْ بِحَجَرٍ لَتَمَنَيْتُ أَنْ يَكُونَ الْأَذَى الَّذِي أَلَمَ بِهِ قَدْ أَلَمَ بِي. وَلَوْ حَزَنَ قَلْبٌ لَكَانَ هَذَا الْقَلْبُ لِي. تَحَدَّثَ مُفَكِّرُنَا الْكَبِيرُ، الْمَدْفُوقُ فِي أَسْرَارِ الْخَلْقِ، عَنْ جَوْهَرِ ذَاتِ الْإِنْسَانِ وَعَنِ الْعِشْقِ.. أَحْتَاجُ إِلَى لُغَةٍ بِسَعَةِ الْفَلَكَ لِكَيْ أُشْرَحَ لَكُمْ مِبَادِيهِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ إِنَّهُ شَمْسٌ فِي وَسْطِ الظَّلِّ. وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يَحْتَرِقُ فِي أَثَرِ الْعِشْقِ، وَيَغْدُو رَمَادًا، هُوَ مِنْ صِنْفِ الشُّهَدَاءِ. وَلَآئِهِ اسْتُشْهِدَ فِي وَادِي الْعِشْقِ، لِأَشْكَ فِي أَنَّهُ سَيَسَاوَى بِالْعِلْيَةِ وَالْحُكْمَاءِ فِي حَضْرَةِ الْجَبَرُوتِ وَمِيَادِينِ الْعِشْقِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ طَرِيقَ الْعِشْقِ هُوَ مَكَانُ قَتْلِ الشُّهَدَاءِ وَمَشْهَدِ الْأَنْبِيَاءِ. وَمِثْلُ هَذَا الْعِشْقِ طَرِيقٌ إِلَى الضِّيَاءِ، حَرَكََةُ نَحْوِ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ وَالْحَقِيقَةِ.. جَاذِبٌ نَحْوَ الْوَحْدَةِ وَالْفَنَاءِ.

عَلَّمَنِي شَمْسٌ أَنَّ أَحْتَرَفَ الصَّبْرَ أَمَامَ إِزْعَاجَاتِ الْحُسَادِ وَالْمَدَّعِينَ الْمُتَعَصِّبِينَ فِي قُوْنِيَّةٍ وَاعْتِرَاضَاتِهِمْ وَسَبَابِهِمْ، وَأَنَّ أَلْتَزَمَ الصَّمْتَ. مَا أَجْمَلَ مَا كَانَ يَقُولُ. أُولَئِكَ الَّذِينَ يُعَادُونَ أَحِبَّاءَ الْحَقِّ، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَسِيئُونَ إِلَيْهِمْ؛ وَهَذَا غَلَطٌ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

إليهم. أَيْظَنُونَ أَنَّهُمْ يُكَرِّهُونَ إِلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ؟ لا، البتّة؛ ذَلِكَ لِأَنَّ أَحِبَّاءَ الْحَقِّ هَؤُلَاءِ مُتَجَرِّعُو الْغَمِّ فِي الْعَالَمِ، وَهَذَا يَزِيدُ فِيهِمُ الْمَحَبَّةَ وَالْإِنْشَغَالَ.

وَيُسَمَّى مِثْلُ هَذَا مُشْرَبَ الْبَذْلِ وَالْإِيثَارِ. وَهُوَ كَلَامٌ يَصْقُلُ رُوحَ السَّامِعِ وَقُلُوبَهُ وَيَزِيئُهُمَا، وَيَتَحَوَّلُ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَيُشِيرُ إِلَى أَنَّ دَافِعَ الْعِشْقِ هُوَ الَّذِي أَمْلَى أَسْبَابَ الْارْتِقَاءِ الدَّاخِلِيَّ عِنْدَ شَمْسٍ. وَلَا يُمْكِنُ تَعْلِيمُ دَرَسِ الْعِشْقِ بِرِسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ وَالْمَنْطِقِ؛ لِأَنَّ الْعِشْقَ لَيْسَ لَهُ أَبْجَدِيَّةٌ؛ وَكُلُّ سَعْيٍ إِلَى بَيَانِ الْعِشْقِ وَإِضَاحِهِ وَتَفْسِيرِهِ لَا طَائِلَ مِنْ وَرَائِهِ.

[٨٤] مَتَى يَمْضِي الْعَقْلُ فِي طَرِيقِ الْيَأْسِ؟

الْعِشْقُ هُوَ الَّذِي يَتَقَدَّمُ مُسْرِعًا إِلَى تِلْكَ النَاحِيَةِ

فَالْعِشْقُ هُوَ الَّذِي لَا يُيَالِي، لَا الْعَقْلُ

الْعَقْلُ يَنْشُدُ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ^(١)

تَعْلَمُونَ أَنَّنِي قَبْلَ لِقَاءِ شَمْسٍ كُنْتُ عَاشِقًا لِلدَّفْتَرِ، كُنْتُ أَجْلِسُ مُتَصَدِّرًا الْأَدْبَاءَ. وَعِنْدَمَا رَأَيْتُ جَبِينَ السَّاقِي سَكِرْتُ وَكَسَرْتُ الْأَقْلَامَ. وَالْآنَ أَقُومُ بِالْخِدْمَةِ، أَسْعَى وَأَجْتَهِدُ فِي سَوْقِ أَحِبَّائِي، أَوْ أَحِبَّاءِ الْمَعْرِفَةِ، إِلَى الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ، وَالْحَالِ الْمُتَّصِلَةِ بِجَمَالِ الْكُشْفِ وَالْوَجْدِ وَالْإِشْرَاقِ. وَهَذَا يَقِينًا بِمُسَاعَدَةِ رَبَّةِ الْعِشْقِ؛ لِأَنَّ الْعِشْقَ فَضِيلَةٌ، صِحَّةٌ فِي الْعَمَلِ، أَسَاسٌ لِغِنَى الْبَاطِنِ؛ مَنبِعُ كُلِّ ضُرُوبِ الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ الْعِشْقُ. وَجَدْتُ جَوْهَرَ الْحَيَاةِ وَلِكُسِيرِ الْحَيَاةِ فِي الْعِشْقِ.

رَسَمَ شَمْسٌ أَمَامِي عَالَمًا جَدِيدًا. أَدْرَكْتُ فِي مُحَضَّرِ شَمْسٍ جَيِّدًا مَعْنَى الزَّمَانِ

والمكان الحقيقيين، جعلتُ جسْمي وروحي في إمرة القلب، لكي ينفذا كُلَّ ما يأمر به القلب، الذي هو تحت بناء العشق. وابتغاء أن تطلّعوا على عالم الروح والجسد، أجعل قضية مستمدة من كتاب لمحيي الدين بن عربي، الذي كان أستاذي، عنواناً للمحديث. فقد كتب مُحيي الدين في إيضاح عالم الجسد والروح قوله:

الدنيا جَسَدٌ مِنْ دُونِ رُوحٍ، والإنسانُ هو رُوحٌ هذا الجَسَد. الإنسانُ هو العِلَّةُ الحقيقية والغائية للخلق. البشرُ هم المقصودُ الحقيقي من الخلق ويذُرُ عالم الوجود؛ فمن جهة الوجود الإنسان هو الموجود الأول، وهو مقدّم على الجميع، وفي ترتيب الظهور هو آخرُ ظاهرة في عالم الوجود. وقلبُ الإنسان محلُّ التجليات الإلهية، وتعبير آخر: القلبُ مُحتلُّ جنابِ الحقِّ تعالى. جعلَ الحقُّ تعالى الدنيا كمرآة صَدِئَةٍ، ولا بدَّ من صَقْلِ هذه المرآة؛ فمن ثَمَّ صار الإنسانُ صَفَاءً لِمِرْآةِ الوجود وروحاً لجسد العالم.

جعلَ الحقُّ تعالى الإنسانَ القَصْدَ الحقيقي للخلق، وسَمَّاه خليفته في الأرض، وأودعَ صدره قلباً هو في العظمة أوسعُ من الرحمة، وأعرض من السماوات. هذا القلبُ هو بَيْتُ الله، سُبْحَانَهُ.

أيها الناسُ، اعلَمُوا أَنَّ اللهَ تعالى قال: لا تَسْعُنِي الْأَرْضُ ولا السَّمَاءُ، ولكن يَسْعُنِي قَلْبُ الْمُؤْمِنِ.

يا أَهْلَ قَوْنِيَّةَ، اعلَمُوا أَنِّي وَسَمَسَا التَّبَرِيزِي نُوْمَنُ بالله تعالى، وكان أجدادنا جميعاً مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ الإسلاميِّ في إيران الكبير، فلا تَكْسِرُوا قَلْبَيْنَا الْمُؤْمِنَيْنِ، بالسُّخْرِيَّةِ والمَلَامَةِ والاستهزاء.

[٨٥] اَعْلَمُوا أَنَّ قَلْبِنَا مُتَنَزِّلُ الْعِشْقِ، وَالْعِشْقُ عَصَارَةُ الدِّينِ وَلُبُّ لُبَابِهِ، وَكُلُّ مَنْ لَدَيْهِ مِثْلُ هَذَا الْإِعْتِقَادِ الرَّاسِخِ، لَدَيْهِ يَقِينًا إِيْمَانٌ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَبِالْإِنْسَانِيَّةِ، بِالْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةِ لِلْكَلِمَةِ.

• مَا نَطَقَ الْعَاشِقُ بِشَيْءٍ إِلَّا انْطَلَقَتْ رَائِحَةُ الْعِشْقِ مِنْ فِيهِ فِي مَحَلَّةِ الْعِشْقِ.

• وَلَوْ نَطَقَ بِالْكَفْرِ، لَكَانَ لِكَفْرِهِ رَائِحَةُ الدِّينِ، وَلَوْ تَكَلَّمَ بِالشَّكِّ لَصَارَ شَكُّهُ يَقِينًا^(١).

وَوَقَفًا لِقَوْلِ الْجُنَيْدِ: الْعِشْقُ أَنْ يُمِيتَكَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، عَنْ نَفْسِكَ وَيُحْيِيكَ بِهِ.

دَخَلَ مَوْلَانَا لِلْحَفَاطِ فِي إِغْمَاضَةٍ مُرِيحَةٍ، ثُمَّ فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: أَيُّ عَالَمِ الْعِشْقِ الْأَبَدِيِّ وَالسَّرْمَدِيِّ، هَا قَدْ نَجَّيْتَنِي بِمُسَاعَدَةِ شُمْسِ الطَّيَّارِ مِنَ الظُّلُمَاتِ، وَالْآنَ حِينُ أَنْ تُنَجِّيَ أَيْضًا بَعْضَ مَتَعَصِّبِي قُوْنِيَّةً وَأَجْلَافَهَا.

أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَرِبُوا قُلُوبَكُمْ بِالْخَلْقِ فَتَتَعَبُوا، ارْبِطُوا قُلُوبَكُمْ بِالْعِشْقِ^(٢) لِكَيْ تَتَحَرَّرُوا.

سَكَتَ مَوْلَانَا قَلِيلًا فِي هَذَا الْوَقْتِ، فَتَهَضَّ رَجُلٌ مِنْ مَكَانِهِ وَقَالَ:

• يَا مَوْلَانَا، أَخْبِرْنَا: أَبِالْتَرِيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالْخُلُوةِ يُمْكِنُ تَعَرُّفُ أَسْرَارِ الْعِشْقِ

السَّمَاوِيِّ؟

تَبَسَّمَ مَوْلَانَا، وَوَاصَلَ الْقَوْلَ: مِنْذُ سَنَوَاتٍ، طَلَبْتُ مِنِّي وَلَدِي، سُلْطَانٌ وَلَدٌ، أَنْ

١- المثنوي، ٢٨٩٣/١، ٢٨٩٥.

٢- عند العارفين، الإنسان الكامل سَبَّاحٌ فِي بَحْرِ الْعِشْقِ الَّذِي لَا نِهَآيَةَ لَهُ، وَلَا يُعَاقَبُ الْعَاشِقُ عَلَى الْجُزْمِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ، وَأَحْوَالُ الْعَشَاقِ وَفِكَرُهُمْ لَا يُحْكَمُ عَلَيْهَا بِالْقَوَانِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْدِينِيَّةِ؛ إِذْ لَهَا مَعَايِيرُ أُخَر. وَالْعَشَاقُ الْحَقِيقِيُّونَ يَتَكَلَّمُونَ بِوَحْيٍ مِنْ قُدْرَتِهِمُ الْبَاطِنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ وَبِنَاءٍ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، مَا أَكْثَرَ الْمَخَالَفَاتِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْعَاشِقِ طَاعَاتُهُ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّ الْوَرَقَ سَيَحْتَرِقُ وَالْقَلَمَ سَيَنْكَبِرُ، كَمَا يَقُولُ الْعَارِفُونَ [الْمَوْلَف].

يدخل في الخلوة، فقلتُ له إنه ليس للمسلمين خلوة، وفي ديننا هذا العمل بذعة، ولكنه كان في شرائع الرُّسل السابقين، وكلُّ مجاهداتنا من أجل راحة الأبناء والأصحاب، ولا يحتاج إلى خلوة. شمس الدين التبريزيُّ مُخالفٌ للرياضات والخلوات. وأسرارُ العشق ليست شيئاً يُنال في الخلوة أبداً؛ لابد من أن يجد الإنسان مدرسة، ويتلمذ على أستاذ. العشق تحررٌ من التعينات والرسوم. وإنه بممارسة الوكبات الروحية، والإحساس بأنه لابد من تعرفٍ أسرار الوجود، يمكن الإمساك بفتح العشق. ونحن نأتي من العدم، ونرجع إلى ناحية العدم من جديد، فلتنظروا بنظرٍ أكثر تفحصاً إلى الذهاب والمجيء، أو المجيء والذهاب:

في كُلِّ لحظة، يا رب، قافلةٌ تتبعها قافلةٌ، تسير من العدم إلى الوجود.

وفي كُلِّ لحظة تعود هذه القوافل مُسرعةً من الوجود إلى العدم^(١).

[٨٦] من وجهة نظر العرفان والتصوف العشقي، عشق جمال الموجودات يدل على فقدان ثنائية الـ «أنا» والـ «أنت». اعلموا أن الأشياء كلها تتمازج في وحدة الكل. يتخلص العشاق من الشخصية الفردية؛ لأنهم يشاهدون العالم كله في أنفسهم. في تلك اللحظات التي يصل فيها الإنسان إلى كمال العشق تتلاشى الاضطرابات والمخاوف من الحياة. وشمس التبريزي ممثلٌ لنوع من العشق والمحبة، وعندما جاء من ديار بعيدة إلى هنا أتى لأرباب العشق الإلهي بهدية. وإن أعظم أحداث حياتي هو لقائي التاريخي بمجلى العشق، أي شمس تبريز. وهو مظهر تجلي الجلال والجمال الإلهي، وكنت أدري لماذا أسميه وأنتم تعرفونه جيداً؟. نحن جميعاً خلقاء الله في الأرض،

وشاهدُ الأسرارِ الإلهيةِ لِلْحَقِّ تعالى، التي تتجاوزُ التقدير. انظرُ إلى ما في جيبِكَ لِكَي تَرَى أَيَّ نصيبٍ لَكَ منه. كانَ شَمْسٌ موجودًا بينَ الرَّبِّ والمريوب. وكانَ يقولُ، ويؤكدُ أَنَّهُ عَرَفَ الْحَقَّ تعالى بِمُساعدةِ بازِي العِشقِ سَريعًا. والمؤسِفُ أَنَّ أَهْلَ قُونيةَ لم يَقْبَلُوهُ، ولم يَتَلَقَّوا كَلامَهُ بِسَمْعِ القَبولِ:

— أَيْتُهَا الصَّبَا، اتَّيَنِي بِوَضْفٍ لِحَدِّ شَمْسِ الدِّينِ وَخَالِهِ
أَحْضِرِي العَبْرَ وَمِسْكَ الخُتَنِ مِنَ الصِّينِ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ
— وما الرَّأْسُ حَتَّى أَقَدَّمَهُ فِدَاءً لِقَدَمِ شَمْسِ الدِّينِ؟
اذْكُرِي اسْمَ شَمْسِ الدِّينِ؛ لِكَي أَجْعَلَ الرُّوحَ نِشَارًا عَلَيْهِ
— وَقَدْ سَكِرْنَا مِنْ رَائِحَةِ شَمْسِ الدِّينِ، وَنَمْضِي
نَحْنُ سُكَارَى مِنْ كَأْسِ شَمْسِ الدِّينِ، فَيَا أَيُّهَا السَّاقِي لَا تَأْتِ بِالشَّرَابِ
— شَمْسُ الدِّينِ كَأْسُ جَمَشِيد، وَشَمْسُ الدِّينِ بَخْرٌ عَظِيمٌ،
وَشَمْسُ الدِّينِ نَفْسُ المَسِيحِ، وَشَمْسُ الدِّينِ عِذارُ يَوْسُفَ
— شَمْسُ الدِّينِ نَهَارٌ مُتَجَلِّ، وَشَمْسُ الدِّينِ فَلَكٌ دَوَّارٌ،
وَشَمْسُ الدِّينِ جَوْهَرُ المَنجَمِ، وَشَمْسُ الدِّينِ هُوَ اللَّيْلُ والنَّهَارُ^(١)

يَسْعَى شَمْسٌ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ لِأَن يقدِّمَ لِلْعِشْقِ والموسيقا، التي هي مِنْ مَظَاهِرِ
الفنِّ الإنسانيِّ ولها تأثيرٌ خَلاق، مَجَالِي حافِلَةٌ بِالْجَلالِ والعِظَمَةِ. وهو يُلَخِّصُ أَهْدافَهُ
الخَفِيَّةَ والإنسانيةَ، بِصَفَاءٍ وَحَمِيمِيَّةٍ ومَحَبَّةٍ وإخلاصٍ، وَيَقْدِّمُهَا إِلَى الآخَرِينَ. وفي هذا

١ - ديوان شمس تبريز، الغزلية ١٠٨٢. والحقُّ: بلَدٌ وولايةٌ في تُركستان، معروفٌ في الأدب الفارسيِّ بكثرةِ
غزلانه التي يُستندُ منها اليُسكُ. وكَأْسُ جَمَشِيد: كَأْسٌ أسطوريةٌ منسوبةٌ للملك الفارسيِّ جَمَشِيد يُزعمُ أَنَّهُ
كَلَّمَا نَظَرَ فِيهَا مالِكُها رَأى فِيها ما يَجري في العالَمِ

اليوم، اخترتُ من أقواله وفكره وآماله نقاطاً لها في ذهنه وفي عواطفه، وكذلك في عمله وسلوكه، وضوح أكبر، وهذا ما أنشدته في شأن العشاق الحقيقيين:

طابَ عَيْشُكُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ، أَيُّهَا الْعُشَّاقُ

وجعلَ اللهُ لَكُمْ هذه الدُّنيا مَنْجَمًا لِلسُّكْرِ، أَيُّهَا الْعُشَّاقُ

وقد بَدَأَ بَحْرُ الْعِشْقِ هَذَا بَحْرًا غَرِيبًا مَعْلَقًا،

فَلَا هُوَ تَحْتُ، وَلَا هُوَ فَوْقُ، وَلَا هُوَ فِي الْوَسْطِ، أَيُّهَا الْعُشَّاقُ

وَوَصَلَ صِيَاحُ سُرُورِ الْعَاشِقِينَ إِلَى الْعَرْشِ

وتَجَاوَزَتْ هذه القافلةُ الْعَرْشَ وَالْفَرْشَ، أَيُّهَا الْعُشَّاقُ^(١)

- إِنَّ لِلْعِشْقِ مَنَّةً تَدُلُّ وَتَكْثُرُ
وَالْيَدُ لَا تَحْصُلُ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ تَدَلُّلٍ كَثِيرٍ مِنْهُ
- وَأَنْتَ بِإِهَانَةٍ وَاحِدَةٍ تَقْرُ مِنْ الْعِشْقِ،
فَمَاذَا تَعْلَمُ عَنِ الْعِشْقِ غَيْرَ الْأَسْمِ؟
(المثنوي، ١١٦٧/٥، ١١٦٥)

عَالَمُ الْغَيْبِ

[٨٧] كَانَ مَوْلَانَا يَرِيدُ، قَبْلَ مَجِيءِ شَمْسٍ ثَانِيَةٍ، أَنْ يَعْرِفَهُ لِأَهْلِ قُوْنِيَّةٍ عَلَى النَّحْوِ
الَّذِي كَانَ لَا تَقًا بِمَقَامِهِ، بِأَنَّهُ لَيْسَ فَقَطْ عَالِمًا عَالِي الْقَدْرِ وَجَلِيلًا، بَلْ هُوَ عَارِفٌ بِصِيرٍ
بِالْأَلَمِ خَبِيرٌ بِالْوَجَعِ. وَقَدْ أَشْعَلَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ مَصْبَاحًا سِيْضِيًّا، لِسِنِينَ، عُقُولَ
أَصْحَابِ الْقُلُوبِ بِمَادَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَبَنِيْرَهَا. وَيَبْدُو رَجُلًا شُجَاعًا، وَفِي الْبَحْثِ وَالْجَدَلِ
غَيْرَ هِيَابٍ وَلَا يَنَالُ مِنْهُ التَّعَبُ. كَانَ مَوْلَانَا يُؤَمِّلُ أَنْ يَسْتَطِيعَ تَغْيِيرَ أَحْكَامِ طَبَقَاتِ النَّاسِ
فِي شَأْنِ جِبِلَّةِ رَجُلٍ حَسَّاسٍ وَسَرِيعِ التَّأْذِي، وَبَيَانِ الْأُسُسِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يُبْنَى عَلَيْهَا
التَّقْوِيمُ. وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَاصَلَ مَوْلَانَا كَلَامَهُ:

قَدَمَ شَمْسٌ مِنْ أَجْلِ تَفْتِيْحِ الْعِشْقِ الْحَقِيقِيِّ فِي وَجُودِي، فِي طَيْبَتِي، مَا يَشْبُهُ أَنْ يَكُونَ
مُعْجِزَةً. وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَبَيِّنَ لَكُمْ آثَارَ هَذَا الْعِشْقِ. الْعِشْقُ أَزَالَ بَطْرَفَةَ عَيْنِ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ
الَّذِي أَكَلَ رُوحِي وَجَسَدِي كَالْجُذَامِ، الْعِشْقُ أَوْضَحَ لِي بِالتَّجَرِبَةِ جَلَالَ الذَّاتِ الْأَبَدِيَّةِ
وَجَمَالَهَا. عَرَفْتُ أَنَّهُ يَحْفَظُ جَاذِبِيَّةَ الْأَرْضِ وَالْكَائِنَاتِ. وَعِنْدَمَا هَاجَمَتْ أَمْوَاجُ الْعِشْقِ
وَجُودِي، جَاشَتْ جَوَاهِرُ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي هِيَ هِبَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْبَشَرِيَّةِ فِي قَلْبِي، كَالْحَجَرِ
الَّذِي يَنْشَقُّ فِي الْجَبَلِ فَيَنْفَجِرُ مِنْهُ الْمَاءُ الصَّافِي الْعَذْبُ الزَّلَالِ. وَعِنْدَئِذٍ تَغْيِرَتْ هُويَّتِي
وَوُجُودِي، [٨٨] وَتَحَوَّلَتْ ظُلُمَاتُ بَاطِنِي إِلَى شَمْسٍ سَاطِعَةٍ، فَكُنْتُ أَسْمَعُ صَوْتَ

الطبيعة الذي هو أكثر الأصوات إثارة للهيجان، وأحس على نحو رائع وسهل بأنني كنت أسمع صدى تأوهات قلبي وأمنيته وآماله، وكنت غارقاً بسماع صدى محبوبي.

يكون للعاشقين خمرة هي دماء قلوبهم

وتكون أغنيهم على الطريق والمنزل^(١)

ولكي يصير الإنسان عاشقاً، لابد له من متابعة رجل تقى يتمتع بانساط وذوق متفنن، ومتفكر عارف مثل شمس تبريز. وبمساعدة الإنسان الكامل وتوجيهه، لابد للروح من أن يتقدم بفعالياته في عالم ما وراء الطبيعة. وعندئذ يتحول جسد الإنسان إلى دار ضيافة، وترشح من عقله فكرة جديدة تطري الجسم والروح:

كن مضيفاً منهلاً الوجه، كالخليل [عليه السلام]

ولا تغلق الباب، وقف منتظراً في الطريق

— فكل ما يأتي من عالم الغيب

هو ضيف في قلبك، فأكرم مثواه

— هيا، ولا تقل: بقي كلاً علي

فإنه سيطير سريعاً عائداً إلى العدم^(٢)

العشق يجمع حوله كل عباده الله، من الأديان والمذاهب والمشارب المختلفة، كما يجتمع الفرائش حول الضوء، ويوجد بينهم ألفة ومحبة لا انتهاء لهما.

يقول فريد الدين العطار إن إبراهيم بن أدهم كان أميراً في بلاد بلخ، وكان

١- المثني، ٣٤٨٧/٥.

٢- المثني، ٣٦٤٨/٥.

تَحْتَ وَلايَتِه عَالَمٌ مَرَامِي الْأَطْرَافِ، وَكَانَ يَتَوَلَّى حِرَاسَتَهُ دَائِمًا أَرْبَعُونَ فَتًى نَشِطًا يَمْتَشِقُونَ سُيُوفًا مَجْرَدَةً مِنَ الْأَعْمَادِ، وَيَحْمِلُونَ دَبَابِيْسَ مِنَ الذَّهَبِ، إِلَى جَانِبِ عَرْشِهِ. وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي كَانَ مُسْتَعْرِقًا فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ فِي فِرَاشِهِ الْوَثِيرِ، وَفِي مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ سَمِعَ صَوْتًا، فَنَهَضَ مِنَ الْفِرَاشِ فَرَأَى أَنَّ سَقْفَ الْبَيْتِ أَوْ الْقَصْرِ الَّذِي هُوَ فِيهِ يَهْتَزُّ. فَأَخَذَ يَفْكُرُ. فَسَمِعَ وَقَعَ قَدَمٍ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ شَخْصًا مَجْهُولًا يَتَخَطَّى فَوْقَ سَطْحِ الْبَيْتِ أَوْ الْقَصْرِ، فَسَأَلَ:

- مَنْ أَنْتَ؟ وَمَاذَا تَعْمَلُ فَوْقَ سَطْحِ مَنْزِلِ إِبْرَاهِيمَ؟ - فَسَمِعَ إِجَابَاتٍ مِنْ هَذَا النَّوعِ:
- أَنَا مِنْ مَعَارِفِكَ.. نَعَمْ يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنَا مِنْ مَعَارِفِكَ. لَسْتُ غَرِيبًا، وَلَسْتُ لِيصًا أَيْضًا، فَقَدْتُ جَمَلِي عَلَى هَذَا السَّطْحِ، جِئْتُ أَبْحَثُ عَنْ ضَالَّتِي.

غَضِبَ إِبْرَاهِيمُ، وَفِي ابْتِسَامَةٍ صَفْرَاءَ صَاحَ:
- يَا غَيْبِي، يَا جَاهِلُ، يَا مَجْنُونُ، تَبَحُّثُ عَنْ جَمَلٍ ضَائِعٍ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ سَطْحِ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ؟

[٨٩] الْمَجْهُولُ وَهُوَ يُفَهِّمُهُ، وَقَدْ كَسَرَتْ فَهْقَهُتُهُ صَمْتَ اللَّيْلِ الْمُذْهِشِ، وَاصْلَ الْقَوْلِ مِنْ دُونَ خَوْفٍ:

- وَأَنْتَ أَيْضًا، كَيْفَ تَطْلُبُ اللَّهَ فِي الثِّيَابِ الْجَمِيلَةِ وَأَزْدِيَةِ الْحَرِيرِ وَالْفِرَاشِ الْوَثِيرِ؟
وَمِنْ هَذَا الْبَيَانِ الْمُؤَثِّرِ الْمُحَرِّكَ الْقَاطِعِ، فَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ قَلِيلًا، وَاضْطَرَمَّتْ نَارٌ فِي قَلْبِهِ، وَدَفَعَ عَنْهُ الْأَوْهَامَ وَالْخَيَالَاتِ وَالظُّنُونِ الَّتِي لَا أَسَاسَ لَهَا، وَحَتَّى الْفَجْرِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْدَأَ مِنَ الْخَجَلِ وَمِنْ وَخْزِ الضَّمِيرِ، فَاضْطُرَّ إِلَى الدَّهَابِ إِلَى دِيْوَانِ الْمُلْكِ مَفْكُرًا حَزِينًا.
وَعَلَى جِوَارِ غُرَّةٍ دَخَلَ مِنَ الْبَابِ رَجُلٌ ذُو مَهَابَةٍ وَصَلَابَةٍ. لَمْ يَكُنْ لَدَى الْحُرَاسِ

الْقُدْرَةُ عَلَى مَنَعِهِ مِنَ الدَّخُولِ. تَقَدَّمَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَانِبِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَذْهَمَ، فَسَأَلَهُ
إِبْرَاهِيمُ فِي قَلْبِهِ رَوْعٌ وَخَشْيَةٌ:

- مَنْ أَنْتَ؟ وَمَاذَا تُرِيدُ مِنِّي؟

- أُرِيدُ أَنْ أَقِيمَ فِي هَذَا الرِّبَاطِ.

- لَيْسَ هَذَا الْمَكَانُ رِبَاطًا، بَلْ هَذَا قَصْرِي، الْقَصْرُ الْعَظِيمُ الْجَلِيلُ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ
أَذْهَمَ.

- هَذَا الْقَصْرُ الْعَظِيمُ لِمَنْ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُصْبَحَ لَكَ؟

- كَانَ لِأَبِي.

- قَبْلَ أَبِيكَ، لِمَنْ كَانَ؟

- كَانَ لِوَالِدِي.

- وَقَبْلَ ذَلِكَ؟

- كَانَ لِفُلَانٍ.

- إِذَا، أَصْحَابُ الْمَكَانِ السَّابِقُونَ أَيْنَ هُمْ؟ - إِلَى أَيْنَ ذَهَبُوا؟

- مَاتُوا جَمِيعًا، وَدَعَوْا الدُّنْيَا.

- وَمَعَ ذَلِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ، لَا تَقْبَلُ أَنْ يَكُونَ هَهُنَا رِبَاطٌ قَدِيمٌ. يَأْتِي شَخْصٌ، وَيَذْهَبُ

آخَرُ، وَيَمْضِي مُحَسَّرًا، وَآخَرُ يَغْدُو مَالِكًا لِلْقَصْرِ. الشَّيْءُ الَّذِي لَا يَمْضِي وَلَا يَفْنَى إِنَّمَا
هُوَ الْعِشْقُ وَالْإِيمَانُ. قَالَ هَذَا، وَتَوَارَى عَنِ الْأَنْظَارِ.

مِنْ سَمَاعِ قَوْلِ الرَّجُلِ الْمَجْهُولِ، أَحَسَّ إِبْرَاهِيمُ بِهَيْجَانٍ وَغَلْبَانٍ فِي نَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ
لَهُ بِهِمَا عَهْدٌ: هَلْ جَاءَ هَذَا الْمَجْهُولُ لِكَيْ يَكْشِفَ أَسْرَارَ قَلْبِهِ الْمَلِيءِ بِالْأَمَلِ؟ تَغْيِيرَ

إبراهيم، وأحسَّ على حين غرة بأن قلبه يتأثر أنوار العشق صار مُشرِّقاً بالحقيقة:
 - كُلُّ أَجْزَاءِ الدُّنْيَا، مِنْ ذَلِكَ الْحُكْمِ السَّابِقِ، صَارَتْ أَزْوَاجًا، كُلُّ عَاشِقٍ لِزَوْجِهِ.
 - وَالْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ وَالنَّبَاتُ وَالْجَمَادُ، كُلُّهَا مُرَادَاتٌ عَاشِقَةٌ لِمَنْ لَا مُرَادَ لَهُ.
 - وَالذُّنْبُ وَالذُّبُّ وَالْأَسَدُ تَعْرِفُ مَا الْعِشْقُ؛ وَمَنْ هُوَ فَارِعٌ مِنَ الْعِشْقِ هُوَ أَقْلٌ مِنَ
 الْكَلْبِ.
 - وَلَوْ أَنَّ الْعِشْقَ لَمْ يَكُنْ مُوجُودًا مَتَى كَانَ الوجودُ مُوجُودًا، وَمَتَى نَحْوَلُ الْخُبْرُ إِلَى
 وجودك، وَمَتَى صِرْتَ موجودًا؟^(١)

ودَعَ إبراهيمُ بنُ أدْهَمَ كُلَّ ظَوَاهِرِ الدُّنْيَا، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ حَيَاةِ الْعِشْقِ الْجَمِيلَةِ
 الْجَذَابَةِ، وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَكْثَرَ حَقِيقَةً مِنَ الْعِشْقِ، وَبِأَنَّهُ أَجْمَلُ مَجَالِي الْعِشْقِ
 مُوجُودٌ فِي الْجَمَالِ، وَهَذِهِ الْمَحَاسِنُ مُتَوَارِيَةٌ فِي الوجودِ وَفِي الطَّبِيعَةِ وَفِي الْكَائِنَاتِ.
 وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُحَسُّ بِأَنَّ نُورَ الْحَقِّ يُشِيعُ عَلَى قَلْبِهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يودَعَ تَعَلُّقَاتِ الدُّنْيَا
 وَمُظَاهِرَهَا الْخَادِعَةَ.

هذا الانجذابُ الباطني، مَنْ كَانَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَعْلَمَنِي إِيَّاهُ وَيَبَيِّنَهُ لِي غَيْرُ شَمْسٍ؟
 مَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَقُولَ لِي إِنَّ الْحَيَاةَ ذَاتَهَا مَثِيرَةٌ لِلْعِشْقِ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ أَنْ
 يَعْشَقَ مَحْبُوبًا أَوْ مَعْشُوقًا، وَأَنْ يُنْشِدَ مِنْ أَجْلِهِ وَيَرْقِصَ وَيَغْنِي وَيَتَرَنَّمْ؛ لِكَيْ يَغْرِقَ تَمَامًا
 فِي الْمَحَبَّةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْإِيثارِ.

اسأَلُونِي: مَا الْفَضِيلَةُ؟ - أَقُولُ: هِيَ الْعِشْقُ. وَبِهَذَا الْمَعْنَى، إِذَا عَتَبَرَنِي أَهْلُ قُوْنِيَّةٍ، أَنَا
 الْعَاشِقُ، كَافِرًا فَقَدْ دَاسُوا بِأَقْدَامِهِمْ عَلَى الْفَضِيلَةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ. وَإِذَا قَالُوا عَنْ شَمْسِ الدِّينِ

إنه ساحرٌ فقد نفوا العِشْقَ والجَمَالَ والوجودَ في ذات المعرفة ودُنِيا عِلْمِ المَعْنَوِيَّةِ، فأَيُّ
أَناسِيٍّ لا ذوقَ لهم هم؟!!

أيها الأحبُّ، ينزلُ العِشْقُ في القلبِ بمئةِ دَلالٍ وُعُججٍ، متبَخِّراً؛ وبهدوءٍ، يجعلُ
لَحَظَاتِ الحِياةِ لَألاءَ، غنيَّةً، جميلةً، صافيةً. فهل يمكنُ جَعْلُ شَمْسِ الدِّينِ، المَدَاحِ
لِلْعِشْقِ والمحبَّةِ، ساحراً؟ هل يمكنُ التَّفْرِيطُ بِشَخْصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ كهذه بسهولة؟ أمّا أنا فقد
أَخْلَيْتُ دَارَ القلبِ رَمَناً طويلاً مِنَ المحبَّةِ الظَّاهِرِيَّةِ، فَكُنْتُ أَفَكُّرُ في شَمْسِ الدِّينِ، وهو
في أَوْجِ الكَمالِ. كُلُّ مَنْ يحيا بِعِشْقِ شَمْسٍ سيبقى دائماً حَيًّا. شَمْسٌ دَاعٍ مُؤْمِنٌ معتَقِدٌ
بِخَالِقِ الكائناتِ، وهو يَعْلَمُ الرَّاغِبِينَ والطَّالِبِينَ المَصَادِرَ الأَبَدِيَّةَ للسَّعادةِ والمحبَّةِ.
شَمْسٌ شَفِيقٍ، شَمْسٌ فَلَقِيٍّ، شَمْسٌ انعكاسٌ لِأضْداءِ قَلْبِي، شَمْسٌ مَجَرَّةُ آمالِي، شَمْسٌ
تَصَوِيرٌ لِلْمَحاسِنِ، إنَّه صَوْتُ الحَقِيقَةِ الموزُونُ وَطْنِينُ العِشْقِ في الأرضِ ^(١). شَمْسٌ

١- كَتَبَ مُحَمَّدُ الغَزالي في باب العِشْقِ: «العِشْقُ يَقْصِدُ إِلَى الكَمالِ؛ ولأنَّ الكَمالَ المَظْلُوقَ [٩١] خَاصٌّ بِذاتِ الباري
تعالى، فهو تعالى أَحَقُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِالعِشْقِ». وفي عَقِيدَةِ العارِفِينَ أَنَّ الحَقَّ تعالى خَلَقَ العِشْقَ في الأَزَلِّ وَوَقَّفاً
لِلْحَدِيثِ التَّبَوِيِّ «فَأُخْبِيتُ أَنْ أُعْرِفَ» أَوْجَدَ الخَلْقَ، وَصَبَّ شَرابَ العِشْقِ في حُلُوقِهِمْ؛ وَلِذلِكَ تَكُونُ المحبَّةُ
مَوْهَبَةً مِنَ الحَقِّ وتعلِّماً مِنْهُ تعالى؛ وساقِي شَرابِ العِشْقِ في هذه الحانةِ هو جَمالُ خالِقِ العِشْقِ. والأمرُ مِثْلُ ما
يقول مولانا:

اخْتَرِ لِنَفْسِكَ عِشْقَ ذَلِكَ الْحَيِّ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الْباقِي وهو الَّذِي يَسْقِيكَ مِنَ الشَّرابِ الْمُقَوِّي لِلرُّوحِ
(الْمُنْتَوِي، ٢٢٠/١)

وقد نُقِلَ عَنْ أَبِي يَزِيدَ البِسطامي أَنَّهُ قالَ:
«حَقٌّ لَوْ أُعْطِيتُ صَفْوَةَ آدَمَ وَقُدْسَ جِبْرِيلَ وَخُلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَسَوْقَ مُوسَى وَطَهارةَ عِيسَى، لَا تَرْضَى، وَاطْلُبْ ما هُوَ
فَوْقَ هَذِهِ الْأُمُورِ، اطلُبِ العِشْقَ، وَلَا تَنْزِلْ؛ إِذْ كَلِمَا نَزَلَتْ حُجِبَتْ»
وَجَعَلَ الْأَطْبَاءُ العِشْقَ مِنْ أَمْرَاضِ الْإِنْسَانِ وَشَبَّهَها بِ«المالِيخوليا». وَنُقِلَ عَنْ أَرِسْطو فِي بَيانِ العِشْقِ: «هُوَ عَمَى
الْحَيْسِ عَنْ إدْرَاقِ عُيُوبِ الْمُحِبُّوبِ».
وقال ابنُ سِينا: «هَذَا مَرَضٌ وَسُوءٌ شَبَّهَ بِالمالِيخوليا»
=

أَيْضًا يُحِبُّنِي مَحَبَّةً لِهَدَبِ عَيْنَيْهِ، [٩١] وَقَدْ قَالَ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً إِنَّ لِي فِي الدُّنْيَا كُلِّهَا مَحْبُوبًا وَاحِدًا، هُوَ جَلَالُ الدِّينِ الْبُلْخِي. نَعَمْ، قَالَ مِرَازًا:

نَحْنُ شَخْصَانِ التَّقْيَا عَلَى نَحْوِ عَجِيب. وَقَلِيلٌ جِدًّا أَنْ يَلْتَقِيَ شَخْصَانِ مِثْلَنَا. وَاضِحَانِ جِدًّا، وَلَمْ يَكُنِ الْأَوَّلِيَاءُ وَاضِحِينَ، وَمَحْجُوبَانِ جِدًّا. إِنَّهُ مِنْ بَرَكَاتِ مَوْلَانَا أَنْ يَسْمَعَ مِنِّي أَيُّ إِنْسَانٍ كَلِمَةً. مَوْلَانَا قَمَرٌ، وَأَنَا شَمْسٌ.

وَقَدْ قَالَ لِي:

مِنْ أَجْلِكَ أَنْتَ عُدْتُ مِنْ حَلَبَ.

فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، قَالَ شَمْسٌ لِابْنِي سُلْطَانٍ وَلَدَ:

أَنْتَ لَا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى نَفْسِهِ، دَنٌّ مِنْ شَرَابِ رَيَّانِي، خُتِمَ بِالطِّينِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ اِطْلَاعٌ عَلَيْهِ. أَنْصَتُ إِلَى الْعَالَمِ، فَكُنْتُ أَسْمَعُ:

هَذَا الدَّنُّ بِسَبَبِ مَوْلَانَا فُتِحَ. وَكُلُّ مَنْ اِنْتَفَعَ مِنْ هَذَا، كَانَ سَبَبَ اِنْتِفَاعِهِ مَوْلَانَا^(١).

= وَجَعَلَ الْعَارِفُونَ الْعِشْقَ صِفَةً لِلْحَقِّ وَلَطِيفَةً غَيْبِيَّةً وَوَسِيلَةً لِتَضْفِيَةِ الْبَاطِنِ. وَالْعِشْقُ مُوجُودٌ فِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْوُجُودِ، وَلَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنَ الْعِشْقِ، عِلَّةٌ كَانَ أَوْ مَعْلُولًا. فَأَيُّ شَيْءٍ نَعْرِفُ بِهِ الْعِشْقَ؟ - عَلَيْنَا أَنْ نُدْرِكَهُ بِالْعِشْقِ. قَالَ ذُو الْقُرُونِ الْمَصْرِيِّ: «عَرَفْتُ رَبِّي بِرَبِّي، وَلَوْلَا رَبِّي لَمَا عَرَفْتُ رَبِّي».

سَأَلَ أَحَدَهُمْ: وَمَاذَا يَكُونُ الْعِشْقُ؟ فَقُلْتُ: حِرٌّ مِثْلُنَا؛ لِيَتَفَرَّقَهُ.

١ - مَقَالَتُ شَمْسٍ، بِتَحْقِيقِ الذِّكْرِ مُوَحَّدٍ، ص ١٧٥.

- وإذا، فماذا يكونُ العشقُ؟ إنه بخرُ العدم
وقد كُسرَتْ لِلْعَقْلِ هناكَ القَدَمُ
- العشقُ قَهَّارٌ، وأنا مقهورٌ لِلْعِشْقِ
وقد صرْتُ وَضَاءَ كَالْقَمَرِ، من نور العشق
(المثنوي، ٤٧٢٦/٣ - ٩٠٧/٦)

العشقُ أساسُ الوجود

[٩٢] سَمِعَ صَوْتُ الْأَذَانِ مِنْ مَثْنِيَةِ جَامِعِ قُونِيَّةِ الْكَبِيرِ، وَكَانَ صَدَى الْكَلَامِ
الْإِلَهِيِّ يَنْتَزِلُ مِنَ الْفَضَاءِ اللَّامَحْدُودِ نَحْوَ الْأَرْضِ، وَيَحِيطُ بِخَانِقَاهِ الْمَوْلَوِيَّيْنِ، كَانَ
صَوْتًا جَذَابًا أَحْمَدَ صَوْتَ مَوْلَانَا النَّافِذِ، وَقَدْ امْتَلَأَ الْفَضَاءُ بِالْدَّعَاءِ. تَقَرَّرَ أَنْ يَجْتَمَعَ
النَّاسُ فِي عَصْرِ الْيَوْمِ التَّالِي فِي الْخَانِقَاهِ لِسَمَاعِ بَقِيَّةِ كَلَامِ مَوْلَانَا، وَكَانَ الْمَهْتَمُونَ
بِمَوْلَانَا يَتَابِعُونَ بِنَظَرَاتٍ مُشْتَاقَةٍ طَرِيقَ ذَهَابِ مُرَادِهِمْ.. وَهُمْ لَا يَرِيدُونَ الْإِبْتِعَادَ عَنْ
مَوْلَانَا حَتَّى لِلْخَطَةِ وَاحِدَةٍ.

فِي عَصْرِ الْيَوْمِ التَّالِي عُطِّلَ سُوقُ قُونِيَّةِ، وَانْدَفَعَ ذَوُو الْقُلُوبِ الْمُشْتَاقَةِ الْمُتَحَرِّقَةِ إِلَى
الْخَانِقَاهِ. وَعِنْدَمَا وَصَلَ مَوْلَانَا إِلَى الْخَانِقَاهِ، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دَخَلَ فِي هُدُوءٍ وَصَمْتٍ،
وَكَانَ وَجْهُ مَوْلَانَا يَبْدُو أَكْثَرَ امْتِلَاءً بِالْجَلَالِ وَالصَّفَاءِ، وَكَأَنَّ وَرَاءَ هَذِهِ السَّيْمَاءِ أَلْفَ كَانُونٍ
نُورٍ مُتَّقِدٍ. كَانَ صَوْتُ مَوْلَانَا وَكَلَامُ مَوْلَانَا وَرَنِينَ صَوْتِهِ اللَّطِيفُ الْمُؤَثِّرُ تَمُوجٌ بِالمَحَبَّةِ
وَالْإِخْلَاصِ، كَأَنَّ النَّاسَ مَرَّةً أُخْرَى كَانُوا يَسْمَعُونَ التَّرَانِيمَ الْإِلَهِيَّةَ.

كَانَ مُتَوَارِيًا فِي نَظَرَاتِ مَوْلَانَا النَّافِذَةِ عَالَمٌ مِنَ الْأَسْرَارِ. وَكَانَ يَرِيدُ أَنْ يَغْرِصَ
عَلَى النَّاسِ فِكْرَهُ الْخَالِدَةَ بِمُسَاعَدَةِ الْكَلِمَاتِ وَالْجُمَلِ الْأَخَاذَةِ؛ وَلِهَذَا السَّبَبُ ابْتَدَأَ
كَلَامَهُ بِالْقَوْلِ:

ذَلِكَ الْعَاشِقُ الثَّمَلُ اللَّامِبَالِي
الَّذِي لَمْ يَخْلُ مِنَ الْعِشْقِ لَحْظَةً
[٩٣] كَانَ يَطُوفُ دَائِمًا فِي نَاحِيَةِ الْعِشْقِ
سَجَّادَتُهُ عَلَى كَنَفِهِ، وَسُبْحَتُهُ فِي يَدِهِ
الْعِشْقُ حَيَاةٌ خَالِدَةٌ

لَا أَخْلَى اللَّهَ الْحَيَاةَ مِنَ الْعِشْقِ!
أَتَذَكَّرُ أَنْ شَمَسًا قَالَ: إِنَّ الْعُشَّاقَ يَطْلُبُونَ الْمَوْتَ وَالْفَنَاءَ كَمَا يَطْلُبُ الشَّاعِرُ
الْقَافِيَةَ، وَالْمَرِيضُ الشِّفَاءَ، وَالْمَحْبُوسُ الْخَلَاصَ، وَالْأَطْفَالُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. وَكُلُّ عُشَّاقٍ
مَدْرَسَةُ الْعِرْفَانِ يَرَوْنَ الْمَعشُوقَ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ بِنُورِ الْعِشْقِ.
وَيَعْتَقِدُ الْعَارِفُونَ وَالْعُشَّاقُ أَنَّ قُوَّةَ الْعِشْقِ الَّتِي تَوْجِدُ فِي الْإِنْسَانِ حَالَةً جَذِبٍ وَانْجِذَابٍ
عَظِيمَةً وَقَوِيَّةً، حَتَّى إِنَّهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَوْثِّرَ فِي الْجَمَادَاتِ. وَنَعْرِضُ هُنَا سُؤَالَ؛ فَاسْتَمِعُوا
بِدَقَّةٍ ثُمَّ أَجِيبُوا عَنْ سُؤَالِي.

السُّؤَالُ هُوَ: هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ لَمْ يَذْكُرْ بِالِإِضَاحَاتِ الَّتِي قَدَّمْتُهَا حَتَّى الْآنَ مَعْنَى
عَالَمِ الْعِشْقِ الشَّامِلِ وَالْجَمِيلِ؟

نَهَضَ عَدَدٌ مِنَ الْأَشْخَاصِ، وَقَالَ كُلُّ مِنْهُمْ بِصَوْتٍ مَرْتَفِعٍ: أُنَا، أُنَا، أُنَا...
- أَنْتُمْ، أَنْتُمْ لَمْ تَذْكُرُوا الْوَلَةَ وَالْهَيَامَ وَالْهَيَجَانَ؟
- لَا، لَا، لَا.

تَابَعَ مَوْلَانَا كَلَامَهُ مِنْ دُونِ انْزِعَاجٍ وَبِهْدُوءٍ فَقَالَ:
قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ إِنَّ الْحَقَّ تَعَالَى شَاءَ أَنْ يُظَهِّرَ صُنْعَهُ، فَخَلَقَ
الدُّنْيَا. شَاءَ أَنْ يُظَهِّرَ ذَاتَهُ، فَخَلَقَ آدَمَ. شَاءَ أَنْ يُوَجِدَ نِقَاطَ ارْتِكَازٍ لِلْمَوْجُودَاتِ

بحثًا عن الشمس ١٧٧
والكائنات فأظهر العشق.

وكتب مُعَاذُ الرَّازِيّ لأبي يزيد البسطامي:
أَنَا نَمِلُ مِنْ شَرَابِ الْعِشْقِ، حَتَّى إِنِّي
لَوْ شَرِبْتُ جُرْعَةً وَاحِدَةً فَوْقَ هَذَا لَفَنَيْتُ
فَقَالَ أَبُو يَزِيدَ فِي إِجَابَتِهِ مُنْشِدًا:

لَوْ نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِكَ أَلْفَ مَرَّةٍ لَتَمَنَيْتُ رُؤْيَاهُ مَرَّةً أُخْرَى
وسألوا الحلاج: عَلَى أَيِّ مَذْهَبٍ أَنْتَ؟ فَأَجَابَ عَلَى مَذْهَبِ الْعِشْقِ.
ويقولُ فَخْرُ الدِّينِ الْعِرَاقِي: أَرَادَ سُلْطَانُ الْعِشْقِ أَنْ يَضْرِبَ سُرَادِقًا فِي الصَّحْرَاءِ،
فَفَتَحَ بَابَ الْخَزَائِنِ، وَنَثَرَ الْكَثْرَ عَلَى الْعَالَمِ.

يَعْرِفُ الْعِشْقُ عَلَى آلَتِهِ فِي خَفَاءِ
فَأَيْنَ الْعَاشِقُ الَّذِي يَسْمَعُ الصَّوْتَ؟
[٩٤] وَالْعَالَمُ كُلُّهُ صَدَى لِنَغْمَتِهِ

فَمَنْ سَمِعَ مِثْلَ هَذَا الصَّدى المديد؟
وهنا، مَرَّةً أُخْرَى، تَذَكَّرْتُ قَوْلَ شَمْسِ الْعِشْقِ والمعرفة، الَّذِي قَالَ لِي مَرَّاتٍ
وَنَحْنُ فِي الْخَلْوَةِ:

حَدَّثَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ أَفْهَامِهِمْ، وَلِنْ لَهُمْ عَلَى قَدْرِ صِفَائِهِمْ وَانْسِجَامِهِمْ. أَمَّا أَنَا
فَلَا شَأْنَ لِي فِي الدُّنْيَا، وَفِي قُوْنِيَّةٍ خَاصَّةٍ، بِالْعَوَامِّ، لَمْ آتِ مِنْ أَجْلِ الْعَوَامِّ. اخْتَبِرْ هَؤُلَاءِ
الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ يَعْذُونَ أَنْفُسَهُمْ مُدْرَسِينَ وَمُعَلِّمِينَ بِحَقِّ، أَوْ اخِذْ الْغِلَاطَ الْقُلُوبِ
الْمُطْلَعِينَ الْمُرَائِينَ، لَا الْمُرِيدِينَ الْمُحِبِّينَ.

أَتَكَلِّمُ ابْتِغَاءً أَنْ يَسْمَعَ خَوَاصُّ الْمَجْلِسِ وَالْمُرَاوُونَ فِي قُوْنِيَّةِ الْعِشْقِ الْعِرْفَانِيَّ

يطفى لهيب الأهواء والغرائز. العشق العرفاني جَمْرَةٌ، عندما تقع في قلب العاشق تحرق كل ما تجده في القلب، حتى إنه يمحو صورة المعشوق من حُجيرة القلب.

حكى أنه في شيراز، مدينة العشق ودار العرفان وأرض الصفاء والحسان، وجد واعظٌ ثملٌ من شراب الشوق الأزلي، وكان يعتلي المنبر، فيسمع الحاضرين بيانه الحار البليغ مزيجاً من أنغام العشق الملكوتية. وقد حدث من دون قصد أن حضر في مجلس وعظه أغلب مُخلصي عالم التوحيد وفرسان عُرصة العشق والتجريد. وفي أحد الأيام، أخذ الواعظ يتلو على الناس آيات المعرفة والعشق بيان أكثر إثارة مما كان عليه الأمر في الجلسات السابقة، فأدخل تبار كلامه الصارخ الجميع في حالٍ من الوجد، فما كان إلا أن نهض عارفٌ من المجلس وقال: أريد أن أعرف أين منزل العشاق؟

قال هذا، وكان الواعظ ممّا ناله من الشوق يدفع سيل كلامه المهيج في الثناء على العشق والمحبة، كالإعصار الصახب. وعلى حين غرة، نهض من بين المجموع رجلٌ مديدُ القامة نحيلٌ، وبعينين مغرورتين بالدمع ولحنٍ حزينٍ خاطب الواعظ قائلاً:

- أيها الوالد، رُوحِي فداؤك! عندي حمارٌ صغيرٌ، صبورٌ ومتحمّلٌ ونَشِيطٌ، وهو عندي منذ وقتٍ، وكان لي صاحباً وأنيساً ومونساً، وكنا معاً ليلاً ونهاراً، وكنا شريكين في السراء والضراء. نعم أنا مُكارٍ، حُرَفتي تاجيرُ الحمير، وفي هذا اليوم أخذته إلى السوق، فسرقه الشُّطارُ بالاحتيال. أتمنى أن تسألوا الناس: إن كانوا رأوا حماراً أسوداً فليعيده إلي فوراً. وسأشكرُ لكم ولمن يجده صنيعكم. [٩٥]

ابتسم الواعظ ابتسامةً صفراء. وطلب المستمعون أن يؤدّب المُكاري، قائلين: إنه ليس هذا وقت ذكر هذا المطلوب. أما الواعظ العارف فقال للمُكاري:

اجلس ولا تنسَ بينت شفة. لا تتكلم، واهداً. أمل أن يظهر حمارك حالاً.

فَكَرَّ الْوَاعِظُ لِحُظَّةً، ثُمَّ أَلْقَى نَظْرَةً نَافِذَةً عَلَى الْمُسْتَمْعِينَ، كَانَتْ نَظَرَاتُهُ إِلَى الْوُجُوهِ مُضْطَرِبَةً حَائِزَةً، وَفِي النِّهَايَةِ اسْتِعَادَ وَعْيَهُ، وَوَاصَلَ الْقَوْلَ:

- أَيُّهَا النَّاسُ، أَيُّهَا الشُّبَّانُ وَالشُّيُوخُ الَّذِينَ اجْتَمَعْتُمْ هُنَا، أَيُّهَا الْوَارِثُونَ لِلْأَلَامِ وَالْمَسَرَّاتِ، قَبْلَ أَنْ يَسُطَّ الْمَوْتُ أَجْنَحَتَهُ الْمُوحِشَةَ فَوْقَ رُؤُوسِكُمْ كَالْمِظَلَّةِ، قُولُوا لِي: أَيُوجَدُ أَحَدٌ بَيْنَكُمْ لَا يَسْلُمُ بِمَمْلَكَةِ الْعِشْقِ الْأَبَدِيَّةِ؟ - أَيُوجَدُ أَحَدٌ لَمْ يَضُئْ شُعَاعُ الْعِشْقِ اللَّطِيفِ الْمَحْبَبِّ صَدْرَهُ الْمَتَأَلِّمَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؟ حَدَّثْتَ هَمِّمَةً لَا سَابِقَ لَهَا فِي الْخَانِقَاهِ، وَكَانَ الْمُسْتَمْعُونَ يَنْظُرُ كُلُّهُمْ فِي وَجْهِ الْآخِرِ، ثُمَّ فِي لَحَظَاتٍ صَنِمَتْ مَوْلِمَ نَهْضِ رَجُلٍ لَا رُوءَاءَ لَهُ وَقَبِيحُ الْمَنْظَرِ، وَقَالَ: أَنَا.

فَسَأَلَ الْوَاعِظُ: أَنْتَ لَا تَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ الْعِشْقِ؟ - لَمْ تَشْغَلْ بِالْعِشْقِ قَلْبًا؟ - لَا تُوْمِنُ بِالْعِشْقِ؟، لَمْ تَعِشْ؟

- نَعَمْ، لَمْ أَرِطْ بِالْعِشْقِ قَلْبًا. وَلَا أَعْرِفُ مَا الْعِشْقُ، وَلَمْ أَعِشْهُ أَيْضًا.
فَصَاحَ الْوَاعِظُ بَغْضَبٍ وَصَحْبٍ، وَأَخْرَجَ صَرْخَةً مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ رَجَّ صَدَاها قَنَادِيلَ الْمَسْجِدِ، وَأَنْشَدَ:

صَاحَ قَائِلًا: يَا صَاحِبَ الْجِمَارِ

هَيَّا، وَجَدْتُ جِمَارَكَ، فَهَاتِ الزَّمَامَ

أَيُمْكِنُ أَنْ لَا يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ الْعِشْقَ؟ - أَنَا هُنَا أَتَحَدَّثُ عَنْ مَعْشُوقٍ وَمَحْبُوبٍ خَالِدٍ، سَرَّجِعُ إِلَيْهِ فِي النَّهَايَةِ.. نَعَمْ، فِي الْأَبَدِيَّةِ. الْإِنْسَانُ الْعَاشِقُ يَرَى فِي مِرَاةِ الْأَبَدِيَّةِ الشَّقَافَةَ مَظَاهِرَ الْوُجُودِ جَيِّدًا، وَلَا يُوْجَدُ فِي قَلْبِ الْعَاشِقِ سِوَى الْمَعْشُوقِ^(١). مَصْدَرُ

مظاهر الوجود جميعاً هو العشق، وقلْبُ العاشقِ خلُوٌ مِنَ الكِبَرِ والتَّباہي والتفاخر، وسَعَتُهُ قادِرَةٌ [٩٦] على استيعابِ الدُّنيا. وبناءً على هذا الأصل كان أبو يزيد السِّنطامي يزعمُ ويقولُ في شأنِ سَعَةِ قَلْبِهِ: لَوْ أَنَّ العَرْشَ وما فيه مَرَّ في زاويةِ القَلْبِ العاشِقِ لَمَا كَانَ للعارفِ عِلْمٌ به. وما ذلكَ إِلَّا لِأَنَّ السَّباحَةَ في بَحْرِ «نَفْيِ الذَّاتِ» أَمَرُّ خَوَاصِّ العِشْقِ، وَوَجْهُ امتيازِهِ. وَلِلْعِشْقِ رَأْسٌ عِنْدَ مَعَ العَقْلِ، ويمشي فوقَ قِمَّةِ الجَبَرِ والاختيارِ بشِجَاعَةٍ. وَيَدُ التَّقْدِيسِ والإِخْلَاصِ تَقْرَعُ بَابَ العَرْشِ، وَتَسْمَعُ الصَّوْتَ الإِلَهِيَّ بِكَلِيَّةِ الوجودِ، وَفَرْدَانِيَّةِ القَلْبِ لَا تَطْمَئِنُّ إِلَّا بِوَحْدَانِيَّةِ الحَقِّ، سُبْحَانَهُ. كُلُّ صَاحِبِ قَلْبٍ يَعْرِفُ شَمْسًا، وَيَطْلُعُ على مُنَاجَاةِ خُلُودِ شَمْسِ العِشْقِ. وَأَنَا وَشَمْسٌ مِنْ أَبْطَالِ عَالَمِ العِشْقِ^(١). وَيُوجَدُ في مَقَامِ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى فِي العِشْقِ وَالْفُتُونِ أَبْطَالٌ عَظَمَاءُ لَا يَرُونَ نِهَايَةَ

= كَلِمَا فَكَّرْتُ فِيهِ غِيْثٌ عَنِ نَفْسِي وَبِوَجُودِهِ، لَا يَأْتِي مِنِّي صَوْتُ أَقُولُ بِهِ: أَنَا
أَمَرُّ الْقَمِيصِ كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ غَايَةِ الشَّوْقِ فَقَدْ صَارَ وَجُودِي كُلُّهُ هُوَ، وَأَنَا هَذَا الْقَمِيصِ

١- لِكَيْ يَطْلُعَ الْقُرَّاءُ عَلَى مُجَازَفَةِ شَمْسٍ وَبَطُولَتِهِ فِي دُنْيَا الْعِرْفَانِ، أَنْقَلْنَا هُنَا قِسْمًا مِنْ اعْتِرَافَاتِهِ مِنْ كِتَابِ «مَقَالَاتِ شَمْسٍ»:

«مَعَ جُنُونِي هَذَا كُلِّهِ، غَلَبَتْ عَقْلَاءُ كَثِيرِينَ.. وَمَعَ غَفْلَتِي هَذِهِ كُلِّهَا، جَعَلْتُ الْمُنْتَبِهِينَ وَالْيَقِظِينَ تَحْتَ إِبْطِي. كَانَ فِي دَاخِلِي بِشَارُهُ، كَأَنِّي أَطِيرُ، عَلَى الْأَرْضِ، أَوْ لَا أَكُونُ؟! قُلْتُ لِحِجَابَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ظَاهِرًا، الْكَافِرِينَ بَاطِنًا: اتَّبَعُوا بِشِيءٍ لِي أَكُلُ، فَأَتُوا بِطَعَامٍ شَاكِرِينَ مَزِيدَ شُكْرٍ، وَأَفْطَرُوا مَعِي وَشَرَبُوا، وَعَلَى هَذَا النِّحْوِ كَانُوا صَائِمِينَ.»
«رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ التَّرَاوِشِ الْأَعْرَاءِ، وَظَفِرَتْ بِخِدْمَتِهِمْ، وَغَرِقَ الْفَرْقُ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالكَاذِبِ، مِنْ نَاحِيَةِ الْقَوْلِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْعَمَلِ، لِكَيْ لَا يَكُونَ مَعْجَبًا كَثِيرًا بِنَفْسِهِ وَمَخْتَارًا. وَقَلْبُ هَذَا الضَّعِيفِ لَا يَحْظُ فِي أَيِّ مَكَانٍ، وَهَذَا الطَّائِرُ لَا يَلْتَقِظُ كُلَّ حَبَّةٍ.»

«لَوْ أَنَّ رُبْعَ الْبَسِيطَةِ الْمَسْكُونِ كُلِّهِ فِي وَجْهِهِ، وَأَنَا فِي وَجْهِهِ أُخْرَى، لَأَعْطَيْتُ إِجَابَةً لِكُلِّ سَوَالٍ يَقْدُمُونَهُ، وَلَمَّا فَرَزْتُ مِنَ الْقَوْلِ. وَأَنَا أَوَّاجِدُ الشَّيْخَ لَا التَّرِيدَ، ثُمَّ لَا أَتِي شَيْخٌ، بَلِ الشَّيْخُ الْكَامِلُ لَا شَأْنَ لِي فِي هَذِهِ التَّنْيَا بِالْعَوَامِ، لَمْ آتِ مِنْ أَجْلِهِمْ، أَنْفَحَصَ أَوَّلَئِكَ الَّذِينَ هُمْ مَرشِدُو الْعَالَمِ بِحَقِّهِ.»
«إِنَّهُ مِنْ بَرَكَاتِ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ، كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ مِنِّي كَلِمَةً.»

«أَنَا ذَلِكَ الطَّائِرُ الضَّعِيفُ الَّذِي قِيلَ إِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ ذِي قَنَمَيْنِ؛ نَعَمْ، أَتَعَلَّقُ، لَكِنِّي أَتَعَلَّقُ بِشَرِّكَ الْمَحْبُوبِ.» =

العِشْقُ عَدَمًا وَمَوْتًا^(١). وَوَفَّقًا لِقَوْلِ أَبِي يَزِيدَ الْبِسْطَامِيِّ: الْعِشْقُ قَبُولٌ لِلْمَوْتِ مِنْ طَرِيقِ الشَّهَادَةِ. وَلِذَلِكَ، أَنَا وَشَمْسٌ عَاشِقٌ وَمَعشُوقٌ نَتَخَطَّى بِمَدَدِ قُدْرَةِ الْعِشْقِ السَّحَرِيَّةِ النَّيْرَانَ وَالْمَهَالِكَ وَالْإِنْتِقَادَاتِ وَالتَّقْرِيعَاتِ، لِكَيْ نُحَدِّدَ لِلْمُدَّعِينَ حَقِيقَةَ مَفْهُومِ الْعِشْقِ بِمَعْنَاهِ الْمَطْلُوقِ.

= «كَلِمًا أَظْهَرْتُ نَفْسِي أَنْزَعْتُ.. لَا أَسْتَطِيعُ.. لَا بَدَلَ لِي مِنْ أَنْ أَعِيشَ هَكَذَا».

١ - يَعْتَقِدُ غُوتِه، الشَّاعِرُ وَالْكَاتِبُ الْأَلْمَانِي، أَنَّ إِبْلِيسَ يَتَضَايَقُ مِنَ الْعِشْقِ، الَّذِي هُوَ كَمَالُ الْإِنْسَانِيَّةِ، لَكِنَّهُ يَوَاجِهُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَبِرَاهُ، أَسَاسُ الْخَلْقِ مَرْتَكِزٌ عَلَى الْعِشْقِ».

- عَلَى شَفِيفَةِ قُفْلٍ وَفِي قَلْبِهِ أَسْرَارُ
الشَّفِيفَةُ صَامِتَةٌ وَالْقَلْبُ مَفْعَمٌ بِالْأَصْوَاتِ
- فالعارفون الذين احتسوا جام الحق
عرفوا الأسرارَ، وأسندلوا عليها الأستار
(المثنوي، ٢٢٤٠/٥ - ٤١)

عِلْمُ الحال...!

[٩٧] ههنا أَخْتِمُ كَلَامِي بِاقْتِبَاسِ قَوْلِ إِمَامِ أَهْلِ الشَّيْعِ، الإِمَامِ الصَّادِقِ، عَلَيْهِ السَّلَام. فَقَدْ رَوَى عَنْ حَضْرَةِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام، أَنَّ حَضْرَةَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ نَهَضَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ: أَيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَا تُفْشُوا أَسْرَارَ الْحِكْمَةِ لِلْجَاهِلِينَ، فَإِنْ يَبْتَثُّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْفِكْرِ وَالْمَطَالِبِ لِهَؤُلَاءِ فَلَاشِكَّ فِي أَنَّكُمْ قَدْ ظَلَمْتُمُوهُ ظُلْمًا كَبِيرًا. وَبِالْمُقَابِلِ، لَا تَمْنَعُوا أَسْرَارَ الْحِكْمَةِ عَنِ الْمُحِبِّينَ لَهَا وَالْمُشْتَاقِينَ إِلَيْهَا، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمْتُمُوهُمْ حَقًّا. وَتَابَعَ الإِمَامُ الصَّادِقُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، الْقَوْلَ إِنِّي أَخْتَرُنُ فِي صَدْرِي أَسْرَارًا مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ، وَأَحَاوُلُ أَنْ لَا أَفْشِيَ شَيْئًا مِنْهَا لِكَيْ لَا يَطْلَعَ عَلَيْهَا الْجُهَالُ وَالْمَتَعَصِّبُونَ الْعُمِّيُّونَ الْبَصَائِرَ. هَذِهِ الْجَوَاهِرُ النَّفِيسَةُ سَاحَافُظُ عَلَيْهَا دَائِمًا، فَإِنِّي لَوْ بَذَلْتُهَا لَقَالَ مُبْصِرُو الظَّاهِرِ: إِنَّكَ مِنْ صِنْفِ عِبَادِ الْأَصْنَامِ.

يَا أَهْلَ قُوْنِيَّةَ، لَوْ ذَكَرْتُ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا مِنْ أَسْرَارِ الْعِشْقِ وَأَسْرَارِ شَمْسٍ لَا سَتَحَلَ^(١) نَفَرٌ مِنَ الْجُهَالِ سَفَكَ دَمِي وَدَمَ شَمْسٍ، يَقِينًا، وَلَصَبَغُوا تُرَابَ قُوْنِيَّةَ بِدَمِ الْعُشَاقِ.

[٩٨] أَمَّا جَلَالُ الدِّينِ، ابْنُ سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ بَهَاءِ الدِّينِ وَلَدُ، فَلَا يَخْشَى الْمَوْتَ، لَا

١- إِنْ فِي حَانَاتِ قَلْبِي فِكْرًا كَثِيرَةً وَقَدْ تَرَنَحْتُ كَالشُّكَارَى، يَا بَنِي
(ديوان شمس تبريز، الغزلية ١٠٩٩)

يَخَافُ زَجَرَ الْجُهَالِ وَاسْتَخْفَافَهُمْ وَأَذَاهُمْ وَتُهْمَهُمْ وَشُخْرِيَتَهُمْ، وَإِنَّ عَاشِقَ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةَ لَا يَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَذَاحًا لِلْعِشْقِ.

لَدَيَّ قِصَّةٌ عَنْ بِلَالٍ الْحَبَشِيِّ أَرْوِيهَا لَكُمْ:

تَعْلَمُونَ أَنَّ بِلَالًا الْحَبَشِيَّ كَانَ عَبْدًا، وَقَدْ وَرِثَ عَنْ أَسْلَافِهِ الْاَلَمَ وَالْغَمَّ وَالتَّشَرُّدَ وَالتَّشَتُّتَ وَالْمَذَلَّةَ. وَقَدْ صَارَ هُوَ وَأَبَاؤُهُ ضَحَايَا مَطَامِعِ النَّحَّاسِينَ التَّجَارِ الْقِسَاةِ الْقُلُوبِ. لَكِنْ كُلُّ الْاَلَامِ وَالْعَذَابَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ لَمْ تُطْفِئْ ظَمَأَ طَلَبِ الْحَقِّ، وَالشَّوْقِ إِلَى الْحَقِّ فِي قَلْبِ بِلَالٍ. لَكِنَّهُ كَانَ لِـبِلَالٍ سَيِّدٌ سَفَاكُ دِمَاءٍ وَقَاتِلٌ، وَكَانَ دَائِمًا يَضْرِبُهُ بِعَصَا شَائِكَةٍ قَائِلًا: لِمَاذَا أَنْتَ دَائِمًا مُنْشَغِلٌ بِذِكْرِ اللَّهِ الْوَاحِدِ وَمُحَمَّدٍ [عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ]، لِمَاذَا أَنْتَ عَاشِقٌ لِهَمَا؟ وَكَانَ يَضْرُخُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الْقَيْحُ السَّيِّئُ السَّيِّمَا الْأَسْوَدُ، لَعَلَّكَ مُنْكَرٌ لِدِينِي؟ وَلَكِنْ مَعَ أَنَّ بِلَالًا صَارَ أَسِيرًا لِشَيْطَانِيٍّ مُتَعَصِّبٍ كَافِرٍ، ظَلَّ مِنْ دُونِ اهْتِمَامٍ بِضُرُوبِ الْأَذَى وَالسَّبَابِ الَّتِي يُلْقَاهَا مِنْ سَيِّدِهِ يَرُدُّ: أَحَدُ، أَحَدُ، وَكَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْخَالِقَ أَسَاسُ وَجُودِ كُلِّ مَخْلُوقَاتِ مَمْلَكَةِ الْأَبَدِيَّةِ وَعَالَمِ الْإِمْكَانِ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْيَوْمِ شَاهَدَ أَحَدُ صَحَابَةِ خَضْرَاءِ الرَّسُولِ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، السَّيِّدَ السَّفَاكُ يَضْرِبُ بِلَالًا بِوَحْشِيَّةٍ، فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَقَابِلَ بِلَالًا الْعَاشِقَ فِي خَلْوَةٍ، وَأَنْ يوصِيَهُ بِأَنَّهُ نَظَرًا إِلَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَالِمٌ بِالْأَسْرَارِ فَمِنْ الْمَضْلَحَةِ لَهُ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ فِي قَلْبِهِ سِرًّا حَتَّى يَخْفِيَ إِيْمَانَهُ وَاعْتِقَادَهُ عَنِ الْمُنْكَرِينَ، وَلَا يُظْهِرَ مِنْ دُونِ سَبَبٍ مُوجِبَاتٍ عَذَابِ جَسَدِهِ وَرُوحِهِ. وَقَدْ قَبِلَ بِلَالٌ فِي الظَّاهِرِ، لَكِنْ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ وَخَدَهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يُذْهِبُ انْتِزَاعَهُ الرُّوحِيَّ. وَبَعْدَ عِدَّةِ أَيَّامٍ مَرَّ صَاحِبُ النَّبِيِّ [عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ] قَرِيبًا مِنْ دَارِ بِلَالٍ، فَسَمِعَ مَرَّةً أُخْرَى نِدَاءً: أَحَدُ، أَحَدُ، وَعُقِبَ ذَلِكَ أَصْدَاءَ صَرَبَاتِ الْعِصِيِّ، فَاضْطُرَّ إِلَى التَّوَقُّفِ،

وطلب حضور بلال. وعندما لقيه طلب منه أن لا يضع روحه وحياته من دون طائل في تصرف سيّد ظالم وعابد للأصنام، لكي يجرحه بعصاه الخشبيّة الشائكة، وأنّه خير له أن يصمت؛ فالذكر القلبّي خير من الذكر اللسانيّ.

تاب بلال، لكنّه بسبب ظمئه الذي لا يرتوي اضطرّ إلى أن يتنقل في فضاءات السماء التماساً لعلاج آلام روحه. كان يعرض أوجاعه وآلامه على الله، هذا المواسي والمُعزيّ العظيم. كان بلال عاشقاً للحقّ تعالى، وقد تاب مراراً عن أن يذكر بلسانه اسم «الأحد» أمام سيّده الكافر العابد للأصنام، لكنّ العشق للحقيقة، العشق [٩٩] لله ظلّ يضطرّ بلالاً إلى أن يتضايق من التوبة، وفي النهاية يعلن إسلامه مُباهياً، ويقول لسيّده: أرى الحياة كلّها في أنوار الحقّ؛ ذلك لأنّ رُوحِي في هذا الملاذ الذي يستريح فيه سالك طريق العشق:

— وأعلن اعتقاده، وأسلم جسده للبلاء

صائحاً: يا محمّد، يا عدوّ التوبات

— يا مَنْ جسدي وعروقي مملوءة منك

أين المكان الذي يتسع للتوبة فيه بعد ذلك؟

— إنني ممتلئ بالقشّ أمامك، أيها الإغصار،

فمن أين لي أن أعلم أين سأسقط^(١)

وهذا عين بلال الذي، في شعاع العشق، يصلّ إلى منزلة يتحدث عنها ابن عباس، حين يذكر أنّه في الليلة التي كان فيها النّبّيّ الأكرم [عليه الصّلاة والسلام] يمدّد شعاع الحقيقة الجذاب يطوي طريق السماء ويُعرجُ به فيها، كان يسمع في السماوات صوت

أَذَانٍ مُحِبِّيًا، فَسَأَلَ جِبْرِيلُ: هَذَا الصَّوْتُ، صَوْتُ مَنْ؟ فَأَجَابَهُ جِبْرِيلُ: هَذَا صَوْتُ بِلَالٍ الْمُؤَذِّنِ. بِلَالُ الَّذِي نَوَّرَ شُعَاعَ الْعِشْقِ اللَّطِيفُ وَأَنَوَّارُهُ الْمُبْهِرَةُ دَاخِلِيَّةَ صَدْرِهِ الْمَكْلُومِ. كَانَ أَذَانُ بِلَالٍ مَمْلُوءًا بِالْجَذْبِ وَالْوَجْدِ وَالْحُرْقِ وَالْأَحْوَالِ، وَكَانَ يَبْعَثُ فِي السَّامِعِ هَيَاجًا رُوحِيًّا وَقَلْبِيًّا. وَقَدْ غَرَّقَ قَلْبِي، قَلْبُ جَلَالِ الدِّينِ، مِنْ ضِيَاءِ عِشْقِي شَمْسٍ فِي الْهَيْجَانِ وَالْاشْتِيَاقِ وَالثَّوْرَةِ، وَعِنْدَمَا أَذْكَرُ اسْمَهُ عَلَى لِسَانِي أُحِسُّ فِي نَفْسِي هَيْجَانًا مَفَاجِئًا. أَعْطَانِي - حَقِيقَةً أَوْ تَقْدِيرًا - هَذَا الضَّوءَ الْعَظِيمَ، الَّذِي يَكْشِفُ لِي دَائِمًا خَفَايَا الْكَائِنَاتِ وَأَسْرَارَهَا، إِنَّهُ نُورٌ لَا يَنْطَفِئُ أَبَدًا. وَقَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا دَائِمًا كَانُونَ نَارٍ مُتَقَدِّمَةٍ لِلْعِشْقِ الْخَالِدِ، وَالْآنَ أَيْضًا هِيَ كَذَلِكَ، وَسَتَظَلُّ هَكَذَا مَا بَقِيَ الدَّهْرُ وَالْعَالَمُ وَالْأَفْلَاكُ، سَيَظَلُّ موجودًا دَائِمًا. وَوَفَّقًا لِمَا يَقُولُ وَالِدِي الْعَظِيمُ بِهَاءِ الدِّينِ: إِذَا آتَسْتَ فِي نَفْسِكَ مَيْلًا وَرَغْبَةً بِالْحَقَائِقِ، أَوْ بِالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، فَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ هَذَا مُرَادُ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ مَيْلُكَ إِلَى الْجَنَّةِ وَفِي طَلَبِ الْجَنَّةِ فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَيْلَ إِلَى الْجَنَّةِ هُوَ الَّذِي يَطْلُبُكَ، وَإِذَا كَانَ لَدَيْكَ مَيْلٌ إِلَى إِنْسَانٍ فَإِنَّ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ أَيْضًا يَطْلُبُكَ، فَإِنَّ يَدَ الْوَاحِدَةِ لَا تُصَفِّقُ.

وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّكُمْ - مَعْشَرَ النَّاسِ الَّذِينَ جَلَسْتُمْ هُنَا - جِئْتُمْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، مِنْ وَرَاءِ سِتَارِ السِّرِّ، إِلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ، وَيَقِينًا لَا تَعْلَمُونَ كَيْفَ جِئْتُمْ، وَمَرَّةً أُخْرَى حِينَ تَرْكُونَ هَذِهِ الْقُبَّةَ السَّمَاوِيَّةَ لَا تَعْلَمُونَ كَيْفَ تَقْطَعُونَ هَذِهِ الرَّحْلَةَ. أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: ابْحَثُوا عَنْ سِرِّ الْمَجِيِّ، وَأَسْرَارِ الذَّهَابِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، فِي الْعِشْقِ، وَهَذَا السِّرُّ لَا يُكْشَفُ أَوْ يُعْرَفُ بِعِلْمِ الْقَالَ وَمُطَالَعَةِ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ. لَا بَدَّ مِنْ تَعَلُّمِ عِلْمِ الْحَالِ، وَعِلْمِ الْحَالِ يُحَاطُ بِهِ حَضْرًا فِي السَّيْرِ وَالسَّلُوكِ. يَنْجُو [١٠٠] الرُّوحُ مِنْ ضَيْقِ الْجَسَدِ وَزَيْنِ الْقَلْبِ عِنْدَمَا يَطِيرُ فِي الْفَضَاءِ الطَّاهِرِ مِنَ الْأَذْنَانِ، الَّذِي هُوَ مَرْكَزُ الْمَسَرَّاتِ وَالْأَفْرَاحِ:

صَفَّ نَفْسَكَ مِنْ صِفَاتِ الْإِحْسَاسِ بِالذَّاتِ

لَكِنِّي تَرَى ذَاتَكَ الطَّاهِرَةَ الصَّافِيَةَ^(١)

نَهَضَ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ مَكَانِهِ، فَقَطَعَ كَلَامَ مَوْلَانَا وَقَالَ:

- يَا مَوْلَانَا، قُلْ لَنَا: مِنْ أَيْنَ تَعَلَّمْتَ عِلْمَ الْحَالِ؟ فَسَمِعَ هَذِهِ الْإِجَابَةَ:

- فِي مَدْرَسَةِ السَّيِّدِ بُرْهَانَ الدِّينِ مُحَقِّقِ التَّرْمِذِيِّ، فَبِأَمْرِ مِنْهُ أَمْضَيْتُ ثَلَاثَ خَلَوَاتٍ، وَعَلَى امْتِدَادِ تِسْعَةِ أَعْوَامٍ كُنْتُ مُصَاحِبًا لَهُ وَمُلازِمًا، وَبِتَكْلِيفٍ مِنْهُ يَمُمْتُ شَطْرَ حَلَبَ وَدِمَشْقَ. وَعِنْدَمَا اكْتَمَلَ بَرْنَامُجُ رِيَاضَتِي وَسِيرِي وَسِيَّاحَتِي، عَاقَنِي أَسَاتِذِي وَمُرْشِدِي السَّيِّدُ بُرْهَانَ الدِّينِ، وَقَالَ: أَيُّ وَلَدِي، كُنْتُ فِيمَا مَضَى فَرِيدًا فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ وَالْكَشْفِيَّةِ، وَسَتَكُونُ الْآنَ أَيْضًا مِمَّنْ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالْبَنَانِ فِي أَسْرَارِ الْبَاطِنِ وَالْمَكَاشِفَاتِ الرُّوحِيَّةِ. وَمَعَ أَنَّهُ مَأْذُونٌ لِي بِأَنْ أُنْشِغَلَ بِمُسَاعَدَةِ الضَّائِعِينَ فِي طَرِيقِ الضَّلَالِ وَهِدَايَتِهِمْ ظَلَّ نِدَاءٌ دَاخِلِيٌّ يُبَسِّرُنِي بِأَنِّي فِعْلِيًّا فِي انْتِظَارِ إِمَامٍ وَقُطْبٍ وَمُرْشِدٍ آخَرَ. انْتَضَرْتُ لِحَمْسَةِ أَعْوَامٍ، وَفِي هَذِهِ الْأَعْوَامِ الْحَمْسَةِ انْشَغَلْتُ بِتَدْرِيسِ الْفِقْهِ وَالْأُصُولِ، وَتَعَلَّمُونَ أَنْتُمْ أَنَّهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَانَ يَحْضُرُ فِي حَلْقَةِ دَرْسِي أَرْبَعُ مِائَةِ شَخْصٍ مِنَ الْمُهْتَمِينَ بِالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ فِيهَا. وَلَكِنِّي كُنْتُ فِي انْتِظَارٍ أَنْ تَبْرُغَ فِي سَمَاءِ قُوْنِيَّةَ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ وَالْعِزِّفَانِ. وَعِنْدَمَا وَقَعَ شُعَاعُ شَمْسٍ عَلَى ذَرَاتٍ وَجُودِي غَيْرِ مَنْهَجِي وَسُلُوكِي^(٢). وَقَدْ رَأَيْتُمْ أَنْتُمْ شَمْسًا فِي الظَّلَامِ، أَمَّا شَمْسٌ - عَلَى الْحَقِيقَةِ - فَهُوَ مِنْ أُسْرَةِ إِيرَانِيَّةٍ عَرِيقَةٍ،

١- الْمُتَوَيِّ، ٣٤٧٤/١.

٢- لِأَنَّ الْحَبِيبَ عِنْدِي هَكَذَا إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ
وَقَدْ رَأَيْتِ الزُّوْدَةَ ذَاتَ الْمِئَةِ بَتْلَةٍ وَجْهَهُ الْجَمِيلَ
أَظَلُّ مُتَعَطِّلًا وَثَمِيلًا، وَهَذَا هُوَ عَمَلِي
فَقَالَتْ لِلْبَلْبَلِ: رَوْضُ الْأَزْهَارِ هُوَ هَذَا
(دِيَوَانُ شَمْسِ تَبْرِيزِ، الْقُرْطُبِيَّةُ ٣٤٢)

وَيَعْلَمُ شَعْبُ إِيْرَانِ أَنَّهُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُلْكٍ دَادٍ. وَكَانَتْ أُسْرَتُهُ مِنْ أَهْلِ تَبْرِيزَ، وَلَهُ ارْتِبَاطٌ مِنْ جِهَةِ النَّسَبِ بِ«بُزْرْگِ أُمِيد» الَّذِي تَوَلَّى فِي الْمَدَّةِ بَيْنَ ٦٠٧ وَ ٦١٨ هـ الْحُكْمَ فِي قَلْعَةِ أَلْمُوتِ. نَعَمْ، هُوَ مِنْ إِسْمَاعِيلِيَّةِ أَلْمُوتِ^(١). إِنَّهُ رَجُلٌ عَظِيمُ الْقَدْرِ، وَقَدْ رَأَتْ عَيْنَاهُ النَّوْرَ عِنْدَمَا أَحَاطَ الإِعْصَارُ الرَّهِيْبُ بِبُلْدَانِ إِيْرَانِ، وَنَمَا وَتَرَعَرَ عِنْدَمَا هَبَّ إِعْصَارُ الظُّلْمِ وَالتَّفَاقُ وَالتَّعَصُّبِ عَلَى جِزْءٍ مِنْ إِيْرَانِ وَتَبْرِيزَ. وَقَبْلَ أَنْ يُكْمَلَ سِنٌّ الْعَاشِرَةُ أَظْهَرَ نُبوْغَهُ لِمُعَلِّمِيهِ وَأَصْدِقَائِهِ. إِنَّ شَمْسًا مَفَكَّرٌ كَبِيرٌ. وَقَدْ عَاشَ زَمَنًا مَدِيدًا مَعَ كُلِّ الْأَمَالِ وَالرَّغَائِبِ وَالْهَيْجَانَاتِ النَّفْسِيَّةِ، ثُمَّ تَرَكَ ذَلِكَ [١٠١] وَاتَّجَهَ نَحْوَ الْأَبْدَالِ وَالْأَوْتَادِ وَالْأَقْطَابِ فِي زَمَانِهِ، إِلَى أَنْ صَارَ فِي الْوِلَايَةِ وَالْكَشْفِ الْقَلْبِيِّ فَرِيدَ أَوَانِهِ. وَقَدْ صَحَبَتْهُ فِي طَرِيقِ الْعِرْفَانِ فَكُنْتُ أُسِيرُ وَرَاءَهُ كَالظَّلِّ، وَهُوَ يَتَقَدَّمُ مُتَبَخِّرًا، إِلَى أَنْ جَعَلَنِي لَا أَرَى فِي الْأَفَاقِ جَمِيعًا إِلَّا شَمْسًا^(٢).

١ - حُكْمُ الْمُؤَلَّفِ هَذَا مُتَسَرِّعٌ كَثِيرًا. وَقَدْ أَنْكَرَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ الْمُحَقِّقِينَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ الْأُسْتَاذَةُ الْمَرْحُومَةُ أَتِيْمَارِي شِيمِلِ [الْمُتَرَجِمُ].

٢ - لِكَيْ نَظْلَعَ عَلَى الْفُؤْدَةِ الْبَاطِنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ عِنْدَ شَمْسٍ، وَنَعْرِفَ جَيِّدًا هَذَا الرَّجُلَ الْإِسْتِثْنَائِيَّ الَّذِي أَثَارَ فِي مَوْلَانَا هَيَاجًا عَظِيمًا، مِنَ الْأَفْضَلِ لَنَا أَنْ نَنْقُلَ مِنْ مَثْنَوِيٍّ «وَلَدْنَامَه» لِابْنِ مَوْلَانَا، سُلْطَانِ وَلَدِ، التَّقَاءَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ فِي عَالَمِ الْعِرْفَانِ، وَنُثَبِّتَهُ هُنَا:

قُضِيَ مِنَ الْحَكِيمِ مَوْلَانَا	ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا مَثِيلَ
الْمُفْتَوْرَ الْمُخْتَارُونَ تَلَامِيذُهُ	وَقَدْ اصْطَفَوْا جَمِيعًا حَوْلَهُ مُتَعَلِّقِينَ بِهِ مِنْ أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ
كُلُّ مُرِيدٍ مِنْ مُرِيدِيهِ أَعْظَمَ مِنْ أَبِي يَزِيدَ	وَكُلُّ مَنْهُمْ لَدَيْهِ مِنَ الْوَلَةِ مَا يَغْدِلُ مِثْلِي ضِعْفٍ مِمَّا عِنْدَ ذِي الثُّونِ
وَمَعَ مِثْلِي هَذَا الْعِزِّ وَالْقَدْرِ وَالْفَضْلِ وَالْكَمَالِ	كَانَ دَائِمًا طَالِبًا لِلْأَبْدَالِ بِأَحْسَنِهِمْ
الْحَاضِرُ عِنْدَهُ كَانَ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ	ذَلِكَ الَّذِي إِذَا اخْتَلَطَتْ بِهِ
لَمْ تَشْتَرِ أَحَدًا بِحَبَّةِ شَعِيرٍ	وَمَرَّقَتْ حُجُبَ الظَّلَامِ
ثُمَّ بَعْدَ انْتِظَارٍ طَوِيلٍ، رَأَى نُحْيَاهُ	فَصَارَتْ الْأَسْرَارُ عِنْدَهُ وَاضِحَةً كَالْتَهَارِ
رَأَى مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَى	كَمَا سَمِعَ مَا لَمْ يَسْمَعْهُ إِنْسَانٌ مِنْ إِنْسَانٍ

= وَعَلَى جِبِينِ غِرَّةٍ وَصَلَ إِلَيْهِ شَمْسُ الدِّينِ
قَالَ لَهُ: مَعَ أَتَكَ زَهْنٌ لِلْبَاطِنِ
العِشْقُ فِي طَرِيقِي كَانَ جِجَابًا
دَعَاهُ إِلَى عَالَمٍ عَجِيبٍ
صَارَ الشَّيْخُ الْأَسَازُ تَلْمِيزًا صَغِيرًا
كَانَ مُنْتَهِيًا، فَصَارَ مُبْتَدِئًا
وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ كَامِلًا فِي عِلْمِ الْفَقْرِ
إِمَامُهُ كَانَ شَمْسًا التَّيْرِي
فَقَعِي مِنْ ضِيَائِهِ وَصَارَ نَوْرُهُ ظِلًّا
أَنَا بَاطِنُ الْبَاطِنِ، فَاسْمَعْ هَذَا:
العِشْقُ حَقٌّ، وَهُوَ عِنْدِي مَيِّتٌ
لَمْ يَرَهُ فِي السَّنَامِ لَا التُّرْكُ وَلَا الْعَرَبُ
يَقْرَأُ الدَّرُوسَ، كَالْأَطْفَالِ، فِي كُلِّ يَوْمٍ
كَانَ مُقْتَدِي، فَصَارَ مُقْتَدِيًا
كَانَ عِلْمًا جَدِيدًا ذَلِكَ الَّذِي أَظْهَرَهُ لَهُ
ذَلِكَ الَّذِي كَانَ سَفْكَ الدَّمِ طَبْعًا لَهُ

- تُرِيدُ أَنْ يَتَوَرَّ الْعَالَمُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، مِثْلَ طَرَّتِكَ
وَأَنْ يَكُونَ لِلْيَالِي الْعِشْقُ اعْوَجَاجٌ وَتَجْعِيدٌ مِنْ دُؤَابَتِكَ
- أَظْهَرَ كَأَنَّكَ الْمُظْهَرَةُ لِلْعَالَمِ، لِكَيْ يَرَى الْعِرَاقِيُّ
فِي خَدِّكَ طَلْعَةَ كُلِّ حَسَنَاءٍ وَذَاتَ بَهَاءٍ
فَخَرَّ الدِّينَ الْعِرَاقِيَّ

أَسْطَرُلابٌ (*) الْأَسْرَارُ

وَرَدْنَا الْحِمَى الْمَغْنَاطِيْسِيَّ لِلْعِشْقِ بِاشْتِيَاقٍ، وَأَنَا مِنْ مَحَلَّةِ الْوَحْدَةِ وَالْهِجَانِ
وَالْعِرْفَانِ هَذِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ أَرَى عُبُورَ قَافِلَةِ شَمْسٍ الْجَلِيلَةِ الْعَظِيمَةِ فِي الْأَزَقَةِ الضَّبِيقَةِ
لِأَطْرَافِ قُوْنِيَّةٍ، وَمِنْ هُنَا أَحْسُ أَيْضًا فِي نَظَرَاتِهِ الْمَضْطَّرِبَةِ بِلَوْعَةِ الْفِرَاقِ وَالْهَجْرِ. نَظَرَاتُهُ
الْمَضْطَّرِبَةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ إِعْصَارٍ مِنَ الْحَادِثَاتِ، أَوْ تُبَيِّنُ أَنَّهُ سَيْنَايَ عَنِّي وَعَنْ قُوْنِيَّةٍ
سَرِيعًا. نَظَرَاتُهُ مُثْقَلَةٌ بِالْحَسَرَاتِ وَالْآهَاتِ. لَسْتُ أَدْرِي مَرَّةً أُخْرَى: أَيُّهُ دَاهِيَةٌ، أَيُّهُ وَاقِعَةٌ
خَطِيرَةٌ، سَتَحْدُثُ لَهُ فِي قُوْنِيَّةٍ. تَذَكَّرُوا أَنَّ جَلَالَ الدِّينِ الْيَوْمَ قَالَ: إِنَّ سَيِّمَا شَمْسٍ الْعِشْقِ
وَنَظَرَاتِهِ الْمَشْتَتَّةَ تَلُوحُ مِنْ بَعِيدٍ إِلَى طُوفَانٍ وَدَاعِهِ وَرَحِيلِهِ النَّهَائِيَّ عَنْ قُوْنِيَّةٍ، وَإِنَّ سَحَابَاتِهَا
أَرْجُوَانِيًّا يَتَحَرَّكُ فَوْقَ رُكْبَانِ الْقَافِلَةِ.

وَفِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ، عَلَيَّ أَنْ أَعْتَرِفَ لَكُمْ، يَا أَهْلَ قُوْنِيَّةٍ، بِأَنِّي نَادِمٌ عَلَى دَعْوَتِي
شَمْسًا بِإِضْرَارٍ مِنْكُمْ وَإِلْحَاحٍ إِلَى الْمَجِيءِ إِلَى هُنَا؛ ذَلِكَ لِأَنَّ قَلْبِي يَحْدُثُنِي عَنْ وَقُوعِ
طُوفَانٍ هَائِلٍ وَفَاجِعَةٍ وَحَادِثٍ دَامٍ. يَأْتِي شَمْسٌ مَمْتَطِيًّا جَوَادًا، لَكِنَّهُ غَارِقٌ فِي الْفِكْرِ. كَيْتَهُ
يَكُونُ فِي جَمْعِكُمْ، أَيُّهَا الْحَاضِرُونَ، قَلْبٌ يَفْهَمُ لُغَةَ رُوحِي، وَيَسْمَعُ صَوْتَ قَلْبِي، وَيَبَيِّنُ

* - أَلَّةٌ رَضِدٌ قَدِيمَةٌ لِقِيَاسِ مَوَاقِعِ الْكَوَاكِبِ وَسَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ، وَحَلَّ الْمَشْكَلاتِ الْفَلَكَيَّةِ [الْمُتَرْجِمُ عَنْ:
الْمُنْجِدِ فِي اللُّغَةِ وَالْأَعْلَامِ].

لي: لِمَاذَا تَبْدُو نَظَرَاتُ شَمْسٍ نَظَرَاتٍ شَخْصٍ مُحْتَضَرٍ؟ هُوَ بِفَيْضِ الشَّمْسِ الْعَالِيَةِ كَوَكَبُ عِرْفَانٍ، وَكَأْسُ مُظْهِرَةٍ لِلْعَالَمِ، وَتُرَابُ طَرِيقٍ! وَهُوَ مُشَوِّقِي وَمَحَرِّكِي لِقَوْلِ الشَّعْرِ. هُوَ الَّذِي [١٠٣] غَيَّرَ بِكَلَامِهِ، وَأَشْعَلَنِي. هَذِهِ الشُّعْلَةُ الْمُخْرِقَةُ هِيَ لِلرَّوْحِ، شُعْلَةُ الْعِشْقِ لِلْحَيَاةِ وَلِلْبَشَرِيَّةِ وَلِلْكَائِنَاتِ.

إِخْوَتِي الْأَعْرَاءُ، إِنَّ شَمْسًا عَارِفَ حُرٍّ، وَفِي السَّيْرِ وَالسَّلُوكِ قَطَعَ مَدَارِجَ وَمَقَامَاتٍ، هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الْمَفَاجِئِ، وَالرَّحْمَةُ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا، فَإِذَا كُنْتُ أَنَا ثَمَلًا أَوْ صَاحِبًا فَإِنِّي فِي ذِكْرَاهُ. نَعَمْ، أَنَا مُتَحَيِّرٌ مِنْدَهْشٌ مِنْ لِقَائِهِ.

وَقَفَ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ فَقَالَ:

- إِنَّ أَهْلَ قُوْنِيَّةٍ يَقُولُونَ لِمَوْلَانَا إِنَّهُمْ يَسْتَقْبِلُونَ ضَيْفَهُ الْكَبِيرَ بِسُرُورٍ وَرِضَا خَاطِرٍ، وَنَحْنُ نُكْرِمُ قُدُومَ شَمْسٍ مِنْ أَجْلِ سُرُورِ مَوْلَانَا. وَمَطْلَبُنَا أَنْ لَا تَسْمَحَ لِلْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ أَنْ يَنْفُذَ إِلَى وَجُودِكَ. لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ مُزْعِجٌ. وَمَا دَامَ شَمْسٌ فِي قُوْنِيَّةٍ سَيَعِيشُ بِاحْتِرَامٍ وَإِكْرَامٍ وَاجْلَالٍ. وَمَتَى ذَهَبَ مِنْ هُنَا تَرَكَ قُوْنِيَّةً مَصْحُوبًا بِذِكْرِيَّاتٍ طَيِّبَةٍ. وَرَجَاؤُنَا هُوَ أَنْ لَا تَكُونَ مَنْشَغَلًا بِالْبَالِ.

سَأَلَ آخَرَ: كَيْفَ يَكُونُ فِي مُسْتَطَاعِكَ أَنْ تَرَى مِنْ هُنَا قَافِلَةَ شَمْسٍ، مِنْ هَذِهِ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ؟ - كَيْفَ يَكُونُ مُمْكِنًا أَنْ تَرَى وَجْهَهُ الْمَشْهُوشَ الْمُجْهَدَ هَكَذَا مِنْ بَعِيدٍ؟ هَلْ هُنَاكَ اعْتِقَادٌ وَتَصْدِيقٌ بِذَلِكَ؟ هَلْ يَسْمَحُ مَوْلَانَا لِكُنْتَلَةِ خَيَالٍ مُبْهَمٍ وَزَائِفٍ أَنْ تَغْزَوْ وَجُودَهُ، أَوْ تَشْكَّ بِإِكْرَامِ أَهْلِ قُوْنِيَّةٍ لِلضَّيْفِ مُقَدِّمًا؟. نَقُولُ: إِنَّا سَنُحْسِنُ ضَيْافَةَ شَمْسٍ. وَإِنَّ أَهْلَ قُوْنِيَّةٍ لَدَيْهِمْ حَاجَاتٌ رُوحِيَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ إِلَى تَجَلِّ سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ، فَفِيهِ الْمَدِينَةُ الْكَبِيرُ^(*).

ويرغبون في أن يستمرّ مجلسُ دَرَسِ مَوْلانا وبَحْثِهِ وإرشاده من دون تأخير. وأبناؤنا ينتظرون مشتاقين عودتكم إلى مجالسِ الدَّرَسِ المفعمّة بالفيوضات.

فما كانَ من مَوْلانا، الذي بدأ في حالٍ من الإجهادِ والكآبةِ وكانتِ الكَلِماتُ تخرُجُ بضُوعبةٍ من بينِ شَفَتَيْهِ، وكانَ يسمَعُ الأصداءَ المناسِبةَ لِأَهاتِهِ التي كانتِ تنبعثُ من قلبه المتألم، إلّا أن يواصلَ القولَ:

الإنسانُ الذي يتحدّثُ عن العِشْقِ وأسرارِ العِشْقِ بِقَلْبٍ مفعِمٍ بالشّوقِ، هنا، لَيْسَ غارِقاً في حُلُمٍ كاذِبٍ يقيّناً، بل يتحدّثُ بوجودِ تامٍّ وصَحْوٍ كاملٍ، ويَعْلَمُ أنّ حوادثَ داميةٍ ستقعُ في قُوْنِيّةٍ. لم أَشَأْ أن أَصوِّرَ من عِنْدِي ملامحَ غيرِ التي ترونها. لكنني يجبُ أن أتحدّثَ من أَجْلِ تلكِ الجماعةِ مِنَ النَّاسِ الذينَ جَلَسُوا هنا، [١٠٤] ويعتقدون أنّني نَجِيٌّ لِخَيَالِي، وأنسجُ مِنَ الخيالِ، كما يقالُ، وعاشقٌ لِفِكْرِي. أنا شاهينٌ مُحَلَّقٌ، في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ وبِمُساعدةِ شَمْسِ التَّبْرِيزِيّ وإرشاده طُرْتُ من صُفّةِ الطَّرِيقَةِ إلى قُبّةِ الحَقِيقَةِ، وكَلَامِي مِعْراجٌ لِلْحَقائِقِ، ونغمٌ سَماوِيٌّ منعِشٌ لِلرُّوحِ، وأسطُربُ لآسِرارِ الحَقِّ. فقد أَمْسَكَ بيدي وَحَلَقَ بي إلى مكانٍ أَسْتَطِيعُ فيه أن أدركَ أَعْلَى دَرَجاتِ الرُّوحانيّةِ^(١)؛ وَمِنْ هُنا أَرى في الضِّياءِ البَاهِتِ لِسَقْفِ هذا الخانِقاهِ الغُروبَ الدَّمَوِيّ لِسَمْسِ الحَقِيقَةِ في قُوْنِيّةٍ. وَمَعَ كُلِّ الإزْعاجاتِ والصَّعوباتِ التي رأيتها في الحِياةِ، أباهي وأفاخرُ الآنَ بِأنَّ قَلْبِي المَنكَسِرَ مَهْبِطُ الأنوارِ الإلهيّةِ، مَحَطُّ الجَلَبَةِ السَّماويّةِ:

١- مَنْ غَيْرُكَ خَلِيفَةُ اللَّهِ؟ قُلْ، في زَماننا؟
مَنْهُ يَصِلُ لُطْفُ يَتَخَلَّلُ ذَرَاتِ كِيانِي في كُلِّ الأوقاتِ
أنا مَنْ اشْتَرَاهُ هُوَ، وأنا مَنْ فَضَحَهُ هُوَ
(ديوان شَمْسِ تَبْرِيزِ، العَرَلِيّةُ ٥٤٩)

هَذَا الْكَلَامُ سُلِّمَ إِلَى السَّمَاءِ
وَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ هَذَا الْبَابِ يَصِلُ إِلَى
وَيَأْتِي مِنْهُ لَحْنٌ لِسَقْفِ الْفَلَكَ
فَيَكُونُ دَوْرَانَهُ دَائِمًا مِنْ ذَلِكَ الْهَوَاءِ

إِنَّ قَلْبِي يَسْمَعُ بوضوح، وَمِنْ دُونَ آيَةِ ذَرَّةٍ مِنْ نُقْصَانِ الثَّقَةِ، صَدَى الْفِرَاقِ
الْمَشْهُومِ. أَيُّهَا النَّاسُ، تَسْتَطِيعُونَ جَمِيعًا أَنْ تَطْلَعُوا عَلَى الْأَسْرَارِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا الطَّبِيعَةُ
كَالِهَالَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِالْقَمَرِ. النَّاسُ جَمِيعًا قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَسْمَعُوا الْأَنْغَامَ السَّمَاوِيَّةَ.
الْكَلَامُ السَّمَاوِيُّ هُوَ تَرْكِيبٌ مُوزُونٌ وَمَلَكُوتِي لِلْعِشْقِ. هُنَاكَ تَشِيدٌ مُقَدَّسٌ أَسْمَعُهُ أَنَا
جَيِّدًا. وَمِنْ أَجْلِ سَمَاعِ هَذَا الصَّوْتِ الْمَشْهُومِ، لَا بَدْءَ لِلْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ مِنْ أَنْ يُوَدَّعَ
الْحَيَاةَ قَبْلَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ مِنْ وَصُولِ نِدَاءِ الْمَوْتِ، فَيُظْفَرُ بِوِلَادَةٍ ثَانِيَةٍ وَتَحُولُ جَدِيدًا، وَأَنْ
يَتَخَلَّصَ مِنَ الْجِسْمِ وَالرُّوحِ، كَمَا يَقُولُ الْحَكِيمُ سَنَائِي:

لَا تَجْعَلْ مَنَزِلَكَ فِي الْجِسْمِ لِأَنَّ هَذَا دُونَ، وَذَلِكَ عَالٍ
وَضَعُ قَدَمِكَ خَارِجَ هَذَيْنِ الْاِثْنَيْنِ لَا تَكُنْ هُنَا، وَلَا تَكُنْ هُنَاكَ

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ، إِمَامُ الْأَخْرَارِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا، تَحَرَّرُوا مِنْ
قَيْدِ الْجِسْمِ بِالْمَوْتِ الْاِخْتِيَارِيِّ. أَنَا أَيْضًا قُلْتُ لِشَمْسٍ: يَا مُوَلَايَ، قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَنِي
الْمَوْتُ بِالتَّسْلِيمِ وَدَعْتُ الْحَيَاةَ وَتَعَلَّقَاتِهَا، وَدَعْتُ الْحَيَاةَ وَمَوَاهِبَهَا، وَلِهَذَا أُسْتَطِيعُ
أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَ الْحَقِيقَةِ اللَّطِيفِ الْمَمْلُوءِ بِالْجَلَالِ. آخَرُونَ أَيْضًا سَمِعُوا وَاطَّلَعُوا
عَلَى حَوَادِثِ الْمُسْتَقْبَلِ. أَحَدُ هَؤُلَاءِ [١٠٥] أَبُو يَزِيدَ الْبُسْطَامِيُّ. فَقَدْ أَخْبَرَ أَبُو يَزِيدَ

عن حال الشيخ أبي الحسن الخرقاني^(*) قبل أن يأتي إلى الوجود. فإنه في يومٍ من الأيام كان أبو يزيد يسير مع مُريديه نحو الصّحراء، فوقف على حين غرةٍ لِلخِطَّةِ في أحدِ الأماكن، وبدا كأن رائحةً طيبةً وصلت إلى مشامه، حتى غدا الفضاء على نحوٍ مفاجئٍ مملوءاً بالعِطْر. كان أبو يزيد عندما يعُبُّ نفسه يقول: إنَّ ملائكةَ الجلالِ والجمالِ في فضاء هذه الصّحراء يخرقون في مجاميرٍ من ذهبٍ صنَع الكُنُودُ، ويتحدّثون عن واقعةٍ مهمّة. كان أبو يزيد يشتمُّ الرائحةَ الطّيبةَ بتلَهُفٍ. وبينَ النظراتِ الحائرةِ لمُريديه، كان يستنشِقُ عَبراً جديداً، وفي صَمتِ الطّبيعة والفضاءِ المفعَم بالعِطْر، كأنَّ صَوْتاً كان يتحدّث مع رُوح أبي يزيد. كان أبو يزيد في ذلك المكان، أي في أطرافِ خَرَقَانَ القريّةِ من مدينة الرّيّ، يتحدّث عن مولودٍ عليّ الشّأن. كان عِطْرُ كائنٍ، أو وجودٍ مُتَوَارٍ في ذلك الوقت وراءِ ستار الأسرار، يُسَكِّرُ أبا يزيد، كأنَّ الطّبيعةَ مدّتِ بساطاً من الرائحة الطّيبة فوق الصّحراء، فما كان من الشّوقِ والجذبِ والإشراقِ والشّهودِ في مُستَرادٍ ريح الصّبا إلّا أن تُفقدَ أبا يزيدَ وعَيه. وعندما ظهَرت آثارُ السُّكْرِ على أبي يزيد، سأل أحدَ المريدين:

ثُمَّ سَأَلَهُ: عَنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الطَّيِّبَةِ

الخارجة على حسابات الحواسِّ الخمس والجَهاَتِ السّت

* - هو القميص أبو الحسن عليّ بن أحمد، وقد كان من كبار شيوخ الصّوفيّة، وتردّد على زاويته عَظَماءُ من أهل عصره، كابن سينا وأبي سَعيد بن أبي الحَثير وناصر خُسر، له كتاب «نور العلوم» في التّصوف باللّغة الفارسيّة. ويذكر ياقوت أنّ خَرَقَانَ قريّةٌ من قُرى بِنظام على طريقِ أَشتراباذ، بها قبرُ أبي الحسن عليّ بن أحمد، له كراماتٌ، وقد مات يومَ عاشوراء سنة ٤٢٥هـ، عن ٧٣ سنة. وإذا صَحَّ هذا لم يَصِحَّ ما ذكره المؤلّف بعدَ أسطرٍ قليلة من كُون خَرَقَانَ المنسوبِ إليها الخرقانيّ قريّةً من مدينة الرّيّ القريّة جدّاً من موقع طهرانِ الحاليّة [المرّجهم].

إذ يَغْدُو وَجْهَكَ تَارَةً أَحْمَرَ، وَتَارَةً أَضْفَرَ، وَتَارَةً أبيضَ

آيَةُ أَخْوَإِ هَذِهِ، وَآيَةُ بَشَائِرٍ وَذَخَائِرٍ؟^(١)

أجاب أبو يزيد البسطامي، الذي هو إمام أهل الحال والشيخ الكامل: إن رائحة مُسْكِرَةٍ تَصِلُ إِلَى مَشَامِي تُشَبِّهُ تِلْكَ الرَّائِحَةَ الَّتِي وَصَلَتْ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى مَشَامِ النَّبِيِّ [عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ]؛ فَإِنَّهُ فِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الْقُدْسِيَّةِ الْعَصِيَّةِ عَلَى الْوَصْفِ قَالَ النَّبِيُّ [عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ]: إِنَّ رِيحَ الصَّبَا تَحْمِلُ إِلَى مَشَامِي نَفْسًا رَحْمَانِيًا أَخَذًا مِنْ نَاحِيَةِ الْيَمَنِ:

إِنَّ عَبِيرَ رَامِينَ يَهْبُ مِنْ رُوحِ «وَيْس»

ورائحة الرَّحْمَنِ تَهْبُ أَيْضًا مِنْ «أُونِس»

وقد هَبَّ مِنْ «أُونِس» وَمِنْ «قَرْن» أَرْجُ عَجِيب

جَعَلَ النَّبِيُّ ثَمَلًا، شَدِيدَ الْإِنْتِشَاءِ وَالطَّرَبِ^(٢)

وفي المُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ جِدًّا، بَعْدَ وَفَاتِي، سَيَمُشِي فِي هَذِهِ الْأَرْضِ رَجُلٌ يَضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجَ الْعِرْفَانِ، وَفِي الْأَعْوَامِ الَّتِي سَتَأْتِي سَيَكُونُ الْإِمَامَ وَالْمُرْشِدَ وَالْأُسْوَةَ الْحَسَنَةَ لِلخَلْقِ. اسْمُهُ أَبُو الْحَسَنِ الْخَرَقَانِي. وَقَدْ سَجَّلَ الْمُرِيدُونَ خَبَرَ وِلَادَةِ أَبِي الْحَسَنِ الْخَرَقَانِي وَاسْمَهُ. وَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَصَدِّقُوا أَنَّ الْبِسْطَامِيَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخْبِرَ عَنِ

١- المثنوي، ١٨١٢/٤ - ١٣.

٢- المثنوي، ١٨٢٩/٤ - ٣٠. وفي البيت الأول إشارة إلى قصة حُبِّ معروفة جيِّدًا في الأدب الفارسي بين فتى اسمه «وَيْس» وفتاة اسمها «رامين». وعبيرُ رامين يَهْبُ مِنْ رُوحِ وَيْسَ لِفَنَائِهِ فِي مَحَبَّتِهِ. وَفِي الْبَيْتِ أَيْضًا إِشَارَةٌ إِلَى حَدِيثِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَقُولُ: «إِنِّي لَأَجِدُ نَفْسَ الرَّحْمَنِ مِنْ جَانِبِ الْيَمَنِ» (ينظر: بديع الزَّمان فروزانفر: أحاديث مثنوي، ص ٧٣ نقلًا عن إحياء علوم الدين ١٥٣/٣)، ويشيرُ إلى معرفة النبي، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَوْنِسًا الْقَرْنِيَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ. وَفِي ثَانِي الْبَيْتَيْنِ تَأْكِيدٌ لِهَذَا الْمَعْنَى [المترجم].

ماجريات مستقبل بعيد نسبياً، ولهذا [١٠٦] السبب أثبتوا في أذهانهم الأمور التي ذكرها الشيخ بشيء من الإكراه أو بظئ التصديق. ولأنه لا أمل عندهم بحياتهم الآتية، كانوا يحكون هذا الخبر المحير لذوي قرباهم وأصدقائهم. ومثلما أنكم اليوم لا تصدقون خبر وصول قافلة شمس، الذي أراه أنا واضحاً من بعيد، كان أصحاب البسطامي هكذا أيضاً. ومهما يكن، فإن مُريدي البسطامي كانوا يريدون أن يعرفوا من هذا الذي هو ذو نفس كنفس المسيح، الذي سيأتي إلى ساحة الوجود في أطراف مدينة الرّي، ويترك تأثيراً بالغاً في الحياة الروحية للناس. حتى إن البسطامي في ذلك اليوم التاريخي، تحدّث مفصّلاً عن لَوْن بشره وَجْه أبي الحسن الخرقاني، وقامته وعينه. عدد من خلصاء البسطامي الذين كانوا حسني الاعتقاد به، كانوا يعلمون أن أبا يزيد لا يتحدّث بتأثير الحال والتفنّن، وأنه لو لم يجد الزمان والمكان والجلس المهيأ والمناسب لما أمكن أن يتحدّث عن أسرار شيء. وعندما يتحمّم إيصال أمر أو مطلب إلى أسمع الناس، أو الإعلام برسالة، لن يضمّت، وسيذيع الأسرار بلا مبالاة، حتى مع مخالفة أكثرية الحاضرين.

عرّض أبو يزيد تصوير أبي الحسن الخرقاني، وبشر بمقدمه بمساعدة الكلام. وفي لحظات الشوق والهيجان تلك، كان الناس يعتقدون أن واحداً من كروبيي^(*) العالم الأعلى سيمثل أمام أعينهم. وكانوا يسألون الله [شبحانه] أن يمدّ في أعمارهم، لكي يروا ولادة أبي الحسن الخرقاني وفق الأوصاف التي ذكرها أبو يزيد. كان أبو يزيد مبشراً بأن الخرقاني سيكون مجلّى لكل الأشواق والهيجانات وضروب المحبة البشرية.

* - واجدة: كروبي، وهم سادة الملائكة [المترجم].

ومضت السنون، ومضى أبو يزيد البسطامي، شمس العرفان التي لا تغرب، إلى خالق الكائنات، ولبي نداء الحق. ثم بعد وفاة أبي يزيد جاء إلى الدنيا مظهر عظيم للعشق والرجاء اسمه أبو الحسن، وولد من أم، ومرة أخرى وقع ضياء جبين الساقى في الكأس: ثم بعد كل تلك السنين، بعد وفاة أبي يزيد، جاء أبو الحسن،

وجاءت كل طباعه الطيبة على غرار ما كان ذلك الملك قد ذكر^(١).

وقد غرق الناس في حيرة، وسئل هذا السؤال في كل مكان: من أين لأبي يزيد أن يعلم؟ - كان أحدهم يقول: إن أبا يزيد بشر بمولود جديد من طريق علم النجوم. واعتقد فريق بأن هذه النبوءة مبنية على العالم الباطني لشيخ بسطام، الذي لديه قدرة على الإبداع، وما كان يمر في خاطره الطاهر كان يُبرزه للعيان مثل مصور [١٠٧] ماهر. كان مُريدو الخرقاني يرجون، بجزع ونفاد للصبر، أن يكونوا في صميم الأحداث. وقد كان هذا، فراجت سوق الشائعات المختلفة، وكان يجري الحديث عن الملائكة والجان. وكان أن تجاوزت جماعة حدود الموضوعات المنطقية، كأنها لم تطلع على عظمة عالم الباطن^(٢)، كما يجب، ولهذا السبب كانت تُقرّ بعجزها وسطحيتها ومسكنتها في كشف هذا المعنى.

١- المتنوي، ١٨٥٠/٤ - ٥١.

٢- مثلما يقول مولانا في ديوان شمس:

أنت حتى الآن غير ظاهري، ماذا رأيت من بحالِك؟ ففي السحر، اخرج من باطنك، كالشمس

- ذلك الطريق الذي جئت فيه، أي طريق هو، يا قلبي؟
لكني أعود كما جئت؛ فإن أمري فيج وغير مكسول، يا قلبي
- وفي كل خطوة ألف فتح وكمين، يا قلبي،
وعند أشباه الرجال، العشق حرام، يا قلبي
نحجُم الدين دايه الرازي

تجلياتُ العشق

أحد المتقدين والمتشدقين قال لأصحابه: كشفتُ التنبؤ بالأسرار ذا الطابع
السحريّ وشأن الخرقانيّ، أفلا تعلمون أنّ الأسطرلاب يكشف أسرار المستقبل، حتى
مظاهر المجتمع الإنسانيّ، بدقة وضبط يتذوق الحقيقة؟ واعتقدت جماعة أن أبا يزيد
رأى في المنام وجه أبي الحسن الخرقانيّ. وقد ردّ جلال الدين، مولانا، على ردود
الأفعال العاطفية للناس على القذرة العرفانية المذهلة لأبي يزيد على هذا النحو:

ليس نُجوماً، ولا رملاً، ولا مناماً

بل هو «وحي الحق»، والله أعلم بالصواب

وابتغاء التعمية على العامة في البيان

قال الصوفيّ عنه: إنه «وحي الجنان»^(١)

وُلد أبو الحسن على الصفات والخلائق نفسها التي تنبأ بها أبو يزيد. فمُنذ طفولته
الأولى كانت له شخصيّة غير عادية، إذ كان ينزوي عن أصدقائه، وينصرف إلى الدرس
والوعظ والمسجد والمحراب، وكان لديه اشتياق قوي إلى سماع العارفين يشرحون
حقيقة الحياة الدنيا. وفي صغر أبي الحسن قيل له: إن أبا يزيد قال في شأنك كذا وكذا،

وَيَبِينُ صِفَاتِكَ فِي حَيَاتِهِ عَلَى نَحْوِ رَائِعٍ، إِذْ قَالَ:

إِنْ أَبَا الْحَسَنِ هُوَ مُرِيدِي وَأَمْتِي

وَسَيَأْخُذُ الدَّرْسَ كُلَّ صَبَاحٍ عِنْدَ ثُرَيْبِي

كانت نبوءة شيخ بسطام صحيحة، فقد كان أبو الحسن يَمْضِي كُلَّ صَبَاحٍ لزيارة ثُرَيْبِ [١٠٩] أبي يزيد، ويجلسُ لمدة ساعة قُرْبَ قَبْرِهِ، وَيَسْتَمْلِي كتابَ قلبه حتَّى يَنْجَلِي له السِّرُّ الإلهي في الأفلاك، وتتكشف الأسرارُ الغامضةُ الحاكمةُ في هذا العالم، كأنَّ شعورًا خفيًّا كان يتحدث إلى أبي الحسن مبيِّنًا له أنَّ شُعَاعَ الآفاقِ اللَّانِهائيةِ للإيمانِ والإخلاصِ والمعرفةِ الباطنيةِ عندَ أبي يزيدَ هو الذي يرفعُ القَافَ عن وَجْهِ أسرارِ المَجَرَّاتِ، ويحوِّلُ ظُلْمَةَ لَيْلِ حَيَاتِهِ بِكَوَانِينِ النُّورِ إلى نَهَارٍ مُتَجَلِّ.

كان أبو الحسن يجلسُ كُلَّ يَوْمٍ بِجَانِبِ قَبْرِ مُرَادِهِ الْمُلْحَنِّ، ويتحدَّثُ عن مشكلاته، ثُمَّ بَعْدَ إِزَالَةِ الْمُشْكِكِ يَتَرَكُ المكانَ مسرورَ القلبِ. وفي يومٍ بارِدٍ مِنْ أَيَّامِ الشِّتَاءِ كان الثَّلَجُ فيه قد غَطَّى وَجْهَ الْأَرْضِ بِغِلَالَةٍ بِيضاءٍ، مَضَى أَبُو الْحَسَنِ، جَرِيًّا عَلَى دَأْبِهِ اليَوْمِيِّ، مُسْرِعًا إِلَى المَقْبَرَةِ، فرأى الثَّلَجَ قد غَطَّى ضَرِيحَ أَبِي يَزِيدَ السِّسْطَامِيِّ، وَلَمْ يَبْقَ ثَمَّةَ مَوْضِعٌ لِلْجُلُوسِ والسَّكِينَةِ والحديثِ الصَّوْفِيِّ الصَّافِي. وفي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ، أَحْسَسَ أَبُو الْحَسَنِ أَنَّ شُعْلَةَ الْهَيْجَانِ الْعِرْفَانِيِّ قَدْ انْطَفَأَتْ فِي صَدْرِهِ عَقِبَ عاصِفَةِ الثَّلَجِ هذه، فَهَمَّ بِأَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْمَنْزِلِ فَإِذَا صَوْتُ يَتَنَاهَى إِلَى سَمْعِهِ وَكَأَنَّ جُمْلَةَ ذَرَاتِ وُجُودِهِ قَدْ صَارَتْ سَمْعًا، وَإِذَا الصَّدَى يَقُولُ:

إِذَا كَانَ الْعَالَمُ ثُلْجًا، فَلَا تُشِخْ بِوَجْهِكَ عَنِّي

أَلَا فَلْتَأْتِ إِلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ، أَسْرِعْ إِلَى لَحْنِي

أنا، مثل فريد الدين العطار، عَلَيَّ أَنْ أَعْتَرِفَ بِأَنْتِي وَشَمْسًا لَمْ نَظْفَرْ بِهِذِهِ الْحَالِ بِالْقِيلِ وَالْقَالَ، لَمْ نَكْسِبْهَا بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ. بَلْ جَعَلْنَا قَلْبَيْنَا مَحَلًّا لِلْإِيمَانِ وَالْعَقِيدَةِ وَالْإِخْلَاصِ. كُنَّا نَنْشُدُ الْكِمَالَاتِ. وَفِي هَذِهِ السَّبِيلِ قَبْلُنَا وَتَحْمَلُنَا الْآلَامَ وَالصَّعُوبَاتِ بِرِضًا، وَكُنَّا نُؤْمِنُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ، مِنْ دُونِ أَلَمٍ وَمَشَقَّةٍ، شَبِيهٌ بِالْجَمَادَاتِ:

مَنْ لَيْسَ لَدَيْهِ قَلْبٌ مَسْرُورٌ بِأَلَمِكَ لَا سَرَّهُ اللَّهُ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ مِنْ رِجَالِكَ!
فَاعْطِنِي ذَرَّةً مِنْ دَائِكَ، يَا دَوَائِي لِأَنَّهُ مِنْ دُونِ دَائِكَ يَمُوتُ رُوحِي
وَحَتَّى فِي أَثْنَاءِ تَلَاظُمِ أَمْوَاجِ الْإِزْعَاجَاتِ، كُنَّا مَنشَغَلِينَ بِالتَضَرُّعِ وَإِنْشَادِ أَلْحَانِ
التَّوْحِيدِ وَالشُّكْرِ، الَّتِي تَخْلُبُ الْأَبَابَ.

ولذلك يَكُونُ النَّبْعُ النَّزْرُ لِلْوُصُولِ إِلَى الْحَقِيقَةِ عَيْنِ الْهِجَانَاتِ الْخَاصَّةِ لِلْعِشْقِ
وَالْمَحَبَّةِ، وَفَقَّ شَهَابُ الدِّينِ الشُّهْرَوَزْدِي، شَيْخُ الْإِشْرَاقِ، الَّذِي قَالَ فِي مُؤَلَّفِهِ «رِسَالَةٌ فِي
حَقِيقَةِ الْعِشْقِ»: «لَا يَأْذَنُ الْعِشْقُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ بِالْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلَا يَأْوِي إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا
يَتَّجِهُ إِلَى كُلِّ عَيْنٍ. يُظْهِرُ الْعِشْقُ نَفْسَهُ حِينَ فِي مَلَامِيحِ شَهَوَانِيَّةٍ خَالِصَةٍ، وَحِينَ فِي صُورَةِ
خَرْقِ رُوحَانِيٍّ لِلْعَادَةِ. وَفِي الْحَالِ الثَّانِيَةِ يُوصِلُ إِلَى مَا يُعَدُّ غَيْرَ [١٠٩] مُمْكِنٍ؛ فَيُظْهِرُ الْقَبِيحَ
جَمِيلًا، وَالْمُنْحَطَّ مُتَعَالِيًا، وَيَطْرُدُ كُلَّ إِنْسَانٍ إِلَّا الْمَعشُوقَ عَنْ مَعْرِفَةِ الذَّاتِ».

الْعِشْقُ مِنَ التَّجَلِّيَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ أَسَاسُ الْوُجُودِ، وَهِيَجَانُ الْحَيَاةِ السَّرْمَدِيَّةِ،
وَصَانِعُ الْعُمْرَانِ وَأَسَاسُهُ، وَيُدْفَعُ النَّاسَ إِلَى الْقُرْبِ وَالصَّفَاءِ وَالصِّمِيمَةِ وَالْوَحْدَةِ.
اعْلَمُوا، يَا أَهْلَ قُوْنِيَّةِ أَنْ الْأَمْرَ هَكَذَا:

مَعَ أَنَّ سُكْرَ الْعِشْقِ قَدْ خَرَّبَنِي

ظَلَّ أَسَاسُ وَجُودِي عَامِرًا مِنْ هَذَا الْخَرَابِ

العشق مشيرٌ لِلْمَحَبَّةِ وَالصَّفَاءِ وَالصَّمِيمَةِ وَالنَّمُو. وإنسانٌ عاشقٌ، على غرارِ شمسٍ،
لَنْ يَكُونَ تُحَفَةً مَعْجُونَةً مِنْ قُوَى مُخْتَلِفَةٍ وَمُتَفَاوِتَةٍ أَوْ مُتَضَادَّةٍ. الإنسانُ العاشقُ يَطْوِي
طَرِيقَ الصُّلْحِ وَالصَّفَاءِ، وَيَكُونُ مَذَاحًا لِلْعَظَمَةِ الإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ يَفْتَخِرُ بِمَسْقَطِ رَأْسِهِ،
وَبِأَصْدِقَائِهِ، وَبِنَبِيِّهِ، وَبِإِيمَانِهِ. رِيَاضُ الطَّبِيعَةِ وَبَسَاتِينُهَا ضَاجَّةٌ بِالْحَانِ قُمْرِيٍّ الْعِشْقِ.

ويعيشُ شمسٌ حَالًا مِنَ السَّعْيِ وَالْكَفَاحِ الْمُتَوَاصِلِينَ، لِإِحْمَادِ طُغْيَانِ النَّفْسِ
وَالهَوَى عِنْدَ النَّاسِ، وَتَأْمِينِ الرِّفَاءِ الرُّوحِيِّ لَهُمْ، وَتَعْدِيلِ لَذَاتِهِمْ وَضُرُوبِ اسْتِمَاعِهِمْ.
يَسْعَى دَائِمًا لِتَأْمِينِ الْحَاجَاتِ الرُّوحِيَّةِ وَالْمَغْنَوِيَّةِ عِنْدَ النَّاسِ.

وَتَعْلَمُونَ أَتُكْمُ جَمِيعًا، أَوْ أَهْلَ الْبَسِيطَةِ الْمُنْشَغِلِينَ فِي شُؤُونِ الْحَيَاةِ، تَطْلُبُونَ دَائِمًا
مَا يَلْبِي شَهَوَاتِكُمْ وَرَغَائِبِكُمْ وَلَذَائِكُمْ. وَيَقُولُ شَمْسٌ إِنَّ الْحَقَّ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقِ الْإِنْسَانَ
مِنْ أَجْلِ طَلَبِ اللَّذَّةِ وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْ مَوَاهِبِ الطَّبِيعَةِ، وَإِنَّ الْفَلَسَفَةَ الْجَمِيلَةَ الْعَظِيمَةَ
وَرَاءَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ هِيَ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ خَلِيفَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَأَنْ يَتَعَرَّفَهُ
بِمَامِ وجودِهِ؛ فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الذَّاتِ الإِلَهِيَّةِ أَعْظَمُ عِبَادَةٍ وَطَاعَةٍ.

إِنَّ شَمْسًا هُوَ عَنَقَاءُ جَبَلٍ قَافٍ (*) الْعِشْقِ الَّتِي تَكُونُ عَنَقَاءُ الْعَقْلِ الْجُزْئِيِّ أَمَامَهَا
ضَيْلَةُ الشَّانِ جَدًّا، إِنَّهُ مَوْجَةٌ مِنْ بَحْرِ الْإِمْكَانِ ظَهَرَتْ مِنْ خَوْفِهَا هَيْجَانَاتٌ وَتَأَوَّهَاتٌ
وَطُوفَانَاتٌ. وَقَدْ تَحَدَّثْتُ فِي هَذَا الْمَكَانِ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً عَنِ الْقُدْرَةِ الْبَاطِنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ
لِشَمْسٍ، وَلَكِنْ كُلُّ تِلْكَ الْأَشْرَارِ الَّتِي أَعْلَمُهَا عَنْهُ صَدَّقُوا أَنَّنِي لَسْتُ قَادِرًا عَلَى إِفْشَائِهَا؛
لَأَنَّنِي لَا أَمْتَلِكُ الْجُرْأَةَ عَلَى التَّحَدُّثِ عَنْ كُلِّ فِكْرِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَخَاصِّيَّاتِهِ، وَأَخْشَى مِنْ

* - اخترنا هذا التَّرْكِيبَ مُقَابَلًا عَرَبِيًّا لـ «سِيمُرْغ» الْفَارْسِيَّةِ وَهُوَ طَائِرٌ أُسْطُورِيٌّ يَعِيشُ فِي جَبَلٍ أُسْطُورِيٍّ أَيْضًا،
اسْمُهُ «جَبَلٌ قَافٍ». وَفِي التَّصَوُّفِ يَعْنِي «السَّيْمُرْغ» الْحَقِيقَةَ الإِلَهِيَّةَ، أَوْ الْمَطْلُوبَ الْأُسَى؛ وَهُوَ أَيْضًا الثَّلَاثُونَ طَائِرًا
الَّذِينَ بَحَثُوا عَنِ الْحَقِيقَةِ فِي كِتَابِ «مَنْطِقِ الطَّيْرِ» لِفَرِيدِ الدِّينِ الْعِطَّارِ، وَالْإِنْسَانِ الْكَامِلِ [الْمُتَرَجِم].

أنه، بسبب كشف هذه الأسرار، ستضطرب شعلة جامحة في فضاء هذا الخانقاه، وتحرق كل ما هو موجود في هذا الخانقاه [١١١]:

عندما نستطيع الوصول إلى البحر

لماذا يكون عليك أن تسارع إلى قطرة ندى؟

ومن تعلم كيف يتحدث مع الشمس بالأسرار

منى يستطيع أن يبقى مع ذرة؟!

إن شمساً في ميدان مبارزة النفس وقتالها رجل تام العيار، وقد دفعني دفعا نحو كشف أسرار الدنيا.

وشمس، بنظره الباطن، وبقوة قلبه الذي أضيء بأنوار القدس، يرى حقائق الأشياء جيداً، مثلما تشهد النفس صورة الأشياء بمساعدة عين الظاهر. والغاية القصوى للخلق إدراك هذه القوى الخفية. وأنا أيضاً في حياتي كلها، ومنذ الصغر، كنت أبحث عنه لكي تسوقني الدنيا الجميلة لحال شمس، إلى حد ما، نحو كشف أسرار العالم.

وعليّ ههنا أن أتحدث عن القدرة الساحرة للعشق، وأتكلم على هذا اللاعب المثير في ميدان قلب الإنسان وروحه. وقد تذكرت هنا بيان الشيخ شهاب الدين الشهروردي، الذي يقدم في أثره «رسالة في حقيقة العشق» هذا السؤال الذي يُسأل فيه العشق:

من أين تجيء، وإلى أين ستذهب، ولماذا سُميت بهذا الاسم؟

فأجاب العشق: أنا من بيت المقدس، ومن محلة الروح.. عملي السياحة، أنا صوفي غير محروم، وفي كل لحظة أتوجه إلى ناحية، وفي كل يوم أكون في منزل، وفي كل ليلة أقيم في مكان. وهذا الشعار، أو هذا الرسم، أي عادة إثارة الفتنة في المدينة

واجتذاب المحبوبة، لباسٌ خِيطَ على قامَةِ شَمْسٍ، وهو يَغْلُمُ الدَّلَالَ والغُنْجَ العِشْقِيَّينَ جيِّدًا، وقد تحمَّلَ في هذا الطريقِ رياضاتٍ ومُجاهداتٍ.

أَيُّ أَهْلٍ قُوْنِيَّةٍ، هو الذي اختطفَ مِنِّي الهدوءَ والطَّمَأْنِينَةَ، ولكنني طَيِّبُ النَّفْسِ بذلكَ، مسرورٌ به، والدُّنيا التي أَعَدَّهَا شَمْسٌ لي هي دُنْيَا لَوْنِهَا قَوْسٌ قُزَحٍ بِأَلْوَانِهِ الخَلَابَةِ. إِنَّهُ طَائِرُهُمَا^(*) سَعَادَتِي، الطائرُ الذي أَطَارَ يَدَ التَّقْدِيرِ فَوْقَ رَأْسِي. وبُشْعَاعِ طَائِرِ السَّعَادَةِ هذا، وتحتَ ظِلِّ جَنَاحَيْهِ الذَّهَبِيِّينَ، أَفَاخِرُ بِنَفْسِي.

في يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، رَأَى السَّلْطَانُ مُحَمَّدٌ [الغَزْنَوي] فِي الصَّحْرَاءِ طَائِرَ «هُمَا» مُحَلَّقًا، فَقَالَ لَجُنُودِهِ: تَابِعُوهُ، كُونُوا خَلْفَهُ، تَعَقَّبُوهُ، لَعَلَّ ظِلَّ الْإِقْبَالِ وَالسَّعَادَةِ يَقَعُ عَلَيْكُمْ. جَرَى الْجَمِيعُ مِنَ الْيَسَارِ وَالْيَمِينِ، وَحَدَّثَتْ هَمَمَةٌ، وَاضْطَرَبَ الْجُنْدُ، أَمَّا إِيَّازُ^(**) فَلَمْ يَرِ بَيْنَ [١١٢] الْجُنْدِ الْمَضْطَرِبِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَجْرُونَ، وَعِنْدَئِذٍ سَأَلَ السَّلْطَانُ مُحَمَّدٌ:

- لَيْسَ إِيَّازِي بَيْنَهُمْ. لِمَاذَا لَمْ يَذْهَبَ مَعَهُمْ لِكَيْ يَقَعَ ظِلُّ طَائِرِ الْهُمَا فَوْقَ رَأْسِهِ؟
نَظَرَ السَّلْطَانُ إِلَى زَاوِيَةٍ، فَرَأَى إِيَّازًا قَدْ جَلَسَ تَحْتَ ظِلِّ جَوَادِهِ، فَسَأَلَ:
- مَاذَا تَفْعَلُ هُنَاكَ، لِمَاذَا لَمْ تَنْطَلِقْ وَرَاءَ طَائِرِ الْهُمَا؟ فَأَجَابَ إِيَّازُ:
- طَائِرُ هُمَايَ هُوَ أَنْتَ، وَظِلُّكَ هُوَ ظِلُّ هُمَايَ. أَأَطْلُبُ ظِلًّا أَجْمَلَ مِنْ ظِلِّكَ؟ وَأَتْرُكُ

* - الْهُمَا طَائِرٌ مِنْ فَصِيلَةِ الطُّيُورِ الْحَارِجَةِ، يَعْدُهُ الْقُدَمَاءُ فِي إِيرَانَ مُصَدِّرًا لِلْسَّعَادَةِ وَالْحُظِّ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَقَعُ عَلَيْهِ ظِلُّهُ سَيَجْعَلُهُ سَعِيدًا مَحْظُوظًا [المترجم].

** - هُوَ أَبُو النَّجْمِ إِيَّازُ أَوْيَاقُ (ت ٤٤٩ هـ)، غِلَامٌ تَرْكِيٌّ، وَمِنَ الْأُمَرَاءِ الْمَحْبُوبِينَ جِدًّا لِلْسَّلْطَانِ مُحَمَّدِ الْغَزْنَوي. وَلَقُوَّةُ مَحَبَّتِهِ لِلْسَّلْطَانِ مُحَمَّدٍ وَمَحَبَّةُ السَّلْطَانِ مُحَمَّدٍ لَهُ صَارَا فِي الْأَدَبِ الْفَارِسِيِّ مَثَالًا لِلْعَاشِقِ وَالْمَعشُوقِ، وَالْأَمِيرِ وَالْخَادِمِ [المترجم].

الْقَلْبَ فِي رَهْنٍ مَحَبَّةٍ طَائِرٍ؟! حَاشَى أَنْ أُتْرِكَكَ، وَأَتَّبِعَ ذَلِكَ الطَّائِرَ. هَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ عِنْدِي. فَمَا كَانَ مِنْ مَحْمُودٍ إِلَّا أَنْ عَانَقَ إِيَّازَ، فَاخْتَلَطَ ظِلُّهُ بِظِلِّهِ. هَذَا الظِّلُّ الَّذِي لَا يَصِلُ ظِلُّ آلَافِ طُيُورِ الْهُمَا إِلَى ظِلِّهِ.

لَيْتَنِي أَنَا أَيْضًا أَسْتَطِيعُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ الْامْتِرَاجِ بِظِلِّ شَمْسٍ، وَأَطِيرُ بِمَدَدٍ مِنْهُ إِلَى الْأَوْجِ، نَحْوِ الْأَفْلَاكِ.

قَالَ لِي شَمْسٌ: لَوْ ذَهَبْتَ إِلَى الْعَرْشِ لَمَا كَانَتْ هُنَاكَ فَائِدَةٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ إِلَى مَا فَوْقَ الْعَرْشِ، وَإِلَى مَا تَحْتَ سَبْعِ طَبَقَاتٍ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ فَائِدَةٍ. يَنْبَغِي أَنْ يُفْتَحَ بَابُ الْقَلْبِ. أَسْمَى لِأَظْفَرِ بِمُسْتَقَرٍّ فِي الْقَلْبِ، وَقَلْبِي لَيْسَ خَزِينَةً لِأَحَدٍ، بَلْ هُوَ خَزِينَةٌ لِلْحَقِّ، وَنَقْطَةُ فَرْجَارِ الْوُجُودِ.

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَاتِ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَرِيحَ مَوْلَانَا لِلْحَظَةِ، وَبِإِشَارَةٍ مِنْ مُعِينِ الدِّينِ پَرَوَانِه، الْوَزِيرِ الْكَبِيرِ فِي بَلَاطِ سَلَاجِقَةِ الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ، أَمْسَكَ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ بِالرَّبَابِ، وَأَخَذَ فِي الْعَزْفِ. وَهَكَذَا انْسَابَ صَوْتُ الرَّبَابِ الشَّجِيئِ إِلَى أُذُنِ مَوْلَانَا. وَمِثْلَ ظَمَانٍ يَصِلُ إِلَى عَيْنِ الْمَاءِ الزَّلَالِ بَعْدَ سَاعَاتٍ مِنَ السَّيْرِ فِي طَرِيقٍ، سَكَتَ مَوْلَانَا، وَبَدَتْ عَلَى سِيَمَائِهِ أَمَارَاتُ الرَّاحَةِ الْوَاضِحَةِ، وَهَمَسَ:

- تَضَرَّعُ الْعُشَّاقُ يَصِلُ إِلَى الْأَسْمَاعِ.

كَانَ لَحْنُ الرَّبَابِ وَخَدَهُ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَوْقِفَ الْكَلَامَ عَلَى لِسَانِ مَوْلَانَا. كَانَ مَوْلَانَا يَعْتَقِدُ أَنَّ صَوْتَ النَّايِ وَالرَّبَابِ مُصَدَّرٌ لِلذَّاتِ رُوحِيَّةٍ لَا حُدُودَ لَهَا، أَنَّهُ نِدَاءٌ يَصِلُ الْبَشَرَ بِعَالَمِ الْغَيْبِ. التَّأثيرُ الَّذِي يتركُهُ صَوْتُ الرَّبَابِ فِي السَّامِعِينَ أَقْوَى مِنْ سُكْرِ الْخَمْرِ الَّذِي يَسْتَبْدُّ بِالنَّفْسِ.

وابتغاء أن يُثير المطربَ مولانا، ويزيدَ وجده غنى وقرأ:

لَيْسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرِيبٌ مِثْلُ شَمْسٍ

شَمْسُ الرُّوحِ الْبَاقِي الَّذِي لَيْسَ لَهُ أَمْسٌ

وَالشَّمْسُ فِي الْخَارِجِ مَعَ أَنَّهَا فَرِيدَةٌ فَذَّةٌ

يُمْكِنُ تَصَوُّرُ مِثْلِهَا

[١١٣] أَمَّا شَمْسُ الرُّوحِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنَ الْأَنْبُرِ

فَلَيْسَ لَهَا فِي الذَّهْنِ، وَلَا فِي الْخَارِجِ، نَظِيرٌ^(١)

وبتأثير جاذبية ذلك الصوت واللحن وسماع اسم «شمس»، اضطرب مولانا

واهتاجت نفسه احتياجاً عظيماً، وكأنما استوعب سحر شمس وجاذبيته بكل ذرات

وجوده وجُمْلَةِ حَوَاسِّهِ. كان مولانا يعدّ أجمل الغزليات والرُّبَاعِيَّاتِ والأشعارِ تلكَ

التي تكونُ مؤثرةً وبلغَةً وطمأننةً، تطيرُ به كالقش من الأرض نحو الأفلاك. ولا شك أن

مثل هذه الأناشيد ينبغي أن تُسمع مصحوبةً باسم «شمس».

- ارقصُ حيثما تحطُّمُ نفسُك،
وتنفُضُ القُطُنَ عن جُرحِ الشهوة،
- إثمهم يرقصون ويجولون في الميدان،
لكن الرِّجالُ يرقصون في دماءِ ذواتهم،
- وعندما يتحرَّرون من سُلطانِ ذواتهم عليهم يصفقون،
وعندما يتخلَّصون من نقائصِ أنفسهم يرقصون.
(المثنوي، ٩٥/٣ - ٩٧)

الموسيقا لُغةُ الرُّوح

صارَ مَوْلانا، الثَّملُ من شرابِ جَلالِ اسمِ شَمسٍ وعظَمته اللَّذين لا تفسيرَ لهما،
لألاءِ كالشُّعلة. كانَ في شُعلةِ هذا الاسمِ العظيمِ كَأَنه في حالِ احتراقٍ وذوبان. وكانت
قطراتُ الدَّمعِ، التي هي أُنْداءُ رُوحِ مَوْلانا، تنهملُ الواحدةُ تلوَ الأُخرى من سَماءِ عَيْنِيهِ
النافذَتين: الأنعامُ السَّماويَّةُ التي يُصْدرُها النَّايُ والرِّبابُ، التي منبعُها هَيَجاناتُ القَلْبِ
والرُّوح، تَغمرُ مَوْلانا بتفاصيلها وخفاياها.

وكان مُعِينُ الدِّينِ پروانه، الثَّريدُ الكبيرُ لَمَوْلانا، قد لَجَأَ إلى الموسيقا من أَجلِ أن
يخفِّفَ معاناةَ مُرايهِ العظيم. ذلكَ لأنَّ هذا المريضَ المتألِّمَ كان يَبْحَثُ في لُغةِ الموسيقا
البليغةِ عن مفتاحٍ لِلخِلاصِ من آلامِ الفراقِ، ودَوَاءٍ شَبِيهِ بالمعجِزةِ لهذا الدَّاءِ الدَّويِّ.
أَلَمْ يَقُلْ: إِنَّ الموسيقا هي اللُّغةُ الفصيحةُ لِأَسرارِ أَعماقِ الرُّوحِ والقَلْبِ عندَ الإنسانِ؟.

كان علاءُ الدِّينِ وَلَدُ^(١) يَرى قطراتِ الدَّمعِ المنهلةِ مِنْ رَوايا عَيْنِي مَوْلانا على
عارِضِهِ بَعينٍ مملوءةٍ بالأسى، وكان الفَضاءُ مفعَمًا بِأنعامِ الرِّبابِ والنَّايِ المثيرةِ المؤثِّرة،
مفعَمًا بالهَيَجاناتِ والإشراقاتِ التي تجعلُ كُلَّ مُشاهِدٍ وسامِعٍ يقرأُ الكلماتِ المقدَّسةَ

١- هو ابنُ مَوْلانا جلالِ الدِّينِ الأصغر، الذي لم يكن على وفاقٍ مَعَ شَمسِ تَبريز، ولا مَعَ جلالِ الدِّينِ [المترجم].

في كُتُبِ القرون في مَحَلِّ الوَحْدَةِ والأَبَدِيَّةِ والعُشْقِ في أَنْعَامِ حُلُمِ الخَانِقَاهِ، أو يَتَذَكَّرُ هذه الكلمات.

شَاهَدَ عِلَاءُ الدِّينِ أَنَّ مَوْلَانَا غَارِقٌ فِي خَطَوَاتِ الْمَاضِي وَأَخْلَامِهِ اللَّذِيذَةُ [١١٥].
كَانَ يَبْحَثُ عَنْ أَصْلِهِ، حَتَّى إِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ إِنَّهُ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يُزِيلَ عَهْدَ
الْفِرَاقِ بِقَطَرَاتِ الدَّمْعِ مِنْ سَاحَةِ الْخَانِقَاهِ. كَأَنَّهُ كَانَ يَفَكِّرُ بِعَالَمِ الْوِصَالِ^(١).
نَعَمْ، إِنَّ مَتَالَمَ قُوْنِيَةِ الْكَبِيرِ، بِجَرِيرَةِ أَنَّهُ أَشْلَمَ قَلْبَهُ لِلْعُشْقِ أَكْثَرَ مِنَ الزُّوْمِ، نَالَ مِنْهُ
الْأَلَمُ. وَكَانَ يَبْحَثُ عَنِ الْعِلَاجِ. وَفِي أَيِّ شَيْءٍ يَوْجَدُ هَذَا الْعِلَاجَ؟
كَانَ مَوْلَانَا يُنْشِدُ فِي الْخَانِقَاهِ أَحْرَّ الْأَشْعَارِ الْعِشْقِيَّةِ وَأَشَدَّهَا لَذْعًا، وَكَانَتْ سَيِّمَاوُهُ
تَدْعُو كُلَّ رَاءٍ إِلَى الْمَشَارَكَةِ فِي الْأَلَامِ وَالْحُرْقِ:

الْعَاشِقُونَ قَتَلُوا أَحْيَاءَ الْقُلُوبِ وَهُمْ مُحْتَرِقُونَ بِنَارِ عِشْقِ الْحَبِيبِ
وَلَيْسَ لِلْعَاشِقِينَ وَتَرٌّ وَلَا عُدُودٌ وَأَنْبِيَاءُ الْعِشْقِ هُوَ لَخْنُ دَاوُودَ
فِيَا مَنْ لَسْتَ عَاشِقًا، حَرَامٌ عَلَيْكَ الْحَيَاةُ، لِأَنَّكَ تُبَدِّدُهَا وَتُهْمِلُهَا
الْأَنْعَامُ الْمَشْوُوقَةُ لِلنَّايِ وَالرَّيَابِ لَمْ تُكَلِّبْ الْأُمْنِيَّاتِ الرُّوحِيَّةَ لِمَوْلَانَا، وَلَمْ تُرْضِهِ كَمَا
يَنْبَغِي. وَعِنْدَ هَذِهِ النِّقْطَةِ، طَلَبَ مُعِينُ الدِّينِ بِرَوَانِهِ، وَزِيرُ كَيْفَبَاذِ السَّلْجُوقِيِّ وَمُرِيدُ
مَوْلَانَا، مِنَ الْحَاضِرِينَ فِي الْخَانِقَاهِ أَنْ يَبْدُؤُوا بِالرَّقْصِ، وَيَنْهَمِكُوا بِالتَّهْيِيجِ وَالْإِثَارَةِ
بِصُحْبَةِ الذَّكْرِ الْجَلِيِّ^(٢).

١- إِنَّ كُلَّ مَنْ يَبْقَى بَعِيدًا عَنْ أَصْلِهِ يَظَلُّ يَبْحَثُ عَنْ زَمَانٍ وَضَلِيلِهِ
أَدْنَدُ صَدْرًا مَرْقَهُ الْفِرَاقِ لِرُبَا إِرْتَا لِيَكُنْ أَشْرَحَ لَهُ أَلَمُ الْاِشْتِيَاقِ
(الْمُتَنَوِّي، ٣/١-٤)

٢- مِنْ خَاصِّيَّاتِ الطَّرِيقَةِ الْمَوْلَوِيَّةِ: الذَّكْرُ الْحَلِي، وَالرَّقْصُ [الأَصْل].

كَانَ أَرْوَاحُ الْمُشَارِكِينَ الْمَرْفُوفَةَ أَخَذَتْ فِي الطَّيْرَانِ مَعَ أَصْدَاءِ عَزْفِ الْعَازِفِينَ
وَعَنَاءِ الْمُنْشِدِينَ فِي فِضَاءِ الْخَانِقَاهُ، فَبَدَأَ الْقَفْزُ وَالْوَثْبُ وَالرَّقْصُ. انْتَهَى زَمَانُ الصَّحْوِ،
وَكَانَتْ الْأَرْوَاحُ تَنْطَلِقُ إِلَى مَكَانٍ كَانَ مَحَلًّا لِتَجَلِّي ضُرُوبِ الْمَحَبَّةِ وَالْعِشْقِ الصَّافِيَةِ.
وَكَانَ لِلْقُلُوبِ هَيْجَانٌ آخَرٌ. كَانَتْ عَشْرَاتُ كَوَانِينَ النُّورِ تَكْسِرُ بِشُعَاعِهَا الْمَلَكُوتِيَّ
صَفَائِحَ الْفِضَاءِ. وَاخْتَلَطَتْ مَظَاهِرُ اللَّيَاقَةِ وَالْعِظَمَةِ بِمَظَاهِرِ الْهَيْامِ وَالْغَرَامِ، وَانْشَغَلَتْ
الشَّخْصِيَّاتُ الْمُخْتَلِفَةُ بِالرَّقْصِ. كَانَ هَؤُلَاءِ، مِنْ أَجْلِ مَوْلَانَا، يَرِيدُونَ أَنْ يَكُونُوا فِي حَالٍ
مِنَ الْهَيْجَانِ وَالسُّرُورِ؛ أَنْ يَكُونُوا مَانِحِينَ لِلْهُدُوءِ وَالرَّاحَةِ وَالْمُنْعَةِ وَالْإِثَارَةِ. كَانُوا
يَرِيدُونَ، كَأَنَّهُمْ عَشْرَاتُ مِنَ الْأَسْمَاءِ، أَنْ يَنْغَمِسُوا فِي بَحْرِ لَا نَهَايَةَ لَهُ مِنَ السُّرُورِ
وَالْبَهْجَةِ، وَيَصَفَّقُوا وَيَرْقُصُوا. وَأَمَامَ هَذَا الْمَشْهَدِ الْمُوقِظِ الْمُنْشِطِ، نَهَضَ مَوْلَانَا مِنْ
مَكَانِهِ، وَهَمَسَ: هَذِهِ الْأَنْغَامُ الثَّمِلَةُ، وَهَذَا الدَّوْرَانُ، جَدِيرَةٌ بِحَفَلَاتِ [١١٦] الْأُنْسِ
السَّمَاوِيَّةِ، وَالتَّرَكِيبُ الْمَلَكُوتِيُّ لِلْأَلْحَانِ وَالِدَّوْرَانِ الَّذِي يَنْطَوِي عَلَى نِكَاتٍ عِزْفَانِيَّةٍ
وَدَقَائِقَ صُوفِيَّةٍ كَانَ يَحُثُّ مَوْلَانَا عَلَى الرَّقْصِ وَالْانْسِجَامِ وَالتَّنَاغُمِ. وَشَمْسُ صُبْحِ
الْأَمَلِ الَّتِي تُشِعُّ مِنْ بَعِيدِ حَرَرَتِ مَوْلَانَا الَّذِي كَانَ قَدْ أُسِرَ فِي يَدِ سُلْطَانِ الْهَجْرَانِ:

عِنْدَمَا وَعَتِ الذَّاتُ ذَاتَهَا تَصَوَّرَتِ الْمَالَمَ عَلَى نَخْوٍ جَلِيٍّ
فَهِىَ تَنْهَضُ، تَتَوَرَّ، تَطِيرُ، تُضِيءُ، تُعْطِي تَحْتَرِقُ، تَقْتَدُ، تَقْتُلُ، تَمُوتُ، تُشْرِقُ
سَمْعُ الْأَيْبَامِ سَاحَةً تَجْوَاهَا وَالسَّمَاءُ مُوجَةً مِنْ غُبَارِ طَرِيقِهَا

عِنْدَمَا نَهَضَ مَوْلَانَا، الَّذِي هُوَ خَادِمُ خَانِقَاهُ الْخَلْقِ، لِلدَّوْرَانِ وَالرَّقْصِ بَدَأَ الْأَمْرُ
كَأَنَّ الْخَانِقَاهُ خُلِعَ مِنْ مَكَانِهِ وَأَخَذَ فِي الْهَيْجَانِ. كُلُّ شَيْءٍ صَارَ تَحْتَ تَأْثِيرِ الدَّوْرَانِ
وَالرَّقْصِ. وَكَانَتْ الْعَوَاطِفُ قَدْ وَجَدَتْ مَجَالًا لِمَظَاهِرِهَا، وَحَرَرَتِ النَّاسَ لِلْمَحَظَاتِ مِنْ

قَبْضَةُ غُمُومِ الْحَيَاةِ وَغُصَصِهَا وَوَطْأَتِهَا. وَكَانَ مَوْلَانَا يَرْقُصُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ سَقْفَ
الْفَلَكَ، وَيَقْدِمَ تَضَمُّيمًا جَدِيدًا يَهْدِمُ بُنْيَانَ الْفِرَاقِ، وَيَمُحُو مِنْ قَامُوسِ الْبَشَرِ مَحْوًا تَامًا
كَلِمَةَ «وَدَاعٍ» لِللَّحْظَاتِ، وَيَحْوِلُ الْحَيَاةَ إِلَى شَرِيْطِ نُورٍ وَصَفَاءٍ وَوِصَالٍ مُلْكُوتِي.

الدَّوْرَانُ وَالسَّمَاعُ، وَفَقَّ مَقُولَةُ الشَّاعِرِ وَالْعَارِفِ الْكَبِيرِ وَالشَّهِيرِ فِي إِيْرَانِ الْحَكِيمِ
سَنَائِي، سَفَرٌ نَحْوَ الْحَقِّ وَلَطَائِفِ الْحَقِّ وَعَوَائِدِ الْفَتْحِ وَمَعَانِي الْكُشْفِ، وَهُوَ قُوَّةٌ
لِلرُّوحِ وَحَيَاةٌ لِلْقَلْبِ. كَانَ الْمَشَارِكِينَ فِي حَفْلِ أَنْسِ خَانِقَاهِ مَوْلَانَا كَانُوا يَسْمَعُونَ أَلْحَانَ
الرُّوحِ، أَوْ يَدْرِكُونَ سُورَهُ وَبَهْجَتَهُ. وَكَانَ سَالِكُو طَرِيقِ مَنْزِلَةِ الشَّفَقِ يَتَخَطَّوْنَ فِي
السَّحَابِ. وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ السَّاحِرَةِ، غَابَتْ عَنِ الْوُجُودِ كُلُّ ضُرُوبِ الْغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ
وَالْعُجْبِ وَحُبِّ الرِّيَاسَةِ، أَوْ أُسْدِلَ عَلَيْهَا سِتَارُ النِّسْيَانِ. وَكَانَ الْحُجُبُ قَدْ رُفِعَتْ أَيْضًا
مِنْ أَمَامِ الْأَعْيُنِ، وَأَخَذَ الْجَمِيعُ فِي الطَّيْرَانِ فِي فُضَاءِ الْإِسْتِغْنَاءِ، وَأُزِيلَتْ كُلُّ الصُّوَرِ
وَالْآثَارِ مِنَ الْقُلُوبِ، لِكَيْ تَظْهَرَ الصُّورَةُ الْحَقِيقِيَّةُ. عَدَدٌ مِمَّنْ كَانُوا يَدُورُونَ وَقَعُوا عَلَى
الْأَرْضِ مُنْهَكِينَ عَاجِزِينَ عَنِ الْإِمْسَاكِ بِأَزْمَةِ الْقُلُوبِ. كَانَتْ آيَاتُ الْعِشْقِ، آيَاتُ
الْإِلْهَامِ، تُرَى وَتُسْمَعُ حَقِيقَةً. كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَدُورُ، حَتَّى الْخَانِقَاهِ. كَانَ هَذَا الْبِرْنَامُجُ
الْأَصِيلُ فَنًّا شَرْقِيًّا، وَكَانَ مُصَمَّمُهُ شَمْسًا التَّبْرِيزِي، وَهُوَ يُنْسِي السَّالِكَ مَا يَمُرُّ فِي خَاطِرِهِ،
فَيَنْشِطُ وَبِنَهْمِكُ فِي الرَّقْصِ، وَيَسَاهِدُ أَنْ جَذَبَ لَطِيفَةُ الْعِشْقِ يُحَرِّكُ الْكَائِنَاتِ.

[١١٧] مَرَّ مُحَمَّدُ الْقَوْنَوِي بِقُرْبِ مَوْلَانَا دَائِرًا وَسَأَلَ:

يَا مَوْلَانَا، فِي آيَةِ حَالٍ أَنْتَ؟ - فَسَمِعَ هَذِهِ الْإِجَابَةَ:

لَا أَسْمَعُ فَقَطْ صَدَى الطَّبِيعَةِ، بَلْ أَسْمَعُ الصَّدَى الْمُتَنَاعِمَ لِلْمَجْرَّاتِ، وَأَنَا مَفْعَمٌ
بِكُلِّتَنِي مَحَبَّةً وَإِخْلَاصًا.

- أأنتَ حزينٌ أم مسرورٌ؟

عَلَّمَتْنِي عِظْمَةُ الْعِشْقِ الدَّوْرَانَ حَوْلَ نَفْسِي، وَالْغَمُّ وَالْفَرْحُ سَيَّانٍ عِنْدِي، هُمَا
عِنْدِي شَيْءٌ وَاحِدٌ. وَبِالصَّبْرِ أَتَحَمَّلُ صُعُوبَاتِ الْفِرَاقِ كُلَّهَا. فِي كُلِّ إِنْسَانٍ يَتَوَارَى نَوْعٌ
خَاصٌّ مِنَ الْعِظْمَةِ وَالْجَلَالِ.

رَقَصَ مُحَمَّدُ الْقَوْنَوِيُّ، الَّذِي كَانَ عِنْدَئِذٍ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ، وَمَرَّةً أُخْرَى قَرَبَ نَفْسِهِ
مِنْ مَوْلَانَا، وَقَالَ:

- أَرَى أَنَّ الدَّائِرِينَ وَالْمَغْنِينَ قَدْ نَالَ مِنْهُمْ التَّعَبُ، مِنْ مُوَاصَلَتِهِمُ السَّمَاعَ، فَأَذَرِكُهُمْ.
- أَنْتَ تَرَى ظَاهِرَ الْأَمْرِ، وَهَؤُلَاءِ يَتَضَرَّعُونَ تَضَرُّعَ الْعُشَّاقِ. وَلِأَنَّكَ لَا تُوَدِّي صَلَاةَ
الْإِشْرَاقِ تَوَجَّهَ نَحْوَ صَلَاةِ الْعُشَّاقِ، وَاعْلَمْ أَنَّ التَّعَبَ لَيْسَ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى الرُّوحِ وَالْجَسَدِ.
وَهَذَا أَيْضًا فِي أَثْنَاءِ السَّمَاعِ.

- هَلْ هَذَا الْعَالَمُ وَاقِعِي: الدَّوْرَانُ وَاسْتِمَاعُ السَّمَاعِ؟ - أَيقُولُ بِهَذَا عَاقِلٌ، أَوْ أَنَّ
مَوْلَانَا يَعْتَقِدُ ذَلِكَ وَأَفْتَى بِهِ؟ - مَا أَعْجَبَ الْكُفْرَ، مَا أَعْجَبَ شَقَاوَاتِ النَّاسِ!
فَأَجَابَ مَوْلَانَا:

- إِنَّ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَغْدُوَ الْمَرْءُ مُتَجَاهِلًا مِثْلَ هَذَا الْعَقْلِ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ - إِزَاءَهُ - أَنْ
يَتَشَبَّهَ بِالْجُنُونِ.

- وَقَدْ جَرَّبْتُ الْعَقْلَ الْمُوغَلَ فِي التَّفَكِيرِ، وَمِنْ بَعْدِ هَذَا سَوْفَ أَجْعَلُ نَفْسِي مَجْنُونًا^(١).
تُحْتَمُّ الْعِظْمَةُ الرُّوحِيَّةُ أَنْ يَغْدُوَ الْإِنْسَانُ مَجْلَى لِلْجَمَالِ، وَلِلْأَنْوَارِ السَّمَاءِيَّةِ،
وَلِلْأَلْحَانِ الْخَالِدَةِ. وَإِنَّ الرِّيَاضَاتِ وَمُجَاهَدَةَ الشَّهَوَاتِ تَصْقُلُ وَجُودَ الْإِنْسَانِ وَتَهْدِبُهُ.

والدَّورَانُ والسَّماعُ يحررانِ حقيقةَ الإنسانِ مِنَ القيودِ البشريَّةِ، والأنعامُ العذابُ هي مخاطباتٌ وإشاراتٌ إلهيةٌ، وسيحدثُ في النهاية، في يومٍ من الأيام، أن يكونَ مذهبُ العِشقِ حاكمًا على القلوبِ والأزواجِ، ويستولي هذا المنشورُ المقدَّسُ، الذي توارثَ فيه كلُّ البدائعِ وآياتِ الجَمالِ، على العالمِ كُلِّهِ.

وَقَفَ مَوْلانا.. وتوقفَ الدَّوارونَ عَنِ الدَّورانِ، وظلَّ محمودُ القُونويُّ يسألُ بانتظامٍ:

- [١١٨] ما المقصودُ والهدفُ مِنَ السَّماعِ والدَّورانِ فيه.. أي ضَرْبٍ مِنَ العِبادةِ

والطَّاعةِ هذا؟ في اعتقادي، هذا نوعٌ مِنَ عِبادةِ الأَصنامِ، عِبادةِ شَمْسٍ... أنتم تعتقدونَ أنكم تَسمعونَ في السَّماعِ صَدَى صافِيًا لَهُ عَظَمَةُ الطَّبيعةِ، والمخالفونَ المتشدِّدونَ يَزارونَ، وهم كالنَّارِ والريحِ في تَنوُّرِ الانتقامِ.

- هذه لَيْسَتْ هدفًا... عندما شاهدتُ أَنَّ النَّاسَ، خاصَّةً أَكثَرَ أَهْلِ قُونيةَ ومناطقَ

أُخرى، لَيْسُوا مَيالِينَ إلى الذَّهابِ نَحْوَ الحَقِّ، كما يَجِبُ، ويكونونَ في النِّهايةِ مَحْرُومِينَ مِنَ الأسرارِ الإلهيةِ، اضْطُرُّرْتُ إلى سُلُوكِ طَرِيقِ اللِّطافَةِ والسَّماعِ والشَّعْرِ الموزونِ، المُناسِبَةِ لِطَبائعِ النَّاسِ وأمزجتهم، وغذيتهم بهذه المعاني سِرًّا. وَمِنَ المؤسِفِ أَنَّ جماعةً مِنَ الحقودينَ في قُونيةَ يَسْأَمُونَ سَماعنا الممتعَ، وَيَعْيُونَهُ، ولا يَرْضَوْنَ هذه المَلادَ والمَسراتِ. وأرى أَنَّ أناسَ الأَعْصُرِ الآتِيَةِ سيكونونَ أَصحابَ تَذَوُّقٍ وتحسُّسٍ لِلجَمالِ، وأنَّ عَالَمَ العِشقِ سَيَشْمَلُ العالَمَ كُلَّهُ، وسيغدو النَّاسُ كُلُّهُمْ عاشقينَ لِكَلِماتنا، ويُرسِلونَ أَدعيتهم لَنَا، بِمَحَبَّةٍ واشتياقٍ.

سألَ محمودُ القُونويُّ: ما الذي يَدْفَعُ مَوْلانا إلى السَّماعِ والدَّورانِ؟ - وأيُّهُ بِدْعَةٍ

هذه التي تَعَدُّونها حَلالًا؟

عندما تطفح كأس الروح بعشق المعشوق، يضطر العاشق إلى التوجه إلى السماع والرقص والشعر من أجل بيان الأسرار، من أجل بيان آهات ألم الفراق، أو أصداء الهيجانات وحرق القلب وأشواقه. وأنا أعرف هذه الثلاثة جيداً، إن مركز نقل الإنسان هو العشق، وكل مظاهر الآلام النفسية تصدر عن هذا المنبع، وهناك منشأ العقائد الإلهية. وأنا اليوم، بفعل الدوران في الخانقاه، أحس بأنني قد تحررت روحاً وجسداً من آلام الفراق. وأحس بأنك، يا محمود القونوي، عندما تخرج من هنا ستذهب إلى المجمع والمحافل المختلفة، وستلومني أنا وأصحابي. ستسخر من هذا المشهد المستحسن، الذي سيكون وسيلة للاتصال بالأبدية، وستعيب وتتقد هيجاننا وتحرقتنا وجيشاننا الباطني. أنت من أهل الجدال والحجاج، ولا تدري أن الإنسان غير قادر على مواجهة الآلام والصعوبات. أنت لا تعلم القوة الرمزية التي تربط العارف والسالك بالحقبة. أنت لا تعلم الكيفية التي عليها مظاهر جمال الكائنات وما مصدرها. أنت خلقت من أجل المستقبل، ونحن نحب هذه اللحظة؛ لأننا نجتاز الماضي والمستقبل بمساعدة العشق. [١١٩] سلم بأنه من دون العشق تُساق البشرية نحو الاضمحلال والتلاشي. هذه الهيجانات والانفعالات عند الإنسان يجب أن تجد مجالاً لتظهرها وانكشافها. الآلام والعصص التي تنشأ عن الهجر والفراق لابد من تسكينها. لابد من إزالة ضروب الصدا والزين عن مرآيا القلوب. ولكن كيف يكون ذلك؟ ابتغاء تصفية الروح لابد من السماع والدوران. السماع والدوران وسيلة، لا هدف:

اذهب وأزل الصداً عن وجهه

ثم بعد ذلك تأمل ذلك النور

إِنَّ الدَّورَانَ^(١) وَالسَّمَاعَ عِلَاجٌ لِلْإِلَهِ، وَتَقْضِيَانِ عَلَى الشَّهَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ.

١- ذَكَرَ مولانا انسجام الرقص ومناسبتة للتنفس في الجزء الأول من المثنوي على هذا النحو:
الأرواح المقيّدة في سجن الماء والطين تسعد قلوبها عندما تتحرّز من الماء والطين
وتعدو راقصة في هواء عشق الحق وتصبح بريئة من التقص مثل قُرص البذر
(المثنوي، ١٣٥٥/١-٥٦)

وقد جاء في كتاب «مناقب العارفين» للأفلاكي أَنَّ الشيخ محمودًا التجار رَوَى عن مولانا أَنَّهُ قال يوماً لأصحابه: في هذه الدنيا يَلُ أهل قُونية سَاعَتَا المفعَم بالوجد، ويسلقوننا بالسينة جداء، ولا يَرْضَوْنَ بهذه المباحج والمسرّات الموجودة عندها. ومهما يكن، فإنَّ أهل ذلك الزمان يكونون مُحيين للسَّماع، وأصحاب وَجْدٍ وتأقّر، وسيحيط عالمُ العشق بالعالم كله، وسيغدو الناس كلُّهم عاشقين لكلامنا.

وفي شأن السَّماع والدَّوران الصوفي قال الأستاذ فروزانفر في شرحه للمثنوي:
«كان الرقص مستعملاً في بيئات الصوفية منذ زمن بعيد، وكانوا بعد أن يشتد انفعالهم بالسَّماع يَبْكون حيناً، وفي جين آخر كانوا يضربون أنفسهم من شدة السرور، ويمزقون ثيابهم ويصرخون، وينهضون للرقص. وفي أثناء الرقص كانوا يدورون حول أنفسهم، ويلقون عمامتهم عن رؤوسهم، ويقبل بعضهم أيدي بعضهم الآخر وأقدامهم. وفي بعض الأحيان كان بعضهم يَفُ على الأرض أمام بعض ساجدين، ويأخذ بعضهم بعضهم الآخر في الأحضان. وقد حدّدوا آداباً خاصة لكل أمرٍ من هذه الأمور، خاصة في شأن إلقاء الخِرقة الصوفية، أو تمزيق الخِرقة، إذ كانوا يستون ذلك ضَرْب الخِرقة، ويستون تلك الخِرقة «الخِرقة المجرّحة»، وقد ذُكرت أقوالٌ مختلفة عن أشياء الطُّرق في هذا الشأن.

وبعد اتصال مولانا بشمس، كان يجلس للسَّماع، وينهض للرقص، وكانت مجالس سماعه ورَفْسه لساعات. وكان كثيرٌ من علماء الدين وبعض مشايخ التصوف ينكرون السَّماع، ومن ثمَّ الرقص، وكان يعدّون ذلك مخالفاً للشرع، وبدعة، وعملاً حراماً، أو من آثار نفص السالك، ولكن كان هذا الرّسم معتدّاً منذ زمن بعيد، وتحقيقاً منذ القرن الثالث الهجري، بين جمهرة الصوفية. أمّا الصوفية فقد عدّوا الرقص من نتائج ظهور الوجد والوجد حالة تظهر للسالك بعد تعرّضه للسَّماع، وتنزل على قلب السالك إثر ورود وإيدٍ قلبي، من دون تكلف لذلك. وعندما يشتد الوجد يضطر السالك إلى البكاء، أو إلى أن تتبع صيحات السرور من وجوده، أو يدفعه إلى الحركة والرقص. وتبعاً لذلك، لا يبقى السالك في هذه الأحوال ممثلياً رِمام نفسه، ويكون في تصرف الوارد الغيبي، ولأنَّ محرّكه الشوق إلى الجمال، أو سماع أسرار الملكوت، يكون عمله أيضاً غير إراديّ ويعيد عن الاعتراض، أو أنه ممدوح لديه ومُستحسن، وعلامة على لُطف الفكر وصفاء الخاطر.

وفي كتاب «مرصاد العباد» نقل عن الشيخ أبي الحسن الثوري أَنَّهُ قال: الوجد شغلة نارٍ تتحرّك في الرأس، وتأتي من الاشتياق، وتحرّك الأبدان إما سروراً وإما غماً عندما يأتي هذا الوجد مثل شغلة نارٍ، وينشأ عن الشوق؛ بمعنى أن الشوق من آثار المحبة، وكلما قويّت المحبة قوي الشوق والمحبة مُضِرمة للتيار. وقد جاء في =

الحيوانية. [١٢٠] وما دام الإنسان غير مغتم الخاطر، وغير ممتلئ القلب بالألم، لن يفهم ما أقوله. وفي تلك العهود، عهد قوة الظاهر ومقامات القيل والقال في المدرسة، عندما كنت أقرأ كتب أرسطو، قرأت أن أرسطو كان يعتقد بأن الفنون كلها، أي الموسيقى والرقص والشعر، وسيلة لتسكين الخلجان والاضطرابات الروحية، وتشغل العواطف بنفسها، وتسوقها إلى النشاط والراحة والدعة. وأنت في قرارة نفسك تسخر من علم أرسطو، ومن قولي وعملي، وليكن الأمر كذلك، ليس هذا مهمًا، وكل يختار طريقه، ونستمر على ذلك، لكنه يجب أن تعلم بأننا نسمع هذه الأنعام بأذن الروح، فقد أنشد سنائي:

إِنَّ أُنَيْنَ النَّايِ لَا يَخْلُومِنَ أَلَمٌ ^(١) وَإِنَّ الْأَشْتِيَاقَ لَا يَخْلُومِنَ وَجْهِ أَصْفَرٍ
فِي مَنْ دُونَ لِسَانٍ، أَخْبَرَ الْأُذُنَ وَمِنْ دُونَ يَبَانٍ، أَخْبَرَ الْعَقْلَ
فِي مَنْ نَفْسِهِ تَظَلُّ الشَّعْلُ تَنْطَلِقُ وَمَا الْعَجَبُ فِي أَنْ يُضْرِمَ النَّايُ نَارًا؟!

= الحظر أن الحق تعالى [١٢٠] سقى المحبة النار الكبرى. وصفه النار أنها إذا حَبَّتْ جاءتها الريح فأذكتها وأضرمتها. وكلما اشتدت الريح زاد ضوؤها وانقادها وتطاير شررها، فأحرقت بعضهم، وسودت آخرين، وأذت غيرهم، وحيثما حدث حل البلاء.

١ - كتب الأستاذ فروزانفر في شرحه المثنوي (الجزء الأول - حكاية الشيخ العازف على الزباب) في شأن الأنعام الموسيقية: «... هذه الأنعام يجب أن تُسمع بأذن الروح، وليس بأذن الحس؛ ذلك لأن هذه الأنعام تأتي من عالم طاهر، وأذن الحس تتلوث بسمع التلقيات والأكاذيب، ولا تنسجم مع الأنعام التي تبعث الطمأنينة والراحة. وسبب ذلك محدودية القوى النفسية، ومنها الأذن، التي تسمع الصوت في تناسب معين. ومثال ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يسمع عزف الجنب، مع أنه أيضًا من جنس العالم الحسي نفسه، ولا بد أنه مثل بقية كائنات هذا العالم يقبل التضائل بحسب القوة والقدرة، وليس من قبيل أمور عالم الغيب، الذي ليس له نهاية. والخطر الأول الذي يُظهره الأنعام هو أنها تدعو إلى الانتقال من الظلمة إلى الضياء، ومن العدم إلى الوجود، ومن الفقر إلى الغنى المعنوي... الأنعام قريبة من الآذان، ولكنها ليست على نحو يدركه الإنسان بشرح الناس الآخرين؛ فإنها من جنس الأمور الوجدانية التي يجب أن يتحسسها كل شخص بمفرده (شرح المثنوي، ج ٣، ص ٧٥٩).

- أَتَدْرِي لِمَاذَا يُصَفَّقُ الْعَاشِقُونَ الشُّمْلُونَ فِي أَثْنَاءِ الرَّقْصِ ؟
- يَنْفَتَحُ عَلَى الْقَلْبِ بَابٌ مِنَ الْوَارِدَاتِ يَنْثُرُ الشُّرُورَ
عَلَى الْكَائِنَاتِ ،
- فَالرَّقْصُ يَكُونُ حَلَالًا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ
لِمَنْ فِي كُلِّ مِنْ كُمْنِي رَدَائِهِ رُوحٌ
(سَعْدِي الشَّيرَازِي، بُوستان، ص ٢٢٦)

لَحَظَاتٌ مَعَ الْهَائِمِينَ

ذَهَبَ مُحَمَّدُ الْقُونَوِيُّ، مِثْلَمَا كَانَ مَوْلَانَا قَدْ تَوَقَّعَ، إِلَى الْمُخَالَفِينَ وَالسُّدَجِ
الْمُتَعَصِّبِينَ فِي قُونِيَّةَ. وَبِمَا أَتَى بِهِ مِنْ كَلَامٍ انتِقَادِيٍّ وَعَاصِفٍ وَتُهُمٍ صَادِمَةٍ، أَضْرَمَ
نَارَ الْغَضَبِ، وَأَحْدَثَ طُوفَانًا، وَقَالَ: تَنْدَفِعُ مَوْجَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْإِبْتِدَاعِ مِنَ الْخَانِقَاهِ
الْمَوْلَوِيِّ بِسُرْعَةٍ، وَمِنْ دُونِ أَيِّ عَائِقٍ، وَتَسْتَقْتَلِعُ هَذِهِ الْمَوْجَةُ الْمَرْعِبَةُ سَرِيعًا أَصُولَ
اعْتِقَادِ النَّاسِ وَقِيَمِهِمْ وَمَسَلَمَاتِهِمْ مِنَ الْأَسَاسِ، وَسَيُوجَدُ مَشْرُوعٌ جَدِيدٌ لِفِكْرِ
وَأَدَابٍ تُشْتَمُّ مِنْهَا رَائِحَةُ الْإِبْتِدَاعِ. وَبِالْأَنْغَامِ الرُّوحَانِيَّةِ لِلنَّايِ وَالرَّيَابِ الَّتِي تَبْدُو
سَاحِرَةً، يَوْقِفُ جَلَالَ الدِّينِ، مَوْلَانَا، الْمُسْتَمِيعَ وَالْمُشَاهِدَ فِي حَالٍ مِنْ عَدَمِ الْقُدْرَةِ
عَلَى الْإِخْتِيَارِ فِي لَحَظَاتِ الزَّمَانِ، وَيُفْقِدُهُ الْوَعْيَ بِذَاتِهِ؛ وَفِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ يُنْسِي
الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ يَدُورُونَ مَرُورَ الْوَقْتِ. وَقَلِيلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَعْتَقِدِينَ يَسْتَطِيعُونَ،
مَعَ سَمَاعِ الْأَلْحَانِ السَّاحِرَةِ الْخَلَابَةِ لِلنَّايِ وَالرَّيَابِ وَالذَّفِّ، أَنْ لَا يُحِسُّوا بِالْهَيْجَانِ
وَالتَّأَثُّرِ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَأَنْ لَا يَنْسُوا أَنْفُسَهُمْ.

وَفِي بَيَانِ مَوْلَانَا لَحْنٌ مُوقِظٌ رَمْزِيٌّ، يَوْقِظُ الشُّعُورَ الْخَفِيَّ عِنْدَ النَّاسِ نَحْوَ حَيَاةٍ
جَدِيدَةٍ عِزْفَانِيَّةٍ. وَقَدْ أَوْصَى مَوْلَانَا بِأَنْ يَنْشَغَلَ النَّاسُ بِالذَّعَايَةِ لِلِسَمَاعِ وَالذَّوْرَانِ، فَإِنَّهُمْ

عندئذ يَرَوْنَ الحَيَاةَ مِنْ وراءِ السُّتُورِ الرَّقِيقَةِ الحَرِيرِيَّةِ لِدُنْيَا العِشْقِ وَالسُّكْرِ وَالهِجَانِ والنَّشَاطِ وَالسَّرُورِ^(١).

[١٢٢] حَدَّثَتْ فِي المَدِينَةِ ضَجَّةً، لِأَنَّ مَوْلَانَا رَقَصَ فِي الخَانِقَاهِ بَيْنَ العَشَرَاتِ مِنَ الأشخاصِ مِنْ أهالي قُونِيَّةَ، وَدَارَ دَوْرَانِ الدَّرَاوِشِ، فَقَالُوا: كَانَ جَلَالُ الدِّينِ يَرْقُصُ وَيَضْرِبُ الأَرْضَ بِقَدَمَيْهِ، وَقَدْ زَلَزَلَ الخَانِقَاهَ بِصِيَاحِهِ وَنَعْرَاتِهِ. وَغَدَتْ هَذِهِ الحَادِثَةُ أَعْظَمَ خَبَرٍ، أَوْ أَهَمَّ فَاجِعَةٍ، يَتَشَبَّهُ خَبَرُهَا فِي المَنَازِلِ وَالمَحَافِلِ وَالمَجَالِسِ، وَيَشِيعُ فِي سُرْعَةِ البَرَقِ حَتَّى فِي أَمَكِنَةِ العِبَادَةِ.

وَكَانَ مَحْمُودُ القُونُويُّ كَلَّمَ رَأَى اجْتِمَاعًا لِلنَّاسِ، جَاءَ إِلَى هَذَا الاجْتِمَاعِ مُتَذَرِّعًا بِذَرِيعَةٍ، وَكُلُّ مَا جَرَى فِي الخَانِقَاهِ المَوْلُويِّ كَانَ يَخْكِيهِ بِإِفَاضَةٍ وَتَزْيِيدٍ وَمِبَالِغَةٍ. وَكَانَ مِنْ أَثَارِ ذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ غِلَاطِ الأَكْبَادِ لَمْ يَعُودُوا يَرَوْنَ مَوْلَانَا جَلَالَ الدِّينِ مُسْتَحِقًّا لِلاحْتِرَامِ وَالمَحَبَّةِ، وَكَانُوا، كَالطَّائِرِ الأَكْلِ لِلسَّمَكِ الَّذِي يَنْقُصُ بِسُرْعَةٍ عَلَى قَرِيسَتِهِ، يَرِيدُونَ أَنْ يَنْطَلِقُوا صَوْبَ الخَانِقَاهِ، وَيَهْجُمُوا عَلَيْهِ، وَيَمَرِّقُوا أَتْبَاعَ مَوْلَانَا إِرْبَا إِرْبَا.

وَفِي تَجَمُّعٍ كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ المُنْعَصِبِينَ العُمَيَّانِ القُلُوبِ، ذَكَرَ مَحْمُودُ

١- لَا تُغْزِفْ لَحْنًا آخَرَ غَيْرَ لَحْنِ مَعْشُوقِنَا

وَقَدْ أُسْكِرَتِ اليُسُفَيْنُ وَفَضَحَتْهُمْ

وَصَارَ رُوحُنَا مِثْلَ كِلَابٍ حَيَّهِ شَارِبًا لِلدَّمِ

فَفِي لَحْنِ عِشْقِهِ مِنْهُ رَسِيعٌ جَدِيدٌ سَرْمَدِي

وَعِنْدَمَا عَقَدَ القَلْبُ رُتَاةً مِنْ عِشْقِ مَسِيحِ الزَّمَانِ

فَقَدْ أَشْرَقَتْ شَمْسُ مِنَ الرُّوحِ، لَا مِنَ الشَّرْقِ وَلَا مِنَ الْغَرْبِ

وَنَحْنُ مِثْلُ الدَّرَّةِ فِي السَّيْرِ وَرَاءَ تِلْكَ الشَّمْسِ

وَنُسَاعِدُ العَاشِقِينَ فِي العِشْقِ كَثِيرًا

فَإِنَّ انْشَغَالَنَا هُوَ بِأَوَّلِكَ الأَلْفِ مِنَ الحُلُوبِ كَيُوسُفَ

عَمْرَةً فَاتِكَةً قَيْلَةً مِنْ مَلِكِنَا الحَقَّارِ

فَهَنِيئًا أَلْفَ مَرَّةٍ لِكَلْبِنَا الشَّارِبِ لِلدَّمِ

وَمِثْلُ أَلْفِ البِلَابِلِ فِي وَرْدِ رَوْضِنَا

هَذَا لَا بَدَّ مِنْ أَنَّ الإِيمَانَ حَسَدَ رُتَاتِنَا هَذَا

رَقَصَ بِسَبَبِهَا بَابُنَا وَجَدَارُنَا كَالدَّرَةِ

وَعَمَلُنَا هُوَ الرَّقْصُ كَالدَّرَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا

عِنْدَمَا صَارَ شَمْسُ الدِّينِ التَّبَرِيزِيِّ اليَوْمَ حَبِيبِنَا

(ديوان شمس تبريز، القزلية ١٣٦)

القُونَوِيُّ أَنَّ مَوْلَانَا قَالَ إِنَّهُ يَعْتَقِدُ بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُبَحِّثَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي جُمْلَةٍ مَا خَلَقَهُ، وَأَنْ يُرَى هُنَاكَ، وَنَحْنُ جَمِيعًا مِنْ أَنْوَارِ اللَّهِ. وَفِي أَحَدِ هَذِهِ الْمَجَالِسِ قَالَ أَحَدُهُمْ لِمَحْمُودٍ: تَحَدَّثْ عَنِ دَوْرَانِهِمْ، تَكَلَّمْ عَلَى رَفْصِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ؟

وَمِثْلَ مُصَوِّرٍ بَارِعٍ وَلَكِنَّهُ خَبِيثُ الطَّوِيَّةِ، صَوَّرَ مَحْمُودُ الْقُونَوِيُّ سَاحَةَ السَّمَاعِ وَالِدَوْرَانَ وَالرَّفْصَ عِنْدَ مَوْلَانَا بِمِثْلِ قَوْلِهِ:

إِنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ يَشْتَدَّ تَأَثُّرُهُمْ بِالسَّمَاعِ^(١) كَانُوا يَبْكُونَ، وَأَخْيَانًا مِنَ الشُّكْرِ [١٢٣]

١- ذُكِرَ فِي كِتَابِ «مَشْرِحِ التَّعْرِيفِ لِتَهَذِيبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ» فِي فَضْلِ السَّمَاعِ وَالْوَجْدِ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْفُضْلَاءِ قَالُوا: إِنَّ أَصْلَ السَّمَاعِ هُوَ أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى قَالَ: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» [الأعراف/ الآية ١٧٢]، وَمِنْ لَدُنْ ذَلِكَ السَّمَاعُ صَارَ الْجَمِيعُ وَالْهَيْئَةُ وَقَالُوا: «بَلَى». وَكَانَ لِهَذَا الْخِطَابِ تَأْوِيلَانِ، فَقَدْ كَانَ وَصَالًا لِلسَّعْدَاءِ وَفِرَاقًا لِلْأَشْقِيَاءِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ خِطَابًا وَاجِدًا وَمُنْهَمًا. وَعِنْدَمَا جَاءَ الْأَمْرُ بِالسُّجُودِ انْفَصَلَ كُلُّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَنِ الْآخَرِ فَعَلًا، وَلَكِنْ بِسَبَبِ الْخَيْرَةِ لَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ تَوْجِيهَ أَيِّ مِنَ الْخِطَابَيْنِ. وَالْآنَ عِنْدَمَا يَسْمَعُونَ السَّمَاعَ، يَكُونُ تَوَاجُدُهُمْ مِنَ الْإِشْتِيَاقِ إِلَى لَدُنْ ذَلِكَ السَّمَاعِ الْأَوَّلِ. وَقَالَتْ جَمَاعَةٌ إِنَّ أَصْلَ السَّمَاعِ هُوَ أَنَّ هُنَاكَ أَزْوَاجًا عُُلُوتِيَّةً قَدْ أَلْفَتْ تَسْبِيحَ الْمَلَائِكَةِ، وَلَئِنْ فَصَّلَتْ عَنْ ذَلِكَ إِذَا أُدْخِلَ رُوحٌ فِي جَسَدٍ بِوَاسِطَةِ فَإِنَّهُ لَا يَثْبُتُ فِي الْجَسَدِ بِسَبَبِ أَلَمِ فِرَاقِ سَمَاعِ ذَلِكَ التَّسْبِيحِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا يُدْخَلُ الرُّوحُ فِي الْجَسَدِ مِنْ دُونِ وَاسِطَةٍ فَإِنَّ لَدُنْ رَفْعِ الْوَسَائِطِ هَذِهِ تُغَيِّبُ الرُّوحَ عَنْ لَدُنْ تَسْبِيحِ الْمَلَائِكَةِ. وَعِنْدَمَا يَحْدُثُ سَمَاعٌ يَذْكُرُهُ بِلَدُنْ تَسْبِيحِ الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ التَّوَاجُدُ وَالْاضْطِرَابُ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ.

وَقَالَتْ جَمَاعَةٌ إِنَّ أَصْلَ السَّمَاعِ هُوَ أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى عِنْدَمَا أَنْزَلَ الرُّوحَ إِلَى جِسْمِ آدَمَ، عَطَسَ آدَمُ، فَخَاطَبَ الْحَقُّ تَعَالَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَرْحَمُكَ رَبُّكَ يَا آدَمُ»، فَاسْتَقَرَّ الرُّوحُ عَلَى لَدُنْ ذَلِكَ الْخِطَابِ وَالْآنَ عِنْدَمَا يَحْدُثُ السَّمَاعُ يَذْكُرُهُ بِلَدُنْ سَمَاعِ ذَلِكَ الذِّكْرِ، فَيُظْهِرُ الْاضْطِرَابَ وَالْوَجْدَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ عِنْدَمَا أُلْقِيَ يَسُوفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْحَبِّ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تِلْكَ الْحَبِّ حَبَّةً لِكَيْ تُسَبِّحَ بِصَوْتِ جَمِيلٍ مِنْ أَجْلِ يَسُوفُ؛ لِكَيْ تَغْدُو وَخْشَةً تِلْكَ الْحَبِّ أَكْثَرًا بِلَدُنْ ذَلِكَ السَّمَاعِ وَعِنْدَمَا كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْتَوْجِشُ مِنْ شَيْءٍ، كَانَتْ عَصَاةُ تَسْبِيحِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِكَيْ يَأْتَسَّ هُوَ بِلَدُنْ ذَلِكَ التَّسْبِيحِ. وَعِنْدَمَا يَقْتَمُ الْحَوْتُ يُؤْتَسَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَصَارَ حَبِيسَ بَطْنِهِ، جَاءَ الْأَمْرُ لِذَلِكَ الْحَوْتِ بِأَنْ لَا يَتَوَقَّفَ عَنِ التَّسْبِيحِ لِكَيْ لَا يَحْزَنَ حَبِيبُ اللَّهِ سُلَيْمَانُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَيْضًا سَبَحَتِ الظِّمْرُ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ بِلَدُنْ سَمَاعِ ذَلِكَ التَّسْبِيحِ أُنْسٌ وَبَهْجَةٌ وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ لَمْ يَسْمَعْ تَسْبِيحَ الْهَدَهِدِ، فَكَانَ هَذَا عِلَّةً لِيَطْلُبَهُ. وَيَعْتَقِدُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ التَّبَاجِيُّ أَنَّ السَّمَاعَ هُوَ الَّذِي يَحْرُكُ الْفِكْرَ أَوْ يُبْكِي الْعَيْنَ، وَمَا عَدَا هَذَيْنِ فَهُوَ كُلُّهُ فَتْنَةٌ. وَقَالَ الْحَنْتِيذِيُّ: السَّمَاعُ مِنْ دُونِ وَجْدٍ حَرَامٌ.

والجذب كانوا يرقصون، ويصفقون ويمزقون الجيوب ويصيحون. وفي أثناء الرقص كانوا يدورون حول أنفسهم وحول مولانا، ويلقون أغطية رؤوسهم، وكان عدة منهم يمزقون ثيابهم، ويرتمون باتجاه القوال (المطرب)، ويقبل بعضهم أيدي بعض وأقدامهم. وأحياناً كانوا يجنون على ركبهم أمام مولانا على التراب ويسجدون، ويحتضن بعضهم بعضاً. ويقول هؤلاء: إن في هذه الحركات جميعاً نكاتاً عرفانية ودقائق وظرائف صوفية. [١٢٤] فالدوران إشارة إلى الحالة التي يشاهد فيها العارفون التجلي المطلوب في الجهات كلها. وفي كل جهة يتجهون إليها في دورانهم، يكون لهم نصيب من ذلك الفيض. القفز رمز للاشتياق إلى وصال العالم العلوي. الرقص إشارة إلى أن السالك في تلك الحال يقهر النفس، ويدوس بقدمي الهمة والعفاف والإخلاص على كل ما سوى الله (الأغيار). التصفيق علامة على السُرور بحصول الشرف والوصل، وأمانة على التوفيق في قهر جيش النفس الأمارة.

كان أحد محبي مولانا ينادي على نحو متواصل في الخانقاه: إذا شاء الأشقياء

= وأقدم محافل السماع والتوران كان يجري في مذن ميهنة ونيسابور وطوس، بأمر الشيخ أبي سعيد أبي الحقيق وقد ذكر صاحب كتاب «أسرار التوحيد» في أحوال شيخ ميهنة عندما كان صغيراً قوله: كان لوالد شيخنا مع الجنج العزيز لهذه الطائفة مجلس خاص، إذ كانوا في كل أسبوع مساءً يأتون إلى منزل واحد من ذلك الجنج، وعندما كانوا يفرغون من الصلاة وقراءة الأوراد كانوا يؤدون السماع. وذات مساءً، كان والد شيخنا مدعواً إلى التراويش، فالتمس من شيخنا أن يأتي معه، لكي يراه الأعزاء التراويش، فأق والد شيخنا بابنه أبي سعيد، وعندما انشغلوا بالسماع أنشد المطرب هذا البيته:

عشق «بَل» هذا عطاءً للتراويش وقتلهم أنفسهم هو ولايتهم

والدينار والدرهم ليسا زينة للرجال بل تقديم الأزواج، نثاراً، هو عمل أولئك الرجال

عندما غنى المطرب هذا البيت ظهر للتراويش حالاً ووجدوا في تلك الليلة ظلوا يرقصون على معنى هذا البيت حتى مجيء النهار، وكانوا على تلك الحال [الأصل].

والتَّعَسُّاءُ دَوَاءٌ لِعِلَاجِ آلَامِهِمُ الْجِسْمِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ فَلَيَتَوَجَّهُوا إِلَى السَّمَاعِ وَالرَّقْصِ.
 حَدَّثَتْ هَمَّهْمَةٌ وَسَطَ الْمَجْلِسِ تَقُولُ إِنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ قَلْبِ الْأُمُورِ رَأْسًا عَلَى عَقِبِ،
 لَا بَدَّ مِنْ إِيْلَامِ جَلَالِ الدِّينِ. واقترح عددٌ من الأشخاص أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ عَدِّ الثَّوَانِي فِي انتِظَارِ
 مَجِيءِ شَمْسٍ إِلَى قُوْنِيَّةٍ، فَإِذَا جَاءَ إِلَى قُوْنِيَّةٍ يُدْمَرُ الْخَانِقَاهُ فَوْقَ رَأْسِهِ وَرُؤُوسِ أَتْبَاعِهِ؛
 لِأَنَّهُ مُبْتَدِعٌ. رَجُلٌ طَاعِنٌ فِي السَّنِّ كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ كَلَامَهُ مَسْمُوعٌ عِنْدَ الْآخَرِينَ أَمْرًا بِأَنْ
 يُوَدَّى جَلَالُ الدِّينِ حَيْثُ رُئِيَ، وَأَنْ يُسَبَّ، وَلَا بَدَّ أَنْ يُبَدَأَ فِي قُوْنِيَّةٍ بِمُبَارَزَةٍ لَا هَوَادَةَ فِيهَا
 لِلْسَّمَاعِ وَالذَّوْرَانِ وَالرَّقْصِ. اطْرُدُوا الْقَوَالِينَ (الْمُطْرِبِينَ) مِنَ الْمَدِينَةِ، لَا بَدَّ مِنْ إِبْعَادِ
 هَذَيْنِ الْمَرِيضِينَ نَفْسِيًّا عَنِ النَّاسِ. لَا بَدَّ مِنْ تَبْنِي خُطَّةٍ مُحْكَمَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ شَمْسٍ
 وَمُحَبَّوْبَةٍ. هَذَا الشَّخْصَانِ لَيْسَا عَاقِلَيْنِ، وَمِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ يُرْسَلَا، مِثْلَ الشُّبْلِيِّ^(١)، إِلَى
 مَسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ.

قَرَّرَ الْمَحْفَلُ الرُّوحَانِي فِي قُوْنِيَّةٍ، لِأَخِيرِ مَرَّةٍ، أَنْ يُرْسَلَ مُمَثِّلِينَ لَهُ إِلَى مَوْلَانَا جَلَالِ
 الدِّينِ، وَأَنْ يُطْلَبَ مِنْهُ هَؤُلَاءِ الْمُمَثِّلُونَ أَنْ يُعْلِقَ بَابَ الْخَانِقَاهِ، وَأَنْ يَكْفَ عَنْ الدَّوْرَانِ
 وَالسَّمَاعِ وَالْإِبْتِدَاعِ، الَّتِي هِيَ مُخَالَفَةٌ لِلْعُرْفِ وَالْمَنْطِقِ وَالْعَقْلِ. وَهَكَذَا أَمَرَ ثَلَاثَةُ
 أَشْخَاصٍ مِنْ ذَوِي التَّجَرُّبَةِ وَالْخِبْرَةِ بِأَنْ يَذْهَبُوا فِي هَذَا الشَّأْنِ إِلَى جَلَالِ الدِّينِ. وَقَدْ
 ذَهَبُوا فِعْلًا، وَعِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى خَانِقَاهِ الْمَوْلَوِيَّيْنِ أَكْرَمَهُمْ مَوْلَانَا، وَأَجْلَسَهُمْ فِي صَدْرِ
 الْمَجْلِسِ. وَسُئِلَ: هَلْ صَحِيحٌ أَنَّ مَوْلَانَا قَدْ حَدَدَ يَوْمِي الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ مِنْ كُلِّ

١ - أَبُو بَكْرٍ، ذُلْفُ بْنُ جَخْدَرٍ - وَقِيلَ هُوَ جَعْفَرُ بْنُ يُونُسَ - الْمَعْرُوفُ بِالشُّبْلِيِّ، الصَّالِحُ الْخُرَاسَانِيُّ الْأَصْلِيُّ،
 الْبَغْدَادِيُّ الْمَوْلِدُ وَالنَّشْأَةُ. صَحِبَ الشَّيْخَ أَبَا الْقَاسِمِ الْجَنِيدَ وَمَنْ فِي عَصْرِهِ مِنَ الصُّلَحَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَنَسَبُهُ
 إِلَى شُبْلَةٍ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ أَعْمَالِ أَسْرُوشَنَةِ الْوَاقِعَةِ وَرَاءَ سَمَرْقَنْدَ مِنْ بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ٣٣٤ هـ فِي بَغْدَادِ
 [الْمُتَرَجِّمُ عَنْ: وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ لِابْنِ خَلَّكَانَ، نَشْرَةُ إِحْسَانِ عَبَّاسٍ، ٢/ ٢٧٣ - ٢٧٦].

أسبوع لإجراء السّماع؟ - هل صحيح أنّه في ليالي الجُمع يذهب مولانا إلى قُصر أمين الدّين ميكائيل^(١)، ويشارك في مجلس سَماعٍ مخصّصٍ للنساء؟ - هل صحيح أنّ النساء في هذا المجلس يثُرْنَ الوزْدَ فوقَ رَأْسِك، وَلَدَيَهَنَ تَوَقُّ إلى السّماع؟ - هل [١٢٥] صحيح أنّه حدثَ البارحة في الخانقاه أن كنتم لساعاتٍ منشغلين بالدوران والرقص؟ - نعم، صحيحٌ تمامًا، أذهبُ أيضًا إلى قُصر أمين الدّين ميكائيل، وأمُّ سلطان وَلَدُ أيضًا تشارك في مجلس سَماع السيّدات.

- أليس هذا العملُ مخالفًا لِلْعُرف والأخلاق والمنطق؟

- لا، لا. بل هو لطيفةٌ خفيفةٌ ينشأ عنها العشق.

- أيُّ دليلٍ لكم على هذا؟

- مولانا الذي لم يفقد الهدوء الظاهري قال: مِنْ قَبْلُ، أَتَذْكُرُ أَنَّ سَنائي، الشاعرَ

والعارف الإيراني الكبير، قد أنشد:

عندما يدخلُ العارِفونَ في السّماع

يسحبونَ السّرَّ من السّماءِ كالسّماع

وقد جاءَ في كتابِ الله بِلا كَيْفٍ

وصفُ شأنِ الذينَ يستمعونَ [فيتبعون]

١ - كان يحتل منصب «الاستيفاء»، أي التحقيق في الأمور الماليّة لدى السلطنة السلجوقيّة في قونية في عصر مولانا جلال الدّين. وقد رُفّي إلى منصب نائب السلطان في زمان عزّ الدّين كيكاوس، الذي جلسَ على كرسيّ السلطنة عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م. ويذكر الأفلاكيّ أنّه كان يأتي لزيارة مولانا مع كبار القوم، وكانت زوجته تدعو مولانا إلى مجالس النساء، وكان مولانا يتحدث معهن ويؤدّي السّماع، وكانت هذه السيّدَةُ تضعُ الوزْدَ على رأس مولانا [المترجم عن: رسائل مولانا جلال الدّين الرومي، الترجمة العربيّة عن الفارسيّة بعناية عيسى علي العاكوب، نُشر دار الفكر في دمشق، ط١، ص ٤٠٦-٤٠٨].

ولابد من الوجود، لأن الإنسان يكون من دون وجود

ويكون قلبه على هذه المَجْمَرَةِ كالعود

لَسْتُ مُبْتَدِعًا، فَقَدْ كَانَ الدَّوْرَانُ وَالسَّمَاغُ مِنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ مَحَلَّ اهْتِمَامٍ عَارِفِي
الإسلام وإيران، وقد استعمل الصّوفيون الرّقص في القرن الثالث الهجري، وآمنوا
بجذواه. الرّقص ثورة ونماء وهيجان وتربية للذات، هيجان السكر وصوت معرفة
الإنسان هو الأثر الذي يظهر في السالكين. وهذه الآثار القلبية والروحية للدوران
والرقص والوجد، التي تنزل على قلب السالك من دون تكلف بعد تعرّضه
للسماع، عندما تقوى وتشدّ تؤثر فيه اضطرابًا، أو تُرغمه على أن تظهر صيحات
السرور من قلبه، وأن يقفز من مكانه ويهتاج، فيعبر عن ذلك بالتصفيق والرقص.
وتبعًا لذلك، يكون الإنسان العارف في هذا الوضع في تصرف الغيب وإرادته، وليس
لديه هو إرادة من ذاته؛ ذلك لأن محرّكه الشوق إلى الجمال وضروب المحاسن.
وبتعبير أجمل، السماع أسرار ملكوتية، وعلامة على اللطف الأزلي وصفاء
الخاطر. نعم، يرقصون لأنهم نجوا من قبضة شيطان النفس وأفاعي التمنيّات
الشیطانية. صمت مولانا، ولم يقل شيئًا آخر.

قالوا: هذه الأعمال (السماع والدوران) لا تتفق مع العقل والأخلاق الإنسانية
والدينية. وأنتم بهذه البدع والتشويقات تُعرضون حتى عن معبودكم، وتضيعون
إيمانكم بالتدريج. ومؤسف جدًا أن عالمًا كبيرًا مثلكم يقع تحت تأثير سحر مُشعوذٍ من
تبريز. هذا إثم لا يُغتفر.

. إن خطاكم وخطأ الآخرين في قونية هو نفسه.. الإنسان العارف يزداد إيمانه

[١٢٦] كل يوم. في كل لحظة تتحسن معرفتنا لمعبودنا. وإذا كنتم لا تعرفون له أكثر من اسم، فإننا نعتقد أنه أقرب إلينا من حبل الوريد.

الإنسان العارف مثله مثل العشب، عندما يأتي الربيع يغدو الهواء منشطاً، وشمس الربيع بأنوارها تعطي الأرض قوة، فتفتتح البذور، وتخضر الأشجار بمدد نسيم الربيع، وترتدي قباء أخضر من الورق. ومثل هذا القوة التي تتاب الإنسان التي تؤثر في ينابيع العواطف عندما يقع تحت تأثير السماء، فلها عين آثار نسيم الربيع المنعش للروح في النباتات. إذ يحرك السماء باطن الإنسان الخامد بما ينطوي عليه من عناصر إثارة وتبهيج. كل شيء في الإنسان يكتسب قوة جديدة، ضروب من السرور والابتهاج تبشر بلحظات مُسكرة في حال ولادة، ولهذا السبب يبدأ الدوران والسماع. وهذه جميعاً آثار السماع، وأساس الاتصال بعالم الباطن وكشف الحقائق والأسرار. إنه عمل أخلاقي، وليس بدعة وكفراً. صحيح أن الدوران والرقص حركة جسمانية، لكنه على الحقيقة ينطوي في النهاية على وجد روحاني، والإنسان العارف أو السالك يطوف حول الروح وحول المعشوق:

عندما يُعاقِرُ العاشقون الهائمون الشراب

بـسُكْرٍ صَوْتِ دَوْرَانِ الْفَلَـكِ

يَأْخُذُونَ بِالدَّوْرَانِ كَالدُّوْلَابِ

وَيَنُوحُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَالدُّوْلَابِ

فَلَا تَعِيبِ الدَّرْوِشَ الذَّاهِلَ الثَّمِلَ

لِأَنَّهُ غَرِيقٌ؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَضْرِبُ بِقَدَمَيْهِ وَيَدِيهِ

ونحنُ نعتقدُ أنَّ منبعَ الصفاتِ الذميمة عندَ الإنسان هو النفسُ الأمارة. ومُجاهدةُ النفس، على الحقيقة، معركةٌ لا يتيسَّرُ الانتصارُ فيها على مددِ الذكاء والعقل فقط. وقد اخترنا الطريقَ الصحيحَ، ونحنُ نُعطي للإنسانِ العارفِ هدوءَ البال وسَكينةَ خاطر؛ لأنَّ الميولَ المنحطةَ والمخالفةَ للأخلاق تُحتقرُ عرفانياً. لا أعلمُ: أيُّ شيءٍ من عملنا وحركتنا هو مجالٌ للطَّعن والانتقاص؟ لماذا لا يريدُ المتعصِّبونَ في قُوَّة أن يطلِّعوا على حقائقِ الكائنات؟ لماذا لا يريدونَ أن يعلموا أنَّ السَّالِكينَ يهتاجونَ لِلْمَحَظَّاتِ ويهيمنونَ؛ لأنَّ بازيَّ نفوسهم يريدُ أن يطيرَ من ضيقِ سجنِ الدنيا الفانية المظلمِ المُغمِ، إلى الأعالي والقَمَمِ، فالرجالُ الحقيقيُّونَ يرقصونَ في دِمائهم.

- يا مولانا، أنتَ تعلمُ جيِّداً أنَّه لَدَيْنا مِنْ أَجلِ مُقاومةِ الميولِ النفسانية والرَّغائبِ

والشَّهوات، مِنَ الوجهةِ الدِّينية والأخلاقية، أصولٌ ومبادئ، فلماذا لم تستفيدوا منها؟

- نحنُ بدأنا بجِهَادِ النفسِ أو الباطنِ منذُ زَمَنِ بعيد، وظَفَرنا بنتائجٍ مؤثِّرة، [١٢٧]

وفي المستقبلِ، سنقتلِعُ مِنَ الأساسِ كُلَّ الجرائمِ وضروبِ القُبْحِ والتعصُّبِ في المجتمعِ، بمُساعدةِ محبَّةِ الخلقِ والمُساواةِ والصفاءِ والسَّماعِ والدَّورانِ. وقد نَهَضنا لمقاومةِ الرِّياءِ والتَّظاهرِ والكذبِ. وأداءُ العباداتِ والطَّاعاتِ، واجتنابُ المعاصي، هي أَعْمالُنا الأساسية. وكُلُّ الناسِ الذينَ يعبدونَ اللهَ، في أيِّ مذهبٍ ودينٍ، محلٌّ لاحترامنا وإكرامنا مِنَ الصِّميمِ. ونحبُّ الوجودَ والإنسانيةَ والاستمتاعَ بمواهبِ الطَّبيعة. والسَّماعُ والدَّورانُ عندنا وسيلةٌ لا هدفٌ. السَّماعُ^(١) مِنْ مَجالي التَّصوُّفِ العِشقيِّ،

١- السَّماعُ في اللِّغة يعني الاستماعَ، وهو في اصطلاحِ أَهْلِ التَّصوُّفِ: الصَّوتُ الجميلُ واللَّحْنُ الموسيقيُّ والرَّفْصُ، التي تغدو مبعثَ تَلطُّيفِ الرُّوحِ، والتَّوجُّهَ إلى عَالَمِ الباطنِ، والسَّيرَ في عَالَمِ المعنى، والاستغراقِ في عَظَمَةِ ذاتِ الحقِّ. قِرَاءَةُ الأبياتِ اللَّطيفةِ، وإنشادُ الغزليَّاتِ العِشقيةِ، في مجالسِ الصَّوفيَّةِ، تدعُّعُ بِتَلحينها الحاضرينَ إلى -

وهو مشغول متقدِّم للباحثين عن العرفان.

= النهوض للسمع والرقص، وكانت منذ زمن بعيد تحلّ اهتمام جماعة من شيوخ الطريقة والسير والسلوك والرقص في اصطلاح المولويين حركات منتظمة موزونة يقوم بها الصوفيّة في السماع تُغطّي للسالكين على أثر الحال والوجد والجذب وقد قال أبو سعيد أبو الخير في فائدة ذلك: «لِلشَّبابِ نَفْسٌ لَا تَخْلُو مِنَ الْهَوَى، وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمْ هَوَى النَّفْسِ، وَيَغْلِبُ الْهَوَى عَلَى الْأَعْضَاءِ كُلِّهَا، وَعِنْدَمَا يَصْفَقُونَ بِتِلَافِئِ هَوَى أَيْدِيهِمْ، وَعِنْدَمَا يَرْفَعُونَ أَقْدَامَهُمْ يَتَضَاعَلُ هَوَى أَقْدَامِهِمْ، وَعِنْدَمَا يُنْقَضُ الْهَوَى مِنْ أَعْضَائِهِمْ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَسْتَطِيعُونَ حِفْظَ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكِبَائِرِ الْآخَرَى وَعِنْدَمَا تَجْتَمِعُ الْأَهْوَاءُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، يَبْقُونَ فِي الْكَبِيرَةِ وَنَارُ الْهَوَى تَتَبَدَّدُ بِالسَّمَاعِ، وَالْأَوَّلَى أَنْ تَتَبَدَّدَ عَلَى شَيْءٍ آخَرَ (أسرار التوحيد، ص ٣٢٣).

- قَالَ: يَا عَنقَاءَ الْحَقِّ، يَا مَنْ أَنْتَ لِلرُّوحِ مَطَافِ
الشُّكْرِ لِلَّهِ أَنْكَ قَدْ عُدْتُ مِنْ جَبَلٍ قَافِ
- يَا إِسْرَافِيلَ أَوَانِ قِيَامَةِ الْعِشْقِ،
يَا مَنْ أَنْتَ عِشْقٌ لِلْعِشْقِ، وَيَا مُنِيَّةَ الْعِشْقِ
(المثنوي، ٤٦٩٧/٣ - ٩٨)

مَنِ الْعَارِفُ؟

إِجَابَاتُ مَوْلَانَا الْوَاضِحَةِ النَّافِذَةِ الصَّرِيحَةِ أَغْضَبَتِ السَّائِلِينَ الْعُمَيَانَ الْقُلُوبِ
الْخَبِيثِي الطَّوَايَا، كَلِمَاتُ مَوْلَانَا الْمُؤَثَّرَةِ الْمُبَارَكَةِ ذَاتُ ضِيَاءٍ خَاصٍّ. وَقَدْ انْتَبَهَ هَؤُلَاءُ إِلَى
أَنَّ مَوْلَانَا لَدَيْهِ رُوحٌ قَاهِرٌ، وَقَلْبٌ طَاهِرٌ، وَإِيمَانٌ رَاسِخٌ، يُؤْمَلُ التَّخْلِيقَ فِي قِمَمٍ وَذُرَى
فَوْقَ مُسْتَطَاعِ الْبَشَرِ.

أَدْرَكَ الْأَشْرَارُ سَرِيعًا، وَرَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ، أَنَّهُمْ هُزِمُوا فِي مِيدَانِ مَعْرَكَةِ الْحِجَاجِ
وَالْمُبَاحَثَةِ؛ وَلِهَذَا السَّبَبِ سَأَلُوا بِشَيْءٍ مِنَ الْوَقَاحَةِ:

- يَا مَوْلَانَا، أَجَبْنَا بِصِرَاحَةٍ تَامَّةٍ وَقَطْعِيًّا: هَلْ تَوْمَنُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالرَّسُولِ الْأَكْرَمِ؟ أَوْ
أَنَّ شَمْسًا قَدْ انْتَرَعَتْ مِنْكَ كُلَّ هَذِهِ الْعَقَائِدِ وَالْقِيَمِ الْمُتَعَالِيَةِ، فَصِرْتَ - كَمَا يَقُولُ أَهْلُ قُوْنِيَّةٍ -
عَابِدًا لِلشَّمْسِ؟

هَذَا السَّوْأَلُ هَزَّ مَوْلَانَا بِقُوَّةٍ، وَكَأَنَّهُ إِعْصَارُ الشِّتَاءِ الْقَارِسِ الَّذِي يَقْضِي عَلَى
الْأَشْجَارِ الضَّخْمَةِ. وَقَدْ حَاوَلَ جَلَالُ الدِّينِ أَنْ يَحْتَفِظَ بِبِرُودَةٍ دَمِهِ، وَهُدُوءِ جِسْمِهِ
وَرُوحِهِ؛ وَاضْطُرَّ أَنْ يَتَأَنَّى قَلِيلًا، ثُمَّ غَرِقَ فِي التَّفَكِيرِ. هَزَّ رَأْسَهُ، وَتَدَخَّرَتْ قَطْرَةٌ دَمْعٍ
مِنْ عَيْنِهِ وَقَالَ:

- اَعْلَمُوا أَنْتُمْ، وَامْضُوا إِلَى أَصْحَابِكُمْ وَقُولُوا لَهُمْ: أَنَا، بَعْدَ الشَّيْخِ الْعَطَّارِ، الَّذِي كَانَ

يُسَمَّى نَفْسَهُ «الْمِسْكِينَ»، مِنْ أَطْيَارِ الْجَنَابِ الْمَلَكُوتِيِّ، وَمِنْ مُشْرِفِي حَضْرَةِ الْوِصَالِ. أَنَا أَوْ مِنْ بَمَذْلُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذَّارِيَاتُ ٥٦]. أَنَا، مِثْلَ مُبْدِعِ كِتَابِ «مَنْطِقِ الطَّيْرِ» وَ«إِلَهِي نَامَهُ»^(٩)، أَوْ مِنْ بَأَنَّهُ [١٢٩] يَجِبُ حِفْظُ عِلْمِ الدِّينِ جَيِّدًا، وَالِاسْتِمَاعُ إِلَى أَوَامِرِ فَخْرِ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)، وَأَنَا أَقُولُ:

عِلْمُ الدِّينِ هُوَ الْفِقْهُ وَالتَّفْسِيرُ وَالْحَدِيثُ ...^(١٠)

وَأَقُولُ:

رَجُلُ الدِّينِ الْحَقِيقِيِّ يَكُونُ صُوفِيًّا وَقَارِنًا وَقَفِيًّا وَإِذَا لَمْ تَقْرَأْ هَذَا فَسَادُ عَوَاكُ سَفِيهَا
أَعْتَقْدُ أَنَّ طَرِيقَ النِّجَاةِ مِنَ الشَّقَاوَاتِ وَالْمَنْغَصَاتِ وَالْعَذَابَاتِ، الَّتِي تَكْتَنِفُ الْحَيَاةَ، هُوَ
الْإِيمَانُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَإِنَّ الْمَادِّيَّينَ وَالذَّهْرِيِّينَ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ قَلَقًا وَنَكْدًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.
وَهُمْ لَا يَتَمَتَّعُونَ بِبَهَائِ الطَّبِيعَةِ وَلَا بِحَقَائِقِ الْحَيَاةِ. هَؤُلَاءِ وَاتَّبَاعُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَقَامَ
التَّقَرُّبِ. لَا يَعْلَمُونَ مَا الْعَدَمُ، وَلَا يَعْرِفُونَ خَالِقَ التَّضَادِّ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ الْوُجُودِ. وَأَنْتُمْ
أَيْضًا، تَنْحُونُ النَّحْوَ نَفْسَهُ، لِأَنَّ التَّمَصُّبَ وَالْحَسَدَ سَلَبَا أَعْيُنَكُمْ نِعْمَةَ الْبَصَرِ. فَلَوْ تَقَدَّمْتُمْ
خُطْوَةً نَحْوَ عَالَمٍ مَا وَرَاءَ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الظَّاهِرَةِ لَانْفَتَحَتْ آفَاقٌ جَدِيدَةٌ أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ. أَمَّا نَحْنُ
فَأَيْنَمَا نَظَرْنَا، شَرْقًا وَغَرْبًا وَجَنُوبًا وَشَمَالًا، رَأَيْنَا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى. نَحْنُ نَدْعُو النَّاسَ إِلَى أَنْ
يَأْتُوا إِلَى مَعْبَدِ الْعِرْفَانِ. وَأَنَا أَنْخَنِي تَعْظِيمًا لِبَابِي الْكَعْبَةِ وَقَصْرِ الْوُجُودِ الْعَظِيمِ، لِلْفَقِيَّاضِ
الْمُطْلَقِ، وَأَمَامَ رَبِّ الْكَائِنَاتِ. وَلَوْ كُنْتُ قَادِرًا وَمُسْتَطِيعًا لَسَافَرْتُ بَحْثًا عَنْ شَمْسٍ إِلَى كُلِّ
مَكَانٍ، وَكُنْتُ الْمَدَاحَ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْكَلَّلَ لَجَلَالِ الْأَبَدِيَّةِ، وَلَا وَصَلْتُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ لِهَذَا

* - الْعَارِفُ الشَّاعِرُ فَرِيدُ التِّينِ الْعَطَارِ النَّيْسَابُورِيِّ.

١ - شَطْرُ بَيْتِ شِعْرٍ.

العالم العظيم إلى أسماع الخلائق: أن الله تعالى خلق العقل لكي يعرفه الناس بمساعدته المعرفة الصحيحة. وكنت أردد: تعرفوا وجود الله وعظمته في الطبيعة وفي الأفلاك، اقربوا من الطبيعة لكي تعرفوا خالقكم جيدًا، من ذا الذي لم يسمع نداء الله في الصمت وفي قرارة القلب، الله الذي يهدي الناس إلى جنابه، وذاته هي دليل وجود الموجودات.

أنا مدائح الخالق الذي قال في القرآن الكريم: «كنت كنزًا مخفيًا، فأحببت أن أعرف فخلقت الناس»^(*). أريد أن نعرف هذا الخالق جيدًا، وبقدر ما هيا الله سبحانه لنا، الله الذي خلق أرواحنا بنوره:

ولما كان مُرادُ الإله الغفور وحُكْمُه

في القِدم هو التجلّي والظهور

جعل خليفةً صاحب صدر

لكي يكون مِرآةً لِمُلُوكَيْهِ^(١)

الله تعالى، هذا المُسَلِّي العظيم للمُصائبين والمتألمين، هذا المَلأذِلَمَن لا مَلَأَدَ

* - الذي ذكره مولانا جلال الدين هو بيت ترجمته: «كان [العالم] كنزًا مخفيًا، لكنه لغزاته مرق (حجب الحفاء)، وجعل الأرض أكثر إشراقًا من الأفلاك» (المثنوي ٢٨٧٦٨). ويذكر بدیع الزمان فروزانفر أن مستند مولانا جلال الدين في ذلك الحديث القدسي الذي يقول: «قال داود عليه السلام: يا رب، لماذا خلقت الخلق؟» - قال: «كنت كنزًا مخفيًا، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف»، ناقلًا عن كتاب «منارات السائرين» لشيخ داية الرازي (د ٦٥٨هـ). وينقل فروزانفر أيضًا عن مؤلف اللؤلؤ المرصوع قوله: «حديث: كنت كنزًا مخفيًا لا أعرف فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقًا وتعرفت إليهم، فبي عزفوني، قال ابن تيمية: ليس من كلام النبي (عليه الصلاة والسلام)، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه الزركشي وابن حجر، ولكن مغناه صحيح ظاهر، وهو بين الصوفية دائر. (ينظر: فروزانفر: أحاديث مثنوي، ص ٢٩، عن اللؤلؤ المرصوع، ص ٦١) [الترجم].

له، هذا الذي هو أساس وجود [١٣٠] جميع المخلوقين، وملجأ الأرواح المُتَعَبَةِ، ومُجِيبُ دَعَوَاتِ الْبَشَرِ وَرَغَائِبِهِمْ، يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَهُ الْإِنْسَانُ مَعْرِفَةً صَحِيحَةً، وَعِنْدَئِذٍ يُوَدِّعُ الدُّنْيَا بَرِّضًا وَسُرُورٍ. الْعَرِفَانُ يَعْلَمُ النَّاسَ حَقِيقَةَ مَمْلَكَةِ الْآبَدِيَّةِ وَالْقُوَّةِ السَّرْمَدِيَّةِ لِلْآخِرَةِ. وَنَحْنُ عَبِيدٌ نَعْرِفُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَنْغَامًا فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ. وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَتَةٍ، وَكُلَّ صَوْتٍ، وَكُلَّ هَمْسَةٍ تَنْطَلِقُ نَحْوَ السَّمَاءِ بِمَعْرِفَةٍ وَحُضُورِ قَلْبٍ سَتَلْقَى الْإِجَابَةَ. لَمْ يَسْتَطِعِ الْإِنْسَانُ حَتَّى الْآنَ أَنْ يَدْرِكَ عَظَمَةَ خَالِقِ الْكَائِنَاتِ عَلَى نَحْوٍ دَقِيقٍ، أَوْ كَمَا يَنَاسِبُ وَيَلِيقُ. أَنَا أَوْمِنُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأُحِبُّ رَسُولَهُ الْأَكْرَمَ مُحَبَّةً عَظِيمَةً. وَكُلُّ مَا فِي قَلْبِي وَفِي ذِمَّتِي هُوَ مِنْ عَطَايَا الدِّينِ الْمُحَمَّدِيِّ. وَإِذَا لَمْ أَغْدُ مُفِضًا لِهَذِهِ الْعَطَايَا، وَهَذَا الْكَرَمِ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ، فَتَمَتَّى أَقْدِرُ عَلَى إِشْعَالِ مَشْعَلِ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ، وَإِرْشَادِ النَّاسِ إِلَى طَرِيقِ الصَّلَاحِ وَالنَّجَاةِ. فَمِنَ الثَّوَرِ الْمُحَمَّدِيِّ انتصاري وتوفيقي، وإذهابي ضروب الإزعاج والاضطراب والقلق الداخلي.

وَأَنَا وَشَمْسُ التَّبَرِيزِيِّ نَقُولُ: إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ بَلَغَ مَرْتَبَةَ الْكَشْفِ، وَأَزَالَ حِجَابَ التَّعَيُّنِ مِنْ أَمَامِ عَيْنِ قَلْبِهِ، يُحَسُّ بِوُجُودِ الْحَقِّ تَعَالَى فِي مَرَاتِبِ الْوُجُودِ جَمِيعًا، وَيَرَى شَمْسَ الْحَقِيقَةِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَاتِ الْعَالَمِ، وَفِي كُلِّ وَجُودٍ مُتَعَيَّنٍ وَقَائِمٍ وَمُشْرِقٍ:

إِنَّ الْحَقَّ، بَيْنَ الْآخَرِينَ، ظَاهِرٌ جَلِيٌّ

كَالْبَلَدِ بَيْنَ نُجُومِ السَّمَاءِ

فَضَعْ طَرَفِي إِضْبَعَيْنِ فَوْقَ عَيْنِكَ

(وَانظُرْ) هَلْ تَرَى مِنَ الْعَالَمِ شَيْئًا؟ أَلَا فَلَئِكَُنْ مُنْصِفًا

فَتَنَّبَهُ، وَارْفَعْ إِضْبَعَكَ عَنْ عَيْنِكَ

ثُمَّ شَاهِدْ، بَعْدَ ذَلِكَ، مَا تَشَاءُ^(١)

ونريدُ أن نقولَ لِأَهْلِ قُوْنِيَّةٍ، وَلِأَخْرِيْنَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، إِنَّ الْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا مُبَيَّنَةٌ لِصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَذَاتِهِ، وَإِنْ إدْرَاكَ هَذَا الْإِنْفَعَالِ وَهَذِهِ الظَّرَائِفِ وَالدَّقَائِقِ غَيْرُ مُمْكِنٍ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْعِرْفَانِ، وَإِنْ بُرُعِمَ كُلُّ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ مُحْتَجِبٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْإِنْفَعَالِ. وَأَتَفَهُ عُنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ وَمَوْجُودَاتِهَا يَنْطَوِي عَلَى سِرٍّ مِنَ الْأَسْرَارِ، وَلَا بَدْءَ لِلْإِنْسَانِ فِي الْبَدْءِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، وَبَعْدَئِذٍ يَطِيرُ فِي فُضَاءٍ شَفَافٍ فِي صَفَاءِ الْخُلُودِ.

اسْتَمَعَ السَّائِلُونَ إِلَى بَيَانَاتِ مَوْلَانَا الْمَحَبَّةِ بِخَيْرَةٍ وَتَعْجُّبٍ. وَأَضَافَ مَوْلَانَا الْقَوْلَ إِنَّ كُلَّ أَثَرٍ وَجُودِيٍّ يُشَاهَدُ فِي أَجْزَاءِ الْعَالَمِ، هُوَ ظِلٌّ لَوْجُودِ الْحَقِّ تَعَالَى. وَالْعَارِفُ غَارِقٌ فِي بَحْرِ الْعِشْقِ الَّذِي لَا ضِيفَافَ لَهُ. وَأَنَا أَعْرِفُ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَرَى اللَّهَ تَعَالَى. وَفِي حَالِ الْحُضُورِ أَمَامَ أَنْوَارِ الْحَقِّ وَالْفَنَاءِ عَنْ نَفْسِي، أَغْدُو ذَاهِلًا عَنْ نَفْسِي [١٣١] عَلَى نَحْوِ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَهُ بِاللُّغَةِ. أَنَا وَشَمْسٌ دَائِمًا مَحَلٌّ لِلظُّهُورِ، وَأَنْتُمْ تَسْأَلُونَ بِوَقَاحَةٍ: هَلْ تَوْمِنُ بِاللَّهِ؟ لَيْتَنِي أَسْتَطِيعُ تَنْحِيَةَ آدَابِ الضِّيَافَةِ فَأَسْأَلَكُمْ: هَلْ تَعْرِفُونَ أَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ؟ - هَلْ قَرَأْتُمُ الْقُرْآنَ بِتَدَبُّرٍ وَحُضُورٍ قَلْبٍ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ) [الْحَجَرُ ٢٩]. اللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ هَذَا الْإِنْسَانَ، وَيُحِبُّ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَهُ وَشَكْوَاهُ لَيْلًا وَنَهَارًا. أَلَمْ تَسْمَعْ بِأَنَّهُ جَاءَ الْخَبْرُ بِأَنَّ الْعَبْدَ الَّذِي يَدْعُو اللَّهَ يُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى أَكْثَرَ، وَيَقُولُ: يَا جِبْرِيلُ، أَخْبِرْ إِجَابَةً هَذَا الْعَبْدَ قَلِيلًا؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ أَكْثَرَ:

بُشْرَى لِلطَّائِرِ الْغَرِيدِ، فَإِنَّهُ فِي طَرِيقِ الْعِشْقِ

يَكُونُ لِلْحَبِيبِ سُرُورٌ بِأَنْيُنِ لِبَالِي السَّاهِرِينَ

إِنَّ مَعَاذَنَا وَمَلَاذَنَا هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنَّ الِاعْتِقَادَ الْمَمْتَرَجَ بِالْإِحْسَاسِ الْعَمِيقِ بِالْمَبْدَأِ
الْأَعْلَى مِنَ الْوُضَائِفِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْعَارِفِ. وَالشَّخْصُ الَّذِي لَا إِيمَانَ لَهُ بَيْنَنَا، لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يَعِيشَ حَالَةَ الْجَذْبِ وَالْهِيجَانِ.

أَيُّهَا الْجُهَّالُ، اَعْلَمُوا أَنَّ تَعَرُّفَ الْعُشَّاقِ الْمُتَجَاوِزِينَ لِلْوُجُودِ، الَّذِينَ طَوَّأُوا مَنَازِلَ
الطَّرِيقَةِ وَمَقَاصِدَهَا، لَهُ عَالَمٌ خَاصٌّ^(١)، فَهَمُ مَوْجُودُونَ لِكَيْ يَشْقُوا الْأَرْضَ وَالْأَفْلَاكَ
أَمَامَ [١٣٢] الْأَعْيُنِ الْحَسَّاسَةِ لِلْعَارِفِينَ. يَرْفَعُونَ السَّتَارَ عَنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ أَمَامَ الْأَفْرَادِ
الَّذِينَ يُدْرِكُونَ الْحَقِيقَةَ جَيِّدًا. وَالْعَاشِقُ الْحَقِيقِيُّ طَالِبٌ لِرِصَالِ الْحَبِيبِ؛ وَلِهَذَا السَّبَبُ

١ - يَعْتَقِدُ الشَّيْخُ شِهَابُ الدِّينِ السُّهُرَوْرْدِي أَنَّهُ كُلَّمَا قَلَّتْ شَوَاعِلُ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرِيَّةِ تَحَرَّرَتْ نَفْسُ الْإِنْسَانِ مِنْ
سُلْطَانِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ فَرْجٍ مِنَ الْأُمُورِ الْقَبِيئَةِ وَإِذَا كَانَ الْبِقَرُ الْكُتْلُ، كَالْأَزْلِيَاءِ وَالْأَوْتَادِ،
مُظْلَعِينَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَغْيِيَّاتِ، وَيَخْبِرُونَ بِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْأَمْوَاجِ أَوْ الْأَضْوَاتِ الَّتِي يَسْمَعُونَهَا، أَوْ الْفِكْرِ الَّتِي
يَقْرَءُونَهَا، أَوْ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ مَعَهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَخْبِرُونَ عَنِ الْمَغْيِيَّاتِ (المقالة الخامسة من حِكْمَةِ
الإِشْرَاقِ).

أَمَّا الشَّيْخُ الرَّئِيسُ أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ سِينَا فَقَدْ كَتَبَ فِي التَّمَطِّ الثَّامِنِ مِنْ كِتَابِ الْإِشْرَاقِ: إِذَا تَحَدَّثَ أَحَدُ الْعَارِفِينَ
عَنِ الْغَيْبِ وَأَنْبَأَ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ فَصَدَّقُوهُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْكُشُوفَ لَهَا قَرْعٌ مِنَ الْأَسْبَابِ الطَّبِيعِيَّةِ
وَأَمَّا بَرِگَسُونُ، الْفِيلَسُوفُ الْمَعْرُوفُ، فَقَدْ وَضَعَ الشُّهُودَ فِي مُقَابِلِ الْعَقْلِ، وَقَالَ إِنَّهُ بِقَبْضِ الشُّهُودِ سَتَنَكْشِفُ
الْأَسْرَارَ.

وَيَعْتَقِدُ الْكَلِيسِ كَارْلِيلُ بِأَنَّ الْمُخْلِصِينَ، وَأَهْلَ الْإِيمَانِ الرَّاسِخَ، يَشَاهِدُونَ فِي بَعْضِ السَّاعَاتِ وَاللَّحَظَاتِ
الرَّوَاطِظَ الْخَفِيَّةَ الْمَحْجُوبَةَ بَيْنَ الظَّاهِرَاتِ الَّتِي لَا ارْتِبَاطَ بَيْنَهَا، بِمُسَاعَدَةِ الْإِلْهَامِ وَالْإِشْرَاقِ وَزَعَمَ أَحَدُ الْعَارِفِينَ
أَنَّ الْعَارِفِينَ جَمِيعًا امْتَلَكُوا الْإِشْرَاقَ وَبِمَتَلَكُونِهِ:

حَذَارِ، لَا تَيَأْسُ إِذَا لَمْ تَكُنْ مُظَلِّعًا عَلَى أَسْرَارِ الْغَيْبِ فَلَعَلَّهَا مُتَوَارِيَةً فِي أَلْعَابِ خَيَالِ الظَّلِّ، فَلَا تَغْتَمِ
وَالْعُلَمَاءُ وَالْفُقَهَاءُ وَالْفَلَسَفَةُ وَالْعَارِفُونَ الْمُؤْمِنُونَ، الْمُعْتَقِدُونَ هُمْ عَاشِقُونَ لِعَالَمِ الْغَيْبِ الْمُحَاطِ بِالْأَسْرَارِ،
وَيَسْعَوْنَ إِلَى رَفْعِ السَّتَارِ عَنْ أَسْرَارِ الدُّنْيَا وَرَبِّمَا يَوْفُقُونَ أَيْضًا.

يقول الحق، ويطلب الحق، ويسير في طريق الحق، وفي النهاية يفنى في الحق، ومثل القطرة يرجع إلى البحر، يغدو بخراً:

المعارف الكامل، بنور العقل والقلب،

يحكم على عالم الماء والطين

أحد المخالفين، عندما أطرق مولانا وصمت، قال في أذن رفيقه: مثل هذا البحث يطول شيئاً فشيئاً، ألا تعتقد أن هذا الكلام نفسه يصنع أرضية لكي يتبع أناس بسطاء مثل پروانه شمساً ومولانا؟ ألا تعتقد أن قصد مولانا هو إثارة أهل قونية وإيجاد ثورة واضطراب؟ - يريد الشيطان التبريزي، يفكره الجنونية، أن يحول هذا المكان إلى قطعة نارٍ ودم.

- كَانَ أَحَدُهُمْ يَهْتَفُ: يَا اللَّهُ، ذَاتَ لَيْلَةٍ، حَتَّى يُحْيَى
شَفَتَهُ بِذِكْرِهِ،

- فَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ: وَفِي النَّهَايَةِ، أَيُّهَا الثَّرَنَارُ،

أَيْنَ (نَبِيِّكَ) لِكُلِّ هَذَا التَّضَرُّعِ يَا اللَّهُ؟

- فَقَالَ [لَهُ الْحَقُّ بِطَرِيقِ الْإِلْهَامِ]: إِنَّ اللَّهَ، مِنْكَ هِيَ
نَفْسُهَا «نَبِيِّكَ»، وَمَنَا

وإِنَّ تَضَرُّعَكَ وَالْمَمَكَّ وَخُرْمَتَكَ هِيَ الرَّسُولُ إِلَيْنَا

(المثنوي: ٣/ ١٨٩ - ١٩٠، ١٩٥)

عَيْنُ الْبَاطِنِ

ابْتِغَاءً أَنْ يُثَبَّتَ مَوْلَانَا لِلْمُدَّعِينَ وَالْحَاسِدِينَ وَالْأَغْرَارِ أَنَّهُ، حَتَّى الْآنَ، مُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ

مَعْتَقِدٌ، وَاصِلٌ كَلَامُهُ:

- الْأَكْثَرُ خُلُودًا مِنَ التَّجُومِ وَالْمَجَرَّاتِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ إِنَّمَا هُوَ الْقُرْآنُ. إِذْ مِنْ

الْمُمْكِنِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ أَنْ تَتَوَقَّفَ الشَّمْسُ الْمَتْرَامِيَةُ الْأَطْرَافِ وَالْقَمَرُ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاءِ

عَنْ بَغْيِ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، أَمَّا شَمْسُ الْمُسْلِمِينَ فَسَتَظِلُّ تُشْرِقُ مَا دَامَ الْوُجُودُ قَائِمًا مَوْجُودًا.

وَقَدْ أَوْحِيَ إِلَى الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَيُعْنَوْا بِهِ، لِكَيْ يَعْمَلُوا

بِأَحْكَامِهِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: «فَمَنْ زَلَّكَ الذِّكْرُ...» [الحجر/٩]. وَأَتَذَكَّرُ أَنَّهُ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ سَأَلَنِي

الْأَمِيرُ مُعِينُ الدِّينِ بِرَوَانِهِ أَنْ أَنْصَحَهُ وَأَعْظَمَهُ، فَسَأَلْتُهُ: سَمِعْتُ أَنَّكَ قَدْ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَيِّدًا؟ -

فَأَجَابَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: تَرَامِي إِلَيَّ أَنَّكَ قَرَأْتَ الْأَصُولَ وَالْأَحَادِيثَ عَلَى الشَّيْخِ صَدْرِ

الدِّينِ؟^(*) فَقَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: عِنْدَمَا تَقْرَأُ كَلَامَ اللَّهِ وَكَلَامَ الرَّسُولِ وَتَدْرُسُهُمَا وَتَعْرِفُهُمَا كَمَا

يَنْبَغِي وَيَلِيقُ، ثُمَّ لَا تَتَصَحَّحُ بِذَلِكَ وَلَا تَتَعَطَّى، أَتَى لَكَ أَنْ تَسْمَعَ كَلِمَاتِي وَتَتَّبِعُهَا؟

* - الْمُرَادُ هُنَا هُوَ الشَّيْخُ صَدْرُ الدِّينِ الْقُوتُوبِيُّ

وأقول وأؤكد: إني فهنتُ محتوى القرآن على نحوٍ صحيح، واطلعتُ على معانيه جيّدًا، ليكي أتغلبَ على الآلامِ والمُزعِجاتِ والمنغصاتِ ورغائبِ النفسِ وضُروبِ التُّهمِ والغِيبَةِ والطُّمُوحِ المتهوِّرِ:

الْقُرْآنُ هُوَ أَخَوَالُ الْأَنْبِيَاءِ

أولئك الذين هم أسماكُ بَحْرِ الْكِبَرِيَاءِ الطَّاهِرِ (١)

[١٣٤] وفي اعتقادي، ليس ثمة شيء أجمل من حالة الأنبياء. انظروا في القرآن نظرًا دقيقًا؛ ليكي تكونوا متبصرين فيه ومنطلقين في عالمه. أنا أحفظُ القرآنَ عن ظَهْرِ قَلْبٍ. وأنا وسَمْسُ التَّبْرِيزِي نعملُ بِأحكامِ القرآن، ونحنُ مُسلمانِ صادقان. وبقينا لم نسمعوا أنتم هذا الحديثَ النبوي، لكنني ذكرته مرّاتٍ لأحبائي، وهو حديثٌ للنبي [عليه الصلاة والسلام]: كُلُّ مَنْ يَتْلُو الْقُرْآنَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَصَوَّرَ أَنَّهُ حَادِثُنِي وَحَادِثُهُ فَمَا لِفَمٍ:

فَإِنْ أَنْتَ فَرِغْتَ إِلَى قُرْآنِ الْحَقِّ

فَقَدْ امْتَزَجْتَ بِأَرْوَاحِ الْأَنْبِيَاءِ

فإذا قرأتَ القرآنَ وأنتَ غيرُ متقبِلٍ (أحكامه)

فافترض أنك رأيتَ الأنبياءَ والأولياءَ

وإن قرأتَ الْقِصَصَ مُسَلِّمًا بِمَذْلُولَانِهَا

فإن طائرَ رُوحِكَ يَغْرُوهُ الضَّيْقُ فِي قَفْصِهِ

فالطائرُ الْحَبِيبُ فِي الْقَفْصِ

ولا يسعى إلى التحرر من القفص، يكون ذلك منه جهلاً (١)

وإن قراءة القرآن توضح تدريجياً أسرار الكائنات للقارئ البحاث المؤمن المعتقد بمبادئ الدين، وتقود الأرواح المتعبة المسحوقة إلى سَكينة مُحَبَّبة. وفي هذه الأحوال يفقدُ مُرورُ الزمان وضروبُ البُعْدِ والقربِ مفهوماتها، وتُدْفَنُ الخواطرُ والفكرُ المُرَّةُ في صدرِ التاريخ، ويُظْفَرُ بِأَجْمَلِ الأحاسيسِ والتبصّراتِ وأعمقها؛ ذلك لأنَّ الإنسان يكونُ عندئذٍ ضيفَ جنابِ الله تعالى، الذي يُحدِّثُهُ ويُكْرِمُهُ. وعندما يشتدُّ الجذبُ الإلهي والعشقُ والتعلقُ بالحقِّ في نفسِ القارئ، في ذلك الوقتِ يطلُّ عِرْفَانِيًّا عَلَى حقائقِ الأسرار، ويغدو قلبُهُ مَحَلًّا لِتَجَلِّي الذَّاتِ الْمُتَعَالِيَةِ. انظروا إِلَيَّ أنا - جلالَ الدين الرومي - ماذا أقولُ، وكيفَ يَنْظُرُ إِلَيَّ أَهْلُ قُوْنِيَةِ. أريدُ أنا أن أُعَلِّمَ أَحِبَّائِي طَيِّ طَرِيقِ المعرفةِ ومعرفةِ النَّفْسِ، وأقولُ إنَّ الكائناتِ جميعاً تُسَبِّحُ بِحَمْدِ الله بِاشْتِيَاقٍ وَمِنْ دُونِ تَوَقُّفٍ، وَعَلَى الإنسانِ أن يَعْرِفَ حَقِيقَةَ الحَيَاةِ والكائناتِ وَعِلَّةَ خَلْقِهِ.

بعدَ ذلكَ فَصَلَ مَوْلانا القَوْلَ في شأنِ شُرُوطِ قِرَاءَةِ القرآنِ المَجِيدِ، واستشهدَ لذلكَ بِمَقْبُوسَاتٍ مِنْ آثارِ مُحَمَّدٍ الغَزَالِيِّ وأبي طالبٍ مَكِّي^(١). وبعدئذٍ، ومن أَجْلِ إثباتِ فِكْرَةِ أنَّ الموجوداتِ كُلَّهَا تُشْنِي عَلَى الحقِّ تعالى، قرأَ هذهَ الأبياتِ بِحَرَارَةٍ وَتَشَوُّقٍ:

أَطْبَقَ أَبْوَ جَهْلٍ بِكَفِّهِ عَلَى بَغْضِ الْحَصَى
وقالَ: «يا أحمَدُ، عَجَّلْ، وَقُلْ لِي ماذا بكفِّي
فإن كنتَ رَسُولاً (فَلتُخْرِزني) ما الَّذي اخْتَفَى بِكَفِّي
ما دُمْتَ عَلَى عِلْمٍ بِأَسْرارِ السَّماءِ»

١ - المثنوي: ١/١٥٤٧، ١٥٤٩ - ١٥٥١.

٢ - هو أبو طالب، مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بن عطية، المَكِّي الحارثي، الشَّيْخُ الصُّوفِيّ صاحبُ كتابِ «قُوتِ القُلُوبِ في مُعامَلَةِ المَحْبُوبِ» (٥٣٨٦٣).

فَقَالَ الرَّسُولُ: «وَكَيْفَ تُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكَ؟ أَأَقُولُ لَكَ مَاذَا تَكُونُ (هَذِهِ الْأَشْيَاءُ)،

أَمْ تَقُولُ لَكَ هِيَ إِنْتِ حَقٌّ وَصِدْقٌ؟»

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: «إِنَّ الْأَمْرَ الثَّانِي أَكْثَرُ غَرَابَةً (مِنَ الْأَوَّلِ)

فَقَالَ الرَّسُولُ: «نَعَمْ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ أَقْدَرُ عَلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ»

فَانْطَلَقَتْ كُلُّ حَصَاةٍ مِنْ جُمُعِهِ نَاطِقَةً بِالشَّهَادَةِ، مِنْ دُونِ تَأْخِيرٍ

[١٣٥] وَقَالَتْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَنَظَّمَتْ جَوَاهِرَ «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»

وَحِينَ سَمِعَ أَبُو جَهْلٍ هَذَا مِنَ الْحَصَى أَلْقَى بِهِ عَلَى الْأَرْضِ غَاضِبًا^(١)

وَفِي وَصْفِ الرَّسُولِ الَّذِي أُوْمِنُ بِهِ قُلْتُ كَلَامًا وَنَظَّمْتُ أَشْعَارًا. وَإِذَا كُتِمُ أَنْتُمْ لَمْ

تَقْرَؤُوا الْقُرْآنَ قِرَاءَةً صَحِيحَةً، فَقَدْ قَرَأْتُ أَنَا آيَاتِهِ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً بِخُضُورِ قَلْبٍ. وَأَقُولُ لَكُمْ:

قُولُوا أَنْتُمْ أَيْضًا لِأَصْحَابِكُمُ الْمُتَعَصِّينَ فِي قُوْنِيَّةٍ إِنَّ جَلَالَ الدِّينِ عَرَفَ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ آيَاتِ

الْقُرْآنِ. وَيَعْتَبِرُ جَلَالَ الدِّينِ مُحَمَّدًا (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) مَنِعَ فَيْضِ الْكَائِنَاتِ. وَفِي لَيْلَةِ

الْمِعْرَاجِ الْعَظِيمَةِ قَالَ تَعَالَى لِحَارِسِ عَالَمِ الْخَلْقِ، وَعَالَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَعَالَمِ الْإِسْلَامِ: «لَوْلَاكَ

لَمَّا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ»^(٢). وَفِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ، الْآيَةُ ٤٥ نَقَرُ:

١- الْمُشْتَوِي: ٢١٦/١-٢١٦٦.

٢- جَاءَ ذِكْرُ هَذَا الْأَمْرِ وَاضِحًا فِي قَوْلِ مَوْلَانَا فِي الْمُشْتَوِي (٢٧٣٩/٥) عَلَى هَذَا النَحْوِ:

كَانَ الْعِشْقُ الظَّاهِرُ قَرِينًا لِمُحَمَّدٍ [عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ]

وَمِنْ أَجْلِ هَذَا الْعِشْقِ قَالَ لَهُ اللَّهُ: «لَوْلَاكَ»

وَفِي هَذَا الشَّانِ يَقُولُ الْأُسْتَاذُ فُرُوزَانْقَرُ: «مَقْصُودُهُ هُوَ الْحَدِيثُ الْمَعْرُوفُ «لَوْلَاكَ لَمَّا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ»، الَّذِي جَاءَ فِي

كِتَابِ «شَرْحِ التَّعْرِيفِ» (ج٢، ص ٤٦) عَلَى هَذَا النَحْوِ: «لَوْلَا مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مَا خَلَقْتُ الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةَ، وَلَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا الْعَرْشَ وَلَا الْكَرْسِيَّ، وَلَا اللَّوْحَ وَلَا الْقَلَمَ، وَلَا الْجَنَّةَ وَلَا النَّارَ، وَلَوْلَا مُحَمَّدٌ

مَا خَلَقْتُكَ يَا آدَمُ. وَقَالَ مُؤَلِّفُ كِتَابِ «الْوَلُؤُ الْمَرْصُوعُ» فِي شَأْنِهِ لَمْ يَرِدْ بِهَذَا اللَّفْظِ، بَلْ وَرَدَ «لَوْلَاكَ مَا خَلَقْتُ

الْجَنَّةَ، وَلَوْلَاكَ مَا خَلَقْتُ النَّارَ. وَعِنْدَ ابْنِ عَسَاكِرَ: «لَوْلَاكَ مَا خَلَقْتُ الدُّنْيَا». يُنْظَرُ: أَحَادِيثُ مُشْنَوِي، ص ١٧٢.

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا»، وفي سورة الإسراء، الآية ٨٥، قال تعالى للرسول الأكرم (عليه الصلاة والسلام): «يَتَكَلَّمُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا». اقربوا من الله العظيم، الذي أنا وحبيبي ومُرادي، شمس التبريزي، ما دُمنا أحياء تُثني عليه ونمدحه. إننا ننظر من منظور محمد المصطفى (عليه الصلاة والسلام) إمام البشر، حيث قال له ربنا سبحانه: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) [الأنفال/٧]. أَيْ عَظَمَةُ هذه، وأَيْ رسالة، سُبُوْحُ قُدُّوس. وإِنِّي مِنْ وَخِي الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ قُلْتُ:

اسْتَمِعِي [أَيْتُهَا النَّفْسُ] لِأَخْبَارِ صَدْرِ الصُّدُورِ

القائل: لا صلاة، ثُمَّ، إِلَّا بِالْحَضُورِ^(١)

وقد ظفرنا بهذا الحضور الذي هو حضور القلب. وعلى المسلمين في أثناء إقامة الصلاة أن لا يفكروا إلا بالله تعالى، وأن لا يتذكروا أيَّ إنسان. تِلْكَ اللَّحَظَاتُ الْمُقَدَّسَةُ، إِذْ تَكُونُ أَنْوَارُ الضَّرَاعَةِ مُلْهِمَةً، يَجِبُ أَنْ تُقْضَى بِكَمَالِ الصَّنْتِ والهدوء المقدس. وإن تضرعاتنا وقت مؤثر، لأن وجودنا يكون في خلود وصفاء. وذلك وقت أن يطير المتضرع في السماوات بِأَجْنَحَةِ الْكَلَامِ الْمُقَدَّسِ، مُنْطَلِقًا إِلَى حَيْثُ مَقَامُ حَقِيقَةِ الْحَيَاةِ وَالْكَائِنَاتِ، إِلَى حَيْثُ تُحِيطُ بِهِ هَالَةُ نُور. وهذا الضرب من أفراد الناس يظفرون بِمَقَامِ نُسْتِهِمْ فِيهِ «أَزْوَاحًا مُجَرَّدَةً»، ومكانهم هو عالم الغيب^(٢). هذا النوع من الأزواج لا يكون في مكان.

١- المثنوي: ٣٨٢/١.

٢- إِنَّ لِلْغَيْبِ سَحَابًا آخَرَ وَمَاءَ آخَرَ وَلَيْسَتْ هَذِهِ تَظْهَرُ إِلَّا لِلْخَوَاصِّ وَلَهُ سَاءٌ غَيْرُ تِلْكَ السَّاءِ، وَشَمْسٌ غَيْرُ تِلْكَ الشَّمْسِ وَأَمَّا مَنْ عَدَاهُمْ فَإِنَّهُمْ «فِي لَيْسٍ مِنْ خَلْقِي جَدِيدٍ» (المثنوي: ٢٠٤٦/١-٤٧).

وهناك موجودات [١٣٦] قابلة للتكريم والتعظيم، ومنها في اعتقادي شمس التبريزي:

اللامكان الذي فيه نور الله

من أين له الماضي والمستقبل والحال؟

وإن ماضيه ومستقبله أمران بالنسبة لك

وكلاهما شيء واحد، وإن خلت أتهما اثنان^(١)

فقولوا لأجباتكم: إنني أقول إنه ما دام الإنسان، ما دام روح الإنسان، لم يسافر إلى العالم الباقي، فعليه أن يتعرف الأنعام المقدسة للعالم الآخر. ونحن، العارفين، نقول: أحبوا الناس بصدق وإخلاص، واشكروا الله. نحن نقول: حب الوطن من الإيمان. وجُملة حياتنا انشغال بمحبة هذا الذي هو أهم شيء وطاعته، هذا الذي تذكره ألسنتنا دائماً.

أحد أعضاء المحفل الديني الروحاني في قونية، ممن وقعوا بقوة تحت تأثير كلام مولانا وكان الدمع ينهل من عينيه، قال:

- أنت رجلٌ بليغٌ جداً ومثيرٌ، أنت واحدة من عجائب تاريخ البشر، ولو أنني لم أسمع هذا منك لأضعت صحتي بسبب الإلحاد بك. والاحتمال القوي أن شمس التبريزي، عين شمس الذي نُحِبُّه وتعلّق به، هو طُرْفَةٌ نادرة من عالم الخلق. ولو أنني ودعت الدنيا في هذه الساعة لما حملتُ معي حُسرة على شيء؛ لأنّ الاشتياق الذي حملته للفضائل وفهم الحقيقة حصلت عليه في محفلك. فليت أحبّتي يعلمون أنه تحت سماء قونية رجال أكبر من الزمان، وأكبر من المكان، وأكبر ممّا يمكن أن يُوصَف بالكلام. وأنت بكلامك الذي

يَخْرُجُ مِنَ الْقَلْبِ صَهْرَتٌ وَجُودِي. لَيْتَنِي عَرَفْتُكَ مِنْ قَبْلُ، وَعَرَفْتُ مِزْلَتَكَ وَمَقَامَكَ. وَقَدْ فَهَمْتُ الْآنَ أَنَّكَ اسْتَطَعْتَ بِمَا تَمْتَلِكُهُ مِنْ ضَوَابِطَ وَمَعَايِيرَ أَنْ تَفْتَحَ طَرِيقًا إِلَى عَالَمِ الْبَاطِنِ. وَمِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَشْرَحَ لَنَا مَوْلَانَا هَذِهِ الطَّاقَةُ الْبَاطِنِيَّةَ الْعَظِيمَةَ: هَلْ صَحِيحٌ أَنَّ الْإِقْتِرَابَ مِنْ هَذَا الْوَادِي يُجْعَلُ الْإِنْسَانَ أَكْثَرَ إِنْسَانِيَّةً، وَيُوصِلُهُ إِلَى حَيْثُ يَتَجَاوَزُ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ، وَيَكْشِفُ أَسْرَارَ الْخَلْقِ؟ - هَلْ مَوْلَانَا مُوَافِقٌ عَلَى أَنْ يَرْفَعَ السُّتَارَ عَنْ هَذِهِ الطَّاقَةِ الْعَظِيمَةِ، وَيُجْعَلَنَا عَارِفِينَ؟ لِكَيْ نُظْلِعَ أَصْحَابَنَا عِنْدَ عَوْدَتِنَا إِلَيْهِمْ، وَلَا نَسْمَحَ لَهُمْ بِأَنْ يُلْفَقُوا التَّهْمَ الْكَاذِبَةَ فِي شَأْنِكُمْ وَشَأْنِ شَمْسٍ هُنَا وَهَنَاكَ، وَيُشِيرُوا النَّاسَ؟

- قَبْلَ أَنْ أَرْفَعَ السَّتَارَ عَنْ هَذِهِ الطَّاقَةِ الْعَظِيمَةِ، وَأَجْعَلَكُمْ مُطْلَعِينَ، عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ
إِنِّي كُنْتُ أَقْرَأُ فِي الْمَدْرَسَةِ فِي هَذَا الشَّأْنِ كِتَابَ مِير سَيِّد شَرِيف الْجُرْجَانِي، وَكَانَ يَقُولُ
عَنْ رُؤْيَا الْبَاطِنِ:

عَيْنُ الْبَاطِنِ، أَوْ نَظَرُ الْبَاطِنِ، عِبَارَةٌ عَنْ قُوَّةِ قَلْبِيَّةٍ مُنَوَّرَةٍ بِنُورِ الْقُدُسِ، وَبِتِلْكَ الْقُوَّةِ [١٣٧] يُرَى شَخْصُ الْحَقَائِقِ وَبَاطِنُ الْأَشْيَاءِ، فَمَا رَأَيْكُمْ؟ ^(١) سَكَتَ مِمَّنْ لَوْ الْمَحْفِلُ

١ - يَمَكِّنُ التَّحَدُّثَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَمَكِّنُ سَمَاعَ صَوْتِهِ وَيَرْفَعُ رِجَالَ الْحَقِّ تَعَالَى، وَالْكَتْلَ، السَّتَارَ عَنِ الْأَسْرَارِ. وَفِي الشَّرْحِ الَّذِي قَدَّمَهُ الْأَنْفَرَوِيُّ لِلْأَيَّاتِ الْآتِيَةِ لِمَوْلَانَا:

قال الرسول: «إِنَّ صَوْتَ الْحَقِّ
يَرِنُ فِي أُذُنِي مِثْلَ الصَّدى

وَقَدْ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ أَذَانِكُمْ ۖ لِيَكِيَ لَا تُبَادِرَ إِلَىٰ سَمَاعِ صَوْتِ الْحَقِّ

وها هو ذا صوت الحق يصل إلى صريحاً، كصافي الشراب الذي برئ من الدردى

(المشوى: ٢٠٩١/٢ - ٠٩٣)

كتب يقول: «يختلف العلماء في شأن سماع كلام الحق سبحانه، ويقول أبو منصور المارثدي: إن كلام الله لا يُسمع إليه ولا يُسمع أبداً؛ لأن «الكلام» صفة الإله المتكلم، ولذلك لا تُسمع صفته الأزلية بحسب الشنع هذا. ويعتقد أكثر العلماء، بناء على فحوى قوله تعالى: «وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ» [البقرة/٧٥] وعلى مقتضى قوله تعالى: «... فَاجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ» [التوبة/٦]، أن كلام الله يُسمع، ويقول المارثدي وأتباعه في =

= تفسير هذا: «يَسْمَعُونَ مَا دَلَّ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ»، وفي تفسيره: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْوِيلًا» [النساء/١٦٤]: «كَانَ خِطَابُ الْحَقِّ تَعَالَى لِخَضْرَاءِ مُوسَى عَلَى وَجْهِ أَنْ الْحَقَّ خَلَقَ الْحَرْفَ وَالصَّوْتَ اللَّذَيْنِ كَانَا دَالِّينِ عَلَى كَلَامِهِ الْأَزَلِيِّ، ثُمَّ أَلْفَى ذَلِكَ الْكَلَامَ فِي السَّمْعِ الْمُبَارَكِ لِخَضْرَاءِ مُوسَى».

أَمَّا الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ يُسْمَعُ، فَذَلِيلُهُمْ أَنَّ الْإِمَامَ الْوَاحِدِيَّ يَقُولُ فِي الْوَسِيطِ فِي شَأْنِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْوِيلًا»: «إِذَا كَانَ الْفِعْلُ غَيْرَ مُؤَكِّدٍ بِالْمُضَدَّرِ كَانَ قَابِلًا لِلْحَمَلِ عَلَى الْمَجَازِ، أَمَّا فِي حَالِ وَجُودِ التَّأَكِيدِ فَلَا يُحْتَمَلُ عَلَى الْمَجَازِ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْأَفْعَالَ الْمَجَازِيَّةَ لَا تُؤَكَّدُ. وَيَعْنِي هَذَا أَنَّهُ يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ الْأَصْوَاتَ الَّتِي سَمِعَهَا مُوسَى مِنْ جَانِبِ الشَّجَرَةِ كَانَتْ عَيْنُ كَلَامِ اللَّهِ

ويقول الإمام الفخر الرازي: إنه مثلما أن رؤية الله ممكنة بالعين، إدراك كلامه بالسَّمْعِ ممكن أيضًا. ويقول الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين»: «مَنْ اسْتَبَعَدَ أَنْ يَسْمَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الدُّنْيَا كَلَامًا لَيْسَ بِصَوْتٍ وَلَا حَرْفٍ، فَلْيُسْتَنْكَرْ أَنْ يَرَى فِي الْآخِرَةِ مَوْجُودًا لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا لَوْنٍ. فَاللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُسْمِعَ، كَيْفَمَا يَشَاءُ، كَلَامَهُ الْأَزَلِيَّ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ لَا يُشْبِهَانِ كَلَامَ الْمَخْلُوقِ، لِذَلِكَ الْعَبْدُ الَّذِي يَحِبُّهُ، عَلَى التَّخَوُّعِ الَّذِي يَعْلَمُهُ هُوَ تَعَالَى، وَأَنْ يَفْهَمَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا لَا يَسْمَعُهُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ».

كما سَمِعَ مُوسَى صَوْتَ الْحَقِّ مِنْ جَانِبِ الشَّجَرَةِ يَنَادِيهِ: أَيُّهَا السَّعِيدُ الطَّالِعُ

سَمِعَ مِنَ الشَّجَرَةِ نَدَاءً «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» وَتَحَلَّتْ لَهُ الْأَنْوَارُ مَعَ هَذَا الْكَلَامِ

(الْمُنْتَوَى: ٢٨٩٤/٢ - ١٠٩٥)

والإنسان الكامل، الإنسان العارف، لا يرى إلا الله، ولا يتكلم إلا مع الله. وفي الوصل، الذي هو نهاية سيرة السالك إلى الله سبحانه، يغدو مُبْرَأً مِنَ الصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، وَيَغْدُو فَانِيًا عَنْ صِفَاتِهِ بَاقِيًا بِأَوْصَافِ الْحَقِّ. وَقَدْ جَاءَ فِي «كُتَّافِ اصْطِلَاحَاتِ الْفَنُونِ» قَوْلُهُ: «أَقْلَ دَرَجَاتِ الْوِصَالِ هِيَ رُؤْيَا الْعَبْدِ رَبَّهُ بِعَيْنِ الْقَلْبِ، وَلَوْ أَنَّ ذَلِكَ الْوِصَالَ وَالرُّؤْيَا مِنْ بُغْيَةٍ وَهَذِهِ الرُّؤْيَا مِنْ بُغْيَةٍ إِنْ كَانَتْ قَبْلَ رَفْعِ الْحِجَابِ فَيُقَالُ لَهَا: مُحَاضَرَةٌ وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ بَعْدَ رَفْعِ الْحِجَابِ فَيُقَالُ لَهَا: مُكَاشَفَةٌ. وَالْمُكَاشَفَةُ لَا تَكُونُ يَذُونُ رَفْعِ الْحِجَابِ. أَيْ إِنْ السَّالِكُ بَعْدَ أَنْ يُزْفَعَ الْحِجَابُ عَنْهُ يَعْلَمُ يَقِينًا فِي قَلْبِهِ أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي هُوَ حَاضِرٌ مَعْنًا، وَنَاطِقٌ لِبِنَا، وَشَهِيدٌ عَلَيْنَا. وَهَذَا يُقَالُ لَهُ أَيْضًا: الْوِصَالُ الْأَدْنَى. وَأَمَّا إِذَا كَانَ بَعْدَ رَفْعِ الْحِجَابِ وَالْمُكَاشَفَةِ عِنْدَ تَجَلِّي الذَّاتِ فَإِنَّهُ يَرْتَقِي إِلَى مَقَامِ الْمَشَاهِدَةِ الْأَعْلَى، وَيُقَالُ لِهَذَا: الْوِصَالُ الْأَعْلَى. وَالسَّالِكُ يَبْدَأُ فِي مَقَامِ الْمُحَاضَرَةِ، ثُمَّ بَعْدَهُ الْمُكَاشَفَةُ، ثُمَّ بَعْدَهُ الْمَشَاهِدَةُ. وَعِنْدَ هَذِهِ النِّقْطَةِ يَصِلُ السَّالِكُ إِلَى سِرِّهِ الْحَقِيقِيِّ، وَيَغْدُو كَائِفًا لِلْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ وَمُظَلِّعًا عَلَى عَالَمِ الْغَيْبِ. وَيَعْتَقِدُ الشَّيْخُ الْمَفِيدُ أَنَّ أَثَنَةَ الشَّيْعَةِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كَانُوا عَارِفِينَ لِأَسْرَارِ النَّاسِ، وَكَانُوا يَعْرِفُونَ الظَّوَاهِرَ قَبْلَ وَقُوعِهَا.

وفي كتاب تفسير أبي الفتح الرازي جاء قوله: «إِنَّ مِنْ مُعْجَزَاتِ رَسُولِ الْإِسْلَامِ نَوْعًا مِنَ الْإِطْلَاقِ عَلَى الْغُيُوبِ، بِإِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ لِكَيْ يَكُونَ ذَلِكَ أَكْبَرَ دَلِيلٍ وَبَرَهَانٍ عَلَى نُبُوَّتِهِ

أَمَّا ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ، شَارِحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، فَيَكْتُبُ قَائِلًا: «يَقُولُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَسْأَلُونِي عَنْ كُلِّ مَا سَيُخْدِتُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَسَأَجِيبُكُمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنِّي ادِّعَاءٌ لِلْأُلُوهِيَّةِ، وَلَا ادِّعَاءٌ لِلنُّبُوَّةِ، بَلْ مِنْ نَاحِيَةِ أَتْنِي [١٣٨] أَخَذْتُ أَسْرَارَ الْغَيْبِ مِنْ رَسُولِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ وَيُضِيفُ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ قَائِلًا: إِنَّ أَخْبَارَ الْغَيْبِ الَّتِي

الرُّوحانيّ [١٣٨] في قُوْنِيَّة، الذين وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ أَمَامَ عَارِفٍ كَبِيرٍ وَصَادِقٍ وَحَقِيقَتِي.

= أَدَاعَهَا عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَتْ مُطَابِقَةً لِلْحَقِيقَةِ وَيُنَسَّبُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونَنِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ».

وَيَسْأَلُ الْعَارِفُ أَيْضًا لِيُطَيِّ مَرَاجِلَ السَّلُوكِ وَالْوُصُولِ إِلَى حَيْثُ يَظْلَعُ عَلَى الْمَغِيْبَاتِ وَقَدْ ذَكَرَ شَمْسُ التَّغْرِيزِيِّ فِي كِتَابِهِ «الْمَقَالَاتِ» أَنَّ أَبَا يَزِيدَ الْبُسْطَامِيَّ كَانَ يَتَجَوَّلُ فِي الْقُبْرِ، فَوَجَدَ جَمَاعَةً بَعْضُ الْبَشَرِ، فَجَاءَهُ إِلَهُامٌ مِنْ بَاطِنِهِ أَرْفَعَهَا بِيَدِكَ، وَانْظُرْ جَيِّدًا، فَرَأَى أَنَّ آذَانَ بَعْضِ الْجَمَاعَةِ مُغْلَقَةٌ، لَا تُقْبَلُ لَهَا. وَرَأَى أَنَّ لِبَعْضِ الْآذَانِ ثُقْبًا مُمْتَدًّا إِلَى الْأُذُنِ الْأُخْرَى، وَرَأَى لِبَعْضِ الْآذَانِ ثُقْبًا إِلَى الْخَلْقِ. فَقَالَ: يَا اللَّهُ، يَرَى النَّاسُ هَذِهِ الْآذَانَ مُتَمَاثِلَةً، وَتَظْهَرُ لِي مُخْتَلِفَةً وَالْآنَ، أَنْتَ أَيْضًا قُلْ: لِمَاذَا كَانَتْ تِلْكَ الْجَمَاعَةُ عَلَى تِلْكَ الْأَوْصَافِ؟ فَجَاءَهُ الْإِلَهُامُ: تِلْكَ الرُّؤُوسُ، أَوِ الْجَمَاعَةُ، الَّتِي لَيْسَ فِي آذَانِهَا ثُقُوبٌ لَمْ تَسْمَعْ كَلَامَنَا أَبَدًا. وَتِلْكَ الَّتِي كَانَ لِآذَانِهَا ثُقُوبٌ مِنْ هَذِهِ الْأُذُنِ إِلَى تِلْكَ، كَانَتْ تَسْمَعُ كَلَامَنَا بِهِذِهِ الْأُذُنِ وَتَخْرِجُهُ مِنْ تِلْكَ الْأُذُنِ. وَتِلْكَ الَّتِي كَانَ لِآذَانِهَا ثُقْبٌ مِنَ الْأُذُنِ إِلَى الْخَلْقِ كَانَتْ تَقْبَلُ كَلَامَنَا. وَيَصِلُ الْعَارِفُ إِلَى حَيْثُ يَكُونُ مِثْلُ أَبِي يَزِيدَ، الَّذِي فِي إِجَابَةِ السَّائِلِ الَّذِي سَأَلَ: مَا الْعَرْشُ؟ قَالَ: أَنَا. وَسَأَلَ: مَا الْكُرْسِيُّ؟ فَقَالَ: أَنَا. وَقَالَ: مَا اللَّوْحُ وَالْقَلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا. وَهَذَا هُوَ مَعْرَاجُ السَّالِكِينَ

وَإِذَا مِتَّ أَنْتَ فَلَنْ يَمُوتَ هَذَا الدَّرْسُ	وَعَدَ اللَّطْفُ الْإِلَهِيُّ الْمَصْطَفَى قَائِلًا:
وَحَائِلٌ دُونَ أَنْ يَزِيدَ أَحَدٌ فِي الْقُرْآنِ أَوْ يُنْقِصَ مِنْهُ	فَأَنَا حَافِظٌ لِكِتَابِكَ وَمُعْجَزَتِكَ
وَدَافِعٌ لِلظَّالِمِينَ فِي حَدِيثِكَ	وَأَنَا رَافِعُكَ فِي الدَّارَيْنِ
فَلَا تَطْلُبُ حَافِظًا آخَرَ خَيْرًا مِنِّي	وَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَزِيدَ فِيهِ أَوْ يَنْقُصَ مِنْهُ
وَأَضْرِبُ اسْمَكَ عَلَى الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ	وَأَزِيدُ رَوْضَتَكَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ
وَمَحَبَّةً لَكَ، صَارَ قَهْرِي قَهْرَكَ	وَأَصْنَعُ مِنْبَرًا وَمَحْرَابًا مِنْ أَجْلِكَ
وَعِنْدَمَا يُصَلُّونَ يَتَوَارَوْنَ	وَهُمْ يُخْفَوْنَ الْآنَ اسْمُكَ خَوْفًا
وَيُخْفَوْنَ أَيْضًا آذَانَ الصَّلَاةِ، أَيْهَا الْبَارِعُ	وَيَذْكُرُونَ اسْمَكَ الْآنَ خُفْيَةً
يَتَوَارَى دِينُكَ تَحْتَ التُّرَابِ	وَخَوْفًا وَخَشْيَةً مِنَ الْكُفَّارِ الْمَلَاعِينِ
وَأُعْنِي عَيْنِي مَنْ يُنْكِرُ هَذَا	وَلَكِنِّي سَامِعٌ الْآنَ الْآفَاقَ بِالْمَآذِنِ
وَيَنْتَشِرُ دِينُكَ مِنْ أَسْفَلِ الْأَرْضِ إِلَى أَعْلَى السَّمَاءِ	وَسَيَفْتَحُ أَتْبَاعُكَ الْمُدْنَ، وَيَزِيدَادُونَ جَاهًا
فَلَا تَخْشَ شَيْءَ الدِّينِ، أَيْهَا الْمَصْطَفَى	وَسَأُبْقِيهِ أَنَا حَيًّا حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ
بَلْ أَنْتَ صَادِقٌ، وَشَرِيكَ لِمُوسَى فِي الْحِزْبَةِ	فَيَا رَسُولَنَا، لَسْتَ سَاحِرًا
يَتَلَبَّسُ أَنْوَاعَ الْكُفْرِ، كَأَنَّهُ الْأَفْعَى	وَالْقُرْآنَ عِنْدَكَ كَالْعَصَا عِنْدَ مُوسَى
فَاعْتَبِرْ مَا قُلْتَهُ، كَأَنَّهُ عَصَا	فَإِنْ يَمُتْ أَنْتَ تَحْتَ التُّرَابِ
تَكُونُ تِلْكَ الْكَفَّ الظَّاهِرَةُ يَغِطُّهَا وَاعِيَةٌ كَالْعَصَا	وَمَعَ أَنْتَ تَكُونُ نَائِمًا تَحْتَ التُّرَابِ

(المثنوي: ١١٩٨/٣ وما بعد)

ذلك المسجد الذي انطوت عليه قلوب الأولياء
هو مسجدٌ للخلق جميعاً، فثمة الله
(المثنوي: ٣١٢٢/٢)

عالمٌ باطنٍ الإنسان

عندما كان مولانا ينظرُ إلى أعينٍ مخاطبيه، التي كانت تنظرُ إليه بحدة، قال:
- نحنُ نظفَرُ بهذه المواهبِ جميعاً بالتضرعِ والثناءِ والإيمانِ الصادق. نعم،
بِمُساعدةِ القوى الباطنية. وعظمةُ باطنِ الإنسان، والوقائعُ التي تحدثُ فيه، هي أعقدُ
المسائلِ وأكثرها رمزيةً. وتنبُعُ إنسانيةُ الإنسانِ من هذا المعين. ومن دُونِ أن نبَحَثَ
نرى هذا الشيءَ الذي نهتمُّ به. والماضي والحاضرُ أمامَ عَيْنِ العارفِ شيءٌ واحدٌ.
وليسَ في وسعي أن أُبينَ لكم، كما ينبغي، هذا العالمَ الباطنيَّ المحبَّبَ بِمُساعدةِ العقلِ
والقوةِ الناطقة. لستُ قادراً على أن أقدمَ ذلكَ بالقلمِ والكلماتِ، على صَفحاتِ الورقِ،
أو أصوره؛ لِأَنِّي أعلمُ أن الكلامَ والورقَ في هذا المَقامِ سيحترقان:

يُسْرَعُ القَلَمُ في الكتابةِ

وعندما يَصِلُ القَلَمُ إلى هنا يَنكسرُ ويتحطَّمُ

وبعَيْنِ الباطنِ^(١)، يمكنُ إدراكُ ما يَعْزُ إدراكُه بالبيانِ والعملِ، [١٤٠] وكشَفُ أَخْفَى

١ - يستطيع الإنسان الكامل، بالإلهامِ وبعَيْنِ الباطنِ، أن يتَّصَلَ بعالمِ الغيبِ وقد بَيَّنَّ أحدُ العلماءِ أن العلمَ
التجريبيَّ الذي يُحصَلُ عليه من طريقِ الحواسِ يُفهمُ الأمورَ العقليةَ بوساطةِ الفكرِ المنطقيةِ والرياضيةِ، لكنَّ
هذا إشراقٌ وإلهامٌ يكونُ أبعدَ من العلمِ والاستدلالِ والفلسفةِ والرياضياتِ. الإشراقُ يربطُ الإنسانَ سريعاً
كالبرقِ بالعالمِ الآخرِ. فعلى حينِ غرةٍ يسطعُ برقٌ في أفقِ رُوحِ الإنسانِ، فيبصرُ ما هو غيرُ قابلٍ للإبصارِ. ويقولُ
ألبرت آينشتاين في الرسالة التي يكتبها لأندريه مالرو - العالمِ الفرنسي الذي توفاه الله - بحميميةٍ: «إنَّ في
السَّماءِ أخباراً، وفي عالمِ الرُّوحِ أيضاً [١٤٠] إلهاماتٌ للعلماءِ، هي مصادرُ عظمةٍ للكشوفِ العلميةِ =

أسرار الروح، وربما الكائنات، وأكثرها رمزية، والتحدث عن شفافية القلب واتساعه، والإحساس بالحضور الخفي للمطلق في كل مكان.

وتعتمد عين الباطن على قوة الإيمان واليقين. ويجب حفظ القلب طاهرًا؛ لكي

= ويعتقد الكسيس كارليل بأنه يوجد بين الناس أفرادًا يظلمون على تصورات الآخرين وفكرهم اعتمادًا على حواسهم وهذا أيضًا من بركات الشرق، الذي كشف الإشراق والإلهام وهو عين الإشراق الذي اضطر الغزالي إلى أن يضع الكتاب والتفكير جانبًا، وأن يترك حتى التدريس في المدرسة النظامية لأهل الدنيا، وأن يجيب دعوة نظام الملوك ليأته إلى التدريس مجددًا في نظامية بغداد على هذا النحو:

«الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه أجمعين. أما بعد، حضره السيد الملجأ لأهل الدنيا، متع الله المسلمين بطول بقائه، يدعو هذا الضعيف من خضيب خرابة طوس البشر إلى أوج منعمورة دار السلام بغداد، وهذا كرم وعظمة. وعلى هذا الحقير أيضًا واجب أن يدعو السيد من خضيب البشرية إلى أوج المراتب الفلكية، وأن يرغب بذلك. فيا عزيز طوس وبغداد، إن الطريق إلى الألوهية نوع واحد، أما من أوج الإنسانية إلى خضيب الحيوانية فهناك تفاوت كبير. وأما التماس حضور هذا الفقير، الذي ذكر، فلاشك أن لدى هذا الفقير وقتًا للفراق، لا وقتًا للذهاب إلى العراق

أيها العزيز، افترض أن الغزالي وصل إلى بغداد، ثم بعد ذلك مباشرة وافته المنية، ألا يجب التفكير بمدرس آخر؟ تخيل أن هذا اليوم هو اليوم نفسه، وتخل عن هذا المسكين، والسلام والإكرام يدعو الغزالي إلى مائدة العرفان، ويؤلف كتابه «تهافت الفلاسفة»، ويعتبر كرسي التدريس في نظامية بغداد أصغر كثيرًا من العروج إلى السماوات. وأي شيء أثار هيجان الغزالي وقلقه الروحي؟ - ولماذا ترك منصب الرئاسة في النظامية؟ عندما رأى أن الفلسفة اليونانية، التي تحيط بالعالم المادي المحسوس وعالم المثل، لا تروي ظمأه الروحي إلى إدراك الحقيقة:

الدهر مثل خيال الظل، والعالم حائر فيه. والتاس مثل صورة الفانوس حاثرون فيه. وكان يعتبر المقولات الفلسفية قصصًا وأساطير، ويتجه نحو عالم الذوق والمكاشفات، ويقول: ليس العالم هو الذي يعلم الأشياء من الكتب، وإذا نسي شيئًا كان قد حفظه عن ظهر قلب صار جاهلًا. العالم الحقيقي هو الذي يطلب علمه من الله، من دون وساطة قبيل الدرس وقاله. كان الغزالي يبحث عن عين الباطن، وفي النهاية ساقه الإيمان بالغيب نحو الإلهام والإشراق، وهو طريق من موهبته أن رقع الستار من أمام عينيه عن كثير من الأسرار.

يَصْبِحُ الرُّوحُ مَحَلًّا لِلْكَسْبِ وَمَهْطًا لِلْأَسْرَارِ، وَتَسْمَعُ الْأُذُنُ الْأَنْغَامَ الْمَوْزُونَةَ لِلْوَحْيِ،
وَتُضِيءُ أَنْوَارُ الْحَقِيقَةِ أَيْضًا أَعْمَاقَ الْقَلْبِ:

تُضِيحُ أُذُنُ رُوحِكَ مَحَلًّا لِلْوَحْيِ

فَمَا الْوَحْيُ؟ - إِنَّهُ كَلَامٌ خَفِيَ عَنِ الْحِسِّ

فَأُذُنُ الرُّوحِ وَعَيْنُ الرُّوحِ لَيْسَنَا مِنْ هَذَا الْحِسِّ الظَّاهِرِيِّ

أَمَّا أُذُنُ الْعَقْلِ وَعَيْنُ الظَّنِّ فَهَمَا مُفْلِسَتَانِ مِنْ ذَلِكَ الْوَحْيِ

وَلَوْ أَنَّ كُلَّ قَلْبٍ كَانَ سَامِعًا لِلْوَحْيِ الْخَفِيِّ

فَمَتَى كَانَ الْكَلَامُ وَالصَّوْتُ مَوْجُودَيْنِ؟^(١)

يَغْدُو الْقَلْبُ قَابِلًا كُلَّ صُورَةٍ جَذَابِيَّةٍ، وَاضْطِرَابُ الْإِنْسَانِ وَخَيْرُهُ يَنْتَهِيَانِ

[١٤١]، وَاللَّهِيْبُ الْمُخْرِقُ لِلْحَسَدِ وَالتَّمِيمَةُ وَالْأَنَانِيَّةُ يَنْطَفِئُ. قُدْرَةُ الْبَاطِنِ تُنْهَى

التضادات الروحية عند الإنسان:

وَلَوْ تَهَيَّأَ لَكَ فَتُحَ الْبَابِ مَرَّةً وَاحِدَةً لَرَأَيْتَ الشَّمْسَ فِي دَاخِلِ الظِّلِّ

سَأَلَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ مَوْلَانَا:

- أَيْمُسَاعِدَةُ الْعَقْلِ يُمْكِنُ الظَّفَرُ بِعَالَمِ الْبَاطِنِ؟

فَأَجَابَ مَوْلَانَا:

- لَا، هُنَاكَ عَالَمٌ آخَرٌ، عَالَمُ الْبَاطِنِ لَهُ قَانُونٌ آخَرٌ وَنَهْجٌ آخَرٌ، وَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ عَالَمِ

الْعَقْلِ الْجُزْئِيِّ. يَقُولُ شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ: إِنَّ الْعَقْلَ الْجُزْئِيَّ قَدَّمَ ضَعِيفَةً، لَا يَأْتِي مِنْهَا نَفْعٌ.

العقل يُرافق حتى السَّحَر، أما داخل المنزل فلا يُرافق. في عالم الباطن العظيم، العقل حجاب، والقلب حاجب.

ثم سأل:

- وأنتم، ماذا فعلتم بالعقل؟

أجاب مولانا السائل المناق بالأسعار، وأرى أن إجابة جلال الدين البلخي

مماثلة لأشعار سغدي(*) في هذا الشأن، التي أنقلها فيما يأتي:

لا يلتقي حُكْمُ العِشْقِ وحُكْمُ العَقْلِ في مكانٍ واحدٍ

وتكونُ الفوضى حيثُ يوجدُ مَلِكٌ في ولايةٍ واحدةٍ

ومتى أطال العِشْقُ يدَ التَّطاولِ

عَلِمَ أَنَّ العَقْلَ لا يمتنعُ بالكفايةِ

وخلافًا للفلاسفة، لا نتقدم نحن معتمدين على عصا العقل ورجله الخشبية

نحو عالم العِشْقِ الجميل، ونحرق العقل الجزئي بنار العِشْقِ؛ ذلك لأنَّ البناء في

الحرق. حُرِّبَ العقل؛ لأنَّ العِمارة في الحَراب. كُلُّ أَسْتارِ الأسرار وهالاتها التي

أحاطت بنا، وتغلَّفَ كُرَّةُ الأرض كالغِطاء، لا يمكنُ بالعقل ومدده معرفة كُنْه أَصْغَرِ

جزءٍ منها معرفة حَقِيقَةٍ.

وفي خِصْمٍ صِراعِ إجاباتِ مولانا المَبْنِيَّةِ على الأدلة المؤثرة والقاطعة، عُرِضَ أمرٌ

آخر، وهو: ما السرُّ الذي اطلَّعتم عليه بمُساعدة قوَّة الباطن؟

أجاب مولانا:

* - يريد سغدياً الشيرازي، الشاعر الفارسي الكبير [الترجم].

- أنا وشمسُ تخَلِينَا عَنِ الْعَقْلِ الْجُزْئِيِّ، وَتَمَسِّكُنَا بِأَذْيَالِ الْعِشْقِ، وَعَلَى حِينِ غِرَّةٍ سَمِعْنَا صَوْتَ الْعِشْقِ ثَمَلَيْنِ، فَافْهَمُوا مَا آتَيْكُمْ بِهِ، ابْتَغَاءً أَنْ تَسْمَعُوا صَوْتَ جَرَسِ قَافِلَةِ الْوَحْدَةِ. اللَّحْظَاتُ الَّتِي رَأَيْنَا فِيهَا أَنْفُسَنَا قَرِيبَيْنِ مِنَ الْحَقِيقَةِ السَّرْمَدِيَّةِ لَحْظَاتٌ وَأَنَاتٌ لَا تُنْسَى، كَانَتْ عَظْمَةً وَشُرُورًا. وَمَا عَلَى الْإِنْسَانِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَاشِقًا، وَأَنْ يَتْرَكَ فِي الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا عِشْقَ دُنْيَا الظَّاهِرِ وَالْمَادَّةِ وَالتَّعَلُّقَ الصِّمِيمِي بِهَا. عَلَيْهِ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِالْعِشْقِ، وَأَنْ يَدُوسَ بِقَدَمَيْهِ التَّعَلُّقَاتِ النَّفْسَانِيَّةَ وَالشَّهَوَاتِ وَالرَّغَائِبَ؛ لِكَيْ يَدْرِكَ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةَ لِلْحَظَاتِنَا وَأَنَاتِنَا الْعِرْفَانِيَّةِ. [١٤٢] تُرِيدُونَ مِنِّي أَنْ أَعْتَرِفَ بِكَشْفِ أَحَدِ الْأَسْرَارِ، لَيْسَ هَذَا ادِّعَاءٌ، بَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ، الْأَمْرُ مِثْلُ مَوْجَةٍ تُرْسِلُ رَحِمَاتِ السَّمَاءِ هَدِيَّةً لِلْقُلُوبِ الْمُشْتَاقَةِ. وَكَلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أُشِيدَ قَصِيدَةً فِي التَّضَرُّعِ لِلَّهِ تَعَالَى ظَفِرْتُ عَلَى نَحْوِ مَفَاجِيءٍ بِحَالَةٍ وَمَقَامٍ مِنْ نَوْعِ الْهِيَاجِ وَالْهِيَامِ. تَغْدُو ذَرَاتُ وَجُودِي كُلِّهَا مُسْتَعِدَّةً لِإِنْشَاءِ أَشْعَارٍ إِشْرَاقِيَّةٍ وَإِلْهَامِيَّةٍ. وَمَا أَجْمَلَ أَنْ أَقْرَأَ هُنَا هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ أَجْلِ الْمُتَعْصِبِينَ وَالشُّذَجِ فِي قُوْنِيَّةٍ، وَأَنْتُمْ أَيْضًا اسْتَمِعُوا جَيِّدًا. فَاحْمِلُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي قِيلَتْ فِي جَلَالِ الْأَحَدِيَّةِ بَبَرَكَةِ لَحْظَاتٍ أَبْعَدُوهَا فِيهَا عَنِ الْأَخْيَلَةِ وَالتَّصَوُّرَاتِ، احْمِلُوهَا هَدِيَّةً. وَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّ ثَمَّةَ فِكْرٍ لَطِيفٍ وَظَرِيفٍ فِي مَقْدُورِهِ أَنْ يَصِفَ قُدْرَةَ الْحَقِّ عَلَى هَذَا النَّحْوِ غَيْرَ فِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ:

شَمْسٌ مُتَوَارِبَةٌ فِي ذَرَّةٍ وَاحِدَةٍ

وَعَلَى حِينِ غِرَّةٍ، تَفْتَحُ تِلْكَ الذَّرَّةُ فَاهَا

وَتُضْبِعُ الْأَفْلاكُ وَالْأَرْضُ ذَرَّةَ ذَرَّةٍ

أَمَامَ تِلْكَ الشَّمْسِ عِنْدَمَا تَظْهَرُ مِنْ مَكْمَنِهَا^(١)

وهذه انتصاراتُ أشخاصٍ يبحثونَ عن علاماتِ الكشفِ واليقينِ في سَمَاءِ الْعِشْقِ.

وقد رُوِيَ عن الرسول الأكرم [عليه الصلاة والسلام] أنه قال: إن قلب العارف يمتلك أذنين وعينين، وعندما يشاء الله سبحانه الخير لإنسان يفتح عين قلبه، وعندما تفتح عين القلب يضيء في سماء الروح شعاع ملائم ومحبب، فيتجلى عالم الخلق والكائنات بكل زيناته وجمالياته أمامها، ويغدو فضاء القلب ثورانياً، ويظهر صفاء وجلال لا يوصفان. يغدو باطن الإنسان متصلاً ببخار الألوهية الذي لا ضفاف له.

ولم يظفر شمس تبريز بهذه الحال بالليل والقال، بل بمقاومة ومخالفة لما كانت النفس اللوامة تطلبه. والتركيز في توجه القلب نحو الله تعالى هو الأساس في الدفع نحو عالم الباطن. وأنا تعلمت ألقاب الحقيقة في مدرسة عرفان شمس الخلافة الصناعة، ذلكم شمس الذي كان يقول مراراً ضمن البحث والفحص:

اسع لِكَيْ تُصْبِحَ مَوْجُودًا مِنْ الْعَدَمِ،

وَلِتَغْدُوَ ثَمَلًا مِنْ شَرَابِ الْحَقِّ

وإذا كان أرسطو يسمي النظام العام لوجود الإنسان روحاً، فإنني أقول: إن الذي ينظم وينسق الحياة الروحية للبشر، ويساعد على عدم الخشية من المصائب والمشكلات، إنما هو العشق. العشق بناءً، العشق مولدٌ للأمال:

مَعَ أَنَّ سُكْرَ الْعِشْقِ أَتْلَفَنِي وَخَرَّبَنِي

ظَلَّ أَسَاسُ وَجُودِي عَامِرًا مِنْ هَذَا الْخَرَابِ

[١٤٣] وقد شرعنا بالجهاد الأكبر مع النفس الأمارة منذ وقت طويل. وما أجمل ما

قال شمس التبريزي:

في وجود الإنسان ثلاثة آلاف ثعبان، وكل ألف ثعبان منها نخبا بأكل لقمه واحدة. وإن

أَنْتِ أَنْقَضْتَ مِنَ اللَّقْمِ الثَّلَاثِ لُقْمَةً وَاحِدَةً فَإِنَّ أَلْفَ تُعْبَانٍ فِي دَاخِلِكَ سَتُنْحَى. وَإِنْ أَنْقَضْتَ مِنَ اللَّقْمِ لُقْمَتَيْنِ فَإِنَّ أَلْفَيِ تُعْبَانٍ سَتَهْلِكُ. وَلَكِنْ إِنْ زِدْتَ لُقْمَةً وَاحِدَةً فَإِنَّ أَلْفَ تُعْبَانٍ مِنْ تُعَابِينَ نَفْسِكَ سَتَحْيَا. وَإِذَا شِئْتَ أَنْ يُصْبِحَ دَاخِلُكَ مَحْضَرًا لِمُطَرِّبِي السَّمَاءِ، وَيَغْدُوَ فِضَاءَ قَلْبِكَ الْوَاسِعُ مَكَانًا لَتَجْوَالَ مَلَائِكَةُ الْعَالَمِ الْأَعْلَى الْمُقَرَّبِينَ، فَاعْمَلْ فِي الْحَيَاةِ عَلَى أَنْ تَتَعَاطَلَ مَعَ النَّاسِ وَمَعَ خَالِقِ الْكَائِنَاتِ عَلَى أُسَاسِ الْعِشْقِ. وَعِنْدَئِذٍ يَبْدَأُ الرُّوحُ، الَّذِي هُوَ هَادِيٌّ فِي الظَّاهِرِ كَالْبَحْرِ الْمَتْرَامِي الْأَطْرَافِ، بِالْهَيَجَانِ وَالْجَيْشَانِ، وَسَيُظَفَّرُ بِمَقَامِهِ الْحَقِيقِيِّ فِي الْكَائِنَاتِ بِاسْمِ خَلِيفَةِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَسَيَغْدُو مُتَجَلِّيًا لِأَنْوَارِ الْحَقِّ، جَلًّا وَعَلَا.

وَأَنْتُمْ، يَا مَنْ جِئْتُمْ إِلَيَّ مَبْعُوثِينَ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَعَصِّبِينَ، قُولُوا لِعُلَمَاءِ الدِّينِ الْمُتَلَاذِمِينَ لِلْبَلَاطِ وَالْمُتَعَصِّبِينَ: إِنَّ تَرْكِيَةَ النَّفْسِ وَصَقْلَهَا مِنَ الْفَرَائِضِ الْحَتْمِيَّةِ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ مُتَدَيِّنٍ. إِنَّ التَّظَاهَرَ وَالْمُرَاءَةَ شِرْكٌ، وَكُلُّ مَنْ يَطْهَرُ الْقَلْبَ مِنْ صَدَأِ الْغِشِّ وَالرِّيَاءِ، الَّذِي يَحْرِقُ بِيَدِ الدِّينِ، سَيَكُونُ مُسْتَحِقًّا لِلْحُضُورِ فِي مَقَامِ الْقُرْبِ.

فِي اللَّيْلَةِ الْأَخِيرَةِ، وَعِنْدَمَا كَانَ شَمْسٌ وَاقِفًا فِي حُجْرَتِي يُوَدِّي الصَّلَاةَ (قَبْلَ السَّفَرِ الْأَوَّلِ لِشَمْسٍ) رَأَيْتُ تَضَرَّعَهُ الزَّائِدَ، وَشَاهَدْتُ دَمَوْعَهُ الَّتِي كَانَ يَمْسَحُهَا بِكُمِّ قَمِيصِهِ. وَعِنْدَمَا انْتَهَتْ الصَّلَاةُ سَمِعْتُهُ بِأُذُنِي يَقُولُ:

فَسُبْحَانَ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ أَقْرَبِ الْأَقْرَبِينَ، وَأَبْعَدِ الْأَبْعَدِينَ، بِقُدْرَتِهِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ جَمَعَ أَقْرَبَ شَيْءٍ، وَهُوَ الرُّوحُ، بِأَبْعَدِ شَيْءٍ، وَهُوَ جِسْمُ الْإِنْسَانِ. عُلَمَاءُ الظَّاهِرِ فِي قُوْنِيَّةٍ يَعْرِفُونَ أَخْبَارَ الرَّسُولِ، وَحَضْرَةَ مَوْلَانَا شَمْسِ الدِّينِ يَعْرِفُ أَسْرَارَ الرَّسُولِ، وَأَنَا - جَلَالُ الدِّينِ - مَظْهَرُ أَنْوَارِ الرَّسُولِ.

فَلَيْتَكُمْ، أَيُّهَا النَّفَرُ الثَّلَاثَةُ، امْتَلَكْتُمْ أَهْلِيَّةَ سَمَاعِ بَعْضِ الْأُمُورِ وَالْأَسْرَارِ، مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ

مأذونٍ لي بِأَنْ أَكْشِفَ الْأَسْرَارَ، وَأَقُولَ مَا لَا يُمْكِنُ قَوْلُهُ. أَنَا وَشَمْسٌ لَسْنَا تُجَارَا، وَلَا طَالِبِينَ لِلخِرْقَةِ وَالْمُرِيدِينَ، وَنَكْلُمُ الْخَلْقَ عَلَى قَدْرِ عَقُولِهِمْ، وَنُنَاجِيهِمْ عَلَى قَدْرِ صَفَاتِهِمْ. وَنَحْنُ نَحْمَدُ اللَّهَ، وَنُفَاخِرُ بَأَنَّا أَصْبَحْنَا عَارِفِينَ فِي مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. مُحَمَّدٌ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) رَسُولُ اللَّهِ، وَفَخَرُ الْأَنْبِيَاءِ.

[١٤٤] نَحْنُ عَاشِقَانِ لِمُحَمَّدٍ، وَقُلُبَانَا خَالِيَانِ مِنَ الشُّرْكِ وَالرِّيَاءِ وَالتَّظَاهَرِ. قُلُبَانَا مُنَزَّلٌ لِمَحَبَّةِ الْحَقِّ، وَمَعْرِفَةِ الْحَقِّ. وَقَدْ قُلْتُ مِرَارًا:

لَا مَسْجِدَ إِلَّا فِي دَاخِلِ قُلُوبِ الْكُمَّلِ^(١)

وَنَعْتَقِدُ بَأَنَّنَا أَيْنَمَا تَوَجَّهْنَا فَتَسْرَى نَمَّ وَجْهَ اللَّهِ:

ذَلِكَ الْمَسْجِدُ الَّذِي انْطَوَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُ الْأَوْلِيَاءِ

هُوَ مَسْجِدُ لِلْخَلْقِ كَافَّةً، فَهَنَّاكَ اللَّهُ^(٢)

أَنَا وَشَمْسٌ تَصَوِيرٌ وَاضِحٌ وَحَيٌّ لِحَيَاةٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَى التَّقْوَى وَالْإِخْلَاصِ. وَفِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، الَّتِي أَحَاطَ فِيهَا سَفْكُ الدَّمَاءِ وَالشُّرْكِ وَالرِّيَاءِ وَالتَّعَصُّبُ بِكُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْبَسِيطَةِ، نَتَغَنَّى نَحْنُ بِالْعِشْقِ وَاللُّطْفِ وَالْمَحَبَّةِ، وَنَنْظِمُ الْأَشْعَارَ فِي جَلَالِ الْعِشْقِ الْإِلَهِيِّ:

نَحْنُ كَالنَّاسِ، وَالْأَنْفَامِ النَّسِي فِينَا مِنْكَ

وَنَحْنُ كَالْجَبَلِ، وَالصَّدى الَّذِي فِينَا مِنْكَ

وَنَحْنُ كَالشَّطْرَنْجِ، فِي حَالٍ مِنَ الصَّرَاعِ وَالتَّرَاعِ

وَصِرَاعُنَا وَنَزَاعُنَا مِنْكَ، يَا جَمِيلَ الصِّفَاتِ^(٣)

قَلْبُ شَمْسٍ مُتَنَزِّلٍ الْمَعْرِفَةِ، وَمُتَجَلِّ الْحَقِيقَةِ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالسَّمَاعِ الرُّوحَانِيِّ، وَهُوَ

١- المقتوي: ٣١٢٧/٢.

٢- المقتوي: ٣١٢٢/٢.

٣- المقتوي: ٦٠٣/١.

شاعرٌ مَدِيحٌ لِلسَّماعِ الإلهيِّ، ذلِكُمُ السَّماعُ الَّذي: مِنْ صَداهُ تُصِيبُ الحيرةُ أذنَ الرُّوحِ. وهو يقولُ: إِنَّ سُكْرَ باطِنِ السَّالِكينِ والمُشتاقينَ يَنْشَأُ مِنْ باطِنِ الأولياءِ؛ ذلِكَ لِأَنَّ الذَّوقَ والشَّوْقَ المعنويَّ يَسْطَعُ ابتداءً على قُلُوبِهِم، ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ يَنْهَمُرُ على قُلُوبِ السَّالِكينِ، على سَبيلِ الهداية.

وأظُنُّ أنكم تتساءلون: لِمَذا أَعْشَقُ أنا هذا الَّذي هو أَعْجوبةُ الزَّمانِ، هذا الشَّحاذُ الجالِسُ على التُّرابِ، العاشِقُ لِحاناتِ المَجُوسِ^(*)، هذا المرتدِّي لِلدَّلَقِ العاشِقِ لِلوَحْدانيَّةِ، الَّذي يَتحدَّثُ عن شَوْقِ الباطنِ وعالَمِ المعنى. عِزَّتُهُ ذاتُ حِكْمَةٍ، طاقَتُهُ الخفيَّةُ عجيبةٌ. وقد أُحرقَ بيدرَ الحياةِ بِقَشَةٍ، مِثْلَ المؤمنينَ الآخرينَ، أمامَ قسوةِ أهالي قُونيةَ، ثُمَّ ذَهَبَ.

* - في العِرفانِ الفارسيِّ بمعنى أَناتِ سُكْرِ المحبَّةِ الإلهيَّةِ، واضطِرامِ نيرانِ الانفعالِ بِجمالِ الحقِّ سُبُحانَه [المترجم].

- أَخْبَرَنِي عَنْ نَفْسِهِ، وَغَيْبَتِي عَنْ نَفْسِي
خَرَجَ مِنَ السِّرِّ، وَأَدْخَلَنِي فِي سِرِّ
- أَيْتُهُ تَهْمَةٌ أَتَهْمَتِي، وَأَيْتُهُ مَنَّةٌ مَنَّ عَلَيَّ؟
أَرَادَ أَنْ يَتَجَلَّى، فَجَعَلَنِي مُتَجَلِّيًا
مَنْ شَمْسُ؟

أَعْلَمُ الْآنَ أَتُفَكِّرُونَ فِي شَأْنِ: مَنْ شَمْسُ هَذَا؟ أَمَا أَنَا فَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ أَكْثَرُ النُّجُومِ
تَأَلَّفًا فِي سَمَاءِ الْعِرْفَانِ وَالثَّقَافَةِ فِي إِيرَانَ!
كُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ، وَيُؤْمِنُ بِرَسُولِهِ الْأَكْرَمِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَمُرُّ
مِنْ خِلَالِ شَلَالِ نُورٍ لَا يَنْتَهِي. وَإِنَّ رَسُولَنَا الْأَكْرَمَ، بِفِكْرِهِ وَتَصَوُّرَاتِهِ الْمُتَعَالِيَةِ، كَانَ
يَحُلُّ بِكَلَامِهِ الشَّبِيهِ بِالْمُعْجَزَاتِ وَالْمَمْلُوءِ بِالْجَوَاهِرِ وَالذُّرَرِ مُشْكَلَاتٍ لَا حَلَّ لَهَا
شَغَلَتْ أَذْهَانَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْعُلَمَاءِ فِي الْعَالَمِ. وَلَيْسَ هُنَاكَ مَسْأَلَةٌ بَعِيدَةٌ عَنْ صَفْحَةِ
ذَهَبِهِ اللَّأَلَاءَةِ. وَأَفْتَخِرُ بِأَنِّي رُبِيتُ فِي مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ، وَكَانَ أَجْدَادِي جَمِيعًا مِنْ
عُلَمَاءِ الدِّينِ.

عَلَى النَّاسِ أَنْ يَكُونُوا مُطِيعِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ دُونِ ادِّعَاءٍ وَمُرَءَاةٍ. وَفِي هَذَا
الزَّمَانِ الْمَضْطَرِبِّ، الَّذِي يُسْمَعُ فِيهِ صَدَى سَنَابِكِ خَيْلِ الْمَغُولِ فِي شَطْرِ مِنْ آسِيَةِ،
لَنْ يُوَفَّقَ مِنْهَجٌ وَمَسَلَكٌ غَيْرُ مِنْهَجٍ مُحِبِّ الْإِنْسَانَ وَالْأَخُوَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ.
لَا بَدَّ مِنَ الْعَمَلِ عَلَى تَخْفِيفِ ضُرُوبِ الْقَلْقِ الرُّوحِيِّ عِنْدَ النَّاسِ. وَالْعِرْفَانُ، هَذَا
الدَّوَاءُ الْعَظِيمُ لِلْأَلَامِ، يَقْدُمُ السَّكِينَةَ وَالرَّاحَةَ لِلنَّاسِ فِي طُوفَانَاتِ الْحَيَاةِ.
وَعَلَى أَهْلِ قُوْنِيَّةٍ أَنْ يَكُونُوا شَاكِرِينَ؛ لِأَنَّ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَسُلُوكِهِ
يَأْتِي إِلَى هُنَا بِنَهْزٍ مِنَ الْعَشْقِ وَالصَّفَاءِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْأَخُوَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ، عَلَى سَبِيلِ

الهدية التي يأتي بها المسافرين، وهذا النهرُ سيتَّصلُ في المستقبلِ ببحارِ أزواجِ المشتاقين، [١٤٦] وستَغمرُ أمواجهُ الدنيا كُلَّها. وقد تمثَّل الأساسُ الذي اقترحه شَمْسُ، عَلَيَّ وَعَلَى أَصْحَابِي، في العِشقِ والصِّفاءِ. وقد قالَ شَمْسُ مِرارًا: إِنَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا، وَأَنْ يَعْرِفَ اللَّهَ جِدًّا بِكُلِّيَّةِ وجودِهِ، اللَّهُ الَّذِي هُوَ نُورٌ مُطْلَقٌ، الَّذِي هُوَ غَايَةُ الْحَيَاةِ، وَالْقَانُونُ الْأَزَلِيُّ وَالْأَبَدِيُّ لِلْوُجُودِ.

مُخَاطَبُو مَوْلَانَا، مُمَثِّلُو المَخْفِلِ الرُّوحَانِيِّ فِي قُوْنِيَّةِ، الْأَشْخَاصِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعًا، اعترفوا وقالوا: نَحْنُ أَيْضًا نَعْرِفُ اللَّهَ، وَنُؤْمِنُ بِهِ، وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ لَمْ يَأْتِ بِهَا شَمْسُ، كَالْحِدَاةِ، مِنْ أَصْقَاعٍ بَعِيدَةٍ إِلَى قُوْنِيَّةٍ، عَلَى سَبِيلِ الْهَدْيَةِ. وَإِنَّ وَجُودَ أَمَاكِنِ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالكَثِيرَةِ فِي هَذِهِ الْحَاضِرَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّاسَ هُنَا أَنَاثُ يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى... انْبِرِ أَحَدَهُمْ فَأُضَافَ إِلَى كَلَامِهِ:

- نَحْنُ دَائِمًا نُحِسُّ بِاللَّهِ تَعَالَى قَرِيبًا مِنَّا، فِي قُلُوبِنَا. نَحْنُ، فِي مَدْرَسَةِ الْإِسْلَامِ، أَحَطْنَا بِطُرُقِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ. مَعْرِفَةُ اللَّهِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى بَرَامِجٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَمَرَامِسَ كَالدَّوْرَانِ وَالسَّمَاعِ. الْعِبَادَةُ سَهْلَةٌ وَمَيَسَّرَةٌ وَبَسِيطَةٌ. نَحْنُ نُؤْمِنُ بِعَيْنِ الْإِحْسَاسِ الَّذِي سَمَّيْتُمُوهُ أَنْتُمْ الْإِحْسَاسَ الْعِرْفَانِيَّ. وَهَذَا الْإِحْسَاسُ يَتَجَلَّى لَنَا أَيْضًا إِبَانًا أَدَاءَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ. نَحْنُ مُؤْمِنُونَ وَمَعْتَقِدُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَنَرَى أَنَّ الْقَلْبَ مَحَلُّ ظُهُورِ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ. هَذَا التَّعَبُّدُ الْعِشْقِيُّ يَتَخَلَّلُ دَرَاتِ وجودِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى، الْهَاتِمِينَ بِهِ. وَكُلُّ مُؤْمِنٍ يُحِسُّ فِي دَاخِلِهِ، فِي أَثْنَاءِ الْعِبَادَةِ، بِأَصْدَاءِ النَّدَاءِ الْأَبَدِيِّ. فَأَذِّنْ لَنَا بِالْقَوْلِ إِنَّ هَذَا النَّدَاءَ لَيْسَ خَاصًّا بِالسَّالِكِينَ وَالْعَارِفِينَ فَقَطْ.

ونقول: إن هذا المتشردَّ التَّبْرِيْزِيَّ لم يَقُلْ كلاماً جديداً^(١). وإنَّ مولانا هو الذي نسيَّ كُلَّ [١٤٧] التحصيلاتِ وكُلَّ المعارِفِ والعلومِ، وانجَذَبَ إليه بقوة، وسُجِرَ به. ومن المحتمل أنَّ شمساً، بما أُوتِيَ من قُدْرَةِ سِحْرِيَّةٍ، استبدَّ بِذهنِ مولانا الذي كان كثرًا قِيَمًا. ولهذا السَّبَبِ، كان مولانا يُحسُّ بأنَّ كُلَّ كلامٍ، وكُلَّ أمرٍ، نَبَسَتْ به شَفَتَا شَمْسٍ فَتَحَ نافذةً جديدةً مِنَ الحقيقةِ أَمَامَهُ^(٢). وكُلُّ مؤمنٍ معتقِدٍ يطيرُ نحوَ الوجودِ المُطْلَقِ

١- كان شمسُ التَّبْرِيْزِيَّ يَقُولُ بَيْنَ التَّابِثِ فِي قُوْنِيَّةِ كَلَامًا يُضْرِمُ نَارَ الاختلافِ والتَّفَاق. ومن جُمْلَةِ مَا قَالَهُ: «هؤلاءِ التَّابِثِ الحَقُّ فِي أَنْ لَا يَأْلَفُوا كَلَامِي، فَكَلَامِي يَأْتِي عَلَى وَجْهِ الكِبْرِيَاءِ، وَقَدْ جَاءَ كَلَامُ الْأَوْلِيَاءِ الْآخَرِينَ عَلَى وَجْهِ الضَّرَاعَةِ وَالتَّنْذَلِ، وَلَاشَكَّ أَنَّ الْمَعْنَى نَفْسَهُ يَظْهَرُ؛ يَسْمَعُونَ الْكَلَامَ الَّذِي يَأْتِي لَا عَلَى سَبِيلِ الطَّلَبِ وَالْحَاجَةِ، بَلْ يَسْمَعُونَهُ مِنْ عَلَيٍّ، كَأَنَّكَ تَرَى قُبْعَةً تَقَعُ». وَيَقُولُ الْأُسْتَاذُ فُرُوزَانْفَرُ: إِنَّ تَعَالِيَّ الْكَلَامِ وَتَحَرُّزَ شَمْسٍ فِي سُلُوكِهِ، اللَّذِينَ يَعْبُرُ عَنْهَا دَائِمًا فِي «مَقَالَاتٍ» شَمْسٍ صَرَاحَةً وَمِنْ دُونِ مُوَارِبَةٍ، صَارَا سَبَبًا لِاخْتِلَافِ اعْتِقَادِ أَهْلِ قُوْنِيَّةٍ فِي شَأْنِ شَمْسٍ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ هَؤُلَاءِ عَدَدُوا ذَلِكَ الْعَمَلِ وَذَلِكَ الْقَوْلَ مَخَالِفًا لِلْعَقْلِ وَالْمَنْطِقِ، وَكَانَ يَرَوْنَ أَنَّ قَائِلَهُ مَجْنُونٌ، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ شَمْسًا يَرَى نَفْسَهُ أَسْتَى وَأَرْفَعَ مِنَ السَّابِقِينَ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ مَوْلَانَا، مِنْ أَجْلِ مَخَالَفَةِ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ قُوْنِيَّةٍ، يَعُدُّ شَمْسًا لُبَّ لُبَابِ الدِّينِ وَسِرِّ اللَّهِ، وَكَانَ يُنْشِدُ فِي الْمَجَالِسِ صَرَاحَةً:

هو شَيْخِي وَمُرِيدِي، هُوَ دَائِي وَدَوَائِي قُلْتُ جَهَارًا: هُوَ شَمْسِي وَمُعْبُودِي

٢- كَانُوا يَعْتَرِضُونَ عَلَى مَوْلَانَا: لِمَاذَا يَسْتَسْلِمُ أَمَامَ شَخْصٍ بِأَمْرِهِ بَأَن لَا يَقْرَأَ كُتُبَ السَّالَفِينَ. وَكَانَ جَوَابُ مَوْلَانَا: إِنِّي كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ لَا تَغْدُوَ فِكْرِي مَقِيْدَةً بِكَلَامِ هَذَا وَهَذَا. وَيَعْتَقِدُ شَمْسٌ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَكُونَ هُوَ نَفْسُهُ مَنِيعًا لِلْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَأَنْ لَا يَحْرَمَ نَفْسَهُ مِنْ شُهَدَاءِ الْحَقِّ عَلَى قَدْرِ حَظِّهِ مِنْ ذَلِكَ، ابْتِغَاءً أَنْ يَتَّصِلَ بِبَحْرِ الْحَقِيقَةِ الَّذِي لَا ضِفَافَ لَهُ:

فَاجْعَلْ [إِلَهِي] قُظْرَةَ الْعِلْمِ الَّتِي مَنَحْتَنِي إِيَّاهَا مِنْ قَبْلِ تَقْصُلِ بِيحَارِكَ
إِنَّ فِي رُوحِي قُظْرَةً مِنَ الْعِلْمِ فَخَلَّصْهَا مِنَ الْهَوَى وَمِنْ ثَرَابِ الْجَسَدِ
وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُخَسِّفَهَا هَذَا التَّرَابُ وَقَبْلَ أَنْ تُنْشِفَهَا هَذِهِ الرِّيحُ

(المثنوي: ١٨٩٢/١-٩٤)

وإنَّ لَشَمْسِ الْعِشْقِ قَتْنًا وَافْتِرَاسًا فِي عَالَمِ الْوُجُودِ، بَرَزَهُ جَلَالُ الدِّينِ الْبُلْخِي إِذْ قَالَ فِي دِيْوَانِ شَمْسٍ:
يَقْتُلِعُ مَخْلُطَ الْعِشْقِ مِنَ الْأَسَاسِ كُلَّ بَيْتٍ وَقَعَتْ فِيهِ مِنَ الْعِشْقِ شَمْسٌ
وَعِنْدَمَا رَأَى قَلْبِي يَحْرُ الْعِشْقِ فُجَاءَةً وَتَبَّ مَنِي إِلَيْهِ وَقَالَ: الْحَقُّ بِي

أَوْ:

بِمُسَاعَدَةِ رُوحِهِ خُمُسَ مَرَّاتٍ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يَسْجُدُ لَهُ وَيَسْبِّحُ بِحَمْدِهِ.
وَمِنْ أَجْلِ الْإِتِّصَالِ بِالنُّورِ الْخَالِدِ وَالْأَبَدِيِّ، أَوْ نُورِ الْأَنْوَارِ، نَعْلَمُ نَحْنُ مَا الْأَصُولُ
الَّتِي عَلَيْنَا مُرَاعَاتُهَا. أَنْتُمْ وَشَمْسٌ وَجَمَاعَةٌ مِنْ مُحِبِّيكُمْ اخْتَرْتُمُ السَّمَاعَ وَالذَّوْرَانَ، أَمَّا
نَحْنُ فَقَدْ أَتَرْنَا الْعِبَادَةَ وَالطَّاعَةَ. وَاعْلَمُوا، فِي الْمُسْتَقْبَلِ، أَيْضًا أَنَّنَا سَنَنْزُهُ وَجُودَنَا مِنْ
الْأَعْمَالِ وَالْأَفْعَالِ الْإِضَافِيَّةِ الَّتِي هِيَ هَدِيَّةُ شَمْسٍ، وَنَتَبَرَّأُ مِنْهَا.

وَنَقُولُ أَيْضًا: إِنَّ أَفْرَادَ الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ هُمْ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، أَعْضَاءُ وَأَجْزَاءُ فِي
حَيَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَنَعُدُّ أَنْفُسَنَا جَمِيعًا شُعَاعًا مِنْ ذَاتِهِ [شُبْحَانَهُ]. وَمِنْ نَاحِيَةِ الْمَعْنَى وَالذِّينِ،
لَيْسَتْ قُوَّةٌ فَقِيرَةٌ فَيَسْتَطِيعُ سَاحِرٌ تَبْرِيزِيٌّ، اسْمُهُ شَمْسٌ، أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهَا بِكَلَامٍ جَدِيدٍ،
وَيُرَوِّجَ لِعِبَادَةِ الشَّمْسِ.

أَوْضَحْتُ فَهْمَهُ ضَاحِجَةً مِنْ مَوْلَانَا أَلَمَهُ الْحَقِيقِيِّ مِنَ الْمُعَانِدِينَ وَالْحَاسِدِينَ، إِذْ
ذَكَرَ ادِّعَاءَ مَنْ دُونِ أُسَاسٍ وَدَلِيلٍ مَنْطِقِيٍّ، فِي شَيْءٍ مِنَ الضَّحِكِ وَالسَّخَرِيَّةِ. فَقَدْ كَانَ
مَوْلَانَا يَرَى أَنَّ جَمَاعَةً فَظَّةً مَتَعَصِّبَةً مُتَشَدِّدَةً تَعُدُّهُ [١٤٨] مَجْذُوبًا وَمَسْحُورًا. كُلُّ مَا
يَفْكُرُونَ فِيهِ يَقُولُونَهُ دُونَمَا نَعْمُوقُ وَتَحَقُّقُ. وَقَدْ بَلَغَ مِنْ جَسَارَتِهِمْ وَجُرْأَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ
أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَارِفُونَ وَمُطَّلِعُونَ عَلَى الْأَسْرَارِ، فَغَضِبَ مَوْلَانَا وَتَسَاءَلَ بِحِدَّةٍ:

- مَنْ يَتَجَرَّأُ، وَيَجِيزُ لِنَفْسِهِ، فِي حُضُورِي أَنْ يَذْكُرَ شَمْسًا، مَفْخَرِ تَبْرِيزٍ، بِأَقْبَحِ كَلَامٍ؟
فَإِذَا كُنْتُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى هُنَا مِنْ أَجْلِ كَشْفِ الْحَقِيقَةِ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَسْعَوْا إِلَى أَنْ تَحْدُدُوا
جَيِّدًا مَوْضِعَكُمْ فِي الْكَلَامِ. وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِكُمْ فَإِنَّكُمْ ضَيُوفِي، وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ
شَمْسًا مُقْتَدَايَ وَمُرَادِي.

وَإِذَا كُنْتُمْ مَاجُورِينَ لِأَجْلِ مَزِيدٍ مِنَ الْمُجَادَلَةِ وَالْمِغَالَطَةِ وَالْإِتِّهَامِ مُقَابِلَ أَمْوَالٍ

طائفة، فعليكم أن تعلموا أنني لا أسمح بأن يُذكر بسوء عشاق الحقيقة، الذين يتجلى نبوغهم الصوفي على نحو رائع في أقوالهم وأفعالهم. فهؤلاء أنتم، وهذه أكياس المال التي يضعها السذج تحت تصرفكم. وليس لي معكم نقاش وجدال، فالكلام على شمس ليس عملاً لكل عامي، قليل العلم، طائش، عديم التجربة، مأجور:

إذا تقدمت في طريق العاشقين بالفقر والصدق

جعلك شمس التبريزي نجياً للرجال

أنتم وأجباؤكم رأيتم شمساً في الظلمة. وأنا أقول: قطع الله لسان من يعدّ شمساً ساحراً وعابداً للشمس.

كان شمس يقول: على الإنسان أن يسعى لجعل نار العشق والمحبة، التي أودعها الحق في صدور الناس، أكثر اتقاداً واضطراماً. كان شمس إنساناً جامعاً، إنساناً عارفاً، كان رجلاً كاملاً. كان يتحدث عن الماضي والمستقبل، وأبرز أفقاً عظيماً في الإشراق، وكان عارفاً الأشياء كلها:

أما الكاملون فيسمعون اسمك بتردد على البعد

فيشروعون في الغوص إلى أعماق كيائك

بل إنهم قبل ميلادك بسنوات

ربما يكونون قد رأوك في أخوال كثيرة

يعرف كل منهم حالك تماماً شجرة شجرة

لأنهم ممثلون بأسرار الهويّة^(١)

صمت مولانا، وطفرت قطرات عرق فوق وجنتيه، وكانت يدها وشفته ترتجف،

وتَغْيَرُ لَوْنُ وَجْهِهِ، عَلَى نَحْوِ جَعَلِ مُثْلِي الْمَخْفِلِ الرُّوحَانِي فِي قُوْنِيَّةٍ يَخْجَلُونَ مِنْ أَنْهُمْ لَمْ يُرَاعُوا الْأَدَبَ فِي الْمُحَاجَّةِ وَالْجِدَالِ.

أَحَدُ الثَّلَاثَةِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ جِهَةِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ مُتَقَدِّمًا عَلَى الْآخَرَيْنِ، وَابْتِغَاءَ تَهْدِئَةِ مَوْلَانَا رُوحِيًّا وَجِسْمِيًّا، قَالَ:

- [١٤٩] إِنَّ إِدْرَاكَ الْحَقَائِقِ الْمَرَّةَ الَّتِي يَتَفَوَّهُ بِهَا مَوْلَانَا صَغْبٌ قَلِيلًا عَلَى صَاحِبِيٍّ، فَلَعَلَّهُمَا لَا يَعْلَمَانِ مَاذَا يَقُولُ مَوْلَانَا، وَعَمَّنْ يَتَحَدَّثُ، وَمَاذَا يُرِيدُ. وَإِنَّ أَحْبَاءَنَا فِي الدِّينِ فِي حَالٍ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، مِنْ كَوْنِ أَسْتَاذِ عَالِمٍ لَا نَظِيرَ لَهُ ابْتَعَدَ عَنْ جَمْعِهِمْ، وَتَنَحَّى عَنْ جُمْهُورِهِمْ، وَكَوْنَ صَفًّا أَوْ جِهَةً مُضَادَّةً لَهُمْ. ذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَ قُوْنِيَّةٍ يَعْدُونَ مَوْلَانَا أَعْظَمَ سَنَدٍ مَعْنَوِيٍّ لَهُمْ. وَإِنَّ اقْتِدَادَ هَذَا السَّنَدِ الْعَظِيمِ اسْتَلْزَمَ إِيجَادَ فَرَاغٍ فِي أُسُسِ الْبِنَاءِ الْاجْتِمَاعِيِّ ههنا. فَكَيْفَ يَتَحَمَّلُ النَّاسُ هَذَا الْفَرَاغَ الْمَعْنَوِيَّ الرُّوحِيَّ؟ إِنَّ رُوحَ مَوْلَانَا الْمَتَمَرِّدَ الْمُتَقَدِّدَ هُوَ الَّذِي يَأْذُنُ لَنَا، وَيُعْطِينَا الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ نَتَكَلَّمَ؛ وَإِلَّا فَتَخُنُ نِيْمَالٌ، وَلَيْسَ لَدَيْنَا الْقُدْرَةُ عَلَى التَّحَدُّثِ عَنْ أَدَبِ مَوْلَانَا وَفَضْلِهِ وَعِلْمِهِ. وَقَدْ صِرْنَا حَاضِرِينَ وَذَاهِلِينَ فِي مَفْتَرَقِ طُرُقِ الْحَيَاةِ. وَقَدْ شَغَلْنَا جَمِيعًا بِقُوَّةِ هَذَا السَّوْأْلِ: أَيُّ شَيْءٍ ذَلِكَ الَّذِي فَصَّلَ مَوْلَانَا عَنْ جُمْلَةِ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَاضِرَةِ؟ أَيُّ فَرْقٍ فَاحِشٍ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ الَّتِي تَنْشُدُونَهَا وَتَطْلُبُونَهَا وَالْحَقِيقَةَ الَّتِي نَبْتَغِي الْوُصُولَ إِلَيْهَا؟!

هَلْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ تَقَعُ فِي دَائِرَةِ الْعِلْمِ، أَوْ أَنَّهَا فَوْقَ الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ؟ هَلْ هِيَ خَارِجَةٌ عَنْ عَالَمِنَا الْمَحْسُوسِ؟ - مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، هَلْ يُمْكِنُ الْحَصُولُ عَلَى مُسَاعَدَةٍ مِنَ الْاسْتِدْلَالِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ؟ هَلْ تَأْذَنُونَ لَنَا أَنْ نَرَى نَحْنُ أَيْضًا الدُّنْيَا بِالْعَيْنِ نَفْسِهَا الَّتِي تُشَاهِدُونَهَا بِهَا؟ هَلْ صَحِيحٌ أَنْكُمْ تَرِيدُونَ بِمُسَاعَدَةِ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ

أَنْ تَغَيِّرُوا عَالَمَ اعْتِقَادَاتِنَا وَفَاقًا لِعَقِيدَاتِكُمْ؟

لِمَاذَا يَنْبَغِي أَنْ يَظْهَرَ بَيْنَنَا، نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ، اخْتِلَافٌ وَنِفَاقٌ؟ نَحْنُ نُؤْمِنُ بِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ إِيْمَانًا رَاسِخًا. أَعْتَقَدُ أَنَّ مَوْلَانَا، الْعَمِيقَ التَّفَكِيرَ وَالْمَتَّقِيَّ وَالْعَادِلَ، يُقَرُّ بِإِيْمَانِنَا الرَّاسِخِ. لَكِنَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْتَرِفَ بِأَنَّنا نَجْهَلُ الْعِشْقَ، فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى الظَّرِيفِ وَالذَّقِيقِ وَالْمُتَعَالِي الَّذِي تَقُولُونَ بِهِ. نَحْنُ لَا نُؤْمِنُ بِالْعِشْقِ، الَّذِي تَعُدُّونَهُ أَنْتُمْ مُعْجَزًا إِلَى دَرَجَةٍ أَنْ نَسْمَعَ أَنَّهُ يَقَالُ إِنَّكُمْ سَتَجْتَازُونَ الْمَجَرَّاتِ بِمَدَدِ هَذَا الطَّائِرِ الْقَوِيِّ الْجَنَاحِ.

نَحْنُ نَدْرُسُ وَنَحَقِّقُ الْمُبَاحَثَ الْعِلْمِيَّةَ وَالذَّهْنِيَّةَ وَالْعَاطِفِيَّةَ بِمُسَاعَدَةِ الْعَقْلِ، وَنُحِبُّ الْإِنْسَانِيَّةَ وَالْأُمُورَ الَّتِي تَدْفَعُ الْمَجْتَمَعَ نَحْوَ الصَّفَاءِ وَالسَّعَادَةِ. نَتَمَسَّكُ بِالْمَحَبَّةِ، وَنُثْنِي عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِكُلِّيَّةٍ وَجُودِنَا، وَنَتَصَوَّرُ أَنَّهُ بِمُسَاعَدَةِ هَذِهِ الْفَضَائِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقْتَلَعَ الْمُعْضِلَاتِ الْجِسْمِيَّةَ وَالرُّوحِيَّةَ [١٥٠] مِنْ أَسَاسِهَا.

هَذَا الْبَيَانُ الْمُحِبُّ وَالْمُنَطْقِيُّ هَذَا رُوعَ مَوْلَانَا قَلِيلًا، فَتَبَسَّمَ، وَعَادَ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى الذُّوقِ وَالشُّوقِ وَالْحَدِيثِ. فَمَا كَانَ مِنْ مِمَثْلِ الْمَخْفَلِ الرُّوحَانِي فِي قُوْنِيَّةٍ، الَّذِي كَانَ مُطْلَعًا عَلَى الْوَضْعِ الرُّوحِيِّ لِمَوْلَانَا، إِلَّا أَنْ يُنْشِدَ بَيْتًا مِنْ أَشْعَارِ مَوْلَانَا، بِقَصْدِ التَّخْفِيفِ عَلَى هَذَا الْأَسْتَاذِ وَالْعَارِفِ الْكَبِيرِ، عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

نَحْنُ مِثْلُ النَّايِ، وَالْأَنْعَامِ الَّتِي فِيْنَا مِنْكَ

نَحْنُ كَالْجَبَلِ، وَالصَّدى الَّذِي فِيْنَا مِنْكَ^(١)

اِسْتَعَادَ مَوْلَانَا هِدْوَةً، وَغَاصَ فِي نَفْسِهِ قَلِيلًا، وَكَأَنَّ تَحْتَ الظَّاهِرِ الْهَادِي عَالَمًا مَائِجًا، مَمْلُوءًا بِالْحُمَى وَالْأَلَمِ وَالْاضْطِرَابِ، صَحْبَةً بَحْرِ مُتَلَاطِمِ الْأَمْوَاجِ، مُفْعَمٍ

بالهيجان، طافح بالثورة والوجد. وراء هذا الروح الذي يبدو هادئاً موجّ وتلاطم، تُخبرُ
عن عشقٍ ووجدٍ وهيجان^(١).

١- قال مولانا في ديوان شمس:

قَلْبُ كُلِّ إِنْسَانٍ لَا يَنْطَوِي مِنْ هَذَا الْعَشَقِ عَلَى أَثَرِ
مَا أَيْبَسَ الشَّجَرَةَ الَّتِي لَمْ تَنْمُ فِي ذَلِكَ الْبُسْتَانِ
وَفِي بَرْعَةِ الْعُشَّاقِ، يَكُونُ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ
وَفِي الصُّورَةِ، كُلُّ مَنْ رَأَيْتَهُ بِهَذَا اللَّوْنِ
وَكُلُّ قَضْبَةٍ رَأَيْتَ عَلَى وَسْطِهَا حِزَامَ الْعَشَقِ

اجْذِبْ إِلَيْهِ السَّحَابَ، لِأَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا عَدْوًا لِلْقَمَرِ
وَمَا أَذَلَّ الْعَزِيزَ الَّذِي لَا يَكُونُ فِي ظِلِّ هَذَا الشَّجَرِ
كُلُّ رُوحٍ لَا يَكُونُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَسْوَأَ حَالًا، مِنْ هَذَا الْآلَمِ
اعْلَمْ تَحْقِيقًا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جَنْسِ الْبَشَرِ
حُلٌّ حِرَامُهَا، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا عِذْلُ سُكَّرِ
(ديوان شمس قنبريز: الغزلية ٣٣٣).

- العِشْقُ كُلُّهُ احْتِرَاقٌ وَإِذَا بَهُ، فَحَسْبُ
فَنَاءٌ وَعَجْزٌ وَحَاجَةٌ، فَحَسْبُ
- وَكُلُّ صَدْرٍ يَتَغَلَّغُلُ فِيهِ الْعِشْقُ
يَسِيلُ دَمَ الْقَلْبِ [عِنْدَ صَاحِبِهِ] مِنَ الْعَيْنِ
- وَأَيْنَ الْعِشْقُ مِنْ سُوءِ السَّيْرِ
أَيْنَ الْعِشْقُ مِنَ الرَّاحَةِ وَطَيِّبِ الْخَاطِرِ؟!

فِرَاسَةُ مُوْلَانَا

يُمْكِنُ تَسْمِيَةُ هَدْوِ مُوْلَانَا فِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ: الْهَدْوُ الَّذِي يَسْبِقُ الْعَاصِفَةَ.
وَيَجِبُ قَوْلُ أَهَمِّ الْكَلَامِ الْمُرْتَبِطِ اِرْتِبَاطًا مَبَاشِرًا بِالْعَظَمَةِ الرُّوحِيَّةِ لِمُوْلَانَا، يَجِبُ بَيَانُ
أَسْرَارِ زَوَايَا الرُّوحِ، يَجِبُ عَرْضُ الْأَسْئَلَةِ بِذِكَاةٍ وَتَعَقُّلٍ مِنْ خِلَالِ إِدْرَاكِ ذِكْوِي وَإِشْرَاقِي،
اِبْتِغَاءً مَزِيدٍ إِيضَاحٍ لِعَظَمَةِ بَحْرِ فِكْرِ مُوْلَانَا. وَمَهْمَا يَكُنْ فَإِنَّ تَحْدِيدَ مَوْضِعِ مُوْلَانَا فِي
هَذِهِ الْجَلْسَةِ الْعَاصِفَةِ صَعْبٌ عَلَى الْمُؤَلِّفِ. أَمَّا عَوْدَةُ مُوْلَانَا بِمَدَدِ اللَّطْفِ وَالْمَحَبَّةِ
فَكَانَتْ بَدَايَةَ لِمُذَاكَرَاتٍ أُخْرَى. وَالْمَسْأَلَةُ هِيَ: مَا نَوْعُ الشَّخْصِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ
النَّاسُ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ لَا بَدَّ مِنْ فَهْمِ عَالَمِ الْوُجُودِ؟ إِنَّ حُضُورَ الْإِنْسَانِ فِي سَاحَةِ
الْحَيَاةِ يَغْرُضُ مَسَائِلَ وَقَضَايَا، وَيُوجِدُ غُصَصًا وَأَلَامًا؛ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَحُلُّ هَذِهِ
الْمُشْكِلَاتِ؟ كَيْفَ يَجِبُ مَعْرِفَةُ الْبَدَايَةِ؟ وَهَهْنَا يُضْطَرُّ مُوْلَانَا إِلَى الْحَدِيثِ. وَلِهَذَا
السَّبَبُ تَعَلَّقَتْ نَظَرَاتُهُ بِنَقْطَةٍ بَعِيدَةٍ؛ وَبِكَلِمَاتٍ هَادِئَةٍ تُسَمَّعُ بِصُعُوبَةٍ قَالُ:

- أَنْتُمْ صَيِّفِي، وَيَنْبَغِي أَنْ يُوَجَّهَ سَعْيُكُمْ إِلَى إِدْرَاكِ الْحَقَائِقِ، وَفِي الْمُبَاحَثَةِ
وَالْمُحَاوَرَةِ لَا تُضَيِّعُوا الْمَتَانَةَ وَالرُّسُوحَ وَالْوَقَارَ. أَنْتُمْ تَتَحَدَّثُونَ عَنْ ظِلَالٍ بَاهِتَةٍ
وَمُضْطَرِبَةٍ لِلْمَنْطِقِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ. وَهَذِهِ عِنْدَنَا، نَحْنُ الَّذِينَ نَسْبَحُ فِي بَحْرِ
الْعِشْقِ الْوَاسِعِ وَالْجَمِيلِ، اسْمُ لَيْسَ لَهُ مَفْهُومٌ عِنْدَ عُشَّاقِ الْحَقِيقَةِ. إِنَّ التَّصَوُّرَ الَّذِي

نَمْتَلِكُهُ نَحْنُ [١٥٢]، مُجِيبِي الْعِرْفَانِ الْبَاحِثِينَ بِعِشْقِي، عَنِ الْحَقِيقَةِ وَالْحَيَاةِ هُوَ أَصَحُّ تَصَوُّرٍ يُمْكِنُ أَنْ يَرْتَسِمَ فِي ذَهْنِ إِنْسَانٍ. فَإِذَا مَا حَدَّثَ الْيَوْمَ أَنَّ قَبْلْتُمْ أَنْتُمْ وَأَحِبَّاءُكُمْ ذَلِكَ، فَلَا شَكَّ أَنْكُمْ بَعْدَ وَفَاةِ شَمْسٍ، بَعْدَ انْقِطَاعِ نَارِ التَّعَصُّبِ، سَتُدْرِكُونَ بِعَظَمَتِهِ الرُّوحِيَّةِ آيَةً قُدْرَةٍ عَظِيمَةٍ هَذِهِ الَّتِي غَمَرَتْ مَوْلَانَا فِي غَمَرَاتِ الْعِشْقِ؟ أَنْتُمْ مَشْغُولُونَ بِكَشْفِ أَسْرَارِ الْكَائِنَاتِ وَرُمُوزِهَا بِطَرَائِقِ الْمُنْجِمِينَ. أَمَّا نَحْنُ فَنَسِيرُ فِي الْعَالَمِ الَّذِي تُرِيدُونَ أَنْتُمْ كَشْفَ أَسْرَارِهِ. وَأَحْسَبُ أَنَّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ سَيَقْدِفُنَا مُجَبَّوْكُمْ بِالْحِجَارَةِ، وَيَصِفُونَنَا بِأَنَّا لَا نَعْرِفُ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ. أَمَّا أَتْبَاعُ شَمْسٍ فَلَنْ يَهْتَمُّوا بِهَذِهِ التُّهْمِ وَالْإِزْعَاجَاتِ، بِفَضْلِ الْعَظَمَةِ وَالْقِيَمَةِ اللَّتَيْنِ تَنْطَوِي عَلَيْهِمَا عَقَائِدُهُمْ وَفِكْرُهُمْ. نَحْنُ نَقْرَأُ مِنْ جِدَالِ الْمُدَّعِينَ الْمُتَلَفِّقِينَ، وَنَعُدُّ الْعُجْبَ وَالتَّعَصُّبَ تَمَثِيلًا مُضْحِكًا لِيَلَاهِيَةِ الْإِنْسَانِ.

أَنْتُمْ تَسْأَلُونَ عَنِ الْعِشْقِ الْمُعْجِزِ.. وَبِهَذَا السُّؤَالِ، ذَكَرْتُكُمْ بِالرَّجُلِ الْعَظِيمِ لِيُوَادِي الْعِرْفَانَ، مُصَفِّي قُلُوبِ الْعَارِفِينَ، مُلْكُ دَادِ شَمْسِ الدِّينِ التَّبْرِيزِيِّ. وَهُوَ مُنْشِدٌ وَمُطَرِّبٌ أَكْبَرُ مِنْ أَبِي يَزِيدَ وَالشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ. شَمْسٌ هُوَ شَمْسِي، وَهُوَ نَارِي، وَهُوَ جَنَّتِي. وَمُؤَنِّسِي هَذَا، دَائِي وَدَوَائِي، وَكَعْبَتِي وَمَعْبَدُ رُوحِي، قَالَ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ إِنَّ الطَّلَبَ وَالْبَحْثَ فِي شَأْنِ الْمَسَائِلِ الرُّوحِيَّةِ وَمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ هُوَ تَوْفِيقٌ إِلَهِي، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُعْطِي هَذِهِ النِّعْمَةَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، وَعِنْدَمَا لَا يَشَاءُ اللَّهُ ذَلِكَ لَا يَظْهَرُ فِي بَاطِنِ الْإِنْسَانِ جَيْشَانُ. وَالطَّلَبُ هُوَ الْبِدَايَةُ لِإِدْرَاكِ غَايَاتِ الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَالْحَصُولُ عَلَى مِفْتَاحِ ذَلِكَ. وَكُلُّ مَنْ يَكُونُ طَالِبًا لِفَهْمِ الْأَسْرَارِ وَإِدْرَاكِهَا، سَيُنَالُ يَقِينًا مَطْلُوبَهُ وَمُرَادَهُ.

وَقَدْ كُنْتُ طَالِبًا لِمُرْشِدٍ يَخْلُصُنِي مِنْ كُلِّ هَذِهِ التَّسَاؤُلَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ. وَتَعَلَّقَتْ

المَشِيئَةُ الإلهِيَّةُ بِأَنْ أُنْجَوْ مِنْ الظُّلُمَاتِ. وَلَسْتُ أُنْسَى وَخْدَتِي وَانْفِرَادِي. وَلَا أُعْنِي وَخْدَةٌ وَغُرْبَةٌ مِنْ نَاحِيَةِ الصَّدِيقِ وَالصَّاحِبِ. بَلْ هِيَ وَخْدَةٌ مَبْعُثُهَا أَنِّي لَا أُجِدُ نَجِيًّا مُخْلِصًا يَجِيبُ عَنْ تَسَاؤِلَاتِي. أُنْشُدُ إِنْسَانًا مِنْ جِنْسِي أَجْعَلُهُ قِنْلَتِي. كُنْتُ أَطْلُبُ شَخْصًا يُهْدِي طُوفَانِي الدَّاخِلِي. كُنْتُ أُنْشُدُ مَفْتَاخًا يَفْتَحُ أَقْفَالَ الْقُرُونِ وَالْأَعْصَارِ فِي عَالَمِ الرُّوحِ. تِلْكَ الْأَقْفَالُ الَّتِي لَا مِفْتَاحَ لَهَا فِي دُنْيَا الْكُتُبِ. كَانَ طُوفَانٌ مَلْتَهَبٌ يَعْتَصِرُ وَجُودِي. كَانَ رُوحِي غَيْرَ عَابِي بِكُلِّ الْمَحَاسِنِ وَاللَّذَائِدِ وَالْمُتَمَعِّعِ وَالْمَبَاهِجِ. كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ عَلَى نَحْوِ لَا أُجِدُهُمَا فِيهِ تَحْمِيلَانِ لِي [١٥٣] مَفْهُومًا، حَتَّى إِنِّي سَمِعْتُ نَفْسِي، إِلَى أَنْ لَقِيتُ شَمْسًا^(١) الْمُبْدِعَ، شَمْسًا الْخَلَاقَ، شَمْسًا الْمَتَّقِدَ. وَرَبَّمَا كُنْتُ الشَّخْصَ الْوَحِيدَ الَّذِي أَدْرَكَ شَمْسًا وَعَرَفَهُ كَمَا يَنْبَغِي. إِنَّ شَمْسًا رَجُلٌ قَدْ. وَعِنْدَمَا يَتَحَدَّثُ، يَنْتَشِرُ فِي الْفَضَاءِ لَخْنٌ رُوحَانِي. وَفِي كَبِيرِ اخْتِبَارِهِ صِرْتُ مَصْقُولًا، وَوُلِدْتُ مِنْ جَدِيدٍ. شَمْسٌ طَائِرٌ مَرْكَبُهُ بَحْرُ الْمَعْرِفَةِ.

١- قَالَ مَوْلَانَا فِي التَّيْوَانِ الْكَبِيرِ، فِي شَأْنِ عَوْدَةِ شَمْسٍ إِلَى قُوْنِيَّةِ:

جاءَ الرُّوحُ مِنْ سَفَرٍ طَوِيلٍ	عَادَ إِلَى ثَرَابٍ بِإِيكٍ
لِيَكِي تَعْلُو صَبِيحَةُ الْعَاشِقِينَ	جَاءَ الَّذِي هُوَ قِبْلَةُ لِكُلِّ صَلَاةٍ
وَيَا صَنَاجِدَ الطَّرَبِ الَّتِي انْعَدَمَتْ أَلْحَانُهَا	ارْقُصِي فَقَدْ جَاءَ الْآنَ مُسْتَعِيدًا
إِنَّ نُورَ وَجْهِ شَمْسِ الْحَقِّ التَّهْرِيزِي	أَحَاطَ بِالعَالَمِ وَجَاءَ بِالسَّرِّ
فَتِلْكَ شُعْلَةُ نُورٍ تَتَبَخَّرُ	وَتِلْكَ فِتْنَةُ حُورٍ تَتَدَلَّلُ
وَقَدْ ارْتَدَى اللَّيْلُ لِبَاسًا أَيْضَ	لِأَنَّ ذَلِكَ الْقَمَرَ يَتَبَخَّرُ مِنْ بَعِيدٍ
فَيُبْشِرِي لِسْكَارَى اللَّيْلِ	أَنَّ السَّاقِيَّ يَتَبَخَّرُ فِي السَّحَرِ
فَانْظُرِي إِلَى تِلْكَ الْفِتْنَةِ الَّتِي مِنْ جَدِيدٍ	تَتَبَخَّرُ بِمِثْلِ سَرٍّ وَإِثَارَةٍ
رُوحِي فِدَاءٌ لِسُلَيْمَانَ	الَّذِي يَتَبَخَّرُ بِجَانِبِ التَّمَلَةِ
فِي قَالِبِ الْخَلْقِ، هَا هُوَ شَمْسٌ تَهْرِيزُ	يَتَبَخَّرُ بِمِثْلِ نَغْمَةِ الصُّورِ

(ديوان شمس تهریز، القزلیتین: ٧١٠ و ٧١١)

كُنْتُ فِي أَحْوَالي كُلِّهَا، فِي مَجْلِسِ الدَّرْسِ فِي أَثْنَاءِ الْعِبَادَةِ وَفِي حَيَاتِي كُلِّهَا، فِي بَحْثٍ لَا يَتَوَقَّفُ: لِمَاذَا جِئْتُ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا؟ - وَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ؟ - مَا مُسْتَقْبَلِي وَمُسْتَقْبَلُ الْبَشَرِيَّةِ^(١)؟

١- ذَكَرَ الْأَفْلَاكِيُّ فِي كِتَابِهِ «مَنَاقِبَ الْعَارِفِينَ» أَنَّهُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي شَرَّفَ شَمْسُ الدِّينِ الْقَبْرِيْزِيِّ، وَقَعَتْ فِي قُوْنِيَّةٍ ضَجَّةٌ عَظِيمَةٌ:

- عَجَبًا، هَلْ شَمْسُ الدِّينِ وَلِيٌّ أَوْ لَا؟ وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ يَقُولُ شَيْئًا، وَكَانُوا يَرْجُونَ مُحَادَثَتَهُ لِكَيْ يَفْهَمُوا حَقِيقَتَهُ. أَمَّا هُوَ فَكَانَ دَائِمًا يَعْتَرِلُ الْمَجَامِعَ وَالْمَحَافِلَ وَالنَّاسَ. وَعِنْدَمَا يَكُونُ مُوجُودًا فِي الْمَجَامِعِ، كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، قَالَ مَوْلَانَا شَمْسُ: إِنَّ مَنْ يُذْخِلُ فِي كَلَامِي كَلَامًا حَالَهُ كَحَالِ شَرَفِ اللَّهَارِيِّ، نَهَائِيَتُهُ الْقَوُصُ فِي مَاءٍ أَسْوَدَ. فَقُلْتُ لَهُ: أَيْنَ أَنْتَ مِنْ حَدِيثِ الْأَوْلِيَاءِ؟ - وَمَاذَا يَهْمُنِي: مَنْ هُوَ وَلِيٌّ، وَأَهْوَى وَلِيٌّ أَمْ غَيْرُ وَلِيٍّ. وَمَاذَا يَفِيضُهُ أَنْ أَكُونَ وَلِيًّا أَوْ لَا أَكُونَ

وَيُحَكِّي أَنَّ مَوْلَانَا شَمْسُ الدِّينِ الْقَبْرِيْزِيِّ كَلَّمَ اسْتِغْفَرَهُ تَوَالِي التَّجَلِّيَّاتِ وَلَمْ تَتَحَمَّلْ قُوَاهُ الْإِنْسَانِيَّةَ هَذِهِ الْمَجَاهِدَاتِ، شَقَلَتْ نَفْسَهُ بَعَلًى، لِكَيْ يَتَخَلَّصَ مِنْ تِلْكَ الْحَالِ، وَذَهَبَ إِلَى أَشْخَاصٍ غَيْرِ مَعْرُوفِينَ، لِكَيْ يَعْمَلَ عَمَلًا فِي اللَّيْلِ، وَعِنْدَمَا كَانُوا يَعْطُوهُ الْأَجْرَ كَانَ يَقُولُ: - إِنَّ عَلَيَّ قَرْضًا، أُرِيدُ أَنْ يُجْمَعَ لِكَيْ أُؤَدِّيَهُ كَامِلًا.

وبِهَذِهِ الدَّرِيْعَةِ كَانَ يُنْتَمِعُ، ثُمَّ بَعْدَ مَدَّةٍ كَانَ يَغِيْبُ. وَعَلَى امْتِدَادِ حَيَاةِ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ اِطْلَاعٌ عَلَى حَقِيقَةِ شَمْسِ، وَلَنْ يَقِفَ أَحَدٌ عَلَى حَقَائِقِ أَسْرَارِهِ كَانَ دَائِمًا يُخْفِي شَهْرَتَهُ عَنِ النَّاسِ، وَكَانَ يَتَصَرَّفُ عَلَى طَرِيقَةِ التَّجَارِ وَيَرْتَدِي لِیَاسَهُمْ. وَفِي آيَةِ مَدِينَةٍ كَانَ يَذْهَبُ إِلَيْهَا، كَانَ يَنْزِلُ فِي مَنْزِلِ تَجَارِ الْقَوَافِلِ، وَكَانَ يَضَعُ قُفْلًا مُحْكَمًا عَلَى بَابِ الْحِجْرَةِ الَّتِي يَقِيمُ فِيهَا. وَفِي دَاخِلِ الْحِجْرَةِ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةٌ إِلَّا حَصِيرٌ. كَانَ أحيانًا يَنْسِجُ تِلْكَ السَّرَاوِيلَ، وَيَعِيشُ مِنْ دَخْلِ ذَلِكَ الْعَمَلِ (سِبْهَسَالَار، رِسَالَةٌ فِي أَحْوَالِ مَوْلَانَا) [١٥٤].

أَنَا (شَمْسُ قَبْرِيْزِي) لَمْ تَكُنْ لَدَيَّ عَادَةُ الْكِتَابَةِ أَبَدًا. وَالْأَيُّ لَا أَكْتُبُ [الشَيْءَ أَوْ الْفِكْرَةَ] يَبْقَى فِي نَفْسِي، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ يُوَجِّهُنِي وَجْهَةً جَدِيدَةً. أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحَدِّثَ نَفْسِي، أَوْ كُلَّ شَيْءٍ رَأَيْتُ نَفْسِي فِيهِ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحَادِثَهُ وَمَعَ كُلِّ هَذَا الْجُنُونِ الَّذِي أَجْدُنِي فِيهِ غَلَبَتْ كَثِيرًا مِنَ الْعُقْلَاءِ. مَعَ كُلِّ هَذِهِ الْغَفْلَةِ الَّتِي أَجْدُنِي فِيهَا جَعَلْتُ كَثِيرًا مِنَ ذَوِي الْعِلْمِ وَالْخَبْرَةِ تَحْتَ إِبْطِي. كَانَ فِي دَاخِلِي بِشَارَةٌ كَأَنَّنِي أَطِيرُ، لَسْتُ فَوْقَ الْيَابَسَةِ دَعْنَتِي جَمَاعَةٌ مُسْلِمَةٌ ظَاهِرًا، كَافِرَةٌ بَاطِنًا، اعْتَدَرْتُ كُنْتُ أَدْخَلْتُ الْكُنْيَسَةَ، وَكَانَ فِيهَا كَافِرُونَ أَحْبَابِي: كَافِرُونَ ظَاهِرًا، مُسْلِمُونَ بَاطِنًا (مَقَالَاتُ شَمْسِ).

رَأَى شَرَفُ لَهَاوَرِيِّ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ كَانَ يَغُوصُ فِي مَاءٍ أَسْوَدَ، وَكَانَ يَحْرُكُ إِصْبَعَيْنِ لِلتَّنْبِيْهِ: يَا مَوْلَانَا شَمْسُ الدِّينِ، اسْحَبْنِي، اسْحَبْنِي. لَمْ يَحْبِسْهُ الْمَاءُ وَمَرَّةً أُخْرَى، وَفِي حَضُورِي، بَدَأَ فِي شَرْحِ الْفَرْقِ بَيْنَ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَكِرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ. فَقُلْتُ لَهُ: أَيْنَ أَنْتَ مِنْ حَدِيثِ الْأَوْلِيَاءِ؟ تَصَوَّرْتُ وَلِيَّ الْحَالِ ذَلِكَ الَّذِي فِي خِيَالِكَ. وَعِنْدَمَا نُعْرِضُ عَنْ كَلَامِهِ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ: شَمْسُ يَحْسُدُنِي وَيَحْقِدُ عَلَيَّ. وَإِنَّهُ مِنْ ظَنِّي أَنْ =

[١٥٤] هذه الأزمة الفكرية حَرَمَتْنِي النَّوْمَ وَالرَّاحَةَ. أَمَا شَمْسٌ، وهو أعَجَبُ رَجُلٍ فوق الأرض، فقد كَانَ كَنَفَسِ عِيسَى، إِذْ أَخْيَانِي، أَنَا الْمَيِّتَ. الاحتراق الذي أوجده في كياني لقاء شمسٍ، غير قابلٍ لِلوصف. فهو الذي عَلَّمَنِي أَنَّ وراءَ هذا العالمِ، وراءَ هذه العواطف، وراءَ سماءِ هذا العالمِ، سماءٌ أُخْرَى أيضًا. هو الذي عَلَّمَنِي أَنَّ العِشْقَ الإلهي إذا ما بَنَى عُشَّهُ في وجودِ الإنسان، وفي أعماقِ رُوحِهِ، سيكونُ هذا الإنسانُ في حالاتِهِ جميعًا، وفي آناتِ حياتِهِ ولحظاتها جميعًا، عابِدًا وَمُتَغَنِّيًا بِجَلالِ الأَحَدِيَّةِ.

وقد قَالَ شَمْسٌ: إِنَّ لِلْعَاشِقِينَ دِينًا خَاصًّا، وَمِلَّةً مُسْتَقِلَّةً. وَأَشَارَ إِلَى أَنَّ قَطَرَاتِ الدَّمْعِ العنيدةَ لِأَعْيُنِ العارفينَ والهائمينَ بالبارئِ تعالى، تُنْجِي الرِّيَاضَ والبساتينَ مِنَ الهَلَاكِ والقَحْطِ. وهو الذي ذَكَرَنِي بِأَنَّهُ فِي عَالَمِ التُّرابِ هذا، لَا يَبْقَى صَوْتُ وَلَا طَلَبٌ مِنْ دُونِ صَدَى وجواب، وَأَنَّ اللهَ تعالى أَهْدَى لَنَا القَلْبَ الذي بِفَضْلِهِ نَعشَقُ وَنُحِبُّ، وَنَرَوِي غُمُومًا الدَّاخِلِيَّةَ بِمُساعدَةِ العِشْقِ وَسَكَبِ الدَّمْعِ؛ ابْتِغَاءً أَنْ نَتَحَوَّلَ مِنْ ذَرَّةٍ اسْمُهَا الإنسانُ فِي مُحِيطِ الكائناتِ، إِلَى مَوْجُودٍ غَايَةٍ فِي العِظَمَةِ والقُوَّةِ. نَعُدُّ اللَّحَظَاتِ غَنِيمَةً. وَعِظَمَةُ هَذِهِ اللَّحَظَاتِ تَكُونُ عِنْدَمَا يَكُونُ لَدِينَا هَيْجَانٌ وَوَجْدٌ وَحَالٌ، مِنْ أَجْلِ الاستماعِ لِصَوْتِ الوجودِ.

بَيَانُ شَمْسٍ مِثْلُ الشَّمْسِ الَّتِي تَسْطَعُ عَلَى الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَلِكُلِّ شَيْءٍ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ الذَّوْقِ والشَّوْقِ، تَبَعًا لِمَرْتَبَتِهِ: تُخْرِقُ أَحَدًا، وَتُضِيءُ آخَرَ [١٥٥]، وَتُدَلِّلُ ثَالِثًا، وَتُذَيِّبُ رَابِعًا.. وَأَنَا تَحْتَ أَنْوَارِ شَمْسِ اللَّالَاءَةِ ذُبْتُ:

= أَدْعُو لِلْيَهُودِيِّ، أَقُولُ هَذِهِ اللَّهُ أَدْعُو لِمَنْ يَشْتُمْنِي قَاتِلًا: يَا اللَّهُ، أَعْطِهِ عَمَلًا خَيْرًا مِنْ هَذَا السَّبَابِ؛ لَكِي يَسْبَحَ وَيَهْتَزَّ وَيَنْشَغِلَ بِعَالَمِ الْحَقِّ، بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ (مَنَاقِبِ العارفينَ لِلْأَفْلاكِ).

مَعشُوقِي وَحَبِيبِي أَنْتَ، رَوْنَقُ عَمَلِي وَبَهَاؤُهُ أَنْتَ،
 بُسْتَانِي وَرَبِيعِي أَنْتَ، وَمِنْ أَجْلِكَ كَانَ وَجُودِي
 أَنْتَ رُوحِي وَدُنْيَايَ، أَنْتَ الزُّهْرَةُ فِي سَمَائِي
 وَنَارُكَ عَلَامَةٌ عَلَى أَنَّ فِي قَلْبِي شَيْئًا كَالْمُودِ
 لَمْ يَكُنْ جِسْمٌ، وَكُنْتُ رُوحًا، كُنْتُ مَعَكَ فَوْقَ السَّمَاءِ
 لَمْ يَكُنْ لِي حِوَارٌ وَمُحَادَثَةٌ الْبَتَّةَ
 وَعِنْدَمَا رَأَى رُوحِي قَبِيلَةَ وَجْهِ شَمْسِ الدِّينِ
 كَانَتْ طَاعَتِي وَسُجُودِي عِنْدَ بَدَايَةِ حَيِّهِ

كَانَ مَوْلَانَا حَارَّ الْكَلَامِ، وَكَانَ مُمَثِّلُو الْمُحْفَلِ الرُّوحَانِي فِي قُوْنِيَّةِ صَامَتِينَ وَغَارَقِينَ
 أَمَامَ أَقْيَانُوسِ الْكَلَامِ، أَمَامَ أَمْوَاجِ الْكَلَامِ السَّمَائِيِّ. كَانَ مَوْلَانَا مَنْشَغَلًا بِتَصْوِيرِ
 أَحَاسِيْسِهِ الْعَمِيقَةِ بِمُسَاعَدَةِ الْبَيَانِ. وَمِثْلُ صَانِعِ التَّمَاثِيلِ الصِّينِيِّ، كَانَ يَصُوِّرُ شَمْسًا
 بِأَبْعَادِهِ كُلِّهَا إِذْ قَالَ:

- أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ، كَانَ شَمْسٌ يَنْظُرُ نَظْرًا عَمِيقًا إِلَى اقْتِدَارِ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ،
 وَشَخْصِيَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ الْخَلَاقَةِ. وَيَنْبَغِي الْبَحْثُ عَنْ سِرِّ عَظَمَتِهِ فِي فِكْرِهِ الْإِلَهَامِيَّةِ وَالْعَالِيَةِ.
 وَقَدْ أَنَى بِرِسَالَةِ لِأَصْحَابِي وَتَلَامِيذِي هُنَا عَلَى سَبِيلِ الْهَدْيَةِ، فَكَانَ يَقُولُ: أَحِبَّ أَنْتَ
 النَّاسَ، وَمَتَى قَدَّرْتَ وَتَمَكَّنْتَ فَأَحْسِنْ إِلَى الْجَمِيعِ، وَإِنْ سَاعَدْتَ أَحَدًا، أَوْ قَدَّمْتَ
 خِدْمَةً لِأَحَدٍ، فَانْسَ نَفْسَكَ. وَإِذَا دَرَسْتَ جَوْهَرَ النِّظَامِ الْفِكْرِيِّ لِشَمْسٍ وَطَرِيقَتِهِ،
 بِإِنْصَافٍ وَحَيْدَةٍ، أَدْرَكْتُمُوهَا جَيِّدًا. وَلَنْ يَكُونَ فِي وَسْعِ الْمُخَالَفِينَ الْمُتَشَدِّدِينَ، بِسُوءِ
 حَمَلَاتِهِمُ اللَّئِيمَةِ، أَنْ يُزِيلُوا طَلَاوَةَ كَلَامِهِ وَلَطَافَتَهُ وَتَأْثِيرَهُ، وَحُسْنَ قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ. وَمَعَ أَنَّ

شَمْسًا يَجِدُ أَدَى مِّنَ الْمُعَانِدِينَ، اَعْلَمُوا يَقِينًا أَنَّ كَلَامَهُ وَخُطْبَهُ سَتَظَلُّ دَائِمًا فِي أَذْهَانِ أَهَالِي قُرُونِهِ وَأَصْحَابِ الْقُلُوبِ.

- العِشْقُ هو تلك الشُّغْلَةُ التي عندما اشتعلَتْ
أحرقَتْ كُلَّ شيءٍ ما عدا المعشوقَ
- العُشَّاقُ ظاهرونَ، والمعشوقُ غيرُ ظاهرٍ
فمَنْ رأى في العالمِ كلِّه مثْلَ هذا العِشْقِ؟
(المثنوي: ٥٨٩/٥؟)

بَحْثٌ قَاصِرٌ فِي شَأْنِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ

إِنَّ رُوحَ كُلِّ عَاشِقٍ مُخْلِصٍ، مِثْلُ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ، صَانِعٌ وَخَلَّاقٌ، وَتَرْتَبِطُ سَاحَةُ
تَفْكِيرِهِ الْمُتَعَالِي بِفَضَاءِ الْوُجُودِ وَالْمَجَالَاتِ الْعَاطِفِيَّةِ. وَالْعُشَّاقُ الْأَصْفِيَاءُ الْمُخْلِصُونَ
لِلْحَقِيقَةِ يُحَسِّنُونَ بِمَحَبَّةِ الْحَقِّ وَمَعْرِفَتِهِ فِي أَعْمَاقِ أَرْوَاحِهِمْ، وَفِي رُوحِ الْعَالَمِ، وَيَرُونَ أَنَّ
الدُّنْيَا مَمْلُوءَةٌ بِجَمَالِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ وَصِفَاتِهِ وَعَظَمَتِهِ. وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، تَكُونُ
لِحَظَاتِ حَيَاتِهِمْ كُلُّهَا فِي حَالِ الطَّاعَةِ، وَهُوَ مِنَ الْمَوَاقِبِ الَّتِي جَعَلَتْهَا الطَّبِيعَةُ فِي مَتَنَاوِلِ
أَيْدِيهِمْ، وَإِذَا هُمْ قَالُوا إِنَّا عَاشِقُونَ لِلْأَفْلَاقِ وَالْكَائِنَاتِ وَالْكَوَاكِبِ، أَوْ قَلْبِ عَالَمِ
الْإِمْكَانِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا بَاطِلًا وَعَبَثًا.

وَالْعَاشِقُ، هُوَ عَاشِقُ الْحَقِيقَةِ وَعَاشِقُ الْوُجُودِ، هُوَ عَاشِقُ اللَّهِ، بِعِبَارَةٍ أُخْرَى.
وَلِهَذَا السَّبَبِ يَكُونُ مُسْتَعِدًّا فِي كُلِّ وَقْتٍ لِأَنْ يَتَخَلَّى عَنْ هَذَا الرُّوحِ الْمُسْتَعَارِ، أَوْ هَذَا
الْبَّاسِ الْعَرَضِيِّ الَّذِي هُوَ لَيْسَ لَهُ، وَهُوَ حِجَابٌ يَمْنَعُ مُشَاهَدَةَ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَذَلِكَ
إِذَا كَانَ قَدْ وَصَلَ إِلَى فَضَاءِ الْعِشْقِ الَّذِي لَا ضِفَافَ لَهُ، وَالرَّحْمَةَ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا،
وَأَضْرَمَ النَّارَ فِي غَابِ الْفِكْرِ.

وَفِي بَيَانَاتِ مَوْلَانَا وَتَضَرُّيحاتِهِ، تَوَارَتْ الْقُدْرَةُ الْعَظِيمَةُ لِهَذَا الْإِمَامِ الْعَاشِقِ

المتفَجِّر. وَكُلُّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِهِ كَانَتْ تَنْزِلُ عَلَى رُؤُوسِ الْمُخَالَفِينَ بِقُدْرَةِ الصَّاعِقَةِ. وَكَأَنَّ مُمَثِّلِي الْمَحْفِلِ الرُّوحَانِيِّ فِي قُوْنِيَّةٍ قَدْ أَفَاقُوا مِنْ نَوْمِهِمْ وَتَحَرَّرُوا مِنْ خَدَرِ الْقُرُونِ، وَاسْتَعَادُوا وَعَيْهِمْ. وَالْحَيَرَةُ الَّتِي كَانَتْ قَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى أَوْجِهِ هَؤُلَاءِ، دَفَعَتْ مَوْلَانَا إِلَى أَنْ يَصُوِّرَ الْوَجْهَ الْمَلَكُوتِيَّ لِلْإِنْسَانِ الْعَاشِقِ، أَوِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ، الَّذِي لَهُ فِي كُلِّ دَوْرٍ تَجَلٍّ خَاصٌّ وَسِيْمَاءٌ مُتَفَرِّدَةٌ، بِهَذَا الشَّرْحِ لِمُخَاطَبِيهِ [١٥٧] الَّذِينَ سُلِبَتْ مِنْهُمْ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّحَدُّثِ. ذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنْذُ وَقْتٍ بَعِيدٍ، ظَلَّ شَوْقُ لِقَاءِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ أَحَدَ أَهَمِّ أُسُسِ

كَلَامِ جَلالِ الدِّينِ الْبَلَخِي وَرِسالَتِهِ:

مَا التَّدْبِيرُ، أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ،

لَا أَعْرِفُ نَفْسِي؟

لَسْتُ مَسِيحِيًّا، وَلَا يَهُودِيًّا

لَسْتُ مَجُوسِيًّا، وَلَا مُسْلِمًا [فَشْرِيًّا]

لَسْتُ مِنَ التُّرَابِ، وَلَا مِنَ الْمَاءِ

وَلَسْتُ مِنَ الرِّيحِ، وَلَا مِنَ النَّارِ

لَسْتُ مِنَ الْعَرْشِ، وَلَا مِنَ الْفَرْشِ

لَسْتُ مِنَ الْكَوْنِ، وَلَسْتُ مِنَ كُنُوزِ الْأَرْضِ

لَسْتُ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَسْتُ مِنَ الْعُقْبَى

لَسْتُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَسْتُ مِنَ النَّارِ

لَسْتُ مِنْ آدَمَ، وَلَا مِنْ حَوَاءَ

لَسْتُ مِنَ الْفِرْدَوْسِ، وَلَا مِنَ الرُّضْوَانِ

مَكَانِي هُوَ اللَّامَكَانُ

وَعَلَامَتِي هِيَ انْعِدَامُ الْعَلَامَةِ

فَلَا جَسَدَ لِي وَلَا رُوحَ،

بَلْ أَنَا مِنْ رُوحِ الْمَعْشُوقِ

لَعَلَّ اكْتِشَافَ إِنْسَانٍ كَامِلٍ وَتَعَرُّفَهُ يَكُونُ أَحَدَ أَكْثَرِ الظَّوَاهِرِ إِثَارَةً لِلضَّجَّةِ، وَأَعْظَمِ
الْأَمَالِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ. وَالْإِنْسَانُ الْكَامِلُ، الَّذِي عُبِّرَ عَنْهُ أَيْضًا بِـ «الْإِنْسَانِ
الرَّاسِخِ»، يَقْتُلِعُ جَذَرَ الْمُسْتَقْبَلِ وَالْمَاضِي، وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ كَالسَّمْنَدَرِ^(*) فِي نَارِ الْخُلُوصِ.
اعْلَمُوا أَنَّ شَمْسًا مِنَ الْعُشَاقِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ أَسْرَارَ التَّقْدِيرِ، وَلِهَذَا السَّبَبِ،
وَابْتِغَاءَ الظَّفَرِ بَصِيدٍ، طَوَى الطَّرِيقَ مِنْ بَادِيَةٍ إِلَى أُخْرَى، مِنْ تَبَرُّزٍ إِلَى الشَّامِ، وَوَصَلَ
إِلَى قُوْنِيَّةٍ، لِكَيْ يَعْمَلَ عَلَى تَطْهِيرِ الرُّوحِي. وَقَدْ أَرْشَدَنِي فِي طَرِيقِ السَّيْرِ وَالشُّلُوكِ
بِعِرْفَانٍ وَاحْتِرَاقِ قَلْبٍ، عَلَى نَحْوِ أَحْسَنِ يَوْمٍ بَانَ الْحَيَاةَ عِنْدِي مِنْ دُونِهِ قِصَّةُ
تَافَهَةٍ، وَغُصَّةٍ فِي غَايَةِ الْآلَمِ. وَلَوْلَاهُ، رُبَّمَا لَا يَكُونُ لِتَجَلِّي حَقِيقَةِ الْعِشْقِ وَالْحَيَاةِ هَذَا
عِنْدِي مَعْنًى وَمَفْهُومَ. [١٥٨].

لماذا؟ - هذا الكلام غير منطقي، وهو لم يُعطِكم الحياة، حتى تكون من دونه بلا

مفهوم. هذا خلاف أصل البحث عن الحقيقة، والإخلاص للحقيقة.

(جَمَلُ قَالِهَا أَحَدُ مُثَلِّي الْمُخْفِلِ الرُّوحَانِي فِي مَخَاطَبَةِ مَوْلَانَا، وَقَطَعَ كَلَامَ مَوْلَانَا).

* - دُوْنِيَّةٌ تَفْرِزُ مَادَّةً تُطْفِئُ النَّارَ، وَلِذَلِكَ رَعَوْا أَنَّهُ لَا تَحْتَرِقُ بِالنَّارِ. وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ يُونَانِي.

كَلَامِي كُلُّهُ، وَأَدَلَّتِي كُلُّهَا، وَأَشْعَارِي جَمِيعًا، مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ شَمْسًا أَعَادَنِي إِلَى سَاحَةِ الْحَيَاةِ مِنْ جَدِيدٍ، أَوْ أَعْطَانِي وَلَادَةً جَدِيدَةً. عَلَّمَنِي كَيْفَ أَفَكَّرُ فِي هَدْوٍ وَسُكُونٍ رُوحِيٍّ فِي غَمْرَةِ حَرَكَةِ الْحَيَاةِ، وَكَيْفَ أَبَحَثُ عَنْ شَيْءٍ دَاخِلٍ الْاضْطِرَابِ الْمُسْتَمَرِّ الَّذِي لَا يَتَوَقَّفُ لِدَوْرَانِ الْكَائِنَاتِ. وَقَدْ ذَكَرَ لِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْأَجْسَادِ، وَأَنَّ قَلْبَ كُلِّ عَارِفٍ، كُلُّ بَاحِثٍ مُخْلِصٍ، يَنْشُدُ كَشْفَ أَشْرَارِ الطَّبِيعَةِ. عَلَّمَنِي الْمَبَادِئَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلْحَيَاةِ، وَأَوْضَحَ لِي كَيْفَ أَجْعَلُ الْفَلَكَ تَحْتَ قَدَمِي، وَمِنْ وَرَاءِ الْفَلَكَ أَسْمَعُ صَوْتَ السَّمَاعِ. كَانَ دَائِمًا يَقُولُ: اخْرُجْ مِنْ حَيَاةِ الْحَيَوَانَ، لِكَيْ تَتَجَلَّى فِيكَ الصِّفَاتُ الْإِلَهِيَّةُ، وَعِنْدَئِذٍ سَتَرَى أَنَّكَ وَمَعشُوقُكَ لَسْتُمَا اثْنَيْنِ، بَلْ أَنْتُمْ كِيَانٌ وَاحِدٌ. وَقَدْ أَخَذَ بِيَدِي مِنْ حَذِّ التَّرَابِ إِلَى الْبَشَرِيَّةِ، حَيْثُ آلَافُ الْمَنَازِلِ، مَدِينَةٌ مَدِينَةٌ، وَحَيْثُ التَّجَلِّيَّاتُ الْمُخْتَلِفَةُ.

قَالَ: قَدْ فَنَيْتُ فِيكَ

حَتَّى إِنَّنِي مُلِثْتُ مِنْكَ مِنَ الرَّأْسِ إِلَى الْقَدَمِ

وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْ وَجُودِي إِلَّا الْإِسْمُ

وَلَيْسَ فِي وَجُودِي شَيْءٌ غَيْرُ الْإِسْمِ، يَا طَيِّبَ الْإِسْمِ^(١)

وَأَعْتَبَرُ وَجُودَ شَمْسٍ مَحَلًّا لِتَجَلِّيِ النَّبُوغِ الْعِرْفَانِيِّ لِلْإِنْسَانِ الْإِيرَانِيِّ، فِي أَسْمَى مَنْزِلَةٍ. وَقَدْ أَزْشَدَنِي تَحَرُّقُ شَمْسٍ وَهَيْجَانُهُ فِي تَحْلِيلِ الْعِشْقِ، إِلَى عَالَمٍ آخَرَ. وَتَعَلَّمْتُ أَسَاسَ الْخَلْقِ مَعَ مَعَارِفِ الْوُجُودِ فِي مَدْرَسَةِ شَمْسٍ الْمَمْلُوءَةِ بِالْفَيْضِ. وَأَعْلَمُ الْآنَ

أَتَنِي ذَرَّةٌ فِي عَالَمٍ لَا نِهَآيَةَ لَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ. وَقَدْ كَسَبْتُ هَذِهِ النَّظَرَاتِ وَالخِبْرَاتِ جَمِيعًا بِمُسَاعَدَةِ الْعِشْقِ. وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ عِشْقِي شَمْسًا الْمُتَحَرِّرَ، هُوَ عِشْقِي لِلْإِنْسَانِ، إِنْسَانٍ سَامٍ وَمُتَعَالٍ.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْآيَامِ قَالَ شَمْسٌ: عِنْدَمَا تَكُونُ عَاشِقًا مُخْلِصًا تَقِفُ نُجُومُ السَّمَاءِ فِي مِخْرَابِ عِبَادَتِكَ، لِكَيْ تَشَاهِدَكَ. وَأَحْسُ الْآنَ أَنَّ النُّجُومَ مَعْلُقَةٌ عَلَى الْإِيوَانِ الْمَلَكُوتِيِّ لِلرَّجُلِ الْعَارِفِ، لِلرَّجُلِ الْحُرِّ الْكَامِلِ وَالْإِنْسَانِ الرَّاسِخِ، لَيْلًا وَنَهَارًا، وَمُسْتَمِعَةً إِلَى لَحْنِهِ الْعِشْقِيِّ.

[١٥٩] نَظَرَ مَوْلَانَا إِلَى الْمُخَاطَبِينَ، مُشَاهِدًا الْحَيْرَةَ الَّتِي ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجُوهِهِمْ، فَتَذَكَّرَ حِكَايَةَ مِنْ كِتَابِ «كُشْفِ الْمُخْجُوبِ» لِلْمُهْجُورِيِّ فِي شَأْنِ الْعِشْقِ، ثُمَّ وَاصَلَ كَلَامَهُ:

كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ الْمَرْوُزِيُّ مِنْ ذَوِي الْوَقَارِ وَالْحِشْمَةِ، وَكَانَ عَالِمًا وَمُطَّلِعًا عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِ الطَّرِيقَةِ وَالشَّرِيعَةِ، وَفِي زَمَانِهِ كَانَ إِمَامَ الْجَمَاعَةِ غَيْرِ الْمُنَازَعِ. وَقَدْ لَقِيَ كَثِيرًا مِنَ الْمَشَايخِ، وَاخْتَرَنَ مِنْ ذَلِكَ خِبْرَةً وَتَجْرِبَةً. مَرَّةً وَاحِدَةً فِي حَيَاتِهِ تَابَ. وَحَصَلَ ذَلِكَ عِنْدَمَا كَانَ فِي شَبَابِهِ قَدْ أَحَبَّ فَتَاةً حَسَنَاءً. فَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي نَهَضَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ، وَاصْطَحَبَ وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَوَقَفَ عِنْدَ أَسْفَلِ حَائِطِ بَيْتِ الْمَعشُوقَةِ، إِلَى أَنْ اعْتَلَتْ الْمَعشُوقَةُ سَطْحَ الْبَيْتِ، وَبَقِيَ الْاِثْنَانِ حَتَّى الْفَجْرِ يَنْظُرُ كُلُّ مِنْهُمَا إِلَى الْآخَرِ. وَعِنْدَمَا سَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ أَذَانَ الصَّلَاةِ، ظَنَّ أَنَّهُ أَذَانُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ. وَعِنْدَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ عَلِمَ أَنَّهُ كَانَ طَوَالَ اللَّيْلِ غَارِقًا فِي جَمَالِ الْمَعشُوقَةِ الْفَتَانَةِ، وَحُسْنِهَا. فَخَجَلَ مِنْ ذَلِكَ أَيَّامًا خَجَلَ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: لَتَخَجَلَ يَا بْنَ الْمُبَارَكِ، وَقَفْتَ اللَّيْلَ كُلَّهُ عَلَى قَدَمَيْكَ مُسْتَجِيبًا

لِهَوَى نَفْسِكَ، وَلَمْ تُحَسَّ بِالْإِنْزِعَاجِ، وَإِذَا مَا قَرَأَ إِمَامٌ فِي صَلَاةِ سُورَةِ طَوِيلَةٍ غَضِبْتَ؟! فَأَيْنَ ذَهَبَ مَعْنَى أَنْ تَكُونَ مُؤْمِنًا؟ وَعِنْدَيْكَ تَابٌ، وَانْشَغَلَ بِالْعِلْمِ وَطَلَبِهِ، حَتَّى بَلَغَ بِهِ الْأَمْرُ أَنَّهُ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ كَانَتْ وَالِدَتُهُ فِي الْبُسْتَانِ، وَرَأَتْهُ نَائِمًا وَقَدْ أَخَذَتْ حَيَّةٌ عَظِيمَةً فَرَعًا رَيَحَانٍ فِيهَا، وَصَارَتْ تَذُبُّ بِهِ الذَّبَابَ عَنْ وَجْهِهِ.

وَقَدْ سُئِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: مَاذَا رَأَيْتَ مِنَ الْعَجَائِبِ فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: رَأَيْتُ رَاهِبًا أَنْحَلَتِ الْمُجَاهِدَةَ جِسْمَهُ، وَمِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ احْدَوْدَبَ ظَهْرُهُ. سَأَلْتُهُ: أَيُّهَا الرَّاهِبُ، مَا الطَّرِيقُ الْمَوْصِلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ فَقَالَ: إِذَا عَرَفْتَهُ عَلِمْتَ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ أَيْضًا. وَقَدْ عَلَّمَنِي شَمْسٌ كَيْفَ اسْتَطِيعُ، بِمَدَدِ الدِّينِ وَالْعِشْقِ وَالْعِلْمِ، الَّتِي جَاءَ أَحَدُهَا مِنَ الْقَلْبِ وَالْآخَرُ مِنَ الرُّوحِ وَالثَّلَاثُ مِنَ الْعَقْلِ، أَنْ أُسِيرَ فِي الطَّرِيقِ الذَّهَبِيِّ لِلْحَيَاةِ، ابْتِغَاءً قَدْرَ أَكْبَرَ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالْمَعْرِفَةِ، مُهْتَدِيًا بَنَجْمِ الْعِشْقِ اللَّالِئِ.

عَلَّمَنِي شَمْسٌ أَنْ كُلَّ مَا كُنْتُ قَرَأْتُهُ وَسَمِعْتُهُ، حَتَّى لَحَظَاتِ لِقَائِهِ، عَلَيَّ أَنْ أُلْقِيَهُ جَانِبًا. أَجْلَسَنِي عَلَى جَنَاحِ كِبْرِيَاءِ الْعِشْقِ، وَطَارَ بِي نَحْوَ الْمَعْشُوقِ الْأَزَلِيِّ وَالْأَبَدِيِّ. وَإِذَا ذَاكَ، عَلِمْتُ أَنَّ الرُّوحَ الْعَاشِقَ خَلَّاقٌ، وَأَنَّ الشُّوقَ الْإِنْسَانِيَّ الْحَارِقَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي طَرِيقِ الْعِشْقِ الْإِلَهِيِّ، وَلَيْسَ فِي مَحَبَّةٍ مَحْبُوبٍ أَرْضِي. وَحَالًا، مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ الْمَرْوَزِيِّ، تُبْتُ. وَفِي الثَّنَاءِ عَلَى الْعِشْقِ، لَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ رَأْسًا مِنْ قَدَمٍ. وَأَسْعَى لِأَنْ أَدْعُو النَّاسَ جَمِيعًا إِلَى مَائِدَةِ الْعِشْقِ الْإِلَهِيِّ، وَأَقُولُ لِلْمَخْلُوقِ وَالْإِنْسَانِ: حَاصِلُ [١٦٠] سَاعَةِ الصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ؛ وَلِهَذَا السَّبَبِ، أَبْشُرْكُمْ وَأَهْلَ قُوْنِيَّةٍ، وَأَعْلِنُ أَنَّهُ بِمَدَدِ الْعِشْقِ وَالرُّوحِ الْعُلُويِّ يُمْكِنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَصْعَدَ عَلَى دَرَجَاتٍ سُلِّمَ الْحَقِيقَةُ، دَرَجَةً

دَرَجَةً، وَيَعْدُوْا إِنْسَانًا كَامِلًا^(١)، وَيَصِلُ إِلَى جَنَابِ الْحَقِّ تَعَالَى:

١ - ذَكَرَ مُحْيِي الدِّينِ بُنْ عَرَبِيّ، الشَّخْصِيَّةَ الْبَارِزَةَ فِي الْعِرْفَانِ الْإِسْلَامِيِّ، فِي كِتَابِهِ «فُصُوصُ الْحِكْمِ» أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى جَعَلَ الْإِنْسَانَ عِلَّةً غَائِيَّةً وَغَايَةً قُصْوَى لِلخَلْقِ، مِثْلَمَا أَنَّ الْقَرَضَ مِنْ إِيجَادِ الْجَسَدِ هُوَ الزَّوْجُ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْعَالَمَ مِثْلَ جَسَدٍ بِلَا زَوْجٍ، لَكِنَّ هَذَا الْعَالَمَ مِثْلُ مِرْآةٍ مَظْلَمَةٍ مَعْتَمَةٍ، وَلَا بَدْءَ لِلْمِرْآةِ مِنَ الصُّفْلِ. وَهَكَذَا، صَارَ الْإِنْسَانُ مِرْآةً لِلْوُجُودِ، وَرُوحًا لِلْجِسْمِ الْعَالَمِ. وَهُوَ لِلْحَقِّ بِمَنْزِلَةِ إِنْسَانٍ الْعَيْنِ مِنَ الْعَيْنِ؛ فَلِهَذَا سُمِّيَ إِنْسَانًا، فَإِنَّهُ بِهِ يَنْظُرُ الْحَقُّ إِلَى خَلْقِهِ فَيَرْحَمُهُمْ. وَالدُّنْيَا مَعْتَمِدَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَمِنْ هُنَا سُمِّيَ خَلِيفَتَهُ عَلَى الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى يَحْفَظُ الْخَلْقَ بِوَسْاطَتِهِ. وَالْإِنْسَانُ، بِقَلْبِهِ، مِرْآةٌ تُظْهِرُ كُلَّ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ. يَقُولُ جَامِي:

جَعَلَ قَلْبُهُ خُزْنَ أَسْرَارِهِ وَجَعَلَ وَجْهَهُ مَظْلَعُ أَنْوَارِهِ
وَكُلُّ مَا ظَهَرَ، أَظْهَرَهُ عَلَيْهِ وَكُلُّ مَا خَفِيَ، أَذْرَجَهُ فِيهِ
وَقَدْ تَدَاخَلَتْ فِيهِ الصُّورَةُ وَالْمَعْنَى وَهُوَ يَجْمَعُ بَحْرِي الْخُذُودِ وَالْقِدَمِ

وَقَدْ أُنْشِدَ مَوْلَانَا فِي «الْمُثَنَوِيِّ» فِي شَأْنِ خِلَافَةِ الْإِنْسَانِ:

أَدَمُ [عَلَيْهِ السَّلَامُ] هُوَ أَسْطَرْلَابُ أَوْصَافِ الْعُلُوِّ وَوَضَفُ آدَمَ مَظْهَرُ لَا يَأْتِيهِ
وَكُلُّ مَا يَظْهَرُ فِيهِ انْعِكَاسُ لَهْ مِثْلُ انْعِكَاسِ ضَوْءِ الْقَمَرِ فِي مَاءِ التَّهَرِ
(الْمُثَنَوِيُّ: ٣١٤٧/٦)

وَفِي عَقِيدَةِ مُحْيِي الدِّينِ بِنِ عَرَبِيّ، الْإِنْسَانُ مُوجُودٌ حَادِثٌ وَأَزَلِّيٌّ، وَلَا يَسْتَحِقُّ خِلَافَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ غَيْرُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ. وَقَدْ خَلَقَ الْحَقُّ تَعَالَى سِيَمَاءَهُ الظَّاهِرِيَّةَ مِنْ حَقَائِقِ الْعَالَمِ وَصُورِهِ، وَجَعَلَ صُورَتَهُ الْبَاطِنِيَّةَ عَلَى صُورَتِهِ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَظْفَرُ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ إِلَّا بِالْكَمَالِ وَتَبَعًا لَذَلِكَ، يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ الْكَامِلِ يُسَبِّتَانِ كَلِمَتَانِ: إِحْدَاهُمَا تَرْتَبِطُ بِالْجَنَابِ الْأَقْدَسِ، وَبِالنِّسْبَةِ الْأُخْرَى يَحْتَضِرُ كُلَّ حَقَائِقِ الدُّنْيَا. يَقُولُ مَوْلَانَا:

هَآكِ شَسْنَا قَدْ احْتَجَبَتْ فِي دَرَّةٍ وَأَسَدًا ضَارِيًا فِي جِلْدِ حَمَلٍ
وَهَآكِ بَحْرًا مُتَوَارِيًا تَحْتَ الثَّنِينِ

فَحَذَارِ، لَا يَلْتَمِسُ عَلَيْكَ الْأَمْرُ فَتَضَعُ فَوْقَ هَذَا الثَّنِينِ قَدَمَكَ

فَمَا مِنْ أَنْتَ فِي صُورَتِكَ دَرَّةً، أَنْظُرْ إِلَى رُحْلِ

وَمَا مِنْ أَنْتَ نَمْلَةٌ عَرَجَاءُ، امْضِ وَشَاهِدْ سُلَيْمَانَ

يَظَلُّ الرُّوحُ فِي الْعَالَمِ السَّمَاوِيِّ

يَصِيحُ: «يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ»

أَيُّ خَبَرٍ لِلرُّوحِ الْأَمِنِ عَنِ الْجَسَدِ،

مَسَاءً كَانَ فِي رَوْضَةٍ أَوْ فِي كَوْمَةٍ قُمَامَةٍ،

وَهَذَا الْجَسَدُ التُّرَابِيُّ غَلِيظٌ وَمُظْلِمٌ

فَاصْقُلْهُ، لِأَنَّهُ يَتَقَبَّلُ الصَّقْلَ^(١)

- مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقَعَ خَضِرُ الرُّوحِ فِي بَحْرِ الظُّلُمَاتِ
وَيَجْرِي فِي عَيْنِ الْجَسَدِ مَاءُ الْحَيَاةِ
- مَرَبَّنَا مَرَابَّ الْعِشْقِ فِي حَانَةِ الدَّائِثِ
بِالْخَلْقِ وَالْقَمِّ مِنْ جَامِ الْأَشْيَاءِ وَالصِّفَاتِ
جامي

بَحْرُ الْعِشْقِ الَّذِي لَا تَبْدُو لَهُ ضِيفَاتُ

تَذَكَّرْ جَلَالَ الدِّينِ الْبَلْخِي مِنْ جَدِيدِ شَمْسًا، شَمْسًا الَّذِي اخْتَطَفَ مِنْهُ الْعَقْلُ
وَالْقَلْبُ، شَمْسًا الَّذِي كَانَ أَمَامَ أَنْوَارِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ يَطُوفُ كَالْفَرَّاشَةِ، دَائِرًا حَوْلَ نَفْسِهِ
وَرَاقِصًا، شَمْسًا الَّذِي كَانَ عِيَارًا خَالِصًا فِي عَالَمِ الْمَعْرِفَةِ، وَحَوْلَ جَلَالِ الدِّينِ، الْمُدْرَسِ
الْكَبِيرِ فِي دَارِ الْعِلْمِ فِي قُونِيَّةَ، عَلَى نَحْوِ يَكُونُ لَهُ فِي شُعَاعِ لَطِيفَةِ الْعِشْقِ الْغَيْبِيَّةِ تَعَلُّقٌ
بِالنَّظَرِ الدَّقِيقِ وَالْعَمِيقِ لِلظَّفَرِ بِالْأَسْرَارِ، وَيَدْعُو إِلَيْهِ:

أَيُّهَا الْعَاشِقُونَ، أَيُّهَا الْعَاشِقُونَ، أَنَا مَجْنُونٌ فَأَيْنَ السَّلْسِلَةُ؟

وَاصِلَ جَلَالَ الدِّينِ كَلَامَهُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ، اعْلَمُوا أَنَّ الْعِشْقَ حَالٌ وَأَمَانَةٌ أَهْدَاها اللهُ تَعَالَى لِأَعْظَمِ مَخْلُوقَاتِهِ،
الْإِنْسَانَ. إِنَّهُ مَقَامٌ عَالٍ يُخَصَّلُ عَلَيْهِ بِالْإِلَهَامِ وَالْإِشْرَاقِ، مَعْرِفَةٌ هِيَ غَيْرُ تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي
يُظَفَرُ بِهَا مِنْ طَرِيقِ كَسْبِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ. وَابْتِغَاءَ نَيْلِهَا، يَجِبُ التَّحَرُّرُ مِنَ النَّفْسِ وَالْفَنَاءِ.
الْعِشْقُ بَعِيدٌ عَنْ «نَحْنُ» وَ«أَنَا»، وَعَنِ التَّعَصُّبِ وَالْعِنَادِ. الْعَاشِقُ حَتَّى فِي مُخْتَلَاةٍ نَضِرُ غَضُّ
مُشْرِقٍ، لَيْسَ سَيِّئَ الظَّنِّ، وَلَا يَفْكُرُ بِالسُّوءِ، وَلَا يَنْوِي السُّوءَ، وَيَبْحَثُ عَنْ عَظَمَةِ الْإِنْسَانِ فِي
وَخْدَةِ الْبَشَرِ. وَلَدَى النَّاسِ مِنْ حَقِيقَةِ الْعِشْقِ آثَارٌ فِي دَاخِلِهِمْ. وَأَنَا وَشَمْسٌ نَعْتَقِدُ أَنَّ هَذِهِ
الْآثَارَ يَجِبُ أَنْ تُكْشَفَ بِمُسَاعَدَةِ الرَّاسِخِينَ، وَبِإِرْشَادِ الْكَامِلِينَ، لِكَيْ تَتَجَلَّى.

إِنَّ عَالَمَ تَفَكِيرِ شَمْسٍ مِمْتَازٍ، وَمُخَاطَبُهُ لَيْسَ جَلَالُ الدِّينِ فَحَسَبُ، بَلْ كُلُّ
السَّالِكِينَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمُؤَثِّرِينَ الْعَاشِقِينَ. وَقَدْ نَظَّمْتُ عَلَى لِسَانِ حَالِ شَمْسٍ هَكَذَا:

[١٦٩] اجْلِسْ فِي عَيْنِي، يَا مَنْ أَنْتَ أَشْمَى مِنِّي،

لَكِنِّي أَتَمَلَّى الْقَمَرَ، فَإِنَّكَ أَضْوَأُ مِنَ الْقَمَرِ

وَادْخُلِ الْبُسْتَانَ لَكِنِّي يُذِيبُ الْحَيَاءُ وَرَدَّهُ،

لِأَنَّكَ أَجْمَلُ مِنْ مِثَّةِ بُسْتَانٍ وَرَوْضٍ وَرْدٍ، وَأَكْثَرُ نَضَارَةً

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْمَعْرِفَةَ الْإِلَهِيَّةَ، وَمَعْرِفَةَ أَاسَاسِ الْكَائِنَاتِ، يُمْكِنُ الْحَصُولُ عَلَيْهِمَا
بِمُسَاعَدَةِ مِفْتَاحِ الْعِشْقِ. وَعَلَيْنَا أَنْ نَظْهَرَ أَنْفُسَنَا مِنَ الرَّيْبِ وَالرَّيَاءِ، وَمِنْ أَوْصَافِنَا
الذَّمِيمَةِ؛ ابْتِغَاءً أَنْ «نَرَى ذَاتَنَا الطَّاهِرَةَ الصَّافِيَةَ». فَإِذَا مَا تَحَرَّرْتَ مِنَ اللَّوْنِ، وَارْتَبَطْتَ بِـ
«اللَّائُونِ»^(*)، فَسَتَغْدُو عَاشِقًا مُخْلِصًا. الْعِشْقُ هُوَ الَّذِي يُعْطِي الْعَارِفَ الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ
يَقْبَلَ. فَكَيْفَ صَارَتْ الْجِبَالُ مُطِيعَةً وَمُنْقَادَةً لِحَضْرَةِ دَاوُدَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وَالرَّيْحُ
الْعَنِيدَةُ لِمَاذَا صَارَتْ مُنْقَادَةً وَمُطِيعَةً لِسُلَيْمَانَ، وَحَمَلَتْ سَرِيرَهُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ،
وَمِنْ وَادٍ إِلَى وَادٍ آخَرَ؟ أَوْ فِي أَيِّ مَقَامٍ كَانَ حَضْرَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى أَمَرَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِأَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ الْبَحْرَ لِكَيْ يَنْجُوَ بَنُو إِسْرَائِيلَ؟ يَغْدُو الْعِشْقُ مُوجِبًا لِأَنْ
يَسْتَطِيعَ الْإِنْسَانُ الْإِحَاطَةَ بِالْعُلُومِ الْمُتَعَالِيَةِ مِنْ دُونِ كِتَابٍ وَأُسْتَاذٍ:

تَغْدُو الرِّيحُ حَمَّالَةً لِسُلَيْمَانَ

وَيَغْدُو الْبَحْرُ خَبِيرًا بِالْكَلامِ مَعَ مُوسَى

* - اللَّوْنُ وَ «الَلَّائُونُ» تَعْبِيرَانِ يَرِدَانِ كَثِيرًا عِنْدَ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ، وَيُرَادُ بِالْأَوَّلِ كُلُّ مَا سِوَى الْحَقِّ تَعَالَى مِمَّا
يُسَمَّى «الْأَغْيَارَ»، وَيُرَادُ بِالثَّانِي الْحَقُّ تَعَالَى، الْأَحَدُ [الْمُتَرَجِّمُ].

وَيَغْدُو الْقَمَرُ رَائِبًا لِلْإِشَارَةِ مَعَ أَحْمَدَ

وَتَغْدُو النَّارُ نَسْرِبَنَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ^(١)

حينَ يَوْجَدُ الْعِشْقُ نُدْرَكَ الْجَمَالَ. وَإِذَا شِئْتُمْ أَنْ أَقُولَ جُمْلَةً أَوْ كَلَامًا تَحْصِلُونَ مِنْهُمَا عَلَى تَعْرِيفٍ عِلْمِيٍّ جَامِعٍ فِي شَأْنِ الْعِشْقِ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْحَدِيثِ أَوْ الْكَلَامِ غَيْرُ مَوْجُودٍ. وَبَيَانِي غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنْ يَبَيِّنَ مِثْلَ هَذَا التَّعْرِيفِ بَبَسَاطَةٍ. وَالْعِشْقُ لَيْسَ مُحْسُوسًا وَمَعْلُومًا وَمَشْهُودًا، بَلْ هُوَ ظَاهِرَةٌ تَوَثَّرُ فِي آلَاتِ الْإِدْرَاكِ هَذِهِ جَمِيعًا. وَلَا يَسْتَطِيعُ الْعَقْلُ أَنْ يَصِفَهُ، مَا يَصِفُهُ هُوَ الْعِشْقُ فَقَط. نَعَمْ، الْعِشْقُ يَشْرَحُ الْعِشْقَ وَيَبَيِّنُهُ تَفْصِيلًا:

تَصِيرُ عَقْلًا، فَتَعْرِفُ الْعَقْلَ عَلَى التَّمَامِ

وَتَصِيرُ عِشْقًا، فَتَرَى الْعِشْقَ وَمَا فِيهِ مِنْ جَمَالٍ

عِنْدَمَا يَدْخُلُ الْعِشْقُ مِنْ بَابِ الْقَلْبِ

يُلْقِي الْعَقْلُ بِضَاعَتِهِ خَارِجًا^(٢)

لَكِنْ شَارَحَ الْعِشْقَ هُوَ شَمْسُ التَّبَرِيزِي، الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْدِّمَ لِلْعَارِفِينَ وَأَصْحَابِ الْقُلُوبِ شَرْحًا لِلْعِشْقِ عَلَى نَحْوِ رَائِعٍ. وَفِي مُتَنَاوَلِ شَمْسٍ أَنْ يَكُونَ مِثَالًا لِلْأَحْوَالِ الْعِرْفَانِيَّةِ لِلنَّاسِ. شَمْسٌ هَذَا قَادِرٌ عَلَى الْإِيضَاحِ التَّامِّ الدَّقِيقِ لِلْوَحْدَةِ، الَّتِي لَا تَنْفَصِمُ عُرَاهَا، بَيْنَ الْبَشَرِ وَبَيْنَ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَبَيَانِ كَيْفَ تَفْنَى شَخْصِيَّةُ الْإِنْسَانِ فِي الذَّاتِ الْمُطْلَقَةِ. شَمْسٌ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَتَحَدَّثَ، بِأَجْمَلِ الْكَلَامِ، عَنْ عَوَالِمِ الْعَدَمِ وَالْوُجُودِ وَالْحَقَائِقِ الْخَفِيَّةِ لِلْأَشْيَاءِ. [١٦٣]

١- المثنوي: ١٠١٥/٣-١٦.

٢- المثنوي: ١٠٧٦/٦، ٢.

وَيَعْلَمُ شَمْسُ أَنْ كُلَّ الْمَخْلُوقَاتِ الْجَامِدَةِ، الَّتِي لَا رُوحَ فِيهَا، هِيَ صَاحِبَةُ فَهْمٍ
وإِدْرَاكٍِّ بِالْقُوَّةِ. وَيَعْرِفُ شَمْسُ اللَّحْنَ الْأَسَاسِيَّ لِلْعَالَمِ بِمُسَاعَدَةِ اللَّغَةِ، عَلَى نَحْوِ
رَائِعِ. شَمْسُ يَقْوِي الذَّاتَ الْمَفْكُورَةَ فِي وَجُودِ الْعَارِفِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ الْفِكْرَ
اللَّامَحْسُوسَ صَانِعٌ مُبْدِعٌ، وَفِي مَقْدُورِهِ أَنْ يَصْنَعَ كُتُبًا وَرِسَائِلَ وَمُوسِعَاتٍ
وَدَوَابِينَ، وَفِي النِّهَايَةِ النَّاسَ. وَيَعْلَمُ أَيْضًا فَلَسْفَةً خَلَقَ النَّاسَ: مِنْ أَيْنَ جِئْنَا؟ - وَإِلَى
أَيْنَ نَذْهَبُ؟ - وَفِي أَيِّ مَكَانٍ قُلْنَا: «بَلَى» (*).

وَأَنْتُمْ تَرِيدُونَ بَهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ أَنْ تَعْرِفُوا سِرَّ عَظَمَةِ الْإِنْسَانِ، وَجَلَالِ الْكَائِنَاتِ. كَانَ
أَبُو يَزِيدَ الْبِسْطَامِيُّ يَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُعَدُّ فِي الْعَارِفِينَ حَتَّى تَصِيرَ كُلُّ شَعْرَةٍ فِيهِ عَيْنًا
يَنْظُرُ بِهَا. كَانَ وَجُودُ شَمْسٍ كُلِّهِ أَعْيُنًا، وَبِتِلْكَ الْأَعْيُنِ تَحَرَّرَ مِنَ ضَيْقِ الْعَالَمِ. تَحَرَّرَ مِنَ
الْعَيْبِ وَطَلَبَ الشَّهْرَةَ. كُلُّ شَيْءٍ نَظَرَ إِلَيْهِ رَأَى فِيهِ عِشْقًا. يَسْعَى شَمْسٌ لِكَيْ يَدُلَّنَا، أَنَا
وَأَصْحَابِي، عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي يُوصِلُنَا إِلَى دَائِرَةِ الْجَاذِبِيَّةِ؛ وَرَبِّمَا أَشَارَ وَقَالَ:

نَحْنُ مِنَ الْأَفَقِ الْأَعْلَى، وَإِلَى الْأَفَقِ الْأَعْلَى نَمْضِي

نَحْنُ مِنَ الْبَحْرِ، وَإِلَى الْبَحْرِ نَمْضِي

نَحْنُ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَلَسْنَا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ

نَحْنُ مِنَ اللَّامَكَانِ، وَنَمْضِي إِلَى اللَّامَكَانِ

و«لَا إِلَهَ» تَطْلُبُ «إِلَّا اللَّهُ»

وَنَحْنُ مِثْلُ «لَا»، نَمْضِي إِلَى «الْأَعْلَى»

* - يَشِيرُ إِلَى مَدْلُولِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا...) الْأَعْرَافُ: ١٧٢.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى:] «قُلْ تَعَالَوْا» دَلِيلٌ عَلَى جَذْبِ الْحَقِّ

وَنَحْنُ نَمْضِي إِلَى جَذْبِ الْحَقِّ تَعَالَى

نَحْنُ سَفِينَةُ نُوحٍ فِي طُوفَانِ الرُّوحِ

وَبِقِيَّتِنَا، نَمْضِي مُتَقَادِينَ مُسْلِمِينَ

وَإِنْ كُوكَبُنَا لَيْسَ فِي فَلَكَ الْقَمَرِ

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّنَا سَنَمْضِي إِلَى مَا فَوْقَ الثُّرَيَّا^(١)

إِنَّ الطَّرِيقَ لِيَلِ الْمَجَالِ الْمَغْنَطِيسِيَّ لِلْجَازِيَّةِ هُوَ الْعِبَادَةُ. وَقَدْ قَالَ شَمْسٌ: إِنَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نَنْفُذَ أَمْرَ الْقُرْآنِ الَّذِي قَالَ: «وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي» [الذَّارِيَاتُ ٥٦] عَلَى النَّحْوِ اللَّاتِقِ. وَقَدْ تَحَدَّثَ شَمْسٌ كَثِيرًا عَنْ مَعْبَدِ الْعَرْفَانِ، وَهُوَ يَرَى أَنَّ مَعْبَدَ الرَّجُلِ الْكَرِيمِ الْقَلْبُ الطَّاهِرُ الْخَالِي مِنَ الْأَغْيَارِ. وَعِنْدَمَا تَصْقِلُونَ قُلُوبَكُمْ سَتُحْسِنُونَ بِعَظْمَةِ الْحَقِّ وَجَلَالِهِ بِوُضُوحٍ. تُدَوِّي الْأَصْدَاءُ [١٦٤] الْمَهِيْجَةُ فِي سُودَاءِ الْقَلْبِ، وَتَقُولُ لِلْإِنْسَانِ: ادْخُلْ مِنْ هَذَا الْبَابِ إِلَى الْجَنَابِ الْإِلَهِيِّ، لِكَيْ تَنْظَرُ بِمَا تُرِيدُ. نَحْنُ مُلْكُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَعَلَى الْحَقِيقَةِ نَرْجِعُ إِلَيْهِ. سَأَلْتُ شَمْسًا مَرَّةً: -أَيُوجَدُ طَرِيقٌ أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ مِنَ الصَّلَاةِ؟ فَأَجَابَ:

- الصَّلَاةُ نَفْسُهَا. الصَّلَاةُ بِحُضُورِ الْقَلْبِ. الصَّلَاةُ لَيْسَتْ هِيَ هَذِهِ الصُّورَةُ فَقَطْ. هَذِهِ الَّتِي نَرَاهَا صُورَةُ الصَّلَاةِ. لِلصَّلَاةِ أَوَّلٌ وَآخِرٌ. رُوحُ الصَّلَاةِ لَيْسَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ فَقَطْ، بَلْ يَجِبُ أَنْ تُصَحَّبَ الصَّلَاةُ بِتَوَجُّهِ شَدِيدٍ إِلَى الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ. وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الْأَكْرَمُ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ): كُلُّ صَلَاةٍ لَيْسَ فِيهَا حُضُورٌ دَاخِلِيٌّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ نَاقِصَةٌ. وَكُلُّ صَلَاةٍ لِلرَّسُولِ كَانَتْ مِعْرَاجًا جَدِيدًا.

وفي أثناء العِبادَةِ، كان رُوحُ الرِّسُولِ [عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ] في صَلَاةٍ، وَقَلْبُهُ في تَضَرُّعٍ، ورَأْسُهُ في طَيْرَانٍ، ونَفْسُهُ في ذَوْبَانٍ.

كان شَمْسٌ يَقُولُ: أَمَامَ الْحَقِّ، في أثناء العِبادَةِ، يَجِبُ التَّكَلُّمُ كما تَكَلَّمَ أُمَّةُ الدِّينِ. وكان يَقُولُ: إِنَّ الوجودَ مَبْنِيٌّ على عِبَادَةِ النَّاسِ. وإذا كَانَتِ النُّجُومُ تَتَلَأَلُ في السَّمَاوَاتِ، وإذا كَانَتِ الشَّمْسُ والقَمَرُ يُبَدِّدَانِ بَأَنوَارِهِمَا حَتَّى الْآنَ الظُّلُمَاتِ، فَسَبَبُ ذَلِكَ هُوَ عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ والمُعْتَقِدِينَ والعَارِفِينَ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِحُضُورِ قَلْبٍ. وقد قَالَ شَمْسٌ: الْمُؤْمِنُونَ والعَارِفُونَ وَعُشَاقُ الْبَارِئِ تَعَالَى، هُمْ دَائِمًا في حُضُورِ الْحَقِّ، والنُّورِ الإِلَهِيِّ مُتَجَلِّ بِمَرَاتِبَ مُخْتَلِفَةٍ في أَرْوَاحِهِمْ.

شَمْسٌ إِنْسَانٌ كَامِلٌ، وقد آمَنَ بِأَنَّ الْعَارِفَ الْحَقِيقِيَّ يَصِلُ إِلَى الْمَحَلِّ الْمَقْصُودِ في السَّيْرِ والسُّلُوكِ. وكان يَرَى أَنَّ بِدَايَةَ الطَّرِيقَةِ الطَّلَبُ والعِشْقُ، وانْتِهَاءُهَا الثَّبَاتُ في دَائِرَةِ مِغْنَاطِيسِ الْعِشْقِ. وكان يُوَكِّدُ أَنَّ حَقِيقَةَ الوجودِ تَكُونُ في وجودٍ، أو ظُهُورٍ، الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ. وإذا وَصَلَ الْإِنْسَانُ إِلَى مَقَامِ الْقُرْبِ، أَعْلَنَ مِثْلَ الْخِرْقَانِي: عِنْدَمَا وَضَعْتُ قَدَمِي عَلَى الدَّرَجَةِ الْأُولَى مِنَ السُّلَمِ وَصَلْتُ إِلَى الْحَقِيقَةِ. أَنْصُورُ الْآنَ أَنَّنِي قَرِيبٌ مِنَ الْمَقْصُودِ، وَلَعَلَّكُمْ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْصُلُوا عَلَى الْحَقَائِقِ مِنْ كَلَامِي. نَحْنُ وَأَنْتُمْ كُلُّنَا في السَّيْرِ والسُّلُوكِ، فَإِنَّهُ:

سَيَرُ الْعَارِفُ ^(١) فِي كُلِّ لَحْظَةٍ يَكُونُ إِلَى عَرْشِ الْمَلِكِ [١٦٦]

١ - يَعْتَقِدُ الْأُسْتَاذُ فُرُوزَانْفَرُ أَنَّ السَّيْرَ إِلَى اللَّهِ يَبْدَأُ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنْقِطَاعِ، وَيَنْتَهِي بِالْفَنَاءِ، وَفِي كُلِّ مَنْزِلٍ مِنَ الْمَنَازِلِ يُسَقِّطُ السَّالِكُ وَاحِدَةً أَوْ أَكْثَرَ مِنْ صِفَاتِهِ الْبَشَرِيَّةِ، وَيَتَخَلَّصُ مِنَ التَّلَوِيثَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَالظَّاهِرِيَّةِ، حَتَّى يَغْدُو خَلُوعًا مِنَ النَّفْسِ، وَيَنَالُ مَقَامَ «الْفَنَاءِ»، وَمِنْ هَذِهِ الْوَجْهَةِ قِيلَ: مَنَازِلُ السُّلُوكِ مُحَدَدَةٌ، وَلَهَا بِدَايَةٌ وَنَهَايَةٌ وَمِثْلَمَا يَقُولُ =

= الصَّوْفِيَّةُ: «إِنَّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْحَقِّ أَلْفَ مَقَامٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ». والمقصودُ هنا طَبْعًا كَثْرَةُ هذه المقامات وتعدُّدها، وَلَيْسَ كَوْنُهَا أَلْفَ مَنْزِلٍ، على الحقيقة.

وقد كان السَّيِّدُ عَبْدُ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ، الذي كان في الظَّاهِرِ أَوَّلَ مَنْ بَيَّنَ هذه المَنَازِلَ على نَحْوِ مَنْظَمٍ وَمَنْطَقِيٍّ نَسْبِيًّا، سَمَّى الْوَاحِدَ مِنْهَا فِي مَوْضِعِ «مَيْدَانًا»، وَكَتَابَهُ «مِثْلُ مَيْدَانٍ» حِكَايَةً لِهَذَا التَّرْتِيبِ وَسَمَّاهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ «مَنْزِلًا»، وَسَمَّى مَجْمُوعَهَا «مَنَازِلَ السَّائِرِينَ إِلَى الْحَقِّ». وبهذه المُنَاسِبَةِ، أَلَفَ كِتَابَهُ «مَنَازِلَ السَّائِرِينَ» الَّذِي أَنْشَأَهُ أَوَّلًا بِالْفَارْسِيَّةِ، وَثَانِيًا بِالْعَرَبِيَّةِ وَلَكِنَّهُ قَسَمَ كُلَّ مَيْدَانٍ أَوْ مَنْزِلٍ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاجِلَ: الْبِدَايَاتِ، وَالْأَوْسَاطِ، وَالنِّهَايَاتِ، إِذْ يَبْلُغُ مَجْمُوعُهَا ثَلَاثَ مِثْثِ مَنْزِلٍ أَوْ مَيْدَانٍ أَوْ مَقَامٍ وَيَبْدَأُ السَّيْرُ فِي اللَّهِ بَعْدَ خُلُوعِ الصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ وَالتَّخْلُصِ مِنَ النِّقَائِصِ الْمَادِيَّةِ وَالتَّنَفُّسِ. وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ تَحَقُّقُ السَّالِكِ بِالْأَوْصَافِ الْإِلَهِيَّةِ، وَسِيرُهُ فِي مَقَامِ الْأُلُوهِيَّةِ الَّذِي غَايَةُ هُوَ الْعِبَادِيَّةُ. وَهَذَا التَّنَوُّعُ مِنَ السَّيْرِ لَيْسَ لَهُ نِهَايَةٌ، لِأَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى وَصِفَاتُهُ لَا يَتَصَوَّرُ لَهَا الْبَتَّةَ نِهَايَةً.

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ مَنَازِلَ الرُّوحِ إِشَارَةٌ إِلَى السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ، وَأَسْفَارُ الرُّوحِ عِبَارَةٌ عَنِ السَّيْرِ فِي اللَّهِ، أَوْ هِيَ عَيْنُ انْتِقَالِ الرُّوحِ مِنْ مَنْزِلٍ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ فِي سُلُوكِ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَهَذِهِ الْأَسْفَارُ عِبَارَةٌ عَنْ أَرْبَعَةِ نُسَمَى «الْأَسْفَارُ الْأَرْبَعَةُ» عَلَى هَذَا التَّخَوُّصِ:

١ - السَّفَرُ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ، وَبِدَايَةُ ذَلِكَ التَّوْبَةُ، أَيْ الرُّجُوعُ مِنَ الْحَيَوَانِيَّةِ إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، الَّذِي شَرَطَ صِحَّتَهُ قَبُولُ الشَّيْخِ، وَنِهَايَتُهُ الْإِتِّصَالُ بِمَلَكُوتِ الشَّيْخِ وَظُهُورُ السَّكِينَةِ، أَيْ تَمَثُّلُ الشَّيْخِ فِي قَلْبِ السَّالِكِ.

٢ - السَّفَرُ مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْحَقِّ، وَمِبْدَؤُهُ مَلَكُوتُ الشَّيْخِ، وَنِهَايَتُهُ الْإِتِّصَالُ بِالْأَوْصَافِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْوَصُولُ إِلَى مَقَامِ الرِّيَاضِيَّةِ. وَمَنَازِلُ هَذَا السَّفَرِ لَيْسَ لَهَا نِهَايَةٌ وَيُظَوِّرُ السَّالِكُ الطَّرِيقَ فِي هَذَا السَّفَرِ فِي حَالَةِ وَلَهٍ وَدَهْشَةٍ وَانْجِدَابٍ، حَتَّى يُعَادَ إِلَيْهِ الصُّخْرُ وَالْوَعْيُ.

٣ - السَّفَرُ فِي الْحَقِّ. وَفِي هَذَا السَّفَرِ لَا يَرَى السَّالِكُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى، وَيَنْسَبُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى اللَّهِ، مِنْ دُونِ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ شُعُورٌ بِالنِّسْبَةِ وَفِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ يَتَحَقَّقُ بِصِفَاتِ الْجَمَالِ وَالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى. وَالسَّالِكُ فِي هَذَا السَّفَرِ يَتَشَهَّدُ غَرَائِبَ الصَّنْعِ، عَلَى نَحْوِ أَنَّهُ فِي السَّفَرِ الْأَوَّلِ لَا يَرَى إِلَّا الْمَصْنُوعَ، وَفِي السَّفَرِ الثَّانِي لَا يَشَاهِدُ إِلَّا شَيْخَهُ. وَمِنْ قَرِيطِ الْخَيْرَةِ وَالْوَلَهِ لَا يَرَى الصَّنُوعَ وَالْمَصْنُوعَ، وَمَقَامَاتُ هَذَا السَّفَرِ لَا تَنْتَهِي.

٤ - سَفَرٌ بِالْحَقِّ فِي الْخَلْقِ. عِنْدَمَا يَنْتَهِي السَّفَرُ الْأَوَّلُ، وَيَتَحَقَّقُ الْعَبْدُ بِالصِّفَاتِ وَالْأَسْمَاءِ الْإِلَهِيَّةِ يَوَاجِهُ الْحَالَاتِ الثَّلَاثَ الْأَوَّلَى، وَيَعُودُ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَجْلِ إِصْلَاحِ الْمَجْتَمَعِ. وَتِلْكَ هِيَ مَرْتَبَةُ الرِّسَالَةِ وَالتَّبَوُّةِ، وَيَكُونُ حُكْمُهُ مِنْ حُكْمِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ. وَيَرَى الصَّوْفِيَّةُ أَنَّ الْأَوْلِيَاءَ، خُلَفَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، لَهُمْ أَيْضًا هَذِهِ الصِّفَةُ.

وَإِذْ مَحَرَّفْنَا السَّيْرَ إِلَى اللَّهِ، يَكُونُ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ نَعْرِفَ شَيْئًا عَنِ الْإِسْتِغَاثَةِ أَيْضًا؛ إِذِ الْإِسْتِغَاثَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: أَحَدُهَا مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْخَلْقِ، وَهُوَ عَلَامَةُ الْبُعْدِ وَالْيَأْسِ مِنْ قَبُولِ الدَّعَاءِ وَالثَّانِي مِنَ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ، وَهُوَ طَرِيقُ الْإِسْلَامِ وَشَرَطُ الْعِبَادِيَّةِ وَالثَّالِثُ اسْتِغَاثَةُ مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْحَقِّ، وَهِيَ وَسِيلَةُ تَحَبُّبِهِ تَعَالَى وَإِجَابَةُ أَمْرِهِ فَمَنْ يَشْكُو الْحَقَّ إِلَى الْخَلْقِ يَزِيدُ مُصَابَهُ، وَمَنْ يَشْكُو الْخَلْقَ لِلْحَقِّ يَجِدُ الْعِلَاجَ، وَمَنْ يَشْكُو الْحَقَّ لِلْحَقِّ يَرَى الْحَقَّ =

وَسَبَرُ الزَّاهِدِ فِي كُلِّ شَهْرٍ طَرِيقُ يَوْمٍ وَاحِدٍ

وَمَعَ أَنْ لِلزَّاهِدِ رِزْقًا عَجِيْبًا مَتَى كَانَ يَوْمُهُ بِخَمْسِينَ أَلْفًا؟

وَقَدَرُ كُلِّ يَوْمٍ مِنْ عُمْرِ الْعَارِفِ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ سِنِي الدُّنْيَا^(١)

الْعَارِفُ لَا يَخْلُطُ إِيْمَانَهُ وَاعْتِقَادَهُ بِالْإِسْتِدْلالاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْمَمْتَرِجَةِ بِالشَّكِّ، وَيَرَى الْحَقَائِقَ بِمُسَاعَدَةِ الْقَلْبِ، أَوْ عَيْنِ الْقَلْبِ.

وَنَحْنُ، بِمُسَاعَدَةِ بَازِيِ الْعِشْقِ، الدَّلِيلِ الْمُطْمَئِنِّ لِلنَّاسِ، نَتْرُكُ الْعَقَائِدَ وَالْفِكَرَ الضَّالَّةَ لِلْمَادِّيِّينَ فِي مَسْتَوْدَعِ التَّارِيخِ، وَنُبْطِلُ كَلَامَ الْفَلَسَفَةِ الْمَادِّيِّينَ. الْإِنْسَانُ فِي الْأَزَلِ خُلِقَ عَاشِقًا. وَقَدْ أُعْطِيَ الْحَقُّ تَعَالَى الْقَلْبَ لِلْإِنْسَانِ، لِكَيْ يَسِيرَ بِمُسَاعَدَتِهِ فِي فُضَاءٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا. الْإِنْسَانُ هُوَ الْعَالَمُ الْأَصْغَرُ، وَمَحَلُّ أَعْظَمِ تَجَلِّيَّاتِ «الْمُطْلَقِ»:

إِنَّ لِلْعِشْقِ خَمْسَ مِائَةِ جَنَاحٍ

وَكُلُّ جَنَاحٍ يَمْتَدُّ مِنْ فَوْقِ الْعَرْشِ إِلَى طِيَاقِ الثَّرَى

وَالزُّهَادُ يَنْطَلِقُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ خَائِفِينَ

وَالْعُشَّاقُ أَسْرَعُ طَيْرَانًا مِنَ الْبَرْقِ وَالْهَوَاءِ^(٢)

وَنَحْنُ نَعْبُدُ اللَّهَ [عَزَّ وَجَلَّ] بِمَحَبَّةٍ وَعِشْقٍ، وَفَضِيلَةُ الْإِنْسَانِ فِي الْعِشْقِ. وَإِنَّ أَعْظَمَ

= وَنَسْمَعُ الْحَقَّ قَالِ السَّبِيلِي: إِلَهِي، إِنَّ خَاطِبَتَكَ تَرَكَّتْنِي، وَإِنْ تَرَكْتِكَ طَلَبْتَنِي، فَلَا قَرَارَ مَعَكَ، وَلَا فِرَارَ مِنْكَ، أَسْتَغِيثُ مِنْكَ إِلَيْكَ إِلَهِي، إِنَّ دَعْوَتَكَ طَرَدْتَنِي، وَإِنْ انْصَرَفْتُ دَعَوْتَنِي، فَمَاذَا أَفْعَلُ بِهَذِهِ الْخَيْرَةِ؟ لَا رَاحَةَ لِي مَعَكَ، وَلَا أَمْرِي [١٦٦] مِنْ دُونِكَ بِطَيْبٍ، لَا مَجَالَ لِلانْقِطَاعِ، وَلَا أَمَلٍ بِالْوِصَالِ، غِيَاثُكَ، إِنَّ الْأَرْوَاحَ جَمِيعًا عَاشِقَةٌ لَكَ، وَهَذِهِ الْقُلُوبُ خَائِرِي فَيْكَ:

فَلَيْتَكَ أَنْتَ أَيْضًا تُعِدُّ فَتُرِيحَنِي وَتُسَهِّلَ عَلَيَّ نَفْسِيكَ
وَمِنْ مَرْهَمِكَ وَاحْسَانِكَ تُدَوِّي أَلْمِي وَسَقَايَ

١- الْمُشْتَوِي: ٥/٢١٨٢.

٢- الْمُشْتَوِي: ٥/٢١٩٣.

خِدْمَةِ أَسْدَاها شَمْسٌ لِي، وَلأَحْبَاتِي، هُوَ أَنَّهُ رَسَمَ لَنَا خَطًّا بَيْنَ عَالَمِ الظَّاهِرِ وَعَالَمِ الْبَاطِنِ، وَبَيَّنَ لَنَا الْعَالَمَيْنِ كُلَّيْهِمَا تَمَامًا، وَقَالَ: لِكَيْ يُدْرِكَ الْإِنْسَانُ عَالَمَ الْبَاطِنِ، عَلَيْهِ أَنْ يَغْدُوَ عَاشِقًا. وَأَنْتُمْ، مُثَلِّي الْمَحْفَلِ الرُّوحَانِي فِي قُوْنِيَّةٍ، سَمِعْتُمْ يَقِينًا بِاسْمِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، حَتَّى الْآنَ؟ فَأَجَابُوا: نَعْرِفُهُ.

ذَكَرَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى قَالَ: مَتَى وَقَفَ عَبْدِي نَفْسَهُ لِعِبَادَتِي وَطَاعَتِي أَدْرَكَهُ السَّرُورُ وَالبَهْجَةُ سَرِيعًا مِنْ تِلْكَ الْحَالِ، وَاسْتَبَدَّ بِهِ الْوَجْدُ، [١٦٧] وَأَنَا أَيْضًا أَحْبَبْتُهُ وَأَحْبَبَنِي: عَشِقْنِي وَعَشِقْتُهُ. وَنَحْنُ حَلَلْنَا لُغْزَ الْأَبَدِيَّةِ بِمُسَاعَدَةِ الْعِشْقِ:

لَسْتُ أَنَا وَخِدِي الثُّمَلِ مِنْ عِشْقِكَ

فَمَنْ ذَا الَّذِي، قُلْ أَنْتَ، نَجَا مِنْ هَذِهِ الْخَمْرَةِ؟

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كُنْتُ تَنَاوَلْتُ فِيهِ هَذِهِ الْكَأْسَ

كُنْتُ نَدِيمًا لِمُذْمَنِي خَمْرَةِ «الْأَسْتُ».

الْعِشْقُ هُوَ عَصَاةُ الْحَيَاةِ، وَهُوَ ابْتِدَاؤُهَا وَانْتِهَاؤُهَا، وَالدَّافِعُ الْحَقِيقِيُّ لِلْعِشْقِ مُرْتَبِطٌ بِكُلِّيَّةِ الْوُجُودِ، وَهُوَ حَرَكَةٌ وَتَحَوُّلٌ وَقَصْدٌ إِلَى الْجَمَالِ، الَّذِي كَانَ ابْنُ سِينَا يَعُدُّهُ نَظِيرًا لِلْكَمَالِ. وَكُلُّ مُحَاوَلَةٍ لِإِبْصَاحِ الْعِشْقِ لَا طَائِلَ مِنْ وَرَائِهَا، وَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَوْضَحَ سِرَّ الْعِشْقِ جَيِّدًا إِنَّمَا هُوَ أَنْيُنُ النَّايِ^(١) وَنَوَاحُهُ، الْمَوْسِيقَا:

فَإِذَا كَانَ نَفْسِيرُ اللَّسَانِ يُنِيرُ السَّبِيلَ (لِمَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ)

فَإِنَّ الْعِشْقَ، مِنْ دُونِ اللَّسَانِ، أَفْصَحُ مِنْ أَيِّ بَيَانٍ

١- كُلُّ مَا أَقُولُهُ شَرْحًا لِلْعِشْقِ وَبَيَانًا أَخْجَلُ مِنْهُ عِنْدَمَا آتِي إِلَى الْعِشْقِ

(الْمُتَّوِي: ١١٢/٨)

إِنَّ النَّايَ نَدِيمٌ لِكُلِّ مَنْ فَرَّقَهُ الدَّهْرُ عَنْ حَبِيبِ

وإن أنغامه قد مزقت ما يغشى أبصارنا من حُجب^(١)

أو:

إِنَّ مُطَرِّبَ الْعِشْقِ يَتَغَنَّى بِهَذَا وَقْتُ السَّمَاعِ:

العُبُودِيَّةُ قَيْدٌ، وَالسِّيَادَةُ ضِدَاعٌ^(٢)

العارفون، ومنهم شمسٌ، يعتقدون أن أولئك الذين لا يعرفون العشق، أو لا يدركونه، وأنفسهم غير مهذبة وغير مؤدبة، حالهم كحال البحر المالح. وهؤلاء يجب أن يُسلموا إلى شيخ أو مُرشدٍ لألاء الضمير، أي شخصٍ كالبحر العذب، لكي يُغيّر مُلوحة أزواجهم إلى حلاوة وعذوبة، بإرشاده وتربيته الصحيحة القويمة. ثم صمّت مولانا، صمّت البحر.

١- المثنوي: ١١٣/١، ١١.

٢- المثنوي: ٤٧٢٥/٣.

- أَعْقِدُ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ أَمُوتَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَأَنَا نِصْفُ نَيْلٍ
 وَرَاقِصٌ، وَمُمِيسِكٌ بِإِبْرِيْقِ الشَّرَابِ بِيَدِي،
 - إِلَى سُوقِ الْقَلَنْدَرِيِّينَ وَالذَّرَاوِشِ
 فَأَعْبَثُ لِسَاعَةٍ بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ
 - فَلَيْلَى مَتَى أَكُونُ مَرِشِدًا زُورًا وَبَهْتَانًا؟
 وَإِلَى مَتَى أَكُونُ عَابِدًا لِنَفْسِي عُجْبًا وَاغْتِرَارًا؟!
 فَرِيدُ الدِّينِ الْعَطَّارِ

حِكَايَةُ عَنْ نَجْمِ الدِّينِ كُبْرَى (*)

عِنْدَ هَذِهِ النِّقْطَةِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِمَّنْ لِيَ الْمَحْفَلِ الرُّوحَانِيَّ فِي قُوْنِيَّةَ، وَكَانَ بَدَأَ أَنَّهُ
 مُضْطَرِّبٌ وَمُتَضَائِقٌ وَكَانَ اسْمُهُ جَمَالَ الدِّينِ، أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ أَمَامَ الْكَلَامِ النَّافِذِ الْخَارِقِ
 لِلْعَادَةِ، الَّذِي تَحَدَّثَ بِهِ مَوْلَانَا، فَقَالَ:

أَحْسَبُ أَنَّ كَلَامَ مَوْلَانَا وَسُلُوكَهُ وَعَمَلَهُ خَارِجَةٌ عَنِ الْأَصُولِ وَالسُّنَنِ وَالْقِيَمِ
 الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالذِّينِيَّةِ. وَنَحْنُ مُضْطَرُّونَ إِلَى الذَّهَابِ إِلَى الْمَحْكَمَةِ وَالشَّكْوَى إِلَى الْأَمِيرِ
 عَزَّ الدِّينِ كَيْكَائِوسَ، أَمِيرِ قُوْنِيَّةَ، لِكَيْ يُظَهَّرَ أَرْضَ قُوْنِيَّةَ مِنْ وَجُودِ مُجِيبِي شَمْسِ
 وَعَاشِقِيهِ، بِالسِّيُوفِ الْهِنْدِيَّةِ. إِنَّ مَوْلَانَا مِنْ أَهْلِ الْجَدَلِ، مَوْلَانَا بِسِحْرِ مَنْطِقِهِ يُظَهِّرُ
 الْبَاطِلَ حَقًّا، مَوْلَانَا مُرْتَاضٌ، وَمُنْجَذِبٌ لِشَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ. وَلَسْنَا نَعْلَمُ مَاذَا صَنَعَ
 شَمْسٌ مِنَ الشُّعُودَةِ وَالْمَكْرِ، حَتَّى جَعَلَ رَجُلًا مَوْحِدًا مَنْخَدِعًا بِهِ وَعَاشِقًا لَهُ. وَهَذَا
 الَّذِي يَقُولُهُ مَوْلَانَا سِرًّا وَعَلَانِيَةً لَمْ يُرَ فِي كِتَابِ سَمَاوِيٍّ أَبَدًا. فَالْعِشْقُ وَالذَّوْرَانُ
 وَالرَّقْصُ وَالتَّصْفِيقُ وَالْمُشَارَكَةُ فِي مَجَالِسِ السَّمَاعِ وَمَحَاضِرِ الْغِنَاءِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ لَا

* - هُوَ الشَّيْخُ نَجْمُ الدِّينِ عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ الْحَقِيقِيِّ، الْمَعْرُوفُ بِـ «كُبْرَى»، الَّذِي نَالَ عِدَدًا مِنَ الشَّيُوخِ الْعَارِفِينَ فِي ظِلِّ
 تَرْبِيَّتِهِ مَرْتَبَةَ الْإِرْشَادِ وَالْإِمَامَةِ، مِنْ مِثْلِ تَحْيِي الدِّينِ الْبَغْدَادِيِّ، وَبِهَاءِ وَلَدِهِ، وَفَرِيدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ، وَنَجْمِ الدِّينِ الزَّازِي
 الْمَعْرُوفُ بِـ «دَايَه» [الْمُتَرَجِمُ].

حِكَايَةُ عَنْ نَجْمِ الدِّينِ كُنْزِي

تَتَّفَقُ وَالْأَدَابَ وَالرَّسُومَ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ احْتِرَامِنَا، وَلَا تَنْسَجِمُ أَيْضًا مَعَ عَقَائِدِنَا. وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ وَالتَّصَرُّفَاتُ، الَّتِي تَبْدُو بَعِيدَةً عَنِ الْعَقْلِ، مُخَالَفَةٌ لِلْأَصُولِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالذِّينِيَّةِ. وَأَنَا، بِاسْمِ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ فِي قُوْنِيَّةَ، سَأَطْلُبُ مِنَ الْأَمِيرِ عَزِّ الدِّينِ كِيكاوس - حَاكِمِ قُوْنِيَّةَ - أَنْ يُلْغِيَ خَائِفَةَ الْمَوْلُوتَيْنِ هُنَا، [١٦٩] وَأَنْ يَحَاكِمَ مَوْلَانَا فِي مَحْكَمَةِ دِينِيَّةٍ بِتَهْمَةِ «الابتداع». الْمُرِيدُ وَالْمُرَادُ فِي الْخَائِفَةِ هُمْ نَوْعٌ مِنْ أَصْحَابِ الذَّاكِكِينَ، وَنَزَعُمْ أَنَّهُمْ عُبَادُ أَصْنَامٍ. مَوْلَانَا يَقُولُ كَلَامًا مُبْهَمًا، وَيَتَحَدَّثُ عَنِ الْوَجْدِ وَالْهَيْجَانِ وَالْحَالِ، يَتَحَدَّثُ عَنِ السَّمَاعِ وَالرَّقْصِ وَالْعِشْقِ، وَيُرْوِي أُمُورًا عَنِ الْجَيْشَانِ الدَّاخِلِيِّ وَالرَّمْزِيِّ فِي كَلَامِ الْعَارِفِينَ، وَعَنْ تَأْثِيرِهِ، وَعَنْ شَطَحِيَّاتِ الْعَارِفِينَ الَّتِي لَا يَقْبَلُ عَقْلٌ أَيْ عَاقِلٌ أَنَّهَا مِنْ نَوْعِ الْكَلَامِ الْمَنْطِقِيِّ. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ تَذَكُّرُ بِوَفَادَةِ ذَلِكَ السَّاحِرِ التَّبْرِيزِيِّ إِلَى قُوْنِيَّةَ، تَذَكُّرُ بِشُؤْمِ أَيَّامِ الْخُلُوةِ وَلَيَالِيهَا، تَذَكُّرُ بِأَنَارِ الْأَيَّامِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي قَضَيْتُمَاهَا فِي الْخُلُوةِ. هَذِهِ التَّصَرُّفَاتُ الْجُنُونِيَّةُ إِلَى مَتَى يَجِبُ أَنْ تَتَوَاصَلَ. وَهَذَا الْوَجْدُ وَالْحَالُ وَالذَّوْقُ وَالْعِشْقُ وَالْجَذْبُ، الَّتِي تُرَى وَتُسَمَّعُ فِي سُلُوكِ أَتْبَاعِ شَمْسٍ، إشاراتٌ وَاضِحَةٌ لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ. وَإِلَّا فَاللَّهُ تَعَالَى الَّذِي أَتَى بِالْعَالَمِ مِنْ كَثَمِ الْعَدَمِ إِلَى سَاحَةِ الْوُجُودِ، وَبِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ أَلْبَسَ كُلَّ مُمْكِنٍ تَبَعًا لِمُسْتَعْدَادِهِ كِسُوءَ وَجُودٍ خَاصَّةً بِهِ، وَكُنْهُ وَحَقِيقَتَهُ سُبْحَانَهُ خَارِجَةً عَنْ نِطَاقِ الْإِدْرَاكِ وَالتَّصَوُّرِ، كَيْفَ وَبِأَيَّةِ قُدْرَةٍ يُمْكِنُ ادِّعَاءُ إِدْرَاكِ ذَاتِهِ؟! أَيْسْتَطِيعُ الْعِشْقُ أَنْ يَحْظِيَ بِوَسْطِ هَذِهِ الْقُوَّةِ؟ لَيْسَ لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ حَدٌّ، وَنَحْنُ جَمِيعًا مَدَّاحُونَ لِعَظَمَتِهِ، وَمَعْتَكِفُونَ فِي كَعْبَةِ عُبودِيَّتِهِ.

نَحْنُ، بَعْدَ خَمْسِينَ عَامًا مِنَ الْعِبَادَةِ، لَا نُجِيزُ لَأَنْفُسِنَا أَنْ نَقُولَ إِنَّنَا نَشَاهِدُ جَلَوَاتِ جَمَالِهِ فِي قُلُوبِنَا. ثُمَّ يَدَّعِي سَاحِرٌ أَنَّهُ، بِفَضْلِ الْعِشْقِ، أَدْرَكَ أَسْرَارَ الْوُجُودِ وَطَلَبَ الْقُرْبَ مِنْ كَعْبَةِ الْوِصَالِ.

الاختلافُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنَّنَا نَقُولُ: «مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ»، أَمَا أَنْتُمْ فَتَعْتَقِدُونَ بِأَنَّكُمْ بِمَعُونَةِ الْعِشْقِ تُصْبِحُونَ مَلَائِكَةً مُحَلَّقَةً وَكَائِنَاتٍ لَا يَتَخَيَّلُهَا الْوَهْمُ.

أَنْتُمْ مَدَّاحُونَ لِلْمَشْرَبِ الْعِرْفَانِيِّ الْإِشْرَاقِيِّ، الْمَتَّصِلِ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ. أَنْتُمْ تُعَالُونَ فِي شَأْنِ قُدْرَةِ أَهْلِ الْعِرْفَانِ عَلَى الْكَشْفِ وَالشَّهُودِ. وَنَحْنُ اسْتِدْلَالِيُونَ عَلَى التَّحْوِ الَّذِي تَرَوْنَهُ، أَيْ إِنَّا مُخَالَفُونَ تَمَامًا لِوُجْهِه نَظَرِكُمْ. وَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِعَظَمَةِ شَرَفِ الرُّوحِ الْإِنْسَانِيِّ، الَّذِي هُوَ وَدِيعَةُ إِلَهِيَّةٍ أَفِضَّتْ مِنْ عَالَمِ الذَّرِّ إِلَى هَذَا الْمَوْجُودِ التُّرَابِيِّ، وَنَقُولُ: إِنَّ الرُّوحَ الْإِنْسَانِيَّ يَسْتَطِيعُ، بِمَدَدِ اكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ وَبِالْعِبَادَةِ الْمَقَرَّرَةِ، أَنْ يَنَالَ الْمَقَامَ الْحَقِيقِيَّ الْإِنْسَانِيَّ، الَّذِي هُوَ عَيْنُ الْمَقَامِ الَّذِي ذَكَرَ سَعْدِيُّ الشِّيرَازِيِّ أَنَّ صَاحِبَهُ لَا يَرَى إِلَّا اللَّهَ [١٧٠].

كَانَ مَوْلَانَا فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ فِي غَايَةِ الْإِسْتِمَاعِ وَالِإِضْغَاءِ، مُطَرِّقَ الرَّأْسِ مِنْهُمْ كَمَا فِي التَّفَكُّرِ، مِثْلَ بَحْرِ مَهِيْبٍ، لَكِنَّهُ كَانَ يَبْدُو هَادِئًا رَابِطًا الْجَاشَ.

وَههنا، سَأَلْ وَاحِدًا آخَرَ مِنْ مِمَثْلِي الْمَحْفِلِ الرُّوحِيِّ فِي قُوْنِيَّةِ:

هَلْ تُخَالَفُونَ حُكُومَةَ الْعَقْلِ فِي وُجُودِ الْإِنْسَانِ؟ نَحْنُ نَقُولُ: إِنَّهُ بِفَضْلِ الْعِلْمِ فِي مَدْرَسَةِ الْعَقْلِ يُمْكِنُ كَشْفُ أَسْرَارِ الْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ، وَمِنْ هَذَا الطَّرِيقِ يُمْكِنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْرِفَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ. وَالسَّالِكُ، مِنْ دُونِ كَسْبِ الْعِلْمِ، لَا يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ، وَالْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يَعُدُّ الْعَقْلَ إِمَامًا لَهُ مِثْلَ طَائِرٍ بِلَا جَنَاحٍ وَلَا رِيشٍ. وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَكْتَسَبَ مِقْدَارًا مِنَ الْعِلْمِ، لَدَيْهِ إِيْمَانٌ رَاسِخٌ. وَالْإِيْمَانُ، وَإِدْرَاكُ الْحَقِيقَةِ، لَا يَحْصُلُ عَلَيْهِمَا الْإِنْسَانُ بِالذَّوْرَانِ وَالسَّمَاعِ وَالرِّيَاضَةِ. وَمَوْلَانَا، بَعْدَ فِرَاقِ شَمْسِ، لَجَأَ إِلَى عَالَمِ الْعِشْقِ، الَّذِي هُوَ عَالَمٌ مُبْهَمٌ وَبَعِيدٌ عَنِ الْعَقْلِ، وَلَا يَرِيدُ أَنْ يَعِيشَ لِلْحَظَّةِ مِنَ

دون محبوبٍ ومغشوق.. وأشعارُ مَوْلَانَا العِشْقِيَّةُ تُبَيِّنُ حَقِيقَةَ أَنَّ العِشْقَ أَكْثَرُ الظَّوَاهِرِ اتِّصَالًا بِالْحَقِّ، وَالنَّاسُ يَأْتُونَ إِلَى الدُّنْيَا بِتَأْثِيرِ جَذْبِ العِشْقِ.

وقد نَقَلَ مَوْلَانَا مِنْ كَلَامِ شَمْسِ أَنَّ العِشْقَ شَاهِينٌ سَرِيعُ الطَّيْرَانِ، عُشَّةٌ فِي قُلُوبِ العَارِفِينَ. وَقَالَ مَوْلَانَا مِرَازًا: إِنَّ كُلَّ مَا هُوَ موجودٌ، وَكُلَّ مَا تَرَاهُ فِي فضاءِ الأَرْضِ وَفِي المَلَكُوتِ وَالكائناتِ وَالنَّاسِ، هُوَ مِنْ آثَارِ جَذَبَاتِ العِشْقِ. معشوقُ مَوْلَانَا هُوَ شَمْسٌ، الطَّاعِنُ فِي السَّنِّ، السَّاحِرُ التَّبْرِيزِيُّ، وَالانقيادُ لِهَذَا السَّاحِرِ وَالشَّيْطَانِ المَجْسَّمِ وَاعتباره الطَّلُوعَ وَالعُروبَ لِلْحَيَاةِ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ سِحْرُ الحَيَاةِ، كَذِبٌ وَشِرْكٌ وَمِثْلُ ذَهْنِي. فَكَيْفَ تُجِيزُونَ لِأَنْفُسِكُمْ أَنْ تَمْحُوا العَقْلَ الَّذِي هُوَ شَرَفُ إِنْسَانِي وَجَوْهَرُ بَشَرِي، أَوْ تَقُولُوا: إِنَّ قَدَمَ الاستدلالتَيْنِ خَشْيَةٍ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا؟ لَمْ تُدْرِكُوا عَظَمَةَ العَقْلِ. العَقْلُ أَساسُ الحَيَاةِ، وَنقطةُ ارتكازِهَا. العَقْلُ مَيَّالٌ إِلَى الوَاقِعِ، وَهُوَ يَحَقِّقُ القِيَمَ الأبديةَ عِنْدَ البَشَرِ. أَعَصَى كَلَامِكُمْ عَلَى الفَهْمِ، وَأَكْثَرُهُ إِبْهَامًا، مِثْلُ كَلَامِ ذَلِكَ السَّاحِرِ التَّبْرِيزِيِّ فِي شَأْنِ العِشْقِ، وَنَحْنُ لَا نَفْهَمُهُ.

وَإِنَّ أَهْلَ قُوْنِيَّةٍ غَيْرَ مَهْيِثِينَ لِلتَّسْلِيمِ بِهَذِهِ العَقَائِدِ اللَّامُنطَقِيَّةِ. وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّ شَمْسًا لَا غَنَاءَ مِنْهُ، أَوْ هُوَ قَلِيلُ المَحْصُولِ، وَهُوَ غَيْرُ لائقٍ لِأَنْ يَكُونَ مُرَادًا وَرَعِيْمًا. وَلَا يَسْتَطِيعُ مَوْلَانَا أَنْ يُبَايِعَهُ تَحْتَ لِيَوَاءِ العَقْلِ، وَيَعْرِفَهُ بِأَنَّهُ شَيْخٌ. وَنَحْنُ، حَتَّى الآنَ، نَعْتَرِفُ لِمَوْلَانَا بِصَفَاءِ البَاطِنِ وَالكَمَالِ النَّفْسَانِي، وَلَكِنَّا غَيْرُ مُسْتَعْدِينَ لِأَنْ نَسْلَمَ بِأَنَّ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ عَالِمٌ رُوحَانِيٌّ أَوْ عَارِفٌ مُتَشَرَّدٌ.

[١٧١] نَحْنُ جَمِيعًا مُعْتَرِضُونَ عَلَى الدُّورَانِ وَالرَّقْصِ وَالسَّمَاعِ، فِي الخَانِقَاهِ وَخَارِجِهِ.

وقد تَرَامَى إِلَى أَسْمَاعِنَا، أَنَّ مَوْلَانَا فِي سَاعَاتِ فَرَاغِهِ يَنْظُمُ الغَزَلِيَّاتِ الَّتِي أَكْثَرُ أَيْبَاتِهَا مِنْ أَجْلِ الرَّقْصِ وَالتَّصْفِيقِ، وَهِيَ ذَاتُ تَلْحِينٍ، وَتُدْخِلُ الأَشْخَاصَ مِنْ دُونِ قَصْدٍ فِي حَالٍ مِنْ

الوَجْد والهِجَان. وقد سَمِعْنَا أَنَّ مَوْلَانَا، أحيانًا يَنْشَغِلُ مِنْذُ الْفَجْرِ إِلَى أَنْ تَعْتَلِي الشَّمْسُ فِي السَّمَاءِ بِالسَّمَاعِ الصَّوْفِيِّ، صَائِحًا: شَمْس، شَمْس، وَينهمِرُ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ مِنْ أَجْلِ شَمْسٍ وَفراقِهِ. قائلٌ هَذَا الْكَلَامِ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ بِغَضَبٍ، فَأَخْرَجَ وَرَقَةً مُكَوَّرَةً، وَبَعْدَ أَنْ فَتَحَهَا وَضَعَهَا أَمَامَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: هَلْ صَحِيحُ أَنَّكَ نَظَّمْتَ هَذَا الشَّعْرَ:

إِنِّهَا أَنْفِئَامُ دَوْرَانِ الْفَلَكَ

تِلْكَ الَّتِي يَتَغَنَّى بِهَا الْخَلْقُ بِالطُّنْبُورِ وَالْحَلَقِ

وَمِنْ هُنَا صَارَ السَّمَاعُ غِذَاءً لِلْعَاشِقِينَ

لِأَنَّ فِيهِ خَيَالَ الْاجْتِمَاعِ وَالْوِصَالِ

وَبِهِ تَقْوَى خَيَالَاتِ الضَّمِيرِ

بَلْ تَتَحَوَّلُ إِلَى صُورٍ بِتَأْثِيرِ الصَّوْتِ وَالضَّمِيرِ

وَلِذَلِكَ قَالَ الْحُكَمَاءُ: هَذِهِ الْأَلْحَانُ

أَخَذْنَاهَا نَحْنُ مِنْ دَوْرَانِ الْفَلَكَ^(١)

هَذَا الشَّعْرُ تَتَدَاوَلُهُ أَيْدِي النَّاسِ، وَقَدْ صَارَ مَحَلَّ اعْتِرَاضِ أَهْلِ الْعِلْمِ قَاطِبَةً. فَهَلْ أَنْشَدْتُمْ هَذِهِ الْأَشْعَارَ؟ أَوْ أَنْتُمْ تُنَكِّرُونَ ذَلِكَ؟ أَمْ لَمْ أَنْ تَكُونَ مِنْ آثَارِ ذَلِكَ السَّاحِرِ التَّبْرِيزِيِّ، وَلَيْسَتْ مِنْ مَنْظُومَاتِ مُدَرِّسِ الرُّومِ الشَّرْقِيَةِ اللَّامُنَازِعِ.

- ضَحِكَ مَوْلَانَا مِنَ الْأَعْمَاقِ، وَقَالَ: أَنْشَدْتُ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي أَثْنَاءِ غَلْيَانِ الْوَجْدِ وَالهِجَانِ وَالسُّرُورِ، وَإِبَانِ السَّمَاعِ الصَّافِي. وَاعْلَمُوا يَقِينًا أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ سَيُغْدُو مَشْهُورًا بَيْنَ الْأَنَامِ، فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ.

كَيْفَ أَنْكَرُ ذَلِكَ؟ - هذه هي عَقَائِدِي العِرْفَانِيَّةُ، ولا شَأْنَ لِي بما يَقُولُ سَيِّئُ الْقَوْلِ، وَمَنْ لَا يَرَى سِوَى الظَّاهِرِ. السَّمَاعُ يَوْقُظُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ ذِكْرِيَاتِ الْمَاضِي الطَّيِّبَةِ، وَكُلُّ مَنْ يَنْكَرُ السَّمَاعَ يُعَادِي الشَّوْقَ وَالْوَجْدَ وَالْحَالَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ، وَكُلُّ مَنْ لَا يَقِيْمُ عِلَاقَةً طَيِّبَةً مَعَ الْوَجْدِ وَالْحَالِ غَرِيبٌ عَنْ نَفْسِهِ؛ وَإِنْ كَانَ إِنْسَانًا فَهُوَ إِنْسَانٌ مُتَعَصِّبٌ مُتَشَدِّدٌ جَافٌ الْفِكْرُ.

- هَلْ أَتَى شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ إِلَى هُنَا بِالتَّصْفِيقِ وَالتَّرْقِصِ هَدِيَّةً؟

- لا، لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ كَانَ الصُّوفِيَّةُ قَبْلَ شَمْسٍ - أَيِ مَنْذُ زَمَانِ الشُّبْلِيِّ - يَشَارِكُونَ أَيْضًا فِي مَجَالِسِ السَّمَاعِ، وَبِصُحْبَةِ الدُّفِّ وَالنَّايِ يَدْخُلُونَ فِي الْوَجْدِ وَيَغْبِيُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ. وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ: إِنَّ ذَا التَّوْنِ الْمِضْرِيِّ وَالشُّبْلِيَّ وَالْخَرَّازَ وَالتُّورِيَّ، هَؤُلَاءِ جَمِيعًا، وَدَعَا الدُّنْيَا فِي أَثْنَاءِ السَّمَاعِ. وَكَانَ الشَّيْخُ نَجْمُ الدِّينِ كُبْرَى يَنْتَقِلُ مِنْ حَاضِرَةٍ إِلَى أُخْرَى بَحْثًا عَنْ رِجَالِ اللَّهِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَنُوبِ غَرْبِيِّ إِيرَانَ. وَفِي مَدِينَةِ دِزْفُولَ، أَلْقَى عَصَا التَّرْحَالِ فِي خَانِقَاهُ [١٧٢] إِسْمَاعِيلَ الْقَضْرِيِّ. وَقَدْ تَأَلَّمَ، وَنَالَ مِنْهُ الْأَلَمُ كَثِيرًا. وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي، كَانَ يُقَامُ سَمَاعٌ فِي خَانِقَاهُ الشَّيْخِ إِسْمَاعِيلِ الْقَضْرِيِّ، فَتَأَذَى كَثِيرًا مِنَ السَّمَاعِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ السَّمَاعَ وَيُنْكِرُهُ. وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، أَمْسَكَ إِسْمَاعِيلُ بِيَدِ نَجْمِ الدِّينِ وَأَخَذَهُ إِلَى حَيْثُ السَّمَاعُ، وَبَعْدَ عِدَّةِ سَاعَاتٍ ذَهَبَ الْأَلَمُ وَالتَّعَبُ عَنْ جَسَدِهِ. وَالْآنَ، أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكُمْ: هَلْ جِئْتُمْ إِلَى هُنَا لِلتَّحْقِيقِ مَعِيَ؟ - هَلْ يَتَحَتَّمُ عَلَيَّ أَنْ أُحَاكِمَ؟ - هَذِهِ الْأَسْئَلَةُ جَمِيعًا مِنْ أَجْلِ مَاذَا؟ أَيِّ شَيْءٍ أُبَيِّنُ؟ عَلَيْكُمْ أَنْ تُسَلِّمُوا بَأْتَنِي حَتَّى الْآنَ أَعِدُّ نَفْسِي فَقِيهِ الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ الْأَوَّلِ. وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ: «إِذَا شِئْتَ أَنْ يَعْمَلَ الْعَشْقُ فِي قَلْبِكَ، وَيَجْعَلَكَ طَالِبًا لِذَلِكَ الْحَبِيبِ، فَانْظُرْ أَوَّلًا فِي نَفْسِكَ: مَنْ أَنْتَ، وَمَاذَا أَنْتَ نِسْبَةً

إليه. العِشْقُ نَارٌ مُحْرِقَةٌ، وَبَحْرٌ لَا نَهَايَةَ لَهُ.

فَقَالَ الْمُمَثِّلُونَ: جِئْنَا لِكَيْ نَتَعَرَّفَ تَجَلِّياتِ الْعِشْقِ فِي قَلْبِ الْعَارِفِ، وَكَيْفِيَّةَ وُصُولِكُمْ إِلَى الْحَقِيقَةِ. (ضَحِكَ كُلُّ مَنِ الثَّلَاثَةِ).

- إنَّ وجودَ نارِ عَشِقِكَ في الرُّوحِ أَفْضَلُ
 وَأَنْ يَغْدُوَ الْقَلْبُ مِنْ عَشِقِكَ نَائِرًا لِلنَّارِ أَفْضَلُ
 - وَكُلُّ مَنْ شَرِبَ قَطْرَةً مِنْ جِامِ عَشِقِكَ
 خَيْرٌ لَهُ أَنْ يَظُلَّ حَتَّى يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَمِيلًا وَخَيْرًا
 - وَمَنْذُ أَنْ ظَهَرْتَ اخْتَفَيْتُ أَنَا
 لِأَنَّ الْإِخْتِفَاءَ مَعَ وَجُودِ الْمَعشُوقِ أَفْضَلُ

المنزلة العِلْمِيَّةُ لِشَمْسِ التَّبْرِيزِيّ

كَأَنَّ اللَّذَّةَ الْعَمِيقَةَ وَالِاسْتِساغَةَ الشَّدِيدَةَ أَفْقَدْتَ هَؤُلَاءِ وَعَيْهِمْ، وَاسْتَلَبْتَ مِنْهُمْ
 عَقُولَهُمْ. وَقَدْ فَهِمَ مَوْلَانَا أَنَّ صَحِيحَ الضِّيَوفِ وَالْكَلِمَاتِ الَّتِي قَالُوهَا عَلَامَةٌ عَلَى عَدَمِ
 إِيْمَانِهِمْ بِفِكْرِهِ. فَهَؤُلَاءِ لَمْ يَصْدُقُوا الْكَلَامَ الْبَلِيعَ لِمَوْلَانَا، وَكَانَتْ قُلُوبُهُمْ تُرِيدُ
 بِابْتِسَامَتِهِمُ السَّاخِرَةَ أَنْ يَجْعَلُوا أُسْتَاذَ دَارِ الْعِلْمِ فِي قُوْنِيَّةِ مُسْتَتِ الذَّهْنِ وَمُضْطَرِبًا. كَانَ
 مَوْلَانَا يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمَشْهَدِ الْعَجِيبِ، وَكَانَ يَحْدُثُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُصْبِحَ
 أَلْعُوبَةُ لِهَؤُلَاءِ، يَجِبُ إِذَابُهُ هَؤُلَاءِ الْوَقَحِينَ، بِكَلَامِ الْحَقِيقَةِ، كَمَا يُذَابُ الثَّلْجُ أَمَامَ
 الشَّمْسِ. وَلِهَذَا السَّبَبِ، بَدَأَ خِطَابُهُ لِهَؤُلَاءِ الضَّيْفِ مَنْفَرًا وَبَاعِثًا عَلَى الدَّهْشَةِ، وَبِشْيءٍ
 مِنَ الْغَضَبِ وَاصَلَ كَلَامَهُ: فَإِنِّي أَقُولُ:

كُلُّ مَنْ انْكَشَفَتْ لَهُ أَسْرَارُ الْعِشْقِ

غَابَ عَنِ الْوُجُودِ دَفْعَةً وَاحِدَةً؛ لِأَنَّهُ انْمَحَى فِي الْمَعشُوقِ ^(١)

إِذَا وَصَلَ طَلَبُ السَّالِكِ الْمُؤْمِنِ إِلَى حَدِّهِ النَّهَائِيِّ، وَصَلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ وَمَعشُوقِهِ.
 كَانَ مِمَثْلُو الْمُحْفَلِ الرُّوحَانِيِّ يَهْزُونَ رُؤُوسَهُمْ مَبْتَسِمِينَ، وَقَدْ عَرَفَ جَلَالَ الدِّينِ، مِنْ

الابتساماتِ السَّاحِرَةِ لهؤلاءِ الحاقِدِينَ، أَنَّهُمْ غَيْرُ مُبَالِينَ وَمُتَرَدِّدِينَ، بِلا رَحْمَةٍ، وَأَدْرَكَ أَنَّ قِرَاءَةَ الْوَعْظِ لَا تُجْدِي نَفْعًا مَعَ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ السُّودِ. وَلِهَذَا السَّبَبُ، صَرَخَ بِصَوْتٍ كَالرَّغْدِ الْقَاصِفِ وَقَالَ: أَيُّهَا الْكَلَامُ، صِرْ كَالسَّيْلِ الْهَادِرِ لِكَيْ يَعْلَمَ مِمَثْلُو الْمُحْفِلِ الرُّوحَانِي فِي قُوْنِيَّةٍ، الْمَوْجُودُونَ هُنَا، مَاذَا يَجِيشُ فِي صَدْرِي إِزَاءَ سَمَاعِ هُزْنِهِمْ وَرُؤْيِيَةِ ابْتِسَامَاتِهِمِ السَّاحِرَةِ، وَأَيَّةَ غُصَصٍ أَنْجَرَعُ مِنْ هَذِهِ الْمُمَاحَكَاتِ الْوَقِيعَةِ [١٧٤]، وَلَا أَقُولُ شَاكِيًا: إِنَّكُمْ تَسْخَرُونَ مِنْ كَلَامِي.

مَرَّةً أُخْرَى، أَتَذَكَّرُ أَنَّ شَمْسًا الَّذِي يَخْفُقُ قَلْبِي مِنْ أَجْلِهِ كَانَ كَثِيرًا مَا يَقُولُ لِلْمُنَافِقِينَ: «أَسْرُّ مِمَّنْ يَشْتُمْنِي، وَأَتَأَلَّمُ مِمَّنْ يُثْنِي عَلَيَّ؛ لِأَنَّ الثَّنَاءَ وَالْمَدْحَ يَكُونُ مَطْلُوبًا عِنْدَمَا لَا يَكُونُ بَعْدَهُ إِنْكَارٌ، ثُمَّ إِنَّ الْمُنَافِقَ أَسْوَأَ مِنَ الْكَافِرِ، أَمَا سَمِعْتُمْ: (إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا) [النِّسَاء: ١٤٥]. أَحَدُ الْمُمَثِّلِينَ قَالَ مُعْتَرِضًا:

يا مَوْلَانَا، مَا نَرِيدُهُ هُوَ أَنْ تَتَحَدَّثَ عَنْ نَفْسِكَ، وَأَنْ لَا تَذَكَّرَ اسْمَ ذَلِكَ السَّاحِرِ التَّبْرِيزِيِّ عَلَى لِسَانِكَ، لَا تَعْرِضْ كَلَامَ ذَلِكَ السَّاحِرِ الْجَوَّالِ، ذَلِكَ الصَّنَمِ الْعِيَّارِ، عَلَى سَبِيلِ الدَّلِيلِ وَالسَّنَدِ. إِنَّ كَلَامَ شَمْسِ الْمُتَشَرَّدِ يَنْطَوِي عَلَى جَانِبٍ تَخِيلِي وَفَضْفَاضِيٍّ، أَمَّا كَلَامُكُمْ فَمُتَقَنَّ وَمُنْطَوٍ عَلَى جَانِبٍ نَفْسِيٍّ. وَأَنْتُمْ، حَتَّى الْآنَ، تَوَرِّدُونَ أَقْوَى الْأَدْلَةِ لِتَبْرِيرِ ادِّعَاءَاتِكُمْ. وَقَدْ بَسَطْتُ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ الْآنَ أَنْوَارًا وَظِلَالًا كَثِيرَةً حَوْلَكُمْ. وَنَعْتَقِدُ نَحْنُ، الْآنَ، أَنَّ شَمْسَ الدَّرَايَةِ وَالْكِيَاسَةِ تُشِعُّ مِنَ الْأَفَقِ الْأَعْلَى عَلَى دَفَاقِ عُمْرِكُمْ وَلَحْظَاتِهِ. وَاللَّهُ شُبْحَانَهُ خَلَقَ الْعَقْلَ، الَّذِي أَنَا وَأَنْتُمْ نَخْضَعُ لِأُؤَامِرِهِ الْقَاطِعَةِ. وَمِنْ الْمُنَاسِبِ أَنْ تَنْسُوا شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ الَّذِي يُشَبِّهُ كَلَامَهُ ذَرَاتِ الْغُبَارِ، الَّتِي فِي أَيَّامِ الْخَرِيفِ تَمَلَأُ آفَاقَ قُوْنِيَّةٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَسُوقُهَا رِيَّاحُ الْخَرِيفِ إِلَى الصَّحَارَى الْقَصِيَّةِ الْمَتْرَامِيَةِ

الأطراف. واعلموا وسلّموا بأنّه ظاهرة ناقصة الخلقه، والقبح والفساد يموج في قوله وفعله. أسلموه ليد الطبيعة، فإنه لا يستحق المحبة والإعزاز، ولا يستحق العناية. وإذا لم أخطئ فإن الشيطان قد أرسله إلى هنا، لإضلال الناس وإغوائهم، جاء ليبيد مواسي أهل قونية العظيم، أي شخصكم الكريم، عنا.

عرت رعدة خفيفة جسم مولانا. وكأنه في تلك اللحظات المنزلّة، لم يكن يصل إلى أذن مولانا من الأرض والسماء، ممّا كان يشاهده هناك من أشياء، إلا النواح والألم والانتقاد...

إن سري غير بعيد عن نواحي

لكن العين والأذن ليس لهما ذلك النور^(١)

كانت هذه الأسئلة تتلجّج في صدر مولانا:

- أيجب أن يكون الرياء والتظاهر والتوافق والاختلاق والتشدّد رافعة رأسها وقوة في الأرض، وفي قونية خاصة؟ أو أن يبسط الشرّ والشرّ أجنحته [١٧٥] السوداء فوق البسيطة؟ أيجب أن يصبح شمس التبريزي مقهوراً ومنكوباً ومطروداً، بأيدي الناس؟ - ألا يستحق شمس أن يكون ذا إسهام في تكون شخصية مولانا الجديدة؟ -

١ - هذا البيت أتى به مولانا جلال الدين، في مقدمة المثنوي، على لسان الثائي الذي يعبر بأنينه ونواحه عن ألمه لفراق القضاة، أي مزرعة القصب التي اقتطع منها، ثم أعيد ليكون آلة التفع المعروفة، الثائي، يتقبه عذّة ثقب وتهيته لكي ينفع فيه الإنسان. وفي هذا البيت يكشف الثائي، الذي هو عند مولانا رمز لروح الإنسان الذي فارّق موطنه الأول، عالم الأرواح، ليقيم في مغرب الماء والطين، أي الجسد، عن ستر نواحه وسر صوت الثائي هنا مرتبط بنواحه وأنينه من ألم الفراق، ولا يعبر صوته عن جدل وسرور وطرب، كما يقفهم بعضهم منه ذلك. ويحتاج إدراك سر صوت الثائي هذا إلى عين وأذن لهما طبيعة نورانية، أما العين والأذن الشخصيتان - كما يقول مولانا - فلا تدركان ذلك. ينظر: المثنوي، الأبيات القمانية عشر الأولى [المترجم].

عندما كان مَوْلانا حائراً ومُشتتاً في دَهاليزِ الحياةِ المُظلمةِ المجهولةِ وأسرارها، مَنْ خَلَّصَه مِنْ ذَلِكَ؟ - ما العَامِلُ الذي أَوْجَبَ أَنْ يَعْرِفَ زَوَايا جِسْمِهِ وَرُوحِهِ المظلمةَ تحتَ أنوارِ العِشقِ الرُّوحانيَّةِ والملكوْتيةِ والقُوَّةِ؟ - هَلْ يُمْكِنُ نِسْيَانُ الأَيَّامِ واللَّياليِ التي كان فيها العاشِقُ والمعشوقُ (شَمْسٌ ومَوْلانا) منشغَلينَ بالتحقيقِ والبَحْثِ في شأنِ أسرارِ الخَلْقِ، بإحساسٍ مقدَّسٍ وسُرعةٍ ممتعةٍ في فَضاءِ العِشقِ؟

أُثْمِرَتْ ضُرُوبُ الانتقادِ والاتِّهامِ والتَّائِبِ والاستجوابِ مصحوبةً بِسُخْرِيَةٍ مِمثِّلِي المحفِلِ الرُّوحانيِّ في قُوَّةٍ، عندَ مَوْلانا، غَرابَةً وتَعَجُّبًا، مَعَ نُفُورٍ وتَكْرُهٍ. فسَكَتَ مَوْلانا، وكان في صَمْتٍ مُوحِشٍ عَقَبَ كَلامٍ يوجِدُ ثَوْرَةً في أرضِ حياةٍ مخاطِبيهِ القاحِلَةِ. جَعَلَتْهُ عَظَمَةُ وجودِ شَمْسٍ، وقدرتُهُ الرُّوحِيَّةُ خاصَّةً، متوقِّفاً في الزَّمانِ، كَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قد توقَّفَ.

كَيْفَ يَسْتَطِيعُ مَوْلانا أَنْ يَقُولَ لِمَنْ أَكَلَّ الحَسَدُ قُلُوبَهُمْ: إِنَّ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ نَجَّمَ وضَاءً، يَرَى في شُعاعِ أنوارِهِ الأغوارِ المظلمةِ والمجهولةِ لحياته بوضوح؟ وعندَ مَوْلانا، لا خَبَرَ ولا أَمْرَ أَهَمُّ وأكثرَ إِزْعاجًا مِنْ أَنْ لا يَفْهَمُ أَنا، وأهلُ قُوَّةٍ خاصَّةً، المنزلةَ العِلْمِيَّةَ والعِرْفانيَّةَ لِشَمْسٍ على نَحَورِائِجٍ ولا تَق.

تلكَ التُّهْمُ العَظِيمَةُ أَحدثَتْ في كِيانِ مَوْلانا هِزَّةً عَظِيمَةً. وقد شَاهَدَ مِمثِّلُو المحفِلِ الرُّوحانيِّ في قُوَّةٍ، بوضوحٍ، الغَمَّ والحَزْنَ المُوجِعَ على مُحَيَّا مَوْلانا. وكان مَوْلانا في خِصَمٍ مُوحِشٍ لِفاجِعَةٍ، وقد لَقَّتْ هَذِهِ الفاجِعَةُ مَدِينَةَ قُوَّةٍ، بِكُلِّ محاسِنِها. ومِنْ هُناكَ، شاعَ في دُورِ العِلْمِ في البُلدانِ الإسلاميَّةِ أَنَّ مَوْلانا صارَ عاشِقًا لِشَمْسِ الشَّيخِ، شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ السَّاحِرِ. عَنَّا صِرُ أُخْرُ فَعالَةٌ في شَخْصِيَّةِ جَلالِ

الَّذِينَ، تَحَوَّلَتْ إِلَى تَجَلِّيَاتٍ عَاطِفِيَّةٍ لِشَمْسِ الشَّيْطَانِ [فِي نَظَرِهِمْ].

كَانَ مَوْلَانَا فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، يَحْسُ بِأَنَّ جَسَدَهُ يَذُوبُ تَدْرِيجِيًّا أَمَامَ تِلْكَ التُّهَمِ جَمِيعًا. فَقَدْ حَمَلَ هَؤُلَاءِ عَلَى أَعْظَمِ شَخْصِيَّةٍ عِرْفَانِيَّةٍ لَدَيْهِ. [١٧٦] كَانَ مَوْلَانَا يَرَى أَمَامَهُ أَفْرَادًا فِي غَايَةِ الْقَسْوَةِ وَالْفَظَاطَةِ، يَسْتَعْمِلُونَ الْحَرْبَ الْكَلَامِيَّةَ فِي الْقَضَاءِ عَلَى الْمُقْتَرَحَاتِ الَّتِي هِيَ مُقَدَّسَةٌ عِنْدَهُ. نَعَمْ، يَسْتَعْمِلُونَهَا لِإِفْنَائِهِ وَإِفْنَاءِ شَمْسٍ. فَآيَةُ فَائِدَةٍ تُجَنَّى مِنْ هَذَا الْحِوَارِ الَّذِي كَانَ يَأْخُذُ صُورَةَ مُحَاكَمَةٍ، أَوْ جَلْسَةِ اسْتِجْوَابٍ؟ فَإِذَا لَمْ تُقَدِّمِ الرَّدُودُ عَلَى هَذِهِ الْإِيرَادَاتِ وَالشُّبْهِ وَالتُّهَمِ، فَإِنَّ الْقِيَمَ الْمُرَادَةَ تَغْدُو مُدَانَةً، عَلَى الظَّاهِرِ. وَسَيَقُولُ هَؤُلَاءِ: لَقَدْ انْتَصَرْنَا، وَأَطْرَقَ مَوْلَانَا فِي مِيدَانِ الْبَحْثِ رَأْسَ التَّسْلِيمِ. وَكَانَ تَسْلِيمُ مَوْلَانَا هَزِيمَةً لِلْمَدْرَسَةِ الْعِرْفَانِيَّةِ الْعِشْقِيَّةِ، مَدْرَسَةِ الْإِشْرَاقِ وَالْإِلَهَامِ. أَخَذَ مَوْجُ الْكَلَامِ الْمَتَدَخِّرُجُ الْمَضْطَرِبُ الضَّاحِجُ يَتَدَفَّقُ مِنْ كُلِّيةِ وَجُودِ مَوْلَانَا نَحْوَ شَفَتَيْهِ، وَكَأَنَّ شَمْسَ وَجْهِ شَمْسٍ^(١) قَدْ طَلَعَتْ أَمَامَهُ. كَانَ التَّفَكِيرُ فِي شَمْسٍ يَجْعَلُ مَوْلَانَا فِي خِصَمٍ كُلِّ مُسْتَحِيلٍ؛ كَانَ نُورُ الْحَقِيقَةِ يُشْعُّ عَلَى وَجُودِهِ. وَفِي النِّهَايَةِ، كَانَ مَوْلَانَا يَرَى نَفْسَهُ فِي أَتُونٍ مَكَاشَفَتِهِ. أَخْرَجَتْ مُشَاهَدَةُ شَمْسٍ، أَوْ التَّفَكِيرُ فِي شَمْسٍ، مَوْلَانَا مِنْ أَعْمَاقِ مَكَاشَفَتِهِ. وَأَيُّ كَلَامٍ آخَرَ، سَيَخْرُجُ كَالرَّغْدِ، وَكَضَرْبَاتِ الْمِطْرَقَةِ، مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ. وَكَانَ التَّسْلِيمُ وَالصَّمْتُ مَوْتًا وَعَدَمًا. وَلِهَذَا السَّبَبِ، نَظَرَ مَوْلَانَا نَظْرَةً مُتَفَحِّصَةً إِلَى الْمَدَّعِينَ وَالْحَاسِدِينَ، نَظْرَةً هَزَتْ أَعْمَاقَ قُلُوبِهِمْ، وَأَوْصَلَتْ دَوِيَّ كَلَامِهِ إِلَى آذَانِ الْمُخَاطَبِينَ:

لِكِّي لَا يَعْتَرِي التَّقْصُ الْكَافُ وَالتَّوَنُ
(دِيَوَانُ شَمْسِ قَبْرِيزِ الْغَزَلِيَّةِ ١٠١)

١- أَظْهَرَ، أَيُّ شَمْسٍ تَبْرِيزٍ، كَمَا لَا

رَسُولُنَا الْأَكْرَمُ، نَبِيُّنَا الْعَلِيِّ الْقَدْرِ [عليه الصلاة والسلام] قَالَ: أَيُّهَا الْمُسْلِمُ، إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مَنْشَغَلًا بِبَعْضِهِمْ بِالْبَحْثِ عَنْ عَيْبِ بَعْضِهِمُ الْآخِرَ فَانْشَغِلْ أَنْتَ بِالْبَحْثِ عَنْ عُيُوبِ نَفْسِكَ. عِنْدَمَا تَرَى النَّاسَ مَنْشَغِلِينَ بِأُمُورِ الدُّنْيَا الْخَادِعَةِ انْشَغِلْ أَنْتَ بِعَمَلِ الْقَلْبِ. وَإِنْ شَمَائِلَ شَمْسٍ تَذَهَبُ مَعِيَ حَيْثُ أَذْهَبُ، كَالظِّلِّ. خَلَعَ شَمْسٌ عَلَيَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الزَّائِلَةَ خِلْعَةَ الْقُرْبِ وَالشَّرَفِ وَالْمَنْزِلَةِ. وَمَهْمَا عِبْتُمُوهُ عِنْدِي فَلَنْ يَزِيدَهُ ذَلِكَ عِنْدِي إِلَّا عَظَمَةً وَجَلَالًا.

كَانَ شَمْسٌ يَرِيدُ أَنْ يَغَيِّرَ مَعَالِمَ الدُّنْيَا، وَأَنْ يَكُونَ مِنْهَجُ الْعِشْقِ حَاكِمًا فِي كُلِّ مَكَانٍ. فَأَيُّ قَلْبٍ ذَلِكَ الَّذِي يَسْمَعُ بَيَانَ شَمْسٍ وَلَا يَتَحَوَّلُ إِلَى مَوْقِدٍ لِلْحَيْرَةِ؟ فَقَدْ جَاءَ مِنْ أَجْلِ الْعِشْقِ وَالصَّفَاءِ وَالْإِخْلَاصِ، وَهُوَ يَقُولُ: جَوْهَرُ الْوُجُودِ هُوَ الْعِشْقُ. وَأُحْكِي لَكُمْ هُنَا عَنْ مَشْهَدٍ سَاحِرٍ وَمُسْكِرٍ، وَقَدْ شَرَحَ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ، فِي تَفْسِيرِهِ الْكَبِيرِ الْخَالِدِ. فَانظُرُوا آيَةَ عَظَمَةٍ، وَآيَةَ كَيْفِيَّةٍ، أَعْطَى الْعِشْقُ لِأَبِي يَزِيدَ. عِنْدَمَا يَقُولُ شَمْسٌ: [١٧٧] الْعِشْقُ مَعْجَزَةٌ إِلَهِيَّةٌ، لَا يَقُولُ عَبْدًا وَبَاطِلًا. وَعِنْدَمَا يَقُولُ: إِنَّ الْعَارِفِينَ هُمْ مَظْهَرٌ لِلْعِشْقِ، لَا يَقُولُ كَذِبًا. فَإِنَّ أَبَا يَزِيدَ كَانَ بِمُسَاعَدَةِ شَاهِينَ الْعِشْقِ الْإِلَهِيِّ يَجْتَازُ أَقْطَارَ السَّمَاوَاتِ، وَيَغْرُقُ فِي أَنْوَارِ الْقَمَرِ الْفَضِيَّةِ. كَانَ يَرَى الْفَضَاءَ مَمْلُوءًا مِنْ صُنْتِ الْعِشْقِ. وَكَانَتْ مُنَاجَاةُ أَبِي يَزِيدَ تُرْزَلُ شُرَفَ الْعَرْشِ، وَكَانَ يَسْتَمِيعُ إِلَى الْأَلْحَانِ الْمَلَكُوتِيَّةِ لِلْمَحْبُوبِ بِاشْتِيَاقٍ وَتَلَهُّفٍ. هَكَذَا يَعْتَرِفُ أَبُو يَزِيدَ:

فِي إِخْدَى اللَّيَالِي كُنْتُ فِي مُنَاجَاةٍ، رَأَيْتُ الدُّنْيَا يُلْفُهَا السَّكُونُ، ضَوْءُ الْقَمَرِ مُتَالِيٌ، النُّجُومُ مُضِيئَةٌ، هُدُوءٌ فِي جَنَابِ الْوُجُودِ، لَا صَوْتٌ مِنْ أَحَدٍ، لَا مُنَاجَاةٌ مِنْ آيَةِ زَاوِيَةٍ. قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَأَسْفَاهُ، بَلَاطُ بِهِذِهِ الْعَظَمَةِ، وَلَكِنَّهُ خَالَ.

سَمِعْتُ نِدَاءً مِنَ الْغَيْبِ يَقُولُ: يَا أَبَا يَزِيدَ، أَتَحْسَبُهُ خَالِيًا؟ رُفِعَ الْحِجَابُ عَنْ أَذُنِكَ. أَزْهَبِ السَّمْعَ لِكَيْ تَسْمَعَ نُوَاحَ الْمُتَحَرِّقِينَ وَالمُتَأَلِّمِينَ. فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ فُتِحَتْ عَلَيَّ زَوَايَا الْعَالَمِ الْأَرْبَعِ، وَمِنْ كُلِّ زَاوِيَةٍ سَمِعْتُ نُوَاحًا، مِنْ كُلِّ زَاوِيَةٍ سَمِعْتُ حُرْقَةً وَتَضَرُّعًا، مِنْ كُلِّ جِهَةٍ سَمِعْتُ أَلْمًا وَتَوَجُّعًا. أَمَامَ ذَلِكَ رَأَيْتُ نَفْسِي عَدَمًا، مِثْلَ قَطْرَةٍ فِي بَحْرٍ، أَوْ ذَرَّةٍ فِي الْهَوَاءِ. أَطْلَقْتُ لِسَانَ الْحَسْرَةِ وَالْخَيْرَةِ، وَقُلْتُ: إِلَهِي، فِي بَحْرِ شَوْقِكَ غَارِقُونَ كَثِيرُونَ، وَفِي بَادِيَةِ مَحَبَّتِكَ مُتَحِيرُونَ كَثِيرُونَ. فِي عَتَبَةِ جَلَالِكَ قَتَلَى كَثِيرُونَ، وَفِي مَقَامِ وَصَالِكَ مُفْتُونُونَ كَثِيرُونَ، لَيْسَ لِطَالِبٍ هُدًى، وَلَا لِقَاصِدٍ وَصُولٌ.

أَيُّهَا السَّادَةُ، الْحَيَاةُ فِي دُنْيَا مِنْ هَذَا النَّوعِ طَافِحَةٌ بِالمَحَبَّةِ. الصَّفَاءُ وَالْخُلُودُ فِي فضاءِ الْعِشْقِ، الَّذِي يَسُوقُ الْإِنْسَانَ إِلَى الْعُرُوجِ الرُّوحِيِّ، لَيْسَا لِذَيِّدَيْنِ؟ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا فِي زُمْرَةِ عُشَّاقِ الْعَالَمِ الْخَالِدِينَ؟

يَوْمَلُ شَمْسُ أَنْ يَرْفَعَنِي أَنَا وَأَنْتُمْ، الْمُؤَدَّبِينَ خَاصَّةً، إِلَى الْآفَاقِ الْمَلَكُوتِيَّةِ. وَالْعِشْقُ طَرِيقُ سُلُوكِيٍّ، وَمِغْرَاجُ فِكْرِيٍّ، لَا صِلَةَ لَهُ بِالْعَقْلِ الْجُزْئِيِّ، يَتَجَاوَزُ الْمَمَالِكَ. الْبَشَرُ مُسْتَحِقُّونَ لِلْمَحَبَّةِ، وَلَا بَدْءَ لِلْإِنْسَانِ لِكَيْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ مِنْ أَنْ يَتِمَسَّكَ بِالْعِشْقِ. الْإِمَامُ الرَّابِعُ(*) عِنْدَ الشَّيْعَةِ قَالَ: «إِلَهِي، اجْعَلْنَا فِي زُمْرَةِ مَنْ ضَرَبَتْ أَشْجَارُ الْعِشْقِ وَالْمَحَبَّةِ جُذُورَهَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَاضْطَرَمَّتْ نَارُ مَحَبَّتِكَ فِي جَنَابَاتِ أَفئدتِهِمْ».

اعْلَمُوا أَنَّهُ فِي الْعَالَمِ الْفَسِيحِ، فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ، كُلُّ مُوحَّدٍ، كُلُّ عَابِدٍ لِلَّهِ، جَنَّةٌ يُسَمُّونَهَا «الْعِرْفَانُ»؛ وَفِي الْآخِرَةِ جَنَّةٌ يُسَمُّونَهَا «جَنَّةُ رِضْوَانٍ». وَكُلُّ مَنْ لَدَيْهِ الْيَوْمَ «جَنَّةُ عِرْفَانٍ» سَيَتَخَطَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي «فِرْدَوْسِ الرِّضْوَانِ»:

* - يريد: الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، الملقب بـ «زَيْنِ الْعَابِدِينَ» رضي الله عنهم جميعاً (٩٤٥هـ).

[١٧٨] أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَلَا تَرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا

أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَلَا تَرَى هَذَا الْجَمِيلَ الْقَدَّ وَالْقَامَةَ

جِدَارُ الْبَيْتِ وَبَابُهُ ثَانِثَانِ وَمَجْنُونَانِ

وَأَنَا فَوْقَ الْجِدَارِ مِنْ أَجْلِ الدَّلِيلِ وَالْعَلَامَةِ

الْقَمَرُ الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ النَّحْوَلُ فِي الدَّوْرَانِ أَبَدًا

مَزَقْتُ شَمْسُ جَمَالِهِ الظُّلَامَ

أَيُّهَا السَّيِّدُ الطَّاهِرُ الدَّلِيلُ، أَنْتَ الْمَجْنُونُ أَمْ أَنَا؟

اشْرَبْ كَأْسًا مَعِي، وَدَعْ الْمَلَامَةَ

عَاشِقُونَ كَثِيرُونَ، قَبْلَكَ، كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنِ الْعِظَمَةِ وَالْكَرَامَةِ

وَعِنْدَمَا رَأَوْا مُحَيَّا السَّاقِي بَاعُوا الْعِظَمَةَ وَالْكَرَامَةَ^(١)

مَا شَمْسُ بِشَيْطَانٍ، وَلَا بِمُتَشَرِّدٍ، وَلَا بِسَاحِرٍ. وَهُوَ مُمَسِّكٌ بِزِمَامِ تَفَكُّيرِهِ وَأُمْنِيَّاتِ
نَفْسِهِ، وَرَاضٍ بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَيَرَى أَنَّ التُّهْمَةَ وَالْأَلَمَ وَالْأَذَى وَالْمَحَبَّةَ فِي سَبِيلِ الْعِشْقِ
مُتَشَابِهَةٌ وَمُتَسَاوِيَةٌ، وَلَا يَسْتَبْدُّ بِهِ الْبَتَّةَ الشَّيْطَانُ الْمَدْنُسُ بِالْغَضَبِ وَالْحِرْصِ وَحُبِّ
الرِّيَاسَةِ وَالزَّعَامَةِ. فَهُوَ خَيْرٌ مَحْضٌ، وَيَرَى أَنَّ جَوْهَرَ الْإِنْسَانِ هُوَ الْمَحَبَّةُ الْقَوِيَّةُ لِلنَّاسِ،
وَيُوجِهُ الصَّعُوبَاتِ وَلَا يَخَافُ:

صَارَ قَهْرُهُ كُلُّهُ رَحْمَةً، صَارَ سُمُّهُ كُلُّهُ شَرَابًا حُلُومًا

صَارَ سَحَابُهُ نَائِرًا لِلشُّكْرِ، جَعَلَهُ اللَّهُ كَذَلِكَ أَبَدًا

يَا شَمْسُ الْحَقِّ التَّبْرِيزِيَّ، مِنْ كَثْرَةِ مَا امْتَزَجْتَ بِي
 صَارَتْ تَبْرِيزُ عَيْنِ خُرَاسَانَ، جَعَلَهَا اللَّهُ كَذَلِكَ أَبَدًا
 وَمِنْ «أَسْلَمَ شَيْطَانِي»^(١)، صَارَتْ نَفْسُكَ رَبَّانِيَّةً
 أَسْلَمَ إِبْلِيسُ، جَعَلَهُ اللَّهُ كَذَلِكَ أَبَدًا
 اضْمُتْ فِلَانِي ثَمَلٌ، وَقَدْ قَيَّدَ أَحَدُهُمْ يَدِي
 وَتَشَتَّتَ ذَهْنِي، جَعَلَهُ اللَّهُ كَذَلِكَ أَبَدًا^(٢)

وَفِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ، كَانَتْ تَجَلِّيَاتُ ظُهُورِ الْعَشْقِ وَسِيمَاءُ عَشْقِ التَّبْرِيزِيَّ فِي غَايَةِ
 مِنَ الْعِظَمَةِ وَالْقُوَّةِ جَعَلَتْ الضِّيُوفَ شَيْئًا فَشِيئًا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ عَدَمٌ أَمَامَ شَمْسِ الْحَقِّ
 وَالْحَقِيقَةِ. كَانَتْهُمْ تَحْتَ تَأْثِيرِ سِحْرِ الْكَلِمَاتِ، صَارُوا صَرَغِي الضِّيَاءِ الطَّافِحِ بِالْحَقَائِقِ،
 إِحْسَاسٌ مُبْهَمٌ اسْتَبَدَّ بِوُجُودِهِمْ: كَيْفَ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَقْيِسُوا إِحْسَاسَهُمُ الْمَشْتَتَّ

١ - كَتَبَ الْأُسْتَاذُ الذَّكَرُ شَفِيعِي كَذَكِّي فِي كِتَابِهِ «كَزِيدَةُ غَزَلِيَّاتِ شَمْسٍ» [اخْتِيَارٌ مِنْ غَزَلِيَّاتِ شَمْسٍ] فِي تَفْسِيرِ
 هَذَا الْبَيْتِ قَوْلَهُ: «هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «أَسْلَمَ شَيْطَانِي عَلَى يَدِي». وَقَدْ كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ مَحَلَّ اِهْتِمَامٍ عَدِيدٍ
 كَبِيرٍ مِنْ شُعَرَاءِ فَارَسٍ. وَلَعَلَّ مَا جَاءَ فِي بَيْتِ حَافِظِ الشَّهْرِ:

اِسْمِ اعْظَمُ بِكَندِ كَارِ خُودِ، اِي دَلِ خَوْشِ بَاشِ
 كِهْ بِهْ تَلْيِيسِ وَجِيلِ دِيُو مُسْلِمَانِ نَشُودُ

أَي:

الاسْمُ الْأَعْظَمُ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، فَاطْمَئِنِّ بِأَقْلَبِي لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَنْ يُسْلِمَ بِالتَّلْيِيسِ وَالْحِيلِ
 الَّذِي كَثُرَ مَا رُوِيَ هَكَذَا: «سَلِيحَانِ نَشُودُ» [بِمَعْنَى لَا يَغْدُو سَلِيحَانٌ] (الرَّوَايَةُ الَّتِي تَبْدُو أَيْضًا أَكْثَرَ مُوَافَقَةً لِلذَّوْقِ)،
 بِشِيرٍ إِلَى الْحَدِيثِ نَفْسِهِ. وَقَدْ جَاءَ فِي أَشْعَارِ نَاصِرِ خُسَرُو أَيْضًا:

ذَلِكَ الشَّيْطَانُ الْمَوْجُودُ فِي جَسَدِي وَرُوحِي أَجْعَلُهُ مُسْلِمًا، يَوْمًا، بِسَيْفِ الْعَقْلِ

وَقَالَ سَنَائِي:

الشَّيْطَانُ الَّذِي ظَلَّ يَجْعَلُنِي عَلَى ذَلِكَ الْكُفْرِ ذَلِكَ الشَّيْطَانُ أَسْلَمَ، جَعَلَهُ اللَّهُ كَذَلِكَ دَائِمًا

٢ - دِيُوَانُ شَمْسِ تَبْرِيزِ: الْغَزَلِيَّةُ ٨٢

والمضطرب بالمقام الرفيع لشمس، الذي كان جلال الدين محمد مثنياً عليه؟ لعلهم في تلك اللحظات كانوا يرون أنفسهم، أو حُججهم، تافهين ضئيلي القدر، فأبى دافع حملهم على التواضع في مخضِر أعظم فقيه في قونية؟ [١٧٩] هل يجب عليهم أن يخنوا رأس التسليم للكلام الحكيم والعرفاني لمولانا؟ أولئك لم يكونوا من طراز شمس، ولم يكونوا قادرين على تأييد عظمته الروحية والأخلاقية، والإقرار بها. وإذا كانوا لم يذكروا ذلك بالستهم، فقد كانوا يُدركون بقلوبهم جيداً العواطف الرقيقة لمولانا، التي نشأت من مراده [شمس التبريزي]، وكانت تُعطيه حياةً وأملًا جديدين. كان أولئك خاضعين لضغط ميولهم المختلفة. أحس مولانا أن ضيوفه مضطربون ومتألمون. ولم يعد يشاهد الابتسامات الساخرة على شفاههم، انتهت الابتسامات الساخرة. قرأ مولانا في وجوههم أنهم غيروا رؤيتهم، وهم ينتظرون باشتياق مفرد اكتساب فيض أكثر، ومعارف أجد وأنصر، من حكيم اسمه شمس.

أَخْرِجْ مِنْ رَأْسِكَ الْأَحْلَامَ الْفَارِغَةَ
وَأَقْلَ مِنَ الدَّلَالِ، وَزِدْ فِي الْحَاجَةِ وَالضَّرَاعَةِ
إِنَّ أَسْتَذَكَ هُوَ الْعِشْقُ، وَعِنْدَمَا تَصِلُ إِلَيْهِ
سَيَقُولُ لَكَ بِلِسَانِ الْحَالِ: اصْنَعْ هَكَذَا
نَجْمُ الدِّينِ دَابِهُ

شَيْخُ مَيَهَنَةِ (*) وَالسَّمَاعِ

إِنِّي، بِإِخْلَاصِي تَامًّا، أَفْشِي لَكُمْ مَا أَعْلَمُهُ فِي شَأْنِ مُرَادِي؛ أَغْنِي مُدْرَكَاتِي وَكُشُوفِي،
مِنْ دُونِ تَرَدِّدٍ. وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ رَجَالَ قَبِيلَتِي كُلَّهُمْ كَانُوا مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ. وَقَدْ
كَانَ وَالِدِي، سُلْطَانُ الْعُلَمَاءِ، فِي بَلَخٍ مَحَلٍّ إِعْزَازِ أَكْثَرِيَةِ أَنْاسِ تِلْكَ الدِّيَارِ. وَإِنَّ إِخْلَاصَ
الْمُؤْمِنِينَ وَاشْتِيَاقَهُمْ، وَتَسَابُقَ فَنَاتِ النَّاسِ لِلِاشْتِرَاكِ فِي مَجْلِسِ وَعَظِهِ، وَضُرُوبَ
الْهَيْجَانِ وَالْإِنْفِعَالِ الَّتِي كَانَ يُلْقِيهَا فِي الْقُلُوبِ، أَخَافَتْ شَخْصِينَ كَبِيرَيْنِ غَايَةَ الْإِخَافَةِ:
السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ خُورَازْمِشَاهُ وَالْإِمَامُ الْفَخْرُ الرَّازِي، الْمَتَكَلِّمُ الْمَشْهُورُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ،
الَّذِي لَمْ يَكُنِ الْخُورَازْمِشَاهُ يَشْكُ الْبَتَّةَ فِي إِخْلَاصِي وَفَائِهِ، وَكَانَ يَعُدُّهُ مُرْتَكِّزًا وَرَصِيدًا
لِسُلْطَنَتِهِ. وَرَبَّمَا كَانَ هَذَا الْعَالَمُ الْكَبِيرُ يَحْرُضُ الْخُورَازْمِشَاهُ سِرًّا عَلَى وَالِدِي. لَمْ يُسَلِّمْ
وَالِدِي إِلَى الشَّرْطِ، وَوَاصَلَ مَقَاوِمَتَهُ لِلْمُتَشَدِّدِينَ، وَفِي النِّهَايَةِ اضْطُرَّ إِلَى أَنْ يَهَاجِرَ مِنْ
الْمَدِينَةِ الَّتِي يَحِبُّهَا كَثِيرًا. وَقَدْ وَفَدْنَا إِلَى هُنَا بِدَعْوَةٍ مِنْ عِلَاءِ الدِّينِ كَيْقَبَادِ السَّلْجُوقِيِّ،
سُلْطَانِ الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ، لِكَيْ نَعْمَلَ بِالْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ. وَلَمْ تَشَاوُوا أَنْتُمْ الْبَتَّةَ أَنْ أَغَادِرَ
هَذَا الْمَكَانَ. وَأُطْمَئِنِّكُمْ إِلَى أَنَّي لَنْ أُمَرَّ بِدَارِ الْعِلْمِ الْكَبِيرَةِ فِي قُوْنِيَّةَ.

* - مَيَهَنَةُ إِحْدَى قُرَى خَابِرَانَ، وَهِيَ نَاحِيَةٌ مِنْ خِرَاسَانَ بَيْنَ أَيْبُورْدَ وَسَرَخْسَ. وَشَيْخُ مَيَهَنَةِ هُوَ أَبُو سَعِيدٍ، أَسْعَدُ
بْنُ أَبِي سَعِيدٍ، فَضَّلَ اللَّهُ بَنُ أَبِي الْخَيْرِ صَوْفِيٍّ وَشَاعِرٌ كَبِيرٌ مَشْهُورٌ وَهُوَ مِنْ أَقْدَمِ الشُّيُوخِ الَّذِينَ أَشَاعُوا أَصُولَ
التَّصَوُّفِ فِي خِرَاسَانَ، وَاسْتَعْمَلُوا الْإِنْشَادَ وَالسَّمَاعَ فِي الزَّوَايَا وَالْحَوَانِقِ الصَّوْفِيَّةِ (١٤٤٠هـ).

قرأت، تقريباً، كُلَّ الرِّسَالِ والكُتُبِ والآثارِ العلميَّةِ والفلسفيَّةِ التي أَلْفَها العُظَمَاءُ والعُلَمَاءُ الإِيرانِيُّونَ والعَرَبُ إِيَّانَ دِرَاسَتِي فِي جَامِعِ دِمَشْقَ الكَبِيرِ، وَبَلَغْتُ إِلَى حَيْثُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مَكْتُوبٌ لَمْ أَقْرَأْهُ. وَقَدْ تَحَمَّلْتُ عَنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ هَذَا [١٨١] مِنْ أَجْلِ أَنْ تُوصِّلَنِي تِلْكَ الرِّسَالُ وَالْكَتُبُ الَّتِي خَلَفَهَا أَسَاطِينُ الْعِلْمِ إِلَى عَالَمِ الْحَقِيقَةِ. وَالْعَجِيبُ أَنَّ هَذِهِ الْكَتُبَ، الَّتِي كَانَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى إِظْهَارِ أَنْظَارِ السَّابِقِينَ وَفِكْرِهِمْ وَأَرَائِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ، لَمْ تَكُنْ قَادِرَةً كُلَّهَا عَلَى إِذْهَابِ ظَمْئِي إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ، وَكَانَتْ حَالِي فِي ذَلِكَ كَحَالِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ الْغَزَالِيِّ. وَقَدْ سَأَلْتُ بَعْضَ الْأَصْحَابِ: مَا الْفَائِدَةُ الَّتِي تُجَنِّى مِنْ هَذِهِ الْعُلُومِ؟ فَقَالُوا: الْعُلُومُ وَالْمَعَارِفُ تَكُونُ فِي الْغَالِبِ مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَى أَسْبَابِ الْعَيْشِ، وَحِينَ تُقَرَّنُ بِالتَّقْوَى تَكُونُ سَبِيلًا لِلنَّجَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، هَذَا فَقَطْ. صَعِدْتُ أَبْحَثُ عَنْ مُرْتَكِزٍ لِرُوحِي الْبَاحِثِ، عِنْدَمَا رَأَيْتُ أَنَّ الرِّبَاءَ وَالتَّعَصُّبَ وَالْحِرْصَ قَدْ أَعَمَّتْ أَعْيُنَ النَّاسِ. الشَّيْءُ الَّذِي لَا وَجُودَ لَهُ فِي فُضَاءَاتِ أَرْضِ الدُّنْيَا هُوَ الْمَعَارِفُ وَالْمَعَايِيرُ الضَّرُورِيَّةُ لِمَعْرِفَةِ النَّفْسِ. كُنْتُ أَنْشُدُ فِي أَيَّامِ الْعُمُرِ الْقَلِيلَةِ أَنَّ أَقَلَّ، فِي مَجَالِ الْمَعْرِفَةِ، الْإِحْسَاسَ بِالْجَهْلِ وَالْإِحْسَاسَ بِالْحَقَارَةِ، كَانَ لَدَيَّ شَوْقٌ كَبِيرٌ إِلَى أَنْ أَعْرِفَ أَسَاسَ وَجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا مَعْرِفَةً جَيِّدَةً.

فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، فِي دِمَشْقَ، قَالَ لِي أَحَدُ طَلَبَةِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ إِنَّهُ يَعْرِفُ عَارِفًا يُؤَدِّي كُلَّ يَوْمٍ صَلَاةَ الْفَجْرِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَيَجْلِسُ قُرْبَ الرُّكْنِ الشَّامِيِّ حَتَّى تُشْرِقَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَشْرِقِ، وَبَعْدَئِذٍ يَطُوفُ، وَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ يُؤَدِّي صَلَاةَ الظُّهْرِ فِي الْمَدِينَةِ، وَصَلَاةَ الْمَغْرِبِ فِي طُورِ سَيْنَاءَ، وَيُؤَدِّي صَلَاةَ الْعِشَاءِ عِنْدَ سَدِّ ذِي الْقَرْنَيْنِ، وَيَبْقَى اللَّيْلَ كُلَّهُ هُنَاكَ حَتَّى الْفَجْرِ، ثُمَّ يَذْهَبُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي مَكَّةَ.

وَكُنْتُ أَقُولُ فِي نَفْسِي: كَيْفَ يُمْكِنُ بِالْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ لِلتَّقْوَى وَالْعِبَادَةِ أَنْ يَصْبَحَ
الْإِنْسَانُ مِثْلَ الطَّائِرِ، وَيَتَخَطَّى الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ. فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، كُنْتُ أَقْرَأُ
الْمُحَادَثَةَ الْمُؤَثِّرَةَ الْمُحِبَّةَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَذْهَمَ وَشَقِيقِ الْبَلْخِي. فِي تِلْكَ الْمُحَادَثَةِ
سَأَلَ شَقِيقُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَذْهَمَ:

- مَاذَا تَفْعَلُ فِي شَأْنِ الْمَعَاشِ؟ - فَأَجَابَ إِبْرَاهِيمُ:

- إِذَا وَصَلَ شَيْءٌ شَكَرْتُ، وَإِذَا لَمْ يَصِلْ صَبَرْتُ.

فَقَالَ شَقِيقُ بَابَتْسَامَةِ سَاخِرَةَ:

- كِلَابُ بَلْخِ أَيْضًا تَفْعَلُ الشَّيْءَ نَفْسَهُ، إِذَا وَجَدَ شَيْءً تُرَاعِي ذَلِكَ فَتَحَرَّكَ أَذْنَابُهَا،

وَإِذَا لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ صَبَرَتْ.

فَسَأَلَ إِبْرَاهِيمُ بِتَعْجَبٍ:

- وَمَاذَا تَفْعَلُونَ أَنْتُمْ؟ فَأَجَابَ شَقِيقُ عَلَى الْفُورِ:

إِذَا وَصَلَ إِلَيْنَا شَيْءٌ قَسَمْنَاهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِذَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا شَيْءٌ شَكَرْنَا اللَّهَ. فَقَامَ

إِبْرَاهِيمُ، وَقَبَّلَ رَأْسَ شَقِيقِ.

[١٨٢] كُنْتُ أَقُولُ: هَذَا التَّحَمُّلُ وَالصَّبْرُ وَالِاسْتِقَامَةُ وَالْإِيثَارُ، كُلُّهَا، مِنْ أَيْنَ

اِكْتَسَبُوهَا؟ أَيْمَكِنُ الْحَصُولُ عَلَيْهَا بِالرِّيَاضَاتِ وَالْمُجَاهَدَاتِ؟

فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ سَمِعْتُ سِيرَةَ الشُّبْلِيِّ، الْعَارِفِ الْكَبِيرِ، مِنْ أَحَدِ الْأَصْدِقَاءِ،

وَفِيهَا أَنَّ الشُّبْلِيَّ قَالَ فِي رُؤْيَاهُ:

- أَيْنَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لِكَيْ أَرْفَعَهَا بِأَهْدَابِ عَيْنِي؟

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا هَذِهِ الْقُوَّةُ الرَّمْزِيَّةُ الْمَعْنَوِيَّةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي أُوْدِعَتْ فِي وَجُودِ الشُّبْلِيِّ؟

كان صاحبُ كتاب «أَسْرَارِ التَّوْحِيدِ» (*) يقولُ للنَّاسِ: إِنَّ كُلَّ ضُرُوبِ الْوَحْشَةِ وَالْقَلْبِ مُضْدَرُّهَا النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ؛ فَإِنْ لَمْ تَقْتُلْهَا قَتَلَتْكَ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذِهِ النَّفْسُ السَّافِكَةُ لِلدَّمِ، الْأَمَّارَةُ، الَّتِي تَطْلُبُ دَائِمًا ضَحِيَّةً، كَيْفَ لِي أَنْ أَرَوْضَهَا؟

قَرَأْتُ السِّيْرَةَ الْمُؤَلَّمَةَ لِحُسَيْنِ بْنِ مَنْصُورٍ، الْحَلَّاجِ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ فِي رَأْسِ الْمَوْلُودِ الْجَدِيدِ مِنَ الْبَشَرِ رُوحًا، وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ نُورٌ مُنَاجَاةٌ، وَفِي أُذُنِهِ نُورٌ يَقِينٌ، وَفِي لِسَانِهِ نُورٌ بَيَانٌ، وَفِي صَدْرِهِ نُورٌ إِيْمَانٌ. وَكُلُّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ لِنُورِهِ، كُلُّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَقْوِيَ بِنُورِهِ، أَوْصَلَهُ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ.

فَكُنْتُ أَقُولُ فِي نَفْسِي: أَيْنَ عَالَمُ الْغَيْبِ^(١)؟ - آيَةُ سَمَاءٍ فِيهِ؟ - كَيْفَ يَجِبُ السَّيْرُ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ؟

قَرَأْتُ رِسَالَةَ لَشَيْخِ الْإِشْرَاقِ^{(**) (**) فِي مَوْضُوعِ «أَصْحَابِ التَّجْرِيدِ». إِذْ يَعْتَقِدُ الشَّيْخُ أَنَّ أَصْحَابَ التَّجْرِيدِ هُمْ مِنَ السَّالِكِينَ الْحَقِيقِيِّينَ لَطَرِيقِ الْعِرْفَانِ، وَلَهُمْ مَقَامٌ خَاصٌّ. يُنَحُّونَ الْعَلَاتِقَ الْمَادِّيَّةَ جَانِبًا، وَيَصْبَحُونَ مِنْ ذَوِي التَّجْرِيدِ الْمَخْصُصِ، خَارِجِينَ مِنَ الْفَرَشِيِّينَ، مُتَّصِلِينَ بِالْعَرَشِيِّينَ، مُتَمَسِّكِينَ بِوَصْلِ الْمَحْبُوبِ، وَفَانِينَ فِي ذَاتِهِ، وَيَصِلُونَ إِلَى حَيْثُ:}

* - الْعِنَانُ الْكَامِلُ لِلْكِتَابِ هُوَ: «أَسْرَارُ التَّوْحِيدِ فِي مَقَامَاتِ الشَّيْخِ أَبِي سَعِيدٍ» وَقَدْ آلفَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مُتَوَرِّ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، حَفِيدُ الشَّيْخِ أَبِي سَعِيدِ بْنِ أَبِي الْخَيْرِ، فِي أَحْوَالِ الشَّيْخِ وَمَقَامَاتِهِ [الْمُتَرَجِمُ].

١ - غَيْرُ رَيْعِ الدُّنْيَا، هُنَاكَ رَيْعٌ خَفِيٌّ وَجْهٌ قَمَرِيٌّ وَتَغَرُّ جَمِيلٌ، فَهَاتِ الْقَرَابَ، يَا سَاقِي

(دِيَوَانُ شَمْسِ: الْغَزَلِيَّةُ ٢١٢)

** - هُوَ يُحْيِي بْنُ حَبَشَ بْنِ أَمِيرِكَ الْمَلَقُوبُ بِ«شَهَابِ الدِّينِ»، وَ«شَيْخِ الْإِشْرَاقِ»، وَ«الشَّيْخِ الْمُقْتُولِ»، وَ«الشَّهِيدِ»، أَبُو الْفَتْوحِ، الْحَكِيمُ الْمَعْرُوفُ، نُحِّي حِكْمَةَ الْإِشْرَاقِ لَهُ عِدَدٌ مِنَ التَّصَانِيفِ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارْسِيَّةِ قُتِلَ فِي حَلَبِ

عِنْدَمَا يَبْكِي، تَغْدُو السَّمَاءُ بَاكِئَةً

وعندما يشكو، يَغْدُو الفَلَكُ مُرَدَّدًا: يَا رَبُّ (١)

كُنْتُ أَقُولُ فِي نَفْسِي: كَيْفَ يَتَسَرَّ الحَصُولُ عَلَى هَذَا المَقَامِ؟ - مِنْ أَيِّ طَرِيقٍ يَجِبُ الوَصُولُ إِلَى عَالَمِ التَّجْرِيدِ؟

كُنْتُ سَمِعْتُ أَنَّهُ مَا دَامَتِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَأَهْلُهَا موجودينَ، يَكُونُ هُنَاكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَهَؤُلَاءِ أَشْخَاصٌ بِطَرَفَةِ عَيْنٍ يَطِيرُونَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى. وَهَذَا السَّوْأَلُ كَانَ وَرَاءَ أَنْ أَتَفَحَّصَ عَالَمَ البَاطِنِ، أَوْ أَنْشَغَلَ بِتَقْيِيمِ العَالَمِ الخَارِجِيِّ (٢). فِي إِخْدَى اللَّيَالِي كُنْتُ أَقْرَأُ فِي كَلَامِ الإِمَامِ الثَّالِثِ (*) عِنْدَ الشَّيْعَةِ فَوَصَلْتُ إِلَى هَذِهِ الجُمْلَةِ:

إِلَهِي، تَرَدَّدِي فِي الْآثَارِ يُبْعِدُ مُشَاهَدَتَكَ عَنِّي. إِلَهِي، لَا تَمْنَعْ عِنَايَتَكَ عَنِّي لِكَيْ أَمْضِيَ إِلَى جَنَابِكَ فِي النِّهَايَةِ فِي غَايَةِ الشَّوْقِ!

فَمَنْ ذَا الَّذِي يُوضِّحُ لِي هَذِهِ الْآثَارَ بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارٍ؟
وَقَبْلَ لِقَائِي شَمْسًا، فِي اللَّيَالِي الَّتِي كَانَتْ تَلْفُ كُلَّ مَكَانٍ بِالصَّمْتِ، وَفِي وَخْدَتِي، شَغَلْتَنِي الْفِكْرُ وَالْأَسْئَلَةُ وَالْأَسْرَارُ الصُّوفِيَّةُ بِنَفْسِي، وَجَعَلْتَنِي تَحْتَ تَأْثِيرِهَا الْقَوِيَّ.
كُنْتُ أَحْتَرِّقُ بِشَعْلِ الْأَسْئَلَةِ، وَأَذُوبُ. أَحْيَانًا كَانَ صَوْتُ مُحَبَّبٍ يَنْتَهِي إِلَى سَمْعِي، هَذَا الصَّوْتُ كَانَ يَجْذِبُنِي وَيَجْعَلُنِي مُؤَمِّلًا، وَصِرْتُ أَكْثَرَ مَحَبَّةً وَاشْتِيَاقًا لِعِنَايَاتِ الْحَقِّ، سُبْحَانَهُ.

١- المثنوي: ٤٩٢/٥.

٢- فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ صَلَّيْتُ طَرِيقَ الْمَقْصُودِ فَاطْلَعُ عَلَيَّ مِنْ رُخْنِي، يَا كَوْكَبَ الْهُدَايَةِ
وَفِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ذَهَبْتُ إِلَيْهَا، لَمْ أَرَدْ إِلَّا حَيْرَةً فَخَذَارٍ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَاءِ، وَمِنْ هَذَا الطَّرِيقِ الْأَمْتَنَاهِي
* - هُوَ الإِمَامُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا.

كُنْتُ فِي دِمَشْقَ، وَكَانَ طُلَّابُ دَارِ الْعِلْمِ الَّتِي كُنْتُ أَدْرُسُ فِيهَا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ
يُنَاقِشُونَ غَزَلِيَّةً لِفَخْرِ الدِّينِ الْعِرَاقِيِّ:

مِنْ جَدِيدٍ كَسَرْنَا التَّوْبَةَ
وَتَحَرَّرْنَا مِنْ غَمِّ الشُّهْرَةِ وَعَارِهَا،
وَانْتَقَطْنَا حِزَامَ الْعِشْقِ وَاسْتَعْدَدْنَا لَهُ،
وَفِي الْحَانَاتِ، مَعَ الشَّرَابِ وَالْمَعشُوقِ،
جَلَسْنَا عَشَاقًا مُرْتَاحِينَ.

أُولَئِكَ الطُّلَّابُ كَانُوا يَقُولُونَ: كَيْفَ يُجِيزُ هَذَا الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَتْرَكَ الْإِفْتِخَارَ
بِالتَّقْوَى وَالصَّلَاحِ، وَيَتَوَاقَّحَ يَجْلِسُ إِلَى جَانِبِ الْمَعشُوقِ، وَيَنْهَمِكُ بِتَعَاطِي الشَّرَابِ؟
لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ إِمَّا أَبْلَهُ، وَإِمَّا مَجْنُونًا، وَإِمَّا مُشْرِكًا.

أَمَّا أَنَا، الَّذِي كُنْتُ قَدْ قَرَأْتُ مِرَارًا دِيوَانَ سَنَائِي، فَكُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الْعِرَاقِيَّ أَيْضًا
لَدَيْهِ حُرْقٌ، [١٨٤] وَهَيْجَانٌ وَرِسَالَةٌ فِي قَلْبِهِ، الْأُمُورُ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْأَسْرَارِ يَعْرِفُونَهَا.
غَزَلِيَّاتُ فَخْرِ الدِّينِ الْعِرَاقِيِّ كَانَتْ عِنْدِي أَنْعَامَ اشْتِيَاقٍ جَعَلْتَنِي ثَمَلًا بِصَهْبَاءِ الشُّوقِ
الْمَعْنَوِيِّ. زَمَزَمَاتُ الْعَارِفِينَ، وَحِكَايَاتُ الصُّوفِيَّةِ، حَمَلْتَنِي عَلَى مَزِيدِ الْقِرَاءَةِ فِي
الْكُتُبِ الْمُتَّصِلَةِ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ.

ذَكَرَ رُؤَاةُ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ، فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، كَانَ الشُّبْلِيُّ وَجُمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ
مَنْشَغِلِينَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى. وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ، تَقَدَّمَ رَجُلٌ بِاحْتِرَامٍ، وَجَلَسَ فِي أَسْفَلِ
الْمَجْلِسِ، وَكَانَ قَدْ وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ قَلَنْسُوءَ صُوفِيَّةَ، وَارْتَدَى رِدَاءً خَشِينًا. لَمْ يَعْرِفْ
أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ الرَّجُلَ الْوَافِدَ تَوًّا. سَأَلَهُ الشُّبْلِيُّ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، بِكَمْ دِرْهَمًا
اشْتَرَيْتَ هَذِهِ الْقَلَنْسُوءَ وَهَذَا الرِّدَاءَ؟

فأجاب: اشتريتُ هذا اللباسَ بالدُّنيا وما فيها. وبعدئذٍ غضِبَ، ونظرَ إلى السُّبلي بقسوة وقال: لا تتواقح، فإنَّ اللهَ عباداً لو أشاروا لصارتْ ساريةُ هذا المسجدِ فضةً بيضاء. ويروى عن السُّبلي أنه قال: في تلكَ اللَّحظة عَرَّتني رعدةٌ اجتاحتُ وجودي كُلَّه، ونظرتُ إلى ساريةِ المجلس فشاهدتُ تلكَ السَّارية التي اتخذتْ لَوْنَ الفِضة.

فكيفَ يمكنُ بنظرةٍ واحدةٍ تغييرُ ماهيةِ الأشياءِ؟ أولئك الذين يجعلون الترابَ ذهباً، أيُّ بشرٍ هم؟

نُقلَ عن الشيخ عبد الله الأنصاري أنه كان يعتقدُ بأنَّ حياةَ المعرفة شيءٌ، وحياةَ البشريَّة شيءٌ آخر، وأهلُ الدُّنيا يحيونَ بالحياةِ البشريَّة، والمُحبِّون يحيونَ بحياةِ المعرفة. وحياةُ البشريَّة تنتهي عندما تنتهي الدُّنيا، ويحيي الأجلُ، أما حياةُ المعرفة فليستَ لها نهاية.

فمنَ ذا الذي يُمسِكُ بيدي، ويأخذني إلى فضاءِ حياةِ المعرفة؟

قالوا لي (أنا جلال الدين) إنَّ مُرتاضِي الهند اعتبروا عالمَ الوجود^(١) بحرًا من

١ - ذكر الأستاذُ فرورزانقر في شرحِ المنشوي أنَّ الوجودَ حقيقةٌ واحدةٌ وفريدَةٌ ومقتضاهُ نفيُ العدمِ ووجوبُ الأثر. وهذه الحقيقة ذاتُ وجهين: وجهٌ على جهةِ الإطلاقِ وعدمِ الشرطِ، وذلك الوجودُ هو الحقُّ. وجهٌ على جهةِ التقييدِ والتعيين، وذلك هو الخلقُ. ولذلك، الحقُّ والخلقُ حقيقةٌ واحدةٌ، وإنما الكثرةُ هي ظهورُ مرتبةِ الإطلاقِ في مراتبِ التقييدِ والتعيين. وذلك أمرٌ إضافيٌّ ونسبيٌّ. وبناءً على ذلك، الحقُّ في ذاته موصوفٌ باسمِ الباطن، وفي مرتبةِ الخلقِ موصوفٌ باسمِ الظاهر. وهذا الاختلافُ في الاسمِ، لا في أصلِ الحقيقةِ والسالكُ عندما يفتي عن ذاته هو وصفاته، بمعنى أنه لا يرى فاعلاً مؤثراً إلا اللهَ سبحانه، يمكنُ شهوده أن يَقوى، وأن يرفعَ حجابَ التعيُّنِ والكثرة [١٨٥] من أمامِ عينيه. وفي تلكَ الحالِ يرى الخلقُ بعَيْنِ الفناء، ويصلُ إلى حقيقة أنه يشاهدُ وجهَ الخلقِ اعتباراً وفانياً في وجهِ الحقِّ. ويسمَّى الصوفيُّ هذه الحالةَ «الفناء الثاني».

وكان مولانا يؤمِّلُ أن يكونَ عنده «مرادٌ» بوساطته يسبحُ في بحرِ النور، وفي النهاية يصلُ إلى مقامِ الشهود، ثم بمساعدةِ شاهينِ العشق، الذي يقتضي دائماً جلاءً وظهوراً، يكشفُ الأسرارَ، ويشاهدُ تجلِّيَ المعشوقِ السَّرمدي في أغيانِ الموجودات، وفي نهاية الأمر، في شخصِ شمسٍ. مع أنه لا يتوقَّفُ عن القلبِ ويدعو ظنَّانَ الشوقِ =

النُّور. ويعتقدُ الشُّهْرُورُذِيُّ أَنَّ باطنَ وجودِ الإنسانِ نُورٌ، ولا بدَّ مِنَ الوصولِ إلى هذا النُّور، ومُشاهدةِ هذا النُّور. ولكنَّ مَنْ ذا الذي سَيَدُّلُّنِي على هذا النُّور؟ ليتني امتلكتُ القدرةَ على أن أَكْتُبَ الأسئلةَ الخفيةَ الدَّاخليةَ على الورق، وهو ما كُنْتُ دائماً في أمله وربَّما تتمناه كُلُّ رُوحٍ، مثل الذي سألتُ شَمْسًا: لِمَاذَا تتحرَّكُ كُلِّيَّةُ وجودِ الإنسانِ بعدَ سَماعِهِ أنغامَ النَّاي والدُّفِّ بغتةً، وهل هذه الحركةُ التي تَصحبُ غالباً الرِّقَصَ والتَّصفيقَ اختياريَّةٌ إراديَّةٌ؟ في إجابةِ سُؤالي، ذَكَرَ شَمْسٌ نظريَّةَ أَبِي سَعِيدِ بْنِ أَبِي الْخَيْرِ في شأنِ السَّماعِ، إذ كان شَيْخُ مِهْنَةَ قد قالَ فائدةً ذلك: لِلشُّبَّانِ أَنْفُسٌ غَيْرُ خَالِيَةٍ مِنَ الْهَوَى وَالْهَوَسِ، وَالْهَوَى يَسِيطِرُ على أَعْضاءِ الْجِسْمِ جميعاً عندهم؛ فإذا ما صَفَّقُوا تناثَرَتِ الْهَوَى مِنْ أَيْدِيهِمْ، وإذا ما رَقَصُوا تضاءَلَتْ هَوَى أَقْدَامِهِمْ. ولأنَّه، بهذه الطَّريقة، يتناقصُ الْهَوَى مِنْ أَعْضاءِهِمْ، ويستطيعونَ حِفْظَ أَنْفُسِهِمْ مِنْ كِبائِرِ إِضافيَّةٍ، إذ عندما تجتمعُ الْأَهْواءُ وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ تَكُونُ كَالْكَبِيرَةِ، يَكُونُ إطفاءُ نارِ الْهَوَى بِالسَّماعِ أَوْلى مِنْ إطفائها بشيءٍ آخَرَ. وَأُضَافَ شَمْسٌ قائلًا: السَّماعُ يرفعُ الإنسانَ إلى الأفقِ الأعلى، كالقَشْرِ. وعندما يَسْتَبْدُّ الْهَيْجَانُ بِنَفْسِ الإنسانِ، يبدأ عَالَمٌ آخَرُ، جَمِيلٌ وَجذابٌ، بالدَّورانِ أَمَامَ السَّالِكِ الدَّائِرِ.

= وظمَّانَ الحلق، على نحو يبدو فيه بعدَ شَمْسٍ أَكثَرَ شوقًا. وإذا لم يعشَقِ الإنسانُ فلنَ يدركَ هذه الحالَ وفي «تَذَكُّرةِ الْأَوْلِياءِ» لِلْعِظَّارِ كُتِبَ قولُهُ: «كُتِبَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ رِسالةً إلى أَبِي يَزِيدَ، قالَ فيها: ماذا تقولُ في شخصٍ شَرِبَ قَدَحَ شَرابٍ واحِدًا وصارَ كَمِيلَ الْأَزَلِ وَالْأَبَدِ؟ - فأجابَ أَبُو يَزِيدَ: «لا أعْرِفُ ذلكَ، بَلْ أعْرِفُ أَنَّ ههنا رَجُلًا يَشْرَبُ بِحَارِ الْأَزَلِ وَالْأَبَدِ في اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، ثُمَّ يصيحُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟» [الأضل].

- ائْتِنِي بِقَدَحٍ مِنْ حَمْرَةِ الْمُجُوسِ لِكَيْ أَشْرَبَ،
 فَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي رِبَاءٌ يَدْفَعُنِي إِلَى التَّوْبَةِ
 - لَا طَرِيقَ عِنْدِي وَلَا أَثَرَ، لَا قَلْبَ وَلَا دِينَ،
 لَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا أَنَا، وَلَا إِلْفَ زَاوِيَةٍ وَأَنْيُنٍ عَاجِزٍ.
 - ذَهَبْتُ إِلَى الْحَرَمِ لِلطَّوَافِ بِالكَعْبَةِ، فَلَمْ يَسْتَحْوَالِي
 قَائِلِينَ: مَاذَا فَعَلْتَ خَارِجَ الْبَابِ، حَتَّى جِئْتَ إِلَى
 دَاخِلِ الْبَيْتِ؟
 (فَخَرُّ الدِّينِ الْعِرَاقِيَّ)

في دارِ العِلْمِ في دِمَشْقَ

إِنَّ قِرَاءَةَ الْحِكَايَاتِ وَالْغَزَلِيَّاتِ الصُّوفِيَّةِ وَأَقْوَالِ الْمَشَايخِ وَأَنْظَارِهِمْ تَسْتَلْزِمُ، أَنْ تَزِيدَ
 تَوْقُعَاتِي. وَأَيُّ شَيْءٍ يَخْفَى عَلَيْكُمْ! كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَظْفَرَ بِشَخْصٍ يُوصِلُنِي إِلَى مَمْلَكَةِ
 الشَّمْسِ، إِلَى الْمَجَرَّاتِ وَالزُّهُرَةِ وَالْمُشْتَرِيِّ، فِي أَمَاكِنَ تَكُونُ فِيهَا عَظْمَةُ الْكَائِنَاتِ أَكْثَرَ
 جَلَاءً، وَأَكْتَشِفَ مَعَارِفَ أَكْثَرَ جِدَّةً وَنَضَارَةً. كُنْتُ أحيانًا أَتَصَوَّرُ أَنَّ الْأَرْضَ مَنْقَى لِلنَّاسِ،
 وَعَلَيْنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَى أَصْلِنَا، لَا أَعْلَمُ لِمَاذَا كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ مَطْلُوبِ رُؤْيَايَ فِي السَّمَاوَاتِ؟
 فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ كَانَ أَسْتَاذِي فِي جَامِعِ دِمَشْقَ يَفْسِّرُ سُورَةَ النَّوْرِ، فَوَصَلَ إِلَى الْآيَةِ
 الْحَادِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى:

«الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفْتَنَ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ
 وَسَبِّحَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ».

فِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ، عَرَفْتُ أَنَّ فِي السَّمَاوَاتِ أَيْضًا أَفْرَادًا مُؤْمِنِينَ مُعْتَقِدِينَ، وَأَنَّ
 عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا مُحْصُورِينَ فَقَطْ فِي فِضَاءِ الْأَرْضِ.

تَابَعَ الْأُسْتَادُ كَلَامَهُ: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...» نَعَمْ، اللَّهُ يَنْيرُ السَّمَاوَاتِ

والأرض. الشمس والقمر، مع أنهما يُنيران بأنوارهما العالم، يُحيطهما أخياناً الكسوف والخسوف بغشاوة من الظلمة، أما شمس العلم وأنوار التوحيد، اللذان محلّهما قلوب المؤمنين، فلن يُصيبهما الكسوف والخسوف. أنوار التوحيد طلوع بلا غروب، وإشراق من مقام القدس.

في ذلك الوقت، قال أحد التلاميذ للأستاذ: هل للنور في تجلياته أنواع؟

[١٨٧] أجاب الأستاذ: نعم، نور الإيمان، ونور الإخلاص، ونور الصدق، ونور اليقين، التي هي المنازل في طريق الشريعة. سأل التلميذ: وهل لديكم دليل وعلامة لنور آخر؟ فقال الأستاذ: لا، ما هو في الكتب وفي مقامات المؤمنين وفي شرح الأنوار المضبوط، وشاهدته، هو هذا الذي قلته. وإن كنت أنت تعرف نورا آخر فاذكره لنا.

قال التلميذ وهو يحمق في الأستاذ:

- لأهل الحقيقة والعارفين نور آخر أيضاً، ولهم أيضاً حال آخر، ويسمى هذان:

نور الفراسة، وحال المكاشفة.

قطع أستاذنا كلام التلميذ وقال: ما قلته هنا هو نور العظمة والجلال، أما النور والحال اللذان كنت تتحدث عنهما فلم أقرأهما في الكتب الموجودة. واللائق أن الشيء الذي لم يُوقف عليه في الكتب لا يُحدث عنه. لا مجال هنا للبحث في المسموعات، والبرهان القاطع هو محل الاهتمام.

ومثل ظمآن مشتاق ومُصرٍّ، كنت أنشد نور الفراسة؛ لكي أكشف عالم المشاهدة

أيضاً، تحت لواء ذلك النور. وقد انتهى الدرس. وفي يوم آخر سألت التلميذ العارف:

- نور الفراسة هذا، ما علاماته. فإنك بكلامك رَسَمْتَ عالماً مملوءاً بالدهشة والغربة

في أفق فكري.. أجمعت نار الاشتياق في قلبي.. ألقى نظرة فاحصة وناظرة في وجهي، وفي لحظة واحدة انزلت نظره من عيني إلى وجهي وجسدي، كأنه كان يريد أن يتفحص عالم وجودي، المظلم والمضيء. ثم ضحك، وهز رأسه وقال: سأقول كل شيء في المستقبل، خاصة الأسرار الخفية للعالم الرمزي والأفلاك، إذا كنت مستعدًا، وأحسنست بأنك مُستعدٌ، سأوضح لك ذلك. ثم انصرف، ولم يعد يحضر دروس الأستاذ.

تذكرت أيام طفولتي، عندما لم تكن سني تتجاوز السادسة، إذ وصلت بصحبة والدي، سلطان العلماء بهاء الدين ولد، إلى نيسابور عند العارف والشاعر الكبير فريد الدين العطار. قلب لقائنا هذا كل شيء في حياة الشيخ، وعلى حين غرة فقد هدوءه، وقال لوالدي:

- سريعًا، سيضرم ابنك هذا النار في قلوب محترقي العالم.

ظل الألق الشبيه بالبرق لهذا الكلام يضيء وجودي كله حتى الآن، ودائمًا أقول لنفسي: أين كائون النار هذا؟ والمحترقون في العالم من هم؟ وكان جيشان نفسي، وخفقان [١٨٨] قلبي، يدرجني من سر إلى سر آخر. في مختلّي ذهني طغيان فكري أبعد هدوء الخيال وراحته عن وجودي. أريد أن أكون إلى جانب الموجودات الخارجية، أخرج من الفضاءات القريبة، وأخرج إلى السماوات، وأنزل في القمر وفي النجوم، وفي الهدوء المحبب لذلك المكان أنشغل بسير الأبدية. لكن هذه جميعًا كانت أعلامًا لذيدة، إلى أن طلعت شمس رُوحِي في سماء حياتي المظلمة. ظهر شمس في أفق حياتي. جاء قريبًا مني. صاحبتي ضربات كلامه الأولى في السير نحو إدراك صحيح. كان كلامه نافذًا ومثيرًا للدهشة. كأنه كان

عارفاً، منذ سنين، لَأَخْفَى أسئلة عَقْلِي وأعمقها. ولعل الحياة وَعِلَل الحياة كانت
عندي أكثر المُشكلات والمسائل إبهاماً وغموضاً، وقد مزق شمس التبريزي هذا
الحجاب، وكانت لديه قدرة روحية خارقة. كلُّ العلماء والأساتذة الذين كنتُ
أعرفهم في جامع دمشق، لم تكن لديهم القدرة على مواجهة أسئلتي، وكانوا دائماً
يتفادون مواجهتي الفكرية. أما شمس فإنه، بلطف كلامه، أوضح لي العالم
الرمزي. وبتقديم معرفته، حلَّ لي عقد كثير من المعميات. أوضح لي فكري البعيدة
والعميقة، فأحطت بمبادئ الثقافة العرفانية، وفتحت رُوحِي. علّمني التحليل
العرفاني، ووصف لي القدرة السحرية للعشق، التي هي رصيد راسخ للحياة. وقد
خُلقت من جديد، كأنَّ جوهر وجودي مصنوع من العشق. وأستطيع أن أعلن أنَّ
شمس التبريزي أتى بي إلى ساحة الوجود، من جديد.

أحد ممثلي المحفل الروحاني في قونية قال بامتعاض:

لا، لا، هذا البيان يَرُدُّ الأصول كُلَّها ويخطئها. أنت شيخنا، الكلام من دون
منطق ليس من شأن فقيه مثلكم؛ وأنتم تظهرون أنفسكم مُضْحِكين من أجل إحساساتٍ
مُتَزَيِّد فيها، بعيدة عن العقل.

مولانا العظيم، تصفون شمساً كأنكم تصفون إلهاً^(١)، وترسمون شخصية [١٩٠]

١- ذكر شمس التبريزي في كتابه «المقالات» ما يأتي:

«يرجح جماعة من الفلاسفة الملائكة على بعض الأنبياء، إذ ينتقصون الأنبياء من ناحية أنهم انشغلوا بالناس،
ويقولون: إن الملائكة غاروا من الرُّسل، فوجههم إلى الدنيا، وأرسلوهم لنصيحة الخلق، قائلين: إن هذا ابتعاد عن
الحق تعالى وليس احتجاجاً. وأما معجزات الأنبياء فيقولون في شأنها: ما هو منها معقول نقبله، وما هو غير معقول
نرفضه العقل حجة الله، وحجج الله لا تتناقض. ونقول: إن المعجزة هي عين أن عقولكم لا تستطيع إدراك
كيفيتها، [١٨٩] والمعجزة ما يعجز العقل عن إدراكه، والعقل حجة الله، ولكن عندما لا تستعمله على وجهه يبدو
متناقضاً. وبسبب وجود الاثنين والسبعين ملقاً تختلط العقول وتتناقض فمثلاً سأل شخصين: كم يساوي =

= صَرُبْ اثْنَيْنِ فِي اثْنَيْنِ؟ - الاثنان كلاهما يذكران جوابًا واحدًا بلا خلاف، لأن التفكير في ذلك سهل. وعندما نَسأل: كَمْ حَاصِلُ سَبْعَةٍ فِي سَبْعَةٍ، أَوْ سَبْعَةُ عَشَرَ فِي سَبْعَةِ عَشَرَ؟ يَخْتَلِفُ ذَانِكُمَا الْعَاقِلَانِ؛ لِأَنَّ التَّفَكِيرَ فِي ذَلِكَ أَصْعَبُ (مَقَالَاتُ شَمْسٍ تَبْرِيز، تَحْقِيقُ د. مَوْحِدٌ ص ١٩٢).

وعندنا، لا يستطيع إنسان أن يَفْهَمَ مُسْلِمًا دَفْعَةً وَاحِدَةً، يُسَلِّمَ ثُمَّ يُسَلِّمَ مِنْ جَدِيدٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنَ الْهَوَى إِلَى أَنْ يَكْتَمَلَ. قَالَ: تَعَالَى مَعَنَا نُحْيِ اللَّيْلَ مَعًا. قُلْتُ أَذْهَبُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ إِلَى ذَلِكَ التَّصَرَّافِ الَّذِي وَعَدْتُهُ بِأَنْ آتِيَهُ لَيْلًا. قَالُوا: نَحْنُ مُسْلِمُونَ وَهُوَ كَافِرٌ، فَتَعَالَى مَعَنَا. قُلْتُ لَا، هُوَ فِي السَّرِّ مُسْلِمٌ؛ لِأَنَّ لَدَيْهِ تَسْلِيمًا، وَأَنْتُمْ لَيْسَ لَدَيْكُمْ تَسْلِيمٌ؛ الْإِسْلَامُ تَسْلِيمٌ. قَالُوا: تَعَالَى فَإِنَّ التَّسْلِيمَ يَحْضُلُ بِالمَصَاحِبَةِ. قُلْتُ: إِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ حِجَابٍ مِنْ نَاحِيَتِي، بِسْمِ اللَّهِ، جَرَّبُوا. بَدَأَ أَحَدُهُمْ قِرَاءَةً: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْآلِ وَالْبَحْرِ...» (الْإِسْرَاءُ/ ٧٠)، فَوَثَبَ مِنْ قَمِيٍّ: اضْمَنْتُ، فَلَا نَصِيبَ لَكَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «... وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْآلِ وَالْبَحْرِ»؟.

أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ فَقُلْتُ: أَيْ سُؤَالٍ يَصِلُ إِلَيْكَ عَنِّي؟ - أَيْ اعْتِرَاضٍ؟ - أَنَا لَا أَمْسُكُ بِمُرِيدٍ. أَلْهَوَا عَلَيَّ: نَعْدُو مُرِيدَيْنِ، أَعْطَيْنَا الْحَرْقَةَ فَرَزْتُ مِنْهُمْ، جَاؤُوا خَلْفِي إِلَى الْمَنْزِلِ، وَمَا أَتَوْا بِهِ أَلْقَوْهُ هُنَا، وَلَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ فَائِدَةٍ، وَانصَرَفْتُ» (مَقَالَاتُ شَمْسٍ، ص ٢٢٦).

عِنْدِي جَمَاعَةٌ مِنَ التَّلَامِيذِ، وَابْتِغَاءَ الْمَحَبَّةِ وَالتَّضَحُّعِ كُنْتُ أَكَلِّمُهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْغِلْظَةِ، فَكَانُوا يَقُولُونَ: عِنْدَمَا كُنَّا صِبَاغًا عَنْدهُ لَمْ يَكُنْ يَشْتُمُ، لَيْسَ عَنْدهُ إِلَّا الْمَحَبَّةُ... أَغْلَبُ خَاصَّةً اللَّهُ سُبْحَانَهُ، هُمْ أَوْلَعُكَ الَّذِينَ كَرَامَتُهُمْ خَفِيَّةٌ، لَا يَتَضَحُّ لِكُلِّ شَخْصٍ كَيْفَ تَكُونُ خَفِيَّةٌ، هِيَ أَشْيَاءٌ لَا أَسْتَطِيعُ التَّحَدُّثَ عَنْهَا، قِيلَ ثُلُثُهَا. يَبَالِغُونَ فِيَقُولُونَ: إِنَّ فَلَانًا كُلَّهُ لُظْفٌ، هُوَ لُظْفٌ مُحَضَّرٌ، يَظُنُّونَ أَنَّ الْكِمَالَ فِي ذَلِكَ، لَا. مَنْ يَكُونُ كُلُّهُ لُظْفًا نَاقِصٌ، لَا يَجُوزُ الْبَيْتَةُ وَصَفُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَنَّهُ لُظْفٌ مُحَضَّرٌ. هَذَا سَلْبٌ لِصِفَةِ الْقَهْرِ، بَلْ لَا بَدَّ مِنَ اللَّطْفِ وَالْقَهْرِ، وَهَذَا الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَوْقِعَهُ لَهُ أَيْضًا قَهْرٌ وَلُظْفٌ، لَكِنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَوْقِعَهُ هَوًى وَجَهْلًا... (مَقَالَاتُ شَمْسٍ).

إِذَا عَرَفَنِي إِنْسَانٌ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً، وَصَدَّقَ مَعِي، فَسَيَصِلُهُ مِنِّي ااطْمِنَانٌ وَرَاحَةٌ، وَسِيرَتَاخٌ مِنِّي كَثِيرًا، وَفِي النِّهَايَةِ يَبْعَثُ لَهُ مَا لَمْ يَبْعَثْ لِي...

وَجْهَةٌ مَوْلَانَا إِلَيْنَا... الشَّمْسُ الَّتِي تُضِيءُ الْعَالَمَ كُلَّهُ. تَرَى التَّوَرَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ قَمِيٍّ، وَيُشِيعُ مِنْ كَلَامِي تَحْتَ الْحَرْفِ الْأَسْوَدِ هَذِهِ الشَّمْسُ نَفْسُهَا ظَهَرُهَا إِلَيْهِمْ وَوَجْهُهَا إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا، وَجْهُ الشَّمْسِ إِلَى مَوْلَانَا؛ لِأَنَّ وَجْهَ مَوْلَانَا إِلَى الشَّمْسِ: «لَتَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» (مَقَالَاتُ، ص ٧٢٥).

مَوْلَانَا أَيْضًا أَنْشَدَ فِي شَأْنِ عَظَمَةِ شَمْسٍ:

أَنْشَدُ حَبِيبًا، أَنْشَدُ غَارًا، أَنْشَدُ عِشْقًا أَكْبَلًا لِلْكَدِّ	أَنْتَ الْحَبِيبُ، أَنْتَ الْغَارُ، أَنْتَ السَّيِّدُ، احْفَظْنِي
أَنْتَ الْقَطْرَةُ، أَنْتَ الْبَحْرُ، أَنْتَ اللَّطْفُ، أَنْتَ الْقَهْرُ	أَنْتَ السُّكْرُ، أَنْتَ الشَّمُّ، فَلَا تُؤْذِنِي أَكْثَرَ
أَنْتَ الْيَوْمُ، أَنْتَ الصُّومُ، أَنْتَ حَاصِلُ جَنِّي الشَّحَاذِ	أَنْتَ الْمَاءُ، أَنْتَ الْكُورُ، فَاسْقِنِي هَذِهِ الْمَرَّةَ
أَنْتَ الْحَبَّةُ، أَنْتَ الْفَحْجُ، أَنْتَ الْحَمْرُ، أَنْتَ الْكَأْسُ	أَنْتَ التَّاصِيجُ، أَنْتَ الْفَيْجُ، فَلَا تَتْرُكْنِي فَيْجًا
أَنْتَ الْحَوْرُ، أَنْتَ الثَّوْرُ، أَنْتَ الْفَزْدَوْسُ الْمَعْمُورُ	أَنْتَ الَّذِي صَاحِبُهُ مَسْرُورٌ، أَنْتَ الْإِمَامُ وَالْقَائِدُ الْيَقْدَامُ لِي =

شبيهة بالمُخلَّدِينَ، وكأنَّه تجسيمٌ حقيقيٌّ لما جاء في كلام كبار علماء الدين، وممتلكٌ لقدراتٍ تفوقُ قدراتِ البشر. أنتَ بهذا القولِ والعملِ، وسيلةٌ وسُلَّمٌ لِعُروجِ شمسٍ إلى قدراتٍ مَعنَوِيَّةٍ، وتَرى في شمسٍ شخصيةً استثنائيةً؛ أَمَا نَحْنُ فنَعُدُّه هو وكلامه بذرةً للظُّلُمَةِ والسَّوَادِ.

وقد شوَّهَ الحقائقَ، وبِعَذْلَقَاتِهِ ونَسَجَهُ لِلْكَلَامِ أَحَدَثَ في حَيَاتِكَ طُوفَانًا. ونحنُ نعلمُ أَنَّهُ كانَ لِأَمَدٍ مديدٍ تَلْمِيزًا لِسَحَرَةِ دِمَشقَ وبغدادَ، وَلَدَيْهِ مِثْلٌ إلى أَن يُعْطِيَ لِأَمالِهِ ورَغائِبِهِ صُورَةً مُشْرِبٍ، وَأَن يَعْمَلَ وَصِيًّا لِمَذْهَبٍ. وكانَ بِإِحْسَاسِهِ وإِدْرَاكِهِ النَاقِصِينَ يُريدُ أَن يُشِيعَ الاضطرابَ والنِّفاقَ بَيْنَ الناسِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ، يَتَنَظَّرُ كَالْبُومِ رَوَالَ المَجمِيعِ البَشَرِيِّ. كُلُّ المَسَائِلِ التي ذَكَرْتُمُوهَا هي في الأعمِّ الأغلَبِ أَخْلَامٌ مُبْهِجَةٌ، لَكِنِ الحَقِيقَةُ شَيْءٌ والرُّؤْيَا شَيْءٌ آخَر. وَأَنْتُمْ لا تَقْدِرُونَ على عِتابِ شَمْسٍ حَامِلٍ لِوَاءِ مَدْرَسَةِ التَّجَلِّي والظُّهُور. إِنَّ شَمْسًا أَحَقَرُ مِن أَن يَتَخَطَّى في هَذَا الوادي. وَأَنْتُمْ - مِثْلَ الآخَرِينَ - خُلِقْتُمْ مَرَّةً واحِدَةً، وَعِندَما يَأْتِي الأَجَلُ المَحْتومُ سَتودَّعُونَ الدُّنْيَا. وَالآنَ أَرى في وَجودِكُمْ صِراعًا قَوِيًّا بَيْنَ الإِحْساسِ والإِدْرَاكِ. فَتَعَالَوْا واسْتَعِيدُوا هُدُوءَكُمْ، تَعَالَوْا واجْعَلُوا وَجودَكُمْ في تَصَرُّفِ العَقْلِ. أَنْتُمْ الآنَ لَدَيْكُمْ شَخْصِيَّتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ وَمُنْفَصِلَتَانِ إِحْدَاهُمَا عَنِ الأُخْرَى: ذَاتُكُمْ وَذَاتُ شَمْسٍ، اخْتَارُوا إِحْدَاهُمَا. وَقَدْ كُنْتُمْ وَجودًا مَفْعَمًا بِالافتخارِ والعِظَمَةِ والمُبَاهَاةِ بَيْنَ العُلَمَاءِ، وَقَدْ بَلَغَتْ سُمْعَتُكُمْ الطَّيِّبَةُ أَقْصَى المَعْمُورَةِ. وَمِنَ المؤسِفِ أَنَّ شَمْسًا قَدْ لَوَتْ سُمْعَتُكُمْ وشَخْصَتُكُمْ بِالطَّيْنِ. وَأَنَا أَقولُ هَذَا بِمَحَبَّةٍ وَأُخُوَّةٍ وَحَمِيمِيَّةٍ. وَكُلُّ فَعَالِيَّةٍ مُخَالَفَةٍ لِلْعَقْلِ، وَكُلُّ اِهْتِمَامٍ وَعِنايةٍ

= أَنْتَ شَمْسُ التَّائِثِ السُّكْرِ، أَنْتَ مُفْعَرُ ثَرِيرِزْ أَنْتَ المَعْجُونُ مِن عُطُورِهِ مُخْتَلَفَةٍ، أَنْتَ السَيِّدُ الَّذِي يَعْطُرِي

(ديوان شمس ثريرز: الغزالية ٣٧)

بأفرادٍ مِثْلِ شَمْسٍ، هُوَ شِرْكٌ وَكُفْرٌ عَلَيْنِي. لَا قَدَرَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ إِبْلِيسُ عَرَضَ فِي طَرِيقِكُمْ بِلِبَاسِ شَمْسٍ التَّبْرِيزِي!

وهذا أَوَانُ أَنْ تَخْرُجُوا مِنْ هَذِهِ الْوَرُطَةِ الْمَفْزَعَةِ. وَعِنْدَ أَهْلِ قُوْنِيَّةَ، مَا خَبِرَ أَكْثَرَ إِثَارَةً وَحَلَاوَةً وَتَأْمِيلًا مِنْ خَبَرِ تَغْيِيرِ فِكْرِكُمْ وَمَشْرَبِكُمْ. وَإِذَا مَا قُلْتُ إِنَّكُمْ تَرَكْتُمْ شَمْسًا وَأَعْرَضْتُمْ عَنْهُ، فَإِنَّ أَهْلَ قُوْنِيَّةَ سِيزَيُونُ الْمَدِينَةَ ابْتِهَاجًا بِسَمَاعِ هَذَا النَّبَأِ الرَّائِعِ، وَسَيَكُونُ ذَلِكَ خَبَرًا مُسْعِدًا جَدًّا.

اعْلَمُوا أَنَّ الْعُرُوجَ وَالْارْتِقَاءَ الْمَعْنَوِيَّ سَيَكُونُ مُمْكِنًا وَمَيَسَّرًا بِمَعُونَةِ شَاهِينَ الْعَقْلِ، ذَلِكَ الْعَقْلُ الَّذِي يَحَرِّزُ رُوحَ الْإِنْسَانِ وَجِسْمَهُ مِنْ سَوَادِ الْحَيَاةِ وَظُلُمَتِهَا، الَّذِي يَغْدُو مَبْعَثًا لِسُكُونِ الْخَاطِرِ وَاطْمَئِنَانِ الْبَالِ.

[١٩١] لَا تَدْعُ شَمْسًا يَوَاصِلُ تَخْلِيقَاتِهِ السَّحَرِيَّةَ فِي فَضَاءِ عَقْلِكُمْ وَعُقُولِ أَبْنَائِكُمْ وَمُحِبِّبِكُمْ. سَهْلٌ جَدًّا فِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ أَنْ تُصَمِّمُوا عَلَى إِخْرَاجِ تَلْقِينَاتِهِ مِنْ سَاحَةِ ذَهْنِكُمْ؛ فَهَذَا الَّذِي تَقُولُونَهُ وَهُمْ وَخَيَالٌ وَظَنٌّ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ لَيْسَ وَارِدَاتِ قَلْبِيَّةً، بَلْ إِقْدَاطِ شَمْسِ التَّبْرِيزِي. أَطْفِئُوا مِصْبَاحَ الْخَيَالِ هَذَا فِي دَاخِلِكُمْ. وَإِذَا مَا ظَهَرَتْ حَالَةُ جَذَبٍ فِي كَيَانِكُمْ، فَإِنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي أَنْ تَصْرِفُوا النَّظَرَ عَنْهَا. كُونُوا لَا مُبَالِينَ؛ لِكَيْ تَسْتَرِدُّوا الطَّمَأْنِينَةَ الرُّوحِيَّةَ. وَمِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ تُسَلِّمُوهُ لَنَا، لِكَيْ نُعَرِّيَ أَمَامَ عَيْنَيْكُمْ الشَّخْصِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِشَمْسِ الْبَحْثِ الْمُنْطِقِيِّ وَالْعِلْمِيِّ؛ فَلَيْسَ لَدَيْهِ آيَةُ رِسَالَةٍ جَدِيدَةٍ لِكَيْ يَقُولَهَا لِلنَّاسِ. وَهُوَ غَرِيبٌ فِي مَظْهَرِ جَذَابٍ، وَيَجِبُ تَحْقِيرُهُ أَمَامَ النَّاسِ. وَإِنْ وَافَقْتُمْ فَسَلِّمُوهُ لِأَوْلَئِكَ لِكَيْ يَحَاسِبُوهُ؛ أَوْ مِنْ أَجْلِ نَجَاتِهِ، حَكِّمُوا أَنْتُمْ الْعَقْلَ وَأَخْرِجُوهُ مِنَ الْمَدِينَةِ بِاحْتِرَامٍ، فِي جَنَحِ الظَّلَامِ.

أَحَدُ الضُّيُوفِ قَالَ بوقاحية: إِنَّ أَذِنْتُمْ لَنَا بِإِخْرَاجِهِ فَنَحْنُ أَنْفُسُنَا نَعْرِفُ كَيْفَ
نُخْرِجُهُ، أَوْ فِي هَذَا الْمَكَانِ نَفْسِهِ نُسْقِطُ هَذَا الْمَبْتَدِعَ السَّاحِرَ مِنَ الْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ.
جَلالُ الدِّينِ الْبَلْخِي الشَّاعِرُ الْعَارِفُ، الَّذِي كُلُّ آثارِهِ وَأَشْعَارِهِ مَجْلَى لِلْعِشْقِ
وَالْمَحَبَّةِ وَحُسْنِ التَّفَكِيرِ وَحُسْنِ الْعَمَلِ، هَزَّ رَأْسَهُ وَتَمَتَّمَ:
إِنَّ شَرَرَ الْحَسَدِ وَالتَّعَصُّبِ فِي قُوْنِيَّةٍ لَا حَدَّ لَهُ!

- تَأَخَّرَ الْوَقْتُ، تَأَخَّرَ الْوَقْتُ، دَخَلَتِ الشَّمْسُ فِي الْبُحْرِ
دَخَلَتِ شَمْسُ رُوحِ الْعُشَّاقِ فِي خَلْوَةِ الْحَقِّ
- الدَّمْعُ الَّذِي أَخْرَقَ الْعَيْنَ، الصَّبْرُ الَّذِي أَخْرَقَ الْيَدِرَ
العَقْلُ الَّذِي كَانَ يَرْشِدُ إِلَى الطَّرِيقِ، ضَاعَتْ فِي
مَتَصَفِ اللَّيْلِ
(ديوان شمس تبريز: الغرلستان ٥٢٤، ٥٢٥)

شَمْسُ يُجِيبُ وَالِدَهُ

هَذَا الْكَلَامُ الْقَاسِي، الْمَتَوَعَّدُ الْمَهْدَّدُ، كَأَنَّهُ قَدْ أَلْقَى غِلَاةً مِنَ الْأَلَمِ وَالْحَزَنِ عَلَى
قَلْبِ جَلالِ الدِّينِ الْبَلْخِي، فَكَانَ أُنِينُ الْقَلْبِ يَصِلُ إِلَى أُذُنِهِ كَصَوْتِ النَّاي. كَانَ لَدَيْهِ
صَدْرٌ مَزَقَتْهُ الْجَهَالَةُ وَالْعَصِيَّةُ لَدَى أَذْعِيَاءِ قُوْنِيَةِ الْقُسَاةِ الْقُلُوبِ، الَّذِينَ كَانَ شَيْطَانُ الشَّرِّ
مُشَاهِدًا تَمَامًا فِي أَغْنِيهِمْ الَّتِي يَتَطَايَرُ مِنْهَا الشَّرُّ. فَقَدْ اعْتَرَفُوا عَلَى نَحْوِ صَرِيحٍ وَوَقِحَ
بِأَنَّهُمْ مُصَمِّمُونَ عَلَى أَنْ يُوَاجِهُوا شَمْسًا بِالْعَدَاوَةِ وَالْخُصُومَةِ. وَكَانَ لَدَى جَلالِ الدِّينِ
الْبَلْخِي كَلَامٌ لِلْقَوْلِ، وَقُدْرَةٌ لِلْمُبَارَزَةِ وَالِاحْتِجَاجِ؛ وَلِهَذَا السَّبَبُ قَالَ بِهِدْوً:

- أَنْتُمْ أَصْحَابُ جَدَلٍ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا الْحَقَائِقَ، وَأَنْتُمْ مِنْ غَيْرِ اهْتِمَامٍ بِأَصُولِ
الْحَوَارِ وَالْبَحْثِ وَالنَّقَاشِ تَقْطَعُونَ كَلَامِي. أَنَا، إِكْرَامًا لَكُمْ وَلِلضُّيُوفِ الرُّوحَانِيِّينَ
وَلِهَذَا الْمَجْلِسِ، أَتَحَمَّلُ كُلَّ انْفِعَالَاتِي وَتَأَثُّرَاتِي الَّتِي أُحِسُّ بِهَا مِنْ سَمَاعِ اسْمِ شَمْسِ
التَّبْرِيزِيِّ، مُضْطَرًّا مِنْ دُونِ إِبْدَاءِ رَدِّ فِعْلِي. ائْذَنُوا لِي أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنْ هَذَا الشَّعَاعِ
الرَّمْزِيِّ الْمَلَكُوتِيِّ، الَّذِي أَضَاءَ لِأَمِّدٍ مَدِيدٍ كُلِّ زَوَايَا وَجُودِي. أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا، أَنْتُمْ
وَأَصْحَابُكُمْ وَالَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ شَمْسًا، أَنَّنِي وَشَمْسًا لَيْسَا سَاحِرَيْنِ وَلَا مَسْحُورَيْنِ،
وَلَا نَحْيَا بِالْأَحْلَامِ وَالْأَخْبِيلَةِ الْوَاهِنَةِ. فَالْخَيَالُ شَيْءٌ لَيْسَ لَهُ وَجُودٌ خَارِجِيٌّ، ثُمَّ إِنَّا
لَسْنَا مَيَّالِينَ إِلَى الْعَقْلِ، وَلَكِنَّا غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى إِنْكَارِ عَظَمَةِ الْفِكْرِ اللَّامَحْسُوسَةِ، الَّتِي

تَلْمَعُ فِي ذَهْنِ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ، [١٩٣] وَيُمْكِنُ أَنْ تَصْنَعَ عَوَالِمَ. وَتَعْلَمُونَ أَنَّ حَضْرَةَ عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْحَوَارِيِّينَ وَجَمَاعَةً مِنْ مُحِبِّي حَضْرَتِهِ، ذَهَبُوا إِلَى الصَّحَرَاءِ حَيْثُ لَمْ يَرَوْا سِوَى كُتُبَانِ الرَّمْلِ وَالْحَصَى. وَهَنَّاكَ، طَلَبَ أَصْحَابُ حَضْرَةِ عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْهُ طَعَامًا. فَقَالَ حَضْرَتُهُ: ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ بِالدَّعَاءِ؛ لِكَيْ يَشْمَلَنَا اللَّهُ بِعَنَانِيهِ الْخَاصَّةِ. فَدَعَا حَضْرَةُ عِيسَى، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: سَرِيعًا سَتَنْزِلُ مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، بِشَرَطِ أَنَّهُ بَعْدَ مُشَاهَدَتِهَا لَا تَتَخَلَّلُ أَنْوَاعُ الشَّكِّ وَالشُّبْهَةِ قُلُوبَكُمْ كَالشُّوسِ، وَيَغْدُوَ اعْتِقَادُكُمْ أَكْثَرَ رُسُوحًا وَثَبَاتًا.

انْشَغَلَ عِيسَى وَصَحْبُهُ بِالدَّعَاءِ، وَبَغْتَةً بُسِطَ سِمَاطٌ عَلَيْهِ أَطْعِمَةٌ عَلَى الْأَرْضِ، فَبَدَّوْا جَمِيعًا بِالْتِهَامِ الطَّعَامِ بِاشْتِهَاءٍ، وَتَهَامُشُوا: هَذَا الْمَشْهَدُ لَيْسَ حَقِيقِيًّا، هَذِهِ جَمِيعًا سِحْرٌ وَخِدَاعٌ، وَنَحْنُ سُحْرُنَا. وَفِي النِّهَايَةِ، مَسَخَ الْحَقُّ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ.

أَحْبَبَتِي الْأَعْرَاءَ، مِنْ أَجْلِ فَهَمِ كَلَامِ شَمْسٍ وَمَعْرِفَةِ مَرَاتِبِهِ الْعِزْفَانِيَّةِ، عَلَيْكُمْ ابْتِدَاءً أَنْ تَصْقَلُوا قُلُوبَكُمْ لِكَيْ تُدْرِكُوا الْحَقَائِقَ عَارِيَّةً وَمَنْطَقِيَّةً. فَلِأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَمْلُوءَةٌ بِأَصْدَاءِ الشَّكِّ وَالشُّبْهَةِ تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَائِقَ الَّتِي أَتَحَدَّثُ عَنْهَا مِنْ قَبِيلِ السَّحَرِ وَالشَّعْبَذَةِ، أَوْ تَظُنُّونَ الْأَمْرَ كَذَلِكَ. إِنَّ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ مَدَّاحٌ لِجَلَالِ الْوُجُودِ الْإِلَهِيِّ وَعَظَمَتِهِ، وَأَنَا دَائِمًا أَسْمَعُ أَصْدَاءَ شَمْسٍ، وَسَتَسْمَعُونَ هَذِهِ الْأَصْدَاءَ الصَّافِيَّةَ وَالْمُثِيرَةَ حِينَ تَكُونُ لَدَيْكُمْ آذَانٌ كَأُذُنِي، وَقُلُوبٌ كَقَلْبِي، هَادِئَةٌ صَافِيَّةٌ. وَسَتَعْرِفُونَ عِنْدئِذٍ، أَنَّ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ الْمُقَدَّسَةَ الْمَلَكُوتِيَّةَ تَحْذَرُكُمْ مِنَ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ، وَاعْتِبَارِ رِجَالِ الْحَقِّ سَحَرَةً. إِنَّ رِجَالَ الْحَقِّ مَأْمُورُونَ بِإِصْصَالِ الصَّوْتِ الْأَسَاسِيِّ لِعَالَمِ الْخَلْقِ إِلَى آذَانِ عُشَاقِ طَرِيقِ الْحَقِّ. وَهَذِهِ وَظِيفَةٌ أَوْ رِسَالَةٌ لِرِجَالِ طَرِيقِ الْحَقِّ الْخَاصِّينَ.

العارفون، ومنهم شمسٌ، يعتقدون أنَّ كُلَّ خَيَالٍ أَوْ وَارِدٍ قَلْبِي يَغْدُو سَبِيًّا
لِوَلَهُمْ وانشغالِ خَوَاطِرِهِمْ، ويعوقُ سَيْرَهُمْ نَحْوَ الكَمَالِ المَطْلُوقِ، هو نَوْعٌ مِنَ
العَدَمِ، وَيَجِبُ التَّحَرُّرُ مِنْ قَيْدِ هَذَا النُّوعِ مِنَ الشَّوَاعِلِ والتَّعَلُّقَاتِ. والعِرْفَانُ
الحَقِيقِيُّ عِنْدَهُمْ هو زِيَادَةٌ فِي الطَّلَبِ. حُكِّيَ عَنِ أَبِي يَزِيدَ أَنَّهُ قَالَ: عَدَّوْا لَنَا أَكْثَرَ مِنْ
عَشْرِينَ مَقَامًا، فَقُلْتُ: لَا أُرِيدُ أَيًّا مِنْهَا؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ جَمِيعًا حُجُبٌ، وَلَوْ
أُعْطِيتُ صَفَاءَ آدَمَ وَشَوْقَ [١٩٤] مُوسَى وَطَهَارَةَ عِيسَى (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) لَمَا رَضِيتُ،
وَلَطَلَبْتُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ. عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ هِمَّةٍ، وَأَنْ يَسْعَى لِكَيْ يَسْتَقَرَّ
فِي حَيَازِ جَاذِبَةِ الْعِشْقِ:

قَالَ: إِنَّ أَحْوَالَنَا شَبِيهَةٌ بِبَرْقِ الدُّنْيَا:

حِينَ ظَاهِرَةٌ، وَحِينَ آخِرَ خَفِيَّةٌ

حِينَ أَجْلَسُ فَوْقَ قُبَّةِ السَّمَاءِ

وَحِينَ لَا أَرَى حَتَّى ظَهَرَ قَدَمِي

إِنَّ عُشَاقَ طَرِيقِ شَمْسِ التَّبَرُّيزِيِّ لَهُمْ حَالٌ آخَرُ، وَنَظَرٌ مُخْتَلِفٌ، وَعِنْدَمَا يَنْظُرُونَ إِلَى
كَلَامِهِ بِعَيْنِ الْقَلْبِ يَرَوْنَ أَنْوَارَ الْهَدَايَةِ، وَعِنْدَمَا يَسْمَعُونَ كَلَامَهُ بِأُذُنِ الشُّهُودِ يَشَاهِدُونَ
الْمَحْبُوبَ عِيَانًا. اسْمَحُوا لِي بِأَنْ أَتَنْهِيَ تَعْجُبَكُمْ وَتَحْيِرَكُمْ مِنْ كَلَامِي، اسْمَحُوا لِي بِأَنْ
أَرْسُمَ مِنْ قَوْلِهِ هُوَ، الَّذِي أَعْدَّهُ صَادِقًا وَمُخْلِصًا، صُورَةً لَهُ أَضْعُفُهَا أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ. وَأَبْدَأُ مِنْ
عَهْدِ طُفُولَتِهِ؛ فَإِنَّهُ فِي أَحَدِ أَقْوَالِهِ الَّتِي تَذَكَّرُهَا سُلْطَانُ وَلَدِ ابْنِي، صَرَّحَ:

«فِي عَهْدِ الطُّفُولَةِ حَصَلَتْ لِي وَاقِعَةٌ عَجِيبَةٌ. وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْلَمُ بِحَالِي، حَتَّى

وَالِدِي لَمْ يَكُنْ عَلَى عِلْمٍ بِحَالِي. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ قَالَ لِي وَالِدِي بِلَهْجَةِ أَمِيرَةٍ:

- يا وَلَدِي^(١)، يَقِينًا لَسْتُ مَجْنُونًا، وَلَسْتُ أَيْضًا مُرْتَاضًا، لَا أَفْهَمُ حَقِيقَةَ تَصَرُّفِكَ

وَسُلُوكِكَ، فَمَا مَشْرُوكُ الْحَقِيقَةِ؟

فَقُلْتُ:

- اسْمَعْ مِنِّي كَلِمَةً وَاحِدَةً، إِنَّ حَالَكَ مَعِيَ تُشَبِّهُ حَالَ مَنْ وَضَعَ بَيْضَ طَائِرٍ مَائِي، كَالْبَطِّ، تَحْتَ طَائِرٍ مَنَزِلِي، فَحَضَّنَهَا الطَّائِرُ الْأَهْلِي، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا صِغَارٌ مِنَ طَائِرِ الْبَطِّ. وَقَدْ كَبِرَتْ صِغَارُ الْبَطِّ هَذِهِ، وَذَهَبَتْ مَعَ أُمِّهَا إِلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، وَأَلْقَتْ بِأَنْفُسِهَا فِي الْمَاءِ. أُمُّهَا، الطَّائِرُ الْمَنَزِلِي، تَذَهَبُ إِلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، وَلَكِنْ لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى دُخُولِ الْمَاءِ.

فِيَا وَالِدِي، اعْلَمْ بِأَنِّي أَرَى بَحْرًا صَارَ هُوَ مَرْكَبِي. وَهَذَا هُوَ ظَنِّي وَحَالِي: إِذَا كُنْتُ أَنْتَ مِنِّي، أَوْ أَنَا مِنْكَ، فَادْخُلْ فِي مَاءِ الْبَحْرِ هَذَا، وَإِلَّا فَادْهَبْ كَمَا يَذْهَبُ الطَّائِرُ الْأَهْلِي.

أَلْقَى وَالِدِي عَلَيَّ نَظْرَةً تَعَجُّبٍ وَقَالَ:

- مَعِيَ، أَنَا الْحَبِيبُ، تَفْعَلُ هَكَذَا، مَاذَا سَتَفْعَلُ مَعَ الْعَدُوِّ؟

وَيَقُولُ شَّمْسٌ إِنَّهُ تَأْتِرُ مِنْ كَلَامِ وَالِدِهِ، وَتَأْسَفُ لِأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ حَقِيقَةَ كَلَامِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْ آيَةَ شُغْلِهِ كَانَتْ تَحْرِقُ وَجُودَهُ.

أَيُّهَا السَّادَةُ، شَّمْسٌ لَيْسَ شَخْصًا رَمْزِيًّا، شَّمْسٌ يَجِبُ أَنْ يُعْرِفَ بِكُلِّيَّةِ وَجُودِهِ، وَإِذَا ذَاكَ [١٩٥] سَتَدْخُلُونَ بَحْرَ مَعْرِفَتِهِ. اعْلَمُوا يَقِينًا بِأَنِّي لَا أَتَحَدَّثُ عَنْ أُسْطُورَةٍ وَخُرَافَةٍ، لَا أُرِيدُ لِيَبَانِي أَنْ يَكُونَ تَمَثِيلًا ذَا رَوْنَقٍ فَقَطْ، أُرِيدُ أَنْ تَعْرِفُوا، أَنْتُمْ وَأَهْلُ قُورِينَةَ، شَمْسًا مَعْرِفَةً صَحِيحَةً. أَنَا مُجَرَّدُ مُشَاهِدٍ لِمَسْرَحِ حَيَاتِهِ الْمَمْلُوءَةِ بِالْأَحْدَاثِ. هُوَ رَجُلٌ

يعطي سَكَلًا لِلْحَوَادِثِ وَالظَّوَاهِرِ، مِنْ اخْتِلَاطِ الْقُبْحِ وَالْحُسْنِ، الْقَبِيحِ وَالْحَسَنِ، وَيَفُكُّ أَغْلَالَ التَّعَصُّبِ وَالْخُرَافَاتِ، الَّتِي عَرَفَتْهَا الْقُرُونُ، عَنْ أَيْدِي السَّالِكِينَ وَأَقْدَامِهِمْ، وَيَخْلُقُ الْوَلَةَ وَالْهَيْامَ وَالْعِشْقَ وَالْإِفْتِنَانَ، وَلَدَيْهِ كَلَامٌ خَاصٌّ وَلُغَةٌ مُخْتَلِفَةٌ عَنْ لُغَاتِ الْآخَرِينَ. وَإِنْ كُنْتُمْ لَمْ تَمْلَوْا كَلَامِي فَأَذْنُوا لِي بِمُوَاصَلَةِ شَرْحِ حَيَاتِهِ. وَافَقَ الضِّيُوفُ بِهَازٍ رُؤُوسَهُمْ عَلَى أَنْ يُوَاصِلَ مَوْلَانَا حَدِيثَهُ.

كَانَ شَمْسٌ فِي سِنٍّ بُلُوغِهِ قَلِيلَ الطَّعَامِ وَقَلِيلَ النَّوْمِ، وَكَانَ حَزِينًا، وَمَتَفَكِّرًا. فَقِيلَ لَهُ: لِمَاذَا لَا تَأْكُلُ؟ - لِمَاذَا تَنَامُ قَلِيلًا وَتَضْحُو فِي اللَّيَالِي؟ - فَأَجَابَ شَمْسٌ، ذُو الْفِكْرِ السَّامِي، أُمَةً: أُرِيدُ بِالتَّأْثِيرِ فِي جِسْمِي وَالنَّظَرِ فِي الْوُجُودِ أَنْ أُدْرِكَ الْحَقَائِقَ؛ لِكَيْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنِ الْخَالِقِ الَّذِي خَلَقَ الْعَالَمَ مِنْ دُونِ وَسَاطَةِ. وَتَعَهَّدَ شَمْسٌ بِأَنْ لَا يَأْكُلَ وَلَا يَنَامَ حَتَّى يَنْجِزَ هَذِهِ الْمُكَالِمَاتِ وَالتَّسَاوُلَاتِ. فَقَدْ قَالَ: سَأَكُلُ وَسَأَنَامُ فَقَطْ عِنْدَمَا أَعْلَمُ: كَيْفَ جِئْتُ، وَأَيْنَ أَذْهَبُ، وَكَيْفَ تَكُونُ عَاقِبَتِي؟

كَانَ شَمْسٌ يَرِيدُ، فِي تِلْكَ السَّنَةِ، أَنْ يُسْتَعْرِقَ دَائِمًا فِي حَلِّ الْمَسَائِلِ فِي مَكَاشِفَةِ لَذِيذَةِ مُتَصَلَّةٍ، وَأَنْ يَشَاهِدَ فِي خِصْمٍ عِشْقٍ يَخْرِقُ رُوحَهُ وَجِسْمَهُ الْحَقِيقَةَ الْمَطْلُوقَةَ. شَمْسٌ مُسْلِمٌ كَامِلٌ. فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ قَالَ لِي: أَتَعْلَمُ لِمَاذَا يَشْتَأِقُ النَّاسُ إِلَى تَحْصِيلِ الْعُلُومِ؟ هَذَا الطُّنْبُ [الْحَبْلُ، أَيْ حَبْلُ الْعِلْمِ] مِنْ أَجْلِ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ بَثْرِ الظُّلْمَةِ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْزِلُوا فِي آبَارٍ أُخْرَى. ثُمَّ خَاطَبَنِي وَوَاصَلَ الْقَوْلَ:

. أَلَيْحَ فِي طَلَبِ أَنْ تَعْلَمَ: مَنْ أَنْتَ؟ - أَيُّ جَوْهَرٍ أَنْتَ؟ - وَلِمَاذَا جِئْتَ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا؟ - وَأَيْنَ سَتَذْهَبُ؟ - وَأَصْلُكَ مِنْ أَيْنَ؟

كَانَ شَمْسٌ مُخْلِصًا، وَصَادِقًا، فِي طَلَبِ هَذَا الْمُرَادِ. شَمْسٌ فِي دُنْيَاهِ الْمَمْلُوءَةِ بِالصَّدَاقَةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالصُّدُقِ كَانَ لَدَيْهِ فَهْمٌ آخَرٌ لِلْحَوَادِثِ. وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ لِشَمْسٍ إِسْهَامًا كَبِيرًا فِي تَكُونِ شَخْصِيَّتِي الْجَدِيدَةِ. وَلِأَنِّي أَمْضِي فِي الطَّرِيقِ الَّذِي

مَضَى فِيهِ، أَحْسُ بِالاعْتِزَازِ وَالِافْتِخَارِ^(١) [١٩٦].

الْعِشْقُ وَالْوَلَاءُ فِي أَسْرَارِنَا

هُوَ شَغَلْنَا الشَّاعِلُ؛ لِأَنَّهُ حَبِيبُنَا

وَقَدْ انْتَهَتْ نَوْبُهُ بِائِعِي الْأَسْمَالِ وَالْأَلْبَسَةِ الْقَدِيمَةِ

وَنَحْنُ بِائِعُو الْجَدِيدِ، وَهَذَا سُوقُنَا

١- جاء في «مناقب العارفين» للأفلاكي قوله:

قُلْتُ عَنِ الشُّيُوخِ الْقَدَمَاءِ أَنَّ شَمْسًا الْقَزَيْرِيَّ كَانَ يُسَمِّيهِ شُيُوخَ الطَّرِيقَةِ وَعارِفُو الْحَقِيقَةِ فِي مَدِينَةِ تَبْرِيزَ: كَامِلًا الْقَزَيْرِيَّ، أَمَّا جَمَاعَةُ الْمَسَافِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ فَيَسَمُونَهُ الطَّيَّارَ؛ لِمَا عُرِفَ عَنْهُ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى ظَنِّي الْمَسَافَاتِ، أَوْ «طَيُّ الْأَرْضِ».

وَفِي «الْمَنَاقِبِ»، قَالَ أُوْحَدُ الدِّينِ الْكُرْمَانِي عَنْ شَمْسِ الْقَزَيْرِيَّ إِنَّهُ:

«شَخْصٌ فِي مَدِينَةِ قَبْصَرِيَّةٍ، كَانُوا يُسَمُّونَهُ «كَامِلًا الْقَزَيْرِيَّ»، وَقَدْ هَامَ وَانْجَذَبَ، وَكَانَ السُّلْطَانُ عَلَاءُ الدِّينِ وَجَمَلَةُ الْأُمَرَاءِ يُكْرَمُونَهُ وَيَحْتَرِمُونَهُ وَيُعَزِّزُونَهُ، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ بِوَلَايَتِهِ وَصَلَاحِهِ، وَكَانَ صَاحِبَ بَاطِنٍ وَقُوَّةٍ جَاذِبَةٍ عَظِيمَةٍ، وَكَانَ كَلَامُهُ مَقْبُولًا عِنْدَ الْخَلْقِ...». وَجَاءَ فِي «مَنَاقِبِ» الْأَفْلَاكِيِّ فِي وَصْفِ شَمْسِ الْقَزَيْرِيَّ، مِنْ قَوْلِ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ:

«كَامِلُ الْقَزَيْرِيَّ مِنْ أَبْدَالِ مَدِينَةِ قُونِيَّةٍ، وَهُوَ أَسْتَى مَنْزِلَةً بَعْدَ دَرَجَاتٍ مِنَ الْفَقِيهِ أَحْمَدَ [الْفَقِيهِ أَحْمَدُ أَخَذَ الْعَارِفِينَ الْمَعَاصِرِينَ لِأُوْحَدِ الدِّينِ الْكُرْمَانِي]. وَمَا أَكْثَرَ مَا كَانَ كَامِلُ الْقَزَيْرِيَّ يَدْخُلُ قُصُورَ السُّلْطَانِ وَالْأُمَرَاءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ الْحُجَّابُ وَالتَّبَاوُونَ، وَيَتَرَى، وَيَأْتِي إِلَى مَجَالِسِ السُّلْطَانِ، وَيَأْخُذُ أَدَوَاتِ الْمَجْلِسِ، ثُمَّ يَخْرُجُ، وَلَا تَكُونُ عِنْدَ أَحَدٍ الْحَرَاءُ وَالْقُدْرَةُ عَلَى أَنْ يَقُولَ شَيْئًا. وَكَانَ بَعْضُ الْأَكْبَارِ مِنْ ذَوِي الْبَصِيرَةِ يُسَمُّونَ مَوْلَانَا شَمْسَ الدِّينِ: سَيْفَ اللَّهِ...».

وَقَدْ قَالَ شَمْسُ الْقَزَيْرِيَّ فِي كِتَابِهِ «الْمَقَالَاتِ»: «الشَّخْصُ الَّذِي فَهِمَ حَدِيثِي عَلَامَتُهُ أَنَّ حَدِيثَ الْآخَرِينَ يَغْدُو عَنْدَهُ غُثًّا بَارِدًا وَمُرًّا، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَغْدُو عَنْدَهُ بَارِدًا وَيَظَلُّ مَعَ ذَلِكَ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ، بَلْ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَدَّثَ مَعَهُمْ. مَقَالَاتُ شَمْسِ الْقَزَيْرِيَّ، ص ٧٤. أَصْحَابُنَا يُشْكِرُونَ مِنْ كَأْسِ شَرَابٍ، وَذَلِكَ خَيَالٌ شَيْطَانِيٌّ، خَيَالُ الْمَلِكِ نَفْسُهُ هَهُنَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، فَكَيْفَ بِخَيَالِ الشَّيْطَانِ؟! نَحْنُ غَيْرُ رَاضِينَ حَتَّى عَنْ عَيْنِ الْمَلِكِ، فَكَيْفَ بِخَيَالِ الْمَلِكِ. الشَّيْطَانُ نَفْسُهُ مَا هُوَ، حَتَّى يَكُونَ لَخَيَالِ الشَّيْطَانِ قِيَمَةٌ؟! لِيَأْذَا لَا يَكُونُ لِأَصْحَابِنَا إِدْرَاكُ لِعَالَمِنَا الَّذِي لَا نِهَآيَةَ لَظْهَارَتِهِ؟ - يَصْنَعُ أَوْلَئِكَ النَّاسُ لَا يَفْهَمُونَ، جَهْلَةٌ حَقَّقِي... لِأَنَّ لَمَوْلَانَا سَكْرًا بِالْمَحَبَّةِ، لَا صَخْرًا بِالْمَحَبَّةِ أَمَّا أَنَا فَلِي سَكْرٌ فِي الْمَحَبَّةِ، وَصَخْرٌ فِي الْمَحَبَّةِ وَلَيْسَ لِي نَيْسِيَانٌ فِي السُّكْرِ. أَيُّ جُرْأَةٍ لِلدُّنْيَا عَلَى حَبْنِي، أَوْ غَلِّ الذَّهَابِ مِنِّي فِي حِجَابِ. مَقَالَاتُ شَمْسِ الْقَزَيْرِيَّ، ص ٧٩.

وَشَمْسُ التَّبْرِيزِي، بُنُورِ ذِي الْجَلَالِ الَّذِي مَعَهُ،
هو في الْعَالَمِينَ كِلَيْهِمَا أَسَاسُ إِيْمَانِنَا^(١)

١- ديوانُ شَمْسِ تَبْرِيز، الغَزَلِيَّة ٤٢٤.

- يَا رَبِّ، تَلَكُ الشَّفَةُ الشَّيْهَةُ بِالْيَاقُوتِ السُّكْرِيَّةِ،
كَمْ هِيَ جَمِيلَةٌ!
يَا رَبِّ، ذَلِكَ الْوَجْهُ الرَّقِيقُ، كَمْ هُوَ جَمِيلٌ!
- وَإِذَا أَنْتَ [أَتَيْتَ الْإِنْسَانَ] لَمْ تُصَدِّقْنِي
فَاطْمَئِنِّي عَلَى شَفَتَيْ قُبْلَتِهِ، وَانْظُرْ كَمْ هِيَ جَمِيلَةٌ!
- وَمَا لَا يَتَسَّعُ لَهُ الْعَالَمُ
فِي وَسْطِ الْقَلْبِ الْحَزِينِ، كَمْ هُوَ جَمِيلٌ!
فَخَرُّ الدِّينِ الْعِرَاقِيَّ

مَا مَعْنَى الرَّئِيَّةِ وَالْقَلَنْدَرِيَّةِ؟

قَبْلَ لِقَائِي شَمْسًا، أَنَا أَيْضًا - مَثَلِي مِثْلُ آلَافِ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ - كُنْتُ أُغِذُّ
السَّيْرَ نَحْوَ الْقَبْرِ وَالْفَنَاءِ دُونَمَا هَدَفٍ، وَدُونَمَا إِدْرَاكِ حَقِيقَتِي لِفَلَسَفَةِ الْحَيَاةِ.
وَانْحَصَرْتُ أَهْدَافِي وَأَمَالِي، فِي السَّعْيِ لِتَأْمِينِ الْمَعَاشِ وَالْحَيَاةِ الْكَرِيمَةِ وَالِاحْتِفَاطِ
بِالْمَقَامِ وَالْمَنْزِلَةِ الْعَلِيَّةِ، فِي دَارِ الْعِلْمِ الْكُبْرَى فِي الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ. الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي
شَغَلَنِي هُوَ قِيلُ وَقَالَ الْمَدْرَسَةِ [عِلْمُ الظَّاهِرِ]، أَمَّا فِي خَلَوَاتِي مَعَ شَمْسِ التَّبَرِيزِيِّ فَقَدْ
تَغَيَّرَ رُوحِي تَمَامًا. حَدَثَ شَيْءٌ شَبِيهُ بِالْمُعْجِزَةِ فِي الْارْتِقَاءِ؛ تَقَدَّمْتُ نَحْوَ الْأَبَدِيَّةِ، نَحْوَ
الشُّهُودِ وَالْخُلُودِ الْمَطْلُوقِ، حَتَّى كَأَنِّي طَرْتُ فِي السَّمَاوَاتِ. وَلِهَذَا السَّبَبِ، وَضَعْتُ
زِمَامَ رُوحِي فِي يَدِهِ، فِي فَضَاءِ الْحَقِيقَةِ الَّذِي لَا حُدُودَ لَهُ. وَبِهَذَا الصَّنِيعِ كَانَ وَجُودِي
كُلُّهُ شَمْسًا، تَجَاوَزْتُ الْأُمُورَ الْمَجْهُولَةَ. فَكَّرْتُ شَمْسٍ غَيْرَتِ وَجُودِي كُلُّهُ؛ فَأَرَأْتُ شَمْسٍ
هِيَ مَظْهَرٌ لِصَفَاءِ الْقَلْبِ، وَلِكَمَالِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْبَصِيرَةِ.
فِي صِغَرِي، فِي خُرَاسَانَ الْكُبْرَى، التَّقِيْتُ شَيْخًا مُشْرِقَ الضَّمِيرِ فِي حُضُورِ وَالِدِي،
كَانَ ذَلِكَ الشَّيْخُ يَقُولُ:

- أتعلم متى يكون القلب مسرورًا؟ - عندما يكون الحقُّ ناظرًا. أتعلم متى يكون القلب مسرورًا؟ - عندما يكون الحقُّ حاضرًا.

يعتقدُ شمسٌ أيضًا أنه عندما ينهض الإنسانُ لِلْبَحْثِ والطلبِ، ويتخطى حدودَ الغرور والعُجب، سيمضي إلى عالمٍ يشغلُ فيه غَوَاصُ جوهرِ الحكمة بالسباحة. فإذا ما صارَ اللؤلؤ صيدًا، وحصلَ عليه، فهذا أو أن [١٩٨] يصل إلى أذن القلب هذا النداء:

[١٩٨] - عَيْنُ الأنبياءِ البصيرة، هي التي أضافتِ الإنسانَ المتقي المتعفف، الإنسانَ العارفَ الموحدَ في الأرض، إلى جماعة أصحاب القلوب.

أحبتي الأعزاء، إن شمسًا التبريزيَّ يعدُّ عبادة الذاتِ والتعصبَ كفرًا وضلالًا، ويقول: عبادة الله، أو التوحيدُ الحقُّ، يعني أن يتحرَّرَ الإنسانُ من عبادة نفسه. وهذا هو بيانُ شمسٍ، وهو تصويرُ شمسٍ. هذا هو الكلامُ المملوءُ بالمحبة والصميمية والتقوى والعشق. وهو لا يؤمنُ بالخرافات، ويرتقي على درجاتِ سلمِ المعرفة. ويخرقُ الأخيلة الواهية، والأهواء النفسانية، في إرادته الإيمانية. ويعتقدُ شمسٌ أنَّ البناءَ في الهدم، أو الصُّنعَ في الحرق.

وفي هذا الخروجُ المعنوي، يجعلُ كُليَّة وجوده رَمَادًا في شعلِ نارِ الإخلاص، ويضنُّ وجودًا آخرَ، ويقول: العِمارةُ في الخراب.

كان شمسٌ يُصارغُ العناصرَ التي يطغى على وجودها الأنانية والتكبرُ والتناقُ والرياء، التي استبدتْ بعالمِ الإسلامِ والإنسانية في قونية، كأنها الموجُ المتلاطمُ. وقد أفشى لي أسرارًا جديدةً بأن تُسمع. لم يحصلُ شمسٌ على إيمانه وإخلاصه الديني بالأدلة الجافة الفلسفية المزعجة، بل أدرك الحقائق بمُساعدة العشق. فتح العشقُ

عين قلبه، وفكره جديدة، وأكثر العارفين الذين كان لديهم في الماضي فكرٌ جديدةً ظلوا محلّ كراهية الحاسدين والمتعصبين. شمسٌ يؤمل في مستقبل قريب جدًا أن يخلص فكر أهل قونية من الجهالات، ويقلب عالمهم الخارجي رأسًا على عقب، ويشوقهم إلى الميل إلى الباطن. ومن أين لي في كل لحظة أن أقدر على قول الحقائق المتعلقة به. وإذا ما وافقت أرواحكم روجي، فإن أرواحكم ستشغل بالسير في الآفاق والأنفس، كالأثر الخفيف الجناح. اعلّموا يقينًا أنكم ستدركون المدار الذي تدور فيه فكر شمس المتعالية.

في إحدى الليالي، في خلوة المنزل، قلت لشمس:

- تصرمت عقود عمري في قيل البحث والدّرس وقاليه، لكنني لم أدرك شيئًا عن الحقائق. الحياة طافحة بالأشرار والمجاهيل، وقد ثار وجودي لزمن طويل على معميات الحياة. ولولاك لما علمت ماذا أفعل بالضلالات. ظهرت قطرات الدمع في عيني مرادي، مرشدي، شيخ طريقي، شمس، فأنشد:

أظل أسرع في طلب الحبيب،

[١٩٩] وقد وصل عمري إلى النهاية، وأنا في عمرة منام،

وسأفترض أنني سأظفر بوصول الحبيب

من أين لي أن أظفر بذلك العمر الذي انقضى؟^(١)

إضافة إلى ذلك، الحياة العرفانية حياة خلود غير قابلة للفناء، وليس للموت والفناء في هذه الحياة تأثير وثبات، والإنسان العارف يصنع كل شيء ويشاهد كل

شيء. ودُنْيَا الْعِرْفَانِ دُنْيَا عِلَاقَاتٍ وَارْتِبَاطَاتٍ، وَهَوْلُ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فِي مَجَالِ الْفَهْمِ يُبَيِّنُ وَيُعَرِّفُ مِنْ عَالَمٍ آخَرَ، هُوَ عَالَمُ الْخُلُودِ.

شَمْسُ التَّبَرِيزِيِّ عَارِفٌ بَاحِثٌ طَالِبٌ لِلْحَقِيقَةِ، لَا يَهْتَاجُ قَلْبُهُ إِلَّا لِكَشْفِ الْحَقَائِقِ. لَدَيْهِ مَيْلٌ إِلَى أَنْ يَتَقَدَّمَ الْآخَرُونَ، مِثْلَهُ، فِي مَنَازِلِ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ، سُبْحَانَهُ. لَمْ أَكُنْ أَبَدًا مَقْهُورًا لِتَصَرُّفِهِ، لَكِنِّي صِرْتُ عَلَى الدَّوَامِ مَسْحُورًا بِكَلَامِهِ الْمُؤَيَّدِ الْمَدْلَلِ عَلَيْهِ، وَمَنْجَذِبًا إِلَيْهِ. وَلَا بَدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَعْرِفَ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ مَعْرِفَةً صَحِيحَةً؛ أَيَّ أَنْ نَعْرِفَ عَظَمَتَهُ، وَنَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ. وَرَبِّمَا يُسْأَلُ هَذَا السَّوَالُ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ وَالْإِجَابَةُ الْمَخْتَصَرَةُ لِهَذَا السَّوَالِ هِيَ:

نُرِيحُ ضَمِيرَنَا، وَنَجْلُو بَاطِنَنَا مِنَ الشَّكِّ وَالتَّرَدُّدِ، وَنَغْدُو طَاهِرِينَ، لِكَيْ نُدْرِكَ وَحْدَةَ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ وَنَنْظُرَ بِالشُّهُودِ. يَقُولُ شَمْسٌ: الْمُرَادُ مِنَ التَّضَرُّعِ مُحَادَثَةُ الْحَقِّ تَعَالَى، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكَلِّمَ رَبَّهُ، وَأَنْ يَنَاجِيَهُ. وَهَذِهِ الْمُنَاجَاةُ، وَهَذِهِ الْمَحَادَثَةُ، تُسْتَجَابُ مَطَالِبُهَا عِنْدَمَا يَكُونُ قَلْبُ الْإِنْسَانِ غَيْرَ مُشَوَّشٍ، وَمُزَالًا عَنْهُ صَدَأُ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ:

مَتَى تَضَعُ قَدَمَكَ فَوْقَ سَقْفِ الْفَلَكَ؟

وَمَتَى تَحْتَسِي الْخُمْرَ مِنْ كَأْسِ شَرَابِ الْمَلِكِ؟

وَمِنْ أَجْلِ جَاءِ طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ

طَهَّرَ الْمَكَانَ وَاللِّبَاسَ وَالرُّوحَ

وَمَا دُمْتَ لَمْ تَكُنْسِ الطَّرِيقَ بِمَكْنَسَةٍ «لَا» (*)

مَتَى تَدْخُلُ قَصْرَ «إِلَّا اللَّهُ»؟

* - يَرِيدُ نَفْيَ مَا سِوَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، الَّذِي يَفِيدُهُ مِظْلَعُ الشَّهَادَةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» [الْمُتَرَجِمُ].

أَحْرَقَ كُلَّ شَيْءٍ مَا خَلَا الْحَقَّ، وَهَاجَمَهُ

أَزَلَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ الدِّينِ^(١).

[٢٠٠] يَرَى شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ أَنَّ السَّيْرَ وَالسُّلُوكَ هُوَ طَاعَةٌ مِنْ دُونِ رِيَاءٍ أَمَامَ الْخَلْقِ، وَتَقْوِيَةٌ لِلرُّوحِ، وَتَنْقِيَةٌ لِلْقَلْبِ، فَهَلْ هُوَ غَيْرُ مُسْلِمٍ؟ - هَلْ تَعُدُّونَهُ غَيْرَ عَابِدٍ لِلَّهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِذَا اسْتَمَعْنَا إِلَى أَمْرِ الْقَلْبِ وَجَدْنَا، يَقِينًا، أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى الدِّينِ الْفَدَى، الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ الْحَقِّ؟

إِذَا شَاءَ إِنْسَانٌ أَنْ يَطْلُعَ عَلَى أَسْرَارِ الْحَيَاةِ، وَيَعْلَمَ الْآخَرِينَ أَيْضًا الطَّرِيقَ لِتَعْرِفِ أَنْفُسِهِمْ وَدَوَاتِهِمْ، هَلْ يَكُونُ سَاحِرًا؟ إِنْ شَمَسًا، مِنْ دُونِ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ مِثْلٌ إِلَى إِيْجَادِ الْفُرْقَةِ وَالتَّنَافُرِ، صَوَّرَ تَصْوِيرًا رَائِعًا الْحَيَاةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِمُحِبِّي طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ. شَمْسُ مُنَادٍ وَمُدَافِعٌ فَعَالٌ عَنِ الْعِرْفَانِ بِمَحَبَّةٍ، وَبِهَذَا الْأَمَلِ أَحَبَّ كَثِيرًا أَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى عَالَمِ الْعِشْقِ، وَيَجْعَلَ نُورَ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ أَكْثَرَ اتِّقَادًا. شَمْسُ عَاشِقٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ وَالنَّاسِ. وَإِدْرَاكُهُ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ لَطِيفٌ، وَعَمِيقٌ، وَيَسْتَحِقُّ الثَّنَاءَ. وَهُوَ مُخْتَرِعُ الْأَلْفَبَائِيَّةِ، الَّتِي بِفَضْلِهَا يُمْكِنُ فَهْمُ كُلِّ الْعِلَلِ وَالْمَعْلُولَاتِ وَمَظَاهِرِ الْحَيَاةِ. وَالْمُحِبُّونَ لِشَمْسٍ، مِثْلُهُمْ مِثْلُهُ، يَصُورُونَ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى خَيْرِ وَجْهِ. فِي اللَّحَظَاتِ الَّتِي أَمْضَيْتُهَا فِي خُلُوةِ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ، لَمْ تَسْتَطِعْ أَيْةُ كَلِمَةٍ، وَأَيُّ صَوْتٍ، وَأَيْةُ عَقِيدَةٍ، أَنْ تَشَوِّشَ الْهَدْوَاءَ الْمَمْتَنِعَ لِجَلَسَاتِنَا. حَادِثَةُ الرِّسَالَةِ الَّتِي حُوِّلَتْ إِلَيْهِ وَجَعَلَتْهُ مُتَشَرِّدًا وَمُضْطَرِبًا، وَمَتَقَلًّا مِنْ مَحَلَّةٍ إِلَى مَحَلَّةٍ أُخْرَى، وَمِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ أَكْبَرٍ، هِيَ الْعِشْقُ. هُوَ إِنْسَانٌ، أَوْ وَفَّقَ مَا يَقُولُ، خَادِمٌ مُخْلِصٌ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْمَحَبَّةِ وَالصِّفَاءِ. أَيْجِبُ فِي عَقِيدَتِكُمْ أَنْ يُعَدَّ شَخْصٌ كَهَذَا كَافِرًا وَمُبْتَدِعًا؟

وهو، بما لديه من قُدرة عَجَبِيَّة عَلَى التَّحَرُّرِ وَالِاسْتِغْنَاءِ وَالِإِيمَانِ الْقَوِي، يَرَى الموتَ والحياةَ شَيْئًا وَاحِدًا. عَظَمَتُهُ الرُّوحِيَّةُ عَلَّمَتْنِي أَن أَتَخَلَّى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَن أَتَعَلَّقَ بِالْعِشْقِ؛ لِأَن:

الْعَاشِقُ الَّذِي يُدَلِّلُ الْعِشْقُ يَصْنَعُ رُوحَهُ مَجَلَى ذَاتِهِ
وَيَنْشَغِلُ بِذَاتِهِ حَتَّى إِنَّهُ لَا يَنْشَغِلُ بِالْمَعْشُوقِ أَيْضًا

وقد رَوَى والذي بهاءٌ وَلَد، الذي هو من مَشَايخ الصُّوفِيَّة، في كتابه «المعارف» قوله: حَيْثُمَا يَبْلُغُ الْعِشْقُ دَرَجَةَ الْكَمَالِ لَا يُمْكِنُ بَيَانُ كَيْفِيَّتِهِ، وَكَلَّمَا تَبَيَّنَتِ الْكَيْفِيَّةُ ذَهَبَ الْعِشْقُ وَالْمَحَبَّةُ، وَضَاعَ الْجَمَالُ. تَعَدُّ نَفْسَكَ مُدَبِّرًا، وَمُبْصِرًا لِلْعَاقِبَةِ، مَعَ أَنَّ أَيْ عَمَلَ لَكَ لَا يَكْتُمِلُ. وتَسْأَلُونَنِي: [٢٠١] لِمَاذَا اتَّجَهْتُ نَحْوَ الرُّندِيَّةِ وَالْقَلَنْدَرِيَّةِ؟ - واختَرْتُ هَذَا الطَّرِيقَ؟ وإِجَابَتُكُمْ هِيَ هَذِهِ:

لِأَن مَذْهَبَ الْقَلَنْدَرِ هُوَ الْاسْتِهْنَاءُ وَالْعِشْقُ

سَلَكْنَا طَرِيقَ الْقَلَنْدَرِ بِذِكَاةٍ وَمَهَارَةٍ^(١)

١ - جاء في مُعْجَم اللُّغَاتِ والتَّعْبِيرَاتِ والاصطلاحات العِرْفَانِيَّة «الْقَلَنْدَرُ كِنَايَةٌ عَنْ صَاحِبِ مَقَامِ الْإِطْلَاقِ، حَتَّى مِنْ الْقِيَدِ الْإِطْلَاقِيَّةِ وَقُرْنَى مَا بَيْنَ الْقَلَنْدَرِ وَالتَّلَامَتِي وَالصُّوفِي، أَنَّ الْقَلَنْدَرَ يَكْتُمِلُ عِنْدَهُ التَّفَرُّدُ وَالتَّجَرُّدُ، وَيَسْعَى فِي تَخْرِيبِ الْعَادَاتِ وَتُخَالِفَةِ الْمَأْلُوفَاتِ» (رياض العارفين، ص ٤١). وقد أَثْنَدَ الْعِطَّارُ فِي هَذَا الشَّأْنِ:

أَعْتَرَمُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَأَنَا نِصْفُ نَيْلٍ وَرَاقِصٌ وَمُيَسِّكٌ بِيَدِي بِإِبْرِيْقِ الْحُمْرَةِ،
أَن أَمْضِيَ إِلَى سُوقِ الْقَلَنْدَرِيَّةِ ثُمَّ بِسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، أَغْبَتْ بِكُلِّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ
فَالَى مَتَى، بِالتَّزْوِيرِ، أَكُونُ مُرْشِدًا وَإِلَى مَتَى، بِالظَّنِّ، أَكُونُ عَابِدًا لِنَفْسِي؟
فَلَا يَدَ مِنْ تَمْزِيقِ حِجَابِ الظَّنِّ وَلَا يَدَ مِنْ كَسْرِ قُوَّةِ التَّزْوِيرِ
وَقَدْ حَانَ وَقْتُ أَنْ أَصْفَى بِيَدَيَّ فَالَى مَتَى أَظِلُّ مُقَيَّدَ الْقَدَمِ
فِيهَا أَتِيهَا السَّاقِي، هَاتِ مُدَامًا مُبْهَجَةً لِلْقَلْبِ هَيَّا، فَإِنَّ الْقَلْبَ نَهَضَ، وَالشَّرَابَ اسْتَقَرَّ فِي الرَّأْسِ

- أَيُّهَا الْمُشَاقُّ، أَيُّهَا الْمُشَاقُّ، أَنَا عَاشِقٌ عَاقِلٌ
وَمَعَ سَمْعٍ وَصَالٍ فِي الدُّنْيَا، أَنَا كَالْفَرَّاشَةِ، أَنَا كَالْفَرَّاشَةِ
- وَقَدْ قَدِّتُ الْمَعشُوقَ، فَلَيْ مَتَى هَذَا الاضطرابُ ؟
لَا تَغْفُلُوا عَنَّا هَكَذَا، فَأَنَا عَاقِلٌ عَاقِلٌ

تَجَارِبُ شَمْسِ الْعِرْفَانِيَّةِ

[٢٠٢] شَمْسُ رِنْدٌ وَقَلَنْدَرٌ^(١)، وَقَدْ ظَلَّ لَوْحَتِ طَوِيلٍ مُتَوَجِّهًا نَحْوَ أَتُونِ الْحَقِيقَةِ
وَمَرْكَزِهَا، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِفِكْرِ الْمَاضِيْنَ، وَحَتَّى مَوْلُفَاتُ الْوَدِيِّ لَمْ يَبَالِ بِهَا، وَكَانَ يَقُولُ:
عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَكُونَ فِي ذَاتِهِ يَنْبُوعًا مَوْلَدًا لِلْعِلْمِ وَالضِّيَاءِ، وَيَرْبِطَ قَطْرَاتِ الْفِكْرِ
بِبَحْرِ الْكَمَالِ الَّذِي لَا يَنْتَهِي، وَلَا يَجْفَى.

لَمْ يَقْدَمْ شَمْسُ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ، فِي قَوْلِهِ وَفِي فِعْلِهِ، فِي صُورَةِ رَجُلٍ غَيْرِ عَادِيٍّ، وَلَمْ
يَقُلْ إِنَّهُ مِنْ مَجَالِي الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ، بَلْ عَلَى أَنَّهُ صَاحِبُ كَلَامٍ جَدِيدٍ بِأَنْ يُسَمِعَ وَأَنْ
يُتَأَمَّلَ. وَأَنْقَلُ لَكُمْ شَيْئًا مِنْ لَحْنِهِ الشَّيْلِ. وَعَلَى الْإِنْسَانِ فِي النَّهَايَةِ أَنْ يَقْدَمْ نَفْسَهُ عَلَى
نَحْوِ بَيِّنُ صِلَاتِهِ وَعَلَاقَاتِهِ عِنْدَمَا يَكُونُ قَدْ فَهِمَ الْعَالَمَ. شَمْسُ الَّذِي أَذْرَكَ جَاذِبِيَّةَ
الْحَقِيقَةِ بِكُلِّيَّةٍ وَجُودِهِ، ابْتِغَاءً أَنْ يَعْرِفَ شَمْسًا الْحَقِيقِيَّ قَالَ فِي إِجَابَةِ أَحَدِ أَسْأَلَتِي:
- اَعْلَمْ يَا مَوْلَانَا أَنَّ ذَلِكَ الْخَطَاطَ كَتَبَ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْخَطِّ:

١ - الْقَلَنْدَرِيُّونَ أَشْخَاصٌ لَا يَبَالُونَ بِنَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ، وَيَعْمَلُونَ عَلَى مُخَالَفَةِ الْعَادَاتِ وَالرُّسُومِ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى
يَقُولُ حَافِظُ الْقِمَرِازِيِّ:

الْقَلَنْدَرِيُّونَ، الْمُتَحَرِّرُونَ الْبَاحِثُونَ عَنِ الْحَقِيقَةِ لَا يَشْتَرُونَ بِنِصْفِ حَبَّةٍ شَعِيرٍ
قَبَاءَ الْأَطْلَاسِ الْفَاحِشِ الَّذِي يَرْتَدِيهِ مَنْ لَمْ يَتَحَلَّ بِالْفَضْلِ وَالْبِرَاعَةِ

وَيَقُولُ سَنَائِي:

قَطَعَ الْمَعشُوقُ عَلَى طَرِيقِ الْقَلَنْدَرِ وَمِنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ اضْطَرَمَّتِ النَّارُ فِي رُوحِي

[الأصل]

وَالرَّيْنُدُ، فَارْسِيٌّ، بِمَعْنَى الْمَاهِرِ وَالذَّكِيِّ وَالْجَرِيءِ وَالْمَحْتَالِ، وَمَنْ لَا يَقِيمُ وَزْنَ لِمُتَعَارِفِ النَّاسِ [الْمُتَرَجِمُ].

أَحَدُهَا يَقْرُؤُهُ هُوَ وَخَدَهُ لَا غَيْرَ،

[٢٠٣] وَأَحَدُهَا يَقْرُؤُهُ هُوَ، وَيَقْرُؤُهُ غَيْرُهُ أَيْضًا،

وَأَحَدُهَا لَا يَقْرُؤُهُ هُوَ، وَلَا يَقْرُؤُهُ غَيْرُهُ،

وَذَلِكَ الْخَطُّ الثَّلَاثُ هُوَ أَنَا^(١).

كَانَ شَمْسٌ دَوِيًّا عِشْقِيًّا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى أَرْضِ قُونِيَّةَ، وَأَنَا كُلَّمَا سَمِعْتُ اسْمَهُ انْهَلَتْ الدَّمُوعُ الْحَارَّةُ مِنْ عَيْنِي، مِنْ فَرْطِ الْانْفِعَالِ أَوْ الْوَجْدِ الَّذِي يَتَنَابَّي. فَقَدْ كَانَ عَدِيمَ النَّظِيرِ فِي عِلْمِ الْكِيمِيَاءِ؛ وَفِي التَّجْوِمِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ وَالْحِكْمِيَّاتِ وَالْمَنْطِقِ، أَرَى أَنَّهُ لَا مَثِيلَ لَهُ. وَلَكِنْ عِنْدَمَا وَصَلَ شَمْسٌ إِلَى الرِّجَالِ الَّذِينَ هُمْ مَحَلُّ اِهْتِمَامِهِ وَحَادَثُهُمْ، أَثْبَتَ الْجَمِيعَ فِي صَحِيفَةِ «الْعَدَمِ»، وَأَهْمَلَهُمْ. تَجَرَّدَ وَاخْتَارَ عَالَمَ التَّفْرِيدِ وَالتَّوْحِيدِ. كَانَ شَمْسٌ يَبْحَثُ عَنْ هَيَجَانِ عِشْقِ نَفْسِهِ وَرَاءَ مَعْلُومَاتِهِ وَمَعَارِفِهِ؛ وَهَنَّاكَ، أَوْ فِي ذَلِكَ الْوَادِي، كَانَ يَجِدُ الطَّمَأْنِينَةَ، وَكَانَ رُوحُهُ يَظْفَرُ بِاللَّذَّةِ وَالطَّرَاوَةِ الْجَدِيدَةِ. وَكَثِيرًا مَا قَالَ لِي شَمْسٌ: إِنَّهُ فِي صِغَرِهِ كَانَ يَنْشُدُ تَعْرِفَ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ، وَلَمْ يَكُنْ يَهْدَأُ وَيَسْتَرِيحُ حَتَّى يَفْهَمَ جَيِّدًا كُنْهُ الْمَوْضُوعِ الَّذِي يَفَكِّرُ فِيهِ. وَقَدْ بَيَّنَّ شَمْسٌ أَنَّهُ لَيْسَ مَقْلُدًا، وَقَالَ فِي هَذَا الشَّأْنِ:

«رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الدَّرَاوِيَشِ الْأَعْرَاءِ، وَجَلَسْتُ إِلَيْهِمْ، وَعَرَفْتُ الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ مِنْهُمْ، مِنْ جِهَةِ الْقَوْلِ وَمِنْ جِهَةِ الْحَرَكَاتِ. وَلَا يَنْزِلُ قَلْبِي إِلَّا حَيْثُ يَكُونُ الْمَكَانُ مُسْتَحْسَنًا وَمَخْتَارًا، وَهَذَا الطَّائِرُ لَا يَلْتَقِطُ كُلَّ حَبَّةٍ».

وَأَعْتَقْدُ أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ قَبُولِ دَعْوَةِ شَمْسٍ قَبُولًا تَامًا، وَلَا بَدَّ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى مَادْبَةِ الْعِشْقِ بِهَدَايَةِ نَجْمِ كَلَامِهِ الْوَضَاءِ. وَعِنْدَئِذٍ سَتَنْجُونَ مِنْ ثِقَلِ حِنْلِ الْهَوَسِ وَالْهَوَى. وَأَنْتُمْ، مِمثْلِي الْمُحْفِلِ الرُّوحَانِي فِي قُونِيَّةَ، تَخَالِفُونَ هَذَا الرَّجُلَ الْعَظِيمَ، وَتَعْتَرِضُونَ

عَلَيْهِ مِنْ دُونِ أَنْ تَطَّلَعُوا عَلَى حَيَاتِهِ، مَعَ أَنَّهُ اعْتَرَفَ وَقَالَ لِي:

«فِي الْبَدْءِ مَا كُنْتُ الْبَتَّةَ أَجْلِسُ مَعَ طُلَّابِ الْعِلْمِ وَالْأَسَاتِذَةِ، وَكُنْتُ دَائِمًا مَعَ الدَّرَاوِشِ، وَكُنْتُ أَقُولُ: هَؤُلَاءِ غُرَبَاءُ عَنْ مَعْرِفَةِ عَالَمِ الدَّرَاوِشِ. وَالْآنَ، إِذَا عَرَفْتُ جَيِّدًا أَسَاسَ ادِّعَاءِ هَؤُلَاءِ الدَّرَاوِشِ الدَّزُوشَةِ، وَأَيْنَ هُمْ مِنْ حَقِيقَةِ الدَّزُوشَةِ، زَادَتْ عِنْدِي الرَّغْبَةُ فِي مُجَالَسَةِ الْفُقَهَاءِ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي لِقَاءِ الدَّرَاوِشِ الْمَدَّعِينَ، الَّذِينَ كُنْتُ رَأَيْتُهُمْ؛ لِأَنَّ الْفُقَهَاءَ، بِاخْتِصَارٍ، عَانُوا الْآلَامَ فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ، أَمَّا هَؤُلَاءِ فَمَاذَا عَانُوا؟ وَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ الدَّرَاوِشِ يَتَنَفَّجُونَ فَقَطْ، بِالْقَوْلِ: إِنَّا دَرَاوِشُ، فَيَجِبُ أَنْ يُسَالَ: مِنْ أَيْنَ لَهُمْ هَذِهِ الدَّزُوشَةُ؟ - لِمَاذَا لَا أَرَى ذَلِكَ؛ وَفِي النِّهَايَةِ، الدَّزُوشَةُ إِمَارَةٌ وَإِمَامَةٌ».

[٢٠٤] كَانَ شَمْسُ يَرِيدُ بِكَلَامِهِ أَنْ يَدْفَعَ النَّاسَ إِلَى تَعَرُّفِ الْبَيَانِ الصَّحِيحِ مِنَ الْكَاذِبِ، وَكَانَ يَرَى أَنَّ الْكَذَّابَ مَطْرُودٌ، وَيَرِيدُ لِبَنِي آدَمَ الْأَبْرِيَاءَ أَنْ لَا يُصْبِحُوا مَنشَغَلِينَ بِاللَّهُوِ، وَمُحْبِبِينَ لِلشَّيْطَانِ، وَمَادَّيِينَ، وَمُنَافِقِينَ.

وَتَحَدَّثَ شَمْسٌ عَنِ افْتِخَارِهِ بِعَجْزِهِ وَجِزْمَانِهِ وَتَوَاضُّعِهِ أَمَامَ عَالَمِ الْخَلْقِ، الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ، فِي مَقَالٍ عَلَى هَذَا النِّحْوِ:

قَالَتْ جَمَاعَةٌ: كُونُوا جَمِيعًا فِي حَالٍ مُرَاقِبَةٍ، وَضَعُوا رُؤُوسَكُمْ عَلَى رُكْبِكُمْ لِيَعْقُضَ الْوَقْتُ. ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ رَفَعَ أَحَدُهُمْ رَأْسَهُ وَقَالَ: رَأَيْتُ مِنْ هُنَا إِلَى أَوْجِ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ، وَقَالَ آخَرُ: مَرَّ نَظَرِي بِالْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ أَيْضًا، وَأَنْظَرُ مِنْ الْقَضَاءِ فِي عَالَمِ الْخَلَاءِ. وَاحِدٌ آخَرُ ادَّعَى قَائِلًا: أَرَى حَتَّى ظَهَرَ الثَّوَرُ وَالْحَوَاتِ. أَمَّا أَنَا، فَفِي ذَلِكَ الْجَمْعِ اعْتَرَفْتُ بِأَنِّي لَا أَرَى سِوَى عَجْزِي.

وهذا تواضعُ رَجُلٍ عَظِيمٍ كان يَطْلُبُ الافتخارَ في مَعابِدِ الحَقِّ والحَقِيقَةِ، ويريدُ أن يتحكَّم في عَالَمٍ يَسُوْدُهُ الاضطرابُ والقلَقُ والحِرْصُ والطَّمَعُ والمُرءاءَةُ والدَّناءَةُ، ويوجدُ هدوءًا مُبْهِجًا، ويُزِيلُ شَيْطَانَ الشَّرِّ والإِجْرامِ والأَلَمِ. وكان يَنْظِمُ الأشعارَ الحماسيَّةَ لِكَي يَهْجُمَ على فِكْرِ الإنسانِ ويقولَ له: اطلُبِ اللهَ في كُلِّ مكانٍ، وتخلَّصْ مِنْ مُنْغَصَّاتِكَ بالاستِعاْنَةِ بالمَسْئِلِ العَظِيمِ. وطَبِيعِي أَنْ كُلَّ رُوحٍ لَدَيْهِ نافِذَةٌ نحوَ عَالَمٍ ما وراءَ الطَّبيعَةِ. ويريدُ شَمْسٌ أَنْ يَفْتَحَ التَّوَاغِدَ الموجودةَ في أَرْواحِ البَشَرِ، وأن يُوَضِّحَ هذا القانونَ العَظِيمَ: دائِمًا، يَكُونُ الحَقُّ تعالى أَقْرَبَ إلى النَّاسِ. وَلَسْتُ أَعْلَمُ ما إذا كان السَّادَةُ المُمَثِّلُونَ العِظَامُ لِلْمُخْفِلِ الرُّوحانيِّ في قُوْنِيَّةٍ قد فَهَمُوا بَيانَ شَمْسٍ وكلامَهُ حتَّى الآنَ. لأنَّ شَمْسًا كان يَعتقدُ أَنَّ الإِشارةَ السَّريعةَ واللَّمحةَ الدَّالةَ تكفي، وكان لا يَحِبُّ الكلامَ الزَّائدَ عنِ الحَدِّ:

الحَدِيثُ هُوَ إِغْلَاقُ لِتِلْكَ الكُوءِ

وَعَيْنُ إِظْهَارِ الكلامِ هُوَ إِخْفَاؤُهُ

وَأَخْشَى، إِنْ أَنَا صَمْتُ، مِنْ أَنَّ تِلْكَ الشَّمْسِ

تُمَزِّقُ الحِجَابَ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى

فَاضْدَحْ كَالْبَلَابِلِ مُغَرِّدًا عَلَى وَجْهِ الوَرْدَةِ

لِكَي تَشْغَلَهُمْ بِرَائِحَةِ الوَرْدَةِ

وَأَمَّا تِلْكَ الشَّمْسِ الشَّدِيدَةِ الضَّيَاءِ

يَكُونُ كُلُّ دَلِيلٍ - عَلَى الحَقِيقَةِ - قاطِعَ طَرِيقٍ^(١)

كان شَمْسٌ يقولُ: إِنَّ الإنسانَ يَنْبغي أَنْ يَصِلَ إلى التَّقْوَى الحَقِيقِيَّةِ، عَندَما

يتحدثُ البارئُ تعالى. وَحَدَّثَ مَرَّةً أَنْ كَانَ سُلْطَانُ وَلَدٍ [ابْنُ مَوْلَانَا] جَالِسًا فِي حُجْرَتِي، فَسَأَلَ شَمْسًا: فِي أَيَّةِ مَدْرَسَةٍ مِنْ مَدَارِسِ دِمَشْقَ حَصَلَ الْعِلْمُ أَكْثَرُ؟

فَأَشَارَ شَمْسٌ بِكَفِّي يَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا إِلَى بَدَنِهِ وَأَجَابَ: مَدْرَسَتُنَا هِيَ [٢٠٥] هَذِهِ، هَذِهِ الْجُدْرَانُ الْأَرْبَعَةُ مِنَ اللَّحْمِ. وَمُدْرَسُهَا عَظِيمٌ، وَلَا أَقُولُ مَنْ هُوَ، لَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَعْبَدَهُ الْقَلْبُ^(١)، «حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي»، ثُمَّ أَضَافَ قَائِلًا:

هَلْ تَتَصَوَّرُونَ بِمَاذَا يَنْصَحُنَا بَعْضُ الْوُعَاظِ الْغَيْرِ الْمَتَّعِظِينَ؟ لَا يَنْصَحُونَنَا بِغَيْرِ الْخَوْفِ، وَعَدَمِ الْإِعْتِقَادِ، وَالتَّفَكُّيرِ الْبَعِيدِ، وَالْإِضْطِرَابِ وَعَدَمِ الثَّبَاتِ. هَلْ تَتَصَوَّرُونَ مَاذَا يَعْلَمُنَا بَعْضُ الْفَلَسَفَةِ؟ لَا يَعْلَمُونَنَا غَيْرَ السَّفْسَطَةِ وَالثَّرَثَةِ. فَمَا مِيرَاثُ هَؤُلَاءِ غَيْرُ كَلَامٍ مُضْطَرَبٍ مُظْلِمٍ. وَمَا الْفَلَسَفَةُ غَيْرُ الثَّرَثَةِ وَالْكَلامِ الْفَارِغِ. مَا مِيرَاثُ بَعْضِ الْعُلُومِ الرَّسْمِيَّةِ غَيْرُ التَّسْوِيقِ وَالْمُتَاجَرَةِ؟ - وَمَا التَّعَلُّمُ غَيْرُ طَلَبِ الْجَاهِ، وَتُشْدَانِ الشُّهُرَةِ، غَيْرُ رَسْمِ هَالَةٍ عَظِيمَةٍ حَوْلَ النَّفْسِ؟

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَظَرَ إِلَيَّ شَمْسٌ وَقَالَ: أَرَدْتُ مِرَازًا أَنْ أُخْتِمَ عَلَى لِسَانِي بِخَاتَمِ الصَّمْتِ، وَعَلَى قَلْبِي بِخَاتَمِ النَّسْيَانِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا رَأَيْتُ مَوْلَانَا نَسِيْتُ هَذَا الْعَهْدَ، غَيْرَ دَارٍ بِذَلِكَ. وَفِي قُرُونِيَّةٍ، حَدَّثَ مَرَّةً أَنْ دَخَلْتُ دَارَ التَّقْدِيرِ [مَنْزِلَ مَوْلَانَا] فَقُلْتُ لِفَقِيهِ قُرُونِيَّةِ الْكَبِيرِ: أَلَدَيْكَ شَيْءٌ مِنْ عِلْمِكَ الْأَبَدِيِّ، لِكَيْ يَعْلَمَنِي طَرِيقَ الْحَيَاةِ وَالسَّيْرِ فِي الْكَائِنَاتِ؟ سَكَتَ [مَوْلَانَا]، فَاضْطَرَرْتُ أَنْ أُنْقِلَهُ خَطْوَةً خَطْوَةً إِلَى الْمَمْلَكَةِ الْوَاسِعَةِ لِعَالَمِ الْعِشْقِ، وَعِنْدئِذٍ عَلِمَ أَنَّهُ تَوَجَدَ دُنْيَا أُخْرَى، اسْمُهَا دُنْيَا الْعِشْقِ، وَفِي دُنْيَا الْعِشْقِ هَذِهِ سَمَاءُ أُخْرَى وَقَمَرٌ آخَرُ.

أَيُّهَا السَّادَةُ، أَنَا وَشَمْسٌ مُطْرِبَا عَالَمِ الْعِشْقِ، وَبِعَيْنِ الْهُدُوءِ الرُّوحِيِّ الَّذِي حَبَانَا

إِيَّاهُ الْعِشْقُ نَنْظُرُ إِلَى الدُّنْيَا وَإِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، وَنَعْقِدُ قُلُوبَنَا عَلَى مَحَبَّةِ النَّاسِ. إِنَّ الشَّرَارَةَ الْأُولَى، الَّتِي أَضَاءَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا الْمُظْلِمَةَ فِي بَدْءِ وُجُودِ الْوُجُودِ، كَانَ مُضْذِرُهَا الْعِشْقُ. وَأَسَاسُ الْأَمْرِ أَنَّ الْوُجُودَ عِشْقٌ، وَعَدَّ الْحَقُّ تَعَالَى قُلُوبَ الْعُشَّاقِ كَانُونًا مُتَقَدِّمًا وَمَجْلَى لِلْحَقَائِقِ السَّرْمَدِيَّةِ. وَعِنْدَمَا فَهِمْتُ سِرَّ الْعِشْقِ، بِمَعُونَةِ شَمْسٍ، تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ فِي وَجُودِي. وَكَانَ شَمْسٌ يَقُولُ: الْعِشْقُ يَرْفَعُ الْإِنْسَانَ إِلَى مَقَامِ الْكَرُوبِيِّينَ^(*). وَعِنْدَئِذٍ تَذَكَّرْتُ أَشْعَارَ سَعْدِيِّ^(**) الْمُحِبِّيةِ الْمُسْكِرَةِ:

لَا تَضْبِرُ الْفَرَّاشَةَ عَنِ النُّورِ وَإِنْ هِيَ قَصَدَتْ النُّورَ أَحْرَقَهَا
كُلُّ إِنْسَانٍ أَسِيرٌ لَشَيْءٍ بِحُبِّهِ وَأَصْحَابُ الْعُقُولِ نَظَرُهُمْ إِلَى الْعِشْقِ
نَحْنُ أَخِيَاءٌ بِذِكْرِ الْحَبِيبِ وَالْآخَرُونَ يَخَيُّونَ بِتَفْخِ الصُّورِ
نَحْنُ سُكَارَى شَرَابِ الْعِشْقِ الصَّافِي وَلَسْنَا ظِمَاءً لِلسَّلْسِيلِ وَالْكَافُورِ

[٢٠٦] لَا يُمْكِنُ اعْتِبَارُ شَمْسٍ إِنْسَانًا كَامِلًا، أَمَّا فِي التَّعَلُّقِ التَّهَانِيِّ بِالْعِشْقِ فَإِنَّهُ يَعَدُّ حَيَاتَهُ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ مُعْجِزَةً لِلْعِشْقِ، وَهَذَا الْإِعْجَازُ يَصِلُ إِلَى مَنْزِلَةِ الْإِسْتِحَالَةِ. وَهُوَ لَمْ يَظْفَرْ بِمَقَامِهِ الرُّوحِيِّ الْمَعْنَوِيِّ مِنْ طَرِيقِ الرِّيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالتَّضَرُّعِ. أَمَّا فِي سِرِّهِ وَسُلُوكِهِ التَّعَبُّدِيِّ وَالْعِشْقِيِّ فَإِنَّهُ يَفْنَى أَحْيَانًا عَنْ نَفْسِهِ، وَيَغْرُقُ فِي بَحْرِ الْعِشْقِ الَّذِي لَا حُدُودَ لَهُ:

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي وَجْهِهِ، فَلَا تَطْلُبْ وَجُودًا

*-الكروبيون: سادة الملائكة ورؤساؤهم

** - يريد سعديا الشيرازي

وَكُلُّ مَنْ فَنِي فِي وَجْهِهَا

لا يكون جزاءه «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ»

فإنه أصبح ضمن «إلا» وتجاوز «لا»،

وَكُلُّ مَنْ كَانَ ضِمْنَ «إلا» فإنه لا يفتنى^(١)

لَيْسَتْ ماهِيَّةُ شَمْسٍ غَيْرَ مَفْهُومَةٍ، فهو قد تَخَلَّى عن تَفَرُّدِهِ المحدود، وظَفَرَ بِفَضْلِ فَتَاهِ الظَّاهِرِ بِشُعُورِ عِرْفَانِيٍّ جَدِيدٍ قَوِيٍّ جِدًّا. فتعالوا، قَبْلَ ذَهَابِهِ أَوْ قَبْلَ مَجِيئِهِ أَجَلِهِ، افْهَمُوا عَظَمَتَهُ الرُّوحِيَّةَ، واعْرِفُوا مَعْنَى الْعِشْقِ مَعْرِفَةً تَامَةً، واعتَقِدُوا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا هُوَ عَلَى أَفْضَلِ وَجْهِهِ فِي دَرَجَةِ الْكَمَالِ. وقد شَرَحَ لِي شَمْسُ الْكَائِنَاتِ، فِي نَفْسِهِ وَبَعِيدًا عَنِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرِيَّةِ، وَكُنْتُ قَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّ كُلَّ الْعُلُومِ وَالْكَتُبِ الَّتِي دَرَسْتُهَا فِي دُورِ الْعِلْمِ، لَمْ تَكُنْ كَافِيَةً وَمُقْنَعَةً فِي تَقْدِيمِ إِجَابَاتٍ لِأَسْئَلَتِي. كَانَ شَمْسٌ، بِمَهَارَتِهِ وَتَحَرُّقِهِ وَعَاطِفَتِهِ وَخِبْرَاتِهِ الْعِرْفَانِيَّةِ وَسِيرِهِ وَسُلُوكِهِ، هُوَ الَّذِي أَثْبَتَ لِي أَنَّ الْعِشْقَ يَحْرِّكُ الْمَوْجُودَاتِ وَيُدِيرُهَا.

العِشْقُ^(٢) هُوَ الْأَسَاسُ وَالْمَبْعَثُ لِلتَضَرُّعِ؛ وَالْمَحَبَّةُ وَالرَّقْصُ وَالْإِنْشَادُ هِيَ مَجَالِ

١- المثنوي: ٣٠٦٥/١-٦٧.

٢- أَنشَدَ مَوْلَانَا فِي شَأْنِ الْعِشْقِ، فِي دِيْوَانِ شَمْسٍ، قَوْلَهُ:

أَيُّهَا الْعِشْقُ، أَنْتَ قَلَبْتَ نَوِي رَأْسًا عَلَى عَقَبِ	حَقِّي إِنَّ نَوِي، بِسَبِيلِكَ، غَرِقَ فِي دَمِ الْكَبِدِ
الْخِلَاصُ إِلَى مَنْجَمِ السُّكْرِ، فِي اللَّيْلِ	أَذَابَ فِي الْفِكْرِ نَوِي، كَمَا يَذُوبُ السُّكَّرُ
وَمِنْ دُونِ لُطْفِ وَصَالِهِ صِرْتُ كَهَلَالٍ حَاجِبِهِ	لِيْكَ لَا يَخْتَلِفُ اللَّيْلُ نَوِي فِي دَوْرَانِ الْقَمَرِ
وَعِنْدَمَا يَظْلِمُ اللَّيْلُ، وَمَعَ هَذَا الصَّخْوِ كُلِّهِ،	أُظِلُّ أَقُولُ لِلْعِشْقِ: أَيُّهَا الْعِشْقُ أَرِلْ نَوِي
وَعِنْدَمَا يَرَانِي التَّوَمُ، يَفِرُّ وَيَجْلِسُ	يَذْهَبُ عَنِّي نَوِي، وَيَأْتِي إِلَيَّ فِي صُورَةِ شَخْصٍ آخَرَ
أَيُّهَا الْأَصْحَابُ الَّذِينَ تُسَاعِدُونِي، لَا تَتْرَكُونِي وَحِيدًا	لِأَنَّ عِشْقَ مَلِيْكَ مَنَعَ عَنِّي الْبَشَرِيَّةَ التَّوَمَ

فاجلس، إِنْ كُنْتَ عَاشِقًا، حَتَّى الْقَجْرِ الصَّادِقِ

للاشتياق والآمال عند شمس. ما قاله لي شمس في شأن العشق والعاشق والمعشوق، لم أجده في كتاب حتى الآن. وهو يقول: العشق يتجلى:

- في ذات المعشوق في صورة التحرر والاستغناء،

- وعند العاشق في شكل تواضع وتذلل وألم وعنت.

وما يربط أحدها بالآخر هو من مقولة الأسرار. لم يكن شمس [٢٠٧] موافقاً لعلوم الظاهر، وكان يقول: «التعلم حجاب عظيم، والناس ينزلون فيه نزلهم في بشر». كان يخالف كثيراً من الحكماء والفلاسفة والعارفين. ولا يقبل حتى أفلاطون والفخر الرازي والجنيّد وأبا يزيد. فنجد، مثلاً، يسخر من الفخر الرازي الذي هو محل احترام الخاصة والعامة، وعلى هذا النحو يدعي أن «جماعة قالت وهي ترتعد خوفاً: إن في المدينة أفعى تأكل العالم كله بلقمة واحدة، وليس لأحد القدرة على مقابلتها. تشجعت وتقدمت، كان هناك باب حديد وزنه خمس مئة من، وقد وضع عليه قفل. وهناك ثعبان له سبعة أروؤس، وراء ذلك الباب فحذار لا تدرك حول ذلك الباب، فتحركت عندي الغيرة والحمية، ضربت القفل وكسرت الباب أيضاً، ودخلت. رأيت دودة ففرقتها تحت قدمي وقتلتها»^(١).

والآن، كيف يكون كلامه كله على هذه الدودة؟ كل الكتب والتصانيف مملوءة من هذه الدودة. مقصود شمس من الدودة الفخر الرازي، الذي كان من أهل الفلسفة، وكان للخوارزمشاه لقاء له، وفي هذا اللقاء قال له: «.. دخلت كذا وكذا، وفي دقائق الأصول نقضت كتب الأولين والآخرين جميعاً. منذ عهد أفلاطون حتى الآن، كل

= معي، لأن نومي لا يأتي حتى الصبح والسحر

(ديوان شمس تبريز: القرطبي ١٤٤٥)

تصنيف ذي قيمة هو أمامي، ملامح كل منها محدّدة عندي. وكتاب الأولين نقضته
أيضاً.. أهل زماني فضّختهم، ورأيت محصول كل منهم؛ لأنّ الفيلسوف يقول: أنا
أقول ما هو معقول، أمّا من العقل الرّبّاني فلا رائحة عنده.

- إِنَّ مَا هُوَ مَعشوقٌ لَيْسَ هُوَ الصُّورَةُ
سِوَاكَ أَكَانَ ذَلِكَ فِي عَشْقِ هَذِهِ الدُّنْيَا، أَمْ فِي عَشْقِ الْآخِرَةِ
- فَذَلِكَ الَّذِي تَعَشَّقْتَهُ مِنْ أَجْلِ صُورَتِهِ
لِمَاذَا تَخَلَّيْتَ عَنْهُ عِنْدَمَا فَارَقْتَهُ الرُّوحُ؟
- وَإِنَّ صُورَتَهُ لَمْ تَبْرَحْ مَكَانَهَا، فَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ هَذَا
الْقُبْحُ؟
أَيُّهَا الْعَاشِقُ، ابْحَثْ مِنْ جَدِيدٍ عَنْ مَعشوقِكَ الْحَقِّ!
(المثنوي: ٧٠٦/٢ - ٧٠٨)

لِمَاذَا جَاءَ شَمْسٌ إِلَى قُورِيَّةٍ؟

سَكَتَ مَوْلَانَا، وَأَلْقَى نِصْفَ نَظَرِهِ عَلَى الْوُجُوهِ الْمَشْوِشَةِ الْمَضْطَرِبَةِ لِمُثَلِّي
الْمَحْفِلِ الرُّوحَانِي فِي قُورِيَّةٍ، وَقَدْ بَدَأَ أَنَّهُمْ قَدْ انجَذَبُوا إِلَى كَلَامِهِ..، لَكِنْ أَحَدَهُمْ - وَقَدْ
كَانَ يَنْظُرُ إِلَى مَوْلَانَا بِحَفْظٍ - كَانَ حَتَّى اللَّحْظَةِ يَشْكُ فِي حَيَاةِ شَمْسٍ وَمَعْرِفَتِهِ وَمَاهِيَّتِهِ
الْإِنْسَانِيَّةِ؛ وَلِهَذَا السَّبَبُ سَأَلَ مَوْلَانَا:

- فِي النِّهَايَةِ، لَيْسَ مَعْلُومًا عَلَى وَجْهِ الصَّحَّةِ: لِمَاذَا تَوَجَّهَ شَمْسُ التَّبَرِيزِيِّ مِنْ بَيْنِ كُلِّ
هَذِهِ الْحَوَاضِرِ وَالْمَرَكَزِ الْعِلْمِيَّةِ إِلَى قُورِيَّةٍ؟ حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ، غَيْرُ مَعْلُومٍ لِمَاذَا لَمْ يُسَافِرْ
مِنْ دِمَشْقَ إِلَى بَغْدَادَ، أَوْ إِلَى دُورِ الْعِلْمِ الْآخَرِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ؟ أَهُوَ صَاحِبُ رِسَالَةٍ؟ -
مَنْ الَّذِي أَمَرَهُ بِأَنْ يَأْتِيَ إِلَى هُنَا، وَيُفْسِدَ الْمَنْظُومَةَ الرُّوحِيَّةَ عِنْدَ مَوْلَانَا؟ هَذِهِ الْمَدِينَةُ
الْفَاضِلَةُ الَّتِي يَرِيدُ بِنَاءَهَا أَهْمِي نِتَاجُ تَخَيُّلاتِهِ وَفِكْرِهِ، أَوْ أَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى أُصُولٍ وَقَوَاعِدَ دِينِيَّةٍ.
لِمَاذَا نَجِدُ مَوْلَانَا، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَزِدَادَ انشغَالَهُ بِنَا، يَتَحَدَّثُ عَنْ آرَاءِ شَمْسٍ وَفِكْرِهِ؟.

أَجَابَ مَوْلَانَا عَلَى هَذَا التَّخَوُّ:

- اسْمَحُوا لِي بِأَنْ أُجِيبَ عَنْ سُؤَالِكُمْ، عَلَى لِسَانِ شَمْسٍ نَفْسِهِ. فَإِنَّهُ فِي إِحْدَى
الْيَالِيَةِ، فِي خَلْوَةِ شَمْسٍ، عَرَضْتُ أَسْئَلَةً فِي هَذَا الْمَجَالِ، فَأَجَابَ:

- إنَّ هَدَفِي الأساسي من هذا اللقاء هو معرفة الإنسان، وتعرّف حالات القلب.
كُنْتُ أَطْلُبُ شَخْصًا مِنْ جِنْسِي أَجْعَلُهُ قِبْلَةً^(١)، وأتوجّه إليه. فقالوا لي: [٢٠٩] إنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَحْرَرَ عَبْدًا لَطِيفًا، في مدينة قونية، مِنْ قُبُود الْقَيْل والقال. وعندما عَلِمْتُ أَنَّهُ كَانَ يَعِيشُ بَيْنَ أَفْرَادٍ تَحْكُمُ بِهِمُ الاضطراباتُ والقلاقلُ وضروبُ القلق، أَلَمْ يَبِ الْأَسَى؛ لِأَنَّ مَوْلَانَا يُوَدِّي وَيُهَانُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ مَوْلَانَا مُبْدِعٌ وَمِنْ أَهْلِ الْمَعْنَى. فَجِئْتُ لِأَجْدَدَ، وَأَصْنَعُ، مَوْلَانَا مِنْ جَدِيدٍ.

- وَتَأْسِيسًا عَلَى ذَلِكَ، تَعْدُونَ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ مِنَ الْأَوْتَادِ؟ - أَهْوَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ؟ -
أَنْتُمْ أَيْضًا تَقْبَلُونَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ؟

- أَيْنَ شَمْسُ الدِّينِ التَّبْرِيزِيَّ مِنْ حَدِيثِ الْأَوْلِيَاءِ؟ - لَيْسَ لَدَيْهِ أَيُّ ادِّعَاءٍ لَذَلِكَ.
وَأَنَا أَيْضًا، فِي هَذَا الشَّأْنِ لَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَقُولَ شَيْئًا. أَمَّا فِي الْخُلُوةِ فَقَالَ لِي:
فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، وَإِنَّا مُنَاجَاةٌ، قُلْتُ لِحَضْرَةِ الْحَقِّ تَعَالَى: أَيُوجَدُ مَخْلُوقٌ مِنْ خَاصَّتِكَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَمَّلَ صُحْبَتِي؟ - وَفِي الْحَالِ، وَصَلْتُ إِشَارَةً مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ:
إِذَا أَرَدْتُ نَظِيرَ صُحْبَةٍ، فَيَمُنَّ شَطْرَ الرُّومِ... فَجِئْتُ إِلَى هُنَا^(٢).

- أَيْمَكُنْ مَوْلَانَا أَنْ يَقُولَ لَنَا: قَبْلَ لَحْظَاتٍ مَجِيءُ شَمْسٍ، فِي أَيِّ وَضْعٍ رُوحِي وَأَخْلَاقِي كَانَ مَوْلَانَا؟

- فِي هَذَا الشَّأْنِ، عَلَيَّ أَنْ أَذْكُرَ كَلَامًا لِأَبِي سَعِيدِ بْنِ أَبِي الْخَيْرِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّنِي كُنْتُ فِي وَضْعٍ شَبِيهِ بِوَضْعِهِ، إِذْ كَانَ يَقُولُ:

١- مقالات شمس تبريزي، ١٦٢/٢.

٢- مقالات شمس تبريزي، ١٦٢/٢.

«حِينًا أَكُونُ كَالْمَلَانِكَةِ، طَاعَةً كَامِلَةً، وَحِينًا أَكُونُ كَالْحَيَوَانِ، حَيَاةً كُلُّهَا نَوْمٌ وَأَكْلٌ، وَحِينًا أَكُونُ كَالْبَهَائِمِ، شَهْوَةً كَامِلَةً، سُبْحَانَ اللَّهِ، أَيُّ تَشْتَتِ هَذَا؟».

- هَلْ عَالَجَ شَمْسُ قَلْقَكُمِ واضطرابكم الروحي، وَالْمَكَمِ الجِسْمِي؟

- نَعَمْ فَعَلَ شَمْسٌ ذَلِكَ. هَدَانِي شَمْسٌ إِلَى حَيَاةٍ رَمْزِيَّةٍ وَعَظِيمَةٍ فِي الْعِرْفَانِ وَالْأُسْتَاذِيَّةِ. وَفِي عَقِيدَتِهِ، أَسَاسُ التَّصَوُّفِ وَأَصْلُهُ هُوَ أَصَالَةُ الْبَاطِنِ، الَّتِي كُنْتُ غَافِلًا عَنْهَا زَمَنًا طَوِيلًا. عَالَجَ شَمْسٌ هَذَا الْاضْطِرَابَ، وَبَعْدَ أَنْ كُنْتُ ذَابِلًا فِي عَالَمِ التَّفْرِقَةِ^(١) الَّذِي يَنْطَوِي عَلَى مَلَائِينَ الذَّرَاتِ، أَيِ ذَرَّاتِ الْكَائِنَاتِ، أَعْطَانِي أَهْلِيَّةً جَدِيدَةً، وَفَهْمًا جَدِيدًا، وَهُويَّةً جَدِيدَةً. وَتَعْلَمُونَ أَنَّ دَلِيلَ سَفِينَةِ وَجُودِ الْإِنْسَانِ هُوَ الْإِعْتِقَادُ، وَعِنْدَمَا يَوْجَدُ الدَّلِيلَ، وَتَأْخُذُ الرِّيَّاحُ السَّفِينَةَ إِلَى مَكَانٍ مُخِيفٍ، لَا تَغْرُقُ السَّفِينَةُ، يَقِينًا. وَعِنْدَمَا لَا يَوْجَدُ دَلِيلَ سَيَتَغَيَّرُ وَجُودُ الْإِنْسَانِ. [٢١٠]. كُنْتُ أَسْعَى دَائِمًا، بِاعْتِقَادٍ كَبِيرٍ وَرَاسِخٍ، لِأَنَّ أَلْفَى شَمْسًا، وَأَفْهَمَ كَمَا يَنْبَغِي شَخْصِيَّتَهُ وَكَلَامَهُ، وَأَقْدِرَ عَلَى إِظْهَارِهِ بِجَرَأَةٍ. وَإِذَا كَانَ عُلَمَاءُ الظَّاهِرِ مُطْلَعِينَ عَلَى أَخْبَارِ الرَّسُولِ [عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ]، فَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مَوْلَانَا شَمْسَ الدِّينِ مُطْلَعٌ عَلَى أَسْرَارِ الرَّسُولِ، وَأَمَّا أَنَا - جَلَالُ الدِّينِ الْبَلْخِي - فَأَنَا، إِنْ قَبِلْتُمْ، مَظْهَرُ أَنْوَارِ الرَّسُولِ.

- وَلَكِنْ، مَا رَأَيْ شَمْسٍ فِيكُمْ؟ - كَيْفَ فَهَمَّكُمْ؟ نَحْنُ نَرَى أَنَّ شَمْسًا مَجْنُونًا وَسَاحِرًا، فَكَيْفَ مِنَ الْوَجْهِهِ الرُّوحِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ يَتَّفَقُ مَعَكُمْ - وَأَنْتَ الْفَقِيهُ الْكَبِيرُ فِي قُوْنِيَّةٍ - اتَّفَاقًا كَامِلًا؟ أَنْتُمْ تَتَحَدَّثُونَ مِنَ الْعَقْلِ، وَهُوَ يَهْذِي وَيَهْزُدُ مِنَ الْعِشْقِ. وَفِي اعْتِقَادِنَا أَنَّ الْعِشْقَ خَاصِيَّةٌ لِلْمَجَانِينِ، فَهُمْ الَّذِينَ فِي اللَّيَالِي يَتَغَزَّلُونَ بِأَنْوَارِ الْقَمَرِ.

- هَذَا الطَّرَازُ مِنَ التَّفَكِيرِ إِزَاءَ شَمْسٍ غَيْرٍ لَا تَقِي بِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، بَلْ مِنْ شَأْنِ

المتعصبين وعُني القلوب. في يومٍ من الأيام قال شمس العرفان - أعني مُرادِي العظيم شمسًا التبريزي - لوكدي:

- والله، إنني عاجزٌ عن معرفة مولانا جلال الدين. وليس في هذه الكلمة نفاق، وفي كل يوم أعلم عن حاله وأفعاله شيئًا هو ذو أهميةٍ عندي من النواحي جميعًا. وكان يؤكد لابني القول: افهموا أباكم جيدًا؛ لكي لا تندموا فيما بعد.
- أيمكن مولانا أن يقول لنا ما الأشياء الجديدة التي علمه إياها شمس الدين التبريزي؟

- نعم، أذكرها لكم قدر الإمكان ويقدر ما تستطيعون إدراكها. قال لي شمس الدين التبريزي إن في الطبيعة أسرارًا خفية لا يمكن فهمها بالمنطق والفلسفة والرياضيات والكيمياء. هذه الأسرار وراء العلوم. والكمُل^(١) والعارفون هم وحدهم الذين سيطلعون على هذه الأسرار، فأسرار الطبيعة لا يمكن تعلّمها لكلِّ غير ناضج:

عَلَى شَفَتِهِ قُفْلٌ، وَفِي قَلْبِهِ أَسْرَارُ
وَالشَّفَةُ صَامِتَةٌ، وَالْقَلْبُ مَفْعَمٌ بِالْأَصْوَاتِ
فَالْعَارِفُونَ الَّذِينَ احْتَسَوْا مِنْ جَامِ الْحَقِّ
[٢١١] عَرَفُوا الْأَسْرَارَ، وَأَسْدَلُوا عَلَيْهَا الْأَسْتَارَ
وَكُلُّ مَنْ عَلَّمُوهُ أَسْرَارَ الْحَقِّ
خَتَمُوا عَلَى فِيهِ، وَخَاطَوْهُ [عَلَى مَا فِيهِ]^(٢)

ذكر شمس دلالات جديدة في تفسير آيات القرآن المجيد، خاصة في شأن الآية

١- الكايلون يسمعون بإسْمِكَ مِنْ بُعْدٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ يَفُصِّلُونَ فِي أَعْمَاقِي وَجُودِكَ

(المثنوي: ١٨٠٧/٤)

٢- المثنوي: ٢٢٤٠/٥ - ٢٢٤٢.

١٥٦ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: «...وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴿١٥٦﴾»، وَالْآيَتَيْنِ ١٦٥ وَ ١٦٦ مِنْ سُورَةِ الصَّافَاتِ: «وَلِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَلِنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾»، وَقَدَّمَ أَقْوَالَ مُفِيدَةً وَمَوْثِقَةً فِي شَأْنِ الْغَيْبِ وَآثَارِ الْغَيْبِ، الَّذِي تَخْرُجُ مِنْهُ الْمَوْجُودَاتُ كُلُّهَا، وَكَانَتْ هَذِهِ جَمِيعًا مَثِيرَةً عِنْدِي وَخَلِيقَةً بِالسَّمْعِ.

يَرَى شَمْسٌ فِي الْإِنْسَانِ مَصْنَعًا عَظِيمًا لِمَعْرِفَةِ الْكَائِنَاتِ وَالْمَلَكُوتِ. وَيَقُولُ: إِنَّ رُوحَ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ خَلَقُ، وَالْإِنْسَانُ بَعْدَ الصَّقْلِ وَالتَّخْلِيَةِ يَغْدُو مَحَلًّا تَجَلُّ لِلنُّورِ الْإِلَهِيِّ، وَعِنْدَئِذٍ يَمْشِي الْإِنْسَانُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَيَسْتَجِيبُ الْحَقُّ لِدُعَائِهِ مِنْ أَعْلَى الْأَفْلَاكِ. شَمْسٌ شَاهِدٌ عَلَى انْحِطَاطِ الْأَفْرَادِ فِي عَصْرِهِ، شَمْسٌ مُشَاهِدٌ لِاضْطِرَابِ النَّاسِ الظَّالِمِينَ فِي الدُّنْيَا، شَمْسٌ مُخَالَفٌ لِإِجْرَاءِ الرِّيَاضَاتِ وَالْخَلَوَاتِ وَالْعُزْلَاتِ وَالْانزَوَاءِ وَالْإِغْنَاتِ وَاحْتِمَالِ الْأَلَامِ وَالْإِبْتِعَادِ عَنِ النَّاسِ. وَيَتَحَدَّثُ شَمْسٌ، بِسَبَبِ مَا لَدَيْهِ مِنْ صَفَاءٍ وَعَشْقٍ، عَنِ الْعَيْشِ الْمُشْتَرَكِ وَالتَّآخِي. وَيَعْتَقِدُ شَمْسٌ أَنَّ النَّاسَ يَقْبَلُونَ عَلَى التَّحْصِيلِ الْعِلْمِيِّ لِكَيْ يَتَوَلَّوْا رِيَاسَةَ الْمَدْرَسَةِ، أَوْ يَجْلِسُوا فِي صُدُورِ الْمَجَالِسِ، أَوْ يظفروا بِالسُّمْعَةِ وَالشُّهْرَةِ، فِي حِينِ أَنْ هَدَفَ الْحَيَاةِ هُوَ مَعْرِفَةُ النَّاسِ، وَتَعَرُّفُ الْكَائِنَاتِ. وَلِهَذَا السَّبَبُ، كَانَ شَمْسٌ يَنْشُدُ الظَّفَرَ بِسَالِكِينَ لِطَرِيقِهِ؛ لِكَيْ يَخْلُصَ النَّاسُ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَمِنْ عِبَادَةِ النَّفْسِ، وَمِنْ التَّظَاهُرِ وَالرِّيَاءِ وَالتَّعَصُّبِ. يَطْلُبُ شَمْسٌ مَذْهَبَ الْعَشْقِ وَالْمَحَبَّةِ. شَمْسٌ يَقُولُ لِي وَلَكُمْ: «إِذَا تَخَلَّلَتِ الْمَحَبَّةُ وَالْمَعْرِفَةُ الْإِلَهِيَّةُ أَعْمَاقَ أَرْوَاحِنَا، اسْتَطَعْنَا عِنْدَئِذٍ أَنْ نَفْتَحِرَ بِأَتْنَا نَحْيَا كُلَّ لَحْظَاتِ الْحَيَاةِ فِي الْعِبَادَةِ وَالْإِبْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ. شَمْسٌ سَبَّاحٌ مَنْشَغَلٌ بِالسَّبَّاحَةِ فِي دَاخِلِ رُوحِهِ، وَيَعُدُّ أَعْظَمَ عُدُوٍّ لِلْإِنْسَانِ الْهَوَى وَعِبَادَةُ النَّفْسِ الْبَهِيمِيَّةِ.

وأهم قانون عنده: اكْبَحْ جماح النفس العابدة لِهَواها^(١).

وإذ كنتُ، بعدَ نيلي درجة الاجتهاد، أبحثُ عن العشاق الإلهيين وأتعرّفهم، لم أرَ على امتداد حياتي، لا في خراسان الكبرى ولا في الشام، رجلاً في فضل شمس. فهو رجلٌ عميقُ العلم لا يعرفُ الكللَ، وعابدٌ حقيقي. وشمائلُ شمس، معشوقي العرفاني، تصحبني في كل مكان. فتعالوا، يا ممثلي المخفلِ الروحاني في قونية، وشاركونا في تأسيس مدرسة العشق في قونية؛ لأنه:

لَوْ أَنَّ رُوحَ الْعَاشِقِ تَحَدَّثَ	لَأُضْرِمَ النَّارَ فِي هَذَا الْعَالَمِ
وَلَجَعَلَ هَذَا الْعَالَمَ، الَّذِي لَا أَضِلُّ لَهُ	كَالذَّرَاتِ، عَالِيَةً سَافِلَةً
وَلَعَدَا الْعَالَمُ كُلَّهُ بَحْرًا	وَلَعَدَا الْبَحْرُ عَدَمًا مِنَ الْهَيْبَةِ
وَلَمَّا بَقِيَ آدَمُ، وَلَا الْإِنْسَانِيَّةُ،	لَوْ ضَرَبَ نَفْسَهُ بِأَدَمَ
وَلَمَّا بَقِيَ قَوْسٌ وَلَا قُزَحٌ	وَلَا خَنْزِرَةٌ، وَلَا قَدْخٌ
وَلَمَّا بَقِيَ ابْتِهَاجٌ، وَلَا فَرَحٌ	وَلَا جُزْخٌ يُدَاوِي بِالْمَرْهَمِ

وعندما رأى شمس جلال الدين محمداً، أغني رآني أنا ابن بهاء الدين وكلد، وعرف أنني كنتُ على امتداد سنين ضياء عرش الطريقة والشريعة، وأتولى تدريس أربع مئة طالب علم، أحسن فهم فكري، فصار عاشقاً لي ومولعاً بي، ومحبباً لحديثي إلى الحد الذي أستطيع فيه أن أقول:

هو كعبتي، هو معبدي، هو ناري، هو جنتي

١ - النفس حية عظيمة، متى تكون ميتة؟

إنها متجددة، اعتماداً لعدم استعمال دهاها
(المثنوي: ٢/٣٥٥٠)

هو مُؤَنَسُ زَمَانِي، هو شَمْسِي، هو مَعشوقِي العظيم.
وفي اعتقادي أَنَّ شَمْسًا عَارِفٌ وَاصِلٌ^(١)، مِن أَهْلِ المِكَاشَفَةِ، عَاشِقٌ.

١ - الواصلُ إنسانٌ مُتَحَرِّزٌ مِن نَفْسِهِ وَمتَّصِلٌ بِالْحَقِّ وَبِنَاءٌ عَلَى هَذَا، الوَصْلُ هُوَ نِهَآيَةُ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ، إِذْ يَكُونُ السَّالِكُ قَدْ أَكْمَلَ مَرَاجِلَ السَّلُوكِ، وَتَطَهَّرَ مِنَ الصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ [الأصل].

- قُلْتُ: إِنَّ أَمَامَ كَاسِ شَرَابِكَ يَكُونُ دَمٌ قَلْبِي شَيْئًا
نَافِعًا،

فَقَالَ: فِي كَاسِي الذَّهَاقِ الْمَلُوءَةِ دِمَاءً كَثِيرَةً.
- قُلْتُ: صَارَ قَلْبِي الْمَتِيمُ كَالْمَجْنُونِ، وَهَامَ فِي الصَّحَرَاءِ،
فَقَالَ: يَتَوَقَّفُ، وَيَلْزَمُ مَكَانَهُ، عِنْدَمَا أُسَدِلُ طُرَّتِي.

شَمْسٌ فِي حَوْمَةِ قُوْنِيَّةَ

- أَيْمَكِنْ مَوْلَانَا أَنْ يَقُولَ لَنَا: مَاذَا يَرَى الْإِنْسَانُ الْعَاشِقُ، وَمَاذَا يَسْمَعُ، غَيْرَ الَّذِي
تَرَاهُ نَحْنُ وَنَسْمَعُهُ؟ - مَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَعْلَمُهَا شَمْسٌ مِنْ عَالَمِ الْعِشْقِ؟ - لِمَاذَا يَعُدُّ
الْعِشْقُ مُضْدِرًّا لَا حُدُودَ لَهُ لِقُدْرَاتِ الدُّنْيَا؟ - مَا مُضْدِرُّ ضُرُوبِ إِلَهَامِهِ؟ - إِنْ كَانَ
صَاحِبُ مُكَاشَفَاتٍ، لِمَاذَا لَمْ يَذْكُرْهَا حَتَّى الْآنَ؟.

- اَعْلَمُوا أَنَّ لَهُ تَأْثِيرًا كَبِيرًا فِي تَارِيخِ الْفِكْرِ الْعِرْفَانِيَّةِ وَفِي إِنْمَاءِ الْفِكْرِ، وَرَبَّمَا يَكُونُ
أَحَدَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ هُمْ الْمُؤَسِّسُونَ وَالْأَثَمَةُ لِمَدْرَسَةِ الْعِشْقِ الصُّوفِيِّ، فِي الزَّمَانِ
الْحَاضِرِ. وَسَوَاءٌ أَعْجَبَكُمْ مَا أَقُولُ أَمْ لَمْ يَعْجَبْكُمْ، شَمْسٌ يَعْرِفُ رَبَّهُ أَفْضَلَ مِنْ مَعْرِفَةِ
أَكْثَرِ أَهْلِ قُوْنِيَّةَ، وَيَعْبُدُهُ سُبْحَانَهُ وَيُطِيعُهُ. وَلَدَيْهِ قُدْرَةٌ حَتَّى عَلَى أَنْ يُوَثِّرَ فِي الطَّبِيعَةِ إِذَا
شَاءَ، بِإِرَادَتِهِ الْحَدِيدِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ يَتَضَايَقُ مِنْ طَلَبِ الْجَاهِ. وَقَدْ تَعَلَّمَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ كَانُونِ
الْعِشْقِ الْأَزَلِيِّ. وَالْعَاشِقُ الْحَقِيقِيُّ كَالرَّافِعَةِ، فِي مَقْدُورِهِ بِفَضْلِ نَقْطَةِ ارْتِكَازِهِ، الْإِيمَانَ،
أَنْ يَزِيلَ الْمُشْكَلاتِ، كَالْقَشِّ.

- يَا مَوْلَانَا، إِنَّنَا نَرَى شَمْسًا شَبِيهَا بِمُعَاقِرِ الْخَمْرِ، الَّذِي فِي أَوْجِ سُكْرِهِ يُظْهِرُ الْعِشْقَ
لِخَيَالَاتِهِ وَأَوْهَامِهِ. الْكَأْسُ الْأُولَى أَعْطَتْهُ الْخَيَالَاتُ الْوَاهِيَةَ بَعْدَهَا لَذَّةٌ وَبَهْجَةٌ، وَالْكَأْسُ
الثَّانِيَةُ حَمَلَتْهُ عَلَى السُّكْرِ وَالْحَذَرِ، وَالْكَأْسُ الثَّلَاثَةُ دَفَعَتْهُ إِلَى تَلْفِيقِ مَا يَفْكَرُ فِيهِ.

والخلاصة أن هذا الشكر دفعه إلى التصريح بأمور لا فائدة فيها وإلى الثناء على نفسه. فهو أسير هيجاناته الحسية [٢١٤] والعاطفية. وربما يعدّ هذه الأمور نفسها من العشق، ويزعم أنها المضدر الذي لا حدود له للقدرات الخفية، ومنشأ ضروب الإلهام.

وابتغاء سماع صوت شمس الجذاب، لا بد من أن يكون لدينا ضمير صاف ومُضيء. فلنكني نسمع الجاذبية المثيرة لكلامه بكلية وجودنا، لا تكفي حياة التعبد والمحبة، ولا بد للإنسان من أن يتحسس الحق سبحانه ويتعرفه في داخل كينونته ووجوده. ويقدم شمس تمثيلاً للإنسان الكامل في أفضل صورة له، أو يبدو لي كذلك. وكل إنسان عرف العشق بكلية وجوده، ستحلّ ألغاز الخلق والحياة عنده تدريجياً، وعلى نحو رائع.

- تقدّم تعريفاً لشمس، وقد أحطته بهالة من الأسرار. وتعدّ مثل هذا الرجل المصاب بالجنون والأوهام أعظم قدرة على وجه الأرض، وتعبّر في شأنه عن غلو غير منطقي، وشعري. وهو حتى الآن، غير قادر على أن يوقف وجوده وروحه عن السير نحو الانحراف والابتداع، فإلى أي شيء يصل بالطبيعة. شمس قاسٍ وفظّ في كلامه، ويقول كلاماً يغدو ذريعة لدى المخالفين لك، ومن ذلك ما يقوله في شأن السماء، حيث يعدّ فيه السماء فريضة على أهل الحال. لديه ادعاءات عريضة هي من الشطحيات، كما يقول الصوفية.

- معرفة شمس عصية على الأشخاص الذين لم يطلّعوا على تجلياته العظيمة. أمّا معرفة الإنسان فقد أوضحها شمس جيّداً. وما أنقله عنه ليس من أجل معرفته، يقيناً، فهو عالم آخر. وقد قال شمس للأفراد الذين لديهم اشتياق إلى لقاء المعبود

الأزلي: لا أقول صِرَ مِثْلَ الله، لا أقول كُفَرًا، وإن أقسامَ النّاميات والحيوانات والجّمادات، ولطافة جَوِّ الفلّك، هذه جميعًا موجودةٌ في الإنسان، وما هو موجودٌ في الإنسان غيرُ موجودٍ في هذه. وكُبرى حقائقِ العالمِ هي هذه. فما أجملَ الإنسانَ الذي يُعَدِّلُ الأقاليمَ السَّبعةَ والوجودَ كلّهُ. إنَّ كلّ مَنْ عَرَفَ شَمْسًا معرفةً صحيحةً عَرَفَ الحقيقةَ. إنَّ حديثَ شَمْسٍ حَدِيثٌ آخَر. ولا يَجِبُ فَهْمُهُ في هَالَةٍ مِنَ الأسرار. لا يمكنُ إدراكُهُ بِمِفْتَاحِ العَقْلِ الجُزئِيّ، فالعَقْلُ في هذا الطَّرِيقِ عاجزٌ ودَلِيلٌ^(١). وابتغاء إدراكِ عالمِهِ والوصولِ إلى عَتَبَتِهِ، [٢١٥] ابتعدوا عن كُلِّ قَدَرٍ مِنَ التَّعَصُّبِ، وعندئذٍ تُصبحون أقربَ إلى حَرَمِهِ الملكوتيّ. تُريدونَ بعنادِكُم وجِدالِكُم أن تُرْضُوا نزوعَكُم إلى طَلَبِ العِجاءِ والشَّهرةِ؛ أيُّ أنْتُم عَبِيدُ أنفُسِكُم. ونَحْنُ بِكُنْجِ جِماحِ النَفْسِ، والصِّراعِ مَعَهَا، اجْتَرْنَا هذه المَراحِلَ الصَّعبةَ:

عَلَيَّ أَنْ أُوَصِّلَ الْفِرَارَ مَادَامَ فِي عِرْقٍ يَنْبِضُ

وَمَتَى كَانَ الْفِرَارُ مِنَ النَّفْسِ سَهْلًا؟!

فَلَا أَمَانَ، لَا فِي الْهِنْدِ وَلَا فِي الْخُنْ،

لِمَنْ تَكُونُ نَفْسُهُ خَضَمَهُ وَعَدُوَّهُ^(٢)

وحتى الآن، حَرَمَ الْحِجَابُ الظُّلُمانيّ لِعِبَادَةِ النَّفْسِ أَعْيُنَكُم مِنْ شُهودِ الحقائقِ.

هَلْ بَنَى شَمْسُ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ عَلَى أُسَاسِ الْإِحْسَاسِ الْقَلْبِيِّ.

في هذا الأمر، لَدَى شَمْسٍ مَطالِبٌ أيضًا، فلا بُدَّ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى خُلُوةِ شَمْسٍ،

١ - قال شَمْسٌ في كتابهِ «المقالات» ص ١٨٠: «العَقْلُ يَصْحَبُكَ حَتَّى الْعَتَبَةِ، أَمَّا فِي دَاخِلِ الْمَنْزِلِ فَلَا يَضْحَبُكَ،

فَهَذَاكَ الْعَقْلُ حِجَابٌ، وَالْقَلْبُ حِجَابٌ، وَالرَّأْسُ حِجَابٌ».

٢ - المقتوي: ٥/ ٦٦٩ - ٦٧٠.

وفهم أسرار كلماته. وأعلم أنه في جزء من مسائل الحياة، يكون العقل عاجزاً عن إدراك تلك الأشياء التي يدركها القلب، ومنها العشق. والتضاد الأساسي بيني وبينكم هو عين هذا الذي أقوله:

إِنَّ الدُّنْبَ والدُّبَّ والأسَدَ تعلم ما العشق

وأقل من كلب ذلك الذي هو عم عن العشق^(١)

وأنتم تُنكرون العشق؛ ولهذا السبب بُدئت الحرب والعناد، وأغضبتكم حتى إنَّ المحفل الروحاني في قونية تاق توقاً شديداً إلى القضاء على شمس.

- وكذلك اسم شمس التبريزي انطبع في أذهاننا في صورة المجرم الكبير.

- أمّا أنا فأرى أنه أكثر الناس براءة على وجه البسيطة، وأشاهد في قده السالب

للقلب الجمال الخالد للعشق، وأعده ملهمي ومُرادي.

- أنتم اندمجتم في شخصية معشوقكم شمس، نعم تغيرتم تغيراً تاماً، أليس

كذلك؟

- وبهذا التغير في شخصيتي، فتحت في وجهي أبواب السماء، وعرفت الله تعالى

كما ينبغي، وكما يليق. وتعلمون أنتم أن معرفة الحق تعالى ليست أمراً سهلاً،

وشمس هو الذي أمسك بيدي، وحول القفص الترابي عندي إلى عتية مقدسة [٢١٦]

ونورانية.

- في عقيدتكم وعقيدة شمس، ما الكمال في الدين؟

- القول بالحق، والعمل بالصدق، والاستقامة في السلوك.

- فلماذا لا تعملون بدين أجدادكم؟

- نحنُ نقولُ إننا نؤدِّي مطالبَ دينِ أجدادنا بِرِضًا وحُضورِ قَلْب. أنتمُ تؤدّونَ العباداتِ طَمَعًا بِالثَّوابِ ودُخولِ الجنَّة، بينما أنا وشُمُسُ نؤدِّي العباداتِ والطَّاعاتِ عِشْقًا لِلْحَقِّ والحَقِيقَةِ. وقد آنَ أَنْ تُنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ بَحْرِ التَّعَصُّبِ المُرَدِّي هذا، وتَنظُرُوا إلى المَسائِلِ والمُشكلاتِ بِذَوِقِ عِرْفاني؛ لكي تُحَلَّ لَدَيْكُمْ الغائِرُ الحِياةِ ومُعَمَّياتُها بِيسرٍ.

في هذه الأثناء، اندفعَ شابٌّ صَغيرٌ مُسرِّعًا إلى مَوْلانا، فسَلَّمَ، وقَبَّلَ يَدَ مَوْلانا وأخبرَه قائلاً: إِنِّي لَقِيتُ موكِبَ شَمْسِ التَّبرِيزيِّ على بُعْدِ ثمانيةَ عَشَرَ فَرَسَخًا مِنْ قُونيةَ، ورأيتُ سُلطانَ وَلَدِ [ابنَ مَوْلانا]، وقالَ لي: إذا ذَهَبْتَ إلى قُونيةَ فَأَبْلِغْ مَوْلانا سلامنا، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ اللِّقَاءَ سَتَجِدُّهُ سَرِيعًا.

يتردَّدُ مَوْلانا لَحْظَةً، ثُمَّ يَسوِّدُ صَمْتُ مَقْدَسٍ، وَبَغْتَةً تَرْتَجِفُ يَدَا مَوْلانا، وتَنهَمِرُ قَطَرَاتُ الدَّمْعِ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَبَصَوْتٍ مَرْتَجِفٍ يَسْأَلُ:

- أَنْتَ... أَنْتَ شَاهَدْتَ شَمْسًا التَّبرِيزيِّ؟

- نَعَمْ، يا مَوْلانا، شَاهَدْتُ شَمْسًا، وَكَانَ يَبْدُو شَاكِجَ الْوَجْهِ قَلِيلًا، وَمُتَعَبًا وَنَحِيلًا.

- نَهَضَ مَوْلانا مِنْ مَكَانِهِ، وَرَفَعَ الْعِمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ، وَخَلَعَ عَنْهُ رِدَاءَهُ، وَأَلْقَى أَمَامَ الشَّابِّ عِدَدًا مِنَ الدَّنَانِيرِ، الَّتِي كَانَتْ فِي جَيْبِهِ، مَعَ رِدَائِهِ وَحِذَائِهِ، وَقَالَ لَهُ: هَذِهِ هِبَةٌ لَكَ، مَالُكَ. مَا أَجْمَلَ أَنْ رَأَيْتَ شَمْسًا قَبْلِي. وَعِنْدَمَا كَانَ الشَّابُّ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمَشْهَدِ قَالَ:

- لا، لا، يا مَوْلانا، أَخْذُ النِّقودِ فَقَطْ، أَمَّا اللَّبَاسُ فَهُوَ لَكُمْ. فَقَالَ مَوْلانا: لو أَنَّنِي امْتَلَكْتُ كُنُوزَ الدُّنْيَا، لَأَعْطَيْتُكَ إِيَّاهَا؛ هَذِهِ جَمِيعًا لَكَ، فَخُذْهَا وَانصَرِفْ.

كان ممثلاً المحفل الروحاني في قونية أمام رجل قدم ألبسته، التي يظهر بها أمام الناس، إشارة لوصول شمس إلى صاحبة قونية، لشاب صغير. كانوا أمام رجل هو صاحب أكثر القلوب حرارة ومحبة [٢١٧] في الدنيا.

انبرى أحدهم للكلام، وقال:

- آية لذة ومُتعة لكم بهذا العمل البعيد عن العقل؟

- ضحك مولانا من هذا السؤال، وقال: إن العاشق لا يُبالى بأمور الدنيا، وذهنه خالٍ من كل ما يتعلق بالمظاهر الخارجية. وأنا، إلى الآن، لم أرَ أحداً جديراً بأن يُعتمد عليه بدلاً من شمس، في قونية. فقد أضاء دُنيايَ المعتمدة المظلمة، وكل ما أملكه يجب أن أجعله نثاراً على قدميه. وهذه العطايا هي أعظم اللذات الروحية والجسمية عندي.

- ألا تعتقدون أنه، بما لديه من شغوفة وسحر، سيطر على فكركم وتصوراتكم؟
- ليس في وُسع الطلاسم والأسحار البتة أن تهدئ ذهننا مضطرباً مُشوشاً، وأن تُجيب عن الأسئلة والمشكلات الروحية عند الناس. ألا تعلمون بأن إنفاق المال في سبيل الدين وفقاً للشرع هو صنيع المؤمنين، وأن بذل الأزواج في مشاهدة جلال المعشوق وجماله على سبيل الحقيقة والعلم هو صنيع العارفين. وعندنا نحن، تلاميذ مدرسة التوحيد عند شمس التبريزي، بذل الروح والمال والجسم في طريق المعبود والمحبوب الحقيقي هو كمال البذل.

أعلم أنكم تنظرون إلى هذا الإيثار، وإلى بذل اللباس والعمامة من جانبي، بعين السخرية؛ لأنكم حتى الآن لم تطلّعوا على أسرار المحبة الحقيقية والسرمدية. وهذه

هي عَيْنُ الْمَحَبَّةِ، وهي الْقُدْرَةُ التي لا حدودَ لها للصفاء. هذه هي أَصْلُ الْمَحَبَّةِ. لِلْقَلْبِ مَحَبَّةٌ كَالشَّرَابِ، وَكُلُّ قَلْبٍ خَالٍ مِنْ ذَلِكَ هُوَ خَرِبٌ. إِنَّ أَدْعِيَةَ شَبِيهَةٍ بِالسَّحَرِ أَتَتْ لِي بِشَمْسٍ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَنْ أُسَلِّمَ وجودَه لا للدُّنْيَا ولا لِلْآخِرَةِ. ولا حِظُّوا أَنَّهُ مِنْ بَرَكَاتِ الْعِشْقِ أَيضاً أَنِّي تَخَلَّيْتُ عَنِ الْعَقْلِ وَالذِّكَاءِ وَالْعِلْمِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، وَانْتَضَمْتُ فِي حَلِيقَةِ شُرَابِ خَمْرَةِ وَادِي الْعِشْقِ.

إِنَّ شَمْسًا هُوَ مَجَرَّةُ الْمَحَبَّةِ وَالْوَفَاءِ، وَالشَّمْسُ التي لا تَغْرُبُ الْمُوجِدَةُ لِلإِلَهَامَاتِ الْعِرْفَانِيَّةِ اللَّذِيذَةِ. هُوَ مَجْلَى مِنْ مَجَالِي الْمَحَبَّةِ، وَآيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْحَقِيقَةِ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، وَفِي بَيْتِهِ، جَرَى الْبَحْثُ فِي شَأْنِ عَظَمَةِ الْإِنْسَانِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْإِبْدَاعِ وَالْخَلْقِ، فَذَكَرَ أُمُورًا نَظَّمْتُ عُصَارَتَهَا عَلَى هَذَا النِّحْوِ:

أَنْتَ عَلَى أَوْجٍ لَيْسَ لَهُ زَوَالٌ، أَنْتَ فِي دَاخِلِكَ ذُو جَمَالٍ

أَنْتَ مُلْكٌ لِدِي الْجَلَالِ، أَنْتَ مِنْ شُعَاعِ الْحَقِّ الْمُتَعَالِي

انْفَصِلْ عَمَّنْ لَا أَصُولَ لَهُمْ، وَلَا تَسْمَعْ خِدَاعَ الْغِيْلَانِ

[٢١٨] لِأَنَّكَ مِنْ أَصْلِ شَرِيفٍ، لِأَنَّكَ مِنْ مَقَامٍ عَالٍ

أَنْتَ حَتَّى الْآنَ غَيْرُ ظَاهِرٍ، فَمَاذَا رَأَيْتَ مِنْ جَمَالِكَ؟

وَفِي السَّحَرِ، تَطْلُعُ مِنْ دَاخِلِكَ كَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ

أَنْتَ مُخْتَفٍ وَأَسْفَاهُ، قَمَرٌ تَحْتَ السَّحَابِ

فَمَرْقُ حِجَابِ الْجَسَدِ؛ لِأَنَّكَ بَدْرٌ، وَلِقَاؤُكَ قَتَانٌ.

وَلِأَنَّي صِرْتُ عَاشِقًا لِشَمْسٍ وَهَائِمًا بِهِ، وَتَحَمَّلْتُهِ بِمَحَبَّةٍ وَتَعَلَّقْتُ، اِنْدَهَشَ كَثِيرًا.

شَمْسُ الْمَضْطَرَبِ الْفَوْضَوِيِّ الْعَنِيدِ، صَحِبَ مِنْذُ طُفُولَتِهِ الْأَقْوِيَاءَ وَشَبَوَخَ الظَّاهِرِ

المُرائين، وهو مُتواضعٌ ومُهملٌ لنفسه إلى حدّ أنّه لا يثقُ بنفسه.

في يومٍ من الأيام، قال في أثناء المناقشة:

«إِنَّ وَرَاءَ مَشَايخِ الظَّاهِرِ، هَؤُلَاءِ الْمَشْهُورِينَ بَيْنَ النَّاسِ وَيَتَنَقَّلُ ذِكْرُهُمْ فَوْقَ الْمَنَابِرِ وَفِي الْمَجَالِسِ وَالْمَحَافِلِ، عِبَادًا مَعْجُوبِينَ أَكْمَلَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَشْهُورِينَ. وَهَنَاكَ مَطْلُوبٌ، بَعْضُهُمْ عَرَفَهُ، وَيَظُنُّ مَوْلَانَا أَنَّهُ أَنَا، أَمَّا اعْتِقَادِي فَلَيْسَ هُوَ هَذَا. فَإِذَا لَمْ أَكُنْ مَطْلُوبًا، فَأَنَا طَالِبٌ، وَالْقَصْدُ أَنَّ الطَّالِبَ يَظْهَرُ مِنْ وَسَطِ الْمَطْلُوبِ»^(١). وَهَذَا مَا جَعَلْتُهُ السِّيَاءَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلسَّفَرِ:

لو أَنَّ الْعَالَمَ أَسَرَ طَائِرَ «الْهُمَا»^(٢)، لَبَحَثَ الْعَاشِقُ عَنْ ظِلِّهِ،
لِأَنَّهُ نَمِلُ بِعِشْقِ ذَلِكَ الطَّائِرِ الطَّيِّبِ الشَّمْعَةِ
وَأَتَحَدَّثُ أَنَا عَنْ شَمْسِ الدِّينِ التَّبْرِيزِيِّ، الْمَلَاذِمِ لِلْعِشْقِ،
بِإِلَهِي، لِمَاذَا يَكُونُ الْمَلِكُ فِي سَفَرٍ مُتَوَاصِلٍ^(٣)

١- مقالات شمس تبريزي، ١/ ١٢٧.

* - الطائر الذي كان قُدماءُ الإيرانيين يعتقدون أنّه يجلبُ السعادة، ويتصورون أنّ كلّ مَنْ يَقَعُ عَلَيْهِ ظِلُّهُ يَغْدُو حَسَنَ الحظِّ، وربما يُصْبِحُ مَلِكًا [المترجم].

٢- ديوان شمس تبريز، القرطبيّة ٥٨٧.

كُلُّ إِنْسَانٍ إِذَا أَخَذَ الْكَاسَ مِنْ سَاقِي عَشِيقِكَ
صَارَ بَلًا وَغِيًّا، وَلَا عَقْلًا، وَلَا عِلْمًا، وَحَافِظًا.
وَكُلُّ مَنْ هَامَ فِي بَادِيَةِ عَشِيقِكَ
صَارَ فِي طَلَبِكَ، وَمِثْلِي، قَوْصُومًا مُهْمَلًا لِنَفْسِهِ.
فَرِيدُ الدِّينِ الْعِطَّارُ

ابْنُ عَرَبِيٍّ وَشَمْسُ

أَحَدُ مُثَلِّي الْمَحْفَلِ الرُّوحَانِيِّ، عِنْدَمَا رَأَى جَلَالَ الدِّينِ مُحَمَّدًا مَبْتَهَجًا مُشْرِخَ
الصُّدْرِ بِسَبَبِ عَوْدَةِ مَحْبُوبِهِ، الَّذِي يَقُولُ إِنَّهُ يُتَوَّرُ مَخْدَعَهُ، قَالَ: إِنَّ الْعُمَرَ لَا يَسْمَحُ بِأَنْ
تَكُونَ كَذَلِكَ، وَتَتَمَسَّكَ فِي حُضُورِنَا بِالْإِيثَارِ، الَّذِي هُوَ لَيْسَ فَقَطْ غَيْرَ لَازِمٍ، بَلْ يَبْدُو
مَصْحُوبًا بِشَيْءٍ مِنَ الرِّيَاءِ. إِنَّ مَحَبَّتَكُمْ وَإِخْلَاصَكُمْ لِشَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ لَا تَنْسَجِمُ
وَسِنِّكُمْ، وَأَنْتُمْ رَبُّ أُسْرَةٍ مُحْتَرَمَةٍ، بَعِيدَةٍ فِي قُوْنِيَّةٍ عَنْ كُلِّ الْمُلُوثَاتِ وَالتَّقَاتِصِ. لَسْتُ
أَدْرِي أَنْقَلَ إِلَيْكُمْ أَحْبَاؤَكُمْ الْأَقَاوِيلَ وَالشَّائِعَاتِ الَّتِي تُتَدَاوَلُ فِي شَأْنِكُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي
الْمَدِينَةِ فِي مَوْضِعِ عِلَاقَتِكُمْ بِشَمْسٍ؟ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ النَّاسَ صَارُوا يَعْتَقِدُونَ شَيْئًا
فَشِيئًا بِأَنْ مُشَارَكَتَكُمْ فِي مَجَالِسِ السَّمَاعِ، الَّتِي نَشَأَتْ عَنْ تَشْوِيقِ شَمْسٍ، تَشِيرُ إِلَى
أَنْكُمْ قَدْ تَخَلَّيْتُمْ عَنْ كُلِّ الْإِعْتِقَادَاتِ وَالْقِيَمِ وَالتَّقَالِيدِ الَّتِي هِيَ مُحْتَرَمَةٌ عِنْدَنَا؟ لَا أَقُولُ
إِنَّهُمْ يَعُدُّونَكُمْ كَافِرًا، بَلْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّكُمْ قَدْ مَضَيْتُمْ فِي مَسَلِكٍ جَدِيدٍ.

- أَنْتُمْ، وَأَهْلُ قُوْنِيَّةٍ، لَا تَعْرِفُونَنِي وَلَا تَعْرِفُونَ أُسْرَتِي جَيِّدًا. فَهَلْ تَعْلَمُونَ، أَسَاسًا،
لِمَاذَا جِئْنَا إِلَى قُوْنِيَّةٍ؟ - أَتَى بِنَا إِلَى هُنَا ظُلْمُ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ خُورَازْمِشَاهِ وَجَوْرُهُ،
بِسَبَبِ حَادِثَةِ سَيِّئَةِ لَجَانَا إِلَى هُنَا. عِنْدَمَا أُلْقِيَ مَجْدُ الدِّينِ الْبَغْدَادِيِّ، الْعَارِفُ الْكَبِيرُ،
مِنْ دُونِ ذِكْرِ السَّبَبِ فِي نَهْرِ جَيْحُونَ بِأَمْرِ الْخُورَازْمِشَاهِ [٢٢٠]، خَرَجَ وَالَّذِي بِصُحْبَةِ
أُسْرَتِهِ مِنْ بَلْخِ. وَقَدْ شِيعَنَا النَّاسُ بِأَعْيُنٍ مُثْقَلَةٍ بِالدَّمْعِ إِلَى مَسَافَةٍ فَرَسَخٍ كَثِيرَةٍ خَارِجَ

المدينة، كان الدَّمْعُ يَنْهَلُ مِنَ الْأَغْنِي، والقلوبُ مملوءةٌ بِالْحَقْدِ، الحِقْدُ على مجموعةِ أفرادٍ كانوا قد هَيَّؤُوا الأسبابَ لِهَجْرَةِ رَجُلٍ عَظِيمٍ. كان الْبُلْخِيُّونَ يَقُولُونَ إِنَّهُ بِذَهَابِ سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ (وَالِدِ مَوْلَانَا) سَتَخْرُجُ السَّلَامَةُ وَالسَّعَادَةُ وَالْخَيْرُ وَالْبَرَكَةُ تَدْرِيجًا مِنْ سَمَاءِ بُلْخٍ، وَسَتَخْرُبُ الْمَزَارِعُ. وَأَنَا، فِي صُحْبَةِ الْوَلَدِيِّ، وَعَدَدٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ الْكِبَارِ الْعَالِي الْقَدْرِ فِي خُرَاسَانَ، تَرَكْنَا بُلْخَ ثَلَاثَ مِائَةِ جَمَلٍ كَانَتْ تَحْمِلُ الْكُتُبَ وَالْأَمْوَالَ وَالْأَمْتَعَةَ. كَانَ الْوَلَدِيُّ، بِقَامَتِهِ الرَّشِيقَةِ، يَتَقَدَّمُ الْقَافِلَةَ رَاكِبًا جَمَلًا، وَكَانَ إِلَى جَانِبِهِ أَرْبَعُونَ عَالِمًا مِنْ عُلَمَاءِ بُلْخٍ أَيْضًا، وَعَلَى امْتِدَادِ الطَّرِيقِ تَوَاصَلَتِ النِّقَاشَاتُ الْعِلْمِيَّةُ وَالْعِرْفَانِيَّةُ. وَكَلِمًا كُنَّا نَبْتَعدُ عَنْ بُلْخَ كَانَ جَيْشُ الْمَغُولِ السَّفَاكُ لِلدَّمَاءِ يَقْتَرِبُ مِنْ حَوَاضِرِ الْإِسْلَامِ. وَصَلْنَا إِلَى نَيْسَابُورَ، وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ كُنْتُ طِفْلًا، وَقَدْ زُرْنَا الشَّيْخَ فَرِيدَ الدِّينِ الْعَطَّارَ، وَأَهْدَانِي كِتَابَهُ «أَسْرَارُ نَامِهِ» [بِالْفَارْسِيَّةِ، بِمَعْنَى «كِتَابِ الْأَسْرَارِ»]، وَبُسْرُورٍ قَالَ لِوَالِدِي:

سَرِيعًا، سَيُضْرِمُ ابْنُكَ هَذَا النَّارَ فِي مُحْتَرقِي الْعَالَمِ.

فَكَرَّ وَالِدِي لِلْحَظَةِ، وَكَانَتْ نَظَرَاتُهُ إِلَى وَجْهِي مُضْطَرِبَةً. وَعِنْدَمَا غَادَرْنَا مَحْضَرَ الشَّيْخِ الْعَطَّارِ، سَأَلْتُ الْوَلَدِي: مَاذَا يَقُولُ هَذَا الرَّجُلُ الصَّيْدَلَانِي [الْعَطَّارُ]؟. صَمَتَ وَالِدِي لِلْحَظَةِ ثُمَّ قَالَ:

لَيْسَ هُوَ صَيْدَلَانِيًّا فَحَسَبُ، هُوَ أَيْضًا مِنْ سُكَّانِ وَادِي الطَّرِيقَةِ، وَمِنْ الَّذِينَ تَرَبَّوْا عَلَى مَجْدِ الدِّينِ الْبَغْدَادِيِّ، طَبِيبِ الْخَوَارِزْمِشَاهِ، الَّذِي قِيلَ فِي شَأْنِهِ:

طَافَ الْعَطَّارُ مُدُنَ الْعِشْقِ السَّنْبَعِ

وَنَحْنُ حَتَّى الْآنَ، عِنْدَ مَنْعَطَفٍ إِحْدَى حَارَاتِهِ

نَعَمْ، أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ، أَنَا وَوَالِدِي الْكَبِيرُ تَرَكْنَا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ رَجُلًا ذَا رُوحٍ عَظِيمٍ.
وَهَذَا أَذْعِي أَنَّ ثَوْرَ مَنْصُورٍ [الْحَلَّاج] تَجَلَّى بَعْدَ خَمْسِينَ وَمِئَةِ عَامٍ فِي رُوحِ فَرِيدِ
الَّذِينَ الْعَطَّارُ (*). صَارَ مُرَبِّيًا لَهُ.

- مَنْ مَنْصُورٌ [الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ]؟

- هُوَ شَهِيدُ طَرِيقِ الْحَقِّ، الْحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورِ الْحَلَّاجِ^(١)، الْعَارِفُ الشَّهِيرُ فِي
إِيرَانَ، صَاحِبُ كِتَابِ «الطَّوَّاسِينِ». وَلَأَنْكُمْ تَعْرِفُونَ الْعَطَّارَ جَيِّدًا، لَا بَدَلَ لِي مِنْ أَنْ أَقْرَأَ
لَكُمْ وَأُتَرِّجِمَ آيَاتًا مِنْ أَشْعَارِهِ [٢٢١]:

انزِعِ الْقَلْبَ مِنَ الرُّوحِ؛ لِكَيْ يُؤْذَنَ لَكَ بِالْدُّخُولِ،

وَتُعْطَى مُلْكُ الْعَالَمِينَ بِأَهَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَلَوْ أَنَّكَ بَقِيتَ تَحْتَرِقُ حَتَّى السَّحَرِ كُلِّ لَيْلَةٍ، كَالشَّمْعِ

لَأُعْطِيتَ تُحْفَةً مِنَ النَّقْدِ الَّتِي يُعْطَى فِي السَّحَرِ.

وَلَوْ أَنَّكَ صِرْتَ سَائِلًا يَقِفُ عِنْدَ عَتَبَةِ بَابِهِ

لَأُعْطِيتَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مُلْكَ مِائَةِ مَلِكٍ.

وَمِنْ دُونِ عِلْمِ الْفَقْرِ، الطَّرِيقُ مُظْلِمٌ

وَلَوْ أُعْطِيتَ أَلْفَ وَجْهِ لَأَلَاءَ كَالْقَمَرِ.

تَرَكْنَا نَيْسَابُورَ، ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَى بَغْدَادَ، وَعَلَى ضِفَافِ نَهْرِ دِجْلَةَ سَدِّ حَرَسِ الْمَدِينَةِ

* - قُتِلَ الْحَلَّاجُ سَنَةَ ٣٠٩ هـ، وَوُلِدَ الْعَطَّارُ سَنَةَ ٥٤٠ هـ، وَالْمُدَّةُ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ تَقْرُبُ مِنْ ثَلَاثِينَ وَمِئَةِ سَنَةٍ. وَقَدْ اقْتَضَى
الْأَمْرُ التَّنْوِيَةَ [الْمُتَرَجِمَ].

١ - الْقُرَاءَةُ الْأَعْرَاءُ، مِنْ أَجْلِ مَزِيدِ إِظْلَاحٍ عَلَى سِيرَةِ الْحَلَّاجِ، رَاجِعُوا كِتَابَ الْمُؤَلَّفِ الَّذِي يَحْمِلُ الْعُنْوَانَ: «حَلَّاجُ
وَرَارِ أَنَا الْحَقُّ» [بِالْفَارْسِيَّةِ بِمَعْنَى: «الْحَلَّاجُ وَسَيَرُّ أَنَا الْحَقُّ»]، نَشْرُ دَارِ نَشْرِ طَهْرَانَ، الطَّبْعَةُ السَّادِسَةُ [الْأَصْلُ].

الطَّرِيقَ عَلَى الْقَافِلَةِ، وَسَلُّوا: مَنْ تَكُونُونَ؟ - وَمِنْ أَيْ مَكَانٍ تَقْدُونَ؟ - وَلِمَنِ الْقَافِلَةُ؟
أَخْرَجَ وَالِدِي رَأْسَهُ مِنْ خِجَابِهِ فَوْقَ الْجَمَلِ، وَإِذَا كَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْحَرَسِ بِنَظَرَاتِهِ
النَّافِذَةِ بِمَحَبَّةٍ أَجَابَ:

- جِئْنَا مِنَ اللَّامَكَانِ، وَنَذْهَبُ إِلَى اللَّامَكَانِ. مِنَ اللَّهِ، وَإِلَى اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ.

طَلَبَ الْحَرَسُ أَنْ يَأْتُرَ بِتَوَقُّفِ الْقَافِلَةِ، وَأَنْ يَذْهَبُوا هُمْ إِلَى الْخَلِيفَةِ، وَيَعْرِضُوا
عَلَى الْخَلِيفَةِ وَضْفًا لِمَجِيءِ الصُّيُوفِ الْجُدَّدِ، وَالْكَلَامِ الْعَجِيبِ الَّذِي سَمِعُوهُ مِنْ
وَالِدِي. تَعَجَّبَ الْخَلِيفَةُ مِنْ صَلَابَةِ إِجَابَةِ وَالِدِي وَقُوَّتِهَا، وَعَلَى الْفَوْرِ دَعَا الشَّيْخَ
شِهَابَ الدِّينِ الشُّهْرَوَزْدِيَّ إِلَى الْحَضُورِ إِلَى الْقَافِلَةِ، وَطَلَبَ بَيَانَ مَا جَرَى عِنْدَ ضِفَّةِ
دِجْلَةِ. أَدْرَكَ الشُّهْرَوَزْدِيُّ بِفِرَاسَتِهِ أَنَّ عَارِفًا كَبِيرًا جَاءَ مِنْ بَلْخَ إِلَى بَغْدَادَ. وَعَلَى الْفَوْرِ،
خَرَجَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ، وَبِصُحْبَةِ جَمْعٍ مِنْ عُلَمَاءِ بَغْدَادَ الْمُحْتَرَمِينَ تَقَدَّمَ لِمُسْتَقْبَالِنَا فِي
ذَلِكَ الْمَكَانِ، ثُمَّ أَخَذَتُنَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْتَقْبِلِينَ إِلَى عَاصِمَةِ الرَّشِيدِ مُحَاطِينَ بِالْإِعْزَازِ
وَالاحْتِرَامِ وَالتَّرْحِيبِ. مَكُنَّا هُنَاكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، حَيْثُ أَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ ثَلَاثَةَ آلَافِ دِينَارٍ
لِوَالِدِي، بِرِسْمِ الدَّعَاءِ لَهُ. رَفَضَ وَالِدِي أَخْذَ كَيْسِ النُّقُودِ، ثُمَّ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ غَادَرْنَا
بَغْدَادَ، وَبِمَمْنُنَا شَطَرَ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ. وَفِي أَثْنَاءِ الطَّوَافِ بِالْكَعْبَةِ تَغَيَّرَ حَالِي: أَشْرَقَتْ
عَيْنَايَ بِالنُّورِ الْإِلَهِيِّ، وَصَارَ قَلْبِي مَحَلًّا لِلْإِخْلَاصِ وَالصَّفَاءِ. ثُمَّ بَعْدَ زِيَارَةِ الْأَمَاكِنِ
الْمُبَارَكَةِ، وَعِنْدَ مُغَادَرَةِ مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ سَمِعْتُ أَنَّ مُدُنَ بُخَارَى وَسَمَرْقَنْدَ وَبَلْخَ وَغَزْنَةَ
وَنَيْسَابُورَ وَهَمْدَانَ وَالرَّيَّ تَحَوَّلَتْ إِلَى رَمَادٍ فِي حَمْلَةِ عَسْكَرِ جَنْكِيزْخَانَ. قَطَعْنَا
الْمَسَافَةَ [٢٢٢] إِلَى بِلَادِ الشَّامِ. وَفِي دِمَشْقَ وَصَلْتُ إِلَى وَالِدِي رِسَالَةً مِنَ السُّلْطَانِ

علاء الدين كَيْقُبَاد، بِوَسَاطَةِ رَسُولٍ خَاصٍّ. دَعَا السُّلْطَانُ سُلْطَانُ الْعُلَمَاءِ [وَالِدَ مَوْلَانَا] بِالْحَاجِّ إِلَى قُوْنِيَّةَ. قَالَ لِي وَالِدِي: أَيُّ بُنْيٍّ، مِنْ أَجْلِكَ أَنْتَ نَحْنُ مُضْطَرَّوْنَ إِلَى الذَّهَابِ إِلَى قُوْنِيَّةَ. بَعْدَ ذَلِكَ، فَهِمْتُ الْقَصْدَ مِمَّا قَالَهُ وَالِدِي. وَفِي آخِرِ الْأَمْرِ، جِئْنَا إِلَى هُنَا. وَأَنْتُمْ وَالْمُحْفِلُ الرُّوحَانِي فِي قُوْنِيَّةَ تَعْلَمُونَ أَنَّ اسْتِقْبَالَ سُلْطَانِ الرُّومِ الشَّرْقِيَّةَ لِمَوْكِبِ وَالِدِي لَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيرٌ فِي تَارِيخِ قُوْنِيَّةَ. حَتَّى إِنَّهُ فِي مَرَامِسِ هَذَا الْإِحْتِفَالِ شَارَكَ عُلَمَاءُ الدِّينِ وَطُلَّابُ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ فِي قُوْنِيَّةَ، بِمَحَبَّةٍ وَاشْتِيَاقٍ وَإِخْلَاصٍ. تَعْرِفُونَ جَيِّدًا أَنَّ كُلَّ الْهَدَايَا وَالتَّحَفِ وَالْأَعْطِيَاةِ الَّتِي أَتَى بِهَا إِلَيْنَا أَهْلُ قُوْنِيَّةَ، عَلَى سَبِيلِ الْإِكْرَامِ، وَزَعَمَهَا وَالِدِي عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ. وَقَدْ أَقَمْنَا فِي مَدْرَسَةِ أَلْتُونِبَا. تُوَفِّي وَالِدِي عِنْدَمَا لَمْ تَكُنْ سِنِي تَتَجَاوَزُ الْخَامِسَةَ وَالْعَشْرِينَ. غَادَرَ هَذِهِ الدُّنْيَا فَفَقَدْتُ بِفَقْدِهِ أَعْظَمَ مُرَبٍّ وَمُرْشِدٍ وَرَاعٍ وَمُدْرَسٍ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُعَاجِلْهُ الْأَجَلُ لِعَدَّةِ أَعْوَامٍ لَمَا احْتَجَجْتُ إِلَى شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ. فَلَيْتَنِي عَشْتُ إِلَى جَانِبِهِ لِعَدَدِ أَكْبَرَ مِنْ الْأَعْوَامِ، وَحَلَلْتُ مُشْكِلَاتِ حَيَاتِي بِتَوْجِيهِهِ وَإِرْشَادِهِ. كَانَ لَدَيْهِ [مِمَّا عَلَّمَهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ] كُشُوفٌ مِمَّا يَتَّصِلُ بِعَالَمِ الْغَيْبِ الْعَظِيمِ. كَانَتْ الْأَشْوَاقُ تَضْطَرِّمُ فِي صَدْرِهِ. وَمَا دَامَ حَيًّا كُنْتُ أَحْسُ بِأَنَّ الشَّيْطَانَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى تَخْلُلِ وَجُودِي. إِنَّ قِصَّتَنَا، قِصَّةَ حَيَاتِنَا، ظَلَّتْ حَتَّى الْآنَ نَاقِصَةً؛ لِأَنَّ وَالِدِي - كَالشَّمْسِ عِنْدَ الْغُرُوبِ - تَوَارَى فِي غِيَابَةِ جُبِّ الْمَوْتِ. كُنْتُ أَحْسُ بِأَنَّ دُنْيَا قَلْبِي، مِنْ دُونِ أَبِي، خَلَّتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. كَانَتْ الدُّنْيَا تَبْدُو لِي شَبِيهَةً بِأَضْغَاثِ أَحْلَامٍ، كُلُّهَا عَبَثٌ وَبَاطِلٌ. وَمَعَ الْوَقْتِ، كَانَتْ فِكْرٌ وَعَقَائِدُ مُخْتَلِفَةٌ تُهَاجِمُنِي. ضُرُوبُ الْاضْطِرَابِ وَالْقَلَقِ، فِي عَالَمِي الدَّاخِلِيِّ، نَفَذَتْ إِلَى أَعْمَاقِ وَجُودِي. لَمْ أَكُنْ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ أَلْعُوبَةً بِيَدِ الْآخَرِينَ وَحَدِيثِهِمْ. كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ

أَبْطَ جَنَاحِي، كَالطَّائِرِ الْمَلَكُوتِي، فَأَطِيرَ مِنْ أَعَالِي قُوْنِيَّةٍ إِلَى أَعَالِي الْأَفْلَاكِ. وَلَيْتَ
وَالِدِي فَتَحَ أَمَامِي كُتَيْبَ الْعِشْقِ أَيْضًا، وَعَلَّمَنِي أَلْفَبَاءَ السَّيْرِ فِي الْأَكْوَانِ، كَيْفَ أَقْدِرُ
عَلَى أَنْ أُجِيبَ عَنِ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي تَوَرَّقُ دَاخِلِي. كُنْتُ أَحْسُ بِذَاتِقَتِي، بَعْدَ وَفَاةِ وَالِدِي،
بَطْعِمِ حَنْظَلِ الْوَحْدَةِ الْقَارِصِ الْمَمْلُوءِ بِالْمَرَارَةِ وَالْإِزْعَاجِ، الْمَمْلُوءِ بِالْمَشْكَلاتِ
الْمُؤَلِّمَةِ. كُنْتُ أَلْجَأُ إِلَى مَاضِيٍّ عِنْدَمَا كَانَ أَفَقُ الْمُسْتَقْبَلِ يَبْدُو مَظْلِمًا، وَكُنْتُ مُكْرِمًا
لِفِكْرِ الْمَاضِي الْحُلُوءِ. عِنْدَمَا كُنْتُ أَسْمَعُ تِرَانِيمَ الْحَيَاةِ الْحُلُوءِ الْمُثِيرَةَ لِلْخَيَالِ، مِنْ
الْوَالِدِ الَّذِي كَانَ قَدْ حَبَانِي ذَوْقَ الْحَيَاةِ وَذَوْقَ التَّفَكِيرِ وَفَنَّ الْمُنَاقَشَةِ [٢٢٣]، الْوَالِدِ
الَّذِي كَانَ مُخَيِّيًا لِقَلْبِي الْمَيِّتَ كَأَنَّهُ الْمَسِيحُ، اعْتَقَدْتُ أَكْثَرَ بِقَابِلِيَّاتِ رُوحِ الْإِنْسَانِ
وَقُدْرَاتِهِ الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا وَلَا تُقَدَّرُ بِشَيْءٍ، وَأَمَنْتُ بِأَنَّهُ فِي كُلِّ عَصْرِ لَابِدٍّ مِنْ وَلِيِّ، وَبِأَنَّ
الطَّرِيقَ لِنَيْلِ مَقَامِ الْوِلَايَةِ مَفْتُوحٌ أَمَامَ النَّاسِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ. يَقَالُ إِنَّ
جَمَاعَةً هُنَا سَمَّتْ شَمْسًا «مُفْسِدَ الْفِكْرِ». وَشَمْسٌ مِنْ تَلَامِيذِ مَدْرَسَةِ مُخْيِي الدِّينِ بْنِ
عَرَبِيٍّ؛ فَقَدْ دَرَسَ فِي جَامِعِ دِمَشْقَ، وَإِحَاطَتُهُ بِالْفِكْرِ الْعِرْفَانِيَّةِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيٍّ أَمْرٌ مُسَلَّمٌ
بِهِ وَغَيْرُ قَابِلٍ لِلإِنْكَارِ، وَرَبَّمَا يَكُونُ أَحَدُ الْمَصَادِرِ الْعِلْمِيَّةِ وَالذُّوقِيَّةِ لِشَمْسِ كُتُبِ ابْنِ
عَرَبِيٍّ. وَقَدْ شَرَحَ لِي شَمْسٌ تَفْصِيلًا مَبْحَثَ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيٍّ، الَّذِي
فَضَّلَهُ فِي كِتَابِهِ «الْفُصُوصِ». وَقَدْ ذَكَرَ شَمْسٌ قَوْلَ ابْنِ عَرَبِيٍّ: الدُّنْيَا قَالْبٌ، وَبَتَعْبِيرٍ آخَرَ:
الْهَدَفُ وَالْمَقْصُودُ الْأَصْلِيُّ لِلْخَلْقِ هُوَ الْإِنْسَانُ، وَسِرُّ صِرْوَرَتِهِ الَّذِي سَجَدَتْ لَهُ
الْمَلَائِكَةُ، وَكَوْنُهُ أَشْرَفَ الْمَوْجُودَاتِ، دَاخِلٌ فِي هَذَا نَفْسِهِ. وَقَدْ أَضَافَ شَمْسٌ إِلَى آرَاءِ
الشَّيْخِ مُخْيِي الدِّينِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَمْتَلِكُ فِي دَاخِلِهِ عَالَمًا، وَقَلْبًا هُوَ مُخْتَلَى الْعِشْقِ، وَالْإِنْسَانُ
الْعَاشِقُ يَبْحَثُ عَنِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ. وَقَدْ نَظَّمْتُ بَيَانَ شَمْسٍ شِعْرًا عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

الأزواجُ في أضلِّها كتنفَس عيسى^(١)
ولكنها [بعدَ حلولها في الأجساد] يكونُ نفْسُها جُرْحاً تارَةً ومَرَهَمًا أُخرى
ولو ارتفعَ حجابُ [الأجساد] عن الأزواج
لكانَ كَلامُ كُلِّ رُوحٍ كَنَفَسِ المسيحِ
فالإنسانُ في صورتهِ قَرعٌ من قُرُوعِ هذا الكَونِ
لكن اغلِّبْ أُنْه في صِفَتِهِ أضلُّ هذه السَّديا
فظاهره تستطيعُ بَعوضَةٌ أن تجعلَه يَدُورُ
أما باطنُه فمُحيطٌ بِالأفلاكِ السَّبْعَةِ^(٢)
وعندما كان شمسٌ يَصِلُ إلى مَبْحَثِ العِشق، كان يهتاجُ حتَّى إنَّه ينسى نَفْسَه، ويُحجِمُ
عن الكلام. وقد أثبتَ لي تفسِيرُ العِشقِ تجلِّيَ نُبوغهِ العِزفاني. وهذا هو الذي أؤمنُ به:
قُلْ لِحُورِ القُصورِ أَخْرِجْنَ الأثاثَ والمتاعَ مِنَ الجَنَّةِ
وَضَعْنَ سَرِيرَ المُلْكِ، فسيَصِلُ شَمْسِي
وقد أحيا عيسى المَيِّتَ، ورأى قَناءَ النَفْسِ
وأنتَ حَيٌّ خالِدٌ، يا شَمْسِي ويا محبوبِي

١ - كتبَ الدكتور خليفة عبد الحكيم في كتابه الذي يحيلُ العنوان: «عِزفان مولوى»، ترجمة السيِّدَيْن محمَّدي وعلائي، يقولُ: «إنَّ مولانا، في إشارته إلى أنَّ المسيحَ وُصِفَ في القرآنُ بأنَّه «رُوحُ الله»، استعملَ التعبيرَ نَفْسَه الذي استعملَه يوهان إكهارت، الذي كان يعتقدُ بأنَّ ولادةَ المسيحِ هي التكرارُ المستمرُّ لولادةِ النَّفْسِ العاليةِ في الإنسان. وإكهارت هذا هو مؤلِّفُ عِزفاني من القرنِ الثالثِ عَشَرَ الميلادي، وقد أثارت آراؤه في وَحدةِ الوجودِ غَضَبَ أهلِ عَصْرِهِ [المؤلِّف].

٢ - المثنوي: ١٦٠/١ - ١٦٠/٩، ٣٧٦٧/٤ - ٦٨.

- في البدء، صفّي عشقك قلبي

وجلا أصداء مرّاتي،

- ومن بعد ذلك، لريح الفناء

أسلم رمادي

صفاء الأصفهان

أنا وشمس

الصداقة والصفاء، اللذان وُجدا في مجدي الدين البغدادي واليدي، لم أشاهد هما إلا في نقر قليل من المشايخ. كان من بركة أنفاس واليدي أن أدركت أنه من أجل الوصول إلى حيّ المحبوب لابد من امتلاك الحرق والآلام. انطوت جمهرة سير العارفين وشيوخ الطريقة، ما قرأته منها وما سمعته من واليدي، على جدّة وطراوة وجمال وروعة في نفسي، وكانت مسليّة جدًا. كنت أجمع أقوالهم أو أحفظها عن ظهر قلب، غير أن هذا الكلام لم يطفئ لظى قلبي كما ينبغي. عجز هؤلاء عن أن يرووا ظمأ رُوحِي، الذي كان تَوَامًا لِلْهَجْرَانِ ولِفراق واليدي. كان لديّ تعلق كبير بإدراك أسرار كلامهم، ولم أستطع أن أفهم جيدًا حقيقة ما يعنيه كلامهم. وأثني على الشيخ العطار لأنه قال قولاً جميلاً:

. لَسْتُ أَعْلَمُ كَلَامًا أَسْمَى مِنْ كَلَامِ الْمَشَايِخِ، وَأَرَى أَنَّ كَلَامَهُمْ أَجْمَلُ كَلَامٍ.

أنا أيضًا أعدُّ الكلام العرفاني ماءً فُرَاتًا، يُزِيلُ ظَمَأَ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ عِنْدَ مُشْتَاقِي

الطريقة وعاشقي العرفان.

. وما أكثر ما قال لي والدي: إِنَّ الْعِلْمَ أَسْمَى الْفَضَائِلِ الَّتِي يَتَحَلَّى بِهَا الْإِنْسَانُ،

لَكِنَّهُ لَا يُمْكِنُ كَشْفُ الْحَقَائِقِ بِمَدَدِ الْعِلْمِ. والحياة بحرٌ متلاطمٌ ورخاؤ، ومن أجل

عبور طوفانات الحياة المرعبة لابد من رُكُوبِ سفينة العشق والمحبّة. والعلم

الحقيقي هو عِلْمُ العِشْقِ، والعُلُومُ النَّقْلِيَّةُ والعَقْلِيَّةُ هِيَ فِكْرُ الإنسان، أَمَا [٢٢٥] العِشْقُ فَعِلْمُ الإِهَامِيِّ وإِشْرَاقِي. وَقَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ العُلَمَاءُ عَلَى حَقَائِقِ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ وَيَنْشَغِلُوا بِهَا، كَانُوا يَغْرِضُونَ كُلَّ نَوْعٍ مِنَ العَقَائِدِ وَالفِكرِ عَلَى مَحْكَمَةِ العَقْلِ والعِلْمِ. وَهَذَا غَيْرُ كَافٍ لِلْعِيشِ والحَيَاةِ، إِذْ لَيْسَ فِي وَسْعِ العِلْمِ أَنْ يَجْعَلَ أرواحَنَا قَوِيَّةً وَوُجُودَنَا مَمْلُوءًا بِالنَّشَاطِ. وَلِهَذَا السَّبَبُ، كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ طَرِيقِ سُلُوكِي وَمَعْرَاجِ فِكْرِي. كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ حِجَابَ الظُّلُمَاتِ وَالمُبْهَمَاتِ، وَأَتَجَاوَزَ مَمْلَكَةَ العَقْلِ، وَأَجِدَ طَرِيقِي إِلَى مَدَارِ العِشْقِ، لَكِنِّي كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَى مَنْ حَوْلِي لَمْ أَظْفَرْ بِأَحَدٍ يَكُونُ إِمَامًا لِي وَمُرْشِدًا.

وَبَعَثَ طَلَعَ شَمْسٌ فِي سَمَاءِ حَيَاتِي. وَفِي اللَّحْظَاتِ الَّتِي أَغْدُو فِيهَا يَائِسًا قَلِيلًا، كَانَ الْعَجْزُ عَنْ إدْرَاكِ الحَقَائِقِ يَرْمِي بِي فِي وَادِي اليَأْسِ. وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ، تَذَكَّرْتُ قَوْلَ بَاعِثِ الحَيَاةِ الحَقِيقِيَّةِ، رَسُولِ الإِسْلَامِ، الَّذِي قَالَ: لَا تَيَاسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ^(*).

اعْلَمُوا أَنِّي وَصَلْتُ إِلَى شَمْسِ التَّبَرِيزِيِّ مِنْ طَرِيقِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ، الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ لِلإِيمَانِ بِالوُجُودِ، الإِيمَانِ بِاللَّهِ، مَعَ الْقُدْرَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي دَاخِلِي، أَوْجَبْنَا أَنْ أَفْهَمَ شَمْسًا وَأَجْذِبَهُ بِكُلِّيَّةِ وَجُودِي. بِمُشَاهِدَةِ شَمْسٍ وُلِدَتْ مِنْ جَدِيدٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا. كُنْتُ مَيِّتًا فَعِشْتُ مِنْ جَدِيدٍ، وَهَذِهِ الْحَيَاةُ مِنْ جَدِيدٍ هِيَ عِنْدِي سَعَادَةُ الْخُلُودِ. وَقَدْ قَالَ عِيسَى الْمَسِيحُ: الْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يُوَلَدُ مِنْ جَدِيدٍ لَا يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاءِ:

إِذَا لَمْ تُمْتْ صَارَ نَزْعُ الرُّوحِ طَوِيلًا

فَانْطَفَأَ فِي الصَّبَاحِ، يَا شَمْعَ طِرَازِ

* - أَحَسَبُ أَنَّ الْمُؤَلَّفَ غَابَ عَنْهُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ حَدِيثًا، بَلْ هُوَ الْآيَةُ ٨٧ مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ، حَيْثُ يَقُولُ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ: (وَلَا تَأْتِشُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِشُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ).

وما دامت أنجُمنا لم تَخَفْ

اعْلَمُ أَنَّ شَمْسَ الدُّنْيَا مَخْتَفِيَةٌ

فَصِرْ قِيَامَةً، إِذَا، نَمَّ انْظُرْ إِلَى الْقِيَامَةِ

وهذا هو الشرطُ لرؤية كُلِّ شَيْءٍ^(١)

قال لي شَمْسٌ: اعْلَمْ وَكُنْ عَلَى درايةٍ مِنْ أَنَّ حَالاً مِنَ الْعِشْقِ شَمِلَ الكائناتِ كُلَّهَا، وهذا الْعِشْقُ أداةٌ لدَفْعِ الإنسانِ وَسَوْفَهُ إِلَى الْحَقِّ. وَالْعِشْقُ، فِي الْأَصْلِ، هَدَفٌ غَائِيٌّ وَجُنُونٌ بِالْحَضَرَةِ الْإِلَهِيَّةِ. عَلَّمَنِي شَمْسٌ أَنَّ الْغَايَةَ مِنَ الْمَجِيءِ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا هِيَ مُزَاوَلَةُ الْعِشْقِ وَفِعْلُهُ. الْعِشْقُ إِكْسِيرٌ وَدَوَاءٌ لِلْأَمْرَاضِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ الَّتِي تُصِيبُ الْبَشَرَ. الْعِشْقُ يُخْرِقُ كُلَّ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ مِنَ الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَيَحِيلُهَا رَمَادًا. حَالُ الْعِشْقِ كَحَالِ الْمَاءِ الزَّلَالِ مِنَ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، يَغْسِلُ الْخِصَالَ الْبَشَرِيَّةَ الْمَذْمُومَةَ كُلَّهَا، وَيُبْرِئُ مِنْهَا. الْعِشْقُ طَيِّبٌ لِكُلِّ [٢٢٦] الْأَلَامِ، وَدَوَاءٌ لِلْكَبِيرِ وَالْغُرُورِ وَالتَّعَالِي وَالْعُجْبِ فِي الْوُجُودِ.

الْعِشْقُ يَرْتَفِعُ بِالْجِسْمِ الطَّيِّبِ مِنَ الْحَضْبِضِ إِلَى قِمَمِ الْأَفْلَاقِ، وَاضْطَرَّ جَبَلُ الطُّورِ إِلَى الرَّقْصِ وَالْارْتِجَاجِ وَالْإِنْدَكَكِ، مَعَ مَا لَهُ مِنْ عَظَمَةٍ وَجَلَالٍ وَحِجَارَةٍ عَظِيمَةٍ وَقِمَمٍ سَامِقَةٍ وَرَاسِخَةٍ. ذَلِكَ الرُّوحُ الَّذِي أَخْيَا جَبَلِ الطُّورِ، وَأَعْطَاهُ رُوحًا، إِنَّمَا هُوَ الْعِشْقُ.

الْعِشْقُ مُخْتَفٍ فِي الْأَنْعَامِ وَالْأَلْحَانِ

فَإِنْ أَفْشَيْتُ السَّرَّ خَرَبْتُ الْعَالَمَ

وَمَا يَقُولُهُ النَّايُّ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ

لَوْ قُلْتُ أَنَا لَخَرِبَ الْعَالَمُ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَجْلِ عِشْقِ الطَّاهِرِ

مَتَى أُعْطِيتُ الْوُجُودَ لِلْأَفْلاكِ؟^(١)

ولأنَّ شمسًا كان قد درَسَ فلسفةً يونان، عبَّرَ عن قَوْلِ سُقْرَاطِ في العِشْقِ على هذا النحو:

العِشْقُ حَرَكَةٌ بِاتِّجَاهِ الْجَمَالِ الْأَكْمَلِ، بِقَصْدِ مُشَاهَدَةِ ذَلِكَ فِي أَجْمَلِ مَلَامَحِهِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الرُّوحَ قَبْلَ اتِّصَالِهِ بِالمَادَّةِ وَبِعَالَمِ الْحَسِّ كَانَ قَدْ رَأَاهُ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ. العِشْقُ قَنْطَرَةٌ أَوْ جِسْرٌ بَيْنَ ذَلِكَ الْعَالَمِ وَهَذَا الْعَالَمِ. وَفِي النِّهَايَةِ، العِشْقُ شَوْقٌ إِلَى الْخُلُودِ، وَتُسْدَانٌ لَهُ. وَقَدْ نَقَلَ شَمْسُ التَّبْرِيزِيُّ عَنِ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ قَوْلَهُ: إِنَّ شَمَائِلَ الْمَعْشُوقِ، كَالظَّلِّ، تَصَحَّبُ الْعَاشِقَ حَيْثُ يَمَمَ، وَعُشَاقُ الْحَقِّ تَعَالَى أَحْيَاءٌ دَائِمًا، خَالِدُونَ مُخْلَدُونَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ.

يَرَى شَمْسٌ أَنَّ مِلَاكَ وَجُودِ الْإِنْسَانِ، وَهُوِيَّتَهُ، إِنَّمَا هُوَ الْعِشْقُ، وَقَدْ تَجَاوَزَ هُوَ هَذِهِ الْمَرَحَلَةَ مُعْتَقِدًا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ الْحَيَاةَ بِمَعْنَاهَا الْحَقِيقِيَّةِ، أَوْ يَعُدَّهَا جُزْءًا مِنْ حَيَاتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ، مِنْذُ اللَّحْظَةِ الَّتِي يَعْرِفُ مَا هِيَ الْعِشْقُ. وَأَنَا أَيْضًا مِنْذُ أَنْ حَدَدْتُ مَسِيرَ حَيَاتِي بِوَسَاطَةِ الْعِشْقِ، بِمُسَاعَدَةِ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ، فَهَمْتُ مَعْنَى الضِّيَاءِ، وَعَرَفْتُ طَبِيعَةَ الْحَيَاةِ. وَهَكَذَا، الْعِشْقُ نُورٌ فِي الْحَيَاةِ، وَالثَّوْرَةُ فِي الْحَيَاةِ عَصَاةٌ لِلدِّينِ^(٢):

[٢٢٧] أَيُّهَا السَّادَةُ، قَبْلَ أَنْ أَفْهَمَ الْعِشْقَ كَانَتْ الْحَيَاةُ عِنْدِي قِصَّةً تَافِهَةً، وَعُصْبَةً

١- المثنوي: ٢٧٤/٥.

٢- اعْلَمْ، أَيُّهَا الْحُرُونَ، أَنَّ اكْتِسَابَ الدِّينِ يَكُونُ بِالْعِشْقِ وَالْإِنْجِدَابِ الدَّاخِلِيِّ هُوَ الْقَابِلِيَّةُ لِتَلْقَى نُورَ الْحَقِّ وَكَلَّمَا تَحَدَّثَ الْإِنْسَانُ الْعَاشِقُ

انْبَعَثَتْ رَاحَةُ الْعِشْقِ مِنْ قَبِهِ فِي حَيِّ الْعِشْقِ

(المثنوي: ٢٦١٧/٢؛ ٢٨٩٣)

مملوءة بالصُّدَاع، أما الآنَ فأرى الحياةَ الدُّنيا مَحَلًّا لِتَجَلِّي المَسَرَاتِ واللَّذَاتِ الخالدة. وإذا كان ديموقريطسُ قال: لا يوجدُ في الفُضاء، على جِهَةِ الحقيقة، شيءٌ غيرُ الجزء الذي لا يتجزأ، فأنا أقول: حقيقةُ الأجزاءِ التي لا تتجزأ، وكيونُها، من العِشْق، ولولا العِشْقُ لما بقيتْ وَسَطَ هذه الذَّرَاتِ الوجوديةِ شمسٌ وضياء. ونحنُ نطلُبُ نُورَ الله في الذَّرَاتِ كُلِّها، ونرى وَجْهَهُ أَيْمًا وَلِيْنَا وَجُوهَنَا. وهذه القُدْرَةُ على الإِنْصَار، وهذا النَظَرُ المنقَبُ الباحثُ، أعطانا إِيَّاهما العِشْقُ.

أيُّها السَّادَةُ، اعلمُوا أَن العِلْمَ والتَّجَرِبَةَ يَدُلَّانَا فقط على ما هو موجودٌ، لكنَّ الحقيقةَ هي أَنَّهُ لا يُحْصَلُ على الحقائقِ الكُلِّيَّةِ بِطَرِيقِ العِلْمِ والتَّجَرِبَةِ. ومعَ عِلْمِي الواسع، لم أستطِعْ أَن أتمكَّنَ من إدراكِ أَصْغَرِ سِرٍّ موجود، حتَّى جاءت دَوْلَةُ العِشْق وحملتني إلى حَيْثُ إِنِّي اليومَ أَحْسُ بالغُرُورِ إِزاءَ ما أعلَّمهُ وما أفهَمُهُ، وَأَحْيِي يومَ ميلادِ الإنسانِ العاشِقِ ويومَ وفاته ويومَ بَعْثِهِ. نُورُ العِشْقِ يحيطُ بالعاشِقِ مِنَ اليسارِ واليمينِ، وَمِنْ أَعْلَى وَمِنْ أَسْفَلٍ، كالهالةِ التي تُحِيطُ بالقَمَرِ. وهذا النُّورُ نفسه يتلألأُ فوقَ رَأْسِي كَأَنَّهُ تاجٌ مُرَصَّعٌ، وَعَلَى عُنْقِي كَأَنَّهُ طَوْقٌ مِنَ الذَّهَبِ.

يَدْفَعُ العِشْقُ إلى أَن يَمْتَلِكَ كُلُّ إنسانٍ شَمْسًا مِنَ المَحَبَّةِ في قَلْبِهِ؛ لِكَيْ تَتَضَحَّ لَهُم الأَسْرَارُ الخَفِيَّةُ، وَيُنْكَشِفَ لَهُم سِرُّ الكائناتِ. وإذا لم تُكُنْ مِرْآةَ القَلْبِ عَمَازَةً، ولم تُكُنْ قَادِرَةً على أَن تَعْكِسَ هذا النُّورَ المقدَّسَ، فلا بدَّ مِنَ السَّعْيِ لِإِزَالَةِ النَّقائصِ:

أَتَعْلَمُ لِمَاذَا لَمْ تُكُنْ مِرْآةً عَمَازَةً؟

لِأَنَّ الصَّدَأَ لَمْ يُزَلْ عَنِ وَجْهِهَا

فَإَمَضِ، وَأَزِلْ عَنِ وَجْهِهَا الصَّدَأَ

وَيَعْدَ ذَلِكَ، أَذْرِكُ ذَلِكَ النُّورَ

شمس هو الذي أوجد الترابط بيني وبين العشق. أفهمني لماذا، عندما وصل ذلك الإمام الهمام إلى مزار شهداء المعركة وقف، وقال: هذا مزار العاشقين. فلماذا، وكيف، يسمع العاشق بأذن القلب صوت العشاق المثير يُداعِب الأذن؟

عندما يكون الإنسان عاشقًا، لا تكون لديه عقدٌ نفسية، ولا تكون مُذكراته الذهنية مضطربة، ولا يرى الناس قبيحين، ويعدُّ كلَّ العابدين لله [سُبْحَانَهُ] والمُحِبِّين له إخوةً ومتساوين، ويدوُسُ الأساس الماديَّ بِقَدَمِ الإيمان والاعتقاد، ويرى أنَّ عطايا الطبيعة مُسَخَّرَةٌ لأهل الإيمان والعشق، [٢٢٨] ولا يتمنى انطفاء سراج الآخرين وموقد حياتهم، ولا يقيم منزله فوق أطلال كوخ مؤمن. لا يضعُدُّ على سُلَّم «أنا» و«نحن»، ويتماسك أمام شدائد الحياة وضرائها، ويعلم أنَّ الله سُبْحَانَهُ يفاخر ويُباهي بالعشاق المؤمنين.

سأل أحدهم جلال الدين البلخي: هل صحيح أنَّ شمسًا من نسلِ كيا بُرزگ أميد^(*)، إمام الفرقة الإسماعيلية، وترك الآن المذهب الإسماعيلي؟

هو مُسلمٌ، تلقى تعليمه الأوليَّ في تبريز، وسلك طريقة التصوف عند بابا كمال الجندي، وكان يؤمنُ مستلزمات عيشه من طريق نسج السلال. وفيما بعدُ يمَّم شطر دمشق، وفيها أكملَ محصله من العرفان الذوقي والعلمي على الشيخ مُحيي الدين ابن عربي وشيوخ آخرين من أساتذة العرفان. وشمسٌ متبحرٌ في الفلسفة والإلهيات وعلم النجوم، وهو يرى أنَّ الدنيا أساسٌ للعشق، وأنَّ العقل والقانون قياسًا إلى

* - أخذ دُعاة الفرقة الإسماعيلية بِمساعده أخضع حسن بن الصباح قلعة نيسر في مدينة رودبار أُموت، ثم جعله نائبه في زمان كيا بُرزگ أميد طعن فدائيو الإسماعيلية الخليفة العباسي المسترشد بالله بالسكّين في مراغة. بعد كيا بُرزگ أميد، خلفه ابنه محمد منذ عام ٥٣٨هـ [المترجم عن: دكتور محمد معين، فرهنگ فارسی].

العشق ظاهران ثانويتان، ولا شيء في الكائنات يبقى محمياً من سلطان العشق وتأثيره. واعتقد أنه ليس مرتبطاً بالإسماعيليين، ولا بالفِرَق المختلفة، وعنده في شأن ماهية الوجود ووحدة الوجود آراءً جديدة، مُستمدّة من فكر ابن عربي.

وفي كلام شمس إشارات كثيرة إلى العلم الإلهي، والتوسّل إلى الله، والحياة الروحية، ونوّة بشوق الوصول إلى ساحة العشق، ودعا المشتاقين بخضوع إلى طريقته. أنا منشغل تماماً بفكر شمس التبريزي الخالصة، وأسألكم أن تأتوا وتغنوا بكلامه، وإذ ذاك ستفرون بأن هذا المثني على مذهب العرفان والعشق، بعد أن يجذبكم إلى كل نواحي بحته ويؤثر فيكم، يبين تفكيره وهدفه النهائي الذي ينطوي على جدّة ولذّة. في يوم من الأيام، قال للمُشتاقين إليه من أهل قونية: حتّى الآن، ليس لدينا الأهلية للكلام، فليتنا نمتلك أهلية الاستماع. ولا بد من كمال الكلام وكمال الاستماع. على القلوب ختم، وعلى الألسنة ختم، وعلى الأذان ختم. القليل يُشع، فإذا شكر الإنسان زاد الله سبحانه محصوله. والشكر مثل أن تقول بلسان الحال: أَرِنا الأشياء كما هي، فيأتي الجواب «لَين شَكَرْتُمْ لَا زَيْدَ لَكُمْ»^(١) (إبراهيم / الآية ٧).

عِنْدَ السَّحَرِ أَخَذَ هَاتِفُ الصَّبَا يَحْكِي لِي
أَنَّ بَشَارَةَ تَنَحُّثٍ عَنِ الْوَصْلِ جَاءَتْ مِنْ دِيَارِ الْمَعشُوقِ،
جَعَلَهَا اللَّهُ بَشَارَةً لَكَ، أَيُّهَا الْقَلْبُ، بِأَنَّ اغْتِمَاكَ فِي
الْأَلِيلِ قَدْ انْتَهَى

كَنتُ أَقْرَعُ الْبَابَ مِنْذُ زَمَنٍ؛ عِنْدَمَا جَاءَ نِدَاءٌ مِنَ الْبَابِ
[يَقُولُ:] ادْخُلْ، ادْخُلْ يَا عِراقِي، فَأَنْتَ أَيْضًا لَنَا.
فَخَرَّ الدِّينَ الْعِراقِي

شَسْءٌ ذُو قُدْرَةٍ رُوحِيَّةٍ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ

اسْتَقْبَلَ مَمَثِلُو الْمُحْفِلِ الرُّوحَانِيَّ فِي الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ، الَّذِينَ كَانُوا مَحَلَّ إِكْرَامٍ فِي
بِلَاطِ السَّلَاجِقَةِ، كَلَامَ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ الْبَاعِثِ عَلَى التَّسَاوُلِ بِشَيْءٍ مِنَ الْانْزِعَاجِ
وَالْغَضَبِ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَظْلَمُوا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا مُسْتَمِيعِينَ غَيْرِ مُبَالِينِ وَصَامَتِينَ.
وَاحِدٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَظُنُّ أَنَّ صَمْتَ الْمَجْمُوعَةِ رَاجِعٌ إِلَى تَأْيِيدِهِمْ رَأْيِي
مَوْلَانَا، قَالَ لِمَوْلَانَا:

- فِي تَصَوُّرِكُمْ، أَلَا يَوْجَدُ شَخْصٌ آخَرُ هَهُنَا، أَيُّ فِي قُوْنِيَّةٍ، يَتَحَلَّى بِالصِّفَاتِ الَّتِي
قُلْتُمُوهَا؟

- فِي قُوْنِيَّةٍ، لَسْتُ أَدْرِي. رُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ؟!

- أَلَيْسَ هَذَا مَجْنُونًا غَرًّا سَادَّجًا؟. هَذَا الَّذِي تَشْرَحُونَهُ مِنْ قَوْلِ شَمْسٍ خُلَاصَتُهُ
نَظَرِيَّاتٌ مُصَفَّاءَةٌ لِحُكَمَاءٍ مِنْ مَرَّحَلَةٍ مَا قَبْلَ أَرِسْطُو (ت ٣٢٢ ق.م)، مُزَجَّتْ بِفِكْرِ يُونَانِيَّةٍ.
عِنْدَمَا أُخْضِعَتْ قُونِيَّا، أَقْصَى مَدِينَةٍ فِي شَمَالِي أُيُونِي، بِأَيْدِي الْجِيُوشِ الْإِيرَانِيَّةِ لَجَأَتْ
جَمَاعَةٌ مِنْ سُكَّانِ تِلْكَ الدِّيَارِ إِلَى مَدِينَةِ إِيْلِيَا فِي سَوَاحِلِ جَنُوبِي إِيْطَالِيَّةٍ، وَجَاءَ إِلَى
الدُّنْيَا فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَاحِدٌ مِنَ أَعْظَمِ فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ وَأَشْهَرِهِمْ، وَهُوَ بَارْمِينِيدِس

الذي أسس مذهب ما وراء الطبيعة في الفلسفة. بارمينيدس الذي رسخ في الفلسفة فكرة «ما وراء الطبيعة»، نَحَى في فلسفته بإصرارٍ وإلحاحٍ لافٍ للنظر كُلِّ ظواهر الأشياء، وبحثَ عن الأسس والأصول التي توصلُ الإنسانَ إلى حقيقة واحدة هي وراء هذه [٢٣٠] الظواهر. وقد سعى بارمينيدس بقوة، مع إيمانه بالوَحدة، لأن يقوِّي صفاء القلب في مُقابلِ الكثرة أو الثنوية الفيثاغورية. الحقيقة التي كان بارمينيدس يلهث وراءها كانت أصلاً واحداً كلياً بإمامة العشق، الذي هو الحاكم. وكان يُذيع فكرة عِلْم الأكوان في موازاة عِلْم الإنسان. وحتى الإنجيل، يَعُدُّ العشق متحداً بالمعرفة. وهكذا، لم يأت شمسٌ بشيء جديد، فقد ذكّر آخرون قبله فكرة العشق الكوني وتعارضه مع العقل الكلي، وفصلوا القول فيها.

- لا تُخطئوا، نحنُ لا شأنَ لنا بالفلسفة، الفلسفة في ذلك الزمان، أي في عام ٥١٤ قبل الميلاد، كانت مذهباً في البرهان الوجودي بمعرفة العالم أو الكون، وكانت ممتزجةً بنزعة مادية وشكّية. ولعلّ فلاسفة ذلك العصر لم يدرسوا العشق على نحوٍ مستقلٍّ. ونحنُ، أي شمسُ وأنا...

- أنتم تدعون ادعاءً عظيماً في شأنِ شمسٍ وفي شأنكم، وليس في طاقة العقل أن يفهم جيداً تلك الادعاءات التي صُغتموها بالكلام. وفي التحقيق في موضوع الإنسان، أو عِلْم الإنسان، يتبينُ أن أئنا هي موطنُ ولادة هذه الفلسفة، وأن سُقراط هو مؤسسها. ويعدُّ أولئك الفلاسفة العقل أساس الحقيقة.

- مثُل أن الجدالَ بُدئ بالفكر، وأنا وأنتم نتجادلُ بفكرنا. بينما أنا وشمسُ لسنا من أصحاب البدع، ولا نريد الترويجَ والشرحَ لفكر فلاسفة اليونان. أنا وشمسُ ندافعُ

عن عظمة الإنسان، ولدينا رغبة في تعليم الناس عِلْمَ الكَوْنِ أو العالم، وفي النهاية نقول إنَّ العِشْقَ في ذاته خَلَقَ ومُبْدِع.

- ترعمون أنكم مُطَّلَعُونَ على كثيرٍ من أسرار العالم؟

- بمُساعدَةِ شَمْسٍ، تَخَلَّيْتُ عن العلوم والمعارف التي قرأتُموها في الكُتُب، وكلَّما كُنْتُ إلى جانبه ازدادتْ عظمةً وكَمالاً. وَبَعْدَ مُعاشَرَتِهِ ومُذاكَرَتِهِ، عَرَفْتُ طَرِيقَ الوصولِ إلى الحقيقة.

- غَلَفْتُمْ شَمْسًا بِهَالَةٍ سِحْرِيَّةٍ، فإذا أمكنَ فَاخْرُجُوا مِن إِطارِ شَمْسٍ، وتذاكروا مَعَنَا بِاسْمِ مَوْلانا الكبير، ابنِ سُلْطانِ العُلَماء. وَمَعَ كُلِّ النُّبوغِ الذي تَنْسُبُونَهُ إِلَيْهِ، وَمَعَ قُدْرَتِهِ العِزْفَانِيَّةِ، لم يَغْرِضْ فِكْرًا جَدِيدَةً.

- مِن غَيْرِ المُمْكِنِ عَوْدِي إلى ما كُنْتُ عَلَيْهِ قَبْلُ في حَيَاتِي، إلى الوَضْعِ الذي كان لي سابقًا، إذ كَيْفَ [٢٣١] أَسْتَطِيعُ أنْ أَتَخَلَّى عَنِ المَنْطِقِ الجَذَابِ عِنْدَ شَمْسٍ؟ أَمَّا في شَأْنِ فِكْرِهِ فَإِنَّ الإنْجَازَ العَظِيمَ لِشَمْسٍ هو تَخْلِيصُ العِزْفَانِ مِنَ اللَّامْبِالَةِ والتَّسْلِيمِ، وتَقْدِيمُ التَّصَوُّفِ البَاحِثِ العِشْقِيِّ.

- لا أَفْهَمُ مَقْصُودَكُمْ.

- في السَّابِقِ، وَقَفْتُ أَمَامَ خَلَاءٍ عَظِيمٍ مِنَ اللَّامْبِالَةِ في حَيَاةِ الرُّوحِ، التي كانت تبدو مَتَوَقِّفَةً وَلَا فَعَالَةً. أَمَّا بَعْدَ لِقَاءِ شَمْسٍ، الذي عَلَّمَنِي التَّفَكِيرَ الصَّحِيحَ، فَقَدْ وَقَفْتُ أَمَامِي دُنْيَا مُشْرِقَةٌ وَبَحْثٌ لَا يَتَوَقَّفُ. فَكَيْفَ أَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا النُّورَانِيَّةِ، وَأَدْخُلُ دُنْيَا سَجَنَتْ فِيهَا الكُتُبُ والآراءُ المَخْتَلِفَةُ ذِهْنِي الفَعَّالَ وَنُبُوغِي؟ ما تَعَلَّمْتُه في مَدْرَسَةِ شَمْسٍ أَعْطَانِي هو نَفْسُهُ صَفَاءً وَبَسَاطَةً عَظِيمَيْنِ، إذ عَرَفْتُ مَا هِيَةَ الإنسانِ وَجَوْهَرَهُ

معرفة جيدة. فهو يقول:

نَحْنُ مِنَ الْأَعْلَى، وَنَذْهَبُ إِلَى الْأَعْلَى

نَحْنُ مِنَ الْبَحْرِ، وَنَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ.

- الشيء الذي بقي عندي من دون حلٍّ بعد ساعاتٍ من البحث هو: كيف خرجتُم عن مسير التفكير الصحيح الذي كان، قَدَرُ الإمكان، طريقًا يقينياً لحياتكم، وجُذِبْتُم نحو شمس؟ آراء شمسٍ ليس في مقدورها أن توضح جيداً ما كُتِبَ في دفتر الصُّنْعِ الإلهي. وقد حدثتمونا أنتم مراراً، قبل لقاء شمسٍ، عن الوجود المطلق والمعرفة والواقعية في الأمور، التي كانت كلها معتمدة على فكركم الصافية والصادقة. أما الآن، فإنَّ التَّصَوُّراتِ والمفاهيم التي تمتلكونها عن العالم كانتها تغيرت، فقد صرتم لعبة لميول شمسٍ، كأنكم أطفال. جعلتكم آراء شمسٍ في موضعٍ مناسبٍ لأن تحرروا من هذه المغمعة ومن مضيدتكم. هيَّجانه التغزلي والتخيُّلي شبيه بالخرافة والأسطورة. هذا النحو من التفكير في شأن شخصٍ، معروفٍ أنه لا أحد من العلماء يقبل فكره وآراءه، يستلزم أنكم تختارون دائماً العزلة في محدوديتكم الفكرية والفردية. ولأمدٍ طويلٍ، انفصلتُم عن الحقيقة، والتعرض لشمع عمل شمسٍ إضاعة للاختيار والاعتقاد وحرية التفكير والاستدلال، ونسياناً للميل اللاواعي إلى المراتب الفطرية العليا.

أجاب مولانا:

- عندما يُضَاء القلبُ بالعشق لا تكون الحاجة إلى الاستدلال أمراً لا تقا. اعلموا

[٢٣٢] أنه في عالم شمسٍ لا يوجد ضيق في النظر، والانزواء والعزلة والبطالة لا معنى

لها. وفي شعاعِ عملِ شمسٍ، الإنسانيةُ والإيمانُ والمحبةُ لها مقامٌ لا تُق. وما يأمرُ به شمسٌ، هو أنه لا بدّ من مُشاهدةِ الوجهِ الفتانِ المحبوبِ المضيءِ لحقائقِ الحياة. وكلُّ إنسانٍ يستطيعُ، بِمَعونةِ الشّعورِ الباطنِ، أن يلتقي بِأناسٍ خارقينَ لِلْعادةِ بعيدينَ عن الحِرْصِ وادّخارِ المالِ والعُجبِ. وشمسٌ زاهدٌ عميقٌ، وفاضلٌ، ومدّاحٌ للحقيقةِ الخالدة. وكنتُ دائماً مُستغرقاً في جلالِ شمسٍ وآرائه الخاصة، وسأكونُ كذلك. هو إنسانٌ متفردٌ، موجودٌ، يجبُ معرفتهُ معرفةً جيّدةً، إنسانٌ تبعثُ آراؤه من أعماقِ قلبه. وتستطيعون أن تعرفوا شمساً عندما تسمعون كلماته^(١) على نحوٍ دقيقٍ، وتشاهدون قلبه وتوفّه إلى الوصولِ إلى الحقيقة. أنتم ترونَ ظاهرَ شمسٍ، وتسمعونَ أصواتَ كلامه، أما أنا فأرى عمقَ وجّهه:

لا غريبَ في هذه الدّنيا مثلُ الشمسِ

وشمسُ الرّوحِ باقيةٌ، لا أمْسٍ لها

١- المرادُ من كلماتِ شمسٍ عَيْنُ الكلماتِ التي جاءت في كتابه «المقالات». وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ الذّكر محمّد علي موحد لـ «المقالات» رأى «أنّ السّافة بين «فيه ما فيه» لمولانا و«مقالات شمس» هي السّافة التي توجد بين نثرِ مولانا ونظمه. «مقالات» شمسٍ من أوّله إلى آخره وجدّ وحالٌ وهيجانٌ ونشاط. وجعلَ الكتاب، مع كلِّ ما فيها من تَكْسِيرٍ وتداخلٍ، مملوءٌ بالصفاءِ والمجاذبيةِ المدهشة.. فكلامُ شمسٍ، مع كلِّ ما فيه من بساطةٍ وإهمالٍ للرّتبة، جميلٌ وحلوٌ وذو ماءٍ وورق. وعندما يباشرُ الكلامَ تتخيّلُ أنّه مولانا ينشدُ شعرًا بياناً مملوءٌ بالنّشوةِ والتّغيم، منسوجٌ من سدىٍ ولحميّةٍ من عهكم وتمثيل، خالٍ من كلِّ صنوفِ التكلّفِ والتّظاهرِ بالعلم، مملوءٌ بالأخيلةِ الملوّنةِ والفكرِ العاليةِ، طافحٌ بالروحِ والحركةِ ومع ذلكَ الهيجانِ والغوغائيةِ في دخيلته لم ينشغلِ البتّةُ بإنشاءِ مقالٍ ولم يؤلّفِ كتاباً... وهو في الأساس لا يؤمنُ كثيراً بالكتابة، ويقولُ جهاراً: «ما يحزركَ هو عبدُ الله، لا المكتوبُ مجرّداً. من اتّبع السّوادَ فقد ضلّ». ندقُّ في كلامه المدهشِ هذا: «عندما لا أكتبُ الكلامَ يبقّى في داخلي، وفي كلِّ لحظةٍ يعطيني رَجاءاً آخر». كأنّه يتبادلُ الحبَّ مع المجالي السّحريةِ لِلتّخيالِ في ذهنه المملوءِ بالصّبحِ، ولا يرضى قلبه أن يراها مُجَدّةً محتطّةً في قوالبِ ألفاظِ خرساء. من مقدّمة «مقالات شمس ثبريزي» مختصرةً ص ١٨.

والشمس في الخارج مع أنها فريدة فذة

يُمكن أن يتصور [الإنسان] مثيلاً لها

أما شمس الروح التي أوجدت الأثير

فليس لها في الذهن، ولا في العالم الخارجي، نظير^(١)

شمس واحد من أبرز شخصيات العرفان الإيراني، إذ يتحدث في شأن روحانية الإنسان. [٢٣٣] وتأثير تلقيناته الروحية العظيمة، تغير مسير تفكيره. ويعتقد شمس أن الإنسان، عندما يغدو قلبه مقراً للعشق والمحبة، يستطيع أن يقترب من الكمال وإدراك الحقائق.

نحنُ جئنا إلى الدنيا لكي نستفيد من موجودات الواقع، ودُنيانا مركز للاتصال بالحقائق الخالدة. والإنسان، لأنه يمتلك روحاً ملكوتياً، يستطيع أن يكتشف الأسرار التي أحاطت به كالهالة، ويندفع نحو معارف أوسع للواقع. ويقول شمس: إن التجارب الحسية والمناهج الاستدلالية غير قادرة على أن تُصور أماننا المعنى الصحيح للواقع والحقائق. ولابد من دخول عالم الباطن بممدد العشق والذوق:

جعل الله الأفلاك التسعة عبداً للعاشقين

وجعل دولة هؤلاء العاشقين ثابتة راسخة

والى يوم القيامة، جعل الله ساقى العشق الباقي

يأثني إلينا والكأس على راحته

وَأَبْقَى اللَّهُ بُلْبُلَ الْقَلْبِ إِلَى الْأَبَدِ ثَمَلًا

وَأَبْقَى بَيْغَاءَ الرُّوحِ ماضِغًا لِلسُّكْرِ^(١)

وَأَنْتُمْ وَالْمَحْفِلُ الرُّوحَانِيُّ فِي قُوْنِيَّةٍ، مَعَ اِطْلَاعِكُمْ عَلَى مَا حَبَانِي اللَّهُ مِنْ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ ذَهْنِيَّةٍ وَإِيمَانٍ، كَيْفَ تَأْذَنُونَ لَأَنْفُسِكُمْ أَنْ تَقُولُوا: لَقَدْ وَقَعَ جَلَالُ الدِّينِ تَحْتَ تَأْثِيرِ أَوْهَامِ شَخْصٍ سَاحِرٍ مَاهِرٍ؟ إِنَّ الْأَفْضَلَ لَكُمْ أَنْ تَسْأَلُوا هَذَا السَّؤَالَ: كَيْفَ تَحَوَّلَ جَلَالُ الدِّينِ إِلَى عَارِفٍ ثَائِرٍ؟

- أَيُّهَا السَّاقِي، اكشِفِ الثُّقَابَ عَنْ وَجْهِكَ الْجَمِيلِ
لِكَيْ أُحْتَسِيَ جِامَ الطَّرَبِ عَلَى رَائِحَتِكَ
- لَا تَدْغِنِي أُمْتُ مِنَ الظُّلْمِ
عَرُومًا مِنْ قَطْرَةٍ مِنْ جَذْوَلِكَ
- وَقَدْ ثُبْتُ عَنِ التَّوْبَةِ وَالزَّهْدِ
لِكَيْ أَصِلَ بِلَحْظَةٍ إِلَى نَاحِيَتِكَ
- أَيْكُونُ مَنْ كَانَتْ عَيْنُهُ ظِمْأً
مُرْتَوِيًا مِنْ مَاءِ وَجْهِكَ؟
فَرِيدُ الدِّينِ الْعِطَّارُ

أَفْلَاطُونُ وَالْإِشْرَاقُ

إِنَّ عَالَمَ عِرْفَانِ شَمْسٍ عَالَمٌ مَمْلُوءٌ بِالْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ، وَهَهُنَا فِي مُتَنَاولِ كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَكْتَشِفَ، أَوْ يَلْمَسَ جَيِّدًا، حَقِيقَةَ الْعَالَمِ وَالْمَعَارِجَ الرُّوحِيَّةَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ. وَقَدْ سَارَعْتُ إِلَى الْأَمَامِ مَتَبَخَّرًا بَخْثًا عَنِ الصُّوَرِ الَّتِي كَانَ يَتَرَامَى إِلَى سَنَعِي مِنْ أَعْمَاقِ الْخَلَاءِ، وَفَتَحْتُ عَيْنَ قَلْبِي لِكَيْ أَرَى الْأَشْيَاءَ الْجَدِيدَةَ بِالرُّؤْيَةِ. بُنِيَ عِرْفَانُ شَمْسٍ عَلَى أُسَاسِ عِشْقِ الْعَالَمِ وَالْإِشْرَاقِ. وَقَدْ اجْتَرَزْتُ جَاذَابَ مُسْتَوِيَّةٍ صُنِعَتْ مِنْ مَجَرَّاتِ النُّورِ. وَكُنْتُ، بِمُسَاعَدَةِ الْعِشْقِ، أَرَى أَنَّ الْأَشْيَاءَ وَالْمَشْكِلَاتِ جَمِيعًا صَغِيرَةٌ وَسَهْلَةٌ. وَيَرَى شَمْسٌ أَنَّ مُضْدَرَ كُلِّ إِحْسَاسَاتِ الْإِنْسَانِ بِذَاتِهِ وَكُلِّ الْمَسَرَّاتِ وَالْهَيْجَانَاتِ إِنَّمَا هُوَ قَلْبُ الْإِنْسَانِ، وَعَرَّفَ ذَلِكَ الْقَلْبَ بِأَنَّهُ مَحَلُّ الْمُكَاشَفَةِ وَالشُّهُودِ.

- إِذَا تَحَدَّثْتَ عَنِ الْمُكَاشَفَةِ فَلَا تَرْبِطْهَا بِاسْمِ شَمْسٍ فِي ذَهْنِكَ؛ لِأَنَّ الْمَوْسُسَ الْحَقِيقِيَّ لِمَفْهُومِ الْمُكَاشَفَةِ وَالشُّهُودِ هُوَ أَفْلَاطُونُ. فَهُوَ الَّذِي كَانَ يَقُولُ: الْإِشْرَاقُ وَخَدَهُ الطَّرِيقُ لِكَشْفِ الْحَقَائِقِ الْكَامِلَةِ، وَدَعَا أَتْبَاعَهُ إِلَى فِكْرَةِ أَنَّ الْحَيَاةَ الصَّحِيحَةَ

هي كَشَفُ الموجوداتِ العقليةِ في عالمِ الغيب... هكذا قطعَ أَحَدُ الرُّوحانيّين كلامَ مَوْلانا، ثم أضافَ مَوْلانا:

- ولكن هؤلاء عَجَزُوا عن أن يَكْشِفُوا ذلكَ عَلَى نَحْوِ لائِقٍ ودقيق، لم يستطيعوا أن يفهمُوا هدوءَ العِشقِ اللَّذِيذِ المُسْتَحَبِّ. وقد قالَ أَحَدُ الفلاسفةِ في شأنِ عالمِ الكَشَفِ والشُّهُودِ و«المِثال» الأفلاطوني: إِنَّ هؤلاء كانوا يعتقدون أَنَّ «المِثال» خالِدٌ باقٍ، [٢٣٥] و«الهَيُولَى» معدومةٌ، لكنهم لم يستطيعوا أن يَبَيِّنُوا كيفَ تَجَلَّتْ هذه المِثْلُ في عالمِ الغيب، ثم، ما عالمُ الغيبِ هذا؟ - نحنُ لا نَعُدُّ القبرَ المقصِدَ النَّهائِيَّ لَسَيْرِ الإنسان. أنا وَشَمْسٌ نعتقدُ أَنَّ الإنسانَ الذي يواصلُ سَيْرَهُ وسُلُوكَهُ بعِشْقٍ، تحتَ سماءِ الحياةِ الجميلةِ، غيرُ قابِلٍ للفناءِ البتَّةَ، ولا يموتُ، شريطةَ أن يَصِلَ إلى عالمِ اليقينِ.

- أَيْمَكِنْ أن تُوضِحَ لنا تَمَامًا المُرَادَ من عالمِ اليقينِ؟

واصلَ مَوْلانا القَوْلَ:

- تحدَّثَ الإمامُ الغزاليُّ في شأنِ اليقينِ، في أَحَدِ آثارِهِ، وكتبَ يقولُ: في الإيمانِ باليقينِ ثلاثُ دَرَجَاتٍ أو مراتبَ: الأولى هي الإيمانُ العامُّ، وذلكَ كَأَن يَصَدِّقَ الناسُ سريعًا أَخْبَارًا يَسْمَعُونَهَا مِن أَشْخاصٍ معتمدين. الثانيةُ مَعْرِفَةُ العُلَماءِ التي يَحْصُلُونَهَا بِمُساعدةِ عِلْمِهِم وإطلاعاتِهِم. الثالثةُ يَقيِنُ العارفينَ الذين يَرَوْنَ الحقائقَ مِن دُونِ حِجابٍ، بَعَيْنِ القَلْبِ. وَشَمْسٌ يَطُوفُ في مَدَارٍ مِثْلِ هذه الحياةِ. وفي اعتقادِ شَمْسٍ أَنَّهُ يَتَوَارَى في قَلْبِ كُلِّ نَسْمَةٍ وَهَبَةٍ وَاهْتِزازِ وَرَقَةٍ شَجَرَةٍ، وَكُلِّ آلِي نَجْمَةٍ، نِدَاءاتٍ وتعاليمٍ جَوْهريةٍ. وهذه التَّجَلِّياتُ الذَّاتِيَّةُ يُظْفَرُ بها في عالمِ اليقينِ. نَعَمْ، في عِرْفانِ لَيْلَةِ القَدَرِ.

- هَلْ قَرَأْتُمْ كِتَابَ «فَيْدَر» لِأَفلاطون؟

فقال مولانا: نَعَمْ، أَقْرَأْتُ هَذَا الْكِتَابَ فِي دَارِ الْعِلْمِ فِي قُوْنِيَّةَ.

. فِي هَذَا الْكِتَابِ، يُعَدُّ أَفْلَاطُونُ الْعِشْقَ ابْتِلَاءَ سَمَاوِيًّا؛ وَلِذَلِكَ، الْعِشْقُ فِي نَظَرِ أَفْلَاطُونِ جُنُونٌ سَمَاوِيٌّ. وَتَبَعًا لِلتَّوْضِيحِ الَّذِي قَدَّمْتُمُوهُ فِي شَأْنِ الْعِشْقِ، فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نَعُدَّ قَوْلَ أَفْلَاطُونِ غَيْرَ صَحِيحٍ، وَنَعُدَّ الْعِشْقَ مَسًّا، أَوْ ابْتِلَاءَ شَيْطَانِيًّا. نَعَمْ، الْعِشْقُ نَوْعٌ مِنَ الْجُنُونِ، نَوْعٌ مِنَ الْمَالِيخُولِيَا مُسَبَّبٌ لِلصَّدَاعِ.

. اخْتِلَافِي مَعَكُمْ وَمَعَ الْمُخْفِلِ الرُّوحَانِي فِي قُوْنِيَّةَ، يَبْدَأُ مِنْ مَسْأَلَةِ أَنْتُمْ لَا تَفْهَمُونَ الْعِشْقَ، وَلَا تَقْبَلُونَهُ، فِي حِينٍ أَنَّهُ أَحَدُ الْفَضَائِلِ الْأَصْلِيَّةِ لِلْفِكْرِ الْخَالِدَةِ فِي الْعِرْفَانِ الْإِيرَانِيِّ الَّذِي يَبْشُرُ بِهِ شَمْسٌ. وَاعْلَمُوا بِأَنَّ الْمَنْبِعَ الْأَصْلِيَّ لِتَصَوُّرَاتِي الْجَدِيدَةِ هُوَ الْعِشْقُ، الْعِشْقُ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ النَّمَاءِ وَالازْدِهَارِ.

. لَعَلَّهُ الشَّيْءُ نَفْسُهُ الَّذِي أَفْسَدَ الْهُدُوءَ الرُّوحِيَّ وَالْجِسْمِيَّ عِنْدَكُمْ وَعِنْدَ شَمْسٍ وَعِنْدَ أَحِبَّائِكُمْ؟ - أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي حَرَّمَكُمْ عِشْقَ^(١) الْأُسْرَةِ، عِشْقَ الْوَلَدِ؟ [٢٣٦] غَيْرَ أَخْلَاقَكُمْ، وَقَلْبَ لَدَيْكُمْ الْقِيَمَ الْبَشَرِيَّةَ. فَتَحَرَّرُوا مِنْ هَذَا الَّذِي أَصَابَتْهُ الْجَانُّ؛ تَعَالَوْا، بِمُسَاعَدَةِ الْعَقْلِ، أَمْسِكُوا بِزِمَامِ شَيْطَانٍ وَجُودِكُمْ. التَّفَكُّيرُ الْعَقْلَانِيُّ أَسْمَى مِنْ كُلِّ نَظَرِيَّاتِ الْإِنْسَانِ.

. الْعِشْقُ عَكْسُ مَا تَقُولُونَ، هُوَ مُسْتَقَرُّ الْهُدُوءِ الرُّوحِيَّ وَالطَّمَأْنِينَةِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ. وَمِنْ دُونِ وَجُودِ الْعِشْقِ تَكُونُونَ فِي حَيَاةٍ جَهَنَّمِيَّةٍ سَائِغَةٍ، وَقَدْ بُنِيَتْ جَهَنَّمُ حَيَاتِكُمْ هَذِهِ عَلَى سَرَابٍ وَوَهْمٍ. إِنَّ فَخْرَ الْإِنْسَانِ بِالْعِشْقِ. - أَلَا تَوْمَنُ أَنْتَ وَشَمْسٌ بِالْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ؟

وقد كُثِرَتْ لِلْعَقْلِ هُنَاكَ الْقَدَمُ
(المُتَوَيِّ: ١٧٢٦/٣)

١ - فَمَاذَا يَكُونُ الْعِشْقُ إِذَنْ - إِنَّهُ يَحْرُ الْقَدَمَ

- إِنَّ فَنَاءَنَا مُقْتَرِنٌ بِالْبَقَاءِ، وَمَا تُسَمُّوهُ أَنْتُمْ فَنَاءً وَعَدَمًا، أَوْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، لَيْسَ هُوَ

فِي اعْتِقَادِ شَمْسٍ إِلَّا تَحَوَّلَ النَّفْسُ الدُّنْيَا إِلَى نَفْسٍ عَلَيَّةٍ:

قَالَ: أَيُّهَا الْعَاشِقُ، قُلْ: مَا ذَلِكَ الْأَضَلُّ؟

قَالَ: أَضَلُّهُ الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ

وَقَدْ فَعَلْتَ هَذَا كُلَّهُ وَلَمْ تَمُتْ، بَلْ أَنْتَ حَيٌّ

أَلَا فَلْتَمُتْ عَنْ صَاحِبِ رُوحٍ لَا وَخَاسِرٍ

فإِنَّكَ إِذَا مِتَّ، ظَفِرْتَ بِحَيَاةٍ كَامِلَةٍ

وَيُظَلُّ اسْمُكَ الْجَمِيلُ حَيًّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

وَيَقُولُ الْجَنِيدُ: عَشِقُ الْعَارِفِينَ مَعْنَاهُ أَنْ يُمِيتَكَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، عَنْ نَفْسِكَ،

وَيُحْيِيكَ بِهِ.

- أَنْتَ تَلْمَعُ أَخِيلَتَكَ، وَتُعْطِي لِأَوْهَامِكَ لَوْنَ الْحَقِيقَةِ، وَقَدْ أُصِيبْتَ بِمَرَضٍ هَذِيانٍ

الْأَوْهَامِ وَالرُّؤْيَى. وَهَذِهِ الْهَذَيَانَتَانِ هِيَ نِتَاجُ تِلْكَ الْأَخْيَلَةِ الْوَاهِيَةِ؛ فَأَبْعِدْ عَنْ فُضَاءِ

وَجُودِكَ تِلْكَ التَّعَلُّقَاتِ الْجِسْمَانِيَّةَ، الَّتِي نَتِيجَتُهَا الْخَرَفُ وَالْثَّرَثَةُ، فَهَذَا لَا يَلِيْقُ بِإِنْسَانٍ.

- الْعَاشِقُ الطَّاهِرُ، فِي الْأَضَلِّ، مُتَّقٍ وَمُخْلِصٌ، وَالْعُشَّاقُ يَرْتَبِطُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ

بِصِلَاتٍ رُوحِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ، وَالْعُشَّاقُ مَدَاحُونَ لِلْحَيَاةِ، وَمَدَاحُونَ لِلصِّدْقِ، وَمُجِبُّونَ لِلَّهِ.

الْعَاشِقُ الْحَقِيقِيُّ مَظْهَرٌ لِكُلِّيَّةِ ذَاتِ الْحَقِيقَةِ وَتَمَامِهَا. وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ

الْأَنْصَارِيُّ: «الْإِنْسَانُ وَالِدٌ، وَالْعِشْقُ قَادِمٌ، وَبَرَكَةُ السَّمَاءِ مِنَ الْفَلَكَ، وَبَرَكَةُ الْأَرْوَاحِ

مِنَ الْمَحَبَّةِ، وَالسَّاعَاتُ مِنْ دُونِ عِشْقٍ مَمْلُوءَةٌ بِالْعَذَابِ».

- هَذَا الَّذِي تَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ كُلُّهُ كَانَ مَوْجُودًا فِي فِكْرِ الْفَلَّاسِفَةِ قَبْلَ الْمَسِيحِ. وَهُمْ

فلاسفة لم يكونوا يعرفون الله والحقيقة، وكانوا مفتونين بالفكر والمحاسن الظاهرية، [٢٣٧] ومحبة الجمال والهيأ به هي التي قادت اليونانيين إلى الفساد. أتبتغون أن تُروّجوا من جديد لهذا النوع من الفكر الشيطانية المهووسة؟

- العارفون لهم عالم آخر، وما دُمتم لا تدركون جمالات عالمهم ستظلّون في جهل غير قابل للوصف. إنّ في الإنسان نُورًا، ويمدّد ذلك النور يدرك كثيرًا من الأسرار. وقد جئنا من عالم نورٍ ونرجعُ إلى عالم النور، فطوبى لمن يرى هذا النور، ويدرك حقيقته؛ لأننا في ساحة الجلال الأبدي لهذا النور سئمضي نحو سَكينة ممتعة من دون أي خوف ورُوع وخشية، سنظفرُ بعروج لطيف بالروح، وسيصلُ إلى آذاننا هذا النداء:

- لا يمكنُ أن توجدَ حركة في العالم من دون أن يكون لها أساسٌ من العشق.

- نحنُ جئنا إلى هذا الكوكب لِنَتَعَبَدَ، وندعو الناس إلى الأخوة والمحبة، وعندما يجيء الأجل المحتوم والمقرّر، علينا أن نودّع الدنيا؛ هذه هي حقيقة الحياة. وصحيح أن جسد الإنسان سجنٌ للروح، لكنّه في الجسد نفسه تبدأُ فعاليات الإنسان. الروح مأمورٌ، بمُساعدة شاهين العقل، بأن يخلص النفس من الانحراف. لا ينبغي أن نشرب من حوض هذه الدنيا الدنّية، وقدّر المستطاع علينا أن نراعي الأصل الاعتدال في الاستفادة من مواهب الطبيعة. نحنُ مأمورون بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وأهمّ وظيفة لنا، وأسمى وظيفة، أن نحرّر باقتدار تامّ الرّجل العظيم والعالم الكبير، الذي في قونية وقَعَ في فخّ شمس السّاحر، هذا جوهرُ مهمّتنا. وإذا لم يتّهِ وجودُ أصحابِ شمس هنا، يُخشى أن تُراق الدماء، وتبدأ المنازعات. نحنُ نرى أن العشق مِثْلُ جديدٍ إلى الثّوبية التي أودعت في خزانة التاريخ زمنًا طويلًا، ونعتبرُ هذا الأصل مردودًا، بل كُفْرًا.

- في عالمٍ أحاطتِ الأشرارُ بِأساسِهِ، هل تعتقدونَ أنَّ رسالةَ الإنسان، الإنسان الذي هو خَلِيفَةُ اللَّهِ في الأرض، هي عَيْنُ ما تقولونَ؟ هل هذه العجائبُ من الكائنات، هذه المجَرَّاتُ جميعًا، هذه النجومُ جميعًا، خُلِقَتْ مِن أَجْلِنا؟ هل نحنُ وَخَدنا جثنا إلى هذه الدَّارِ المظلمَةِ لِكَي نَسْتفيدَ مِن مواهبِ الطبيعةِ على نَحْوِ معتدل. وظيفتُنا هي عَيْنُ هذا؟ لا، لَيْسَ الأمرُ كذلك. إِنَّ رسالةَ الإنسان، والإنسانيةَ، أسمى [٢٣٨] مِن هذا. عَلينا أن نعتصِمَ بِعالمِ العِشق^(١) المثير. العِشقُ عَرَفَ أُمثالَ العِطارِ والحَلَّاجِ وأبي يزيد، لِأهل الدُّنيا. وَمِن مَشْرِقِ الشَّمسِ، مِن دَاخِلِ الأَعْصارِ والقُرُونِ، جاء صَوْتُ ينادي:

امضُوا أَيُّها العُشَّاقُ، الحِياةُ لَكُم

فأجابَ العارِفونَ ويحييونَ، وَهُم في مَنتهى اللَذَّةِ الرُّوحِيَّةِ بِسَماعِ هذا الصَّوتِ واللَّحَنِ الموزونِ المَدَوِّي: لَبَّيْكَ.

١- نَقَلَ جَلالُ الدِّينِ البَلخي في دِيوانِ شَمسِ هذه الفِكرةَ في غَزَلِيَّةٍ، على هذا النَحْوِ:

أنا ذلِكَ المَجنونُ المَقيدُ [بالسَّلاسل]، الذي يَظَلُّ يَقيِدُ الشَّياطينَ وأَعْلَمُ مَنطِيقَ الطَّيرِ، فأنا سُلَيمانُ، وحياتِكَ
سَماعُ أَذني هو اسْمُكَ، وَسَماعُ عَقلِي هو كَأَسُكَ فَعَرَّني، فَإِنني حَرَبٌ، وحياتِكَ
وفي الصَّومعةِ والمَسجِدِ أنتَ مَقصودِي، أَيُّها المَريشُدُ وَأَينما تَوَجَّهْتَ أَتَوَجَّهْ، وحياتِكَ
أَقولُ كَلمَةً في العِشقِ: هو أَسَدٌ وأنا غَزالٌ فَأَيُّ غَزالٍ أَنَا، وَأَنا أَحفظُ الأَسودَ، وحياتِكَ
(ديوانِ شَمسِ قَبَرين: الغَزَلِيَّةُ ٢١٦٣)

- وَلَوْ لَمْ تَكُنْ عَاشِقَةً هَذِهِ السَّمَاءِ
لَمَا كَانَ لِصَدْرِهَا [هَذَا] الصَّفَاءِ
- وَلَوْ لَمْ تَكُنْ عَاشِقَةً وَجْهَهُ دُكَاؤُ
لَمَا كَانَ فِي جَمَاهَا [هَذَا] الضَّيَاءِ
- وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْأَرْضُ وَالْجَبَلُ عَاشِقَيْنِ
لَمَا تَمَّ مِنْ قَلْبٍ كُلِّ مِنْهَا عُشْبٌ
- وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْبَحْرُ مُطْلِعًا عَلَى الْعِشْقِ
لَمَا كَانَ لَهُ قَرَارٌ فِي مَكَانٍ

(ديوان شمس تبريز: الغزلية ٢٦٧٥)

لماذا جئتُ من خراسان إلى الروم الشرقية؟

أَلَا فَلْتَسْمَعُوا آخِرَ كَلَامٍ فِي شَأْنِ شَمْسٍ، مَعَ أَنَّهُ يَتَبَيَّنُ مِنْ نَظَرَاتِكُمْ وَمِنْ سِيَمَائِكُمْ أَنْكُمْ، حَتَّى الْآنَ، عَلَى الْأَقْوَالِ وَالْمِبَادِئِ الَّتِي كَانَتْ دَافِعًا لَكُمْ وَلِأَصْحَابِكُمْ إِلَى مُذَاكَرَتِي وَمُنَاقَشَتِي. فَاعْلَمُوا بِأَنِّي لَا أَتَعَبُ وَلَا أَكُلُّ مِنَ الْمُحَاجَّةِ وَالْمُبَاحَثَةِ، لَكِنَّهُ يَجِبُ إِيقَافُ هَذَا الْكَلَامِ وَقَطْعُهُ عِنْدَ نَقْطَةٍ مَعَيَّنَةٍ. وَلِهَذَا السَّبَبُ، أَقُولُ الْكَلَامَ الْآخِرَ. فَإِذَا كَانَ الْعِشْقُ، وَفَقَّ كَلَامِكُمْ، قَدْ خُلِقَ فِي الْمَدَارِسِ الْفَلَسَفِيَّةِ قَبْلَ مِيلَادِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوا إِلَى أَنَّ هَذَا الْعِشْقَ كَانَ أَسَاسًا لِلذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ الْحَسِّيَّةِ لَدَى جَمَاعَةٍ مِنَ فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَكَانَ عِشْقًا مَمْتَرِجًا بِالْمُتَمَعِّ والتَّعَيْنَاتِ الشَّهَوَانِيَّةِ. أَمَّا الْعِشْقُ الَّذِي نَدَافَعُ عَنْهُ أَنَا وَشَمْسٌ وَنُنِّي عَلَيْهِ فَيَذْكُرُ بِاللَّحْظَاتِ الْعَظِيمَةِ لِلخَلْقِ. وَهَذِهِ الظَّاهِرَةُ، أَوْ هَذَا الْمَغْنَاطِيْسُ، موجودٌ فِي أَسَاسِ الْوُجُودِ وَجَوْهَرِهِ، وَهُوَ تَذَكُّرٌ بِالْأَيَّامِ الَّتِي ابْتَعَدَ فِيهَا النَّاسُ عَنْ أَصْلِهِمْ. فَبِئْسَ تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الْمُؤَلِّمَةُ لِمُفَارَقَةِ الْوُجُودِ وَالخَلْقِ وَوَدَاعِهِمَا، أُوْدِعَتِ الْخَلَائِقُ فِي قَلْبِ الْكَائِنَاتِ، وَقِيلَ لَهَا: إِنَّ شَيْئًا أَنْ تَتَّصِلِي مِنْ جَدِيدٍ بِالْحَقِيقَةِ، إِنَّ شَيْئًا أَنْ يُبَدَلَ سُورُ الْوَصْلِ

بألم الفراق فترنمي بأكثر ألحان الدعاء طلاوةً وعذويةً، فقد خلقت لكى تعبدي. أنت الغاية القُصوى للخلق، أنت موجب استمرار الوجود، أنت فص خاتم الخلق، أنت البذر والفاكهة لعالم الوجود، ولدوام الكائنات. جِشَانُ هذه الألحان ينبغي أن يأتي من صميم قلبك، وعندئذ سيصل إلى أذنك صوت: لييك، عبر كل كلمة [٢٤٠] من كلمات طلبك ودُعائك، وستمرين من جاذبة حليية اللون في مجرات الحقيقة والنور، وستطيرين بأجنحة العشق والمحبة إلى شرفة العرش. دُعيت من ذلك المكان، وستصلين إلى حيث لا يرى إلا الله.

- كلامكم يُشبه كثيرًا الشعر المنشط للقلب والحالم، الشعر المنشور والموزون. فهل تعتقدون بأنه، من طريق إنشاد الشعر والمشاركة في السماع، يمكن أن تقرؤوا في مدار العشق؟ - وهل ترون أن العشق من الشروط الضرورية للوصول إلى الحقيقة؟ الناس المؤمنون في قونية لا يقبلون هذه الأمور، وأنتم تزرعون الرياح، وفي المستقبل القريب ستخضدون الطوفان.

قال مولانا:

- اعلّموا أن الحق تعالى لدنّه عناية عظيمة بأهل هذه البلاد، وأنا أعد الناس في هذه الديار أشخاصًا شرفاء ذوي عفاف، وآسف لأنهم لا يعلمون شيئًا عن عالم العشق والذوق الداخلي. أظهر الحق تعالى عنايةً، واندفع سبب من عالم اللاسب، فجدبنا من خراسان إلى ولاية الروم؛ لكي ننثر اكتسابنا اللدني عليكم وعلى مواطنكم في هذه المدينة، فيصبحوا جميعًا كالكيماء، ويغدوا ذوي مخرم عالم العرفان وأنجية العارفين:

مِنْ خُرَاسَانَ جَذَبْتَنِي إِلَى أَخْضَانِ الْيُونَانِيِّينَ؛

لِكَيْ أُخْتَلِطَ بِهِمْ، فَأَجْعَلَهُمْ حَسَنِي الدِّينِ وَالْمَذْهَبِ

وَمِنْ أَجْلِ أَنْ نَهْدَبَ الْغَرَائِزَ وَالطَّبَائِعَ، وَنَرْتَقِيَ بِالنَّفُوسِ، وَنَصِلَ بِهَا إِلَى الْكَمَالِ، قَدَّمْنَا الْمَعَانِيَ الْمَلَائِمَةَ لِلنَّاسِ مِنْ طَرِيقِ لَطَائِفِ السَّمَاعِ وَالشَّعْرِ الْمَوْزُونِ، الَّتِي جَاءَتْ مُوَافِقَةً لِطَبَائِعِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ. وَمِنْ آيَاتِ التَّوْفِيقِ أَنَّ النَّاسَ هُنَا أَهْلُ هَيْجَانٍ وَعَشْقٍ لِلْبَيَانِ وَالشَّعْرِ وَالْغَزَلِ الْعَرَفَانِي. وَاعْلَمُوا أَنَّ لِي طَبْعًا، وَهُوَ أَنِّي لَا أُرِيدُ لِقَلْبٍ أَيْ إِنْسَانٍ أَنْ يَتَأَذَى مِنِّي. وَهَنَّاكَ جَمَاعَةً، بِسَبَبِ السَّمَاعِ، جَعَلْتَنِي مَحَلًّا لِلانْتِقَادِ وَالشَّمَاتَةِ. وَهَؤُلَاءِ لَا حَظَّ لَهُمْ مِنَ الْمُنْطِقِ، وَلَا يَعْلَمُونَ مَا السَّمَاعُ، وَمَا شُرُوطُنَا لِلْمُشَارِكِينَ فِي حَلْقَةِ السَّمَاعِ. وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ السَّمَاعَ مَهْدِيٌّ لِأَرْوَاحِ الْأَحْيَاءِ. فَلِمَاذَا أَنْتُمْ وَأَحِبَّاءُكُمْ تَمْنَعُونَ الْأَشْخَاصَ مِنْ أَنْ يَأْتُوا إِلَيَّ؟ إِنَّ لَدَيَّ حَسَاسِيَّةً وَتَحَنُّنًا إِزَاءَ مَنْ يَأْتُونَ إِلَيَّ، حَتَّى إِنِّي أَنْشِدُ لَهُمُ الشَّعْرَ، خَشْيَةً أَنْ يَتَطَرَّقَ الْمَلَلُ إِلَى نَفُوسِهِمْ، وَأَطِيبُ خَوَاطِرَهُمْ الْحَزِينَةَ، وَإِلَّا فَمَا شَأْنِي بِإِنْشَادِ الشَّعْرِ؟ أَقُولُ الشَّعْرَ عَنْ سُكْرِ وَوَلِّهِ، وَأَعْطِي لِأَرْوَاحِ الْمُشْتَاقِينَ [٢٤١] بَوَسَاطَةِ ذَلِكَ السُّكْرِ وَجُودًا مُبْهِجًا مُلَذًّا:

صَارَ صَدْرِي حَانَةً الْعَالَمِ،

فَأَلَفْتُ رَحْمَةً عَلَى صَدْرِي السَّخِي

الشَّعْرُ وَالسَّمَاعُ أَدَاةٌ لِتَلَطُّفِ الْجِسْمِ وَالرُّوحِ وَتَصْفِيَّتِهِمَا، هُمَا نُورُ الدَّاخِلِ وَعَيْنُ الْقَلْبِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ، إِذْ بَعَثَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشُقَّ عَنَانَ السَّمَاءِ، وَيَرَى اللَّامِرِّيَّاتِ. تَعْلَمُونَ أَنَّ الْعِبَادَ لِلَّهِ تَعَالَى، الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَقِدِينَ بِهِ، عِنْدَهُمْ مَعَارِيضُ رُوحِيَّةٍ. وَهَذَا السَّيْرُ غَيْرُ مُمَكِّنٍ، وَغَيْرُ مُقَدَّرٍ عَلَيْهِ، بِقِرَاءَةِ الْكُتُبِ، بَلْ يَسْتَلْزِمُ ذَوْقًا وَحَالًا، لَا قَالًا وَكِتَابًا.

فتعالوا، وأنتم في الأصلِ أصحابُ نَظَرٍ ومن عُظَمَاءِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ فِي قُرُونِهِ،
 آمِنُوا بِعُظْمَةِ الْعِشْقِ مِثْلَ شَمْسٍ؛ لَكِي يَكُونَ هَذَا التَّحَوُّلُ الْمَجَائِزِيُّ رَافِعَةً لِلْوُصُولِ إِلَى
 الْحَقِيقَةِ. يَقُولُ شَمْسٌ: إِنَّ الْفَضَائِلَ وَالْقِيَمَ الْإِنْسَانِيَّةَ جَمِيعًا تَنْشَأُ وَتَنْمُو فِي قُلُوبٍ
 مَمْلُوءَةٍ بِالْعِشْقِ:

الْعِشْقُ يَجْعَلُ الْبَحْرَ يَغْلِي، كَمَا تَغْلِي الْقِدْرُ
 الْعِشْقُ يَطْحَنُ الْجَبَلَ، حَتَّى يَغْدُو كَالرَّمْلِ
 الْعِشْقُ يَشُقُّ الْأَفْلَاقَ مِثْلَ مِائَاتِ الشُّقُوقِ
 الْعِشْقُ يُزَلِّزُ الْأَرْضَ، مِنْ دُونِ مُبَالَاةٍ
 وَقَدْ كَانَ الْعِشْقُ الطَّاهِرُ قَرِينًا لِمُحَمَّدٍ
 وَمِنْ أَجْلِ الْعِشْقِ قَالَ لَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «لَوْلَاكَ»^(١)
 وَلَوْلَاكَ يَكُنْ مِنْ أَجْلِ الْعِشْقِ الطَّاهِرِ
 مَتَى أُعْطِيتُ لِلْأَفْلَاقِ وَجُودًا؟
 وَقَدْ رَفَعْتَ الْفَلَكَ السَّنِيَّ

لَكِنِّي تَرَى أَنْتَ الْعِشْقَ وَتَفْهَمُهُ^(٢)
 الْمُتَحَازُونَ لِلْعِشْقِ، الْمَدَافِعُونَ عَنِ الْعِشْقِ، بَعِيدُونَ عَنِ انْحِطَاطِ النَّفْسِ،
 وَسُرُورِي وَسُرُورُ شَمْسٍ فِي عَالَمِ الشُّهُودِ^(٣)، الَّذِي هُوَ أَسَاسُ الْمَعْرِفَةِ، وَيُحْصَلُ عَلَيْهِ

* - إشارَةٌ إِلَى الْأَثَرِ: «لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاقَ».

١ - الْمُشْتَرَى: ٢٧٣٧/٥ - ٤١.

٢ - الشُّهُودُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ عِبَارَةٌ عَنْ «رُؤْيَا الْحَقِّ بِالْحَقِّ». وَفِي هَذِهِ الرُّؤْيَا يُشْتَرَطُ «غِيَابُ الْإِحْسَاسِ بِالنَّفْسِ»،
 وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ حُصُولَ هَذَا التَّرَجُّعِ مِنَ الرُّؤْيَا، الَّذِي يَذْهَبُ بَعْضُ شُيُوخِ التَّصَوُّفِ إِلَى أَنَّهُ لَا إِحْسَاسَ فِيهِ بِالْوَسَاطَةِ، =

بِمُسَاعَدَةِ الْعِشْقِ. يَقُولُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ:

- قَلْبُ الْعَاشِقِ صَاحٍ، وَعَيْنُهُ مَمْلُوءَةٌ بِالْجَوَاهِرِ. وَعِنْدَمَا تُشْرِقُ شَمْسُ الْعِشْقِ
يَنْمَحِي كَوْكَبُ الْعَقْلِ. الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِحَبْلِ الْعِشْقِ وَصَلُوا إِلَى الذَّاتِ الْمُسْتَغْنِيَةِ،
«الْعِشْقُ عَرَفَ نَفْسَهُ» لِلنَّاسِ وَأَوْضَحَهَا جَيِّدًا. عِشْقِي شَمْسًا هُوَ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، مَحَبَّةٌ
أَيُّ إِنْسَانٍ لِلْإِنْسَانِ الْكَامِلِ.

اعْلَمُوا، أَيُّهَا السَّادَةُ، أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ أُعْطِيَ مَوْهَبَةً مِنَ الْعِشْقِ قِيلَ لَهُ: عَلَيْكَ أَنْ
تَكُونَ مَتَحَمِّلًا وَصَبُورًا أَمَامَ [٢٤٢] نَهْمِ الْجَاهِلِينَ؛ لِأَنَّ الْمِخْنَةَ وَالْإِبْتِلَاءَ امْتِحَانٌ
لِطُلَّابِ النِّعْمَةِ، مَا دَامَ قَدْ مَزَجَ الْمَحَبَّةَ بِالْعَطَاءِ وَرَبَطَهَا بِالْبَلَاءِ. الْمَحَبَّةُ جَوْهَرٌ،
وَالصَّدْفُ بَلَاءٌ، وَأَنَا وَشَمْسُ اعْتَصَمْنَا بِحَبْلِ الْعِشْقِ وَنَقُولُ:

حِكْمَةُ الْحَقِّ، فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ،

جَعَلْتِ كُلًّا مِنَّا عَاشِقًا لِلْآخَرِ

وَعِنْدَمَا صَارَ حُبُّ الْحَقِّ فِي قَلْبِكَ زَائِدًا

صَارَ عِنْدَ الْحَقِّ، يَقِينًا، حُبُّ لَكَ^(١)

وَقَدْ شَمِلَتْ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَعِشْقُهُ الْكَائِنَاتِ وَالْمَوْجُودَاتِ الْمَخْلُوقَةَ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ
الْإِنْسَانَ يَنْطَوِي فِي دَاخِلِهِ عَلَى عَالَمٍ، وَمِنْ طَرِيقِ الْإِيمَانِ وَالْعِشْقِ صَارَ مَسْجُودَ
الْمَلَكِ، فَلَتَأْتُوا وَلِتَطْلُبُوا الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ^(٢)، لِكَيْ تَعْرِفُوا فَهَرِيسَتَ كِتَابِ الْفِطْرَةِ

= موقوفٌ على أن يفقد فيه العارف شعوره ووجدانه. وعلى هذا التحوُّ، يغدو الشهودُ عبارةً عن الإحساسِ بالحق من
غير وسيط [الأصل].

١- المثنوي: ٤٤٠٣/٣ - ٤٤٠٤.

٢- نظم جلال الدين البلخي، في ديوان شمس، تصويرًا للإنسانِ الكاملِ، رائعًا وجديرًا بالقراءة، على النحو الآتي: =

والمِثَالُ الحَقِيقِيُّ الظَّاهِرُ لِلخَلْقِ، عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. اَعْلَمُوا أَنَّ شَمْسًا عَاشِقًا مِنْ
عُشَّاقِ الْعَالَمِ، وَرِنْدٌ مِنَ الرُّنُودِ الْمُحْرِقِينَ لِلْعَالَمِ، الَّذِينَ يَتَوَسَّدُونَ التَّرَابَ وَلَهُمْ قَدَمٌ
فَوْقَ مَفْرَقِ الْأَفْلَاقِ التَّسْعَةِ^(١).

= وَقَدْ دُرْتُ مَعَ الْأَفْلَاقِ التَّسْعَةِ، فِي كُلِّ فَلَكٍ لِإِبْرَهَةِ مِنَ الزَّمَنِ
وَمَعَ الْكَوَاكِبِ فِي الْأَبْرَاجِ، دُرْتُ لِيَسِينِ
كُنْتُ مَخْتَفِيًا لِبَعْضِ الْوَقْتِ، كُنْتُ مَعَهُ فِي مَكَانٍ وَاجِدٍ
كُنْتُ فِي مُلْكِهِ، دَانِيًا مِنْهُ، فَرَأَيْتُ كُلَّ مَا قَدْ رَأَيْتُهُ
كُنْتُ رِقَاعًا فِي خِرْقَةِ الْجَسَدِ، أَعْمَلُ كَثِيرًا
ثُمَّ بِيَدِي مَزَقْتُ هَذِهِ الْحِرْقَةَ مِرْقًا كَثِيرَةً

وَمَعَ الزَّهَادِ فِي الصُّومَةِ، وَصَلْتُ اللَّيْلَ بِالتَّهَارِ
أَنَا شَرِيكَ الْعِيَارِينَ فِي الْمَشَقَّةِ، وَشَرِيكَ الْمَرْضَى فِي الْمَرَضِ
لَسْتُ مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ، وَلَسْتُ مِنْ رِيحٍ عَاتِيَةٍ
مَا أَنَا شَمْسٌ تَبْرِيْزُ، أَنَا نُورٌ طَاهِرٌ يَا بُنَيَّ
وَمَعَ الْكُفَّارِ فِي مَعْبَدِ الْأَصْنَامِ، نِنتُ أَمَامَ الْأَصْنَامِ
وَأَنَا الْغَيْمُ وَالْمَطَرُ، هَظَلْتُ فِي الْبِسَاتِينَ
لَسْتُ تَرَابًا مَنْقُشًا، وَقَدْ صَحَّحْتُ مِنَ الْجَمِيعِ
فَيَا نَالَكَ، إِنْ رَأَيْتَنِي لَا تَقُلْ لِأَجْدِي: رَأَيْتُهُ

١ - مِنْ مَقْدَمَةِ كِتَابِ «كَزِينَةُ دِيَوَانِ شَمْسِ تَبْرِيْزِي»، لِلأَسْتَاذِ الذَّكَرُ مُحَمَّدٍ رِضَا شَفِيعِي كِدْكِنِي. وَالرُّنْدُ هُنَا تَعْبِيرٌ
فَارِسِيٌّ عَنِ الشَّخْصِ الَّذِي لَا يَبَالِي بِكَثِيرٍ مِمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى احْتِرَامِهِ وَتَقْدِيرِهِ. وَقَدْ عَرَّبَ الذَّكَرُ عَبْدُ الْوَهَّابِ
عِزَّامَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ، وَجَمَعَهَا عَلَى «رُنُودٍ». وَنَوَافِقُهُ عَلَى صَنِيعِهِ [الْمُتَرَجِّمُ].

- مَضَى عُمُرٌ مَدِيدٌ، وَنَحْنُ واقِفُونَ لِلْخِدْمَةِ كَالشَّمُوعِ
وَمِثْلَ الْفَرَاشِ، سَلَّمْنَا الْأَرْوَاحَ لِمَحَبَّتِكَ وَهَوَاكَ
- وَلَيْلَةُ الْبَارِحَةِ، شَرِبْتَ شِفَتَكَ الْيَاقُونِيَّةَ الْبَائِعَةَ لِلْخَمْرِ
جُرْعَةً

وَالْيَوْمَ، كُلُّنَا سُكَارَى ذَلِكَ الْغُرَابِ
- فَلَا تَطْلُبْ مِنَّا غَيْرَ الْعِشْقِ، أَيُّهَا الْمَعشُوقُ؛ لَأَتْنَا
مِنْ أَجْلِ هَذَا بَعِيْنِهِ وَلَكَدْ تَنَا أُمُّ الْآيَامِ

مَوْلَانَا الْمُنْجِذُ

أَحَدُ مُمَثِّلِي الْمُحْفِلِ الرُّوحَانِيِّ، وَكَانَ قَدْ غَضِبَ مِنْ كَلَامِ مَوْلَانَا، قَالَ:
- نَحْنُ مُضْطَرُّونَ إِلَى أَنْ نَحَاكِمَ كُلَّ كَافِرٍ وَمُبْتَدِعٍ فِي قُوْنِيَّةٍ، وَإِنْ أُدِينَ فَسَرَجُمُهُ
بِالْحِجَارَةِ. فَإِنْ أَرَادَ شَمْسٌ أَنْ يُقِيمَ فِي قُوْنِيَّةٍ مِنْ جَدِيدٍ مَجَالِسَ بَحْثٍ وَدُرُسٍ وَسَمَاعٍ،
أَوْ يَنْشَغِلَ مَعَنَا بِالشُّجَارِ الْكَلَامِيِّ وَالِاحْتِجَاجِ، وَيَرْوِّجَ مِنْ جَدِيدٍ لِمَدْرَسَةِ الْعِشْقِ هُنَا،
فَإِنَّ جَزَاءَهُ الْإِهَانَةُ وَالْإِذْلَالُ. وَنَحْنُ نَعْتَبِرُ كُلَّ مَنْ يُغْلِنُ أَنَّ الْعِشْقَ وَسِيلَةٌ لِاتِّصَالِ
الْإِنْسَانِ بِالْحَقِيقَةِ، وَيَمْزُجُ الْبَشَرِيَّةَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، مَجْنُونًا وَمَحْجُورًا عَلَيْهِ. وَاعْتِمَادًا عَلَى
مُبَايَنَةِ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ لِلْحَقِيقَةِ، نَجِدُ أَنْفُسَنَا مُضْطَرِّينَ، فِي كُلِّ مَكَانٍ نَرَى فِيهِ مَجَالِسَ
سَمَاعٍ، أَوْ نَسْمَعُ فِيهِ أَقْوَالَ يَكْتَنِفُهَا الرَّمُوزُ وَالِإِبْهَامُ أَوْ غَيْرَ وَاضِحَةِ الْحَقَائِقِ وَالْمَعَانِي،
إِلَى أَنْ نَخْرُبَ تِلْكَ الْمَجَالِسَ، وَنَحَاكِمَ الْمُتَحَدِّثِينَ وَالْمُشَارِكِينَ فِيهَا. إِنَّ اتِّصَالَ
الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ، وَالْخَفَاءِ أَوْ الْإِطْلَاقِ فِي اللَّامَكَانِ، كَلَامٌ فِيهِ كُفْرٌ؛ وَالْمُشْتَاقُونَ إِلَى
هَذَا الْمَذْهَبِ وَالْمُؤْمِنُونَ بِهِ لَا يَنْبَغِي - حَتَّى مِنْ طَرِيقِ الْاسْتِعَارَةِ وَالرَّمْزِ - أَنْ يَذْكُرُوا
ذَلِكَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، بَلْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْسُوا ذَلِكَ نِسْيَانًا تَامًا. مِنْ أَيْنَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَبِرَ نَفْسَهُ
مِرَآةً لِلْجَمَالِ الْأَزَلِيِّ، وَيَقُولَ إِنَّ صُورَةَ الْحَقِّ تَعَالَى مَنَعَكُسُهُ فِي وَجُودِي؟ هَذَا الْغُلُوفُ

الشاعري، أو في تعبير أتباع شمس: العرفاني، متجاوزٌ لحدِّ الإنسانِ وقدره، وغيرُ مقبول. أنتم، وأحبّاءكم، لا حقَّ لكم في أن تقولوا في قونية: إنّ العارف في مرحلة السَّير والسلوك يخرجُ عن نفسه، ويَفْنَى في وجود الحقِّ [سُبْحَانَهُ] [٢٤٤] وَيُسْتَهْلِكُ. نَحْنُ نَخَالِفُ نظريّةَ وَحْدَةِ الوجود، ونَحْسَبُ أَنَّ شَمْسًا مبتدِعٌ ومروِّجٌ لِمَذْهَبٍ متحرِّجٍ. هَلْ يَصِحُّ أَنْ نقولَ جماعةً. في أحوالٍ صوفيّةٍ كما يزعمونَ هم أنفسهم وفي حالة جَذْبٍ روحيّ سَفِيهِ. كلامًا فيه غُرُورٌ وطَيْشٌ، ثم يدعونَ أنهم قالوا هذا الكلام في حالٍ مِنَ السُّكْرِ والنشوة؟ الحقيقةُ أَنَّ الأحوالَ الخفيةَ والأعينَ المبصرةَ عند هؤلاء، خاصّةً الصوفيّةَ والعارفينَ، كَيْسَتْ أَكْثَرَ مِنْ لَغْوٍ وكَذِبٍ.

نَحْنُ مُوَحِّدُونَ، ومخالفُونَ لـ «الثنوية»، وعقيدةُ القرآنِ أساسُ التوحيد والإيمان، وأهلُ قونية يؤمنون بهذه العقيدة بكليّة وجودهم، وهم غيرُ مستعدينَ لأنَّ يسمَعُوا فِكْرًا مضدّها ذو التَّوَنِ والشُّبُهَاتِ وأبو يزيدَ والحلاج (*) . وما قاله أبو يزيد، ويدعو إليه شَمْسٌ، كَيْسَ سِوَى خُرَافَاتٍ وَتَخَيَّلَاتٍ وَأَنَانِيَّاتٍ. فَإِنَّ ادَّعى أبو يزيدَ قائلًا: خَرَجْتُ مِنْ «أبي يزيديتي»، كما تخرُجُ الحَيَّةُ مِنْ جِلْدِهَا، ثُمَّ نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ العَاشِقَ والمَعشُوقَ والعِشْقَ شَيْئًا وَاحِدًا، فَإِنَّهُ إِمَّا غَيْرُ عَاقِلٍ أَوْ شَطَحٍ؛ وَالإِنْسَانُ العَاقِلُ لَا يَتَّبِعُ الشَّطَحَ والكلامَ الَّذِي لَا أَساسَ لَهُ.

يا مَوْلَانَا، أنتم أيضًا لا تستطيعونَ في المستقبلِ أَنْ تذكروا شَيْئًا غَيْرَ الَّذِي نقولُه نَحْنُ. وَمِنْ هذا اليومِ، يَجِبُ أَنْ تُنْخَوِا تحوّلَكم الفِكرِيَّ وآراءكم العِرفانيّة، يَجِبُ أَنْ تودّعوا كُلَّ فِكرٍ شَمْسِيٍّ وأقواله. ونَحْنُ نقولُ: إِنَّهُ كَلَمًا كَانَ الإنسانُ صُوفِيًّا كَانَ أَبْعَدَ

عن الحقائق. الصوفي إنسانٌ لا عِلْمَ عنده ولا نَظَرَ، ويعشَقُ الفِكرَ البعيدةَ والخياليةَ عندَ الحلاج وأبي يزيد.

ألقى مولانا نَظْرَةً مدققةً باردةً على وَجْهِ المتحدث، وقال:

- عندما لا يوجد مَنْ هو أَهْلٌ لِبَيْتِ السِّرِّ، يكونُ عَدَمُ إِذَاعَةِ السِّرِّ أَفْضَلَ، وَعَدَمُ ثَقْبِ اللُّؤْلُؤِ أَفْضَلَ، وإِبْقَاءُ الْأَسْرَارِ فِي الصَّدْرِ أَفْضَلَ. أَنْتُمْ تَهْدِدُونَنِي بِالْإِيذَاءِ وَالْإِزْعَاجِ. إِنَّ شَمْسًا وَأَنْصَارَهُ مِثْلَ نَهَارٍ لَا حَاجَةَ فِيهِ إِلَى شَمْسٍ، وَمِثْلَ لَيْلٍ لَا حَاجَةَ فِيهِ إِلَى قَمَرٍ وَكَوَاكِبٍ. هُمْ عَدَمٌ غَيْرُ رَاغِبٍ بِالْوُجُودِ. أَنْتُمْ تَخَوِّفُونَنِي الْإِيذَاءَ وَالزَّجَرَ وَالْقَتْلَ. نَحْنُ جَمِيعًا أَتْقِيَاءُ وَمُلْتَزِمُونَ بِالشَّرْعِ، وَنَفُوسُنَا بَعِيدَةٌ عَنِ الظُّلْمَةِ وَعَنِ الْآفَاتِ النَّفْسِيَّةِ. اسْتَمَحَوَالِي بِأَنْ أُورِدَ كَلَامًا لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَذْهَمَ مِنْ أَجْلِ تَعْرِيفِنَا وَبَيَانِ مَنْ نَحْنُ. وَلَا شَكَّ فِي أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَذْهَمَ كَانَ مِثَالًا كَامِلًا لِلْإِنْسَانِ الْمُتَّقِي الزَّاهِدِ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ: الْعَارِفُ هُوَ الَّذِي يَقْرَأُ كَلَامَ اللَّهِ بِدَقَّةٍ، وَيَعْمَلُ بِذَلِكَ. لَا يَتَّبِعُ الشَّيْطَانَ، وَلَا يَنْشَغُلُ بِتَسْقُطِ عَيُوبِ الْآخَرِينَ، وَيَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ يَتَلَقَّاها مِنْ جَنَابِهِ، وَيَرْجِعُ الْقِيَامَ بِاللَّيْلِ عَلَى الْمَنَامِ. أَبُو يَزِيدَ الْبِسْطَامِيُّ، الَّذِي لَا تَقْبَلُونَهُ أَنْتُمْ، كَانَ قَدْ قَالَ: ذَهَبْتُ مِنَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، حَتَّى جَاءَنِي نِدَاءٌ مِنِّي إِلَيَّ، أَيُّ: يَا مَنْ أَنْتَ أَنَا، تَعَالَى إِلَيَّ. وَقَدْ وَصَلَ هَذَا الرَّجُلُ فِي السَّيْرِ وَالسَّلُوكِ إِلَى مَكَانٍ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا كُمَّلُ الرِّجَالِ.

أَمَا فِي شَأْنِ «وَحْدَةِ الْوُجُودِ» فَلَيْسَ لَكُمْ الْحَقُّ فِي أَنْ تَنْفُوهَا، إِذْ إِنَّ إدْرَاكََ هَذَا الْأَمْرِ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ أَيِّ إِنْسَانٍ. وَنَحْنُ نَعْتَبِرُ الْوُجُودَ شَيْئًا وَاحِدًا:

كُنَّا مِنْبَسْطِينَ، وَكُنَّا جَمِيعًا جَوْهَرًا وَاحِدًا

وَلَمْ تَكُنْ لَنَا فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ رُؤُوسٌ وَلَا أَقْدَامُ

كُنَّا جَوْهَرًا وَاحِدًا، كَالشَّمْسِ

وَكُنَّا مِنْ دُونِ عَقْدٍ وَصَافِينَ، كَالْمَاءِ

وَعِنْدَمَا حُلَّ ذَلِكَ النُّورُ الطَّيِّبُ فِي الصُّورَةِ

تَكَثَّرَ وَتَعَدَّدَ، مِثْلَ إِفْرِيزِ الْقَلْعَةِ

فَحَرَّبَ ذَلِكَ الْإِفْرِيزَ بِالْمُنْجِيقِ

لِكَيْ يَزُولَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَفْرَادِ ذَلِكَ الْفَرِيقِ ^(١)

عِنْدَمَا اقْتَبَدَ الْحَلَّاجُ إِلَى الْمِشْنَقَةِ، وَفَقَّ رِوَايَةَ عَارِفِ الشَّرْقِ الشَّهِيرِ الْعَطَّارِ، كَانَ يَتَبَخَّرُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي كَانَ يَمْضِي فِيهِ رَاقِصًا، وَكَانَ يَنْقُلُ خُطَاهُ كَالْعَيَّارِ رَاسِقًا بِثَلَاثَةِ عَشَرَ قَيْدًا ثَقِيلًا. فَقَالُوا لَهُ: مَا هَذَا التَّبَخُّرُ؟ - فَأَجَابَ: أَمْضِي إِلَى الْمِشْنَقَةِ، إِلَى عَالَمِ الْوِصَالِ. الشَّهَادَةُ، عِنْدَ الْعَارِفِينَ، سَعَادَةٌ ^(٢).

وَلَا تَهْ سُدَّ عَلَيْكُمْ، عَلَى قُلُوبِكُمْ، طَرِيقُ الذَّوْقِ وَالشُّوقِ وَالْعِشْقِ، تَنْقُضُونَ كُلَّ فِكْرٍ الْعَارِفِينَ وَأَرَائِهِمْ، مِنْ دُونِ ذِكْرِ الْعِلَّةِ وَالذَّلِيلِ. وَأَنْتُمْ، فِي الْمَحَادَثَةِ وَالْمَنَاقَشَةِ، لَا تَمْتَلِكُونَ وَقَارَ الْمَفَكِّرِينَ الْأَحْرَارِ، وَرَسُوخَهُمْ. وَنَحْنُ نُنْشِي عَلَى نَهْجِ شَمْسٍ وَأَبِي يَزِيدَ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَذْهَمَ وَالْحَلَّاجِ؛ لِأَنَّهُ نَهْجُ الْعِلْمِ وَمَعْرِفَةِ الْحَقِّ تَعَالَى. كُنَّا نَرَى الشَّمْسَ بِنُورِ الشَّمْسِ. أَنْتُمْ، بِسُلْمِ الْعَقْلِ، تُرِيدُونَ أَنْ تَتَجَاوَزُوا الْكَائِنَاتِ وَمَا وَرَاءَ الْكَائِنَاتِ، أَمَّا نَحْنُ فَمِنْ طَرِيقِ الْقَلْبِ، مِنْ طَرِيقِ الذَّوْقِ وَالْكَشْفِ وَالشَّهُودِ، نَطْوِي عَالَمَ الْمَعْرِفَةِ. فَقَدْ تَخَلَّيْنَا عَنِ الْعَقْلِ الْجُزْئِيِّ، الَّذِي يَتَّبِعُ رَوَابِطَ الْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ، فَقَطْ، وَنَقُولُ:

١- المثنوي: ٦٩٠/١ - ٦٩٣.

٢ - مِنْ أَجْلِ اِطْلَاعِ الْفُرَّاءِ عَلَى سِيرَةِ الْحَلَّاجِ وَدِفَاعِهِ فِي الْمَحْكَمَةِ، يُرَاجَعُ كِتَابُ: «حَلَّاجٌ وَرَايَ أَنَا الْحَقُّ» [بِالْفَارْسِيَّةِ، بِمَعْنَى: «الْحَلَّاجُ وَسِيرَةُ أَنَا الْحَقُّ»] الَّذِي أَعَدَّهُ مُؤَلِّفُ الْكِتَابِ [الْأَصْلُ].

أَمْسَكْتُ بِأُذُنِ الْعَقْلِ، وَقُلْتُ: أَيُّهَا الْعَقْلُ

اخْرُجْ؛ فَقَدْ تَحَرَّزْتُ مِنْكَ الْيَوْمَ

إِنَّ طَرِيقَ الْعَقْلِ هُوَ طَرِيقُ اللَّجَاجِ وَالْإِعْتِرَاضِ، وَالسَّبَبُ لِلْعِنَادِ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّكُمْ أَنْ تَتَّقِدُوا بِالْكَلَامِ مَشَايِخَ الْمَعْرِفَةِ، عِنْدِي، وَأَمَامِي. السَّبَابُ وَالشَّتْمُ شَأْنُ الْجَاهِلِينَ. وَأَنْتُمْ، بِهَذِهِ الْأَنْظَارِ وَالذَّعَاوِي، لَنْ تَصِلُوا إِلَى مَكَانٍ فِي تَعْرِفِ الْحَقِيقَةِ. فَوَاسَفًا عَلَى الْعُمَرِ الَّذِي اضْعَعْتُمُوهُ.

- لَا نَرِيدُ أَنْ نَسْمَعَ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي لَا طَائِلَ مِنْ وِرَائِهَا، وَسَمَاعُ الْكَلَامِ اللَّامِعَقُولِ، مِنْ مَوْلَانَا، أَيْضًا أَمْرٌ مَزْعُوجٌ. نَرِيدُ أَنْ تَبْقَى هَذِهِ الْأَقْوَالُ دَائِمًا فِي قُلُوبِكُمْ. وَمَا نَعْتَقِدُهُ نَحْنُ تَوَوُّلُونَهُ أَنْتُمْ وَفَقَّ مِلِّكُمْ، وَهَذَا لَا يَرُوقُنَا، وَالْأَسَفُ. نَحْنُ الْآنَ وَجْهًا لَوَجْهِ أَمَامَ مَوْلَانَا الْمَجْذُوبِ، الْمَسْحُورِ بِسَبَبِ شَيْطَانٍ اسْمُهُ شَمْسٌ. لَا نَرِيدُ بَعْدَ الْآنَ أَنْ تَقُولُوا شَيْئًا. الْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْنَا اسْتِعْدَادٌ وَتَحَمُّلٌ لِسَمَاعِ كَلَامٍ تُشْتَمُّ مِنْهُ رَائِحَةُ الدَّفَاعِ عَنِ الْعِرْفَانِ وَالتَّصَوُّفِ. وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَكْثَرَ الْمُحِبِّينَ وَالْأَسَاتِذَةِ فِي مَدَارِسِ قُونِيَّةَ هُمْ تَلَامِيذُ، أَوْ مُرِيدُونَ، لِوَالِدِكُمْ، سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ^(١).

١- كَتَبَ سِيَهْسَالَارُ فِي كِتَابِهِ «رِسَالَةً» يَقُولُ:

... وَكَانَ أَنْ اضْطَرَبَ مُرِيدُو سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ اضْطِرَابًا شَدِيدًا، وَثَارَتِ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ... وَلَاشَكَّ فِي أَنَّ بَوَاعِثَ الْحَسَدِ فِي نَفْسِهِمْ اسْتَمَرَّتْ. وَحَدَّثَ بَيْنَ النَّاسِ تَصَايُحٌ وَصَحْبٌ وَتَوَقُّرٌ، إِلَى أَنْ ثَارَ غِبَارُ الْإِنْكَارِ عَلَى السَّطْحِ... وَكَلَّمَا وَجَدُوا فُرْصَةً أَخَذُوا يَحْدِثُونَ خَضْرَتَهُ بِأَسَى وَخَسْرَةٍ، إِلَى أَنْ يَجِدُوا الْإِنْفِعَالَ طَرِيقَهُ إِلَى خَاطِرِهِ الشَّرِيفِ؛ وَهَذَا السَّبَبُ يَزْحَلُ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ. وَفِي رَأْيِ الْمُؤَلَّفِ، أَنَّ مَخَالَفَةَ الْمُخَالِفِينَ لِشَمْسٍ فِي الزَّوْمِ الشَّرْقِيَّةِ اسْتَلْزَمَتْ أَنْ يَتَضَاعَفَ عِشْقُ مَوْلَانَا لِشَمْسٍ، عَلَى نَحْوِ ظَلِّ فِيهِ مَوْلَانَا وَفِيَّا لَذِكْرِي شَمْسٍ حَتَّى آخِرِ لِحْظَةٍ فِي حَيَاتِهِ:

اجْلِسْ فِي عَيْتِي، يَا مَنْ أَنْتَ أَكْثَرُ اتِّصَالًا بِي مِنْ نَفْسِي	لِي أَظْهَرَ لِلْقَمَرِ أَنَّكَ أَكْثَرُ إِضَاءَةً مِنَ الْقَمَرِ
ادْخُلِ الْبُسْتَانَ، لِي تَفْضَحَ رَوْضَةَ الْأَزْهَارِ	لِأَنَّكَ أَجْمَلُ مِنْ مِئَةِ بُسْتَانٍ، وَأَكْثَرُ نَضَارَةً مِنْ كُلِّ رَوْضٍ
إِلَى مَتَى يُخْفِي الشَّرُّ قَدَّهُ حَجَلًا مِنْ قَدِّكَ	وَإِلَى مَتَى يُلْجِمُ السَّوْسُنُ لِسَانَهُ، لِأَنَّكَ أَنْطَقُ مِنْهُ؟

- بَغْتَةً صَعِدَ تَأَوُّدٌ مِنْ جَنَابَاتِ الْحَانَةِ
صَعِدَ أَنْبِيُّ مِنْ أَرْوَاحِ الْعَاشِقِينَ
- حَدَّثَ شَرٌّ وَهَيْجَانٌ فِي الْعَالَمِ
انْبَعَثَ صِبَاخٌ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ
- صُبَّتْ جُرْعَةٌ فَوْقَ صَعِيدِ الْأَرْضِ
فَاعْلَمْ أَنَّ الْهَيْجَانَ وَالضَّعْجَةَ نَشَأَ مِنْ هَذِهِ الْجُرْعَةِ

زَلْزَالٌ فِي قُؤْيِيَّةَ

في هذه اللَّحَظَاتِ، ظَهَرَ سَحَابٌ مَرْكُومٌ أَسْوَدُ أَمَامَ الشَّمْسِ، وَبَغْتَةً اعْتَكَرَ الْجَوُّ
وَأَسْوَدَ، وَمَرَّتْ عَاصِفَةٌ مَزْمَجِرَةٌ مَجْلَجِلَةٌ فِي فِضَاءِ قُؤْيِيَّةَ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ، وَزُلْزِلَتْ
الْأَرْضُ لِلْحِظَّةِ وَتَأَرَّجَحَتْ بِقُوَّةٍ، كَأَنَّهَا الْأَرْجُوحَةُ. وَقَدْ سَمِعَ أَهْلُ قُؤْيِيَّةَ تَضَرُّعَاتِ
النِّسَاءِ وَالْأَخْدَانِ وَالْأَطْفَالِ، وَكَانَ النَّاسُ يَفْرَوْنَ مِنْ بَيُوتِهِمْ وَأَكْوَاخِهِمْ بِاتِّجَاهِ
الْمَلَاذَاتِ وَالْمِيَادِينِ وَالتَّلَالِ الصَّغِيرَةِ، فِي ضَوَاكِي الْمَدِينَةِ.

كَانَ صَحْنُ جَامِعِ عِلَاءِ الدِّينِ مُجْتَمِعًا لِلْفَارِسِينَ مِنَ الزَّلْزَالِ. نَهَضَ مِمَثْلُو الْمُحْفِلِ
الرُّوحَانِيَّ فِي قُؤْيِيَّةَ مِنْ أَمَاكِنِهِمْ سَرِيعًا، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَرْنُو إِلَى بَعْضٍ بِذَهْوَلٍ، ثُمَّ
صَحَّوْا وَانْطَلَقُوا مُسْرِعِينَ مَذْعُورِينَ إِلَى خَارِجِ بَيُوتِهِمْ.

كَانَتْ الْبُيُوتُ تَتَمَايَلُ وَتَتَدَاعَى الْوَاحِدَةُ إِثْرَ الْآخَرِ بِتَأْثِيرِ الْارْتِعَاجِ وَالتَّرْخُلُقِ.
مَدِينَةُ قُؤْيِيَّةَ، الْمَعْرُوفَةُ بِأَنَّهَا مَدِينَةُ الْأَبْرَاجِ وَالْقِلَاعِ، لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقَاوِمَ أَمَامَ غَضَبِ
الطَّبِيعَةِ. كَانَتْ أَصْوَاتُ الْغُرَبَانِ وَالْبُومِ تَصِلُ إِلَى الْأَسْمَاعِ مَصْحُوبَةً بِتَضَرُّعَاتِ النَّاسِ
وَضَجِيجِهِمْ. وَقَدْ لَفَّ الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ بِوَجْهِهِ الْمَهِيْبِ الْكَرِيمِ سَمَاءَ قُؤْيِيَّةَ السَّوْدَاءِ. كُلُّ
شَيْءٍ كَانَ يَهْتَزُّ. وَكَانَتْ الطُّيُورُ الذَّاهِلَةُ، بِأَصْوَاتِهَا الْغَرِيبَةِ، تَطِيرُ فِي هَذِهِ الْوُجْهَةِ، وَفِي
تِلْكَ الْوُجْهَةِ. رِيحٌ قَوِيَّةٌ عَاصِفَةٌ، ذَاتُ سُرْعَةٍ لَمْ يَعْهَدْهَا النَّاسُ مِنْ قَبْلُ، خَلَطَتْ

٤٠٦ زلزالٌ في قونية

بساتين أهل قونية ومزارعهم. الأنعام من بقرٍ وغنمٍ فقدت هدوءها وسكيتها. الأشجار الضخمة كسرت [٢٤٨] الواحدة إثر الأخرى.

وعلى الجدار القوي لمدرسة قرطاي الكبيرة، التي كان قد بناها الوزير جلال الدين قرطاي في عام ٦٤٩هـ، ظهرت صدوعٌ وشقوق، وكان نداء «الله أكبر» يُسمع من أعالي المآذن. في تلك اللحظات المرعبة، كان كلُّ روحٍ وكلُّ كائنٍ في عتبة الالتماس والاستمداد والاستغاثة. النساء احتضن الرضع والأطفال، وقروا جميعاً إلى الملاذات الدينية. لحظات موحشة، كانت فيها صنيحات اليأس في كل لحظة تعبث بهدوء أعصاب السامعين. في كل مكان، كان الفناء يطلق أجنحته السوداء. قُصر علاء الدين الراسخ البنيان، الذي شيد في العام ٦٦٣هـ، تأذى في الزلزال الثالث، وكان الناس الخائفون يفترون من هناك ويلجؤون إلى أماكن أخرى.

زلزال قونية أحد أكبر الأحداث في عصر مولانا. وفي أثناء هذا الزلزال المرعب، أننى ممثلو المخفل الروحاني وآخرون على القدرة الروحية عند مولانا، مع أنه في تلك اللحظات اتضحَت الأحاسيس العذوانية إزاءه على أثر صراحة كلامه وبيانه عقائده، مع أنه غير مهتم بهذه الأصدا. وقف إلى جانب النافذة غير مُبالٍ، وكان ينظرُ إلى سماء قونية السوداء، فانبعث صوتٌ من خارج النافذة من حنجرة أحد ممثلي قونية، يقول:

- يا مولانا، ما الحال؟ - لماذا لا تهدأ الأرض؟

انتصرون ماذا يجب على مولانا أن يقول؟ - انتظروا الجواب.

لم يكن في كلام مولانا أثرٌ لخوفٍ، أثرٌ لعنادٍ وعداوة، بل قال بنغمة هادئة،

وابتسامة يفيض منها الهزل والمزح: الأرض تنشد لُقمة دَسِمة.

- لَيْسَ الوقتُ وقتَ هَزَلٍ ومَزح... يا مَوْلانا، ألا ترى المنازلَ تخربُ فوقَ رؤوسِ أصحابها، واحِدًا بعدَ الآخر، ألا تَسْمَعُ أدعيةَ النساءِ وتضرعاتهنَّ واستغاثاتهنَّ؟ ماذا يجبُ أن نفعلَ؟ - الخطرُ صارَ أقربَ إلينا وإليك من إنسان العَيْن. الأرضُ تهتزُّ كالأرجوحة من دون أمانٍ، لُقمة دَسِمة، لَحْمُ إنسان. أينبغي أن يقضيَ الناسُ تحتَ الانقراضِ؟

فأجابَ مَوْلانا بدمٍ باردٍ:

- أنا أرقُبُ رَفَصَ الأرضِ وحَرَكتَها، وأُضْغِي إلى نداءِ القلبِ. هذا قَضَاءُ سَماويٍّ؛ فلا بدَّ منَ تحمُّله... [٢٤٩]

- إنَّ حياتنا في خَطرٍ. فإينَ كُلِّ الدَّعاوي التي رَعَمَتَها. لماذا تعجِزُ.. لماذا تعجِزُ عن أن تمنعَ الأرضَ من الحركة؟

طالَ نَظَرُ مَوْلانا النافِذُ إلى أولئك الذين ترتعدُ فرائضُهم من دهشةِ قَهَرِ الطَّبيعةِ، وكأنَّ الأحداثَ السَّماويةَ المميَّنةَ أذهبتْ سَلامةَ عقولهم. وأجابَ مَوْلانا:

- أنا أيضًا، على غرارِ أناسٍ قُوْنِيَّةٍ، أطلُبُ المددَ من الله المتعالِي.

- يجبُ أن نَسألَ اللهَ أن يَهْلِكَ المبتدعةُ في قُوْنِيَّةٍ، ويأتي على مُحِبي شَمْسٍ. إنَّ هذا البلاءَ هَدِيَّةُ شَمْسٍ الآتي مِنَ السَّفَرِ، وأتباعِ شَمْسٍ.

ارتجبتِ الأرضُ مرَّةً أخرى بشِدَّةٍ، ففرَّ ممثلو المحفِل الروحانيِّ هَلَعًا، وقال أحدهمَ لمَوْلانا في أثناءِ فراره:

- أنت، الذي تُهدِّي طابعَ البشرِ، هَدِيَّ الأرضِ. إن لم تَكُنْ قادرًا على ذلك، فخلِّصْ نَفْسَكَ مِنَ الموتِ. حتَّى الآنَ، لَنا مَعَكَ مناقشات.

تمتَمَ مَوْلَانَا:

- رِجَالُ اللَّهِ لَا يَأْذَنُونَ لِلْخَوْفِ مِنَ الْحَوَادِثِ أَنْ يَجِدَ سَبِيلًا إِلَى قُلُوبِهِمْ، لَيْسَ لَدَيْهِمْ خَوْفٌ مِنَ الْحَادِثَاتِ.

عاصِفةٌ مُرْعِبَةٌ، مصحوبةٌ بهزّةٍ خفيفة، هزّتْ أَرْضَ قُوْنِيَّةٍ مِنْ جَدِيدٍ. وَمِنْ دُونِ اهْتِمَامٍ بِالْأَعاصِيرِ وَالْعَوَاصِفِ، خَرَجَ مَوْلَانَا مِنْ مَنْزِلِهِ لِمُسَاعَدَةِ الْمَسَاكِينِ. عِنْدَ رُؤْيَةِ مَوْلَانَا، جَاءَ النَّاسُ إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَتَأَوَّهُونَ.

مُشَاهِدَةُ مَوْلَانَا أَيْضًا، فِي لَحَظَاتِ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، جَعَلَتْ الْقُلُوبَ رَاجِيَةً مُؤَمِّلَةً. فِي نَظَرَاتِ هَؤُلَاءِ كَانَ يَمُوجُ سُؤَالٌ وَاضِحٌ، كَانُوا فِي نَظَرَاتِهِمْ يَسْتَفْسِرُونَ... لِمَاذَا، لِمَاذَا؟ وَبَعْدَ ذَلِكَ يَسْتَغِيثُونَ..

- هَلِ الْحَيَاةُ كُلُّهَا خَوْفٌ وَقَلَقٌ وَالْمَوْتُ وَدَمٌ قَلْبٍ؟ هَلْ هَذِهِ الْحَيَاةُ جَدِيدَةٌ بِأَنْ تُعَاشَ؟ عَلَى مَوْلَانَا أَنْ يَجِيبَ. لَا يَسْتَطِيعُ مَوْلَانَا أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ. إِلَهَامَاتٌ جَدِيدَةٌ تُبَشِّرُهُ بِأَنْ الْأَرْضَ سَتَهْدَأُ، وَالْحَيَاةُ تَعُودُ إِلَى قُوْنِيَّةٍ مِنْ جَدِيدٍ. الْعُمُرُ الْمَرِيرُ وَالْعَذَابُ وَالْعَنْتُ تَنْتَهِي، وَالْآلَامُ الرُّوحِيَّةُ عِنْدَ النَّاسِ تَزُولُ. الْحَيَاةُ هِيَ هِيَ: تَارَةً كَأْسُ شَرَابٍ^(١) أَرْجَوَانِي، وَتَارَةً دَمٌ قَلْبٍ. الشُّحْبُ السُّودُ أَخَذَتْ تَنْقَشِعُ مِنْ أَفْقِ قُوْنِيَّةٍ تَدْرِيجِيًّا، وَالنَّاسُ الْخَائِفُونَ تَحَلَّقُوا حَوْلَ مَوْلَانَا، يَنْشُدُونَ أَنْ يَسْمَعُوا إِجَابَاتٍ لِأَسْئَلَتِهِمْ. كَانَ مَوْلَانَا يَتَطَلَّعُ إِلَى السَّمَاءِ.. وَبَعْدَئِذٍ دَعَا النَّاسَ إِلَى الصَّمْتِ وَقَالَ لَهُمْ:

[٢٥٠] - بِمُسَاعَدَةِ مُجِيبِي الْإِنْسَانِ وَالصَّالِحِينَ، سَتُعَمَّرُ قُوْنِيَّةٌ مِنْ جَدِيدٍ. وَيَابُ بَيْتِي

مَفْتُوحٌ أَمَامَكُمْ. فَاسْعَوْا إِلَى أَنْ تَكُونُوا ذَوِي أَمَلٍ بِالْمُسْتَقْبَلِ، وَأَنَا مُعَرِّمٌ بِكُمْ. اعْتَمِدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ. فَتَعَالَوْا نَعْبُدِ اللَّهَ مَعًا، كُلُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا جَمِيلٌ،

١- يَقُولُ حَافِظُ الشَّيْزَارِيِّ: كَأْسُ شَرَابٍ وَدَمٌ قَلْبٍ، كُلُّ مِنْهُمَا أُعْطِيَ لِلْإِنْسَانِ..

عَلَيْنَا أَنْ نَصْبِرَ. عَلَيْكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْقَذَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْهَزَّةِ الْأَرْضِيَّةِ الْمُرْعَبَةِ.

رَجُلٌ طَاعِنٌ فِي السَّنِّ، عَيْنَاهُ تَسْكُبَانِ الدَّمْعَ قَالَ:

فِي الْمَرَّةِ السَّابِعَةِ مِنْ ارْتِجَاجِ الْأَرْضِ فَقَدْتُ أَبْنَائِي. ارْتَجَّتِ الْأَرْضُ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قَالَ آخَرُ:

لَعَلَّ الْمَفْقُودِينَ يَكُونُونَ مَسْرُورِينَ لِأَنَّنَا بَقِينَا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، شَرِيطَةً أَنْ لَا نَأْذَنَ

لِلْخَوْفِ بِأَنْ يَجِدَ سَبِيلَهُ إِلَى قُلُوبِنَا، وَنَذْهَبَ فَنَدْفِنَ هَؤُلَاءِ وَفَقِ الرُّسُومَ وَالْآدَابَ الَّتِي

نَتَّبِعُهَا. فَقَالَ مَوْلَانَا:

عَلَيْنَا وَشَطَّ الْإِعْصَارِ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَاتِ، أَنْ تُسَيِّطَرَ عَلَى أَنْفُسِنَا، وَتُحْكَمَ الْإِمْسَاكُ

بِزِمَامِ أَعْصَابِنَا. فِي مُوَاجَهَةِ التَّوَاتُبِ وَالْحَوَادِثِ الْمُؤْلِمَةِ، لَا بَدَّ مِنَ التَّحَلِّيِ بِالصَّبْرِ

وَالْمُقَاوَمَةِ. وَأَعْظَمُ مُهِمَّةٍ لَنَا الْآنَ، أَنْ نَنْسِيَ الْأَلَامَ وَالْغُصَصَ. زَمْجَرَةُ الطَّبِيعَةِ الْمَمْلُوءَةُ

بِالْغَضَبِ، أَلَّتْ إِلَى انْتِهَاءٍ. فَأَمَلُوا بِالْغَدِ، بِشَمْسٍ تَطْلُعُ فَجْراً. انْسُوا اللَّحْظَاتِ الْمُرِيرَةَ

الْمُوحِشَةَ مِنَ الْمَاضِي. أَنَا مُوجُودٌ بَيْنَكُمْ، وَسَأَكُونُ مَعَكُمْ دَائِماً. وَسَأُطْلُبُ مِنْ سُلْطَانِ

قُوْنِيَّةٍ أَنْ يَضَعَ تَحْتَ تَصَرُّفِكُمْ مَلَاذَاتٍ وَمَلَاجِي. أَحَدُ كِبَارِ السَّنِّ قَاطَعَ مَوْلَانَا، وَسَأَلَ:

لَنْ أَنْسَى، مَا حَيِّثُ، سَاحَاتِ قُوْنِيَّةِ الْمُؤْلِمَةِ الْيَوْمِ. وَأُرِيدُ أَنْ أَعْلَمَ مَاذَا كَانَ

ذَنْبُنَا، لِكَيْ نَسْتَوْجِبَ مِثْلَ هَذِهِ الْعَقُوبَةِ؟ إِنَّ مَطْلَبَ النَّاسِ هُوَ أَنْ تُجِيبُوا عَنْ هَذَا

السُّؤَالِ. النَّاسُ يَرِيدُونَ مِنْ مَوْلَانَا أَنْ يَبَيِّنَ أَسْبَابَ قَسْوَةِ الطَّبِيعَةِ.

فَقَالَ مَوْلَانَا:

أَنَا إِنْسَانٌ غَيْرُ مُعْتَرِضٍ، أَمَامَ الْبَلِيَّاتِ أَسْلَمْتُ وَلَا أَعْتَرِضُ. الْأُمُورُ كُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى

الْمُضْلَحَةِ، تَخْدُثُ الْأُمُورُ كُلُّهَا وَفَقِ إِرَادَةِ اللَّهِ، وَقَدْ اقْتَضَتْ الْمُضْلَحَةُ أَنْ تَهْتَرِ أَرْضُ

قُوْنِيَّةٍ. وَأَنَا أَيْضًا، مِثْلِي مِثْلَكُمْ، أَرْقُبُ مَظَاهِرَ الْفَنَاءِ وَالْعَدَمِ. كُنْتُ أَرَى زِحَامَ الْفُقَرَاءِ

والأغنياء، الذين كانوا - مثل المشردين [٢١٥] الذين لا ملأَ لهم - يَجْرُونَ في هذه الوجهة. أنا شاهدٌ شديدُ الحُزْنِ لِمَوْتِ الأَطْفَالِ والشُّبَّانِ تحت أنقاض البيوت والعمارات. الآن يجبُ أن تُسَكَبَ العَبْرَاتُ في مآتمِ الأعزَّاء الذين فُقدوا، وتُنَحَّى الأحقادُ أو تُنسى. لا ينبغي أن يُؤَدَّنَ لِلْيَأْسِ أن يسيطرَ على القلوب، ونحنُ قادرونَ على أن نُعَمَّرَ مِن جَدِيدٍ ما تخرَّب، ونبني البيوتَ مِن جديد. أمَّا تَكْوِينُ الإنسانِ فَعَايَةُ في الصَّعوبة. عَرَفَتِ الدُّنْيَا أَقْسَى الضَّرَبَاتِ والأَضْرَارِ، الناشئة عن حوادثِ الطَّبيعة والظَّواهرِ الجويَّة التي أصابت هياكلَ المجتمعاتِ وبنياتها، لكنَّ أولئك النَّاسَ كانوا قَادِرِينَ عَلَى أن يعالجوا الأضرارَ الناشئةَ عن السُّيُولِ والحرائقِ والزَّلَازِلِ، بِهِمَّتِهِمْ وإِرَادَتِهِمْ الحديديَّة. الشَّيْءُ الَّذِي يَصْعَبُ تَرْمِيمُهُ هُوَ انْحِطَاطُ الْقِيَمِ. نَحْنُ نَسْعَى إِلَى إِعْمَارِ قُونِيَّةَ وَإِعَادَةِ بَنَائِهَا، وَسَرِيعًا سِيَأَي شَمْسُ إِلَى قُونِيَّةَ، وَيَبْدَأُ عَمَلٌ عَظِيمٌ فِي مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ أَوْ مَعْرِفَةِ الذَّاتِ، مِن جَدِيدٍ. وَلَا شَأْنَ لِسَمْسٍ بِعَقَائِدِ النَّاسِ، وَهُوَ مُعَارِضٌ لِلْمُرَائِيَّةِ وَالْمُنَافِقِينَ.

ومادامَ شَمْسٌ، مَفْخَرَةُ النَّاسِ، حَيًّا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، سَتُحَلَّ الْمَشْكَلاتُ كُلُّهَا. عُشَاقُ الْحَقِّ [سُبْحَانَهُ] يَضْرِبُونَ عَلَى الْبَلَايَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الدُّنْيَا وُجِدَتْ مِن أَجْلِ النَّاسِ. النُّورُ الْإِلَهِيُّ مُتَجَلٍّ فِي كُلِّ ذَرَاتِ كِيَانِ الْأَفْرَادِ، وَلَا يَأْذَنُ الْعِشْقُ بِأَنْ يِيَّاسَ النَّاسُ. وَهَذِهِ الْأَخْدَاثُ الطَّبِيعِيَّةُ جَمِيعًا، دَالَّةٌ عَلَى وُجُودِ حَقٍّ وَاحِدٍ:

إِنَّ أُمَّ الْوَلَدِ دَائِمَةُ الْبَحْثِ عَنْهُ

وَالْأَصُولُ طَالِبَةٌ لِقُرُوعِهَا

وَالْمَاءُ إِنْ احْتَسِسَ فِي حَوْضٍ

جَفَفَتْهُ الرِّيحُ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْعُنَاصِرِ الْأُولَى

فَالرَّيْحُ تُحَرِّرُهُ، وَتَحْمِلُهُ إِلَى مَعْدِنِهِ
 شَيْئًا فَشَيْئًا، بَيْنَمَا أَنْتَ لَا تُبْصِرُ حَمْلَهَا إِلَّااهُ
 وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ تَسْتَلِيبُ أَنْفَاسُنَا أَرْوَاحَنَا
 شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ حَبْسِ هَذِهِ الدُّنْيَا^(١)

- يا مُطَرَّبَ الرُّوحِ، إذا أَمْسَكَتَ بالدُّفِّ
فاعزِفِ اللَّحْنَ الَّذِي سَكَّرَ بِهِ الْحَبِيبَ
- إِنَّ ذَرَاتِ الْعَالَمِ لِعِشْقِهَا تَلِكِ الشَّمْسُ
جاءَتْ رَاقِصَةً مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ
(ديوان شمس تبريز: الغزلية ٦٨٧)

رُجُوعُ شَمْسٍ

في منتصفِ الرَّبيعِ مِنْ عام ٦٤٤ الهجري^(١)، كَانَتْ قُونِيَّةُ فِي انتِظارِ مَجيءِ عارِفٍ
جَرى في عُرُوقِهِ دَمُ الْمُحَارِبِينَ وَالْأَبْطالِ الْإيرانيِّينَ، عارِفٍ لَمْ يَكُنْ يَمْتَلِكُ بَيْتًا أَوْ كوخًا،
وَلَمْ يَكُنْ يَقيمُ في مَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ إِلَّا مَدَّةَ قَصِيرَةٍ، حالُهُ في ذَلِكَ حَالُ الطَّيُورِ الْمهاجِرَةِ.
وفي كُلِّ مَكانٍ كانَ يَصِلُ إِلَيْهِ، كانَ يَتَحَدَّثُ بِلُغَةِ الشَّوْقِ وَالْجَذْبِ الَّتِي كَانَتْ مُصاحِبَةً
لِلْبَحْثِ الْعِرْفانيِّ الْعِشْقيِّ، كَأَنَّهُ عاشِقٌ يَوصِلُ بِهَيَّجانٍ وَشُكْرِ تَرْكِيبًا مَلَكُوتِيًّا مِنْ صَدَى
رُوحِهِ وَقَلْبِهِ فِي قَوْسِ قُرْحِ كِتابِ «المَقالاتِ» إِلَى آذانِ الْمُشتاقينَ. وَكُلُّ مَنْ كانَ يَسْمَعُ
كَلَامَهُ كانَ هَدُوؤُهُ يَتَحَوَّلُ إِلَى هَيَّجانٍ وَثُورَةٍ، وَكانَ يَرى الطَّبِيعَةَ أَكْثَرَ سِحْرًا وَفِتنَةً، أَوْ
يَسْغُلُ بِالتَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ في مَعْرِفَةِ الذَّاتِ. وَشَمْسٌ، في عُمُرِهِ كُلِّهِ، لَمْ يَتَوانَ لَحْظَةً عَنِ
السَّعْيِ إِلَى إِرْشادِ الْيائِسِينَ، وَكانَ يَبْشُرُهُمْ قائِلًا: إِذا ما اكْتَشَفْتُمْ عَالَمَكُمْ الدَّاخِلِيَّ
فَسَتَدْرِكُونَ سَريعًا أَنَّ صَوْتًا مُتَناعِمًا لِلْحَقِيقَةِ يَتَحَدَّثُ مَعَ قُلُوبِكُمْ وَأَرْواحِكُمْ.

هذا الرَّجُلُ الرَّحالةُ الْمُتَشَرِّدُ كانَ يَأْتِي إِلَى قُونِيَّةَ رَاكِبًا جَوادًا، مُحاطًا بِهالَةٍ مِنَ
الوَقارِ، وَكانَ يَبْدُو غَيْرَ قايِلٍ لِلْكَلالِ وَالتَّعَبِ. كانَ يَريدُ - مِنْ دُونِ أَنْ يُزِيلَ غُبارَ الطَّرِيقِ
عَنْ وَجْهِهِ [٢٥٣] - لِيَباسِهِ - أَنْ يَمْضِيَ لِلِقاءِ مُحَبِّبِهِ، وَأَنْ يَحْتَضِنَهُ كَالرُّوحِ الْجَميلِ.

١- في عام ٦٤٤ هـ، كانَ شَمْسٌ في السَّنَةِ مِنَ عُمُرِهِ

وبهذا الأمل أخذت كل اللذات المعنوية، وكل الأشواق والتأثرات في صميم كيانه، في الهيجان والرقص.

أما مولانا فكأنه، بتأثير الأشواق والآمال، كان يسمع صدى سنابك جواد شمسٍ من بعيد. كان قد انقضى على طلوع الشمس ثلاث ساعات، عندما كانت شمسٌ أخرى تعود من سماءٍ دمشق الحاملة إلى قونية. مولانا الذي كان يرى في شمسٍ مُجَلَّى للعشق، وكانوا متقداً له، لم يعد يعرف رأسه من قدمه، وكان قد أعد ساعديه المدللين لكي يحتضن مطلوبه الحقيقي، الذي كان يعدّه شغلةً أو نوراً سماوياً، ويصنع إلى جانبه الأنعام، ويسمع صوته الأخاذ باشتياقٍ وتحنٍّ. ألم يعترف مولانا، في ديوانه الغنائي [ديوان شمس تبريز]، بأن كلام شمسٍ المبهج للقلب فصيحٌ ولطيفٌ ومدللٌ للروح ومنعشٌ للقلب، ومع أنه ظل بعيداً عن قونية لأشهر بقي كلامه في ذهن مولانا حياً؟. كان جلال الدين يُحسُّ بشيءٍ من الفخر لظفره بمثل هذا المحبوب والمراد. عددٌ كبيرٌ من طبقاتٍ مختلفة من الناس، كانوا حول مولانا، وكانت جماعة من المستقبلين، الذين كانوا في انتظار شمسٍ^(١)، يعدّون اللحظاتٍ مُتَاجِبِينَ متأثرين. كان مولانا يسمع الناس وهم يصيحون: شمسٌ، مَرَحَباً وأهلاً. تواصل صياح الناس المتأثرين، وقد جاء هؤلاء لكي يُبلغوا شمساً ثناء أهالي قونية وتكريمهم ومحبتهم الخالصة.

عاد شمسٌ ليضيء بشعاعٍ محبته الموافق للقلب صدر مولانا المعنى، وبيّن له سرّ العرفان العسقي، على النحو المطلوب.

١ - يعرف سبهاالار، في كتابه «رسالة سبهاالار، در مناقب حضرت خداندگار»، شمساً المحاظ بهالة الغموض باسم شمس التين محمد بن علي بن مُلك داد، وبالقاب: سلطان الأولياء الواصلين، تاج المحبوبين، قُطب العارفين، فخر الموحدين، صاحب الحال والقال [الأصل].

قلوب أولئك الذين كانوا واقفين في انتظار مجيء شمس عند باب المدينة، أو خارج المدينة، غرقت في بحار الشوق للقاء، وكان المستقبلون يحسون في داخلهم بهيجان رمزي ومبهم وممتع. وارتدى الناس أحسن لباسهم، وتحولت قونية إلى قطعة من السرور والجور. حتى النساء والأطفال، كانوا يرون بين المستقبلين. ذلك المبشر بالسرور والجور ومعرفة الإنسان، عاد من جديد إلى قونية. عاد إلى مدينة كان [٢٥٤] أهل الشوء والمتعصبون فيها، قبل، يرمونه بالحجارة.

وقد أظهر شمس، فعلياً، أنه مستحق لإحراز مثل هذا الاستقبال. ففي هذا الفراق والغياب القصير الأمد، أدرك أهل قونية عظمت الروحية. وكانت الصورة التي ارتسمت له في عقول محبيه وقلوبهم صورة عارف عاشق متخل عن الدنيا، عارف كانت عصاره كلامه أن كل إنسان متالم، عليه - من أجل مداواة آلامه الروحية - أن يتوجه نحو فضاءات سماوية لا باب لها ولا صورة، إلى المكان الذي ظهرت منه شغلة الأمل والوجود. كان أهل قونية في انتظار العارف الذي ترك مولانا على حين غرة، ونشأ عن هجرانه جرح لا يندمل في قلب جلال الدين وروحه، وكان لديهم أمل بأن يعيد هذا الطبيب الرحيم السكينة الروحية لمدرس قونية الكبير. نعم، كانوا في انتظار مجلى الأمل والرجاء عند مولانا:

شَيْئًا فَشَيْئًا يَصِلُ جَمْعُ الشُّكَارَى

شَيْئًا فَشَيْئًا يَصِلُ عُشَاقُ الشَّرَابِ

الملاطفون للقلوب يأتون متبخرين في الطريق

والورد ذو العذار يصلون من روضة الورد

وَسَيِّئًا فَسِيئًا، مِنْ دُنْيَا الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ هَذِهِ

ذَهَبَ الْفَانُونَ، وَيَصِلُ الشُّكَّارَى

وَإِنْ أَرْوَاحَ الطَّاهِرِينَ، مِثْلَ شُعَاعِ الشَّمْسِ،

تَصِلُ مِنْ ذَلِكَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى إِلَى الْبُسْتَانِ^(١)

كَانَ شَمْسٌ يَقْتَرِبُ مِنْ بَابِ قُوْنِيَّةٍ وَقَدْ عَرِقَ وَجْهُهُ، وَانْهَدَّ جَسَدُهُ. الطَّوَّافُ الْمُتَجَوِّلُ الْمَشْرُدُ - أَوْ كَمَا يَقُولُ الْمُخَالَفُونَ لَهُ: شَمْسُ السَّاجِرِ، شَمْسُ الطَّيَّارِ - كَانَ عَازِمًا هَذِهِ الْمَرَّةَ عَلَى أَنْ يَضَعَ رُوحَ مَوْلَانَا وَقَلْبَهُ فِي اخْتِبَارٍ قَوِيٍّ، وَيَمَحَبَّتِهِ يُلْقِيهِ فِي أَتُونٍ يَظُلُّ طَوْلَ حَيَاتِهِ يُحْرِقُهُ فِي نَارِ الْاِشْتِيَاقِ، مِثْلَ طَائِرِ الْفِينِيْقِ^(*)، وَيَجْعَلُهُ رَمَادًا لَكِي يَمْدَحَ فِي شِعْرِهِ بِعَظَمَةِ وَاقْتِدَارِ مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ وَالْعِشْقِ. لَدَى شَمْسٍ هَذِهِ الْمَرَّةَ مُهِمَّةٌ تَمَثَّلُ فِي أَنْ يُحْرِقَ شَخْصِيَّةَ مَوْلَانَا فِي سِلْسِلَةِ تَجَارِبٍ قَاسِيَةٍ، وَيُوجِدَ لَهُ شَخْصِيَّةً أُخْرَى. كَانَ لَدَى شَمْسٍ مُهِمَّةٌ أَنْ يَخْتَبِرَ أَمَانَةَ مَوْلَانَا، وَحِلْمَهُ وَصِدَاقَتَهُ، وَإِيْمَانَهُ الَّذِي لَا يَتَزَعِزَعُ بِالْعِشْقِ، فَيَطْلُبَ مِنْهُ أُمَّ الْخَبَائِثِ [الْخَمْرَةَ] وَحَسَنَاءَ، وَمَوْلَانَا أَيْضًا يَمْلَأُ إِبْرِيْقًا وَيُحْضِرُهُ لَهُ. كَانَ لَدَى شَمْسٍ مُهِمَّةٌ أَنْ يَصْنَعَ مَوْلَانَا مِنْ جَدِيدٍ، وَبِقَفْزَةٍ مَفَاجِئَةٍ يَدْفَعُهُ نَحْوَ بُورَةِ النُّورِ. كَانَ عَلَى شَمْسٍ أَنْ يَقْرَأَ آخِرَ رِسَالَةٍ وَكَلَامٍ عَلَى مِسْمَعِ مَوْلَانَا؛ لَكِي يَقُولَ مَرَّةً أُخْرَى:

أَنَا أَبْكُمُ فِي مَنَامٍ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ صُمٌّ

أَنَا عَاجِزٌ عَنِ الْكَلَامِ، وَالْخَلْقُ عَاجِزُونَ عَنِ الْاِسْتِمَاعِ

عَلَى شَمْسٍ أَنْ يَعْرِضَ عَلَى مَوْلَانَا الْبِشَارَةَ الَّتِي فِي دَاخِلِهِ، أَوْ - كَمَا يَقُولُ هُوَ نَفْسُهُ -

١- ديوان شمس تبريز: القزلية ٨٢٠

* - طائرُ خُرَافِيٍّ يَمُوتُ مُحْتَرِقًا، لَكِنَّهُ يَعودُ حَيًّا مِنْ رَمَادِهِ دَائِمًا، لِأَنَّهُ كَائِنٌ مُتَجَدِّدٌ [المترجم].

أَكْثَرَ الْإِلَهَامَاتِ وَالْإِشْرَاقَاتِ تَأْثِيرًا، وَأَنْ يُدْنِدَنَّ فِي أُذُنِهِ: لَا تَغْتَمَّ أَيُّهَا الْغَالِي؛ فَأَنَا الْمَغْتَمُّ مِنْ أَجْلِكَ، وَأَنَا الْمَحْرَمُ لِسَالِكِي الطَّرِيقِ، وَالنَّجِيُّ لِمُسَاكِنِي الْعَرْشِ؛ لَكِي لَا يَدْعِي أَحَدٌ آخَرَ ادْعَاءَ سُلْطَانِ الْمَعْشُوقِينَ: أَيْوَجْدُ أَحَدٌ مِنْ خَاصَّتِكَ يَسْتَطِيعُ تَحْمِلَ صُحْبَتِي؟ كَانَ شَمْسٌ يَرِيدُ أَنْ يَجْقِفَ آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دُرْدِي خَمْرَةٍ «نَحْنُ» و «أَنَا» فِي وَجُودِ مَوْلَانَا^(١)، وَأَنْ يَحْمِلَ رُوحَهُ عَلَى أَجْنَحَةِ الْعِرْفَانِ الذَّهِيَّةِ، وَيَطِيرَ بِهِ نَحْوَ آلَافِ مِشْعَاتِ النُّورِ.

مَوْلَانَا وَخَدَهُ، فِي قُونِيَّةٍ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَمَّلَ قَوْلَ شَمْسٍ وَفِعْلَهُ. وَعَلَى شَمْسٍ فِي آخِرِ مُهِمَّاتِهِ فِي قُونِيَّةٍ أَنْ يَفْضُضَ الْخَتَمَ عَنِ الْقَلْبِ وَعَنِ اللِّسَانِ أَيْضًا^(٢)، وَأَنْ يَقُولَ لِمَوْلَانَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ؛ لَكِي يُزِيلَ عَنْ قَلْبِهِ صَدَأَ الظُّلْمَةِ وَالْكِبَرِ وَطَلَبَ الْجَاهِ، وَيَصْنَعَ الْأَنْغَامَ وَالْمَنْظُومَاتِ فِي الشَّاءِ عَلَى الْعِشْقِ وَالْمَعْشُوقِ وَالِاسْتِغْنَاءِ.

وَلَاَنْ شَمْسًا يَمْتَلِكُ أَهْلِيَّةَ الْقَوْلِ، لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ الْأَسْرَارِ عِنْدَ شَخْصٍ يَمْتَلِكُ أَهْلِيَّةَ الْاسْتِمَاعِ، وَأَنْ يَرْفَعَ الْأَسْتَارَ عَنْ وَجْهِ الْأَسْرَارِ^(٣). شَمْسٌ كَاسِرٌ لِلتَّقَالِيدِ، بَاحِثٌ يَنْشُدُ أَنْ يَضَعَ سُودَاءَ الْقَلْبِ أَمَامَ حَبِيبِهِ الصِّمِيمِ. وَهُوَ نَفْسُهُ يَقُولُ: إِنَّ قَلْبَ هَذَا الضَّعِيفِ (شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ) لَا يَنْزِلُ فِي أَيِّ مَكَانٍ، وَهَذَا الطَّائِرُ لَا يَلْتَقِطُ كُلَّ حَبَّةٍ، بَلْ يَطْلُبُ مُوَاسِيًا جَمِيلًا وَمُؤْنِسًا رَائِعًا. رَأَى شَمْسٌ مَوْلَانَا رَجُلًا عَجَبِيًّا. كَانَ لَدَى

* - أي يريد أن يحول ذاته من «الأنا» الدنيوية إلى «الأنا» العلوية أي أن ينفي ذاته القديمة، ليتحول بذات جديدة مصنوعة على عين الحق سبحانه، وفائقا لما قاله العلامة محمد إقبال:

جَذْبَنِي الذَّاتِ ذَاتًا لَا نَهَابَ اجْتَهِدْ، وَاللَّهُ يَهْدِيكَ الصَّوَابَ

[المترجم]

١- من «مقالات شمس».

٢- من «مقالات شمس»، ص ٤٥.

شمسٍ مُهِمَّةٌ في هذا اللقاء الأخير، هي أن يعرفَ نفسه لمولانا على حقيقته؛ لكي يدركَ رسالته جيّدًا، ويؤدّيها على نحوٍ دقيق. قال شمسٌ لمولانا مرّةً:

- إن لي زمامًا لا يجرؤ أحدٌ، أيّا كان، على الإمساك به إلا محمّدًا رسولَ الله. وهو أيضًا يُمسِكُ بزمامي بتقديرٍ وحسابٍ؛ عندما أكون مُختدًا وقاسيًا، أي عندما تدخلُ عِزَّةُ الدّزويش رأسي، لا يُمسِكُ بزمامي البتّة^(١).

ويعتقدُ شمسٌ أنّ النَّاسَ سيُدرِكُونَ معانيه جيّدًا [٢٥٦] بعدَ مُضيِّ ألفِ عامٍ^(٢). ويعدُّ نفسه بوضوحٍ إنسانًا كاملاً، ويرى أنّ مولانا في المستقبلِ مُضطرٌّ، كالقطرة، أن يقفَ أمامَ أمواجِ بحرٍ شبيهةٍ بالجبال. وهو يقدّمُ نفسه جهازًا على أنّه كيميائي^(٣)، ويدّعي قائلًا: إنّ وجودي كيميائي^(٤) لا يحتاجُ إلى صَبِّ النُّحاس. ومعَ هذا كلّهُ، شمسٌ في الطّريقِ لتكميلِ معارفه والبحثِ عن هدفه، هائمٌ على وجهه بحثًا عن صاحبٍ يقولُ له رسالته الأخيرة، ولهذا السّبب كان عنده أملٌ، بأن يرجعَ مرّةً أخرى إلى جلال الدّين لعلّه يستطيعُ أن يقتلعَ غَرْسَةَ محبّته مِن وجوده، أو يظلّ حتّى آخرِ عُمره أسيرَ محبّته أو داخلَ دائرته.

شمسٌ، هذا الرّجلُ الذي - في رواية جلال الدّين البلخي - لا يخشى أعاصيرَ البحار ورُعودها، لديه غمٌّ ثَقِيلٌ مُطْبِقٌ على قلبه، وهو يَصِفُ نفسه على هذا النحو:

١- من «مقالات شمس»، ص ٢٤١ - ٢٤٥.

٢- من «مقالات شمس».

* - أي شخصٌ قادرٌ على تحويلِ الفِليزات الناقصة إلى ما هو أكمل [المترجم].

** - أي مادةٌ تُوصَلُ بوساطتها الأجسادُ الناقصةُ إلى الكمال، والمرادُ هنا نظرُ المرشد الكامل الذي يرتقي بالسّالك من النقص إلى الكمال.

أَتَكُونُ حَالَةً قَلْبٍ أَكْثَرَ تَشْتِئًا مِنْ هَذِهِ الْحَالِ؟

أَوْ تَكُونُ حَادِثَةً أَكْثَرَ قَوْضَى مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ؟

وَفِي الْعَالَمِ، مَنْ رَأَى مُبْتَلًى

هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ فِي الزَّمَانِ أَكْثَرَ حَيْرَةً مِنْ هَذَا؟^(١)

شَمْسٌ مُكَلَّفٌ، فِي آخِرِ رَحْلَةٍ لَهُ، بِأَنْ يُنْهِيَ حَيْرَتَهُ وَاضْطِرَابَهُ وَتَشْتَّتَ ذَهْنَهُ. هَذَا الْمُنَادِي لِلْإِنْسَانِيَّةِ الدَّاعِي إِلَيْهَا، الَّذِي كَانَ يَرَى أَنَّ مَعْظَمَ الْمَسَرَّاتِ وَالْمَبَاهِجِ فِي احْتِقَارِ الشَّهَوَاتِ وَلَذَائِذِ النَّفْسِ، كَانَ يُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِ أَبِي يَزِيدَ الْبِسْطَامِيِّ وَالْحُسَيْنِ بْنِ مَنْصُورِ الْحَلَّاجِ، قَائِلًا: إِنَّهُ لَوْ كَانَ عِنْدَ أَبِي يَزِيدَ الْبِسْطَامِيِّ عِلْمٌ لَمَا قَالَ: «أَنَا»^(٢)، وَلَوْ كَانَ عِنْدَ الْحَلَّاجِ عِلْمٌ بِالْحَقِيقَةِ لَمَا قَالَ: «أَنَا الْحَقُّ»^(٣). وَتَأْسِيسًا عَلَى ذَلِكَ، عَلَى مَوْلَانَا أَنْ يُعَدَّ نَفْسَهُ لِأَنْ يَتَخَلَّى عَمَّا سَمِعَهُ وَقَرَّاهُ فِي شَأْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْخَرْقَانِيِّ وَمَشَايِخِ الْعِرْفَانِ الْآخَرِينَ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ شَمْسًا سَيُطِلُّ كُلُّ أَقْوَالِ هَؤُلَاءِ وَأَفْعَالِهِمْ. وَهُوَ يُعَدُّ كُلَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَكُلَّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْمُنْسُوبَةِ لِأَشْيَاخِ الْعِرْفَانِ، غِلَافًا، وَيَقُولُ: إِنَّ كُلَّ هَذِهِ السُّتُورِ وَالْحُجُبِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِالْإِنْسَانِ هِيَ أَغْلَفَةٌ، وَالسَّمَاوَاتُ السَّبْعُ غِلَافٌ لَهُ، وَكُرَّةُ الْأَرْضِ غِلَافٌ لَهُ أَيْضًا. وَمَا دَامَتِ الْمَعْرِفَةُ نَفْسُهَا حِجَابًا، فَكُلُّ شَيْءٍ حِجَابٌ. وَعَلَى شَمْسٍ، فِي رَجُوعِهِ إِلَى قُوْنِيَّةٍ، أَنْ يَمْزُقَ الْحُجُبَ وَالْأَغْلَفَةَ بِقُوَّةِ الْكَلَامِ وَالشُّهُودِ. [٢٥٧] يَقُولُ شَمْسٌ إِنَّ أَغْلَبَ خَاصَّةِ اللَّهِ تَعَالَى هُمْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ خَفِيفَتْ كِرَامَاتُهُمْ، لَا يَتَضَحُّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ كَيْفَ هُمْ مَخْتَفُونَ.

١- من «مقالات شمس»..

٢- مقالات شمس: ١٣٠/٢.

٣- مقالات شمس: ١٨٥/١.

مَوْلَانَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِكَيْ يَعْرِفَ الْكَرَامَاتِ، وَيَعْرِفَ جَيِّدًا رِجَالَ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ فِي حِجَابِ الْأَسْرَارِ. هَذِهِ الْمَرَّةَ، يَأْتِي شَمْسٌ إِلَى قُوْنِيَّةٍ بِأَدْعَاءٍ عَجِيبَةٍ. فَهُوَ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّبِيعَةِ، وَيُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ مَوْلَانَا هَذِهِ اللَّغَةَ. هَذِهِ الْمَرَّةَ، يَجِبُ أَنْ يَغَيِّرَ عَالَمَ الْفِكْرِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعَارِفِ عِنْدَ مَوْلَانَا؛ ذَلِكَ لِأَنَّ التَّعَلَّمَ فِي عَقِيدَةِ شَمْسٍ حِجَابٌ عَظِيمٌ. كُلُّ مَعَارِفِ مَوْلَانَا يَجِبُ، بِمَدَدِ كَلَامِ شَمْسٍ الْمُثِيرِ لِلْعَوَاصِفِ، أَنْ تَغْدُوَ صَحِيَّةً شُعْلٍ نَارٍ مُتَأَجِّجَةٍ؛ لِكَيْ يَنْمُو مِنْ رَمَادِهَا الْمَرْوِيُّ بِالْكِيمِيَاءِ السَّمَاءِيَّةِ، وَيُبَيِّنَ شَمْسٍ، أَزَاهِيرُ مُعْطَرَّةٌ وَمُلَوَّنَةٌ جَدِيدَةٌ. وَيَقْبُحُ شَمْسٌ جُمْلَةَ الْحُكَمَاءِ وَالْفَلَّاسِفَةِ، وَيَقُولُ: إِذَا كَانَتْ مَعَانِي أَفَلَاطُونَ وَالرَّازِي وَشِهَابِ الدِّينِ (*) جَدِيرَةً بِالْإِدْرَاكِ وَالْفَهْمِ مِنْ خِلَالِ التَّعْلِيمِ وَالْبَحْثِ، فَإِنَّ تَرَابَ الْعَالَمِ بِالضَّرُورَةِ لِأَبِي يَزِيدَ وَالْجُنَيْدِ.

وَسَيَتَلُو شَمْسُ التَّبْرِيزِيَّ فِي أُذُنِ مَوْلَانَا:

خُذْ مُلْكَ الْعَالَمَيْنِ؛ فَإِنِّي مَالِكُ الْمُلْكِ

وَتَعَالِ إِلَى حَفْلِ الطَّرَبِ وَالْأَنْسِ، فَقَدْ أَغْمَدْنَا السُّيُوفَ

إِنَّ آلَافَ الذَّرَاتِ، بِفَضْلِ هَذَا الْقُطْبِ، صَارَتْ شُمُوسًا

وَمَا أَكْثَرَ قُرَاضَاتِ الْقَلْبِ الَّتِي جَعَلْنَاهَا غَمْدًا!

نُعْطِيكَ جَنَاحًا لِكَيْ تَطِيرَ إِلَى الْفَلَكَ، كَالسَّهْمِ

إِذَا جَعَلْنَا الْجِسْمَ الْمُسْكِنَ قَوْسًا، مِنَ الْغَمِّ

* - يريدُ الإمامُ الفَخْرَ الرَّازِيَّ، وَشِهَابَ الدِّينِ السُّهْرَوَرْدِيَّ بِحَيٍّ بْنِ حَبِشَ بْنِ أَمِيرِكَ، أبا الْفَتْوحِ، صَاحِبَ الْمُصْتَفَاتِ الْكَثِيرَةِ، الَّذِي نُسِبَ إِلَى اخْتِلَالِ الْعَقِيدَةِ فِي حَلَبَ، فَقُتِلَ فِيهَا سَنَةَ ٥٨٧هـ، وَضُرِبَ بِهِ فِيهَا.

وإن كُنْتَ شَيْطَانًا، فَتَحْنُ نَجْعَلُ الشَّيْطَانَ مَلَكًا
 وإن كُنْتَ ذَبَّابًا، فَقَدْ جَعَلْنَا الذَّبَّ رَاعِيًا
 وَمَعَ أَتِكَ طَائِرٌ ضَعِيفٌ، أَطْلُبُ غُصْنًا مَرْتَفَعًا
 عَلَى شَجَرَةِ السَّعَادَةِ تِلْكَ، حَيْثُ جَعَلْنَا عُشًّا
 وَمَعَ أَنَّ السَّمَاءَ سَقْفٌ مَرْفُوعٌ، لَا تَقَرُّ
 ولماذا تَنْتَمُّ مِنَ الارتفاع وَقَدْ أَعَدَدْنَا سُلَمًا؟^(١)

مُبَارِزٌ عَنِيدٌ، عَارِفٌ مَتَفَوِّقٌ عَلَى مَشَايِخِ زَمَانِ جَلالِ الدِّينِ الْبَلْخِي، الَّذِي كَانَ
 دَائِمًا يَنْشُدُ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَنْبَعِ فَيَاضٍ مُفِيضٍ لِلرُّوحِ وَالْحَيَاةِ، يَقْتَرِبُ مِنْ مَدِينَةِ قُونِيَّةَ.
 وَأَنْهِيَ هَذَا الْبَحْثَ بِرَأْيِ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ وَوَجْهَةِ نَظَرِهِ فِي جَلالِ الدِّينِ الْبَلْخِي:
 [٢٥٨] «إِنْ سَأَلُوكَ: كَيْفَ عَرَفْتَ مَوْلَانَا؟ - فَقُلْ: أَتَسْأَلُ عَنْ قَوْلِهِ؟ قَوْلُهُ هُوَ: «إِنَّمَا أَمْرُهُ
 إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»؛ وَإِذَا سَأَلْتَ عَنْ فِعْلِهِ فَهُوَ: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»؛ وَإِذَا
 سَأَلْتَ عَنْ صِفَتِهِ فَهِيَ: «قُلُّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...»^(٢).

١- ديوان شمس تبريز الغزلية ١٧٣٠.

٢- مقالات شمس، ص ٤٦.

- وَصَلَ مِنْ جَدِيدِ ذَلِكَ الَّذِي هُوَ مَعْبُودِي الْفَتَانِ،
الَّذِي هُوَ السَّعَادَةُ لِي فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ وَفِي عَدِي.
- فِي نَظَرِهِ ضِيَاءُ رُوحِي
وَفِي خَدِّهِ بُسْتَانِي وَمُتَنَزَّهِي
- وَفِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ، تَرَامَى إِلَى سَمْعِهِ
صِيَاحِي وَتَغْيِيرِي وَنَحْيِي
(ديوان شمس تبريز: الغزلية ٢١١٦)

سُلوْكُ طَرِيقِ الْعِرْفَانِ الْعِشْقِي

كَانَ قَدْ وَصَلَ أَمْرٌ بِأَنْ يُكَلِّفَ شَمْسُ التَّبْرِيزِيَّ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ يَذْكُرَ الْأَقْوَالَ
الْجَدِيدَةَ بِالْقَوْلِ بَيَانٍ أَكْثَرَ إِمْتَاعًا وَعَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ عِرْفَانًا، وَمِنْ دُونِ إِبْهَامٍ، وَأَنْ يَبَيِّنَ ابْنَ
خُرَاسَانَ الْكَبِيرَةَ السَّعِيدُ الْمُؤْمِنُ أَسْرَارَ الْعِرْفَانِ الْإِيرَانِيَّ بِأَكْثَرِ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ انْسِيَابًا
وَجَاذِبِيَّةً. فَقَدْ جَاءَ مِنْ مَكَانٍ وَلَادَةِ الْعِرْفَانِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُعْلِنَ أَنَّ الْعِرْفَانَ عِنَصَرٌ ثَابِتٌ
وَوَجْهٌ مُشَخَّصٌ لِفِكْرِ أُسَاطِينِ الْفِكْرِ الْإِيرَانِيَّ. وَقَدْ جَاءَ شَمْسٌ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُعْلِنَ أَنَّ
الْحَقِيقَةَ لَهَا عُشٌّ فِي جَوْهَرِ الرُّوحِ، وَجَوْهَرِ الرُّوحِ لَهُ عُشٌّ فِي الْعِشْقِ. فَإِذَا كَانَ فِي
الْمَنْظُومَةِ الْفِكْرِيَّةِ لَجَلَالِ الدِّينِ الْبَلْخِي أَنْظَارًا أَوْ مَفَاهِيمَ غَيْرَ تِلْكَ الَّتِي تَنْطَوِي عَلَيْهَا
نَظَرِيَّاتُ شَمْسِ الْعِرْفَانِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُودِعَهَا مُسْتَوْدَعَ التَّارِيخِ؛ لِكَيْ يَنْبَثِقَ فِي
أَعْمَاقِ تَفَكُّيرِهِ شَوْقٌ وَحَرَارَةٌ وَهَيْجَانٌ. وَقَدْ قَالَ شَمْسٌ لَجَلَالِ الدِّينِ:

أَنَا قَاطِعُ طَرِيقِ الْعِيَّارِينَ

أَنَا الْغَنِيمُ، وَأَنَا الْغَيْثُ، أَنَسَكِبُ عَلَى الْمَرْجِ

وَشَمْسٌ هُوَ الْحَامِلُ لِلْوَاءِ فِكْرَةً أَنَّ التَّجَرِبَةَ الْحَسِّيَّةَ وَالْمَنْهَجَ الْعَقْلِيَّ يَسْتَطِيعَانِ
تَقْرِيبًا جَمْعَ مَقْدَمَاتٍ لِنَيْلِ مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ وَإِدْرَاكِهَا، أَمَّا الْوَاقِعُ الْحَقِيقِيُّ فَيُخَكِّمُ بِأَنَّ
الظُّفَرَ بِالْمَعْرِفَةِ الْحَقِيقِيَّةِ يَتَبَسَّرُ لِلْأَفْرَادِ عِنْدَمَا يَقْتَرِبُونَ مِنَ الْحَقِيقَةِ، وَيَتَّصِلُونَ بِهَا، مِنْ

طَرِيقِ الْإِيمَانِ الْمُخْضِرِ وَمَعْرِفَةِ الذَّاتِ وَالْمَيْلِ الْبَاطِنِيِّ.

[٢٦٠] عَلَى شَمْسٍ، فِي اللَّقَاءِ الْآخِرِ، أَنْ يُعَدَّ مَوْلَانَا لِأَنْ يُوصَلَ مَا يَجِيشُ فِي صَدْرِهِ، كَعَيْنِ الْمَاءِ، إِلَى أَسْمَاعِ النَّاسِ بِطَرِيقِ الْأَشْعَارِ الْمُطَرَّبَةِ الْعِرْفَانِيَّةِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ التَّحَرُّقَ وَالْهَيْجَانَ وَالْعِشْقَ لَا يُمْكِنُ تَصْوِيرُهَا إِلَّا بَوَسَاطَةِ الْأَشْعَارِ لِكَيْ تَغْدُو مُؤَثَّرَةً. يَشَاءُ شَمْسٌ أَنْ يَقُولَ لِمَوْلَانَا هَذِهِ الْحَقِيقَةُ، وَهِيَ: أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَيَتَشَغَّلَ بِإِصْلَاحِ بَاطِنِهِ؛ لِكَيْ يَطْلُعَ فِي هَذِهِ الْحَالِ عَلَى حَيَاةٍ عَظِيمَةٍ تَرْبِطُ بَيْنَ مُعْطَبَاتِ الْحِسِّ وَالذَّهْنِ (تَجَرَّدُ، وَاشْهَدِ الْمُجَرَّدُ).

كَانَ لَا بُدَّ لِشَمْسٍ^(١) مِنْ أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ، مِنْ طَرِيقِ مَوْلَانَا، أَنْ يُعَرِّفُوهُ فِي إِطَارِ

١- كَتَبَ الْمُسْتَشْفَرُ الْإِنْكَلِيزِيُّ نِيكَلْسُونُ فِي كِتَابِهِ «مَقْدَمَةُ لِلزُّوِّيِّ وَتَفْسِيرُ الْمُشْنَوِيِّ»، فِي شَأْنِ مَحَبَّةِ مَوْلَانَا الْقُوَّةِ لِشَمْسِ التَّنْزِيهِ [تَرْجَمَةُ أَوَانِيسِيَانِ وَتَعْلِيْقُهُ - بِالْفَارْسِيَّةِ]، قَوْلَهُ:

قَبْلَ أَنْ يَشِيرَ الزُّوِّيُّ إِلَى أَنَّهُ وَشَمْسُ التَّنْزِيهِ رُوحٌ وَاحِدٌ فِي بَدَنَيْنِ بَزْمٍ طَوِيلٍ، كَانَ نَوْعٌ مِنَ الْعِشْقِ الْعِرْفَانِيِّ الْأَفْلَاطُونِيِّ مَقْبُولًا عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ وَجُمْلَةِ الْإِخْتِلَافَاتِ الظَّاهِرَةِ فِي هَذَا الْإِتِّحَادِ بَيْنَ الْعَاشِقِ وَالْمَعْشُوقِ أَخَذَتْ تَحْتَفِي، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْوَحْدَةُ الْأَصْلِيَّةُ لِلْعِشْقِ، الَّتِي يَفْقَى فِيهَا وَجُودَ الْعَاشِقِ وَ«الْمَعْشُوقِ» أَحَدَهُمَا فِي الْآخَرِ. وَنَجْدُ الزُّوِّيِّ فِي دِيْوَانِ غَزَلِيَّاتِ شَمْسِ تَنْزِيهِ بِسْتَعْمَالِ اسْمِ شَمْسٍ عَلَى نَحْوِ يَبْدُوَانِ فِيهِ كَأَنَّهُمَا صَارَا شَخْصًا وَاحِدًا، وَتَحَوَّلَا إِلَى وَجُودٍ وَاحِدٍ. وَمَهْمَا أُمْكِنَ أَنْ يَبْدُوَ لَنَا وَجُودُ شَمْسٍ غَيْرِ وَاقِعِيٍّ، لَا يُمْكِنُ التَّسْلِيمُ بِعَقَائِدِ بَعْضِ الْمُحَقِّقِينَ الْجَدِّ الَّذِينَ تَذَهَبُ إِلَى أَنَّ شَمْسًا كَانَ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، نَتَاجِ الثُّبُوحِ الصُّوفِيِّ وَالشَّعْرِيِّ لِحِلَالِ التِّينِ، وَأَنَّهُ كَانَ يُعَدُّ «إِلَهَةً الشَّعْرِ» فِي بِلَادِ الشَّرْقِ. وَالَّذِينَ يَسْلَمُونَ بِهَذِهِ النَّظَرِيَّةِ، عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَجْهِ الْمُنْطَقِيَّةِ أَنْ يَعْتَدُوا صِلَاحَ التِّينِ زُرْكُوبَ وَحُسَامَ التِّينِ جَلِيًّا أَيْضًا «إِلَهَةً الشَّعْرِ». وَفِي هَذِهِ الْحَالِ، يَكُونُ لِزَوَامَا أَنْ يَحْظُنُوا اعْتِقَادَ أَنَّ سُلْطَانَ وَلَدَ اخْتَرَعَ ثَلَاثَ شَخْصِيَّاتٍ خَيَالِيَّةٍ لِكَيْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يُوضِّحَ تَفْصِيلًا الْوَقَائِعَ الْمَهْمَةَ فِي حَيَاةِ وَالِدِهِ، وَتَأْسِيسَ الْفِرْقَةِ الْمَوْلَوِيَّةِ وَطَلَبَةَ الْجَامِعَاتِ فِي الْغَرْبِ، الَّذِينَ يُطَالَعُونَ فِي مَوْضِعِ دِيْوَانِ «الْمُشْنَوِيِّ» سَيَتَذَكَّرُونَ نَظِيرًا لِهَذِهِ النَّظَرِيَّةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: أَلَمْ يَسْتَبْدِلْ دَانْتِي دُونَا جَنْتِلَ، الَّذِي كَانَ مَوْضِعَ عِشْقِهِ الشَّعْرِيِّ، بِحِكْمَةٍ سَمَاقِيَّةٍ، وَيَجْعَلُ اسْمَ بَاتَرِيْتَشِي مَحَلًّا لِلْمُنْحِ وَالْقَاءِ؟

وَمَهْمَا يُمْكِنُ، فَإِنَّ مَوْلَانَا يَعْتَقِدُ أَنَّ مَثْنَوِيَّهُ هُوَ دَكَاةُ الْوَحْدَةِ، فَكُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ الْوَاحِدَ لَيْسَ سِوَى صَنْمٍ. وَيَتَسَامَى الزُّوِّيُّ إِلَى مَا فَوْقَ مُعْتَرِكِ الْوُجُودِ، وَيَدْرِكُ أَنَّ كُلَّ التَّنَاقُضَاتِ وَالتَّنَابُذَاتِ نَاشِئَةٌ عَنْ وَجُودِ التَّقْصِ فِي التَّنَاقُمِ وَالْإِنْسَجَامِ الْكُلِّيِّ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْرِكَهُ إِلَّا الْعَارِفُونَ:

إِنَّ لِكُلِّ دَكَاةٍ تِجَارَةً خَاصَّةً بِهِ وَإِنَّ الْمُشْنَوِيَّ هُوَ دَكَاةُ الْفَقْرِ، يَا بُنَيَّ

العِلْمَ ومعرفةِ النَّفْسِ بآثِهِ مِمَثَّلٍ لِّلْعَالَمِ الْعُلُويِّ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَنْ يَدْرِكُوا الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّ لَوْجُودِهِ.

وَيَمِيلُ شَمْسٌ إِلَى أَنْ يَتَقَدَّمَ النَّاسُ إِلَى مَمْلَكَةٍ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ، وَيَحْصُلُ هَذَا التَّقَدُّمُ بِالتَّحَرُّرِ مِنْ طَوَقِ النَّفْسِ الشَّيْئَةِ بِالتَّعْبَانِ. فَالْقُرْبُ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ يَكُونُ عَلَى قَدْرِ التَّحَرُّرِ مِنَ [٢٦١] تَبَيُّنِ النَّفْسِ. شَمْسٌ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُفَهِّمَ مَوْلَانَا أَنَّ أَبْسَطَ شَيْءٍ نَشَاهِدُهُ فِي الْحَيَاةِ يَنْطَوِي عَلَى سِرٍّ. وَيَعْلَمُ شَمْسٌ أَنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا رَأَوْا الْأَيَّامَ الْمُظْلِمَةَ وَالْمُوجِعَةَ لِهَجُومِ الْمَغُولِ، وَلِلْحُرُوبِ الدَّمَوِيَّةِ الصَّلِيبِيَّةِ، فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَهُمْ طَرِيقَ الْأُخُوَّةِ وَالْمَرْوَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَمَعْرِفَةِ الذَّاتِ وَالْإِتِّحَادِ وَالْعَيْشِ الْمَشْتَرَكِ وَالتَّصَالِحِ، وَيَقُولَ لَهُمْ: لِأَنَّهُ لَا يَوْجَدُ فِي الدُّنْيَا شَرٌّ مُطْلَقٌ

بِإِلِ الشَّرِّ نَسَبِيٍّ، فَاَعْلَمُ ذَلِكَ أَيْضًا
وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَبَدًا سُوءٌ وَسُوءٌ
لَا يَكُونَانِ قَدَمًا لِأَحَدِهِمْ وَقِيدًا لِآخَرِ
فَمَا يَكُونُ قَدَمًا لِأَحَدِهِمْ يَكُونُ قِيدًا لِآخَرِ
يَكُونُ لِأَحَدِهِمْ سُوءًا، وَلِآخَرِ كَالسُّوءِ
فَسُوءُ الْحَيَاةِ يَكُونُ حَيَاةً لِنَاسِكَ الْحَيَاةِ
أَمَّا لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ مَوْتٌ^(١)

• إِنَّ أَجْمَلَ طَرِيقٍ، وَأَدَقَّ طَرِيقٍ يَنْبَغِي أَنْ يَسْلُكَهُ الْإِنْسَانُ نَحْوَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ مِنْ طَرِيقِ

= وَكَتَابُنَا «الْمُتَنَوِّي» هُوَ ذَاكَ الْوَحْدَةُ

وَكُلُّ مَا تَرَاهُ غَيْرَ الْوَاحِدِ، هُوَ صَنَمٌ

(الْمُتَنَوِّي: ٦/١٥٣١)

الْعِرْفَانِ، وَاضِحٌ عِنْدَ شَمْسٍ. فَعِنْدَهُ، أَنَّ الْفُنُونَ جَمِيعًا وَعُلُومَ الْمَعْقُولِ جَمِيعًا تَرْتَبِطُ بِهَذَا الطَّرِيقِ، شَرْطٌ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ قَابِلًا وَمُرِيدًا لِأَنْ يَسْلُكَ هَذَا الطَّرِيقَ. سُلوْكُ طَرِيقِ الْعِرْفَانِ الْعِشْقِيِّ سَيَهَبُ مَوْلَانَا هُوِيَّةَ أُخْرَى، وَسَيَكُونُ مَظْهَرًا لِأَعْظَمِ التَّغْيِيرَاتِ، وَمَعِينًا لِأَكْثَرِ الْإِلْهَامَاتِ امْتِلَاءً بِالْبَرَكَاتِ. يَعْلَمُ شَمْسٌ هَذَا، وَيَتَوَقَّعُ حُصُولَهُ، وَإِنَّ لَهُذَا السَّبَبَ عِنْدَمَا وَاجَهَ فِي طَرِيقِ مِثْقَلٍ إِلَى قُوْنِيَّةِ الْأَلَمِ وَالْوَجَعِ وَالْأَشْوَاكِ لَمْ يَأْذَنْ لِلْغَمِّ بِأَنْ يَجِدَ إِلَى قَلْبِهِ سَبِيلًا. وَمَعَ كُلِّ صُورِ الظُّلْمِ الَّتِي تَنْتَظِرُ شَمْسًا فِي قُوْنِيَّةِ، كَانَ غَيْرَ عَابِيٍّ، حَتَّى كَأَنَّ رُوحَهُ كَانَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ يَسْمَعُ نِدَاءَ سَمَاوِيًّا يَقُولُ: سَارِعْ إِلَى الْمَعشُوقِ. وَإِذَا كَانَ شَمْسٌ قَدْ دَفَعَ مَوْلَانَا إِلَى الْكَفِّ عَنِ الْبَحْثِ وَالْمُنَاطَرَةِ وَالْمُنَاقَشَةِ مَعَ أَهْلِ الظَّاهِرِ، وَعَنِ الْقِيلِ وَالْقَالَ فِي الْمَدْرَسَةِ، فَقَدْ حَقَّقَ أَمْرًا عَظِيمًا.

إِنَّ آفَةَ الْإِدْرَاكِ هِيَ تِلْكَ الْحَالُ وَذَلِكَ الْقَالَ

وَعَسَلُ الدَّمِّ بِالدَّمِّ مُحَالٌ مُحَالٌ

وَكُلُّ مَا نَقُولُهُ، يَا نَفْسَ الْوُجُودِ، عَنِ الْوُجُودِ

اعْلَمْ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ بِهِ حِجَابًا آخَرَ عَلَيْهِ

[٢٦٢] وَمُسَلَّمٌ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ أَهْلِ الْعِلْمِ:

أَنَّ الْمَحْرُوكَ لَكَ مُحَرَّرٌ

شَاءَ شَمْسٌ، بِالْبَرْنَامِجِ الَّذِي نَظَّمَهُ، أَنْ يَنْشِئَ فِي دَارِ الْعِلْمِ فِي قُوْنِيَّةِ مَدْرَسَةٍ لِعِلْمِ الْإِنْسَانِ، وَلِلْعِشْقِ وَتَأْمَلِ الذَّاتِ. وَكَانَ شَمْسٌ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ، فِي مَدْرَسَةِ الْعِشْقِ وَالْعِرْفَانِ فَقَطْ، يَتَسَبَّغُ النَّاسُ لِأَلَامِهِمْ وَأَوْجَاعِهِمْ، وَيَسْعَوْنَ لِلانْطِلَاقِ نَحْوَ أَنْوَارِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ. مُحِبُّو اللَّهِ تَعَالَى، وَخَدَمُهُ، يَعْلَمُونَ الْغَرَضَ مِنَ الْحَيَاةِ. شَمْسٌ، الَّذِي هُوَ مُوجِدُ انْقِلَابٍ

فِكْرِيَّ وَرُوحِيَّ وَأَخْلَاقِيَّ فِي مَوْلَانَا، عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَرَّةُ أَنْ يَكْشِفَ الْأَسْتَارَ عَنْ أَسْرَارِ عَالَمِ الْقَلْبِ، وَيَقُولَ لَهُ: إِنَّ كُلَّ مَوْضُوعٍ أَدْرَكُهُ مِنَ الْعَالَمِ حَتَّى الْآنَ يَكُونُ قَدْ رَفَعَ عَنْهُ سِتْرًا عَلَى نَحْوِ نِسْبِيٍّ. وَبِتَعْبِيرٍ آخَرَ، لِأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ مِنَ الْوُجُودِ، يَكُونُ كُلُّ مَا ذَكَرَهُ أَوْ فَكَّرَ فِيهِ قَدْ وَضَعَ بِهِ حِجَابًا عَلَى وَجْهِ الْوُجُودِ. وَابْتِغَاءَ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِي لِعَالَمِ الْخَلْقِ وَالْكَائِنَاتِ، لَا بَدَّ مِنَ الْارْتِبَاطِ بِالْعُشَاقِ الْحَقِيقِيِّينَ وَنَاطِظِي مَدِيحِ الْأَطْهَارِ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ. فَهَؤُلَاءِ يَرَوْنَ نُورَ الْحَيَاةِ. وَعِنْدَ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ، مَوْلَانَا وَحَدَهُ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى الظَّفَرِ بِكُلِّ تَجَلِّيَاتِ الْعِشْقِ وَإِلْهَامَاتِهِ الْمُخْتَلِفَةِ. فَمَوْلَانَا هُوَ الْحَارِسُ لِمَعْبَدِ الْعِرْفَانِ، وَهُوَ أَيْضًا الَّذِي سَيُخَلِّدُ آرَاءَ شَمْسٍ وَنَظَرِيَّاتِهِ وَفِكَرَهُ فِي تَارِيخِ الْعِرْفَانِ الشَّرْقِيِّ، بِوَسَاطَةِ كِتَابِهِ الْمُسْتَجَادِ «الْمَشْنُوءِ»، وَدِيَوَانِهِ الْكَبِيرِ [دِيَوَانِ شَمْسِ تَبْرِيزِ]، بِمَا فِيهِ مِنْ وَصْفٍ دَقِيقٍ لِلْهِجَاوِيَّاتِ وَالْوُجُودِ الْعِشْقِيِّ، وَسَيَعَكُسُ فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ الْأَنْوَارَ الْخَالِدَةَ لِلْحَقِيقَةِ. لَكِنَّهُ لَا يَنْبَغِي نِسْيَانُ أَنَّ مَوْلَانَا هُوَ الَّذِي اسْتَطَاعَ، بِالْقُوَّةِ الْخَلَّاقَةِ لِلْعِشْقِ، أَنْ يَأْتِيَ بِشَمْسٍ، الَّذِي كَانَ كَالطَّيُورِ الْمُنْطَلِقَةِ بِحُرِّيَّةٍ فِي السَّمَاءِ، إِلَى كُوْخِهِ فِي قُوْنِيَّةٍ، أَسِيرًا وَمَسْحُورًا وَمَجْذُوبًا وَعَاشِقًا. وَإِنَّ هَذِهِ الرُّوحَانِيَّةَ وَالْجَاذِبِيَّةَ لَدَى مَوْلَانَا، هِيَ الْقَادِرَةُ عَلَى أَنْ تُزِيلَ صَدَأَ الْكُدُورَةِ عَنْ قَلْبِ شَمْسِ الْحَسَّاسِ، وَهِيَ الَّتِي اضْطَرَّتْهُ إِلَى أَنْ يَنْتَقَلَ مِنْ بَادِيَةٍ إِلَى بَادِيَةٍ، وَيَسْتَسْهَلَ صُعُوبَاتِ السَّفَرِ، وَأَنْ يَبْتَغِدَ عَنِ الْحِمَى الْعِرْفَانِيِّ الْمَضْطَرِمِ فِي دِمَشْقَ، وَيَأْتِيَ إِلَيْهِ بِتَوَقُّعٍ وَعِشْقٍ؛ لَكِي يَتَّصَلَ نُورُ الشَّمْسِ بِالشَّمْسِ.

- وَصَلَ مَوْكِبُ شَمْسٍ إِلَى مَدِينَةِ قُوْنِيَّةٍ. بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، بَعْدَ خَمْسَةِ عَشَرَ شَهْرًا مِنَ الْفِرَاقِ، وَشَهْرٍ مِنَ السَّفَرِ الْمُتَعَبِ الْهَادِ لِلْجَسَدِ، وَصَلَ إِلَى قُوْنِيَّةٍ مُرْشِدُ جَلَالِ الدِّينِ وَقُطْبُهُ.

مَوْلَانَا أَيْضًا مِنْذُ الْبَدْءِ، وَقَفَ أَمَامَ أَنْوَارِ شَمْسِ الْمَدْهَشَةِ. وَقَدْ انْتَهَى اللَّيْلُ

المُخْرِقُ لِلرُّوحِ، وَدِيجُورُ الْفِرَاقِ. خَفَّتْ صَوْتُ مَوْلَانَا الشَّاكِي مِنْ تَبَارِيحِ الْفِرَاقِ، فِي قَلْبِ [٢٦٣] أَمْوَاجِ الزَّمَانِ، وَفِي مَكَانِ ذَلِكَ اسْتَبَدَّتِ الْأَشْوَاقُ وَالْهَيْجَانَاتُ بِقَلْبِهِ. وَأَوْصَلَ صَوْتُ النَّايِ وَالرَّبَابِ، الْجَمِيلُ النَّغْمَةِ، رَجَعَ تَرْحِيبِ مَوْلَانَا إِلَى أُذُنِ شَمْسٍ بِتَحَبُّبٍ، عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

مَا هَذَا، مَا هَذَا؟ - هَذَا جُنُونُ الْعَاشِقِينَ

فَفِي نُورِهِ صَارَ وَجْهُ الْأَرْضِ أَجْمَلَ مِنَ السَّمَاءِ

أَهَذَا ذَهُولُ الْأَزْوَاجِ، أَمْ جَوْهَرُ الْمَنَاجِمِ؟

أَمْ سَرُّو الْبَسَاتِينِ، أَمْ صُورَةُ الرُّوحِ الْأَمِينِ؟

بِسْمِ اللَّهِ يَا رُوحَ الْبَقَاءِ؛ بِسْمِ اللَّهِ يَا خُلُوقَ الْلِقَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ يَا شَمْسَ الضُّحَى؛ بِسْمِ اللَّهِ يَا عَيْنَ الْبَقِينِ

الْشَّمْسُ تَحْتَ ظِلَالِهِ زَادَ رَصِيدُهَا

وَمِثَّةُ قَمَرٍ، وَسَطَ بَيْدَرِهِ، تَلْتَقِطُ الْحَبَّ كَالنَّسْرِ الطَّائِرِ^(١)

دَخَلَ مَوْلَانَا فِي حَالٍ مِنَ الْاهْتِيَاجِ وَالنَّشَاطِ. وَأَصَابَتْ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ نَظْرَاتِهِ النَّافِذَةَ، أَمَامَ الْأَنْوَارِ السَّاطِعَةِ لِسِيْمَاءِ شَمْسٍ. وَكَانَ الْمَتَعَبُ فِي مِخْرَابِ الْعِشْقِ قَدْ أَحْمَدَ لِلْحَفَظَاتِ بَطِيئَةَ كُلِّ صَجَةٍ تَحْتَ سَمَاءِ قُرُونَةِ الزَّرْقَاءِ. وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ، بَدَأَ الْأَمْرُ كَأَنَّ حَرَارَةَ ضُرُوبِ الشَّرُورِ كُلِّهَا فِي الدُّنْيَا قَدْ أَحَاطَتْ بِكُلِّيَّةِ وَجُودِ مَوْلَانَا، وَكَانَتْ ضُرُوبُ الشَّرُورِ هَذِهِ تَنْهَلُ فِي صُورَةِ قَطَرَاتٍ دَمْعٍ مِنْ عَيْنَيْهِ. كَانَ يَنْتَظِرُ بِاشْتِيَاقٍ، وَسَطَ دُمُوعِ الشُّوقِ، وَصَوْلَ ضَيْفِ دَارِ الْقَلْبِ:

مَنْذُ أَنْ طَلَعَ شُعَاعُ شَمْسِ التَّبْرِيزِ مِنَ الشَّرْقِ

صَارَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ رُوحًا خَالِصًا، أَيْهَا الْعُشَاقُ^(١)

لَفَّ صَمْتُ مُقَدَّسٍ قُونِيَّةٍ كُلَّهَا، وَالتَقَّتِ الْقُدْرَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ فِي عَالَمِ الْعِرْفَانِ، وَظَهَرَتْ صُورَةُ مَلَكُوتِيَّةٍ عَلَى بَوَابَةِ قُونِيَّةٍ^(٢)، كَأَنَّهُ شَارَكَ فِي تَنْظِيمِ [٢٦٤] هَذِهِ الصُّورَةَ كُلُّ قَوَى الطَّبِيعَةِ. شَمْسُ الَّذِي كَانَ كِيَانُهُ كُلُّهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْإِخْلَاصِ، يَأْتِي رَاكِبًا جَوَادًا أَبْيَضَ، يَهْدُوهُ، وَقَدْ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ السَّهَرِ وَالرِّيَّاحِ وَالْعَوَاصِفِ فِي الطَّرِيقِ. مَعْشُوقَانِ لَقِيَا أَحَدُهُمَا الْآخَرَ تَحْتَ شَمْسٍ مُتَصَفِّهِ النَّهَارِ الْمُحْرِقَةِ، الَّتِي كَانَتْ تَسْطَعُ عَلَى رَأْسَيْهِمَا. كَانَ أَحَدُهُمَا رَاكِبًا، وَالْآخَرُ مَاشِيًا... كَانَ شَرِيطُ الذِّكْرِيَّاتِ يَمُرُّ أَمَامَ ذَاكِرَةِ كُلِّ مِنَ الْعَارِفِينَ الْعَاشِقِينَ، وَمَعَ كُلِّ تَحْرِيكَةٍ إِلَى الْأَمَامِ يَعْرِضُ مَنَاطِرَ بَاعِثَةٍ عَلَى الْعِبَرَةِ، مِنَ اللَّقَاءِ الْمَاضِي. مِنْ جَدِيدٍ، أَخَذَتْ قُونِيَّةٌ صُورَةَ مَحْفَلٍ لِلْعِشْقِ. وَمَعَ كُلِّ صُورِ الظُّلُمِ الَّتِي اقْتَرَفَهَا جَمَاعَةٌ مِنَ أَهْلِ قُونِيَّةِ الْقَسَاةِ فِي جَانِبِ شَمْسٍ، تَنَاسَى هُوَ كُلُّ شَيْءٍ، وَرَهَنَ قَلْبَهُ لِعِشْقِ مَوْلَانَا، وَلِيَكُنْ مَا يَكُونُ^(٣).

١- ديوان شمس تبريز الغزلية ١٩٥٥.

٢- أنشد مولانا في ديوان شمس في هذا الشأن قولاً:

تَعَالِ، تَعَالِ، يَا مَعْشُوقِي، يَا مَعْشُوقِي	ادْخُلْ، ادْخُلْ فِي عَمَلِي، فِي عَمَلِي
أَنْتَ أَنْتَ رَوْضَةُ أَزْهَارِي، رَوْضَةُ أَزْهَارِي	أَذِغْ، أَذِغْ أَسْرَارِي، أَسْرَارِي
أَيْنَ أَذْهَبَ تَذْهَبَ مَعِي، تَذْهَبَ مَعِي	وَفِي كُلِّ مَنْزِلٍ أَنْزِلْ فِيهِ تَغْدُو خُلُصِي، تَغْدُو خُلُصِي
وَفِي النَّهَارِ وَاللَّيْلِ أَنْتَ مُؤْنِسِي، أَنْتَ مُؤْنِسِي	وَلِشِبَالِكَ صَيِّدِي أَنْتَ غَزَالُ جَمِيلٍ، أَنْتَ غَزَالُ جَمِيلٍ
يَا سَمْعِي، أَنْتَ لَأَلَاءُ جِدًّا، لَأَلَاءُ جِدًّا	وَفِي بَيْتِي أَنْتَ كَالنَّافِذَةِ، أَنْتَ كَالنَّافِذَةِ
وَسَهْمُ الْبَلَاءِ إِذَا وَصَلَ، إِذَا وَصَلَ	فَأَنْتَ الثُّرُوسُ، وَأَنْتَ الدَّرْعُ، أَنْتَ الدَّرْعُ

(ديوان شمس تبريز الغزلية ١٧٨٦)

٣- الْيَوْمَ جِئْتُ نَيْلًا، فَفَضَّخْتُ الْأُمُورَ هَيَّا اسْتَعْمِلْ يَا سَمْعَ الرُّوحِ، يَا مَنْ خَلَصْتَ مِنْ عَارِ الْقَالِبِ =

أَوْجَدَ وَفُودُ شَمْسٍ وَلِقَاؤُهُ مَوْلَانَا وَالْمُخَالَفِينَ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَدْعَنُوا لَهُ، عَاصِفَةً
فِي الْمُحِيطِ الْهَادِي الْعَظِيمِ لِلرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ.

= وقد أَحْرَقْتُ هَذِهِ الْحَبْرَةَ، وَرَفَضْتُ الْحُلُقِي وَقَبُولَهُمْ
مِثْلَ رُوحِ تَقْدِي حَبِيبِي، فَهُوَ تَاجِي وَهُوَ عِمَامَتِي

فَقُلْ: أَهْدَأْ يَا أَبَا الْعَلَاءِ، وَاحْتَدَّ يَا أَبَا الْحَسَنِ
وَأَنَّ الْجَنَّةَ تَغَارُ مِنِّي إِذَا دَخَلْتُ فِي الْأَثْوَنِ
(دِيْوَانِ شَمْسِ تَبْرِيزِ: الْغَزَلِيَّةُ ١٧٩٦)

- أَفْنِي بَرِّكَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَدَيَّ صَبْرٌ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا
وَلَمْ تُعِدَّ السَّاءَ وَالْأَرْضُ تَتَحَمَّلَانِ أَلَمِي.
- أَنَا ثَوِيلٌ، وَأَفْنِي بَرِّ أَلْفِ عَامٍ،
فَإِنَّمَا أَنْ تُغِيضَ عَيْنَكَ، وَإِنَّمَا أَنْ تَفْتَحَهَا وَتَرَى جِيدَنَا.
(ديوان شمس تبريز: الغزلية ١٨٣٢)

مُغْنِي الْكَمَالِ الْمَطْلُوقِ

شَمْسٌ هُوَ الْمُغْنِي وَالْخَادِمُ الْمَخْلُصُ لِلْكَمَالِ الْمَطْلُوقِ، وَالْخَيْرِ الْمَطْلُوقِ. صَارَ
الْجَمَالُ الْمَطْلُوقُ وَالْعِشْقُ الْمَطْلُوقُ مُتَأَمِّلًا لِعُقُولِ النَّاسِ وَبِصَائِرِهِمْ. وَلَيْسَ لِمَوْلَانَا
الْجُرْأَةُ عَلَى أَنْ يَتَلَفَّظَ وَيَتَحَدَّثَ. كَانَتْ لِحَفَاطَتِ الْمَوْجِ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَى الْأَذَانِ
أَعَذَبَ الْأَصْدَاءِ. وَإِذْ مَزَجَ مَوْلَانَا الْإِخْلَاصَ وَالصَّفَاءَ الْعِزْفَانِيَّينَ، وَأَخْفَى الْكَلَامَ
الْمَنْطَوِيَّ عَلَى الشَّفَقَةِ الْعَمِيقَةِ وَالْعِشْقِ الضَّارِبِ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ، قَالَ:

- مَرْحَبًا بِكَ يَا شَمْسُ^(١)، مَرْحَبًا بِكَ، أَحْسُ مَرَّةً أُخْرَى بِأَتْنِي، بِتَأْثِيرِ حَرَارَةِ شَمْسِ
وَجُودِكَ وَجَادِبِيَّةِ كَلَامِكَ، أَوَاصِلُ حَيَاتِي الْمُثِيرَةِ. كَانَتْ صَيِّحَةُ التَّرْحِيبِ بِشَمْسِ
التَّبْرِيزِيِّ قَدْ هَزَّتْ حَتَّى جَسَدَ مَوْلَانَا الْمُنْهَكَ، وَجَسَدَ مُرَادِهِ [شَمْسًا]. وَهَذِهِ الْأَصْوَاتُ
الَّتِي تَرَامِي إِلَى الْأَسْمَاعِ مِنْ حَنَاجِرِ عُشَّاقِ شَمْسٍ أَيْضًا، جَعَلَتْ مَوْلَانَا أَكْثَرَ سُكْرًا، فَقَدْ
أَضَاءَ شُعَاعُ الشَّمْسِ كُلَّ نَاحِيَةٍ. كَانَ النُّورُ يَنْتَشِرُ مِنَ الْفَضَاءِ. أَدْرَكَ النَّاسَ عَظَمَةَ الْحَقِيقَةِ،
وَتَجَلَّيْهَا، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى نَحْوِ رَائِعٍ. أَحَدُ مُحِبِّي مَوْلَانَا صَرَخَ:

١ - يَعْتَقِدُ الْأُسْتَاذُ الذَّكَتَرُ مُحَمَّدٌ رِضَا شَفِيعِي كَذِكْنِي فِي مَقْدَمَتِهِ اللَّطِيفَةِ لِكِتَابِهِ «كَزِيدُ دِيوَانِ شَمْسٍ» أَنَّهُ «إِذَا
كَانَتْ الْوَلَادَةُ الْعَانِيَةُ لِمَوْلَانَا نَتَاجَ لِقَائِهِ شَمْسًا، فَإِنَّ خُلُودَ اسْمِ شَمْسٍ أَيْضًا مُحْصُولُ لِقَائِهِ مَوْلَانَا، مَعَ أَنَّ شَمْسًا كَانَ
مِنَ الْمُتَحَرِّرينَ، إِذْ يَقُولُ: «افْتَرَضَ أَنْ لَا تَبْقَى لِي هَذِهِ الشَّهْرَةُ»، فَمَاذَا سَيَحْدُثُ؟».

(غَزَلِيَّاتُ شَمْسِ تَبْرِيزٍ، ص ١٢).

- «اعْرِفُوا اللَّهَ بِاللَّهِ». وَنَعَرَ آخَرُ:

[٢٦٦] «الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ».

هذه الأصوات والكلمات المحببة، التي تفيض من القلوب، كانت أنشودة مقدسة أعادت شمسًا إلى وعيه، فتمتم:

- ما أجمل الإنسان الذي يعدل الأقاليم السبعة والوجود كله! (١)

وبغته، استولى على مولانا هيجان عجيب، فمضى مسرعًا نحو شمس، لكن قدميه لم تكن لديهما القدرة على أن تحملاه، ولهذا السبب وقع مولانا على الأرض، فانحنى الناس الخائفون على وجهه. عينا مولانا نصف مفتوحتين، وشفته تنفرجان، ولسانه أخذ يتحرك، فيقول بمحبة:

- شمس، شمس، شمس التبريزي! كأن لطف الله وانجذاب الإنسان، في تلك الدقائق، اختصرا في هذه الكلمات الأربع.

كان المستقبلون يساعدون، ويرقبون، مولانا بانتباه. شمس الذي كان قد حوصر وسط أمواج أهل قونية ينزل عن جواده. في هذه اللحظات ينحس الكلام، وينظر العاشق والمعشوق أحدهما إلى الآخر مبتسمًا، لعل القدرة المبهمة للعشق تنقل كلامهما القلبي على نحو سحري.

كان الناس يهللون، ويشرون النفل وشكر النبات والورد، شروا بمقدم شمس، وكانت الدموع ترتجف في مقلتي شمس. نعم، دمع الشوق.

كان لقونية في تلك اللحظات جلال وعظمة من ضرب آخر، كانت مملوءة

بالهيجان والشُّرور. وفي وَسْطِ صَجِيجِ النَّاسِ وصياحهم، كان مَوْلانا وشمسُ
يتمشيان. والأمرُ كما يقولُ شاعرٌ غربي: إِنَّ مُصَوِّراً نَارِيَّ القَلَمِ، وخَدَه الذي يَقْدِرُ
على أن يَصوِّرَ هذا المشهَدَ بِسِحْرِ الفَنِّانِ، في مكانٍ واحدٍ.

توقَّفَ شَمْسٌ أمامَ شَرِيطِ الزَّمانِ المهترِّ، فتذكَّرَ الماضي، فعادتِ الفِكرُ المُرَّةُ
الموجودةُ في أعماق وجوده. تذكَّرَ الأَيَّامَ واللَّيالي التي كان يعيشُها في قُوْنِيَّةٍ بِقَسْوَةٍ ومَرارة.
الفِكرُ المؤلمةُ الآتيةُ مِنَ الماضي أوجدتْ في جَبْهَتِهِ تقبُّضاتٍ وتجاعيدَ،
واضطربَ توازُنُ قَدَمَيْهِ. في رِحْلَتِهِ الأولى إلى قُوْنِيَّة... في ذلك الوقتِ، كان قد وَجَدَ
على قارعة طريقه ثلاثة دَراهِمَ، فقالَ في نَفْسِهِ: توفرتْ تكاليفُ الإقامة، في زَمانِ الفقرِ
والاستغناء، وفي ذلك الوقتِ كان الدَّزْهَمُ الواحدُ يُعَادِلُ عِشرينَ ومِئَةً وخَدَةَ نقدية
أصغر. وكان رَغِيفُ الخُبْزِ [٢٦٧] يُشْتَرى بِوَخْدَةٍ نقدية واحدةٍ مِنْ هذه الوَحَدَات. وكان
شَمْسٌ في كُلِّ لَيْلَةٍ يَأْكُلُ نِصْفَ رَغِيفٍ، ويتصدَّقُ بِنِصْفِ آخَرَ عَلَى مُسْكِينٍ أو بائسٍ.

تذكَّرَ الأَيَّامَ واللَّيالي التي نَزَلَ فيها في خان بائعي السُّكَّرِ في قُوْنِيَّة، واستأجَرَ حُجْرَةً.
وفي تلك الأَيَّامِ، كان يَضَعُ على باب حُجْرَتِهِ قُفْلاً كبيراً، وكان يَضَعُ المفتاحَ المربوطَ
بِزَاوِيَةٍ مِنْدِيلٍ صَغِيرٍ قِيَمَ على كَتْفِهِ؛ لِكَيْ يَتَخَيَّلَ النَّاسُ أَنَّهُ تاجِرٌ كبير، بينما لا يَوجَدُ في
حُجْرَةِ شَمْسٍ على الحقيقةِ سِوَى حَصِيرٍ قديمٍ وإبريقٍ مكسورٍ ووسادةٍ مِنْ أَجَرٍ خامٍ،
حتى إِنَّه ظَلَّ لِمُخْمَسَةِ عَشْرٍ يَوْمًا بَلِيَالِيها يُفْطِرُ على أرغفةٍ خُبْزٍ يابسةٍ مَثْرودةٍ بالماءِ.

ذِكْرِيَّاتُ الماضي، واحدةٌ إثرَ الأُخْرَى، كانتْ تمرُّ أمامَ باصِرَتِي شَمْسٍ الحادِثِي
النَّظَر... في الأَيَّامِ التي كان قد وَصَلَ فيها مِنْ قَيْصَرِيَّةَ إِلَى آفِ سَراي (*) أَقامَ في

* - قَيْصَرِيَّةُ وآفِ سَراي من مدن الأناضول القريبة من قُوْنِيَّة في تَرْكِيَّة [المترجم].

المسجد، وَحَدَّثَ مَرَّةً بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ أَنَّ قَالَ لَهُ مُؤَذِّنُ الْمَسْجِدِ: اتْرُكِ الْمَسْجِدَ فَوْرًا، وَاذْهَبْ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ لِلْإِقَامَةِ، فَقَالَ شَمْسٌ لِمُؤَذِّنِ الْمَسْجِدِ بِتَرْجٍ:

- أَنَا رَجُلٌ غَرِيبٌ، فَاسْمَحْ لِي بِالْبَقَاءِ، أَنَا لَا أَطْمَعُ بِشَيْءٍ، دَعْنِي أَرْتَحَ هُنَا لِلَّيْلَةِ وَاحِدَةً. فَأَمْسَكَ الْمُؤَذِّنُ بِتَلَايِبِ شَمْسٍ وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ. لَمْ يَقُلْ شَمْسٌ شَيْئًا، وَلَمْ يَقَاوِمْ، وَتَرَكَ الْمَكَانَ. انْهَلَتْ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي شَمْسٍ بَغْتَةً. لَا يَتْرُكُ الْغَمُّ وَالْغُصَّةُ، فِي آيَةٍ صُورَةٍ مِنَ الصُّورِ، قَلْبَ شَمْسٍ، مَعَ أَنَّ قَلْبَهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَرِيحَ:

قُلْتُ: لِمَاذَا صَارَ الدَّمْعُ عِنْدَكَ أَحْمَرَ كَالدَّمِ؟

كَيْفَ سَأَلْتُ؟ - أَصْدُقُكَ الْقَوْلَ كَيْفَ صَارَ؟

قَلْبِي يَصُوبُ دَمْعًا كَالدَّمِ بِسَبَبِ عِشْقِكَ

وَعِنْدَمَا فَاضَ هَذَا الدَّمْعُ خَرَجَ مِنْ رَأْسِي

وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ قَالَ مَوْلَانَا لِشَمْسٍ بِلَهْجَةِ أَمِيرَةٍ:

- لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَفَكَّرَ بِالْمَاضِي، خَاصَّةً بِالزَّمَانِ الْمُرَّ الْمَتَّهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي

هَذِهِ اللَّحَظَاتِ الْعَظِيمَةِ يُصَفَّى وَيُنَقَّى مِنْ أَجْلِ أَنْ نَحْنُ الْآثِنِينَ:

قَالَ: انْظُرْ إِلَيَّ، وَامْلَأْ قَلْبَكَ بِالسُّرُورِ

لَا تَنْظُرْ إِلَى نَفْسِكَ أَبَدًا، أَيُّ مُعْجَبِي^(١)

كَانَ مَوْلَانَا وَشَمْسٌ يَتَمَشَّيَانِ أَحَدُهُمَا إِلَى جَانِبِ الْآخَرِ بِتَوْدَةٍ مَسْرُورَيْنِ. نَسِيَ

الصُّوفِيُّ الْمَتَجَرِّدُ، شَمْسُ الطَّيَّارِ، الْمَاضِي مُسْتَجِيبًا لِأَمْرِ مَوْلَانَا. كَانَ النَّاسُ [٢٦٨]

يَمْضُونَ مُسْرِعِينَ كَالظَّلِّ وراءَ هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ اللَّذَيْنِ يُعَدُّ أَحَدُهُمَا زِينَةَ الْمِحْرَابِ،
وَالْآخَرُ سِرَاجَ الْخَانِقَاهِ.

سَأَلَ شَمْسُ مَوْلَانَا: كَيْفَ أَمْضَيْتَ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ؟

- نِمْتُ مُتَصِفَ اللَّيْلِ، ثُمَّ بَعْدَ سَاعَةٍ نَهَضْتُ مِنْ فِرَاشِي لِكَيْ أُنْشِغَلَ بِالمَطَالَعَةِ.
تَنَاوَلْتُ دِيوَانَ الْمُتَنَبِّي، وَأَخَذْتُ بِالقِرَاءَةِ. وَمَرَّةً أُخْرَى، ذَهَبْتُ لِلنَّوْمِ. رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ
أَنِّي فِي مَدْرَسَةٍ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَأَنِّي مُنْشَغِلٌ بِبَحْثٍ عَظِيمٍ، وَبِغَتَّةٍ رَأَيْتُكُمْ
أَمْسَكْتُمْ بِلِخْيَةِ الْمُتَنَبِّي وَجِئْتُمْ بِهِ إِلَيَّ وَسَأَلْتُمُونِي بِانْزِعَاجٍ:

- تَقْرَأُ دِيوَانَ هَذَا الرَّجُلِ؟ - تُطَالِعُ كَلَامَ هَذَا الرَّجُلِ الصَّغِيرِ؟ - كَانَ الْمُتَنَبِّي رَجُلًا
نَحِيلًا، وَكَانَ يَتَضَرَّعُ وَيَتَوَسَّلُ: أَنْقِذْنِي مِنْ يَدِ شَمْسِ الدِّينِ التَّبْرِيزِيِّ، وَأَلْقِ هَذَا الْكِتَابَ
الَّذِي هُوَ مِنْ آثَارِي فِي النَّهْرِ، وَانْسَ كُلَّ مَا قَرَأْتَ؛ لِكَيْ أُرْتَاحَ أَنَا عَلَى الدَّوَامِ مِنْ عِتَابِ
شَمْسٍ وَخِطَابِهِ.

ارْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةٌ عَلَى شَفَتَيْ شَمْسٍ، وَسَكَتَ، وَأَطْرَقَ مُفَكِّرًا.

سَأَلَ مَوْلَانَا شَمْسًا:

- فِي دِمَشْقَ، بِمَ اشْتَغَلْتَ؟

- قَضَيْتُ فِي الرِّيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ، فِي حُجْرَةٍ فِي إِحْدَى الْمَدَارِسِ، أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهْرًا.

- وَكَيْفَ عَزَفْتَ عَنِ الرِّيَاضَةِ؟

- فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، وَأَنَا فِي حُجْرَتِي، تَرَامَى إِلَى سَمْعِي: إِنَّ لِنَفْسِكَ أَيْضًا حَقًّا عَلَيْكَ.

فَوَرًّا تَرَكْتُ الرِّيَاضَةَ وَالْانْزَوَاءَ، وَجِئْتُ إِلَى سُوقِ دِمَشْقَ، وَانْضَمَمْتُ إِلَى مَجْلِسٍ.

سَكَتَ شَمْسٌ لِلْحَظَّةِ، ثُمَّ قَالَ لِمَوْلَانَا: لِمَ تَسْأَلُ عَنْ سُلْطَانٍ وَلَدٍ، ابْنِكَ؟ نَسِيتَ

مَحَبَّةَ ابْنِكَ الْحَنُونِ وَيُبْعِدُهُ عَنْكَ بِسَبَبِ لِقَائِي...؟

- إِنَّ الْاِشْتِيَاقَ لِلِقَائِكَ اضْطَرَّنِي إِلَى أَنْ أَنْسَى كُلَّ الَّذِينَ يَعْرِفُونَنِي وَأَعْرِفُهُمْ، حَتَّى سُلْطَانًا وَلَدَ. بَعْدَئِذٍ عَانَقَهُ مَوْلَانَا، وَقَبَّلَ وَجْهَهُ الشَّاحِبَ، ثُمَّ وَقَفَ وَبَصَوَتْ مَرْتَجِفٍ طَلَبَ إِلَى ابْنِهِ أَنْ يَحْضُرَ، وَقَالَ:

- أَيُّ بَنِيٍّ، فِي حَيَاتِي كُلِّهَا لَمْ أَكُنْ مَسْرُورًا وَطَيِّبَ الْخَاطِرِ فِي يَوْمٍ، بِمَقْدَارِ مَا أَنَا عَلَيْهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ. وَهَذَا السُّرُورُ وَالِابْتِهَاجُ أَتَيْتَ بِهِ أَنْتَ هَدِيَّةَ الْمَسَافِرِ [أَرْمَغَانَ - بِالْفَارْسِيَّةِ] لِي. مَلَأْتَ قَلْبَ وَالدِّكَ الشَّيْخِ بِالِاهْتِيَاجِ وَالتَّوَتُّبِ، فَقَدْ أَرْجَعْتَ إِلَى قُوْنِيَّةِ الْعَارِفِ الَّذِي تَجَلَّتْ فِيهِ صِفَاتُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ، وَكُنْتُ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ أَنْوَحُ وَأَبْكِي لِفِرَاقِهِ [٢٦٩]. أَعْلَمُ أَنَّكَ مَتَعَبٌ جِدًّا، لَكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْآلَمَ فِي طَرِيقِ الْعِشْقِ كَثُرَ. مَا حَيْثُ لَنْ أَنْسَى تَفَانِيكَ وَإِبْثَارَكَ. فَرَدَّ سُلْطَانًا وَلَدَ، الَّذِي كَانَ مُتَعَبًا وَمُنْهَكًا:

- لِمُدَّةٍ شَهْرٍ عَلَى التَّمَامِ كُنْتُ أَتَقَدَّمُ رَاجِلًا فِي مَوَكِبِ شَمْسٍ، وَفِي هَذِهِ الْمُدَّةِ مَرَضْتُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وَلَكِنِّي بِجَسَدِي الَّذِي اسْتَبَدَّتْ بِهِ الْحُمَّى وَاصَلْتُ الطَّرِيقَ وَالرَّحْلَةَ؛ ابْتِغَاءً أَنْ أَنْفِذَ أَمْرَ جَنَابِكَ، عَلَى مَا يُرَامُ.

- بَقِيَّةُ الرِّفَاقِ، كَيْفَ حَالُهُمْ؟

- كُلُّهُمْ عَادُوا سَالِمِينَ، وَخَدِي أَنَا احْتِرَامًا لِشَمْسٍ لَمْ أَمُتْ جَوَادًا طَوَالَ الطَّرِيقِ، وَكُنْتُ أَتَقَدَّمُ فِي الطَّرِيقِ مَاشِيًا عَلَى قَدَمِي. أَنَا، أَيْضًا، مِثْلَكُمْ مُرِيدٌ لِشَمْسٍ. شَمْسٌ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، عَالَمٌ آخَرٌ وَإِنْسَانٌ نَادِرٌ وَجَمِيلٌ. إِنْسَانٌ مُلْهِمٌ، وَقَدْ أَدْرَكْتُ قَدْرَهُ وَمَنْزِلَتَهُ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ، جَيِّدًا.

مِنْ سَمَاعِ هَذَا الْكَلَامِ، ارْتَسَمَ تَفَتُّحٌ مُحَبَّبٌ عَلَى أَسَارِيرِ وَجْهِ مَوْلَانَا، وَبَدَأَ كَانَ

ذَرَاتِ كِيَانِهِ كَانَتْ تَتَوَثَّبُ وَتَلْتَهَبُ، مِمَّا يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ مِنْ وَجْدٍ وَشُرُورٍ وَنَشَاطٍ.
اعتقادُ سُلْطَانٍ وَلَدٍ، إِيْمَانُهُ الْحَارَّ جِدًّا بِمَوْلَانَا شَمْسِ الدِّينِ التَّيْرِيزِيِّ، جَعَلَ
مَوْلَانَا جَلَالَ الدِّينِ أَكْثَرَ أَمَلًا بِمُسْتَقْبَلِ الْإِنْسَانِ وَالْعِرْفَانِ. فَسَأَلَ سُلْطَانٌ وَلَدٌ:
- كَيْفَ وَجَدْتَ شَمْسًا فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ؟

- عَلَّمَنِي شَمْسُ اللَّهِ فِي جِبِلَّةِ الْإِنْسَانِ بَخْرَانِ مُتَوَارِيَانِ: أَحَدُهُمَا بَحْرُ السَّرِّ وَالْآخَرُ
بَحْرُ الْقَلْبِ. مِنْ بَحْرِ السَّرِّ تَخْرُجُ لَالِيُ الْمُشَاهَدَةِ وَالْمَعَايِنَةِ؛ وَمِنْ بَحْرِ الْقَلْبِ يَخْرُجُ
مَرْجَانُ الْمُكَاشَفَةِ. أَيُّ أَبْنَاءَهُ، إِنَّ مَوْلَانَا شَمْسًا، بِنِيرَانِ الْاِسْتِيَاقِ الَّتِي أَخْرَقَتْكُمْ
وَجَعَلَتْكُمْ رَمَادًا، أَلْقَانِي فِي أَتُونِ الْمَحَبَّةِ، مِثْلَ سَمَكَةٍ رُمِيَ بِهَا فِي الْيَابَسَةِ. قَالَ لِي
شَمْسٌ: كُلُّ اعْتِقَادٍ حَرَكَ نَفْسَكَ، وَهَزَّ طَبْعَكَ، احْتَفِظْ بِهِ. وَأَضَافَ قَائِلًا:

انْظُرْ إِلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ بِنُورِ الْعِشْقِ. عَلَّمَنِي شَمْسٌ أَيْضًا، أَنَّهُ عَلَى وَجْهِ الْبَسِيطَةِ أَعْدَادٌ
هَائِلَةٌ (مِنْ أَلْحِنَ وَالْإِنْسِ لَمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ أَعَيْنَ لَا يُصَوِّرُونَ بِهَا وَلَمْ أَدَاكُنْ لَا يَسْمَعُونَ
بِهَا أَوْلَيْكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) ^(١) سَيِّلًا مِنَ الْأَنْعَامِ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَاشِقِينَ أَوْ مُحِبِّينَ.
الْعِشْقُ، وَالْإِنْسَانُ الْعَاشِقُ، مَنَبْعُ غَزِيرٍ لَأَكْثَرِ الْإِلَهَامَاتِ بَرَكَةً. وَهَذَا مَبْعَثُ أَتْنِي، مِثْلَكُمْ،
بَايَعْتُ شَمْسًا، وَسَاطَلْتُ دَائِمًا مُرِيدًا مُخْلِصًا لَهُ. شَمْسٌ مَلْتَزِمٌ بِالْإِيْمَانِ وَالْاِعْتِقَادِ الصَّحِيحِ
إِلَى حَدِّ الْإِخْلَاصِ التَّامِّ، وَمَجْتَمِعٌ فِي وَجُودِهِ كُلِّ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ.

أَيُّ أَبْنَاءَهُ، اعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ الْكَامِلَةَ لِلْمَعْشُوقِ الْإِلَهِيِّ، الَّتِي كُنْتَ تَبْحَثُ عَنْهُ
[٢٧٠] عَلَى امْتِدَادِ سِنِينَ، هُوَ نَفْسُهُ - عَلَى الْحَقِيقَةِ - الَّذِي كَشَفْتَهُ أَنْتَ جِدًّا:

مِنْ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ، شَمْسِ الدِّينِ، ظَفَرْتُ بِكَاسٍ

وَفِي دَاخِلِ كَاسِهِ وَجَدْتُ شَمْسًا

وَعِنْدَمَا عَثَرْتُ دَاخِلَ طَرَّتِهِ عَلَى مَا يَدِهْشُ الْقَلْبَ
 دَخَلْتُ فِي الْمِسْكِ فَوَجَدْتُ عَنَبَرًا
 فَاَنْظُرُ وَنَسْطَ طَرَّتِهِ إِلَى وَجْهِ مُشْرِقِ كَالنَّارِ
 فَقَدْ وَجَدْتُ وَنَسْطَ الْمِسْكِ وَالْعَنَبَرِ مَجْمُورًا
 وَعِنْدَمَا نَظَرْتُ، كَانَ رَأْسِي مَمْلُوءًا مِنْ عَشْقِهِ

إِذْ وَجَدْتُ خَارِجَ الْعَالَمَيْنِ كِلَيْهِمَا مَنْظَرًا أَخَذَا^(١)

فِي مَتَصَفِّ الطَّرِيقِ، قُلْتُ لِشَمْسِ الدِّينِ التَّبْرِيزِيِّ الْعَارِفِ الْمُتَجَرِّدِ: عِنْدَمَا حَدَّثَ
 فِي الْمَاضِي أَنْ اعْتَرَضَ أَهْلُ قُوْنِيَّةٍ عَلَى مَجِيئِكُمْ، وَأَخَذُوا يَنَالُونَ مِنْكُمْ وَيُكْثِرُونَ مِنْ
 الْقِيلِ وَالْقَالَ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُطَّلِعِينَ عَلَى سِرِّ الْعِشْقِ وَالْفِكْرِ الْعِرْفَانِيَّةِ.
 مِنْ نَاحِيَةِ الْمُعَارَضِينَ لَكُمْ، هُنَاكَ مَتَهَوِّرُونَ وَحَاسِدُونَ أَسْلَمُوا زِمَامَ أُمُورِهِمْ لَعَدَدٍ مِنْ
 الْمُتَشَدِّدِينَ الْعُمَيَّانِ الْقُلُوبِ. وَالْمُؤَسِّفُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ الْعِرْفَانَ الْعِشْقِيَّ ضَرْبًا مِنْ
 الْاضْطِرَابِ الْأَخْلَاقِيِّ وَتُشْدَانِ اللَّذَّةِ وَالْبَهْجَةِ. عِنْدَ أَصْحَابِ هَذِهِ الرُّؤْيَا، صِلَةُ
 الْإِنْسَانِ بِإِنْسَانٍ آخَرَ أَمْرٌ غَيْرٌ وَاقِعِي. كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ شَيْئًا مَحِيرًا وَيَحْمِلُ مَعْنَى
 مُخْتَلَفًا. أَمَّا أَكْثَرُ مُجِبِّي وَالِدِي، فَكَانُوا عَارِفِينَ أَنَّ الْعِشْقَ انْجِدَابٌ وَحَرَكَةٌ نَحْوَ
 الْمَجْهُولَاتِ. الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ بِالْاِسْتِعْدَادَاتِ الَّتِي لَا تُقَدَّرُ بِثَمَنِ
 لِرُوحِ الْإِنْسَانِ، تَقَبَّلُوا الْعِشْقَ بِقَبُولٍ حَسَنٍ بِكُلِّيَّةٍ وَجُودِهِمْ؛ لِأَنَّ الْعِشْقَ وَخَدَهُ مِنْ بَيْنِ
 أَحْلَامِ الْحَيَاةِ يَظَلُّ شَفَافًا وَخَالِدًا^(٢).

١- ديوان شمس تبريز: الغزالية ١٦٠١.

٢- جاء في «مقالات شمس» أَنَّ شَمْسَ التَّبْرِيزِيِّ - قَبْلَ الْوُفُودِ إِلَى قُوْنِيَّةٍ، وَقَبْلَ ذَهَابِ سُلْطَانِ وَلَدٍ إِلَيْهِ - كَانَ قَدْ
 كَتَبَ رِسَالَةً مَفْصَلَةً لِحَالِ الدِّينِ، فِيمَا يَأْتِي نُقْلُهَا بِإِجْمَالٍ:

= «يكون معلوماً عند مولانا أن هذا الضعيف [شئساً نفسه] مشغولٌ بالدعوة إلى الخير، ولا يختلط بأي إنسان؛ لأن أحوال كل واحدٍ صارت معروفةً عند حضرتكم، والأحباء يكونون عرضوا عليكم الأمر. لكن، يوجد درويش عزيزٌ حي القلب، وهكذا إذا اطلع مولانا على حقيقة حاله فإني أعلم أنه ينظر إليه على نحو لا يتوأنى فيه في إعزازه وإكرامه. ومنذ عشرة أعوام، كان للداعي [شئس] هنا معرفة له ومحبة، وعندما ذهب إلى دمشق، كانت هناك أيضاً محبة واضحة. وهذا الداعي [شئس] ليس مقلداً، ومحبو حضرتكم يكونون قد سيعوا كلام هذا الضعيف، وقد رأيت درويش أعزاء كثيرين، وظفرت بلقائهم ومعرفتهم، وعرفت الفرق بين الصادق والكاذب منهم، قولاً وعملاً، فلا أخدع بأحد إن قلب هذا الضعيف لا يحيط في أي مكان، وهذا الطائر لا يلتقط كل حبة. ١. مقالات شمس، ص ٧٨٣ - ٨٤.

- أَلَا فَلْتَرْقُصْ فِي عَشِقِ رُوحِي، أَيُّهَا الْخَلِصُ الْخَنُونُ
 أَيُّهَا الْمَطْرِبُ، اضْرِبْ عَلَى الدُّفِّ، وَلَا مَحَنَةَ غَيْرُ هَذِهِ
 - وَارْقُصْ أَمَامَ مُحِبِّ قَمَرِنَا نَيْلًا، مَرَّةً وَاحِدَةً.
 أَيُّهَا الْمَطْرِبُ، بِاللَّهِ عَلَيْكَ، اضْرِبْ عَلَى الدُّفِّ بِلَحْنِ حَزِينٍ
 - أَيُّهَا الْمَطْرِبُ، ذَكَرْتَ أَنْتَ اسْمَ شَمْسِ الدِّينِ
 وَشَمْسِ الدِّينِ
 فَاخْتِطَفْتَ مِنْ رَأْسِي، مَرَّةً وَاحِدَةً، الْعَقْلَ وَالذِّينَ
 (ديوان شمس تبريز)

السَّمَاعُ رَاحَةً لِلرَّوْحِ

فِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ، بَدَأَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ عُشَّاقِ شَمْسٍ وَمَوْلَانَا بِإِجْرَاءِ السَّمَاعِ،
 فَكَانُوا يَدُورُونَ وَيَرْقُصُونَ بِدِقَّةٍ وَرَشَاقَةٍ وَهَدْوٍ، كَالطَّيْرِ فِي رِيَاضِ الْأَزْهَارِ. كَانَتْ
 أَيْدِيهِمْ، عَلَى إِبْقَاعِ الدُّفِّ وَالنَّايِ وَالزَّبَابِ، تُشِيرُ إِشَارَاتٍ رَمَزِيَّةً إِلَى مَرْكَزِ الشَّمْسِ.
 كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَرِيدُونَ أَنْ يَجِدُوا مَقْصُودَهُمْ وَعِشْقَهُمْ وَمَطْلُوبَهُمْ الَّذِي يَحْلُمُونَ بِهِ فِي
 عَيْنِ الشَّمْسِ. كَانَ عَازِفُ النَّايِ يَعْرِفُ بِتَحَبُّبٍ، وَالْمَطْرِبُ يَغْنِي:

بِرُؤْيِي النَّايِ حَدِيثَ الطَّرِيقِ الْمَمْتَلِيِّ بِالدَّمِ
 وَيُقْصُصُ حِكَايَاتِ الْأَلَمِ الْمَجْنُونِ
 فَرُؤْيَا النُّورِ تَتَّبِعُهَا رُؤْيَا اللَّسُونِ
 وَأَنْتَ سَرْعَانَ مَا تُذَكِّرُ ذَلِكَ بِضِدِّ النُّورِ
 وَقَدْ خَلَقَ الْحَقُّ الْأَلَمَ وَالْحُزْنَ

لِكَيْ تَتَضَحَّ لَكَ سَعَادَةُ الْقَلْبِ بِهَذَا الضَّدِّ^(١)

المتفرجون، ومنهم شمس ومولانا، توقفوا قليلاً، وأخذوا ينظرون إلى التركيبِ

الْعِرْفَانِيَّ وَالْمَلَكُوتِيَّ لِلْعِشْقِ، وَازْدَادَ الْوَجْدُ وَالْحَالُ وَالْهِيجَانُ الَّذِي يَعِيشُونَ تَحْتَ وَطْأَتِهِ. كَانَ دَوْرَانُ الشَّمْسِ مُتَنَاعِمًا مَعَ دَوْرَانِ أَحِبَّاءِ مَوْلَانَا، وَالْمُشْتَاقُونَ جَمِيعًا كَانُوا يُحْسِنُونَ فِي دَاخِلِهِمْ بَهْجَانِ رُوحِيٍّ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ وَالْحَشَائِشَ وَالْأَشْجَارَ عَلَى امْتِدَادِ طَرِيقِ الْمُسْتَقْبَلِينَ بَدَأَتْ بِالتَّحَرُّكِ وَالْاهْتِرَازِ.

[٢٧٢] هَبَّتْ أَنْسَامُ مُتَنَصِّفِ النَّهَارِ، وَصَاحَبَتْهَا أَيْضًا رِيَّاحُ الشَّمَالِ، حَتَّى كَأَنَّ الزُّهْرَةَ - مَعَ أَنْغَامِ النَّايِ - أَخَذَتْ تَرْقُصُ بِتَدَلُّلٍ فِي السَّمَاءِ. بَدَأَتْ الْحَيَاةُ تَرْتَدِي ثِيَابَ الْعِظَمَةِ وَإِنَارَةَ الْعِشْقِ، فَقَدْ كَانَ الْجَمِيعُ يَرْقُصُونَ، وَقَدْ أَضْرَمَ صَوْتُ النَّايِ النَّارَ فِي وَجُودِ السَّامِعِينَ. الرَّاqِصُونَ الدَّائِرُونَ حَوْلَ أَنْفُسِهِمْ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَطِيرُونَ وَسَطَ السَّحَابِ وَفِي فِضَاءَاتِ السَّمَاءِ. فَمَنْ ذَلِكَ الَّذِي سُكِّبَتْ قَطْرَةٌ مِنْ شَرَابِ الْمَحَبَّةِ الزَّلَالِ الْمُسْكِرِ عَلَى قَلْبِهِ، وَسَمِعَ هَذِهِ الْأَلْحَانَ، وَلَمْ يُسَلِّمْ نَفْسَهُ إِلَى السَّمَاعِ طَائِعًا؟

مِنْ النَّايِ، أَلْقَى فِي يَدِنَا الْبَرْقَ

وَمِنْ هَذِهِ الْجَادَّةِ، أَلْقَى هَيْجَانًا فِي الْقُلُوبِ

وَبَتَّ أَثِيرَ يَاسَمِينَ أَنْفَاسِهِ

تَكَمَّلَتْ أَعْضَاؤُهُ تَمَامًا

وَلَوْ لَمْ تَكُنِ النِّعْمَةُ دَمْعَةً حَائِرَةً مُتَبَخَّرَةً

أَتَى لَهَا أَنْ تَنْسَكِبَ مِنْ عَيْنِ النَّايِ دَائِمًا؟!

وَلَا أَحَدَ غَيْرَ النَّايِ، فِي هَذَا الْجَمْعِ

يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ الْحُرِّيَّةِ

لَا شَيْءَ، مَا خَلَا السَّمَاعَ، فِي مَقْدُورِهِ أَنْ يَكْشِفَ أَسْرَارَ الْقَلْبِ؛ وَأَصْدَاءُ رُوحِ

الإنسان لا يمكن سماعها إلا بصوت الناي. مَنْ ذا الذي لا يسمع هذا الصوت أثناء السماع؟ كانت القلوب تحترق بنار المحبة والعشق، وكان الدّائرون يشربون شراب الأُنس في جام القدس.

صار شمس ومولانا مسحورين ومجدوبين برؤية أولئك الدّائرين، وكانت قونية في حالٍ من السماع والشكر والهجّان. استمر الرقص فوق بساط الخضرة والتراب من جانب أهل السماع - الدّوران المتواصل حول النفس أدخل الجميع في هيجان وسكر عميقين. بسط هؤلاء أذرعهم، لكي يسوقوا الأرواح إلى عالم ما فوق الطبيعة. ومن في وسعه أن يطفى الشعلة التي أشعلها العشق في يدي شمس ومولانا؟ نسي شمس عناء الطريق، وتعلقت عيناه بوثبات أقدام الأَجبة، باشتياق كبير. وبغته، ومن دون اختيار، صرخ، وقال:

- يا مولانا، سلّم بأن السماع راحة لأرواح الأحياء، إذ يعلم الإنسان أن له روحاً للروح. السماوات السبع والأرض، والخلق جميعاً، يشرعون بالرقص عندما يبدأ عاشق [٢٧٣] بالرقص^(١). ورقص الرجال والعشاق لطيف ورشيق، كأنه ورق الشجر الذي ينساب على صفحة الماء. هم في داخلهم كالجبال الراسيات، وفي ظاهرهم كالقش تذروه الدّاريات. أما مولانا الذي سكر من كلام مُرشده، فقد هز رأسه وقال: كل من يتجه إلى حفل أنس العشق، تفتح نافذة روحه نحو طلعة الحقيقة الجذابة. ذو التّون المصريّ والشّبليّ والتّوريّ جميعاً أغمضوا أعينهم في أثناء السماع، فلأت جلال الدّين يغدو كذلك أيضاً. إلهي، تعلم كم أنا مسرور! إلهي، من مثلي يكون قد

اخْتَارَ هَذَا الْعَمَلُ وَهَذَا الْأُسْلُوبُ؟ - أَنَا وَخُدِي اخْتَرْتُ خِوَانَ ضِيَاغَتِكَ الْمَبْسُوطَ.

لَمْ يَتَعَبْ عَازِفُ النَّايِ مِنَ الْعَزْفِ، وَصَارَ الْعُشَّاقُ بِتَأْثِيرِ أَنْغَامِ النَّايِ فِي حَالٍ شَبِيهَةٍ بِالسُّكْرِ. وَقَدْ تَحَوَّلَ هَذَا الْمَكَانُ، يَعْنِي قُوْنِيَّةً، إِلَى قَاعِدَةٍ عَظِيمَةٍ لِمَجَالِي الْحَقِيقَةِ وَتَظْهَرَاتِهَا. فَعَلَى كُلِّ لِسَانٍ ذِكْرٌ، وَفِي كُلِّ قَلْبٍ تَهَيُّجٌ، وَفِي كُلِّ رُوحٍ عَشْقٌ، وَفِي كُلِّ زَاوِيَةٍ تَحَرُّقٌ وَتَضَرُّعٌ، وَعِنْدَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلَمٌ وَذَوْبَانٌ.

شَمْسَانِ كَانَتَا تَطْلُعَانِ عَلَى قُوْنِيَّةٍ مِنْ مَطْلَعِ الْغَيْبِ: شَمْسُ جَمَالِ الْفَلَكَ، وَشَمْسُ جَلَالِ شَمْسٍ؛ تِلْكَ الْأُولَى تَسْطَعُ عَلَى أَجْزَاءِ الْأَرْضِ، وَهَذِهِ الثَّانِيَةُ عَلَى دَوَرَاتِ الرَّاقِصِينَ؛ تِلْكَ الْأُولَى عَلَى بَسَاطِ الْخُضْرَةِ وَالْأَزَاهِيرِ، وَهَذِهِ عَلَى قُلُوبِ عَاشِقِيهِ الْمَفْتُونِينَ؛ لِكَيْ يَغْدُوا أَكْثَرَ اشْتِعَالًا وَلَهْفًا وَافْتِنَانًا.

بَدَأَ أَيْضًا تَغْيِيرُ مَوْلَانَا، إِذْ كَانَ يَهْمُ بِأَنْ يَدْخُلَ حَلْقَةَ الْهَائِمِينَ الدَّائِرِينَ، وَيَشْرُ الْوَرُودَ، وَيُلْقِي الشَّرَابَ فِي الْكَأْسِ، وَيَشْقَ سَقْفَ الْفَلَكَ، وَيَهْدِمُ بُيْنَانَ الرِّبَاءِ، ثُمَّ فِي النِّهَايَةِ يَبْدَأُ سَمَاعَهُ الْعِرْفَانِيَّ. وَقَدْ لَاحَظَ ابْنُهُ سُلْطَانُ وَلَدَ تَغْيِيرِ وَالِدِهِ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُعْطِيَ ذَرِيعَةً لِلْمُتَعَصِّبِينَ الْبُلْهَاءِ، الَّذِينَ كَانُوا مِنْ بَعِيدٍ وَاقْرِبٍ يَنْظُرُونَ بِكَرَاهِيَةٍ إِلَى دَوَرَانِ الْعُشَّاقِ، لِكَيْ لَا يُظْهَرُوا رَدًّا فِعْلٍ جَاهِلٍ. وَلِهَذَا السَّبَبِ، طَلَبَ إِلَى الْمَغْنَنِ أَنْ يُعْطُوا بِأَصْوَاتِهِمِ الْجَمِيلَةَ عَلَى أَنْغَامِ النَّايِ وَالرَّبَابِ. وَقَدْ بَدَأَ الْقَوَالُ الْعَاشِقُ غِنَاءَهُ بِالْأَشْعَارِ الْآتِيَةِ الَّتِي تَبَعَتْ فِي الْقُلُوبِ اشْتِيَاقًا وَتَحَرُّقًا. وَعِنْدَئِذٍ تَوَقَّفَ الْجَمِيعُ عَنِ الرَّفْقِ، وَأَخَذُوا يَسْمَعُونَ بِكُلِّيَّةٍ وَجُودِهِمْ. وَهَكَذَا غَنَى الْمُنْشِدُ:

- أَيُّهَا الْمُطْرِبُ، اعْرِفْ بِرَفْقٍ لِكَيْ يَعُودَ الرُّوحُ إِلَى الْجَسَدِ.

وَعِنْدَمَا تَعْرِفُ، اعْرِفْ عَلَى اسْمِ شَمْسِ الدِّينِ التَّبْرِيزِيِّ.

- إِنَّ اسْمَ شَمْسِ الدِّينِ فِي أَذُنِكَ خَيْرٌ مِنَ الْجِسْمِ وَالرُّوحِ.

[٢٧٤] اِسْمُ شَمْسِ الدِّينِ كَالشَّمْعِ، وَرُوحِي كَصَخْرِ الشَّمْعِ .

. أَيُّهَا الْمُطْرِبُ، بِاللَّهِ عَلَيْكَ، لَا تَذْكُرْ عَلَى لِسَانِكَ غَيْرَ شَمْسِ الدِّينِ

وَاعْرِضْ عَلَى الْجَسَدِ وَالرُّوحِ وَصِفْهُ، تَنْ تَنْ تَنْ تَنْ

. لِكَيْ تَغْدُوَ صُورَتَكَ هَذِهِ رَاقِصَةً نَحْوَ السَّمَاءِ،

وَلِكَيْ يَغْدُوَ رُوحُكَ الطَّاهِرُ هَذَا مُحَرِّقًا لِلْأَسْتَارِ، وَنَشِيطًا وَثَابِتًا

. لَا تَقُلْ إِلَّا: شَمْسُ الدِّينِ، شَمْسُ الدِّينِ، شَمْسُ الدِّينِ

لِكَيْ تَرَى الْمَوْتَى قَدْ رَقَصُوا فِي الْأَكْفَانِ.

. صَفَقَتْ شَقَاتُ النُّعْمَانِ، وَرَقَصَ الْيَاسَمِينُ،

وَتَمَّةٌ سَوَسَنَةٌ صَغِيرَةٌ ثِمْلَةٌ نَقُولُ: «وَمَاذَا يَكُونُ الْيَاسَمِينُ نَفْسُهُ؟»^(١)

كُلُّ شَيْءٍ فِي لَحَظَاتِ الْهَيْجَانِ وَالشُّوقِ هَذِهِ كَانَ صَامِتًا، وَكَلِمَاتُ الْمَصَارِيعِ الْمُغَنَّاةِ كَانَتْ رَسُولًا لِفِكْرِ عَالِيَةٍ وَرَفِيعَةٍ، هِيَ الْمِخْوَرُ لِلْحَرَكَةِ الرُّوحِيَّةِ عِنْدَ مَوْلَانَا. أَمَّا مَوْلَانَا فَكَانَ يَبْدُو كَالْبَرْكَانِ الْمُنْطَفِئِ؛ إِذْ إِنَّ كُلَّ ذَرَاتِ الْكَائِنَاتِ كَانَتْ تَدْعُوهُ إِلَى السَّمَاعِ. نَظَرَاتُ سُلْطَانٍ وَكَدَ وَخَدَهَا نَافِذَةٌ وَأَسِيرَةٌ. فَمَنْ لَدَيْهِ الْجُرْأَةُ، وَسَطَ نَظَرَاتِ الْمُتَهِمِينَ الْمُتَعَصِّبِينَ، عَلَى أَنْ يَضَعَ قَدَمَ صِدْقٍ فِي فِضَاءِ الْمُشَاهَدَةِ.

نَعَمْ، شَمْسٌ عَاصِفٌ مُحْتَدٌ. إِنَّهَا لَحَظَاتُ شَوْقٍ وَتَأْجِجٍ، لَعَلَّ الْأَشْخَاصَ الْعَادِيِّينَ يَرَوْنَ فِيهَا دَوْرَانَ الْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ فَقَطْ، أَمَّا الْعَارِفُونَ الصَّادِقُونَ فَيَرَوْنَ فِي هَذَا الْمَشْهَدِ الْمُثِيرِ حِكَايَاتٍ.

نَعَمْ، شَمْسٌ مَتَمَرِّدٌ، شَمْسٌ طَاحٍ، شَمْسٌ مُحَطَّمٌ لِلتَّقَالِيدِ. إِنَّهُ شَمْسٌ الَّذِي انْفَصَلَ عَنِ السَّبَبِ، وَتَعَلَّقَ بِالسَّبَبِ، شَمْسٌ الَّذِي خَلَا مِنَ «الذَّاتِ» وَ«الذَّاتِيَّةِ»، وَصَارَ فِي

تَصْرُفِ الْمَحْبُوبِ وَالْمَعشُوقِ، شَمْسُ الَّذِي عُدَّ فِي تَارِيخِ الْعِرْفَانِ سُلْطَانُ الْعَاشِقِينَ. شَمْسُ الَّذِي لَهُ فِي دَوْلَةِ الْعِشْقِ حَالٌ وَمَقَامٌ وَوَجْدٌ، شَمْسُ الَّذِي هُوَ عَاشِقٌ وَمُتَوَلِّةٌ؛ وَالْعَاشِقُ وَالْمُتَوَلِّةُ ذَاهِلٌ غَائِبٌ عَنْ نَفْسِهِ. إِنَّهُ شَمْسُ الَّذِي بَقِيَ مَدَّةً يَسْمَعُ الشَّتَائِمَ. وَمِنْ دُونِ اهْتِمَامٍ بِاتِّهَامَاتِ الْأَشْقِيَاءِ، وَمِنْ دُونِ خَوْفٍ وَرَوْعٍ مِنْ سُخْرِيَةِ هَذَا وَذَلِكَ، كَانَ مُسْتَعِدًّا لِعَرَضِ الطُّفْلِ الْأَحَاسِيْسِ وَالْعَوَاطِفِ. وَيَعْتَقِدُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ أَنَّ اللَّذَّةَ وَالشُّرُورَ فِي الطَّلَبِ، فَيَجِبُ أَنْ يَظْفَرَ الْإِنْسَانُ بِمَا يُجِسُّ بِهِ قَلْبُهُ، أَنْ يَدْرِكَ الْإِبْدِيَّةَ كَمَا يُجِسُّ بِهَا قَلْبُهُ. وَلَيْسَ فِي وَسْعِ الْإِنْسَانِ، مِنْ دُونِ امْتِلَاكِ مُرْتَكِزٍ رُوحِيٍّ وَسَمَائِيٍّ، أَنْ يَعِيشَ. شَمْسُ الَّذِي كَانَ يُحْمَلُ وَجُودَهُ كُلَّهُ إِيْمَانًا لَا يَتَزَعَرُّ، أَيُّ خَوْفٍ لَدَيْهِ مِنْ قَالَةِ السُّوءِ الْمُخَالَفِينَ؟ وَفِي [٢٧٥] تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الَّتِي يَكُونُ قَلْبُهُ مُضْطَرِّمًا يَسْطُرُ جَنَاحِيهِ، وَمِثْلَ الْفَرَّاشَةِ يَطُوفُ حَوْلَ شَمْعِ الْعِشْقِ وَالْحَقِيقَةِ. الدُّنْيَا مَحَلٌّ لِلِاسْتِفَادَةِ مِنَ الْحَقَائِقِ. وَالسُّؤَالُ الْمُهِّمُّ: كَيْفَ يَجِبُ اكْتِسَابُ الْحَقَائِقِ؟ وَشَمْسُ، مِنْ أَجْلِ قَلْبِهِ الْمَمْلُوءِ بِذِكْرِ الْمَحْبُوبِ، أَرَادَ أَنْ يَنْشِئَ فِي قُوْنِيَّةٍ مَسْرُوحًا. وَهَذَا الْمَسْرُوحُ الْجَذَابُ يَبْدُوهُ مَحْبُوبُهُ. وَهَهُنَا عَجَزَ سُلْطَانٌ وَلَدٌ عَنْ إِطْفَاءِ النَّارِ الْمَشْتَعِلَةِ فِي قَلْبِ شَمْسٍ، وَعَنْ تَحْطِيمِ مِثْلِ شَمْسٍ إِلَى السَّمَاعِ. وَمِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى، لَمْ يَكُنْ شَمْسُ نَاسِيًا أَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ إِلَى قُوْنِيَّةٍ اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ مُرْشِدِهِ، وَهَذِهِ هِيَ حِكَايَتُهُ. وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ جَامِي أَنَّ بَابَا كَمَالَ الْجَنْدِي - وَهُوَ مِنْ خُلَفَاءِ نَجْمِ الدِّينِ كُبْرَى - كَانَ يَسَاعِدُ الشَّيْخَ فَخْرَ الدِّينِ الْعِرَاقِيَّ وَيَتَوَلَّى تَرْبِيَّتَهُ. وَقَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْمُسَاعَدَةِ أَنَّ كُلَّ فَتْحٍ وَكَشْفٍ يَظْهَرُ لِلْعِرَاقِيِّ، كَانَ يُنْبِئُهُ رِداءُ النَّظْمِ الشَّعْرِيِّ وَيَعْرِضُهُ عَلَى شَيْخِهِ بَابَا كَمَالَ. وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، كَانَ شَمْسٌ أَيْضًا فِي خَانِقَاهُ بَابَا كَمَالَ، وَلَمْ يَكُنْ يَقُولُ شَيْئًا. وَفِي يَوْمٍ قَالَ بَابَا كَمَالَ لِشَمْسٍ: أَيُّ بَنِيٍّ، أَلَا يَظْهَرُ لَكَ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الْأَسْرَارِ وَالْحَقَائِقِ الَّتِي

يُظهِرُهَا الْعِرَاقِيُّ؟ فَأَجَابَ شَمْسٌ سَرِيعًا: هُنَاكَ مُشَاهَدَاتٌ مِنْ قَبْلُ، وَلَكِنْ لِأَنَّ الْعِرَاقِيَّ تَدَرَّبَ عَلَى بَعْضِ الْمِصْطَلَحَاتِ وَتَعَلَّمَهَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبْرِزَهَا فِي أَرْزِيَّةٍ جَمِيلَةٍ؛ أَمَّا أَنَا فَلَا أَمْتَلِكُ تِلْكَ الْقُدْرَةَ. فَقَالَ بَابَا كَمَال: سِيرْزُوكَ الْحَقُّ تَعَالَى، سَرِيعًا، مُصَاحِبًا يُظْهِرُ مَعَارِفَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ بِاسْمِكَ، وَتَفِيضُ يَتَابِعُ الْحِكْمَةَ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ، وَيَكْسُوها لِبَاسَ الْأَحْرَفِ وَالْأَصْوَاتِ؛ أَمَّا زِينَةُ ذَلِكَ كُلُّهُ فَهُوَ اسْمُكَ.

أَمَّا ذَلِكَ الْمُصَاحِبُ فَكَانَ يَقِينًا جَلَالَ الدِّينِ. وَعَلَى شَمْسٍ، بِأَسَالِيبَ جَدِيدَةٍ، أَنْ يُسَلِّمَ بَيْدَرَ وَجُودِ مَوْلَانَا لِشُعْلِ نَارِ الْعِشْقِ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا رَمَادٌ؛ ثُمَّ مِنْ ذَلِكَ الرَّمَادِ الْمُقَدَّسِ يَظْهَرُ فِينِقُ حَتَّى يَمْتَلِكُ أَلْحَانًا أَخَاذَةً فِي مَنْقَارِهِ، وَيَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَسْرَارِ. سَمَاعُ شَمْسٍ مِفْتَاحٌ^(١)، خَالِقٌ لِلْعِشْقِ، يَمَلَأُ قَلْبَ مَوْلَانَا بِالشُّعْلِ، وَصَدْرَهُ بِالْأَلَمِ^(٢). عِشْقُهُ مَوْلَانَا مِثَالُ لِعِشْقِ أَهْلِ الْعِفَّةِ وَالطُّهْرِ، الَّذِي [٢٧٦] خَلَقَ فِي قَلْبِ عَاشِقِهِ هَيْجَانًا وَوَلَهَا وَهِيَامًا بِلطيفته الغيبية والسِّرِّ العجيب لِخَلْقِهِ؛ أَيِ إِنَّ الْعِشْقَ فِي مُحْتَكَى مَوْلَانَا، كَشَفَ الْحُجُبَ. كَانَ شَمْسٌ يَرَى الْعِشْقَ مَلَازِمًا لِلْحَيَاةِ، وَعِلَاجٌ عِلَاجِ الْفِرَاقِ. وَمُخَالِفُو شَمْسٍ وَالْمَعَارِضُونَ لَهُ فِي قُوْنِيَّةٍ، مَا عَرَفُوهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ^(٣).

١- جاء في «مقالات شمس» قوله:

«هَذَا التَّجَلِّيُّ، وَهَذِهِ الرُّؤْيَةُ لِحُضْرَةِ الْحَقِّ، تَزْدَادُ عِنْدَ رِجَالِ اللَّهِ فِي أَثْنَاءِ السَّمَاعِ. فَقَدْ خَرَجُوا مِنْ عَالَمِ وَجُودِهِمُ الْحَقِيقِيِّ، يَخْرُجُهُمُ السَّمَاعُ مِنَ الْعَوَالِمِ الْآخِرَةِ، وَيَصِلُهُمُ بِالْحَقِّ» مقالات شمس، ص ١٧٠.

٢- اجْعَلْ قَلْبِي مَمْلُوءًا بِالشُّعْلِ، وَصَدْرِي مَمْلُوءًا بِالْأَلَمِ قَلْبًا الْأَلَمُ فِيهِ دَاخِلًا وَخَارِجًا (وَحْشَ بَاقِي).

٣- يروي الأفلَكيُّ في كتابه «مناقب العارفين» عَنْ مَوْلَانَا جَلَالَ الدِّينِ أَنَّ «شَمْسَ الدِّينِ لَبِثَ فِي مَدِينَةِ حَلَبَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، دَاخِلَ حُجْرَةٍ فِي مَدْرَسَةٍ، وَانْهَمَكَ بِالرِّيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْحُجْرَةِ وَلَوْ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ فَجَاءَهُ نِدَاءٌ مِنْ جِدَارِ الْحُجْرَةِ يَقُولُ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»، فَتَرَكَ الْاِعْتِكَافَ، وَرَحَلَ إِلَى دِمَشْقَ. مَنَاقِبُ الْعَارِفِينَ، ص ٦٨٢.

- فقد كَانَ السَّمَاءُ غِذَاءَ الْعَاشِقِينَ؛
لأنَّ فِيهِ خَبَايَا لِلْوَضَلِ وَالْاجْتِمَاعِ
- فَأَنْغَامُ دَوْرَاتِ الْفَلَكَ هِيَ الَّتِي
يَتَغَنَّى بِهَا الْخَلْقُ بِالطَّبْنُورِ وَالْخَلْقِ
(المثنوي: ٧٤٣/١، ٧٥٣)

أَنْغَامُ دَوْرَاتِ الْفَلَكَ

كَانَ سَمَاعُ^(١) شَمْسٍ مُؤَذِّنًا بِفَضْلِ جَدِيدٍ فِي تَارِيخِ الْعِرْفَانِ. كَانَ شَمْسٌ يَرَى مِنْ
اِسْتَبْدَّ بِهِمُ الْهَيْجَانُ الْعِرْفَانِيَّ عَرَفَى فِي هَالَةِ السَّمَاعِ، أَوْ يَشَاهِدُ الْوُجُودَ الْوَاقِعِيَّ فِي ذَاتِ
أَرْوَاحِ الْعُشَّاقِ، الَّذِينَ يَدُورُونَ كَالْفَرَاشَاتِ، فِي قُوْنِيَّةِ. السَّمَاعِ الْعِرْفَانِيَّ يُوقِظُ
الْأَحَاسِيْسَ الرُّوحِيَّةَ وَالْجَسَدِيَّةَ عِنْدَ النَّاسِ. السَّمَاعُ الْعِرْفَانِيَّ يَمَهِّدُ الطُّرُقَ الرَّمْزِيَّةَ
وَالْمَجْهُولَةَ فِي الْحَيَاةِ، وَرَبَّمَا يَهْدِي النَّاسَ إِلَى الْأَبَدِيَّةِ، إِلَى مَوْلُودِ أَذْيَانِ زَمَانِ الْوَحْدَةِ
وَالْعُزْلَةِ، إِلَى الْاِنْقِطَاعِ عَنِ النَّفْسِ وَالْاِتِّصَالِ بِالْآخِرِ، إِلَى الْاِخْلَاصِ وَالْاِنْسِجَامِ، إِلَى
الْمَوْتِ عَنِ النَّفْسِ وَالْحَيَاةِ بِالْآخِرِ، إِلَى التَّخَلِّيِ عَنِ الْفَرْدَانِيَّةِ [٢٧٨] وَالظُّهُورِ. السَّمَاعُ

١ - كَتَبَ نِيكَلْسُونُ فِي «تَفْسِيرِ الْمَثْنَوِيِّ» يَقُولُ: «ارْتِبَاطُ التَّأَثُّرِ الرُّوحِيِّ لِلْمَوْسِيقَا بِالرُّوحِ أَمْرٌ أَوَّلِيٌّ. وَفِي أَثْنَاءِ
الِاسْتِمَاعِ، تَسْمَعُ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَدِيدٍ عَيْنَ الْخِطَابِ الْإِلَهِيِّ، ذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ أَرْوَاحِ الْبَشَرِ فِي الْأَبَدِيَّةِ أَجَابَتْ ذَلِكَ
الْخِطَابَ، وَبِالطَّرِيقَةِ نَفْسَهَا تَنَاعَمَتْ مَعَ أَنْشِيدِ جَيْشِ السَّمَاءِ». مَقْلَعُهُ رُومِي، تَرْجُمَةُ أَوَانِيسِيَان، ص ٣٨. وَفِي هَذَا
الْمَعْنَى أَنْشَدَ فَخْرُ الدِّينِ الْعِرَاقِيَّ:

الْعَالَمُ فِي مُجْلَمَتِهِ صَدَى لِنَغْمَتِهِ فَمَنْ ذَا الَّذِي سَمِعَ مِثْلَ هَذَا الصَّوْتِ الْمَدِيدِ؟
ثُمَّ إِنَّ جَلَالَ الدِّينِ الْبَلْخِيَّ، فِي دِيْوَانِ شَمْسٍ، نَادَى وَرَفَعَ الصَّوْتِ بِالْقَوْلِ:

يَا مُظَرَّبَ الرُّوحِ إِذَا صَارَ الدُّفُّ فِي يَدِكَ فاعْرِفْ هَذِهِ التَّغْمَةَ؛ فَإِنَّ الْحَبِيبَ جَاءَ تِمْلًا
عِنْدَمَا أَظْهَرَ ذَلِكَ الصَّنَمُ الْفَتَانَ [الْمَعْشُوقُ] وَجْهَهُ صَارَ الْقَمَرُ فِي الْفَلَكَ عَابِدًا لِلْأَصْنَامِ
وَذَرَأَتْ الْعَالَمَ عِشْقًا لِعِلَّكَ النَّفْسِ، جَاءَتْ رَاقِصَةً مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ
اعْرِفْ هَذِهِ التَّغْمَةَ؛ فَإِنَّ الْمُشْتَرِيَّ جَاءَ مِنَ الْفَلَكَ مِنْ أَجْلِ الْمُنْكَسِرِينَ، إِلَى الْقَاعِ
(دِيْوَانِ شَمْسٍ تَبْرِيز: الْغَزَلِيَّةُ ٦٨٧)

ضَرَبَ مِنَ الْعِشْقِ الرُّوحِيّ، وَسِيلَةً لِمُحَارَبَةِ وَسَاوِسِ اللَّذَاتِ الْجَسَدِيَّةِ، فِرَارًا مِنْ حَيَاةٍ مَمْلُوءَةٍ بِالْمَحَنِّ وَالْآلَامِ، إِضْرَامًا لِنَارِ الْعِشْقِ فِي الْقَلْبِ. السَّمَاعُ مَدَّاحٌ لِلْعِشْقِ، وَيَقُولُ عَيْنُ الْقَضَاءِ الْهَمْدَانِي: أَتُرِيدُ أَنْ تَفْهَمَ الْحَيَاةَ؟ - اعْرِفْ واطَّلِعْ. اعْرِفِ الْحَيَاةَ مِنَ الْعِشْقِ، وَاحْصُلْ عَلَى الْمَمَاتِ مِنْ عَدَمِ الْعِشْقِ. وَيَقُولُ رُوزْبَهَانُ الْبَقْلِيِّ الشِّيرَازِيِّ: أَسَاسُ آدَمَ نَفْخَةُ عِشْقٍ، وَيَنْبُوعُ مَاءِ الْحَيَاةِ الْعِشْقُ، وَالسَّمَاعُ هُوَ الصُّورَةُ، أَوْ التَّظْهَرُ الْمُتَعَالِي، لِلْعِشْقِ، وَيُوسِطُهُ يَطِيرُ الْعَارِفُ فَوْقَ عَالَمِ الْوُجُودِ.

السَّمَاعُ وَسِيلَةٌ لِعُرُوجِ الْإِنْسَانِ إِلَى أَصْلِهِ، تَوَثُّبٌ فِي فَضَاءِ النَّاسُوتِ، نَسِيَانٌ لِلذَّاتِ أَوْ نَفْيٌ لَهَا، هَدْيُهُ الْوُجُودُ. وَهُوَ تَصْفِيَةٌ وَتَهْدِيبٌ لِلرُّوحِ وَالْجِسْمِ، وَحَيَاةٌ دَوَامٌ: قَالَ ذَلِكَ الْعَاشِقُ: قُلْ: مَا ذَلِكَ الْأَضَلُّ؟

فَقَالَ: أَضْلُهُ الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ

وَقَدْ فَعَلْتَ هَذَا كُلَّهُ وَلَمْ تَمُتْ، بَلْ أَنْتَ حَيٌّ

نَعَمْ فَلْتَمُتْ، إِذَا كُنْتَ صَاحِبَ رُوحٍ، بِحَيٍّ

فَإِذَا مِتَّ ظَفَرْتَ بِحَيَاةٍ كَامِلَةٍ

وَبَقِيَ اسْمُكَ الْجَمِيلُ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ

السَّمَاعُ مِرَاةٌ يَرَى فِيهَا الْعَارِفُ الْحَيَاةَ وَالْعَدَمَ جَيِّدًا، فِي الْبَحْثِ عَنِ الزَّمَانِ الْمَفْقُودِ. وَإِذَا كَانَ شَيْخُ الْإِشْرَاقِ، شِهَابُ الدِّينِ يَحْيَى الشُّهْرَوَزْدِيّ، يَرَى وَجْهَ الْحَيَاةِ فِي جَنَاحِي جَبْرِيلَ، الْأَيْمَنِ وَالْأَيْسَرِ، فَإِنَّ شَمْسًا كَانَ يَشَاهِدُ التَّجَلِّيَ الصُّوفِيَّ فِي السَّمَاعِ، وَمِنْ شِدَّةِ الْإِهْتِيَاجِ وَالتَّحَرُّقِ كَانَ الْعِنَانُ يَسْقُطُ مِنْ يَدِهِ، وَرَبَّمَا كَانَ يَشَاهِدُ أَسْرَارًا لَا يُمْكِنُ إِذَاعَتُهَا، وَيَحْدُثُ أحيانًا أَنْ يَصِلَ إِهْتِيَاجُهُ إِلَى أَنْ يَرَى مُنَاطِرَهُ يَدُورُ.

وكان هذا أحد الأسباب الأساسية لسير تفكيره إلى الدوران والرقص.
 شَقَّ شَمْسٌ صُفُوفَ الْمُحِبِّينَ وَالدَّائِرِينَ الرَّشِيقِينَ، وَبُشْرَعُهُ مَضَى إِلَى مَكَانٍ لَيْسَ
 فِيهِ أَحَدٌ؛ لِكَيْ يَرَى الْخَلْقَ جَمِيعًا شَمْسًا عِيَانًا، وَيَعْلَمُوا أَنَّ شَمْسًا الْمَتِّمَ هُوَ الَّذِي
 يَرْقُصُ. وَهُوَ رَقْصٌ سَبَبٌ فَاجِعَةٌ. وَعِنْدَ بَدْءِ الرَّقْصِ، أَوْ كَمَا يَقُولُ مَوْلَانَا:
 صَفَقَتْ شَقَائِقُ النُّعْمَانِ، وَرَقَصَ الْيَاسَمِينُ

وَتَمَّةٌ سَوَسَنَةٌ صَغِيرَةٌ تَمَلَّتْ فِيهِ يَقُولُ: «فَمَاذَا يَكُونُ الْيَاسَمِينُ نَفْسُهُ؟»^(١)
 [٢٧٩] عِنْدَ بَدْءِ الرَّقْصِ، حَطَّ سَحَابٌ أَسْوَدُ مَظْلَمٌ بَغْتَةً أَمَامَ الشَّمْسِ. دَخَلَ شَمْسٌ
 الْمَشْرِدُ الْعَاشِقُ الْمَفْتَضِحُ فِي حَالٍ مِنَ السُّكْرِ وَالْوَجْدِ، وَلَمْ يَكُنْ يِيَالِي بِمَا يَقُولُهُ قَالَةُ السُّوءِ
 الْمُفْتَرُونَ أَعْمِيَاءُ الْبَاطِنِ، وَكَيْفَ يُوَضِّحُونَ وَيُفَسِّرُونَ هَذَا التَّظْهَرُ الرُّوحِيَّ.
 شَمْسٌ الْمَتَمَرَّدُ الْعَنِيدُ، مِنْ دُونِ اهْتِمَامٍ بِاتِّهَامِ هَذَا وَذَلِكَ، كَانَ مُسْتَعِدًّا لِعَرْضِ
 أَرْقِ الْإِحْسَاسَاتِ وَالْعَوَاطِفِ، وَكَانَ مُتَحَرِّرًا مِنْ كُلِّ قَيْدٍ وَرَسْمٍ؛ كَانَ يُعْطِي لِصَفَاءِ
 الْبَاطِنِ أَهَمِّيَّةً كَبِيرَةً. وَكَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ إِذَا تَطَهَّرَ الْقَلْبُ مِنْ أَذْرَانِ الْهَوَى وَالْهَوَسِ،
 تَخَلَّصَ الْإِنْسَانُ مِنَ التَّعَصُّبِ وَالرِّيَاءِ وَحُبِّ النَّفْسِ وَالْعِنَادِ. وَكَانَ يَعُدُّ هَذِهِ الْأُمُورَ
 مَوَانِعَ تَحُولَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى الْحَقِيقَةِ. وَبِسَبَبِ هَذِهِ الْحَالِ مِنَ الذُّوقِ
 وَالْوَجْدِ، مَزَّقَ رِدَاءَ التَّزْوِيرِ وَالْعُجْبِ وَالنَّفَاقِ، وَوَسَطَ أَعْيُنَ النَّاسِ الْمُنْدَهَشَةِ انْشَغَلَ
 بِالسَّمَاعِ وَالذُّورَانِ. أَمَّا الْمُغْتَوُونَ فَقَدْ اسْتَطَاعُوا بِالْأَشْعَارِ الْمَهِيَّجَةِ الْمَطْرِبَةِ أَنْ يَشِيرُوا فِي
 قَلْبِ شَمْسٍ هَيَّجَانِ الْقِيَامَةِ.

وَعِنْدَ شَمْسٍ، كَانَتْ لَحَظَاتُ لِقَاءِ مَوْلَانَا مُغْتَنِمَةً وَمُصَفِّيةً. وَكَانَ يَجِبُ، حَالًا، أَنْ

يَرَى وَجْهَ الدُّنْيَا الشَّافَفَ فِي مِرَاةِ جَمَالِهِ، وَيَعْرِضُ هُوَ نَفْسُهُ أَيْضًا وَاحِدًا مِنْ تَجَلِيَّاتِ حَقِيقَةِ الْوُجُودِ. السَّمَاعُ وَحْدَهُ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَكُونَ مُسَلِّيًا لِلْقُلُوبِ، وَيَعْدُو مُرْشِدًا لِمَوْلَانَا إِلَى الْخُلُودِ. كَانَ شَمْسٌ فِي أَثْنَاءِ الدَّوَرَانِ يُشِيرُ إِلَى السَّمَاءِ، الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّذِي هُوَ الْمَدْخَلُ الْعَظِيمُ لِلْوُجُودِ الْحَقِّ. وَقَدْ سَجَلَ سُلْطَانٌ وَلَدٌ فِي ذِكْرِيَّاتِ ذَلِكَ الْيَوْمِ لِسَمَاعِ شَمْسٍ فِي قُوْنِيَّةٍ: نَظَرْتُ فَلَمْ أَجِدْ مَشْهَدًا أَجْمَلَ، وَلَحْظَةً أَكْثَرَ إِفْرَاحًا، مِنْ مَشْهَدِ دَوَرَانِ شَمْسٍ وَلَحْظَاتِ دَوْرَانِهِ.

أَحَدُ الْفُضُولِيِّينَ، فِي دَقَائِقِ الْهَيْجَانِ وَالتَّوَتُّبِ وَالْوَجْدِ، سَأَلَ مَوْلَانَا بِحِدَّةٍ:

- دَوْرَانِ شَمْسٍ مَا سَبَبُهُ؟ - وَلِأَجْلِ مَنْ؟

- هَيْجَانُ الْعِشْقِ، وَالشَّوْقُ إِلَى الْوُجُودِ. لَعَلَّكَ لَا تَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَخْطَا بِبَرَكَةِ

الْعِشْقِ. هُوَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ يَدْرِكُ وَيَحْسُ جَيِّدًا بِجَوْهَرِ وَجُودِهِ.

- وَلِمَاذَا لَا يَبِينُ الْأَسْرَارَ الْخَفِيَّةَ بِطَرِيقَةٍ عَقْلَانِيَّةٍ؟

- اصْطُمْتُ، فَإِنَّ بَحْرَ مَحَبَّةِ شَمْسٍ أَخَذَ بِالْجِيْشَانِ. كُلُّ مَا يَقُومُ بِهِ إِنَّمَا يَنْجِزُهُ بِطَرِيقَةٍ

عَقْلَانِيَّةٍ وَمَنْطَقِيَّةٍ.

شَمْسٌ يَدُورُ، وَدَوْرَانُهُ رَمَزٌ وَإِشَارَةٌ لِلْعَارِفِينَ، الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فِي حَالٍ مِنْ

الْهَيْجَانِ وَالتَّأَثُّرِ، وَيَرْتَوُونَ مِنْ ذَلِكَ الْيَنْبُوعِ الْفَيَاضِ.

[٢٨٠] كَانَ شَمْسٌ يَقْفِزُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ، وَهَذَا رَمَزٌ لِلْإِشْتِيَاقِ إِلَى

الِاتِّصَالِ بِالْعَالَمِ الْعُلُويِّ.

كَانَ شَمْسٌ يَضْرِبُ الْأَرْضَ بِقَدَمَيْهِ، وَتِلْكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ يَتَحَكَّمُ

بِزِمَامِ نَفْسِهِ، وَيُدْوسُ بِقَدَمِ الْهَمَّةِ عَلَى كُلِّ الْأَغْيَارِ، أَوْ مَا سِوَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وَكَانَ شَمْسٌ يَضْرِبُ إِحْدَى كَفِّي يَدَيْهِ بِالأُخْرَى، حَتَّى كَأَنَّ دَوِيَّ تَصْفِيْقِ يَدَيْهِ كَانَ يَكْسِرُ صَنْتَ السَّمَاءِ المَوْحِشِ، وَيُدْخِلُ مُغْنِي الكَاثِنَاتِ فِي وَجْدٍ وَتَأَثَّرٍ. كَانَتْ أَنْعَامُ الدَّفِّ وَالنَّايِ الثَّمِلَةُ قَدْ حَوَّلَتْ شَمْسًا، الَّذِي يَدُورُ، إِلَى شَمْسٍ عَاصِفٍ. أَيَّ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَا خَلَا العِشْقَ لَا قِيَمَةَ لَهُ.

عِنْدَمَا كَانَ شَمْسٌ فِي تَبْرِيزَ كَانَ يَتَضَرَّعُ إِلَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ: أَجْمَعْنِي بِأَحْبَائِكَ. وَيَعْتَرِفُ شَمْسٌ فِي كِتَابِهِ «مَقَالَاتِ شَمْسٍ» قَائِلًا: فِي إِحْدَى اللَّيَالِي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ قِيلَ لِي: سَنَجْمَعُكَ بِأَحَدِ أَحْبَائِنَا. فَسَأَلْتُ: ذَلِكَ الْخُلُصُ أَيْنَ هُوَ؟ - فَقِيلَ: فِي الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ^(١). جَاءَ شَمْسٌ ثَانِيَةً إِلَى الرُّومِ لِيَتَجَلَّى، وَيَكْسِرَ التَّقَالِيدَ، وَيَقُولَ: مَتَى وَجَدَ عِشْقٌ وَجَدَ إِنْسَانًا، وَمَتَى وَجَدَ إِنْسَانًا وَجَدَ نَشَاطًا وَشُرُورًا وَابْتِهَاجًا. كَانَ شَمْسٌ يَرِيدُ أَنْ يَخْبِرَ أَهْلَ قُرُونِهِ بِأَنَّهُ أَتَى بِمَشْرُوعٍ جَدِيدٍ، هَدِيَّةٍ لَهُمْ، وَهُوَ أَنَّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ يَكُونُ الْعِرْفُ وَالْعِنَاءُ وَالسَّمَاعُ وَالدَّوْرَانُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَهَمَّ بَرْنَامِجٍ فِي حَيَاةِ المَوَلُوتَيْنِ. الْعِرْفَانُ الْعِشْقِيُّ دَرْسٌ يَجِبُ أَنْ يُحْصَلَ عَلَيْهِ فِي مَدْرَسَةِ الْحَالِ، وَإِنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ سَيَتَعَلَّمُ النَّاسُ أَنَّ الْعَاشِقَ مُضْطَرِبٌ وَثَائِرٌ، الْعَاشِقُ هُوَ الْخَالِقُ عَيْنُهُ.

يَدُورُ شَمْسٌ هَائِجًا وَصَائِحًا، وَبَدَوْرَانَهُ يَقْدُمُ رِسَالَةً لِلْمُشَاهِدِينَ وَلِللَّاتِينَ، يَطْلُبُ فِيهَا مِنْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَقْبَرَةِ الْجَسَدِ، أَوْ - بِقَوْلِ عَيْنِ الْقَضَاةِ الْهَمْدَانِيَّ - يَخْلَعُوا نَعْلِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لِكَيْ يُشَاهِدُوا جِدًّا بِنَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ، وَيَرَوْا وَسْطَ ذَرَّةٍ وَاحِدَةٍ شَمْسَ الْبَقَاءِ، وَيُصِرُّوا فِي قَطْرَةٍ وَاحِدَةٍ الْبَحْرِ كُلِّهِ. أَسْلَمَ شَمْسٌ رُوحَهُ وَكِيَانَهُ، غَيْرَ مُهْتَمٍّ، لِيَدِ السَّمَاعِ. السَّمَاعُ مِنْ أَجْلِ لِقَاءِ مَوْلَانَا، السَّمَاعُ لِاحْتِرَامِ الْعَظْمَةِ الْعِرْفَانِيَّةِ

لَمَوْلَانَا، وَرُبَّمَا فِي أَعْمَاقِ الدَّوَرَانِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْهَمَ مَوْلَانَا فَهْمًا صَحِيحًا.
 فِي تَصَوُّرِ شَمْسٍ، السَّمَاعُ أَسَاسٌ لِتَصْفِيَةِ الْإِنْسَانِ وَتَرْكِيبِهِ. وَعَلَى أَهْلِ قُوْنِيَّةٍ
 جَمِيعًا أَنْ يَعْلَمُوا هَذَا، وَأَنْ يَتَسَابَقُوا فِي تَرْتِيبِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْمَحَافِلِ وَإِجْرَائِهِ، فِي
 الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَنْ يَعْدُوا ذَلِكَ عِبَادَةً؛ لِأَنَّهُ مُفِيدٌ وَمُؤَثِّرٌ، وَوَاجِبٌ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ.

- ثوروا، ثوروا؛ فإتنا أهل شعار
وغير العشق، غير العشق، لا عمل لنا
- وفي هذا التراب، في هذا التراب، في هذه المزرعة الطاهرة
غير العشق، غير العشق، لا نزرع شيئاً

الهيجان الصوفي

كان رَقْصُ شَمْسٍ مُظْهِراً لِلْهَيْجَانِ الصَّوْفِيِّ وَالْقُدْرَةِ السَّحَرِيَّةِ لِلْوَضَلِ. كان
تلاشياً مِنْ أَجْلِ تَعْرِيفِ الْعِشْقِ الْقَاهِرِ لِلْجَسَدِ لَدَى النَّاسِ الْمُتَجَرِّدِينَ؛ فَإِنَّكَ إِذَا كُنْتَ -
حَقِيقَةً - عَاشِقًا مُخْلِصًا كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تُبْعَدَ كُلُّ التَّعَيْنَاتِ عَنْ وَجُودِكَ؛ لِكَيْ يَغْدُوَ
وَجُودُكَ مُنْتَزِلًا لِلتَّجَلِّيَاتِ السَّمَاءِيَّةِ وَالْإِلَهَامِيَّةِ.

يُنْقَلُ عَنِ الشُّهُورَزْدِيِّ، فِي شَأْنِ الرَّقْصِ الْعِرْفَانِيِّ، أَنَّهُ أَظْهَرَ فِي شَأْنِ السَّمَاعِ
الصَّوْفِيِّ مِثْلَ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ:

- قُلْتُ لِلشَّيْخِ: مِنْ أَجْلِ أَيِّ شَيْءٍ يَأْتِي الرَّقْصُ؟

- فَأَجَابَ الشَّيْخُ: يَرِيدُ الرُّوحُ أَنْ يَرْتَفَعَ، مِثْلَ الطَّائِرِ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَرْمِيَ بِنَفْسِهِ مِنَ
الْقَفْصِ. قَفْصُ الْجَسَدِ يَكُونُ مَانِعًا. طَائِرٌ رَوْحٌ يَقْوَى، فَيَنْفَصِلُ عَنِ قَفْصِ الْجَسَدِ.
فَإِذَا كَانَ لِلطَّائِرِ قُوَّةٌ عَظِيمَةٌ كَسَرَ الْقَفْصَ وَانْصَرَفَ. وَإِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ هَذِهِ الْقُوَّةُ
وَاضْطَرَبَ وَحَرَكَ الْقَفْصَ مَعَهُ، ظَهَرَ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ مَعْنَى الْغَلَبَةِ مِنْ جَدِيدٍ. طَائِرُ الرُّوحِ
يَرِيدُ أَنْ يَرْتَفَعَ، وَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الْقَفْزَ مِنَ الْقَفْصِ فَيَسِيخُمِلُ الْقَفْصَ مَعَهُ أَيْضًا. وَمَعَ أَنَّهُ
يَهْتَمُّ أَنْ يَرْتَفَعَ مِثْلَ مَرَّةٍ، يَعِجْزُ الطَّائِرُ عَنْ تَخْلِيصِ نَفْسِهِ مِنَ الْقَفْصِ وَالْإِرْتِفَاعِ وَحِيدًا.
إِذَا يَرَفَعُ الطَّائِرُ الْقَفْصَ، وَيَقَعُ الْقَفْصُ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى الْأَرْضِ^(١).

١- مِنْ كِتَابِ «حَقِيقَةُ الْعِشْقِ» لِشَهَابِ الدِّينِ الشُّهُورَزْدِيِّ، شَيْخِ الْإِشْرَاقِ

كان شمس أكثر إيمانًا بفائدة الرقص من الشهروردي؛ كان مثل مولانا يعتقد أن:

[٢٨٢] نَحْنُ مِنَ الْأَعْلَى، وَإِلَى الْأَعْلَى نَذْهَبُ

نَحْنُ مِنَ الْبَحْرِ، وَإِلَى الْبَحْرِ نَذْهَبُ

نَحْنُ لَسْنَا مِنْ هُنَاكَ، وَلَسْنَا مِنْ هُنَا

نَحْنُ مِنَ الْأَمْكَانِ، وَإِلَى الْأَمْكَانِ نَذْهَبُ^(١)

يرى شمس أن الإنسان مظهر ومجلّى للعالم الأكبر، ويريد للإنسان أن يعرف

نفسه، ولهذا السبب يقول:

تَرَى الْجَمِيعَ فِي نَفْسِكَ: مُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ وَنُوحًا وَآدَمَ وَحَوَاءَ وَالْخَضِرَ

وَالْيَاسَ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَنْتَ عَالَمٌ لَا حُدُودَ لَهُ، فَمَا شَأْنُ الْأَرْضِينَ وَالسَّمَاوَاتِ؟^(٢)

كان، بعمّله وسلوكه وقوله، يريد أن يرسم في الأذهان هوية استثنائية للبشر،

ويقول للإنسان إنه لن يستطيع أن يسمو على ذاته وعلى «أنه» ويرى مجلّاه، وفي

النتيجة يستلهم من داخله، إلا عندما يستبدل بالعقل الجزئي والفكر العشق؛ لأن

العشق أساس الغنى الداخلي، وأداة اتصال الإنسان بالحقبة الأزلية.

تَعَلَّقْتُ بِكَاسِ الشَّرَابِ، أَرَفْتُ دَمَ الْفِكْرِ

امْتَزَجْتُ بِحَبِيبِي؛ لَأَنْتَبِي فِي حِجَابِ

صَلَبْتُ الْفِكْرَ؛ لِأَنَّ الْفِكْرَ يَضْحُو وَيَتَبَّه

أَتَضَاقُ مِنَ الْفِكْرِ، أَنَا مَخْرُونٌ مِنَ الْفِكْرِ

١- ديوان شمس تبريز: الغزلية ١٦٨٠.

٢- مقالات شمس تبريز.

فِي جِسْمِي رُوحٌ آخَرُ، وَفِي رُوحِي مَلِكٌ عَظِيمٌ

وَمَعَ أَنِّي أَنُّ آخَرَ؛ لِأَنِّي بِذَلِكَ أَدْرَكْتُ وَفَهِمْتُ^(١)

كَانَ شَمْسٌ يَرْقُصُ، وَكَانَ السَّمَاعُ يَتَوَاصَلُ، وَكَانَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا
الْمَشْهَدِ الْبَدِيعِ بِعَجَلَةٍ. وَعِنْدَيْهِ، تَقَدَّمَ عَلَاءُ الدِّينِ، الْابْنُ الْأَصْغَرُ لِمَوْلَانَا، بِإِشَارَةٍ مِنْ
عَدَدٍ مِنْ رِجَالِ الْمَحْفَلِ الْأَخْلَاقِيِّ فِي قُوْنِيَّةَ، إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ بِلَهْجَةٍ أَمْرَةٍ:
- مَوْلَانَا، لَوْ سَمَحْتُمْ، هَذِهِ الْمَشَاهِدُ تَغْدُو مِثْلَ تَمَامًا، وَإِنْ رُوحَكَ وَشَخْصِيَّتَكَ
فِي خَطَرٍ.

- أَيُّ شَخْصٍ أَرَادَ قَتْلِي؟

- أَهْلُ الْمَدِينَةِ جَمِيعًا أَخَذَتْهُمْ الْحَمَاسَةُ وَالْغَضَبُ، مِتْسَائِلِينَ: مَا هَذِهِ الْحَالُ؟ -
مَنْ هَذَا الشَّخْصُ؟ - وَأَيُّ جُنُونٍ يَجْرِي؟ - رَقِصْ مِنْ أَجْلِ مَاذَا؟
[٢٨٣] - لَعَلَّ الَّذِي يَقْتُلُنِي غَيْرُ هَذَا؟ دَعِ الْمَصِيرَ الْمَحْتَوَمَ يَظْهَرُ هُنَا. نَعَمْ، فِي هَذَا
الْيَوْمِ...

عِنْدَيْهِ أَمَرَ شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ بِأَنْ يُوقِفَ السَّمَاعَ، وَجَاءَ مُسْرِعًا إِلَى مَوْلَانَا، فَدَقَّ
بِكَفِّهِ عَلَى صَدْرِ عَلَاءِ الدِّينِ، وَقَالَ لَهُ: لَا يَجُوزُ أَنْ تُحَدِّثَ مَوْلَانَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ.
وَبَعْدَئِذٍ أَشَارَ إِلَى مَوْلَانَا أَنْ:

- بِأَشِيرِ السَّمَاعَ، فَإِنَّ الَّذِي طَلَبْتَهُ بِالسَّمَاعِ سِيزِدَادُ^(٢)..

- سُلْطَانُ وَلَدِ، ابْنُ مَوْلَانَا الْآخَرِ، اقْتَرَبَ وَقَالَ لِشَمْسٍ:

١- ديوان شمس تبريز الغزلية ١٣٧٢.

٢- أنشد العراقي:

لِيْكَ تَدْخُلُ شَمْسُ الْغَيْبِ مِنْ نَافِذِي

نَحْوَ سَاعِ الظَّهَارِ أَفْتَحُ نَافِذَهُ

- تَعْلَمُ أَنِّي صَادِقٌ فِي قَوْلِي، إِنَّ كِرَا الْكَبِيرَةِ، جَدَّتِي، رَغَبَتْ مَوْلَانَا مَرَاتٍ كَثِيرَةً
بِالسَّمَاعِ، فَإِنَّهُ فِي ابْتِدَاءِ الطُّفُولَةِ، كَانَ وَالِدِي يَرْقُصُ...

قَطَعَ شَمْسٌ بِامْتِعَاضِ كَلَامِ ابْنِ جَلَالِ الدِّينِ الْكَبِيرِ، وَقَالَ:
- حَانَ الْآنَ أَنْ يُجْرِيَ وَالِدُكَ الدَّوْرَانَ الْعِرْفَانِيَّ بَعِيدًا عَنْ إِظْهَارِ أَيِّ حَظٍّ مِنْ
حُظُوظِ النَّفْسِ. وَالدَّوْرَانُ الصُّوفِيُّ لَهُ آدَابٌ وَرُسُومٌ لَا بَدَّ مِنَ الْإِحَاطَةِ بِهَا، خَاصَّةً بَيْنَ
النَّاسِ وَفِي السَّاحَاتِ.

فَقَالَ سُلْطَانٌ وَلَدَ بِهِدُوءٍ:

- يَقِينًا سَيُجْرِي هَذَا الْعَمَلُ، سَيَجْعَلُ هَذَا الطَّرِيقَ مَشْرَبًا وَأَسْلُوبًا، بِشَرْطِ أَنْ
تَسْمَحُوا لَنَا الْيَوْمَ بِالذَّهَابِ إِلَى الْخَانِقَاهِ، وَتَأْذِنُوا لِلنَّاسِ الْمُتَعَبِينَ الْمُنْهَكِينَ بِالذَّهَابِ
إِلَى بَيْوتِهِمْ. وَتَعْلَمُونَ بَأَنِّي فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى الْإِسْتِرَاحَةِ.

عِنْدَ ذَلِكَ، صَاحَ عَلَاءُ الدِّينِ: إِذَا أَجْرَى مَوْلَانَا الدَّوْرَانَ فَإِنَّ وَاقِعَةً هَائِلَةً سَتَحْصُلُ
فِي قُوْنِيَّةٍ. رَفُضَ مَوْلَانَا سَيَكُونُ سَبَبًا لِمُتَمَرِّدِ النَّاسِ وَعِصْيَانِهِمْ.

- أَلْقَى مَوْلَانَا نَظْرَةً عَلَى وَجْهِ شَمْسِ الْمُلْتَهَبِ الْعَاصِفِ، وَخَاطَبَ سُلْطَانًا وَلَدَ
وَأَبْنَاءَهُ قَائِلًا:

- إِنَّ لِلْعَافِرِينَ حَالَةً وَضُرُورَةً شَبِيهَةً بِالْمَخْمَصَةِ وَالْإِسْتِسْقَاءِ^(*)، وَرَفَعُ ذَلِكَ
وَالْتَخَلُّصُ مِنْهُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالسَّمَاعِ وَالتَّوَاجُدِ وَالْأَضْوَاتِ. الْيَوْمَ لَيْسَ لَدَيَّ حَالُ
السَّمَاعِ، لَكِنَّهُ بَدَأَ مِنْ غَدٍ سَأَرْتَبُ مَجْلِسَ السَّمَاعِ، وَسَأُعْزِفُ الْأَنْغَامَ فِي مَدْحِ
الْمُحِبُّوبِ، وَسَأُوصِلُ الْهَيْجَانَ الشَّعْرِيَّ الَّذِي يَجِيئُ بِهِ صَدْرِي، وَالْهَيْجَانَ الَّذِي

* - يَرِيدُ أَنَّ السَّمَاعَ يُبَيِّحُهُ ضَرُورَةٌ فِي نَفْسِ الْعَافِرِينَ، شَبِيهَةٌ بِالضَّرُورَاتِ الَّتِي تُبَيِّحُ الْمَحْظُورَاتِ، كَالْجُوعِ
وَالْقَلَمُ الْمَفْرُطَيْنِ [الْمُتَرْجِمُ].

حَدَّثَ لِي مِنْ لِقَائِي الْجَدِيدِ لِشَّمْسٍ [٢٨٤]، بِمُسَاعَدَةِ الْأَنْعَامِ الْمَطْرِبَةِ لِلنَّايِ وَالذَّفِّ
وَالرَّبَابِ، إِلَى آذَانِ النَّاسِ. وَقَدْ حَانَ وَقْتُ أَنْ

نَذْخُلَ فِي الرَّفْصِ كَالذَّرَاتِ وَنَأْتِيَ مُسَخَّرِينَ لِشَمْسِكَ

وَفِي كُلِّ سَحَرٍ، مِنْ مَشْرِقِ الْعِشْقِ نَطْلُعُ نَحْنُ كَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ^(١)

وَمَعَ كُلِّ الْمَخَالَفَاتِ الَّتِي سَتَظْهَرُ، وَمَعَ كُلِّ الْعَدَاوَاتِ الَّتِي سَيُوجِّهُهَا إِلَيَّ الْأَعْدَاءُ
الْمَتَعَصِّبُونَ، سَأَعِيشُ مَعَ شَمْسِ الْجَوَابِ لِلْآفَاقِ، مَعَ شَمْسِ الَّذِي هُوَ مُرْشِدُ سَالِكِي
طَرِيقِ الْحَقِّ. وَسَيَبْقَى صَوْتِي وَصَوْتُهُ يَتَرَدَّدَانِ عَلَى الدَّوَامِ فِي قَلْبِ أَمْوَاجِ الْكَائِنَاتِ.
وَعَلَى عِلَاءِ الدِّينِ [ابن مَوْلَانَا الْأَصْغَر] أَنْ يَتَعَلَّمَ أَنْ أَبَاهُ لَا يَخَافُ الْحَوَادِثَ الْمَرْعِبَةَ.
اقْتَرَبَ عِلَاءُ الدِّينِ مِنَ الْيَدِ وَقَالَ:

- يَقُولُونَ: إِنَّ زَاهِدًا مُلَازِمًا لِلْخُلُوعِ، مِثْلَ وَالِدِكَ، مُبْتَلَى بِعِشْقِي فَاصْبِرْ. بِمَاذَا
أَجِيبُ أَنَا النَّاسَ؟ - أَيْنَمَا ذَهَبْتُ يُتَعَبَّنِي وَيُؤْلِمُنِي وَيُؤْذِنِي طَعْنُ النَّاسِ وَهَزْؤُهُمْ
وَسُخْرِيَّتُهُمْ، كَلَدَغِ الثُّعْبَانِ.
فَأَجَابَ مَوْلَانَا:

- عَلَيْكَ أَنْ تَعَلَّمَ أَنْ أَبَاكَ، مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ، تَخَلَّى عَنِ الْحَيَاةِ وَالْمَنْزِلَةِ، وَتَرَكَ
الْبَحْثَ وَالْقِيلَ وَالْقَالَ. وَقَدْ نَسِيتُ طَلَبَ الْجَاهِ، وَلَسْتُ أَخْشَى التَّشْهِيرَ وَالْعَارَ. أَجِبِ
الشَّاتِمِينَ وَالْقَاذِفِينَ بِأَنْ مَوْلَانَا صَارَ عَاشِقًا، وَهَذَا الْعِشْقُ جَعَلَ مَوْلَانَا ثِمَلًا وَمَصْفَقًا
وَدَوَّارًا. لِيَذْهَبُوا وَلِيَقْرَؤُوا «رِسَالَةَ فِي الْعِشْقِ» لِسَيْفِ الدِّينِ الْبَاخَرَزِيِّ، الَّذِي قَالَ فِي
هَذَا الشَّأْنِ:

العِشْقُ عِنْدَ السَّالِكِ سَهْمٌ طَيَّارٌ جَمِيلُ الشَّيْءِ، مَعَ سَيْفِ طَيَّارٍ مُغَمَّدٍ، وَسَوْءُ سُمْعَةٍ لِرُوحِ الْفَتَى.

- النَّاسُ يَقُولُونَ إِنَّ أَبَاكَ مَجْذُوبٌ. أَلَيْسَ هَذَا عَيْبًا وَعَارًا، أَبَتَاهُ؟
- قُلْ لَهُمْ: تَقُولُونَ الصَّوَابَ، الْعَيْبُ وَالْعَارُ فِي عَالَمِ الْعِشْقِ مَمْتَنِعُ الْوُجُودِ، وَلَيْسَ عَلَى الْمَجْذُوبِينَ تَكْلِيفٌ، كَمَا هِيَ حَالُ الْمَجَانِينَ:

إِنَّ فِكْرَنَا سَهْمٌ، مِنْ اللَّهِ، انْطَلَقَ فِي الْهَوَاءِ

فَكَيْفَ يَبْقَى فِي الْهَوَاءِ؟ - إِنَّهُ يَعُودُ إِلَى اللَّهِ

وَالدُّنْيَا تَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَنَحْنُ

لَا عَلِمَ لَنَا عَنْ تَجَدُّدِهَا فِي ثَبَاتِهَا [الظَّاهِر]

وَالْعُمُرُ يَتَجَدَّدُ دَائِمًا، كَمَا يَتَجَدَّدُ مَاءُ النَّهْرِ

بَيْنَمَا يَبْدُو مُسْتَمِرًّا فِي الْجَسَدِ مُتَوَاصِلًا^(١)

- [٢٨٥] بَعْضُ أَهْلِ قُوْنِيَّةٍ يَحْسِبُونَ أَنَّكَ جُنِنْتَ، وَتَجِبُ مُدَاوَاتَكَ.

- نَعَمْ، أَنَا مَجْنُونُ الْعِشْقِ. فَإِذَا كَانُوا لِهَذَا السَّبَبِ يَعِيرُونَكَ أَوْ يَشْمَتُونَ بِكَ، فَلَا

تَنْزَعِجْ؛ لِأَنَّ الْعَارَ لَنْ يَلْتَصِقَ بِأَيِّكَ وَأُسْرَتَكَ.

- تَعَالَى، لِتَعْشُقَ أَبْنَاءَكَ وَأُسْرَتَكَ، لَا شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ الْمُتَشَرَّدَ النَّاتِئَ.

وَمِنْ سَمَاعِ هَذَا الْكَلَامِ، اسْتَبَدَّ حُزْنٌ مُمِيتٌ بِكُلِّيَّةِ وُجُودِ مَوْلَانَا، فَطَفَرَتِ الدَّمُوعُ

مِنْ عَيْنَيْهِ، وَتَمَّتْ:

جاء سُكْرُ رَأْسِي، جاء نُورُ نَظْرِي
وإن شئت شيئًا آخَرَ، فإنَّ شَيْئِي الْآخَرَ جاء
جاء قاطِعُ طَرِيقِي، جاء كاسِرُ ثَوْبِي
وذلك الذي هو يُوسُفُ الْفَضِيِّ الصَّدْرِ، جاء إلى صَدْرِي
فانظُرْ إلى بُسْتَانِهِ وَرَبِيعِهِ، وانظُرْ إلى خَمْرِهِ
وانظُرْ إلى ذلك الْهَضْمِ وَشَهْوَلَتِهِ؛ لأنَّ هاضومي^(٦) قد جاء
ولماذا أَخْشَى الْمَوْتَ، وقد صارَ هُوَ ماءَ الْحَيَاةِ
ولماذا أَخْشَى الطَّغْنَ، وقد صارَ هُوَ ثَرْسِي
واليومَ أَنَا سُلَيْمَانُ، وقد أُعْطِيتَنِي الْخَاتَمَ
وصارَ نَاجُ الْمُلُوكِ فَوْقَ مَفْرِقِ رَأْسِي
وقد آنَ أَنْ أَشْرَبَ الْمُدَامَ، لَكِي يَنَالَقَ عَقْلِي
وقد حَانَ أَنْ أَطِيرَ، فقد جاءَ جَنَاحِي وَرِيشِي^(٧)

أَلْقَى مَوْلَانَا نَظْرَةً مُتَفَحِّصَةً عَلَى ابْنِهِ وَقَالَ: لَعَلَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُقَامَ مِثْلُ هَذَا
الْعَرَضِ فِي قُوْنِيَةِ أَيْضًا، وَلَعَلَّ مِنَ الْعَقْلِ أَنْ لَا يَتَوَجَّهَ شَمْسٌ إِلَى السَّمَاعِ. وَأَنْتَ، أَتَشْدُ
سَلَامَةً رُوحَ وَالِدِكَ وَجَسْمِهِ أَمْ ضِجَّةَ الْخُصُومِ وَجَلَبَتِهِمْ؟ أَمَّا أَنَا فَقَدْ أَسَلَمْتُ قَلْبِي
لِمَحَبَّةِ شَمْسٍ، وَوُجُودُهُ مَجْلَى لِكُلِّ أَشْوَاقِي وَأَمَالِي. فَدَعَ الْحُسَادَ وَالْمَعَانِدِينَ يَقُولُوا
مَا فِي قُلُوبِهِمْ. وَلَيْسَ عِنْدِي أَذْنَى شَكٍّ فِي مَنَزِلَةِ شَمْسٍ وَفِي إِرْشَادَاتِهِ الْعِرْفَانِيَّةِ

* - أثبتنا تعبير «هاضوم» مُقَابِلًا عَرَبِيًّا لِلْفَرْسِي «كُلْ شَكْر»، ومعناه في الأصل: مُرَبِّي الْوَرْدِ، الْمُؤَلَّفُ مِنَ
السُّكْرِ وَوَرَقِ الْوَرْدِ الْأَحْمَرِ. وَلأنَّهُ كَانَ يُعْتَقَدُ أَنَّهُ يَسَاعِدُ عَلَى هَضْمِ الطَّعَامِ، جَعَلْنَا مُقَابِلَهُ الْعَرَبِيَّ «هاضوم». فَلأنَّهُ
فِي صِيحَاحِ الْجَوْهَرِيِّ: الْهَاضُومُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْجَوَارِشُ؛ لأنَّهُ يَهْضُمُ الطَّعَامَ، أَي: يَكْسِرُهُ [المترجم].

والحقیقة. وابتغاء التخلُّص من الألم، تمسَّكتُ بأذیالِ شمسٍ، وليكن ما يكونُ:

من جَدیدٍ أمضي إلى الأسرار، أمضي إلى جانبِ ذلك الحبيب

أسمَعُ تغريدَ البُلبل، أمضي إلى الوَرْدِ ورياضِ الوَرْدِ

[٢٨٦] فالی مَنی هذا الحياءُ والخبَلُ، أحرِقِ الخجلُ، وتعال

أضحَبُ القلبُ، وأمضي إلى ناحية المعشوقِ مَسرورًا

لم يبقَ عندي صَبْرٌ؛ لَكِي أستمعَ إلى ما يجيشُ به صَدْرِي

ولم يبقَ عندي عَقْلٌ؛ لَكِي أتهديَ إلى الطريقِ

وما دامتْ عَيْنُ سُوءٍ لم تَصِلْ إِلَيَّ مِنْ مَحَنَرٍ في الحَسَدِ

فَسأضَعُ يَدِي في يَدِ الحبيبِ، وأمضي إلى كَنَفِ الغارِ

إنْ دُرِسَ الرُّوساءُ الجميلينَ يكونُ من دون عَقْلٍ وصامِتًا

وعندما يكونُ دُرُسي خامًا أَلجأ إلى التكرار^(١)

ويروي سُلطانُ وَلَد، الابنُ الأكبرُ لَمولانا جلالِ الدِّين محمد، قائلًا: في السَّفر الثاني

لشمس، بَدَا كَأَن مَوْلانا كان يُحسُّ بأنَّه في المُستقبل القريبِ جدًّا سيُتلى بألمِ الفراقِ الدائم

لِسُلطانِ المعشوقينَ [يريدُ شمسًا التبريزيَّ]؛ ولهذا السَّببِ ازدادَ اهتمامُهُ بالسَّماعِ،

وكثيرًا ما كان يُمضي ساعاتِ حياته بالرَّقصِ والدَّورانِ:

نَهَارًا وَلَيْلًا، رَقَصَ في السَّماعِ

ودارَ عَلَى الأرضِ كدورانِ الفَلَكِ

لَمْ يَكُنْ لَحْظَةً مِنْ دُونِ سَمَاعٍ وَرَقْصٍ
 لَمْ يَسْتَرْخِ لَحْظَةً فِي نَهَارٍ وَلَيْلٍ
 فَحَدَّثَتْ صَـجَّةً فِي الْمَدِينَةِ
 وَمَا الْمَدِينَةُ؟ - قُلْ: عَلَى امْتِدَادِ الزَّمَانِ وَالذَّهْرِ
 [مُفَادُهَا] أَنْ مِثْلَ هَذَا الْقُطْبِ وَالْمَفْتِي فِي الْإِسْلَامِ
 الَّذِي هُوَ فِي الْكَوْنَيْنِ شَيْخٌ وَإِمَامٌ
 يَهْتَاجُ وَيُثَوِّرُ كَالْعَاشِقِ الْمَتَمِّمِ
 حِينَ يَكُونُ خَفِيًّا، وَحِينَ يَكُونُ جَلِيًّا^(١)

- نحنُ حَيَّان، بِنُورِ الكبرياءِ
غريبٌ كُلُّ مَنَّا عن الآخرِ ومتعارِفانِ تمامًا
- وما شَمْسُ تَبْرِيزَ إِلَّا ذُرْبَةً
نحنُ موجودانِ بِحُسْنِ اللَّطَفِ
(ديوان شَمْسِ تَبْرِيز: الغزَلِيَّة ١٥٧٧)

العارِف إلى الدَّورانِ، والصَّوفي..

مثلما كانَ مُتَوَقِّعًا، صارَ السَّماعُ والسُّكُّرُ والوَجْدُ والرَّقْصُ عندَ شَمْسٍ، في مدينةِ قُونيةَ عاصمةِ سَلاجقة الرُّومِ الشَّرقيَّة، باعثًا على البَحْثِ والدَّرْسِ في المحافلِ الدِّينيَّة والعِلْميَّة، وعلى إثارةِ فئاتِ النَّاسِ. فلا مُبالاةَ شَمْسٍ بالأصولِ التي كانتَ مَحَلَّ إعزازٍ واحترامٍ عندَ جماعةٍ، وهتُكهُ حُرْمَةُ المحرَّماتِ، أثارًا أَحكامَ المُخالفينَ. وأوجَدَ تَغْيِيرَ القِيَمِ انقِلابًا في أَفكارِ المتفرِّجينَ والمُشارِكينَ في السَّماعِ في قُونيةَ، دَفَعَ جماعةً منَ المعترِضينَ والحاسِدينَ الجُهاَلِ إلى أن يَحْمِلُوا في أيديهم سَوَطَ الانتقادِ، ويضربوا عَلى الأرضِ في المحافلِ والمجالِسِ احتِجاجًا على تجاوزاتِ شَمْسٍ لِلأعرافِ، ويُطْلِقُوا العِنانَ لِألسنتهم، ويقولوا: إِنَّ شَمْسًا في هذه المَرَّةِ جاءَ ليغيِّرَ العقائدَ والقِيَمَ والمقدَّساتِ. وأقسَمَ المُخالفونَ إنَّهم كانوا يَعدُّونَ شَمْسًا إبليسَ الزَّمانِ. وكانوا يقولونَ إِنَّ هذا المَظْهَرَ للشَّرِّ المَطلَقِ قَبْلَ السَّماعِ بِكُلِّ سَيِّئاته وصُورِ فسادِهِ. وكانوا يتصوِّرونَ أنَّ كمالَ مَطْلُوبِ المتشرِّدِ التَّبْرِيزيِّ هو إشاعةُ النِّفاقِ والفسادِ بينَ النَّاسِ. وكانوا على قَناعةٍ مِن أنَّه في المُستَقْبَلِ سيَؤولُ الفسادُ في مجتمَعِ قُونيةَ إلى حَرْبٍ واقتتالٍ بينَ الإخوةِ، ونفاقٍ. وسيكونُ شَمْسٌ هو المَبْعَثُ الأساسِي لِلْفَسادِ.

إضافةً إلى ذلكَ، كانَ يُعرَضُ هذا السَّوألُ المتطرِّدُ القَلْبُ، في تَضاعيفِ تَحْلِيلاتِ أَهْلِ قُونيةَ وأقاويلهم:

مَنْ شَمْسٌ هَذَا؟ - لِمَاذَا لَا يُوضَحُ رِسَالَتُهُ بِنَفْسِهِ؟ - مِنْ أَيْنَ جَاءَ؟. [٢٨٨] لِمَاذَا سِغَرُضُ تَنَاقُضَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ، الَّتِي ظَاهِرُهَا جَمِيلٌ وَقَتَانٌ وَبَاطِنُهَا كَالشَّيْطَانِ، فِي مَدِينَةِ قُوْنِيَّةٍ؟ كَانَ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ إِنَّ شَخْصِيَّةَ شَمْسٍ مَبْهَمَةٌ وَرَامِزَةٌ. شَمْسٌ سَخِرَ مِنْ عَقَائِدِ النَّاسِ. فِي نَفْسِ شَمْسٍ مَطَالِبٌ لَا يَقُولُهَا لِكُلِّ أَحَدٍ. شَمْسٌ حَادُّ الطَّبْعِ وَمُشَاكِسٌ، وَلَا يَأْذُنُ لِأَحَدٍ بِأَنْ يَنَاقِشَهُ. وَحَتَّى فُضِّلَ الزَّمَانِ الْمَاضِي وَعَارِفُوهُ، مِثْلُ أَبِي يَزِيدَ وَالْحَلَّاجِ وَشِهَابِ الدِّينِ الشُّهْرَوَرْدِيِّ وَمُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَرَبِيِّ وَالْفَخْرِ الرَّازِيِّ، لَا يَقْبَلُهُمْ شَمْسٌ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ أَيْضًا قَدْ ارْتَكَبُوا أخطاءً. وَيَعْتَرِفُ شَمْسٌ بِالْإِغْتِرَارِ وَالتَّفَاخُرِ، فَهُوَ وَخَذَهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدُلَّ النَّاسَ جَمِيعًا عَلَى الْعَالَمِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْإِنْسَانِ، كَمَا هُوَ عَلَيْهِ حَقِيقَةٌ، وَيَصِفُ أَجْزَاءَ هَذَا الْعَالَمِ وَدَقَائِقَهُ. وَلَكِنَّهُ هُوَ، بِمَعُونَةِ مَدَدِ الْعِشْقِ السُّخْرِيِّ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعْرِفَ هَذَا الْعَالَمَ، وَيَبَيِّنَ كَيْفِيَّتَهُ وَمَعْرِفَتَهُ لِلْمُهْتَمِّينَ بِذَلِكَ، وَمِنْ خِلَالِ ذَلِكَ يَتَّصِلُ بِالْعُشَاقِ الْحَقِيقِيِّينَ فِي الْعَالَمِ.

وَقَدْ أَعْلَنَ مُخَالِفُو شَمْسٍ وَأَعْدَاؤُهُ أَنَّ شَمْسًا، بِمُسَاعَدَةِ مَوْلَانَا، يَرِيدُ أَنْ يَخْلَعَ عَلَى السَّمَاعِ وَالرَّقْصِ شَيْئًا مِنَ التَّجَلِّيِّ وَالْإِحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى أَنْ يُنْصُوا سَاعَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي جَلَسَاتِ السَّمَاعِ الْمُشْكِرَةِ الْمُطْرِبَةِ. كَانَ شَمْسٌ يَرِيدُ، بِمُسَاعَدَةِ أَنْفَاسِهِ الْحَارَّةِ الَّتِي تَسْتَعِينُ بِالسُّخْرِ، أَنْ يَجْعَلَ مَوْلَانَا أَيْضًا عَاشِقًا لِلرَّقْصِ مُتِمِّمًا بِهِ، وَيَعْلَمُهُ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَفْهَمَ فِي حَلْقَةِ الدَّرَاوِشِ الدَّوَارِينَ سِرَّ الْجُنُونِ وَالْهِيَامِ وَالْوَلَهِ، فَهَمًّا صَحِيحًا. وَفِي الْمَحَافِلِ الْمُخْتَلِفَةِ، أُعْلِنَ أَنَّ شَمْسًا بَيَّنَّ صَرَاحَةً أَنَّ:

السَّمَاعُ فَرِيضَةٌ عَلَى أَهْلِ الْحَالِ. وَهُوَ لِأَهْلِ الْقَلْبِ وَاجِبٌ، وَأَيْنُ النَّايِ وَالْأَحَانُ الدُّفَّ وَالرَّبَابِ وَخَيِّ نَاطِقٌ طَاهِرٌ، وَرَاحَةٌ لِأَرْوَاحِ الْأَخْيَاءِ.

لا يُقِيمُ شَمْسٌ وَزَنًا لِلْعَقْلِ وَالْمَنْطِقِ وَالِاسْتِدْلَالِ، وَلَا يَعُدُّ هَذِهِ الْمَلَكَاتِ ضَرُورِيَّةَ
لِإِدْرَاكِ الْحَقَائِقِ. شَمْسٌ شَاعِرٌ مَدِيحِ الْعِرْفَانِ، وَكَانَ يَعُدُّهُ أَهَمُّ مُبَيِّنٍ لِمُخَصِّصِ الْحَيَاةِ
الْمَعْنَوِيَّةِ لِلنَّاسِ، وَأَخْطَرَ مُعَرِّفٍ لِرَبَاطِ الْإِنْسَانِ بِالْحَقِيقَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَحُلَّ قُوْنِيَّةُ فِي
هَذِهِ الْمَرَّةِ لُغْزُ شَمْسٍ. يَبَارِزُ شَمْسٌ، بِكَلِمَاتِهِ وَسُلُوكِهِ، عَادَاتِ النَّاسِ، وَحَاجَاتِ
زَمَانِهِمْ، وَأَصْغَرَ جَزَائِاتِ أُمُورِ حَيَاتِهِمْ. وَهُوَ لَا يَقْبَلُ أَيَّ إِنْسَانٍ، وَلَا يَرِيدُ أَنْ يَفْهَمَ عَظَمَةَ
السَّابِقِينَ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَى الْجَمِيعِ أَنْ يَفْهَمُوهُ. وَمِنْ خَاصِّيَّاتِهِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، أَنَّهُ يَتَجَاوَزُ
حَدَّهُ دَائِمًا بِتَخْلِيْقِ كَبِيرٍ، [٢٨٩] وَيَنْفِي الْآخَرِينَ. وَقَدْ صَارَ مِنْ أَهَمِّ وَظَائِفِ الْمُحَافِلِ
الرَّوْحَانِيَّةِ فِي قُوْنِيَّةِ، أَنْ تَطْرُدَ هَذَا الطَّاعِيَةَ الْمُتَمَرِّدَ الْمُتَشَرِّدَ، أَوْ تُشَكِّتَهُ وَتَقْمَعَهُ كَانَ شَمْسٌ
فِي أَثْنَاءِ الدَّوْرَانِ مَسْرُورًا بِصِيَاغِ الْمُخَالَفِينَ وَنَمَائِمِهِمْ:

أَتَيْنَا بِالْعَارِفِ إِلَى الدَّوْرَانِ، وَالصُّوْفِيِّ إِلَى السَّمَاعِ

وَأَلْقَيْنَا الشَّاهِدَ فِي الرَّقْصِ، وَالْحَائِثَ فِي الشَّرَابِ

جَلَسَ شَمْسٌ مَعَ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ فِي زَاوِيَةِ مُخْتَلَى كَانَ مَعْبَدًا لِلْعِشْقِ، وَأَغْلَقَ
الْبَابَ أَمَامَ الْأَغْيَارِ، حَيْثُ لَا أَحَدٌ يَسْمَعُ صَوْتِ شَمْسٍ، وَلَمْ يَكُنِ الْمُخَالَفُونَ يَعْلَمُونَ
مَاذَا يَحْدُثُ هُنَاكَ. وَمِنْ الْمُنَاسِبِ هُنَا أَنْ أَنْقُلَ مِنْ كَلَامِ الْأَفْلَاكِيِّ وَسِيَهْسَالَارِ [مُؤَلَّفِي
سِيرَتَيْنِ لِمَوْلَانَا] رِوَايَاتٍ مُعْتَمَدَةً لِمَا حَدَّثَ فِي عَوْدَةِ شَمْسٍ إِلَى قُوْنِيَّةِ. وَإِنَّهُ مِنْ
التَّوْفِيقِ أَنَّ شَمْسَ الدِّينِ أَحْمَدَ الْأَفْلَاكِيِّ، مُؤَلِّفَ كِتَابِ «مُنَاقِبِ الْعَارِفِينَ»، يُعَدُّ مِنْ
مُعَاصِرِي مَوْلَانَا وَابْنِهِ سُلْطَانِ وَلَدِهِ؛ وَأَنْ فَرِيدُونَ بَنَ أَحْمَدَ سِيَهْسَالَارِ، الَّذِي أَلْفَ
رِسَالَةً فِي أَحْوَالِ مَوْلَانَا، مِنَ الْعَارِفِينَ الَّذِينَ أَدْرَكُوا مُحَضَّرَ مَوْلَانَا، بِإِخْلَاصٍ.

وَقَدْ كَتَبَ سِيَهْسَالَارُ يَقُولُ: إِنَّهُ بَعْدَ رُجُوعِ شَمْسٍ إِلَى قُوْنِيَّةِ، امْتَزَجَ حَضْرَةُ مَوْلَانَا
بِشَمْسِ الدِّينِ أَكْثَرَ مِنْ قَبْلُ، وَأَظْهَرَ لَهُ مِنَ الْإِخْلَاصِ مَا يَتَجَاوَزُ الْحُدُودَ، وَكَانَا
مُسْتَغْرَقَيْنِ فِي الْحَدِيثِ لَيْلًا وَنَهَارًا.

وكتب الأفلاكي في «مناقب العارفين»:

إثر عودة شمس... كان مولانا شمس الدين يُثني على جهود حَضرة سُلطان وَلَد
والطافه في خدمة مولانا جلال الدين، ويتش لذلك ويقول:
- قُلْتُ لِسُلْطَانٍ وَلَدٍ كَذَا، فَقَالَ كَذَا، وَأَجَابَنِي.

الآن، المراد من موهبة الحق تعالى حالتان: الأولى «سُر» [فارسية بمعنى رأس]،
والثانية «سِر». قدَّمْتُ الرَّأْسَ [سُر - بالفارسية] فِدَاءً فِي طَرِيقِ مَوْلَانَا، بِإِخْلَاصٍ تَامٍ؛
وَأُعْطِيتُ «سِرِّي» لِسُلْطَانٍ وَلَدٍ؛ لِيَكُونَ حَضْرَةُ مَوْلَانَا شَاهِدَ حَالٍ. لَوْ كَانَ لِسُلْطَانٍ وَلَدٍ
عُمَرُ نُوحٍ، وَقَضَى ذَلِكَ كُلَّهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالرِّيَاضَةِ، لَمَّا تَسَرَّ لَهُ هَذَا الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ مِنِّي
فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ^(*). أَمُلُ أَيْضًا أَنْ يَظْفَرَ مِنْ حَضْرَتِكُمْ بِنَصِيبٍ، وَيَصِلَ إِلَى كَمَالِ
الشَّيْخِيَّةِ، وَيَغْدُو شَيْخًا كَامِلًا.

[٢٩٠] كَذَلِكَ يَرْوِي سِبْهَسَالَار:

بَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ، طَلَبَ شَمْسُ الدِّينِ التَّبْرِيزِي يَدَ فِتَاةٍ اسْمُهَا كِيمِيَا، كَانَتْ قَدْ رُئِيتْ
فِي حِجْرِ حَرَمِ حَضْرَةِ مَوْلَانَا؛ لِتَكُونَ زَوْجًا لَهُ. فَلَبَّى مَوْلَانَا مُلْتَمِسَهُ بِسَعَادَةٍ تَامَةٍ.
وَلِأَنَّ الزَّمَانَ كَانَ شِتَاءً، رَتَّبَ مَوْلَانَا خِيْمَةً فِي مَنْزِلِ شَتَوِي فِي إِيوَانٍ.. إِذْ رُفِّ
شَمْسُ الدِّينِ هُنَاكَ. تِلْكَ الْحَيِمَةُ الشَّتَوِيَّةُ جَعَلَتْ... عَلَاءَ الدِّينِ، الَّذِي كَانَ الْإِبْنَ
الْمَتَوَسِّطَ لِمَوْلَانَا، وَكَانَ فِي الْحُسْنِ وَاللِّطَافَةِ... وَسِيمَ الْعَالَمِ، كُلَّمَا جَاءَ لِتَقْبِيلِ يَدِ
وَالِدِهِ وَوَالِدَتِهِ وَمَرَّ بِصَحْنِ الْإِيوَانِ... يُثِيرُ غَيْرَةَ شَمْسِ الدِّينِ. حَتَّى إِنَّهُ قَالَ لَهُ
مَرَاتٍ كَثِيرَةٍ بِطَرِيقٍ... التَّصِيحَةِ:

* - مِنْ كَلَامِ شَمْسٍ فِي مُحَضَّرِ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ وَابْنِهِ سُلْطَانٍ وَلَدٍ، وَالرَّحْلَةُ هُنَا رِحْلَةُ شَمْسٍ وَسُلْطَانٍ وَلَدٍ فِي
طَرِيقِ الْعَوْدَةِ بِشَمْسٍ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى قُونِيَّةَ [الترجم].

— أَيْ نُورَ الْعَيْنِ، مَهْمَا كُنْتَ مَتَحَلِّياً بِآدَابِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فَعَلَيْكَ بَعْدَ الْآنَ أَنْ تَقْلُلَ مِنْ هَذَا التَّرَدُّدِ.

هذه الكلمة أزعجته... وعندما خرج وحكى ذلك لجماعة، اغتنمت الجماعة الفرصة وقالت له:

«أمر عجيب. جاء الأفريقي «شمس المشتد»، ودخل بيت مولانا، ثم لا يسمع لحبيب صاحب البيت بالمرور في بيته؟!»

استطاع المخالفون لشمس ومولانا أن يضحكوا علاء الدين، وأن يثرثروا ضد شمس في المحافل والمجالس، ويقدموا مولانا للناس على أنه مجنون، وشمساً على أنه ساحر، ليعدوا مقدمات ثورة عوام قونية عليه.

مرافقة علاء الدين محمد، الابن الأصغر لمولانا، وتناغمه مع المخالفين لشمس، كانا توفيقاً كبيراً لأعداء أسرة مولانا. ومن ناحية أخرى، جاء في رواية الأفلاكي في «مناقب العارفين»، أن مولانا بعد الاتصال بشمس كان قد قطع رباط المحبة والألفة والصُحبة مع الأجرة والأقرباء بغتة، حتى إنه أحياناً لم يكن يرى أولاده وأحبائه لأيام أيضاً، وهكذا قال في غزلية:

عندما رأيتُ أن رُوحِي رُوحُكَ

صرتُ غريباً عن الأقارب، من أجلِكَ

ومن عشيقِكَ هجرتُ بيت سُكنائي

صرتُ قريناً لآلِمِ عشيقِكَ، أسكنُ معه في بيتٍ واحدٍ

فتمال، يا مَنْ يَنشُدُ أسرارَ العالم

[٢٩١] انظر إليّ، فقد صرتُ أنا أسراراً

نَعَالَ، أَيُّهَا الْمَغْشُوقُ، فَقَدْ صِرْتُ

حَتَّى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مُقِيمًا فِي حَانَةِ الْخَمَارِ

انْقَطَعْتُ فَتْرَةً عَنِ الْأَغْبَارِ

وَالآنَ صِرْتُ أَغْيَارًا مَعَ نَفْسِي

وَكُنْتُ مَخْبُوسًا كَالنَّقْطَةِ

لِأَنْنِي دُرْتُ حَوْلَ النَّقْطَةِ مِثْلَ الْفَرْجَارِ

نَعَالَ، فَقَدْ صِرْتُ مِنْ عَشِيقِكَ مَخْنُونًا

وَأِنْ كُنْتُ مَدِينَةً، فَقَدْ صِرْتُ خَرِبًا مَهْدَمًا

قَرَأْتُ حِكَايَاتِ الْعَاشِقِينَ لَيْلًا وَنَهَارًا

وَالآنَ، فِي عِشْقِكَ، صِرْتُ حِكَايَةً^(١)

صار شمس التبريزي ملك إلهام جلال الدين البلخي. ويعترف جلال الدين في كتاب

المثنوي بأنه يتصور أحيانًا أنه هو ومعشوقه، شمس التبريزي، ليسا شخصين، بل هما شخص واحد:

قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ فِيكَ حَتَّى أَنِّي

مِلْتُ مِنْكَ مِنَ الرَّأْسِ إِلَى الْقَدَمِ

وَلَيْسَ عِنْدِي مِنْ وَجُودِي سِوَى اسْمِ

لَيْسَ فِي وَجُودِي إِلَّا أَنْتَ، أَيُّهَا الْمُرَادُّ الْجَمِيلُ

ولهذا السَّبَبُ فَنَيْتُ أَنَا هَكَذَا

فِيكَ، كَمَا يَفْنَى الْحُلُّ، يَا بَحْرَ الْعَسَلِ^(١)

كَانَ مَوْلَانَا يَقْصُ حِكَايَاتِ حَيَاتِهِ الْحُلُوَّةَ وَالْمَرَّةَ بِكُلِّ إِخْلَاصٍ لِحَبِيبِهِ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَانَتْ فِي طَوْلِ صَحِيفَةِ الْأَزَلِّ وَالْأَبَدِ، وَلَمْ تَكْتَمَلْ. وَهَذَا مَعْلَمٌ حَاجَةٌ رُوحِيَّةٌ عَمِيقَةٌ، لَدَى مَوْلَانَا، إِلَى مُوَاسٍ مُشَارِكٍ فِي اللُّغَةِ، خَبِيرٍ بِالْآلَامِ، مُتَجَرِّدٍ مِنْ فِصْلِ عَنِ نَفْسِهِ، مُبَيِّنٍ لِلْحَطَّاتِ لِقَاءٍ مُوجِدٍ لِلْعِشْقِ، يُزِيلُ التَّلَوِّنَاتِ وَالتَّعْلِقَاتِ مِنْ وَجُودِ الْعَاشِقِ. وَفِي هَذَا الشَّأْنِ أَتَشَدُّ مَوْلَانَا:

انْقَضَى اللَّيْلُ، وَلَمْ تَكْتَمَلْ حِكَايَتُنَا

وَلَا بُدَّ مِنْ رَوَايَةِ الْحِكَايَةِ كُلِّهَا

وَاللَّهُ، إِنَّهُ مِنْ زَمَانِ آدَمَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

[٢٩٢] لَمْ تَقْصُرْ هَذِهِ الْحِكَايَةُ، وَلَمْ تَطُلْ^(٢)

وَالْمُسْلِمُ أَنَّ شَمْسًا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ بِمَجِيئِهِ إِلَى الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ سَتَزْدَادُ حِدَّةُ عَدَاوَةِ الْمُخَالَفِينَ الْمُتَعَصِّبِينَ، لَهُ، وَسَيَتَهَمُهُ الْعَوَامُّ بِالسَّخَرِ، لَكِنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْجِزَ مُهِمَّتَهُ بِالتَّضْحِيَةِ وَبِتَحْمُلِ كُلِّ الْمَنْغَصَاتِ، وَيَحْوَلَ مَلَأَ الرُّومَ إِلَى عَارِفٍ مُخْلِصٍ وَمُصَحِّحٍ، وَيُضَرِّمَ النَّارَ فِي غَابَةِ فِكْرٍ جَلَالِ الدِّينِ لِسَنَوَاتٍ، عَلَى نَحْوِ يَكُونُ فِيهِ بَعْدَهُ. كَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ الدَّكْتُرُ شَفِيعِي كَذَكْنِي - بَاحِثًا عَنْ مِضْرَابِ [رِيْشَةِ الْعَازِفِ] جَدِيدٍ؛ لِكَيْ يَهْدِي رُوحَهُ الْقَلْقَ لِمُدَّةٍ. وَيُمْكِنُ عَرَضُ هَذَا السُّؤَالِ: مَاذَا كَانَ هَذَا الْعِشْقُ الَّذِي انشَغَلَ بِهِ مُدْرَسُ قُوْنِيَّةِ الْكَبِيرِ؟ أَجَابَ الْأُسْتَاذُ الدَّكْتُرُ شَفِيعِي كَذَكْنِي عَنْ هَذَا السُّؤَالِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ:

١- الْمُقْتَرَى: ٢٠٢٣/٥ - ٢٥.

٢- دِيْوَانُ شَمْسِ تَبْرِينَ الْغَزَلِيَّةِ ٢٠١.

العارف إلى الدّوران، والصّوفي.

«إِنَّ عِشْقَ مَوْلَانَا شَمْسًا التَّبرِيزِيَّ هُوَ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، عِشْقُهُ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ. وَعِنْدَ الصُّوْفِيَّةِ، أَنَّ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ كَانَ لَهُ عَلَى امْتِدَادِ التَّارِيخِ تَجَلِّياتٌ مُخْتَلِفَةٌ. الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ لَهُ فِي كُلِّ عَصْرِ تَجَلٍّ وَظُهُورٌ^(١)».

١- من مقدّمة أ.د. شفيعي كدّگني لكتابه «گزیده دیوان شمس»، ص ١٧.

- قَالَ أَخَذُهُمْ: إِنَّ هَذَا السَّاعَ
يَقْلُلُ الْجَاهُ وَالشُّهْرَةُ وَالْحَيَاءُ.
- لَا أُرِيدُ الْجَاهُ؛ لِأَنَّ الْعِشْقَ
هُوَ جَاهِي فِي الدَّارَيْنِ.
(ديوان شمس تبريز: الغزلية ٢٠٦٣)

مَرْحَبًا، أَيُّ شَمْسِ الْمَضِيِّ لِقَلْبِي

كَانَ شَمْسٌ فِي نَظَرِ جَلالِ الدِّينِ الْبَلْخِي عَالِمًا مُحَسِّنًا وَعَارِفًا بَارِزًا وَمَمْتَازًا، جَذَبَ
إِلَيْهِ، كَمَا يَقُولُ الْمُخَالِفُونَ وَالْحَاسِدُونَ، مَوْلَانَا وَسَحَرَهُ، كَالْجَوْهَرِ اللَّالِئِ، وَكَانَ فِي
السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ جَدِيرًا بِكُلِّ ثَنَاءٍ... وَيَفِيضُ كَلَامُهُ بِالنَّشَاطِ وَالْهَيْجَانِ وَالْإِثَارَةِ.

كَانَ مَوْلَانَا يَقْضِي لَحْظَاتِهِ وَأَوْقَاتِهِ الْجَمِيلَةَ فِي قُوْنِيَّةٍ إِلَى جَانِبِ شَمْسٍ، الَّذِي
بَعُودَتُهُ غَرِقَ فِي الْأَشْوَاقِ وَكَانَ يُحِسُّ فِي نَفْسِهِ بَهْجَانٍ عَجِيبٍ. كَانَ كُلُّ صَبَاحٍ وَكُلُّ
مَسَاءٍ عِنْدَهُ مَوْلِدًا لِأَسْرَارٍ جَدِيدَةٍ، يَجِبُ أَنْ يَكْشِفَ السَّتَارَ عَنْ وَجْهِهَا شَمْسُ الْجَوَابِ
لِلْآفَاقِ. لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ طَرِيقٍ لِلْفِكْرِ الْبَعِيدَةِ فِي مُخْتَلَى مَوْلَانَا، وَكُلُّ الْأَغْلَالِ الَّتِي قَيَّدَتْ
بِهَا التَّقَالِيدُ الْقَدِيمَةُ يَدَيِ مَوْلَانَا وَقَدَمَيْهِ كَانَتْ تُفَكُّ وَاحِدًا إِثْرَ الْآخَرِ بِمَدَدِ شَمْسٍ،
يُسِّرُ وَسَهُولَةٍ. جَعَلَ شَمْسُ شُعَاعَ حَيَاةِ مَوْلَانَا أَكْثَرَ إِشْرَاقًا، وَظَهَرَتْ عِنْدَ مَوْلَانَا
الْإِبْدَاعِيَّةُ الْفَنِيَّةُ وَالْهَيْجَانُ الْعِرْفَانِي. وَإِنَّ سُورَ مَوْلَانَا، وَتَوْبَتَهُ، وَامْتِلَآءَهُ بِالتَّفَتُّحِ
وَالْإِشْرَاقِ، مَبْنَعُهَا مَجِيءُ دَوْلَةِ الْعِشْقِ. وَفِي تَصَوُّرِ الْمُؤَلِّفِ (*) أَنَّ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ
نَفْسَهُ كَانَ يَرَى نَفْسَهُ غَالِبًا غَارِقًا فِي أَمْوَاجِ نُورِ شَمْسِ مَوْلَانَا، الَّذِي صَارَ أَسَاسًا لِحُجُوبِهِ.
وَنَرَى هَذَا الشُّكْرَ وَاضِحًا فِي كَثِيرٍ مِنْ مَنْظُومَاتِهِ الْغَنَائِيَّةِ:

* - يَعْنِي الْأُسْتَاذَ عَطَاءَ اللَّهِ تَدِينٍ [الْمُتَرْجِمَ].

كُنْتُ مَيِّتًا، صِرْتُ حَيًّا، كُنْتُ بَاكِيًا، صِرْتُ ضَاحِكًا

جاءت دَوْلَةُ الْعِشْقِ، وَصِرْتُ أَنَا دَوْلَةً رَاسِخَةً^(١)

[٢٩٤] وقد وَصَفَ شَمْسٌ عَظَمَةَ هَذِهِ اللَّحَظَاتِ الْمُقَدَّسَةِ فِي كِتَابِهِ «مَقَالَات

شَمْسٍ» عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

كُتِبَ عَلَى شَاهِدَةِ قَبْرِ:

«عُمُرُ هَذَا كَانَ سَاعَةً وَاحِدَةً» وَإِنِّي مِنَ الْعُمُرِ هَذِهِ السَّاعَةَ الَّتِي جَلَسْنَا فِيهَا مَعَ

حَضْرَةِ مَوْلَانَا فِي زَاوِيَةِ خَلْوَةٍ. فِي هَذِهِ السَّاعَةِ، هُوَ فِي الْعَالَمِ الْقُطْبُ^(٢). كَمْ أَنَا
مَسْرُورٌ بِصُخْبَتِكَ الَّتِي أَعْطَيْتَنِي هَذِهِ الْمَحَبَّةَ.

اللَّهُ يُعْطِيكَ قَلْبِي هَذَا. مَا ذَلِكَ الْعَالَمُ، وَمَا هَذَا الْعَالَمُ عِنْدِي؟ - وَمَا قَعْرُ الْأَرْضِ،
وَمَا أَعْلَى السَّمَاءِ عِنْدِي؟ كُلُّ مَكَانٍ يَصْلُحُ إِلَى جَانِبِكَ.

تَعَهَّدَ شَمْسٌ بِأَنَّهُ مَا دَامَ حَيًّا، فَسَيَحْيَا بِعِشْقِ مَوْلَانَا، وَيَمُوتُ بِعِشْقِهِ.

وَنُرِيدُ نَحْنُ، بِمُسَاعَدَةِ الْكِتَابَاتِ الَّتِي بَقِيَتْ لَنَا مِنَ الْقُرُونِ وَالْأَعْصَارِ الْخَالِيَةِ، أَنْ

نَبْطِطَ الْجَنَاحَيْنِ، وَنَطِيرَ نَحْوَ مُخْتَلَى شَمْسٍ وَمَوْلَانَا، وَنَرَى: مَاذَا حَدَّثَ هُنَاكَ؟ - وَمَا

النِّكَاتُ الَّتِي كَانَا يَتَحَادَّثَانِ فِيهَا؟ - وَلِمَاذَا صَارَ مَوْلَانَا الْمَتَفَضِّلُ، وَالْمَتَكَلِّمُ، مَسْحُورًا

بِكَلَامِ شَمْسٍ الْآفَاقِيِّ؟ - وَلِمَاذَا تَتَجَلَّى أَمَامَهُ فِي أَكْثَرِ أَنْشِيدِهِ الْغِنَائِيَّةِ سَيِّمَاءُ شَمْسٍ؟

وَقَدْ تَصَرَّحَتِ الْقُرُونُ، وَبَقِيَتْ حِكَايَاتُ الْقُرُونِ الْآتِيَةِ. حِكَايَاتُ مَوْلَانَا وَشَمْسٍ

يَجِبُ التَّمَاشُهَا فِي كَلَامِهِمَا، وَفِي أَشْعَارِ مَوْلَانَا، وَفِي كِتَابِ «فِيهِ مَا فِيهِ» لِمَوْلَانَا، وَفِي

«مَقَالَاتِ شَمْسٍ»، وَلَيْسَ فِي كُتُبِ التَّذَاكِيرِ وَالسَّيْرِ.

١- ديوان شمس تئريز: الغزلية ١٣٩٤.

٢- مقالات شمس تئريزي ص ٦٣٨.

يقول مولانا: إني في أيام الخلوة الجميلة أمام شمس، كنت أحس بأن روح هذا الآفاقي^(١) ذو ماهية نارية؛ كنت أحس بجاذبية وسحر في نظراته. ولست أدري لماذا في تلك اللحظات كان يخطر في فكري أن الفراق سيفصل أحداً عن الآخر سريعاً؟ لست أدري لماذا كنت أنظر لدقائق نظرات متحسرة إلى المشهد البديع الذي كنا نراه؟.

يزوي مؤلف كتاب «مناقب العارفين» عن حرم مولانا، كرا خاتون، ما يأتي: في أحد الأيام، في صميم الشتاء، كان مولانا جالساً مع حضرة شمس التبريزي في المختل، وكان مولانا متكئاً على ركة شمس الدين، وكنت أنا قد وضعت أذنًا وإعيةً على شق في المختل [٢٩٥] باتجاههما؛ لكي أسمع: ما الأسرار التي يُذيعانها، وما الذي يجري بينهما. أشار حضرة مولانا لجَناب شمس الدين:

- نقيم الصلاة، فتأمم بنا.

قال شمس:

- في وجودك، لا إمامة لأحد.

وفي النهاية، قام مولانا من مكانه، وتأمم.

إن نفل قصة جميلة لعاشق ومَعشوق مثل شمس ومولانا، ووصف فراق ذينك الاثنين ووصالهما، ليس عملاً ميسراً. يجب أن تُقرأ قصة المتألمين خلسةً، والعاشق يجب أن يؤثر فيه ألم العشق والتحرُّق عند المتألمين. ومن ذا الذي في مقدوره أن يصف صفاء سماء مجالس شمس ومولانا، جيِّداً؟ أو يصف، بمساعدة كلام مُناظرٍ سحريٍّ، محافل خلوتهما؟

انظروا، كيف يرى شمس، الذي هو مُوجد حياة جديدة لمولانا، في مرآة روحه

١- كان ذلك لقباً يُعطيه مخالفو شمس في قونية له، بمعنى: المتشرد، جواب الآفاق [المؤلف].

فَكَرَّهَ الْبَاطِنِيَّةَ. فَاسْمَعُوا دَوِيَّ صَوْتِ شَمْسٍ الْأَخَازِ إِذْ قَالَ:

«إِنَّ قَوْلًا وَاحِدًا لِمَوْلَانَا يَعْدُلُ عِنْدِي أَلْفَ دِينَارٍ؛ لِأَنَّ الْبَابَ الَّذِي كَانَ مُغْلَقًا يُفْتَحُ

بِسَبَبِهِ. وَاللَّهُ، إِنِّي فِي مَعْرِفَةِ مَوْلَانَا مُقَصِّرٌ. لَا نِفَاقَ وَلَا تَكَلُّفَ وَلَا تَأْوِيلَ فِي قَوْلِي:

«إِنِّي فِي مَعْرِفَةِ مَوْلَانَا مُقَصِّرٌ».

فِي كُلِّ يَوْمٍ أَعْلَمُ شَيْئًا جَدِيدًا عَنْ حَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا عِنْدِي قَبْلُ^(١).

بَعْدَ ذَلِكَ خَاطَبَ شَمْسٌ مُتِمِّي مَوْلَانَا، قَائِلًا:

«اعْرِفُوا مَوْلَانَا جَيِّدًا؛ لِكَيْ لَا تُذْهَبُوا بَعْدَ ذَلِكَ».

عَيْنُ الصُّورَةِ وَالْكَلَامِ الْجَمِيلِ الَّذِي يَقُولُهُ، مَا دُمْتُمْ لَمْ تَرْضَوْا بِهِ، لِأَنَّ خَلْفَ هَذَا

الْكَلَامِ شَيْئًا، اطْلُبُوهُ مِنْ مَوْلَانَا.

شَمْسُ التَّبَرِيزِيِّ، قَوْسُ فَرْحِ سَمَاءِ الْعِرْفَانِ، لَهُ الْحَقُّ فِي أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا أَمَامَ مُطَرِّبِ

عَالَمِ الْحَقِيقَةِ وَنَاطِمِ مَدِيحِهِ؛ لِأَنَّ جَلَالَ الدِّينِ مَوْلَانَا أَنْشَدَ فِي كِتَابِ «الْمِثْنَوِيِّ» الْجَمِيلِ:

[٢٩٦] تِلْكَ الْكَلِمَةُ الَّتِي أَخْفَيْتُهَا عَنْ آدَمَ

أَقُولُهَا لَكَ، يَا مَنْ أَنْتَ جُمْلَةُ أَسْرَارِ الْعَالَمِ

تِلْكَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَمْ يَنْطِقْ بِهَا الْمَسِيحُ

وَلَمْ يَذْكُرْهَا الْحَقُّ، غَيْرَةً عَلَيْهَا، إِلَّا لَنَا^(٢)

وَيَعْتَرِفُ شَمْسٌ بِأَنَّ الْأَوْقَاتَ الَّتِي قَضَاهَا بِقُرْبِ مَوْلَانَا كَانَتْ فِيهَا ذَرَاتُ وَجُودِهِ

كُلُّهَا فِي حَالِ اهْتِيَاجٍ وَتَأَثُّرٍ مِنْ فَرَطِ السَّرُورِ وَالِابْتِهَاجِ. وَكَانَ مَوْلَانَا يَعُدُّ زَمَانَ لِقَائِهِ

شَمْسًا زَمَانَ اهْتِياجِهِ وَوَلَّهَ واضطرابِهِ. وفي تِلْكَ الأَيَّامِ، كان شَمْسٌ يجلسُ عندَ بابِ الْمُخْتَلَى ويجعلُ مَوْلانا في داخِلِ الحُجْرةِ، وكلِّما شاءَ أَحَدٌ أنْ يَلْقَى مَوْلانا كان يقولُ لَهُ: ماذا أَحْضَرْتَ، وماذا تُعْطِي مُقابِلًا لِكَي أُظْهِرَهُ لَكَ؟

كان شَمْسٌ يريدُ أنْ يَكُونَ مَوْلانا لَهُ وَخَدَهُ؛ لَأَنَّهُ كان يَعْلَمُ القَصْدَ مِنْ لِقَاءِ جَماعَةٍ مِنْ أَهْلِ قُوْنِيَّةِ مَوْلانا، وأنَّ الدَّوافِعَ إلى ذلكَ إِنِّما هي أنْ يدفعوه مِنْ جَدِيدٍ، بالكلامِ، إلى الدَّرْسِ والبَحْثِ والِقِيلِ والقالِ.

وكان شَمْسٌ قد قالَ لِمَوْلانا مرارًا:

امحُ الأوراقَ، إذا كُنْتَ شَرِيكًا لَنَا في الدَّرْسِ

لأنَّ دَرَسَ العِشْقِ لا يَتَسِعُ لَهُ الدَّفْتَرُ

وكان شَمْسٌ أيضًا مَخالِفًا لِلجُلوسِ في الخَلْوةِ والانزواءِ؛ ولهذا السَّبَبِ عَقَدَ عَدَدٌ مِنْ الأشخاصِ الذين كانوا لِسَنواتٍ يَسْلُكونَ طَريقَ الرِّياضَةِ والاختلاءِ العَزَمَ عَلَى أنْ يَطْرُدُوهُ مِنْ قُوْنِيَّةٍ؛ ذلكَ لِأَنَّ شَمْسًا كان يَنْشُدُ العِشْقَ والنَّشاطَ، لا الانزواءَ والاختلاءَ والرِّياضَةَ. كان العِشْقُ والحُبُّ هو الأسلوبُ الَّذي دافَعَ عَنْهُ شَمْسٌ، وكان يريدُ أنْ يُشِيعَ تِلْكَ الأمانَةَ الَّتِي كان قد أَتى بِها هَدِيَّةً مُسافِرٍ [أَرْمغان - بالفارسيَّة] مِنْ خُراسانَ العُظْمى مَعَهُ، بَيْنَ أَفرادِ النَّاسِ. كَانَتْ مَقاوِمَةُ المُرَائيينَ، ومُعارَكَةُ الانزواءِ في الخَلْوةِ والمتعصِّبينَ، ومُؤادَةُ المتعشِّقينَ والمحِبِّينَ، الأسلوبُ الَّذي في هَذِهِ المَرَّةِ يتحدَّثُ عَنْهُ شَمْسٌ جِهارًا، وَمِنْ دُونِ أنْ يَخْشَى عاقِبَتَهُ، في كُلِّ مَكانٍ، وفي المَحافِلِ جَميعًا. وَلَيْسَ مِنْ دُونِ سَبَبٍ أنْ كان مَوْلانا يَصيحُ ويقولُ لِمَخالِفِي شَمْسٍ:

- لَيْسَ شَمْسٌ عالِمًا أَكْبَرَ فَقَطْ، بل حَقِيقَةُ ذلكَ.

كان قَضاءُ قُوْنِيَّةِ بَعْدَ مَجيءِ شَمْسٍ مَمْتَرِجًا بِالتَّهْمِ والشُّكاوي والسُّخْريات اللَّاذِعَةِ

مَرْحَبًا، أَي شَمْسُ الْمَضِيِّ لِقَلْبِي
والاعتراضاتِ وَالْقِلِيلِ وَالْقَالَ، وَكَانَتْ الصَّيْنِحَاتُ وَالْأَصْوَاتُ الْمَرِيبَةُ تَصِلُ إِلَى
الْأَسْمَاعِ. وَقَدْ زَادَ تَعْظِيمُ مَوْلَانَا شَمْسًا، وَإِكْرَامُهُ إِيَّاهُ الَّذِي لَا حُدُودَ لَهُ، اضْطِرَامَ نَارِ
الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ بَيْنَ أَصْحَابِ النَّوَايَا السَّيِّئَةِ. [٢٩٧] وَلَمْ يَكُنْ شَمْسٌ نَفْسُهُ غَيْرَ مُبَالٍ أَمَامَ
هَذِهِ الْأَحْدَاثِ، وَكَانَ يَقُولُ: لَا بُدَّ مِنَ اللَّطْفِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْقَهْرِ، وَشَمْسٌ جَامِعٌ لِهَذَيْنِ.

وَعِنْدَمَا سَأَلَ ابْنُ مَوْلَانَا الْأَصْغَرَ، عَلَاءُ الدِّينِ، أَبَاهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْغَضَبِ:

- كَيْفَ تَتَّبِعُ بَشَرًا مَتَشَرِّدًا مَجْنُونًا لَيْسَ لَدَيْهِ تَوَازُنٌ رُوحِيٌّ؟

أَجَابَ مَوْلَانَا:

- اْعْلَمْ، بَنِيَّ، أَنَّ شَمْسًا شَيْخٌ كَامِلٌ. الْإِنْسَانُ الَّذِي يَقُولُ: بَعْضُهُمْ كَاتِبٌ لِلْوَحْيِ،
وَبَعْضُهُمْ مَحَلٌّ لِلْوَحْيِ، فَاجْتَهِدْ لِكَيْ تَكُونَ مَحَلًّا لِلْوَحْيِ وَكَاتِبًا لِلْوَحْيِ^(١)، لَا يُمْكِنُ
أَنْ يَكُونَ مَجْنُونًا، بَلْ هُوَ رَجُلٌ عَظِيمٌ:

لَوْ أَنَّ رَأْسَ كُلِّ شَفْرَةٍ مِنِّي غَدَا لِسَانًا

لَمَّا تَهَيَّأَ لِي وَضَفُ لُطْفِ شَمْسٍ فِي بَيَانٍ

مَرْحَبًا، أَي شَمْسُ الْمَضِيِّ لِقَلْبِي

يَا مَنْ ضَبَاؤُكَ نَارٌ تُخْرِقُ غَمِّي وَحَزَنِي^(٢)

كَانَ مَوْلَانَا، لَيْلًا وَنَهَارًا، بِسَبَبِ الْوَجْدِ وَالْإِهْتِيَاجِ الَّذِي أَدْرَكَهُ مِنْ رُجُوعِ شَمْسٍ،
يُنْشِدُ الْأَشْعَارَ، أَوْ يَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ، أَوْ يَجْلِسُ مَعَ مُرَادِهِ فِي خَلْوَةٍ. وَكَانَ مِنْ نَتِيجَةِ تَأَثُّرِ
مَوْلَانَا الشَّدِيدِ فِي السَّمَاعِ أَنْ صَارَ عَدَدٌ مِنْ مُحِبِّيهِ مِنْ أَصْحَابِ الْفَضْلِ وَالذَّوْقِ، كَالْقَاضِي
شَمْسِ الدِّينِ الْمَارِدِينِيِّ وَسِرَاجِ الدِّينِ الْأَرْمَوِيِّ، مَجْدُوبِينَ إِلَيْهِ، وَأَخَذُوا يَدُورُونَ حَوْلَ

١- مقالات شمس تبریزی

٢- المثنوي: ٢٣١٧/٥-٢

شَمْسٍ كَالْفَرَاشَاتِ. وَقَدْ أَثَارَتْ رَغْبَةً أَصْحَابِ مَوْلَانَا بِالسَّمَاعِ وَالطَّرَبِ غَضَبَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ رِجَالِ مُحَافِلِ قُونِيَّةَ. كَانَ سُلْطَانٌ وَلَدَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَنَّ قُونِيَّةَ سَتَشْهَدُ حَدَثًا دَمَوِيًّا، إِذْ كَانَ الظَّمَأُ إِلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْ شَمْسٍ وَأَجْبَاءِ شَمْسٍ تُوجِّعُ نِيرَانَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، حَتَّى فِي دُورِ الْعِبَادَةِ. وَغَمَرَتْ أَمْوَاجُ الْحَقْدِ وَالْعَدَاوَةِ كُلَّ مَوْضِعٍ. أَمَّا شَمْسٌ وَمَوْلَانَا فَكَانَا مَأْخُودَيْنِ بِالسَّمَاعِ مِنْ دُونِ انْشِغَالٍ بِأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، حَتَّى كَأَنَّ رُوحَيْهِمَا كَانَا يَنْشُدَانِ أَنْ يَتَحَرَّرَا مِنْ ضَيْقِ قَفْصِي جَسَدَيْهِمَا، وَيَسْطَا جَنَاحَيْهِمَا إِلَى الْقَدْرِ الْأَقْصَى.

وَعِنْدَمَا وَصَلَ شَمْسٌ وَمَوْلَانَا إِلَى الْكَمَالِ، أَهْمَلَا عِنَادَ الْمُرَائِنِ وَكَرَاهِيَتِهِمْ. وَمِنْ وَجْهِ مَا، شَمْسٌ مُحِبٌّ لِلْإِنْسَانِ، وَمِنْ الْمُؤَسِّفِ أَنْ يَعِيشَ فِي مُحِيطٍ مُظْلِمٍ وَمَتْعَصِبٍ، فَقَدْ كَانَ قَلْبُهُ يَتَوَقَّى إِلَى أَنْ يَكُونَ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَتَحَدَّثَ إِلَى النَّاسِ، وَيَبْتَ حَدِيثَ الْقَلْبِ مِنْ دُونِ إِقَامَةِ وَزْنٍ لِمُقْتَضَيَاتِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ. لَكِنَّ الْبَائِسِينَ الْمُنْحَطِّينَ لَمْ يَكُونُوا يَأْذَنُونَ بِذَلِكَ، وَهَذَا مَا اعْتَرَفَ بِهِ فِي قُونِيَّةَ وَقَالَ. لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ الْحَقِيقَةَ؛ إِذْ بَدَأْتُ بِقَوْلِ الْحَقِيقَةِ [٢٩٨] فَأَخْرَجُونِي، وَلَوْ أَكْمَلْتُ قَوْلَ الْحَقِيقَةِ لَأَخْرَجُونِي دَفْعَةً وَاحِدَةً مِنَ الْمَدِينَةِ كُلِّهَا. كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْجِبَالِ وَالصَّحَارِي، لَوْ أَنَّي بَدَأْتُ بِقَوْلِ الْحَقِيقَةِ. وَالْمُؤَسِّفُ أَنَّ هَذَا يَسْتَمُرُّ. عَلَى الْقُلُوبِ أَقْفَالٌ، وَعَلَى الْأَلْسِنَةِ أَقْفَالٌ^(١)، وَعَلَى الْأَذَانِ أَقْفَالٌ. أَهْلُ هَذَا الرُّبْعِ الْمَسْكُونِ، كُلُّ إِشْكَالٍ يَقُولُونَهُ يَجِدُونَ لَهُ إِجَابَةً. جَوَابٌ فِي جَوَابٍ، وَقَيْدٌ فِي قَيْدٍ، وَشَرْحٌ فِي شَرْحٍ. كَلَامِي يَقْدَمُ لِكُلِّ سُؤَالٍ عَشْرَةَ أَجْوِبَةٍ لَيْسَتْ مَسْطُورَةً فِي كِتَابِ الْبَيِّنَةِ، بِذَلِكَ اللَّطْفِ وَبِذَلِكَ الطَّعْمِ؛ مِثْلَمَا يَقُولُ مَوْلَانَا: مِنْذُ أَنْ تَعَرَّفْتُكَ صَارَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ فِي نَظَرِي مِنْ دُونِ طَعْمٍ^(٢).

١- من مقالات شمس.

٢- من مقالات شمس تثيرين.

مَرْحَبًا، أَي شَمْسُ الْمُضِيِّ لِقَلْبِي
يعتقدُ شَمْسٌ أَنَّهُ يوجَدُ في وُجُودِ الْبَشَرِ إِخْسَاسٌ عاطِفِيٌّ مُصدِرُهُ الْعِشْقُ. وهذا
العِشْقُ الَّذِي لَا يَتَنَاهَى، عِنْدَمَا يَتَجَلَّى تَبْدَأُ حَيَاةٌ جَدِيدَةٌ لِتَعْرِفَ حَقَائِقَ الْوُجُودِ
وَالْكَائِنَاتِ وَفَنَاتِ النَّاسِ؛ لِكَيْ يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ الْعَدُوَّ، وَيَعْرِفَ الصَّدِيقَ:

لِكَيْ تَعْرِفَ الصَّدِيقَ مِنَ الْعَدُوِّ

لَا بُدَّ لَكَ مِنْ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ

وَالْأَعْدَاءُ الَّذِينَ ظَاهَرُهمُ أَصْدِقَاءُ، كَثِيرُونَ

وَلَا بُدَّ مِنَ صَدِيقٍ مُسَوَّاسٍ^(١)

كَانَ مَقْصُودُ شَمْسٍ، بِهَذِهِ «الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ»، اكْتِشَافَ جَلَالِ الدِّينِ الْبَلْخِي، إِلَى
حَدِّ أَنَّهُ يَقُولُ: «الْمَقْصُودُ مِنْ وُجُودِ الْعَالَمِ التَّقَاءُ حَبِيبِينَ يَتَوَجَّهُ كُلُّ مِنْهُمَا نَاحِيَةَ الْآخِرِ،
مِنْ أَجْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، بَعِيدًا عَنِ الْأَهْوَاءِ»^(٢). وَجَلَّالُ الدِّينِ الْبَلْخِي، عَلَى غِرَارِ شَمْسٍ،
انْقَادَ لِلتَّصَوُّفِ الْعِشْقِيِّ بِاشْتِيَاقٍ، وَقَبْلَ أَهْدَافِهِ. وَقَدْ تَبَّهَ شَمْسٌ جَلَالَ الدِّينِ عَلَى أَنَّ
الْإِعْتِقَادَ وَالْعِشْقَ يَشْجَعَانِ، وَيُبَدِّدَانِ الْمَخَافَةَ، قَائِلًا لَهُ: كُلُّ إِعْتِقَادٍ نَشْطَكَ وَقَوَاكَ
حَافِظٌ عَلَيْهِ، وَكُلُّ إِعْتِقَادٍ جَعَلَكَ بَارِدًا فَاتِرًا ابْتَعَدَ عَنْهُ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُطْرِبَ الَّذِي لَيْسَ
عَاشِقًا، وَالتَّافِحَ الَّذِي لَيْسَ مُتَأَلِّمًا، يَفْتَرَانِ الْآخَرِينَ وَيَذْهَبَانِ بِنَشَاطِهِمْ وَحَيَوِيَّتِهِمْ^(٣).

وَكَانَ مَوْلَانَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ سَيَنْفُذُ تَصَوُّفُ الْعِشْقِ فِي أَقْطَارِ الْقُلُوبِ
وَالْأَرْوَاحِ عِنْدَ بَنِي الدُّنْيَا. لَكِنَّهُ مَا كَانَ رَاضِيًا عَنْ أَهْلِ قُوْنِيَّةَ. وَرَوَى الْأَفْلَاكِيُّ أَنَّهُ قَالَ
يَوْمًا: «وَأَسْفَاهُ، إِنَّ أَهْلَ قُوْنِيَّةَ يَمْلُونُ سَمَاعَنَا الْمَمْلُوءَ بِالمَاءِ وَالرَّوْنَقِ وَالْإِشْرَاقِ.

١- ديوان شمس تبريز: الغزالية ٣١٥٦.

٢- مقالات شمس، ص ٦٢٨.

٣- السابق

والوزير والأمير يطعنون، وهم غير راضين بمباهجنا وملأنا هذه. وفي آخر الأمر، يكون أهل الأزمان الآتية مُحِبِّينَ للسماع، وأرباب مُتَعَةٍ وسُرور، ويُحِيطُ العِشْقُ بالعالم كله، ويغدو الناس كافةً عاشقين لِكلامنا.

وكانت شجاعة العِشْقِ هذه هي التي اضطرت جلال الدين، مثل الإمام أحمد الغزالي، إلى أن يَهَبَ ثروته وذخيرته للمساكين. [٢٩٩].

ومع كُلِّ إثارة جلال الدين وبذله، كان الحقد والبُغْضُ والعناد وإثارة الفتن والمشاكسة والعداوة لِشَمْسٍ تزدادُ يومًا إثرَ يومٍ، وكانت رائحة الدِّمِّ والقَتْلِ تُشْتَمُّ في فضاء قونية. كان جلال الدين مسرورًا كثيرًا بِشَمْسٍ؛ وفي رواية الأفلاكي أنه قال في هذا المعنى:

غَسَلْتُ قَلْبِي مِنَ الْعُلُومِ، فَظَفِرْتُ بِالْمَعْرِفَةِ

وَتَخَلَّيْتُ عَنْ ظُلْمَةِ الْوُجُودِ، فَظَفِرْتُ بِالضَّيَاءِ

كُنْتُ عَاشِقًا لِلدَّفْتَرِ، كَالْعَطَّارِ^(*)، كُنْتُ أَجْلِسُ مُتَصَدِّرًا مَجْلِسَ الْأَدْبَاءِ، وَعِنْدَمَا شَاهَدْتُ جَبِينَ السَّاقِي، سَكِرْتُ وَكَسَرْتُ الْأَقْلَامَ. وفي مَعْمَعَةِ مُبَارَزَةِ الْحَاسِدِينَ لِشَمْسٍ في شَأْنِ السَّمَاعِ، قَالَ مَوْلَانَا:

إِذَا كُنْتُ مُنْكَرًا لِلسَّمَاعِ الْعَاشِقِينَ حُشِرْتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْكِلَابِ

وَإِذَا صِرْتُ غَلَامًا لِشَمْسٍ التَّبْرِيزِي فَصِخْ: «الْحَمْدُ لَكَ يَا مُسْتَعَانُ»

فَشَمْسُ التَّبْرِيزِي يُفْنَعُ طَرِيقَ الشَّرْقِ إِذَا صِرْتَ صَامِتًا وَعَالِمًا لِلْأَسْرَارِ^(١)

*- يعني الصوفي والشاعر الكبير فريد الدين العطار

١- ديوان شمس تبريز: الغزليات ٢٩، ٣٠، ٣١.

مَرْحَبًا، أَنِي شَنْسُ الْمِضْيِ لِقَلْبِي

يقولُ الذَّكْتُرُ صَاحِبُ الزَّمَانِي فِي كِتَابِهِ «الْخَطُّ الثَّالِثُ» [بِالْفَارْسِيَّةِ: خَطُّ سِوْم]:

الشَّعْرُ وَالْمَوْسِيقَا وَالسَّمَاعُ، فِي تَصَوِّفِ الْعِشْقِ، وَسَبِيلُهُ لَا هَدَفٌ؛ وَسَبِيلُهُ لِتَلْطِيفِ
الْعَوَاطِفِ، وَسَبَبٌ لِتَقْلِيلِ الْخَشُونَةِ وَالْغِلْظَةِ وَالْقَسْوَةِ، وَمَعَالِجَةٌ لِلْهَجْرَانِ، وَمُدَاوَاةٌ
لِلْوَحْدَةِ. وَمَا قَالَهُ جَلَالُ الدِّينِ الْبَلْخِي أَفْعَلُهُ فِي غَايَةِ الطَّاعَةِ، أَسْعَى وَأَصْرَحُ لَعَلِّي
أَسْتَطِيعُ أَنْ أُوَصِّلَ أَصْحَابِي إِلَى الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ وَالْحَالِ.

ويعتقد أ.د. شفيعي كذكني أَنَّ أَغْلَبَ غَزَلِيَّاتِ مَوْلَانَا مِمَثِّلٌ مَدْهَشٌ وَمَوْفَّقٌ
لِلْحَفَظَاتِ حَيَاتِهِ. الشَّعْرُ عِنْدَهُ تَجَرِبَةٌ؛ وَهَذِهِ التَّجَارِبُ مَهْمَا تَنَوَّعَتْ فِي الْمَوْسِيقَا وَاللُّغَةِ
والتَّصْوِيرِ تَمْتَعُ بِوَحْدَةٍ لَا بُدَّ مِنْ تَسْمِيَتِهَا «وَحْدَةُ الْحَالِ»^(١).

وَلِأَنَّ كُلَّ غَزَلِيَّةٍ نَتَاجُ جَيْشَانِ صَدْرِهِ اللَّوَاْعِي، وَلِأَنَّ أَغْلَبَهَا ظَهَرَ بِتَأْثِيرِ الْمَوْسِيقَا
وَالْوَجْدِ وَالْهَيْجَانِ وَالسَّمَاعِ، كَانَتْ وَحْدَةُ الْحَالِ هَذِهِ أَكْثَرَ وَضُوحًا. وَفِي أَحْلَاكِ أَدْوَارِ
تَارِيخِ الصَّرَاعَاتِ وَالتَّرَاعَاتِ الْعَقْدِيَّةِ، كَانَ جَلَالُ الدِّينِ يُعَدُّ السَّمَاعَ^(٢) شَافِيًا وَإِكْسِيرًا
لِلْأَلَامِ الْبَشَرِ وَأَوْجَاعِهِمِ الْعَمِيقَةِ، إِذْ أُنْشِدَ:

يَا اللَّهُ، أَعْطِ الْمُطَرِّبِينَ عَسَلًا

وَمِنْ أَجْلِ الضَّرْبِ وَالْعَرْفِ، أَعْطِهِمْ أَيْدِيًا مِنْ حَدِيدٍ

وَلِأَنَّهُمْ وَقَفُوا الْأَيْدِي وَالْأَقْدَامَ لِلْعِشْقِ

١- مِنْ مَقْدَمَةِ كِتَابِ «كَزِيدَةُ دِيَوَانِ شَنْسِ تَبْرِيزِي»، ص ٣٧.

٢- قَالَ الشَّيْخُ فَرِيدُ الدِّينِ الْعَطَّارُ فِي وَاحِدَةٍ مِنْ غَزَلِيَّاتِهِ، فِي مَوْضُوعِ السَّمَاعِ:

عِنْدَمَا يَضْحَكُ الْعَاشِقُونَ مِمَّا هُمْ فِيهِ	يَدْخُلُونَ فِي صَلَاةٍ أَمَامَ الْمَعْشُوقِ
وَأَمَامَ شَجِّ جَبِينِهِ، كَالْفَرَاشَاتِ،	يُخْسِرُونَ عَنْ رُؤُوسِهِمْ، وَيَقْدُمُونَ مَرْفُوعِي الرُّؤُوسِ
قَمَرِيئُ الْوَجْهِ جَمِيعًا أَسَارَى عِنْدَكَ	فَالِي مَتَى يَأْتُونَ مَصُوبِينَ رُؤُوسَهُمْ وَمُضْعَعِدِينَهَا؟
ارْزُقِ الْحِجَابَ؛ لِكِي يَأْتِيَ أَهْلُ عَالَمِ الرُّوحِ	رَاقِصِينَ، مَكْشُوفِينَ، رُفَعَتْ عَنْهُمْ الْأَسْتَارُ

أَعْطِهِمْ أَيْضًا إِيْدِيًا وَأَقْدَامًا حَقِيقَةً
 وَلِأَنَّهُمْ مَلَكُوا أَدَانَنَا مِنَ الرِّسَالَةِ
 أَعْطِهِمْ مِئَةَ عَيْنٍ تُبْصِرُ حَظَّ الْمُلُوكِ
 يَتَوَحَّوْنَ فِي الْعِشْقِ نُوحَ الْحَمَامِ
 فَأَعْطِهِمْ مِنْ أَلطَافِكَ بُرْجًا حَاصِنًا
 وَلِأَنَّهُمْ أَطْرَبُوا الْعُقُولَ بِمَذْحِكَ وَشُكْرِكَ
 أَعْطِهِمْ أَيْضًا شُكْرًا وَاسْتِخْسَانًا
 وَقَدْ سَقَوْا الْأَنْجَادَ مِنَ الْأَنْغَامِ

فَأَسْقِهِمْ أَنْتَ أَيْضًا مِنَ الْكُوْثَرِ مَاءً مَعِينًا^(١)
 وفي غزليات ديوان شمس يكون الإنسان وشمس محل ثناء؛ باعتبار أن الإنسان
 قد وافق في «يَوْمِ الْاَسْتِ»^(٢) على حمل الأمانة. وفي عقيدة العارفين أن الأمانة التي أبت
 السماوات أن يحملنها هي العشق. وعند شهاب الدين الشهروردی نكات جميلة
 ومؤثرة وجذابة في شأن العقل والعشق. أنقلها فيما يأتي:
 العشق عمل كيميائي يوجب تغير مذاب تراب المعشوق، ثم ببركة ذلك تبرز كل
 الإمكانيات المتجاوزة لطاقة البشر عند العاشق فعليًا، حتى إن المعشوق يغدو في النهاية
 كالملك، متجلى لأنوار الحق. وللعقل سير في عالم البقاء، وله صفة الماء، وحيثما حل

١- ديوان شمس قنبریز: الغزلية ٢٣٤٣.

* - إشارة إلى ما جاء في الذكر الحكيم من تجلّي الحق تعالى على الأزواج، وهي في عالم الذكر، وقوله: اَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ وقولها في الإجابة: «نَیْل». ورأى المؤلف هنا أن الأمانة التي حملها الإنسان هي الإقرار بالربوبية لله - سبحانه - قبل المجيء إلى هذه الدنيا، والالتزام بما يترتب على هذا الإقرار في حركة الإنسان في هذه الدنيا. وهذه الفكرة كثيرة التردد في الأدب الفارسي شغراً ونثراً، وكذا في العرفان الفارسي [المترجم].

مَرْحَبًا، أَي سَنَسُ الْمِضْيُ لِقَلْبِي
ظَهَرَتِ الْخُضْرَةُ وَالْحُسْنُ وَالزُّوْنُقُ. وَالْعَقْلُ وَالْعِشْقُ أَحَدُهُمَا ضِدٌّ لِلْآخَرِ، وَلَا يَتَحَدَانِ.
وَحَيْثُمَا أَلْقَتْ شُعْلَةُ نَارِ الْعِشْقِ شُعَاعًا تَجَمَّدَ الْعَقْلُ، وَاشْتَغَلَتِ الْمَطْبَعَةُ. وَقَدْ أَنْشَدَ مَوْلَانَا:

إِنَّ عِشْقَ الْمُطَّلَقِ يَتَحَقَّقُ مِنَ الْغَيْبِ

وهذا التَّقَاشُ وَالْجِدَالُ كُلُّهُ بِضَنْعِهِ حَبِيبٌ لَا نَظِيرَ لَهُ

فَإِنْ شِئْتَ سَمِّهِ عِشْقًا، وَإِنْ شِئْتَ عَدَمًا، وَإِنْ شِئْتَ وُجُودًا

لَكِنَّهُ بِضَنْعِ الْأَسَاطِيرِ بِسِخْرِهِ

وَلَوْ جَلَّى وَجُودَهُ لِشُهُودِهِ

لَفَتَنَ نَفْسَهُ بِجَمَالِهِ وَسِخْرِهِ

وَقَدْ جَلَّى الظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ مَعَا أَمَامَ الْخَلْقِ

وَهُوَ يُسَمِّيهِمَا فِي الظَّاهِرِ لَيْلَىَ وَالْمَجْنُونِ

وَيَاقُوتَهُ الْمَمْتَزَجُ بِالرُّوحِ، يَخْلُقُ مِنْهُ رُوحَ بِنْفَخَةٍ وَاحِدَةٍ

وَعَمَزَتُهُ السَّافِكَةُ لِلدَّمَاءِ، تُجْرِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْهُ دَمٌ

نَعَمْ، مِثْلَمَا يَقُولُ الْعَارِفُ، الْعِشْقُ هُوَ بُرَاقُ السَّالِكِينَ وَمَرْكَبُ السَّائِرِينَ، وَكُلُّ مَا

يَدْخُرُهُ الْعَقْلُ فِي خَمْسِينَ عَامًا يُحْرِقُهُ الْعِشْقُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيَطْهَرُ الْعَاشِقُ وَيُصَفِّيهِ.

وَقَدْ كَانَ شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ مَدَاحًا لِلْعِشْقِ الْحَقِيقِيِّ، وَمُخْتَرِقًا بِأَتُونِ الْعِشْقِ، وَقَدْ مَوْلَانَا

لِأَهْلِ الدُّنْيَا أَيْضًا فِي رُؤْمَةٍ مُحْتَرِقِي نَارِ الْعِشْقِ.

- أَيْهَا الْعُشَّاقُ، أَيُّهَا الْعُشَّاقُ، أَنَا عَاشِقٌ عَاقِلٌ
وَمَعَ شَمْسٍ وَصَالِهِ فِي الدُّنْيَا، أَنَا قَرَّاشَةٌ، أَنَا قَرَّاشَةٌ
- وَقَدْ أَضَعْتُ الْمَعشُوقَ، فإِلَى مَتَى هَذَا الاضطرابُ؟
فَلَا تَغْفُلْ عَنَّا وَتَهْمِلُنَا، فَإِنَّنِي عَاقِلٌ، إِنَّنِي عَاقِلٌ
مَوْلَانَا

عَامٌ مَمْلُوءٌ بِالضَّجِيجِ وَالصَّخَبِ

أُثْبِتَ فِي تَارِيخِ مَدِينَةِ قُونيةَ أَنَّ سَنَةَ ٦٤٤ هَجْرِيَّةَ سَنَةٌ عَاصِفَةٌ، سَنَةٌ مَمْلُوءَةٌ
بِالضَّجِيجِ وَالصَّخَبِ وَالْوَحْشَةِ وَالْغَضَبِ وَقَلَقِ النَّزَاعَاتِ، سَنَةٌ لِأَعْمَالِ التَّسْلُطِ
وَالْحِقْدِ وَسُوءِ النِّيَّةِ وَالْخِصَامِ، الَّتِي كَانَ مَبْعَثُهَا قِصَرُ نَظَرِ جَمَاعَةِ الْمُرَائِينَ
وَالْمَتَعَصِّبِينَ. وَفِي تِلْكَ السَّنَةِ نَجِدُ مَوْلَانَا، الَّذِي كَانَ يَرَى نَفْسَهُ مُسْتَعِينًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ،
مَتَعَلِّقًا بِأَذْيَالِ شَمْسٍ، كَأَنَّهُ طِفْلٌ يَرْتَسِمُ فِي نَظَرَاتِهِ آلَافُ الْأَسْئَلَةِ، وَمُنْشَغِلًا مَعَهُ بِالْبَحْثِ
وَالْتَفْحُصِ وَالْمُنَاقَشَةِ. مَعَ أَنَّ شَمْسًا فِيمَا يَتَّصِلُ بِعِلْمِ مَوْلَانَا، قَدْ اعْتَرَفَ بِوُضُوحٍ فِي
كِتَابِهِ «مَقَالَاتِ شَمْسٍ» بِأَنَّ مَوْلَانَا فِي الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ بَحْرٌ، وَحَتَّى تِلْكَ السَّاعَةِ لَيْسَ فِي
رُبْعِ الْبَسِيطَةِ الْمَسْكُونِ مِثْلُهُ فِي جُمْلَةِ الْفُنُونِ^(١). هَذَا، مَعَ أَنَّ جَلَالَ الدِّينِ صَارَ مُتِمِّمًا
بِكَلَامِ شَمْسٍ الْجَدِيدِ، حَتَّى إِنَّهُ لَا زَمَ أَسْتَادَ الْعِشْقِ، وَصَارَ بِتَعْبِيرِ الْمَرْحُومِ بَدِيعِ الزَّمَانِ
فُرُوزَانْفَرُ، تَلْمِيزًا بِكُلِّ حَذَقٍ وَمَهَارَةٍ.

كَانَ مَوْلَانَا يُحَسِّسُ بِأَنَّهُ قَدْ أَخْرَجَ مِنَ الْعَالَمِ الَّذِي هُمِّيَ لَهُ مِنْ قَبْلُ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَخْطُوهُ
فِي وَادِي الْحَقِيقَةِ، مُسْتَعِينًا بِالْأَدَوَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي عَلَّمَهُ إِيَّاهَا الْعِرْفَانُ الْإِيرَانِيُّ عِنْدَ
شَمْسٍ، وَوُضِعَتْ أَمَامَهُ. وَبِأَنْوَارِ الْعِشْقِ، أَوْضَحَ شَمْسٌ لِمَوْلَانَا كُلَّ مَا كَانَ عِنْدَهُ خَافِيًا
مُتَوَارِيًا فِي غِلَالَاتِ الظُّلْمَةِ. وَفِي الْأَصْلِ، كَانَ شَمْسٌ قَدْ جَاءَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَحَرِّزَ هَذَا

١- مقالات شمس تبریزی، ص ٧٣٠.

العَبْدَ اللَّطِيفَ (مَوْلَانَا)، الذي كَانَ أَسِيرًا وَسَطَ قَوْمٍ قُسَاةٍ غِلَاظِ الْقُلُوبِ، يُؤْذُونَهُ^(١).
 [٣٠٢] رَأَى مَوْلَانَا أَمَامَهُ بَحْرًا رَحَارًا، عَالِمًا مُطْلَعًا عَلَى كُلِّ عُلُومِ عَصْرِهِ
 ومعارفه. كَانَ حُضُورُهُ أَمَامَ شَمْسٍ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مَضْحُوبًا بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ
 والاضطراب، أَمَّا عِنْدَمَا عَلِمَ مَوْلَانَا أَنَّ نَارَ الْإِشْتِيَاقِ، الَّتِي ظَلَّتْ تُحْرِقُ وَجُودَهُ عَلَى
 امتدادِ سِنِينَ، مُشْتَعِلَةٌ فِي شَمْسٍ أَيْضًا، فَقَدْ هَذَا وَاطْمَأَنَّ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُفَشِّيَ لَهُ بِأَسْرَارِ
 قَلْبِهِ بِإِخْلَاصٍ، وَيَسْمَعَ إِجَابَاتٍ، كَانَ تَذَكُّرُهَا فِيمَا بَعْدُ يُلْقِي مَوْلَانَا فِي حُمَى وَالْمِ.
 وَفِي مَدْرَسَةِ شَمْسٍ، فِي مَكْتَبِ شَمْسٍ الْعَاصِفِ، تَعَلَّمَ مَوْلَانَا دُرُوسَ الْهَيْجَانِ
 وَالْوَجْدِ وَالْحَالِ، وَعَلَى سُلَّمِ الْعِشْقِ صَعِدَ إِلَى سُقُوفِ الْمَلَكُوتِ. وَفِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ
 اسْتَطَاعَ، كَمَا يَنْبَغِي، أَنْ يَصِفَ عَظَمَةَ الْكَائِنَاتِ وَجَلَالَ خَالِقِ الْكَائِنَاتِ، وَأَنْ يُعْلِنَ أَنَّ
 الْعِشْقَ مُعْجِزَةٌ إِلَهِيَّةٌ، وَأَنَّ الْعَارِفِينَ مَظْهَرٌ لِلْعِشْقِ.

قَرَأَ مَوْلَانَا كَلِمَةَ «الْغَيْبِ» الْمَمْلُوءَةَ بِالْفَخَامَةِ وَالْعَظَمَةِ مِرَارًا، وَسَمِعَهَا، لَكِنَّهُ لَمْ
 يَسْتَطِعْ أَنْ يَذَرِكَ مَعْنَاهَا جَيِّدًا. أَمَّا أَنْفَاسُ شَمْسٍ فَهِيَ الَّتِي أَضَاءَتْ قَلْبَ مَوْلَانَا،
 وَبَلَغَتْ بِهِ أَنْ أُنْشِدَ فِي شَأْنِ الْغَيْبِ:

إِنَّ لِلْغَيْبِ سَحَابًا وَمَاءَ آخَرَيْنِ كَمَا أَنَّ لَهُ سَمَاءً وَشَمْسًا أُخْرَيْنِ
 وَلَا يَظْهَرُ ذَلِكَ إِلَّا لِلْخَاصَّةِ أَمَّا الْبَاقُونَ ففِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ^(٢)
 تَعَلَّمَ مَوْلَانَا سِرَّ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي مَحْضَرِ شَمْسٍ، وَتَعَلَّمَ أَنَّ عَالَمَ الْغَيْبِ عَالَمٌ
 مُضِيٌّ وَجَمِيلٌ، فَهُوَ عَالَمٌ يَسْخُرُ السَّالِكِ وَالْعَارِفِ وَالزَّاهِدَ لِلشُّوقِ وَالْجَذْبِ الْإِلَهِيِّ،
 وَيُلْهِمُهُ ذَلِكَ. وَفِي ذَلِكَ الْعَالَمِ، سَتُشَاهِدُ أَغْيُنُ النَّاسِ الْحَقَائِقَ جَيِّدًا.

١- مقالات شمس، ص ٦٢٢.

٢- المثنوي: ٢٠٤٦/١-٤٧.

عَالَمُ الْغَيْبِ هُوَ عَالَمُ الْعُرُوجِ، عَالَمٌ يَحْكُمُهُ السَّكُونُ وَالْهُدُوءُ وَالطَّمَأْنِينَةُ، وَكُلُّ نَاطِقٍ مَدِيحِ جَلَالِ الْعَالَمِ وَالْخَلْقِ يُرِيدُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ. وَقَدْ قَالَ مَوْلَانَا لِلْعُشَّاقِ الَّذِي يُخَيُّونَ اللَّيَالِي:

إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ فَلَاسِيفَةِ الْيُونَانِ، كَالسُّوفِسْطَائِيِّينَ، كَانُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ الْعِلْمَ، وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُمْ مَالًا، وَلَا شَأْنَ لَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ. وَكَانَ آخَرُونَ مِنْهُمْ يَتَعَلَّمُونَ مَعْرِفَةَ النَّفْسِ وَتَعَرَّفَ الْحَقِيقَةَ، لَكِنَّ الْوَسَائِلَ الَّتِي كَانَتْ فِي مُتَنَاوَلِهِمْ أَوْ يُعَلِّمُونَهَا لِلْمُهْتَمِّينَ أَوْ يوصونَهُمْ بِهَا لَمْ تَكُنْ مُؤَثَّرَةً وَمُفِيدَةً وَدَقِيقَةً. أَمَّا شَمْسٌ فَقَدْ أَسْمَعَ عُشَّاقَ الْحَقِيقَةِ نَغْمًا جَدِيدًا، وَأَنَارَ كُلَّ ظُلُمَاتٍ وَجُودِي، وَأَرْشَدَنِي إِلَى مُخْتَلَى التَّوْحِيدِ. وَبِقُوَّةِ الْعِشْقِ، الَّذِي هُوَ الْأَسَاسُ لِتَضْفِيَةِ الْإِنْسَانِ وَتَرْكِتِهِ وَتَعَالِيهِ، أَضَاءَ قَلْبِي الْمَتَعَبَ الْمُشْتَاقَ، وَأَثَبَتْ [٣٠٣] أَنَّ حَقِيقَةَ وَجُودِ الْإِنْسَانِ لَيْسَتْ زَمَانِيَّةً وَلَا مَكَانِيَّةً، وَالْإِنْسَانُ الْعَاشِقُ مُنْخَطَّ لِحُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ. نَعَمْ أَرْشَدَنِي إِلَى أَتُونِ الْعِشْقِ.

تَذَهَبُ رِوَايَةٌ لِمُؤَلِّفِ كِتَابِ «مَنَاقِبِ الْعَارِفِينَ» إِلَى الْقَوْلِ إِنَّ مَوْلَانَا الْمُسْتَفْنِيَّ، فِي مَجِيءِ شَمْسٍ الثَّانِي إِلَى قُوْنِيَّةٍ، تَرَكَ التَّدْرِيسَ وَالْوَعْظَ، وَجَلَسَ لِلسَّمَاعِ وَالرَّفْصِ، وَبَدَّلَ اللَّبَاسَ الدِّينِيَّ التَّقْلِيدِيَّ، إِذْ أَمَرَ بِأَنْ يُصْنَعَ لَهُ مِنْ قُمَاشِ الْهِنْدُبَارِي^(*) بُرْدٌ، وَوَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ قَلَنْسُوَّةً مِنَ الصُّوفِ الْعَسَلِيِّ [الْأَصْفَرِ اللَّوْنِ]، وَارْتَدَى قَمِيصًا مَفْتُوحًا مِنَ الْأَمَامِ، وَانْتَعَلَ حِذَاءً مَوْلُوكِيًّا، وَلَفَّ عِمَامَةً ذَاتَ عَدَبَتَيْنِ مِنْ خَلْفٍ. وَأَمَرَ بِأَنْ يُصْنَعَ رِبَابٌ ذُو سِتِّ حُجْرَاتٍ؛ لِأَنَّهُ فِي الْقَدِيمِ كَانَ الرِّبَابُ رُبَاعِيًّا. وَبَعْدَئِذٍ، رَتَّبَ مَجَالِسَ السَّمَاعِ، فَامْتَلَأَتْ أَطْرَافُ الْعَالَمِ بِهَيَّجَانِ الْعَاشِقِينَ وَتَحَرُّقِهِمْ وَضَجَّتِهِمْ،

* - يَبْدُو أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْبُرُودِ، يُؤْتَى بِهِ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ، وَقُمَاشُهُ مَخْطُطٌ [الْمُتَرَجِمُ].

وتوجَّهَ النَّاسُ كِبَارًا وَصِغَارًا، أَقْوِيَاءَ وَضُعَفَاءَ، عُلَمَاءَ وَعَامَّةً، وَكُلُّ أَهْلِ الْقُلُوبِ، نَحْوَ
مَوْلَانَا. صَارَ النَّاسُ جَمِيعًا مُنْشِدِينَ لِلشَّعْرِ، أَهْلَ طَرَبٍ. وَبِمُشَاهَدَةِ سَمَاعِ شَمْسٍ
وَالنَّاسِ، صَارَ مَوْلَانَا يَغْرُقُ فِي الْإِشْتِيَاقِ وَالْوَجْدِ، وَيُنْشِدُ:

اعْرِزْ نَعْمًا أَقْوَى، بِنَشَاطِ شَرَابِ أَحْمَرِ

إِنِّهَا صَدَفَةٌ طَوَتْ الْبَحْرَ، هَذِهِ الَّتِي أَنْتَ لَيْسَ بِهَا الدَّرُّ

أَلَا، أَيُّهَا السَّاقِي، ائْتِنِي بِشَرَابِ أَحْمَرِ

فَإِنَّ الرَّأْسَ الَّذِي تَمَكَّنَ الشُّكْرُ مِنْهُ، تَحَرَّرَ مِنْ خَيَالِ الثَّرَاةِ

وَنَاقِلِ رُوحِي قَدْ حَا يَحْمِلُنِي إِلَى السَّمَاءِ

وَلَا تُسَلِّمْنِي إِلَى تَفْكِيرٍ يَنْحَدِرُ بِي إِلَى أَسْفَلِ

لَسْتُ غَمًّا، وَلَا عَاشِقًا لِلْغَمِّ، تَحَرَّزْتُ مِنَ الْغَمِّ

إِذْ صِرْتُ صَدِيقَهُ عِنْدَمَا أَوْصَدَ بَابَ الظُّلُمِ^(١)

الْمُخَالِفُونَ وَالْحَاسِدُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَ مَجَالِسَ سَمَاعِ مَوْلَانَا، أَوْ كَانُوا

يَسْمَعُونَ أَخْبَارَهَا مِنَ الْأَغْيَارِ، كَانُوا يَسْلِقُونَهُ بِاللِّسَنَةِ حِدَادٍ، وَيَقُولُونَ:

- وَأَسَفَاهُ، إِنَّ فَقِيهًا عَالِمًا فَاضِلًا جُنَّ بَغْتَةً، وَغَدَا مُخْتَلَّ الْعَقْلِ مِنْ أَثَرِ مُدَاوِمَةِ

السَّمَاعِ وَالرِّيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ، وَصَارَ مَجْدُوبًا. يَقُولُ الْأُسْتَاذُ قُرُوزَانْقَرُ: عَادِيٌّ تَمَامًا

كَمْ كَانَ تَأْسِيسُ السَّمَاعِ وَتَرْكُ التَّدْرِيسِ - مِنْ جَانِبِ مُفْتٍ وَمُدَرِّسٍ فِي مُحِيطِ قُوْنِيَّةَ -

قَبِيحًا وَسَيِّئَ الْمَظْهَرِ بَيْنَ الْفُضَّلَاءِ.

الْمُرَاقِبُونَ لِأُسْرَةِ مَوْلَانَا وَالْحَاسِدُونَ لَهَا، مِنْ أَهْلِ قُوْنِيَّةَ وَالْوَافِدِينَ إِلَيْهَا، كَانُوا

يُضْمِرُونَ حَسَدًا لِهَذِهِ الْأُسْرَةِ مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ؛ لِمَا كَانُوا يَرَوْنَهُ مِنْ اِزْدِهَارِ الطَّرِيقَةِ

واحترام والدِ مَوْلَانَا وَالْمَنْزِلَةِ الْعَلِيَّةِ الَّتِي ظَفَرَ بِهَا. وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، اغْتَنَمُوا الْفُرْصَةَ، وَأَخَذُوا يَغْرِضُونَ فِكْرَةَ تَحْرِيمِ السَّمَاءِ.

[٣٠٤] كَانَ الْمُخَالِفُونَ وَاضِحِينَ فِي شَأْنِ إِزْعَاجِ مَوْلَانَا، وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ فِي الظَّاهِرِ شَخْصٌ مُهْمَلٌ وَمَحْتَقِرٌ لِلرُّسُومِ وَالتَّقَالِيدِ، وَيَبْحَثُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ. وَهُوَ مُبْتَدِعٌ لَا يُعْرَفُ دِينُهُ وَمَذْهَبُهُ. وَقَدْ أوردَ الْأَفْلَاكِيُّ فِي كِتَابِهِ «مَنَاقِبَ الْعَارِفِينَ» قَوْلَهُ:

فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، اتَّخَذَ أَحَدُ مَشَاهِيرِ الْمُخَالِفِينَ فِي قُوْنِيَّةٍ سَبِيلَهُ إِلَى مَوْلَانَا، مِنْ أَجْلِ الْإِنْكَارِ وَالْعِنَادِ، فَسَأَلَ مَوْلَانَا:
- الشَّرَابُ حَلَالٌ أَوْ حَرَامٌ؟

وَكَانَ غَرَضُ السَّائِلِ عِرْضَ شَمْسِ الدِّينِ الطَّاهِرِ، وَكَانَ شَمْسٌ يَتَجَنَّبُ دَائِمًا الْمُحَرَّمَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ مُدَنَّسًا.

فَأَجَابَ مَوْلَانَا بِطَرِيقِ الْكِنَايَةِ وَإِظْهَارِ الْإِمْتِعَاضِ وَالشُّخْرِيَّةِ:
كَمْ شَرِبَ؟ - لِأَنَّهُ إِذَا صُبَّ وَعَاءُ شَرَابٍ فِي بَحْرٍ، لَا يَتَغَيَّرُ مَاؤُهُ وَلَا يُكَدَّرُ، وَيَكُونُ الشَّرْبُ وَالْإِغْتِسَالُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ جَائِزًا، أَمَّا الْحَوْضُ الصَّغِيرُ فَتُنَجِّسُهُ قَطْرَةُ شَرَابٍ يَقِينًا. وَهَكَذَا، كُلُّ مَا يَقَعُ فِي وَعَاءِ الْمِلْحِ يَأْخُذُ حُكْمَ الْمِلْحِ. وَالْجَوَابُ الصَّرِيحُ هُوَ أَنَّهُ: إِنْ شَرِبَ شَمْسُ الدِّينِ فَلْيَكُنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُبَاحٌ لَهُ؛ لِأَنَّ لَهُ حُكْمَ الْبَحْرِ. أَمَّا إِذَا شَرِبَ فُضُولِي مِثْلِكَ فَإِنَّهُ حَرَامٌ، وَحَتَّى خُبْزُ الشَّعِيرِ حَرَامٌ عَلَيْكَ.

وَكَثِيرًا مَا قَالَ مَوْلَانَا لِلْمُخَالِفِينَ: هَذَا الْعَارِفُ التَّبْرِيزِيُّ شُعَاعٌ مِنَ السَّمَاءِ، يَضِيءُ الْقُلُوبَ الْمُنْكَسِرَةَ عِنْدَ ذَوِي الْإِشْتِيَاقِ. وَقَدْ صَارَ قَلْبِي، مِنْ نُورِ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ الْأَلَاءِ، مَغْمُورًا بِالْإِهْتِيَاجِ وَالْإِشْتِيَاقِ. وَمَعَ شَمْسٍ، ظَفَرْتُ بِمَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ قَادِرَةٍ عَلَى

كُلُّ شَيْءٍ. وبِإِيمَانِنَا بِالذِّينِ وبِالْحَقِيقَةِ، أَلْقَيْنَا الرُّغْبَ فِي قُلُوبِ أَهْلِ الرِّيَاءِ وَالنَّفَاقِ.
 إِنَّ مَشْرَبَنَا مَشْرَبٌ عَالَمِيٌّ لَا تَتَّسِعُ لَهُ مَضَائِقُ التَّعْصَبِ. وَقَدْ جَعَلْنَا الْإِيمَانَ
 بِالْعِشْقِ غَيْرَ مُبَالِغٍ. مَا نَحْنُ مِنَ الْمَجَانِينِ، وَهَذَا نَحْنُ نُنَادِي: لَيْسَ بَيْنَ الْعِشْقِ الْكُلِّيِّ
 وَالْعَقْلِ الْكُلِّيِّ تَبَازُلٌ بَتَّةً. وَقَدْ كُنْتُ، قَبْلُ، أَسِيرَ قَيْدِ الْكَمَلِ الْوَاصِلِينَ لِحَضْرَةِ الْحَقِّ،
 وَأَنَا الْآنَ كَذَلِكَ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ شَمْسَ التَّبَرُّيزِيِّ وَأَنَا، نَعْتَقِدُ أَنَّ الْعِشْقَ جَوْهَرٌ أَصْلِيٌّ
 وَأَسَاسٌ لِلْعِرْفَانِ السَّامِعِيِّ، وَأَنَّهُ مِعْرَاجٌ^(١) إِلَى سَمَاءِ سُلْطَانِ [٣٠٥] الْجَمَالِ، وَفَضِيلَةُ
 الْعَشْرَةِ آلَافِ فَضِيلَةٍ^(٢). وَمِنْذُ أَنْ رَأَيْتُ شَمْسًا، وَدَفَنْتُ رَأْسِي فِي مِخْرَابِ عِشْقِهِ، أَخَذَ
 الْعِشْقُ يَتَدَفَّقُ عَلَى وُجُودِي مِنْ كُلِّ أَنْحَاءِ الْوُجُودِ. وَيَعْلَمُ الْمُؤَدِّبُونَ فِي قُوْنِيَّةٍ أَنَّ غَايَةَ
 شَرَفِ الْعِشْقِ، وَالْعَاشِقِ الْمُخْلِصِ فِي الْعِشْقِ، تَتَجَلَّى فِي التَّوْحِيدِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ. وَهَذِهِ
 هِيَ الْحِمَاسَةُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالْعِرْفَانِيَّةُ لِلْعِشْقِ.

١- العِشْقُ مِعْرَاجٌ إِلَى سَفْهِ سُلْطَانِ الْجَمَالِ
 فَاقْرَأْ فِي رَجْعِ الْعَاشِقِ قِصَّةَ الْمِعْرَاجِ

(ديوان شمس: الغزلية ١٣٣)

يَا فَضِيلَةَ الْعَشْرَةِ آلَافِ فَضِيلَةٍ

(ديوان شمس: الغزلية ١٣٢٥)

٢- أَيُّهَا الْعِشْقُ ذُو الْأَلْفِ اسْمِ الطَّيِّبِ الشَّرَابِ

- أولئك المختسبون شراباً صرفاً
وأولئك المخيون الليل في المخابر
- لا أحد منهم فوق اليابسة، بل هم جميعاً في الماء
ولا أحد منهم يقط، بل هم جميعاً رُقود
الخيّام

شمس والشهادة

ما كان المخفّل الروحاني في قونية يُريد أن يظّل، أكثر من هذا، ناظرًا لا مبالياً إلى
إجراء حفلات السماع والدوران المديدة في بيوت قونية وميادينها، خاصة أن
المولويين الدوّارين ادّعوا أن السماع مُحرك القلوب إلى عالم الغيوب. وفي رأي
شمس ومولانا أن الرفص يهبّ الناس هُدوءاً مُحبباً، وأنه في تلك اللحظات يُثير في
القلوب الحيويّة والشوق إلى الحياة. يقول مولانا:

يَنْهَضُ، يَثُورُ، يَطِيرُ، يُضِيءُ، يَهَبُ
يُخْرِقُ، يَسْتَعِلُّ، يَجْذِبُ، يَمُوتُ، يَتَنَفَّسُ
امتداد الأيام منسرحه ومضطربه
والسماء موج من غبار طريقه

اتهموا شمساً بأن أقواله وأفعاله تنطوي على رسالة مشوشة للأذهان، باعثة على
الجنون، وبأنه يرى، مثل عيني القضاة الهمدانيّ، أن ما يُسمّى العيب والعار ممتنع الوجود
في عالم العشق. ولديه أمل بأن يغيّر بقوة الشعور والإحساس وتدقيق الموسيقى معرفة
القضاء الواسع للمجتمع، لكي يرفع مولانا المسحور الصوت هنا وهناك، ويقول
بمبالغة: إن ما يقوله شمس هو غالباً ينشأ عن الإلهام والإشراق، وأنه يغوص في سر
الحياة، واهتمامه الخاص منصرف إلى سعادة أفراد البشر جميعاً وتوفيقهم.

[٣٠٧] قَالَ هَؤُلَاءِ إِنْ شَمَسًا إِمَّا لَا دِينِي، وَإِمَّا يَدِينُ بَدِينِ الْحُبِّ. وَكُلُّ مَنْ يَخْتَارُ مِنْهُجَهُ وَطَرِيقَتَهُ يَغْدُو مَضْطَرِبًا وَمَتَشَرِّدًا وَقَوْضَوِيًّا. وَكَلَامُ شَمْسٍ، كَالشَّهَابِ الثَّاقِبِ، يَحْرُكُ كُلَّ سَامِعٍ عَاقِلٍ وَيَهْزُهُ وَيَغْيِرُهُ. وَعِنْدَمَا عَجَزَ أَصْحَابُ النَّوَايَا السَّيِّئَةِ، بِلَطَائِفِ الْحِيلِ، عَنِ إِفْسَادِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ مَوْلَانَا وَشَمْسٍ، تَوَسَّلُوا لِذَلِكَ آلَةً مِنْ آلَاتِ الْمَوْتِ، نَبَذُوا الْعُرْفَ الْإِنْسَانِيَّ وَالْأَذْيَانَ وَالْمَذَاهِبَ جَمِيعًا مِنْذُرًا مِنْ بَعِيدٍ. صَمَّمَ هَؤُلَاءِ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوا شَمْسًا غِيلَةً وَبَغْتَةً؛ لِكَيْ يُخَمِدُوا صَوْتَ مَدَاحِ الْحَقِيقَةِ، مَظْهَرِ إِشْرَاقِ عِرْفَانِ إِيرَانَ، الَّذِي أَسَاسُهُ عِبَادَةُ اللَّهِ، وَمَحَبَّةُ الْإِنْسَانِ، وَتَرْكِهُ النَّفْسِ، إِلَى الْأَبَدِ. مَدَاحُ الْعِشْقِ الَّذِي يَجِيئُ مِنَ الْقَلْبِ، وَيَتَحَوَّلُ مَالًا إِلَى عِشْقِ إِلَهِيٍّ، عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ؛ لِأَنَّهُ حَتَّى ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ عَصِيًّا عَلَى الْمُتَعَصِّبِينَ أَنْ يُدْرِكُوا أَنَّ الْإِنْسَانَ الْحَقِيقِيَّ مَعِينٌ لِلْفُيُوضَاتِ الْإِلَهِيَّةِ. وَبِسَبَبِ الْمَنْزِلَةِ الْعَالِيَةِ الَّتِي يَحْتُلُّهَا، يَسْتَطِيعُ بِمَدَدِ الْعِشْقِ أَنْ يَرْتَادَ عَالَمَ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ. وَكَانَ شَمْسٌ يُسَمِّي نَفْسَهُ رَجُلَ عَالَمِ الْعِرْفَانِ الْعِشْقِيِّ الْقَوِيِّ، وَكَانَ يَقُولُ بِشَجَاعَةٍ: مَنْ يَعْرِفُ نَفْسَهُ فَسَيَعْرِفُ يَقِينًا خَالِقَ الْكَائِنَاتِ مَعْرِفَةً صَحِيحَةً. وَمِثْلُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ الْمَقْتَرَنَةِ بِالْإِيمَانِ سَتَهَبُ الرُّوحَ سَكِينَةً مُحِبَّةً. وَفِي هَذَا الْمَسِيرِ، سَيَكُونُ الْعِشْقُ رَفِيقَهُ وَصَاحِبَهُ. وَإِنَّهُ، اعْتِمَادًا عَلَى الْقُدْرَةِ الْخَالِدَةِ الْخَالِقَةِ لِلْعِشْقِ، يُسْتَطَاعُ تَهْدِئَةُ الْمَحِيطَاتِ الزَّخَارَةِ لِلنَّكَدِ وَالشَّقَاءِ. هَذَا الْمَوْجُودُ الْمُخْتَارُ [شَمْسٌ]، لَمْ يَقْبَلْهُ عَدَدٌ مِنْ سَطْحِيَّ قُوْنِيَّةٍ، وَكَانُوا يَقُولُونَ عَنْهُ إِنَّهُ مَجْنُونٌ وَمَخْجُورٌ.

قَوْسُ قَرْحِ (*) سَمَاءِ الْعِرْفَانِ هَذَا، الَّذِي ادَّعَى فِي كُلِّ مَكَانٍ أَنَّ التَّجَلِّيَّ الْجَمَالِيَّ

* - هَذِهِ اسْتِعَارَةٌ تَصْرِيحِيَّةٌ لِشَمْسٍ التَّبْرِيزِيِّ وَقَوْسُ قَرْحِ السَّمَاءِ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِتَلَوْنِهَا، مِنَ «الْقُرْخَةِ» بِمَعْنَى: الطَّرِيقَةِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْ صُفْرَةٍ وَخُمْرَةٍ وَخَضَرَةٍ أَوْ لَارْتِفَاعِ هَذِهِ الْقَوْسِ فِي السَّمَاءِ، مِنْ قَرْحٍ: ارْتَفَعَ. أَوْ قَرْخُ مَلِكٌ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، فَتُسَبِّحُ إِلَيْهِ الْقَوْسُ [الْمُتَرَجِّمُ].

هو الأساس الذي بُني عليه الوجود، وأنَّ العِشْقَ هو أوَّلُ ظاهرةٍ في الحياة، يجبُ - في حُكْمِ الْمُتَعَصِّينَ - أنْ يُقْتَلَ. شَمْسُ التَّبَرِيزِيِّ، المُنادي إلى الحقائق الإلهية، الذي أعلنَ مِراراً أنَّ الجَمَالَ السَّرْمَدِيَّ انعكاسٌ للحقائق الأزليَّة، يجبُ أنْ يُقَطَّعَ بِشَفْرَةِ سِكِّينٍ، ويُمَزَّقَ صَدْرُهُ. لا بدَّ من أنْ يُداسَ بِسَاطِ السَّمَاعِ تحتَ أَقْدَامِ رِجَالِ السَّوءِ، ضَيِّقِي الأنظارِ، وأنْ يُحَرَّقَ طَالِبُ العِرْفَانِ الإيراني القديم، شَمْسُ، في النَّارِ التي أَضْرَمَهَا، ويصبحَ رَمَادًا، شَمْسُ هذا الذي انشغلَ بأعماقِ العالَمِ الدَّاخِلِي لِلنَّاسِ، وسَبَرَ مَرَاتٍ كَثِيرَةً أَعْمَاقَ الرُّوحِ العَظِيمِ لِمَوْلَانَا.

فَلَعَلَّ ضَالِّي قُوْنِيَّةٍ مَا كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ قَلْبَ شَمْسٍ أَتَوْنَ مَمْلُوءٌ بِنَارِ الشُّوقِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَكُونُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُكْرَمُوا حَانَتُهُ^(*)؛ لِأَنَّهُ يَخْتَرِزُ نَارَ العِشْقِ فِي قَلْبِهِ، وَيُسْعَلُ هَذِهِ النَّارُ يَتَجَلَّى العِشْقُ. [٣٠٨] وَلِأَنَّهَا مَحَلٌّ لِلْعِشْقِ تَكُونُ صَانِعَةً لَا مُحْرِقَةً، وَهَذِهِ الشَّعْلَةُ السَّرْمَدِيَّةُ لَا تَسْتَطِيعُ أَيْدِي الْبَشَرِ أَنْ تُطْفِئَهَا. وَقَدْ فَتَحَ شَمْسُ فُتُوحًا فِي سَيَرِهِ وَسُلُوكِهِ العِرْفَانِي:

لَوْ أَتَيْحَ لَكَ فَتَحُ الْبَابِ مَرَّةً وَاحِدَةً

لَرَأَيْتَ فِي دَاخِلِ الصَّدْرِ الشَّمْسَ

عَدَّ الْمُعَانِدُونَ وَالْمُخَالِفُونَ سُكْرَ شَمْسِ العِرْفَانِي فِي أَثْنَاءِ السَّمَاعِ أَعْظَمَ وَسِيلَةٍ

وَذَرِيعَةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى إِنْهَاءِ وَجُودِهِ. تَبًّا لِأَفْهَامِ الْمُعَانِدِينَ وَالْمُخَالِفِينَ.

إِنْ إِطْفَاءَ ضِيَاءِ شَمْسِ الْمُنِيرِ لِلْعَالَمِ لَيْسَ عَمَلًا عَقْلَانِيًّا، وَلَا مَنْطِقِيًّا، وَلَا إِنْسَانِيًّا، لَكِنَّهُ عِنْدَمَا يَتَوَارَى الْمَنْطِقُ يَغْمَى مُرِيدُو السَّوءِ يَقِينًا، وَيَضَعُونَ حِجَابًا أَمَامَ فَعَالِيَّاتِهِمُ الْعَقْلِيَّةِ وَالذَّهْنِيَّةِ. وَكَانَ أَنَّ رَبِّي شَمْسُ الْيَاقَةِ وَالشُّمُوعِ وَالْعِظْمَةِ فِي نُفُوسِ فَنَاتِ النَّاسِ الْمُخْلِصِينَ الْمُؤَثِّرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي قُوْنِيَّةٍ، عَلَى نَحْوِ جَعَلِ الْمُخَالِفِينَ لَهُ عَاجِزِينَ

* - الحانَةُ فِي الْأَصْلِ حَانُوتُ الْحَطَارِ، وَالِاسْتِعْمَالُ هُنَا عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ [المرجع].

عن تحمُّلِ تأثيره وفعاليته. كان هؤلاء يتصوِّرونَ أنَّ شَمْسًا إن بقيَ حيًّا، وواصلَ
فعاليَّته المستمرة التي لا تكِلُّ، سيسوقُ كُلَّ القُنُونِيِّينَ إلى عِرْفاًنه الخاصِّ، الذي هو
مَحَبَّةُ الإنسانِ لِلْعِشْقِ والنَّشاطِ والاستفادةِ مِنْ مَوَاهِبِ الطَّبيعة. وعلى شَمْسٍ - في
شُرْعَة هؤلاء - أن ينصَرِفَ إلى ديارِ العَدَمِ دائماً.

شَمْسٌ هذا يجبُ - في قولِ المتعصِّينَ أو في حُكْمِهِمْ - أن يُقتَلَ، مثْلَمَا قِيلَ. وكُلُّ
إنسانٍ يُصَفِّي نفسه مِنَ الهَوَسِ والهَوَى والتعصُّبِ، سِينالُ نِعْمَةً لِقَاءِ المطلوبِ، الذي
هو الحضورُ في جَنابِ البارئِ تعالى. ويحدثُ أحياناً أن يصلَ الإنسانُ إلى مَقامٍ يرى
فيه الحقائقَ كُلَّها في نفسه.

تمثَّلَتْ جِنَايَةُ شَمْسٍ في أنَّه عَجَزَ عن أن يُفهمَ المُخالفينَ ظاهرةَ العِشْقِ. وقد قالَ
شَمْسٌ مَرَّاتٍ: إِنَّ العِشْقَ يَنْفَتِحُ ويزْدَهُرُ فقط في أفئدةِ أربابِ الشَّرَفِ والْفُتُوَّةِ والإِبَاءِ.
والعِشْقُ في ذاته يُهْدِي الطَّهارةَ والعِفَّةَ والنِّقاءَ. وإنَّه بِمُساعدَةِ هذه الأجنحةِ، يعرُجُ
الإنسانُ إلى ما وراءِ الكائناتِ، معَ أنْ مَوْلانا قالَ في هذا الشأنِ:

يَظْهَرُ العِشْقُ مِنْ أَنْبِيِ القَلْبِ

وَلَا مَرَضٌ مِثْلُ مَرَضِ القَلْبِ

وَمَذْهَبُ العاشِقِ مُمَيِّزٌ عَنِ بَقِيَّةِ المَذاهِبِ

فإنَّ العِشْقَ أَسْطَرُلابٌ^(١) أَسْرارِ الله

[٣٠٩] والعَقْلُ، في شَرْحِ العِشْقِ، مِثْلُ جِمَارٍ نَامَ في الوَحَلِ

١ - آلةٌ صغيرةٌ كانوا يستعملونها في مُراقبةِ مواقعِ التَّجُومِ والأجرامِ السَّامِيَّةِ، ومعرفةِ الوقتِ، والجهاتِ الأُصْلِيَّةِ
[المترجم].

فَشَرَحُ الْعِشْقِ وَفَعَلِهِ، قَالَ لَنَا الْعِشْقُ نَفْسُهُ (١)

مَا كَانَ الْمُخَالِفُونَ الْمُنْحَطُّونَ يَعْدُونَ هَذَا الْكَلَامَ مَنْسَجِمًا وَقَوَاعِدَ الْعِلْمِ وَالْمَنْطِقِ. وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ مِنْ ضُرُوبِ الثَّرَثَةِ وَالشُّطْحِ وَالتَّهْوِيمِ، وَالْمُتَرَثِّرِ وَالشُّطَّاحِ وَالْمُهَوِّمِ يَجِبُ أَنْ يَنَالَ كُلُّ مِنْهُمْ جَزَاءَ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَدَعَاوِيهِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْعَقْلِ.

كَانَ الْمُخَالِفُونَ وَالْمَعَانِدُونَ يَقُولُونَ إِنَّ شَمْسًا مِنَ الْمُبَشِّرِينَ الْغَوَاثِينَ بِالْعِشْقِ، إِذْ بَلَغَ مَرَحَلَةَ الْجُنُونِ بِسَبَبِ قَرْطِ الْكَبِيرِ وَالْعُجْبِ وَحُبِّ النَّفْسِ. وَلِهَذَا السَّبَبِ، لِيَالِي شَمْسٍ هِيَ لِيَالِي التَّأَثُّرِ وَالشُّرُورِ وَالْوَجْدِ وَالسَّمَاعِ، وَهُوَ يَدْعُو شُبَّانَ قُوْنِيَّةٍ إِلَى عِشْقِ الْجَمَالِ، وَإِلَى عَالَمِ الْعِرْفَانِ الْمُسْتَفِيدِ مِنَ الْمَوْسِقَا؛ لِكَيْ يَقْوَى فِي أَذْهَانِهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ حُلْمُ السَّمَاعِ وَالرَّقْصِ الْجَمَاعِيِّ، وَيَعْتَادُوا عَلَيْهِ. وَلَا بَدْ مِنْ مُبَارَزَةِ عَاصِفَةِ الْجَذْبِ وَالْهَيْجَانِ الَّتِي أَثَارَهَا شَمْسٌ، وَلَا بَدْ مِنْ تَعْطِيلِ جَلَسَاتِهِ.

كَمْ هُمْ فَاقِدُونَ لِلْإِنْصَافِ أُولَئِكَ الْمُظْلِمُو التَّفَكِيرِ. بَلْ كَانَتْ لَحَظَاتُ شَمْسٍ وَأَيَّامُهُ وَلَيَالِيهِ وَقَفًّا عَلَى تَرْبِيَةِ النَّاسِ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَكَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ أَنْفُسِهِمْ. كَانَتْ لِيَالِي شَمْسٍ كُلُّهَا تَضْرَعًا وَمُنَاجَاةً وَتَحَرُّقًا وَذَوْبَانًا:

لَا يَعْلَمُ حَالِ لِيَالِيٍّ إِلَّا شَخْصٌ مِثْلِي

فَأَنِّي تَعْلَمُ أَنْتَ كَيْفَ يَمْضِي لَيْلُ الْمُحْتَرِقِينَ؟

كَانَ أَمَلُ شَمْسٍ مِنَ الْعُرُوجِ عَلَى سُلْمِ الْوُجُودِ كَسَبَ مَعَارِفَ فِي الْعِشْقِ وَالْعِرْفَانِ مِمَّا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ. وَلَمْ يَكُنِ الْحَاسِدُونَ، عُمِّي الْقُلُوبِ، يَدْرِكُونَ مَعَانِي فِكْرِ شَمْسٍ الْمُتَعَالِيَةِ الَّتِي تَفِيضُ مِنْ يَنْبُوعِ الْعِشْقِ. كَانَ شَمْسٌ مُرِيًّا وَمُرَادًا لِلْمُشْتَاقِينَ، الَّذِينَ أَمَلُوا أَنْ يَمْلَأُوا فَضَاءَ الطَّبِيعَةِ الرَّمْزِيَّ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْمَجَالَاتِ الْعَاطِفِيَّةِ.

كَانَ الْمُخَالِفُونَ مُسْتَائِنِينَ مِنْ أَنَّ فَنَاتِ النَّاسِ وَجَمَاعَاتِهِمْ، خَاصَّةً الشُّبَّانَ، يَنْجَذِبُونَ إِلَى فِكْرِ شَمْسٍ كَمَا يَنْجَذِبُ الْمَغْنَاطِيسُ إِلَى الْحَدِيدِ. وَقَدْ حَدَّثَ ذَلِكَ عَلَى نَحْوِ خَاصٍّ حِينَ أَخَذَ مُجِبُّو شَمْسٍ يَقُولُونَ بَعْدَ أَمِدٍ قَصِيرٍ: إِنَّ الاضطرابَ الذَّهْنِيَّ وَالْإِحْسَاسَ بِالْيَأْسِ قَدْ زَالَا مِنْ سَاحَةِ وَجُودِهِمْ، وَكَانُوا يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ شَمْسًا مَلْجَأُ الْمُؤْمَلِينَ وَالرَّاجِينَ. وَقَدْ اعْتَقَدُوا بِأَنَّ لَدَيْهِ رِسَالَةً مُقَدَّسَةً، وَشَبِيهَةً بِالْمُعْجِزَةِ، لِإِرْشَادِ النَّاسِ وَتَوْجِيهِهِمْ إِلَى تَعْرِفِ ذَوَاتِهِمْ، وَكَانُوا يُحْسِنُونَ بِأَنَّ فِي كَلَامِهِ هَيَجَانًا وَإِثَارَةً يُسَكِّنَانِ الْآلَامَ وَالْأَسْقَامَ. وَأَذَاعَ عُمِّيُّ الْبَصَائِرِ فِي قُوْنِيَّةٍ، فِي الْمَحَافِلِ وَالْمُتَدَيَاتِ، أَنَّ خَلْفَ ظَاهِرِ شَمْسٍ الْمُوقَّرِ بَاطِنًا مُعْجَاجًا وَهَوَسًا وَهَوًى. وَإِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ، لَدَيْهِ مَلَاحُظٌ مُبْهِمَةٌ وَغَامُضَةٌ، وَيَتَبَيَّنُ مِنْ تَصَرُّفِهِ أَنَّهُ عَشَّشَ [٣١٠] فِي قَلْبِهِ وَذَهْنِهِ ابْتِدَاعًا وَفِكْرًا سَوْدَاوِيَّةً. وَقَدْ مَزَجَ التَّقْوَى وَالسَّمَاعَ وَالْمُطَايِبَاتِ وَالشُّخْرِيَّةَ مَعَ شَيْءٍ مِنَ التَّفَاهَاتِ. وَفِي النَّتِيجَةِ، ابْتَلَى جَلَالَ الدِّينِ الْبَلْخِيَّ بِالتَّفَاهَةِ وَاعْوَجَّاجِ التَّفَكِيرِ الْمُنْفَرِّ. وَلِأَنَّ جَلَالَ الدِّينِ صَارَ فَاقِدَ الْإِرَادَةِ، أَخَذَ يَرَى نُبُوغًا صَحِيحًا فِي كَلَامِ الْمَشْرُودِ التَّبْرِيزِيِّ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ سُحِرَ وَجُذِبَ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُمْكِنُ فِيهِ تَلَمُّسُ عَجَزِ شَمْسٍ الْكَبِيرِ جَيِّدًا، فِي كَلَامِهِ الطَّنَانِ الْفَارِغِ.

قَرَّرَ الْمُعَانِدُونَ بِإِصْرَارٍ أَنَّ شَمْسًا يَجِبُ أَنْ يُقْتَلَ سَرِيعًا، إِذْ كَانُوا يَعُدُّونَ شَمْسًا جَهَنَّمَ أَخِيرَ الزَّمَانِ، وَيَرَوْنَ فِيهِ شَيْطَانًا مَرِيدًا، وَيَقُولُونَ: لَا بَدْءَ، ابْتِدَاءً، مِنْ أَنْ يُقْتَلَ بِضَرَبَاتِ سِيَاطٍ تُجْرَى فِي حُجْرَةٍ مُظْلِمَةٍ، وَهَنَّاكَ يُقَطَّعُ بِأَسْوَأِ طَرِيقَةٍ قِطْعَةً قِطْعَةً لِأَنَّهُ - مِثْلَ مَوْلَانَا - قَالَ:

ضَمُّوا الْقُطْنَ فِي أُذُنِ حِسِّكُمْ الْأَسْفَلِ

وَحُلُّوا رِبَاطَ الْحِسِّ مِنْ أَمَامِ أَعْيُنِكُمْ

وَلْتَخْلُصُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْحَسِّ وَالْأَذْنِ وَالْهَوَاجِسِ

حَتَّى تَسْمَعُوا نِدَاءَ «أَرْجِي»^(*)

إِنَّ سَيْرَ الظَّاهِرِ هُوَ قَوْلُنَا وَفَعْلُنَا

وَأَمَّا سَيْرُ الْبَاطِنِ فَيَكُونُ فِي أَعَالِي السَّمَاءِ

فَالْحَسُّ لَمْ يَرَ إِلَّا الْيَابِسَ؛ لِأَنَّهُ وُلِدَ مِنَ الْيَابِسِ

أَمَّا عَيْسَى الرُّوحِ فَقَدْ مَشَى بِقَدَمَيْهِ عَلَى الْمَاءِ^(١)

وكان شمسٌ قد قال لمولانا: كم أنا مسرورٌ^(٢) بصُحبتك التي أعطتني مثل هذه

المحبة. أعطاك الله قلبي^(٣) هذا. ما قيمة هذه الدنيا، وما قيمة تلك الدنيا، عندي؟! ما

فَعَرُّ الْأَرْضِ، وما [٣١١] أَعَالِي السَّمَاءِ!

* - هذه إشارة إلى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٧﴾ ارْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَبَةً» (الفجر/٢٧، ٢٨). ومعنى البيت: احفظوا أنفسكم من مطالب الحس والتفس وأغراض الحياة الدنيا، لتكونوا من جملة التفويس المطمئنة، التي عند انتهاء الأجل تحصل على أجمل مكافأة يحصل عليها بشر [المترجم].

١- المثنوي: ٥٧٠/١ وما بعد

٢- مقالات شمس، ص ١٨٩.

٣- أثبت الشيخ عبد الله الأنصاري، في تفسير الآية: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» (الأنفال/٢٤) قوله: «إِنَّ سَالِكِي طَرِيقِ الْحَقِيقَةِ فِرْقَتَانِ: عُلَمَاءُ وَعَارِفُونَ. عُلَمَاءُ وَعَارِفُونَ قُلُوبُهُمْ؛ وَعَارِفُونَ فَقَدُوا قُلُوبَهُمْ. وهذه الآية رمزٌ غريبٌ، وإشارةٌ عجيبة. فإنّه في البداية لا بدّ من القلب، وفي النهاية القلب محجّب. ومادام السالك مع القلب فهو مُريدٌ؛ ومن دون القلب يكون مُراداً. في البدء لا بدّ من القلب؛ لأنّه من دون القلب لا يمكن طي طريق الشريعة. وفي النهاية، البقاء مع القلب ثنائيتي، أو اثنائيتي، والثنائيتي بعدد عن الحق في شأن بداية الأمر قال: «لَمَّا كَانَ لَهُ قَلْبٌ» (ق/٣٧)، وفي شأن النهاية قال: «يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ».

وقد قيل: صاحب القلب أربعة أشخاص: زاهدٌ، قلبه أضناه الشوق وخائفٌ، قلبه منكسرٌ بالتمتع، ومريدٌ، قلبه استعدادٌ للخدمة، ومحجّبٌ، قلبه مرتبطٌ بالحضرة. جاء ونحيي إلى داوود:

أي داوود، البيت الذي يليق أن يكون ميداناً مواصليتنا، ظهره من غيرنا، انشغل بنا. فقال داوود: أي بيت يليق بجلالك وعظمتك؟ - فجاء التداة: قلب العبد المؤمن، أي داوود، أينما رأيته رأيت بيدراً محترقاً، لأنّه في طريق البحث عنا يظلمنا بحرقة العشق، فحدّده [البيت] في ذلك الموضع؛ لأنّ خيمة قُدسنا لا تُضرب إلّا في ميدان =

رَأَى أَهْلَ الظَّاهِرِ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ صِنْفِ الْمَقُولَاتِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، وَأَنَّ قَائِلَهُ
مُسْتَحِقٌّ لِلْإِفْنَاءِ.

حُكِمَ عَلَى شَمْسٍ بِالْمَوْتِ بِالتَّعْذِيبِ وَالْإِيذَاءِ الْجَسَدِيِّ؛ لِأَنَّهُ خَاطَبَ جَمَاعَةً مِنْ
أَهْلِ النِّفَاقِ الْمُتَاجِرِينَ، الْخَالِيِ الْوِفَاضِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، بِلَهْجَةٍ صَرِيحَةٍ قَاطِعَةٍ،
قَائِلًا: أَيُّهُ فَائِدَةٌ لِهَؤُلَاءِ الْمُرَائِينَ مِنْ لِقَاءِ الْأُمَرَاءِ^(*) وَحَدِيثِهِمْ؟ - إِذَا كَانَ لِلَّهِ عِبَادٌ يَمُرُّونَ
فَوْقَ الْحَوَاضِ وَالنَّهْرِ، وَلَا أَقُولُ فَوْقَ الْبَحْرِ، فَلَا تَبْتَلُ أَذْيَالُ ثِيَابِهِمْ، فَلْيَسُوا هُمْ هَؤُلَاءِ؛
إِذَا إِنَّ مَسْأَلَةَ ابْتِلَالِ الدَّلِيلِ لَيْسَتْ لِهَؤُلَاءِ، بَلْ هَؤُلَاءِ يَغْرُقُونَ، وَلِلْأُمَرَاءِ مِنْ لِقَائِهِمْ أَذًى؛
لِأَنَّ الْقَابِلِيَّةَ وَالتَّقْلِيدَ اللَّذِينَ يَمْتَلِكُونَهُمَا يُغْطِيَانِ بِسَبَبِ هَؤُلَاءِ. هَؤُلَاءِ كَالْفَأَرِ، يَخْرُبُونَ
بَيْتَ الْإِيمَانِ. وَقَدْ ظَلَّ شَمْسٌ حَتَّى اللَّحَظَاتِ الْآخِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ يَقَاوِمُ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةَ
السَّيِّئَةَ، وَيَبَارِزُهَا بِشَجَاعَةٍ وَبَطُولَةٍ.

= المحترق القلوب وهو [قلب العبد المؤمن] محل معرفتنا ومحراب وصالنا، وخيمة اشتياقنا، ومقر كلامنا، وكنز
بيت أسرارنا. وكل شيء يحترق يغدو عديم القيمة، والقلب الذي يحترق يغدو ذا قيمة الرسول (عليه الصلاة
والسلام) قال: قلوب عباد الله أوعية خضرة الله، وأنا أحبها أظهر وأضفى وأرق وأثبت. لأن قلوب عشاق الأمة
هي كؤوس شراب الربوبية، وكلما كان القلب أضفى من الأوشاب، وأراق بالمؤمنين، كان عند حضرة العزيز أعز.
فاعمل على أن تعز قلبك، وتحفظه من كدورات الهوى وهوس الشهوة؛ لأنه لطيفة ربانية ومحط نظرة سبحانه
* - أي المخلصين في محبتهم للحق تعالى، العارفين لوحدانيته وجلاله سبحانه [المترجم].

- ما مغرأج الفلك؟ - إنه هذا العدم
العدم هو المذهب والدين للعاشقين
- وليس لأحد، ما لم يفن،
طريق إلى حضرة الكبرياء
(المتنوي: ٢٣٥/٦، ٢٣٤)

علاء الدين عَدُو شَمْسٍ

سَعَى الْمُعَانِدُونَ وَالْمُخَالِفُونَ لِشَمْسٍ، يَدَا بِيَدٍ، إِلَى إِنْزَالِ هَذَا الرَّجُلِ الشَّجَاعِ
الْمِقْدَامِ فِي مِيدَانِ الْعِرْفَانِ مِنْ عَلَيَّائِهِ، بِكُلِّ ثَمَنٍ. وَكَانَ شَمْسٌ يَقَاوِمُ بِجُرْأَةٍ وَجَسَارَةٍ كُلَّ
أَصْنَافِ الظُّلَمِ وَالتَّهَمِ وَالتَّمَائِمِ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا، وَيَتَحَدَّثُ بِحِمَاسَةٍ وَحَرَارَةٍ، وَلَا
يَسْكُتُ لِلْخُطَةِ. كَانَ الْأَعْدَاءُ جَادِينَ فِي تَسْدِيدِ ضَرَبَاتِ الْإِتْهَامِ بِخِصَّةٍ. قَالُوا لِشَمْسٍ:
مِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ تَسْكُتَ، إِنْ رُوحَكَ فِي قُوْنِيَةٍ فِي خَطَرٍ. لَا يُرِيدُ النَّاسُ أَنْ يَرَوْكَ مَرَّةً
أُخْرَى، فَقَدْ أَبْعَدْتَ مَوْلَانَا عَنْهُمْ.

أَهْلُ قُوْنِيَةِ الْمُتَمَتِّعُونَ بِالْمَعْتَرِضُونَ يَرِغْبُونَ فِي أَنْ يُطَاحَ بِشَمْسٍ، وَأَنْ يَغِيبَ
عَنِ الْأَنْظَارِ؛ لِكَيْ يَسْتَطِيعُوا بِخُرِيَّةٍ أَنْ يَشَاهِدُوا مُحَيَّا جَلَالَ الدِّينِ مَوْلَانَا الْمُبْهِجِ
بَيْنَهُمْ، عَنْ كُتْبٍ.

أَمَّا شَمْسٌ فَكَانَ يَقُولُ: أُرِيدُ أَنْ أُغَيِّرَ كُلَّ إِحْسَاسٍ وَإِدْرَاكِ وَرُؤْيَةٍ لَدَى أَهْلِ قُوْنِيَةٍ.
وَأَنَا أَعُوْلُ عَلَى مَوْلَانَا، فَمَوْلَانَا هُوَ الَّذِي يُعْطِينِي الْقُوَّةَ. وَمَعَ كُلِّ صُورِ الظُّلَمِ الَّتِي
يُجِيزُهَا الْمَخَالِفُونَ لِي، لَدَيَّ فِي قَلْبِي أَنْغَامٌ مِنْ أَجْلِ الطَّرِيقِ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، عَلَيَّ أَنْ
أَعْرِفَهَا تَدْرِيجِيًّا. وَسَيَحْدُثُ مَوْتِي عِنْدَمَا تَتَحَقَّقُ فِكْرِي الْمَلَكُوتِيَّةُ. وَالْأَحْكَامُ الْمَتَعَجِّلَةُ
لِلنَّاسِ سَتُنْسَى سَرِيعًا. وَعِزَّةُ النَّفْسِ وَالتَّحَمُّلُ عِنْدِي، وَعِنْدَ مَوْلَانَا، لَنْ تَجْرَحَهُمَا تُهَمُّ

المخالفين البتّة. والطريق الذي اخترناه من أجل معرفة النفس ومعرفة الرب [٣١٣] استمدّ من قلبينا القوة والفكر. وهذا الدويّ السماوي، الذي هو عشق الله تعالى، لن يُنسَى في قرون المستقبل وأعصاره أيضًا.

ونحن نريد للناس أن يصبحوا أخلاص^(١) مُختلّي التوحيد، أخلاصًا لأنفسهم، للناس، وفي المكان الذي يوجدون فيه يكونون مُحيين بإخلاص، ويعشقون. نحن نقول: اعشقوا؛ لكي تسيروا في ركب المَجَرّات والكائنات. نحن نقول: اغرفوا أنفسكم جيّدًا؛ لكي تسمّعوا نداء الحقّ المُزِين للقلوب بالآذان والعقول. أنا ومولانا سنكون دائمًا عازي أنعام العشق، وشُعراء مديحه. الدويّ المحبّب لصوت مولانا، وأشعاره وكلامه، ستدخل أناس الدنيا جميعًا، وذرات الفضاء حتّى الموجودة منها في أطرافه، في حالٍ من الوجد والاشتياق.

قالوا لشمس: أنت مُبتدِع، وتبعًا لذلك يجب أن تغادر قونية، وإلا فسُقتل. فكان شمس يقول: أنا أرى حياتي، الموجودة الآن وراء هالة من الظلمة، كلّها، أراها جيّدًا. وهذا آخر ملجأ لي، فقونية هي المكان الذي لا بد لي من أن أقول الحقائق فيه؛ وبعد ذلك سأمضي إلى مكانٍ أُغيب فيه عن الأنظار، ولا يعود لي من أثر. لست مُبتدعًا. أريد أن أرتي شخصًا مؤمنًا معتقدًا عارفاً مُخلصًا، يكون شمعًا وقبلة للجمع، أكشف له الحقائق، فلا يكون مثل إبراهيم - الذي هو من أصدقائي الدمشقيين - حائرًا في مُفترق طرق الحياة. وكان إبراهيم هذا، بعد قراءته أشعار الخيام، قال لي مرّات: إنّ الخيام مشّت الذهن ومتحير... فأجبتُه: نعم، هو كذلك في أشعاره، خاصّة حيث أنشد:

١- جمع خلص، وهو الفائت في الإخلاص [المترجم].

يَا مَنْ الْفَلَكَ خَرِبٌ مِنْ حَقْدِكَ

الظُّلْمُ وَالْجَوْرُ أَسْلُوبٌ قَدِيمٌ لَكَ

إنه يَصِفُ حاله هو، فقد كان حائراً قَلْباً. والخُلاصةُ أنه يَتَهَمُ الْفَلَكَ، يَتَهَمُ زَمَانَهُ، حَظَّهُ. يقول أمثال هذه الكلمات في الظُّلْمَةِ. أما أنا فأَحْسِبُ أن المؤمن لا يكون حائراً. المؤمن هو الذي أَلْقَتِ الْحَضْرَةُ أَمَامَهُ النِّقَابَ، وَرَفَعَتِ الْحِجَابَ، وَهُوَ يَرَى مَقْصُودَهُ، وَيَتَعَبَّدُ عِبَاناً فِي عِيَانٍ. المؤمن، المَعْتَقِدُ، الْعَارِفُ نَفْسَهُ، لَا تُعَشِّشُ الْحَيْرَةُ وَالاضْطِرَابُ وَالْقَلَقُ فِي وجوده كَالشُّوسِ، وَيَرَى أَنَّ السَّيِّئَاتِ كُلَّهَا مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ، وَالْحَسَنَاتِ مِنَ الْبَارِئِ تَعَالَى. تُرِيدُ أَنْ تُرَبِّيَ مُؤْمِنًا مَعْتَقِدًا يَرْفَعُ النِّقَابَ مِنْ أَمَامِ عَيْنِهِ. وَكُلُّ فَسَادٍ [٣١٤] وَقَعَ فِي الْعَالَمِ مَصْدَرُهُ أَنَّ الْأَشْخَاصَ لَمْ يُرِيدُوا أَنْ يَخَالِفُوا النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ. وَعَقِيدَتُنَا هِيَ أَنَّهُ يَجِبُ إِهْمَالُهَا دَائِمًا وَقَمْعُهَا؛ لِكَيْ تَدْعُو إِلَهَةُ الْعِشْقِ الْإِنْسَانَ إِلَيْهَا، وَإِذْ ذَاكَ سَيَرَى الْإِنْسَانُ شَمْسًا جَدِيدَةً تَسْطَعُ عَلَى دَقَائِقِ حَيَاتِهِ وَلَحَظَاتِهَا.

أَوْجَدَ الْخَلَاقُ سُبْحَانَهُ الْعِشْقَ مِنْ أَجْلِ مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَا وَمَوْلَانَا بِفَضْلِ الْعِشْقِ اقْتَرَبْنَا مِنْ خَالِقِ الْكَائِنَاتِ، وَعَرَفْنَا هَذَا الْخَالِقَ. وَالْعَاشِقُونَ جَمِيعًا يَرَوْنَ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ لِأَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ بِنُورِ اللَّهِ. وَنَحْنُ مُسْلِمَانِ، وَنَقُولُ إِنَّ طَاعَةَ الْإِنْسَانِ هَوَى نَفْسِهِ كُفْرٌ. يَكْتُبُ مُؤَلِّفُ كِتَابِ «مَنَاقِبِ الْعَارِفِينَ» قَائِلًا:

فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ، حَدَّثَتْ فِي قُوْنِيَّةٍ ضَعْفَةٌ عَظِيمَةٌ، إِذْ تَسَاءَلَ النَّاسُ:

عَجَبًا، أَشْمَسُ الدِّينِ وَلِيٌّ أَمْ لَا؟ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ يَقُولُ شَيْئًا، وَيُؤْمَلُ مُحَادَثَتُهُ لَعَلَّهُ يَفْهَمُهُ. أَمَّا هُوَ فَكَانَ يَفَرُّ مِنَ الْمَجَامِعِ وَالْمَحَافِلِ وَالنَّاسِ. وَعِنْدَمَا كَانَ يَوْجَدُ فِي الْمَجَامِعِ كَانَ عَدَدٌ مِنَ الْمُخَالِفِينَ يَقَاطِعُونَهُ، وَيَتَحَدَّثُونَ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ. وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، قَالَ مَوْلَانَا شَمْسُ الدِّينِ بَانِرِ عَاجٍ:

مَنْ يُدْخِلُ كَلَامًا فِي أَثْنَاءِ كَلَامِي تَكُونُ عَاقِبَتُهُ عَاقِبَةُ شَرَفٍ لَهَاوَرِي، الْفَرْقُ فِي مَاءٍ أَسْوَدَ آسِنٍ. فَقَدْ رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَغْوِصُ فِي مَاءٍ أَسْوَدَ مُتَتِنٍ وَيَحْرُكُ إِصْبَعَيْنِ مُسْتَغِيثًا: أَنْ يَا مَوْلَانَا شَمْسُ الدِّينِ سَاعِدَنِي. لَمْ يَعْظُهُ هَذَا، فَبَدَأَ يَجِيءُ إِلَيَّ مِنْ جَدِيدٍ، وَيُشْرَحُ الْفَرْقَ بَيْنَ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَكِرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ... وَفِي النَتِيجَةِ: مَا أَنَا وَحَدِيثُ الْأَوْلِيَاءِ؟ - مَاذَا يُهْمُكَ أَنْ أَكُونَ وَلِيًّا أَوْ غَيْرَ وَلِيٍّ؟ اسْمَعْ كَلَامِي (١).

كَتَبَ سِبْهَسَالَارُ فِي كِتَابِهِ «الرَّسَالَةُ»:

«كُلَّمَا وَجَدَ مُخَالِفُو شَمْسِ الدِّينِ فُرْصَةً انْتَهَمَكُوا بِالِاسْتِخْفَافِ بِهِ، وَقَامُوا بِحَرَكَاتٍ تَبَعْتُ عَلَى الْإِزْعَاجِ. وَعِنْدَمَا تَجَاوَزَ الْأَمْرُ الْحُدُودَ، قَدَّمَ شَمْسُ الدِّينِ عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَةِ وَضَفًا سَرِيعًا لِسُلْطَانٍ وَلَدَ، ابْنِ مَوْلَانَا، عَلَى هَذَا النَّخْوِ: هَذِهِ الْمَرَّةَ، يُسْتَفَادُ مِنْ حَرَكَاتِ هَذَا الْجَمْعِ أَنْ لَدَيْهِمْ قَضْدًا إِلَى قَتْلِي، وَمَسَاغِبٌ عَلَى نَخْوٍ لَا يَجْدُ فِيهِ أَحَدٌ أَثْرًا لِي.

أَخَذَ مُخَالِفُو شَمْسٍ، بِحِمَايَةِ صَرِيحَةٍ مِنْ عَلَاءِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ، الْإِبْنِ الْأَصْغَرَ لِمَوْلَانَا، يُطْلَقُونَ [٣١٥] فِي الْأَحْيَاءِ وَالْحَارَاتِ فِي قُوْنِيَّةِ أَقْوَالٍ قَاسِيَةٍ ضِدَّ شَمْسٍ، وَيُشِيعُونَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّهُ لَا دِينِيَّ وَغَيْرُ مُسْلِمٍ. وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِذَا شَاءَ أَهْلُ قُوْنِيَّةِ النَّجَاةِ مِنْ عَارِ سَمَاعِ شَمْسٍ وَوَجْدِهِ، إِذَا شَاؤُوا تَقْوِيضَ أَرْكَانِ السَّمَاعِ، وَإِعَادَةَ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى التَّدْرِيسِ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُقَطَّعَ شَمْسٌ قِطْعَةً قِطْعَةً، أَوْ يُحْرَقَ فِي جَحِيمِ نَارٍ.

وَابْتِغَاءً أَنْ يُفْهِمَ مَوْلَانَا الْمُخَالِفِينَ وَالسُّدَجَّ أَنَّ شَمْسًا رَجُلٌ مُؤْمِنٌ وَمُحِبٌّ لِلَّهِ، كَانَ يَقْدُمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَيَعْرِفُهُ لِلْآخِرِينَ بِأَنَّهُ مُعِزُّ الدِّينِ، وَسِرُّ اللَّهِ، وَيُنْشِدُ:

شَيْخِي وَمُرَادِي، دَائِي وَدَوَائِي
 أَعْلَنْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ: أَنْتَ شَمْسِي وَمَعْشُوقِي
 أَمُوتُ مِنْ عِشْقِكَ؛ لِأَنَّكَ مَلِكَ الْعَالَمِينَ
 وَمَا دُمْتَ تَنْظُرُ إِلَيَّ، أَنْتَ شَمْسِي وَمَعْشُوقِي
 أَنْمَحِي أَمَامَكَ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنِّي أَثَرُ
 وَهَذَا هُوَ شَرْطُ الْأَدَبِ، يَا شَمْسِي وَمَعْشُوقِي
 أَنْتَ كَعْبَتِي، أَنْتَ مَعْبُدِي، أَنْتَ نَارِي، أَنْتَ جَنَّتِي
 أَنْتَ مُؤْنِسُ زَمَانِي، أَنْتَ شَمْسِي وَمَعْشُوقِي
 وَمِنْ أَيْنَ لِحَبِيرِ الشَّهْرِ الْقُدْرَةُ عَلَى أَنْ
 يَدْلَنِي عَلَيْكَ، يَا شَمْسِي وَمَعْشُوقِي
 وَأَيْنَ حَاتِمُ الطَّائِفِ، لِكَيْ يَقْبَلَ الرُّكَّابَ
 عِنْدَ سَخَائِكَ وَيَذَلِّكَ، يَا شَمْسِي وَمَعْشُوقِي
 فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، نِتَاجَ إلهَامِ الْقُدْرَةِ السَّخَرِيَّةِ
 لِلْعِشْقِ، فَمَاذَا يَكُونُ؟
 وَهَذِهِ الْأَشْعَارُ، كَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ فُرُوزَانْفَرُ، تَنْفِرُ مِنْهَا قُلُوبُ أَهْلِ الظَّاهِرِ،
 وَتَعَافُهَا أَذْوَاقُ الْعَوَامِّ السَّطَحِيِّينَ، وَالْأَكْثَرُ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِلْإِنْكَارِ.
 وَفِي النِّهَايَةِ، حَانَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ الْمَشْهُومَةُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا لَحَظَاتٌ لِكَيْ يَكُونَ عَلَى
 شَمْسٍ أَنْ يَتْرَكَ قُوْنِيَّةً بِيْطُولَةٍ وَشَجَاعَةً، وَبَدَأَ نَاقُوسُ الْفِرَاقِ يَدُقُّ. نَزَلَتْ شُعْلَةٌ مِنْ
 السَّمَاءِ، وَيَجِبُ أَنْ يَحْتَرِقَ كُلُّ شَيْءٍ. كَانَ لِزَامًا أَنْ لَا يَصِلَ صَوْتُ شَمْسٍ الْحَبِيبِ إِلَى

أَذَانِ النَّاسِ لِبَعْضِ الْوَقْتِ. يَدُ الْمُعَانِدِينَ الثَّقِيلَةُ قَرَرَتْ أَنْ تَدُقَّ حَنْجَرَةَ شَمْسٍ؛ لِكَيْ تُسَكَّتَ وَتُخْنَقَ إِلَى الْأَبَدِ. وَلَعَلَّ وَظِيفَةَ آخَرِينَ أَنْ يُمَسِّكُوا بِمِشْعَلِ «مَعْرِفَةِ الذَّاتِ» بِأَيْدِيهِمْ، وَيُنِيرُوا الْمَجْتَمَعَ الْمُظْلِمَ. كَانَتْ شَرَارَاتُ تُضِيءُ سَمَاءَ قُوْنِيَةِ الْمُظْلِمَةِ.

كَأَنَّ عَاصِفَةً مِنَ الْجَذْبِ وَالْهَيْجَانِ وَالْحَمَاسَةِ بَدَأَتْ بَغْتَةً تَتَحَرَّكُ، وَتَلْفُ الْفِكْرَ وَالْفَنَّ وَكُلَّ أَنْوَاعِ النَّتَاجِ الْعَقْلِيِّ مَعًا، وَتَحْمِلُهَا مَعَهَا إِلَى آفَاقٍ بَعِيدَةٍ. وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُخِيفَةِ الْمَوْحِشَةِ، كَانَ شَمْسٌ، كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، جَالِسًا بِقُرْبِ مَوْلَانَا وَيَقُولُ لَهُ:

• فِي ضَمِيرِي بِشَارَةٌ، أَعْجَبُ مِنَ الَّذِينَ، مِنْ دُونِ أَنْ يَسْمَعُوا هَذِهِ الْبِشَارَةَ، [٣١٦]

يَكُونُونَ مَسْرُورِينَ. فَلَيْتَهُمْ يَأْخُذُونَ مِنَّا مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي قُلُوبِنَا، وَعِنْدَيْدُ يُسْرُونَ، لَيْتَهُمْ يَأْخُذُونَ مَا نَمْلِكُهُ كُلَّهُ، وَيُعْطُونَنَا مَا هُوَ لَنَا، عَلَيَّ وَجْهَ الْحَقِيقَةِ^(١). أَكُونُ مُتَوَاضِعًا جَدًّا حَتَّى أُمَامَ الْمُرَاتِينِ وَالْمُخَالَفِينَ لِي فِي قُوْنِيَةِ. وَعَلَيَّ مَوْلَانَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّنِي فِي الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ كُلِّهَا عِنْدِي حَيِّبٌ وَاحِدٌ، هُوَ أَيْضًا مَوْلَانَا. وَإِنِّي، بِعَوْنِ مَوْلَانَا، قَادِرٌ بِالْكَلَامِ وَالْمَنْطِقِ عَلَى قَهْرِ كُلِّ الْأَعْدَاءِ وَهَزِيمَتِهِمْ. وَأَحْسُ الْآنَ أَنَّهُ حَانَ وَقْتُ الذَّهَابِ، فَعَلَيَّْ أَنْ أَتْرَكَ قُوْنِيَةَ، وَلَكِنْ كَيْفَ أَتْرَكَ مَوْلَانَا؟ مَا أَطْلُبُهُ أَنْ يَذْكُرَ الْأَعْدَاءُ بِالسُّتْهِمْ مَاذَا أَفْعَلُ أَنَا حَتَّى يَطْلُبَ مِنِّي عِلَاءُ الدِّينِ - ابْنُ مُرَادِي - أَنْ أَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ بِمَا أُمْكِنَ مِنَ السَّرْعَةِ.

وَعَلَيَّ مَوْلَانَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ السَّمَاءَ نَفْسَهَا، هِيَ مِنْ دُونِهِ سِجْنٌ مُظْلِمٌ عِنْدِي، وَلَا مَعْنَى لَهَا.

كَانَ شَمْسٌ بَيَانَهُ، يَرِيدُ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ أَلَمِ الْفِرَاقِ بِأَكْبَرِ قَدْرِ مِنَ التَّأثيرِ، وَيُوضَحَ عِشْقَهُ الْمُكُونُ مِنَ جَذَبَاتِ رُوحَانِيَّةٍ وَعِرْفَانِيَّةٍ، وَيَجِيئُ عَلَيَّ نَحْوِ لَا يَقَاوُمُ فِي قَلْبِهِ وَرُوحِهِ. كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ جَيِّدًا: هَلْ هُوَ جَدِيرٌ بِالْإِقَامَةِ فِي قُوْنِيَةِ فِي مَنْزِلِ مُرَادِهِ، أَوْ

بَحْثًا عَنِ الشَّمْسِ ٥٠٥
أَنَّ دَفْتَرَ الْأَيَّامِ تَنَافَرَتْ صَفَحَاتُهُ، وَتَوَارَى صَفَاءُ الْبَاطِنِ تَحْتَ سُحْبِ الْخَوْفِ وَالتَّحَقُّظِ
السُّودِ.

وَيَعْتَقِدُ الْمُؤَلِّفُ أَنَّ مَوْلَانَا أَنْشَدَ الْآيَاتِ الْآتِيَةَ مِنْ وَحْيِ الْأُمُورِ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي
تِلْكَ اللَّيْلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَمْسٍ:

لَسْتُ أَنَا الَّذِي أَتَحَدَّثُ حَدِيثَ نِعْمَتِهِ
لِأَنِّي نَمِلُ وَفَاقِدُ الْوَعْيِ مِنْ تَذَوُّقِ طَعْمِ مَخْتَبِهِ
وَأَنَا نُحْتُ مِنْهُ كَالرَّبَابِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ شِكَايَةً
فَلِأَنِّي كَالرَّبَابِ، فِي حِضْنِ رَحْمَتِهِ
وَإِذَا غَبَرْتُ اللَّخْنَ فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنِّي
لِأَنَّ كُلَّ عِرْقٍ مِنْ عِرْقِي مُرْتَبِطٌ بِعَرْفِهِ وَضَرْبِهِ^(١)

- يا قِبْلَةَ الْفِكْرِ، يا أَسَدَ اللَّهِ في الغابات
يا مُرْشِدَنَا في أودية التَّيِّه، إِنَّكَ تَدْخُلُ الرُّوحَ كَالْعَقْلِ،
فَلَعَلَّكَ تَكُونُ رُوحًا مئةَ بَالِئَةٍ، أوْ لَعَلَّكَ خَضِرُ الزَّمانِ،
أوْ لَعَلَّكَ ماءُ الحَيَاةِ، فَإِنَّكَ تَمْضِي مُتَوَارِيًا عَنِ الْخَلْقِ
مَوْلَانَا

آخِرُ لِقَاءِ

تُعَدُّ أُخْرَى لِيَالِي اللَّقَاءِ بَيْنَ مَوْلَانَا وَشَمْسٍ، وَأُخْرَى لِحِظَاتِهِ فِي مَخْضَرِ
مَوْلَانَا، أَكْثَرَ الدَّقَائِقِ وَاللَّحْظَاتِ عَمَّا فِي حَيَاةِ شَمْسٍ. وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ، كَانَ يَجِبُ
أَنْ تَغْدُوَ لَذَّةُ الْكَلَامِ وَالْمُجَالَسَةِ وَالْمُؤَانَسَةِ، الَّتِي هِيَ لَوَازِمُ عِشْقٍ مُسْكِرٍ، صَحِيَّةٍ فِي
مَعْبَدِ إِلَهَةِ الْعِرْفَانِ؛ لِكَيْ يَرْتَاحَ الْمُخَالِفُونَ الْمُنْحَطُّونَ فِي قُوْنِيَّةٍ مُوقَّتًا. مَأْجُورُونَ
حَاقِدُونَ أَشْدَاءَ جَبَّارُونَ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، تَسَلَّلُوا إِلَى مَحَلِّ إِقَامَةِ مَوْلَانَا وَشَمْسٍ. كَانَ
هَؤُلَاءِ يَرِيدُونَ أَنْ يَنْقُذُوا خُطْيَتَهُمُ الشَّيْطَانِيَّةَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمَصِيرِيَّةِ، بِكُلِّ ثَمَنِ مُمْكِنٍ.
وَقَدْ غَطَّى الْوَجْهَ الْجَهَنَّمِيَّ لِهَؤُلَاءِ، نِقَابُ الْأَنَانِيَّةِ وَحُبُّ الْجَاهِ وَالْعَصِيَّةِ النَّارِيَّةِ. وَفِي
النِّهَايَةِ، أَمَرَ دَوُوُ الصِّفَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ أَنْ يَضُمَّتْ صَوْتُ الْعِشْقِ الْمُشَوِّقِ، وَيُقْتَلَ شَمْسٌ.
صَارَتْ هَذِهِ الْجَمَاعَةُ الَّتِي تَخِيطُ خَبْطَ عَشَوَاءَ مُطِيعَةٍ لِلرَّسُومِ وَالْأَعْرَافِ وَالْعَادَاتِ
الشَّائِعَةِ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ. وَلِهَذَا السَّبَبُ، رَأَتْ أَنَّ تُسَدَّدَ ضَرْبَةً مُنْكَرَةً لِجَسَدِهِ،
وَتَقْطَعَ الْقَدَّ الْمَقْدَامَ لِلشَّيْخِ التَّبْرِيزِيِّ إِزْبًا إِزْبًا.

كَانَ شَمْسٌ، مِنْ دُونِ مُبَالَاةٍ، وَبِخُلُوصِ نِيَّةٍ، يُوَاصِلُ بِكَلِمَاتِهِ مُخَاطَبَةَ حَبِيبِهِ:
- يَعْْلَمُ مَوْلَانَا أَنَّ الْحَقِيقَةَ خَالِدَةٌ بَاقِيَةٌ، وَأَنَا مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ أَدْرَكْتُ الْحَقِيقَةَ جَيِّدًا
وَبِكُلِّيَّةٍ وَجُودِي، ثُمَّ جَعَلْتُكُمْ تَلْمِضُونَهَا، عَلَى خَفَائِهَا، وَكُنْتُ أَظُنُّكُمْ مِمَّنْ يُحِبُّونَهَا
وَيَسْتَأْقُونَ إِلَيْهَا. وَلِهَذَا السَّبَبُ، أَمْسَكْتُ بِيَدِكَ لِنَظَرٍ [٣١٨] إِلَيْهَا مَعًا، وَفِي النِّهَايَةِ

تَنَحَّسُّ ذَاتَهَا فِي كُلِّ ذَرَاتِ الْكَائِنَاتِ. تَذَكِّرُ اللَّحَظَاتِ الَّتِي قَدِمْتَ فِيهَا مُرْتَجِفًا خَائِفًا إِلَى عَالَمِ الْعِرْفَانِ الْعَشَقِيِّ. وَقَدْ اسْتَدْعَى جَمَالَ تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الْعَظِيمَةِ، وَجَادِبَتْهَا، أَنَّكَ كُنْتَ تَرْتَجِفُ مِنْ فَرْطِ الذُّوقِ وَالْوَجْدِ وَالشَّوْقِ؛ أَمَّا الْيَوْمَ فَإِنَّكَ، كَالطَّوْدِ الرَّاسِخِ، تُوَاجِهُ الْحَادِثَاتِ. أُرِيدُ، فِي الْمُسْتَقْبَلِ، أَلَّا يَحْطَمَ أَلَمُ الْغَمِّ وَالْفِرَاقِ قَلْبَكَ وَوُجُودَكَ، وَإِرَادَتَكَ خَاصَّةً؛ ذَلِكَ بِأَنِّي أُؤَيِّسُ أَنَّ لِحَظَاتِ الْفِرَاقِ وَالْهَجْرَانِ الْمُؤَلِّمَةَ قَدْ أَنْتَ، فَفَكَّرَ بِالْعِشْقِ، وَاضْبَطَ أَعْصَابَكَ وَاحْسَاسَاتِكَ. إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْبُعْدَ وَمُرُورَ الزَّمَانِ مُنْهَكَانِ لِلْعَاشِقِ وَالْمَعْشُوقِ، وَيَتَرَكَانِ أَثْرًا فِي أَعْمَاقِ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ. عَلَيْكَ أَنْ تَسْلَمَ بِأَنَّ الْعِشْقَ يَعْنِي الْهَجْرَانَ، يَعْنِي الْبُعْدَ وَالنَّائِي. وَالْأَصْلُ أَنَّ طَعْمَ الْعِشْقِ حُزْنٌ وَأَلَمٌ وَهَجْرَانٌ.

يَعْلَمُ مَوْلَانَا أَنَّهُ مَادَامَ شَمْسُ مَوْجُودًا هُنَاكَ عِشْقٌ، وَمَا دَامَ الْعِشْقُ مَوْجُودًا فَإِنَّ مَوْلَانَا أَمَامَ بَاصِرَتِي يَتَلَأَّلُ مِثْلَ كَوْكَبِ الزُّهْرَةِ. سَيَظُلُّ نَبْضُ قَلْبِي عَلَى الدَّوَامِ يَتَرَدَّدُ نَغْمًا مُحِبًّا فِي فُضَاءٍ وَجُودِي؛ وَذَلِكَ أَيْضًا صَدَى الْأَسْمِ الشَّرِيفِ لِجَلَالِ الدِّينِ، مَوْلَانَا. وَمَعَ أَتْنِي، فِي الظَّاهِرِ، لَنْ أَرَاكُمْ مَرَّةً أُخْرَى، سَيَكُونُ رُوحِي وَقَلْبِي، فَوْقَ شَرِيطِ الزَّمَانِ الْمُرْتَجِفِ، فِي اخْتِيَارِكُمْ. كُلَّمَا شِئْتُ، فِي آتَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، سَأَكُونُ أَمَامَكُمْ، سَأَقِفُ عِيَانًا وَمُشَاهِدَةً. يَقِينًا سَتَسْمَعُ صَوْتِي الْمَتَأَلِّمَ الْمُتَهَدِّجَ إِذْ أَقُولُ مُلْتَمِسًا:

- يَا مَوْلَانَا، أَسْعِفِ الْعَاشِقِينَ، تَذَكَّرْنِي.

يَعْلَمُ مَوْلَانَا أَنَّنِي كُنْتُ أَعِيشُ فِي قُوْنِيَّةٍ مَعْظَمَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ فِي وَحْدَةٍ وَخَلُوءٍ مَعَ مَوْلَانَا، وَكُنْتُ أُنْشُدُ، فِي هَذِهِ الْخَلُوءِ الصَّوْفِيَّةِ الشَّيْبِيَّةِ بَيْتِ نَارِ الْعِشْقِ، أَنْ أَسَلِّمَكَ مِيرَاثَ الْعِرْفَانِ الْإِيرَانِيِّ وَكَأَنَّهُ الْكَزْرُ الْقِيَمُ؛ ابْتِغَاءً أَنْ تُهْدِيَهُ بِوَسَاطَةِ أَشْعَارِكَ الْعِرْفَانِيَّةِ الْمُؤَثِّرَةِ إِلَى قُلُوبِ أَنْاسِ الْمُسْتَقْبَلِ. عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْعَصْرَ عَصْرُ مَعْرِفَةٍ، وَالزَّمَانَ زَمَانُ عِلْمِ الْإِنْسَانِ، أَوْ مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ. وَإِذَا لَمْ يَعْرِفِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فَلَنْ

يَعْرِفَ اللَّهُ تَعَالَى. أَهْلُ الْأَعْصِرِ الْآتِيَةِ سَيُدرِكُونَ، مِنْ طَرِيقِ مَوْلَانَا، أَنْ شَمْسًا رِنْدًا^(*)،
وَقَدْ كَانَ مِنَ الرُّنُودِ الْمُخْرِقِينَ لِلْعَالَمِ، وَيَجِبُ أَنْ أُقِيمَ بِمَعَايِيرِ الْعِشْقِ وَقِيَمِ الْعِشْقِ، لَا
بِمَعَايِيرِ الْعَقْلِ وَقِيَمِهِ.

عَلَى مَوْلَانَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الشَّيْخَ أَوْحَدَ الدِّينِ الْكَرْمَانِي أَخَذَنِي مَعَهُ فِي بَغْدَادَ إِلَى
السَّمَاعِ، وَأَكْرَمَ وَفَادَنِي، ثُمَّ اضْطَحَبَنِي إِلَى خَلُوتِهِ، وَفِي يَوْمٍ قَالَ لِي:
- مَا الرَّأْيُ فِي أَنْ تَكُونَ مَعَنَا؟

- قُلْتُ: [٣١٩] شَرِيطَةٌ أَنْ تَجْلِسَ هَكَذَا جِهَارًا، وَمِنْ دُونِ رِيَاءٍ وَتَظَاهُرٍ، أَمَامَ
الْمُرِيدِينَ تَشْرَبُ الْخَمْرَةَ، وَأَنَا لَا أَشْرَبُ.
- قَالَ: وَلِمَاذَا لَا تَشْرَبُ أَنْتَ؟

- قُلْتُ: لِكَيْ تَكُونَ أَنْتَ فَاسِقًا حَسَنَ الْحِظِّ، وَأَكُونَ أَنَا فَاسِقًا سَيِّئَ الْحِظِّ.
قَالَ: لَا أَقْدِرُ.

قُلْتُ بَعْدَ ذَلِكَ كَلِمَةً، فَانزَعَجَ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ
الْيَوْمِ، قَالَ أَوْحَدُ الدِّينِ لِأَصْحَابِهِ: شَمْسُ أُعْجُوبَةِ الزَّمَانِ.

يَعْلَمُ مَوْلَانَا جَيِّدًا بِأَنَّ جَمَاعَةً فِي قُوْنِيَّةٍ، مِنْهُمْ عَلَاءُ الدِّينِ ابْنُكَ، قَالُوا: إِنَّ شَمْسًا
مَجْنُونًا وَمُخْبَلًّا وَجَاهِلًا. وَمَعَ كُلِّ مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ جُنُونٍ، هَزَمْتُ كَثِيرًا مِنَ الْعَاقِلِينَ. وَمَعَ
جَهْلِي وَضَعْتُ الْعَالِمِينَ تَحْتَ إِنْطِي. كَانَ فِي قَلْبِي بَشَارَةٌ، كَأَنِّي كُنْتُ أَطِيرُ، لَسْتُ فَوْقَ
الْأَرْضِ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَيْكُمْ وَذَكَرْتُ لَكُمْ الْبَشَارَةَ؛ وَالْآنَ سَأَطِيرُ مُسْرِعًا فِي آفَاقٍ بَعِيدَةٍ.
يَعْلَمُ مَوْلَانَا أَنِّي سَهْلٌ مِثْلَ رَاحَةِ الْكَفِّ؛ إِذَا عَرَفَ إِنْسَانٌ طَبْعِي اسْتَرَاحَ ظَاهِرًا

* - تعني الرُّنْدُ الذِّكْرُ المحتال المتجاوز لِتُعَارَفِ النَّاسِ فِي مَجْتَمِعِهِ، الْمَجَاهِرُ بِآرَائِهِ وَفِي التَّصَوُّفِ مَنْ ظَاهِرُهُ فِي
الْتَّلَامَةِ وَبَاطِنُهُ فِي السَّلَامَةِ، وَمَنْ لَا يَتَّقِي إِلَّا بِأَحْكَامِ الْحَقِّ، سُبْحَانَهُ [الْمُتَرَجِم].

وباطناً. لكنتني آسفٌ لأنَّ المُرَّاثينَ في قُوْنِيَّةٍ لم يستطيعوا أن يفهموني. لِمَوْلانا جَمالٌ أخاذٌ. ولي جَمالٌ، ولي قُبْحٌ أيضاً. وكان مَوْلانا قد رأى جَمالي. وفي هذه المَرَّة لا أُجاملُ، وأفعلُ القبيحَ؛ ابتغاءً أن يَرى الجميعُ جَمالي وقُبْحِي.

كان مَوْلانا هادئاً وصامتاً، هُدوءاً يُشْبِهُ الهدوءَ الذي يَسْبِقُ طُوفانَ البَحر، كان خافِضاً رَأْسَهُ، ويسْمَعُ كلامَ محبوبه بعِنايةٍ.

واصْلَ شَمْسِ القَوْلِ:

- أنا حَزِينٌ مِنْ أَنَّ النَّاسَ (أَهْلَ قُوْنِيَّةٍ) الذي يُعَادُونَنِي يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُسَيِّئُونَ إِلَيَّ. لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، هَذَا غَلَطٌ، إِنَّهُمْ يُحْسِنُونَ إِلَيَّ وَيَزِيدُونَ مُحَبَّتِي لَهُمْ. وهذا سِرٌّ أَنَّنِي لَمْ أُرِدْ حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ، مَعَ كُلِّ هَذِهِ التُّهَمِ وَالشَّمَاتَاتِ وَالإِيذَاءَاتِ، أَنْ أَتْرَكَ تَرَى قُوْنِيَّةَ الْخِصْبِ الشَّبِيهِ بِالْعَنْبَرِ.

عَلَى مَوْلانا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ قُدْرَةَ شَمْسٍ، مَعَ تَرْكِ تُرابٍ قُوْنِيَّةٍ، لَا تُنْتَقِصُ، وَسَيَزِدُ التَّعَلُّقُ بِمَوْلانا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، مِثْلَمَا يَغْدُو هَيَجَانُ جَلالِ الدِّينِ وَصَحْبِجِ رُوحِهِ الذي لَا يُسْكَنُ غَازِيًا لِأَقْطَارِ الْعَالَمِ.

يَعْلَمُ مَوْلانا أَنَّنِي مُطْلَعٌ جَيِّدًا عَلَى كُلِّ عُلُومِ الدُّنْيَا الْفَعْلِيَّةِ، وَصَاحِبٌ نَظَرٍ؛ وَمِنْ بَيْنِ كُلِّ الْعُلُومِ الَّتِي تُدْرَسُ فِي دُورِ الْعِلْمِ، أَنَا أَسْتَاذٌ لِعِلْمِ [٣٢٠] لَا يُعْلَمُ فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا. أَنَا أَسْتَاذُ الْعِشْقِ وَعَاشِقٌ مُمَارِسٌ، وَأَفْتَحِرُ بِمَعْرِفَةِ دَقَائِقِهِ وَجَمَالِهِ. وَعِنْدَمَا عَشِيقْتُ كُنْتُ أَخْضُلُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، عَلَى كُلِّ الْمُرَادَاتِ بِاشْتِيَاقٍ كَثِيرٍ. رَأَيْتُ الدُّنْيَا فِي بَحْرِ مُتَلَاظِمٍ. كَانَ صَوْتُ وَاضِحٌ، بِالْقُدْرَةِ السَّحَرِيَّةِ لِلطَّيِّعَةِ، يَقُولُ لِي:

- هُنَاكَ حَيَاةٌ فِي قَلْبِ هَذَا الْبَحْرِ، سَأَلْتُ عَنْ اسْمِ الْبَحْرِ فَقِيلَ: هُوَ بَحْرُ الْعِشْقِ. وَالْعَارِفُ الْعَاشِقُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَ حُضُورَهُ فِي مَمْلَكَةِ الْعِشْقِ، وَيُحَسِّنُ بِصَوْتِ نَسِيحٍ

الوجود في ذرات العالم. وأقسم أنني في المستقبل سأختار زاوية في دمشق، أو في بقعة أخرى في العالم، وأغلق فمي وأصمت، لا أقول شيئاً؛ لأن رسالتي، مرة أخرى، قد وصلت إلى النهاية، ومولانا هو الذي ينبغي أن يكون المدافع عن العرفان العشقي، والمفسر لمعرفة النفس وعلم الإنسان، فوق وجه البسيطة. لا شيء بعد الآن يثبت في قلبي ويضطرني إلى التأوه؛ فبعد الآن، مولانا هو الذي ينبغي أن يحتضن الناي الحزين، ويحرك الأرواح والأجساد بصوت الناي المخرق نحو الرقص والدوران. يتحدث عن الهجران والبعد، ويبيّن^(١) أمواج جذباته الروحية من طريق كتاب الناي والرقص.

على مولانا أن يعلم أن هذه الليلة هي ليلة الوداع، هذه الليلة ينير القمر بعشق أكثر، هذه الليلة كل براعم بساتين العشق الجميلة ستفتح، والبابل فوق كل أشجار رياض الورد ستزف، وستقول لأناس الغد الآتي إن العرفان الإيراني سيقى خالداً^(*)، وستبقى أيضاً إيران، التي هي قاعدة العرفان الكبيرة، ما أضاعت الشمس في السماء وتلأل القمر والتجوم، كالحجر الأصم الراسخ، مخلدة في الكائنات.

وإذا كنت في هذه الليلة أتحدث وخدي، فما ذلك إلا لأن لدي هيجاناً ونشاطاً، من عشق مولانا؛ فأنا من ذلك في حمي وألم. ومثل المتبئين، أقر بأن العرفان الإيراني بعد ألف سنة سيعم كل جهات الأرض، كأشوار الشمس الذهبية، ويضيء ظلمات باطن الإنسان. وإن اسمي مولانا وشمس سيتخطيان الأودية والمدائن والحدود، ويقولان

١- أرقص أمامه كالذرة، كل سحر وهذه عادة عباد الشمس

* - هنا تركيز كبير من المؤلف على «إيرانية» عرفان شمس. وذلك مفهوم حين نذكر القصيدة الثربوي في تنشئة الأجيال على حب وطنهم وأمتهم لكن الصديق يستدعي أن نذكر القارئ العربي الكريم بأنه ليس لدى شمس تميز، ولا لدى جلال الدين الرومي، أي نزوع قوي، وهما اللذان نشأ في ظل الفضاء الإنساني الكوني للقرآن الكريم والتصوف [المترجم].

لِأَهْلِ الْأَرْضِ: إِنَّ عَصَرَ عُشَاقِ الْمَادَّةِ سَيَنْتَهِي؛ لِأَنَّ الْمَادِّيَّةَ [٣٢١] وَعِشْقَ الْمَادَّةِ لَيْسَ لِهَما أَسَسٌ وَدَعَائِمٌ فِي مَجْتَمَعِ أَصْحَابِ النَّظَرِ وَالْعُلَمَاءِ وَمُحِبِّي اللَّهِ. عَلَى مَوْلَانَا أَنْ يَعْلَمَ أَنِّي، فِي قَابِلِ الْأَيَّامِ، أَلْجِمُ اللَّسَانَ لِكَيْ أَسْمَعَ صَوْتَ الْقَلْبِ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ:

أُدِيرُ ظَهْرِي إِلَى الرُّوحِ وَوَجْهِي إِلَى الْقَلْبِ

وَكُلُّ مَا قَالَهُ قَلْبِي أَنْفُذَهُ كَمَا هُوَ

وَعَلَى مَوْلَانَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ دَأْبِي أَنْ أَدُونُ الْأُمُورَ؛ لِأَنِّي لَا أَكْتُبُ شَيْئًا. وَبِنَاءً عَلَى هَذَا، سَيَبْقَى مِنْ آثَارِي رَسَائِلُ أَوْ كِتَابَاتٌ قَلِيلَةٌ. وَفِي عَهْدَةِ مَوْلَانَا أَنْ يَحْتَفِظَ بِآثَارِ مُدَوَّنَةٍ لَهُ؛ وَهَذَا أَمْرٌ مِنِّي لَكَ: عَلَيْكَ، بِكَلَامِكَ وَبِأَشْعَارِكَ، أَنْ تُحَرِّرَ النَّاسَ الَّذِينَ يَخَافُونَ الْحَيَاةَ وَسُوءَ مَوْتِهَا... وَيَذَرِي مَوْلَانَا جَلَالَ الدِّينِ يَقِينًا أَنِّي لَا أَخْشَى الْقَتْلَ؛ فَأَيُّ خَشْيَةٍ لِلْبَطِّ مِنَ الطُّوفَانِ. أَحْسُ فِي دَاخِلِي بِاشْتِيَاقِ عِشْقِي إِلَى الرَّجُوعِ إِلَى بُسْتَانِ الْمَلَكُوتِ، وَمِنْ فَرَطِ الْمَحَبَّةِ أَعُدُّ الثَّوَابِي. أَمَّا وَجُودِي إِلَى جَانِبِكُمْ فَيُعْطِينِي أَمَلًا وَهَيْجَانًا، كَأَنِّي حَتَّى الْآنَ يَجِبُ أَنْ أَمْتَعَ بِمَضَامِينِ الْعِرْفَانِ الْعِشْقِي الْوَاسِعَةِ الَّتِي لَا ضِيفَافَ لَهَا، وَكَالْمِرْآةِ، كُنْتُ مَقْتَطِفًا لِلْخِيَالِ مِنْ جَمَالِكَ، وَأَكُونُ الْآنَ، وَسَاكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

كَانَ الْمُخَالَفُونَ وَالْخُصُومُ اللَّؤْمَاءُ، الَّذِينَ كَانُوا يَتَنَقَّلُونَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ كَاللِّصُوصِ مُتَسَلِّحِينَ بِخَنَاجِرٍ حَادَّةٍ وَسَامَةٍ، يَقْتَرِبُونَ مِنْ مَنْزِلِ مَوْلَانَا. كَانَ أَحَدُهُمْ يَقُولُ ^(١) بِصَوْتٍ مَرْتَفِعٍ: سَاغَرِزُ رَأْسَ الْخِنْجَرِ فِي قَلْبِ شَمْسٍ. وَأَعْلَنَ آخَرُ بِتَفَاخُرٍ:

١- يَا مَنْ وَجْهَكَ كَالْوَرْدِ، وَضَفِيرُكَ كَالشَّمْشَادِ،
الْقُوَّةُ الَّتِي لَيْسَتْ تَقْدَعُ عَنْكَ هِيَ ثَرَابٌ
وَلَدَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ خَيْرٌ، وَلَدَيْهِمَا عِلْمٌ
إِنْ رُوحِي، عِنْدَمَا يَكُونُ مُغْتَمًّا مِنْ أَجْلِكَ، يَكُونُ مَسْرُورًا
وَيَسُوِي كَيْلَ رِيحِ هَوَيْسِكَ رِيحٌ لَا طَائِلَ مِنْ وَرَائِهِ
فَإِنَّ السَّمَاءَ، كَالْأَرْضِ، مُنْقَادَةٌ لِأَمْرِكَ

سأفصلُ رأسه عن بدنه بالسكين ، وسأفترجُ بِسُرورٍ على رَقصِ شمسٍ وهيَّجانه وهو يتخبطُ في دمه، أي في أثناء خروج رُوحه، وسأدوسُ عليه قَصْداً إلى إِماتته. وقال ثالثٌ: بعددِ الأيامِ التي أقامها شمسٌ في قُوْنِيَّةٍ، سأغرِزُ رأسَ الخنجرِ في جَسَدِهِ وفي عَيْنِهِ وفي قلبه، ثم بعد ذلك، ولأوّلِ مرّةٍ في حياتي، سأشربُ الخمرَ، وأرقصُ فوق جَسَدِهِ. في هذه الليلة، سيتخلصُ أهلُ قُوْنِيَّةٍ مِنْ مُبتدِعِ جَثمٍ وجوده، كالكابوسِ، فوق أجسادِ البُلَهَاءِ.

أَلَيْسَ هذا اليومُ ميعادًا لأنواعِ حُمَارِك؟
فإنَّ الشَّرْقِيَّينَ الذِّينَ هِيَ فِي صَفْهِمِ أَحَادُ
وَكُلُّ مَنْ عَشِيقُ شِيرِينِكَ هُوَ مِثْلُ فَرْهَادِ
(ديوان شمس قنبريز: الغزلية ١٢٢)

= فاكشف عن وجهك، واكبير حُمَارَ العالَمِيْنَ
ومَعَ أَنَّ الشَّمْسَ، فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَرِيدَةٌ وَوَحِيدَةٌ
وَيَجْعَلُ الْأَكَاسِرَةُ ثُرَابَ جِذَائِكَ، وَاللَّهُ، تَاجًا،

- وَيَعْدَ هَذَا، تَبَحُّثُ عَنِ الْحَبِيبِ فَوْقَ السَّمَاءِ
لَأَتْنَا بِحُشْنَا عَنِ الْحَبِيبِ فِي الْأَرْضِ، فَلَمْ نَجِدْ
- إِنَّ خَاتَمَ مُلْكِ سُلَيْمَانَ جَدِيدٌ بِالْبَحْثِ وَالطَّلَبِ
فَهَنَّاكَ حَلَقٌ، وَبَحْثُنَا عَنِ الْفَصِّ، فَلَمْ نَجِدْ
(ديوان شمس تبريز: الغزلية ٤٢٦)

هجران في الشيوخوخة

المجموعة التي كانت تقربُ بغرورٍ وتعظيمٍ من محلِّ إقامة مولانا، من أجلِ قتلِ شمسِ بسُرويهِ واعتباطٍ، كانوا ستةَ أشخاصٍ، وكان قائدها وفقًا لإحدى الروايات علاء الدين، ابنَ مولانا الصغير. كانت هذه المجموعة تنقلُ الخطأَ ثَمَلَةً وَحَرِيصَةً ومُسرعةً. وكان علاء الدين يحكُّ أسنانه بعضها ببعض، وخاطبَ مُشاركه في التفكير قائلاً: بلغَ مِنْ جَسَارَةِ شَمْسٍ عَلَيَّ أَنِّي مَا كُنْتُ أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِ وَالِدِي فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَشَاءُ وَبِحُرِّيَّةٍ، وَأَتَحَدَّثَ حَتَّى مَعَ كَيْمِيَا [زَوْجِ شَمْسٍ] الَّتِي كَبُرَتْ وَإِيَّاهَا مَعًا، وَلَعَيْنَا مَعًا. إِنَّ شَمْسًا بَارِعٌ فِي إِثَارَةِ عَوَاطِفِ الْأَفْرَادِ، وَسَاحِرٌ، وَمُثِيرٌ، وَيَحْرُكُ النَّفْسَ. وَعَجِيبٌ أَنَّهُ مُسَلِّمٌ عِنْدَ الَّذِي أَنَّهُ مُبَشِّرٌ بَارْتِقَاءِ الْإِنْسَانِ وَالْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فِي حِينٍ أَنْ كُبْرَاءَ قُوْنِيَّةٍ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ شَيْطَانٌ مُجَسِّمٌ. أَخَذَ الْجُنَاةُ يَقَهْقِهُونُ، وَقَالَ أَحَدُهُمْ ضَاحِكًا: لَا تَقْلُقْ يَا عَلَاءُ الدِّينَ؛ فَقَدْ حَانَتِ اللَّحَظَاتُ الْآخِرَةُ مِنْ حَيَاةِ شَمْسٍ. كَانَتْ غُضْبَةُ الْجُنَاةِ قَدْ صَارَتْ أَلْعُوبَةً لِمَيُولِ الْمَرَاتِينِ الْمُتَظَاهِرِينَ. وَهِيَ قَدْ سَلَّتِ الْخَنَاجِرُ مِنَ الْأَغْمَادِ. سِتَّةُ أَشْخَاصٍ قَتَلَتْ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ كَانُوا يُلَوِّحُونَ بِأَسْلِحَتِهِمْ فِي الْفُضَاءِ، يَسَارًا وَيَمِينًا وَأَمَامَ بِالْأُورَانِ، كَانَتْهُمْ كَانُوا فِي حَالِ تَمَرُّنٍ وَتَدْرِبٍ قَبْلَ حَمَلَةٍ مُتَظَرِّةٍ، وَكَانُوا يُجَسِّمُونَ مَلَامَحَ شَمْسٍ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ. لَعَلَّهُمْ مَا كَانُوا يَذَرُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا جَاءَ بِكَائِنٍ إِلَى عَالَمِ الْوُجُودِ فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ [٣٢٣]

عَرَضًا لِأَطْمَاعٍ وَأَهْوَاءٍ، مَبْعُثُهَا حَسَدُ هَذَا وَذَاكَ، وَالْإِنْتِقَامُ الْعَاجِلُ، وَالْقِصَاصُ الْفَرْدِي
الْلَامَشْرُوعُ مِنْ دُونِ مُحَاكِمَةٍ. أَحَدُ الْأَشْخَاصِ السَّتَّةِ سَمِعَ صَوْتَ دِيكَ فِي غَيْرِ أَوَانٍ
صِيَاحِهِ، فَقَالَ: عَجَّلُوا فَإِنَّ الصُّبْحَ الصَّادِقَ قَدْ اقْتَرَبَ.

فِي مَحَلِّ إِقَامَةِ شَمْسٍ وَمَوْلَانَا، أَوْ فِي خُلُوتِهِمَا، كَانَ الْعَارِفَانِ اللَّذَانِ كَانَا كَانُونًا لِلْعِشْقِ
وَالشَّوْقِ وَالْهَيْجَانِ يُبَيِّنَانِ أَحَاسِيْسَهُمَا الدَّاخِلِيَّةَ فِي شَأْنِ أَسْرَارِ الْكَائِنَاتِ. وَكَانَ شَمْسٌ يُدْرِكُ
جَيِّدًا أَنَّهُ سَيُنْفَى سَرِيعًا مِنْ مَنَزِلِهِ السَّمَائِيِّ، وَكَانَ يَقُولُ وَعَيْنَاهُ مُخْضَلَّتَانِ بِالدَّمْعِ:

يا مَوْلَانَا ، أَعْلَمْتُ أَنَّنِي أَوَّلُ نَجْمٍ سَطَعَ فِي سَمَاءِ قَلْبِكَ، وَفِي هَذَا الشَّانِ أَيْضًا
أَعْلَمْتُ جَيِّدًا أَنَّ أَنْوَارَ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ الْعِرْفَانِيَّةِ لَنْ تَنْطَفِئَ فِي أَفْقٍ وَجُودِكَ. لَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ
تَعْلَمَ أَنَّهُ يُرَى فَوْقَ سَمَاءِ قَلْبِي الْآنَ ضَوْءٌ مَلَأْتُمْ لِأَنْجُمٍ كَثِيرَةٍ. وَهَذِهِ الْأَنْوَارُ هِيَ
الْآثَارُ الْعِرْفَانِيَّةُ الَّتِي أَخَذَتْ بِيَدِي فِي خِطَّةِ تَبْرِيزِ الْخِصْبَةِ، وَفِي خُرَاسَانَ الْكُبْرَى
وَبَغْدَادَ وَدِمَشْقَ، وَأَرْشَدْتَنِي.

كَانَ جَلَالُ الدِّينِ الْبَلْخِي يَخْدُسُ بِأَنَّهُ مَعَ ذَهَابِ شَمْسٍ مِنْ قُوْنِيَّةٍ لَنْ يَقَرَّ لَهُ قَرَارٌ وَلَنْ
يَهْدَأَ لَهُ بَالٌ، وَسَيَكُونُ هِجْرَانُهُ مُخْرِقًا إِلَى الْأَبَدِ. وَلِهَذَا السَّبَبِ، بَيَّنَّ هَيْجَانَاتِهِ الرُّوحِيَّةُ
وَفَيْضَانَاتِهِ الْعَاطِفِيَّةُ، الَّتِي لَا يُعْلَمُ بِهَا كُلُّ أَحَدٍ، لِمَحْبُوبِهِ وَمُرَادِهِ، عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

لَسْتُ أَذْهَبُ لِمَاذَا قَلْبِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مُنْقَبِضٌ، وَأَجِدُنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى الْبُكَاءِ، وَلَعَلَّهُ
بُكَاءٌ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ الَّذِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ سَيَكُونُ فِي قُوْنِيَّةٍ وَحِيدًا وَحِيدًا، وَسَيُوجِهُ جَبَلًا
مِنَ الْمَشْكَلَاتِ... أَوْ بُكَاءٌ مِنْ أَجْلِ الْاضْطِرَابِ وَالتَّشَرُّدِ وَالبَحْثِ مِنْ جَدِيدٍ عَنْ زَمَانٍ
وَصَلَ الْمَعشُوقُ، الَّذِي رُبَّمَا لَا يَحْصُلُ. شَيْخِي، مُرَادِي، شَمْسِي، مَعشُوقِي، يَعْلَمُ أَهْلُ
قُوْنِيَّةٍ أَنَّنِي نَمُلُّ مِنْ شَرَابِ الشَّوْقِ الْخَالِدِ لِوَصَالِ الْمَحْبُوبِ. وَكُلُّ لَحْظَةٍ تَمَرُّ مِنْ عُمْرِي
أَرَى نَفْسِي فِيهَا أَكْثَرَ ارْتِبَاطًا بِكَ وَتَعَلُّقًا. أَنَا مُرِيدُكَ، وَلَوْلَا وَجُودُكَ لَمَا كَانَ لِلْحَيَاةِ عِنْدِي

أَيَّةُ جاذِبِيَّة. والآن، إذ لا بدَّ من أن تتركني، أرى الطَّيْبَةَ حزينَةً، وأرى نَفْسِي مضطَّرِّبًا ومشتَّت الذَّهَن. وقد ظَهَرَ عذابٌ مُقيمٌ في رُوحِي وجِسمِي. ولَسْتُ أدري ما الحوادثُ التي سَتَجِدُ في المستقبل. ولا أَعْلَمُ، أساسًا، ماذا يريدُ شياطينُ قُوْنِيَّةٍ مِنِّي وَمِنْكَ. لماذا يَعْجِزُونَ عَن [٣٢٤] أن يَقْبَلُوا المَبْشَرُ بِدُنْيَا الوِصال، والمفسَّرَ لِعَالَمِ العِرْفَانِ العِشْقِي.

أَلَا لَيْتَ أَيَّامَ عُمري تُؤْذِنُ بِوَدَاعٍ؛ لِأَتْنِي ما عُدْتُ أَحْتَمِلُ البَتَّةَ الفِرَاقَ والهَجْرانَ في الشَّيخوخة. لَيْتَنِي أَمْتَلِكُ القُدْرَةَ على أن أَمْنَعَكَ مِنَ الذَّهاب، أو إذا ما سَمَحْتَ ووافقتَ أسافرُ وَراءَ الشَّمْسِ حَيْثُما يَمْتَمُ مِثْلُ الظَّلِّ.

لا أريدُ أن أَكُونَ شاهِدًا لِمَوْتِ اللَّذاتِ المَعنَوِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ في العالَم، وعاجِزًا بَعْدَ الآنَ عَنِ الاستِفادةِ مِنْ وجودِكَ. لَسْتُ أدري: هَلْ سَأراكَ مَرَّةً أُخْرَى في قَابِلِ الأَيَّامِ؟! ثُمَّ بَعْدَ ذَهَابِكَ، هَلْ سَتَخْطِي عَيْنايَ الأسبابَ كما كانتا سابِقًا. لا أَعْلَمُ ما إذا كان سَيْرِي العُرُوجِي سَيَتَوَقَّف. وإذا كان الإسْكَندَرُ ومُعْظَمُ المُشتاقينَ لِماءِ الحِياةِ لَمْ يَصِلُوا إلى يَنْبُوعِ الرُّلال، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللهَ لِأَتْنِي وَصَلْتُ إِلَيْهِ، وَشَرِبْتُ جُرْعَةً مِنْ خَمْرَةِ وادي الحَقِيقَةِ المُسْكِرَةِ. ولهذا السَّبَبِ، سَبَقِي أَنَا وَأَنْتَ خَالِدَيْنِ في عَرَصَةِ الحِياةِ الثَّقافِيَّةِ والأدبيَّةِ في إيران، وَرَبِّما في العالَم. وما بَقِيَتِ الشَّمْسُ تَضِيءُ، سَيَظَلُّ شَمْسٌ أَيْضًا يَنْشُرُ النُّورَ في قُلُوبِ المُشتاقين.

وقد بَدَأْتُ الحِياةَ مِنْذُ اليَوْمِ الذي اشْتَمَمْتُ فِيهِ عِطْرَ كَلَامِكَ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ أَسْلَمْتُ لَكَ كُلِّيَّةَ وجودي وَرُوحِي وَقَلْبِي. وَإِنَّ إدراكاتي الصُّوفِيَّةَ، وَمَعانِيكَ المملوءةَ بالالتِذاذِ والهَيَّجانِ، وَكَلَامَكَ الحارَّ، يَضَعُ فَهْمُها لِأَنَّ مَضايِقَ القِيلِ والقالِ لا تَتَسِعُ لها؛ فَإِنَّها مِنْ مَقُولاتِ عالَمِ الحال:

وماذا تَعْلَمُ عَنِّي إِلَّا الْقَلِيلَ؟
وماذا تَعْلَمُ مِنْ آلاَفِ أَسْرَارِ عَشْقِي غَيْرَ وَاحِدٍ؟
وفي الْبَدءِ كَانَ إبْلِيسُ أَسْتَاذًا لِي
وبَعْدَ ذَلِكَ صَارَ إبْلِيسُ قِيَاسًا إِلَيَّ مُجَرَّدَ هَبَاءٍ
وقَدْ جَعَلَنِي [الحقُّ] حُرًّا كَشَجَرِ السَّرْوِ وَالسَّوسَنِ
وجَعَلَنِي سَمِيدًا كَأَنِّي السَّعْدُ وَالْإِقْبَالُ
وَكَتَبَ اسْمِي فِي كِتَابِ الْأَبْرَارِ الْأَطْهَارِ
وَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْجَحِيمِ، فَوَهَبَنِي الْجَنَّةَ
وَكُنْتُ أَسِيرًا فِي قَفَرِ الْبُشْرِ
أَمْضِي النَّهَارَ وَاللَّيْلَ فِي النَّأْوَةِ وَالْأَنِينِ
وقَدْ نَأَوْهْتُ، فَصَارَتْ آمَتِي كَالْحَبْلِ
[٣٢٥] صَارَتْ حَبْلًا مَعْلَقًا فِي الْبُشْرِ مِنْ أَجْلِي
فَأَمْسَكْتُ بِذَلِكَ الْحَبْلِ، وَخَرَجْتُ مِنْ [بُشْرِ الْمُعْصِيَةِ]
وَصِرْتُ سَعِيدًا، وَضَاحِكًا، وَسَمِينًا، وَمَتَوَرِّدَ الْوَجْهِ
وَقَبْلَ ذَلِكَ كُنْتُ فِي ضَيْقٍ ضَمِيمًا
وَالآنَ لَا يَسْأَلُنِي الْعَالَمُ كُلُّهُ
فَمَرْحَبًا بِأَسْمِي الْمَفْرَحِ لِقَلْبِي
بِمَنْ ضَيَاؤُكَ نَارٌ مُخْرِقَةٌ لِقَمِي
لَا تُزِلُّ ظِلَّكَ عَنْ رَأْسِي
فَلَا قَرَارَ لِي، لَا قَرَارَ لِي، لَا قَرَارَ
وفي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، إِذَا أَنْتَ تَرَكْتَنِي فَسَيَسْتَقِرُّ فِي رُوحِي وَفِي قَلْبِي جُزْءٌ لَا يَنْدَمِلُ.

وقد جئت لِتَزِيلَ الشُّحْبَ المَظْلِمَةَ مِنْ أَفَقِ وجودي. كُنْتُ دَائِمًا أَبْشُرُ نَفْسِي بِأَنَّكَ شَمْسُ الوجود التي لَنْ تَغْرُبَ مِنْ سَمَاءِ حياتي. والآن، أنا مضطَّرٌّ لِأَن أَلْجَأَ إِلَى زاوية، وَبَعِيدًا عَنِ النَّاسِ أَخْتَارُ الصَّمْتَ. أَجْلِسُ، وَبِذِكْرِ الأَيَّامِ الحُلُوَّةِ التي كُنْتُ فِيهَا إِلَى جَانِبِكَ أَسْكُبُ مِنْ عَيْنَي دُمُوعَ الحَسْرَةِ. فَهَلْ يَنْوِي شَمْسُ أَنْ يُسَلِّمَنِي مَرَّةً أُخْرَى إِلَى قَبْضَةِ الوَحْدَةِ وَالْغَمِّ وَالْفُصْصِ؟

عِنْدَ هَذِهِ النِّقْطَةِ، قَطَعَ شَمْسُ كَلَامَ مَوْلَانَا، وَقَالَ - وَكَانَ شَمْسُ يَتَكَلَّمُ بِطَرِيقِ الرَّمْزِ وَالكِنَايَةِ، وَكَانَ هَذَا آخِرَ كَلَامِ شَمْسٍ، لَعَلَّ عَالَمًا لِلْمَعْنَى تَجَلَّى فِي تَضَاعُيفِ كَلَامِهِ بِعَظَمَةِ الطَّبِيعَةِ وَظُرَافَتِهَا :-

- يَا مَوْلَانَا، يُرِيدُ قَلْبِي أَنْ أَشْرَحَ لَكَ، وَلِهَذَا السَّبَبُ أَتَحَدَّثُ بِطَرِيقِ الرَّمْزِ، وَأُكْمِلُ. وَالشَّرْحُ نَفْسُهُ وَقَاحَةٌ أَمَامَكُمْ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا أَذِنْتُمْ بِهَذِهِ الْوَقَاحَةِ، أَذِنْتُمْ بِهَا لِأَنَّ الْيَنْبُوعَ وَاحِدٌ. هَذَا الدَّاعِي [شَمْسُ] لَيْسَ مَقْلَّدًا، وَقَدْ سَمِعَ مُحِبُّو حَضْرَتِكُمْ كَلَامَ هَذَا الضَّعِيفِ. وَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الدَّرَاوِشِ الْأَعْزَاءِ، وَظَهَرْتُ بِمُجَالَسَتِهِمْ، وَعَرَفْتُ الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالكَاذِبِ، مِنْ جِهَةِ الْقَوْلِ وَمِنْ جِهَةِ الْحَرَكَاتِ. وَلِكِنِّي لَا يَكُونُ قَلْبُ هَذَا الضَّعِيفِ مُعْجَبًا جَدًّا وَمُخْتَارًا فَإِنَّهُ لَا يَنْزِلُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَهَذَا الطَّائِرُ لَا يَلْتَقِطُ كُلَّ حَبَّةٍ^(١).

وَعَلَى مَوْلَانَا أَنْ يَجْتَهِدَ لِكَيْ يَحْصُلَ فِي الْقَلْبِ اسْتِقْرَارٌ وَثَبَاتٌ. وَالْإِنْسَانُ النَّقِيبِيُّ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ، وَقَدْ كَانَ السَّابِقُونَ مِنْكَسِرِي الْأَجْسَادِ.

[٣٢٦] إِنَّ مَعْرِفَةَ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ قُوْنِيَّةٍ أَضْعَفُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، وَقَدْ اضْطَرَّنِي هَؤُلَاءِ إِلَى تَرْكِ الْإِقَامَةِ هَهُنَا. وَإِذَا آذَوْنِي فَإِنِّي لَا أَعْدُو إِلَّا أَقْوَى، وَإِلَّا أَعْظَمَ. وَأَنَا قَادِرٌ

على إجابة كُلِّ مُدَّعِي قُوْنِيَّةٍ تَفْصِيلاً، وقد رَأَى أُولَئِكَ شَمْسًا فِي الظُّلْمَةِ. وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الرُّبْعِ الْمَسْكُونِ جَمِيعًا كَانُوا فِي وَجْهِهِ، وَكُنْتُ أَنَا وَخَدِي فِي وَجْهِهِ، لَقَدَّمْتُ إجابةً لِكُلِّ مُشْكِلٍ لَدَيْهِمْ، مَهْمَا كَانَ، وَلَمَّا فَرَزْتُ مِنَ الْقَوْلِ، وَلَمَّا غَيَّرْتُ الْكَلَامَ، وَلَمَّا قَفَزْتُ مِنْ غُصْنٍ إِلَى غُصْنٍ... كُلُّ مَا يَذْكُرُهُ أَهْلُ هَذَا الرُّبْعِ الْمَسْكُونِ مِنْ مُشْكِلَاتٍ يَجِدُونَ لَدَيْنَا جَوَابًا حَاضِرًا لَهُ، وَلِكُلِّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ مُشْكِلَاتٍ جَوَابٌ فِي جَوَابٍ، وَقَيْدٌ فِي قَيْدٍ، وَشَرْحٌ فِي شَرْحٍ. يَتَضَمَّنُ كَلَامِي لِكُلِّ سَوَالٍ عَشْرَ إجاباتٍ لَيْسَتْ مَسْطُورَةً فِي أَيِّ كِتَابٍ بِذَلِكَ اللَّطْفِ، وَذَلِكَ الطَّعْمِ. وَقَدْ قَالَ لِي مَوْلَانَا مَرَّاتٍ كَثِيرَةً: عِنْدَمَا عَرَفْتُكَ [يَا شَمْسُ] صَارَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ عِنْدِي تَافَهَةً^(١). إِنَّ مُحَادَثَةَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْجُهَالِ فِي قُوْنِيَّةٍ مُضِرَّةٌ جِدًّا. وَفِي اعْتِقَادِي أَنَّ التَّحَدُّثَ مَعَهُمْ حَرَامٌ، وَفِي الْأَسَاسِ أَنَّ مُحَادَثَةَ الْجُهَالِ أَمْرٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ. كُنْتُ أَرِيدُ شَخْصًا مِنْ جِنْسِي، أَجْعَلُهُ قِبْلَةً وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ، فَقَدْ مَلِئْتُ نَفْسِي، وَمَهْمَا فَهِمَ مَوْلَانَا مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي أَقُولُهُ، ذَلِكَ لِأَنِّي مَلِئْتُ نَفْسِي. وَالْآنَ، إِذْ جَعَلْتُ مَوْلَانَا قِبْلَةً، أَخَذَ يَفْهَمُ مَا أَقُولُهُ. يَذَرُكَ حَتَّى أَصْعَبَ أَقْوَالِ السَّابِقِينَ وَأَعْقَدَهَا. فَإِنِّي أَوْضَحُ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ، وَالْمَقْصُودَ مِنْهُ، فَيَغْدُو سَهْلًا كِرَاحَةَ الْيَدِ. وَفِي هَذِهِ الْمَدَّةِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا مَعَهُ، صَارَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَسْرَارِ وَاضِحًا عِنْدَهُ. وَالْآنَ، إِذْ حَانَ الْإِنْصِرَافُ، لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي رَاحَةً، لَا رَاحَةَ السَّمَاعِ، وَلَا رَاحَةَ الْكَلَامِ، لَا الْحَالِ وَلَا الْقَالَ.

يَسْأَلُونَنِي: لِمَاذَا جِئْتَ إِلَى قُوْنِيَّةٍ؟ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ مَا كَانَ يَتَحَلَّى بِهِ

مِنْ جَلَالٍ كَامِلٍ - يَبْحَثُ عَنِ الْخَضِرِ مِنْ أَجْلِ الْكَمَالِ:

تَعَلَّمْ مِنْ كُلِّمِ الْحَقِّ، أَتَيْهَا الْكَرِيمُ

وَانْظُرْ إِلَى مَا يَقُولُهُ الْكَالِمُ مِنَ الشُّوقِ

فَمَعَ هَذَا الْجَاهِ وَالنُّبُوَّةَ الَّذِينَ لَهُ [قَالَ:]

أَنَا طَالِبٌ لِلْحَضَرِ، بَرِيءٌ مِنَ الْغُرُورِ وَالْعُجْبِ^(١)

وَأَنَا أَيْضًا، مِنْ أَجْلِ كَسْبِ اسْتِنَارَةِ أَكْثَرِ طَلَبَتِ مَوْلَانَا. وَعَلَى مَوْلَانَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْ بَيْنِ الْأَفْرَادِ الْمَعْدُودِينَ الَّذِينَ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَحْمِلُوا الْأَمَانَةَ، وَيَصِلُوا إِلَى الْقَصْدِ. [٣٢٧] تِلْكَ الْأَمَانَةُ الَّتِي قَالَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ جِهَارًا إِنَّ حَمْلَهَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِنَا. مَوْلَانَا هُوَ مُرَادِي، وَهَذَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَهُ الْآثُونَ. وَلَوْ بَقِيَتْ عِنْدَكَ لَكَشَفْتُ كَثِيرًا مِنَ الْأَسْرَارِ. أَمَّا آخِرُ وَصَايَايَ لَكَ فَهِيَ: أَنْ تَبْحَثَ عَنْ حَضْرَةِ الْحَقِّ لَيْسَ فِي السَّمَاوَاتِ، وَلَا فِي الْأَرْضِ، بَلْ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ. وَحَتَّى إِنْ ذَهَبْتَ إِلَى الْعَرْشِ فَلَا فَائِدَةَ فِي ذَلِكَ؛ وَحَتَّى إِنْ ذَهَبْتَ إِلَى مَا فَوْقَ الْعَرْشِ، أَوْ نَزَلْتَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّبْعَ، فَلَا فَائِدَةَ. يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَابُ الْقَلْبِ مَفْتُوحًا. لَا تَكْثِرْ قَلْبًا، فَإِنَّكَ إِنْ كَسَرْتَ قَلْبًا اهْتَزَّ الْعَرْشُ^(٢).

وَعِنْدَمَا سَكَتَ شَمْسٌ، بَدَأَ مَوْلَانَا حَزِينًا، وَكَانَ يَسْتَمِعُ إِلَى كَلَامِ مُرَادِهِ بِعُنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ. وَبَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: إِذَا كَانَ أَشْيَاخُ الطَّرِيقِ فِي تَبْرِيزٍ يُسَمُّونَكَ كَامِلًا التَّبْرِيزِي، فَأَنَا أُسَمِّيكَ «الْعَاشِقَ الْمُخْلِصَ فِي الْكَائِنَاتِ». إِنَّ لَدَيْكَ الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ تُدْخِلَ، بِكَلَامِكَ، الْأَكَابِرَ وَالْعُلَمَاءَ فِي قُوْنِيَّةٍ فِي جَلْبَةِ عَظِيمَةٍ وَضَجِيجٍ. وَالْآنَ، أُعْلِنُ بِصَرَاحَةٍ: إِنَّ عُلَمَاءَ الظَّاهِرِ مُطْلَعُونَ عَلَى أَخْبَارِ الرَّسُولِ، وَحَضْرَةِ شَمْسِ الدِّينِ مُطْلَعٌ عَلَى أَسْرَارِ الرَّسُولِ. وَهَذَا الْأَمْرُ، لَا نَسْتَطِيعُ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ قُوْنِيَّةٍ أَنْ تُسَلِّمَ بِهِ. وَهَؤُلَاءِ الْمُدَّعُونَ مُسْرُورُونَ

١- الْمُقْتَرَى: ١٩٦٤/٣ - ٦٥.

٢- رَوَى الرَّسُولُ عَنْ الْحَقِّ أَنَّهُ قَالَ (مَا مَعْنَاهُ):
«إِنِّي لَا يَسْعُنِي وَعَاءُ الْعُلُوِّ وَالْإِنْخِفَاضِ،
وَلَا تَسْعُنِي الْأَرْضُ وَلَا السَّمَاءُ، بَلْ وَلَا الْعَرْشُ»
«بَلْ يَسْعُنِي قَلْبُ الْمُؤْمِنِ»، فَيَا عَجَبًا
فَاعْلَمْ هَذَا يَقِينًا، أَيُّهَا الْعَزِيزُ
فَإِذَا طَلَبْتَنِي فَاطْلُبْنِي فِي تِلْكَ الْقُلُوبِ
(الْمُقْتَرَى: ٢٦٦٧/١، ٦٨)

بالتفاني وبالمحبة والإخلاص الظاهرين، وفيما بينهم يتحاسدون. وكلُّ أملهم أن تلجأ إلى الجبال والصحاري؛ لأنَّ شمساً أتى بهديّة عنوانها محبة الإنسان وتبادل العشق والمودة. الذين لا يرون إلا الظاهر عدّوا هذه الهدية السماوية خطراً عليهم، وعلى منزلتهم وقدرتهم. وقد تمرّدوا وعصوا؛ لأنَّ السّاحر التبريزي يقول كلاماً باطلاً، ويضلُّ الناس. بينما أعترف أنا بأنكم مُنشدون لمديح المعرفة، وبأنكم أطلعتُموني على أضرار الغرور العلمي والذهني، وشرحتُم هوية العقل الجزئي جيّداً، واعتبرتم العشق مُصلحاً ومفتاحاً للمشكلات:

مُنذُ أن صرّت نديمي، أيُّها القمر السّالب لقلبي،

أخذتُ نور القلب بفقير من فمي كالإمضباح^(١)

العشق قادرٌ على أن يحلّ التضادّ داخل الأمور الجامعة، وهذه عصارة تعليمك وجوهرك فكريك وتوجيهاتك. وكلُّ مُشكِـل موجود هو، كما تقول، من الإنسان نفسه، وينبغي أن يحلّ بطريق العشق. [٣٢٨] لأن:

وسَطُ حجاب الدماء، يكون للعشق رياض وزد

وللعاشقين مع جمال العشق، الذي لا كيف له، شؤون

يقول العقل: «إن الجهات الست هي النهاية، ولا طريق وراءها»

فيقول العشق: «هناك طريق، وقد مشيته أنا مرّات»

ويقول العقل: «لا تضع قدمك، فلنيس في الفناء إلا الشوك»

فيقول العشق: «هذه الأشواك للعقل، الموجود فيك»^(١)

لم يُدرك كُبراءُ قُوْنِيَّةَ حَتَّى الْآنَ قُدْرَاتِكَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْفِكْرِيَّةَ وَالرُّوحِيَّةَ وَالْعِرْفَانِيَّةَ،
 وسيُذْكَرُونَ ذَلِكَ سَرِيعًا. وإذا كانوا في ظاهِرِ الْأَمْرِ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعُدُّوا لِقَاءَنَا نَحْنُ -
 الْاِثْنَيْنِ - وَاحِدًا مِنْ أَكْثَرِ أَحْدَاثِ الزَّمَانِ حِمَاسَةً، فَلَاشِكَّ فِي أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى
 الْاعْتِرَافِ بِإِدْرَاكِكَ وَرُؤْيِيَّتِكَ الْعَمِيقَةِ فِي الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِرْفَانِيَّةِ. فَهَؤُلَاءِ لَا يُرِيدُونَ
 أَنْ يَفَكَّرُوا بِعُمُقٍ أَكْثَرَ قَلِيلًا فِي مَسْأَلَةٍ: كَيْفَ تَحَوَّلَ جَلَالُ الدِّينِ، فَقِيهِ قُوْنِيَّةِ الْوَقُورِ
 الرَّزِينِ، بَغْتَةً إِلَى عَاشِقٍ مُحْتَرِفٍ. تَصَوَّرَ الْحُسَّادُ الْجَهْلَةُ تَلَاطُمَ أَمْوَاجِ رُوحِي الْعَاشِقِ
 سَحْرًا وَجُنُونًا. أَنَا أَرَى فِيكَ عَارِفًا مُوَحِّدًا مُؤْمِنًا ذَا قُدْرَةٍ عَظِيمَةٍ فِي الثَّوَرَةِ الْبَاطِنِيَّةِ
 الرُّوحِيَّةِ. وَسَاجِلِي أَقْوَالِكَ وَإِرْشَادَاتِكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، يَقِينًا، فِي أَشْعَارِي وَأَنَاشِيدِي؛
 لِكَيْ تَبْعَثَ فِي أَنْفُسِ الْقُرَاءِ وَالسَّامِعِينَ هَيْجَانًا وَوَجْدًا شَبِيهَاً بِالسُّحْرِ، عَلَى نَحْوِ تَخَلُّدٍ
 فِيهِ فَكَّرَكَ وَتَصَوُّرَاتِكَ الْمُتَعَالِيَّةُ فِي نَسِيجِ مَنْظُومَاتِي وَأَنَاشِيدِي، مِثْلَ تَيَّارٍ مُثِيرٍ بِاعِثٍ
 لِّلْاهْتِزَازِ وَالتَّخْرِيكِ. وَيَعْلَمُ الْجَمِيعُ، وَأَصْحَابُ الْقُلُوبِ خَاصَّةً، أَنَّكَ حَبَوْتَ
 الْمُرُوثَ الْمَغْنَوِيَّ الصُّوفِيَّ عُمُقًا وَغِنًى فِي الْعِشْقِ وَالْحَالِ وَالْهَيْجَانِ. وَأَقُولُ أَيْضًا:
 إِنَّكَ فِي مَدَّةِ الْأَشْهُرِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا إِلَى جَانِبِكَ، فِي رِحْلَتِكَ الْأُولَى، أَدَيْتَ
 الْمَطْلُوبَ فِي الْمَجَالَاتِ الْعِرْفَانِيَّةِ الْمُثِيرَةِ لِلْبَحْثِ جَمِيعًا. وَأُمَلُّ أَنْ أَوْضِحَ عَقَائِدَكَ
 الْعِشْقِيَّةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ فِي أَشْعَارِي، عَلَى نَحْوِ صَرِيحٍ، وَأُعْلِنَ أَنَّ مُرَادَ شَمْسٍ،
 مُحَبُّوبِي، مِنَ الْعِشْقِ وَالْجَمَالِ كَانَ مُنْصَرَفًا إِلَى أَفْقٍ أَسْمَى مِنَ الْجَمَالِ الظَّاهِرِيِّ؛ أَيْ
 إِنَّهُ كَانَ فِي التَّغْنِيِ بِالْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةِ الْمُشْرِقَةِ الْخَالِدَةِ، فِي الْإِتِّصَالِ بِالْحَقِّ وَهَجْرِ كُلِّ مَا
 عَدَاهُ. وَقَدْ وَصَفَ جَلَالُ الدِّينِ الْبَلُخِي، فِي دِيْوَانِ شَمْسٍ، شَمْسًا عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

حِينَا نَدْخُلُ الصَّدْرَ، وَحِينَا نَطْلُعُ مِنَ الرُّوحِ
 حِينَا نَمِيلُ إِلَى الْهَجْرِ، أَيْةُ آفَةٍ أَنْتَ وَأَيُّ بَلَاءٍ!
 حِينَا يَكُونُ لَكَ جَمَالُ الْأَضْنَامِ [الأيقونات]، وَحِينَا نَكُونُ مِنْ مُحَطَّمِي الْأَصْنَامِ
 وَحِينَا نَكُونُ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، أَيْةُ آفَةٍ أَنْتَ وَأَيُّ بَلَاءٍ!
 [٣٢٩] سَمِيَ الْإِنْسَانُ بِالْقَدَمِ، وَطَارَ الْمَلَكُ بِالْجَنَاحِ
 وَلَمْ تُرَ أَنْتِ بِغَيْرِ الْعَجْرِ، فَأَيْةُ آفَةٍ أَنْتَ وَأَيُّ بَلَاءٍ!
 أَنْتِ مِثَالُ لَلَذَّةِ الشُّكْرِ، وَقَدْ جَلَسْتَ وَسَطَ الْعَيْنِ
 وَسَدَدْتَ طَرِيقَ الْفَهْمِ، فَأَيْةُ آفَةٍ أَنْتَ وَأَيُّ بَلَاءٍ!
 أَيْةُ سَعَادَةٍ أَنْتِ وَأَيْةُ فَائِدَةٍ، أَيْةُ نَارٍ وَأَيُّ دُخَانٍ!
 أَيُّْ مَجْمَرٍ أَنْتِ وَأَيُّ عُودٍ، أَيْةُ آفَةٍ أَنْتَ وَأَيُّ بَلَاءٍ!
 أَيْةُ رَاحَةٍ أَنْتِ وَأَيُّ رُوحٍ، أَيْةُ سَفِينَةٍ وَأَيُّ نُوحٍ
 أَيْةُ نِعْمَةٍ أَنْتِ وَأَيُّ فُتُوحٍ، أَيْةُ آفَةٍ أَنْتَ وَأَيُّ بَلَاءٍ!
 أَنْتِ عِشْقٌ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ، لَكِنَّكَ مُخْتَجِبٌ عَنِ الْجَمِيعِ
 مُخْتَجِبٌ أَنْتِ وَظَاهِرٌ كَالرُّوحِ، أَيْةُ آفَةٍ أَنْتَ وَأَيُّ بَلَاءٍ
 اجْعَلْنِي أَغْلٍ كَالْقَدْرِ، وَلَا تَقُلِ اسْكُتْ، أَيْةُ صَجَةٍ أَنْتِ؟
 أَيُّْ مَكَانٍ لِلصَّبْرِ وَالصَّمْتِ؟ أَيْةُ آفَةٍ أَنْتَ وَأَيُّ بَلَاءٍ!^(١)

كثيرٌ من أناشيد جلال الدين البُلُخي المنشِطَةِ لِلْقَلْبِ إمَّا خِطَابٌ لِشَمْسٍ، وإمَّا
تصويرٌ لِكَلَامِ شَمْسٍ، الذي له تأثيرٌ كبيرٌ^(١) في دَفَقَاتِ الْفِكْرِ الْخَلَّاقِ عِنْدَ جَلالِ الدِّينِ.
بدأتُ لَحَظَاتُ نِهَايَةِ لِقَاءِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ فِي وادي العِرْفَانِ بِحَادِثَةٍ
مؤلمة، انتهت بفراقٍ وهجرانٍ دائمين. وقد تحوّل هذا الهِجْرَانُ إلى مَجالاتٍ أُسَاسِيَّةٍ
في تفكيرِ مولانا وأحاسيسِهِ. وَمِنْ ذَلِكَ، أَسْوَدَةُ عَشِقَتِهِ مِثْرَةٌ جَمِيلَةٌ الْإِيْقَاعِ، كَمَا يَأْتِي
إِذْ أُنشِدَ فِي خِطَابِ شَمْسٍ:

حَانَ وَقْتُ أَنْ أَغْدُوَ مَجْنُونًا مُقَبِّدًا بِسِلْسِلَتِكَ
وَأَنْ أَلْطِمَ الْقَبْدَ، وَأَغْدُوَ غَرِيبًا عَنِ الْجَمِيعِ
أَقْدُمُ الرُّوحَ فِدَاءً، وَلَا أَعُوذُ أَنْحَمَلُ عَارَ رُوحِ كِهَذَا
وَأُخْرِقُ الْبَيْتَ، وَكَالنَّارِ أَمْضِي نَحْوَ الْحَانَةِ
وَمَا لَمْ أَجِشْ، وَأَكُنْ مِنْ دُنَى الْعَالَمِ هَذَا شَابًّا
مَتَى أَغْدُو نَدِيمَ شَفَةِ تِلْكَ الْكَاسِ مِنَ الشَّرَابِ؟
أَبْسُطْ جَنَاحِي فِي الْبُسْتَانِ، كَالشَّجَرَةِ،
وَإِذَا بُذِرْتُ فِي طَرِيقِ الْفَنَاءِ هَذَا صِرْتُ كَالْحَبَّةِ
أَنَا كَأُسْطُورَةِ الْقَلْبِ، لِابْدَاءِ لِي وَلَا نِهَايَةِ
وَمَا دُمْتُ فِي قُلُوبِ الْعُشَّاقِ، أَغْدُو كَالْأُسْطُورَةِ^(٢)

وفي رأسي، يأتي عشقك من الجهات الست
(ديوان شمس تبريز: الغزلية ٦٢١)

١- كلما قررت منك، تخصمت مع عشيقك

٢- ديوان شمس تبريز: الغزلية ١٦٥٠.

- يُخَادِعُ عَدُوِّي، فَلَا تَسْمَعُ خِدَاعَهُ
- لَا تَدْعُ رُوحِي وَقَلْبِي فِي غَمٍّ وَغُصَّةٍ، لَا تَذْهَبِ
- لَا تُفْرِخْ عَدُوِّي وَعَدْوُكَ، بِاللَّهِ عَلَيْكَ
- لَا تَسْمَعْ حِيلَةَ الْعَدُوِّ، لَا تَوُذِ الْحَبِيبَ، لَا تَذْهَبِ
(ديوان شمس تبريز: الغزلية ٢١٤٤)

لَيْلَةُ الْمَصِيرِ الْحَالِكَةِ

سِتَّةٌ مِنَ الْمَخْدُوعِينَ الْمُتَشَرِّدِينَ الْحَاقِدِينَ فِي قُوْنِيَّةٍ، بِقِيَادَةِ عَلَاءِ الدِّينِ، ابْنِ
مَوْلَانَا الْأَصْغَرِ، الَّذِي كَانَ مُسْتَجِيبًا جَدًّا لِتَلْقِينَاتِ السَّفَلَةِ الْمَنَافِقِينَ فِي الْمَدِينَةِ، اتَّخَذُوا
قَرَارًا بِأَنْ يَأْتُوا مُسْرِعِينَ إِلَى حُجْرَةِ جَلَالِ الدِّينِ مِمْتَلِئِينَ عَدَاوَةً وَانْتِقَامًا. وَلَمْ يَكُنْ
هَؤُلَاءِ السِتَّةُ مُمَثِّلِينَ لَجُمْلَةِ الْمَجْتَمَعِ الْعِلْمِيِّ فِي قُوْنِيَّةٍ، بَلْ كَانُوا مِنَ الْعَوَامِّ السَّقَاطِ
الَّذِينَ هُمْ كَالْأَنْعَامِ، وَمِنْ أَشَدِّ شَبَابِ الْمَدِينَةِ أُمِّيَّةٍ، وَمِنَ الْمَأْمُورِينَ الْمُسْتَأْجَرِينَ لِتَنْفِذِ
النِّيَّاتِ الْقَدِيرَةِ لِلْمُجْرِمِينَ الْمُرَائِينَ. قَرَّرَ هَؤُلَاءِ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا كُلَّ مَا أُوتُوا مِنْ قُدْرَاتٍ
وإمكاناتٍ فِي أَنْ يُزِيلُوا مِنْ سَاحَةِ دُورِ الْعِلْمِ فِي قُوْنِيَّةٍ تَيَّارَ الْعِرْفَانِ الْعِشْقِيِّ الَّذِي أَتَى
بِهِ شَمْسُ، الَّذِي كَانَ يَتَسَّعُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَظَهَرَ لَهُ أَنْصَارٌ مَفْكَرُونَ.

كَانَ الْحَاسِدُونَ وَالنَّاقِدُونَ الضَّيِّقُونَ النَّظَرَ يَزْعُمُونَ أَنَّ فِكْرَ شَمْسٍ الْجَدِيدَةَ مَمْلُوءَةٌ
بِاللَّهْوِ وَالتَّلَذُّذِ وَمُخَالَفَةِ التَّقَالِيدِ الْأَسَاسِيَّةِ الْقَدِيمَةِ لِلْمَجْتَمَعِ. وَقَدْ نُظِّمَتْ مُؤَامَرَةُ الْقَتْلِ
عَلَى قَدَرٍ مِنَ الدَّقَّةِ وَالْمَهَارَةِ تُرِكَ فِيهِ طَرِيقُ الدِّفَاعِ عَنِ الْمَحْرُضِينَ مَفْتُوحًا، وَوَعِدُوا بِأَنْ
يُعْفُوا مِنَ الْإِعْتِقَالِ أَوْ الْجَزَاءِ. وَفِي الْمَقَابِلِ، مَا كَانَ يَنْبَغِي السَّمَاحُ بِأَنْ يَظَلَّ شَمْسُ مَرَّةً
أُخْرَى حَيًّا. يَجِبُ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِضَرْبَاتِ السَّكَاكِينِ وَالْخَنَاجِرِ وَجُمُوعِ الْأَكْفِ، وَالرُّكْلِ
بِالْأَقْدَامِ، ثُمَّ يُلْقَى جَسَدُهُ لَيْلًا فِي حُفْرَةٍ أَوْ بئرٍ عميقةٍ وَمُتْرَوَكَةٍ. وَتَكُونُ الْخُطَّةُ التَّنْفِيزِيَّةُ
لِلْمُؤَامَرَةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ: بِكُلِّ ذَرِيعَةٍ وَحِيلَةٍ مُمْكِنَةٍ، يُدْعَى شَمْسُ مِنَ حُجْرَةِ مَوْلَانَا

[٣٣١] إلى الخارج، ثم في أثناء خروج شمسٍ تطفأ شموعُ الحُجْرة؛ ثم بعد ذلك، وفي سُرْعَةٍ بالغَةٍ وفي أَقْصَرِ مُدَّةٍ، يُسَلِّمُ هذا الذي هو دائرةُ معارفِ العِشْقِ في الظَّلامِ إلى القَتْلِ. هذه المجموعةُ الخبيثةُ انخدعتْ بالفِكرِ الشَّيطانيِّ لِلْمُدَّعِينِ، الذين كانوا يَرُشِّمُونَ شَمْسًا في صُورَةٍ خَطَرٍ مُتَظَرٍّ ومُهْدِدٍ لِلنَّسْلِ الشَّابِّ والأَسْرِ في قُوْنِيَّةٍ. كانوا قد قالوا لهم: إِنَّ فِكْرَ شَمْسٍ أخطَرُ على الاجتماعِ مِنَ الطَّاعُونَ والوَبَاءِ. إِنَّ قَتْلَ شَمْسٍ وظيفةٌ وَجْدانيَّةٌ وأَخْلَاقِيَّةٌ وإنسانيَّةٌ، خاصَّةً أَنَّ هذا الخطرَ العظيمَ في المُستَقْبَلِ القريبِ يُلقِي رُوحَ جَلالِ الدِّينِ، فَفِيهِ قُوْنِيَّةُ الكَبِيرِ، في مخاطرةٍ؛ لأنَّ شَمْسًا السَّاحِرَ تَرَكَ بِسِحْرِ كَلَامِهِ تَأثِيرًا في تَقْوَاهُ وَعِلْمِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَسُلُوكِهِ.

هذه المجموعةُ الجاهِلَةُ، غَيْرُ جَدِيرَةٍ بِأَنْ تَفْهَمَ فَهْمًا صَاحِبًا جِهَاتِ المحبَّةِ الصِّمِيمَةِ والتعلُّقِ الشَّدِيدِ، والترابطِ الذي لا تَنْفَصِمُ عِراهَ بَيْنَ جَلالِ الدِّينِ البَلْخِي وشَمْسٍ. فَقَدْ كَانَتْ تُعَلِّقُ الانتقامَ المُخْرِقَ تَتَوَهَّجُ في أعينهم. كان المُتَشَرِّدُونَ المُتَسَلِّحُونَ مَسْرُورِينَ، تَحْتَ أَثْوَارِ القَمَرِ وَغَمَزَاتِ النُّجُومِ المُتَرَاقِصَةِ، بِأَنْ يُوجِّهُوا أَوَّلَ ضَرْبَةٍ سَكِينٍ لِجَسَدِ شَمْسٍ، عَلَى نَحْوِ يُقْتَلُ فِيهِ في لَحْظَةٍ واحدة. كَانَتْ تِلْكَ لِحَظَاتٍ سَرِيعَةٍ المَرُورِ، مَخُوفَةٍ، حَسَّاسَةٍ، وَكَانَ الحَقْدُ والعَدَاوَةُ والتعصُّبُ الشَّيطَانِيَّ قَدْ انتصَبَتْ وَجْهًا لَوَجْهِ أَمَامِ الهَيَجَانِ والحَرَارَةِ والاشْتِيَاقِ العِرْفَانِيَّ. كانَ علاءُ الدِّينِ كُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنْ حُجْرةِ أَبِيهِ ازدَادَ وَخْشَةً واضْطَرَابًا وتَوَبُّخًا، مُنْبَعَثًا مِنْ وَجْدَانِهِ.

وفي آخِرِ الأَمْرِ، وَصَلُوا إِلَى حُجْرةِ مَوْلَانَا. كانَ شَمْسٌ ذُو القُدْرَةِ العِرْفَانِيَّةِ العَجِيبَةِ، المُعْتَادُ عَلَى الأَلَمِ، الذي كانَ كُلُّ شَيْءٍ واضِحًا أَمَامَ عَيْنَيْهِ المُبْصِرَتَيْنِ لِلْحَقِيقَةِ، يَنْظُرُ بِرُوحِيَّةٍ قَوِيَّةٍ إِلَى طَلْعَةِ محبوبِهِ. فَالعَارِفُ المُخْلِصُ المُؤْمِنُ المُعْتَقِدُ ذُو الإِثَارِ، مُطَّلِعٌ

على دَخِيلَةِ جَلالِ الدِّين. كانَ نَظَرُهُ المَتَفَحِّصُ يُحِيطُ بِأَفَقِ قُوْنِيَةِ كُلِّهِ. وَفِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الحَاسِمَةِ، بَدَأَ الأَمْرُ وَكَانَ كُلُّ القُدْرَةِ العِزْفَانِيَّةِ عِنْدَ شَمْسٍ قَدْ تَرَكَّزَتْ فِي نَظَرِهِ.

كَانَ جَلالُ الدِّينِ يَسْعَى لِكَيْ يَحْتَفِظَ بِهَدْوِهِ وَرَباطَةِ جَأَشِهِ. لَمْ يَدْخُلْ عَاشِقٌ، لَهُ هَذِهِ القُدْرَةُ العَصِيَّةُ عَلَى الوُضْفِ، البِتَّةُ فِي عِرَالِكِ مَعَ العِشْقِ. وَقَدْ قَدَّرَ اللهُ سُبْحانَهُ أَنْ يَحْتَرِقَ جَلالُ الدِّينِ، فِي المَسْتَقْبَلِ، مِنْ هِجْرانِ شَمْسٍ احْتِراقَ الشَّمْعِ، وَأَنْ تَنْهَلَ مِنْ عَيْنِهِ جَواهِرُ الدَّمْعِ.

أَلْقَى علاءُ الدِّينِ نَظَرَهُ المَضْطَرِبَ مِنْ فَتْحَةِ بابِ الحُجْرَةِ إِلَى داخِلِها، وَمِنْ أَوَّلِ نَظَرِهِ انْتَبَهَ إِلَى أَنَّ وَالِدَهُ كانَ مُشَتَّتَ الذَّهَنِ كَثِيرًا، وَلَمْ يَلْحَظْ نَظراتِ ابْنِهِ. كانَ الابْنُ يَرُدُّ نَظَرَهُ مِنْ وَجْهِ الأَبِ إِلَى مَلامِحِ شَمْسٍ، ثُمَّ مِنْ مَلامِحِ شَمْسٍ إِلَى وَجْهِ الوالِدِ. كانَ شَمْسٌ يَتَحَدَّثُ عَنِ الأَمالِ الَّتِي تَبَدَّدَتْ، وَعَنِ الآلامِ والحِزْمَانِ والفِراقِ. [٣٣٢] صَعَدَ جَلالُ الدِّينِ الأَهاتِ المُرَّةَ والحارَّةَ مِنْ صَدْرِهِ، وَكانَ مُتَعَبًا وَمُنْهَكًا. سَأَلَ مُرادَهُ: - لا أَعْلَمُ لِمَذا قَلْبِي اللَّيْلَةَ فِي رَمضاءِ وَنارٍ. جِئْتَ أَنْتَ إِلَيَّ فَحَرَّرْتَنِي مِنْ أَلَمِ الوَخْدةِ المُتَعَبِ لِلرَّوحِ. كانَ يَنْبَغِي أَنْ تَغْدُوَ مُسَلِّي قَلْبِي، لا أَنْ تَقُولَ: أَذْهَبُ مِنْ هُنا، إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ؟ - أَيْنَ مَقْصِدُكَ؟ أَجابَ شَمْسٌ بِصَوْتٍ مَرْتَجِفٍ:

- حَيْثُما تُوجَدُ مَمْلَكَةُ العِشْقِ يَكُونُ مَكانِي. أُسَلِّمُ نَفْسِي لِلشَّمْسِ، أَمْضِي إِلَى نَاحِيَةِ المَعشوقِ. مِيدانُ فِكْرِي الدَّاخِلِيِّ هُوَ العِشْقُ، أَذْهَبُ إِلَى حَيْثُ يَوجَدُ عالَمُ الانْفِعالِاتِ العِشْقِيَّةِ.

(ابْتَسَمَ علاءُ الدِّينِ، الَّذِي سَمِعَ هَذِهِ الكَلِماتِ، ابْتِسامَةً سَاحِرَةً... أَي: الفِرارُ مُسْتَحِيلٌ، وَعَما قَرِيبَ سَرْدَدِي).

وَإِذا أَحَسَّ مَوْلانا بِأَنَّ رُوحَهُ وَفِكرَهُ ضَاجِرانِ وَمُسْتَعِدَّانِ لِلْحَرَكَةِ، أَرادَ أَيْضًا أَنْ

تدوم لَحَظَاتُ الحُضُورِ وَالْوَضَلِ، وَأَنْ يُوَاصِلَ الْحَبِيبُ الْكَلَامَ، وَلِذَلِكَ قَالَ:
- لَسْتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَرَّةٍ غُبَارٍ تَحْتَ قَدَمِكَ... وَلَمَّا يَأْنِ أَنْ تُسَلِّمَ هَذِهِ الذَّرَّةَ لِلْعَاصِفَةِ،
وَتَمْضِيَ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ. إِنَّ وَجُودِي، وَكَيْتُونَتِي، وَسَلَامَتِي، وَانْطِلَاقِي، مُرْتَبِطَةٌ بِكَ.
وَقَدْ كُنْتُ أَعِيشُ عَلَى أَمَلٍ عَوْدَتِكَ مِنْ دِمَشْقَ.

- إِذَا كَانَ مَوْلَانَا يَعُدُّ نَفْسَهُ ذَرَّةً فَإِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّهَا شَيْءٌ يَنْطَوِي عَلَى مَا لَا يَقْلُ عَنْ
شُمُوسِ الْأَفْلَاقِ، لَكِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَرَى فِي هَذَا الشَّأْنِ أَنَّ مَتَرْدِي قُوْنِيَّةَ وَابْنِ مَوْلَانَا
الْعَزِيزِ، أَيْ عِلَاءَ الدِّينِ، قَدْ ثَارُوا عَلَيَّ، وَمَعَ هَذَا تُرِيدُونَ أَنْ أَبْقَى عِنْدَكُمْ؟. أَطْرَقَ
مَوْلَانَا، وَلَمْ يَنْبَسْ بِنْتُ شَفَةِ، صَمَتَ الْبَحْرِ. وَاصِلَ شَمْسُ الْقَوْلِ:

- تَذَكَّرْتُ حِكَايَةَ عَنْ أَبِي يَزِيدَ، فِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ الْحَسَّاسَةِ الْمُتَّصِلَةِ بِفِكْرَةِ أَنَّ
الزَّمَانَ لَدَيْهِ مِثْلُ إِلَى التَّجَدُّدِ، وَقَدْ اسْتَلْهَمْتُهَا مِنْ إِلَهَةِ الْعِشْقِ، وَأَنْقَلَبُهَا إِلَيْكَ. عِنْدَمَا
كَانَ أَبُو يَزِيدَ يَذْهَبُ إِلَى الْحَجِّ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ وَحِيدًا، لَمْ يَكُنْ يَشَاءُ أَنْ يَصْحَبَ
أَحَدًا. فِي يَوْمٍ، رَأَى شَخْصًا كَانَ يَمْشِي أَمَامَهُ. نَظَرَ إِلَيْهِ، إِلَى سُرْعَةِ مَشْيِهِ وَانْطِلَاقِهِ،
فَكَانَ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ نَشَاطٌ. فَأَخَذَ يَسْأَلُ نَفْسَهُ: عَجَبًا، أَرَأَيْتَ، أَتَرَكُ طَرِيقَةَ السَّيْرِ
وَحِيدًا، فَإِنَّهَا صُحْبَةٌ مِمْتَازَةٌ جَدًّا؟ فَكَانَ يَقُولُ: أَكُونُ رَفِيقًا لِلرَّفِيقِ الْأَعْلَى. فَكُنْتُ
أُحِسُّ مِنْ جَدِيدٍ بِأَنَّ مَحَبَّةَ صُحْبَةِ ذَلِكَ الشَّخْصِ تَتَفَوَّقُ عَلَى مَحَبَّةِ الذَّهَابِ وَحِيدًا.

وَفِي أَثْنَاءِ تَزْدِيدِ النَّظَرِ فِي مَسْأَلَةِ أَيَّا مِنَ الْأَمْرَيْنِ اخْتَارَ، نَظَرَ ذَلِكَ الشَّخْصِ إِلَيَّ

[٣٣٣] وَقَالَ:

- فِي الْبَدَنِ تَأْكُذُ مِنْ أَنِّي أَقْبَلُكَ رَفِيقًا. اسْتَبَدَّتِ الدَّهْشَةُ بِأَبِي يَزِيدَ وَأَخَذَ يَقُولُ فِي
نَفْسِهِ: كَيْفَ أَطْلَعَ ذَلِكَ الشَّخْصَ عَلَى مَا عَنَ فِي خَاطِرِي. فِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ عَجَلَ
ذَلِكَ الشَّخْصُ خُطَاهُ.

والآن أتساءل أنا: هل يريد مولانا أن أبقى في قونية، وأغرق في خضم سُكر العشق وذُهو له؟ - أو يجب على شمس أن يهوي في دوامة نسيان دائم؟ أجاب مولانا: - إذا كان نشاطي، بعد صنت مجامع الدرس، قد ازداد فما ذلك إلا لأن نار عشقك^(١) قد بعثت في القوة والحرارة. عليك أن تعلم أن عطشي باقٍ إلى الآن. كنت أنت نجماً يضيء لي لي المظلم. ولكن وأسفاه، حتى الآن لم أدرك الحقيقة كما ينبغي، وما أكثر أسئلتي التي بقيت من دون إجابة!

- ابنك علاء الدين يرى أنني مبتدع، ويقول أنني أرى الناس في المنام وأنزع منهم عقولهم. كيف أقدر على تحمل استمرار الأذى؟ - لماذا لا يريد مولانا، أساساً، إيضاح إحساسه الداخلي بصباح الغضب أمام ولده ومُحبّيه والأشخاص الذين يدافعون عنه؟. يعلم مولانا أن الجناب الإلهي نورٌ على نور، بهجة على بهجة، جمال على جمال، كرم على كرم، وماذا قلت أنا أكثر من التغي بالذات السرمديّة؟ - أنا مدّاح للعشق والهيام، أي شيء غير ذلك؟. هذه هي عقيدتي. وأقول جهاراً: العشق سعادة مطلقة. وأقول للعارفين: إن دنيا أخرى كلها نورٌ في انتظاركم. لا جبريرة لي غير ذلك، فهل يجب أن أطرّد بجرم مدح العشق وقول الحقيقة؟

- لعل علاء الدين في غفلة عن كيده هؤلاء.

- يعلم مولانا أن من يشتمني يسُرني يشتمه إياي، ومن يُثني عليّ يؤلمني ثناؤه عليّ. لأنّ الشاء الحقيقي لا ينبغي أن يأتي بعده إنكار. أما ولدكم علاء الدين فإنه مُنافق. ألا تعلمون أن المنافق أسوأ من الكافر «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ

١- إن جملة أجزاء الثراب عاشقة مثلنا لكن أنت، أيها الروح الطاهر، أندر عاشق

(ديوان شمس قنبريز الغزلية ٣٠٢٧)

مِنَ النَّارِ وَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا « [النساء/١٤٥].

- لَيْسَ عَلَاءُ الدِّينِ مَنَافَقًا، بَلْ يَرَى أَنْ شَفَسًا لَمْ يَسْتَطِعْ [٣٣٤] حَتَّى الْآنَ أَنْ
يَجْعَلَ جَمَاعَةَ الْمُتَعَصِّبِينَ الْغِلَاطِ الْأَكْبَادِ يَعْتَقِدُونَ بِوِلَايَتِهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِصَلَاحِهِ.
- عَلَى مَوْلَانَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ فِي عَهْدِ نُوحٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَتِ الدُّنْيَا عَامِرَةً عَلَى نَحْوِ أَنَّهُ
كَانَ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالْأُخْرَى أَقْلٌ مِنْ مَسِيرِ يَوْمٍ وَاحِدٍ. وَكَانَ النَّاسُ يَتَعَجَّبُونَ تَعَجُّبًا شَدِيدًا
حِينَ تَطُولُ الْمَسَافَةُ بَيْنَ مَدِينَةٍ وَأُخْرَى، حَتَّى إِنَّهُمْ إِذَا امْتَدَّ السَّفَرُ لِيَوْمٍ كَامِلٍ قَالُوا: طَوِيلٌ
جِدًّا. وَفِي الْجُمْلَةِ، دَعَا حَضْرَةُ نُوحٍ [عَلَيْهِ السَّلَامُ] لِمُدَّةِ أَلْفِ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَفِي
كُلِّ يَوْمٍ كَانَ يَزُورُ كَثِيرًا مِنَ الْأَمَاكِنِ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ كَانَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَمُرُّ بِهِ يُضْرَبُ خَمْسَ
مَرَّاتٍ وَيُجْرَحُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّ عَنِ الدَّعْوَةِ، وَفِي النَّتِيجَةِ آمَنَ بِدَعْوَتِهِ سَبْعُونَ شَخْصًا:

ظَلَّ نُوحٌ يَدْعُو لِنِسْعِ مِئَةِ سَنَةٍ

وَكَانَ انْكَارُ قَوْمِهِ يَزِدُّهُ لَحْظَةً بَعْدَ لَحْظَةٍ

فَهَلْ تَرَاهُ لَوَى الْعِنَانَ عَنِ الْقَوْلِ قَطُّ؟

وَهَلْ تَرَاهُ رَقَدَ قَطُّ فِي غَارِ الصَّمْتِ؟^(١)

نَحْنُ أَيْضًا رَأَيْنَا هُنَا التَّهَمَّ وَالْحِجَارَةَ وَالسَّبَّ وَالتَّوَأْحَ الزَّائِدَ، لَكِنَّا لَمْ نَتَوَقَّفَ. كَانَ
مَقْصُودِي مِنَ الْمَجِيءِ إِلَى قُوْنِيَةِ لِقَاءِ حَبِيبِي، يَتَقَابَلَانِ، مِنْ أَجْلِ اللَّهِ، بَعِيدًا عَنِ الْهَوَى. أَنَا
مُرْتَاخٌ عِنْدَ مَوْلَانَا، كُنْتُ أَبْحَثُ عَنِ النُّورِ، وَفِي النَّارِ أَيْضًا نَزَلْتُ. وَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ لَا
أَتَسَبَّبَ فِي أَنْ يَقَعَ غُبَارُ التَّشْوِيشِ وَالْأَلَمِ عَلَى خَاطِرِ مَوْلَانَا. إِنَّ مَجِيءَ رِجَالِ الْحَقِّ إِلَى
كُلِّ أَرْضٍ، يَكُونُ مِنْ أَجْلِ حِكْمَةٍ، وَلَكِنْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْلَمُ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَفْهَمُ؟

فَقَالَ جَلَالُ الدِّينِ الْبَلْخِي:

- كَانَ مَقْدُمُكَ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ فَيَضَا إِلَهِيًّا. وَكُلُّ مَنْ يَرَى شَمْسًا بِعَيْنِ الْعِرْفَانِ، كُلُّ مَنْ يَفْهَمُكَ، يَكُونُ قَدْ فَهِمَ الْآبَدِيَّةَ جَيِّدًا، وَالَّذِينَ يَخَالِفُونَكَ لَا يَرِيدُونَ حَتَّى الْآنَ أَنْ يَدْرِكُوا السَّعَادَةَ الْمُطْلَقَةَ. وَقَدْ جِئْتَ أَنْتَ لِكَيِّ تُحَرِّرَنِي وَتُحَرِّرَ النَّاسَ مِنَ الْاضْطِرَابَاتِ وَالتَّشَوُّشَاتِ الرُّوحِيَّةِ، وَتُدْفَعَنَا إِلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى، أَوِ الْأَفْقِ الْمُبِينِ. وَإِذَا كَانَ أَوْلَئِكَ لَمْ يَفْهَمُوا الْمَفْهُومَاتِ الْعَالِيَةَ لِلْمَحَبَّةِ وَالْعِشْقِ، فَلَيْسَ الذَّنْبُ ذَنْبُكَ. وَقَدْ رَوَى شِهَابُ الدِّينِ الشُّهْرَوَرْدِي فِي كِتَابِهِ «رِسَالَةَ فِي حَقِيقَةِ الْعِشْقِ» قَوْلَهُ: «لَا يَأْذُنُ الْعِشْقُ لِكُلِّ أَحَدٍ بِأَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ، وَلَا يَأْوِي إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يَظْهَرُ لِكُلِّ عَيْنٍ». وَلِأَنَّ مُدَّعِي قُوْنِيَّةَ مُنْكَرُونَ لِلْعِشْقِ، وَجَاهِلُونَ لِتَجَلِّيَاتِهِ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمُ الْقُدْرَةُ عَلَى فَهْمِهِ، كَانُوا يُرِيدُونَ بِذَهَابِكَ أَنْ يُطْفِئُوا هَذَا السَّرَاجَ. بَيْنَمَا تَعْلَمُ [٣٣٥] أَنْتَ نَفْسُكَ أَنَّ شَمْسَ الْعِرْفَانِ لَا تَنْزِلُ إِلَى مَا تَحْتَ السَّحَابِ. وَمَادَامَ هَؤُلَاءِ لَا يَفْهَمُونَ حَقِيقَةَ عِشْقِي وَتَهْيَامِي، سَيُظَلُّونَ مُشْتَبِي الْأُذْهَانَ وَمُضْطَرِّبِينَ عَلَى الدَّوَامِ. أَلَا لَيْتَ حُسَادَ قُوْنِيَّةِ الْعُمِّيِّ الْقُلُوبِ يَفْهَمُونَ طَبِيعَةَ عِشْقِي. وَفِي الْخِتَامِ أَقُولُ: لَيْسَ فِي وَسْعِ أَحَدِ الْبَتَّةِ أَنْ يَشَوُّشَ هُدُوْنِي الرُّوحِيَّةِ. وَتَعْلَمُ كَمْ مِنَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ سَهَرْتُ مِنْ أَجْلِ رُؤْيَيْكَ، لِكَيِّ تَجِيءَ، عَائِدًا مِنْ دِمَشْقٍ. وَإِذَا مَا بَقِيْتُ حَيًّا بَعْدَ ذَهَابِكَ فَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنِّي أُؤَمِّلُ أَنْ أَلْفَاكَ مَرَّةً أُخْرَى. وَبَعْدَ ذَلِكَ هَمَسَ: لَيْتَنِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَبْقَى حَيًّا حَتَّى الصَّبَاحِ، فَأَرَى نَهَايَةَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمَقْرَّرَةَ لِلْمَصِيرِ!

كَانَ فِي نَظَرَاتِ شَمْسٍ عَالَمٍ سِرٍّ خَفِيٍّ، إِذْ شَمَخَ بِرَأْسِهِ وَكَأَنَّهُ تَذَكَّرَ أَمْرًا كَانَ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الَّتِي تَمُرُّ سِرَاعًا أَنْ يَبِيَّتَهُ؛ وَلِهَذَا السَّبَبُ قَالَ:

- يَا مَوْلَانَا، نَحْنُ لَمْ نَتَعْلَمْ هَذَا الْعِشْقَ فِي مَدْرَسَةٍ، وَلَمْ نَحْصُلْ عَلَيْهِ بِحَرْبٍ

وَمَعْرَكَةٍ، حَصَلْنَا عَلَيْهِ بِالتَّدرِيجِ. وَالْآنَ، إِذْ عَلَيْنَا أَنْ نَغَادِرَ الْمَكَانَ، نَقُولُ: إِنَّ سُلْطَانَ
وَلَدَ، ابْنَكُمْ الْأَكْبَرَ، فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ مِنْ دِمَشْقَ، وَفِي أَثْنَاءِ السَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ، سَأَلَ أَسْئَلَةً
وَسَمِعَ إِجَابَاتٍ. وَأَقُولُ: إِنِّي قُلْتُ لَهُ كُلَّ الْأَسْرَارِ الَّتِي أُسْتَطِيعُ قَوْلُهَا، بِإِخْلَاصٍ
وَصِدْقٍ. لِكَيْ يَكُونَ حَضْرَةُ مَوْلَانَا شَاهِدَ حَالٍ عَلَى أَنَّهُ لَوْ قُدِّرَ لِسُلْطَانٍ وَلَدٌ أَنْ يَعِيشَ
عُمَرُ نُوحٍ، وَيَقْضِيَ ذَلِكَ الْعُمَرُ كُلَّهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالرِّيَاضَةِ، لَمَا تَسَرَّرَ لَهُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنِّي
فِي هَذَا السَّفَرِ. وَأُمِّلُ أَنْ يَظْفَرَ مِنْ حَضْرَتِكُمْ أَيْضًا بِنَصِيبٍ، وَيَصِلَ إِلَى تَمَامِ الشَّيْخِيَّةِ،
يَغْدُو شَيْخًا كَامِلًا. سَيَكُونُ سُلْطَانُ وَلَدَ، بَعْدَكُمْ، الْقَمَرُ الْمُنِيرُ فِي سَمَاءِ قُرُونِيَّةٍ،
وَسَيَحْمِلُ أَسْرَارَ الْعِرْفَانِ إِلَى الْآتِينَ هَدِيَّةً.

عَلَى مَوْلَانَا أَنْ يَغْلَمَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ الْبَتَّةِ قَادِرٌ عَلَى الْقِيَامِ بِوُضُفَةِ تَعْلِيمِ الْعِرْفَانِ
وإِرشَادِ السَّالِكِينَ مِثْلَهُ، بَعْدَ وَالِدِهِ، كَمَا يَنْبَغِي. إِنَّ كَلَامِي كُلَّهُ يَأْتِي عَلَى وَجْهِ الْكِبَرِيَاءِ
وَالْتَعَاضُطِّمْ. نَعَمْ، إِنَّ عَمَلِي يَخَالِفُ عَمَلَ أَكْثَرِيَّةِ أَهْلِ قُرُونِيَّةٍ؛ فَكُلُّ شَيْءٍ يَقْبَلُونَهُ أَرْفَضُهُ
أَنَا، وَكُلُّ مَا يَرُدُّونَهُ أَقْبَلُهُ أَنَا. فَهَمَّ يَجْرُونَ وَرَاءَ عَلَاءِ الدِّينِ، ابْنِ مَوْلَانَا الْأَصْغَرِ، الَّذِي
يَخَالِفُ وَالِدَهُ وَيَخَالِفُنِي بِعِنَادٍ وَإِصْرَارٍ، وَيَصَادِقُ الْأَعْدَاءَ وَيِرَافِقُهُمْ. وَقَدْ مَضَى فِي
طَرِيقِ مَنْحَرَفٍ جَدًّا، حَتَّى كَانَتْ شَرُّ مُطْلَقٍ، وَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا عَنِ مَوْلَانَا! وَهُوَ
الَّذِي اخْتَبَأَ فِي كَمِينٍ، وَهُوَ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَمْزِقَنِي إِزْبًا إِزْبًا.

سَمِعَ عَلَاءُ الدِّينِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ جِدًّا، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى أَنْ يَقْتُلَ شَمْسًا.

بَعْدَئِذٍ قَالَ مَوْلَانَا بِتَأَثُّرٍ:

. أَنْتَ تَقُولُ إِنَّكَ تَعِيشُ عَلَى أَمَلٍ لِقَائِي، أَمَّا أَنَا فَكَيْفَ أَحْتَمِلُ الْأَلَمَ الْحَاصِلَ

[٣٣٦] مِنَ الْبُعْدِ وَالْفِرَاقِ وَالْحِرْمَانِ، وَكَيْفَ أُعَوِّضُ مَا خَسِرْتُهُ؟. وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّنَا حِينَ

نَكُونُ مَعًا نَغْرِسُ - نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ - بِمَا عِنْدَنَا مِنْ هَيْجَانٍ وَتَشَوِّقٍ فَسَائِلَ الْعِرْفَانِ فِي

الْقُلُوبَ كُلَّهَا.. أَمَّا الْآنَ... فَإِنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ لَدَيْهِمَا عَرَضٌ آخَرُ. أَنَا الَّذِي كُنْتُ مُوَافِقًا عَلَى ذَهَابِكَ مِنْ قُوْنِيَّةٍ، وَلَكِنْ... سَكَتَ جَلَالُ الدِّينِ لِلْحَضَاتِ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ - أَلَا يَكُونُ مُرَادِي شَمْسٌ يَخْشَى الْمَوْتَ أَوْ الضِّيَاعَ؟

اضْطَرَبَ شَمْسٌ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ كَثِيرًا، وَتَأَثَّرَ، وَأَخَذَ يُزْمِجُ كَالرَّعْدِ، وَأَجَابَ مَوْلَانَا:

- الْمُضْخُونَ بِأَرْوَاحِهِمْ، مِثْلَ شَمْسٍ، يَطْلُبُونَ الْمَوْتَ مِثْلَمَا يَطْلُبُ الشَّاعِرُ الْقَافِيَةَ... وَالْمَرِيضُ الصِّحَّةَ وَالسَّلَامَةَ، وَالْمَحْبُوسُ الْخَلَاصَ... وَأَطْفَالُ الْمَدْرَسَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ... الْاِعْتِقَادُ وَالْعِشْقُ يُشْجِعَانِ الْإِنْسَانَ، وَيُزِيلَانِ كُلَّ الْمَخَافِ... لَكِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَفْقِدَ السَّعَادَةَ الْمُطْلَقَةَ فِي لِقَائِكَ... فَقَالَ مَوْلَانَا:

- تَعْلَمُ أَنْ أَهْلَ قُوْنِيَّةٍ يَقُولُونَ إِنَّ جَلَالَ الدِّينِ صَارَ عَابِدًا لِلشَّمْسِ، وَأَنَا لَا أَخْشَى هَذِهِ التُّهَمَ، لَكِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ يَعتَبَرَ هَؤُلَاءِ مُرَادِي وَشَيْخِي سَاحِرًا وَمُسْعُودًا وَآفَاقِيًا.. عَلَى مَوْلَانَا أَنْ يَعْلَمَ أَنِّي، مَعَ كُلِّ الْأَمَالِ الَّتِي يَخْتَرُهَا قَلْبِي، لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ بَعِيدًا عَنِ الْكَانُونِ الْإِلَهِيِّ لِعِشْقِكَ، مَعَ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَوْلَانَا غَيْرُ قَادِرٍ لِأَسْبَابٍ عَلَى أَنْ يَمْنَعَ ابْنَهُ عِلَاءَ الدِّينِ مِنْ أَنْ يُلْفَقَ عَلَيَّ بَيْنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ فِي قُوْنِيَّةِ الْأَكَاذِبِ وَالتُّهَمِ وَالْأَبَاطِيلِ، وَيُوَثَّبَ وَالِدَهُ. وَلِهَذَا السَّبَبُ، أَتْرُكُ هَذَا الْمَكَانَ فَأَكُونُ أَنَا وَأَنْتَ بَعِيدَيْنِ عَنْ طُوفَانِ التُّهَمِ. اضْطَرَبَ مَوْلَانَا، وَقَالَ:

- أَخْشَى مِنْ هُجُومٍ لَيْلِي لِلْأَعْدَاءِ. وَأَكْبَرُ أَمَلٍ عِنْدِي هُوَ أَنْ يَقْتُلَنِي الْمَخَالَفُونَ قَبْلَ أَنْ يُلْحِقُوا بِكَ أَيُّ أَدَى. إِنَّ قُوْنِيَّةَ الْآنَ كَانُونٌ لِلْفِتْنَةِ وَالذَّسِّ وَالتَّامُرِ، إِنَّهَا مَكَانٌ يَنْهَمِرُ مِنْ سَمَائِهِ حِجَارَةُ الْفِتْنَةِ. إِذَا رَحَلْتَ أَنْتَ مِنْ هُنَا فَإِنَّ الْهَدُوءَ يَرْتَحِلُ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ. وَتَعْلَمُ أَنْتَ أَنَّ جَلَالَ الدِّينِ فِي مَحْفَلِ إِفَاضَاتِكُمُ الْعِرْفَانِيَّةِ لَا يُحْسُ بِالتَّعَبِ وَمُرُورِ

الوقت، وهو طَلِقَ مِنْ قَيْدِ السَّاعَةِ^(١) وَالْوَقْتِ، [٣٣٧] وَكَيْفَ وَلِمَاذَا، وَمِنْ التَّعْلَقَاتِ الْمَادِّيَةِ لِلْحَيَاةِ، الَّتِي تَتَحَقَّقُ فِي ظَرْفِ الزَّمَانِ. إِذَا كَانَ الْمَخَالِفُونَ بِأَنْظَارِهِمُ الضَّيِّقَةَ... قَطَعَ شَمْسُ كَلَامِ جَلَالِ الدِّينِ وَخَاطَبَهُ قَائِلًا:

..وَسَوْسَ قَتْلِي مِنْ أَجْلِ مَاذَا وَمِمَّنْ؟

- مِنْ أَجْلِ الْحَوَادِثِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الْمَدِينَةِ، وَمِنْ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَحْسُدُونَنَا لِمَا بَيْنَنَا مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْحَمِيمَةِ. تَذَكَّرْ عِنْدَمَا اكْتَمَلَ بِنَاءُ مَدْرَسَةِ جَلَالِ الدِّينِ قَرطاي الكبيرة، إِذْ أَعَدَّ قَرطاي حَفْلًا، وَدَعَا كُتُبَاءَ الْمَدِينَةِ، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ جَرَى نِقَاشٌ بَيْنَ الْكُتُبَاءِ الْحَاضِرِينَ فِي الْمَجْلِسِ فِي شَأْنِ: أَيُّ شَخْصٍ يَكُونُ صَدْرَ الْمَجْلِسِ؟ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنْتَ أَيْضًا جَلَسْتَ فِي آخِرِ الْمَجْلِسِ، فَسَأَلَنِي أَحَدُ الْفُضُولِيِّينَ مُعَانِدًا: أَيُّ وَاحِدٍ هُوَ صَدْرُ هَذَا الْمَجْلِسِ؟ فَأَجَبْتُ: صَدْرُ الْعُلَمَاءِ فِي وَسْطِ الصُّفَّةِ، وَصَدْرُ الْعَارِفِينَ فِي زَاوِيَةِ الْمَنْزِلِ، وَصَدْرُ الصُّوفِيَّةِ فِي جَانِبِ الصُّفَّةِ. وَفِي مَذْهَبِ الْعَاشِقِينَ يَجْلِسُ الصَّدْرُ قُرْبَ الْحَبِيبِ. وَعَلَى الْفَوَرِ قُمْتُ مِنْ مَكَانِي وَجِئْتُ إِلَى قُرْبِكَ، فَجَلَسْتُ إِلَى جَانِبِكَ. وَعِنْدَمَا جِئْتُ إِلَيْكَ أَطْلَقَ الْحَاسِدُونَ أَلْسِنَةَ الْإِعْتِرَاضِ. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي عِلِمْتُ أَنَّ مُؤَامَرَةً عَلَى وَشَكِّ التَّنْفِيزِ، إِذْ كَانُوا يَخْطِطُونَ لِأَنْ يُبْعِدُونِي عَنْكَ. أُرِيدُ أَنْ أَبْقِيَكُمْ بَعِيدِينَ عَنْ أَذَى مُرِيدِي السُّوءِ. وَبِوَجْهِ رَجْعَتِي إِلَى قُوْنِيَّةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِ تَحْقِيقًا لِرَغْبَتِي وَالتَّمَاسِي، تَفْتَحُ خَاطِرِي كَمَا يَفْتَحُ الْوَرْدُ مِنْ أَثَرِ نَسِيمِ الصَّبَا. أَرَادَ مُرِيدِي الْإِعْتِذَارِ، وَأَقَامُوا الْمَادِبَ. وَمِنْ أَجْلِ إِرْضَاءِ خَاطِرِكَ، رَتَبْتُ فِي الْيَوْمِ نَفْسِي حَفْلَةً سَمَاعٍ لَيْلًا فِي

١- اخْرُجْ لِسَاعَةٍ مِنْ إِطَارِ السَّاعَةِ [الزَّمَانِ] أَيُّهَا الْقَلْبُ لِكَيْ تَحَرَّرَ مِنْ سُلْطَانِ الْكَيْفِيَّةِ وَالْعِلِّيَّةِ وَإِنَّهُ لَا عِلْمَ لِلزَّمَانِ عَنِ الْآزْمَانِ لِأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى تِلْكَ التَّاحِيَةِ غَيْرَ الْحَيَرَةِ (الْمُنْتَوَى: ٢٠٧٨/٣)

منزلي، ودَعَوْتُ النَّاسَ إِلَيْهَا. وَبِسَبَبِ شَوْقِ السَّمَاعِ، تَرَكْتُ الْمَدْرَسَةَ وَالذُّرُوسَ،
وَسَعَيْتُ إِلَى أَنْ أَكُونَ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي خِدْمَتِكَ بِالتَّوَجُّدِ وَالسَّمَاعِ. وَفِي قُوْنِيَّةٍ، كَانَ
حَدِيثُ تَحْرِيمِ السَّمَاعِ وَالرَّقْصِ مُتَدَاوِلًا فِي الْمَجَالِسِ. السَّفِلَةُ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّنَا نَرَى فِي
الْمُوسِيقَا وَالسَّمَاعِ رُوحَانِيَّةً وَمَعْنَوِيَّةً. هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا انْشَغَالَ لَهُمْ بِالْمَقُولَاتِ الصُّوفِيَّةِ
يَعْتَبِرُونَكَ مُشَوِّقِي، وَقَدْ نَصَحُونِي مِرَارًا^(١) وَحَذَرُونِي بِأَنَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَتْرُكَكَ، وَإِلَّا فَأَنَا فِي
انتظارِ حَادِثَةٍ مُوجِعَةٍ.

١- أَنَشَدَ مَوْلَانَا فِي هَذَا الشَّأْنِ:

أَقِيلَ مِنَ التُّضْجِ فَإِنَّهُ قَيْدُ قَائِسٍ جَدًّا
ذَلِكَ لِأَنَّ عَالِمَكَ مَا عَرَفَ الْعِشْقَ
(الْمُتَنَوِي: ٣/٣٨٣٢-٣٣)

قَالَ: أَيُّهَا التَّائِبُ، اصْصُتْ عَنْ بَعْضِ التُّضْجِ
وَقَدْ صَارَ قَيْدِي أَشَدَّ قَسْوَةً مِنْ نُصْحِكَ

- قَالَ أَحَدُهُمْ: «مَاتَ الشَّيْخُ سَنَانِي»
إِنَّ مَوْتَ شَيْخٍ كَهَذَا لَيْسَ أَمْرًا يَسِيرًا،
- فَلَا تَذْكُرْ شَمْسًا، مَفْعَرُ النَّبْرِيزِينَ
فَكُلُّ إِنْسَانٍ مَاتَ فِي الْعَالَمِينَ، وَشَمْسٌ لَمْ يَمُتْ
(ديوان شمس تبريز، الغزالية ٩٩٧)

بَاتِّجَاهِ الْمَصِيرِ

فِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الْحَاسِمَةِ، وَبِأَمْرِ مِنْ عِلَاءِ الدِّينِ ابْنِ مَوْلَانَا، دَخَلَ أَحَدُ
الْمَعَانِدِينَ الْحُجْرَةَ، وَكَانَ قَبْلُ قَدْ أَغْمَدَ خِنْجَرَهُ فِي غِمْدِهِ احْتِرَامًا لِمَوْلَانَا، دُخُولًا
سَرِيعًا أَطْفَاءَ الشَّمْعِ، وَأَدْخَلَ الْحُجْرَةَ فِي ظَلَامٍ. وَفِي ظَلَامٍ مُؤْلِمٍ وَمُوحِشٍ، كَانَ هَذَا
الْكَلَامُ يَصِلُ إِلَى الْأَسْمَاعِ:

- يَا شَمْسُ الدِّينِ، تَعَالَ إِلَى الْخَارِجِ، وَإِلَّا أَخْرَجْنَاكَ قَسْرًا.

سَأَلَ شَمْسٌ:

وَمَنْ أَنْتُمْ، حَتَّى تَدْعُونِي إِلَى الْخَارِجِ؟

- جَمْعٌ مِنْ مُجَبِّكَ فِي انتِظَارِكَ....

فِي أَطْبَاقِ الظَّلَامِ سُمِعَتْ قَهْقَهَةٌ. فَسَأَلَ شَمْسٌ:

- كَانَ أَزْوَاحًا شَرِيرَةً جَاءَتْ إِلَى هُنَا. إِذَا كُنْتُمْ تَضْحَكُونَ ابْتِهَاجًا بِمُؤَامَرَتِكُمْ

الشَّيْطَانِيَّةِ، فَإِنِّي أَنْبَسُّ مِنْ جَهَالَةِ الْمُرَائِينَ فِي قُوْنِيَّةٍ. وَقَدْ فَقَدْتُمْ حِسَّ الْاحْتِرَامِ

وَالنِّقَاءِ، وَجِئْتُمْ إِلَى مَحْفِلِنَا عَلَى طَرِيقَةِ الْمُجْرِمِينَ الْجَنَّةِ. ارْجِعُوا، لَا تَدْعُوا مَوْلَانَا

جَلَالَ الدِّينِ مُكَدِّرَ الْخَاطِرِ.

مَرَّةً أُخْرَى، عَيْنُ الْقَهْقَهَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ كَانَ يُسْمَعُ، وَقَالَ بِلَهْجَةٍ آمِرَةٍ:

- لِيَخْرُجْ شَمْسٌ مِنْ مَحْضَرِ مَوْلَانَا. اقْتَرَبَ طُلُوعُ الْفَجْرِ، وَقَدْ حَانَ حِينُ اسْتِرَاحَةِ مَوْلَانَا.

[٣٣٩] قام شمسٌ من مكانه في الظُّلْمَة وقال:

- يا مَوْلانا، إنَّهم يُنادُونَنِي لِلْقَتْلِ.

قال مَوْلانا بِصَوْتٍ يُسْمَعُ مِنْهُ دَوِيٌّ الاعتراض:

- إنَّ رجالَ اللهِ كالجبال، لا يَخْشَوْنَ أَعاصيرَ الحادثاتِ، ولا يُسَلِّمُونَ، خاصَّةً

أنتَ من تَبَرِّزَ الخالدةِ، ومُربِّ، وتعلَّم أنَّ عُشاقَ العالم لا يموتونَ. ومن جَدِيدٍ،

الصَّوْتُ نَفْسُهُ بِقَضْفِ الرَّعْدِ كَسَرَ صَمَتَ اللَّيْلِ.

- نَدْعُو مَوْلانا شَمْسَ الدِّين إلى المِبارزة.

خَرَجَ شَمْسٌ مِنَ الحُجْرَةِ مِنْ دُونِ أَنْ يَقُولَ: وداعاً، أو يعانِقَ مَوْلانا إِيذاناً

بالوداع. أمّا طَينٌ آخِرِ كَلامِ شَمْسٍ فَقَدْ بَقِيَ فِي المَكان هَكَذَا:

- يُنادُونَنِي لِلْقَتْلِ.

كان مَوْلانا جَلالُ الدِّين هادِئاً كالْبَحر، إِذْ كان جالِساَ في مكانه، وَمِنْ ذا الَّذِي

يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ قُدْرَتِهِ الباطِنيةِ العَظيمةِ، أو يَصوِّرَ بالكلماتِ وَيُرْسِمَ عَلَى الورَقِ

ما كان يَمُرُّ فِي ذَهِنِ مَوْلانا فِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ المَوْلمَةِ. أمّا المُسَلِّمُ بِهِ فَهُوَ أَنَّ شَمْساً

كان يَتَقَدَّمُ نَحْوَ فَضاءِ التَّضَحِّيَةِ مِنْ أَجْلِ حِفْظِ المِراثِ النَّفيسِ لِلْعِرْفانِ الإِيرانِيِّ. وَهُوَ،

حَتَّى فِي اللَّحَظَاتِ الأَخيرةِ، ما كان يَسْتَمِدُّ العَونَ مِنْ مُرادِهِ مَوْلانا. كان مُتَظاهِرُهُ قُوَنيَةً

يَدْعُونَ رَجُلًا عَظيماً إلى تَقْدِيمِ الرُّوحِ فِي مَذْبَحِ المِبادئِ؛ أَي لِيَقْتُلُوهُ.

أَكانَ مَمكِنًا، بِإِراقةِ دَمِ شَمْسٍ، أَنْ يُطْفَأَ مِصْبَاحُ العِرْفانِ؟ - أَكانَ الظُّلْمُ إلى الانْتِقامِ

يُروى بِمَوْتِ شَمْسٍ؟ - أَكانَتْ شَمْسُ العِرْفانِ الإِيرانِيِّ تَتَوَارى فِي مُحاقِ^(٦) الظُّلَمِ؟

* - المُحاقُّ مِنَ الشَّهْرِ: ثَلَاثُ لَيَالٍ مِنْ آخِرِهِ يَشْتَدُّ فِيها ظِلَامُ اللَّيْلِ [المترجم].

غَاصَ مَوْلَانَا جَلَالُ الدِّينِ فِي تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ: لِمَاذَا يَجِبُ أَنْ يَقْتُلَ إِنْسَانٌ إِنْسَانًا آخَرَ؟ - لِمَاذَا يَجِبُ أَنْ يُوجَدَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْبَشَرِ الظُّمَأُ إِلَى الْإِنْتِقَامِ؟

إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْجِدَاوُلُ جَارِيَةً مِنْ بَحْرِ وَاحِدٍ

فَلِمَاذَا كَانَ هَذَا عَذَابًا فُرَاتًا، وَالْآخِرُ سَمًّا زُعَافًا؟

وَإِذَا كَانَتْ جُمْلَةُ النَّاسِ قَدْ جَاءَتْ مِنْ صُنْعِ يَدٍ وَاحِدَةٍ

فَلِمَاذَا كَانَ هَذَا صَاحِبًا، وَذَاكَ ثِمَلًا؟

وَإِذَا كَانَتْ الْأَنْوَارُ كُلُّهَا مِنْ شَمْسٍ الْبَقَاءِ

فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ الصُّنْعُ الصَّادِقُ وَالصُّنْعُ الْكَاذِبُ؟^(١)

[٣٤٠] شَيَاطِينُ الشَّرِّ وَالْإِجْرَامِ تَحَلَّقُوا حَوْلَ شَمْسٍ غَاضِبِينَ ضَاجِينَ بِالْقِيلِ

وَالْقَالَ. لَمْ يَكُنْ شَمْسٌ، بِسَبَبِ إِيْمَانِهِ الرَّاسِخِ بِالْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ وَالْمَعْرِفَةِ، يَرِيدُ أَنْ

يَسْتَسْلِمَ كَالْعُصْفُورِ، أَمَامَ الْعَاصِفَةِ. كَانَتْ الْخَنَاجِرُ الْحَادَّةُ تَنْزِلُ بِقَسْوَةٍ فِي جَسَدِ إِنْسَانٍ

مُخْلِصٍ، وَاحِدًا إِثْرَ الْآخِرِ. كَانَ شَمْسٌ يَصِيحُ، وَيَقَاوِمُ سِتَّةَ أَفْرَادٍ أَوْبَاشٍ مِنْ أَهْلِ قُوْنِيَّةٍ،

بِالْيَدِ وَالصَّفْعِ. وَمَعَ أَنْ جَسَدَهُ تَلَطَّخَ دَمًا مِنْ ضَرَبَاتِ خَنَاجِرِهِمِ الْمَبْدُودَةِ لِلْقُوَّةِ، ظَلَّ

مَنْشَغَلًا بِالْجِدَالِ مِنْ دُونِ أَنْ تَكُونَ لَدَيْهِ خَشْيَةٌ مِنَ الْمَوْتِ. وَقَدْ فَصَّلَ الْأَفْلَاكِيُّ فِي كِتَابِهِ

«مَنَاقِبُ الْعَارِفِينَ» الْقَوْلَ فِي رَسْمِ صُورَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْبَائِسَةِ السَّودَاءِ، عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

«كَانَ مَوْلَانَا شَمْسُ الدِّينِ... فِي إِحْدَى اللَّيَالِي جَالِسًا عِنْدَ مَوْلَانَا فِي الْخُلُوةِ...

أَشَارَ شَخْصٌ مِنَ الْخَارِجِ بِرَفْقٍ [طَالِبًا] مِنْهُ أَنْ يَخْرُجَ. وَفِي الْحَالِ، نَهَضَ وَقَالَ لِحَضْرَةِ

جَلَالِ الدِّينِ:

- يُنَادُونَنِي إِلَى الْقَتْلِ.

وَبَعْدَ تَوَقُّفٍ طَوِيلٍ، قَالَ مَوْلَانَا:

- الْمَضْلَحَةُ!

وَيُقَالُ إِنَّ سَبْعَةَ أَشْخَاصٍ مِنْ أَرْبَابِ الْحَقَارَةِ وَالْحَسَدِ وَالْعِنَادِ... وَقَفُوا فِي كَمِينٍ،
وَعِنْدَمَا وَاتَّهَمَ الْفُرْصَةُ سَحَبُوا السَّكَائِينَ، فَصَاحَ مَوْلَانَا شَمْسُ الدِّينِ صِيحَةً أَفْقَدَتْ
تِلْكَ الْجَمَاعَةَ وَغِيهَا، وَعِنْدَمَا اسْتَعَادُوا وَغِيهِمْ لَمْ يَشَاهِدُوا غَيْرَ بَضْعِ قَطْرَاتِ دَمٍ.
وَمِنذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَمْ تَرْ عَلَامَةً وَأَثَرَ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي هُوَ سُلْطَانُ الْمَعْنَى. وَأُولَئِكَ الْحُقَرَاءُ
الَّذِينَ أَثَارُوا تِلْكَ الْفِتْنَةَ لَمْ يَمُضِ وَقْتُ طَوِيلٍ حَتَّى قُتِلَ بَعْضُهُمْ، وَأُصِيبَ بَعْضُهُمْ
بِالْفَالَجِ، وَوَقَعَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَوْ اثْنَانِ مِنَ السَّطْحِ فَهَلَكُوا. وَظَهَرَ لِعَلَاءِ الدِّينِ، ابْنِ
مَوْلَانَا، حُمَى مُعْرِقَةٌ وَعِلَّةٌ عَجِيبَةٌ، ثُمَّ وَافَتْهُ الْمَنِيَّةُ فِي حَيَاةِ وَالِدِهِ.

وَقَدْ أَضَافَ الْآفَلَائِي فِي نِهَايَةِ رِوَايَتِهِ:

اجْتَمَعَتْ كَلِمَةٌ بَعْضِ الْأَصْحَابِ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَمَا جُرِحَ مَوْلَانَا شَمْسُ بَايَدِي تِلْكَ

الْجَمَاعَةُ تَوَارَى عَنِ الْأَنْظَارِ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ جَامِي فِي كِتَابِهِ «نَفَحَاتُ الْأُنْسِ»: «عِنْدَمَا صَحَا أُوْبَاشُ قُوْنِيَّةَ لَمْ

يَرَوْا غَيْرَ قَطْرَاتِ دَمٍ، وَمِنذُ تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى الْيَوْمِ لَمْ تَظْهَرْ عَلَامَةٌ لِسُلْطَانِ الْمَعْنَى هَذَا...»

لَمْ يَسْتَطِعْ مُتَشَرِّدُو قُوْنِيَّةَ، الَّذِينَ سَحَبُوا السَّكَائِينَ فِي الظَّلَامِ، أَنْ يَقَاوُمُوا

صَوْلَاتِ شَمْسٍ، فَقَدْ جُرِحَ كُلُّ مَنْ السَّتَةِ، وَوَقَعُوا عَلَى الْأَرْضِ. وَعِنْدَمَا شَاهَدَ عَلَاءُ

الدِّينِ [٣٤١] أَنَّ شَمْسًا مَجْرُوحًا، انْتَزَعَ السَّكَّيْنَ مِنْ يَدِ أَحَدِ الْمُخَالِفِينَ، وَأَخَذَ

بِهَا جَمْعَهُمْ بِلا رَحْمَةٍ. فَاضْطُرَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتْرَكَ الْمَكَانَ، وَيَأْوِي إِلَى حُجْرَةٍ وَالدِّهَةِ.

وَاسْتَمَرَ الْجِدَالُ طَوِيلًا.

واحدٌ منهم، كان قد أمسكت به قبضة شمسٍ، كالعضفور في العاصفة، قال بعجزٍ والتماسٍ:

يا مولانا، لعلّي ارتكبتُ جرماً يستوجب أن أقتل الآن؟

تبسم شمسٌ وقال: ماذا تقول يا رجيل، كنتم تريدون أن تقتلوني، لعلك لا تعلم أن المعرفة لا تموت بتاتا، وأن المصباح الذي أشعلته يد الحقيقة لا ينطفئ.

شمس المتعب المنهك، وقطرات الدم تنصب من جسده على الأرض، ترك قونيةً يهدوء تام إلى إحدى قرأها الخضراء، حيث كان قد عمل معلماً لوقتٍ طويل. كان شمسٌ مسروراً في داخله؛ لأن أعداءه لم يستطيعوا أن يتغلبوا عليه ويقتلوه. كان شمسٌ يعلم أن طهارة الذيل والتقوى والاستقامة والعرفان، لا يهزمها البتة المتواخون والمراؤون.

فيا عجباً، كل ذلك الألم، كل ذلك الدم، لم تستطع أن تزلزل إرادة شمس. الشمس التي كان شمسٌ شاهد طلوعها من المشرق، لم تتوقف حتى ليوم واحد عن الإشراق. الرسول القديم للعرفان، الذي كان ثملاً بخمرة الوخدة، نفّض غبار المجادلة عن وجهه وثيابه، وبالتدريج التأمت دماء جروحه. اللحظات المملوءة بالهيجان، التي تضحّب الانتقال من مكان إلى مكان آخر، إلى المكان الذي يُسلم فيه الرأس إلى تراب قدم عاشقٍ آخر، كانت قد حانت. وإذا ما أغلقت كل الأبواب في وجه العارف فإنه سيمضي إلى مختلى العشق. كان شمسٌ ينقل الخطأ إلى معبد العشق مُحَمَّلاً بالخواطر والحوادث، وكأنه في تلك الدقائق قد اطلع من طريق الإشراق والإلهام على أنه حتى الآن لم يحزن موته الظاهري. فأمامه مهمة أخرى، وعليه أن يمضي من قونية إلى مكانٍ غير معلوم. انزلق شعاع من الشمس، التي كانت

في الأفق في حال بُرُوعٍ، عَلَى جَبِينِ شَمْسٍ. اجْتَازَ آخِرَ تَلَّةٍ كَانَتْ تَفْصِلُ قُوْنِيَّةَ عَنْ قُرَاهَا. وفي هذا المكان تَوَقَّفَ قَلِيلًا، وَمَرَّةً أُخْرَى نَظَرَ بِإِمْعَانٍ إِلَى قُوْنِيَّةٍ، الَّتِي كَانَتْ مُضَاءَةً تَحْتَ أَنْوَارِ شَمْسِ الصَّبَاحِ الْمَشْرِقَةِ. انْهَلَتْ قَطْرَاتُ دَمْعٍ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَدَمَدَمَ: إِنَّ قُوْنِيَّةَ رَائِعَةٌ، أَمَّا خَلْوَةُ الْعِشْقِ فَأَجْمَلُ. [٣٤٢] بَعْدَ ذَلِكَ تَقَدَّمَ مُسْرِعًا نَحْوَ مَقْصِدٍ مَجْهُولٍ... وَقَدْ تَجَسَّمَتْ أَمَامَ عَيْنَيْهِ عَظَمَةُ الْعِرْفَانِ وَخُلُودُهُ، وَأَحْسَّ بِذَلِكَ مِنْ جَدِيدٍ مِثْلَ جَرَيَانِ الدَّمِ فِي عُرُوقِهِ وَجِلْدِهِ؛ كَانِ ذَرَّةً، وَبَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَعْذُ مَوْجُودًا.

كَانَ لَدَى مَوْلَانَا تَرْتَمُّ مُخْرِقٌ وَالْهَيِّ، فَسَأَلَ وَلَدَهُ عَلَاءَ الدِّينِ: لِمَاذَا عَقَدْتَ الْعَزَمَ عَلَى قَتْلِ شَمْسِ الدِّينِ؟ - أَنْكَرَ عَلَاءُ الدِّينِ ذَلِكَ وَقَالَ: إِنَّهُ حِفَاطًا عَلَى رُوحِ شَمْسِ الدِّينِ اضْطُرَرْنَا إِلَى أَنْ نُخْرِجَهُ لَيْلًا مِنْ قُوْنِيَّةٍ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَكَانَتْ حَيَاتُهُ فِي خَطَرٍ. وَعِنْدِي عِلْمٌ أَنَّهُ الْبَارِحَةَ اسْتَعَدَّ عَدَدٌ كَبِيرٌ لِقَتْلِهِ، وَخَرَجُوا مِنْ أَجْلِ الْفَتَكِ بِهِ.

مَوْلَانَا الَّذِي كَانَ قَدْ سَمِعَ صَدَى صِيَاحِ شَمْسٍ، سَأَلَ ابْنَهُ: هَلْ جُرِحَ شَمْسٌ؟ - وَعِنْدَمَا سَمِعَ إِجَابَةً بِالنَّفْيِ نَهَضَ مِنْ مَكَانِهِ، وَبِمُسَاعَدَةِ ابْنِهِ خَرَجَ مِنَ الْحُجْرَةِ الْمَظْلِمَةِ، وَتَحْتَ أَنْوَارِ النُّجُومِ كَانَ يَرَى بُقَعَ قَطْرَاتِ الدَّمِ فَوْقَ الْأَرْضِ.

انْحَنَى مَوْلَانَا، وَأَخَذَ يَشْتُمُّ قَطْرَاتِ الدَّمِ بِعِشْقٍ، وَبَعْدَ ذَلِكَ نَهَضَ مِنْ مَكَانِهِ وَقَالَ لِعَلَاءِ الدِّينِ الَّذِي كَانَ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمَشْهَدِ الْمُؤْلَمِ:

- يَا وَلَدِي، فِي الْمُسْتَقْبَلِ سَتَكُونُ حَيَاتُنَا مَمْلُوءَةً بِالدَّمَاءِ وَالْآلَامِ. لَكِنْ اْعْلَمْ، وَكُنْ مُطْمَئِنًّا، بِأَنَّ عِرْفَانَ الشَّرْقِ سَيَكُونُ مَزْدَهْرًا. أَنْتَ جَرَحْتَ إِنْسَانًا لِأَنَّهُ كَانَ مُنْشِدًا مَدِيحِ الْعِشْقِ، عِشْقِ الْحَيَاةِ وَالْإِيمَانِ بِالْإِنْسَانِ. وَفِي الْمُسْتَقْبَلِ سَأَقُولُ كَلَامًا وَأُنْشِدُ أَنَاشِيدًا؛ لِكَيْ يَغْرِفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْعَالَمِ شَمْسًا، كَمَا يَنْبَغِي وَيَلِيقُ بِمَقَامِهِ، وَيَتَحَسَّسُوهُ فِي

أعماق وجودهم. لا قُوَّةَ قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تَحْرِمَنِي مِنَ التَّعْرِيفِ بِفَضْلِ شَمْسٍ، وَتُسَدَّ طَرِيقَ مَقَاصِدِي الْعِشْقِيَّةِ. وَإِنَّهُ فِي مَشْرِبِ عِرْفَانِ الشَّرْقِ، يَمَثُلُ الْفِرَاقُ وَالْبِعَادُ وَالْهَجْرُ وَتَحْمَلُ الْأَلَمَ أَسَاسَ الْحَيَاةِ وَمَبْدَأَهَا. وَلَا يَوْجَدُ عَارِفٌ مِنْ دُونِ أَلَمٍ. وَنَحْنُ نَقُولُ:

ذَرَّةُ أَلَمٍ خَيْرٌ مِنَ الْآفَاقِ كُلِّهَا.

وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَضْرِبُ أَنْصَارَ الْعِرْفَانِ، سَيَتَقَوَّضُ أَسَاسُ وَجُودِهِ وَيَغْدُو عَلَيْهِ سَافِلُهُ. وَآسَفُ، أَيُّهَا الْابْنُ الْعَاقُ، لِأَنَّهُ كَانَ لَكَ إِسْهَامٌ كَبِيرٌ فِي إِبْلَامِ شَمْسٍ^(١) وَإِذْنَاتِهِ، وَهُوَ الْكَاشِفُ عَنِ الْعَالَمِ السَّرْمَدِيِّ وَالْمُتَحَدِّثُ كَثِيرًا عَنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، عَالِمٍ مَا وَرَاءَ الْمَادَّةِ. تُرِيدُ أَنْتَ بِلَا مُبَالَاةٍ أَنْ تُغْلِقَ مَدْرَسَةَ [٣٤٣] الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ إِلَى الْأَبَدِ. وَعَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْعِقَابَ الْإِلَهِيَّ قَرِيبٌ، وَأَنَّكَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ لَنْ تَكُونُوا مِنْ دُونِ نَصِيبٍ مِنْهُ.

شُوهِدَتْ أَمَارَاتُ الْخَوْفِ وَالْاضْطِرَابِ فِي وَجْهِ عَلَاءِ الدِّينِ، عَلَى نَحْوِ بَدَائِهِ أَنَّهُ كَانَ يُحْسِنُ بِأَنَّ الْأَرْضَ تَرْتَجُّ تَحْتَ قَدَمَيْهِ.

كَانَ عَلَاءُ الدِّينِ يَرْتَجِفُ... وَكَانَتِ الْأَرْضُ أَيْضًا تَحْتَ قَدَمَيْهِ تَبْدُو لَهُ كَذَلِكَ. لَمْ يَكُنِ الْمُتَظَاهِرُونَ وَالْمُرَاوُونَ قَادِرِينَ عَلَى الْإِحْتِفَازِ بِتَوَازُنِهِمُ الرُّوحِيَّ وَالْجِسْمِيَّ أَمَامَ عَظَمَةِ الْحَقِيقَةِ وَفَعَالِيَّتِهَا. إِنَّمَا أَظْهَرَ عَلَامَةً لِهَذَا الصَّنَفِ مِنَ الْأَفْرَادِ، الَّذِينَ لَا إِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، إِنَّمَا هِيَ الْوَخْشَةُ وَالْخَشْيَةُ.

كَانَ شَمْسٌ يَنْقُلُ الْخُطَا بَيْنَ أَنْغَامِ الطُّيُورِ وَتَحْتَ أَنْوَارِ شَمْسِ الصَّبَاحِ، نَحْوَ الْمَعْبَدِ الْجَدِيدِ لِلْعِرْفَانِ. كَانَ يُفَكِّرُ بِغَرَسَةِ الْعِرْفَانِ الْمُثْمَرَةِ الَّتِي غُرِسَتْ فِي قُوْنِيَّةٍ. وَقَدْ

١- الظَّلُّ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: «كَيْفَ مَذَالِظِلُّ» صُورَةُ الْأَوْلِيَاءِ

فَانصَرَفَ عَنِ الظَّلِّ، وَاطْفَرَ بِالشَّمْسِ:

لَأَنَّهَا دَلِيلُ نُورِ شَمْسِ اللَّهِ
تَعْلُقُ بِأَذْيَالِ الْمَلِكِ شَمْسِ الْتَّيْرِيزِيِّ
(الْمُتَنَوِّي: ٤٢٨/١، ٤٣٠)

امتزج في نفسه العشق والعِصمة والوجد والهيجان، بعضها ببعض. كان يفكرُ بالعشق، ينبوع الوجودات، وبخلود العرفان الإيراني الذي سيقى مَصُونًا من حوادث القرون والأعصار، كالججارة من الصَّوَان. استعادَ رُوحُ شمسٍ هدوءه، وبدأت لَحَظَاتُ الشوق والوجد، وبدأت الأشجارُ والرُّبا والجبالُ بالترقص، وابتعدت الغُصَصُ وضروبُ اليأس عن وجوده. كان شمسٌ يسيرُ نحوَ الراحة، وكأنه من كُلِّ خَيْطٍ شعاعٍ مُضيءٍ لِلشَّمْسِ أَخَذَ واحِدًا من أمثالِ جلالِ الدين يرقصُ أمامه متشّيًا مهتاجًا. على مَقَرَّةٍ من شمسٍ، أناسٌ وَقِحُونَ كانوا أضنامًا من عالمِ الناسوت يعزفون أنغامًا منسجمةً موزونة. صارَ العالمُ، كُلُّه، أمامَ عينيه، مَحَلًّا لِتَجَلِّي العشق. وفي تلك اللَّحَظَاتِ المملوءة بالهيجان، صارَ شمسٌ كالمرأة، التي بسببِ جاذبيتها انعكسَ فيها كُلُّ شيءٍ، كُلُّ محاسنِ الطَّبيعة، كُلُّ زوايا الدنيا الرَّمزية. كان دَوِيٌّ كَلامِ شمسٍ يُسَكِتُ كُلَّ أصواتِ الطَّبيعة، كان شمسٌ يَصِفُ الجَلالَ الإلهي.

في اليوم الذي بدأ فيه شمسٌ^(١) يتقلُّ من قونيةَ إلى مَصِيرٍ جديد، كان الصَّبْحُ الصَّادِقُ

١- هل قُتِلَ شمسٌ في قونية؟ لا يمكنُ الإجابةُ عن هذا السؤالِ صراحةً وبوضوح وقطع. وقد ذكر الأفلاكي في كتابه «مناقب العارفين» أنَّ سبعةَ أشخاصٍ من الحساد كانوا يَدًا واحدةً، وقد تواروا في كمينٍ لِيُقتلوا شمسًا. وعندما واتهم الفرصة طعنوا شمسًا بسكين. فأطلقَ شمسٌ صيحةً أفقدتهم وعيهم. وعبدُ الرحمن جاي في كتابه «نَفَحَاتُ الأَنَس» نَقَلَ عَيْنَ ما ذكره الأفلاكي، ويضيفُ إليه أنه عندما استعادت تلك الجماعةُ وعيها لم يَرَوْا غيرَ عِدَّةِ قَطَارَاتٍ دَمٍ، وأنه منذُ تلك السَّاعَةِ حتَّى اليومِ [اليوم الذي كَتَبَ فيه هذه المعلومات] لم يظهرَ لِشَمْسٍ أثرٌ. ثم بعدَ هَجْرَةِ شمسٍ شاعَ نَبَأُ قُتْلِهِ في قونيةَ ولكنَّ جلالَ الدين البَلخي وسلطانَ وَلَدَ لم يؤيِّدَا هذا الخبرَ. ولو أنه ثبتَ لَمَوْلَانَا أَنَّ شمسًا [٣٤٤] قُتِلَ في قونيةَ لما كَانَ سافرَ إلى دِمَشقَ البَتَّةِ من أَجْلِ لِقَاءِ معشوقه، ولم يَقَرَّ لَهُ قَرَارٌ في طَلَبِ مطلوبه. فإنَّ جلالَ الدين البَلخي، بعدَ ستَّةِ أَشْهُرٍ أَقامَ فيها في دِمَشقَ ولم يستطعْ أن يجدَ خلاصًا شمسًا، أدركه اليأسُ فعادَ إلى قونيةَ. وفي المِثْثَوِي (ج ١١٣/٢ - ١٥)، في هذا الشأن، جاء قولُه:

وها أَتَذْنا دَائِبُ الدَّوَرانِ حَوْلَ الشَّمْسِ، فما أَعْجَبَها! ولا سَبَبَ لهذا سِوَى جَلالِ الشَّمْسِ

وهذه الشَّمْسُ مُطْلِعَةٌ عَلَى الأسبابِ لكنْها غَيْرُ مُرتَبِطَةٌ بِجبالِ الأسبابِ =

لِلْعِرْفَانِ [٣٤٤] الشَّرْقِيِّ، الْعِرْفَانِ الْإِيرَانِي الْأَصِيلِ الَّذِي لَا نَهَايَةَ لِلْبَحْثِ فِيهِ، قَدْ بَرَّغَ.
 شَمْسٌ لَا يَمُوتُ، شَمْسٌ لَنْ يَمُوتَ، شَمْسٌ وَمَوْلَانَا سَيِّقِيَانِ خَالِدَيْنِ. هَذَا الْإِسْمَانِ
 سَيَذْهَبَانِ مِنْ قَارَّةٍ إِلَى قَارَّةٍ أُخْرَى، وَمِنْ مَجَرَّةٍ إِلَى مَجَرَّةٍ أَكْبَرَ، وَسَيَرَى الْعَاشِقُونَ فِي الْقُرُونِ
 وَالْأَعْصَارِ الْأَضْوَاءَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلْفِكْرِ السَّمَائِيِّ، فِي كَانُونِ فِكْرِ هَذَيْنِ وَأَثَارِهِمَا^(١):

لَوْ لَمْ يَكُنِ الْخَلْقُ مُحْجُوبِينَ كَثِيفِينَ
 وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْحُلُوقُ ضَّيِّقَةً ضَعِيفَةً
 لَأَعْطَيْتُ فِي مَدِيحِكَ حَقَّ الْمَعْنَى
 وَلَتَقَوَّهَتْ بِغَيْرِ هَذَا الْمَنْطَرِقِ
 وَإِنْ شَرَحَ أَخْوَالِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا كَالْغَيْبِ
 فَلَا كُتْمَهُ فِي دَاخِلِي كَأَنَّهُ سِرُّ الْعَشِقِ

= وقد قَطَعْتُ الْأَمَلَ آلَافَ الْمَرَّاتِ مِمَّنْ؟ - مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ! فَهَلْ تُصَدِّقُ قَوْلِي؟
 وقد ذَكَرَ سُلْطَانُ وَلَدِ ابْنِ مَوْلَانَا، فِي كِتَابِهِ «وَلَدُ نَامِهِ» قَوْلَهُ: عِنْدَمَا عَلِمَ شَمْسٌ بِعِدَاوَةِ حُسَايدِ قُوْنِيَّةِ الْخَطَرَاءِ
 وَمُؤَامَرَتِهِمْ، قَالَ فِي أَحَدِ الْآيَامِ لِمَوْلَانَا: هَؤُلَاءِ الْأَدْعِيَاءُ يَرِيدُونَ أَنْ يُعِدُونِي عَنْكَ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ مُمْكِنَةٍ، وَبَعْدَ
 ذَهَابِي يُظْهِرُونَ الْاِبْتِهَاجَ وَالسُّرُورَ، وَلَكِنْ:

أُرِيدُ هَذِهِ الْمَرَّةَ أَنْ أَذْهَبَ عَلَى نَحْوِ
 صَارُوا جَمِيعًا عَاجِزِينَ فِي الطَّلَبِ
 لَا يَعْلَمُ فِيهِ أَحَدٌ أَيْنَ أَنَا
 لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ أَيْنَ أَنَا
 وَبَغْتَةً ضَاعَ مِنْ بَيْنِ الْجَمِيعِ
 لِيَكُنْ تَذَهَبُ الْأَحْزَانُ كُلُّهَا مِنَ الْقَلْبِ

١ - كَتَبَ مُؤَلَّفُ كِتَابِ «بُستان السَّيَاحَةِ» فِي مَوْضُوعِ كَيْفِيَّةِ قَتْلِ شَمْسٍ، قَوْلَهُ: «يُحْكِي أَنَّهُ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي كَانَ
 شَمْسٌ التَّيْنِ يَتَحَدَّثُ فِي الْحُلُوةِ مَعَ مَوْلَانَا، وَيَرْفَعُ أَغْلَامَ الطَّرِيقَةِ فِي أَعَالِي الْحَقِيقَةِ، وَبَغْتَةً، أَشَارَ شَخْصٌ مِنْ
 خَارِجِ الْبَابِ إِلَى شَمْسٍ. فَقَالَ مَوْلَانَا: مَنْ؟ - فَقَالَ حَضْرَةُ شَمْسٍ: يَدْعُونَنِي إِلَى الْقَتْلِ. وَعِنْدَمَا خَرَجَ سَمِعَ مَوْلَانَا
 صِيحَةً، فَخَرَجَ مُسْرِعًا. وَعِنْدَمَا نَظَرَ، رَأَى قَطْرَةَ دَمٍ مُرَاقَةً. وَمِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى الْآنَ، بَقِيَ مِنْ شَمْسِ التَّيْنِ اسْمُ
 فَقَط، كَالْعِنَقَاءِ. وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: إِنَّ شَمْسَ التَّيْنِ قَالَ لِمَوْلَانَا فِي الْمَنَامِ: قُتِلْتُ وَالْقَيْتُ فِي بَثْرٍ. وَعِنْدَمَا اسْتَيْقَظَ
 مَوْلَانَا ذَهَبَ إِلَى بَثْرٍ وَأَخْرَجَ جَسَدَ يُوسُفَ مِصْرَ الْوَلَايَةِ مِنَ الْبَثْرِ، وَدَفَنَهُ فِي مَكَانٍ مَنَاسِبٍ». وَقَدْ شَاهَدَ كَاتِبُ هَذِهِ
 الْأَسْطُرِ فِي أَثْنَاءِ رَحَلَتِهِ إِلَى قُوْنِيَّةِ مَزَارِ شَمْسٍ، الْكَائِنَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَزَارِ مَوْلَانَا، الَّذِي هُوَ مَطَافُ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ

[٣٤٥] إِنَّ مَادِحَ الشَّمْسِ مَدَّاحٌ لِنَفْسِهِ، عَلَى الْحَقِيقَةِ
كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ عَيْنِي مُبْصِرَتَانِ، وَلَيْسَتَا رَمْدَاوَيْنِ
وَدَمُّ شَمْسِ الْعَالَمِ هُوَ دَمُّ لِّلنَّفْسِ
كَأَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ يَقُولُ: إِنَّ عَيْنِي عَمِيَاوَانِ مُظْلِمَتَانِ كَلِيلَتَانِ
وَإِنَّ مَذْحَكَ عِنْدَ الْمَسْجُونِينَ ظُلْمٌ لَهُ
فَعَلَيَّْ أَنْ أَنْطَلِقَ بِهِ إِلَى مَخْفَلِ أَهْلِ الرُّوحِ^(١)

بحث قصير في شأن ديوان شمس والمثنوي

أَحَدُ الْمُحَقِّقِينَ المدققين في شأن مَوْلَانَا قَدَّمَ مِثْلَ هذه الإفَادَةِ في شأن شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ مُلْكٍ دَاذَ التَّبْرِيزِيِّ: «نَعْلَمُ أَنَّ حَيَاةَ شَمْسٍ مَغْلُفَةٌ بِغِلَالَةٍ مِنَ الإِبْهَامِ، وَأَنَّ عِلَاقَةَ مَوْلَانَا بِهَذَا الرَّجُلِ الطَّاعِنِ فِي السَّنِّ إِحْدَى أَكْثَرِ الْوَقَائِعِ إثَارَةً لِلْعَجَبِ وَانْطَوَاءً عَلَى الْأَسْرَارِ...».

وَكُنْتُ أَدْرِي لِمَاذَا نَمَى هَذَا الْمُحَقِّقُ الْمُحْتَرَمُ مِثْلَ هَذَا الانْطِبَاعِ عَنْ صُوفِيَّيْنِ، أَوْ قَلَنْدَرَيْنِ^(١)، مَعَ مَا لَدَيْهِ مِنْ صَفَاءٍ فِي الذَّهْنِ وَالْأَلْمَعِيَّةِ، وَمَا رَسَمَهُ بِالْكَلِمَاتِ عَلَى صَفَحَاتِ الْوَرَقِ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ نَظَرَ بِعِنَايَةٍ إِلَى لَطِيفَةِ الْعِشْقِ الْغَيْبِيَّةِ، وَتَوَقَّرَ لَهُ الْإِطْلَافُ الْكَافِي عَلَى الْكِرَامَاتِ وَالْمَعْجَزَاتِ الَّتِي يَحَقِّقُهَا الْعِشْقُ، وَتَأَمَّلَ عِرْفَانِيًّا أَشْعَارَ مَوْلَانَا وَغَزَلِيَّاتِهِ، وَانْدَمَجَ بِالْأَمَالِ الْقَدِيمَةِ لِمَوْلَانَا وَتَجَارِبِهِ، [لَوْ حَصَلَ ذَلِكَ كُلُّهُ] لَمَا ظَلَّ لُغْزُ اللَّقَاءِ وَالْعِلَاقَةِ اللَّذَيْنِ حَصَلَا بَيْنَ ذَيْنِكَ الصُّوفِيَّيْنِ الْعَظِيمَيْنِ، اللَّذَيْنِ كَانَا - بِاعْتِرَافِ الْعَلَامَةِ جَلَالِ الدِّينِ هُمَائِي - مِنْ أَوْلِيَاءِ الْحَقِّ، خَفِيًّا عَلَى بَاحِثٍ حَقِيقِيٍّ. وَقَدْ كَانَ مِنْ كِرَامَاتِ شَمْسٍ أَنْ شَيْخَ بُلُخِ طَوَى بِمُسَاعَدَتِهِ الْمَسَافَةَ مِنْ مَقَامَاتِ التَّبَتُّلِ إِلَى مَقَامِ الْفَنَاءِ، دَرَجَةً دَرَجَةً. وَفِي النِّهَايَةِ، يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّهُ فِي شُعَاعِ آرَاءِ شَمْسٍ وَفِكَرِهِ يَجِيءُ قَوْلُ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ:

أَنَا الْحَاثِرُ مِنْ مُلَاقَاتِكَ

حَتَّى صِرْتُ كَخَيَالٍ مِنْ خَيَالِكَ

١- الْقَلَنْدَرُ: فَارِسِيَّةٌ، مَعْنَاهَا: ذُرْبُوشٌ مُتَجَرِّدٌ وَمَتَجَوِّلٌ، وَلَا يَنْتَسِبُ إِلَى طَرِيقَةٍ بَعَيْنَهَا [الْمُتَرَجِمُ].

وإن فكري وتصورِي مِنْ كلامِك

حتى كأن أَلْفاظَكَ وعباراتِكَ هي أنا

ومع هذا التفاوت بين الرجلين، لو لم يكن شمس موجوداً لما وجد الديوان الكبير وكتاب المثنوي، اللذان هما أكبر [٣٤٧] الآثار الخالدة في الأدب الفارسي، وأكثرها جدارة بالقراءة، وأعظمها قيمةً وقدرًا. وهذا جلال الدين في لحظات الوَلَه يصور وضعه النفسي في السير والسلوك بعشق وتحبب، على هذا النحو:

أفرك عيني متسائلًا: أهذا منام أم خيال؟!

لا أصدق، عجبًا أيها الحبيب، أن هذا أنا

نعم، هذا أنا، ولكن خرجت من «الأنا»

وأخذ جسمي يتحل حتى صرت كاللهال، من أثر بدرك

أنت نفخ صور القيامة، وأنا جسد مَبِت

أنت روح الربيع الجديد، وأنا السرو والسوسن

قلت أنا نصف الأمر، فقل أنت الباقي منه

أنت العقل المخض، وأنا غبي جدًا

رسمت أنا صورة، وإعطاء الروح من شأنك أنت

أنت روح روح الروح، وأنا قالب الجسد

ومع أن كتاب التذكير^(١) في عصر مولانا جلال الدين، كالأفلاكي وسپهسالار،

* - جمع تذكرة، ويعنى بها هنا المجموع، أو الكتاب، الذي تُجمع فيه تراجم الشعراء أو الأدباء أو المؤلفين أو الأولياء [المترجم].

ذَكَرُوا أَنَّهُ فِي السَّفَرِ الثَّانِي لِشَمْسٍ إِلَى قُوْنِيَّةَ وَاخْتِفَائِهِ بَغْتَةً انْزَعَجَ جَلَالُ الدِّينِ وَبَكَى وَنَاحَ وَاضْطَرَبَ، حَتَّى إِنَّ ابْنَهُ رَسَمَ بِالْكَلِمَاتِ وَبِمَقَاطِعِ الشَّعْرِ مَلَامَحَ وَالِدِهِ عَلَى هَذَا النُّحُو:

وَصَلَ صَوْنُهُ وَتَحَشَّرُهُ إِلَى الْعَرْشِ

وَسَمِعَ أَنَيْنَهُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ

انداح طوفان من الآلام والغصص والولـة في كُليـة وجود مولانا حتى إنه اضطر إلى أن ينشغل في جلـسات السَّماع بإنشاد الغزليات، أو ينهمك في حُجرة مُختلاه بالتضرع والدعاء. كأنما فراق شمسٍ وهجرانه كان يضطره إلى أن يتعشق خياله وصورته المحفوظة في ذهنه، ويكون فكره باحثاً في الموجودات عن معشوقه، أو - كما يذهب أحد الأقوال - كان شمس هو الذي يلقنه الشعر، ويشوقه إلى مجالس السَّماع، ويلهمه أشعاراً لأنها كانت تخرج من سويداء قلبه كانت تبدو بديعة ندية مثيرة للعشق. أو كما يقول الأستاذ الدكتور غلامحسين يوسفى: «... تصوّره في الشعر نضراً جميلاً بارعاً مثيراً للإعجاب! (١)».

كان مولانا، مثل فريد الدين العطار، طلاً وندى من البحر؛ لأنه غاص في بحر شمس. ويذهب بعض الباحثين إلى أن السَّماع والشعر وشمساً جعلت مولانا ناسياً نفسه، وجعلت وجوده وكلامه مثيراً ومنشطاً ومهيجاً، مثل أنين الناي. كان كانون [موقد] إلهامه نقاء العرفان ونداء المتعالي. أما رينولد ألين نيكلسون - المترجم والمفسر الإنكليزي الشهير الذي ترجم مثنوي مولانا إلى اللغة الإنكليزية وشرحه - فيعتقد أن المثنوي وديوان شمس يتدفقان من مجريين متبايعين؛ أحدهما نهر كبير وعظيم وهادئ وعميق، والآخر [٣٤٨] تيار كالسيل صاخبٌ مجلجل. والسؤال المعروف هو:

هل لقاء شمس وحال الجذب التي حصلت لمولانا بعد فراق سلطان المعشوقين هذا، هما اللذان استلزما أن يتنقل مولانا إلى عالم النظم والإنشاد؟
 عن هذا السؤال يجيب المرحوم الأستاذ جلال الدين هُمائي على هذا النحو:
 «... كتب بعضهم يقول: إن مبدأ ظهور شاعرية مولانا كان عندما ظفر بلقاء شمس. وقبل ذلك لم يكن ثمة أي ذكر لمرحلة شعر وشاعرية. وقد دل على ذلك أيضًا ظاهر كلام «مثنوي» سلطان ولد، حيث يقول:

صار الشيع المفتي، بسبب العشق، شاعرًا

صار ثملًا، مع أنه كان زاهدًا

ليس من الخمرة التي هي ابنة العنب

فإن الروح النوري لا يحنسي إلا خمرة النور

أما تصديق أن مولانا ظل حتى سن التاسعة والثلاثين خلوا من القدرة على إنتاج الشعر، وأنه ابتداء من ذلك العمر أعملت شعرية لها كل هذه القوة وتمكن الطبع والإحاطة بفنون البلاغة وأمارات الفصاحة، فيبدو في الظاهر أمرًا صعبًا. مع أن ظهور هذا النوع من خرق العادات هو بمدد توفيق الجذب الإلهي، وتأثير كيمياء العشق المعجزة التي يستتر فيها خاصية قلب الماهيات، وتسهل المشكلات، وتجعل الممتنعات ممكنة. ولا يمكن أيضًا إنكار أن العشق قد صنع من هذا الكثير، ويظل يصنع^(١). ولا يمكن وزن هذه الحقائق بميزان عقول الطائشين، وينبغي أن تُسمع الكلمات بحقيقتها.

١ - مقدمة المرحوم الأستاذ جلال الدين هُمائي لديوان شمس تبرز الذي أُضيدَ بعناية السيد منصور مُشفق [الأصل].

أما شيخُ = بلخ الذي يقولُ في ديوانه بلا مُبالاة:

لا تُلَمُّ أيتها الحبيبُ، انظرْ إلى يومِ القيامةِ

أنا موجُ، كُلِّي جِيشانُ، وَلَدَي دُرُّ بَحْرِك^(١)

هذا الصوفي المتيمُّ، الذي اقترنَ نجمُه بنجمِ شمسٍ = فيجيبُ سؤالَ الناسِ في شأنِ كيفَ تحوّلَ فقيهُ الرومِ الشرقيّةِ العاليِ القدرِ إلى شاعرٍ مُنشدٍ للغزل، على هذا النحو:

كَانَ الْمُصْصَحَفُ فِي يَدَي دَائِمًا

أما في المِشْقِ فَقَدْ أَمْسَكْتُ بِالصَّغَانَةِ^(*)

وفي الفمِ الذي كان فيه التَّسْنِيخُ

شِعْرٌ وَدُوبِيَّتٌ وَرُبَاعِي^(٢)

نعم، العِشْقُ والولّةُ والجذبُ والهجرانُ والتسليمُ والفناءُ في العِشْقِ، التي كانت قد امتزجتْ بالسَّماعِ، جعلتْ من فقيهٍ مشهورٍ شاعرًا مُنشدًا للغزل وعاشقًا محترقًا. وهذه المسألة - وَفَقَ قولِ مَوْلانا - لا يدركُها أيُّ إنسانٍ؛ لأنّه

[٣٤٩] لَيْسَ فِي وَسْعِ غُرٍّ أَنْ يَذْرَكَ حَالُ مَنْ أَنْضَجْتَهُمُ التَّجَارِبُ

فَلأَبْدَ مِنْ إِيْجَازِ الْكَلَامِ، وَالسَّلَامِ

منظوماتُ مَوْلانا لأَبْدَ مِنْ أَنْ تَكُونَ رِئَاجَ هَيْجَانٍ وَاشْتِيَاقٍ، وَجِيشَانُ الْعِشْقِ هُوَ الَّذِي هُوَ أَلْقَى شُعْلَةً فِي جِسْمِهِ وَرُوحِهِ، تَمَزُّجُ الْكَلَامِ وَالْأَصْوَاتِ؛ لِكَيْ يَتَحَادَثَ مَعَ الْمَحْبُوبِ مِنْ دُونِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ. وَعِنْدَمَا تَكُونُ هُنَاكَ آلَةٌ، كَالصَّنْجِ^(**)، يَعْرِفُ الْأَلْحَانَ

١- ديوان شمس تَبْرِيز، الغزالية ١٦١٢.

* - آلة موسيقية، وهذه الكلمة تعريبٌ للفارسية «جفانه» [المترجم].

٢- ديوان شمس تَبْرِيز، الغزالية ٢٣٥٢.

** - آلة بأوتار يُضْرَبُ بها، معربة «جنگ» الفارسية [المترجم].

المختلفة، ويخاطب سلطان المعشوقين شمساً على هذا النحو:

أَنْتَ الْخَمْرَةُ وَأَنَا الْإِبْرِيْقُ؛ أَنْتَ الْمَاءُ، وَأَنَا النَّهْرُ

فِي أَيِّ مَكَانٍ أَنَا ثَمْلٌ، وَسَاقِيٌّ هُوَ أَنْتَ؟

أَنْتَ الْأَذُنُّ، أَنْتَ الْعَيْنُ، وَمَنْ الْجَمِيعِ الْمَخْتَارُ هُوَ أَنْتَ

أَنْتَ يُوسُفُ الْمَشْرُوقُ، فَتَعَالَ إِلَى السُّوقِ

أَنْتَ ضِيَاءُ النَّهَارِ، أَنْتَ السُّرُورُ الْمَبْدُودُ لِلْغَمِّ

أَنْتَ الْقَمَرُ الْمَنِيرُ لِلَّيْلِ، تَعَالَ أَيُّهَا السَّحَابُ النَّاتِرُ لِلسُّكْرِ

مولانا في أثناء إنشاده الغزل، يكون كالقلم في يد شمس التبريزي، وهذا العشق الصوفي كان ينبعث في نفسه مع الاستماع لكلام معشوقه. ولو لم تظهر مخطوطات كتاب «مقالات شمس» بمساعي المستشرق الألماني هلموت ريتير والأستاذ عبد الباقي غلينارلي، في الذخائر الخطية لمكتبات تركية الكبيرة، لما علمنا من يكون شمس هذا، حتى جعله جلال الدين البلخي ذريعة لامتحان طبعه الشعري. وهو «حقيقة»، يعبث الفكر التي يعالجها... وكلامه - كما يقول الأستاذ محمد علي مؤحد [محقق المقالات] - مع كل ما ينطوي عليه من صور اضطراب ونقص، يتلأأ كالألماس وسط «المقالات». وابتغاء تقديم نموذج، أنقل هنا جملاً قابلة للتأمل من كلامه:

«يَقُولُ كَلِيمُ اللَّهِ: «أَرِنِي». وَعِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِأَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ أَخَذَ يَطْلُبُ:

«اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ» (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام). كَانَ يُرِيدُ مِنْ «أَرِنِي»

عَيْنُ: «اجْعَلْنِي مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ». عِنْدَمَا رَأَى شُعَاعَ رَجُلٍ اعْتَلَى ذَلِكَ الْجَبَلُ،

فَصَغُرُ الْجَبَلُ، قَالَ: لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِي، بَلْ: اجْعَلْنِي مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ.

قالوا: الآن، اذهب إلى حَضْرَةِ الْخَضِرِ لِعِدَّةِ أَيَّامٍ. الْخَضِرُ أَيْضًا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ». هُنَاكَ نُورٌ آخَرُ يُغَيِّرُ عَلَى مُوسَى وَالْخَضِرِ. تَنْظُرُ إِلَى عَيْسَى فَتَرَاهُ فِي ذَلِكَ النُّورِ حَيْرَانَ. تَنْظُرُ إِلَى مُوسَى فَتَرَاهُ فِي ذَلِكَ النُّورِ حَيْرَانَ. لِمُحَمَّدٍ نُورٌ طَمَعِي عَلَى الْأَنْوَارِ كُلِّهَا. فِي الْآخِرِ، انْظُرْ، هَلْ تَجِدُ أَنَّ تِلْكَ الْخَلْوَةَ وَذَلِكَ الذِّكْرُ مِنْ سُنَّةِ مُحَمَّدٍ وَمُتَابَعَتِهِ؟ نَعَمْ، كَانَ لِمُوسَى إِشَارَةٌ: «أَرْبَعِينَ لَيْلَةً». ثُمَّ، أَيْنَ مُتَابَعَةُ مُحَمَّدٍ حَتَّى لَا يَقْدِرَ مُوسَى عَلَى تَحْمِيلِ تَمَنِّيِّهَا، بَلْ يَقُولُ: «اجْعَلْنِي مِنْ أَهْدَابِ سَرَجِهِ»^(١).

عِنْدَمَا كَانَ مَوْلَانَا يَسْمَعُ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي يَأْتِي ذِكْرُهَا بِطَرِيقَةٍ عِرْفَانِيَّةٍ عَلَى لِسَانِ مُرَادِهِ، كَانَ [٣٥٠] يَرْفَعُ الصَّوْتَ وَيُنْشِدُ:

مَا أَجْمَلَ الشَّمْسَ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا، الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْهَا

أَأَنْتَ نُورُ ذَاتِ اللَّهِ، أَأَنْتَ اللَّهُ، لَا أَعْلَمُ

آلَافُ الْأَزْوَاجِ الْيَعْقُوبِيَّةِ تَظَلُّ تَحْتَرِقُ مِنْ هَذَا الْجَمَالِ

فَلِمَاذَا أَنْتَ، أَيُّ يُوسُفَ الْجَمِيلِينَ، فِي هَذِهِ الْبُحْرَى، لَا أَعْلَمُ^(٢)

وَمِنْ شُعَاعِ الْعِشْقِ، كَانَ رُوحُ جَلَالِ الدِّينِ يَغْدُو أَكْثَرَ إِشْرَاقًا، وَكَانَ يَتَخَلَّصُ مِنْ

نَفْسِهِ، وَيَخَاطِبُ كَانُونَ إِلَهَامِهِ وَإِشْرَاقِهِ:

فِي كُلِّ لَحْظَةٍ يَصِلُ نِدَاءُ الْعِشْقِ مِنَ الْيَسَارِ وَالْيَمِينِ:

نَحْنُ نَمْضِي إِلَى الْفَلَكَ، فَمَنْ لَدَيْهِ عَزْمٌ عَلَى الْفَرَجَةِ وَإِمْتِنَاعِ النَّظَرِ؟

١- مقالات شمس، ص ٢٨٤.

٢- ديوان شمس تَبْرِيز، الْغَزَلِيَّة ١٤٣٧.

فَقَدْ كُنَّا فِي الْفَلَكِ، كُنَّا أَصْحَابًا وَأَصْدِقَاءَ لِلْمَلِكِ

وَمِنْ جَدِيدٍ، نَذْهَبُ جَمِيعًا إِلَى عَيْنِ الْمَكَانِ، فَتِلْكَ مَدِينَتُنَا

نَحْنُ أَسْمَى مِنَ الْفَلَكِ، وَعِنْدَنَا زِيَادَةٌ عَلَى الْمَلِكِ

فَلَمَّاذَا لَا نَتَجَاوَزُ الْاِثْنَيْنِ، إِنَّ مَنَزِلَنَا هُوَ الْكَبِيرِيَاءُ

الْحَظُّ الشَّابُّ حَيِينًا، وَبَذَلُ الْمُهْجِ عَمَلُنَا

وَأَمِيرُ رَكْنِنَا فَخْرُ الدُّنْيَا، الْمُصْطَفَى^(١)

كان العِشْقُ، عِنْدَ فَتَاهِ الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ، كَالْمِعْرَاجِ إِلَى سَقْفِ سُلْطَانِ الْجَمَالِ، فَقَدْ

كَانَ الشَّيْخُ التَّبْرِيزِيُّ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، يُنْسِكُ بِيَدِهِ وَيَأْخُذُهُ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ.

وَفِي شَأْنِ «الْمَقَالَاتِ»، الَّتِي صَارَ جَلَالُ الدِّينِ بِالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهَا مِنْ لِسَانِ مُرَادِهِ مُشْتَتَاتِ

الدِّهْنِ وَمَتَغَيِّرًا، هُنَاكَ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ أَرْجَنُهَا إِلَى طَبْعَتِي الثَّانِيَةِ لِلْكِتَابِ. وَأَخْتِمُ هَذَا الْقِسْمَ

بِشَيْءٍ مِمَّا كَتَبَهُ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ مُؤَخِّدٌ [مُحَقِّقُ كِتَابِ «مَقَالَاتِ شَمْسٍ»]:

مَقَالَاتُ شَمْسٍ مِنْ نَاحِيَةِ طَلَاوَةِ الْكَلَامِ فِي أَوْجِ الْكَمَالِ، وَتُعَدُّ مِنْ أَجْمَلِ التَّحْفِ

الْخَالِدَةِ فِي النَّثْرِ الْفَارْسِيِّ، وَأَكْثَرُهَا خِلَابَةً وَسِحْرًا. أَمَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْمَعْنَى فَهِيَ

كَثْرٌ قَدْ وَوُثِقَتْ مُوَفَّقَةٌ وَعَزِيزَةٌ جَدًّا لِرَجُلٍ عَظِيمٍ كَانَ مَوْلَانَا يُسَمِّيهِ «مَوْلَى

الْأَسْرَارِ»^(٢) وَ«سُلْطَانِ الْمَعَانِي»^(٣)، وَكَانَ يَرَى نَفْسَهُ فِي مَقَامِ التَّسْلِيمِ وَالْخُضُوعِ

١- ديوان شمس تبريز، الغزالية ٤٦٣.

٢- مولى أصحاب الأسرار الذي يظلل يغطي السعداء السعادة

هو قرار الروح شمس الدين التبريزي فلا جعل الله لروحي ابتعاداً عنه

٣- السجود كله، أوجهه وحضيضه، لشمس الدين سلطان المعاني

له كالحَمَلِ الْوَدِيعِ فِي يَدِ الرَّاعِي^(١). وهذه الوثيقة حاملةٌ لرسالةٍ جَعَلَتْ مَوْلانا عَارِفاً مِنْ طِرَازِ خَاصٍ^(٢)، وهي - تَحْقِيقاً - مِفْتَاحٌ لِفَهْمِ آثارِهِ الشَّرِيفَةِ، وَجَوْهَرٌ - مَعَ كُلِّ مَا فِيهِ مِنْ تَكْشُرٍ - يُقَدَّرُ بِآلَافِ الدَّنَانِيرِ الْكَامِلَةِ الْعِيَارِ.

[٣٥١] فَلِنَمْنُصِ إِلَى غَرَضِنَا، وَلِنَتَحَدَّثْ عَنْ «دِيوانِ شَمْسٍ»، الَّذِي شَغَلَ لِرَمَنْ طَوِيلَ سَالِكِي طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ فِي كُلِّ مُشْرَبٍ وَمَسْلَكٍ، خَاصَّةً طَالِبِي اللَّطِيفَةِ الْغَيْبِيَّةِ، الْمُسَمَّاةِ: الْعِشْقِ الصَّرْفِ. أُولَئِكَ الَّذِينَ، مِثْلَ مَوْلانا، «سَكِرُوا مِنْ جَامِ عِشْقِ شَمْسِ الَّذِينَ»^(٣). فَهُوَ دِيوانُ الْجَذْبِ وَالْهَيْجَانِ وَالْحَالِ، الَّذِي كَانَ يَسْكُبُ الْأَنْوَارَ الْمَرْقِصَةَ لِشَمْسِ الْعِشْقِ الْمَشْرِقَةِ الْمُتَقَدِّةِ عَلَى كَلِمَاتِهِ وَمَصَارِيحِهِ^(٣).

وَفِي أَكْثَرِ غَزَلِيَّاتِ «دِيوانِ شَمْسٍ» يُطَالَعُنَا إِمَّا مَلَامُحُ شَيْخِ تَبْرِيزِ الرَّمْزِيَّةِ، وَإِمَّا أَخْبَارُ صَلاحِ الدِّينِ زَرْكُوبٍ، وَإِمَّا مُحَيَّا حُسامِ الدِّينِ جَلْبِي الْمَحْبُوبِ. وَهُوَ - فِي رِوَايَةٍ - اِنْعِكَاسُ لِرُوحِ مَوْلانا الْمُضْطَرَّبِ وَجَسَدِهِ الْمُتَعَبِ مِنَ الْهَجْرِ. وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ، يُمْكِنُ قَطْعاً الْقَوْلُ: إِنَّ هَادِيَّ جَلالِ الدِّينِ فِي إِنْشَادِ الْغَزَلِيَّاتِ الصَّافِيَةِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْمَحَبَّةِ هُوَ رُوحُ الْعُشَّاقِ، الَّذِي كَانَ قَدْ رَسَخَ فِي رُوحِ مَوْلانا الْمُضْطَرَّبِ، وَكَانَ قَلْبُهُ الْمَفْعَمُ بِالْعِشْقِ تَحْتَ تَصَرُّفِ هَذِهِ الْغَزَلِيَّاتِ. الشَّعْرُ فِي مُعْجَمِ مَوْلانا لَيْسَ رَفْصاً بِالْكَلِمَاتِ، وَلَيْسَ أَشْبَاحاً

١ - يَا مَنْ أَنْتَ يَدَاءُ وَدَعْوَةٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ
كُنَّا مُنْتَظِرِينَ لِكَلَامِكَ
فَارْعِنَا بِمَحَبَّةٍ وَرَحْمَةٍ
يَا مَنْ جِئْتَ لِيَكُنْ تَدْعَوِي
فَعُدْ إِلَيْنَا، إِنَّكَ رَسُولٌ مِنَ اللَّامِكِ

* - يَرِيدُ: جَعَلَتْ مَوْلانا عَارِفاً مُتَمَيِّزاً [الْمُرْتَجِمَ].

٢ - تَغْدُو تَيْمَلًا مِنْ جَامِ عِشْقِ شَمْسِ الدِّينِ
إِذَا كُنْتَ مِنَ الْجُمْلَةِ تَبْرِي الْقُلُوبِ

٣ - أَتَيْهَا السَّاقِ، أَيْنَ ذَلِكَ اللَّطْفُ يَوْمَ أَنْ كُنْتَ - كَالشَّمْسِ -
تَسْكُبُ التَّوَرَ الْمَرْقِصَ فِي الدَّرَاتِ

(دِيوانِ شَمْسِ)

وخيالاتٍ، بل هو تأثراتٌ إلهاميةٌ، فيضٌ خالدٌ وثابتٌ للعشق، العشق لكانون الحقيقة، لنور الأنوار، العشق للجَمال، وأخيرًا: العشق للإنسان الكامل.

وليس شمسٌ وخذَه على هذه الحال، بل كثيرٌ من الأشخاص الذين بعد هجران شمسٍ لمولانا كان نور المعرفة يتلألأ في نواصيهم، وكانوا قد نالوا من فيض رؤية الباطن مقاماتٍ، كانوا يطبِّرون بروح مولانا الظامئ المعنى المضطرب إلى شرفة العرش. وقد انعكست هيجانات هذه الدقائق المؤثرة في ديوان شمس. المفهومات التي كان يحس بها ولم يستطع أن يوح بها للآخرين، كانت تُهمُّهم في السماع الخالق للروح. ويقول أحد المتعمقين في درس مولانا:

«ديوان شمسٍ كالبحر، زاخرٌ بالحركة موارٍ بالحياة».

«وتحت الظاهر لمعانٌ وهُدوءٌ دنيويٌّ مملوءٌ بالخفقان والحياة والحركة».

«ينطوي على كل ما هو مستحيلٌ في الحياة!».

[٢٥٢] وابتغاء التمثيل وتقديم النموذج، أخذ بيد القارئ القوي القلب إلى مدار

عشق شمسٍ ومولانا:

هذا هو ذلك النهار الذي يُديرُ الفلك الأزرق

هذا هو ذلك الوجه الذي يحيرُ القمر والزهرة

هذا هو نوح الذي لوح المعرفة سفينة

وكل من لا يدخل إلى سفينة يغرقه بالطوفان

وكل من يرتدي خرقة، منه، يرفع خرقة الفلك

وكل من يظفر بلقمة منه، يجعل له حكمة لقمان

وهذا الكلام ماءٌ مِنْ بَحْرِ الْعِشْقِ، الَّذِي لَا ضِفَافَ لَهُ
وما دامَ يُعْطِي الْعَالَمَ ماءً، يَظَلُّ يَجْعَلُ لِلْأَجْسَامِ أَزْوَاحًا
وَإِذَا تَقَدَّمَتْ فِي طَرِيقِ الْعَاشِقِينَ بِالْفَقْرِ وَالصَّدَقِ

جَعَلَكَ شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ مُصَاحِبًا لِلرِّجَالِ^(١)

وقد حَدَّثَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنَّ زَيْنَ دِيوَانَ شَمْسٍ فِي الْهِنْدِ بِحُلِيَّةِ الطَّبَعِ. وَالْمُؤَسِّفُ أَنَّ
هَذَا الدِّيَوَانَ الْمَشْتَمِلَ عَلَى خَمْسِينَ أَلْفَ بَيْتٍ مُتَدَاخِلٌ مَعَ أَشْعَارِ شُعْرَاءَ آخَرِينَ، وَمِنْ
ذَلِكَ أَنَّ مِثْقَالَ غَزَلِيَّةٍ مِنْهُ لِشَاعِرٍ اسْمُهُ شَمْسُ الْمَشْرِقِيِّ. لَكِنْ اثْنَيْنِ مِنَ الْأَسَاتِذَةِ
الْمَشْهُورِينَ وَالْمَدَقِّقِينَ فِي دَرْسِ مَوْلَانَا الْقَلِيلِيِّ النَّظِيرِ فِي بِلَادِنَا، أَيِ الْمَرْحُومَيْنِ بَدِيعِ
الزَّمَانِ فُرُوزَانَفَرٍ وَجَلَّالَ الدِّينِ هُمَائِي، نَشَرَا دَائِرَةَ مَعَارِفِ الْعِشْقِ هَذِهِ بَعْدَ مُقَابَلَةٍ أَكْثَرَ
مَخْطُوطَاتِ الدِّيَوَانِ الْكَبِيرِ ثِقَةً وَضَبْطًا، وَقَدَّمَ كُلُّ مِنْهُمَا لِطَبْعَتِهِ بِمُقَدِّمَةٍ مُسَهِّبَةٍ وَخَلِيقَةٍ
بِالْقِرَاءَةِ. وَقَدْ جُدِّدَتْ طِبَاعَةُ نُشْرَتَيْهِمَا مَرَّاتٍ حَتَّى الْآنَ، بِسَبَبِ نَقَادِ النُّسخِ الَّتِي تُطْبَعُ
فِي كُلِّ مَرَّةٍ. وَعِدَّةُ آيَاتٍ مِنْظُومَاتِ مَوْلَانَا الْغَزَلِيَّةِ بِالْفَارْسِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالْمُلَمَّعَاتِ^(٢)،
عَدَا الرُّبَاعِيَّاتِ، ٣٦٣٦٠ بَيْتٍ. أَمَّا رُبَاعِيَّاتُ مَوْلَانَا فَقَدْ نُشِرَتْ بِعِنَايَةِ الْمَدَقِّقِ الْمَشْهُورِ
فِي دَرْسِ مَوْلَانَا الْمَرْحُومِ الْأَسْتَاذِ أَلْفَتِ.

١- دِيَوَانُ شَمْسِ تَبْرِيزِي، الْغَزَلِيَّةُ ٧٣٠.

* - شَكْلُ شِعْرِي فَارِسِيٍّ، يَكُونُ أَحَدُ مِضْرَاعِي الْبَيْتِ فِيهِ فَارِسِيَّةٌ، وَالْآخَرُ عَرَبِيَّةٌ، أَوْ يَكُونُ فِيهِ بَيْتٌ بِالْفَارْسِيَّةِ
وَالْآخَرُ بِالْعَرَبِيَّةِ [الْمُتَرْجِم].

المثنوي دائرة معارف التصوف والعرفان

المثنوي أكثر تجليات الذوق العرفاني لجلال الدين الرومي جدارة بالقراءة وامتلاء بالهيجان وقُدرة على التعليم. ويبدأ الكتاب الأول (*) منه برواية باعثة على الاعتبار لشكوى الناي من الفراق حتى نهاية الكتاب السادس، إذ يتناول قصصًا متنوعة وجديرة بالقراءة متداخلة، مبنية على أساس اللطيفة الغيبية المسماة العشق، الذي هو طيب لجُملة عِلل الإنسان ودواء للغرور والكبر.

وعند كثير من المدققين في درس مولانا، الأساس والمخوّر لمدرسة مولانا أسلوبًا ومقصودًا هو ركيزة العشق، الذي يعطي لِسالكِي الطريق المولوي الهيجان والدوران والنماء والنشاط والضياء. فبعد أن عاد جلال الدين من دمشق، إذ شاهد شخصية شمس في نفسه، انشغل بالسماع والرقص إلى جانب مُغني المدينة، ولم ينشغل بالمطالعة ونشر المعارف إلا في ساعات الراحة. ولهذا السبب، لم يتمكن من مساعدة الطالبين وإرشادهم. ومن هذه الوجهة، كان يريد أن يحوّل أداء هذه الوظيفة إلى واحد من مُحبّيه الذين يُعتمدُ عليهم وأهل الورع والتقوى، فوقع الاختيار على صلاح الدين فريدون زركوب، الذي كان رجلاً عاديًا وأمّيًا. وقد كتب الأستاذ الدكتور عبد الحسين زرين كوب في هذا الشأن قوله:

«كَانَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ مُرِيدِي سَيِّدِ بُرْهَانَ الدِّينِ مُحَقِّقٌ وَمُحِبِّهِ. وَيَقُولُ الْأَفْلَاكِيُّ: إِنَّ سَيِّدَ بُرْهَانَ عِنْدَمَا كَانَ قَدْ قَالَ: «أَسْلَمْتُ» قَالِي «إِلَى مَوْلَانَا جَلَالِ

* - كتاب «المثنوي» لمولانا جلال الدين الرومي - رحمه الله - مؤلف من ستة كتب، أو أجزاء [المترجم].

الدين و [٣٥٤] «حالي» إلى الشيخ صلاح الدين... جعل مولانا صلاح الدين خليفته. وقد جاءت هذه القضية على المریدین، الذين كانوا يزرون أن زركوب ساذج وبسيط وعامي، ثقيلة قاسية»^(١).

وكان كثيرون من محبي مولانا، وحتى من أخلاصه، يزرون أن زركوب غير مؤهل لإرشاد السالكين. وقد ذكر سلطان ولد، ابن مولانا، في كتابه «ولذ نامه» قوله: «كان عاميًا خالصًا، وساذجًا وجاهلًا، والحسن والسيئ عنده سريان. كان لدى مولانا إيمان راسخ بصلاح الدين، وقد حدث أنه كلما ازداد احترام مولانا إياه وإكرامه، ازدادت عداوة الناس له. وفي إجابة مولانا عن سؤال أصحابه، الذين كانوا يقولون: «إن زركوب رجل أمي»، كان يقول اقتباسًا من أقوال العارفين السابقين: «العلم هو الحجاب الأكبر». وأنشد مولانا في المثنوي:

لا يكتُبُ أحدٌ على ورقة مكتوبة، البتة

ولا يغرسُ أحدٌ فسيلةً في موضع مفروس

فالكاتبُ يبحثُ عن ورقةٍ غيرِ مكتوبةٍ

والغارسُ يَضَعُ البذرةَ في موضعٍ لم يُبَذَّر فيه

فكن، أيها الأخ، موضعًا لم يغرس فيه أحدٌ

كن ورقةً بيضاء لم يكتب عليها أحدٌ شيئاً^(٢)

في وقت من الأوقات، زادت علاقة مولانا بصلاح الدين عن الحد، حتى إنه في سوق الصاغة في الروم الشرقية استبد به حال فأخذ يدور أمام دكان صلاح الدين،

١- من كتاب «جستجودر تصوف ایران»، ص ٢٩٩.

٢- المثنوي: ١٩٦٣/٥ - ٦٥.

فَخَرَجَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ دُكَّانِهِ صَائِحًا، ثُمَّ عَلَى وَقَعِ مَطَارِقِ صُنَاعِهِ انشَغَلَ مَوْلَانَا بِالسَّمَاعِ. وَقَدْ امْتَدَّ هَيْجَانُ مَوْلَانَا الْعَجِيبُ هَذَا لِسَاعَاتٍ، إِلَى أَنْ نَالَ التَّعَبُ مِنْ صَلَاحِ الدِّينِ، فَاسْتَأْذَنَ حَضْرَةَ مَوْلَانَا قَائِلًا: لَيْسَ لَدَيَّ طَاقَةُ السَّمَاعِ الَّتِي لَدَى مَوْلَانَا؛ ذَلِكَ أَنِّي ضَعُفْتُ مِنْ تَأْثِيرِ الرِّيَاضَاتِ وَالْمُجَاهَدَاتِ..

وَبَعْدَ شَمْسٍ كَانَ مَوْلَانَا مُوَلَّعًا بِصَلَاحِ الدِّينِ، الَّذِي أُنْشَدَ بِاسْمِهِ وَاحِدَةً وَسَبْعِينَ غَزَلِيَّةً، وَأَمَرَ ابْنَهُ سُلْطَانَ وَلَدَ بَانَ بِتَزْوِجٍ مِنْ كَرِيمَةِ الشَّيْخِ صَلَاحِ الدِّينِ، «فَاطِمَةُ خَاتُون». وَقَدْ حَصَلَ هَذَا الزَّوْاجُ عَامَ ٦٤٧ هـ. وَلَمَدَّةَ عَشْرَةِ أَعْوَامٍ، ظَلَّ صَلَاحُ الدِّينِ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى أَمْرَ إِرْشَادِ الْمُرِيدِينَ وَأَعْمَالِ الشَّيْخِ، إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَامَ ٦٥٧ هـ. وَأَوْصَى قُبِيلَ وَفَاتِهِ بِأَنْ لَا يُعْمَلَ عَزَاءٌ فِي مَرَاسِمِ تَشْيِيعِ جِنَازَتِهِ، وَأَنْ يُوَارَى الثَّرَى عَلَى صَوْتِ السَّمَاعِ^(١). وَيَذْكُرُ كِتَابُ التَّذَاكِيرِ [٣٥٥] الْمَعَاصِرُونَ لِمَوْلَانَا فِي هَذَا الشَّأْنِ قَوْلَهُمْ:

«... قَدَّمَ مَوْلَانَا، فَكَشَفَ عَنْ رَأْسِ صَلَاحِ الدِّينِ، وَأَخَذَ يَنْعُرُ [يَصِيحُ بِخَيْشُومِهِ] وَيَتَأَوَّهُ، وَأَمَرَ بِأَنْ يَبْشُرَ قَارِعُو الطُّبُولِ. وَقَامَتِ الْقِيَامَةُ مِنْ نَفِيرِ النَّاسِ. وَكَانَ يَتَقَدَّمُ الْجِنَازَةَ ثَمَانِي مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الْقَوَالِينِ [الْمَغْنِيِّنَ]، وَحَمَلَ جِنَازَةَ الشَّيْخِ الْأَصْحَابُ الْكِرَامُ، وَظَلَّ مَوْلَانَا يَمْشِي حَتَّى ضَرِيحِ وَالِدِهِ، بِهَاءَ وَلَدٍ، وَهُوَ يَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ وَيُنْشِدُ. وَدُفِنَ فِي جِوَارِ سُلْطَانَ الْعُلَمَاءِ [وَالِدِ مَوْلَانَا] فِي عَامِ ٦٥٧

١- جَاءَ فِي كِتَابِ «وَلَدْنَامَةِ» قَوْلُ سُلْطَانَ وَلَدٍ:

قَالَ الشَّيْخُ: فِي جِنَازَتِي	أَحْضِرُوا الطُّبُولَ الْكَبِيرَةَ، وَاضْرِبُوا عَلَى التَّفُوفِ
وَامْضُوا نَحْوَ قَبْرِ رَاقِصِينَ	مَبْتَهِجِينَ مَسْرُورِينَ لَيْلِينَ مُصَفِّقِينَ
لِيُغْلَمَ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ	يَمْضُونَ إِلَى اللَّقَاءِ مَسْرُورِينَ ضَاحِكِينَ

من الهجرة. وأنشد مولانا في رثائه شعراً، بيته الأول قوله:

يا مَنْ مِنْ هِجْرَانِكَ بَكَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ

وَجَلَسَ الْقَلْبُ وَنَطَ الدَّمُ، وَبَكَى الْعَقْلُ وَالرُّوحُ

ويقال إن مولانا وجد في جوار صلاح الدين هُدوءاً، الذي إبان فراق شمس أحاط بأساس روحه وجسده. ويبدو الأمر كما يقول الأستاذ بديع الزمان فروزانفر: «تلك النار التي اشتعلت في روح مولانا بافتقاد ضحية شمس واضطربت، انطفأت بماء لطف صلاح الدين وتسكاب فيضه»^(١).

ثم بعد وفاة صلاح الدين بعدة سنوات، كان لشابٍ ممتليء بالهيجان والحال ومطلع وورع - كان هذا الشاب من أبناء الأخيين، أو فتيان قونية، واسمه حسام الدين حسن چلبی، وكانت أسرته قد جاءت من أرمية إلى الروم الشرقية - أن يصبح خليفة لصلاح الدين زركوب، بموافقة مولانا وأصحابه. والمعروف أنه باقتراحه هو ورغبته، نظم مولانا كتابه «المثنوي». ولهذا السبب، سمي مولانا حسام الدين في مقدمة المثنوي: «مفتاح خزائن العرش، وأمين كنوز الفرش، وأبا يزيد الوقت، وجنيد الزمان». ومن وجهة أخرى، كانوا في قونية يسمون هذا الشاب «أخي ترك»؛ لأن آباءه وأجداده كانوا من الكبراء والمشايخ في طريقة «الفتوة». وكان الفتيان يسمون شيخهم «أخي».

وقد بلغ من محبة مولانا لحسام الدين، الذي صار هو ومريدوه من جملة أصحاب مولانا وأخلاصه، أن صار ذهنه - كما يقول الأستاذ فروزانفر -: «لا يفتح

عندما لا يكونُ چلبی موجودًا، وفي المجلس الذي يغيبُ عنه چلبی كان الفتورُ يُلَمَّ بِمُولانا، ولا يتحدثُ في المعرفة»^(١).

في يومٍ من الأيام، إذ كان حُسامُ الدين جالسًا في محضرٍ مراده مُولانا، خاطبَ مُولانا قائلًا:

«كثيرًا ما انشغل أصحابنا في المجالس بِقراءة أشعار سنائي والعطار، ولَدَيَّ رغبةٌ في أن يعملَ حضرةُ مُولانا - على طريقة كتابِ «إلهي نامه» لِسنائي الغزنوي، وهو المعروف بِـ «حديقة الحقيقة»، أو كتابِ «منطق الطير» لفريد الدين العطار - على نظمِ المطالبِ العرفانية شعرًا.

فابتسمَ مُولانا، وأخرجَ من عِمَامَتِهِ، حالًا، وَرَقَةً تنطوي على الثمانية عشر بيتًا الأولى من المثنوي، وأسلمها إلى حُسامٍ لكي يقرأها، ويبدو الأمرُ كما يقولُ الأستاذُ زَرِين كُوب: «... وبعدَ ذلكَ واصلَ مُولانا نظمَ المثنوي بتأثيرِ قُوَّةِ جَذْبِ حُسامِ الدين، وكلُّ ما كان مُولانا يقوله، كان حُسامُ الدين يكتبه»^(٢).

وفي مُقابلِ كتابِ «حديقة الحقيقة» لِسنائي، الذي كان اسمه «إلهي نامه»، سَمَّى مُولانا كتابه المثنوي: «حُسامي نامه» [بالفارسية بِمعنى «الكتاب الحُسامي»]، أو «كتاب حُسام». وفي اللَّيالي، كان حُسامُ الدين يجلسُ في حُجرة مُولانا: يكتبُ ويقرأُ بصوته الجميل ما كان مُولانا يتلوهُ عليه مِن نظمِ المثنوي. وفي بعضِ اللَّيالي، كان هذا البرنامجُ يستمرُّ حتَّى الصُّباح. وكانَ أهَيَّجانَ مُولانا وتوفُّره قد بدأ من جديد، إذ لم يكنْ يَقْرَأُ له قراءٌ، لا نهارًا ولا ليلاً.

١- نفسه، ص ١١٤.

٢- جستجو در تصوف ایران، ص ٢٩١.

ويعتقد الأستاذ الدكتور محمد شفيعي كذكني أن «المثنوي» أشهر مثنوي في اللغة الفارسية؛ إذ جعل مُطلقَ عنوان «مثنوي» خاصاً به. لأنه أثرٌ عظيمٌ يُذكر إلى جانب الكتب المقدسة. وهو أيضاً من جهة البداية والنهاية وامتلاك نظم خاص خارج عن كل أنظمة التصنيف والتأليف، وكذا من جهة عرض المطالب وطريقة التمثيل، ينطوي على شبه بالكتب المقدسة^(١).

وإذا ما شئنا تقسيم منظومات جلال الدين البلخي على مدرستين: العقل والعشق، أو القول والحال، فإننا نستطيع أن نسمي «المثنوي» كتاب القول المستطاب، و«ديوان شمس» كتاب الحال والعشق والهيام. ويقول الأستاذ جلال الدين هُمائي:

إِنَّ آخِرَ كِتَابٍ لِمَدْرَسَةِ الْعِشْقِ هُوَ دِيْوَانُ غَزَلِيَّاتِ شَمْسٍ، وَهُوَ هُنَا لَا يَرِيدُ إِلَّا الْعِشْقَ وَالْاضْطِرَابَ وَالْجُنُونَ وَالْوَجْدَ وَالْحَالَ وَالْهَيْجَانَ وَالضَّجِيجَ... وَقَدْ أَحْرَقَتْ حَرَارَةُ شَمْسٍ نَجَلِي شَمْسٍ دَفْعَةً وَاحِدَةً كُتَيْبَةً وَجُودَ مَوْلَانَا، بِكُلِّ مَا انطوى عَلَيْهِ مِنْ ادِّعَاءِ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ وَكَرَامَةِ الشَّيْخِيَّةِ وَالْقُطْبِيَّةِ وَالْإِمَامَةِ^(٢).

وإذا ما حَدَّثْنَا مِنَ المثنوي الحكايات الجذابة الخليفة بالقراءة، التي سَمِعَ أَغْلِبُهَا مِنْ شَمْسٍ التَّبريزي [٣٥٧] ووردت في كتابه «المقالات»، فَإِنَّ صَرَخَ المثنوي سَيَكُونُ مِنْ دُونِ أَعْمَدَةٍ.

وفي الأصل، المثنوي في الأدب والثقافة الفارسيين يُقال شِعْراً، إذ لِكُلِّ مِنْ مِصْرَاعِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ عَيْنُ الْقَافِيَةِ، وَيَكُونُ مَجْمُوعُ الْأَبْيَاتِ مَتَّحِداً مِنْ جِهَةِ الْوِزْنِ.

١- من مقدمة «گزیده غزلیات شمس»، ص ١٤.

٢- من مقدمة الأستاذ جلال الدين هُمائي لديوان شمس تبريزي، ص ٥٣.

ولناظمي المثنوي في إيران سابقة طويلة، فإنه منذ زمان رُودكي وأبو شكور البلخي كان المثنوي يُستعمل في نظم حكايات الحرب والقتال وحفلات الأُنس والشراب، وفي التعاليم الأخلاقية والعرفانية. وقد نُظِمَت «شاهنامة» الحكيم أبي القاسم الفردوسي، وبُستان سَعديّ الشيرازي، وحديقة الحقيقة أو إلهي نامه لِسَنائي الغزنوي، و«الخُمسة المشهورة» مخزن الأسرار، وخُسرو وشيرين، وليلي والمجنون، والعرائس السبع [هفت پيكر بالفارسية] وإسكندر نامه» لِلنَّظامي الكنجوي، على طريقة المثنوي.

وقد أنفق نيكلسون - المستشرق والعالمُ العامِلُ الإنكليزيُّ الأُصل - ثلاثينَ من أعوامِ عمره البالغة سبعةً وسبعينَ في تصحيح كتاب المثنوي وشرحه والتعريف به. وتولّى تقديم أكبر خدمة في تعريف جلال الدين وفكره للناس. ويُعتقد أن عدد أبيات الكتب الستة المؤلفة لمثنوي مولانا، وفقاً للروايات وكذا وفقاً للنسخ المخطوطة والمطبوعة الموجودة، مختلف متباين. وقد ذكر صاحب «كشف الظنون» أن مجموع أبيات المثنوي هو ٤٨٠٠٠ بيت. وفي طبعة نيكلسون بلغ ذلك ٢٥٦٣٢ بيت؛ وجاء عدد الأبيات في الكتب الستة للمثنوي على هذا النحو:

الكتاب الأول ٤٠٣ بيت

الكتاب الثاني ٣٨١٠ بيت

- الكتاب الثالث ٤٨١٠ بيت

الكتاب الرابع ٣٨٥٥ بيت

الكتاب الخامس ٤٢٣٨ بيت

الكتاب السادس ٤٩١٦ بيت

وقد نُشِرَ المَثْنَوِيُّ في إيران مرارًا، مستقلاً غالبًا، أو مصحوبًا بتفسيرٍ وشرح، وأحيانًا مع كشفِ الآيات. والمَثْنَوِيُّ منظومٌ على بحرِ الرَّمَلِ المُسَدَّسِ، وقد بدأ جلالُ الدين نَظْمَه عام ٦٥٧هـ، وظلَّ منهجيًا في إكماله حتى آخرِ عُمره.

ويعتقدُ بعضُ المدققينَ في درسِ مَوْلانا والباحثينَ الكبار، أنَّ هَدَفَ مَوْلانا من نَظْمِ المَثْنَوِيِّ هو بيانُ دقائقِ التصوفِ وتفسيرُ آياتِ القرآنِ الكريمِ والأحاديثِ النبوية. وكذلك كان مَوْلانا في تحريره الأجزاء الستةَ ناظرًا إلى «مقالات شمس».

[٣٥٨] جاء في كتابِ «نَفَحَاتِ الْأَنْسِ» لِعبْدِ الرَّحْمَنِ جامي: أنَّه عندما انتهى نَظْمُ الكتابِ الأوَّلِ مِنَ المَثْنَوِيِّ تُوفِّيتَ زوجةُ حُسامِ الدينِ چلبِي، وظلَّ حُسامُ الدينِ لمدةِ ستينِ مُشَتَّتِ المَخاطِر. ونتيجةً لذلك، تأثر مَوْلانا أيضًا وأدركه المللُ وتأخرَ نَظْمُ المَثْنَوِيِّ طوْلَ هذه المدة، حتَّى حدثَ في آخرِ الأمرِ أن طَلَبَ حُسامُ الدينِ إلى مَوْلانا أن يُقَدِّمَ عَلى إكمالِ المَثْنَوِيِّ، فشرَعَ في نَظْمِ الجزءِ الثاني عام ٦٦٢هـ؛ وكان يومُ البدءِ يومَ استفتاحِ، «منتصفِ رَجَبٍ»:

لَأَنَّ المَثْنَوِيَّ كَانَ صَاقِلًا لِلْأَرْوَاحِ

كَانَتْ عَوْدَتُهُ يَوْمَ اسْتِفْتَاكِ

وكان مطلعُ تاريخِ هذه التَّجَارَةِ وذلك الرِّيحِ

في العامِ الهِجْرِيِّ سِتِّ مِئَةٍ وَائْتِنِينَ وَسِتِّينَ^(١)

ويذهبُ الأستاذُ قُرُوزَانْفَرُ إلى أنَّ مُصاحِبَةَ حُسامِ الدينِ چلبِي ومَوْلانا امتدَّتْ

خمسَ عَشَرَ عامًا، وكان من تأثير هذه المصاحبة أن التعاليم والفكر والعقائد الصوفية، الممتزجة بفكر جلال الدين البلخي المتعالية وعقائده، بُنيت بطريق التمثيل على خير وجه. وبمطالعة المثنوي وتأمله، يمكن الوصول إلى هذا الاستنتاج: أن تصوف مولانا مُتَبَلَّوْرٌ ومتكامل؛ وربما يكون قلة العرفان والتصوف الإيراني بعد الإسلام.

والأفلاكي في كتابه «مناقب العارفين»، وفي شأن المثنوي، نقل عن مولانا أنه قال:

«مثنوينا مغشوقٌ مغنويٌّ لا نظير له في الجمال والكمال، وكذلك هو بُستانٌ مُهيأٌ وشجرةٌ مُهتأةٌ، ضَمِنَا مِنْ أَجْلِ مُسْتَبِرِي الْقُلُوبِ وَأَصْحَابِ النَّظَرِ وَالْعُشَاقِ المحترقي الأكباد. فما أجمل ذلك الروح الذي يكون محفوظًا بمُشاهدة هذا الشاهد الغيبي، ويغدو ملحوظًا بنظر عناية رجال الله؛ لِكَيْ يُكْتَبَ في دفتر «نعم العبد إنه أواب».

وقد كتب الأستاذ الدكتور ذبيح الله صفا، في الجزء الثالث من كتابه «تاريخ ادبيات در ايران»، في شأن المثنوي، ما يأتي:

«بتحريض حسام الدين وتشويقه، وبالسعي المتواصل لمولانا في عددٍ من السنين في آخر عمره، ظهر إلى الوجود واحدٌ من الآثار البارزة للفكر البشري، هو في الوقت نفسه من أحب هذه الآثار إلى القلب وألطفها. كذلك عُرف في زمان الشاعر بأنه أجمل المنظومات العرفانية والحكمية وأكملها، وصار منذ ذلك الوقت أنيساً للعارفين، وجليساً للأنقياء الورعين»^(١).

وقد بين مولانا في المثنوي جيداً نظرياته الرائعة في شأن [٣٥٩] السير التحولي لعالم

الوجود، والفكر المتعلقة بالأضداد، إذ الحياة صراع بين الأضداد، ووحدية الوجود.
وأختم هذا البحث بقول العارف والمحقق المشهور صدر الدين القونوي،
الذي هو من محبي مولانا والمتعلقين به:

«لو كان أبو يزيد والجنيّد حَيَّين في ذلك العهد، لحَمَلَا غَاشِيَةَ سَرَجِهِ^(*) بِكَمَالِ
الدُّوقِ وَالْحُبِّ، وَلَوَضَعَا المِئْتَةَ عَلَى نَفْسَيْهِمَا. فَقَدْ كَانَ مُضِيفَ مَائِدَةِ الْفَقْرِ
المحمّدي، وَنَحْنُ نَتَذَوَّقُ بِفَضْلِ طَفِيلِيهِ»^(١).

حدثت وفاة مولانا في الخامس من جمادى الآخرة عام ٦٧٢هـ.

^١ - غطاء زيني للسرج، يوضع عليه عند نزول الفارس العظيم عن جواده والعبارة تعني المبالغة في التعظيم
[المترجم].

^٢ - نفحات الأنس، لجامي، ص ٤٦٤.

رؤية مولانا للعالم

المشنوي واحدٌ من أنفُسِ الذخائرِ الأدبيةِ في إيران، وأثرٌ قليلٌ النظير، وهو أسمى كتاب، وأجدرُ كتابٍ بالقراءة، عندَ المتشوّقين إلى العِرفانِ والسالكينِ لَوادي الطّريقة؛ فإنّ المادّةَ الفِكريةَ فيه أغنى من نظيراتها في الآثارِ الأخرى لِشُعراءِ التّصوّف، وهي تُوجدُ في القارئِ حالاً من الاهتياجِ والتأثيرِ والوجدِ والشوق. وإنّ أحدَ الرّوافدِ الأصليةِ لفِكرِ جلالِ الدّينِ البَلخي، القابلةُ لِلْفهمِ والإدراكِ، الهجرانُ. وفي هذا الأثر، خصّصَ شاعرٌ بُلُغَ كانونِ إشراقهِ وإلهامهِ العجيبِ لِلْعِشق. وفي نطاقِ فِكرِ الوجودِ والجبرِ والاختيارِ، سَطَرَ عَلَى صَفَحَاتِ الورقِ نِتاجَ بُوغهِ الصّوفيّ في أسمى صورةٍ، على نَحْوِ هيأٍ لبعضهم أن يقولَ: إنّ آثارَ مولانا غدّت منبعَ إلهامٍ كثيرٍ مِنَ الشّعراءِ والمؤلّفينَ على امتدادِ قُرُونٍ بَعْدَ وفاته.

وفي المشنوي، يعتقدُ مولانا أنّ الصّوفيَّ المؤمنَ، والسّالكَ المخلصَ المعتقدَ، لا يُبَيِّتُ وجودَ الله بالعقل، بَلْ يُحِسُّ بِذلكَ عَلَى نَحْوِ ملموسٍ بالقلب؛ فَالحِكمَةُ الصّوفيةُ حِكمَةُ ذَوْقِيّة.

ولا ينبغي نسيانُ أنّ جلالَ الدّينِ البَلخي متألّمٌ، وقد جعله ألَمُ الهجرانِ قليلَ الصّبر. وكان يقولُ: إنّ الإنسانَ له مَبْدَأٌ وَأَصْلٌ، وإنّه كالنّاي الذي أبعَدَ عن أَصلِهِ «القَضباء» زَمَنًا طويلاً، إذ أبعَدَ وفُصِّلَ عن عالمهِ الرّوحي. والأملُ النّهائيّ لِلإنسانِ هو أن يرجعَ إلى أَصلِهِ. ومن هذه الوجهة يرفعُ صوته ويُنشِدُ:

[٣٦١] كُلُّ مَنْ يَبْقَى بَعِيدًا عَنِ أَصْلِهِ

يَحْكُ مِنْ جَدِيدٍ عَنْ زَمَانٍ وَضَلِهِ^(١)

والسؤال هو: الأمل التهاثي المقدس واللذيد، أي نُشْدَانُ الوصل الذي لا يعني إلا طَلَبَ الأصل، كيف، ومن أيّ طريق، يغدو ممكناً وميسراً؟. أرى من المناسب هنا، قبل أن أوضح طريق الرجوع إلى الأصل من قول مولانا، أن أذكر في مجال الوصل والواصل في آراء المشايخ والعارفين بعض النقاط:

«الواصل» في عقيدة كبار الصوفية شخصٌ تحرّر من نفسه واتّصل بالحق. وبناءً على ذلك، الوصل هو نهاية السير إلى الله، إذا أنهى السالك مراحل السلوك، وتطهر من الصفات البشرية. ويقول بعضهم: الوصل أن يفنى العبد عن أوصافه، ويبقى بأوصاف الحق^(٢).

وطريق الوصول إلى ذلك، أي إلى الحقيقة، هو التمسك بالشرعية والعبور من الطريقة، إذ يحصل شاهد الوصل. ومولانا في كلّ موضعٍ من كتّب المثنوي، وبمساعدة العروة الوثقى للدين والشرعية، يبيّن تجلياته العرفانية في صورة محبّة وعشقية. وفي كتّب المثنوي الستة كلّها، نرى رؤيته الخاصة للعالم، لكن نراها مصحوبة بتجلياته الفكرية في فضاء الموجودات ولا محدودية الوجود. وعندما يريد أن يبيّن العشق يتخذ سبيل أن يظهر متلففاً باللطافة. يقول:

هناك في عالم الغيب عودٌ، هذا العشق دُخانٌ منه

وجودٌ واحدٌ لا لَوْنَ له، يأتي منه كلّ وجود

المطالب الأساسية في المثنوي، التي تؤلف أساس فكره ورؤيته للعالم، ذات

١- المثنوي: ١/١.

٢- قال مولانا في المثنوي:

فالتيس أمر الحق عند أحد الواصلين فلتيس كلّ قلبٍ بذرك أمر الحق

تنوّع عجيب، ومُعْرِبةٌ عن هَيَجاناتِهِ العاطفيّةِ وانفعالاتِهِ العِشقيّةِ التي تتجلّى على نَحْوِ واضحٍ في غزليّاته ومنظوماتِهِ الغِنائيّةِ.

ولمَوْلانا في موضوعِ «الزّمانِ والمكانِ» نظريّةٌ جميلةٌ وابتكاريّةٌ، لا نراها في آثارِ سنائي والعطار.

وقد كَتَبَ الدّكْتُرُ خليفة عبد الحكيم، في مقالةٍ تحقيقيّةٍ له تحتَ عنوان: «مَوْلانا جلال الدّين الرّومي»، قوله:

«يقولُ مَوْلانا إنّهُ في ساحةٍ لا مكانٍ نُورِ الله لا يَمَكِنُ تقسيمُ الزّمانِ على ماضٍ وحاضِرٍ ومستقبَلٍ؛ فالماضي والمستقبَلُ متعلّقانِ بالنّفسِ الجُزئيّةِ... ومفهومُ [٣٦٣] الزّمانِ في عقيدةِ مَوْلانا مرتبطٌ بالمكانِ، وهي عَيْنُ الفِكرةِ التي نُمِيت في عَصْرنا مِنْ وَجْهِهِ عِلْميّةٍ ورياضيّةٍ عندَ أنشتاين.. ففي فضاءٍ لا مكانٍ نورِ الله لا يَمَكِنُ تقسيمُ الزّمانِ على ماضٍ وحاضِرٍ ومستقبَلٍ:

اللامكانُ الَّذي فِيهِ نُورُ الله

مِنْ أَيْنَ لَهُ الماضِي والمستقبَلُ والحالُ؟

وإنّ ماضِيَهُ ومستقبَلَهُ يَكُونانِ نِسْبَةً إِلَيْكَ

وكِلاهُما شيءٌ واحِدٌ، وتظنُّهُما أنتَ اثنَين^(١)

ومَوْلانا، المنشِدُ لِمَدِيحِ الجَمالِ والكَمالِ، لا علاقةَ تربطُهُ بالغَمِّ والحُزنِ غيرُ

علاقةِ أَلَمِ الفراقِ، وَلَيْسَ قَرِيناً لِلأَلَمِ، كالشَّيخِ فَرِيدِ الدّينِ العطار، بَلْ يَقولُ:

هاتِ نِلْكَ الكاسَ الطَّيِّبَةَ الأَنفاسَ

التي تقطع عُتْقَ الغَمِّ

أما الأستاذ الدكتور محمد رضا شفيعي كدكني، الذي أدركته الحيرة من المعاني الواسعة التي لا ضفاف لها للوجود في آثار مولانا، فقد كتب قوله:

«يمتدُّ فضاء تخيل مولانا وآفاق رؤيته إلى حيث يجمع الأزل والأبد، ويُبدع تصويرًا في سعة الوجود، وبعض تصاويره الشعرية ممتاز ويعرف بالناظم»^(١).

نعم، أشعار مولانا في المثنوي شبيهة ببخر خافية ضفافه، إذ تجعل القارئ العارف مجذوبًا ومسحورًا بأمواجه الصاخبة؛ وهذا أيضًا من الكرامات الإلهامية للشاعر. وفي المثنوي، الذي هو دُكَّان الوحدة^(٢)، كل ما يشاهد خلا الله الواحد ليس إلا صَمًا. كان مولانا يتخطى ميدان الوجود، ويدرك أن كل صور التناقضات والتناقضات لها وظيفة وعمل في تناغم الكل الذي لا يستطيع فهمه إلا العارفون^(٣).

وفي شأن الإنسان الكامل، أبرز مولانا نظرية خاصة في المثنوي. وعنده أن المعرفة الكاملة للحق تعالى في الدنيا ممكنة وميسرة. ويظهر نموذجها، أي نموذج المعرفة الكاملة للحق تعالى، في الإنسان الكامل الذي كان مولانا ينشد كشفه وتعريفه. وفي الكتاب الأول من المثنوي، قرأنا في شأن هذه المقولة:

إذا كان الله لا يظهـر عيائـا

١- من مقدمة «گزیده غزلیات شمس»، ص ١٨.

٢- لكل دكان تجارته الخاصة
وإن كتابنا «المثنوي» هو دكان الوحدة
وكل ما نراه، خلا الواحد، هو صم
(المثنوي: ١٥٣٧/٦ - ٣٢)

٣- مقدمة «رومی و تفسیر مثنوی» لنيكلسون، ترجمة أوانيسيان، ص ٢٤.

فإن هؤلاء الأنبياء هم نُوَابُ الحق
 [٣٦٣] لا، قُلْتُ خَطَأً، فإنَّكَ إِذَا ظَنَنْتَ
 أَنَّ الْمُنِيبَ وَالتَّائِبَ اثْنَانِ، كَانَ ذَلِكَ ظَنًّا قَبِيحًا، لَا حَسَنًا
 فَلَنْ يَظْهَرَ لَكَ الْاِثْنَيْنِ إِلَّا إِذَا كُنْتَ مِنْ عِبَادِ الصُّورَةِ
 فَهُمَا وَاحِدٌ أَمَامَ مَنْ تَحَرَّرَ مِنَ الصُّورَةِ
 إِنَّ اتِّحَادَ الْحَبِيبِ بِالْأَحْبَاءِ جَمِيلٌ
 فَتَمَسَّكَ بِقَدَمِ الْمَعْنَى، لِأَنَّ الصُّورَةَ عَنِيدَةٌ
 وَاصْهَرِ نِلْكَ الصُّورَةَ الْعَنِيدَةَ وَاجْتَهِدْ (فِي ذَلِكَ)،

لِكَيْ تَرَى الْوَحْدَانِيَّةَ تَحْتَهَا كَالْكَنْزِ^(١)

وَمِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى، يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ الْإِيرَانِيِّينَ وَالْبَاحِثِينَ الْأَجَانِبِ: إِنَّ
 فِكْرَ الرُّومِيِّ، وَتَصَوُّفَ الرُّومِيِّ، لَمْ يَكُنْ جَافًا وَنَظَرِيًّا، بَلْ هُوَ تَجْرِبِيٌّ عَمَلِيٌّ وَلَهُ
 انْشَغَالٌ بِالْقَلْبِ أَكْثَرُ مِنْهُ بِالْعَقْلِ.

وَيَقُولُ جَلَالُ الدِّينِ الْبَلْخِي: إِنَّهُ لَا يَوْجَدُ تَعَارُضٌ بَيْنَ الْعِشْقِ الْكُلِّيِّ وَالْعَقْلِ
 الْكُلِّيِّ، وَالْعِشْقُ الْكُلِّيُّ أَكْثَرُ سَعَةً مِنْ كُلِّ الْأَدْيَانِ وَالْمَذَاهِبِ وَالْفَلَسَفَاتِ^(٢).

وَيَعْتَقِدُ مَوْلَانَا أَنَّ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ كِيمِيَاءٌ فِي حَالٍ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّحَوُّلِ الدَّائِمِ. وَإِذَا مَا

١- الْمُقْتَوَى: ٦٧٧/١ وما بعد

٢- إِنَّ لِلْعِشْقِ غُرْبَةً عَنِ الْعَالَمِينَ

وَهُوَ خَفِيُّ جِدًّا، لَكِنَّ حَيَرَتَهُ وَاضِحَةٌ

وَمَذْهَبُهُ غَيْرُ الْاِثْنَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً

وَالْاِثْنَانِ وَالسَّبْعُونَ فِرْقَةً فِيهِ مِنْ قَبِيلِ الْجُنُونِ

وَأَرْوَاحُ سُلَاطِينِ الرُّوجِ فِي حَسْرَتِهِ

وَعُرُوشُ الْمُلُوكِ إِلَى جِوَارِهِ لَيْسَتْ إِلَّا جَبِيرَةٌ سَاقِي

(الْمُقْتَوَى: ٤٧٢٢/٣ - ٢٤).

نظرنا إلى الطبيعة بدقة شاهدنا أن الماء والهواء والضياء تتحول إلى الحياة النباتية. والحياة النباتية تتحول إلى الحياة الحيوانية، وهذه أيضا تغدو فِكْرًا متعاليا. فلماذا لا يمكنُ الفِكْر أن يتحول إلى رُوحِ إلهي؟

فإذا كنت تريد أن تُشرقَ مثلَ النهار

فأخرقِ كيانَكَ (المظلم) الشبية بالليل

واصهرْ وجودَكَ في وجودِ راعي الوجود

كما ينصهرُ النحاسُ في الإكسير^(١)

جلالُ الدين البلخي، الذي يتحدثُ في كُلِّ موضعٍ من أجزاءِ المثنوي عن العروة الوثقى للدين والشريعة تفصيلا، يعتقدُ أن التجلي الإلهي جريانٌ أبدي، ولم يوجد أبدا زمانٌ عارٍ من المعرفة الإلهية. ولا يوجد في مملكة الطبيعة والحقيقة شيء اسمه «شر»:

ومن هنا، ليسَ في الدنيا شرٌّ مُطلقٌ

بل يكونُ الشرُّ نسبيا، فاعلم هذا أيضا

ولا يوجد أبدا في وقتٍ واحدٍ سمٌّ وسُكَّرٌ

لا يكونان قَدَمًا [قوة] لأحدٍ، وقَدَمًا لِآخر

فما يكونُ قَدَمًا لِأحدٍ يكونُ قَدَمًا لِآخر

يكون سَمًّا لِأحدٍ، ولِآخر كالسُكَّر

فسمُّ الحَيَّة يكونُ حَيَاةً لِتلك الحَيَّة

ويكونُ نَسَبَةً إلى الإنسانِ مؤثما^(٢)

١- المثنوي: ٣٠٢٣/١ - ٢٤.

٢- المثنوي: ٦٥/٤ - ٦٨.

ومعظمُ القراءِ المدققينَ والمشتاقينَ يجدونَ في أشعارِ المثنويِّ الصافية نفاطاً جميلةً و[٣٦٤] دقائقَ عرفانيةً باعثةً على الاعتبار، مصحوبةً بحكاياتٍ جديرةً بالقراءة وخُرافاتٍ قديمةٍ وذاتِ طابعٍ ديني. وكلُّ ذلكَ جاءَ ببيانٍ سلسٍ وجذابٍ، وأحياناً بسُخرياتٍ وابتساماتٍ صفراءٍ مثيرة. ويعتقدُ بعضُ سُراحِ كتابِ المثنويِّ الجميلِ أنَّه في كثيرٍ منَ أشعارِ مولانا يمكنُ البَحْثُ عن فكرِه وأشواقِه وهيَّجاناتِه وأحوالِه وإلهاماتِه. وفي هذا المعنى يقولُ الأستاذُ كذَكني: «إنَّ أقاليمَ فكرِه في سعةِ الوجود»، مباحثُ تُشيرُ إلى معارفٍ عميقةٍ في موضوعاتِ عِلْمِ النفس، وعِلْمِ الاجتماع، والمحيطِ الاجتماعي، والثقافةِ المتعاليةِ الإنسانيةِ والدينيةِ، ممَّا لا يمكنُ مُشاهدتهِ إلَّا في قليلٍ منَ الكتبِ والرسائلِ في السنينِ التي سبقتُ حياته.

المثنويُّ رائعةٌ عظيمةُ القَدْرِ قليلةُ النظير، ولا يمكنُ الظَّفَرُ بِكُلِّ هذهِ المعلوماتِ والمعارفِ التي ينطوي عليها في كُلِّ مجموعةٍ شعريَّة. المثنويُّ عندَ أكثرِ أصحابِ النظرِ وأغلبِ المشايخِ عملٌ عظيمٌ قيمٌ قليلُ النظير، إذ بيَّنَ فيه مولانا في القرنِ السابعِ الهجري، عقائدهَ ونظريَّاتِه وآراءه، من دُونِ اهتمامٍ بمُخالفةِ أهلِ الظَّاهرِ المتعصِّينَ وآرائهم.

جلالُ الدينِ البُلُخيِّ مخالِفٌ للإفراطِ والتفريط. ويجدُ القارئُ النبيةَ، ذو القَرِيحةِ الصافية، أحياناً أنَّه يشرِّحُ الميولَ الجسديَّةَ للناسِ من دُوي الطَّبائعِ المختلفةِ، ببراءةٍ وأستاذية. وفي بعضِ المباحثِ يتجاوزُ جلالُ الدينِ البُلُخيِّ مستوى المحسوساتِ والمظاهر. وفي فضاءِ المعقولاتِ وما وراءَ الطَّبيعة، يتقدَّمُ بالقارئِ الفيلسوفِ والعارفِ منَ المعقولاتِ الدُّنيا ودهاليزِ العَقْلِ الجُزئيِّ إلى عالمِ ما وراءَ الطَّبيعة، حيثُ العظْمَةُ والجَلالُ، كأنَّه يتعاملُ مع الكَشْفِ والشُّهودِ والإشراقِ.

وَيَخَالُ بَعْضُ الْمُحِيطِينَ خُبْرًا بِمَوْلَانَا أَنَّ أَجْزَاءَ الْمَثْنَوِيِّ السَّتَّةِ هِيَ إِضْطِحَاحٌ وَبَيَانٌ
لِلْأَبْيَاتِ الثَّمَانِيَةِ عَشَرَ الْأُولَى مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ، الَّذِي يَبْدَأُ بِهَذَا الْبَيْتِ الْمَحَبَّبِ:

اسْتَمِعْ لِلنَّايِ كَيْفَ يَقْصُصُ حِكَايَتَهُ إِنَّهُ يَشْكُو آلامَ الْفِرَاقِ

فِكْرَةُ عِشْقِ الْعَوْدَةِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ الْإِنْسَانُ، فِي غَيْرِ الْمَثْنَوِيِّ، جَاءَتْ مِرَازًا
فِي الدِّيَوَانِ الْكَبِيرِ أَيْضًا. وَيُسَمَّى مَوْلَانَا وَطَنَهُ الْأَصْلِيَّ «بُستَانِ الْمَلَكُوتِ»، وَيَقُولُ:

أَنَا طَائِرُ بُسْتَانِ الْمَلَكُوتِ، لَسْتُ مِنْ عَالَمِ التُّرَابِ

وَقَدْ صُنِعَ قَفْصٌ مِنْ بَدَنِي لِعِدَّةِ أَيَّامٍ

وَفِي الْمَقْدَمَةِ الَّتِي كَتَبَهَا الذِّكْرُ مُوَحَّدَ لِكِتَابِ «مَقَالَاتِ شَمْسِ تَبْرِيزِي»، أَبْدَى فِي

شَأْنِ الْمَثْنَوِيِّ اعْتِقَادًا خَاصًّا:

«مَثْنَوِيَّةٌ، عَلَى الْحَقِيقَةِ، رِوَايَةٌ مَنْظُومَةٌ وَمَشْرُوحَةٌ لِكَلِمَاتِ الشَّيْخِ التَّبْرِيزِيِّ،

و«شَرْحٌ رَمْزِيٌّ لِإِنْعَامِهِ» امْتَزَجَ بِالتَّجَارِبِ الرُّوحِيَّةِ لِمَوْلَانَا نَفْسِهِ، وَاسْتَمَدَّ مِنْ

اطِّلَاعَاتِهِ الْوَاسِعَةِ وَالتَّصَرُّفَاتِ السَّخَرِيَّةِ لِذِهْنِهِ الْوَقَادِ. وَلَيْسَ مُصَادِفَةً أَنْ نَجِدَ

كُلَّ فِكْرٍ «الْمَقَالَاتِ» فِي تَشْرِيحِ الدَّقَائِقِ الْعِرْفَانِيَّةِ، وَأَنْ نَجِدَ كَثِيرًا مِنَ الْقِصَصِ،

بَلْ كَثِيرًا مِنْ عِبَارَاتِهَا، فِي الْمَثْنَوِيِّ»^(١).

في ظل القبة الخضراء

أين مزار شمس؟

كثيرون من كتاب التذاكر المعاصرين لمولانا، وعدد من الباحثين الإيرانيين والأتراك، متفقون على القول بأن محمداً مُلك داد، شمساً التبريزي، سافر إلى قونية مرتين: المرة الأولى في السادس والعشرين من جمادى الثانية عام ٦٤٢هـ، حيث أقام ستة عشر شهراً في واحدة من حُجرات منزل جلال الدين البلخي، أو صلاح الدين زركوب. وعندما انزعج من سُخريات جماعة من سيئي النوايا، ولم يستطع التحمل والمقاومة، ترك الروم الشرقية في الحادي والعشرين من شوال عام ٦٤٣هـ. فما كان من جلال الدين إلا أن أرسل ابنه الأكبر سلطان ولد مع جماعة من مُجبيه إلى مُرادِه شمس التبريزي في دمشق، وكلفه أن يدعوهُ إلى العودة إلى قونية. أمّا شمس الذي كان يحترق في أتون هجران حبيبه العارف، ابن سلطان العلماء، فإنه بعد قراءة رسائل مولانا الأربع المنظومة عاد إلى قونية مرة أخرى عام ٦٤٤هـ. وقد أتى عود شمس إلى قونية على هُدوء الروم الشرقية مرة أخرى. وأزعج سئل اتهامات المتعصبين وافتراءاتهم خاطِر الشيخ الكبير، المتخطي لعتبة الستين بضع سنين، أيما إزعاج، وبعث في نفسه الحزن. وبلغ من ضغط المخالفة والمبارزة المصحوبة بالتشنيع وجرح اللسان أن قال شمس لسلطان ولد ابن مولانا: لا طاقة لي بعد الآن على الإقامة في هذه المدينة، ولا بد من أن أذهب إلى مكان لا يستطيع أحد في [٣٦٧] المستقبل أن يكشف محل إقامتي فيه. صار شمس إثر وفاة زوجته الشابة الجميلة، «كيمياء خاتون»، شديد الحساسية وسريع التأثر وغاضباً. ومن ناحية أخرى، كان يرى

علاء الدين، ابن مَوْلانا الأصغر، متصلاً دائماً بِجَمَاعَةِ المَخَالِفِينَ لَهُ، عِنَادًا مِنْهُ وَعِدَاوَةً، وَلَيْسَ لَهُ حَتَّى بَيْنَ مُرِيدِي جَلَالِ الدِّينِ قِيَمَةٌ وَاعْتِبَارٌ لَائِقٌ بِمَقَامِهِ الْمَعْنَوِيِّ. فَاضْطُرَّ إِلَى أَنْ يَعْقِدَ الْعَزَمَ عَلَى أَنْ يَتْرَكَ مَوْلَانَا وَمَدِينَةَ قُونِيَّةَ الْمَضْطَرِبَةِ نِهَائِيًّا. وَلِهَذَا السَّبَبُ، تَوَارَى عَنِ الْأَنْظَارِ فِي سَنَةِ ٦٥٤هـ. وَاعْتَقَدَ بَعْضُهُمْ، مِثْلَمَا بَيَّنْتُ قَبْلُ، أَنَّ الْمَخَالِفِينَ لَهُ أَجْهَزُوا عَلَيْهِ، قَتَلًا. وَقَدْ كَتَبَ سِيَهَسَالَار - الَّذِي فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى «رِسَالَهُ» لَقَّبَ شَمْسًا بِـ «تَاجِ الْمُخْجُوبِينَ»، وَعَرَفَهُ لِلنَّاسِ بِتَعْبِيرِ «مِنْ مَسْتَوْرِي حَرَمِ الْقُدْسِ»، وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ لَجَلَالِ الدِّينِ الرُّومِيِّ وَأَبْنَائِهِ^(١) - فِي شَأْنِ هَذَا الرَّجُلِ الْغَامِضِ وَكَيْفِيَّةِ نِهَايَةِ حَيَاتِهِ بِغُمُوضٍ، عَلَى هَذَا النَّحْوِ:

«حَتَّى زَمَانِ حَضْرَةِ خُداوندگار - أَيِ مَوْلَانَا - لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَبَدًا اِطْلَاعٌ عَلَى حَالِهِ، ثُمَّ بَعْدَ وَفَاةِ مَوْلَانَا لَمْ يَقِفْ أَحَدٌ الْبَتَّةَ عَلَى حَقَائِقِ أَسْرَارِهِ».

وَالْأَفْلَاكِيُّ، مُؤَلِّفُ كِتَابِ «مَنَاقِبِ الْعَارِفِينَ»، مِثْلُ سِيَهَسَالَار، غَيْرُ مُطَّلِعٍ عَلَى كَيْفِيَّةِ اخْتِفَائِهِ وَمَحَلِّ اخْتِفَائِهِ وَحَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُحَاطٌ بِغِلَالَةِ الْأَسْرَارِ. أَمَّا حُزْنُ مَوْلَانَا وَاضْطِرَابُهُ لِإِفْرَاقِ شَمْسٍ فَقَدْ بَلَغَ أَنْ كَانَ كَانِ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي حَالٍ مِنَ الْبُكَاءِ وَالْأَنِينِ، أَوْ مَنْشَغَلًا فِي مَجَالِسِ السَّمَاعِ بِالرَّقْصِ وَالتَّصْفِيقِ.

وَلِأَنَّ مُرَادَهُ تَرَكَ الرُّومَ الشَّرْقِيَّةَ مَرَّةً ثَانِيَةً مَنْزَعِجًا وَغَاضِبًا، وَيَمَّمُ شَطْرَ دِمَشْقَ، اسْتَدْعَى ذَلِكَ أَنْ يُسَافِرَ جَلَالُ الدِّينِ الْبَلُخِي فِي طَلَبِهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَيَرَى مُبَاشَرَةً

١- لَمَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ ثَلَاثَةُ أَبْنَاءٍ ذَكَوْهُ وَابْنَةٌ وَاحِدَةٌ، أَسْمَاؤُهُمْ:

- ابْنُهُ الْأَكْبَرُ بَهَاءُ الدِّينِ وَلَدَ صَاحِبِ كِتَابِ «مَشْنَوِي وَلَدِي»، وَهُوَ مَشْهُورٌ بِلَقَبِ سُلْطَانِ وَلَدَ (٧١٢هـ).

- عَلَاءُ الدِّينِ مُحَمَّدُ، الْمَخَالِفُ لِشَمْسٍ (٦٦٠هـ).

- مَظْفَرُ الدِّينِ الْأَمِيرُ الْعَالِمُ (٦٧٦هـ).

- مَلِكَةُ خَاتُونِ (٦٧٣هـ).

مدارس تلك البلاد، ويسأل الأساتذة والطلبة في دور العلم هناك عن مراده، ولكنه كلما زاد في البحث ازداد ابتعاده عمن ينشده.

وتظهر هذه الأسفار أن مولانا إما أنه ليس لديه علم يقيني بقتل شمس في قونية، ولم يخبره ابنه الأكبر ومريدوه بشيء في هذا الشأن، وإما أنه كان يظن أن محبوبه - كما حدث له في المرة الأولى - قد ذهب إلى دمشق.

صديقي الباحث الأستاذ الدكتور أبو القاسم تفضلي، الذي كثيراً ما يسافر إلى قونية لكي يحضر المؤتمرات المتعلقة بمولانا، بدعوات من العلماء والمحيطين خبراً بمولانا في تركيا، كان قد سافر في عام [٣٦٨] ١٣٧٤ هـ. ش [١٩٩٥ م] إلى قونية بدعوة من جامعة سلجوق - التي هي من كبريات الجامعات التركية، وموقعها في قونية - للمشاركة في «مؤتمر مؤسسة الإسلام والغرب»، ذكر في ورقته التي أعدها للمؤتمر وأرسل إليّ بنسخة منها أنه في أثناء هذا المؤتمر تعرف واحداً من كبار مشاهير المحيطين خبراً بمولانا في تركيا، واسمه «محمد أوندير»، وكان هذا مستشاراً ثقافياً في أنقرة، وكان لهما أحاديث مفصلة في شأن مولانا. وكان محمد أوندير قد تولى ليست سنوات - ١٩٥٢ - ١٩٥٧ م - رئاسة متحف مولانا ومكتبته والآثار القديمة في قونية. ثم في عام ١٩٥٧ م، عندما زار المرحوم الأستاذ بديع الزمان فروزانفر قونية، كان أوندير دليله. ثم في عام ١٩٥٩ م جاء إلى طهران بدعوة من جامعة طهران، وأقام لمدة ستة أشهر في نادي الجامعة. وقد كتب السيد تفضلي يقول: «تحدث محمد أوندير بالفارسية عن ذكرياته التي لا تنسى في طهران، وكذلك عن إدارته متحف مولانا في

قُوْنِيَّةَ والأعمالِ التي قام بها. ومن ذلك أَنَّهُ بَيَّنَّ كَيْفِيَّةَ كَشْفِ مَحَلِّ دَفْنِ شَمْسٍ التَّبْرِيزِي، لي وَلِعَدَدٍ مِنَ الضُّيُوفِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْمُؤْتَمَرِ وَكَانُوا جَالِسِينَ بِقُرْبِي».

وَقَبْلَ أَنْ أُبَاشِرَ الْكِتَابَةَ عَنْ كَيْفِيَّةِ كَشْفِ مَزَارِ شَمْسٍ، أُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْأَسْتَاذَ تَفَضَّلِي ذَكَرَ أَنَّ مُحَمَّدَ أُونْدَرِ دَوْنَ فِكْرِهِ فِي كِتَابٍ عَنَوَانُهُ: «تَحْتَ الْقُبَّةِ الْخَضْرَاءُ»، وَقَدْ طُبِعَ هَذَا الْكِتَابُ حَتَّى الْآنَ عِدَّةَ طَبْعَاتٍ فِي أَنْقَرَةَ. وَمِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي كِتَابِ «تَحْتَ الْقُبَّةِ الْخَضْرَاءُ»، وَأَصْبَحَتْ مَحَلَّ اِهْتِمَامِ الْمُحِيطِينَ خُبْرًا بِمَوْلَانَا فِي الْعَالَمِ، شَرَحَ الْاِكْتِشَافِ الْعَرَضِيِّ لِمَحَلِّ دَفْنِ شَمْسٍ التَّبْرِيزِي.

مَقَامُ شَمْسٍ:

فِي وَسْطِ قُوْنِيَّةَ، فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ بَعِيدٍ كَثِيرًا عَنْ تَرْبَةِ مَوْلَانَا، أُنشِئَ بِنَاءٌ عَلَى طِرَازِ فِتْرَةِ سَلَاجِقَةِ تُزْكِيَّةَ، وَلَهُ مِثْدَنَةٌ أَصْغَرُ وَأَقْصَرُ مِنَ الْمَآذِنِ الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ الْمَبْنِيَّةِ فِي قُوْنِيَّةَ. وَقَدْ أَحَاطَتْ بِالْبِنَاءِ أَشْجَارُ خُضْرٍ مُعَمَّرَةٍ. وَفِي الْبَوَابَةِ فِي مَدْخَلِ هَذَا الْبِنَاءِ، بُنِيَ مَحَلٌّ لِحَلْخِ الْأَخْذِيَّةِ. فَضَاءُ الْبِنَاءِ أَخَذَ صُورَةَ قَاعَةٍ، بَعَثَرِينَ مِتْرًا لِكُلِّ مِنَ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ، شَبِيهَةٌ بِفَضَاءِ الْمَسَاجِدِ الْآخَرِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، مَعَ مِخْرَابٍ جَدِيدٍ وَاحِدٍ، وَيَنْتَصِبُ قُرْبَ الْمِخْرَابِ أَيْضًا مَنْبَرٌ خَشَبِيٌّ مَرْتَفَعٌ نَسْبِيًّا.

وَفِي الطَّرَفِ الْغَرْبِيِّ لِلْقَاعَةِ، وَسْطَ سَجَادَةٍ فَاخِرَةٍ يَبْعُدُ تَقْرِيبِي ٤٨٣ م، [٣٦٩] يَجُثُّ صُنْدُوقٌ خَشَبِيٌّ كَبِيرٌ، عَلَى طِرَازِ صِنَادِيقِ قُبُورِ الْمَرَحَلَةِ السَّلْجُوقِيَّةِ، غُطِّي وَجْهُهُ بِقُمَاشٍ مَرِيٍّ بِآيَاتِ قُرْآنِيَّةٍ. وَفَوْقَ رَأْسِ هَذَا الصَّنْدُوقِ الْمَحَلِّيِ الْمَحَازِي لِرَأْسِ الْجَسَدِ، وَضِعَتْ عِمَامَةٌ بِيضَاءُ كَبِيرَةٌ مِنْ طِرَازِ عَمَائِمِ أَقْطَابِ الطَّرِيقَةِ الْمَوْلُويَّةِ وَشُيُوخِهَا. وَيُسَمَّى هَذَا الْمَحَلُّ «مَقَامُ شَمْسٍ». وَخِلَافًا لِصَرِيحِ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ الَّذِي يَذْهَبُ عِدَّةٌ كَثِيرٌ مِنْ

الزائرين الآتين من كل أنحاء تزيكية والسائحين لزيارته، على امتداد العام وفي كل ساعات النهار من التاسعة صباحاً حتى الخامسة بعد الظهر، يرى عدد قليل من الزائرين في «مقام شمس» هذا. ولهذا السبب، يسيطر صمت عميق وروحاني وسكينة قدسية وعرفانية على الفضاء الداخلي لـ «مقام شمس». وفي القرون الخالية، عندما كان مُريدو مولانا والدراويش الدوارون (اتباع الطريقة المولوية) يذهبون إلى قونية، كانوا يرون أنفسهم مكلفين بأن يزوروا مقام شمس، قبل أن يذهبوا إلى ضريح مولانا. والآن أيضاً، يعمل خاصة مُريدي مولانا ودراويش المولوية على نفس ترتيب الماضي وأدابه ورُسومه. ومثلما قال الدكتور جلال الدين چلبی^(١)، الشيخ الفعلي للمولوية الذي يصل نسبه إلى مولانا بواحد وعشرين ظهراً، للسيد تفضلي: إنه كلما سافر إلى قونية، بادر ابتداءً إلى زيارة مقام شمس، ثم بعد ذلك يسارع إلى زيارة مولانا.

وانقل فيما يأتي قسماً مما جاء في كتاب «تحت القبة الخضراء»، وهو شرح للاكتشاف العرَضِي لِمَدْفَنِ شَمْسِ التَّبْرِيزِي الحَقِيقِي، وقد ترجمه الأستاذ الدكتور تفضلي وأرسله إليّ، بإذن منه:

سِرُّ لَمْ يُكْشَفْ:

لا أحد من الباحثين والمؤلفين، الذين كتبوا في شأن سيرة حياة مولانا كتاباً أو مقالاً، في مُتناوله أن يُجيب عن هذا السؤال: في اللقاء الثاني بين شمس التبريزي ومولانا، الذي حصل برجوع شمس من دمشق بصحبة سلطان ولد وتديره، هل الذي حدث فعلاً هو أن شمساً التبريزي، بسبب الاستياء أو الخوف من غضب

١- سمعت أنه ودع الدنيا منذ سنتين [المؤلف].

المخالفين المتعصّبين وحفّدهم، ترك قُوْنِيَّةَ مَرَّةٍ أُخْرَى عَلَى نَحْوِ خَفْيٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ مِنْ قَبْلُ، أَوْ أَنَّ أُولَئِكَ الْخَصُومَ قَتَلُوهُ وَأَلْقَوْا جَسَدَهُ فِي بئرٍ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي عَلَى أَثَرِ مَكِيدَةٍ خُطِّطَ لَهَا مِنْ قَبْلُ؟

ظَلَّتْ حَقِيقَةُ الْأَمْرِ عَلَى امْتِدَادِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ سِرًّا مَكْتُومًا غَيْرَ قَابِلٍ لِلإِفْشَاءِ. وَفِي شَأْنِ الْإِخْتِفَاءِ الْمَفْاجِئِ لِشَمْسٍ، كَتَبَ كُلُّ كَاتِبٍ اِهْتَمَّ بِالْمَوْضُوعِ أَمْرًا اسْتَمَدَّهُ مِنْ تَخْمِينِهِ وَظَنَّهُ. [٣٧٠] وَفِي هَذَا الشَّأْنِ يَحْسُنُ أَنْ يُوضَّحَ الْأَمْرُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ:

وَاضِحٌ أَنَّ شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ جَاءَ إِلَى قُوْنِيَّةٍ فِي السَّادِسِ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، وَنَزَلَ فِي خَانَ قَوَافِلٍ بِائِعِي الشُّكْرِ. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، وَعِنْدَ حُلُولِ وَقْتِ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ تَقْرِيبًا، وَعِنْدَمَا كَانَ مَوْلَانَا ذَاهِبًا إِلَى مَنْزِلِهِ رَاكِبًا بَغْلًا وَعَدَدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ وَمُرِيدِهِ يَصْحَبُونَهُ، وَعَدَدٌ آخَرُ يَمْشُونَ وَرَاءَهُ، مَرٌّ مِنْ أَمَامِ خَانِ الْقَوَافِلِ، فَمَا كَانَ مِنْ شَمْسٍ التَّبْرِيزِيَّ، الَّذِي كَانَ وَاقِفًا قَرِيبًا مِنْ مَحَلِّ مُرُورِ مَوْلَانَا أَمَامَ مَدْخَلِ الْخَانِ، إِلَّا أَنْ يَتَقَدَّمَ، وَيُوقِفَ مَوْلَانَا، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَغْرِضُ عَلَيْهِ أَسْئَلَتَهُ الْعِرْفَانِيَّةَ^(١). ثُمَّ بَعْدَ

١ - فِي كِتَابِ «مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ» الَّذِي أَلْفَهُ [بِالْتُرْكِيَّةِ] الْأُسْتَاذُ عَبْدُ الْبَاقِي كُتْلِينَارِي، وَتَرْجَمَهُ [إِلَى الْفَارْسِيَّةِ] الدُّكْتُورُ تَوْفِيقُ سُبْحَانِي، وَنَشَرْتُهُ «مُؤَسَّسَةُ مَطَالَعَاتٍ وَتَحْقِيقَاتٍ فَرْهَنْگِي»، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ فِي ١٣٧١ صَفْحَةً، يَكْتُبُ الْمُؤَلِّفُ فِي شَأْنِ أَوَّلِ لِقَاءِ بَيْنِ مَوْلَانَا وَشَمْسٍ، نَقْلًا عَنْ كِتَابِي «مَنَاقِبُ الْعَارِفِينَ» لِلْأَفَلَاكِيِّ وَ«رِسَالَهُ» لِسِبْهَسَالَارٍ، قَوْلُهُ: «فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ كَانَ حَضْرَةُ مَوْلَانَا خَارِجًا، مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْفُضَلَاءِ، مِنْ مَدْرَسَةِ بَائِعِي الْقَطَنِ، وَكَانُوا يَمْرُونَ مِنْ أَمَامِ خَانِ بَائِعِي الشُّكْرِ. فَقَامَ حَضْرَةُ مَوْلَانَا شَمْسٍ وَتَقَدَّمَ، وَأَمْسَكَ بِيَعْنَانَ مَرْكَبِ مَوْلَانَا، وَقَالَ: يَا إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ، أَبُو يَزِيدَ [الْبِسْطَامِي] أَعْظَمُ أَوْ مُحَمَّدٌ [عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ]؟ قَالَ مَوْلَانَا: مِنْ هَيْبَةِ هَذَا السُّؤَالِ أَحْسَسْتُ كَأَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ انْفَصَلَتْ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ وَهَبَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَنْ نَارًا عَظِيمَةً اشْتَعَلَتْ مِنْ بَاطِنِي إِلَى أَعْلَى جُمُجْمَتِي، ثُمَّ مِنْ هُنَا رَأَيْتُ أَنَّ دُخَانًا تَصَاعَدَ حَتَّى سَاقِ الْعَرْشِ. وَأَجِبتُ: حَضْرَةُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ أَعْظَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا، أَنِّي مَكَانَ لَا بِي يَزِيدُ؟ فَقَالَ: فَمَاذَا يَعْنِي إِذَا أَنَّهُ - مَعَ كُلِّ عَظَمَتِهِ - يَقُولُ: «مَا عَرَفْنَاكَ حَقًّا مَعْرِفَتَكَ»، وَأَبَا يَزِيدَ يَقُولُ: «سُبْحَانِي مَا أَعْظَمَ شَأْنِي»، وَيَقُولُ: «أَنَا سُلْطَانُ السَّلَاطِينِ»؟ فَقُلْتُ: «لَنْ لَا بِي يَزِيدَ ظَنًّا سَكَنَ مِنْ جَرَعَةٍ وَاجِدَةٍ، وَتَحَدَّثَ عَنْ ارْتَوَاءٍ، وَكَوَرُ إِدْرَاكِهِ امْتِلَأَ مِنْ ذَلِكَ الْمَقْدَارِ، وَكَانَ ذَلِكَ الثَّوَرُ يَقْدِرُ نَافِذَةً =

الأسئلة والإجابات، ينزل مولانا عن البغل ويعانق شمساً، ويأخذه معه إلى منزله. ومنذ ذلك اليوم، أخذ مولانا وشمس يجلسان معاً، ويتحدثان على امتداد الأيام والأسابيع والأشهر في مختلى خاص بهما في حجرة صغيرة، ويغلقان الباب أمام الأعيار. وعندما كان مريدو مولانا وتلاميذه يرون أن مولانا يترك التدريس والوعظ، ويمضي معظم أوقاته مع رجل طاعن في السن غير معروف مغمور، كانوا يضطربون اضطراباً شديداً، وحيثما كانوا يرون شمساً كانوا يهدّدونه بالقتل، ويشتمونه. ثم بعد مدة من مقاومة شمس التبريزي هذه التهديدات والإهانات، يترك قونية في خفاء، ومن دون إطلاع مولانا على ذلك. وبسبب [٣٧١] غياب شمس، ينزعج مولانا انزعاجاً شديداً وتضطرب حاله، ويُرسل أشخاصاً من أجل البحث عن شمس. ثم بعد فترة، يصل خبرٌ يقول إن شمساً يقيم في الشام (دمشق). وابتغاء إرجاعه، يكتب مولانا رسائل وغزليات مفعمة بالتأثر والتحرّق، وتصور عمّ الهجران والفراق. وعندما لا يصله جوابٌ، يُرسل ابنه سلطان وكّد إلى دمشق، فينجح في الظفر برضا شمس بالعودة معه. فيعود شمس إلى قونية، ويسارع مولانا إلى استقباله بوجد واشتياق. وفي تجديد لقائه، ينشغل مولانا بالرقص والدوران، ويُعدّ مجالس السماع، ويُشدّ الغزليات

= بيته أما حضرة المصطفى [عليه الصلاة والسلام] فقد كان لتيه استشفاء عظيم وظلماً في ظلماً، وقد صار صدره المبارك يشرج «أترنح لك مذرك» أرض الله الواسعة، فلا جرم أن كلامه كان من ظلماً، إذ في كل يوم كانت لديه زيادة في طلب القرب. ومن هنا، يكون مدلول قول المصطفى [عليه الصلاة والسلام] عظيم. وبسبب أن أبا يزيد وصل إلى الحق رأى نفسه مرتوباً ممتلئاً، ولم ينظر إلى المزيد أما حضرة المصطفى [عليه الصلاة والسلام] فكان في كل يوم يرى أكثر، ويتقدّم أكثر، كان يرى تزايداً في أنوار الحق تعالى وعظمته وقدرته وحكمته، يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة؛ ولهذا السبب كان يقوله «ما عرفناك حقّ معرفتك...» فما كان من مولانا شمس إلا أن صاح، وأخذ يخط على الأرض [الأصل].

المبتهجة. وههنا يُظهرُ المخالفونَ لِشَمْسٍ النَّدَمَ على ما كان منهم قَبْلَ مِنْ تَصَرُّفَاتِ وتهديدات، ويعتذرون منه. ولكن شيئاً فشيئاً تبدأ الفتنَةُ مِنْ جديد، ويهدّدون شَمْساً جِهَاراً وتكراراً بالقتل، وهكذا... إلى أن يختفي شَمْسٌ في إحدى الليالي، ولا يفهم أحدٌ، ولا يُعلم، أَيْكونُ الرَّجُلُ - مثلَ المرّةِ السَّابِقَةِ - تركَ قُوْنِيَّةَ، أم أنّهم قتلوه وأخفّوا جَسَدَهُ. ومنذُ ذلكَ الوقتِ، ذُكِرتِ رواياتٌ مختلفةٌ في شأنِ هذه الغيبةِ المفاجئةِ.

في مدينة قُوْنِيَّةَ موضعُ سِرِّي يُعلَنُ بعدَ مُضيِّ قرونٍ أَنَّهُ يُسمَّى «مَقَامُ شَمْسٍ». ومن الوجهةِ العمليّةِ، يُطلَقُ اسمُ «المَقَامِ» على بناءٍ تذكاريٍّ يُبنى للتذكيرِ بالمشاهيرِ والعظماء، ويُنصبُ فيه صندوقٌ في صورةِ رمزيّة. وفي الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ كانونِ الثاني عامَ ١٩٥٥م، المطابقِ للرَّابِعِ والعشرينِ مِنْ شَهْرِ دِي عامَ ١٣٣٤هـ.ش، وبالاتفاقِ معِ نجاتي ألكين الذي تولّى مُساعدتي، ذهبتُ لزيارةِ «مَقَامِ شَمْسٍ». بعدَ الزيارةِ، ذهبتُ مِنْ زاويةِ البناءِ لتفتيشِ الصندوقِ الخشبيِّ الذي نُصِبَ في داخلِ السَّجادةِ الفاخرةِ، فتحَيَّناه بتحوطٍ كاملٍ لِكَيِ نَنظِفَ ونُصلِحَ السَّطْحَ الواقعَ تحتهِ، إن كان ذلكَ ضروريّاً. وبغتةً انتبهنا إلى أَنَّ قِسْماً مِنْ سَطْحِ الأرضِ تحتَ الصندوقِ قد غُطِّيَ بِالْأَوْاحِ خَشَبِيَّةِ. وعندما أزلنا بأيدينا الترابَ مِنْ فوقِ الألواحِ الخشبيّةِ، ظهرتْ لَنَا بَوَابَةٌ صغيرةٌ ... في عَهْدِ السَّلاجقةِ، فعليّاً، صُنِعَ صندوقُ خَشَبِيٍّ ونُصِبَ تحتَ القُبّةِ الأصليّةِ، إذ كانَ رَمَزيّاً، ودُفِنَ الجَسَدُ في مَخزَنِ أعمقَ جُعلَ تحتَ الصندوقِ. هذا النوعُ مِنَ المَخازِنِ كانَ، عمليّاً، يتَّصلُ بالخارجِ بوساطةِ دَرَجَةٍ. والأجسادُ التي كانتْ تُودَعُ في هذهِ المَخازِنِ كانتْ إمّا أَنْ تُدْفَنَ تحتَ الترابِ، وإمّا أَنْ تُحَنَطَ وتُتركَ في تابوتٍ [٣٧٢] ويُدفنَ التابوتُ تحتَ الترابِ.

يُدفنُ أئمةُ الدينِ وأشياخُ الطَّريقةِ دائماً في التُّرابِ، أمَّا الحاكِمونَ ورجالُ الدُّولِ فيوضعونَ في توابيتَ بعدَ تحنيطهم. ولأنَّ «المَقامَ» لم يَكُنْ يُبنى فوقَ جَسَدٍ، لا يوجدُ مخزَنٌ تحتَ الصَّنَدوقِ. وتأسيساً على ذلك، إذا وُجِدَ تحتَ الصَّنَدوقِ الخشبيِّ لـ «مَقامِ شَمْسٍ» مخزَنٌ، كان ذلكَ دليلاً على أنَّ جَسَدَ شَمْسٍ مدفونٌ في المكانِ عينه. وعندما قُلِعَتِ اللُّوحاتُ الخشبيَّةُ بمُساعدةِ قضيبٍ مِنَ الحديدِ، ظهرَ نَقْصٌ تُرابيٌّ مظلمٌ وضيقٌ يؤدي من خلالِ دَرَجاتٍ إلى مخزَنِ في الأسفلِ. وقد نَقِظَ عامِلُ تُرابِ النَّقْصِ والدَّرَجَاتِ، ثمَّ باستعمالِ مصباحٍ قويٍّ نَزَلنا مِنَ النَّقْصِ والدَّرَجِ. كان المشهَدُ الذي رأيناه مفاجئاً حتَّى إنَّ العَرَقَ تصبَّبَ على جَسَدِنا. كان أماننا مخزَنٌ بُني بالحجارة؛ وعلى مقربةٍ من جداره الجنوبيِّ كان يُرى قَبْرٌ، ارتفاعه ستونَ إلى سبعينَ سانتي متراً، بُني بالحجارة والطِّينِ. ويُرى جيِّداً أنَّ هذا القبرَ بُني فوقَ مَدْفَنٍ جَسَدٍ. وبَدَهِىَ أنَّنا ما كُنَّا قادِرِينَ على فَتْحِ القبرِ والبحثِ عن بقايا جَسَدِ شَمْسٍ. ذلكَ لأنَّ أَحْكامَ الإسلامِ المُبينِ، كانت تمنعُ نَبَشَ القبرِ. لكنَّه غداً مُسلِّماً عندنا أنَّ جثمانَ التَّبريزيِّ دُفِنَ في الموضعِ نفسه.

في كتاب «تحت القبة الخضراء»، يغرِضُ مُحَمَّدُ أُونْدِرُ كيفيةَ قَتْلِ شَمْسِ التَّبريزيِّ، وهو ما أثبتَّه أنا في الصفحات السابقة. ويُضيفُ: أنَّ مَوْلانا، الذي كان يسمَعُ صياحَ شَمْسٍ في اللَّيلةِ التي كانوا يهجمونَ عليه فيها، يخرجُ مِنَ الحُجرةِ، لكنَّه لا يَرى إلَّا قَطراتِ دَمٍ. ويعتقدُ المؤلِّفُ [مُحَمَّدُ أُونْدِرُ] أنَّ المخالفينَ، الذين كان منهم ابنُ مَوْلانا الأصغرُ علاءُ الدينِ، بعدَ قَتْلِهِم شَمْساً ألقوا جَسَدَه في بئرٍ مهجورةٍ قريبةٍ جدًّا. في ذلكَ الوَقْتِ، يذهبُ مَوْلانا إلى حُجرةِ ابنه الأكبرِ سُلطانٍ وكَد، ويطلبُ إليه أن يفتشَ عن شَمْسٍ. وفي ظَنِّ مُحَمَّدٍ أُونْدِرِ، أنَّ سُلطانَ وكَد عندما يخرجُ مِنَ البيتِ يَطلِّعُ مباشرةً

على جَلِيَّةِ الأَمْرِ، وَيَجِدُ مَحَلَّ القَبْرِ، وَرُبَّمَا بِمُسَاعَدَةِ قَاتِلِي شَمْسٍ يَسْتُرُونَ القَبْرَ فِي اللَّيْلَةِ نَفْسِهَا. ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مَوْلَانَا لَوِ اطَّلَعَ عَلَى قَتْلِ شَمْسٍ لَتَأَلَّمَ وَحَزَنَ كَثِيرًا. وَلِلْسَبَبِ نَفْسِهِ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ، يَقُولُ لِأَبِيهِ إِنَّ شَمْسًا غَادَرَ قُوْنِيَّةَ وَاخْتَفَى. وَإِنَّ سُلْطَانَ وَلَدَ، وَكَذَلِكَ الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ اشْتَرَكُوا فِي إِزْهَاقِ رُوحِ شَمْسٍ، ظَلُّوا حَتَّى نِهَايَاتِ حَيَوَاتِهِمْ يَكْتُمُونَ هَذَا السِّرَّ [٣٧٣]. مَوْلَانَا أَيْضًا، ظَلَّ لِسَنِينَ كَثِيرَةً يُنَمِّي فِي قَلْبِهِ أَمَلٌ عَوْدَةِ شَمْسٍ، وَيَنُوحُ لِإِفْرَاقِ مَطْلُوبِهِ وَمَعْشُوقِهِ الْهَارِبِ مِنَ الْإَلَمِ وَالْهَجْرِ، فِي قَالِبِ غَزَلِيَّاتِ «دِيَوَانِ شَمْسِ تَبْرِيزِ»، الَّتِي تَطْفَحُ هَيْجَانًا وَحَالًا وَوَجْدًا، وَيُنْضِي وَقْتَهُ فِي الدَّوْرَانِ وَالسَّمَاعِ، وَالتَّصْفِيقِ وَالرَّقْصِ.

أَيُوجَدُ مَزَارُ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ فِي قُونِيَّةَ؟

اكتشاف مزار شمس التبريزي من وجهة نظر المؤلف:

الأستاذ محمد أوندر، الذي تولى لِسِتَّ سنواتٍ (١٩٥٢ - ١٩٥٧م) رِياسَةَ المُنْتَخَفِ والمكتبة عند تربة مولانا، أوضح كَيْفِيَّةَ اكتشافِ مزارِ شمسٍ عَرَضًا، في كتابٍ عنوانُهُ «تَحْتَ القُبَّةِ الخَضْرَاءِ»، على نَحْوِ مُفَصَّلٍ. وَمِنْ جُمْلَةٍ ما قال في هذا الشَّانِ: إِنَّ الأستاذَ العالِيَّ المَقامَ المُحِيطَ خُبْرًا بِمَوْلانا عبد الباقي كُليينارلي، بَعْدَ مُشاهدته مدْفَنَ شمسٍ، اسْتَبَدَّ به الوجدُ، وأَيَّدَ الرَّأْيَ الكاشِفَ لِمَزارِ شمسٍ.

ويتمنى المؤلفُ أن يكونَ الأمرُ كَذَلِكَ، ولكنْ هناكَ مَسائِلُ أَنْصَوْرُ أَنَّها ضَرُورِيَّةٌ ومُثِيرَةٌ لِلنِّقاشِ وقابِلَةٌ لِلتَّامُّلِ عندَ مُجِيبِي صَاحِبِ «مَقالاتِ شمسٍ»، الذي يَقُولُ عَنْهُ مَوْلانا جَلالُ الدِّينِ: «لا غَرِيبَ في هذه الدُّنيا مِثْلُ شمسٍ».

١ - كَتَبَ السَّيِّدُ الدَّكْتُرُ أَبُو القاسمِ تَفْضُلِي، الذي تَرَجَّمَ أَقسامًا مِنْ مَحتوياتِ كتابِ «تَحْتَ القُبَّةِ الخَضْرَاءِ» إِلَى الفارسيَّةِ، يَقُولُ:

«... في القُرُونِ الخالِيَةِ، عَندَما كانَ مُريدو مَوْلانا ودَراوِشِ الطَّرِيقَةِ المولويَّةِ يَذهَبونَ إلى قُونِيَّةَ، كانوا يَروْنَ واجِبًا عَلَیْهِمْ - قَبْلَ أن يَذهَبوا لِزِيارَةِ تربة مَوْلانا - أن يَذهَبوا لِزِيارَةِ مَقامِ شمسٍ... وَعَلَى نَحْوِ ما كانَ الدَّكْتُرُ جَلالُ الدِّينِ چَلْبِي، الشَّيْخُ الحالِيُّ لِلْمولويَّةِ (انْتَقَلَ إلى رَحْمَتِهِ تَعَالَى مَئْذُ سَتَينَ)، الذي يَصِلُ نَسَبُهُ إلى حَضْرَةِ مَوْلانا بِواحدٍ وَعَشرينَ ظَهْرًا، يَقُولُ لي - أَيُّ لِسَيدِ تَفْضُلِي :- «كَلِّمًا سافَرَ إلى قُونِيَّةَ [٣٧٥] كانَ يَذهَبُ ابتداءً لِزِيارَةِ «مَقامِ شمسٍ»، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُسارِعُ لِزِيارَةِ ضَريحِ مَوْلانا».

وَإِذا كانَ التُّرْكُ يَعتَبِرونَ «المَقامَ» مَحَلَّ دَفَنِ الأَوْتادِ والأولياءِ، فَإِنَّه لَمْ يَتَحَقَّقْ

كُشِفَ جَدِيدٌ فِي ذَلِكَ الْمَحَلِّ، إِلَّا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْمَرَادَ مِنَ «الْمَقَامِ» حَالٌ فِي السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ، كَانَ فِي زَمَانِ الشَّيْخِ فَرِيدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ وَجَلَالِ الدِّينِ الْبُلْخِيِّ مَحَلَّ اهْتِمَامٍ كَبِيرٍ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمَشَائِخِ. وَكَانَ يَحْصُلُ لِشَمْسٍ فِي نَقْطَةٍ أَوْ مَوْضِعٍ مَشْهُورٍ، بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْأُخْرَى، حَالٌ وَمَقَامٌ، وَكَانَ لِرَإْمَا أَنْ يَخْبِرَ حَبِيبَهُ مَوْلَانَا بِالْحَادِثَةِ، أَوِ الْمَقَامِ الَّذِي كَانَ يَطْلُعُ عَلَيْهِ فِي سِيرِهِ وَسُلُوكِهِ. وَلِهَذَا السَّبَبُ، رُبَّمَا سُمِّيَ ذَلِكَ الْمَوْضِعُ بَعْدَ اخْتِفَاءِ شَمْسٍ «مَقَامَ شَمْسٍ»^(١).

٢ - لَا أَحَدَ مِنَ كُتَّابِ التَّذَاكُرِ فِي عَصْرِ مَوْلَانَا - أَيِ شَمْسِ الدِّينِ الْأَفْلَاكِيِّ وَسِبْهِنَسَالَارِ - كَتَبَ فِي أَثَرِهِ رَأْيًا فِي شَأْنِ قَتْلِ شَمْسٍ، حَتَّى عَلَى نَحْوِ مَبْهَمٍ. ذَكَرُوا فَقَطْ بِأَنَّ طَبَقَاتِ النَّاسِ الْمُخْتَلِفَةَ فِي الرُّومِ الشَّرْقِيَّةِ، وَعِلَاءَ الدِّينِ ابْنَ مَوْلَانَا الْأَصْغَرَ، كَانُوا مُعْتَرِضِينَ عَلَى إِقَامَةِ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ الْغَامِضِ التَّبْرِيزِيِّ فِي قُوْنِيَّةَ. وَسُلْطَانٌ وَلَدَ أَيْضًا فِي كِتَابِهِ «وَلَدُنَامَهُ» أَخْبَرَ فَقَطْ بِفِكْرَةِ اخْتِفَاءِ شَمْسٍ. وَحَتَّى بَعْدَ وَفَاةِ الْإِدَةِ لَمْ يَغْدُ مُسْتَعِدًّا لِأَنْ يَذْكُرَ فِي «مُتْنَوِيَّةٍ» شَيْئًا فِي شَأْنِ مَقَامِ شَمْسٍ.

٣ - أَخَالَفَ رَأْيَ الْأَسْتَاذِ مُحَمَّدٍ أُونْدَرِ، الَّذِي كَتَبَ فِي كِتَابِهِ «تَحْتَ الْقُبَّةِ الْخَضْرَاءِ» يَقُولُ: «إِنَّهُ بَعْدَ قَتْلِ شَمْسٍ بِأَيْدِي الْأَشْخَاصِ، الَّذِينَ كَانُوا مِنْهُمْ الْإِبْنُ الْأَصْغَرُ لِمَوْلَانَا أَيْضًا، أَلْقَوْا جَسَدَهُ سَرِيعًا فِي بَثْرِ مُعْطَلَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ مَنْزِلِ مَوْلَانَا، ثُمَّ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَبِمُوَافَقَةِ سُلْطَانٍ وَلَدَ، غَطُّوا فَوْهَةَ الْبَثْرِ بِالطِّينِ. وَحَصَلَ اتِّفَاقٌ بَيْنَ الْقَاتِلِينَ وَابْنِ مَوْلَانَا

١ - إِنَّ هَدَفَ الْعَارِفِينَ مِنْ صِنْفِ شَمْسٍ، الَّذِينَ هُمْ وَاقِفُونَ عَلَى دَقَائِقِ الطَّرِيقَةِ، هُوَ إِدْرَاكُ الْحَقِيقَةِ وَفِي الْأَصْلِ، الْعَارِفُ فِي تَقَاةِ الْمَشَائِخِ وَالْعَارِفِينَ هُوَ السَّالِكُ الَّذِي يُعْطِيهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ طَرِيقِ الْمَكَاشِفَةِ «مَقَامٍ» شَهْرِيَّ ذَاتِهِ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَإِنْ تَبَيَّنَ هَذَا الْمَهْدَفُ الْمُقَدَّسُ يَسْتَلْزِمُ تَحَمُّلَ الرِّيَاضَاتِ وَالْمَقَامَاتِ. وَقَدْ عَبَّرَ الشَّيْخُ فَرِيدُ الدِّينِ الْعَطَّارُ النَّيْسَابُورِيُّ عَنْ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ فِي مُتْنَوِيَّةِ «مَنْطِقِ الطَّيْرِ» بِسَبْعَةِ أَوْدِيَةٍ، هِيَ: الطَّلَبُ وَالْعَشْقُ وَالْمَعْرِفَةُ وَالِاسْتِغْنَاءُ وَالتَّوْحِيدُ وَالْحَيْرَةُ وَالْفَنَاءُ.

الأكبر على أن لا يُذكر شيءٌ عن هذه الواقعة لأيِّ شخصٍ، وتواصوا مؤكِّدينَ بأنَّه لا ينبغي أن يعلمَ مولانا أيضًا بهذه الفاجعة؛ لأنَّه ينزعجُ من ذلك كثيرًا، وستضطربُ حالته النفسية، وأعدُّ ذلك غيرَ منطقي، بعيدًا عن الصَّحة^(١). وإذا ما قبلنا فكرة أن جماعة من القسريين المتعصبين، [٣٧٦] وحتى طلابِ دارِ العِلْمِ الكُبرى في الرُّومِ الشرقيَّة، تصوَّروا شمسًا ضيفًا يلفُّهُ الغُموضُ، ومبتدعًا، وساحرًا ماهرًا، وكافرًا، حتى إنَّهم أعدَّوا خُطَّةً قتلَه مِن قَبْلِ على نَحْوِ دقيق، وعرفوا الأفرادَ المتطوِّعينَ المأمورينَ بإجراء هذه الفاجعة الدَّمويَّة، الذين كانوا يَعِدُّونَ الدَّقائِقَ في لَيْلَةِ الواقعةِ مترصِّدينَ لتنفيذِ العَمَلِ، [إذا ما وافقنا على ذلك كلِّه] عَلَيْنَا أن نقبلَ فكرةَ أنَّهم بعدَ تنفيذِ برنامجِ قتلِ شمسٍ لم يبقوا متفقيين، وأنَّهم انطلقوا فَرَحِينَ مَسْرورِينَ مشتاقين راقصين مُسرَّعينَ إلى محافلِ قُرُونِيَّةِ المختلفة، واستبدَّ بهم الفَرَحُ واضطربوا أيَّما اضطرابٍ، وبشَّروا بِقتلِ شمسٍ بِمُباهاةٍ ومُفاخرةٍ؛ ورُبَّما في اليومِ التالي زَيَّنوا المدينةَ بالأضواء، وورَّعوا النُّقْلَ وسكَّرَ النَّبَاتَ على النَّاسِ. ذلك لِأَنَّ خبرَ قتلِ شمسٍ لم يَكُنْ خبرًا عاديًّا لِكَي يظلَّ مَخْفِيًّا في عاصمةِ سلاطينِ السَّلاجقة عن فئاتِ النَّاسِ، خاصَّةً رِجالِ البَلاطِ وقادةِ الجيوش. والخُطباءُ والوُعاظُ من دُونِ أن يهتمَّوا بكلامِ هذا وذاك وبتوصيةِ ابنِ مولانا الأكبر، كانوا من فوقِ المنابرِ يُخبرونَ الأهالي جميعًا بأنَّ الشَّيْطَانَ الَّذِي لا يُذكرُ عَلَى اللِّسانِ والسَّاحِرَ المجهولَ، في النَّهاية، تضرَّجَ بِدَمِهِ. وَجَلالُ الدِّينِ البَلْخِي أيضًا كان مُطلِّعًا

١- جاء في كتاب «وَلَدَنامَه» ما يأتي:

على حينِ غِرةِ ضاعَ مِن بينِ الجميعِ	لِكَي يُزِيلَ مِن قَلْبِهِ الهمومَ كُلَّها
وعندما اختفى ليومٍ أو يومينِ	أخذَ مولانا يثْنُ مِنَ الأَمِّ
وبعدَ أن بحثوا عنه بجدِّ	وفتَّشوا كُلَّ ناحِيَةٍ وكلَّ بيتِ
لم يُعطِ أحدٌ أبدًا خبرًا عنه	ولم يَصِلْ إلى أحدٍ راحَةٌ منه، ولا أثرُ

على هذه الواقعة، مِنْ طَرِيقِ أَصْحَابِهِ أَوْ خَاصَّةِ أَهْلِهِ.

٤ - تَعَرَّفْتُ جَيِّدًا الْأُسْتَاذَ مُحَمَّدَ أُونْدِرَ الْمُحِيطَ خُبْرًا بِمَوْلَانَا، الَّذِي هُوَ شَخْصِيَّةٌ كَبِيرَةٌ صَاحِبَةٌ نَظَرٍ عِنْدَ الْأَتْرَاكِ، فِي الرَّحَلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ كَانَتَا لِي إِلَى قُونِيَّةَ، وَمِنْ خِلَالِ أَسَاتِذَةِ آخَرِينَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ مَا إِذَا كَانَ لَدَيْهِ - مَعَ كُلِّ عِلْمِهِ وَفَضْلِهِ - أَطْلَاعٌ دَقِيقٌ عَلَى عَالَمِ التَّصَوُّفِ النَّظَرِيِّ وَالْعَمَلِيِّ لِلْسَّالِكِينَ، الْمَوْلَوِيِّينَ خَاصَّةً، سِوَاكَ أَكَانَ ذَلِكَ فِي زَمَانِ شَمْسٍ التَّبْرِيزِيِّ أَمْ بَعْدَ وَفَاةِ مَوْلَانَا.

الْأُسْتَاذُ تَفَضَّلَنِي أَيْضًا لَمْ يَكْتُبْ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فِي هَذِهِ الْمَقُولَةِ. وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ أُونْدِرَ قَدْ طَالَعَ مِنْ وَجْهَةِ عِرْفَانِيَّةِ أَجْزَاءِ الْمَثْنَوِيِّ السَّتَّةِ، أَيْ دَائِرَةِ مَعَارِفِ التَّصَوُّفِ وَالْعِرْفَانِ، وَالذَّبَّوَانِ الْكَبِيرِ، أَيْ دَائِرَةِ مَعَارِفِ الْعِشْقِ، وَ«مَقَالَاتِ شَمْسٍ»، فَإِنَّهُ يُصَنَّفُ عِنْدَئِذٍ مَعَ الْأُسْتَاذِ بَدِيعِ الزَّمَانِ فُرُوزَانْقَرِ وَالْأُسْتَاذِ جَلَالِ الدِّينِ هُمَايِي وَالْعَلَامَةِ مُحَمَّدِ تَقِيِّ جَعْفَرِيِّ، الَّذِينَ يَقْرَوْنَ يَقِينًا [٣٧٧] الْقُدْرَاتِ الْخَارِقَةَ لِلْعَادَةِ لِمَوْلَانَا فِي فِضَاءَاتِ الرُّوحِ وَالْإِشْرَاقِ وَالْعَالَمِ الْبَاطِنِيِّ؛ مَوْلَانَا الَّذِي يَتِمَّتْ بِرُؤْيَا غَيْرِ عَادِيَّةٍ لِمَاهِيَةِ الْوُجُودِ وَعَالَمِ الْغَيْبِ، وَيَعْتَقِدُ بِضَرْبٍ مِنَ الْوَحْدَةِ الْكُلِّيَّةِ الْكُونِيَّةِ، مَوْلَانَا الصُّوفِيَّ الْمَخْلِصَ الَّذِي كَانَ يَنْظِمُ مَبَاشَرَةً مَا كَانَ يُحِسُّ بِهِ فِي عَالَمِ إلهَامَاتِهِ، وَكَانَ يُؤْمِنُ بِالْذُّعَاءَيْنِ: صَلَاةِ الْإِشْرَاقِ وَدُعَاءِ الْعُشَاقِ. وَفِي هَذَا الشَّأْنِ قَالَ:

فَالْهَوَاءُ وَالتَّرَابُ وَالْمَاءُ وَالنَّارُ مِنْ عِبَادِهِ،

وَهَذِهِ تَبْدُو مَبْتَدَأَ لِي وَلَكَ، أَمَّا عِنْدَ الْحَقِّ فَهِيَ حَبَّةٌ

وَلَا كُلَّ ذَرَاتِ الْعَالَمِ، فِي الْخَفَاءِ،

تَقُولُ لَكَ نَهَارًا وَلَيْلًا:

نَحْنُ سَمِيعُونَ وَبَصِيرُونَ وَمَسْرُورُونَ

لَكُنَّا مَعَكُمْ، يَا مَنْ لَمْ يُسَمَّحْ لَكُمْ بِالْأَسْرَارِ، صَامِتُونَ

فَانْضُوا مِنَ الْجَمَادِ إِلَى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ

لِكَيْ تَسْمَعُوا ضَجِيجَ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ^(١)

فلا ينبغي أن يكون مولانا غير ذي علم بهذه الواقعة الدّموية التي وقعت بقرب منزله، وهو الصوفي المخلص المؤمن المعتقد، الذي يؤمن بأنّ الصّوفيّة في حال المراقبة يحصلون على الإشراف على بواطن أحيائهم، وعندما يبلغون درجة الكمال يقرؤون المكتوب في النفس من دون لفظ. وفي هذا المعنى يقول:

فَمَا الْأَلْفَاظُ حَتَّى تَفْكَرَ فِيهَا

ما الألفاظ؟ - إنها أشواك حائط الكرم

فَلَا ضَرْبَ نِ الْحَرْفِ وَالْكَلَامِ وَالصَّوْتِ

حَتَّى أَتَكَلَّمَ مَعَكَ مِنْ دُونِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ^(٢)

أيمكن أن يكون غير مطلع على هذا الذي حدث لشمس، أي شمسه، حبيبه؟ - ثم يمتدّ عدّم الاطلاع هذا لعشرات السنوات؟

٥ - الأستاذ محمد أوندير يدرك تمامًا أنه في عصر مولانا كان السّفَر من قونية إلى دِمَشق، بسبب البُعد وصُعوبة المسالك، يمتدّ لأسابيع، ولا يحصل بسهولة. ومع ذلك،

١ - المثنوي: ٨٤٢/١، ١٠١٧/٣ وما بعد.

٢ - المثنوي: ١٧٣٧/١ - ٤٠.

يَقْبَلُ مَوْلَانَا الْمُعْنَى الْمَمْتَلُؤُ الْقَلْبَ الْمَا وَحُزْنًا أَنْ يُسَافِرَ إِلَى دِمَشْقَ مَرَّتَيْنِ بِمَحَبَّةٍ وَرِضَا خَاطِرٍ، مُتَحَمِّلًا وَعَنَاءَ هَذَا السَّفَرِ الْبَعِيدِ الْمَتَطَاوِلِ الْمَمْلُوءِ بِالْمَشَقَّةِ. وَالسُّؤَالُ هُوَ: أَلَا يَجِبُ عَلَى أَصْحَابِهِ وَمُرِيدِهِ وَخُلَفَاءِ مَدْرَسَتِهِ، مِنْ وَجْهَةِ اخْتِلَافِيَّةٍ، أَنْ يَقُولُوا لَهُ: أَيُّ مَوْلَانَا، الْحَبِيبِ فِي الْبَيْتِ وَأَنْتَ تَدُورُ حَوْلَ الْعَالَمِ!، شَمْسٌ قُتِلَ وَهُوَ مَدْفُونٌ فِي قُوْنِيَّةَ فِي مَوْضِعٍ كَذَا... وَأَنْتَ مِنْ دُونِ طَائِلٍ تُوَطَّنُ نَفْسَكَ عَلَى تَحْمِيلِ السَّفَرِ؟

٦. ما جاء في كُتُبِ التَّدَاكِرِ، وَأَقْرَبَهُ الْأَسْتَاذُ بَدِيعُ الزَّمَانِ قُرُونًا فَرُوزَانْفَرٍ أَيْضًا وَأَثْبَتَهُ فِي كِتَابِهِ الرَّائِعِ «رِسَالَةٌ فِي تَحْقِيقِ أَحْوَالِ مَوْلَانَا»^(*)، مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَمَا امْتَدَّ السَّفَرُ الثَّانِي لَجَلَالِ الدِّينِ الْبَلُخِي إِلَى دِمَشْقَ، مِنْ أَجْلِ لِقَاءِ شَمْسٍ، لِأَشْهُرٍ [٣٧٨] طَلَبَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ الْفُضَلَاءِ وَالْعُلَمَاءِ فِي قُوْنِيَّةَ إِلَى السُّلْطَانِ السَّلْجُوقِيِّ أَنْ يَرْسِلَ عِدَدًا مِنْ مِمَثْلِي الْبَلَاطِ إِلَى دِمَشْقَ لِإِرْجَاعِ مَوْلَانَا إِلَى قُوْنِيَّةَ. وَقَدْ وَافَقَ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَرْسَلَ عِدَدًا مِنْ رِجَالِ الْبَلَاطِ إِلَى دِمَشْقَ. وَالسُّؤَالُ هُوَ: هَلِ السُّلْطَانُ السَّلْجُوقِيُّ أَيْضًا بَعْدَ انْقِضَاءِ أَشْهُرٍ عَلَى اخْتِفَاءِ شَمْسٍ لَمْ يَعْلَمْ بِضُرُورَةِ أَنْ يُعْلِمَ الْفَقِيهَ غَيْرَ الْمَنَازِعَ وَرِئِيسَ دَارِ الْعِلْمِ فِي قُوْنِيَّةَ بِحَقَائِقِ قَتْلِ شَمْسٍ، بِطَرِيقِ مِمَثْلِيهِ الَّذِينَ أُرْسِلُوا، وَيُخْبِرَ مَوْلَانَا بِمَا حَصَلَ لِمُرَادِهِ، وَيُعْلِنَ مَرَّاسِمَ تَعَاذِي الْبَلَاطِ وَالنَّاسِ الْمَعَزِينَ فِي قُوْنِيَّةَ، مِنْ أَجْلِ التَّخْفِيفِ عَلَى مَوْلَانَا؟

٧. مِثْلَمَا ذَكَرْتُ فِي الصَّفَحَاتِ السَّابِقَةِ، تَعْتَمِدُ أَصُولُ طَرِيقَةِ شَمْسٍ وَمَوْلَانَا عَلَى أَاسَاسِ الْمُبَاحِثِ الرُّوحِيَّةِ وَمَعْرِفَةِ النَّفْسِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَسْرَارِ، وَالْمَكَاشِفَةِ

* - تَرْجَمْنَا هَذَا الْكِتَابَ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، وَصَدَرَتِ التَّرْجُمَةُ عَنْ دَارِ الْفِكْرِ فِي دِمَشْقَ عَامَ ٢٠٠٦م، بِعِنَاوَانِ: «مِنْ بَلْعٍ إِلَى قُوْنِيَّةَ» [الْمُتَرَجِمُ].

والشهود، وعلى أن ما يوصل السالك المتعجل إلى مقصده هو أنه لا يخشى الحادثات والنائبات، لا يخشى الموت والقتل العسقي والعرفاني.

وفي اعتقاد مولانا أن عاشقاً صادقاً مؤمناً مُخلصاً، مثل شمس التبريزي، عندما وصل إلى منزل العشق كان مثل قطرة سقطت في البحر، أو مثل ذرة ترقص في الشمس المضيفة للعالم على الدوام، أو مثل الجزء الذي يفنى في الكل. وكثيراً ما كرر مولانا وشمس جهاراً: نحنُ عاشقان مُغرمان؛ لأننا رأينا فيه [العشق] الحقيقة ونراها.

في الرحلة الثانية لمولانا الذي مضى إلى دمشق للبحث عن كنزه المغنوي، الذي كان لديه رؤية للعالم خارقة للعادة، أدرك من طريق سحر العشق وإكسير الشهود وبكل فراسته وإدرايته أن مراده ظفر بروضة وزد وصال «وإنّا إليه راجعون» (*). ولهذا السبب، استعاد هدوءه، وأمر أصحابه بالاستعداد للرحيل إلى قونية، وقال: قبل وفاة شمس كنت أرى نفسي في شخص شمس، أما الآن فأشاهدُ شمساً في نفسي. واعلموا الآن أنه في كل شعرة من شعر رأسي هناك شمس معلقة. ثم ألا يمكن أن نستخلص من الغزل الآتي الذي جاء في ديوان شمس، أن شمساً، أو عالم المعاني عند الرومي، تلعق بيقاب التراب المظلم؟ وإذا كان مصدقاً بأنه قتل في قونية بأيدي المعاندين، فهل [٣٧٩] أنشد هذه الأشعار في شأن ترجمان الحق:

عَجَبًا، ذلِكَ المَعشوقُ الجميلُ أين صار،

عَجَبًا، ذلِكَ السَّروِيُّ القَدُّ أين صار؟

* - يريد: لقي وجهه ربّه، سبحانه، وهو في مرتبة النفس المطمئنة التي يُناديها المولى سبحانه: «أرجعْ إلّ ربِّك راجعاً مَّهيَّئاً» [الترجم].

كَإِنْ بَيْنَنَا كَالشَّمْعِ يَنْشُرُ النُّورَ
 فَأَيْنَ صَارَ، وَاعْجَبَا! مِنْ دُونِنَا أَيْنَ صَارَ؟
 إِنَّ قَلْبِي يَهْتَزُّ كَالْوَرَقِ كُلِّ يَوْمٍ [مُتَسَائِلًا]:
 الْمَعشُوقُ، فِي مُتَصَفِّ اللَّيْلِ، وَحِيدًا أَيْنَ صَارَ؟
 فَاذْهَبْ إِلَى الْبُسْتَانِ، وَأَسْأَلِ الْبُسْتَانِيَّ
 عَنْ ذَلِكَ الشَّيْبِ بِغُضَنِ الْوَرْدِ الْجَمِيلِ: أَيْنَ صَارَ؟
 أَهَيْمٌ فِي الصَّحَرَاءِ كَالْمَجْنُونِ [مُتَسَائِلًا]:
 ذَلِكَ الْغَزَالُ، فِي هَذِهِ الصَّحَرَاءِ، أَيْنَ صَارَ؟
 هَا قَدْ صَارَتْ عَيْنَايَ كَنَهْرٍ جَيْحُونَ مِنَ الْبُكَاءِ [مُتَسَائِلَتَيْنِ]:
 ذَلِكَ الْجَوْهَرُ، فِي هَذَا الْبَحْرِ، أَيْنَ صَارَ؟
 وَإِنِّي أَسْأَلُ الْقَمَرَ وَالزُّهْرَةَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ:
 ذَلِكَ الَّذِي وَجْهُهُ كَالْقَمَرِ فَوْقَ هَذَا الْمَرْتَفَعِ، أَيْنَ صَارَ؟
 فَإِذَا كَانَ لَنَا، فَكَيْفَ يَكُونُ مَعَ الْآخَرِينَ؟
 وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَا، هُنَاكَ أَيْنَ صَارَ؟
 وَإِذَا كَانَ قَلْبُهُ وَرُوحُهُ مُتَّصِلَيْنِ بِاللَّهِ
 حِينَ غَابَ هَذَا الْمَاءُ وَهَذَا الطِّينُ، أَيْنَ صَارَ؟
 فَقُلْ بِصَرَاحَةٍ: شَمْسُ الَّذِينَ التَّبَرَّيْزِي
 حِينَ قَالَ: «الشَّمْسُ لَا تَخْفَى» أَيْنَ صَارَ؟^(١)
 أَوْ هَلْ فِي قُوْنِيَّةَ، فِي إِحْدَى لِيَالِي السَّمَاعِ إِذْ سَحَرَهُ تَذَكُّرُ شَمْسٍ، قَالَ هَكَذَا:
 هَذَا الْأَجَلُ أَصَمُّ، لَا يَسْمَعُ الْأَنِينَ

وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَبَكِيَ دَمًا، مِنْ دَمِ الْكَبِيدِ
 وَجَلَّادُ الْمَوْتِ هَذَا لَا قَلْبَ لَدَيْهِ الْبَتَّةَ
 وَلَوْ كَانَ قَلْبُهُ مِنْ حَجَرٍ لَبَكِيَ
 وَقَدْ رَحَلَ شَمْسُ التَّبْرِيزِيِّ، فَأَيْنَ الْإِنْسَانُ

لَكَيْ يَبْكِي عَلَى ذَلِكَ الَّذِي هُوَ فَخْرُ الْبَشَرِ؟^(١)
 وههنا آسفٌ أن أذكر - من أجل مزيد إطلاع الأستاذ محمد أوندر - رواية
 الأفلاكي وتفسير سلطان ولد المنظوم، ليتذكرهما:

ذكر الأفلاكي في شرح السفر الثاني لمولانا في كتابه «مناقب العارفين» قوله: «مع
 أن حضرة مولانا لم يظفر بشمس الدين من جهة الصورة والظاهر في دمشق، وجد من
 جهة المعنى عظمته وأشياء أخر في نفسه وداخله»^(٢).

وهذه المقولة نقرأها في أشعار سلطان ولد في «مثنوى ولدي» على هذا النحو:
 «في بيان أنه مع أن مولانا - قدسنا الله بصره العزيز - لم يجد شمس الدين التبريزي -
 عظم الله ذكره - في الصورة، في دمشق، وجدّه في المعنى في نفسه؛ لأنّ تلك الحال التي
 كانت لشمس الدين حصلت هي نفسها لحضرته:

لَمْ يَرِ شَمْسَ تَبْرِيزَ فِي الشَّامِ
 بَلْ رَأَى فِي نَفْسِهِ ظَاهِرًا كَالْقَمَرِ
 فقال: مع أننا في الجسد بعيدون عنه،
 من دون الجسد والروح، نحن كِلانا نورٌ واحدٌ

١ - ديوان شمس تبريز: الغزلية ٢٨٩٤.

٢ - مناقب العارفين، ص ٦٩٩.

فَانْظُرْ إِلَيْهِ إِنْ شِئْتَ، أَوْ انْظُرْ إِلَيَّ
 فَأَنَا هُوَ، وَهُوَ أَنَا، أَيُّهَا الْبَاحِثُ
 قَالَ: عِنْدَمَا أَكُونُ أَنَا إِيَّاهُ، لِمَاذَا أَبْحَثُ عَنْهُ؟
 أَنَا عَيْنُهُ، أَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِي
 [٣٨٠] كُنْتُ، يَقِينًا، أَبْحَثُ عَنْ نَفْسِي
 كَالْخَمْرَةِ النَّسِي تَجِيْشُ فِي الدَّنِّ
 فَالْخَمْرَةُ لَا تَجِيْشُ مِنْ أَجْلِ أَحَدٍ
 بَلْ تَسْعَى طَالِبَةً حُسْنَهَا وَجَمَالَهَا
 وَقَالَ: شَمْسُ الدِّينِ الَّذِي كُنَّا نَتَحَدَّثُ عَنْهُ
 عَادَ إِلَيْنَا، فَلِمَاذَا نَحْنُ نَائِمُونَ؟
 وَقَدْ أَبْدَلَ لِيَّاسَهُ، وَجَاءَ

لِكَيْ يُظْهِرَ جَمَالَه وَيَتَبَخَّرَ (١)
 وَقَدْ ذَكَرَ الْأَسْتَاذُ الذَّكَرُ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ مُوَحِّدٌ فِي مَقْدَمَتِهِ لـ «مَقَالَاتِ شَمْسِ تَبْرِيزِي»
 فِي هَذَا الشَّأْنِ قَوْلَهُ:

«... إِنَّ مَوْلَانَا، تَبَعًا لِمَشْرِبِ التَّصَوُّفِ، يَرَى الْأَوْلِيَاءَ مَظَاهِرَ لِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، تَظْهَرُ
 فِي أَدْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي قَوَالِبِ مُتَبَايِنَةٍ، حِينَ فِي صُورَةِ نُوحٍ، وَحِينَ فِي صُورَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَحِينَ
 فِي صُورَةِ مُوسَى، وَعِيسَى، وَغَيْرِهِمْ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ (٢):

ذَلِكُمُ الْمُرْتَدِي قَبَاءَ أَحْمَرَ، الَّذِي طَلَعَ السَّنَةُ الْمَاضِيَةُ
 طَلَعَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ مُرْتَدِيًا خِرْقَةً زَرْقَاءَ

١- وَلَدْنَامَهُ، ص ٦٠-٦٤.

٢- مِنْ مَقْدَمَةِ «مَقَالَاتِ شَمْسِ تَبْرِيزِي»، ص ٢٩.

ذَلِكُمْ هُوَ الْحَيِّبُ عَيْنُهُ، وَإِنْ تَغَيَّرَ لِبَاسُهُ
فَقَدْ مَرَّقَ ذَلِكَ الرِّدَاءَ، وَطَلَعَ مَرَّةً أُخْرَى
فَإِذَا صَوَّبَتِ الشَّمْسُ لِلْفُرُوبِ فَلَيْسَ ذَاكَ فَنَاءً لَهَا

فَقَدْ طَلَعَ ذَلِكَ الَّذِي هُوَ قَمَرُ الْأَنْوَارِ مِنْ بُرْجِ آخِرٍ^(١)
إِنَّ هَدَفَ الابْنِ الْأَكْبَرِ لَمَوْلَانَا مِمَّا يَقُولُهُ، هُوَ أَنَّ وَالِدَهُ الْكَبِيرَ كَانَ يَحْسُ بِشَمْسٍ
فِي وَجُودِهِ. وَيَعْنِي هَذَا أَنَّهُ كَانَ يُشَاهِدُ مَعْنَى سُلْطَانِ الْمَعْشُوقِينَ وَحَقِيقَتَهُ فِي نَفْسِهِ.
إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ، كَانَ كَلَامُهُ كَلَامَ شَمْسٍ، وَكَانَتْ آرَاءُ شَمْسٍ آرَاءَهُ...^(٢) .. أَضَاعَ
مَوْلَانَا «أَنَّهُ» وَصَارَ عَيْنَ شَمْسٍ، فَإِذَا أَنْشَدَ شِعْرًا رَأَى شَمْسًا فِي كُلِّ كَلِمَاتِهِ
وَمَصَارِيْعِهِ:

لِأَتْنِي خَيْرَانُ وَمَنْدَهْشُ مِنْ لِقَائِكَ صِرْتُ كَخَبَالٍ مِنْ خَيَالَاتِكَ
وَإِنْ فِكْرِي وَنَصُورِي مِنْ رُوحِكَ فَكَانَتِي الْفَاطُكُ وَعِبَارَاتُكَ^(٣)

نَظَّمَ مَوْلَانَا فِي الْمَثْنَوِيِّ بَحْثًا كَامِلًا وَمُهِمًّا فِي شَأْنِ مُعْجَزَةِ الْعِشْقِ وَمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ
الْكَامِلِ. وَكَتَبَ الْمَرْحُومُ الْأَسَازُ جَلَالَ الدِّينِ هُمَائِي فِي تَفْسِيرِ أَشْعَارِ مَوْلَانَا، فِي مَوْضُوعِ
مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ، قَوْلَهُ: «كَمَا أَنَّ مَعْرِفَةَ طَرِيقِ الْحَقِّ وَتَمْيِيزَهُ مِنْ طُرُقِ الْبَاطِلِ أَمْرٌ
عَسِيرٌ مُشْكِلٌ لَا تُحَلَّ عُقْدَتُهُ إِلَّا بِمَدَدِ النُّصْرَةِ وَالْهُدَايَةِ الْإِلَهِيَةِ [٣٨١]، تَكُونُ مَعْرِفَةُ

١- ديوان شمس تبريز: الغزلية ٦٤٠.

٢- قال مَوْلَانَا:

نَحْنُ أَحْيَاءُ بِنُورِ الْكِبْرِيَاءِ غُرَبَاءُ، لَكِنَّا مَعْرُوفُونَ جَدًّا
شَمْسُ تَبْرِيزٍ فِي ذَاتِهِ ذُرِّيَّةٌ وَنَحْنُ مَوْجُودُونَ بِالْحُسْنِ وَالنَّظْفِ
إِنْ نَحْنُ نَحْسُ شَمْسِ تَبْرِيزٍ وَفِي التَّخَوُّ لَا يَكُونُ هُوَ لَا نَكُونُ نَحْنُ

٣- ديوان شمس تبريز: الغزلية ١٦٨٤.

الإنسان الكامل، وتمييز أولياء الحق من المدعين أهل الباطل، أيضًا من المراحل الصعبة والخطرة جدًا في السير والسلوك... أما مولانا فإنه من أجل النجاة من هذين الطريقين المملوءين بالآفات يقدم ضابطًا كليًا ومضباحًا هاديًا^(١)، على هذا النحو:

إِنَّ عَمَلَ الرَّجَالِ نُورٌ وَخَرَارَةٌ

وَأَمَّا عَمَلُ الْأَخْسَاءِ الدُّونِ فَاحْتِبَالٌ وَتَوَاقُحٌ

إِنَّ شَرَابَ الْحَقِّ خِتَامُهُ الْمِسْكُ الْمَصْفَى

وَأَمَّا الْخَمْرُ فَخِتَامُهَا النَّتْنُ وَالْعَذَابُ^(٢)

ويجعل جلال الدين البلخي النكرة التبريزي: «مَفْخَرُ الْآفَاقِ»، و«الرُّوحَ الْمُصَوَّرَ»،

و«أَصْلَ الْوُجُودِ وَالْإِبْجَادِ» و«شَمْسَ الْعَالَمِ»، ورواية ابنه سلطان وكّد:

الْخَضِرُ عِنْدَهُ شَمْسُ التَّبْرِيزِي ذَلِكُمُ الَّذِي إِذَا مَارَجَتْهُ وَخَالَطَتْهُ

لَمْ تَشْتَرِ أَحَدًا، أَبَا كَانَ، بِحَبَّةِ شَعِيرٍ وَمَزَقَتْ حُجُبَ الظُّلَامِ

ذَلِكَ الَّذِي كَانَ مَسْتَوْرًا عَنِ الْمَسْتَوْرِينَ الَّذِي كَانَ الْعَقْلَ لِجُمْلَةِ الْوَاصِلِينَ^(٣)

والأستاذ هُمائي في كتابه «مولوى نامه» ذكر، وأعلن أن مولانا من المضطّفين

الخاصين للحق تعالى، وينسب له مقامًا مساويًا تمامًا لمقام شمس التبريزي.

١- يعتقد جلال الدين البلخي أنه لا يخلو عصرُ زمانٍ من حُجَّةٍ وجودِ أولياءِ رجالِ الله «فَلِكُلِّ دَوْرٍ وَلِيٌّ قَائِمٌ»:

كُلُّ مَنْ تَرَاهُ وَرَيْدِي الْوَجْهِ مِنَ الْكُوثر هُوَ مُحَمَّدِي الطَّنِيعِ، فَكَتَسِبَ مِنْهُ الْعَادَاتِ الطَّيِّبَةِ

وهو مثلُ الثَّورِ، وَالْعَقْلُ عِنْدَهُ مِثْلُ جَبْرِيلَ وَالْوَلِيُّ الَّذِي هُوَ أَدْنَى دَرَجَةٍ مِنْهُ كَالْقَنْدِيلِ، يَسْتَمِدُّ مِنْهُ النُّورَ

وَمَنْ هُوَ أَقْلٌ مِنْ هَذَا الْقَنْدِيلِ هُوَ مِشْكَائُنَا وَلِلْأَنْوَارِ دَرَجَاتٌ فِي مَرَاتِبِهَا

(الْمَثْنَوِي: ٨٢٢/٢ وما بعد)

٢- الْمَثْنَوِي: ٣٢٧/١، ٣٢٤.

٣- مَثْنَوِي وَلَدْنَامَهُ، تَحْقِيقُ الْأَسَازِ جَلَالِ الدِّينِ هُمَائِي، ص ٤٢.

وباعتراف كثير من المشايخ والعارفين، أنَّ هذا العاشق وهذا المعشوق المُخلِصينِ
المعتقدينِ قد وصلَا في السَّير والسلوك بقيناً إلى مقام «حقِّ اليقين» فكيف يمكنُ
تصديقُ أنَّ مولانا، مع أنَّه في هجرانِ شمسٍ كان يعيشُ في حالٍ من هيجانِ العشقِ
والسُّكرِ والاستغراقِ الدائم، لم يكنُ قادراً على الاطلاع على قتل مُرادِه في قُوْنِيَّة؟

وبناءً على ذلك، ومُراعاةً للأُمور السابقة، أقولُ جازماً للأستاذ الدكتور تَفْضُّلي -
الذي تَلَطَّفَ بِسَعَةِ صَدْرِ فَقْدَمٍ لي ترجمةً لِقِسْمٍ من كتاب «تَحْتَ القُبَّةِ الخَضراءِ»،
للعالم المحترم الأستاذ مُحَمَّد أُونْدِر، ووافقَ بِرِضا خَاطِرٍ على أن أنشرَه -: في الطَّبعة
الثانية لهذا الكتاب، سَأَبَيِّنُ تفصيلاً أنَّه: لا «مَقَامُ شَمْسٍ»، ولا مَرَارُ شَمْسٍ، المجاورُ
لِضَرِيحِ مَوْلانا، هو مَدْفَنُ الشَّيخِ التَّبْرِيزِيِّ. [٣٨٢] وإذا كان الأمرُ كذلك، فلا شكَّ في
أنَّه بَعْدَ وفاةِ مَوْلانا، تَرَكَ صَلَاحُ الدِّينِ زَرْكُوب، أو حُسَامُ الدِّينِ جَلْبِي، أو شَخْصٌ
آخَرُ مِنْ أَقْطَابِ المُولَوِيَّةِ في القُرُونِ المَاضِيَةِ، كِتَابَةً أو لَوْحاً بِقُرْبِ مَدْفَنِ شَمْسٍ؛ لِكَي
يُخَلِّصَ الأَجْيَالَ اللَّاحِقَةَ مِنَ الشَّكِّ والتردُّدِ والخيالِ والظنِّ الذي لا أساسَ له في هذا
الشَّأن. والسَّوَالُ هو: أينَ إذا مَرَارُ ذَلِكَ الشَّخْصِ الذي لم يَكُنْ يَجِدُ فضاءً يَتَسَّعُ
لِنُبُوغِهِ وفِراسَتِهِ في ميدانِ العِرفانِ إلَّا في قُوْنِيَّة؟

فَمِنْ الخَيْرِ أن تَبَحُّثُوا عن مَرَارِ العارِفِ، الذي تَمَتَّعَ بِكُلِّ هذه الغَرَابَةِ في الطَّبْعِ، في

البَيْتِ الآتِي:

بَعْدَ الوَفَاةِ، لا تَبَحُّثُ عن قَبْرِنا في الأرضِ

إِنَّ مَرَارَنا في صُدُورِ العارِفِينَ

i

100

مصادرُ الكتاب ومراجعُه

- تاريخ ادبيات ايران، تأليف إدوارد براون (بالإنكليزية)، ترجمة فارسيّة بعناية علي باشا صالح.

- تاريخ ادبيات ايران، تأليف دكتور رضا زاده شفق.

- تاريخ ادبيات ايران، تأليف هِرْمَنْ إِنْه (بالألمانيّة)، ترجمة فارسيّة بعناية دكتور رضا زاده شفق.

- تاريخ ادبيات در ايران (ثلاثة أجزاء)، تأليف دكتور ذبيح الله صفا.

- تاريخ فلسفه اسلام، بعناية م. شريف.

- جستجو در تصوّف ايران، تأليف دكتور عبد الحسين زرّين كوب.

- چشمه روشن - دیدار باشاعران، تأليف دكتور غلامحسين يوسفی.

- دیوان شمس تبریزی، بتحقيق الأستاذ بدیع الزمان فروزانفر.

- دیوان شمس تبریزی، بعناية الأستاذ جلال الدّین هُمائي.

- رساله سپهسالار، در مناقب حضرت خداوندگار، تأليف فريدون بن أحمد سپهسالار.

- رساله عشق، الإمام الغزالي، ترجمة فارسيّة بعناية إيرج أفشار.

- رساله ولدنامه، تأليف بهاء الدّين وُلْد.

- سخنان پير هرات، تأليف خواجه عبد الله أنصاريّ.

- سوانح العشاق، تأليف عين القضاة الهمذانيّ.

- شرح احوال وزندگانى مولانا جلال الدّين محمد بلخي، تأليف الأستاذ بدیع

الزمان فروزانفر.

- شرح مثنوی شریف، تألیف الأستاذ بدیع الزمان فروزانفر.
- عرفانِ مولوی، تألیف دکتر خلیفه عبد الحکیم (بالإنكليزية)، ترجمة فارسیّة بعناية أحمد محمّدي وأحمد مير علي.
- فرهنگ اشعار حافظ، تألیف دکتر أحمد علي رجائي بخارائي.
- فرهنگ لغات وتعبيرات عرفاني، تألیف دکتر سيّد جعفر سجّادي.
- فيه ما فيه، تألیف جلال الدين محمد بلخي، بتحقيق محمّد جواد شريعت.
- گزيده ديوان شمس تبريزي بامقدمه، الأستاذ الدكتور محمّد رضا شفيعي كذکني.
- لوايح، تألیف عبد الرحمن جامي.
- لوايح، تألیف عين القضاة الهمداني.
- مثنوی جلال الدين محمّد بلخي، طبعة علاء الدولة.
- مثنوی جلال الدين محمّد بلخي، بتحقيق رينولد ألين نيكلسون.
- مجموعه آثار فارسی شيخ شهاب الدين سُهرَوَرْدِي، بتحقيق دکتر سيّد حسين نصر، وهنري كوربن (المستشرق الفرنسي).
- مقالات شمس تبريزي، بتحقيق دکتر محمّد علي موحد.
- مقدمه رومي وتفسير مثنوی، تألیف رينولد ألين نيكلسون (بالإنكليزية)، ترجمة فارسیّة بعناية أوانيس أوانيسيان.

بَحْثًا عَنْ

مِنْ قُونِيَّةٍ
(جَلالُ الدِّينِ الرَّومِيِّ)

أَفَّهَ بِالْفَارْسِيَّةِ

تَرْجَمَهُ إِلَى
أ.د. عَيْسَى

تَفْصِيلًا

لِلدِّرَاسَاتِ

بَحْثًا عَنْ

مِنْ قُونِيَّةٍ إِلَى دِمَشْقٍ
(جَلالُ الدِّينِ الرَّومِيِّ وَشَيْخُهُ شَمْسُ تَبْرِيزِي)

تَرْجَمَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَقَدَّمَ لَهُ
أ.د. عَيْسَى عَلِيَّ الْعَاكُوبَ



ة والفِكْرِيَّة الخاصَّة التي نشأت
٦٧هـ). ومُرْشِدِهِ شَمْسُ الدِّينِ
رُومِيٍّ فَقِيمًا حَنْفِيًّا ذَا شَأْنٍ فِي
ةً سَلاجِقَةَ الرُّومِ، وَكَانَ يَدْرُسُ
لِحَدِيثِ وَالْمُبَاحِثِ الْمُتَّصِلَةِ بِهَا،
قَائِمًا شَمْسًا التَّبْرِيزِيَّ عَاشَ حَالًا
مُخْتَلَفًا تَمَامًا عَنِ النَّهْجِ الَّذِي
حَيَاتِهِ أَنَّهُ تَعَلَّقَ بِشَمْسِ التَّبْرِيزِيَّ
مَا أَنْتَجَهُ مِنَ الشَّعْرِ مَا أَنْتَجَهُ
تَلَفُّعًا بِغِلَالَةٍ مِنَ الْإِبْهَامِ، كَانَ

مَا زَالَتْ أَقْلَامُ الْكَاتِبِينَ فِي الشَّرْقِ
الْعَمِيقِ وَالْوَاسِعِ الَّذِي قَدَّمَهُ
لِي نَحْوُ يَكُونُ فِيهِ جَلالُ الدِّينِ

عيسى العاكوب

